

BOBST LIBRARY  
3 1142 01158 9614



NEW YORK  
UNIVERSITY  
LIBRARIES

GENERAL UNIVERSITY  
LIBRARY

54 F

DATE DUE

NEW YORK UNIVERSITY  
BOBST LIBRARY

DEC 13 1985

70 WASHINGTON ST.  
NEW YORK, N.Y. 10012

m

# تاريخ الإسلام السياسي

والديني والثقافي والاجتماعي

الجزء الثالث

v. 3

## العصر العباسي الثاني

في الشرق ومصر والمغرب والأندلس  
من عهد المتوكل إلى قيام الدولة السلجوقية  
( ٢٣٢ - ٤٤٧ هـ = ٨٤٧ - ١٠٥٥ م )

Hasan, Hasan Ibrāhīm  
تأليف

حسن إبراهيم

أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة فؤاد الأول  
D. Litt. (Cairo), Ph.D., D.Lit. (London).

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا - تليفون ٥١٣٩٤

[1946]

مطبعة الامانة بشارع حسن لانه بصره لصاحبها محمد انصاري

Near East

DS

223

.H34

v. 3

c. 1

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة الكتاب

يسرني أن أقدم إلى قراء العربية الجزء الثالث من كتابي ، «تاريخ الإسلام : السياسي والديني والثقافي والاجتماعي» ، بعد الجزء الأول منه الذي نشرته في سنة ١٩٣٥ ، ويتناول تاريخ العرب في الجاهلية ، والبعثة النبوية ، وعصر الخلفاء الراشدين والأمويين ، والجزء الثاني الذي نشرته في سنة ١٩٤٥ ، ويتناول تاريخ العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٥٢٣٢) الذي يسميه بعض المؤرخين العصر الذهبي للإسلام .

ويتناول هذا الجزء الثالث تاريخ الإسلام في مدة قرنين وخمس عشرة سنة (٢٣٢ - ٥٤٤٧) ، من السنة التي ولى فيها الخلافة المتوكل العباسي ، الذي يعتبر عهده بدء عصر انحلال الدولة العباسية ، إلى أن زال سلطان بني بويه من بغداد .

على أن هذا العصر كانت له ميزاته ومظاهر حضارته ، فقد ظهرت فيه دول كثيرة كان لها أثر كبير في تقدم الحضارة الإسلامية . ذلك أن بغداد ، بعد أن كانت مركزاً لهذه الحضارة ، ظهرت مراكز أخرى مثل قرطبة والقاهرة وبخارى وغزنة وحلب ، تنافس حاضرة العباسيين في الحضارة والعلوم والآداب ، بفضل تشجيع الخلفاء والأمراء والسلاطين رجال العلم والأدب ، واتساع أفق الفكر الإسلامي ، وذبوع الثقافة الإسلامية . كما ساعد قيام هذه الدول على تدفق الثروة واتساع العمران ورفق المجتمع الإسلامي .

وقد قسمت هذا الجزء إلى عشرة أبواب : بحثت في الباب الأول منها أثر استبداد الأتراك بالسلطة (٢٣٢ - ٥٣٢٤) ، وكيف أصبح في أيديهم تولية الخلفاء وعزلهم ، وكيف كان ذلك من أهم عوامل ضعف الدولة العباسية وزوالها في النهاية على أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) . وتكلمت في الباب الثاني على عصر إمرة الأمراء (٣٢٤ - ٥٣٣٤) ، وبينت كيف استبد أمير الأمراء بالسلطة دون الخليفة ، حتى أصبح ينظر في جميع أمور الدولة ، وعلمت مرتبته على مرتبة الوزير الذي لم يبق له سوى الاسم . وعالجت في الباب الثالث حالة الدولة العباسية ، وخاصة بلاد العراق والأهواز وكرمان في عهد بني بويه (٢٣٤ - ٥٤٤٧) . وكانوا من الشيعة المغالين في عقائد هذا المذهب ، ومن ثم لم يعترفوا بحق الخليفة العباسي السني في السيادة على العالم الإسلامي ، ولم يتورعوا عن التعدي على شخصه وإضعاف سلطته .

وبحث في الباب الرابع الولايات الإسلامية التي استقلت عن الدولة العباسية، حيث قامت في بلاد  
الفرس وبلاد ما وراء النهر دويلات ، يرجع قيامها إلى انتعاش روح القومية التي ظهرت منذ أيام  
المأمون : فقد قامت الدولة الطاهرية ( ٢٠٥ - ٢٥٩ هـ ) في خراسان ، ومنها انتقلت السلطة إلى دولة  
جديدة هي الدولة الصفارية ( ٢٥٤ - ٢٩٠ هـ ) على يد يعقوب بن الليث الصفار ، والدولة السامانية  
( ٢٦١ - ٣٨٩ هـ ) ، وقد تفرعت عنها الدولة الغزنوية ( ٣٥١ - ٥٨٢ هـ ) التي نبغ فيها السلطان  
محمود الغزنوي صاحب الفتوح المشهورة في بلاد الهند . كما قويت شوكة بني بويه في فارس ( ٣٢٠ -  
٤٤٧ هـ ) ، وفي الري وهمدان وأصبهان ( ٣٢٠ - ٤١٤ هـ ) . وفي هذا العصر استقل الحمدانيون  
بالموصل ( ٣١٧ - ٣٨٦ هـ ) وحلب ( ٣٢٣ - ٣٩٤ هـ ) ، وقامت في مصر الدولة الطولونية  
( ٢٥٤ - ٢٩٢ هـ ) ، والدولة الإخشيدية ( ٢٢٣ - ٣٥٨ هـ ) والدولة الفاطمية ( ٣٥٨ - ٥٦٧ هـ )  
، وقوى في المغرب نفوذ الأدارسة ( ١٧٢ - ٣٧٥ هـ ) ، والأغالبة ( ١٨٤ - ٢٩٦ هـ ) ،  
كما قوى نفوذ الأمويين بالأندلس ( ١٣٨ - ٤٠٧ هـ ) ، ثم انتزع منهم السطة بنو حمود العلويون  
( ٤٠٧ - ٤٤٧ هـ ) .

وبحث في الباب الخامس الحركات السياسية والدينية واتجاهاتها المختلفة ، وما كان لها من أثر في  
السياسة والدين والأدب والاجتماع وغير ذلك ؛ فتكلمت على طائفة الاثنا عشرية ، ثم على طائفة  
الإسماعيلية أو السبعية في دور الستر ، وعلى القرامطة في بلاد الكوفة ، وفي شمال العراق الغربي ،  
وببلاد الشام والبحرين . ثم تكلمت على نشر الدعوة الإسماعيلية على يد ابن حوشب في اليمن ، وعلى  
يد أبي عبدالله الشيعي في المغرب . ثم تبعت علاقة الفاطميين بالحمدانيين والعقيليين والصليحيين ،  
وعلاقتهم بالأمويين في الأندلس والزيريين في المغرب . ثم بحثت تنظيم الدعوة الفاطمية ومراتبها  
وداعي دعواتها ومجالس دعوتها . ثم تكلمت على طائفة الدرزية ودعاتها وأهم مميزاتهم ، وعلى  
الخوارج ، والزيج ، والمعتزلة ، وانتعاش مذهبهم وتأثره بالفلسفة الإغريقية ، وانتعاش أهل السنة ،  
والتصوف والمتصوفين المعتدلين والغلاة .

وفي الباب السادس تكلمت على العلاقات الخارجية للدولة العباسية في الشرق ، والدولة الفاطمية  
في مصر ، والدولة الأموية في الأندلس ، مع البيزنطيين ، ومع الدول الغربية في أوروبا ، ومع صقلية  
والروس . وعرضت في الباب السابع لنظم الحكم السياسية والإدارية والمالية والحربية والقضائية  
في الدولة العباسية في عهد نفوذ الأتراك ، وفي عهد إمرة الأمراء ، ثم في عهد بني بويه ، ثم في مصر في  
عهد الطولونيين والإخشيديين والفاطميين ، ثم في الأندلس في عهد الأمويين ، وبينت كيف كانت  
تدار الحكومة الإسلامية في ذلك العصر . ثم عرضت في الباب الثامن للحالة الاقتصادية وما بلغه  
المسلمون من تقدم ورقي في مضمار الزراعة والصناعة والتجارة .

وفي الباب التاسع أمدت بحالة الثقافة والفن ، فعالجت مراكز الثقافة ، وأنواع العلوم النقلية  
كعلوم التفسير ، والحديث ، والفقه ، وعلم الكلام ، وعلم اللغة ، والأدب من نظم ونثر ، فتكلمت



على أمراء الشعر العربي كالبحتري ، وابن الرومي ، وأبي الطيب المتنبي ، وأبي العلاء المعري ، ثم على مشهورى شعراء الفرس ، ثم على شعراء مصر والاندلس ، كأبي حامد الأنطاكي ، وابن هاني . الأندلسي . كما تكلمت على أمراء النثر العربي ، كالجاحظ ، وأبي إسحق الصابي ، والصاحب إسماعيل ابن عباد ، وأبي بكر الخوارزمي ، وبديع الزمان الهمداني ، وأبي الفتح البستي . ثم بحثت أنواع العلوم العقلية وما كان من اهتمام الخلفاء والسلاطين والأمراء بالفلسفة والطب ، وعلم الفلك والنجوم ، والرياضيات ، والتاريخ والجغرافية . كما ألمت بتاريخ الفنون ، وخاصة فن العمارة الذي يعتبر بحق مقياساً لحضارة الأمم في كل عصر .

ثم تناولت في الباب العاشر الحالة الاجتماعية ، فبحثت في طبقات المجتمع في عهد العباسيين ، وفي عهد الفاطميين في مصر والأمويين في الأندلس ، ومجالس الغناء والطرب ، وقصور الخلفاء والأمراء والوزراء وغيرهم ، وألوان الطعام واللباس ، والأعياد والمواسم والمواكب والحفلات ، وأنواع التسلية ، وما كان للمرأة من أثر في المجتمع الإسلامي .

وقد سرت في هذا الجزء على النهج الذي سرت عليه في الجزء الثاني من هذا الكتاب ، فبحثت هذا العصر من نواحيه المختلفة ، سياسية ودينية وثقافية واجتماعية ، مما يسر على القارىء الإحاطة بتاريخ ذلك العصر . كما يجد القارىء في الهوامش وفي آخر الكتاب تنبيهاً على المصادر ، لمن أراد التوسع في مسأله من المسائل التي لم يسمح المجال بالتوسع فيها في هذا الجزء ، لكبر حجمه وغزارة مادة الموضوعات التي تناولناها . وذيلت الكتاب بثبت ذكرت فيه المصادر مرتبة بحسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين ، كما ذيلته بفهارس شاملة لأسماء الأعلام من الرجال والنساء والأماكن والحوادث التاريخية الهامة .

وستظهر الطبعة الثانية من الجزء الأول قريباً في عشرة أبواب بدلاً من خمسة ، بعد إدخال كثير من الإضافات والتعديلات الهامة التي تجعله مسيراً للجزئين الثاني والثالث في مادته وترتيبه . كما أرجو أن يظهر في القريب الجزء الرابع ، ويتناول تاريخ العالم الإسلامي مدة قرنين وتسع سنين ، من سنة ٤٤٧ هـ ، إلى أن زالت الدولة العباسية من بغداد على أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ ( ١٢٥٨ م ) . ولا يفوتني أن أقدم في هذا المقام أجزل الشكر وأعطر الثناء ، لحضرة الأستاذ مصطفى السقا الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، وحضرة الأستاذ ظه أحمد شرف المدرس بمدرسة الحلبيه الثانوية ، لما أسدياه من كريم المعاونة في سبيل إخراج هذا الكتاب . كما أقدم أخلص الشكر والتقدير لكل من تلاميذي الأستاذ أحمد الغواني المفتش بوزارة الشؤون الاجتماعية ، وكال محمد الصيرفي أفندي ، وإبراهيم أحمد العدوي أفندي الطالبين بقسم الماجستير بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول على جميل مساعدتهم .

## موضوعات الكتاب

صفحة	
٣	مقدمة الكتاب
٦	موضوعات الكتاب

### الباب الأول

عصر نفوذ الأتراك ( ٢٣٢ - ٢٤٧ هـ )

المتوكل على الله ( ٢٣٢ - ٢٤٧ هـ ) :

١٩	تمهيد
٢٠	جدول خلفاء العصر العباسي الثاني
٢١	جدول يمثل تسلسل الخلفاء في الحكم
٢١	١ - المتوكل منذ ولد إلى أن ولي الخلافة
٢٢	٢ - ميله إلى أهل السنة
٢٣	٣ - حالة الدولة في عهده
٢٤	٤ - صفات المتوكل
٢٥	٥ - تولية المتوكل أولاده العهد
٢٦	٦ - قتل المتوكل

المنتصر بالله ( ٢٤٧ - ٢٤٨ هـ ) :

٢٨	١ - بيعته
٢٩	٢ - خلع أخويه من ولاية العهد
٣٠	٣ - صفات المنتصر
٣١	٤ - وفاة المنتصر

المستعين بالله ( ٢٤٨ - ٢٥٢ هـ )

المعتز ( ٢٥٢ - ٢٥٥ هـ )

المهتدي ( ٢٥٥ - ٢٥٦ هـ )

صفات المهتدي

المعتمد على الله ( ٢٥٦ - ٢٧٩ هـ )

١ - ازدياد نفوذ الموفق

٢ - أحمد بن طولون والموفق

٣ - وفاة المعتمد والموفق

صفحة	
٤٧	المعتضد بالله ( ٢٧٩ - ٢٨٩ هـ )
٤٨	صفات المعتضد
٥٠	وفاة المعتضد
٥١	المكتفي ( ٢٨٩ - ٢٩٥ هـ )
٥٣	المقتدر ( ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ )
٥٦	عوامل ضعف الدولة في عهد المقتدر
٦٧	القاهر بالله ( ٣٢٠ - ٣٢٢ هـ )

## الباب الثاني

### عصر إمرة الأمراء ( ٣٢٤ - ٣٣٤ هـ )

٦٣	الراضي بالله ( ٣٢٢ - ٣٢٩ هـ )
٦٣	١ - مرداويج بن زيار
٦٤	٢ - وشمكير بن زيار
٦٥	٣ - تولية ابن رائق إمرة الأمراء
٦٧	٤ - بحكم
٦٩	٥ - بين ابن رائق وبحكم
٧١	٦ - صفات الراضي
٧٣	المتقي ( ٣٢٩ - ٣٣٣ هـ )
٧٥	البريديون
٧٧	ظهور ابن رائق
٧٨	الخدانيون
٨٠	توزون
٨٥	المستكفي بالله ( ٣٣٣ - ٣٣٤ هـ )
٨٧	ابن شيرزاد

## الباب الثالث

### عصر بني بويه ( في العراق ) ( ٣٣٤ - ٤٤٧ هـ )

٩٣	١ - حالة الدولة العباسية قبيل استيلاء بني بويه على بغداد
٩٤	٢ - أصل بني بويه

صفحة

بنو بويه : جداول السلاطين

- ٩٦ . . . . . ١ - في فارس
- ٩٦ . . . . . ٢ - في العراق والأهواز وكرمان
- ٩٧ . . . . . ٣ - في الري وهمدان وأصبهان
- ٩٨ . . . . . جدول يمثل تسلسل أمراء بني بويه في الحكم
- ٩٩ . . . . . ٣ - بنو بويه قبل استيلائهم على بغداد  
بنو بويه في العراق
- ١٠١ . . . . . ١ - معز الدولة (٣٣٤ - ٣٥٦ هـ)
- ١٠٤ . . . . . إقرار نفوذ معز الدولة في العراق
- ١٠٦ . . . . . ٢ - بختيار (٣٥٦ - ٣٦٧ هـ)
- ١٠٨ . . . . . الخليفة الطائع وبنو بويه
- ١١١ . . . . . ٣ - عضد الدولة (٣٦٧ - ٣٧٢ هـ)
- ١١٢ . . . . . صفات عضد الدولة
- ١١٥ . . . . . ٤ - صمصام الدولة (٣٧٢ - ٣٧٦ هـ)
- ١١٧ . . . . . ٥ - شرف الدولة (٣٧٦ - ٣٧٩ هـ)
- ١١٨ . . . . . ٦ - بهاء الدولة (٣٧٩ - ٤٠٣ هـ)
- ١٢١ . . . . . الخليفة القادر بالله (٣٨١ - ٤٢٢ هـ)
- ١٢٥ . . . . . ٧ - سلطان الدولة ومشرف الدولة ابنا بهاء الدولة (٤٠٣ - ٤١٦ هـ)
- ١٢٧ . . . . . ٨ - جلال الدولة (٤١٦ - ٤٢٥ هـ)
- ١٢٩ . . . . . الخليفة القائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ)
- ١٣١ . . . . . ٩ - أبو كالبجار (٤٣٥ - ٤٤٠ هـ)
- ١٣٤ . . . . . ١٠ - أبو نصر الملك الرحيم (٤٤٠ - ٤٤٧ هـ)

### الباب الرابع

#### الدول المستقلة

- ١٤١ . . . . . تمهيد
- ١٤٢ . . . . . الدولة الصفارية (٢٥٤ - ٢٩٠ هـ) ، يعقوب بن الليث الصفار (٢٥٤ - ٢٦٥ هـ)
- ١٤٨ . . . . . عمرو بن الليث الصفار (٢٦٥ - ٢٨٧ هـ)
- الدولة السامانية (٢٦١ - ٣٨٩ هـ)
- ١٥١ . . . . . البيت الساماني - تسلسل آل البيت الساماني
- ١٥٢ . . . . . إسماعيل بن أحمد الساماني (٢٧٩ - ٢٩٥ هـ)

صفحة	
١٥٤	أحمد بن إسماعيل (٢٩٥ - ٥٣٠١) ، السعيد نصر الثاني بن أحمد (٣٠١ - ٥٣٣١) (٥٣٣١ - ١٥٤)
١٥٧	الحيد نوح بن نصر (٢٣١ - ٥٣٤٣)
١٥٨	عبد الملك ومنصور ابنا نوح (٣٤٣ - ٥٣٦٦)
١٥٩	نوح الثاني بن منصور (٣٦٦ - ٥٣٨٧)
١٦١	زوال الدولة السامانية وأسبابه .
	الدولة الغزنوية (٣٥١ - ٥٥٨٢)
١٦٣	البيت الغزنوي - جدول الأمراء الغزنويين
١٦٤	سبكتكين (٣٦٦ - ٥٣٨٧)
١٦٦	يمين الدولة محمود الغزنوي (٣٨٨ - ٥٤٢١)
١٦٩	فتوح محمود الغزنوي في بلاد الهند .
١٧٧	مسعود الأول (٤٢١ - ٥٤٣٢)
١٨٠	مودود بن مسعود (٤٣٢ - ٥٤٤١)
١٨٢	عبد الرشيد وفروخ زاد (٤٤١ - ٥٤٥١)
	بنو بويه - (أ) في فارس :
١٨٤	علي بن بويه (٣٢٠ - ٥٣٣٨)
١٨٧	عضد الدولة (٣٣٨ - ٥٣٧٢)
١٨٨	شرف الدولة وصمصام الدولة (٣٧٢ - ٥٣٨٨)
١٩٠	بهاء الدولة وسلطان الدولة (٣٨٨ - ٥٤١٥)
١٩١	عماد الدولة أبو كاليبجار (٤١٥ - ٤٤٠)
	(ب) في الري وهمدان وأصبهان
١٩٤	ركن الدولة (٣٣٠ - ٥٣٦٦)
١٩٧	صفات ركن الدولة
١٩٩	أولاد ركن الدولة (٣٦٦ - ٥٤٢٠)
٢٠٢	الدولة الحمدانية ، أمراء الحمدانيين في الموصل ، وفي حلب
٢٠٣	جدول يمثل أمراء الحمدانيين
٢٠٣	١ - في الموصل - تمديد
٢٠٤	ناصر الدولة (٣١٧ - ٥٣٥٨)
٢٠٧	أبو تغلب بن ناصر الدولة (٣٥٨ - ٥٣٦٩)
	٢ - في حلب

٢١٠	سيف الدولة (٢٣٣ - ٣٥٦ هـ)
٢١٣	سعد الدولة (٣٥٦ - ٣٨١ هـ)
٢١٧	سعيد الدولة أبو الفضائل (٣٨١ - ٣٩٢ هـ)
	الدولة الطولونية (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ) - أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠ هـ)
٢١٨	أحمد بن طولون منذ ولد إلى أن ولي مصر
٢١٩	تولية ابن طولون مصر
٢٢٠	الفتن والثورات
٢٢٤	ابن طولون والخلافة
٢٢٨	وفاة ابن طولون
٢٣٠	خارويه بن أحمد بن طولون (٢٧٠ - ٢٨٢ هـ)
٢٣١	زوال الدولة الطولونية
٢٣٣	مدينة القطائع في عهد الطولونيين
	الدولة الإخشيدية (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ) - محمد بن طغج الإخشيد (٣٢٣ - ٣٣٤ هـ)
٢٣٤	الإخشيد منذ ولد إلى أن ولي مصر
٢٣٦	تولية الإخشيد مصر
٢٣٧	علاقة الإخشيد بالخلافة
٢٣٨	وصاية كافور على أولاد الإخشيد (٣٣٤ - ٣٥٥ هـ)
٢٤١	تولية كافور على مصر (٣٥٥ - ٣٥٧ هـ)
٢٤٣	صفات كافور، وفاة كافور
٢٤٥	الدولة الفاطمية (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ) - الخلفاء الفاطميون
٢٤٦	جدول الخلفاء الفاطميين
٢٤٧	عييد الله المهدي (٢٩٦ - ٣٢٢ هـ)
٢٤٩	القائم والمنصور (٣٢٢ - ٣٤١ هـ) - ثورة أبي يزيد
	المعز لدين الله (٣٤١ - ٣٦٥ هـ)
٢٥١	المعز قبل فتح مصر، فتح مصر
٢٥٤	امتداد سلطان الفاطميين، قدوم المعز إلى مصر
	العزير بالله (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ)
٢٥٧	اتساع الدولة الفاطمية، حالة الدولة الفاطمية، موت العزير
	الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ)
٢٦٠	أدوار خلافة الحاكم، وفاة الحاكم
٢٦٣	الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١ - ٤٢٧ هـ)
٢٦٤	المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ)

صفحة	
٢٦٧	دولة الأغالبة (١٨٤ - ٥٢٩٦) ، أمراء الأغالبة - جدول يمثل تسلسل نسب الأغالبة
٢٦٨	إبراهيم بن الأغلب (١٨٤ - ٥١٩٦)
٢٧٠	عبد الله الأول (١٩٦ - ٥٢٠١)
٢٧١	زيادة الله الأول (٢٠١ - ٥٢٢٣)
٢٧٢	فتح جزيرة صقلية
٢٧٤	محمد الأول (٢٢٦ - ٥٢٤٢)
٢٧٦	إبراهيم الثاني (٢٦١ - ٥٢٨٩)
٢٧٧	صفات إبراهيم الثاني
٢٧٨	زيادة الله الثالث (٢٩٠ - ٥٢٩٦)
٢٧٩	دولة الأدارسة (١٧٢ - ٥٣٧٥) ، أمراء الأدارسة
٢٧٩	إدريس بن عبد الله (١٧٢ - ٥١٧٧)
٢٨٠	إدريس الثاني (١٧٧ - ٥٢١٣)
٢٨١	علي بن عمر بن إدريس
٢٨٢	يحيى الرابع بن إدريس بن عمر (٢٩٢ - ٥٣١٠)
٢٨٣	الحسن بن محمد (٣١٠ - ٥٣١٢)
٢٨٥	زوال دولة الأدارسة
٢٨٧	الأمويون في قرطبة (١٣٨ - ٥٤٢٢) ، جدول يمثل نسب الأمويين في قرطبة
٢٨٨	الأندلس من عبد الرحمن الأول إلى عبد الرحمن الأوسط (١٣٨ - ٥٢٣٨)
٢٩٠	عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٥٢٣٨)
٢٩٢	عبد الله (٢٧٥ - ٥٣٠٠)
	عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٥٣٥٠)
٢٩٤	١ - عبد الرحمن منذ ولد إلى أن ولي الإمارة
٢٩٥	٢ - سياسة عبد الرحمن الداخلية
٢٩٧	٣ - سياسة عبد الرحمن الخارجية
٢٩٩	الحكم الثاني المستنصر (٣٥٠ - ٥٣٦٦)
٣٠١	هشام الثاني المؤيد (٣٦٦ - ٥٣٩٩)
٣٠١	محمد بن أبي عامر المنصور الحاجب
٣٠٥	صفات المنصور الحاجب
٣٠٧	الأندلس بعد وفاة المنصور الحاجب
٣٠٨	بنو حمود (٤٠٧ - ٥٤٤٩) ، تسلسل نسب بني حمود ، علي بن حمود
٣٠٩	خلفاء علي بن حمود ، زوال دولة بني حمود

## الباب الخامس

### الحركات السياسية والدينية

- ٢١٧ . . . . . ١ - الاثنا عشرية تمسك :  
٢٢٠ . . . . . ٢ - الإسماعيلية أو السبعية  
٢٢٠ . . . . . (١) دور الستر :  
٢٢١ . . . . . ١ - رياسة الدعوة  
٢٢٤ . . . . . ٢ - القرامطة (١) في سواد الكوفة  
٢٢٧ . . . . . (ب) في شمال العراق الغربي وبلاد الشام (ج) في البحرين  
٢٣١ . . . . . ٣ - ابن حوشب في اليمن  
٢٣٤ . . . . . ٤ - أبو عبد الله الشيعي في بلاد المغرب  
٢٣٧ . . . . . ٢ - دور الظهور (١) نشر الدعوة الفاطمية في الدور المغربي  
٢٣٧ . . . . . ١ - في اليمن ٢ - في البحرين  
٢٤٠ . . . . . ٣ - في فارس ٤ - في مصر  
(ب) نشر الدعوة الفاطمية في الدور المصري  
٣٤٤ . . . . . ١ - علاقة الفاطميين بالقرامطة ، (١) في عهد المعز ، (ب) في عهد العزيز  
٣٤٩ . . . . . ٢ - علاقة الفاطميين بالعباسيين وبنو بويه  
٣٥٤ . . . . . ٣ - علاقة الفاطميين بالخذانيين والعميليين والصلحيين  
٣٥٦ . . . . . ٤ - علاقة الفاطميين بالأمويين في الأندلس والزييريين في المغرب  
٣٥٨ . . . . . (ج) تنظيم الدعوة الفاطمية ، ١ - مراتب الدعوة  
٣٦٢ . . . . . ٢ - داعي الدعاة ، ٣ - مجالس الدعوة  
٣٦٤ . . . . . (د) الدرزية ، ١ - دعاة الدرزية  
٣٦٨ . . . . . ٢ - أهم مميزات الدرزية  
٣٧٢ . . . . . ٣ - الخوارج  
٣٧٥ . . . . . ٤ - ثورة صاحب الزنج  
٣٧٩ . . . . . ٥ - المعتزلة ، (١) انتعاش مذهب المعتزلة  
٣٨٢ . . . . . (ب) تأثر المعتزلة بالفلسفة الإغريقية  
٣٨٢ . . . . . ٦ - انتعاش السنة  
٣٨٥ . . . . . ٧ - التصوف ، (١) المتصوفون المعتدلون  
٣٨٨ . . . . . (ب) المتصوفون الغلاة ، الحسين بن منصور الحلاج ، الشاذلي



## الباب السادس

### العلاقات الخارجية

- تمهيد : ١ - مع البيزنطيين . . . . . ٣٩٧
- ( أ ) من المتوكل إلى المعتمد ( ٢٣٢ - ٢٥٦ هـ ) . . . . . ٣٩٨
- ( ب ) من المعتمد إلى المطيع ( ٢٥٦ - ٣٣٤ هـ ) . . . . . ٤٠١
- علاقة الإخشيديين بالبيزنطيين . . . . . ٤٠٣
- ( ج ) من المطيع إلى القائم ( ٣٣٤ - ٤٢٢ هـ ) . . . . . ٤٠٥
- علاقة الفاطميين بالبيزنطيين . . . . . ٤٠٩
- علاقة الأمويين في الأندلس بالبيزنطيين . . . . . ٤١٢
- ٢ - مع صقلية . . . . . ٤١٤
- ٣ - مع الدول الغربية في أوروبا . . . . . ٤١٦
- ٤ - مع الروس . . . . . ٤١٨

## الباب السابع

### نظم الحكم

- تمهيد : ١ - النظام السياسي . . . . . ٤٢١
- ( أ ) الخلافة ١ - الخلافة العباسية
- ( أ ) الخلافة العباسية في عصر نفوذ الأتراك ( ٢٣٢ - ٣٢٤ هـ ) . . . . . ٤٢١
- ( ب ) الخلافة العباسية في عصر إمرة الأمراء ( ٣٢٤ - ٣٣٤ هـ ) . . . . . ٤٢٤
- ( ج ) الخلافة العباسية في عصر بني بويه ( ٣٣٤ - ٤٤٧ هـ ) . . . . . ٤٢٥
- ٢ - الخلافة الفاطمية . . . . . ٤٢٩
- ٣ - إحياء الخلافة الأموية في الأندلس . . . . . ٤٣١
- ( ب ) الوزارة ، ١ - الوزارة في الدولة العباسية ( ٢٣٢ - ٣٢٤ هـ ) . . . . . ٤٣٤
- ٢ - الوزارة في عهد بني بويه ( ٣٣٤ - ٤٤٧ هـ ) . . . . . ٤٣٩
- ٣ - الوزارة في مصر ، ( أ ) في عهد الطولونيين والإخشيديين . . . . . ٤٤١
- ( ب ) في عهد الفاطميين ، سجل تقليد الجرجرائي الوزارة . . . . . ٤٤٢
- ٤ - الوزارة في الأندلس . . . . . ٤٤٧
- ( ج ) الكتابة ، ١ - في الدولة العباسية ، ٢ - في مصر والأندلس . . . . . ٤٤٨

٤٥١	صفحة	(د) الحجابة . . . . .
٤٥٢		٢ - النظام الإداري ، (١) الإمارة على البلدان ، (ب) الدواوين . . . . .
٤٦٠		(ج) البريد ، محطات البريد ، حمام الزاجل . . . . .
٤٦٣		(د) الشرطة ، ١ - في الدولة العباسية (٢) - في مصر والأندلس . . . . .
		٣ - النظام الحربي - (١) الجيش . . . . .
٤٦٥		١ - في الدولة العباسية ، عناصر الجيش ، تنظيم الجيش ، تعبئة الجيش . . . . .
٤٧٢		٢ - في مصر ، في عهد الطولونيين والإخشيديين ، في عهد الفاطميين . . . . .
٤٧٣		(ب) البحرية . . . . .
٤٧٦		٤ - النظام المالي (١) في الدولة العباسية . . . . .
٤٧٦		موارد الدولة ، نظام الإقطاع ، مصروفات الدولة . . . . .
٤٨٦		(ب) في مصر ، في عهد الطولونيين والإخشيديين ، في عهد الفاطميين . . . . .
٤٨٨		(ج) في الأندلس . . . . .
		٥ - النظام القضائي ، (١) القضاء . . . . .
٤٨٩		في الدولة العباسية ، في مصر ، في الأندلس . . . . .
٤٩٨		(ب) المظالم . . . . .
٥٠٠		(ج) الحسبة . . . . .

## الباب الثامن

### الحالة الاقتصادية

٥٠٥	الزراعة ، الصناعة . . . . .
٥١٠	التجارة ، (١) طرق التجارة ، (ب) أشهر مراكز التجارة . . . . .

## الباب التاسع

### الثقافة والفن

٥١٧	تمهيد : ١ - الثقافة . . . . .
	مراكز الثقافة : أصبهان - البلاط الساماني في بخارى - بلاط شمس المعالي قابوس
	ابن وشمكير في طبرستان - بلاط خوارزم في خيوة - بلاط السلطان محمود
	الغزنوي في غزنة - بلاط الطولونيين والإخشيديين والفاطميين في مصر -
٥١٨	بلاط الأمويين في قرطبة . . . . .

(١) العلوم الثقيلة

- ٥٢٣ . . . . . التفسير ، الحديث ، الفقه ، علم الكلام ، علم اللغة
- ٥٤٠ . . . . . تمهيد : الأدب ، (١) النظم
- ٥٤٢ . . . . . ١ - أمراء الشعر العباسي : البحتري ، ابن الرومي
- ٥٤٦ . . . . . أبو الطيب المتنبي ، أبو العلاء المعري
- ٥٥٠ . . . . . ٢ - شعراء الفرس
- ٥٥١ . . . . . ٣ - شعراء مصر والاندلس ، ابن هانيء الأندلسي
- ٥٥٣ . . . . . أبو حامد الأنطاكي
- ٥٥٤ . . . . . (ب) النثر ، الجاحظ ، أبو إسحق الصابي
- ٥٥٧ . . . . . الصاحب إسماعيل بن عباد ، أبو بكر الخوارزمي
- ٥٦٠ . . . . . بديع الزمان الهمداني ، أبو الفتح البستي
- ٥٦٢ . . . . . (ب) العلوم العقلية ١ - الفلسفة
- ٥٦٣ . . . . . أبو إسحق الكندي ، إخوان الصفا
- ٥٦٥ . . . . . أبو نصر الفارابي ، أبو علي بن سينا
- ٥٦٧ . . . . . ٢ - الطب ، تمهيد : أبو بكر الرازي
- ٥٧١ . . . . . علي بن العباس المجوسي ، أبو علي بن سينا
- ٥٧٢ . . . . . الطب في مصر ، في عهد الطولونيين
- ٥٧٣ . . . . . في عهد الفاطميين ، علي بن رضوان
- ٥٧٥ . . . . . علم الفلك والنجوم ، الرياضيات
- ٥٨١ . . . . . التاريخ ، الجغرافيا
- ٥٨٩ . . . . . ٣ - الفن (١) العمارة في المشرق
- ٥٨٩ . . . . . ١ - العمارة عند العباسيين ، (١) تأسيس مدينة الجعفرية
- ٥٩١ . . . . . (ب) العمارة في عهد بني بويه
- ٥٩٢ . . . . . ٢ - العمارة في مصر ، (١) تأسيس مدينة القطائع
- ٥٩٤ . . . . . (ب) تأسيس مدينة القاهرة
- ٥٩٧ . . . . . ٣ - العمارة في المغرب والاندلس ، (١) تأسيس مدينتي المهديّة والمنصورية
- ٥٩٩ . . . . . (ب) تأسيس مدينتي الزهراء والزاهرة

## الباب العاشر

### الحالة الاجتماعية

صفحة	
٦٠٩	١ - طبقات الشعب ، ( ا ) في عهد العباسيين
٦١٣	( ب ) في عهد الفاطميين ، ( ج ) في عهد الأمويين بالآندلس
٦١٧	٢ - مجالس الغناء والطرب ، ( ا ) في الدولة العباسية
٦٢٣	( ب ) في مصر والآندلس
٦٢٧	٣ - قصور الخلفاء والأمراء والوزراء ، ( ا ) في الدولة العباسية
٦٢٩	( ب ) في مصر ، ( ج ) في الآندلس
٦٣٣	٤ - الطعام والشراب ، ( ا ) عند العباسيين
٦٣٧	( ب ) عند الطولونيين والإخشيديين
٦٣٨	( ج ) عند الفاطميين
٦٤١	٥ - الملابس
٦٤٤	٦ - المرأة ، ( ا ) في الدولة العباسية
٦٤٦	( ب ) في مصر والآندلس
	٧ - الأعياد والمواسم والمواكب والحفلات
٦٥٠	( ا ) الأعياد والمواسم ، ( ب ) المواكب ، في مصر
٦٥٨	( ج ) الحفلات ، زواج قطر الندى من الخليفة المعتضد
٦٦٤	٨ - أنواع التسلية
٦٦٦	مصادر الكتاب
	فهارس الكتاب
٦٧٧	١ - الأعلام
	٢ - الأماكن
	٣ - الأسماء التي تدل على حوادث تاريخية هامة

الخرائط :

٩٧	أمام صفحة : ٩٧	الدولة العباسية في القرن الرابع الهجري
٢٥٧	» »	اتساع الدولة الفاطمية
		الحروب بين العباسيين والبيزنطيين في القرن الرابع الهجري
٥٩٣	» »	القاهرة في عهد الفاطميين
	» »	مؤلفات الدكتور حسن ابراهيم حسن

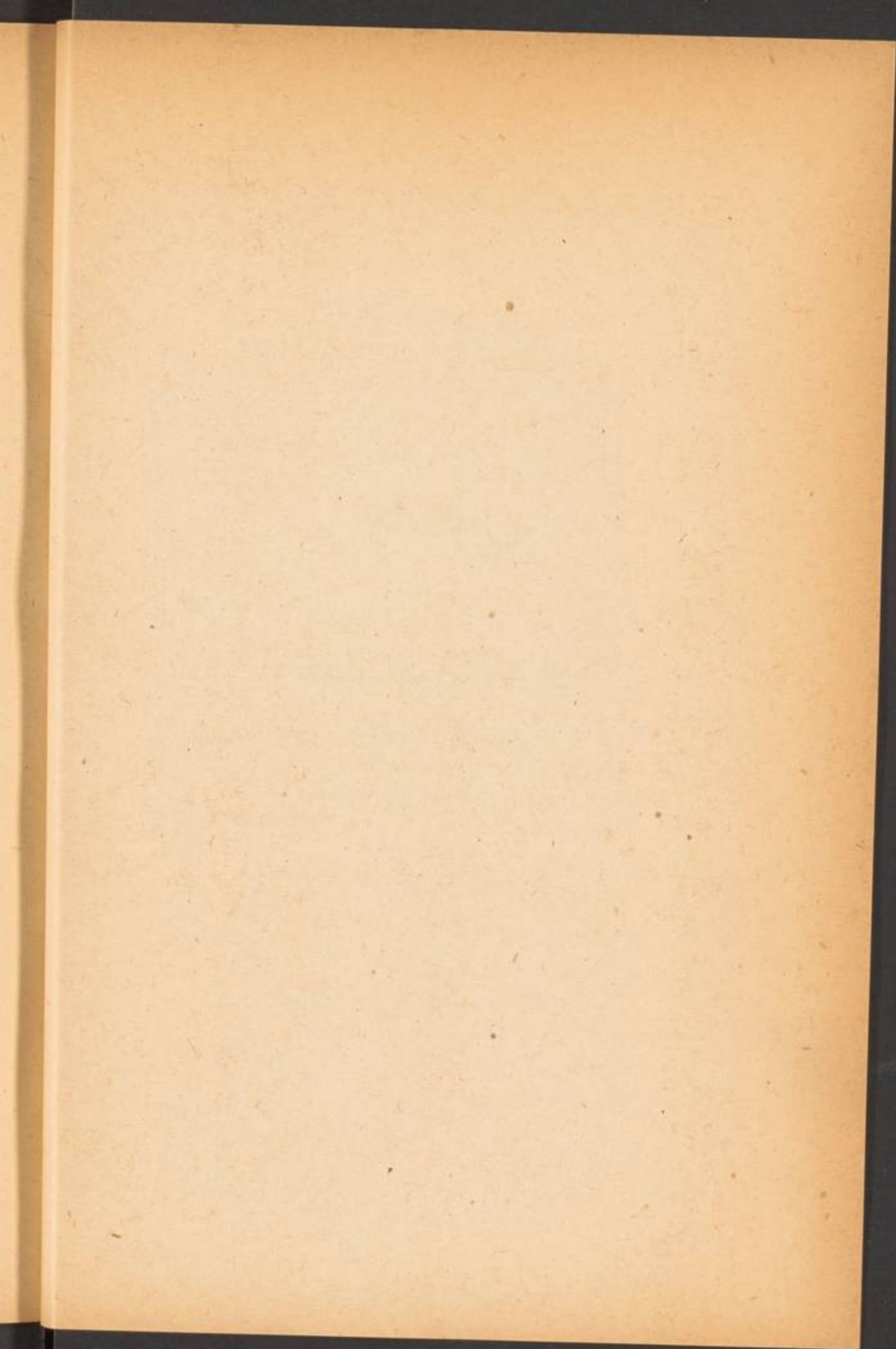
الباب الأول

---

عصر نفوذ الاتراك

(٢٣٢ - ٣٢٤ هـ)

٦٤  
٦٤  
٦٤  
٦٤  
٦٤  
٦٤  
٦٤  
٦٤  
٦٤  
٦٤  
٦٤  
٦٤  
٦٥  
٦٥  
٦٦  
٦٦  
٦٧٧  
٩٧  
٢٥٧  
٥٩٣



## المتوكل على الله

٢٣٢ - ٢٤٧ هـ = ٨٤٧ - ٨٦١ م

تمهيد :

يعتبر عهد الخليفة المتوكل العباسي بدء عصر انحلال الدولة العباسية الذي انتهى بسقوطها على أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ . ويرجع ضعف هذه الدولة إلى عدة عوامل ، نذكر منها اعتماد العباسيين على الفرس ثم على الأتراك ، وإيثارهم إياهم بالمناصب المدنية والعسكرية على العرب الذين كانوا مادة الإسلام وقوام الدولة العربية ، فضعفت عصبيتهم وانحطت منزلتهم وانصرفت قلوبهم عن تأييد الدولة . وما أثار حقد العرب على العباسيين ، فتك هؤلاء ببنى أمية ، وتمثيلهم بهم ، ومناصبهم العلويين العدا . فقام العلويون في وجههم ، لأنهم استأثروا بالخلافة دونهم مع أنهم أحق بها منهم ، إذ أن الدولة إنما قامت باسمهم وبسيوف أشياعهم .

ذلك إلى ضعف قيمة العهود والمواثيق في نظر الخلفاء العباسيين ونقضهم لها إذا عارضت مصالحهم ، مع مخالفة ذلك لقوله تعالى : ( وأوفوا بعهدي بعد الله إذا عاهدتم ، ولا تحسبوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ) .

ومن ذلك ظهور كثير من بدع الملاحدة والزنادقة ، كالراوندية والخثرمية وأصحاب المقالات وطوائف المتكلمين كالمعتزلة وغيرهم ، مما أدى إلى انقسام المسلمين شيعاً وطوائف يناهض بعضها بعضاً ، بل يحاول بعضها القضاء على الدولة نفسها .

وعلى الرغم من هذه العوامل ، كان للعصر العباسي الثاني ميزات ومظاهر حضارته ، فقد اشتهر فيه كثير من الخلفاء الذين حاولوا إعادة الدولة العباسية إلى ما كانت عليه من قوة ومجد ، كما ظهر فيه بعض الدويلات الصغيرة المتنافسة ، كالسامانية والبوسنية والحمدانية والغزنوية والسلاجوقية . فكان لتلك الدويلات أثر محمود في تقدم الحضارة الإسلامية وتشجيع العلوم والآداب والفنون وغيرها ، مع أنها كانت من عوامل ضعف الدولة العباسية .

وسيتضح من ترجمة حياة خلفاء هذا العصر مدى استبداد الأتراك بالسلطة في جميع أمور الدولة ، وكيف أصبح في أيديهم تولية الخلفاء وعزلهم .

كان المعتصم أول الخلفاء العباسيين الذين استعانوا بالأتراك وأستدوا إليهم مناصب الدولة ، وأقطعهم الولايات الإسلامية . وقد كان هذا الانقلاب من الحكم العربي إلى الحكم التركي مظهرأ

من مظاهر الثورة التي أحس بها معظم أجزاء الخلافة ، وأدت الى إضعاف سلطة الخليفة ، وزوالها في النهاية ، (١) .

وقد أدرك المعتصم خطر هؤلاء الأتراك الذين آذوا أهل بغداد ، ففكر في نقلهم الى سامرا التي اتخذها قاعدة لخلافته . وبلغ من ازدياد نفوذهم أن حقد عليهم العرب والفرس ، وتآمروا على المعتصم وكبار رجال دولته من الأتراك ، الذين أصبحوا خطراً على الخلفاء العباسيين ، وعلى الدولة العباسية ، حتى إن المعتصم نفسه قد شكاً منهم في أواخر أيامه ، وعبر عن أسفه لأحد أعوان أخيه المأمون ، لاعتماده عليهم في هذه العبارة : « في قلبي أمر أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة : نظرت الى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم . قلت : ومن الذي اصطنعهم أخوك ؟ قال : طاهر بن الحسين فقد رأيت وسمعت ، وعبد الله بن طاهر ، فهو الرجل الذي لم يُر مثله ، وأنت والله الذي لا يعتاض السلطان منك أبداً ، وأخوك محمد بن ابراهيم ، وأين مثل محمد ؟ وأنا فاصطنعت الأفشين ، فقد رأيت الى ما صار أمره ، وأشناس قفشلته أيّسه ، وإيتاخ فلا شيء . ووصيف فلا معنى فيه . فقلت : يا أمير المؤمنين أعزك الله! نظر أخوك الى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعا ، واستعمل أمير المؤمنين فروعا ، فلم تنجب اذ لا أصول لها : قال : يا إسحاق ! لمقاساة ما مرّني في طول هذه المدة أسهل عليّ من هذا الجواب . » (٢) .

### خلفاء العصر العباسي الثاني

٢٣٢ - ٥٤٤٧ = ٨٤٧ - ١٠٧٥ م

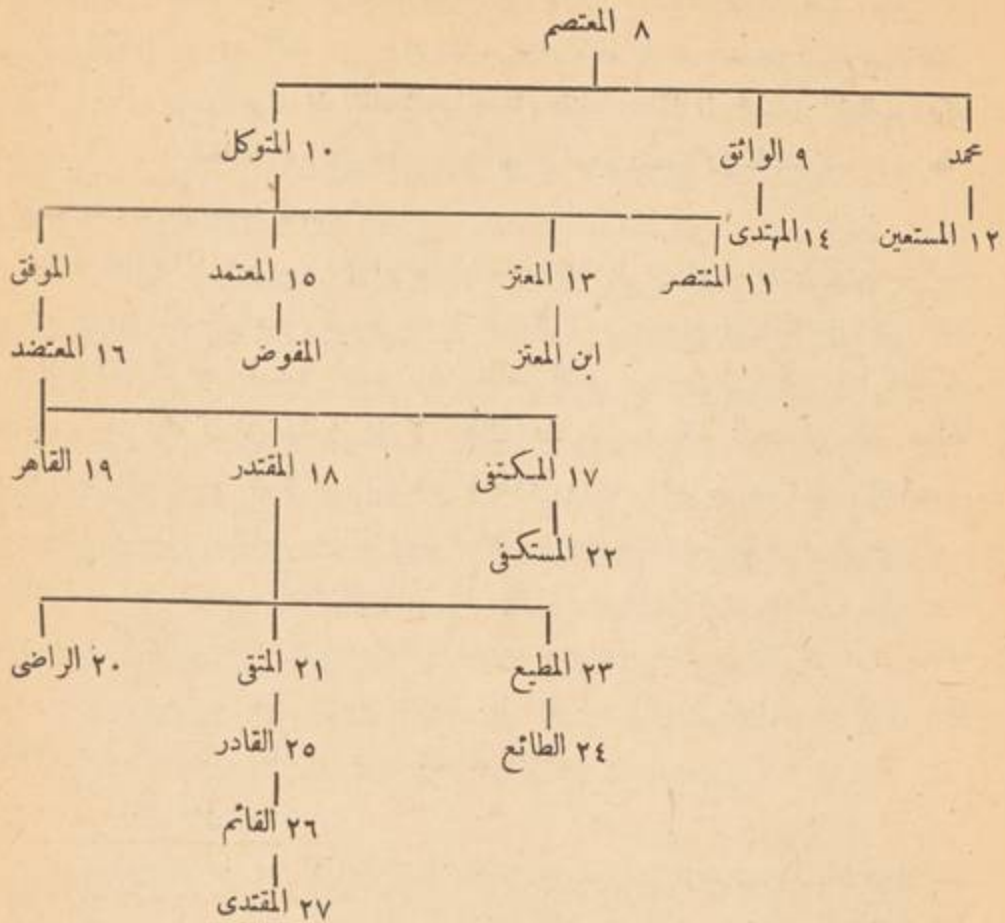
هجريّة	ميلاديّة	هجريّة	ميلاديّة
٢٢٠	٩٢٢	٢٣٢	٨٤٧
٢٢٢	٩٢٤	٢٤٧	٨٦١
٢٢٩	٩٤٠	٢٤٨	٨٦٢
٢٣٣	٩٤٤	٢٥٢	٨٦٦
٢٣٤	٩٤٦	٢٥٥	٨٦٩
٢٦٣	٩٧٤	٢٥٦	٨٧٠
٢٨١	٩٩١	٢٧٩	٨٩٢
٤٢٢	١٠٣١	٢٨٩	٩٠٢
٤٦٧	١٠٧٥	٢٩٥	٩٠٨

(١) Stanley Lane-Poole : History of Egypt in the Middle Ages, p. 29.

(٢) الطبري ج ١١ ص ٨ - ٩ انظر كتاب تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي للمؤلف



جدول يمثل تسلسل الخلفاء في الحكم



١ - المتوكل منذ ولد الى أن ولي الخلافة :

ولد جعفر بن المعتصم في سنة ٢٠٦ هـ بضم الصلح ، وهي بلدة على نهر دجلة على مقربة من مدينة واسط ، ويكنى أبا الفضل . وأمه أم ولد يقال لها شجاع ، وكانت - كما يقول الخطيب البغدادي (١) - من سراوات النساء سخاء وكرما . قيل إنها تركية ، وقيل أيضاً أنها خوارزمية أو رومية . وقد تربت منذ حداثة سنها في بيت المعتصم واشتركت في تربية ابنها واعداده لاعتلاء العرش العباسي .

وقد ولاه أخوه الواثق اماره الحج في سنة ٢٢٧ هـ . ولما عاد المتوكل غضب الواثق عليه ، وحد من نفوذه . فقد ذكر المؤرخون أن أم الواثق كانت أم ولد تسمى قراطيس ، وكانت

(١) تاريخ بغداد ج ٧ ص ١٦٦ .

شجاع أم المتوكل أم ولد كما تقدم ، فلم يكن الأخوان شقيقين . وذكر الطبري (١) أن جعفرأ رأى في المنام كأن سكرأ سليمانيا يسقط عليه من السماء مكتوب عليه جعفر المتوكل على الله ، فقال له بعض خاصته : « هي والله أيها الأمير أعزك الله الخلافة ، وبلغ الواثق ذلك ، فحبسه وضيق عليه . مات الواثق ولم يعهد لابنه محمد . وقد سئل وهو في مرضه الذي مات منه أن يوصي بالخلافة فقال كلمته المأثورة : « لا يراني الله أتقلدها حيا وميتا ، مقتنيا في ذلك أثر عمر بن الخطاب . وكان محمد صغيرأ لا يصلح للخلافة ، ولم يكن جعفر طامعا فيها لانحراف بعض رؤساء الدولة الدولة عنه ، وخوفهم منه أن يثار لنفسه منهم .

وذكر الطبري (٢) أنه بويغ بالخلافة وهو في السادسة والعشرين من عمره ، وأن الذي كتب البيعة هو محمد بن عبد الملك الزيات ، وكان يلي ديوان الرسائل . واجتمعوا بعد ذلك على اختيار لقب له ، فقال ابن الزيات : نسميه المنتصر بالله ، فغاض الناس فيها حتى لم يشكروا فيها . فلما كان غداة يوم بكرأ أحمد بن أبي دواد إلى المتوكل ، فقال : قد رويت في لقب أرجو أن يكون موافقأ حسناً إن شاء الله ، وهو المتوكل على الله . فأمر بامضائه ، وأحضر محمد بن عبد الملك ( الزيات ) ، فأمر بالكتاب بذلك إلى الناس ، فنفذت إليهم الكتب . نسخة ذلك : بسم الله الرحمن الرحيم . أمر ، أبقاك الله ، أمير المؤمنين ، أطال الله بقاءه ، أن يكون الرسم الذي يجري به ذكره على أعواد منابر ، وفي كتبه إلى قضائه وكتابه وعماله وأصحاب دواوينه وغيرهم من سائر من تجرى المكاتبه بيته وبينه : من عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين ، فأريك في العمل بذلك وإعلاني بوصول كتابي إليك موثقأ إن شاء الله ، (٣) .

٢ — ميله إلى أهل السنة :

وكان الخليفة المتوكل يميل إلى أهل السنة ، ويعمل على نصرتهم ، وضرب بالسياط رجلا سب أبا بكر وعمر وعائشة وحفصة . وقد بدأ حكمه بنهي الناس عن القول بخلق القرآن ، الذي شغل الدولة العباسية في عهد المأمون والمعتمد والواثق . وقد أشاد بذلك أحد الشعراء فأخذ يذم ابن أبي دُواد المعتزلي ، ويمدح المتوكل في هذه الأبيات :

أمير المؤمنين لقد سكننا إلى أيامك الغر الحسان  
رددت الدين فذا بعد ما قد أراه فرقتين تخاصمان  
قصمت الظالمين بكل أرض فأضحى الظلم مجهول المكان  
وفي سنة رمت متسجبرهم على قدرٍ بداهية عنوان  
فما أيقنت من ابن أبي دُواد سوى جسد يخاطب بالمعاني  
تحيير فيه سابور بن سهل فطاوله ومناه الأمان

(٢) ج ١١ ص ٢٦

(١) ج ١١ ص ٢٧

(٣) نفس المصدر ج ١١ ص ٢٦ — ٢٧ .

إذا أصحابه اصطحبوا بلبيل أطلوا الخوض في خلق القرآن  
بديرون الكشوس وهم نشاوي يحدثنا فلان عن فلان (١)

وقد ذكر المسعودي (٢) أن المتوكل أمر بترك النظر والمباحثة في الجدل ، وترك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم والوائق ، وأمر الناس بالتسليم والتقليد ، وأمر الشيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة .

كتب المتوكل بذلك إلى الأمصار الإسلامية ، وكان لعمله هذا أثر حسن في نفوس المسلمين ، فأولوه احترامهم ، وبالغوا في تعظيمه والثناء عليه ، حتى قال قائلهم : الخلفاء ثلاثة : أبو بكر الصديق يوم الردة ، وعمر بن عبد العزيز في رده المظالم ، والمتوكل في إحياء السنة .

لكن المتوكل أساء إلى نفسه بسياسة العنف التي اتهمها في معاملة العلويين ، فأمر في سنة ٥٢٣٦ بهدم قبر الحسين بن علي وما حوله من الدور ، وأن يحرق ويهدم ، ويسقى موضع قبره ، وأن يمنع الناس من إتيانه ، فذكر أن عامل صاحب الشرطة نادى في الناحية : من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة أيام بعثنا به إلى المطيريق (سجن) ، فهرب الناس وامتنعوا من المصير إليه ، وحرث ذلك الموضع وزرع ما حوالبه (٣) . وقد أثار المتوكل بهذه السياسة حفيظة المسلمين ، وخاصة أهل بغداد الذين ردوا على الأمانات التي ألحقها بالعلويين بسبه في المساجد والطرقات .

بالله إن كانت أمية قد أتت قتل ابن بنت نبيها مظلوماً  
فلقد أتاه بنو أبيه بمثله هذا لعمرى قبره مهدوماً  
أسفوا على ألا يكونوا شاركوا في قتله فتبعوه ربما (٤)

### ٣ - حالة الدولة في عهده :

استوزر المتوكل محمد بن عبد الملك الزيات . ولما قتله اتخذ أحد كتبه ، وكان يسمى أبا الوزير ، كاتباً ولم يلقبه بلقب الوزير ، ثم نكبه واستوزر أبا جعفر محمد بن الفضل الجرجاني ، ثم عزله واستوزر عبيد الله بن يحيى بن خاقان .

ومن الآفات الطبيعية التي وقعت في عهد المتوكل هبوب عاصفة شديدة على بغداد والبصرة والكوفة وغيرها من مدن العراق ، فاحترق الزرع والماشية ، وانقطعت المواد الغذائية عن الأسواق في بغداد وغيرها ، فانتشرت المجاعة وهلك كثير من الناس .

وقد انتهز الروم فرصة الضعف الذي طرأ على الدولة العباسية ، فاستأنفوا إغاراتهم على أراضيها ، فأغاروا على دمياط وفتكوا بأهلها وأحرقوا دورهم ، ثم غزوا قالي فلا (قيلقيا) في جنوبي آسيا الصغرى

(١) الخطيب البغدادي : كتاب تاريخ بغداد ج ٧ ص ١٦٩ - ١٧٠ .

(٢) كتاب مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٩ .

(٣) ج ١١ ص ٤٤ .

(٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٣٠ .

وهزموا أهلها هزيمة منكرة ، إلى غير ذلك من الحروب التي سيأتى الكلام عليها في باب العلاقات الخارجية .

ويظهر أن المتوكل كان يروم نقل الخلافة إلى الشام ويجعل العرب عمادها وأعوانها ، تبرماً بالترك وكثرة ما أحدثوا في الدولة من فوضى وإفساد للشئون العامة ، حتى ضاق بهم أهالى العراق ولم ينج من شرهم الخلفاء .

٤ - صفات المتوكل :

كان المتوكل منهمكاً في ملاذته مدمناً لشرب الخمر ، وكان مشغولاً بشيخة أم ولده المعتز . وقد سميت بذلك لحسنها وجمالها كما كان يسمى الأسود كافورا . روى المسعودى<sup>(١)</sup> عن علي بن الجهم قال : لما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله ، أهدى إليه الناس على أقدارهم ، وأهدى إليه ابن طاهر هدية فيها مائتا وصيفة ووصيف . وفي الهدية جارية يقال لها محبوبة كانت لرجل من أهل الطائف قد أدبها وثقفها وعلماها من صنوف العلم . وكانت تحسن كل ما يحسنه علماء الناس ، لحسن موقعها من المتوكل وحلت من قلبه محلاً جليلاً لم يكن أحد يعدلها عنده . قال علي : فدخلت عليه يوماً المنادمة . فلما استقر في المجلس قام فدخل بعض المقاصير ثم خرج وهو يضحك ، فقال : ويلك يا علي ! دخلت فرأيت قينة قد كتبت في خدها بالمسك جعفرًا ، فما رأيت أحسن منه ، فقل فيه شيئاً ، فقلت : ياسيدي أنا وحدي أو أنا ومحبوبة ؟ قال : لا بل أنت ومحبوبة . قال : فدعوت بدواة وقرطاس ، فسبقتني إلى القول ، ثم أخذت العود فترنمت ثم خفقت عليه حتى صاغت له لحناً ، وتضاحكت ملياً ثم قالت : يا أمير المؤمنين : تأذن لي ، فأذن لها فغنت :

وكاتبته في الخد بالمسك جعفرًا	بنفسى محط المسك من حيث أنثرا
لئن أودعت خطأ من المسك خدها	لقد أودعت قلبي من المسك أسطرا
فيا من لمملوك يظل مليكاً	مطيعاً له فيما أمر وأجهرًا
ويا من لعيني من رأى مثل جعفر	سقى الله صوب المستهلات جعفرًا

وقد عرف المتوكل بالسخاء والجود . مدحه البحرى في هذه الآيات فقال :

بسر من را لنا إمام	تعرف من بحره البحار
خليفة يُرتجى ويخشى	كانه جنةً ونار
كلنا يديه تفيض سحاً	كانها ضرةً تغار
فليس تأتي العين شيئاً	إلا أنت مثله اليسار
فالملك فيه وفي بنيه	ما اختلف الليل والنهار

واشتهر المتوكل بالحلم . فقد ذكر محمد بن أبي عون أنه لما أتى بمحمد بن المُنْثَبِث إلى

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩٥ - ٣٩٦ .

(٢) الخطيب البغدادي : كتاب تاريخ بغداد ج ٧ ص ١٦٧ - ١٦٨ .

المتوكل ، وقد دعا له بالتطوع والسيف قال له : يا محمد ! مادعاك إلى المشاقفة ؟ قال : الشَّقْوة يا أمير المؤمنين ، وأنت ظل الله الممدود بيته وبين خلقه . إنَّ لي فيك لظنَّين أسبقهما إلى قلبي أولاها بك ، وهو العفو عن عبدك ، وأنشأ يقول :

أبي الناس إلا أنك اليوم قاتلي      إمام الهدى والعفو بالحر أجمل  
وهل أنا إلا جِبيلة من خطيئة      وعفوك من نور النبوة يجمل ؟  
تضامل ذنبي عند عفوك قلةً      فمن لي بفضل منك والمن أفضل  
لأنك خير السابقين إلى العلا      وأنت خير الفعلين ستفعل  
فقال المتوكل : أفعل خيرهما وأمن عليك ، ارجع إلى منزلك . قال ابن المغيث : يا أمير المؤمنين : الله أعلم حيث يجعل رسالته .

٥ — تولية المتوكل أولاده العهد :

وفي سنة ٢٣٥ هـ ولي المتوكل العهد أولاده : محمداً وسماه المنتصر ، وأبا عبد الله بن قبيصة ولقبه المعتر ، وإبراهيم وسماه المؤيد ، وعقد لكل واحد منهم لوا من ، أحدهما أسود وهو لواء العهد ، والآخر أبيض وهو لواء العمل <sup>(١)</sup> . وقد مدحه الشعراء على أثر توليته العهد أولاده فقال مروان ابن أبي الجنوب :

ثلاثة أملاك : فأما محمد      فنور هدى يهدي به الله من يهدى  
وأما أبو عبد الإله فانه      شبيهك بالتقوى ويجدى كما تجدى  
وذو الفضل إبراهيم للناس عصمة      تقى وفي بالوعيد وبالوعد  
فأولهم نور وثانيهم هدى      وثالثهم رشد وكلهم مهدي <sup>(٢)</sup>

على أن المتوكل رأى أن يقدم ابنه المعتر على أخويه المؤيد والمنتصر ، لحبته لقبحة أم المعتر . ويظهر أن ذلك كان راجعاً إلى ما حاكه رجال بلاطه من دسائس لإفصاء المنتصر والمؤيد . فقد ذكر الطبري <sup>(٣)</sup> أنه وكان قد شاع في الناس في أول رمضان أن أمير المؤمنين يصلي في آخر جمعة من الشهر بالناس ، فاجتمع الناس لذلك واحتشدوا ، وخرج بنو هاشم من بغداد لرفع القصص وكلامه إذا ركب . فلما كان يوم الجمعة أراد الركوب للصلاة ، فقال له عبيد الله بن يحيى والفتح بن خاقان : يا أمير المؤمنين ! إن الناس قد اجتمعوا وكثروا من أهل بيتك ، وبعض متظلم وبعض طالب حاجة ، وأمير المؤمنين يشكو ضيق الصدر ووعكة ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بعض ولادة العبود بالصلاة ونكون معه جميعاً فليفعل ، فقال : قد رأيت ما رأيتم ، فأمر المنتصر بالصلاة . فلما نهض المنتصر ليركب للصلاة قال : يا أمير المؤمنين ! قد رأينا رأياً وأمير المؤمنين أعلى عينا ، قال : وما هو ؟

(١) الطبري ج ١١ ص ٣٨

(٢) السعدي : مروج الذهب ج ٢ ص ٤٠٢

(٣) ج ١١ ص ٦٢ - ٦٣

أعرضه عليّ . قالوا : يا أمير المؤمنين ! مر أبا عبد الله المعتز بالصلاة لتشرفه بذلك في هذا اليوم الشريف ، فقد اجتمع أهل بيته والناس جميعاً ، فقد بلغ الله به . وقد كان ولد للمعتز قبل ذلك يوم ، فأمر المعتز فركب وصلى بالناس ، فأقام المنتصر في منزله - وكان بالجعفرية - وكان ذلك مما زاد في إغرائه . فلما فرغ المعتز من خطبته قام إليه عبيد الله بن يحيى والفتح بن خاقان فقبلا يديه ورجليه ، وفرغ المعتز من الصلاة ، فانصرف وانصرفا معه ، ومعهم الناس في موكب الخلافة ، والعالم بين يديه ، حتى دخل على أبيه وهما معه . ودخل معه داود بن محمد بن أبي العباس الطشوسي ، فقال داود : يا أمير المؤمنين ! إئذن لي فأتكلم ، قال : قل ، فقال : والله يا أمير المؤمنين ! لقد رأيت الأمين والمأمون والمعتصم صلوات الله عليهم . ورأيت الواثق بالله ، فوالله ما رأيت رجلاً على منبر أحسن قواماً ، ولا أحسن بديهاً ، ولا أجهر صوتاً ، ولا أعذب لساناً ، ولا أخطب من المعتز بالله أعزه الله يا أمير المؤمنين ببقائك ، وأمتعك الله وإيانا بحياته . فقال له المتوكل : أسمعك الله خيراً ، وأمتعنا بك . فلما كان يوم الأحد ، وذلك يوم الفطر ، وجد المتوكل فترة فقال : مروا المنتصر فليصل بالناس ، فقال له عبيد بن يحيى بن خاقان : يا أمير المؤمنين ! قد كان الناس تطلعوا إلى رؤية أمير المؤمنين في يوم الجمعة ، فاجتمعوا واحتشدوا ، فلم يركب أمير المؤمنين ، ولا نأمن إن هو لم يركب أن يرجف الناس بعلته ، ويتكلموا في أمره ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يسرّ الأولياء . ويُكسب الأعداء بركوبه فعل ، فأمرهم بالتأهب والتهيؤ لركوبه ، فركب ، فصلى بالناس ، وانصرف إلى منزله ، فأقام يومه ذلك ، ومن الغد لم يدع بأحد من ندماته .

#### ٦ - قتل المتوكل :

ولكن المنتصر غضب لذلك فدبر مع الأتراك مؤامرة لاغتيال أبيه . ولا غرو ، فقد حاول بعض الأتراك الملتفين حول المنتصر قتل المتوكل غيلة بدمشق ، ولكنهم أخفقوا في تديريهم بفضل بُسفا الكبير والفتح بن خاقان (١) .

(١) ذكر المسعودي ( مروج الذهب ج ٢ ص ٣٨٩ - ٣٩٠ ) : « وقد كان الأتراك قد رأوا أنهم يقتلون المتوكل بدمشق ، فلم يمكنهم فيه حيلة بسبب بفا الكبير ، فانهم دبروا في إبعاده عنه ، فطرحوا في مضرب المتوكل الرقاع يقولون فيها إن بفا دبر أن يقتل أمير المؤمنين ، والعلامة في ذلك أن يركب في يوم كذا في خيله ورجله فيأخذ عليه أطراف عسكره ، ثم يأخذ جماعة من الفلمان العجم يدخلون عليه فيفتكون به . فقرأ المتوكل الرقاع فبهت مما تضمنته ودخل في قلبه من بفا كل مدخل ، وشكا إلى الفتح ذلك وقال له في أمر بفا والاقدم عليه وشاوره في ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين ! إن الذي كتب الرقاع قد جعل للأمر دلائل في وقت بعينه من ركوب الرجل الأطراف من العسكر وتوكيله بنواحيه ، وبعد ذلك يتبين الأمر . وأنا أرى أن تمسك ، فإن صح هذا الدليل نظرنا كيف يفعل ، وإن بطل ما كتب به فالحمد لله ، وأقبلت الرقاع تطرح في كل وقت على جهة النصيح والصدق . فلما علموا بما علم به الخليفة وتمسك به ما عندهم من الأمر كتبوا رقاعاً فطرحوها في مضرب بفا يقولون فيها إن جماعة من الفلمان والأتراك قد عزموا على الفتك بالخليفة في عسكره ودبروا ذلك وانفقوا عليه وتماقدوا على أن يأتوه من نواحي كذا ونواحي كذا . فالله الله إلا ما احتزست لأمر المؤمنين وحرصته في هذه الليلة من هذه المواضع وحصنتها بنفسك ومن تثق به ، فانا قد تصحنا وصدقنا . وأكثروا طرح الرقاع بهذا =

على أن بغا الصغير اتفق مع باغر التركي على قتل المتوكل . ويقول المسعودي (١) : ومضى نحو ثلاث ساعات من الليل ، فأقبل باغر ومعه عشرة نفر من الأتراك وهم مثلثون ، والسيوف في أيديهم تبرق في ضوء تلك الشموع ، فهجموا علينا وأقبلوا نحو المتوكل حتى صعد باغر وآخر معه من الأتراك على السرير ، فصاح بهم الفتح : ويلكم مولاكم . فلما رآه الغلبان ومن كان حاضراً من الجلساء والندماء تطايروا على وجوههم ، فلم يبق أحد في المجلس غير الفتح وهو يحاربهم ويمانهم . قال البيهقي : فسمعت صيحة المتوكل وقد ضربه باغر بالسيف الذي كان المتوكل دفعه إليه على جانبه الأيمن ففداه إلى خاصرته ثم ثناه على جانبه الأيسر ففعل مثل ذلك . وأقبل الفتح يمانهم عنه فبعجه واحد منهم بالسيف الذي كان معه في بطنه فأخرجه من مته وهو صابر لا يتنحي ولا يزول . فما رأيت أحداً كان أقوى نفساً ولا أكرم منه ، ثم طرح بنفسه على المتوكل فانا جميعاً . فلما في البساط الذي قتلا فيه وطرحا ناحية ، فلم يزالا على حالتها في ليلتهما وعامة نهارهما حتى استقرت الخلافة للنتصر ، فأمر بهما فدفنا جميعاً .

ومن هنا نتبين مدى تغفل نفوذ الأتراك في الدولة العباسية وأثرهم في تصريف شئونها فيما بعد ، حتى إن الخليفة العباسي قد أصبح مسلوب السلطة مبهض الجانب ضعيف الإرادة .

وكانت أيام المتوكل — كما يقول المسعودي (٢) — في حسناتها ونضارتها ورفاهية العيش بها وحده الخاص والعام لها ورضاهم عنها أيام سراء لا ضراء كما قال بعضهم : كانت خلافة المتوكل أحسن من أمن السيل ورخص الشعر وأمان الحب وأيام الشباب .

ويقول ميور (٣) : إن مدح المؤرخين لعهد المتوكل الذي دام خمس عشرة سنة أعاد في خلالها المذهب السني إلى ما كان عليه ، وشجع الشعراء والعلماء ، يخفف بعض الشيء عما اشتهر به هذا العهد من الظلم المنطوي على القسوة والانفاس في الملاذ والتطرف في الآراء الدينية .

المعنى والتوكيد في حراسة الخليفة . فلما وقف بغا عليها وتتابعت عليه لم يأمن أن يكون ما كتب إليه فيها حقاً مع ما كان وقع عليه من الأمر قبل ذلك . فلما كانت الليلة التي ذكروها جمع جيوشه وأمرهم بالركوب بالسلاح وركب بهم إلى المواضع التي ذكرت ، فاخذها على المتوكل وحرصها ، واتصل الخبر بالمتوكل ، فلم يشك أن ما كتب له حق ، فأقبل يتوقع من يوافيه فيقتك به . وسهر ليلته وامتنع من الأكل والشرب ، فلم يزل على هذه الحال إلى الغداة ، وبغا يحرسه والأمر عند المتوكل على خلاف ذلك . واتهم بغا واستوحش من فعله . فخلفه على الشام وانصرف ، فاحدث الموالى عليه ما أحدثوا ، فلم يعلم المتوكل وجه الحيلة ، ولم يعلم كل واحد منهما الحيلة في ذلك إلى أن تمت الحيلة .

(١) ج ٢ ص ٣٩٣ .

(٢) ج ٢ ص ٣٩٤ .

(٣) Muir : The Caliphate, p. 530. (٣)

## المتنصر بالله

٢٤٧ - ٢٤٨ هـ = ٨٦١ - ٨٦١ - ٨٦٢ م

١ - بيعته :

خلف المتوكل ابنه وقاتله المتنصر بالله في شوال سنة ٢٤٧ هـ ، وادعى أن الذي قتل أباه هو الفتح بن خاقان ، وأنه قتله أخذاً بثأر أبيه . وبايعه الناس بالخلافة ، وبعث بنسخة البيعة إلى الأمصار وهاك نصها نقلها عن الطبري<sup>(١)</sup> : بسم الله الرحمن الرحيم : تبايعون عبد الله المتنصر بالله أمير المؤمنين بيعة طوع واعتقاد ورضاً ورغبة باخلاص من سرائركم وانسراح من صدوركم وصدق من نيانتكم ، لا مكرهين ولا مجبرين ، بل مقرين عالمين بما في هذه البيعة وتأكيدها من طاعة الله وتقواه وإعزاز دين الله وحقه ، ومن عموم صلاح عباد الله ، واجتماع الكلمة ولم الشَّعَث ، وسكون الدُّهُمَاء ، وأمن العواقب وعز الأولياء . وقع الملحدون ، على أن محمداً الامام المتنصر بالله عبد الله وخليفته المفترض عليكم طاعته ومناصحته والوفاء بحقه وعتقده ، لا تشكون ولا تدهنون ولا تميلون ولا ترتابون . وعلى السمع له والطاعة والمسألة والنصرة والوفاء والاستقامة والنصيحة في السر والعلانية ، والخفوف والوقوف عند كل ما يأمر به عبد الله الإمام المتنصر بالله أمير المؤمنين ، وعلى أنكم أولياء وأولياؤه وأعداء أعدائه من خاص وعام ، وأبعد وأقرب ، وتمسكون ببيعته بوفاء العقد وذمة العهد ، سرائركم في ذلك مثل علانيتكم ، وضامركم مثل ألسنتكم ، راضين بما يرضاه لكم أمير المؤمنين في عاجلكم وآجلكم ، وعلى إعطائكم أمير المؤمنين بعد تجديدكم بيعته هذه على أنفسكم وتأكيدهم إياها في أعناقكم صفةً أيما نكم ، راغبين طائعين عن سلامة من قلوبكم وأهوائكم ونياتكم ، وعلى أن لا تسعوا في نقض شيء مما أكد الله عليكم ، وعلى أن لا يميل بكم بميل في ذلك عن نصرة وإخلاص ونصح وموالاته ، وعلى أن لا تبدلوا ولا يرجع منكم راجع عن نيته وانطوائه إلى غير علانيته ، وعلى أن تكون بيعتكم التي أعطيتكم بها ألسنتكم وعهودكم بيعة يطلع الله من قلوبكم على اجتنابها واعتقادها ، وعلى الوفاء بدمته بها ، وعلى إخلاصكم في نصرتها وموالات أهلها ، لا يشوب ذلك منكم كدغل ولا إدهان ولا احتيال ولا تناول حتى تلقوا الله موفين بعهدكم ومؤدين حقه عليكم ، غير مستشرفين ولا ناكثين ، إذ كان الذين يبايعون منكم أمير المؤمنين إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فأنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً . عليكم بذلك وبما أكدت هذه البيعة في أعناقكم ، وأعطيتكم بها من صفة إيمانكم وبما اشترط عليكم بها من وفاء ونصر وموالاته واجتهاد ونصح . وعليكم عهد الله إن عهده كان مشولاً ، وذمة الله وذمة رسوله وأشد ما أخذ على أنبيائه ورسوله وعلى أحد من عباده من تأكد وثاقه أن تسمعوا ما أخذ



عليكم في هذه البيعة ولا تبدلوا ولا تعصوا ، وأن تخلصوا ولا تراتبوا ، وأن تمسكوا بما عاهدتم عليه تمسك أهل الطاعة بطاعتهم وذوى العهد والوفاء بوفائهم وحقهم ، لا يلقنكم عن ذلك هوى ولا ميل ولا يزيدكم فيه ضلال عن هدى ، بأذنين في ذلك أنفسكم واجتهادكم ، ومقدمين فيه حق الدين والطاعة بما جعلتم على أنفسكم ، لا يقبل الله منكم في هذه البيعة إلا الوفاء بها . فمن نكث منكم من يبيع أمير المؤمنين هذه البيعة عما أكد عليه مُسراً أو معلناً أو مصرحاً أو محتالاً ، فادهن فيما أعطى الله من نفسه ، وفيما أخذت به موثيق أمير المؤمنين وعهود الله عليه ، مستعملاً في ذلك الهوينى دون الجد والركون إلى الباطل دون نصرة الحق ، وزاغ عن السبيل التي يعتصم بها أولو الوفاء منهم بعهودهم ، فكل ما يملك كل واحد من خان في ذلك بشيء نقض عهده من مال أو عقار أو سائمة أو زرع أو ضرع ، صدقة على المساكين في وجوه سبيل الله ، محرم عليه أن يرجع شيء من ذلك إلى ماله عن حيلة يقدمها لنفسه أو يحتال بها . وما أفاد في بقية عمره من فائدة مال يقل خطرهما ، أو يجلب قدرهما ، فتلك سبيله إلى أن توافيه منيته ، ويأتي عليه أجله . وكل مملوك يملكه اليوم إلى ثلاثين سنة من ذكر أو أنثى أحرار لوجه الله ، ونساؤه في يوم يلزمه الحنث ومن يتزوجه بعدهن إلى ثلاثين سنة طوالق البتة طلاق الحرج والسنة لا مثنوية فيه ولا رجعة ، وعليه المشى إلى بيت الله الحرام ثلاثين حجة ، لا يقبل الله منه إلا الوفاء بها وهو برى من الله ورسوله ، والله ورسوله منه بريتان ، ولا قبيل الله منه صرفاً ولا عدلاً . والله عليكم بذلك شهيد ، وكفى بالله شهيداً .

٢ - خلع أخويه من ولاية العهد :

ولما تمت البيعة المنتصر حسن إليه الأتراك خلع أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد ، إذ كانوا يخشون بأسيهما . وقال أحمد بن الحنصيص الذي استوزره المنتصر ، ولم يكن ملماً بشئون الدولة حتى ساءت حالة البلاد في عهده ، وفقد محبة الشعب له ، لكثرة من لحقهم من الأذى بسببه : « إنا لانأمن من الحدثنان وأن يموت أمير المؤمنين ، فبلى الأمر المعتز ، فلا يبقى منا باقية ، ويسيد خضراءنا . والرأى أن نعمل في خلع هذين الغلامين قبل أن يظفرا بنا . نجد الأتراك في ذلك وألحوا على المنتصر وقالوا : يا أمير المؤمنين ، تخلفهما من الخلافة وتبايع لابنك عبد الوهاب ، فلم يزالوا به حتى قبل . ولم يزل مكرهما المعتز والمؤيد على ميل منه شديد إلى المؤيد . فلما كان بعد أربعين يوماً من ولايته ، أمر بإحضار المعتز والمؤيد بعد انصرافهما من عنده ، فأحضرا وجعلا في دار ، فقال المعتز للمؤيد : يا أخى ! لم ترانا أحضرتنا ؟ فقال : يا شقى للخلع ، فقال : لا أظنه يفعل بنا ذلك . فبيناهم كذلك إذ جاءهم الرُّسُل بالخلع ، فقال المؤيد : السمع والطاعة ، وقال المعتز : ما كنت لأفعل ، فان أردتم القتل فشاؤكم ، فرجعوا إليه فأعلموه ، ثم عادوا بعاظلة شديدة فأخذوا المعتز بعنف وأدخلوه إلى بيت ، وأغلقوا عليه الباب (١) ، ثم أصغى إلى نصيحة أخيه المؤيد ، وأجاب إلى النزول عن ولاية العهد ؛ وكتب كل من المؤيد والمعتز كتاباً بخلع نفسه أملاه عليه كاتب من قبل الخليفة (٢) . وكتب كل واحد

(١) الطبرى ج ١١ ص ٧٥-٧٦ .

(٢) المصدر نفسه ج ١١ ص ٧٦ . راجع نسخة الخلع في الطبرى ج ١١ ص ٧٧-٧٩ .

منهما رقعة بخطه أنه خلع نفسه من البيعة التي يوبع له ، وأن الناس في حل من حلها ونقضها وأنها يعجزان عن القيام بشئ منها .

ويقول المؤيد : « وخرجنا فدخلنا وهو ( الخليفة المنتصر ) في مجلسه والناس على مراتبهم ، فسلمنا فردوا ، وأمر بالجلوس ، ثم قال : هذا كتابك ؟ فسكت المعتز ، فبدت فقلت : نعم يا أمير المؤمنين ، هذا كتابي بمسألتى ورغبتي ، وقلت للمعتز : تكلم ، فقال مثل ذلك ، ثم أقبل علينا والأتراك وقوف ، وقال : أترياني خلعتكما طمعا في أن أعيش حتى يكبر ولدى وأبابع له ؟ والله ما طمعت في ذلك ساعة قط ، وإذا لم يكن في ذلك طمع ، فوالله لأن يليها بنو أبي أحب إلي من أن يليها بنو عمي ، ولكن هؤلاء ، وأوما إلى سائر الموالى ممن هو قائم وقاعد ، ألحوا علي في خلعتكما ، تخفت إن لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة فيأتي عليكما ، فأترياني صانعا ؟ أقتله ، فوالله ما تقي دماؤهم كلهم بدم بعضكم ، فكانت إجابتهم إلى ما سألوا أسهل علي ، فأكبا عليه فقَبَلَا يده ، فضمهما إليه ثم انصرفا . »

...

كان المنتصر بخلاف أبيه يحسن إلى العلويين ، فأزال عنهم ما كانوا فيه من الخوف ، وسمح لهم بزيارة قبر الحسين ، وكان أبوه قد منعهم من ذلك ، فأشدد يزيد المهلبى .

ولقد بررت الطالبيه بعد ما      ذموا زمانا بعدها وزمانا  
ورددت ألفسة هاشم فرأيتهم      بعد العداوة بينهم إخوانا

### ٣ - صفات المنتصر :

« كان المنتصر - علي ما وصفه ابن الأثير (١) - عظيم الحلم راجح العقل غزير المعروف راغبا في الخير جوادا كثير الإنصاف حسن العشرة . »

وقد روى المسعودى (٢) أن علي بن يحيى المنجم قال : « ما رأيت أحدا مثل المنتصر ، ولا أكرم أفعالا بغير تبجح منه ولا تكلف . لقد رأيت يوما وأنا مغموم شديد الفكر بسبب ضيعة مجاورة لضيعتى ، وكنت أحب شراءها ، فلم أزل أعمل الخيلة على مالكمها حتى أجابنى إلى بيعها ، ولم يكن عندى في ذلك الوقت قيمة ثمنها . فصرت إلى المنتصر وأنا على تلك الحال ، فتبين الانكسار في وجهى وشغل القلب فقال لى : أراك مفكرا فما قضيتك ؟ فجعلت أزوى عنه خبرى وأستر قصتى ، فاستحلفتى فصدقته عن خبر الضيعة فقال لى المنتصر : فكم مبلغ ثمنها ؟ فقلت ثلاثون ألف درهم . قال : فكم عندك منها ؟ قلت : عشرة آلاف ، فأمسك عنى ولم يجيبنى وتشاغل عنى ساعة ، ثم دعا بدواة وبطاقة ثم وقع فيها بشئ . لا أدرى ما هو ، وأشار على خادم كان على رأسه بما لم أفهم . فضى الغلام

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٠٣ - ٤٠٤ .

(١) ج ٧ ص ٣٩ .

مسرعاً، وأقبل يشغلني بالحديث ويطاعمني الكلام إلى أن أقبل الغلام فوقف بين يديه ، فنهض المنتصر وقال : يا علي إذا شئت فأنصرف إلى منزلك . وقد كنت قدرت عند مسألته أنه سيأمر لي بالثمن أو نصفه . فأثيت وأنا لا أعقل غما . فلما وصلت إلى داري استقبلني وكيلي ، فقال : إن خادم أمير المؤمنين صار إلينا ومعه بغل عليه بدرتان ، فسلمهما إليّ وأخذ خطي بقبضهما . قال : فداخلتني من الفرح والسرور ما لم أملك به نفسي ، ودخلت وأنا لا أصدق قول الوكيل حتى أخرج إليّ البدرتين ، فحمدت الله تعالى على ما جباه لي ، ووجهت في وقتي إلى صاحب الضيعة فوفيته الثمن وتشاغلت سائر يومى بتسليمها والإشهاد بها على البائع ، ثم بكرت إلى المنتصر من الغد ، فما أعاد عليّ حرفاً ولا سألني عن شيء من خير الضيعة حتى فرق الموت بيننا .

٤ - وفاة المنتصر :

وعلى الرغم من أن المنتصر كان يعطف على الأتراك قبل قتل أبيه ، إلا أنه لم يلبث أن غضب عليهم وصار يسبهم ويقول : « هؤلاء قتلة الخلفاء » ، ففكروا في قتله وأغروا طبيبه ابن طيفور بذلك وأعطوه ثلاثين ألف دينار ، فقصده بريشة مسمومة ، فمات في ٥ ربيع الآخر سنة ٥٢٤٨ وله من العمر ست وعشرون سنة . يقول صاحب الفخرى<sup>(١)</sup> : « كان المنتصر شهماً فاتكاً سفاكاً للدم . لما قتل أباه تحدث الناس بأنه لا يطول له العمر بعده ، وشبهوه بشيرويه بن كسرى حين قتل أباه ولم يستمتع بالملك بعده . قالوا : لما قتل المنتصر أباه وبويع له بالخلافة ، جلس على بساط لم ير الناس مثله ، وعليه كتابة عجيبة بالفارسية ، فنظر إليها المنتصر واستحسنها ، وقال لمن حضر : هل تعرفون معناها ؟ فأحجموا وقالوا لا نعرف ، فاستحضر رجلاً عجمياً غريباً وأمره بقراءتها فأحجم الرجل ، فقال له المنتصر : قل وما عليك بأس ، فليس لك ذنب . فقال الرجل : على هذا البساط مكتوب أنا شيرويه بن كسرى قتلت أبي فلم أتمتع بالملك بعده إلا ستة أشهر . فطيسر المنتصر من ذلك ، ونهض من مجلسه مغضباً ، فلم تم ستة أشهر حتى مات . »

## المستعين بالله

٢٤٨ - ٢٥٢ هـ = ٨٦٢ - ٨٦٦ م

ولما مات المنتصر اجتمع القواد وتشاوروا فيمن يولونه الخلافة بعده ، وأجمعوا رأيهم على تولية أحمد بن محمد بن المعتصم وبايعوه وله من العمر ثمان وعشرون سنة ، ولقب المستعين بالله . وكان العباسيون لا يأمنون جانب الأتراك ، كما كان هؤلاء يعملون على تولية الخلافة من بطمئنون إليه من أمراء البيت العباسي . لذلك لم يرضوا بأن يولوا أحدا من أولاد المتوكل حتى لا يثار منهم لقتل أبيه المتوكل وسم أخيه المنتصر . يدل على صحة هذا القول ما ذكره ابن الأثير (١) « أن المنتصر لما توفي اجتمع الموالي على الهارونية . . . وفيها بغا الكبير وبغا الصغير وأتامش وغيرهم ، فاستحلفوا قواد الأتراك والمغاربة والأشروسنية على أن يرضوا بمن رضى به بغا الكبير وبغا الصغير وأتامش ، وذلك بتدبير أحمد بن الحنصيص ، لحلفوا وتشاوروا وكرهوا أن يتولى الخلافة أحد من ولد المتوكل لئلا يقتلهم ، وأجمعوا على أحمد بن محمد بن المعتصم ، وقالوا لا تخرج الخلافة من ولد مولانا المعتصم ، فبايعوه . »

على أن الأتراك ، وعلى رأسهم باغر التركي الذي اشترك في قتل الخليفة المتوكل ، سرعان ما قبلوا للمستعين ظهر المجن ، ولا سيما بعد أن اتصل بمسامعهم أنه عول على القضاء عليهم . وهنا انقسم الأتراك على أنفسهم : فريق منهم ، وعلى رأسه وصيف وبغا ، صحب الخليفة إلى بغداد ، وفريق آخر طلب إليه العودة إلى سامرا ، واعتذروا عما بدر منهم ، فامتنع عن تلبية طلبهم (٢) . وفي هذه الفتنة يقول أحمد بن الحارث البهائي :

لعمرى لئن قتلوا باغراً لقد هاج باغراً حرباً طححونا  
وفرى الخليفة والقائدا ن بالليل يلتمسان السفينا  
فألزمهم بطن حرافة وصرعت مجاديفهم سائرنا  
وصاحوا بميسان ملاحهم خيامهم يسبق الناظرينا  
وما كان قدر ابن مارمة (٣) فنكسب فيه الحروب الزبونا  
ولكن دليل سعى سعيته فأخزى الإله بها العالمينا  
فل يبغداد قبل الشروق فحل بها منه ما بكرهونا  
فليت السفينة لم تأتسا وغرقها الله والراكينا

(٢) السعدي : مروج الذهب ج ٢ ص ٤٠٧ - ٤٠٨

(١) ج ٧ ص ٤٠

(٣) لما قدموا ( الأتراك ) بغداد اعتل ابن مارمة فعاده دليل بن يعقوب فقال له : ما سبب علتك ؟ قال :

عقر القيد انتفض على ، فقال دليل : لئن عقرك القيد لقد نقصت الخلافة وبعت فتنة . الطبري ج ١١ ص ٩٧

وأقبلت الترك والمغربون وجاء الفراغنة الدار عونا  
تسير كراديسهم في السلاح بروحون خيلا ورجلا تُسبينا  
فقسام بحرهم عالمٌ بأمر الحروب تولاه حيناً  
فجدد سوراً على الجانبين حتى أحاطهم أجمعينا  
وأحكم أبوابها المصمتات على السور يحمي بها المستعينا  
وعبى قروضا وجيشية ألوف ألوف إذا تحسبونا  
وهيا مجانيق خطارة تشفيت النفوس وتحمي العرينا  
وعبى المجانيق منظومة على السور حتى أعار العيوننا (١)

ولما رأى الأتراك تشكر المستعين بن محمد بن المعتصم لهم وامتناعه عن العودة إلى سامرا ، خلعه و بايعوا ابن عمه المعتز بن المتوكل . ومن ثم قامت الحرب بينهما ودامت عدة أشهر ، وأثر ذلك في حالة البلاد الاقتصادية ، فقلت الأسعار ، وعظم البلاء . ويقول ابن الأثير (٢) عن حصار المستعين ببغداد : « ثم إن المعتز عقد لأخيه أبي أحمد بن المتوكل ، وهو الموفق ، لسبع بقين من المحرم على حرب المستعين ومحمد بن عبد الله ، وولاه ذلك وضم إليه ، وضم إليه الجيش وجعل إليه الأمور كلها وجعل التدبير إلى كلباتكين التركي ، فسار في خمسين ألفاً من الأتراك والفراغنة وألفين من المغاربة . فلما بلغ عكبرا صلى بها وخطب للمعتز وكتب بذلك إلى المعتز ، فذكر أهل عكبرا أنهم كانوا على خوف شديد من مسير محمد بن عبد الله إليهم ومحاربتهم ، فاتهبوا القرى ما بين عكبرا وبغداد فخربت الضياع وأخذ الناس في الطريق . ولما وصل أبو أحمد إلى عكبرا هرب إليه جماعة من أصحاب بقا الصغير . ووصل أبو أحمد وعسكره باب الشماسية لسبع خلون من صفر ، فقال بعض البصريين ، ويعرف بياذنجانة :

يا بني طاهر أتسم جنود الله والموت بينها مشهور  
وجيوش إمامهم أبو أحمد نعم المولى ونعم النصير

وقد ذكر المسعودي (٣) أن الخليفة المستعين لما أنهزم ، استجار بمحمد بن عبد الله بن طاهر فخذله ومال إلى المعتز . وقال في ذلك أحد شعراء بغداد في ذلك العصر :

أطافت بنا الأتراك حولا مُسحَرَمًا وما برحت في جحرها أم عامر  
أقامت على ذلها ومهانة فلما بدت أبدت لنا لؤم غادر  
ولم ترع حق المستعين فأصبحت وأبقت لها عاراً على آل طاهر  
لقد جمعت لؤماً وخبثاً وذلة وأبقت لها عارا على آل طاهر  
ولما خلع المستعين انصرف أبو أحمد الموفق من بغداد إلى سامرا ، فخلع عليه المعتز وتوج ووشح

(١) الطبري ج ١١ ص ٩٦ - ٩٧ . (٢) ج ٧ ص ٤٩ - ٥٠ .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٢٠ .

بوشاحين ، وخلع على من كان معه من قواده ، وقدم على المعتز عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أخو محمد بن عبد الله بالبرد والقضيب والسيف ، وبجوهر الخلافة .

بويح المعتز بالخلافة وله من العمر تسع عشرة سنة . وقد وصف أحد الشعراء حالة الخلافة العباسية في ذلك العصر وما وصلت إليه من ضعف ووهن ، وكيف استبد الأتراك بالسلطة وتسلطوا على أرواح الخلفاء ، حتى أصبحت توليتهم وعزلهم من مميزات ذلك العصر فقال :

خلع الخليفة أحمد بن محمد وسيقتل التالى له أو يخلع  
ويزول ملك بنى أبيه ولا ترى أحدا يملك منهم يتمتع  
إيها بنى العباس ان سليلكم في قتل أعبدكم سليل مهيّس (١)  
رقتم دنياكم فتمزقت بكم الحياة زقا لا يُرقتع (٢)

أخرج الخليفة المعزول إلى واسط واختار الأتراك أحمد بن طولون ليصحبه ، فأحسن إليه ، وأطلق له الحرية في التنقل والصيد . وعلى الرغم من ذلك الفوز الذى أحرزه الأتراك بخلع المستعين ونفيه ، أوجسوا اشرا من بقاءه حياً ، وأوعزوا إلى المعتز أن خلافته لن تثبت إلا إذا قتل المستعين ، ووافقهم على ذلك قبيحة أم المعتز التى خافت على حياة ولدها أن تمتد إليه يد الأعداء ، فكتبوا إلى ابن طولون يطلبون إليه قتل المستعين ويمنونه ولاية واسط ، فلم يرض أن يقتل خليفة له فى رقبته بيعة ، فأرسلوا سعيدا الخادم أحد حجاب القصر فى شردمة من الجيش إلى واسط ، فتولى قتل الخليفة بنفسه (٣) .

وصفوة القول أن موقف المستعين من الأتراك كان كما وصفه أحد الشعراء :

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا  
يقول ما قال له كما تقول البهيشغا

وقال البحرى فى قتله :

لله در عصابة تركية ردوا نواب دهرهم بالسيف  
قتلوا الخليفة أحمد بن محمد وكسوا جميع الناس ثوب الخوف  
وظفوا فأصبح ملكنا متقسما وإماننا فيه شبيه الضيف (٤)

ويقول صاحب الفخرى (٥) : وواعلم أن المستعين كان مستضعفاً فى رأيه وعقله وتدييره . وكانت أيامه كثيرة الفتن ودولته شديدة الاضطراب ، ولم يكن فيه من الخصال المحمودة ، إلا أنه كان كريماً وهوباً .

(١) واضح . (٢) ابن الأثير ج ٧ ص ٥٩ . (٣) المصدر نفسه ج ٧ ص ٦٠ - ٦١ .

(٤) السعوى : مروج الذهب ج ٢ ص ٤٢٠ و ٤٢٣ . (٥) ص ٢٢٢ .

## المعتز

٢٥٢ - ٢٥٥ = ٨٦٦ - ٨٦٩ م

كان المعتز بن المتوكل كما يصفه صاحب الفخرى<sup>(١)</sup> وجميل الشخص ، حسن الصورة . ولم يكن بسيرته ورأيه وعقله بأس . إلا أن الأتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكة واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة في يدهم كالأسير ، إن شاءوا أبقوه ، وإن شاءوا خلعوه ، وإن شاءوا قتلوه . وما يدل على مدى تغلغل الأتراك في أمور الدولة وتسلمتهم على حياة الخلفاء أنفسهم هذه العبارة التي رواها صاحب الفخرى<sup>(٢)</sup> قال : ولما جلس المعتز على سرير الخلافة فعد خواصه وأحضروا المنجمين وقالوا لهم : انظروا كم يعيش لكم ويبقى في الخلافة ؟ وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال : أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلاته ، فقالوا : فكم تقول إنه يعيش لكم يملك ؟ قال : مهما أراد الأتراك ، فلم يبق في المجلس إلا من ضحك .

وكان المعتز يخاف الأتراك ويخشى بأسهم ولا يأمن جانبهم . وكان بغا الصغير أشد هؤلاء خطراً عليه يقول المسعودي<sup>(٣)</sup> : وكان المعتز في حياة بغا لا يلتذ بالنوم ولا يتخلع سلاحه لا في ليل ولا في نهار خوفاً من بغا وقال : لا أزال على هذه الحالة حتى أعلم : لبغا رأسي أو رأسه لي . وكان يقول : إنني لأخاف أن ينزل عليّ بغا من السماء أو يخرج عليّ من الأرض . ولا غرو فقد عزم بغا على أن ينحدر سرا فيصل إلى سامرا في الليل ويصرف الأتراك عن المعتز . على أن المعتز قد عمل على التخلص من نفوذ زعماء الأتراك ، فاصطنع المغاربة والفراغنة دونهم ، وأخذ يعمل الحيلة في قتلهم ، فاتخذ الأتراك من ذلك فرصة للخروج عليه فطالبوه برواتبهم ، فعجز عن دفعها إليهم وطلب إلى أمه قبيصة - وكانت غنية - أن تمده ببعض المال لتهدئة ثورة الجند ، فأبت واستنجدت بموسى بن بغا . ولكن ثورة الجند اشتدت وتفاقمت وقبضوا عليه بزعامه صالح بن وصيف وقتلوه .

ويصف لنا ابن الأثير<sup>(٤)</sup> قتل المعتز في هذه العبارة ، فدخل إليه جماعة منهم لجروه برجله إلى باب الحجر ، وضربوه بالدبابيس وخرقوا قبضه ، وأقاموه في الشمس في الدار ، فكان يرفع رجلا ويضع أخرى لشدة الحر . وكان بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده ، وأدخلوه حجره ، وأحضروا ابن أبي الشوارب وجماعة أشهدوهم على خلعهم ، وشهدوا على صالح بن وصيف أن للمعتز وأمه وولده وأخته الأمان . وكانت أمه قبيصة قد اتخذت في دارها سرداباً فخرجت منه هي وأخت المعتز . وكانوا قد

(١) ص ٢٢٠

(٢) ص ٢٢١

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٢٨

(٤) ج ٧ ص ٦٨ - ٦٩

أخذوا عليها الطريق ومنعوا أحداً يجوز إليها ، وسلبوا المعتز إلى كمن يعذبه ، فتمعه الطعام والشراب  
ثلاثة أيام فطلب حسوة (١) من ماء البئر فمعهه ، ثم أدخلوه سرداباً وحاصصوا عليه (٢) فمات ،  
استخفت قبيحة بعد موت ابنها المستعين خوفاً على حياتها من شر صالح بن وصيف ، وأخفت  
ما عندها من المال وقدره ١,٨٠٠,٠٠٠ دينار ، عدا كثير من الجواهر والحلى والزمرد واللؤلؤ  
والياقوت الذى لا تعرف له قيمة . ومن الغريب أنها عرضت ابنها للقتل ورفضت أن تدفع للثاثرين  
خمسين ألف دينار فقط .

وقد رثى الشعراء المعتز بقصائد تبين لنا مدى تغلغل نفوذ الأتراك فى الدولة العباسية وانتهاء بهم  
حرمة الخلافة . من ذلك قول أحدهم :

عين لا تبغلى بسفح الدموع واندى خير فاجع مفجوع  
خاناه الناصح السفيه ونالته أكف الردى بحتف سريع  
بكر الترك ناقلين عليه خلعتة ، أقدية من مخلوع  
قتلوه ظلماً وجوراً فألفوه . كريم الأخلاق غير جزوع  
لم يهابوا جيشاً ولا رهبوا السيوف فلمنى على القنيل الخليع  
أصبح الترك مالكي الأمر والعالم ما بين سامع ومطيع  
وترى الله فيهم مالك الأمم ر سيجزيم بقتل ذريع

وقال شاعر آخر :

أصبحت مقلتي تسح الدموعا إذ رأت سيد الأنام خليعا  
لهف نفسي عليه ما كان أملا . وأسراه نابعا متبوعا  
أزموه ذنباً على غير جرّم فتوى فيهم قتيلاً صريعا  
وبنو عمه وعم أبيه أظهروا ذلة وأبدوا خضوعا  
ما بهذا يصح ملك ولا يغدر زى عدو ولا يكون جميعاً (٣)

(١) جرعة .

(٢) ذكر صاحب الفخرى ( ص ٢٢١ ) أنهم جعلوه فى بيت وسدوا بابه حتى مات .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٤٢٩ - ٤٣٠ .



## المهتدي

٢٥٥ - ٢٥٦ هـ = ٨٦٩ - ٨٧٠ م

ولى المهتدي بن الواثق الخلافة بعد قتل أخيه المعتز سنة ٢٥٥ هـ .  
واستوزر جماعة من الوزراء ، منهم سليمان بن وهب الذي امتاز بالفضل والكرم وحسن  
الادارة ، وعيسى بن فرخان شاه . وظهرت في أيامه قُبَيْحَة أم المعتز بعد أن استخفت مدة ، كما قام  
العامة في مسهل خلافته بثورة في بغداد وأبوا مبايعته ، ولكنه استعمل المال في إخماد هذه الثورة  
فبايعوه . ثم لم يلبث أن ثار الجند عليه بسبب استيلاء سليمان بن عبد الله بن طاهر أمير بغداد على  
رواتبهم ، وعبث الخراسانيون بالعامة فعولوا جميعاً على التخلص من قائدهم وطردوه . كما أذكى العلويون  
نار الثورة في كثير من البلاد الإسلامية . فقد ثار الحسن بن زيد العلوي بطبرستان ، كما بدأت ثورة  
الزنج التي هددت الدولة العباسية زهاء أربع عشرة سنة ( ٢٥٥ - ٢٧٠ هـ ) ، وشق الخوارج بزعامه  
مساور الشاوري عصا الطاعة في الموصل .

ومن أهم هذه الثورات ثورة أحمد بن عيسى بن الشيخ . وكان أبوه عيسى والياً على فلسطين  
والأردن . ولما مات تغلب ابنه أحمد على دمشق وامتنع عن حمل المال إلى دار الخلافة ، واتهم  
فرصة اضطراب حبل الأمور في حاضرة الدولة ، فحدثته نفسه بالعصيان والاستيلاء على سائر  
بلاد الشام وطمع في مصر .

وقد عمد الخليفة المهتدي إلى التخلص منه بالمكاييد والخدع ، فولاه إرمينية على أن يستخلف  
من ينوب عنه في ولاية الشام ليقصيه عنها ، وندب أحمد بن طولون لقتاله على أن يتقلد بلاد الشام  
بعد إخضاعه (١) . ولكن سرعان ما وافي ابن طولون وهو في الطريق كتاب من العراق يأمره  
بالعودة إلى مصر . وقدم ماجور التركي من العراق وهزم قوة ابن الشيخ واستولى على دمشق ، ولحق  
ابن الشيخ بنو احمى إرمينية فتولى ماجور أعمال الشام كلها .

وكان المهتدي - كغيره من الخلفاء الذين جاءوا بعد المتوكل - ألعوبة في أيدي الأتراك .  
وليس أدل على ما وصل إليه الخليفة من الضعف وما بلغت الخلافة من الوهن والانحلال من هذه  
العبارة التي رواها الطبري : « رفع المهتدي يديه إلى السماء ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : اللهم  
إني أبرأ إليك من فعل موسى بن بغا وإخلاله بالثغر وإباحته العدو ، فإني قد أعذرت فيما بيني وبينه .  
اللهم تولّ كيد من كابد المسلمين ! اللهم انصر جيوش المسلمين حيث كانوا ! اللهم إني شاخص بفتي  
واختياري إلى حيث نكب المسلمون فيه ، ناصرأ لهم ودافعاً عنهم ، اللهم فأجرني بفتي إذ عدمتُ

(١) السكندی : كتاب الولاة ص ٢١٤ ، المفريزي : خطط ج ١ ص ٣١٥ .

صالح الأعوان ، ثم انحدرت دموعه يبكي . (١)

نعم ! لقد أصبح الخليفة العباسي في ذلك العصر ألعوبة في أيدي هؤلاء الجند الذين كانوا تحت إمرة موسى بن بغا ، ولكن المهدي اتخذ من هذا الضعف قوة لأخذ الثأر . وكيف ينأر لنفسه ولا جيش يحميه ؟ لقد لجأ إلى الحيلة والدهاء وحاول أن يستميل إليه باكبك أحد قواد الجيش ، فطلب إليه أن يقوم بقتل موسى بن بغا على أن يؤمره على الجيش من بعده . على أن باكبك لم يثق بالخليفة ووعوده وسار إلى موسى وعرض عليه الكتاب ، واتفقا فيما بينهما على أن يسير باكبك إلى المهدي متظاهراً بالإخلاص له حتى يدبر قتله .

وسرعان ما اجتمعت كلمة الأتراك على قتل الخليفة ، على أثر قتله بعض الموالي ، فثاروا عليه . ثم أسروه وخلعوه ؛ ولم يكتفوا بذلك بل عذبوه حتى مات في رجب سنة ٢٥٦ (٢) هـ .

#### صفات المهدي :

وقد وصف المسعودي (٣) الخليفة المعتمد في هذه العبارة : « وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وحرم الشراب ، ونهى عن القيان وأظهر العدل . وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع ويخطب الناس ويؤم بهم ، فثقلت وطأته على العامة والخاصة بحمله لإيامه على الطريق الواضحة ، فاستطالوا خلافته وسموا أيامه وعملوا الحيلة عليه حتى قتلوه » .

وكان المهدي أحسن الخلفاء العباسيين سيرة وأظهرهم ورعاً وأكثرهم عبادة . وكان يشبه بعمر ابن عبد العزيز ويقول : لئن استحيي أن يكون في بني أمية مثله ولا يكون مثله في بني العباس . وكان يجلس للظالم فيحكم بين الناس بالقسطاس المستقيم ، كما كان يتقال في ما كلفه وملبسه (٤) .

قال أبو العباس بن هاشم بن القاسم الهاشمي : « كنت عند المهدي بعض عشايا شهر رمضان ، فقامت لأنصرف ، فأمرني بالجلوس فجلست حتى صلى المهدي بنا المغرب ، وأمر بالطعام فأحضر ، وأحضر طبق خلاف عليه رغيقان ، وفي إناء ملح وفي آخر زيت وفي آخر خل ، فدعاني إلى الأكل فأكلت مقتصراً ، ظناً مني أنه يحضر طعاماً جيداً . فلما رأى أكلني كذلك قال : أما كنت صائماً ؟ قلت : بلى ! قال : أفلمست تريد الصوم غداً ؟ قلت : وكيف لا وهو شهر رمضان ؟ قال : كل واستوف عشاءك فليس هاهنا غير ما ترى . فعجبت من قوله وقلت : ولم يا أمير المؤمنين ؟ قد أسبغ الله عليك النعمة ووسع رزقه . فقال : إن الأمر على ما وصفت والحمد لله ، ولكنني فكرت في أنه كان من بني أمية عمر بن عبد العزيز ، ففرت لبني هاشم أن لا يكون في خلفائهم مثله وأخذت نفسي بما رأيت . قال إبراهيم بن مخلد بن محمد بن عرفة عن بعض الهاشمين : إن المهدي وجدوا له سفطاً فيه جبة صوف وكساء وبرنس كان يلبسه في الليل ويصلي فيه ويقول : أما تستحيي بنو العباس أن لا يكون فيهم مثل عمر بن عبد العزيز ، وكان قد اطرح الملاهي وحرم الغناء والشراب ومنع أصحاب السلطان عن الظلم ؟ (٥) »

(١) الطبري ج ١١ ص ١٧٣ (٢) السبوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٢ .

(٣) مروج الذهب ٢ ص ٤٣١ (٤) الفخري ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٥) ابن الأثير ج ٧ ص ٨٣ - ٨٤ .

## المعتمد على الله

٢٥٦ - ٢٧٩ = ٨٧٠ - ٨٩٢ م

تكلمت على الخليفة المتوكل أول خلفاء العصر العباسي الثاني ، وذكرت أن ابنه المنتصر دبّر مؤامرة لقتله ، وأن الأتراك بايعوه بالخلافة من بعده ، وأنه أزال ما تركه أبوه من أثر سبي نفوس العلويين فأحسن إليهم . ولكنه لم يتمتع بالخلافة غير ستة أشهر ، وقُتِل على أيدي الأتراك ، الذين استولوا منذُ قسّلت المتوكل على الدولة العباسية ، واستضعفوا الخلفاء ، حتى كان الخليفة في يدهم كالأسير ، إن شاموا أبوه وإن شاموا خلعوه ، وإن شاموا قتلوه .

وقد جلس على سرير الخلافة بعد المنتصر أحمد بن محمد بن المعتصم ، ولقب المستعين بالله ، فكانت أيامه كثيرة الفتن ودولته شديدة الاضطراب ، ولم يلبث أن عزل وقتل على يد هؤلاء الأتراك ، الذين تغلبوا في أمور الدولة العباسية ، وتسلطوا على حياة الخلفاء وبايعوا المعتز . ولم تطل خلافته ، فقد قتله الأتراك وبايعوا المهدي بن الواثق بالخلافة سنة ٢٥٥ هـ . وكان من أحسن الخلفاء سيرة وأظهرهم ورعاً وأكثرهم عبادة .

### ١ - ازدياد نفوذ الموفق :

وسرعان ما اجتمعت كلمة الأتراك على قتل الخليفة المهدي في شهر رجب سنة ٢٥٦ هـ ، وبايعوا المعتمد بن المتوكل بالخلافة ، وكان إذ ذاك محبوباً بالجوسق . يقول صاحب الفخرى (١) : « وقد غلب أخوه الموفق ، حتى لم يبق له من الخلافة إلا اسمها » . وذلك أن صاحب الزنج أو دعوى آل علي ، لما ثار في وجه الخلافة العباسية واستفحل أمره في هجر وبلاد البحرين ، وقدم البصرة ، أنفذ الخليفة المعتمد إلى مكة ، رسولا أحضر أخاه أبا أحمد طلحة ( سنة ٢٥٧ هـ ) - وكان الخليفة المهدي قد نفاه إليها - وولى عهده ابنه جعفر ، وسماه المفوض إلى الله ، وولى أخاه أبا أحمد طلحة من بعده وسماه الموفق ، وقسم الدولة العباسية بين ابنه وأخيه ، فخص الموفق بالبلاد الشرقية ، وولى المفوض البلاد الغربية ، وضم إليه موسى بن بغا ، وولاه إفريقية ومصر والشام والجزيرة والموصل وإرمينية وطريق خراسان وغيرها ، فحكها باسمه . واتخذ موسى بن عبيد الله بن سليمان ابن وهب كاتباً له . وشرط الخليفة أن يختص كل من المفوض والموفق بعمله ، فلا ينظر أحدهما في عمل الآخر ، وأن يقوم كل منهما بالنفقة على قسمه من خراج ذلك القسم . وأمر بكتاب البيعة لحفظ في الكعبة . على أن هذا العمل لم يرض الموفق ، لما كان يضمه لأخيه من حسد ، وما كان يراه من عدم أهليته للخلافة ، وزاد في حقه عليه تقديمه ابنه المفوض عليه في الخلافة . يقول

(١) س ٢٢٦ .

صاحب الفخرى<sup>(١)</sup> : « كان المعتمد مستضعفاً ، وكان أخوه الموفق طلحة الناصر هو الغالب على أموره . وكانت دولة المعتمد ، دولة عجيبة الوضع ، كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين في الخلافة : للمعتمد الخطبة والسكة ، والتسمى بأمره المؤمنين ، ولأخيه طلحة الأمر والنهي وقود العساكر ، ومحاربة الأعداء ، ومرابطة الثغور ، وترتيب الوزراء والأمراء . وكان المعتمد مشغولاً عن ذلك بلذاته . » ويقول السيوطي<sup>(٢)</sup> : « وانهمك المعتمد في اللهو واللذات واشتغل عن الرعية ، فكرهه الناس وأحبوا أخاه طلحة . »

أما موسى بن بغا فهو من أحسن الأمثلة ، التي تبين لنا مدى اتساع نفوذ الأتراك في ذلك العصر . كان بغا الكبير أبو موسى من قواد الجيش العباسي أيام الخليفة المعتصم . وقد اشترك في كثير من الحروب التي شبت للذود عن الخلافة ، وأبدى فيها شجاعة ممتازة ، رفعته فوق غيره من القواد ، حتى سمح له أن يتزوج من بيت الخلافة . وفي ذلك يقول الطبري : « وموسى هذا هو ابن خالة المتوكل . » وقد بدأ موسى حياته في الجندي ، ودرج في الجيش حتى أصبح من أكبر قواده ، وقام بدور هام في الثورات التي أقامها الأتراك في وجه الخلفاء : فطوراً نراه يذب عن عرش الخلافة ، وطوراً يتآمر مع المتآمرين لئلا هذا العرش ، كما نرى الخلفاء يندبونه لتهدئة الناظرين على الدولة . ولما ولي المعتمد الخلافة صانع الأتراك وخاصة قائدهم موسى بن بغا وبالغ في إكرامه ، فأرسله في سنة ٢٥٩ هـ لقتال صاحب الزنج ، وشيعة إلى خارج مدينة سامراء وخلع عليه . ولما ولي ابنه المقفوض العهد ضم إليه موسى ، فقدا الساعد الأيمن لسلك من المقفوض والموفق ، يستعينان به على إخماد ثورة الزنج تارة ، وعلى كبح جماح الخارجين على الدولة تارة أخرى ، حتى وافته ميتة سنة ٢٦٤ هـ .

٢ - أحمد بن طولون والموفق :

وقد وقع في عهد الخليفة المعتمد أحداث هامة كان لها أثر كبير في تاريخ الدولة العباسية : أهمها ثورة الزنج ، واختفاء الإمام الثاني عشر عند طائفة الإمامية الاثنا عشرية ، وتأسيس طائفة الاسماعيلية التي تنتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق .

وقد أنارت ثورة الزنج الطاحنة عداء الموفق لابن طولون والى مصر . ولم يكن الموفق بعيد النظر ؛ فلو أنه استمال ابن طولون الذي لبى نداءه أول الأمر وأمدّه بما يعينه على حرب هذا الخارجى - على الرغم من أنه لم يكن تابعاً له - لاستطاع أن يوجه همه ويبدل كل جهوده في محاربة صاحب الزنج والقضاء عليه وعلى أتباعه . قبل أن يستفحل خطرهم ويتفاقم شرهم في بلاد الدولة العباسية الشرقية التي كان يلها الموفق .

نعم ! لقد نفذت موارد الشرق أو كادت ، لما حل به من البلاء على أثر هذه الحروب المتصلة التي شنها الموفق على الزنج . هذا إلى ما كان من تناقل الأهالي عن حمل الخراج وانصراف

(١) ص ٢٢٦ . (٢) كتاب تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ص ٢٤٢ .

الخليفة إلى ملاذه ، فأقبل على الصيد واللعب ومتادمة النساء ، فضاعت حرمة الخلافة واستبد العيال بالولايات .

ولم ير الموفق الذي ندبه الخليفة لمحاربة الزنج بدا من الالتجاء إلى أحمد بن طولون ، فأرسل إليه مع محرير خادم الخليفة المتوكل كتاباً يشكو فيه سوء الحالة المالية في بلاده ، وطلب إليه أن يمدّه بالمال الذي يساعده على الاستمرار في محاربة صاحب الزنج . ولما علم الخليفة المعتمد بذلك أرسل إلى ابن طولون كتاباً يأمره فيه بضرورة حمل مال مصر إلى دار الخلافة وكل ما جرى الرسم بحمله مع المال في كل سنة من الرقيق والخيل والشمع والطرز<sup>(١)</sup> وغير ذلك ، كما أرسل إليه أيضاً كتاباً سرياً يقول فيه إن أبا أحمد الموفق إنما أرسل رسوله ليستقصى أخباره وليكون عيناً عليه ، ويشير على ابن طولون بأن يأخذ الحيلة لنفسه ، لأن الموفق كاتب قواد مصر ليفسدهم عليه<sup>(٢)</sup> .

وقد بعث ابن طولون مع رسول الموفق مليوناً ومائتي ألف دينار ، وشيعة بنفسه حتى وصل إلى العريش . وبذلك خالف ابن طولون الخليفة وأرسل المال إلى الموفق ، لأنه كان يعلم حقيقة الحال في البلاد الشرقية ، كما وقف على مدى الخطر الذي تهدد سلامة الدولة العباسية من ناحية الزنج . على أن الموفق لم يحمّد لابن طولون هذا الصنيع وعاد الكتابة إليه ، وأخ في الطلب وأظهر الجفاء في كتاب طویل أرسله إليه ، ثم عمد إلى اختيار رجل يصرف به ابن طولون عن مصر ، فلم يظفر بأحد لما كان من استمالة ابن طولون القواد ورجال البلاط بالهدايا . وبذلك أثار الموفق حنق ابن طولون الذي كتب إليه يقول إن في ولايته مائة ألف جندي قد يدفعه سلوكه معه إلى مناهضته ومناهضة سلطان الخليفة بقوة جنده التي دأب على إعلاء شأنها ليدود بها عن حياض الخلافة ودفع خطر العدو عنها والمحافظة عليها من الضعف الذي ألم بها<sup>(٣)</sup> .

ولما وصل هذا الكتاب إلى الموفق غاظه غيظاً شديداً ، فأوعز إلى موسى بن بغا — وكان عون الدولة وأشد أهلها بأساً وإقداماً — بصرف ابن طولون عن مصر وتقليدها ماجور وإلى الشام . فكتب موسى إلى ماجور كتاب التقليد وأنفذه إليه . ولما وصل هذا الكتاب إليه توقف عن

(١) الطراز من شارات السلطان وهو كتابة اسم الخليفة مع كلمات أخرى يتفاهلون بها في أنوابعهم الخاصة . وقد سميت الدور التي يصنع بها الطراز «دور الطراز» كما كان القائم عليها يسمى «صاحب الطراز» — انظر مقدمة ابن خلدون ص ٢٩٢ — ٢٩٣ ؛ الخطط للمقرئ ج ٢ ص ٧٩ و ٢١٢ و ٤٠٧ ؛ كتاب أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية للدكتور أدولت جرومان ترجمة المؤلف ص ٣ — ٤ ، Encyclopaedia of Islam .  
• Tiraz, s. v.

(٢) سيرة ابن طولون لابن الداية ص ١٩ — ٢٠ ؛ الخطط للمقرئ ج ٢ ص ١٧٨ — ١٧٩ .

(٣) راجع نس هذا الكتاب في كتاب سيرة أحمد بن طولون لابن الداية ص ٢١ — ٢٤ .

إرساله إلى ابن طولون ، لما كان بينهما من النسب ، ولأنه آنس في نفسه العجز عن مناهضته . لأن ابن طولون قد أصبح في قوة لا يستهان بها ، وقد خشي موسى بن بغا أن يزداد نفوذ ابن طولون لأن في ولايته على مصر والشام تهدد بدأ لسلطة الخليفة والأتراك معا . وسرعان ما سار إلى الرقة وأخذ يستعد لقتاله ؛ فأخذ ابن طولون في تحصين مدينة القسطاط ، فبنى حصنا مشيعا بجزيرة الروضة بين القسطاط والجزيرة ، كما بنى أسطولا يتألف من مائة مركب حربي سوى كثير من المراكب الأخرى والزوارق والقوارب<sup>(١)</sup> . وأقام موسى بن بغا بالرقّة عشرة أشهر يتحين الفرص لقتال ابن طولون ، لكن أحواله اضطرت لتألب الجند عليه ومطالبتهم بدفع أرزاقهم ، فعاد إلى بغداد حيث عرضت له بعثته ، فحمل إلى سامرا وأقام بها شهرين ومات في شهر صفر من سنة ٢٦٤ هـ (٢) .

على أن الحروب الأهلية لم تقم بعد بين والى مصر والخلافة ، أو بعبارة أخرى بين ابن طولون والموفق أخى الخليفة العباسي وصاحب الأمر والنهي . فقد ضاق الموفق ذرعا بابن طولون ، ولم يستطع الكيد له والتبيل منه بعزله عن مصر ، فعمد الى عزله عن ولاية الثغور الشامية ، فأجابته الخليفة إلى ما أراد وهو مكره ، لأنه كان يميل إلى ابن طولون . بيد أن أحوال هذه البلاد ما لبثت أن اضطرت ، فأمر الخليفة بردها إلى ابن طولون ؛ فاستقرت أحوالها ، وغزا بلاد الروم ، وأصبحت ولاية الثغور شجا في حلق الدولة البيزنطية . وسرعان ما وردت الأخبار بوفاة ماجور وإلى الشام ، فوجد ابن طولون الفرصة سانحة للاستيلاء عليها ، لاشتغال الموفق بحرب الزنج ، ووقوع بلاد الشام بين مصر وولاية الثغور . واستخلف ابن طولون على مصر ابنه العباس وسار بجيشه نحو بلاد الشام ، فدانت له أمهات مدنها ودعى له على منابرها (سنة ٢٦٤-٢٦٥ هـ) وجعل الرقة مقر ولايته الجديدة . ولكن ابن طولون اضطر إلى العودة إلى مصر لإخماد ثورة ابنه العباس ، فاتهز لؤلؤ وإلى الرقة هذه الفرصة ، فاستولى على الخراج لنفسه وانضم إلى الموفق هو ومن معه من الجند . ولما بلغ ابن طولون خروج لؤلؤ عليه خرج ثانية إلى الشام (جمادى الأولى سنة ٢٦٩ هـ) واستخلف على مصر ابنه خمارويه . وبينما هو في طريقه إلى الشام إذ بلغه خروج أهل طرسوس وعزلهم واليه عليهم ، فعول على السير إليها . ولما وصل إلى دمشق جاءه كتاب الخليفة المعتمد يئنه فيه بمسيره إليه والاحتباء به .

ويقول ستانلى لينبول<sup>(٣)</sup>: لاشك أن ابن طولون رحب بفكرة إيواء الخليفة لأن هذا يعود عليه بالنفع من عدة وجوه :

(١) الخطط للمقرئى ج ٢ ص ١٨٠ .

(٢) كتاب الولاة للسكندى ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٣) Stanley Lane-Poole: History of Egypt in the Middle Ages, p. 68.

أولاً - لأنه يعفيه من الجزية السنوية التي كان يدفعها لدار الخلافة .  
ثانياً - لأنه يقلل من نفوذ أبي أحمد الموفق طلحة أختي الخليفة العباسي .  
ثالثاً - لأن وجود الخليفة تحت حمايته في مصر يزيد في نفوذ كل وال طموح ، وربما غير  
هذا مستقبل الخلافة ، ومستقبل مصر إلى حد كبير .

وقد انتهز الخليفة فرصة اشتغال الموفق بحرب صاحب الزنج ، وخرج من سامرا متظاهراً بالصيد  
( جمادى الأولى سنة ٢٦٩ هـ ) ، وأرسل ابن طولون قائدين من قواده لانتظار الخليفة بالرقبة .  
و أراد الخليفة أن يمر على إسحق بن كنداج عامل الموصل والجزيرة . وكان الموفق قد أرسل  
إليه صالح بن مختلد بأمره برد الخليفة والقبض على من معه من القواد وبغية بأطيب الأمانى .  
ولما وصل المعتمد إلى الحديثة لقيه ابن كنداج وتظاهر بموالاته له (١) وقال له : يا أمير المؤمنين ا  
أخوك في وجه العدو ، وأنت تخرج عن مستقرك وداره مسلحك ؟ ومتى صبح هذا عنده رجع عن  
مقاومة الخارجي ، فيغلب عدوك على ديار آبائك . . . ثم وكل بالمعتمد جماعة ورسم على طائفة من  
خواصه ، ثم بعث إلى المعتمد يقول : ما هذا بمقام فارجح . فقال المعتمد : فاحلف لي أنك تنحدر  
معي ولا تسلمني ، فحلف له وانحدر إلى سامرا ، فلتقاه صاعد بن مخلد كاتب الموفق فسلمه إسحق  
إليه ، فانزله في دار أحمد بن الحُصيب ومنعه من نزول دار الخلافة ، و وكل به خمسمائة رجل يمنعون  
الناس من الدخول إليه . ولما بلغ الموفق ذلك بعث إلى إسحق بخلع وأموال ، وأقطع ضياع القواد  
الذين كانوا مع المعتمد ، ولقبه ذا السنين ، ولقب صاعدا ذا الوزارتين . فاقام صاعد في خدمة  
المعتمد . ولكن ليس للمعتمد حل ولا ربط . ولا غرو فقد شل الموفق يده عن مباشرة أمور  
الدولة حتى أصبح مسلوب السلطة . وقد قيل إنه احتاج يوماً إلى ثلثمائة دينار فلم يجدها فقال :

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قلَّ تمتعاً عليه  
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذلك شيء في يديه  
إليه تحمل الأموال طراً ويجمع بعض ما يجبي إليه؟ (٢)

ومن شعر المعتمد لما حجر عليه :

أصبحت لا أمثلك دفعا لما أسام من خسف ومن ذلة

(١) راجع سيرة ابن طولون لابن الداية ص ٦٨-٦٩ ؛ والطبري ج ١١ ص ٣٠٠ والسكندی كتاب  
الولاء ص ٢٢٤-٢٢٥ ؛ والمقرئبي : الخطط ج ١ ص ٢١٩ .

(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ١٥٨ ، ١٨١ ، السبوطي ص ٢٤٣ .

تَمَضَى أمور الناس دوني ولا يشعرتني في ذكرها قلتي  
إذا اشتبهت الشيء ولوا به عني وقالوا ههنا عِلَّتِي (١)

انتبه ابن طولون النجاء الخليفة إليه وحصر الموفق له مع أنه صاحب الحق الشرعي ، وجعل ذلك سبباً لاقامة الحججة على الموفق بانه نكث عهد البيعة وخرج على حرمة الخلافة . وسرعان ما أرسل ابن طولون إلى أهل مصر كتاباً قرئ عليهم وفيه : « أن أبا أحمد نكث بيعة المعتمد وأسرته وحرش عليه . . . وأن المعتمد قد صار من ذلك إلى ما لا يجوز ذكره ، وأنه يبكي بكاء شديداً . وخطب الخطيب بمصر يوم الجمعة ، فذكر ما آل إليه أمر المعتمد وقال : اللهم فاكفه من حصره ومن ظله (٢) .

على أن عداء ابن طولون للموفق لم يقف عند هذا الحد . فقد عقد مجلساً في دمشق حضره القضاة والفقهاء والأشراف من أهل الشام والثغور ومصر . وفي هذا الاجتماع شهد المجتمعون على كتاب فيه خلع الموفق من ولاية العهد لخلافه على الخليفة المعتمد وحصره إياه . وقد جاء فيه : « أن أبا أحمد خلع الطاعة وبري من الذمة ، فوجب جهاده على الأمة » ، وشهد على ذلك جميع من حضر إلا ثلاثة من رجالات مصر منهم القاضي بكار بن قتيبة ، وكان من أبرز قضاة المسلمين وأعلمهم بالفقه الاسلامي . وقد أبي إقرار الخلع (١٢) من ذي القعدة سنة ٢٦٩ هـ . وقد رد في كتاب القضاة للكندى (٣) أن بكاراً وافق على خلع الموفق وسماه الناكث ، ولكنه لم يوافق على لعنه . ويقول السيوطي (٤) : « ولما بلغ ابن طولون ذلك جمع الفقهاء والقضاة والأعيان وقال : قد نكث الموفق بأمر المؤمنين ، فاخلعوه من العهد ، تخلعوه إلا القاضي بكار بن قتيبة فإنه قال : أنت أوردت علي من المعتمد كتاباً بولايته العهد ، فأورد علي كتاباً آخر منه تخلعه ، فقال إنه محجور عليه ومقبور ( يعني الخليفة ) ، فقال : لا أدري ، فقال ابن طولون : غرّك الناس بقولهم ما في الدنيا مثل بكار . أنت شيخ قد خرفت ، وحبس وقيد وأخذ منه جميع عطاياها . وكان قبل ذلك مكسراً ما معظما له عارفاً بحقه . وكان يجيزه في كل سنة بألف دينار ، فلما غضب عليه أرسل إليه أين جوائزى ؟ فقال : على حالها ، فأحضرها من منزله بخواتيمها ستة عشر كيساً ، فقبضها أحمد بن طولون » (٥) .

وصفوة القول أن الخليفة المعتمد كان على حد قول السيوطي (٦) : « هو أول خليفة قهر وحجر عليه ووكّل به » .

ولما بلغت وفاة ابن طولون سنة ٢٧٠ هـ الخليفة المعتمد حزن عليه وقال يرثيه :

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٥ .

(٢) الكندى : كتاب الولاية ص ٢٢٦ .

(٣) ص ٥١٢ .

(٤) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٥) الكندى : كتاب القضاة ص ٥٠٩ - ٥١٤ .

(٦) تاريخ الخلفاء ص ٢٤٣ .



إلى الله أشكو أسمى عراقى كوقع الأسل  
على رجل أروع يرى فيه فضل الرجل  
شهاب خبا وكفده وعارض غيث أفل  
شكت دولتى فقده وقد كان زين الدول

ولم يزل العداء مستحكما بين الموفق والطولونيين فى مصر بعد وفاة أحمد بن طولون ، فقد واصل  
خارويه بن أحمد بن طولون لعن الموفق على المنابر ، وبعث الواسطى كاتب أبيه إلى الشام بجيش  
كثيف ، وعزّزه من البحر بأسطول قوى . وخرج الموفق من بغداد ، وانضم إليه ابن كنداج والى  
الموصل ، ومحمد بن أبى الساج والى إرمينية والجبّال ، واستولوا على دمشق . فلم ير خارويه بدا من  
الخروج بنفسه ، فدخل دمشق سنة ٢٧٢ هـ ، ثم واصل السير لقتال ابن كنداج فى أعماله ، وتم  
الصلح بين والى مصر ودار الخلافة ، وكتب الموفق والخليفة المعتمد وابنه المفوض كتاب الصلح  
بأيديهم ، ويتضمن تولية خارويه وأولاده من بعده على مصر والشام ثلاثين سنة . هنا أمر خارويه  
بالكف عن لعن الموفق على المنابر وبالعداء له مع الخليفة .

### ٣ - وفاة المعتمد والموفق :

كانت أيام المعتمد أيام محن وخطوب . فقد ذكر ابن الأثير<sup>(١)</sup> أن الحرب اشتعلت فى أوائل  
سنة ٢٧٨ هـ بين أصحاب وصيف الخادم والبربر وغيرهم ، وأنه قتل من الفريقين جماعة كبيرة . وفى  
هذه السنة توفى أبو أحمد الموفق بعد أن أعياه النقرس الذى ألمّ به وهو فى بلاد الجبل ، حتى إنه لم  
يقدر على الركوب ، فعمل له سرير عليه قبة . فكان يقعد عليه وخادم له يبرد رجله بالأشياء الباردة  
حتى إنه يضع عليها الثلج ، ثم صارت علة رجله داء الفيل<sup>(٢)</sup> . وكان يحمل سريره أربعون رجلا  
بالنوبة ، فقال لهم يوما : قد ضجرت من حملى . بودى أن أكون كواحد منكم أحمل على رأسى  
وآكل وأنا فى عافية . وقال فى مرضه : أطببق دبوانى على مائة ألف مرتزق ما أصبح فيهم أسوأ  
حالا منى .

وصل الموفق إلى داره فى الثانى من شهر صفر سنة ٢٧٨ هـ ومات ، لحمل أنصاره الخليفة المعتمد  
وأولاده من المدائن ، ومات الموفق فى ٢٣ من صفر من هذه السنة . ودفن بالرصافة بعد أن قبض  
على أزمة الأمور فى الدولة العباسية وغلب على أخيه المعتمد حتى لم يبق له من الخلافة إلا اسمها .  
وكان الموفق - مع ذلك - عادلا حسن السيرة يجلس للظالم وعندة القضاة وغيرهم ، فيتصف

(٢) هو ورم فى الساق يسيل منه ماء .

(١) ج ٧ ص ١٥٨ .

الناس بعضهم من بعض . وقد وصفه ابن الأثير<sup>(١)</sup> في هذه الكلمات فقال : « وكان عالماً بالأدب والنسب والفقهاء وسياسة الملك وغير ذلك . قال يوماً إن جدى عبدالله بن العباس قال : إن الذباب ليقع على جليسى فيؤذيني ذلك — وهذا نهاية الكرم — وأنا والله أرى جلسائى بالعين التى أرى بها إخوانى . والله لو تهبأ لى أن أغير أسماءهم لنقلتها من الجلساء إلى الأصدقاء والإخوان ، وكان الموفق يميل إلى الأبهة والترف . ذكر صاحب الفخرى<sup>(٢)</sup> بصدد كلامه على الحسن بن مخلد الذى اجتمعت له وزارة المعتمد وكتابة الموفق فقال :

« وكان الحسن أحد كتاب الدنيا . قالوا كان له دفتر صغير يعمل به يده فيه أصول أموال الممالك ومخولاتها بتواريخها ، فلا ينام كل ليلة حتى يقرأه ويتحقق ما فيه ، لو سئل فى الغد عن أى شىء كان منه ، أجاب من خاطره بغير توقف ولا مراجعة دستور . قال الحسن بن مخلد : كشت واقفا بين يدى الموفق بن المتوكل فرأيت يده يلمس ثوبه يده وقال لى : يا حسن أعجبني هذا الثوب ، كم عندنا فى الخزان منه ؟ فأخرجت فى الحال من خفى دستورا فيه جمل ما فى الخزان من الأمتعة والثياب مفصلة . فوجدت فيها من جنس ذلك الثوب ستة آلاف ثوب ، فقال لى يا حسن نحن نرحل عراة . اكتب لى البلاد فى استعمال ثلاثين ألف ثوب من جنسه وحملها فى أسرع مدة . »

جلس أبو العباس بن الموفق للعزاء . واجتمع القواد وبايعوه بولاية العهد بعد المفوض لى الله ابن المعتمد ولقبوه المعتضد بالله ، وتحولت إليه سلطة أبيه . فضعف أمر الخليفة المعتمد ، فأشهد على نفسه أنه خلع ابنه المفوض من ولاية العهد وبايع لآبى العباس المعتضد . ومات المعتمد بعد أشهر نجاة حتى تواترت الإشاعات بأنه سم . وقد بقى فى الخلافة ثلاثا وعشرين سنة ، كانت عهد فتن واضطرابات ، على الرغم من ازدهار عصره بطائفة العلماء الأعلام كالبخارى ومسلم وأبى داود والترمذى وابن ماجه ومحمد بن عبد الحكم المؤرخ المصرى المشهور والقاضى بكار .

وعلى الرغم من سوء حال المعتمد واستئثار أخيه الموفق بالسلطة دونه واستبداد ابن أخيه العباس بن الموفق بالأمور وطاعة الجيش له ، مدحه بعض الشعراء ، فقال عبد الله بن المعتز :

ياخيرَ من تزجى<sup>(٣)</sup> المَطَى له      ويمرّ حبلَ العهد مَوثِقَه  
أضحى عنانَ الملك مَقْتَسِرَا<sup>(٤)</sup>      يبيدُ بك تحييسه وتطليقه  
فاحكم : لك الدنيا وساكنتها      ما طاشَ سَهْمُ أَنْتَ مَوثِقَه<sup>(٥)</sup>

(٢) ص ٢٢٨

(٤) قسره على الأمر واقترسه فبره .

(١) ج ٧ ص ١٥٩ .

(٣) زجاء ساقه ودفعه .

(٥) السيوطى : كتاب الخلفاء ص ٢٤٥ .

## المعتضد بالله

٢٧٩ - ٢٨٩ = ٨٩٢ - ٩٠٢ م

لما مات الموفق في شهر صفر من سنة ٢٧٨ هـ ، اجتمع القواد وبايعوا ابنه أبا العباس بولاية العهد بعد المفوض بن المعتضد ، ولقبوه المعتضد بالله ، وخطب له يوم الجمعة بعد المفوض (١) . ثم مات المعتضد فجأة بعد أن بايع لابن العباس بن الموفق .

وقد أحسن الخليفة المعتضد الى آل علي وأخذ يشيد بفضله ويذم الأمويين . على أن بعض خاصته نصح له بأن يعدل عن هذه السياسة حتى لا يهدم السبيل الى رعاياه بالالتفاف حول العلويين ، فنضج هيبة العباسيين ويخرج الأمر من أيديهم . وفي ذلك يقول السيوطي (٢) : « عزم المعتضد على لعن معاوية على المنابر ، فخوفه عبيد الله الوزير اضطراب العامة ، فلم يلتفت وكتب كتابا في ذلك ذكر فيه كثيراً من مناقب علي ومثالب معاوية ، فقال له القاضي يوسف : يا أمير المؤمنين ! أخاف الفتنة عند سماعه فقال : ان تحركت العامة وضعت السيف فيها قال : فما تصنع بالعلويين الذين هم في كل ناحية خرجوا عليك ؟ واذا سمع هذا من فضائل أهل البيت كانوا اليهم أميل ، فأمسك المعتضد عن ذلك . »

كذلك اكتسب المعتضد محبة الناس عند ما أصدر أوامره بإبطال ديوان المواريث ، وبان يورث ذوو الأرحام . كما منع الوراقين من بيع كتب الفلاسفة وما شاكلها ، ومنع القصاص والمشجمن من الجلوس في الطريق ، وصلى بالناس صلاة الأضحى ، فكبر في الركعة الأولى ستا وفي الثانية واحدة ، ولم تسمع منه الخطبة (٣) .

وقد أقر المعتضد عبيد الله بن سليمان بن وهب في الوزارة . وفي عهده خرج عمرو بن الليث الصفّار أحد زعماء الصفارية واستولى على كثير من بلاد الفرس ، كما ظهر في عهده القرامطة في الكوفة على يد حمدان قرمط ، وفي البحرين على يد أبي سعيد الجنابي ، كما ظهر أيضاً ابن حوشب في بلاد اليمن حيث نشر الدعوة للهدى ، وأبو عبد الله الشيعي الذي نشر الدعوة الفاطمية في بلاد المغرب ، وحارب كثيراً من زعماء البربر ومهد للقضاء على دولة الأغالبة فيما بعد . كذلك ظهر في عهد المعتضد نصر ابن أحمد الساماني مؤسس الدولة السامانية في بلاد ما وراء النهر على ما سيأتي الكلام على ذلك في الباب الرابع .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٤٧ .

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ١٥٩ .

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

وقد ساعد موت الموفق وابن كنداج ( سنة ٢٧٨ هـ ) والخليفة المعتمد ( سنة ٢٧٩ هـ ) على توثيق العلاقات بين خمارويه بن أحمد بن طولون والخليفة العباسي . ولا غرو فقد استطاع خمارويه أن يكسب رضا المعتضد بهداياه ، فأقره على ولاية البلاد الممتدة بين الفرات وبرقة ثلاثين سنة ، وجعلها لأولاده من بعده . ويذكر أبو المحاسن (١) « أن رسول الخليفة قدم على خمارويه يحمل إليه اثنتي عشرة خلعة ، وسيفا وتاجا ووشاحا . وكان من أثر سياسة حسن التفاهم أن عرض خمارويه زواج ابنته أسماء التي تلقب بقطر الندى من ابن الخليفة العباسي ، ولكنه اختارها لنفسه .

#### صفات المعتضد :

كان المعتضد وافر العقل شديد الوطأة قليل الرحمة ، إذا غضب على قائد أمر بالقائه في حفرة وردم عليه . وكان شهما جلدا موصوفا بالرجلة ، قد لقي الحروب وعرف فضله ، فقام بالأمر أحسن قيام ، وهابه الناس ورهبوه أعظم رهبة ، وسكنت الفتن في أيامه لفرط علته . وكانت أيامه طيبة كثيرة الأمن والرخاء ، وكان قد أسقط المسكوس ونشر العدل ورفع الظلم عن الرعية ، كما كان يسمى السفاح الثاني لأنه جدد ملك بني عباس . وفي ذلك يقول ابن الرومي بمدحه (٢) :

هنيئا بنى العباس إن إمامكم	إمام الهدى والبأس والجود أحمد
كما بأبي العباس أنشئ ملككم	كذا بأبي العباس أيضا مجدد
إمام يظل الأمس يعمل نحوه	تلطف ملهوف ويشتاقه الغد

ويقول ابن المعتز :

أما ترى ملك بنى هاشم	عاد عزيزا بعد ما ذللا ؟
يا طالبا للملك كن مثله	تستوجب الملك وإفلا

ويقول يحيى بن المشجم :

يا يحيى الشرف الباب	ومجدد الملك الخراب
ومعيد ركن الدين فيب	نا ثابتا بعد اضطراب
فت الملوك مبرزاً	فوت المبرز في الحلاب
أسعد بنيروز جمع	ت الشكر فيه إلى الثواب
قدمت في تأخير ما	قد قدموه إلى الصواب (٣)

وقد وصفه ابن الأثير (٤) في هذه العبارة : « كان المعتضد أسمر نحيف الجسم معتدل الخلق .

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٧٨ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٦ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٤٨٨ .

(٤) ج ٢ ص ١٨٣ .

وكان شهماً شجاعاً مقداماً . وكان ذا عزم ، وكان فيه شح ، بلغه خبر وصيف خادم ابن أبي الساج وعليه قباء أصفر ، فسار من ساعته وظفر بوصيف وعاد فدخل أنطاكية وعليه القباء ، فقال بعض أهلها : الخليفة بغير سواد ، فقال بعض أصحابه إنه سار فيه ولم ينزعه عنه إلى الآن . وكان عفيفاً ، وكان مهيباً عند أصحابه يتقون سطوته ويكفون عن الظلم خوفاً منه .

وقد نبغ في عهد المعتضد كثير من الكتاب والمفكرين والشعراء ، نخص بالذكر منهم ابن أبي الدنيا ( + ٢٨١ هـ = ٨٩٤ م ) مثقف الخليفة المكتفي في حداته ، والبحترى ( + ٢٨٤ هـ = ٨٩٧ م ) والمبرد اللغوي المشهور ( + ٢٨٦ هـ = ٨٩٩ م ) وابن قتيبة ( + ٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م ) والبلاذري ( + ٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م ) وأبا حنيفة الدينوري ( + ٢٧٦ هـ = ٨٩٥ م ) وابن واضح اليعقوبي الذي كتب في هذا الوقت ، وكانوا من أكابر مؤرخي هذا العصر . كما نبغ أيضاً . ثابت بن قرة الحراني الرياضي المشهور ، وابن الفقيه الهمداني الجغرافي ، وكلاهما مات حول سنة ٢٨٧ هـ . ومن أفذاذ شعراء هذا العصر ابن المعتز وابن الرومي . وكان المعتضد نفسه شاعراً بحيد الشعر ، ماتت جارية له تسمى دُرَيْسَةَ ، فوجد عليها وجداً شديداً وقال برثيها :

يا حبيبا لم يكن بعد له عندي حبيب  
أنت عن عيني بعيد ومن القلب قريب  
ليس لي بعدك في شيء من اللهو نصيب  
لك من قلبي على قلبي وإن بسنت رقيب  
وخيالي منك مذ غبت خيال لا يغيب  
لو تراني كيف لي بعدك عـول ونجيب ؟  
وفؤادي حشوه من حرق الحزن لهيب  
لتبقتت بأني فيك محزون كتيب  
ما أرى نفسي وإن سـلـمتها عنك تطيب  
لي دمع ليس بعصبيـني وصبره ما يخيب<sup>(١)</sup>

ومن شعر المعتضد في الغزل :

أشكو إليك الذي لقيت من الـوجد فهل لي إليك من فرج ؟  
حللت بالطرف والجمال<sup>(٢)</sup> من الناس محل العيون والمهج

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٨

(٢) لعلها الجنان بمعنى القلوب

وروى الصولى له :

لم يلق من حسر الفراق      أحده كما أنا منه لاق  
يا سائلي عن بعضه      ألفتـه مر المذاق  
جسمى يذوب ومقلتي      عبرى وقلبي ذو احتراق  
مالى أليفٌ بعسدم      إلا اكتتابى واشتياق

وفاة المعتضد :

توفى المعتضد فى شهر ربيع الآخر سنة ٢٨٩ هـ . ولما حضرته الوفاة أشد هذه الآيات (١) :  
تمتع من الدنيا فانك لا تبقى      وخذ صفوها ما إن صفت ورع الرنقا (٢)  
ولا تأمنن الدهر إنى أمته      فلم يبق لى خلا ولم يرع لى حقا  
قتلت صنـاديد الرجال فلم أدع      عدواً ولم أهمل على ضفيه خلقا  
وأخليت دار الملك من كل نازع      فشردتهم غـرباً ومزقتهم شرقا  
فلما بلغت النجم عـزاً ورفعة      وصارت رقاب الخلق أجمع لى رقا  
رمانى الردى سهما فأحمد جـمـرئى      فها أنا ذا فى حفرئى عاجلا ألقى  
فيا ليت شِعـرئى بعد موتئى ما أرى      لى نعم الرحمـن أم ناره ألقى ؟  
ورثاه ابن المعتز بهذه الآيات :

يا دهر ويحك ما أبقيت لى أحدا      وأنت والد سُوء تأكل الولدا  
أستغفر الله بل ذا كُله قدر      رَضيت بالله ربا واحداً صَمداً  
يا ساكن القبر فى غرباء مظلمة      بالظاهرة مَقصى الدار منفردا  
أين الجيوش التى قد كنت تنجها ؟      أين الكنوز التى أحصيتها عددا ؟  
أين السرير الذى قد كنت تملؤه ؟      مهابةً ، من رأته عينه ارتعدا  
أين الأعداى الأولى ذلت مصعبهم ؟      أين الليوث التى صيرتها بددا ؟  
أين الجياد التى حجلتها (٣) بدم ؟      وكن يحملن منك الضيغم الأسدا  
أين الرماح التى غذيتها مهجا ؟      مذمت ما وردت قلبا ولا كبدا

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ١٨٣

(٢) رنق الماء رنقا كدر أى تعكر

(٣) الحجل بكسر الحاء وفتحها ، ويسمى القيد حجلا على الاستعارة ، والمعنى المراد هنا قيدتها بالدماء .

أين الجنان التي تجرى جداؤها وتستجيب اليها الطائر الغردا ؟  
أين الوصائف كالغزلان رائحةً يسحب من حُلل موشية جددا  
أين الملاحى وأين الراح تحسبها يا قوته كسيت من فضة زردا ؟  
أين الوثوب إلى الأعداء مستبقيا صلاح ملك بنى العباس إذ فسدا ؟  
ما زلت تقسّر (١) منهم كل قصورة وتحطيم العالى الجبار معتمدا  
ثم انقضيت فلا عـ... بن ولا أثر حتى كأنك يوما لم تكن أحدا (٢)

### المسكتفى

٢٨٩ - ٥٢٩٥ = ٩٠٢ - ٩٠٨ م

لما مات المعتضد ولى الخلافة بعده ابنه أبو محمد على وتلقب المسكتفى باقه . وأمه أم ولد تركية اسمها جيجك ، وكان يضرب المثل بحسنا . وكان عند موت أبيه بالركة ، فقام بأخذ البيعة له أبو الحسن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب . وقد عاد الخليفة الجديد إلى بغداد ونزل بدار الخلافة ، وأقر أبا القاسم بن وهب فى الوزارة ؛ وسرعان ما أدركت هذا الوزير الوفاة ، فاستوزر المسكتفى العباس ابن الحسن .

وقد عمل الوزير أبو القاسم بن وهب الذى أخذ البيعة للمسكتفى على التخلص من بدر ، صاحب جيش المعتضد والمستولى على أمره والمطاع فى خدمه وغلباهه . وقد عزا الطبرى ذلك إلى أن هذا الوزير كان قد حاول تحويل الخلافة عن بيت المعتضد فى حياته ، ولكن بدر غلام المعتضد لم يوافق على ذلك ، فانتز هذا الوزير فرصة تغيب بدر فى فارس ودبر مؤامرة انتهت باغتياله (٣) ، لأنه خاف أن يفشى سر مؤامره ضد أبناء المعتضد واتخذ من تغير المسكتفى على بدر منذ عهد أبيه المعتضد وسيلة لإيقار صدره عليه ، وصور بدر بصورة الثائر .

ويقول ابن الأثير (٤) : « وكان المسكتفى أيضا مباعدا لبدر فى حياة أبيه ، وعمل القاسم فى هلاك بدر خوفا على نفسه أن يذكر ما كان منه للمسكتفى ، فوجه المسكتفى محمد بن كشتمر برسائل إلى القواد الذين مع بدر يأمرهم بالمسير إليه ومفارقة بدر ، فقارقه جماعة ، منهم العباس بن عمرو الغنوى ومحمد بن إسحق بن كنداج وخاقان المفلحى وغيرهم ، فأحسن إليهم المسكتفى ، وسار بدر إلى واسط ،

(١) قسره على الأمر قهره . والقسورة العزيز والأسود .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٣) الطبرى ج ١١ ص ٣٧٤ - ٣٧٥ .

(٤) ج ٧ ص ١٨٤ - ١٨٥ .

فوكل المكتفي بداره وقبض على أصحابه وقواده وحبسهم ، وأمر بمحو اسم بدر من التراس والأعلام ، وسير الحسين بن علي كورة في جيش إلى واسط ، وأرسل إلى بدر يعرض عليه أي النواحي شاء ، فأبى ذلك وقال : لا بد لي من المسير إلى باب مولاي ، فوجد القاسم مساعدا للقول ، وخوف المكتفي فآثرتة . وبلغ بدر ما فعل بأهله وأصحابه ، وأرسل من يأتيه بولده هلال سرا ، فعلم الوزير بذلك فاحتاط عليه ، ودعا أبا حازم قاضي الشرقية وأمره بالمسير إلى بدر وتطبيب نفسه عن المكتفي وإعطائه الأمان عنه لنفسه وولده وماله ، فقال أبو حازم : أحتاج إلى سماع ذلك من أمير المؤمنين ، فصره ودعا أبا عمر القاضي وأمره بمثل ذلك ، فأجابه ، وسار معه كتاب الأمان ، فسار بدر عن واسط نحو بغداد . فأرسل إليه الوزير من قتله . فلما أيقن بالقتل سأل أن يمهل حتى يصلي ركعتين ، فصلاهما ثم ضربت عنقه يوم الجمعة لست خلون من شهر رمضان ، ثم أخذ رأسه وتركت جثته هنالك ، فوجه عياله من أخذها سرا وجعلوها في تابوت . فلما كان وقت الحج حملوها إلى مكة فدفنوها بها ، وكان أوصى بذلك ، وأعتق قبل أن يقتل كل مملوك كان له . ورجع أبو عمر إلى داره كشيئا حزينا لما كان منه ، وقال الناس فيه أشعارا وتكلموا فيه . فما قيل فيه :

قل لقاضي مدينة المنصور لم أحلت أخذ رأس الأمير  
عند إعطائه الموائيق والعهد وعقد الأيمان في منشور ؟  
أين أيمانك التي شهد الله على أمهم يا يمين فجور ؟  
إن كفيك لا تفارق كفيهم إلى أن ترى عليل السرير  
يا بني يوسف بن يعقوب أضحي هل بغداد منكم في غرور  
بدد الله شملكم وأراني أذلكم في حياة هذا الوزير  
فأعدوا الجواب للحكم العدل ومن بعد منكر ونكير  
أنتم كلكم فدى لآبي حازم المستقيم كل الأمور ،

وفي عهد المكتفي كان السامانيون أصحاب النفوذ المطلق في فارس ، كما تفاقم شر القرامطة حول بغداد والبصرة وفي سورية واليمن بزعامة زكرويه ، وألقوا الرعب والفرع في قلوب الأهلين . وقد ذكر المؤرخون أنهم هاجموا قوافل الحاج في عودتهم من مكة وقتلوا منهم عشرين ألف . وقد خرج القرامطة الشماليون الذين ثاروا في العراق العربي وبادية السماوة وبلاد الشام بزعامة يحيى بن زكرويه ، فقتل في سنة ٢٩٠ هـ ، ثم خرج أخوه الحسين . كما زالت الدولة الطولونية على يد محمد بن سليمان الكاتب قائد الخليفة المكتفي ، وذلك سنة ٢٩٢ هـ ، وأزال نفوذ قرامطة الشمال بقتله يحيى بن زكرويه سنة ٢٩٤ هـ .

كان المكتفي حسن السيرة محبوبا عند الرعية ، وسار سيرة جميلة فأجبه الناس ودعوا له ، ولكنه كان مبذرا كثير البذل . روى السيوطي<sup>(١)</sup> عن الصولي قال : سمعت المكتفي يقول في

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٥١ .



علته : والله ما آسى إلا على سبعائة ألف دينار صرفتها من مال المسلمين في أبنية ما احتجت إليها ، وكنت مستغنيا عنها أخاف أن أسأل عنها ، وإني أستغفر الله منها ، كما كان يعنى ببناء المساجد ورد الحقوق إلى أهلها . ويقول السيوطي (١) إنه دهم المطامير التي أخذها أبوه المعتضد وسيرها مساجد ، وأمر برد البساتين والخوانيت التي أخذها أبوه من الناس ليعملها قصرأ إلى أهلها . ، ومن مآثر المكتفى المسجد الجامع بالرجبة والتاج بالدار الشاطئية ببغداد .

وقال ابن دینار وكان أحد أساتذة المكتفى (٢) : ولما أفضت الخلافة إلى المكتفى كتبت له بيتين :

إن حق السأديب حق الأبوه عند أهل الحجا وأهل المروه  
وأحق الرجال أن يحفظوا إذا كبروا يرعو أهل بيت النبوه  
تحمل إلى عشرة آلاف درهم .

واشتهر في أيام المكتفى من العلماء عبد الله بن أحمد بن حنبل ، وثعلب لإمام العربية ، والبراز صاحب المسند ، ومحمد بن نصر المروزي الإمام ، وأبو جعفر الترمذى شيخ الشافعية في العراق . ولم يعمر المكتفى في الخلافة ، فمات في ريعان الشباب في ١١ من ذى الحجة سنة ٢٩٥ هـ ، خلفه أخوه المقندر .

## المقتدر

٢٩٥ - ٣٢٠ = ٩٠٨ - ٩٣٢ م

خلف المكتفى أخوه أبو الفضل جعفر بن المعتضد وهو في الثالثة عشرة من عمره وتلقب المقندر . وكان هذا الخليفة الجديد كالريشة في مهب الريح ، فقد قلده العباس بن الحسن وزير المكتفى ليكون أسلس قياداً من ابن المعتز ، وانتصح بنصيحة ابن الفرات الذى أشار عليه بتولية المقندر وقال له : اتق الله ولا تتصب في هذا الأمر من قد عرف دار هذا ونعمة هذا وبستان هذا وجارية هذا وضيعة هذا وفرس هذا ، ومن لقي الناس ولقوه وعرف الأمور وتحكك وحسب حساب نعم الناس . قال ( ابن الفرات ) : فاستعاد ذلك منى الوزير دفعات ثم قال : فيمن أشير ؟ فقلت : بجعفر ابن المعتضد فقال : ويحك ! جعفر صبي ، قلت : إلا أنه ابن المعتضد . ولم تجب . برجل يأمر وينهى ويعرف ما لنا ويمن يباشر التدبير بنفسه ويرى أنه مستقل ؟ ولم لا تسلم هذا الأمر إلى من يدعك تدبره أنت ؟ (٣) .

(١) المصدر نفسه ص ٢٥٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥١ .

(٣) مسكويه : كتاب تجارب الأمم ج ١ ص ٣ .

ولكن الوزير العباس بن الحسن لم يلبث أن عمل على خلع المقتدر وتولية عبد الله بن المعتز الخلافة . ولما بلغ ذلك المقتدر أعطى ابن المعتز بعض المال ، فعدل عن رغبته في الخلافة . غير أن هذا لم يمنع أنصاره من تحقيق سياستهم ، فلم ير المقتدر بدا من الهرب في ٢٠ من ربيع الأول سنة ٢٩٦ هـ ، فحضر القواد والقضاة والأعيان وبايعوا عبد الله بن المعتز بالخلافة ولقبوه « المرتضى بالله » (١) ، فاستورز محمد بن داود بن الجراح ، وقلد على بن عيسى الدواوين ، وولى أبا المثنى أحمد بن يعقوب القضاء .

روى السيوطي (٢) أن محمد بن جرير الطبري لما علم بخلع المقتدر ومبايعة ابن المعتز قال : وما الخبر ؟ قيل : بويح ابن المعتز . قال : فمن رشح للوزارة ؟ قيل : محمد بن داود . قال : فمن ذكر للقضاء ؟ قيل أبو المثنى ، فأطرق ثم قال : هذا الأمر لا يتم . قيل له : وكيف ؟ . قال : كل واحد ممن سميتهم متقدم في معناه على الرتبة ، والزمان مدبر والدنيا مؤولية ، وما أرى هذا إلا إلى اضمحلال وما أرى لمدته طولاً .

ولما تم الأمر لابن المعتز ، أرسل إلى المقتدر يأمره بالانصراف إلى دار محمد بن طاهر حتى يتيسر له الانتقال إلى دار الخلافة ، فعول أتباع المقتدر ، وعلى رأسهم مؤنس الخادم ومؤنس الخازن وغريب الخال والحاشية على محاربة ابن المعتز ، واتجهوا إلى المحرّم حيث كان يقيم ابن المعتز ، فهرب مع وزيره محمد بن داود وقاضيه أحمد بن داود وحاجبه يمن . وسادت الفوضى ببغداد ، ووقع النهب والقتل ، وحبس المقتدر عبد الله بن المعتز فظل في حبسه إلى أن مات ، وقبض على الفقهاء والأمراء الذين ناصروه وساعدوه على خلعهم . وبذلك استقر الأمر للمقتدر من جديد (٣) .

كان المقتدر كما وصفه صاحب الفخرى (٤) - « سمحاً كريماً كثير الإنفاق ، رد رسوم الخلافة من التجمل وسعة الإذارات والمعاش وكثرة الخلع والصلات » .

ولما توطدت سلطة المقتدر ، استوزر أبا الحسن علي بن محمد بن الفرات ، وإليه يرجع الفضل في هدمه الفتن التي سادت ببغداد على أثر انتقال الخلافة إلى المقتدر ، وتم له ذلك في يوم واحد . وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

ودبرت في ساعة دولة تميل بغيرك في أشهر (٥) .

على أن هذا الوزير لم يبق في الوزارة مدة طويلة ، فقد قبض عليه المقتدر لأمور نسبت إليه ، واستوزر بعده أبا علي محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وكان سيء السيرة كثير التولية

(١) يقول الطبري (ج ١١ ص ٤٠٥) إنه لقب الراضي بالله . ويقول السيوطي (تاريخ الخلفاء ص ٢٥٢)

إنه لقب الغائب بالله . (٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٥٢ .

(٣) مسكويه : كتاب تجارب الأمم ج ١ ص ٦ - ٨ .

(٥) الفخرى ص ٢٣٨ .

(٤) ص ٢٣٣ .

والعزل (١). وقد ساءت حالة الدولة في عهد هذا الوزير، حتى إن الخليفة المقتدر لم يربدا من عزله وتعيين علي بن عيسى بدله (٥٣٠١).

على أن بقاء هذا الوزير المصلح لم يطل بسبب إسراف الخليفة للمقتدر وعزله الوزراء والقبض عليهم، وتدخل النساء في أمور الدولة لصغر سنه وانصرافه إلى اللهو. وفي ذلك يقول صاحب الفخرى (٢): «واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليط كثير لصغر سنه. ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه، فكانت دولة تدور أمورها على تدبير النساء والخدم وهو مشغول ببلذته، فخربت الدنيا في أيامه، وخلت بيوت الأموال، واختلفت الكلمة، فخلع ثم أعيد ثم قتل».

ولا غرو فقد أصبح الأمر والنهي بيد أمه، وكانت تسمى «السيدة». فقد بلغ من ازدياد نفوذها أنها كانت إذا غضبت هي أو قهر مانتها من أحد الوزراء كان مصيره العزل لا محالة. وليس هذا كل ما كانت تتمتع به السيدة من نفوذ، فقد اتسعت سلطتها إلى حد أنها استطاعت أن تعين قهر مانتها «ثومال»، صاحبة البظالم. وقد أدى تدخل النساء في أمور الدولة إلى ضعفها وحرمانها من وزرائها الأكفأ واستهتار العامة بها.

انتشرت الفتن في عهد المقتدر، فخرج عليه مؤنس الخادم في سنة ٥٣١٧، بعد أن بلغه أن الخليفة فكر في تولية هرون بن غريب مكانه، وأرسل مؤنس إلى المقتدر ينبئه بتدمير الجيش من إسراف الحاشية والخدم، وضياع الأموال وإفساد الحكم بسبب تدخلهم في أمور الدولة، وبلغ على الخليفة في إخراجهم من قصره والاستيلاء على ما في أيديهم. فرد المقتدر عليه بكتاب ينفي فيه التهم التي وجهت إليه وإلى رجال حاشيته. فطلب القواد، وعلى رأسهم أبو الهيجاء الحمداني ونازوك إخراج هرون بن غريب عن بغداد، فأجابهم الخليفة إلى ما طلبوه وولى هرون الثغور الشامية والجزرية، وخلا الجو بذلك لهؤلاء، فثاروا على الخليفة وأخرجوه من داره، ونادوا بخلعه، وبايعوا محمد بن المعتضد بالخلافة ولقبوه القاهر بالله (٣).

على أن إقامة الحفلات بمناسبة تقليد القاهر بالخلافة لم تشبع نهم الجند، «فجاء العسكر يطلبون رزق البيعة ورزق السنة، ولم يكن مؤنس حاضراً، فارتفعت الأصوات فقتلوا الحاجب ومالوا إلى دار مؤنس يطلبون المقتدر ليردوه إلى الخلافة، فحملوه على أعناقهم من دار مؤنس إلى قصر الخلافة» (٤).

(٢) ص ٢٣٥.

(١) الفخرى ص ٢٤٠.

(٣) مسكويه: كتاب تجارب الأمم ج ١ ص ١٨٩ و ١٩٢.

(٤) يقول مسكويه (ج ١ ص ١٩٩) إن الخليفة الجديد أحضر «القاهر بالله فأجلسه بين يديه، واستدناه ثم جذبته إليه وقبل جبينه وقال له: يا أخي أنت لا ذنب لك، وقد علمت أنك قهرت، والقاهر بآرك يقول: الله الله يا أمير المؤمنين! فلما كرر ذلك قال له: وحق رسول الله صلى الله عليه وسلم لا جرى عليك سوء مني أبدا ولا وصل أحد إلى مكروهك وأناحي، ولأحرصن على انصرافك إلى منزلك من دار ابن طاهر في هذه الليلة فطلب نفسا ولا تجزع».

يقول ابن الأثير (١) إن الأحوال قد هدأت بعودة المقتدر الذي أطلق للجنود أرزاقهم وزاد فيها وباع ما في خزائنه من الأمتعة والجواهر .

### عوامل ضعف الدولة في عهد المقتدر :

كانت حالة الدولة العباسية في عهد المقتدر مضطربة في الداخل والخارج : ويرجع السبب في ذلك إلى صغر سنه ، وعجزه عن مباشرة أمور الدولة ، وازدياد نفوذ الأتراك ، وتدخل النساء في الحكم . وفي ذلك يقول ابن الأثير (٢) : « إن المقتدر أهمل من أحوال الخلافة كثيراً ، وحكم فيها النساء والخدم ، وفرط من الأموال ، وعزل من الوزراء ، وولى ما أوجب طمع أصحاب الأطراف والنواب وخروجهم عن الطاعة . وكان جملة ما أخرجه من الأموال تبنيراً وتضييعاً في غير وجه نيفا وسبعين ألف ألف دينار ، سوى ما أنفق في الوجوه الواجبة . وإذا اعتبرت أحوال الخلافة في أيامه وأيام أخيه المكتفي ووالده المعتضد رأيت بينهم تفاوتاً بعيداً . »

وقد وصف ميور (٣) الدولة العباسية في عهد المقتدر فقال : « إن عهد هذا الخليفة التعس قد هوى بالدولة إلى الحضيض . فقد ضاعت ممتلكاتها في الخارج : فضاعت إفريقية ، وأوشكت مصر أن تضيع ، واستقل أمراء بني حمدان بالموصل ، واستطاع البيزنطيون أن يشنوا إغاراتهم المتصلة على الحدود المتاخمة التي ضعف الدفاع عنها . ومع ذلك بقى شيء من الاعتراف بسلطان الخلافة في البلاد الشرقية ، حتى بين أولئك الأمراء الذين نادوا أخيراً باستقلال ولاياتهم . أما في الأراضي القريبة من حاضرة العباسيين فقد أخذت ثورات القرامطة المخيفين إلى حين . وفي بغداد نفسها ، صار الخليفة المقتدر الذي كان آلة في أيدي رجال البلاط المفسدين ذوى الأطماع الدنيئة ، تحت رحمة حراسة من الأجانب الذين أصبحوا يأتمرون إلى حد كبير بأوامر القواد من الأتراك وغيرهم الذين لا يمتنون إلى العباسيين بصلة . والذين كانوا يشعلون نار الثورة من حين إلى حين . وإذا علمنا أن هذا الخليفة قد غلب على أمره وخلع مرتين وذبح في النهاية عند ما حاول مقاومة أحد قواده المخلصين لعرشه الذي استعان به ، فلا نعجب إذا تلاشت تلك الهيبة التي عمل أسلافه القريبون على استعادتها ، وغدا العرش مرة ثانية هدفاً للازدراء في الداخل وفرصة سانحة تحمل على إغراء المغيرين على الدولة في الخارج . أضف إلى ذلك أن الشعب قد فسدت أخلاقه ، ولم تعد بغداد بعد ذلك المكان الذي يضم رجالاً أقوياء يدافعون عن بلادهم ، بل يحكمون أنفسهم إذا دعت الحاجة إلى ذلك . أما الآن فقد أصبحوا أحراباً وشيعاً متطاحنة تستطيع أن تخضب الطرق بالدماء . كما فعلوا في ذلك الحين عند تفسير نص من النصوص ، وكما حدث أيضاً عند ما تثار الحنابلة ورموا الطبري بالالحاد وحالوا

(٢) ج ٨ ص ٨٣

(١) ج ٨ ص ٧٠

(٣) Muir : The Caliphate, pp. 567—8

دون دفنه (١). أما الرجولة والفضيلة والقدرة والبأس فقد ذهب كل ذلك تماماً .

وفي عهد المقتدر نبغ كثير من العلماء ، نخص بالذكر منهم الفقيه محمد بن داود الظاهري ، وابن شريح شيخ الشافعية ، والجنيد شيخ الصوفية ، والنسائي صاحب كتاب السنن ، والجبائي شيخ المعتزلة ، وابن جرير الطبري ، والزيجاج النحوي ، والأخفش الصغير النحوي ، وأبو عوانة صاحب الصحيح ، وقدامة بن جعفر الكاتب ، وابن زكريا الطبيب .

لم يمض على عودة المقتدر إلى الخلافة للمرة الثانية سنة واحدة حتى خرج عليه مؤنس ثانية ، وانتهى الأمر بقتله ، وتركت جنته مكشوفة أياما ، ثم دفن بالموضع الذي مات فيه ، وذلك يوم الأربعاء ثلاث بقين من شوال سنة ٥٣٢ . وكان ما فعله مؤنس سبباً في تجرؤ الولاة العباسيين على خلفائهم ، فقد انحرفت هيئة الخلفاء وضعف أمر الخلافة ، (٢).

## القاهرة بالله

٣٢٠ - ٣٢٢ هـ = ٩٣٢ - ٩٣٤ م

ولى الخلافة بعد المقتدر أخوه أبو منصور محمد بن المعتضد ولقب بالقاهر بالله . وفي عهده انتشرت الفتن الداخلية ، فلم تمض عليه في الخلافة سنة واحدة حتى شغب عليه الجنود ، واتفق بعض كبار رجال دولته وقائده مؤنس ووزيره ابن مقله على خلعه وتولية أحد أولاد المكتفي . فلما علم بذلك القاهر عول على التخلص منهم : فتحيل القاهر عليهم إلى أن أمسكهم وذبحهم وطين على ابن المكتفي بين حيطين (٣).

وقد اشتهر القاهر بالقسوة ، واتخذ حربة عظيمة يحملها بيده إذ اسعى في ذلك ، ويطرحها بين يديه في حال جلوسه يباشر الحرب (٤) بتلك الحربة لمن يريد قتله ، فسكن من كان يستعدى على من كان

(١) يشير ابن الأثير (ج ٨ ص ٤٥ - ٤٦) إلى ذلك بقوله : دفن الطبري ليلة بداره لأن العامة اجتمعت ومنعت من دفنه نهرا ، وادعوا عليه الرض ثم ادعوا عليه الالحاد . . . فليس الأمر كذلك ، وإنما بعض الخناثة تعصبوا عليه ووقعوا فيه فتبعهم غيرهم . ولذلك سبب هو أن الطبري جمع كتابا فيه اختلاف الفقهاء - لم يصنف مثله - ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل ، فقيل له في ذلك فقال : لم يكن فقيها وإنما كان محدثا ؛ فاشتد ذلك على الخناثة ، وكانوا لا يحصون كثرة ببغداد ، فشفبوا عليه وقالوا ما أرادوا .

حسدوا الفتي إذ لم ينالوا سعيه      فالتاس أعداء له وخصوم  
كضرائر الحسنة قلن لوجهها      حسدا وبغضا إنه لقيم

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٨٢ - ٨٣ .

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٥٧ .

(٤) ولعله يريد الضرب .

قبله من الخلفاء والتشعب والوثب عليهم . وكان . . . مخوف السطوة<sup>(١)</sup> . ويقول السيوطي<sup>(٢)</sup> :  
« وزيد في ألقابه المنتقم من أعداء الله ، ونقش ذلك على السكة » .  
وكان القاهر كما وصفه الصولي وأهوج سفاكاً للدماغ قبيح السيرة ، كثير النلون والاستحالة مدمن  
الخمر ، ولولا جودة حاجبه سلامة لأهلك الخرت والنسل<sup>(٣)</sup> .

وقد نجا الوزير ابن مقله بنفسه ، إلا أن داره أحرقت ، ونهبت دور أتباعه . ولما هدأت الفتنة  
أعطى الخليفة القاهر الجند أرزاقهم ، فبدأت نفوسهم وسكنت ثائرتهم ، واستطاع أن يقبض على  
زعيم الأمور من جديد<sup>(٤)</sup> . إلا أن جماعة الساجية أتباع ابن أبي الساج أحد قواد المعتمد والحجرية<sup>(٥)</sup>  
خافوا بطش القاهر ، وشجعهم على شق عصا الطاعة دسائس ابن مقله . وزاد شك هؤلاء الجند  
إقامة الخليفة القاهر المطامير<sup>(٦)</sup> في داره للفتك برعائهم . ويقول ابن الأثير<sup>(٧)</sup> : « إن القاهر لما  
تمكن من الخلافة أقبل ينقص الساجية والحجرية على مر الأيام ، ولا يقضى لأكابريهم حاجة ،  
ويلزمهم التوبة في داره ويؤخر أعطياتهم ، ويفلظ لمن يخاطبه منهم في أمر ويحرمه ، فأقبل بعضهم  
ينظر بعضاً ويتشاكون بينهم . ثم إنه كان يقول لسلامة حاجبه : يا سلامة ! أنت بين يدي كثر مال  
يشي ، فأى شيء يبين في مالك . لو أعطيتني ألف ألف دينار فيحمل ذلك منه على الهزل . وكان  
وزيره الحصبى أيضاً خائفاً لما يرى منه . ثم إنه حضر في الدار نحو خمسين مطمورة تحت الأرض  
وأحكم أبوابها ، فكان يقال إنه عملها لمقدمي الساجية والحجرية ، فزاد نفورهم منه وخوفهم . ثم  
إن جماعة من القرامطة أخذوا بفارس وأرسلوا إلى بغداد ، فحبسوا في تلك المطامير ، ثم تقدم سراً  
بفتح الأبواب عليهم والاحسان إليهم ، وعزم على أن يقوى بهم على القبض على مقدمي الحجرية  
والساجية ومن معه من غلبانه . وأنكر الحجرية والساجية حال القرامطة وكونهم معه في داره ،  
محسناً إليهم ، وقالوا لوزيره الحصبى وحاجبه سلامة في ذلك فقالوا له ، فأخرجهم من الدار ، فسلبهم  
إلى محمد بن ياقوت وهو على شرطة بغداد ، فأنزلهم في داره وأحسن إليهم . وكان يدخل إليهم من  
يريد ، فمظم استباحشهم ، ثم صار يذمهم في مجلسه ويظهر كراهتهم حتى بينوا ذلك في وجهه وحركاته  
معهم ، فأظهروا أن لبعض قوادهم عرساً ، فاجتمعوا بحجته ، وقرروا بينهم ما أرادوا ، واقترقوا

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٥١٤ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٥٧ . (٣) المصدر نفسه ص ٢٥٨ .

(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ٨٣ - ٨٤ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٥٧ .

(٥) م جماعة من الشباب يقينون في حجر منفردة وهم فرقة من الحرس الخاص في قصور الخلفاء .

(٦) المطمورة هي حفرة تحفر تحت الأرض . وبنى مطمورة إذا بنى بيتاً في الأرض ، ويقصد بذلك حجرات  
الأرض أعدت للسجن وللتعذيب .

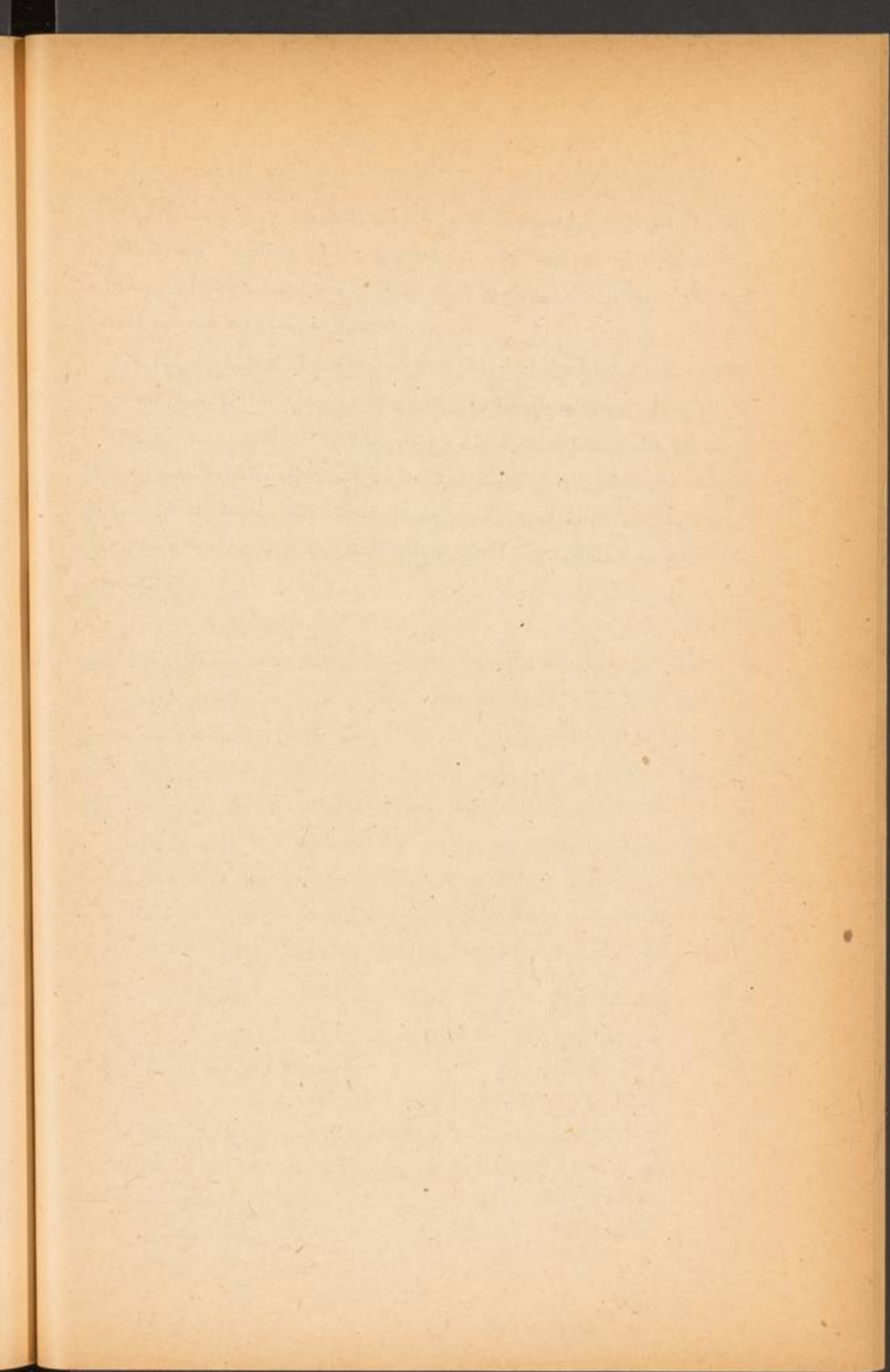
(٧) ج ٨ ص ٩٧ .

وأرسلوا إلى سابور خادم والدة المقتدر فقالوا له : قد علمت ما فعله بمولاتك ، وقد ركبت في موافقته كل عظيم . فان وافقتنا على ما نحن عليه وتقدمت الى الخدم بحفظه ، فعفا الله عما سلف منك ، وإلا فنحن نبدأ بك . فأعلمهم ما عنده من الخوف والكرهه للقاهر ، وأنه موافقهم . وكان ابن مقلة مع هذا يصنع عليه ويسمى فيه إلى أن خلع .

وقد اشتهر من العلماء في عهد القاهر أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الذي نبغ في الشعر واللغة حتى وصفه المسعودي<sup>(١)</sup> بقوله انه برع في الشعر وانتهى في اللغة وقام مقام الخليل بن أحمد فيها . وقد ذكر صاحب الفخرى<sup>(٢)</sup> أن القاهر خرج يوماً ووقف بجامع المنصور يطلب الصدقة من الناس ، وقصد بذلك التشنيع على المستكفي ، فرآه بعض الهاشميين ، فتنعه من ذلك ، وأعطاه خمسمائة درهم . ولما علم المستكفي بذلك منعه من الخروج ، وظل محبوساً الى أن مات في شهر جمادى الأولى سنة ٣٣٩ هـ ، وذلك في عهد الخليفة الطائع لله (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ) ، وله من العمر ثلاث وخمسون سنة .

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٥١٨ .

(٢) ص ٢٤٩ .





## الباب الثاني

---

عصر إمرة الأمراء

(٣٢٤ - ٣٣٤ = ٩٣٦ - ٩٤٥ م)

تذکرہ



ماہنامہ آفتاب

(۱۲۹۹ - ۱۳۰۰ - ۱۳۰۱ - ۱۳۰۲)

## الراضى بالله

٢٢٢ - ٥٢٢٩ = ٩٣٤ - ٩٤٠ م

ولى أبو العباس أحمد بن المقتدر الخلافة في اليوم السادس من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٢٢٢ ، ولقب الراضى بالله ؛ وقد ضعفت الخلافة العباسية في عهده واستقل كثير من الأمراء بولاياتهم .  
١ - مرداويج بن زيار :

وكانت بلاد فارس وما جاورها بيئة صالحة لنمو كثير من العناصر التي ناوت الخلافة العباسية ، فقد قامت في هذه البلاد عدة دول كالتاهيرية والصفارية والسامانية ، كما قامت فيها أيضاً دول أسسها رجال من الديلمة من أمثال ما كان بن كالى ، ومرداويج بن زيار ، وأخيه وشمكير بن زيار . ثم قامت فيها دولة بنى بويه الذين استولوا على بغداد سنة ٥٣٤ هـ ، ثم السلاجقة الذين استولوا عليها أيضاً سنة ٤٤٧ هـ ، ووضعوا الخلافة العباسية تحت حمايتهم واستبدوا بالسلطة دون الخلفاء . ثم قامت الدولة الخوارزمية التي تخلصت من نفوذ السلاجقة ، وناوت الخلافة والمغول ، وكانت في النهاية سبب ما حل بالخلافة من المصائب التي انتهت بسقوط بغداد وزوال الدولة العباسية في سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

وفي سنة ٥٢٢ هـ عظم أمر مرداويج بن زيار الديلمي أحد قواد الأصفر أمير قزوين ، فطرد الأصفر واستولى على بلاده ، ثم فتح الري وأصفهان ، وكانا من قبل تحت ولاية يوسف بن أبي الساج ، واستولى على طبرستان وجرجان والرى وهمذان وأصفهان ، وبلغت جيوشه نواحي حلوان . وقد عمل هذا القائد على الاستيلاء على بغداد وإعادة مجد الدولة الفارسية . ولم ير الخليفة العباسي المقتدر بدا من إقراره على ما بيده بعد أن تعهد بدفع جزية سنوية (١) . قال صاحب الفخرى (٢) عند كلامه على حالة الدولة العباسية في عهد الخليفة الراضى : « وفي أيامه سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة عظم أمر مرداويج بأصفهان ، وهو رجل خرج بتلك النواحي ، وقيل إنه يريد أن يأخذ بغداد وينقل الدولة إلى الفرس ويبطل دولة العرب ، فورد الخبر في أيام الراضى بأن غلمان مرداويج انفقوا عليه فقتلوه (٣) » .

وذكر الصولى في كتابه الأوراق ضمن أخبار الراضى بالله والمتقى لله (٤) أخبار مرداويج فقال : « وعظم في أيام الراضى أمر مرداويج السلسى بأصفهان ، وتحدث الناس عنه أنه يريد تشييع الدولة وقصد بغداد ، وأنه لمساهم لصاحب البحرين ( يقصد أبا طاهر الجنائى القرمطى ) مجتمع له على ما يحاوله ، ثم ورد الخبر بأن غلمانه قتلوه ، وأن رئيس الغلمان غلام يعرف بيجكم ، وأنه خرج عن

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٦٥ و ٧٢ - ٧٣ و ٨٤ - ٨٥ و ١١٣ - ١١٤ .

(٢) ص ٢٥١ (٣) الفاطميون في مصر للمؤلف ص ٧٣ .

(٤) ص ٢٠ - ٢٢ .

أصبهان ومعه جماعة من الأتراك قد رضوا به أصحاباً لهم ورئيساً عليهم ؛ فزعم ابن ياقوت أنه هو الذي دبر ذلك ، وكاتب فيه الغلبان ، ووجه برسل إليهم يحضهم على ذلك ويرغبهم في حسن الفائدة عليهم في العاجل من جهة الخليفة ، وفي الثواب بطاعتهم للخليفة . ونفذت كتبه إلى بجكم والغلبان بتحقيق ظنونهم والتقدم إليهم لقصد مولايم وقتله ليبلغ بهم ما أملاه . ودخل المنجم احمد بن يحيى وعلى بن هارون فأثمدوا الراضى شعراً يشانه فيه بهذا الفتح ؛ من ذلك :

ضحك الدهر بعد طول غيوس طالماً بالسعود لا بالنجوس  
وأنتنا الأيام معتذرات لابسات نعيمها بعد ثوس  
بالإمام الراضى المطيل على آداب شمس الملوك وابن الشموس  
سبعة من خلائف ولدوه (١) لم يكن ذا لغيره من رئيس  
رضي الراضى الإله لمملك أوصح النهج منه بعد الدروس  
يا نسيم الحياة أضحكك دهرأ كان لولاك دائم التعيس  
مردويج بسيف حظك مقبو لئ فأوهن بذاك من مرموس (٢)  
قصفته رياح أيامك الفرس فأخذن منه نار المجوس  
ثل عرش اللعين أسرع ممأ سلب العرش من يدى بلقيس (٣)

٢ - وشمكير بن زيار :

ولما مات مرداويج بن زيار الديلمي خلفه أخوه وشمكير ؛ على أن نفوذه سرعان ما ضعف ، وانتزع منه ركن الدولة بن بويه بلاد الري سنة ٣٣٠ هـ ، كما انتزع أبو علي محمد بن مظفر بن محتاج ، والى نصر بن أحمد الساماني على بلاد خراسان بلاد طبرستان وجرجان ، وأرغمه على المسير إلى بلاد الجبل حيث أذعن لطاعة نصر بن أحمد الساماني ثم لابنه نوح بن نصر . ولما اعتلى عرش الدولة السامانية منصور بن نوح أنفذه على رأس جيش كبير لمحاربة ركن الدولة بن بويه ، ولكنه مات في الطريق (٤) . ولم يقتصر أمر مرداويج على ذلك ، بل بعث الرسل يحملون المال الكثير لعبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب ، وأعلن رغبته في الدخول في طاعته (٥) .

(١) لا يقصد الصولى بذلك جميع الخلفاء العباسيين الذين ولوا الخلافة قبل الراضى ، وإنما يقصد الخلفاء الذين تتسلل نسيبهم وهم المعتز والمعتض والمتوكل والمعتصم والرشيد والمهدي ثم المنصور .

(٢) رمى الميت رمسا من باب قتل دفنه .

(٣) يقصد بذلك بلقيس ملكة سبا التي أرسل إليها سيدنا سليمان رسالته المشهورة (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلموا على وأتوني مسلمين - سورة النمل ٢٧ آية ٣٠ - ٣١ .

(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ٩١ و ٩٨ - ٩٩ و ١٠٣ - ١٠٥ و ١١٥ و ١٧٤ و ١٨٤ و ٢١٤

و ٢٢٨ .

(٥) الفاطميون في مصر للمؤلف ص ٧٣ .

استعان الراضى فى إدارة شئون دولته ببعض وزراء ضعاف ، كانوا يبذلون للخليفة كثيراً من المال ليرفعهم إلى مرتبة الوزارة . ولا أدل على ذلك مما بذله أبو على بن مقلة حين تقلد الوزارة للمرة الثالثة فى عهد الراضى ؛ فقد دفع للخليفة خمسمائة ألف دينار . غير أنه لم يتمتع بالوزارة طويلاً ، إذ ثار عليه الجند ، وقامت فى البلاد فتنة انتهت بعزله ، وصرفه الراضى عن الوزارة واستوزر عبد الرحمن بن عيسى بن داود بن الجراح ، فظهر عجزه عن إدارة البلاد ، وقلد الراضى أخاه الوزارة فاختلت أمور الدولة فى عهد وزارته ، ولم يلبث أن استقال من منصبه ، فحل محله أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخى . وكان كغيره من الوزراء الذين سبقوه ضعيف الجانب ، لم يقم بأى عمل فى سبيل إصلاح شئون البلاد وإقالتها من عثرتها ، بل لقد اشتد ضعف الدولة فى عهده ، واضطر أخيراً إلى الاختفاء حتى لا يلحق به أذى الأهلين . وقد وصفه صاحب الفخرى (١) فى هذه العبارة : « وكان قصيراً جداً فى غاية القصر ، فاحتاجوا أنهم قطعوا من قوائم سرير الخلافة أربع أصابع حتى يتمكن الكرخى الوزير من مشاورة الخليفة ، وتطبير الناس من ذلك وقالوا : هذا مؤذن بنقص الدولة ، فكان الأمر كما قالوا عليه ، واختلقت الأحوال واضطربت الأمور لديه فاستتر . »

### ٣ - تولية ابن رائق إمرة الأمراء :

ولما رأى الراضى أن الكرخى قد عجز عن النهوض بأعباء الوزارة ، استوزر سليمان بن الحسن ابن مخلد ، فمجز هو أيضاً عن إدارة شئون البلاد ، لازدياد نفوذ كبار القواد وتدخلهم فى أمور الدولة ، مما دعا الخليفة الراضى إلى استمالة ابن رائق - وكان بلى واسط والبصرة - وسلم إليه مقاليد الأمور ولقبه « أمير الأمراء » ، فازدادت سلطته وأصبح بيده تولية الولاة وعزلهم . وزادت مكاتته عند الخليفة وعلت على مرتبة الوزير . وفى ذلك يقول صاحب الفخرى (٢) : « واستبد ابن رائق أمير الأمراء بالأمور ، ورد الحكم فى جميع الأمور إلى نظره ، ولم يبق للوزير سوى الاسم من غير حكم ولا تدبير . » ويقول مسكويه (٣) : « فأنفذ إليه الراضى ما كرد الديلى من الساجية ( أى أصحاب ابن أبى الساج ) ، وعرفه أنه قلده الإمارة ورياسة الجيش ، وجعله أمير الأمراء ، ورد إليه تدبير أعمال الخراج والضيايع وأعمال المعاون فى جميع النواحي ، وفوض إليه تدبير المملكة ، وأمر بأن يُخطب له على جميع المنابر فى الممالك ، وبأن يُمكنى ، وأنفذ إليه الخلع واللواء مع ما كرد الديلى وخادم من خدم السلطان . »

(١) ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٢) ص ٢٥٣ .

(٣) كتاب تجارب الامم ج ١ ص ٣٥١ .

ويظهر لنا أن محمد بن رائق لم يكن أول من تلقب بأمر الأمرام . فقد ذكر مسكويه<sup>(١)</sup> أنه لما ظهرت الوحشة بين الخليفة المقتدر ومؤنس الخادم ، قلد هذا الخليفة هرون بن غريب إمرة الأمرام سنة ٥٣١٦ هـ . وفي ذلك يقول مسكويه : « وكثر الناس عليه وأرجفوا (يعني هرون بن غريب) بإمارة الأمرام . . وأقام هرون بن غريب في دار السلطان متابداً لمؤنس المظفر . . ويقول مسكويه<sup>(٢)</sup> أيضاً : « ولما وصلت هذه الرقعة إلى مؤنس ووقف نازوك وأبو الهيجاء على ما تضمنت ، عدلوا إلى مكاتبته بإخراج هرون بن غريب عن بغداد ، فأجابهم إلى ذلك ، وقلد هرون الثغور الشامية والجزرية ، وخرج من يومه ومضى إلى قُطْرُبُل فأقام بها . ولما كان يوم الاثنين العشر من المحرم (سنة ٥٣١٧ هـ) دخل مؤنس المظفر والجيش بغداد . »

ويقول مسكويه<sup>(٣)</sup> : « وبطل منذ يومئذ أمر الوزارة ، فلم يكن الوزير ينظر في شيء من أمر النواحي ولا الدواوين ولا الأعمال ، ولا كان له غير اسم الوزارة فقط ، وأن يحضر في أيام المواكب دار السلطان بسواد وسيف ومنطقة ، ويقف ساكتاً . وصار ابن رائق وكاتبه ينظران في الأمر كله ؛ وكذلك كل من تقلد الإمارة بعد ابن رائق إلى هذه الغاية . وصارت أموال النواحي تُحمل إلى خزائن الأمرام<sup>(٤)</sup> ، فيأمرون وينهون فيها وينفقونها كما يرون ، ويطلقون لنفقات السلطان ما يريدون ، وبطلت بيوت الأموال . » ويقول ابن الأثير : « وبطلت الدواوين من ذلك الوقت وبطلت الوزارة ، فلم يكن الوزير ينظر في شيء من الأمور ، إنما كان ابن رائق وكاتبه ينظران في الأمور جميعها ، وكذلك كل من تولى إمرة الأمرام بعده . وصارت الأموال تحمل إلى خزائنهم فيتصرفون فيها كما يريدون . وبطلت بيوت الأموال ، وتغلب أصحاب الأطراف وزالت عنهم الطاعة . »

وإن حالة الخلفاء العباسيين في عهد إمرة الأمرام لتشبه في كثير من الوجوه حالة ملوك الميروفنجيين Merovingians المتأخرين مع نظار السراي .

كان أواخر ملوك الميروفنجيين أشبه شيء بالأعيب في أبدى نظار السراي Mayors of the Palace ؛ ولم يكن لهم من الأمر شيء إلا ما كان من ظهورهم في الحفلات الرسمية ، وفيما عدا ذلك عاشوا معيشة العزلة في إحدى ضياعهم<sup>(٥)</sup> .

وقد أتى المؤرخ ابنهات (Einhard, Eginhard) سكرتير شرلمان ومؤرخ حياته بوصف لحالة ملوك الميروفنجيين المتأخرين ، وصفاً دقيقاً لا بأس من إirاده هنا . قال ابنهات : « ولقد ظل البيت

(١) كتاب تجارب الأمم ج ١ ص ١٨٨ .

(٢) ج ١ ص ١٩٢ .

(٣) ج ١ ص ٣٥٢ .

(٤) يقصد بذلك من تولوا إمرة الأمرام .

(٥) Thatcher and Schwill, p. 42

المير وفنحي ستين طويلة خلوا من كل قوة ، ولم يحط بالملك شيء من مظاهر العظمة سوى اللقب الملكي ، لأن حكام قصرهم قد آلت إليهم ثروة البلاد ، وأصبح في قبضة يدهم ما كان لهؤلاء الحكام من قوة . وكان يطلق على كل من هؤلاء الحكام اسم ناظر السراي ( Mayor, maire ) ، وهو المتصرف في مهام الدولة جميعها ، ولم يبق للملك من سلطة سوى الرضا بلقبه الملكي ، وما كان من جلوسه على عرشه بشعره الطويل ولحيته المدلاة ، وهو في ذلك أشبه شيء بتمثال لأحد الأمراء . فكشفت تراه إذا ما سمع خطب سفراء الدول ، يرد على هذه الخطب بكلمات قد لثقتها من قبل ، فيبدو لك كأنه يحدث نفسه . ولم يكن لقبه الملكي ليجديه نفعاً . فقد كان المرتب المعين لشخصه موكولا لناظر السراي ، ولم يعد في حوزته سوى منزله الملكي ، الذي لم يزد في أهمته على منازل أصحاب الأملاك المتوسطة الحال ؛ وفي هذا المنزل أقامت أسرته وعبيده القليلون . فإذا ما أراد الملك السفر رحل في عربة مغطاة ، يجرها ثوران ، ويسوقها رجل من رجال الريف . وكانت أسفاره لا تتعدى قصره والمكان الذي يتفقد فيه مجلس الأمة ، للنظر في أمور الدولة ، ولم يزد ذلك على مرة واحدة في كل عام . على أن إدارة شئون الدولة ، وكل ما يتعلق بأحوالها داخليا وخارجيا ، قد غدت في يد ناظر السراي ، (١) .

هكذا ضعف شأن الوزير في عهد الراضي وحل محله أمير الأمراء الذي أصبح يتدخل في تعيين الوزراء وعزلهم . فقد أشار ابن رائق على أثر تقلده هذا المنصب على الخليفة الراضي بأن يولي الوزارة الفضل بن جعفر بن الفرات ، حتى يصبح مطلق التصرف في أموال الدولة . وغدا ابن رائق يشرف على الدواوين وصارت الأموال تُسجمل إليه . (٢)

#### ٤ - بحكم :

على أن نفوذ ابن رائق لم يلبث أن ضعف في سنة ٣٢٦ هـ من جراء منافسة الأمراء له . فقد حاربه أبو عبد الله البريدي صاحب الأهواز ، كما خرج عليه أحد قواده واسمه بحكم ودخل بغداد سنة ٣٢٧ هـ وآلت إليه إمرة الأمراء ، واستولى بذلك على جميع شئون الدولة زهاء سنتين (٣٢٧ - ٣٢٩ هـ) . وقد وصف الصولي حالة بغداد في الوقت الذي تقلد فيه بحكم إمرة الأمراء ، فقال إن العامة عاثوا في الأرض فساداً ، وانقضوا على الحمامات العامة وأخذوا ثياب من فيها ، وكثرت المصادرات وتفاقم شر اللصوص الذين تسلحوا بالعدد لكبس الدور ليلاً . وشكا الناس في غير جدوى إلى بحكم ما أحله بهم أصحابه من بلاء ، وانتشرت الفوضى والمنازعات وسامت حالة العراق ، ولم تنفث هذه المصائب إلا بوفاة بحكم .

(١) Oman: European History p. 268.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٦ .

عهد الخليفة الراضى بالله الى ابن رائق أن يجهز جيشاً يستعيد به نفوذ الدولة العباسية على مصر . وكان الإخشيد في ذلك الوقت قد استقل بها ، وظلت صلة الوفاق بينه وبين الخلافة على أحسن ما يكون من الصفاء إلى سنة ٣٢٨ هـ . غير أن هذه الصلة لم تلبث أن تبدلت بمسير محمد بن رائق الخزرى إلى الشام يريد مصر بتقليد من الخليفة ، مما حفز الإخشيد إلى إلغاء الخطبة للخليفة العباسى وذكر اسم الخليفة الفاطمى محل اسمه في الخطبة ، أو على الأقل إلى وقف الدعوة للخليفة العباسى ردحاً من الزمن . وفي هذه السنة وقعت الحرب في العريش بين الإخشيد وابن رائق الذى استولى على دمشق من قبل ؛ فضى ابن رائق منهزماً إلى الرملة . وعلى الرغم من قتل الحسين بن طعج أخى الإخشيد ، عقد الصلح على ما يجب ابن رائق ؛ فنقلد ولاية الأراضى الشامية شمالي الرملة ، وتعهد الإخشيد أن يدفع اليه جزية سنوية مقدارها ١٤٠,٠٠٠ دينار ، مما جعل بعض المؤرخين يرى أن عقد الإخشيد الصلح على هذه الصورة مع انتصاره على خصمه دليل على ضعف سياسته . على أننا نرى في عمله ما يبرره نظراً لأحوال التي كانت تحيط به ، لأنه كان يخشى أن تواصل الخلافة العباسية الحملات عليه ، على الرغم من انتصاره في هذه المرة ، ولأنه كان يخشى خصماً آخر يهدده من ناحية مصر الغربية وهو الخليفة الفاطمى (١) ، كما كان يخشى أيضاً سيف الدولة الحمدانى في حلب .

وليس أدل على ما بلغته الدولة العباسية من ضعف ووهن في عهد تولية ابن رائق وبمحكم إمرة الأمراء مما رواه أبو بكر الصولى (٢) عن الخليفة الراضى الذى عبر عما كان يجيش بنفسه من آلام لانصراف آباته إلى اللهو واللعب ، واعتمادهم على الموالى من الأتراك حتى ضاعت حرمة الخلافة : وقال لنا الراضى بالله : كأتى بالناس يقولون أرضى هذا الخليفة بأن يدبر أمره عبد تركى ، حتى يتحكم في المال وينفرد بالتدبير ؟ ولا يدرون أن هذا الأمر أفسد قبلى ، وأدخلنى فيه قوم بغير شهوتى ، فسلبت الى ساجية وحجرية يتسحبون علىّ ويجلسون في اليوم مرات ، ويقصدوننى ليلاً ، ويريد كل واحد منهم أن أخصه دون صاحبه ، وأن يكون له بيت مال . وكنت أتوقى الدماء في تركى الخيلة عليهم الى أن كفانى الله أمرهم . ثم دبر الأمر ابن رائق ، فدبره أشد تسجياً في باب المال منهم ، وانفرد بشر به وطوه . ولو بلغه وبلغ الذين قبله أن على فرسخ منهم فرسانا قد أخذوا الأموال واجتاحوا الناس ، فقيل لهم أخرجوا إليهم فرسخا ، لطلبوا المال وطلبوا بالاستحقاق ، وربما أخذوه ولم يبرحوا . ويتعدى الواحد منهم أو من أصحابهم على بعض الرعية ، بل على أسباني ، وأمر فيه بأمر فلا يمتثل ولا ينفذ ولا يستعمل ، وأكثر ما فيه أن يسألنى كلب من كلابهم فلا أملك رده ، وإن رددته غضبوا وتجمعوا وتكلموا . . . وكان الأجود أن يكون الأمر كله لى كما كان لمن مضى قبلى ، ولكن لم يجر القضاء بهذا لى .

(١) أبو المحاسن : كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٣ ص ٢٥٢ - ٢٥٣ ، انظر أيضاً

كتاب المجمل في التاريخ المصرى المؤلف ص ١٥٣

(٢) كتاب أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ٤١ - ٤٢



لا نعجب إذن إذا انحرف الراضى عن ابن رائق . ويحدثنا الصولى أنه صرح بذلك لملاً من الناس . على أنه لم يكن من القوة بحيث يستطيع التخلص منه ، بدليل أن الراضى لما علم بأن ابن رائق اتهمه بالانحراف عنه دعاه ، إلى الزبيدية فأكل مع ابنيه على مائدة كانت عن يمينه الراضى . . . . . وخلع عليه وقت الظهر خلعة وثى<sup>(١)</sup> مثقلة بالذهب ومعممة كذلك ، جلس فيها ساعة . ثم خلع عليه عند العصر وقت انصرافه خلعة أخرى .

على أن أيام ابن رائق لم تطل ، فقد دعا الخليفة الراضى بجحكم ليخلصه مما هو فيه . يقول الصولى<sup>(٢)</sup> : وكان دعا بجحكم مرات ، ما منها مرة إلا وهو يتفق عليه في خلعه ، وما يحمله معه عشرين ألف دينار وزيادة ، عليها من صواني ذهب وفضة وعنبر وند ومسك وكافور وبلور . . . . . ولقد قبيل في آخر دعوة دعاه نخذه وبده ، فضمه الراضى إليه وأخرج من إصبعه خاتمين فوضعهما في إصبعه ، أحدهما يشبه الجبل في حمرة وكبره ( يقول الصولى ) ، فنظر ابن حمدون إلى ونظرت إليه ، واغتمنا أن يكون الجبل في يد غيره ، فقطن لنا ؛ فلما انصرف بجحكم قال لنا : قد رأيت نظركما وقت الخاتم ، وأحسبكما ظننتاه الجبل ليس به ، ولكنه أقرب فص في الدنيا شهاً به .

٥ - بين ابن رائق وبجحكم :

دارت الحرب بين بجحكم وابن رائق وانتهت بانضمام ابن رائق في شهر ذى القعدة سنة ٥٣٢٦ هـ ، وخلع الخليفة الراضى على بجحكم سبع خلع وقال له : قد جعلتك أميراً ، وعقد له لواء فقال : يا مولاي ما أريد إلا أن تزاح عنتى في أرزاق أصحابي وقت استحقاقهم . . . . . فامضى لبجحكم شهران حتى زاد أصحابه وزاد فيهم من أثبت بعشرين ألف دينار في السنة وأكثر ، وجرى أمره على ذلك إلى أن قتل<sup>(٣)</sup> .

على أن حالة الدولة العباسية لم تسكن في عهد ولاية بجحكم أقل سوءاً واضطراباً بسبب التنافس على إمرة الأمراء ، فقد عزم ابن رائق على الرجوع إلى بغداد ، وأثار سخط أهلها على بجحكم . ويحدثنا أبو بكر الصولى أن الخليفة الراضى رحل إلى سامرا حتى تواترت الإشاعات بأنه عول على الإقامة فيها فراراً من عنت بجحكم . يقول الصولى : « فقلت يا أمير المؤمنين إن العبد المتفق لا يملك كتمان ما بقلبه لمولاه ، ولا يدخره النصح . وما على المولى شيء من أن يسمع قول عبده ، فإن كان صواباً أمضاه ، وإن كان خطأ جعله بمنزلة ما لم يسمعه . فضحك وقال : هات ما عندك ، فقلت : إن الناس يتحدثون بأن العسكر الذى قد رحلت لتزيله أشبه بعساكر الإسلام من العسكر الذى تقصده به ،

(١) ورد في كتاب أخبار الراضى والمنتقى لأبى بكر الصولى ( ص ١٠٣ ) وثى .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٢

(٣) الصولى ص ١٠٦ - ١٠٧

من قوم لا يرون طاعتك ، وأشبهه بعساكر آبائك ، وقد تحذثوا بأن الحسن قد بذل أكثر مما أريد منه . فإن رأى سيدنا أن يقبل هذا ويرجع إلى دار ملكه ويحول ما يخافه من وثوب ابن رائق فانه غير مأمون<sup>(١)</sup> . . . فقلت يا أمير المؤمنين : بغداد دار المملكة ووطن الخلافة وفتحها لا يتلافى ، فقال : إنما كانت بغداد كذا حيث كان في بيت المال بها عشرة آلاف ألف دينار في أيام المعتضد ، وضعف لها أيام المكتفي . فأما ولا مال بها فهي كسائر البلدان . فقلت فيها ما هو أجل من المال : الأمير إن بلغ الله سيدنا ما يأمله في نفسه وفيهما ؛ وفيها حرم الخلافة وذخاثرهن<sup>(٢)</sup> .

ازدادت قوة ابن رائق ودخل بغداد في شهر صفر سنة ٣٢٧ هـ ، وأمن أصحاب بحكم وولى أحد قواده وهو ابن يزداد شرطة بغداد<sup>(٣)</sup> . واستولى على بيت المال وعظم أمر العيارين ببغداد وأخذوا ثياب الناس من المساجد والطرقات ، إلى أن ركب ابن يزداد وأخذ جماعة منهم فضربهم بالسياط<sup>(٤)</sup> . وتبدلت الرسائل بين الخليفة الراضى (وكان في تكريت) وابن رائق وبحكم ، واتفق الرأى على خروج ابن رائق إلى الشام والياً عليها ، وذلك في يوم ٣ من شهر ربيع الآخر سنة ٣٢٧ هـ<sup>(٥)</sup> .

وصفوة القول أن حالة الدولة العباسية قد أصبحت من الضعف والانحلال بحيث إن الخليفة الراضى لم يتمكن من دفع أرزاق الجنود ولا من أن يحصل على ما يكفيه . ثم كثر عبث العامة وكبسوا الحمامات وأخذوا ثياب الناس ، وكذلك صنعوا بقوم شيعوا جنازة ؛ وغلت الأسعار<sup>(٦)</sup> . وفكر الخليفة في الاستنجاذ بأبي عبد الله الحسن البريدى<sup>(٧)</sup> . وظلت الحال على ذلك حتى توفي الراضى ليلة السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة ٣٢٩ هـ بعد أن حكم الدولة العباسية ست سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام ، وله من العمر إحدى وثلاثون سنة وستة أشهر ، وكان الغالب على أمور دولته بحكم التركي . وكان قبل وفاته يقيم بواسط . ويظهر أنه كان لحبسه في عهد الخليفة القاهر أثر كبير في ضعف جسمه . وفي ذلك يقول أبو بكر الصولى<sup>(٨)</sup> : وأنا منذ حبسنى القاهر عليل إلى وقتى هذا . وتزايدت علته قبل وفاته بسنة وفسد مزاجه ، وكان ذلك أصعب علة . وكان يلقي من فمه دماً كثيراً ، حتى ألقى من فمه في يومين وليلتين أربعة عشر رطلاً . . . وكان كثير الخلاف على من يُطِيبُه لا يقبل مشورته . . . وما كان أكله بالكثير ولا شربه ، ولكن شهوته زادت على طاقة جسمه وقوته .

(١) أبو بكر الصولى : ص ١٠٨ - ١١٠ (٢) المصدر نفسه ص ١١٥

(٣) المصدر نفسه ص ١١٩ (٤) المصدر نفسه ص ١٢٠

(٥) المصدر نفسه ص ١٢١ (٦) المصدر نفسه ص ١٣٣

(٧) المصدر نفسه ص ١٣٣ - ١٣٥

(٨) المصدر نفسه ص ١٤٩ ، ١٨٣ ، ١٨٤

٦ - صفات الراضى :

وقد وصف لنا صاحب الفخرى<sup>(١)</sup> ما امتاز به الخليفة الراضى فى هذه العبارة : وهو آخر خليفة له شعر مدون ، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجند ، وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة ، وآخر خليفة جالس الندماء . وقد سئل الراضى أن يخطب يوم الجمعة فصعد المنبر بسر من رأى ، فحضرت أنا وإسحق بن المتمد ، فلما خطب شنف الأسباع وبالغ فى الموعظة ،<sup>(٢)</sup>

وقد ذكرنا أن أبا بكر الصولى ، على الرغم من عدم اهتمام السيدة ، أم الخليفة المقدر بتنشئة الأمراء تنشئة قوامها التوافر على العلم ، استطاع أن يوجه الراضى وجهة صالحة ، حتى غدا بفضله مثقفاً مستنيراً وشاعراً أديباً حتى قال فيه المحاملى : « ما رأيت فى أهل هذا البيت شيخاً ولا كهلاً ولا حدثاً يشبه هذا الفتى<sup>(٣)</sup> » . وليس أدل على تفوق الراضى فى الشعر والأدب والبلاغة ، وما اشتهر عنه من حسن الخلق والكرم والوفاء بما قال له مؤدبه أبو بكر الصولى<sup>(٤)</sup> : « وكان والله إذا جمع نفسه وأحضر خاطره كأنه يتطق بلسان المنصور إذا أراد الكلام فى معنى من المعانى ، كذلك خيل إلى ، أو المأمون من بلاغته وحسن سلوكه سبيل المعانى ، وما أخطأه من شيء فلن يخطئه أن يكون أحسن الناس علماً بالشعر ونقداً له كما ينقده العلما به . وإنه من أطبع ملوك بنى العباس فى الشعر ، وأكثرهم شعراً ، وأكثرهم عشرة لجلسائه . وما رأيت وما سمعت بخليفة أحسن منه أخلاقاً ، ولا أسمع بكل شيء بالمال والطعام حتى يفرط ، وبالثياب والطيب . ما يخل بشيء قط ولا تعاطمه شيء يهبه ، ولولا اتباعه لشهوته كثيراً ، عالماً بما فى ذلك من العيب محتملاً له على بصيرة ، لظننت أنه لا يقدم أحده عليه » .

وكان الراضى بالله مشغولاً بالعلم متوفراً على الأدب والشعر وأيام العرب ، ذكياً فطناً عاقلاً . وفى ذلك يقول مؤدبه أبو بكر الصولى<sup>(٥)</sup> . « وقد يعلم الله تعالى أن الراضى بالله فى حال إمارته وأخاه هارون لما أمر نصر الحاجب أن يتقدم إلى بخدمتهما ، وأن يجعل على نوبة لهما يومين فى كل أسبوع ففعل ذلك ، دخلت إليهما فرأيتهما ذكيين فظنين عاقلين ؛ إلا أنهما خاليان من العلوم ، فعاتبتهما ابن غالب مؤدبهما على ذلك . وكان الراضى أذكاهما وأحرصهما على الأدب ؛ فحبيت العلم إليهما ، واشتريت لهما من كتب الفقه والشعر واللغة والأخبار قطعة حسنة ، فتنافسا فى ذلك ، وعمل كل واحد منهما خزانه لكتبه . وقرأ على الأخبار والأشعار ، فقلت إن الحديث أولى بكما وأنفع لكما من هذه ، وهو أولى أن يبتدأ به . وجتئنا بأعلى ما بقى من الزمان إسناداً ، وهو أبو القاسم بن

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٦١

(٤) ص ١٨ - ١٩ .

(١) ص ٢٥١ .

(٣) الصولى ص ٥ - ٦ و ٢٦ .

(٥) ص ٢٤ - ٢٥ .

بنت منيع ؛ واختلف إليهما مجالس ، ونسخت لهما علو حديثه ومشايخه ، مثل علي بن الجعد وابن عائشة وأبي نصر التمار ، وجميع علومه (١) ومختار حديثه . . . وقرأ علي من كتب اللغة كتباً كثيرة منها خلق الإنسان للأصمعي .

وكان الراضى وفيما ، حفظ لمؤدبه الصولى فضله عليه فى العلم والأدب . قال الصولى (٢) : ولقد حدثنى بعض الخدم أن أحمد بن يحيى المنجم ثلبنى يوماً عنده ، فقال له : أمسك عن هذا ، ولا تنظر إلى ما أفعله ، فأتى أريد بما أجرى عليه إصلاحه لى كما أريد ، فقال له : فلو قومه سيدى بحبته عنه أيا ما . فقال : قد هممت بذلك ، تخفت أن ينسبى الناس إلى قلة وفاء لقد خدمته لى ، ولأنه حبب إلى الأدب ، وسنى لى قول الشعر ، وعرفنى نقده وتعب معى فيه .

قال الراضى يصف سامرا (٣) :

بسر من را بلاد الملك طاب لنا  
أرض متى اختلست ألاحظها نظراً  
والخير والقصر والقاطول جنتها  
منازل آنتس دهرأ فأوحشها  
وإن أحلك لا آسى على بلد  
وما شجانى كذكرى خلتها حلياً  
معرس عيشه باللهو منظوم  
اهتاج ذو طرب وارتاح مهموم  
والجعفرى يكف الدهر مزوم  
ظلم الزمان فشلوم ومهدوم  
وحبله من حبالى فىك مصروم  
كأن قلبى لها بالذكر مكوم

وقال يفخر بأسرته (٤) :

من ذا يقيم دعائم الإسلام  
فينا النبوة والخلافة حكمتنا  
لا ينقص الأعداء مبرم أمرنا  
أمضى من الأجل المعجل أمرنا  
ويعم بالإفضال والإنعام ؟  
ماض كما شقنا على الأيام  
وبنا تمام النقض والإبرام  
بأيتك قبل الفكر والأوهام

ومن شعره وهو على فراش الموت (٥) :

كل صفو إلى كدر كل أمن إلى حذر  
ومصير الشباب للموت فيه أو الكبر  
در در المشيب من واعظ ينذر البشر  
أهـ الأمل الذى تاه فى لجبة الفرر

(١) وردت فى كتاب أخبار الراضى بالله والمتقى لله لأبى بكر الصولى وعلوه

(٢) س ١٤٩ (٣) س ١٨١ (٤) نفس المصدر س ١٨٢

(٥) نفس المصدر س ١٨٥ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٩١٢

أين من كان قبلنا ذهب الشخص والأثر  
 سيرد المعار من عمر كله خطرت  
 رب إني ذخرت عندك أرجوك مدخر  
 أنتي مؤمن بما بين الوحي والصور  
 واعترافي بترك نفسي وإيثاري الضرر  
 رب فاغفر لي الخطيئة يا خير من غفر

وكان الراضى - كما يقول مؤدبه أبو بكر الصولى (١) - أحسن الناس وفاء وأتمهم حلما  
 وكرماً. ولم يكن يشرب النبيذ، وربما شرب اليسير منه فيتأذى بذلك. وكان ذكياً فظننا لقناً لما  
 يسمع، يحضره ما يريد من غير فكر (٢).

ويصف ابن الأثير (٣) الدولة العباسية في عهد الراضى في هذه العبارة: « ولم يبق للخليفة غير  
 بغداد وأعمالها، والحكم في جميعها لابن رائق، ليس للخليفة حكم. وأما باقى الأطراف: فكانت  
 البصرة في يد ابن رائق، وخوزستان في يد البريدى، وفارس في يد عماد الدولة بن بويه، وكرمان  
 في يد أبى على محمد بن إلیاس، والرى وأصبهان والجبل في يد ركن الدولة بن بويه وبدوشمكيرأخى  
 مرداويج يتنازعان عليها، والموصل وديار بكر ومصر وريعة في يد بنى حمدان، ومصر والشام في  
 يد محمد بن طنج، والمغرب وإفريقية في يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر الأموى (٤)،  
 وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد السامانى، وطبرستان وجرجان في يد الديلم، والبحرين  
 والنجاة في يد أبى طاهر القرمطى ».

### المتقى

٣٢٩ - ٣٣٣ = ٩٤٠ - ٩٤٤ م

لما توفى الراضى بالله أمر بحكمه بأن يجتمع مع أبى القاسم سليمان بن الحسن وزير الراضى كل من  
 تقلد الوزارة وأصحاب الدواوين والعلويون والقضاة والعباسيون ووجوه البلد، ويشاورهم الكوفى  
 (كاتب بحكم) فيمن ينصب للخلافة ممن يرتضى مذهبه وطريقته، لجمعهم الكوفى واستشارهم، فذكر  
 بعضهم إبراهيم بن المقتدر وترفقوا على هذا. فلما كان الغد اتفق الناس عليه، فأحضر في دار الخلافة

(١) ص ١٤٩ (٢) نفس المصدر ص ٧ (٣) ج ٨ ص ١١٢ - ١١٣  
 (٤) أعلن عبد الرحمن الثالث بن محمد الأموى في بلاد الاندلس (٣٠٠ - ٣٥٠ م) نفسه خليفة وتلقب  
 بلقب أمير المؤمنين الناصر لدين الله، فأصبح في العالم الاسلامى وقتئذ ثلاث خلافات: الخلافة العباسية في بغداد،  
 والخلافة الفاطمية في بلاد المغرب، والخلافة الاموية في الاندلس.  
 أنظر أيضاً كتاب « الفاطميون في مصر » للمؤلف ص ٩٨.

وبويع له في العشرين من ربيع الأول ( ٢٢٩ هـ ) . وعرضت عليه ألقاب فاختار المنتقى لله ، وبايعه الناس كافة ، وسير الخلع واللواء إلى بحكم بواسط (١) .

لم تستفد الخلافة العباسية فائدة من هذا النظام الذي أدخله الراضى بأشياء منصب أمير الأمراء لإفالة الخلافة من عثرتها ، بل ازدادت أحوالها سوءاً . وإن من يستقصى عهد الراضى ( ٢٢٢ - ٢٢٩ هـ ) والمنتقى ( ٢٢٩ - ٢٣٣ هـ ) والمستكنى ( ٢٣٣ - ٢٣٤ هـ ) - ذلك العهد الذي انتهى بدخول بني بويه بغداد ، واستبدادهم بالأمر دون الخليفة وأمير الأمراء - فإنه يجده عبارة عن سلسلة منازعات لا تكاد تنقطع بين رجال الدولة العباسية ، الذين عمل كل منهم على الاستئثار بالسلطة وتولى إمرة الأمراء . نعم ! لقد قام النزاع بين ابن رائق وأبي عبد الله البريدى صاحب الأهواز ، وخرج بحكم على ابن رائق وانتزع من يده إمرة الأمراء وظل فيها إلى أن قتل سنة ٢٢٩ هـ ، ثم دخل ابن رائق بغداد ، ولحق به منافسه أبو عبد الله البريدى . وانتهى النزاع بينهما بخروج ابن رائق ومعه الخليفة المنتقى إلى ناصر الدولة بن حمدان بالموصل ، فقتل هذا ابن رائق حتى لا يقف في وجهه ويحول بينه وبين منصب إمرة الأمراء . وسرعان ما دخل ابن حمدان بغداد ومعه الخليفة العباسى ، وتقلداً عباءة هذه الوظيفة في مستهل شهر شعبان سنة ٢٣٠ هـ . على أن بغداد في عهد الحمدانيين ( ٢٣٠ - ٢٣١ هـ ) لم تكن أحسن منها في عهد من سبقهم من أمراء الأمراء (٢) ، فقد طردهم منها توزون التركي رئيس الشرطة في شهر رمضان سنة ٢٣١ هـ ، وطارد جيوشهم إلى الموصل ، وتقلد إمرة الأمراء وقبض على الخليفة وسمل عينيه ( صفر سنة ٢٣٣ هـ ) ، وخلعه وولى بدله المستكنى . ثم مات توزون سنة ٢٣٤ هـ ، وتولى إمرة الأمراء تركى آخر هو ابن شيرزاد صاحب الأمر والنهى في عهد توزون . ولم تضع وفاة توزون حداً لتفاقم سلطة الأتراك ، ولم يخفف من شره إلا دخول بني بويه بغداد بعد قليل - على ما سنرى .

وفي أوائل عهد المستكنى مات توزون ، خلفه في إمرة الأمراء أبو جعفر بن شيرزاد ، فلم يكن أقل عننا بمن سبقوه (٣) .

كان أول ما قام به الخليفة المنتقى أن عقد لواء لبجكم ولقبه أمير الأمراء ، وكان إذ ذاك بواسط . وكان صاحب الأمر والنهى في أيامه تكينك التركي الذى لقي الأهلون منه عناء كبيراً . فقد اضطهدهم وغلا في أذاهم وصادر أموالهم ، حتى إن كثيراً من تجار بغداد هربوا بأموالهم وأمتعتهم فراراً من جور تكينك . وأغار الأكراد على قافلة ذاهبة إلى خراسان تحمل أموال أصحاب بجم . ويحدثنا أبو بكر الصولى أنه كان فيها من العين والورق ما يبلغه ثلاثة آلاف ألف دينار ،

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٢) أبو بكر الصولى ص ٢٣٣ .

(٣) حسن إبراهيم حسن ، وعلى إبراهيم حسن : كتاب النظم الإسلامية ص ٧٨ - ٧٩ .

ومن الأمتعة ما قيمتها نحو ذلك ، . على أن يحكم كان لا يعلم شيئاً من أمر تكسينك واضطهاده الناس . وفي ذلك يقول الصولي الذي اتصل ببجكم ونال حظوته : « وأنا أجمل وصفه ووصف حسن أخلاقه وجميل عشرته وعلو همته ومحبته ، لأن تبقى آثاره بعده ، كما بقيت آثار أجلاء الملوك . فجملة أمره أن كان عقله أكثر شيء فيه . . . . ولقد قال يوماً — وكان يفهم العربية كلها إذا خوطب ، ويحسن الجواب ولكنه كان يقول : أخاف أن أتكلم بالعربية فأخطئ . في لفظي ، والخطأ من الرئيس قبيح ؛ فلذلك أدع الكلام — . . . . وإن كشت لأحسن العلوم والآداب ، أحب أن لا يكون في الأرض أديب ولا عالم ولا رأس في صناعة إلا كان جنبتى (٣) وتحت اصطناعي ، وبين يدي لا يفارقني . »

هكذا ساءت حالة الخلافة واستأثر بالنفوذ رجال من الأتراك لم يحسنوا العربية ، وعلم الخليفة المتقي بأن يده قد غلت ، فزهّد في الدنيا ورغب عن مقابلة الناس ، حتى قيل إنه قال : « لا أريد جليساً ، أنا أجالس المصحف » (٤) .

### ٣ — البريديون :

ثم أحل جند بجكم الهزيمة بالبريديين بالمدار ، بين واسط والبصرة ، وأسر كثيراً من أصحابهم . وسرعان ما تابعت المصائب على بجكم وأخذ نجمه يأفل ، فتهبت القافلة الذاهبة إلى خراسان — على ما تقدم — وأخذ الحرث منه كل مأخذ ، حتى امتنع عن الطعام أياماً . ثم ورد الخبر بقتل ما كان بن كالي التركي ، فاحتجب ثلاثة أيام غمّاً عليه ، وعبر عن حزنه بهذه الكلمات : « هو مولاي ، كنت أقدر أن يرى ما صرت إليه ، ثم أجلسه في مكاني وأكون معه . وما رأيت فارساً مثله قط » (٥) . ثم ورد الخبر بإيقاع صاحب خراسان بأخي مرداويج بن زيار وهزيمته إياه . وانتهت هذه المصائب بقتل بجكم نفسه بيد بعض الأكراد الذين عول على انتهاب أموالهم . ويقول مسكويه (٦) إن قتل بجكم أدى إلى اضطراب عسكره وضعفهم ، وإلى تقوية البريديين بانضمام الدبالة الذين كانوا في صفوف بجكم إليهم . وأمر الخليفة المتقي بنقل أمواله من واسط إلى بغداد . ويقول الصولي (٧) : « ووجد المتقي في دار بجكم أموالاً كثيرة مدفونة في مواضع منها حول البستان في خواني كثيرة . . . . ووجد القاهر — وكان فيما زعم يعذب في أيام الراضي — فصرفه إلى منزله ، وصرف أبا جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد إلى منزله بعد أن أدى مائتي ألف دينار . »

ولم يضعف موت بجكم نفوذ الأمراء . فقد دخل أبو الحسين البريدي واسط ، واستوزر الخليفة المتقي أبا الحسين أحمد بن محمد بن ميمون (١٠ شعبان سنة ٣٢٩ هـ) ، وولى يوسف بن عمر قضاء بغداد ، واشترط ألا يقبل أصحاب السيوف ، ولا يقبل في حكم شفاعته ، ولا يركب إلا إلى دار

(٢) ص ١٩٤ — ١٩٥ .

(١) ص ١٩٢ .

(٣) الجنبه هي الجانب أي شق الإنسان . (٤) أبو بكر الصولي ص ١٩٣ .

(٥) أبو بكر الصولي ص ١٩٧ . (٦) ص ٩ — ١١ . (٧) ص ١٩٧ — ١٩٨ .

الخليفة ودار وزيره فقط<sup>(١)</sup>. ثم دخل أبو الحسين البريدي بغداد في جيش كثيف من الأتراك والديلم، واستقبلهم الناس استقبالا حسناً. وكان أول ما قام به أن صرف الوزير ابن ميمون، وتقلد الوزارة أبو عبد الله البريدي. على أن البريديين قد لاقوا في بغداد مقاومة عنيفة، وأن الخليفة المتقي وابنه ومحمد بن رائق (وكان قد عاد من الشام بعد موت بجم) هربوا إلى الموصل، وأن أصحاب البريدي قتلوا من وجده في دار الخلافة من حاشية الخليفة ونهبوا دار الخلافة نفسها. وفي ذلك يقول ابن الأثير<sup>(٢)</sup>: «وسير أبو عبد الله البريدي أخاه أبا الحسين إلى بغداد في جميع الجيش من الأتراك والديلم، وعزم ابن رائق على أن يتحصن بدار الخليفة، فأصلح سورها ونصب عليه العرّادات والمنجنقات، وعلى دجلة، وأنهض العامة وجند بعضهم. فثاروا في بغداد وأحرقوا ونهبوا، وأخذوا الناس ليلاً ونهاراً. وخرج المتقي لله وابن رائق إلى نهر دبالى منتصف جمادى الآخرة، ووافقهم أبو الحسين عنده في الماء والبر، واقتل الناس. وكانت العامة على شاطئ دجلة في الجانبين يقاتلون من في الماء من أصحاب البريدي، وانهمز أهل بغداد، واستولى أصحاب البريدي على دار الخليفة ودخلوا إليها في الماء، وذلك لتسع بقين من جمادى الآخرة (سنة ٥٣٣). وهرب المتقي وابنه الأمير أبو منصور في نحو عشرين فارساً، ولحق بهما ابن رائق في جيشه، فساروا جميعاً نحو الموصل، واستتر الوزير القراريطي -- وكانت مدة وزارته الثانية أربعين يوماً وإمارة ابن رائق ستة أشهر -- وقتل أصحاب البريدي من وجدوا في دار الخليفة من الحاشية ونهبوها، ونهبوا دور الحرم، وكثر النهب في بغداد ليلاً ونهاراً... ونزل أبو الحسين بدار مؤنس التي يسكنها ابن رائق وعظم النهب، فأقام أبو الحسين نوزون على الشرطة بشرق بغداد، وجعل نواشيتهم على شرطة الجانب الغربي، فسكن الناس شيئاً يسيراً. وأخذ أبو الحسين البريدي رهائن القواد الذين مع نوزون وغيره، وأخذ نساهم وأولادهم، فسيرهم إلى أخيه أبي عبد الله بواسط، وقد وصف أبو بكر الصولي<sup>(٣)</sup> حكم البريديين فقال: «ووافى البريديان أبو عبد الله وأبو الحسين، ومعهما أبو جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد، وكاتب الخليفة عنهما بسمعتهما وطاعتتهما، وأنهما جاءا ليصلح إليه أمره كلها، بخدمتهما له. ثم نزلوا الشفيعي يوم الثلاثاء ليلتين خلطنا من شهر رمضان، ومعهما جيش عظيم في الظهر والماء، ولقيهما الناس مسلمين، وظهر الناس جميعاً... وطلب أبو عبد الله البريدي من الخليفة مالا لرجالهم. ويظهر أن صلة الوفاق والمودة قد توثقت أول الأمر بين البريديين والخليفة المتقي، بدليل زواج ابنة الوزير البريدي من عبد الواحد أبي منصور ابن الخليفة<sup>(٤)</sup>».

على أن البريديين لم يظفروا بمحبة الناس جميعاً، فقد عزم الديلم على اغتيال الوزير البريدي إذا

(١) أبو بكر الصولي ص ٢٠٠ . (٢) ص ٨٤ من ١٣٤ - ١٣٥ .

(٣) ص ٢٠١ - ٢٠٠ . (٤) أبو بكر الصولي ص ٢٠١ - ٢٠٢ .



دخل قصر الخلافة ، وسبوه وأسأموا إلى البريديين ، وأعانهم العامة وتجمعوا على جانبي نهر دجلة ، وأخذوا يصيحون ويهتفون هتافات تنم عن سخطهم عليه وكراهتهم له . وهكذا غدت الوزارة عبثاً ثقيلاً لا يحتمله كل الناس ، فقد رغب أبو الحسن علي بن عيسى عن قبول الوزارة ، ورغب عنها أخوه أبو علي عبد الرحمن ، وأخيراً استوزر الخليفة أبا إسحاق الاسكافي المعروف بالقراريطي ، فأشار عليه بأن يعين رجلاً يعهد إليه بأمره الجيش على أن يتولى شئونه . وفي ٣ شوال سنة ٣٢٩ هـ عين كورتكين أميراً للجيش ، وخلع عليه ؛ وسرعان ما أرسل على رأس جيش كثيف أخرج البريديين من واسط (١) .

٤ - ظهور ابن رائق :

عاد ابن رائق إلى بغداد وخلع عليه الخليفة المتقي لله في شهر ذي الحجة سنة ٣٢٩ هـ ، وطوقه وسوره بطوق وسوار مرصعين بالجوهر ، وعقد له لواء وقلده إمرة الأمراء ، وأزم أبو جعفر السكري (الوزير) بيته ، وكانت وزارته هذه ثلاثة وخمسين يوماً . ودبر الأمور أبو عبد الله أحمد ابن علي الكوفي كاتب أبي بكر بن رائق من غير تسمية للوزارة ، وأطلق أبو إسحاق القراريطي إلى منزله (٢) .

وفي ١١ المحرم سنة ٣٣٠ هـ سار ابن رائق إلى واسط ودخلها ، فسار البريديون إلى البصرة . وقد استبطأ ابن رائق البريديين في البصرة والأهواز وواسط في حمل الأموال ، فسار إلى واسط ، فهرب البريديون إلى البصرة ، وتبودلت الرسل بينهم ، وتم الاتفاق على أن يدفع البريديون ما تأخر من خراج واسط وأن يدفعوا ستمائة ألف دينار عن هذه البلاد في كل سنة (٣) .

ولما عاد ابن رائق إلى بغداد نار الجند عليه ، وهرب كثير من زعمائهم إلى أبي عبد الله البريدي ، فاحتال ابن رائق إلى مواراته ، فسكّاب أبا عبد الله البريدي بالوزارة ، وأنفذ له الخلع . واستخلف أبا عبد الله بن شيرزاد ، ثم وردت الأخبار إلى بغداد بعزم البريدي على الإصعاد إلى بغداد ، فأزال ابن رائق اسم الوزارة عنه ، وأعاد أبا إسحاق القراريطي (١١ جمادى الأولى سنة ٣٣٠ هـ) ، ولعن بني البريدي على المنابر بجانب بغداد (٤) .

بيد أن البريدي عزم على قصد بغداد في جميع رجاله ، وخرج من واسط في ٢ من جمادى الآخرة . ولما قرب من بغداد عمل ابن رائق على فتح السجون ، وحرص العامة والغوغاء على الوقوف في وجهه ، وأمر الخليفة بلعن البريديين وتحريض العامة على قتالهم . ولكن الهزيمة حلت بجيش ابن رائق وخرج هو والخليفة من بغداد ، واستولى البريدي على دار الخلافة (٥) .

(١) أبو بكر الصولي ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٢) مسكويه : كتاب تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٢ . انظر أيضا ابن الأثير ج ٨ ص ١٣٣ .

(٣) كتاب تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٢ - ٢٣ . (٤) ابن الأثير ج ٨ ص ١٣٤ .

(٥) مسكويه ج ٢ ص ٢٣ - ٢٤ .

أما عن أثر استيلاء البريديين على بغداد وما حل بأهلها من محن وخطوب فيقول الصولي (١) :  
« ولما ملك جيش البريدي الدار نهبوا جميع ما وجدوا فيها ، وداروا في صحنها ، وفعلوا ما لم يفعله  
أحد قبلهم . فقد كان الخلفاء يقتلون بسر من رأى ودورهم محفوظة مصونة . » وقال ابن الأثير (٢) : ولما  
استولى البريدي على بغداد أخذ أصحابه في النهب والسلب وأخذ الدواب ، وجعلوا طلبها طريقاً  
إلى غيرها من الأثاث ، وكبست الدور وأخرج أهلها منها ونزلت ، وعظم الأمر ، وجعل على كر  
من الخنطة والشعير وأصناف الحبوب خمسة دنانير ، وغلت الأسعار ، فبيع السكر الخنطة بثلاثمائة  
وسنة عشر دينار . وحبط أهل الذمة ، وأخذ القوي بالضعيف . . . ووقعت الفتن بين الناس . . .  
ووقعت حرب بين الديلم والعامية قتل فيها جماعة من حد نهر طابق إلى القنطرة الجديدة . وفي آخر  
شعبان زاد البلاء على الناس ، فكبسوا منازلهم ليلاً ونهاراً ، واستتر أكثر العمال لعظيم ما طولبوا  
به مما ليس في السواد ، ونخرج الناس وأصحاب السطان إلى قرب من بغداد ، فخصدوا ما استحصدوا  
من الخنطة والشعير وحملوه بسنبله إلى منازلهم . وكان مع ذلك ينهب ويعسف أهل العراق ويظلمهم  
ظلماً لم يسمع بمثله قط . والله المستعان ؛ وإنما ذكرنا هذا الفصل ليعلم الظلمة أن أخبارهم تنقل  
وتبقى على وجه الدهر ، فربما تركوا الظلم لهذا إن لم يتركوه الله سبحانه وتعالى . »

هـ — الحمدانيون :

علم أبو عبد الله البريدي أن جماعة من الأتراك بزعامة توزون يريدون الفتك به ، وعلم توزون  
بذلك فاستولى على دار مؤنس ، وعاد الخليفة المتقي إلى بغداد في ١٨ شوال سنة ٣٣٠ هـ بعد أن  
غاب عنها ثلاثة أشهر وعشرين يوماً ، وقلد توزون شرطة بغداد ، واستوزر أبا إسحق القراري .  
ثم سطع نجم بني حمدان في أفق الدولة العباسية (٣) ، فخلع الخليفة على الحسن بن عبد الله ، وطوق وسور  
بسوارين وسمى ناصر الدولة . وخلع على أخيه أبي الحسن وعمل به مثل ذلك ، ولقب سيف الدولة .  
واستقر الأمر للحمدانيين ، فبدأ ناصر الدولة بن حمدان عهده بإصلاح السكة ، وحال دون عبث  
العيارين والصيافر بعيارها ، وأضاف إلى عبارة محمد رسول الله « صلى الله عليه » ، ثم ضرب في  
الحرم من سنة ٣٣١ هـ دنانير جديدة وهدد الصيارف بانزال العقاب بهم إذا لم يقلعوا عن الربا (٤) .  
ويقول ابن الأثير (٥) : « نظر (ناصر الدولة) في العيار فرآه ناقصاً فأمر بإصلاح الدنانير ، ف ضرب  
دنانير سماها الابريزية خير من غيرها ، فكان الدينار بعشرة دراهم ، فبيع هذا الدينار بثلاثة عشر  
درهماً . »

على أن حال بغداد في عهد الحمدانيين (٣٣٠ - ٣٣١ هـ) الذين عرفوا بتشجيع الأدباء والشعراء  
بعظاياتهم ، لم تكن أحسن منها في عهد من سبقهم من أمراء الأمراء . فقد كثرت المتلصصة ببغداد ،

(١) ص ٢٢٥ . (٢) ١٣٤٨ - ١٣٥٠ .

(٣) مسكويه ج ٢ ص ٢٨ . (٤) الصولي ص ٢٢٦ - ٢٢٩ و ٢٣١ (٥) ج ٨ ص ١٣٦ .

وكتب دور المياسير ، وخرج الناس عن بغداد هاربين إلى كل وجه ، على انسداد طرقهم ، ولو أمنوا لخرج أضعاف من خرج . . . . . (١) . . . . . (ناصر الدولة) من الضرائب على الناس ما لم يسمع بمثله . . . . . وغلت الأسعار في جمادى الآخرة غلاء عظيماً ، ومات الناس جوعاً ووقع فيهم الوباء ، فكانوا يبقون على الطريق أياماً لا يدفنون حتى أكلت الكلاب بعضهم . . . . . وكثر الجراد في هذا الوقت فصاده الناس ، وانتفع الضعفاء بأكله وصيده ، وكان نعمة من نعم الله جل وعلا . . . . . وغلت الأسعار وعز كل شيء من سائر الأطعمة والملبوس ، (١) . أضف إلى ذلك وقوع الخلاف بين سيف الدولة وبين توزون واستيلاء البريديين على الجامدة ، ثم وقوع الحرب بين البريديين وأحمد بن بويه على مقربة من البصرة (٢) .

على أن سوء العلاقات بين الخليفة وبني حمدان لم يحل دون زواج أبي منصور بن المتقي من ابنة ناصر الدولة بن حمدان .

استوزر ناصر الدولة أبا العباس أحمد بن عبد الله الأصماني ، فلم يكن له من الوزارة إلا اسمها ، إذ كان أحمد بن علي الكوفي ينظر في كافة أمور الدولة . أما عن حال الخليفة في عهد ناصر الدولة بن حمدان فيقول الصولي (٣) : « وضيق ناصر الدولة على المتقي لله في نفقاته وعلى أهل داره ، واتزع ضياعه وضياح والدته لجعلها في جملة ، واقتصر به على أجزاء يسيرة . . . . . وتحدث الناس عن فعله هذا وصنعه بالخليفة ، ما كثر به الشاكي له والداعي عليه ، وتمنى الناس بني البريدي وغيرهم ، مع ما نالهم من الضر والضرائب والغلاء وتكبات الناس وأخذ أموالهم . . . . . فلا عجب إذا قامت الوحشة بين الخليفة وناصر الدولة . وقد زاد الصولي هذه المسألة بياناً فقال ، إن ناصر الدولة عزم على الرحيل إلى الموصل ، فأشار عليه الخليفة أن ينتظر ريثما يعد عدته للرحيل معه ، فلم يحفل ناصر الدولة بطلب الخليفة ، وكره المسير معه وسار إلى الموصل فدخلها . وبذلك مهد السبيل لدخول توزون بغداد في شهر رمضان سنة ٣٣١ هـ (٤) .

وقد علل ميور (٥) قصر عهد الحمدانيين في بغداد في هذه العبارة : « إن العرب لم تعد لديهم القدرة على مناوأة العناصر المتبريرة التي أصبحت لها السيادة في بغداد في ذلك الوقت . وإن الجند المرتزقة من الأجانب وقوادهم قد ألقوا منذ زمن طويل الاحترام والطاعة لرؤسائهم من العرب ، حتى إننا نرى أن الجند من العرب الذين أهمل شأنهم وطوح بهم في زوايا النسيان ، لم يقووا بعد على التماسك والاحتفاظ بشخصيتهم . أمام الجند من الأتراك الذين مرتوا على الحروب وألقوا حسن

(١) أبو بكر الصولي ص ٢٣٤ — ٢٣٧ . (٢) المصدر نفسه ص ٢٢٣ .

(٣) ص ٢٣٥ .

(٤) أبو بكر الصولي : أخبار الرازي بالله والمتقي لله ص ٢٤٠ و٢٤٢ .

(٥) The Caliphate, p. 573 .

النظام . وهكذا لم يستطع زعماء الحمدانيين من العرب البقاء في بغداد أكثر من سنة واحدة ، واضطروا إلى العودة إلى الموصل ، فقد استطاع أحد القواد من الترك ، واسمه توزون ، أن يدخل بغداد بعد انتصاره على البريديين في البصرة وواسط . ولم يستطع الحمدانيون أن يفرضوا نفوذهم على الأتراك في بغداد التي أصبحت مرعى خصيباً للقوضى ومصادرة الأهاليين .

٦ - توزون :

دخل توزون بغداد في شهر رمضان سنة ٥٣٣١ هـ ، وخلع عليه الخليفة المتقي في ٦ شوال من هذه السنة ، وجعله أمير الأمراء . وكانت سياسة توزون ترمى إلى مصالحة البريديين في واسط والتفرغ لمحاربة الحمدانيين . ولكن الخليفة لم يقره على هذه السياسة . ويقول الصولي<sup>(١)</sup> : « وحرص توزون على أن يتركه المتقي لله بصالح البريديين على مال يحملونه ويفرغه لابن حمدان فأبى عليه . وكان البريديون قد صاروا إلى واسط . . . وكان (توزون) كاتبه (يعني الخليفة) في الحيلة على بني حمدان ، فأخرج سيف الدولة عن واسط . »

على أن البريديين سرعان ما استولوا على واسط ، فطردهم توزون منها ، ثم استولى على تكريت ، واتخذ ابن شيرزاد الذي هرب من البريديين كاتباً له على غير رضا من الخليفة ، ثم سار ابن شيرزاد إلى بغداد ودخلها في المحرم سنة ٥٣٣٢ هـ<sup>(٢)</sup> ، فعزم الخليفة على الخروج من حاضرة ملكه<sup>(٣)</sup> على رغم نصيحة القاضي أبي عبد الله محمد بن عيسى . ويقول ابن الأثير<sup>(٤)</sup> في سبب وقوع الوحشة بين الخليفة المتقي وبين توزون أمير الأمراء ، إن جماعة من حاشية المتقي « كتبوا إلى ابن حمدان لينفذ عسكرياً يسيراً صحبة المتقي لله إليه ، وقالوا للمتقي : قد رأيت ما فعل بك البريدي بالأمس : أخذ منك خمسمائة ألف دينار ، وأخرجت على الأجناد مثلاً ، وقد ضمنك البريدي من توزون بخمسمائة ألف دينار أخرى زعم أنها في يدك من تركة بجكم ، وابن شيرزاد واصل ليتسلمك ويخلك ويسلمك إلى البريدي ، فانزعج لذلك وعزم على الإصعاد إلى ابن حمدان ، وورد ابن شيرزاد في ثلثمائة رجل جريده . »

ويقول السيوطي<sup>(٥)</sup> : « فسار المتقي بأهله إلى تكريت ، وخرج ناصر الدولة بجيش كثير من الأعراب والأكراد إلى قتال توزون ، فالتقيا بعكبرة<sup>(٦)</sup> ، فانهمز ابن حمدان والمتقي إلى الموصل . ثم تلاقوا مرة أخرى ، فانهمز ابن حمدان والخليفة إلى نصيبين . » ولما اتصل بتوزون خبر هرب الخليفة من بغداد وتغيره عليه وعمله على التخلص منه ، اتفق مع البريدي وزوجه ابنته ثم سار إلى بغداد ، وسار سيف الدولة الحمداني إلى تكريت حيث كان

(١) ص ٢٤٧ . (٢) أبو بكر الصولي ص ٢٤٤ - ٢٤٥ . (٣) المصدر نفسه ص ٢٤٧ .

(٤) ج ٨ ص ١٤٢ . (٥) تاريخ الخلفاء ص ٢٦٢ .

(٦) بضم العين وتسكين الكاف وفتح الباء ، بليدة من نواحي دجل بينها وبين بغداد شمالاً عشرة فراسخ .

يقدم الخليفة ، ولحق به أخوه ناصر الدولة بن حمدان . وعلى مقربة من تكريت وقعت الحرب بين الحمدانيين وبين توزون الذي انتصر عليهم ، ثم سار الحمدانيون مع الخليفة إلى الموصل (١) .  
على أن انتصار توزون على الحمدانيين في تكريت قد شجعه على المسير إلى الموصل لاستخلاصها منهم ، وكتب إلى الخليفة يستميله ، فلم يصغ إليه لأنه لم يكن يثق به . ثم قصد الحمدانيون بصحبة المتقي إلى نصيبين ، ودخل توزون الموصل ، فسار الخليفة إلى الرقة ولحق به سيف الدولة ، وأرسل المتقي إلى توزون يذكر أنه استوحش منه لانصاله بالبريدى وأنها صارا بدأ واحدة ، فان أثر رضاه يصلح سيف الدولة وناصر الدولة ليعودا إلى بغداد . . . فتم الصلح وعقد الضمان على ناصر الدولة لما بيده من البلاد ثلاث سنين ، كل سنة بثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف درهم . وعاد توزون إلى بغداد وأقام المتقي عند بني حمدان بالموصل ، ثم ساروا عنها إلى الرقة فأقاموا بها (٢) .  
ويقول أبو بكر الصولي (٣) : « وسفر في الصلح بين توزون وناصر الدولة ، على أن يرجع الخليفة إلى داره ، ويعمل ابن حمدان إليه فضلاً بما كان يحمله ، على أن الامارة تكون لعبد الواحد بن المتقي . فكان ناصر الدولة أسرع الناس إجابة وأشهام لتمامه ، فكره أخوه وأصحابه ذلك ، وكرهه الخليفة . . . وصح عزم الخليفة وناصر الدولة على محاربة توزون ثانية ، فسار سيف الدولة في الجيش كله إلى تكريت لأيام خلت من رجب . وبلغ توزون خبرهم ، فشخص إليهم في عدته . . . فحمل عليهم في نحو ثلثمائة غلام وحقق وحققوا معه ، فما هابوا سيفاً ولا رماً حتى أزالوهم وهزموهم فولوا هاربين . . . ورأى توزون أن يمضي إلى الموصل ، وكان الخليفة بأنه عبده ولا خلاف عليه منه ، فما قبل ذلك ، فرحل الأمير توزون إلى الموصل لا يلبى على شيء . وبلغ الخليفة وابن حمدان ذلك ، فرحل إلى نصيبين ، وحوى توزون الموصل وما فيها من الأطمعة ، وعسكر خارجها على أن يقصد نصيبين ويوقع بين فيها . وكتب إلى ابن حمدان في إنفاذ الخليفة إليه ، فكره الخليفة أن يصير إليه بعد ما فعله ، فأسرع من نصيبين إلى الرقة في أصحابه الذين خرجوا من بغداد معه ، مستنجداً بابن طغج وكتب بذلك إليه . . . وكان من رأى ناصر الدولة أن يرجع الخليفة إلى بغداد ، وأن يفارق هو الأمير توزون على مال يحمله وبصرفه إلى بغداد ، يخالفه المتقي لله ، وخرج من أعماله معتمداً على ابن طغج أبي بكر الإخشيد . »

وفي سنة ٣٣٢ هـ علم الإخشيد بما آل إليه أمر الخليفة المتقي ، وما كان من خروجه من بغداد ووقوعه في يد الحمدانيين وقد استفحل أمرهم ، وتنازع السلطة بين توزون والبريدى وقد قوى بطشهما ، فلم يجد بداً من الاستنجاد بالاخشيدي أقوى ولاته .

ويقول السيوطي (٤) : « فكتب الخليفة إلى الاخشيدي صاحب مصر أن يحضر إليه ، ثم بان

(١) الصولي ص ٣٥٢ - ٣٥٥ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٧٤٤

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ١٤٤ (٣) أخبار الرازي بالله والمتقي لله : ص ٢٥٦ - ٢٥٧

(٤) تاريخ الخلفاء ص ٢٦٢

له من بنى حمدان الملل والضجر ، فراسل الخليفة توزون في الصلح ، فأجاب وبالغ في الإيمان . ثم حضر الإخشيد إلى المتقى وهو بالرقه ، وقد بلغه مصالحة توزون فقال : يا أمير المؤمنين ! أنا عبدك وابن عبدك . وقد عرفت الأتراك وثورهم وغدرهم ، الله الله في نفسك ، سر معي إلى مصر ، فهي لك ، وتأمين على نفسك . فلم يقبل ، فرجع الإخشيد إلى بلاده ، وخرج المتقى من الرقة إلى بغداد في رابع المحرم سنة ثلاث وثلاثين (وثلثمائة) .

سار الإخشيد إلى بلاد الشام . وفي مدينة الرقة لقي الخليفة وعرض عليه البقاء معه في الشام أو الذهاب إلى مصر . إلا أن توزون تعهد بحماية الخليفة إذا ما بقى في بغداد بعد مفاوضات دارت بينه وبين الإخشيد ، فعاد الخليفة إلى بغداد وسار الإخشيد إلى مصر .

على أن ما حدث في الدولة العباسية من أحداث لا يرجع إلى توزون وحده ، فقد اعتمد الخليفة على معاونة الإخشيد ، ولم يثق بتوزون ، برغم إلحاحه عليه أن يعدل عن سياسة العداء وأن يعود إلى بغداد حيث يستطيع أن يجد الطمأنينة والسلام . ولكن بطانة الخليفة أوغرت صدره من ناحية أمير الأمراء ، وشجعت على انتهاج سياسة العداء نحوه . ولا غرو فقد كان توزون يرمى إلى مصالحة ناصر الدولة بن حمدان والخليفة بعد أن كان قد تصالح مع البريديين وأمن جانهم ؛ حتى إذا تم له ذلك تفرغ لمناهضة بنى بويه الذين تفاقم شرهم وزاد خطرهم . وتم الصلح بين توزون وبين ناصر الدولة ، ورجع توزون إلى بغداد في الوقت الذي دخل فيه بنو بويه واسطاً ، وجمعوا الضرائب وجبوا الخراج (رمضان سنة ٣٣٢ هـ) . على أن توزون لم يهدأ من ناحية الخليفة الذي كاتب بنى بويه ودعاهم إلى المسير إلى بغداد . وقامت المؤامرات في بغداد لقتل توزون وتمهيد السبيل لدخول بنى بويه . ويصف أبو بكر الصولي حالة بغداد في هذا الوقت والمصائب التي استهدفت لها الدولة العباسية ، فيقول بصدد كلامه على أبي جعفر بن يحيى . بن شيرزاد كاتب توزون والقابض على زمام الأمور في بغداد : « منها يحيى . الديلم إلى قرب بغداد في الجيش الذي لا يقام لمثله ، ومعه كتب يقرؤها على الناس بمكاتبة المتقى لله له بأمره بقصد بغداد ، وذلك ما لا يكذب به أحد ممن سمعه ، لهرب الخليفة ، وما أظهره من عداوته للامير :

فنها علة الامير توزون التي اشتدت في هذا الوقت ، فما خرج عن بغداد إلا وهو عليل رقيد . ومنها قلة المال وأنه لا يرجع إلى شيء معه ولا يقدر على استسلاف من التجار على شيء برد . ولا مطالبة للمستظهرين منهم بقرض ، لئلا تنفر عامة البلد مع حاجته إلى تسكينهم وإلى الفرق بهم . ومنها يحيى . القرامطة إلى الكوفة يطالبون بمائة وخمسين ألف دينار .

ومنها شنود الخليفة وتباعده إلى الرقة ، يورى الناس أن توزون قد عصاه وأراد إتلافه فهرب منه ، وأن الترجمان يهتف بذلك ويجاهد به ، ويكاتب الناس من أهل الشرق والغرب بمعونة الخليفة وإغاثته واستنقاذه قليلا قليلا .

ومنها أن ناحية ناصر الدولة التي كانت مغوثة (١) بالأموال الموكفة (٢) والأقوات الواردة قد أفسدها الخليفة ومن معه ، فانقطعت مواردها وغلت الأسعار بها ، ويئس الجند منها ؛ إلى أشياء بعد هذا لعله لا يجوز ذكرها . فصر أبو جعفر ( بن شيرزاد ) على هذا كله ، حتى كشفه الله لمناصحته وبين تدبيره (٣) .

وقد أخطأ الخليفة المتقي بتركه بغداد ودعوته بنى بويه إلى دخولها ، وعدم توفقه بتوزون على رغم هذه العهود والمواثيق التي أعطها إياه . يقول أبو بكر الصولي (٤) : « ولا والله ما سمعت بأعجب من أفعال المتقي لله كلها ، أول خطئه ، وتركه الرأي ، وركوبه العوز : تركه دار مملكته وخروجه عنها برأى الترجمان وأشياؤه لغير سبب أوجب ذلك ولا اضطرار دعا إليه . والامير توزون إلى وقته ذاك مطيع له تابع لما يشتهي ، عالم مع ذلك أن الصواب والرأى غير ما تكلفه . فن ذلك : أن الامير أقام بواسط ليستنظف (٥) الأموال بها ، فكتب إليه : دع كل شيء . وصر إلى ولعن الله المال ! فراجعه فألح عليه فقدم ؛ فخلع عليه قبل استضراجه وأمّره . وأشار الامير عليه أن يصالح بنى البريدي إذ كانوا قد ظفروا بمجته بكثير من المال ، وقال : نستعمل الأموال منهم ، ونحن على أمرنا بعد ذلك ، فخالفه وقال : لا بد من محاربتك لهم وإزالة أمرهم . وكان رأى الامير صواباً في هذا ، فترك الرأي ولم يخالفه . »

عاد توزون إلى بغداد بعد أن انتصر على الديلم (٦) ، وقابله الأهالي بالترحاب . وكانت ركبته هذه ركة ما ركب أحد مثلها قط إلا خليفه ، لأنه كان بين يديه مائة جنية ودابة وبغل ، بالسروج المذهبة والمفضضة ، وبين يديه وخلفه من الغلمان الأتراك بألوان الثياب وأحسن السيوف والمناطق وأفره الدواب ، وهم عدة ، ما اجتمع لأحد منذ مدة طويلة مثلهم . وما من قائد من قواده بعد هذا إلا وهو مساو بعديته وعُدته لأجل أمراء النواحي وأصحاب الأطراف الممتعين بها (٧) .

ونجمل حالة بغداد في العهد الذي تولى فيه توزون إمرة الأمراء ، فنقول نقلاً عن أبي بكر الصولي : « ووقع على التجار ببغداد ظلم عظيم وخبط شديد ، وتهارب الناس وخرج عن بغداد جماعة من مياسير اليهود والمجوس إلى الشام ، وكاتب توزون البريدي ووافق على مال بعينه ، فوجهه إليه البريدي بمال ، ووافى جميع من كان من جيش توزون في طريق واسط إلى معسكره بباب الشامية ، وفر بعض غلمان توزون إلى تكريت . . . وغلت الأسعار ببغداد وإمارة بغداد من قبل توزون (٨) . . . وكان أمير بغداد أبو العباس إسكورج قد اصطنع ابن حمدي ، وأمل أن يرتدع

(١) أغائه لإغاثة ومغوثة أعانه ونصره أي نجده .

(٢) وكف البيت بالمطر ووكفت العين بالدمع وكفا ووكوفا سال .

(٣) أبو بكر الصولي ص ٢٥٨ - ٢٦٤ (٤) ص ٢٨٠ - ٢٨١

(٥) نظف الماء سال ونظفت القرية إذا قطرت من وهي ، والنظفة الماء الصافي قل أو كثر . والناتف

نوع من الحلوى سمى بذلك لأنه ينظف أي يظفر قبل استضراجه .

(٦) ابن الأثير ج ٨ ص ١٤٤ - ١٤٥ (٧) أبو بكر الصولي ص ٢٦٧

(٨) المصدر نفسه ص ٢٥١

ويقتصر ويعرف به جميع المتلصصة. فكان يرسل أصحابه على الناس ، فلهم في كل يوم حادثة عظيمة ، وكبس وإغارة على الأموال . وقف إسكورج على أنه أصل ذلك كله ، وقيل لأمير توزون فيه غير مرة . وعرف أبو جعفر (بن شيرزاد) الأمير حقيقة خبره ، فأمر به فضرب وسطه في دار الأمير توزون ، وحمل إلى الجسر على جمل ، ونودي عليه : هذا ابن حمدي اللص فاعرفوه . وظفر بجاعة من أصحابه فقتلوا وصلبوا ، فسر الناس بذلك وقالوا : ما أمئنا على أنفسنا وأموالنا إلا الآن ، بقتل ابن حمدي وأصحابه ، وكثر الدعاء للأمير توزون . وكان قتله برأى أبي جعفر بن يحيى بن شيرزاد الكاتب (١) . . . ووقع في هذا الشهر بالكرخ حريق عظيم من حد طاق التلك إلى السماكين ، وعطف على أصحاب الكاغد وأصحاب النعال ، وذهبت النيران بأمتعة البزارين وأموال خطيرة . وكان وقوع الحريق ليلاً ، فبادر الناس ليخلصوا أمتعتهم ، فكان كل من أخرج شيئاً تنبهه الحرابون ومن يعينهم من العيارين ، فما وصل الناس إلى شيء من أمتعتهم ، (٢) .

حاول بتو بويه الاستيلاء على بغداد ، فصددهم توزون وأحل بهم الهزيمة على الرغم من اعتلال صحته .

ومهما يكن من شيء فإن الجولم يصف لتوزون بسبب غضب الخليفة عليه . فقد قامت المؤامرات الخلعة وتعبيد السبيل لدخول بني بويه . على أن توزون قد بذل قصارى جهده في مصالحة الخليفة ودعاه للعودة إلى بغداد ، وكتب على نفسه العهود والمواثيق بأن يكون وفياً مخلصاً له . وقدم القاضي أحمد ابن عبد الله بن إسحق إلى بغداد في ٤ من شهر صفر سنة ٣٣٣ هـ يحمل خلع الخليفة وطوقاً من ذهب ، وأمر الأمير بهارة دار الخليفة ، وبناء ما استهدم منها . وكان يركب بنفسه حتى يشاهد ذلك ويعاينه . وكان في الرسالة أن يخرج الأمير إلى واسط ، فقال : هذا لا أجيب إليه ، يعمل على أن ابن طغج إذا قرب من بغداد خرجت وتلقيته ، وأزلت كل ما في نفسه ، فإذا صار في داره أمرني بما شاء حتى أفعله ؛ وإن خرجت ولم أراه كنت عند الناس عاصياً ! وامتنع من أن يلبس الخلع إلا بحضرة الخليفة إذا رآه ، وكتب القاضي إلى الخليفة بإحكامه له جميع ما أراد ، وأشار عليه بالمبادرة إلى الحضرة . . . وأقيمت الاستعدادات على قدم وساق لاستقبال الخليفة ، ونصب الناس القباب بباب الطاق ، وأخرج الأمير توزون أثقاله وجماله إلى باب الأنبار ، (٣) .

بيد أن الصفاء لم يدم بين توزون والخليفة المتقى بسبب تأمره عليه وعمله على صرفه . فقبض توزون عليه في شهر صفر سنة ٣٣٣ هـ ، ونهب أصحابه عسكره ، وأخذ الخاتم من يده . واستخرج عبد الله بن المكتفي بالله فألبسه ثياباً جاهاً بها معه ودفع إليه الخاتم . . . فصار إلى مضرب الأمير

(١) أبو بكر الصولي ص ٢٥٩ (٢) المصدر نفسه ص ٢٦١ — ٢٦٢

(٣) أبو بكر الصولي ص ٢٦٣ و٢٧٩ — ٢٨٠ ، ابن الأثير ج ٨ ص ١٤٨ — ١٤٩



فمقد له الأمر ، وكحل (١) المتقى لله ، فصاح ، فأمر أصحاب الدباب (٢) فضربوا بها ، فصاح فلم يسمع صياحه ، بعد أن خلع نفسه وسلم الأمر إلى الخليفة عبد الله . . . فكانت خلافته ثلاث سنين وأحد عشر شهراً (٣) . ويقول المسعودى فى كتابه مروج الذهب (٤) : « فبكى المتقى ، وصاح النساء والخدم لصياحه ، فأمر توزون بضرب الدباب حول المضرب (٥) ، فنفخ صراخ الخدم ، وأدخل إلى الحضرة مسمول العينين ، وأخذ منه البردة والقضيب والخاتم وسلها إلى المستكفى بالله . وبلغ ذلك القاهر فقال : « قد صرنا بحقيق نحتاج إلى ثالث ، يُعَرِّضُ بالمستكفى بالله » . ويقول السيوطى (٦) : « ولما كحل (يعنى المتقى) قال القاهر :

صرت وإبراهيم شيخى (٧) عمى لا بد للشيخين من مصدّر  
ما دام توزون له إمرة مطاعة فالميل فى المجرم

وظل المتقى مسجوناً خمسة وعشرين سنة إلى أن مات فى شهر شعبان سنة ٣٥٧ هـ .

كانت الدولة العباسية فى الوقت الذى خلع فيه المتقى مضطربة ، إذ كانت السلطة كلها فى يد توزون أمير الأمراء ، وقد استعان بأبى جعفر بن شيرزاد الذى اتخذ كاتباً له ، وتولى الوزارة أبو الحسين على بن محمد بن مقله . وتولى القضاء أحمد بن عبد الله بن اسحق الخرقى ، والشرطة بيغداد أبو بكر محمد بن جعفر النقيب ، والحسبة رجل يعرف بالأسمر ، كما اتخذ أبا العباس أحمد بن خاقان المفلحى حاجباً له . وولى مصر والشام أبو بكر محمد بن طفج الأخشيد ، وولى الحسن بن عبد الله بن حمدان الموصل وديار ربيعة وديار بكر ، ونوح بن نصر بن أحمد السامانى بلاد خراسان ، وعلى بن بويه فارس والأهواز ، وأصبهان الحسن بن بويه (٨) .

### المستكفى بالله

٣٣٣ - ٣٣٤ هـ = ٩٤٤ - ٩٤٦ م

بويغ عبد الله بن المكثفى فى شهر صفر سنة ٣٣٣ هـ على ما تقدم ، ولقب المستكفى بالله ، وكان فى الحادية والأربعين من عمره . وأم أم ولد اسمها أملح الناس (٩) . وقد أمدنا مسكويه (١٠) ، وعنه

(١) كناية عن صمى عينيه . (٢) الدباب : جمع دباب ، وهو الطبل .

(٣) الصولى ص ٢٨٢ - ٢٨٣ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١٤٩ (٤) ج ٢ ص ٥٣٢

(٥) المضرب : السطاط (٦) تاريخ الخلفاء ص ٢٦٣

(٧) وردت فى السيوطى ( ص ٢٦٣ ) شيخ وهو خطأ .

(٨) الصولى ص ٢٨٤ - ٢٨٥

(٩) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٦٣ (١٠) ج ٢ ص ٧٢ - ٧٥

أخذ ابن الأثير ، بمعلومات طريفة عن خلع المتقى وأخذ البيعة للمستكفي ، وما كان للاشتراك والنساء من أثر في ذلك . وتبين لنا عبارته مبلغ الضعف الذي وصلت إليه الخلافة العباسية والخلاف الذي ساد بين أفراد البيت العباسي ، حتى إن هؤلاء كانوا لا يتورعون عن التآمر بعضهم على بعض ابتغاء الوصول إلى الحكم . وكان من أثر ذلك أيضاً أن « انخرقت الهيبة . . . وذهبت الرسوم التي كانت للخلافة ، وصارت الدار ( دار الخلافة ) طريقاً لكل من لم يرها . وكان كل من وصل إلى المستكفي أجلسه بين يديه (١) » .

وهنا ما ذكره مسكويه : قال ثابت : حدثني أبو العباس التميمي الرازي وكيله ، وكان خصيصاً بتوزون مستولياً عليه ، قال : كنت أنا السبب فيما جرى على المتقى ؛ وذلك أن إبراهيم بن الربيد الديلمي لقيني يوماً وسألني أن أصير إلى دعوته ، فاستأذنت توزون في ذلك ، فأذن لي فيه ومضيت إليه وهو ينزل في دار القراريطي على دجلة ، فوجدت داره مفروشة منضدة ، فسألته عن السبب في ذلك وقلت : أحسبك قد تزوجت فقال : أنا أحدثك عن أمري : أعلم أني خطبت إلى قوم وتجمعت عندهم بأن ادعيت أن لي محلاً من الأمير واختصاصاً به ، فقالت لي المرأة : إذا كنت بهذه المنزلة ، فهل لك أن تسفر في شيء يجمع صلاح الأمير وصلاح المسلمين ؟ فقلت لها : نعم ! قالت : هذا الخليفة ( تعني المتقى لله ) قد عاداكم وعاديتموه وكاشفكم وكاشفتموه ، وليس يجوز أن تصفونيته لكم آخر الدهر ، وقد اجتهد في بواركم فلم يتم له ، فرة بنبي حمدان ، ومرة بنبي بويه . وههنا رجل من ولد الخلافة من فهمه وعقله ودينه ورجلته كيت كيت ، تنصبونه في الخلافة وتزبلون المتقى لله ، وهو يثير لكم أمواً جليلة لا يعرفها غيره ولا يقدر عليها سواه ، وتكونون أتم قد استرحتم من عدو تريدون أن تحرسوه وتحترسون منه ، وتحافونه ويخافكم ، وتقيمون رجلاً من قبلكم يرى أنكم قد أحسنتم إليه ، وأن روحكم مقرونة بروحه . وأطالت الكلام في هذا المعنى ، فهو سئتي ودار كلامها في نفسي ، وعلمت أن محلي لا يبلغ الكلام في مثله والسفارة فيه ، وكرهت أن أكذب نفسي عندها لما ادعيتها من المحل والمنزلة ، فأطمعته في ذلك ، وعلمت أن هذا الأمر لا يتم إلا بك ولا يقدر عليه غيرك ، وقد أطلعتك عليه . فأى شيء عزمك أن تعمل ؟ فقلت : أريد أن أسمع كلام المرأة .

فجاءني بامرأة تتكلم بالعربية والفارسية من أهل شيراز ، جزلة شهمة فهمة ، مخاطبتني بنحو ما خاطب به الرجل ، فقلت لها : لا بد أن ألقى الرجل وأسمع كلامه ، فقالت : تعود غداً إلى ههنا حتى أجمع بينك وبينه . فلما كان من غد عدت فوجدت الرجل قد أخرج من دار ابن طاهر في زى امرأة وحصل في دار ابن الربيد فلقيته ، وعرفني أنه عبد الله بن المستكفي بالله . وخاطبني رجل حصيف فهم ، ووجدته مع هذا يتشيع ، ورأيت عارفاً بأمر الدنيا ، وضمن لي ستائة ألف دينار

(١) مسكويه ج ٢ ص ٣٦ نقل عن كتاب العيون .

ستخرجها ويمشي بها الأمر، وماتني ألف دينار للأمر توزون وقال: أنا رجل فقير، وإنما أعرف وجوه أموال لا يعرفها غيري، وأعرف من ذخائر الخلافة في يد قوم لا يعرفهم غيري، وذكر أن وجوهها صحيحة لا شك فيها ولا يقدر غيره عليها. فلما سمعت ذلك وعرفت صحته صرت إلى توزون، وفكرت في أن الأمر لا يتم بي وحدي، فلقيت في طريقي وأنا أصعد إلى توزون أبا عمران موسى بن سليمان في الحديد الذي على باب توزون، فأخذت بيده واعتزلنا، واستحلفته على كتمان ما أطلعه عليه فخلف، ثم حدثته به كله وسألته معاويتي على تمامه فقال: هذا أمر عظيم لا أدخل فيه. فلما آيسني من نفسه سأله أن يمك ولا يعارضني فقال: أفعل، فدخلت إلى توزون وأدخلته إلى حجرة وخلوت به، واستحلفته بالمصحف وبإيمان مؤكدة أن يكتم ما أحدثه به، فخلف. فلما حلف حدثته الحديث من أوله إلى آخره، فوقع بقلبه وقال: صواب، ولكنني أريد أن أرى الرجل وأسمع كلامه، فقلت: على ذلك، ولكن إن أردت تمام هذا الأمر، فلا تطلع عليه أبا جعفر بن شيرزاد، فإنه يفتأ عزمك ويصرفك عنه فقال: أفعل. وبلغ أبا جعفر خلوتي بالأمر، فاتهمني أني سعيت عليه. ومضيت إلى القوم ووعدتهم بحضور الأمير ليرى الرجل ويكون الاجتماع في منزل موسى بن سليمان، وتشددنا في الطوف بالليل في دجلة. فلما كان ليلة الأحد لأربع عشرة خلت من صفر، وافى عبد الله ابن المستكفي بالله إلى دار موسى بن سليمان، ولقيه توزون هناك، وخاطبه وباع له في تلك الليلة، وكنتمنا القصة. فلما وافى المتقي لله من الرقة ولقيه توزون وسلم عليه، قلت لتوزون: عزمك على ما كنا اتفقنا عليه صحيح؟ فقال: بلى! قلت: فافعله الساعة، فإنه إن دخل داره بعد عليك مرامه، فوكل به وجرى ما جرى.

وكان الخليفة المستكفي، كغيره من الخلفاء الذين سبقوه، العوبة في أيدي الأتراك، حتى إن توزون الذي أقره الخليفة في إمرة الأمراء، ضم إليه غلاماً تركياً من غلبانه يقف بين يديه،<sup>(١)</sup> ولا شك أن الدافع الذي حدا بتوزون إلى اتهاج هذه السياسة هو الوقوف على أسرار الخليفة وما يجري في دار الخلافة من أمور.

#### ٧ - ابن شيرزاد

وفي أوائل عهد المستكفي مات توزون في المحرم سنة ٣٣٤ هـ. وكانت مدة إمارته سنتين وأربعة أشهر، خلفه في إمرة الأمراء أبو جعفر بن شيرزاد. وقد ذكر ابن الأثير<sup>(٢)</sup> أن ابن شيرزاد عزم بعد وفاة توزون على نقل إمرة الأمراء إلى ناصر الدولة بن حمدان، إلا أن الجند أبوا عليه ذلك وحلفوا له بيمين الطاعة، وأقرهم الخليفة المستكفي على ذلك.

وقد اختلف المؤرخون في تقدير أعمال ابن شيرزاد. فالصولي يرى أنه كان من أحسن الأمراء سياسة، فيقول: «سبحان الله! ما أعجب أمر البركة والحظوظ! هذا أبو جعفر محمد بن يحيى

(١) ج ٨ ص ١٦٠

(٢) المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ٥٤١

ابن شيرزاد ، ما كتب لأحد قط إلا بلغ أعلى المراتب وأجل المنازل . مازال جد ابن الخال<sup>(١)</sup> يعلو ما دام يكتب له . فلما تركه أدبر وانحل أمره . وكتب لبجكم فبلغه ما لم يبلغ أمير من المال والهيبة ، وأصلح له قلوب أصحابه . وكتب لتوزون ، فبلغ به ما لم يظن الناس أن توزون يبلغه أبدا . . . والله الذي لا إله إلا هو إنه بالرحمة له منها أولى من الاغتياب بها له ، ولا تعمل إلا على أن واحدا قام مقامه وفعل فعله ، من أين يملك مثل طبعه حتى يجلس سائر نهاره وأكثر ليله ، لا يأكل ولا يشرب ولا يتشاغل بشيء من جميع الملاذ التي لا يصبر الناس عن شيء واحد منها ، ولا يحجب واحد عنه ، ولا ينصرف ذو حاجة أناه إلا راضيا ، إما بقضائها وإما بوعدها فيها يقنع به ، وإما بولاية يرى نفعها على ما أقله من حاجته وملتمسه ، أو تعويض له من ماله ، بصدر رحب ووجه طلق وخلق واسع لا يقدر المتخلق عن مثله ؟ . . . ولما اتخذ توزون أبا جعفر بن شيرزاد كاتباً له وقدم بغداد ، أشد أبو بكر الصولي قصيدة طريفة يمدح فيها الكاتب الجديد نكتفي منها بهذه الآيات :

على الخيـن والتوفيق ألبست خـلعة	بها المتقى لله بالحق يؤثرك
رآك أحق الناس بالإمرة التي	يمارح فيها سـجـوهر الملك جـوهرك
طبعـت على عقل وجـود ونجـدة	فما تستطيع الحوادث تغـيـرك
وسـيـان في الأعداء مخـبرك الذي	به ينصر الله الولي وينصرك
أبو جعفر في الرأي والعقل وافر	به الله بعد الانتقاص يوفرك
سيور ذلك العذب الزلال مجرب	علم بتدبير الوري كيف يُصدرك <sup>(٢)</sup>

على أن ابن شيرزاد لم يكن أقل عتتا من سبقوه ، بل إنه زاد أرزاق الجند من الأتراك والديلم زيادة كبيرة ، وصادر الأموال لاسترضائهم ، وفرض الأموال الكثيرة على الكتاب والعمال والتجار وغيرهم من الناس على اختلاف طبقاتهم . وزادت الضرائب في أيامه زيادة حمات التجار على الحرب من بغداد ، وضاعت هيئة الحكومة ، وعجز الشرطة عن الضرب على أيدي اللصوص والمفسدين . وفي ذلك يقول مسكويه<sup>(٣)</sup> : « وزاد ابن شيرزاد الأتراك والديلم في أرزاقهم زيادات كثيرة ، فاشتدت الاضافة ، فأنفذ إلى ناصر الدولة يطالبه بحمل المال ويطمعه في رد الامارة إليه ، فحمل إليه دقيقا وسفاتيح<sup>(٤)</sup> بمخمسائة ألف درهم ؛ فلم يكن لها موقع مع الاضافة ، فنقض ما عزم عليه من عقد الامارة لناصر الدولة وأقام على أمره . وقلد أبا السائب القاضي مدينة المنصور ، وقد جماعة القضاة

(١) يقصد هارون بن غريب خال المقتدر .

(٢) أبو بكر الصولي من ٢٥٥ و ٢٦٥ و ٢٧٣ - ٣٧٥ (٣) ج ٢ ص ٨٣

(٤) السفاتيح بضم السين وفتحها وفتح التاء فارسي معرب هي كتاب صاحب المال لو كيله أن يدفع مالا قرضا يأمن به من خطر الطريق والجمع سفاتيح .

في نواحي بغداد ، وأخذ في المصادرات ، وقسط على الكتاب والعمال والتجار وسائر طبقات الناس  
بيغداد مالا لأرزاق الجند .

وكان الغمازون يغمزون بمن عنده قوت من جنطة أو عدة لعياله ، فكبسه وأخذه . . وكذلك  
من الضرائب ، فإنها كثرت حتى تهارب التجار من بغداد ، وعاد هذا الفعل بالخراب وفساد الأمر  
وزيادة الإضافة ، ؟

لم تطل خلافة المستكفي بالله ، فقد جلس على العرش سنة وأربعة أشهر ، استبد فيها بالسلطة  
توزون وابن شيرزاد الذي استخفي بعد أن تقلد إمرة الأمراء ثلاثة أشهر وعشرين يوماً . ثم استولى  
معز الدولة بن بويه على بغداد ، فرحب به الخليفة ، وخلع عليه ولقبه بلقب معز الدولة ، وأخاه علياً  
عماد الدولة ، وأخاه الحسن ركن الدولة ، وكتب ألقابهم وكناهم على السكة . ولكن سرعان ما استبد  
معز الدولة بالسلطة وقوى أمره وحجر على الخليفة . يقول السيوطي (١) : « ثم إن معز الدولة تخيل  
من المستكفي ، فدخل عليه في جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين فوقف ، والناس وقوف على  
مراتبهم ، فتقدم اثنان من الديلم إلى الخليفة ، فد يديه إليهما ظناً أنهما يريدان تقييلهما ، فغذباه من  
السرير حتى طرحاه إلى الأرض وجراه بعمامته . وهجم الديلم دار الخلافة إلى الحرم ونهبوها ، فلم يبق  
فيها شيء . ومضى معز الدولة إلى منزله وساقوا المستكفي ماشياً إليه ، وخلع وسمت عيناه  
يومئذ . . . وأحضروا الفضل بن المقتدر وبايعوه ، ثم قدموا ابن عمه المستكفي فسلم عليه بالخلافة ،  
وأشهد على نفسه بالخلع ، ثم سجن إلى أن مات سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة ، وله ست وأربعون  
سنة وشهران ، .

1848

...

...

...

...

## الباب الثالث

عصر بني بويه (في العراق)

٣٣٤ - ٧٣٣ هـ = ٩٤٥ - ١٠٥٥ م

بأه  
الجو  
البص

است  
بالج  
سنة  
معز

وط  
وار  
الع  
الآ  
الد  
أما

فق  
تعد  
الف  
ال  
يو  
ال  
إلا

مكتوب  
(مكتوب)



١ - حالة الدولة العباسية قبيل استيلاء بني بويه على بغداد

لم تسكد فترة التنافس على إمرة الأمراء (٣٢٤ - ٥٣٣٤) تنهى حتى كان الضيق قد استحکم بأهل بغداد، فصاروا يأكلون الكلاب والقطط والجيف، وانتشر النهب والسلب بينهم، وأدى الجوع بهم إلى نهب الحوائث والحصول على ما فيها من السلع، وفر كثير منهم من بغداد إلى البصرة وغيرها، ومات أكثرهم في الطريق من جراء الضعف وشدة الفقر (١).

وكان من أثر تنازع بعض الأمراء مع بعض على إمرة الأمراء أن استعان بعضهم ببعض. فقد استعان أبو عبد الله البريدي بعلي بن بويه الذي أصبح صاحب النفوذ في فارس، واستعان ابن رائق بالمحمدانيين على البريدي عند ما عجز عن إخراجه من بغداد التي استولى عليها على أثر وفاة بجم سنة ٣٢٩ هـ. وأدى هذا التنازع على إمرة الأمراء وما أعقبه من الفوضى والاضطراب إلى دخول معز الدولة بن بويه مدينة بغداد على أهون سبيل.

من ذلك نقف على مبلغ ضعف الدولة العباسية في ذلك الوقت الذي انقسم المسلمون إلى شيع وطوائف، فاشتد خطر القرامطة وتفاقم شر البيزنطيين، وطمع فيها الولاة فاستبدوا بالسلطة، واستقل كثير منهم بالحكم. ولا غرو فقد ازدادت شوكة الموالي من الأتراك الذين اتخذهم الخلفاء العباسيون حرساً لهم، فما لبثوا أن أصبحوا سادة. واجتمعت السلطة كلها في يد واحد منهم هو أمير الأمراء، الذي فوض إليه الخليفة تدبير المملكة، فلم يعد للخليفة من الأمر شيء سوى السلطة الدينية، ممثلة بذكر اسمه في الخطبة، ونقشه على السكة، للتظاهر بالمحافظة على رسوم الخلافة أمام الجمهور.

وقد وصف المؤرخ جيبون Gibbon (٢) الحالة التي وصلت إليها الدولة العباسية في ذلك العصر فقال: «ولم تكن حالة الضعف التي وصلت إليها الخلافة العباسية راجعة إلى السياسة لحسب، بل تعدتها إلى الدين أيضاً، فقد تفرع من المذهب الشيعي على مر الزمن مذاهب متعددة، أهمها المذهب الفاطمي، ومنه المذهب الدرزي في لبنان، ثم المذهب البابي في بلاد الفرس - وقد ظهر في الأزمنة الحديثة. وكذلك ظهرت الاختلافات الدينية في بغداد، فقام أنصار ابن حنبل وانقضوا على بيوت الأمراء وذوى اليسار، وكسروا أواني الخمر، وحطموا الآلات الموسيقية، و ضربوا المغنين، وأهانوا الفتيان والفتيات وأسأوا بهم الظنون. ولم يكن من سبيل للقضاء على هذه الفئة إلا بقوة حربية. ولكن من ذا الذي يمكنه أن يتسدد جشع طائفة المرتزقة، أو يؤيد النظام بالقوة

Muir : The Caliphate, p. 573 (١)

Decline and Fall of the Roman Empire, vol. VI. pp. 54-5 (٢)

بين أفرادها؟ هذا إلى ما كان من العداوة بين الجند من الأتراك والمغاربة ، وكل يسل سيفه في وجه الآخر . وصار في يد أمير الأمراء حبس الخليفة وخلعه وقتله ؛ فكان هذا تعدياً على سلطة الخليفة الدينية وما لها من حرمة في النفوس . ولم يكن عند الخليفة من سبيل يأمن به على نفسه الأذى إلا هربه إلى معسكر أحد الأمراء . فكان إنقاذه تحولا عما كان فيه من مذلة إلى مذلة أخرى ، حتى دفعه اليأس إلى دعوة بني بويه إلى معاونته وتخليصه ، حتى إذا وقع في قبضتهم صار العوبة في أيديهم . وسرعان ما دخل أحمد بن بويه بغداد ، فاستخفى ابن شيرزاد ، ودخلت الدولة العباسية في عهد جديد هو عهد بني بويه .

٢ - أصل بني بويه :

ظهر بنو بويه في عالم التاريخ في أوائل القرن الرابع الهجري من خلال ذلك الغموض الذي اكتنف تاريخهم قبل ذلك . وقد نقل لنا مترجمو حياتهم أقوالا مختلفة عن أسلافهم . وإن سلسلة نسب هذه الأسرة مسألة يحوطها الشك ، شأن الملوك والأمراء الذين تظهر عظمتهم مرة واحدة . يقول بعض المؤرخين إنهم ينتسبون إلى بهرام جور أحد ملوك ساسان ، ويلحقهم بعض آخر بالآلهة كما كان يفعل الرومان في تمجيد أبطالهم ، ويقول غيرهم إنهم كانوا من دهماء الناس . ويرى زرتشتين (١) أن نسبهم لا يرجع إلى بهرام جور ، ولكنه يرجع إلى كبير وزرائه مهرنرمسى .

ويقول صاحب الفخرى (٢) : « أما نسبهم فيرتفع من بويه إلى واحد واحد من ملوك الفرس ، حتى يتصل بيهودا بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم الخليل عليه السلام ، وكذلك إلى آدم أبي البشر . وليسوا من الديلم لأنهم سكنوا بلاد الديلم ، (٣) ... فان جدم أبا شجاع بويه وأباه وجده كانوا كأحد الرعية الفقراء ببلاد الديلم ، وكان بويه صياد السمك ، وقد كان معز الدولة بعد تملكه البلاد يعترف بنعمة الله تعالى ويقول : كنت أحتطب الحطب على رأسي (٤) . »

(١) أنظر لفظ بويه في دائرة المعارف الإسلامية .

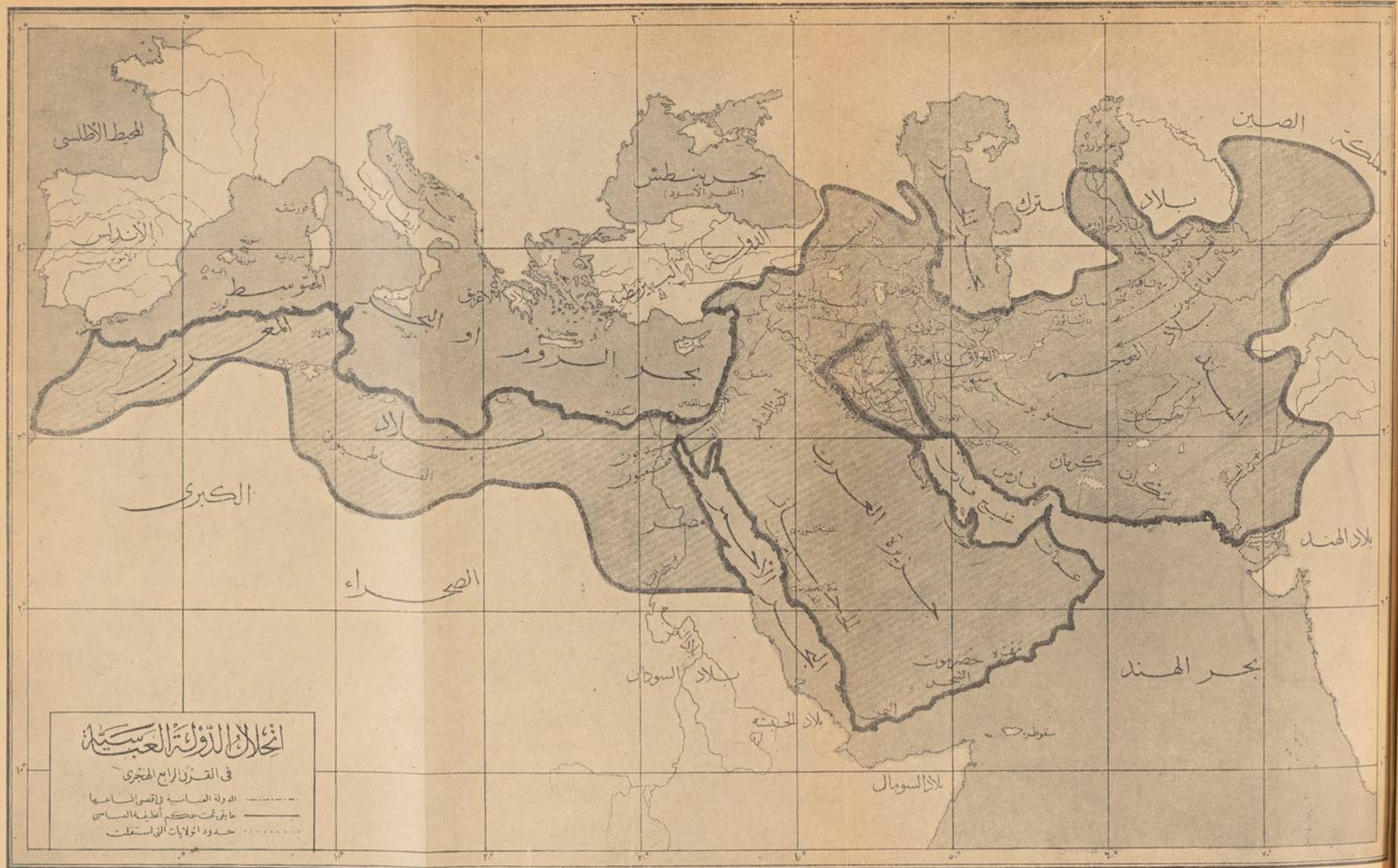
(٢) ص ٢٤٩ .

(٣) تقع بلاد الديلم في الجنوب الغربي من بحر قزوين ( أو بحر الخزر أو بحر طبرستان لأنها أكبر البلاد الواقعة عليه ) . وقد فتحت في خلافة عمر بن الخطاب ، وخضع أهلها للحكم الإسلامي مع بقائهم على وثنياتهم إلى أن دخل بلادهم الحسن بن علي الزبدي الملقب بالأطروش ، فأقام بينهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام ، فأسلم على يديه كثير من الأهالي .

(٤) ذكر ابن خلصان ( ج ١ ص ٥٦ ) أن « معز الدولة المذكور كان في أول أمره يحمل الحطب على رأسه ، ثم ملك هو وإخوته البلاد . . . وكان معز الدولة أصغر الاخوة الثلاثة » .

وتاريخ بني بويه قبل ظهورهم في عالم الدول أشبه بالخرافة . وكان لانتشار التنجيم والطلسمات في ذلك الوقت أثره في التنبؤ بما أضمره لهم القدر من التقدم في معارج الرقي ، والوصول إلى درجة عظيمة من الملك ، واستبدادهم بالسلطة دون الخلفاء ، حتى خضعت لهم الرقاب ودانت لهم البلاد بعد ما كانوا يعانونه من الفقر والمسكنة . وفي ذلك يقول صاحب الفخرى (١) : «فكان من مبدأ دولتهم ما حدثت شهربار بن رستم الديلمي قال : كان أبو شجاع بويه في مبدأ أمره صديقالى ، فدخلت عليه وقد ماتت زوجته أم أولاده الثلاثة الذين تملكوا البلاد ، وهم عماد الدولة أبو الحسن عليّ ، وركن الدولة أبو عليّ الحسن ، ومعز الدولة أبو الحسين أحمد ، وقد اشتد حزن أبي شجاع بويه على زوجته ، فعزّيته وسكّنت قلبه ، ونقلته إلى منزلى ، وأحضرت له طعاما وجمعت إليه أولاده الثلاثة . فيئنا هم عندى إذ مرّ بالباب شخص يقول المنجم المعزم ، مفسر المناومات ، كاتب الرقى والطلسمات ، فاستدعاه أبو شجاع بويه وقال له : قد رأيت البارحة رؤيا ففسرها لى ، ثم قص عليه الرؤيا ، فقال المنجم : هذا منام عظيم ولا أفسره إلا بخلعة وفرس ، فقال له بويه : والله ما أملك إلا الثياب التى على جسدى ، وإن أعطيتك إياها بقيت عُرّيانا . قال المنجم : فعشرة دنانير ، فقال له بويه : والله ما أملك دينارين فكيف عشرة ؟ ثم إنه أعطاه شيئاً يسيراً ، فقال المنجم : اعلم أنه يكون لك ثلاثة أولاد يملكون الأرض ومن عليها ، ويعلمو ذكركم فى الآفاق ، ويولد لهم جماعة ملوك ، فقال له بويه أما تستحى تسخر بنا ؟ أنا رجل فقير مضطر وأولادى هؤلاء فقراء مساكين ، فمن أين هم والملك ؟ فقال له المنجم : فأخبرنى عن وقت ولادة واحد واحد من أولادك ، فأخبره بويه بذلك ، فجعل ينظر فى أصططيرلابه وتقاويمه ، ثم نهض المنجم وقبّل يد عماد الدولة أبى الحسن على وقال : هذا والله الذى يملك البلاد ، ثم يملك هذا من بعده وقبض على يد أخيه أبى عليّ الحسن ، فاغتناظ منه أبو شجاع بويه وقال لأولاده اصفعوه فقد أفرط فى السخرية بنا ، فصفعوه ونحن نضحك منه فقال المنجم : لا بأس بهذا إذا ذكرتم لى هذا الحال عند ولايتكم ، فأعطاه أبو شجاع عشرة دراهم وانصرف .»

وإلى القارىء هذا الثبت الذى يبين مدى نشاط بنى بويه فى فارس وفى العراق والأهواز وكرمان ، وفى الرى وهمدان وأصفهان .



بنو بويه (١)

١ - في فارس

ميسلادية	هجريّة	
٩٣٢	٥٣٢٠	(١) عماد الدولة (أبو الحسن علي)
٩٤٦	٥٣٣٨	(٢) عضد الدولة (أبو شجاع خسرو)
٩٨٢	٥٣٧٢	(٣) شرف الدولة (أبو الفوارس شيرزید)
٩٨٩	٥٣٧٩	(٤) صمصام الدولة (أبو كالينجار المرزبان)
٩٩٨	٥٣٨٨	(٥) بهاء الدولة (العراق)
١٠١٢	٥٤٠٣	(٦) سلطان الدولة (أبو شجاع)
١٠٢٤	٥٤١٥	(٧) عماد الدولة (أبو كالينجار المرزبان)
١٠٥٥-١٠٤٨*	٤٤٠-٤٤٧*	(٨) أبو نصر خسرو (فيروز الرحيم)

هذه العلامة تدل على أنه كان يحكم بلاد العراق أيضاً

٢ - في العراق والأهواز وكرمان

ميسلادية	هجريّة	
٩٣٢	٣٢٠	(١) معز الدولة (أبو الحسين أحمد)
٩٦٧	٣٥٦	(٢) عز الدولة (مختيار)
٩٧٧	٣٦٧	(٣) عضد الدولة (في فارس)
٩٨٢	٣٧٢	(٤) شرف الدولة (في فارس)
٩٨٩	٣٧٩	(٥) بهاء الدولة (أبو نصر فيروز)
١٠١٢	٤٠٣	(٦) سلطان الدولة (في فارس)

ولايات منقسمة في العراق

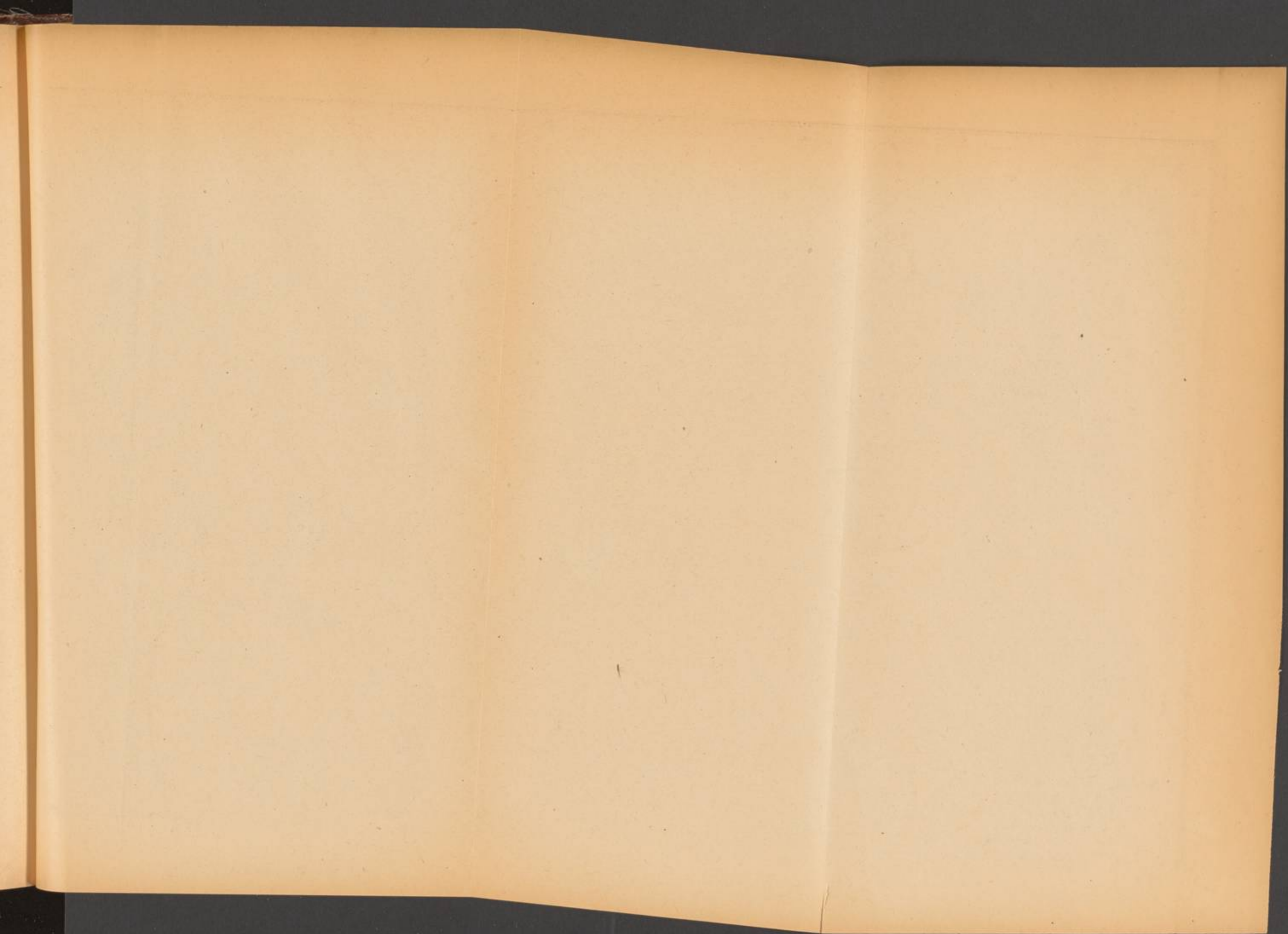
ميلاديه	هجريه	
١٠٢٠	٤١١	(١) مشرف الدولة
١٠٢٥	٤١٦	(٢) جلال الدولة
١٠٤٣	٤٣٥	(٣) عماد الدين (في فارس)
١٠٥٥ - ١٠٤٨	٤٤٠ - ٤٤٧	(٤) أبو نصر خسرو فيروز (في فارس)

كرمان

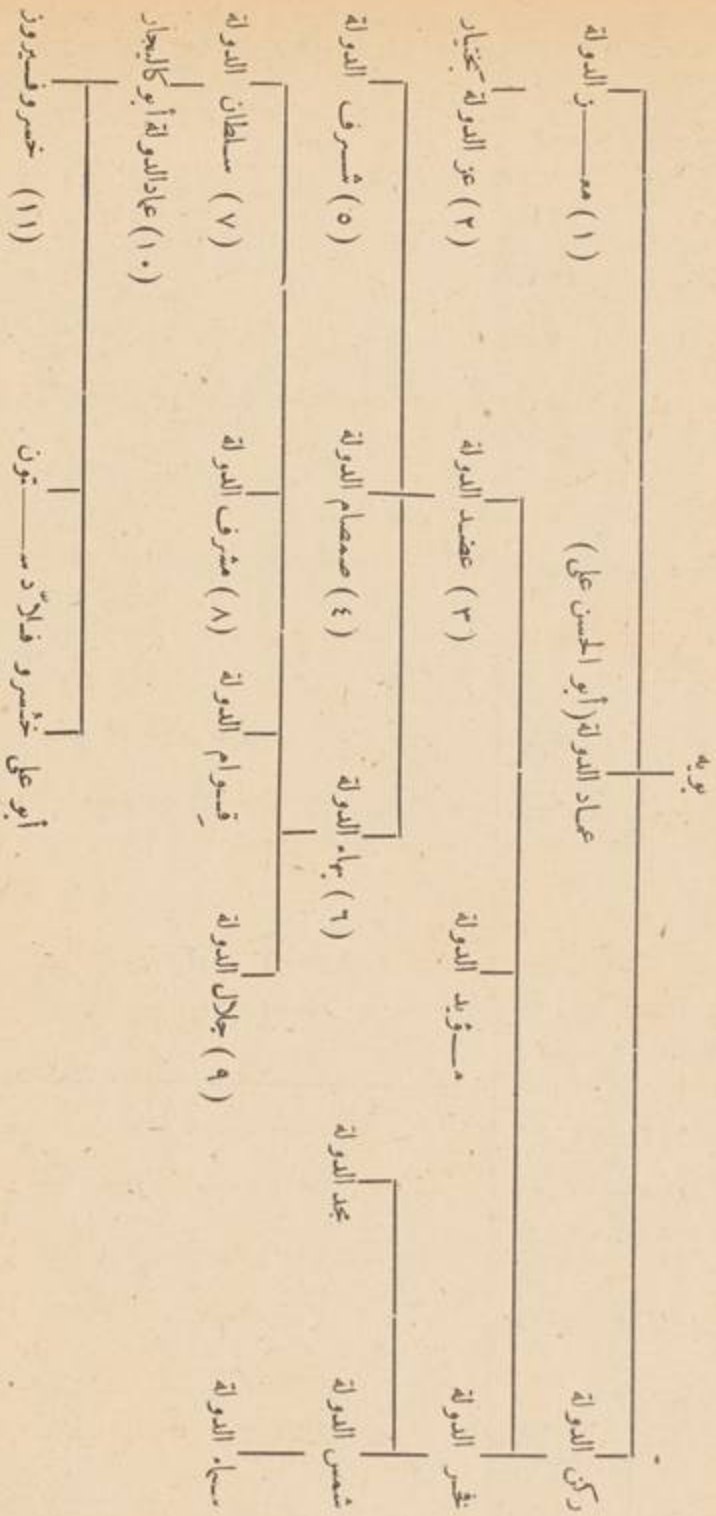
ميلاديه	هجريه	
١٠١٢	٤٠٣	(١) قوام الدولة (أبو الفوارس)
١٠٢٨	٤١٩	(٢) عماد الدين (في فارس)
١٠٥٦ - ١٠٤٨	٤٤٠ - ٤٤٨	(٣) أبو منصور قتلادستون

٣ - في الرِّيِّ وَهَمْدَانَ وَأَصْبَهَانَ

ميلاديه	هجريه	
٩٣٢	٣٢٠	(١) ركن الدولة أبو علي حسن
٩٨٣ - ٩٧٦	٣٦٦ - ٣٧٣	(٢) مؤيد الدولة أبو منصور (أصبهان فقط)
٩٧٦	٣٦٦	(٣) نغر الدولة أبو الحسن علي (ضم أصبهان سنة ٩٧٣م)
١٠٢٩ - ٩٩٧	٣٨٧ - ٤٢٠	(٤) مجد الدولة أبو طالب رستم (عزله محمود الغزنوي)
٩٩٧	٣٨٧	(٥) شمس الدولة أبو طاهر (همدان فقط)
- ١٠٢١	- ٤١٢	(٦) سماء الدولة أبو الحسن
١٠٢٣	٤١٤	(عزله ابن كاكويه)



جدول يمثل تسلسل أمراء بني بويه في الحكم (١)



(١) نقل عن Stanley Lane-Poole : Muhammadan Dynasties, p. 144



٣ — بنو بويه قبل استيلائهم على بغداد:

دخل بنو بويه في زِي الأجناد. وسرعان ما ارتقى علي بن بويه وأخوه الحسن إلى مرتبة الأمرام في جيش ما كان بن كالي. فلما قام النزاع بينه وبين مرداويج بن زبار، الذي خرج على أسفار ابن شيرويه، واستولى على كل بلاد جرجان وطبرستان وقسزوين وزنجان وقشم والكرج<sup>(١)</sup>، زاد نفوذه حول سنة ٣٢٠هـ (٩٣٢م)، وتحجبت إلى الرعية فأحبته، وعمل له سريراً من ذهب يجلس عليه، وسريراً من فضة يجلس عليه أكبر قواده، وامتدت سلطته إلى حدود العراق، وأسس الدولة الزيارية، وأراد أن يستولى على بغداد، وينقل الدولة إلى الفرس ويبطل دولة العرب<sup>(٢)</sup>.

ولما رأى أولاد بويه أن كفة مرداويج آخذة في الرجحان انحازوا إليه، وسر مرداويج أول الأمر بانحيازهم، وولى علي بن بويه بلاد الكرج<sup>(٣)</sup>. إلا أن مرداويج لم يلبث أن خشي خطرهم، فأعاد إلى الخليفة مدينة أصهبان التي كان قد فتحها باسمه أحمد بن بويه، وجلب على نفسه بذلك عداوة البويهيين<sup>(٤)</sup>؛ ثم أرسل إلى أخيه وشمكير في الري يأمره بصرف أولاد بويه إذا ما وصلوا إليه، فصرههم إلا علي بن بويه لما رآه فيه من الكرم وحسن التدبير، وساعده على الخروج سرّاً أبو عبد الله الحسين بن محمد الملقب بالعميد والد أبي الفضل بن العميد وزير ركن الدولة المشهور. ومضى علي بن بويه إلى بلاد الكرج وآل إليه حكمها. يقول مسكويه<sup>(٥)</sup>: «وكتبت لهم اليهود ووردوا الري وبها وشمكير وأبو عبد الله الحسين بن محمد الملقب بالعميد، وكان ناظراً في الأمور بالري، فعرضت عليه بغلة حسنة كانت لعلي بن بويه أراد بيعها والاستعانة بشمها، وكان مئتمناً ثلاثة آلاف درهم قيمتها مائتي (كذا في الأصل وصحتها مائتا) دينار، فاشترها وحمل المال إليه، فظهر لعلي بن بويه أنها تشتري لأبي عبد الله العميد، وحلف ألا يأخذ مئتمناً، ثم تابع ذلك بملاطفت كثيرة إلى أن غمره بالبر. ثم أوجب الرأي عند مرداويج أن يتعقب ما أمر به من تولية أولئك القواد، وكتب إلى أخيه وشمكير وإلى أبي عبد الله العميد بمنعهم من الخروج من الري — وإن كان بعضهم خرج مُسَمَّعاً من بقي — وكانت الكتب تصدر أولاً إلى العميد فيقف عليها، ثم تعرض على وشمكير جُسمَلها. فحين وقف على الكتاب تقدم إلى علي بن بويه سرّاً أن يبادر إلى عمله، فسار من وقته وساعته وطوى المنازل، وأصبح العميد من الغد فأظهر الكتاب، فلما عرضها على وشمكير، كان قد صار علي بن بويه على مسافة بعيدة، فنع من لم يكن خرج من أولئك القواد؛ وفاز علي بن بويه بالولاية التي كانت سبب ملكه وتمكنه».

(١) الكرج بفتح أوله وثانيه مدينة بين همدان وأصهبان.

(٢) الفخرى ص ٢٥١.

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١٠٠.

(٤) أنظر لفظ بويه في دائرة المعارف الإسلامية.

(٥) كتاب تجارب الأمم ج ١ ص ٢٧٨.

على أن الجولم يصف لعلي بن بويه ؛ فقد عوّل مرداويج على طرده من بلاد الكرج ، وأرسل جيشاً كبيراً لإخراجه منها ، فقصده أصبهان ، فلم يحسن صاحبها المظفر بن ياقوت لقاؤه ، فاضطر إلى محاربهه وانتصر عليه واضطره إلى الهرب إلى فارس الذي كان يلها أبوه ياقوت<sup>(١)</sup> ، وانضم إليه أربعمائة من الديلم ، فبلغ عدد جنده سبعمائة<sup>(٢)</sup> . ثم علم علي بن بويه بمسير وشمكير إليه فقصده أرجان<sup>(٣)</sup> ، واستخرج من مالها خراجاً يبلغ ألفي ألف درهم<sup>(٤)</sup> . ثم خاف أن يجتمع عليه مرداويج وشمكير ، فسار إلى إصطخر وانتصر على المظفر بن ياقوت ، ثم دخل شيراز ، وذلك سنة ٣٢٢ هـ<sup>(٥)</sup> .

أخذ علي بن بويه بعد ذلك يعمل على كسب رضا مرداويج ، فتملق نائبه ، وأقام الخطبة له ، وأهدى إليه كثيراً من الطرف ، وأنفذ إليه أخاه الحسن بن بويه رهينة ، فقلده أرجان<sup>(٦)</sup> . ثم تبع ذلك قتل مرداويج (سنة ٣٢٣ هـ) ، فاطمأن علي بن بويه من جهته ، ولم يبق أمامه إلا القضاء على مناوأة ياقوت الذي عاد إلى الظهور ، واتفق مع أبي عبد الله البريدي على طرده من شيراز ، فهزمه علي بن بويه بنواحي أرجان ، ودانت له بلاد فارس بالطاعة ، وطلب البريدي الصلح منه . أرسل علي بن بويه بعد ذلك إلى الخليفة الراضي يطلب اعترافه بسلطانه في فارس ، فأرسل إليه الخلع مع عيسى المالكي ، وأمره ألا يسلمها إليه إلا بعد أن يرسل ثمانية آلاف ألف درهم إلى بغداد ويتعبد بدفع مثلها كل سنة . ولكن ابن بويه احتال على الرسول وأخذ الخلع منه ، وماطله حتى مات سنة ٣٢٣ هـ بشيراز . يقول صاحب الفخرى<sup>(٧)</sup> : ثم عرضت مملكته حتى كتب إلى الراضي الخليفة يسأله أن يقاطعه على أعمال فارس في كل سنة بعد النفقات والإطلاقات بما يحمله إلى دار الخلافة ، وهو ثمانمائة ألف ألف درهم ، على أن يبعث الخليفة إليه بخلعة السلطنة والمنشور ، فبعث الراضي إليه بذلك على يد رسول أرسله إليه ، وأوصاه ألا يسلم الخلعة والمنشور إليه حتى يقبض منه المال . فلما وصل الرسول إليه غالطه وأخذ الخلعة منه فلبسها ، والمنشور فقرأه على رؤوس الأشهاد ، وقويت نفسه بذلك ، ووعد الرسول بالمال ودافعه مدة . فمات الرسول عنده وتقلب الأحوال بالخلافة ، فكسر المال واستبد بالأمر .

وبعد أن قضى علي بن بويه على ياقوت ، وملك أرجان ، وحصل على اعتراف الخليفة بسلطانه في فارس ، أصبح يخشى بأسه . ويقول ابن خيطان<sup>(٨)</sup> : وكان عماد الدولة سبب سعادتهم التامة

(١) مسكويه : كتاب تجارب الأمم ج ١ ص ٢٩٦ .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٩٣ حيث ترى اختلافاً في هذا العدد .

(٣) ذكر ياقوت في معجمه أرجان ( بفتح أوله وتشديد الراء وجم وألف ونون ) ، هي مدينة كبيرة كثيرة الخير تقع على بعد ستين فرسخاً من كل من شيراز والاهواز .

(٤) مسكويه ج ١ ص ٢٩٧ .

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٠٢ .

(٧) (٨) كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٦٤ .

(٧) ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

وانتشار صيهم ، واستولوا على البلاد ، وملكوا العراق والأهواز وفارس ، وساسوا أمور الرعية أحسن سياسة .

ولم يكن على بن بويه (عماد الدولة) هو وحده الذي سما إلى قمة المجد والعظمة من أولاد أبي شجاع بويه ؛ فقد فر أخوه ركن الدولة الحسن ، الذي كان رهينة عند مرداويج بعد قتله ، واستولى على أصهان والري وهمدان وبقية بلاد العراق العجمي ، واتخذ أبا الفضل بن العميد وزيراً له (١) ، كما نازع أحمد بن بويه (معز الدولة) على بن العباس على ولاية كرمان (٢) ، وانتصر عليه ، ولكنه تركها له مليياً دعوة أخيه على بن بويه لمعاونة البريدي على ابن رائق (سنة ٣٢٦ هـ) ، واستولى على الأهواز ، ثم دعاه الخليفة المتقي إلى دخول بغداد حين ساءت العلاقة بينه وبين توزون ، فسار إليها سنة ٣٣٢ هـ ، ولكن توزون هزمه قبل أن يصل إليها (٣) .

### معز الدولة (٣٣٤ - ٣٥٦ هـ) :

خلع مرداويج على أولاد بويه على ماتقدم ، وتمكن على بن بويه من مد سلطانه من بلاد الكرج إلى الأهواز ، وتولى أخواه السلطة في كل جهات فارس الجنوبية . ثم كاتبه قواد بغداد وطلبوا منه المسير إليهم والاستيلاء على هذه المدينة ، فقابله الخليفة المستكني واحتق به ، وخلع عليه ، ولقبه معز الدولة (٤) ، ولقب أخاه علياً عماد الدولة ، ولقب أخاه الحسن ركن الدولة ، وضرب ألقابهم على السكة ، ولقب المستكني نفسه إمام الحق ، وضرب ذلك على السكة . ومن ثم أصبح بنو بويه أصحاب الأمر والنهي في بغداد (٥) .

(١) ابن خلصكان ج ١ ص ٣٦٤ .

(٢) بفتح أوله وقد يكسر ، وسكون ثانيه وآخره نون ، ولاية مشهورة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان ، تقع مكران شرقها وفارس غربها وخراسان شمالها وبحر فارس جنوبها ، وهي بلاد كثيرة النخل والزرع والماشى ، تشبه البصرة في وفرة خيراتها . انظر لفظ كرمان في معجم البلدان لياقوت .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١١٩ - ١٢٠ ، ١٤٤ - ١٤٥ .

(٤) ذكر ابن خلصكان ( ج ١ ص ٥٦ ) أنه « كان يقال له الأقطع ، لأنه كان مقطوع اليد اليسرى وبعض أصابع اليمنى » .

(٥) ذكر ستانلي لينبول Stanley Lane-Poole : Muhammadan Dynasties, p. 140 أن الخليفة المستكني لم يلقب هؤلاء الأخوة الثلاثة بألقاب عماد الدولة ، وركن الدولة ، ومعز الدولة ، بل خلع على معز الدولة لقب « أمير الأمراء » الذي احتفظ به كثير من أفراد البيت البويهى فيما بعد . ويقول لينبول إن من الخطأ أن نقول إنهم تلقبوا بلقب سلطان ، لأنهم لم يتخذوا لأنفسهم هذا اللقب قط على السكة ، وإنما استعملوا ألقاب أمير وملك وغيب ، ومع ذلك فإن نفوذهم كان مطلقاً كنفوذ أى سلطان في بغداد . وكان الخلفاء في عهدهم أشبه بالأعرج ، وإن كانوا قد عاملوهم معاملة تنطوى في الظاهر على الإخلاس والولاء ، على الرغم من أن بنى بويه كانوا شيعيين مقالين في عقائد المذهب الشيعي .

على أننا قد عثرنا في كتاب السيرة المؤيدية للمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي ، وكان معاصراً لثلاثة من ملوك بنى بويه وم : جلال الدولة (٤٣٦ هـ) ، وأبو كاليبجار (٤٤٠ هـ) ، والملك الرحيم (٤٤٧ هـ) آخر =

وكان بنو بويه من الشيعة المغالين في عقائد هذا المذهب ، وكانوا — كما يقول سير توماس أرنولد (١) — « لا يعترفون بحق الخليفة العباسي السنّي في السيادة على جميع العالم الإسلامي » ، ولذلك لم يسلم الخلفاء العباسيون من عسف بنو بويه وسوء معاملتهم .

وقد أصبح بنو بويه في عهد هؤلاء الخلفاء مطلق التصرف في العراق ، ولم يتورعوا عن التعدي على أشخاص الخلفاء واتقاص حقوقهم (٢) . فإن معز الدولة لما دخل بغداد فكر في إزالة الخلافة العباسية وإقامة خلافة علوية مكانها ، ولكنه عدل عن هذه السياسة لما قد يتعرض له سلطانه من خطر ، بسبب وجود خلافة علوية ، بطبيعتها الجند ، ويعترف بها الدليم ، ويكونون أداة في يد الخليفة يستغلها لمصلحته متى شاء (٣) .

وقد ذكر ابن الأثير (٤) أن معز الدولة بعد أن أهان الخليفة المستكفي ، وقبض عليه وسمل عينيه ، وأجلس المطيع (٣٣٤-٣٦٣ هـ) على العرش من بعده ، أصبح هذا الخليفة الجديد ألعوبة في يده ، « فازداد أمر الخلافة إديارا ، ولم يبق لهم من الأمر شيء البتة . وقد كانوا يراجعون ويؤخذ أمرهم فيما يفعل ، والحرمة قائمة بعض الشيء . فلما كانت أيام معز الدولة زال ذلك جميعه ، بحيث أن الخليفة لم يبق له وزير ، إنما كان له كاتب يدير إقطاعه وإخراجاته لا غير ، وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يريد . وكان من أعظم الأسباب في ذلك أن الدليم كانوا يتشيعون ويقولون في التشيع ، ويعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها . فلم يكن عندهم باعث ديني يحثهم على الطاعة ، حتى لقد بلغني أن معز الدولة استشار جماعة من خواص أصحابه في إخراج الخلافة من العباسيين ، والبيعة للعرز لدين الله العلوي أو لغيره من العلويين ، فكلهم أشار عليه بذلك ، ما عدا بعض خواصه فإنه قال : ليس هذا برأى ، فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ؛ ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه . ومتى أجلست بعض العلويين خليفة ، كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لقتلوه ... فأعرض عن ذلك . فهذا كان من أعظم الأسباب في زوال أمرهم ونهبهم مع حب الدنيا

== ملوك بني بويه في العراق ، أن بني بويه كانوا يلقبون بألقاب متعددة منها : لقب « شاهنشاه العظيم ملك الملوك محي دين الله وغيث عباد الله ... سلطان الدولة ، معز أمير المؤمنين ، وبتين خليفة الله » ، كما كانوا يلقبون أحيانا بلقب أمير الأمراء .

انظر كتاب السيرة المؤيدية ، مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول ، رقم ٢٦٠٥٦ عربي ، ورقة ١١٤ .

(١) The Caliphate, p. 61

(٢) Hitti : History of the Arabs, p. 411

(٣) Noéldeke, Sketches from Eastern History, p. 88.

(٤) ج ٨ ص ١٦٢ .

وطلب للتفرد بها . وتسلم عز الدولة العراق بأسره ، ولم يبق بيد الخليفة منه شيء إلا ما أقطعه معز الدولة مما يقوم ببعض حاجته .

« ونحن نميل إلى ترجيح صحة هذا القول ؛ فقد انتصح بنو بويه بهذا النصح ، فعدلوا عن تحويل الخلافة إلى العلويين . » (١) ولكن بما لا ريب فيه أن بنى بويه كانوا على اتصال بالفاطميين ، وأنهم سمحوا لدعاة خلفائهم بنشر عقائد مذهبهم في بلاد العراق وغيرها من البلاد التي كانت خاضعة لنفوذ بنى بويه .

ومهما يكن من شيء فقد أجلس المطيع على عرش الخلافة ، وحدد له معز الدولة إقطاعات يسيرة يعيش منها ، كما عين له كاتباً يتصرف في شئونها (٢) . هذا ما ذكره الأستاذ سير توماس أنولد . وقد زاد مسكويه (٣) هذه المسألة وضوحاً فقال ، إن هذا التضييق على الخليفة المطيع لم يستمر طويلاً ، فإنه بعد أن استتب الأمر لمعز الدولة ببغداد زاد (سنة ٣٣٥ هـ) في التوثق من أمير المؤمنين المطيع لله ، فاستحلفه يمين عظيمة ألا يتغيب عن معز الدولة ولا يبغيه سوءاً ، ولا يمالى له عدواً ، فلما حلف أزال عنه التوكيل وعاد إلى دار الخلافة .

ولم يكن هذا كل ما قام به معز الدولة لتقوية نفوذه وإضعاف سلطة الخليفة ، فقد عين ابنه أبا منصور بختيار أميراً للأمرء في سنة ٣٤٤ هـ (٤) .

وكان لسياسة بنى بويه أسوأ الأثر في العراق ، فقامت الفتن الطائفية ، وثار الجند كل في وجه الآخر ، وانتشرت الفوضى وعم الاضطراب ، وساد الفرع قلوب الأهلين . فقد أدى تعصب بنى بويه للشيعة أنهم أرغموا أهل السنة على الاشتراك في أعياد الشيعة .

ولم تنقطع هذه الثورات في أواخر عهد الخليفة المطيع ، فان أهل السنة نهبوا حوانيت الكرخ بعد أن هاجموا الأحياء الشيعة تحت قيادة امرأة تركب جملاً ، كما فعلت السيدة عائشة في واقعة الجمل . ويقول ابن الأثير (٥) : في حوادث سنة ٣٦٢ هـ : احترق الكرخ حريقاً عظيماً . وسبب ذلك أن صاحب المعونة قتل عامياً ، فثار به العامة والأترك ، فهرب ودخل دار بعض الأتراك ، فأخرج منها مسحوباً ، وقتل وأحرق ، وفتحت السجون فأخرج من فيها ، فركب الوزير . . . لأخذ الجناة ، وأرسل حاجباً له يسمى صافياً في جمع لقتال العامة بالكرخ ، وكان شديد العصية للسنية ، فألقى النار في عدة أماكن من الكرخ ، فاحترق حريقاً عظيماً . وكان عدة من احترق سبعة عشر ألف إنسان وثلاثمائة دكان وكثير من الدور وثلاثة وثلاثين مسجداً ، ومن الأموال مالا يحصى .

(١) الفاطميون في مصر للمؤلف ص ١٠٥ .

(٢) Annold : Preaching of Islam, p. 62

(٣) كتاب تجارب الأمم ج ٢ ص ١٠٥ — ١٠٦ .

(٤) مسكويه : كتاب تجارب الأمم ج ٢ ص ١٥٨ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣١٢ .

(٥) ج ٨ ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

ومما يدل على عمالة معز الدولة ومن جاء بعده من بني بويه للشيعة هذه الحكاية التي نقلها عن السيوطي (١) : « وفي سنة إحدى وأربعين (وثلاثمائة) ظهر رجل من التناسخية ، فيهم شاب يزعم أن روح عليّ انتقلت إليه ، وامرأته تزعم أن روح فاطمة انتقلت إليها ، وآخر يدعى أنه جبريل ، فضربوا ، فعززوا بالانتماء إلى أهل البيت ، فأمر معز الدولة باطلاقهم لميله إلى أهل البيت ، فكان هذا من أفعالهم الملعونة . »

وفي سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة كتب عامة الشيعة ببغداد بأمر معز الدولة على المساجد ما هذه صورته : لعن الله معاوية بن أبي سفيان ولعن من غصب فاطمة رضي الله عنها فدكا ، ومن منع أن يدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام ، ومن نفى أبانر الغفاري ، ومن أخرج العباس من الشورى . فأما الخليفة فكان محكوماً عليه لا يقدر على المنع ، وأما معز الدولة فبأمره كان ذلك . فلما كان الليل حكاه بعض الناس ، فأراد معز الدولة إعادته ، فأشار عليه الوزير أبو محمد المهلبى بأن يكتب مكان ما يحى : لعن الله الظالمين لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يذكر أحداً في اللعن إلا معاوية ، ففعل ذلك . وفي يوم عاشوراء من سنة اثنتين وخمسين (وثلاثمائة) ألزم معز الدولة الناس بعلق الأسواق ومنع الطباخين من الطبخ ، ونصبوا القباب في الأسواق ، وعلقوا عليها المسوح ، وأخرجوا نساء منتشرات الشعور يلطمن في الشوارع ويقمن المأتم على الحسين . وهذا أول يوم نيج عليه ببغداد ، واستمرت هذه البدعة سنين (٣) .

#### ١ - إقرار نفوذ معز الدولة في العراق :

لم تقتصر سياسة معز الدولة على الحد من نفوذ الخليفة العباسي ، بل عمل أيضاً على إقرار نفوذه في البلاد التابعة للدولة العباسية . فتراه يعمل على إضعاف الحمدانيين في الموصل ، ويرسل إليها في سنة ٣٣٤ هـ جيشاً لمحاربة ناصر الدولة بن حمدان الذي انتهز فرصة خروج معز الدولة بصحبة الخليفة المطيع ، ولقيهما في عكبرة القريبة من سامرا . وهنا لحق بالحمدانيين ابن شيرزاد ، الذي تقلد منصب أمير الأمراء قبيل دخول بني بويه ببغداد ، على رأس جيش من الأتراك أنصار توزون ، ثم سار ابن شيرزاد على رأس هذا الجيش ، واستولى على بغداد وحكمها باسم ناصر الدولة الحمداني . ثم سار ناصر الدولة إلى بغداد وأقام بها ، وسار معز الدولة إلى تكريت ، وكانت تحت نفوذ الحمدانيين ، ونهبها ، وعاد بصحبة الخليفة إلى بغداد ونزلا بالجانب الشرقي ، وكان ناصر الدولة وابن شيرزاد قد نزلا بالجانب الغربي منها . ولم يذكر اسم الخليفة العباسي المطيع على منابر بغداد في ذلك الوقت . ثم قامت الحرب بين الفريقين في بغداد ، وحال أنصار ناصر الدولة دون وصول الميرة إلى جند معز الدولة ، وأبطل السكة

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ١٩٥ .

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٦٦ .

التي تحمل اسم الخليفة المطيع ، وضرب السكة باسم المتقى على النحو الذي ضربت به في سنة ٥٣٣١ هـ . واستمرت الحرب أربعة أشهر ، حتى تمكن معز الدولة بدهاته من طرد الحمدانيين من بغداد وإعادة الخليفة إلى داره . واستقر معز الدولة ببغداد ، على حين سار ناصر الدولة إلى عكبرة . ويقول ابن الأثير (١) : « وأقام ناصر الدولة بعكبرة وأرسل في الصلح بغير مشورة من الأتراك التوزونيسة ، فهموا بقتله ، فسار عنهم مجدداً نحو الموصل ، ثم استقر الصلح بينه وبين معز الدولة في المحرم سنة خمس وثلاثين (وثلاثمائة) » .

على أن ذلك الصلح لم يطل أمــــده ، فقد عول معز الدولة على أخذ البلاد الواقعة تحت نفوذ الحمدانيين ، فسار في شهر رمضان سنة ٥٣٣٧ هـ واستولى عليها ، ولكن اضطراب الأمور في خراسان قد حال دون تحقيق هذه السياسة ، واضطر إلى إبرام الصلح مع ناصر الدولة على أن يؤدي عن الموصل والجزيرة والشام ثمانية آلاف ألف درهم ، وأن يخطب في بلاده لعهد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة وأولاد بويه (٢) . بيد أن تلك العلاقة الجديدة لم تستقر بين بني بويه والحمدانيين ، بل أخذ النزاع يدب بينهم من حين إلى حين على ما سنرى عند كلامنا على الدولة الحمدانية .

كذلك عمل معز الدولة بن بويه على إخضاع البريديين لسلطانه حتى يصفو له الجو في بلاد العراق ، فعول على انتزاع البصرة من أبي القاسم عبد الله بن أبي عبد الله البريدي ، وصحب معه الخليفة المطيع . ويقول مسكويه (٣) عند كلامه على حوادث سنة ٥٣٣٦ هـ ، إن معز الدولة والخليفة سارا إلى البصرة واستوليا عليها ، وكان أبو القاسم البريدي قد هرب إلى هجر قاعدة القرامطة الأساسية . وكان هن أثر استيلاء معز الدولة على البصرة أن انخفضت الأسعار في بغداد ، وقام النزاع بين معز الدولة والقرامطة ، وقبض معز الدولة على جميع قواد البريدي بالبصرة ، واستخرج أمواله وودائعهم ، وقبض خزائنه ، وأحرق كل ما وجد له من آلات الماء من الشدائد (٤) والطيارات (٥) والزبازب (٦) ، واستدعى لؤلؤاً (أحد قواده) من بغداد فقلده أعمال البصرة والحرب .

أما علاقة بني بويه بالقرامطة فقد تقلبت في أدوار مختلفة . وقد رأينا معز الدولة لا يحفل بتهديدات القرامطة ، وعبر الصحراء التي ادعى القرامطة أنها تحت نفوذهم ، وتحذوه ورحبوا بأبي القاسم البريدي حين لجأ إليهم هرباً من معز الدولة . ويقول مسكويه (٧) : « فلما صاروا في البرية ورد على علي الأمير معز الدولة رسول المهجرين القرامطة بكتاب منهم إليه بالإنكار عليه في سلوك البرية من غير أمرهم إذ كانت لهم ، فلم يجب عن الكتاب وقال للرسول : قل لهم : ومن أنتم حتى تستأذنوا في سلوك البرية ؟ وكانني أقصد البصرة ، إنما قصدى بلدكم ، واليكم بعد فتحي إياها ، وستعرفون خبركم » .

(١) ج ٨ ص ١٦٢ - ١٦٣ و ١٦٧ . (٢) مسكويه ج ٢ ص ١١٥ - ١١٦ .

(٣) ج ٢ ص ١١٢ . (٤) الشدائد جمع شذاة وهي سفينة معدة لنقل الحيوانات .

(٥) الطيار فرس ريسان الحولاني ، وقد اشتهر بسرعة العدو . والمراد هنا نوع من السفن السريعة .

(٦) الزبازب جمع زبب دابة كالسنور سريعة العدو . والزبب ضرب من السفن .

(٧) كتاب تجارب الأمم ج ٢ ص ١١٢ .

على أن معز الدولة لم يتفد تهديده ووعيده للقرامطة ، بل نراه يستخدمهم في جيوشه ، ويقيم علاقته بهم على أساس من المودة . بيد أن القرامطة كثيراً ما كانوا ينضمون إلى أعداء بني بويه إذا رأوا في انضمامهم فائدة تعود عليهم . ففي سنة ٣٤١ هـ نراه ينضمون إلى أمير عمان في الثورة التي أذكي نيرانها في وجه معز الدولة بن بويه . ذلك أن ابن وجيه والي عمان لما أدرك فساد العلاقات بين القرامطة ومعز الدولة بن بويه استعان بهم ومناهم فتح البصرة ، وثاروا جميعاً على معز الدولة وكادوا يستولون عليها في سنة ٣٤١ هـ . ومن ذلك نرى أن معز الدولة لم يستطع التنبيل من القرامطة أو تحقيق سياسته التي كانت ترمى إلى القضاء عليهم .

ولا غرو ، فإن القرامطة لم يلبث أن امتد نفوذهم في عمان ، واتهمزوا انقسام زعماء هذه البلاد بعضهم على بعض ، وثورة الأهالي عليهم ، فرصة لتثبيت أقدامهم فيها ، فأعد معز الدولة جيشاً سار حملة في مائة مركب ، فلما وصلوا إلى سيراف انضم إليهم الجيش الذي جهزه عضد الدولة من فارس بجدة لعنه معز الدولة . فاجتمعوا وساروا إلى عمان ، ودخلها تاسع ذى الحجة ، وخطب لمعز الدولة فيها ، وقتل من أهلها مقتلة عظيمة ، وأحرقت مراكبهم وهي تسعة وثمانون مركباً (١) .

ترجع معز الدولة بن بويه على دست السلطنة في بغداد اثنين وعشرين سنة ( ٣٣٤ - ٣٥٦ هـ ) ، استأثر فيها بالسلطة دون الخليفة الذي لم يعد له من الخلافة إلا اسمها ، ومد نفوذه على جميع بلاد العراق وخطب له في عمان . وكانت علاقته بأخويه عماد الدولة علي في فارس ، وركن الدولة حسن في الري وهمذان وأصبهان تقوم على أساس متين من المودة والصفاء . وما زال معز الدولة يعمل على تحقيق سياسته حتى اعتراه المرض الذي مات منه وهو في طريقه لحرب صاحب البطائح على مقربة من البصرة ، فسار إلى واسط ومنها إلى بغداد حيث وافته المنية في شهر ربيع الآخر سنة ثلثمائة وست وخمسين ، وهو في الثالثة والخمسين من عمره ، خلفه ابنه أبو منصور بختيار ، الذي تلقب بلقب عز الدولة ، وكان أبوه قد عهد إليه بالسلطنة من بعده حين شعر بدنو أجله (٢) .

## ٢ - بختيار ( ٣٥٦ - ٣٦٧ هـ ) :

كان معز الدولة بن بويه ملأ بأحوال الدولة العباسية ، فعمل على دفع الخطر عنها ، وأمن شر أعدائه البريديين والحمدانيين وغيرهم كما تقدم . فلما شعر بدنو أجله أوصى ابنه عز الدولة بختيار باليقظة والتحرز من ناحية أعدائه ، وخاصة من ناحية الأتراك الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من جنده ، وأن يجريهم على أرزاقهم ، كما أوصاه بمدارة الديلم ليكتفي خطرهم ، وبطاعة عمه ركن الدولة والرجوع إليه في الأمور الهامة ، وطاعة ابن عمه عضد الدولة لأنه أكبر منه سناً وأكثر تجربة وأحذق بالسياسة ، كما أوصاه بإقرار كاتبيه أبي الفضل العباس بن الحسين وأبي الفرج محمد بن العباس لإخلاصهما وكفائتهما .

(٢) مسكويه ج ٢ ص ٢٣١

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٤



ولكن عز الدولة بختيار لم يعبا بنصائح آبيه ولم يسر على وفق السياسة التي رسمها له ، بل انصرف إلى اللهو واللعب ومعاشرة النساء ، وأثار سخط كائنيه وفرق بينهما ، وطمع في إقطاعات كبار حاشيته وخاصة سبكتكين ، وكان معز الدولة يثق به ويعتمد عليه ، فأشار على بختيار ألا يقطع أمراً دونه لحسن سياسته وتمكن هيئته من قلوب الجنود .

ولم يكتف عز الدولة بختيار بهذا ، بل أخذ يتاوى ابن عمه عضد الدولة وترك استشارة عمه ركن الدولة ، ونفى كبار الديلم طمعاً في أموالهم . ويقول مسكويه (١) : « وأما كبار الديلم ووجوههم ، فإنه نفاهم من مملكته طمعاً في إقطاعاتهم وأموالهم وأموال المتصلين بهم ، فتبسط أصاغرهم واستلأنوا جانبيه وتحالفوا عليه وطالبوه بزيادة في رسومهم ، واضطر إلى النزول على حكمهم ثم عجز عن إرضائهم . وأما الأتراك فإنهم نظروا إلى ما تم للديلم من التحكم ، فعملوا مثل عملهم من الاشتطاط والتسحب والمواجهة بالمخاطبة الغليظة ، واضطر إلى التديير عليهم والراحة منهم . وابتدأ بسبكتكين ، وكان متحرزاً متيقظاً ، فإتم له عليه شيء من تدييراته ، فتنزب الأتراك وصاروا يبدأ واحدة . وتحركت الأحقاد والحفاظ التي كانت في نفوس الديلم على معز الدولة ، فبرزوا إلى الصحراء مع الأسلحة والجن ، وساموه أن يثبت من أسقطه معز الدولة ، وأن يعطيهم أرزاقهم ويعجل لهم رزقاً منسوبة إلى البيعة غير محسوبة ، فجمع بختيار الأتراك إلى داره مع أسلحتهم ليعتصم بهم ، وترك الديلم في الصحراء ثلاثة أيام ، فغاظهم ذلك وازدادوا تباعداً في الاشتطاط عايه وفي الاشتداد بالمطالبة ، إلى أن نزل على بعض حكمهم وأعطاهم ثلث رزقه غير محتسب به . »

أما سبكتكين فإنه لما رأى انصراف عز الدولة بختيار عنه وطمعه في إقطاعاته وأمواله ، انقبض عنه ، فصار لا يركب إليه ولا يثق به ، واقتصر على التراسل على أيدي المتوسطين . وكان لسبكتكين أصحاب أخبار في المعسكر ، وفي دار بختيار خاصة ، وله عيون وجواسيس من خاصة حاشيته وبطائه ، فكان لا يخفى عليه شيء من حركاته (٢) .

وقد سامت حالة الدولة العباسية في أواخر عهد الخليفة المطيع . وكل ذلك لسوء نظر بختيار وإهماله الأمور ، وإقباله على الشهوات واستثقاله مباشرة التديير ، حتى سقطت الهيبة وانبسطت العامة وأغار بعضها على بعض .

ويقول مسكويه (٣) : « وظهرت الأهواء المختلفة والنيات المتعادية ، وفشا القتل حتى كان لا يعدم في كل يوم عدة قتلى لا يعرف قاتلهم . وإن عرفوا لم يتمكن منهم ، فانقطعت مواد الأموال ، وخربت النواحي المتباعدة بخراب دار المملكة ، وظهر في كل قرية رئيس منها مستول عليها ، وتباغوا بينهم ، وحصل السلطان صفر اليد ، والرعية هالكون والدور خراب والآفوات معدومة

(١) ج ٢ ص ٢٣٥ - ٢٣٦

(٢) مسكويه ج ٢ ص ٢٣٥

(٣) ج ٢ ص ٣١٤

والجنود متهارجون . ثم سعى ابن بقرية في الصلح بين بختيار وسبكتكين ، وسرعان ما عادا إلى التنافر .

وفي عهد بختيار استولى الفاطميون على مصر سنة ٥٣٥٨ هـ ، وقطعت الخطبة للخليفة العباسي ، وذكر اسم الخليفة الفاطمي محله ، وأدخل الخطباء في مساجد مصر عبارة : اللهم صل على محمد المصطفى ، وعلى علي المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول ، الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً . اللهم صل على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين ، الهادين المهديين . وفي سنة ٥٣٦ هـ أدخل المؤذنون بدمشق في الأذان عبارة : حتى على خير العمل (١) .

#### الخليفة الطائع وبشو بويه :

وسرعان ما عزل الخليفة المطيع . قال السيوطي (٢) : « وفي هذه السنة ، أعني سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ، حصل للمطيع فالج ، ونقل لسانه ، فدعاه حاجب عز الدولة (بختيار) الحاجب سبكتكين إلى خلع نفسه وتسليم الأمر إلى ولده الطائع لله ، ففعل ، وعقد له الأمر في يوم الأربعاء ثالث عشرين ذي القعدة . فكانت مدة خلافة المطيع تسعاً وعشرين سنة وأشهرًا . . . وصار بعد خلعها يسمى الشيخ الفاضل . قال الذهبي : « وكان المطيع وابنه مستضعفين مع بني بويه ، ولم يزل أمر الخلفاء في ضعف إلى أن استخلف المقتدى لله (٥٣٠ - ٥٥٥ هـ) فانصلح أمر الخلافة قليلاً . وكان دست الخلافة لبني عبدة الرافضة بمصر أميز ، وكلمتهم أنفذ ، ومملكتهم تناطح مملكة العباسيين في وقتهم . ولما ولي الطائع الخلافة كانت أمور الدولة العباسية مضطربة غير مستقرة : فالشيعة في نزاع متصل مع أهل السنة ، والجنود من الأتراك والديلم وغيرهم يلحون في طلب أرزاقهم ، وأصحاب الإقطاعات التي اغتصبها بختيار حانقون ساخطون يتربصون الدوائر للنيل منه . ولم ير بختيار بدأ من الاستنجد بعمه ركن الدولة في الري وهمذان وأصبهان وابن عمه عضد الدولة في فارس ، كما كتب إلى أبي تغلب بن حمدان بطلب معوته .

ومن هذه الرسالة التي بعث بها سبكتكين إلى بختيار ينصح له فيها بتقويم حاله واستصلاح أمره ، ويطلب إليه تقسيم البلاد بينهما ، نرى مدى الضعف الذي وصلت إليه الدولة العباسية في أوائل عهد الخليفة الطائع ، وذلك في عهد سلطنته عز الدولة بختيار . وهاك ما أورده مسكويه (٣) في هذا الصدد : « ثم إن سبكتكين راسل بختيار : بأنك قد جنيت على نفسك جناية عظيمة بما ارتكبتها ودبرته ، وأن كل ما عمله وتصرف فيه خطأ وغلط ، وأن الأمر الآن قد خرج عن اليد . فأفرج لي عن واسط حتى تكون هي وبغداد في يدي بإزاء أموال الأتراك التي قد حصلت علي ، وتسكون

(١) المقرئزي : تعاضد الخلفاء ص ٧٧ ، حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ١٢٢ و ١٢٥ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٦٨ .

(٣) كتاب تجارب الأمم ج ٢ ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

البصرة والأهواز ونواحيها في يدك بازاء أموال الديلم . واجعل أمرى وأمرك واحداً ، ولا تدخلن  
بيننا أحداً ، ولا تفتح للحرب باباً فلست من رجالها . وأنا ناصح لك مشفق عليك ، حافظ وصية  
مولاي فيك التي ما حفظت مثلها في . فعرض بختيار هذه الرسالة على الديلم ، فأنكروها وأكبروها ،  
واستخفوا بقائلها والتحمل (كذا في الأصل) له وردوه بالخيبه والمناذرة ، فجدد سبكتكين  
واستعد للحرب .

وكان من أثر تفاهم العلاقة بين بختيار من ناحية وبين سبكتكين والخليفة الطائع من ناحية أخرى ،  
أن قامت الحرب بين الفريقين في المحرم سنة ٣٦٤ هـ (١) . وفيها خرج الخليفة الطائع ومعه سبكتكين  
من بغداد في المحرم يريدان واسطاً لقتال بختيار . فمات الخليفة المطيع الفضل في يوم الاثنين لثمان  
بقرين من المحرم . وكان المطيع قد خرج مع ولده الخليفة الطائع يريد واسطاً ، فردده ولده في تابوت  
إلى بغداد فدفن بها ، ثم مات سبكتكين بعده بيوم واحد ، فحمل أيضاً إلى بغداد . وكان أصل  
سبكتكين من مماليك عز الدولة الأتراك . وخلع عليه الخليفة الطائع بالإمارة عوضاً عن أستاذه عز  
الدولة ، وخرج لقتاله فمات . وكانت مدة إمارته شهرين وثلاثة عشر يوماً (٢) .

وكان الطائع قد خلع على سبكتكين ؛ ويقول السيوطي (٣) : « خلع من الغد على سبكتكين خلع  
السلطنة ، وعقد له اللواء ولقبه نصر الدولة ، فدعا سبكتكين الأتراك لنفسه ، فأجابوه ، وجرى  
بينه وبين عز الدولة حروب . »

على أن عز الدولة بختيار لم يرَ بدأ من الاستنجدابن عمه عضد الدولة ، وكانت الغلبة لعز الدولة  
وعضد الدولة . ولكن عضد الدولة لم يرع لابن عمه حرمة ، فاتصل سرأً بجند بختيار وشجعهم  
على طلب أرزاقهم ، وحث بختيار من ناحية أخرى على مقاومتهم والضرب على أيديهم ، واتخذ من  
حقد الخليفة الطائع وكرهته لبختيار فرصة للوصول إلى السلطنة ، فقدم عضد الدولة بعارة دار  
الخلاقة وتطريتها وتجديد فرشها وآلتها وترتيب أسباب الخدمة فيها ، والتزم في ذلك مالا جليلاً ،  
وأخرج الجيش إليه متلقين ، واستقبله بنفسه يوم الجمعة لثمان خلون من رجب سنة أربع وستين  
(وثلاثمائة) . . . وأنفذ عضد الدولة إلى خزائنه مالا كثيراً وثياباً وفرشاً جليلاً من جميع الأصناف ،  
وعدة من الخيل والمراكب والرقيق ، وقرر يده في ضياع الخدمة المرسومة للخلفاء ، وقد كانت  
متشذبة قد تحسبها أسباب معز الدولة ، ثم أسباب بختيار ، ومنهم من تغلب على حدودها ، ومنهم  
من استقطع الخليفة بعضها ، ومنهم من ضمن ما لا ينصفه من نفسه فيه . ولم يسول لإخراج يده عنه ،  
فرد عضد الدولة ذلك كله إلى حقه ، فأمر الطائع بالله بإنشاء السكتب عنه إلى النواحي باستقامة

(١) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٣٢ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٠٨ .

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٦٩ .

أحوال السلطان وتعفتى آثار الفتنة ، وتألف الشمل ، وكتبت وفرقت في الممالك كلها ، (١) .  
وقد حفظ الخليفة الطائع لعضد الدولة صنيعة فقربه إليه ، وعقد في نفس هذه السنة (٣٦٤ هـ)  
على ابنته علي صداق مبلغه مائتا ألف دينار (٢) . ويحدثنا ابن العميد (٣) أنه تزوج بها في سنة  
سبعين وثلثائة .

ضعف شأن عز الدولة بختيار الذي عزله جنده من الأتراك بإيعاز عضد الدولة . ولولا تدخل  
أبيه ركن الدولة لآلت السلطنة إليه . يقول ابن العميد (٤) : « ولما استقرت قدم عضد الدولة  
ببغداد ، قبض على ابن عمه عز الدولة (بختيار) وعلى أستاذ جيشه ، وذلك لخمس بقين من جمادى  
الآخرة (سنة ٣٦٤ هـ) ، وكتب إلى والده ركن الدولة يخبره بذلك ، فأنكر عليه غاية الإنكار ،  
وكتب إليه يهدده بالمسير إليه إن لم يرد عز الدولة ابن عمه إلى ولايته . فأطلق عضد الدولة ابن عمه  
عز الدولة إلى ولايته بعد أن استحلفه أن يكون نائباً عنه بالعراق ، ولا يخالف أمره ولا أمر ركن  
الدولة ، واستحلفه على ذلك الطائع لله ، واستحلفه عضد الدولة لنفسه ولأبيه ركن الدولة ، وتوجه  
عضد الدولة إلى فارس . وكان من أثر ذلك أن تزوج الخليفة الطائع لله بنت الأمير عز الدولة  
بختيار على صداق قدره مائة ألف دينار .

على أن عضد الدولة كان شديد الرغبة في الاستيلاء على بغداد والاستئثار بالسلطنة دون بختيار .  
فلما توفي أبوه ركن الدولة في سنة ٣٦٦ هـ ، قصد العراق وحارب بختيار في واسط ، وانتصر عليه  
وأرغمه على الفرار من بغداد ، فقصد الحمدانيين في الموصل ، واستعان بأبي تغلب بن حمدان ، والتقى  
الجيشان بنواحي تكريت . ولكن الهزيمة حلت بعز الدولة بختيار ، وأسر وسبق إلى بغداد ، فقتله  
عضد الدولة (٥) .

وقد ذكر ابن الأثير (٦) أن عضد الدولة قتل أيضاً ابن بقية وزير عز الدولة وصلبه ، فرثاه أبو  
الحسين الأنباري بقصيدة مطلعها :

علو في الحياة وفي الممات لحق أنت إحدى المعجزات

كان عز الدولة بختيار — على ما وصفه ابن العميد (٧) — ملكاً شهماً جلدأ قوى الجسم والقلب ،  
فيقال إنه كان يصرع الثور بيديه من غير أعوان ولا حيال (في الأصل والأحبال) ، يقبض على

(١) مسكويه : كتاب تجارب الأمم ج ٢ ص ٣٤٤ .

(٢) أبو المحاسن : كتاب النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٣٥ .

(٣) كتاب تاريخ المسلمين ص ٢٣٨ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

(٥) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ و ٢٥٠ .

(٦) ج ٨ ص ٢٤٩ .

(٧) تاريخ المسلمين ص ٢٣٦ .

قوائمه وبطرحه على الأرض . وكان يُبرز الأسود ويصيدها ( في الأصل ويصيدهم ) . وكان  
كرما شجاعا .

٣ - عضد الدولة<sup>(١)</sup> ( ٣٦٧ - ٣٧٢ هـ ) :

بذلك صفا الجو لعضد الدولة في العراق في سنة ٣٦٧ هـ ، وخلق عليه الخليفة ( الطائع ) الخلع  
السلطانية ، وتوجه وطوقه وسوّده ، وعقد له لوازم بيده ، وولاه ماوراء بابه<sup>(٢)</sup> . ولكن العلاقة  
بين الخليفة وبين عضد الدولة لم تلبث أن تبدلت ، فأمر بحذف اسمه من الخطبة مدة شهرين ، وحمله على  
ضرب الدبادب أمام داره ثلاث مرات في اليوم : في وقت الصبح والمغرب والعشاء ، وأن يخطب له  
على منابر بغداد ، مع أن ذلك كان من الأمور التي انفرد بها الخليفة دون غيره . وقد كان معز الدولة  
أحب أن تضرب له الدبادب بمدينة السلام ، فسأل المطيع في ذلك ، فلم يأذن له ، وما حظى عضد  
الدولة بذلك إلا لضعف أمر الخلافة<sup>(٣)</sup> .

ونقرأ في ابن العميد<sup>(٤)</sup> في حوادث سنة ٣٦٨ هـ أن عضد الدولة استولى على الموصل وديار ربيعة  
وميافاارقين وآمد وديار بكر وديار مضر ، وهرب أبو تغلب الحمداني إلى الخليفة العزيز بالله  
الفاطمي ، كما نقرأ في ابن العميد<sup>(٥)</sup> أن الخليفة الطائع أمر ، بأن يخطب للملك عضد الدولة ببغداد في  
خطبة الجمعة التالية لخطبة الطائع لله ، فابتدى بذلك في يوم الجمعة لأربع بقين من شعبان ( سنة  
٣٦٨ هـ ) ، ولم يتقدم هذا لأحد قبله ولا لولاة العمود . وأمر أن يضرب على باب عضد الدولة  
بالدبادب في أوقات الصلوات الخمس ، ولم يكن هذا لأحد قبله ولا لولاة العمود . وعضد الدولة هو  
أول من خوطب بالملك في الإسلام ، وكان يخطب ( له ) على المنابر بشاهنشاه الأعظم ملك الملوك .  
ولم يبلغ أحد من أمراء بني بويه ما بلغه عضد الدولة من سعة الملك وبسطة السلطان ، حتى دان له  
سائر أمراء بني بويه وكثير من أمراء المسلمين ، ودانت له البلاد والعباد ، ودخل في طاعته كل  
صعب القياد<sup>(٦)</sup> . وقد امتد سلطانه - كما يقول ابن العميد<sup>(٧)</sup> - على بغداد والعراق وكرمان  
وفارس وعمان وخوزستان والموصل وديار بكر وحران ومنبج .

(١) كان عضد الدولة يسمى أبا شجاع فناخسرو . فلما نزل عنه عماد الدولة إليه عن فارس واستولى  
أبو شجاع عليها بعد موته ، تلقب بلقب عضد الدولة . ابن خلكان ج ١ ص ٤١٦ .

(٢) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٣٥ .

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٠ .

(٤) تاريخ المسلمين ص ٢٣٦ .

(٥) المصدر نفسه ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٦) ابن خلكان : وفیات الأعيان ج ١ ص ٤١٦ .

(٧) تاريخ المسلمين ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

قال أمدروز<sup>(١)</sup>: «إن قوة بني بويه قد تسنمت غاربها في عهد عضد الدولة، وإن قصره كان محط كبار رجال العلم والأدب، فقصده العلماء من كل بلد وصنفوا له الكتب، ومنها كتاب الإيضاح والتكملة في النحو الذي صنّفه له الشيخ أبو علي الفارسي، وكتاب التاجي في أخبار بني بويه لأبي إسحق الصائغ، كما أقام البيارستانات، ومن أشهرها البيارستان العضدي ببغداد الذي يقول فيه ابن خلكان<sup>(٢)</sup>: «ليس في الدنيا مثل ترتيبه... وأعد له من الآلات ما يقصر الشرح عن وصفه».

صفات عضد الدولة:

\* كان عضد الدولة - على ما وصفه أبو شجاع<sup>(٣)</sup> - ملكاً كامل العقل شامل الفضل، حسن السياسة كثير الإصافة، قليل السقطة شديد الهيبة بعيد الهمة، ثاقب الرأي صائب التدبير، محباً للفضائل مجتنباً للردائل، باذلاً في مواطن العطاء كأن لا سخاء بعده، مانعاً في أماكن الحزم حتى كأن لا وجود عنده، يستصغر الكبير من الأمر ويستهنون العظيم من الخطب. وكان يقول على ما يحدث عنه: الأرض أضيق عرصة من أن تسع ملكين».

وقد ذكر أبو شجاع<sup>(٤)</sup> أعمال عضد الدولة، فبين كيف كان يقضى يومه في تصريف شئونها فقال: «فانه كان يباكر دخول الحمام، فإذا خرج منه ولبس ثيابه أدى فرض الصلاة، ودخل إليه خواصه وحواشيه، فجلس منهم أبو القاسم المطهر بن عبد الله وزيره ومن قام مقامه بعده، فسأله عما عملته فيما سبق التقدم به إليه، فيخبره بذلك ثم يذكر له ما عرض من الأمور ويستأذنه في كل أمر، فيوعز إليه بما يعتمده فيه، ويفعل مثل ذلك مع أبي الحسن علي بن عمارة وأبي عبد الله بن سعدان عارضى الجيش: ذلك للديلم وهذا للأتراك والأعراب والأكراد. فإذا ترحل النهار سأل عن ورود النوب المترددة بالكتب، ولها وقت معلوم تصل فيه وتراعى من ساعات النهار؛ فإن انفق أن تتأخر قامت القيامة ووقع البحث عن العارض العائق، فإن كان بعائق ظاهر فيه عذر قبل، أو عن أمر يحتاج إلى إزالته أزيل، أو من تقصير النويين أنزل العذاب بهم. ولقد ذكر بعض الطراد<sup>(٥)</sup> أن أحد المرتبين قالت له امرأته: قد طبختنا أرزاً فتوقف لتأكل منه وتمضى، فتوقف بقدر ما أكل، وتأخرت النوبة ذلك المدى، فضرب الطراد والمرتبون ما بين شيراز إلى بغداد أكثر من ثلاثة آلاف عصا. لا جرم أن النوب كانت تصل من شيراز في سبعة أيام، وكان يحمل مع المرتبين بواكير الفواكه والمشموم من نواحي فارس وخوزستان فتصل طرية سليمة. وقيل أن بعض أصاغر الحواشي حمل في النوبة من همدان في كنانة<sup>(٦)</sup>، دناتير يسيرة إلى منزله. وقد كان عادتهم جارية بذلك، فقصرت عن أهلها،

Amedroz: Three Years of Buwaihid Rule of Baghdad, J.R.A.S. (1901), (١)

p. 779, Le Strange: Baghdad During the Abbasid Caliphate, p. 234 et Seq.

(٣) ذيل كتاب تجارب الأمم ج ٣ ص ٣٩ - ٤٠. (٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤١٨.

(٤) المصدر نفسه ج ٣ ص ٤٠ - ٤٢ و ٤٣.

(٥) من المطاردة وهي الإجراء للسباق. والمراد هنا أحد المشرفين في محاط البريد.

(٦) في الأصل كنانة، والصواب كنانة وهي جمبة السهام وتصنع من آدم.

وعرف عضد الدولة الخبر ، فلم يزل يكشف عن ذلك إلى أن ظهر للخرائطي آخذ الدنانير فأمر بقطع يده .

فاذا وصلت النوبة كان فض ختومها وفتح خرائطها وإخراج الكتب منها بحضرتة ، ويأخذ منها ما كان إلى مجلسه ويخرج الباقي إلى ديوان البريد فيفرق على أربابه . ثم يقرأ الكتب إليه كتاباً كتاباً وبطرحه إلى أبي القاسم عبد العزيز . فاذا تكامل وقوفه عليها جدد أبو القاسم قراءتها عليه ، فيأمره في جواب كل فصل بما يوقع به تحتة ، وأخرج منها ما يامر بإخراجه ليواقف عليه المطهر ابن عبد الله أو من يجرى مجراه في تذكرة ، وهي أبدأ بين يديه ، يعلق فيها ما يعرض له . ثم يسأل عن الطعام عند فراغه من ذلك ، فاذا حضر الوقت الذي رسمه بالأكل فيه ، استدعاء فأصاب منه ، وطيب النوبة قائم على رأسه ، وهو يسأله عن شيء من منافع الأغذية ومضارها ، ثم يغسل يده وينام . فاذا انتبه جدد الوضوء وصلى الصلاة الوسطى ، وخرج إلى مجلس الشرب مجلس وحضر الندماء والملمون .

ووافي أبو القاسم بن عبد العزيز فعمد بحضرتة على رسمه ، وعرض عليه ما كتبه الكتاب أو كتبه هو بنفسه من أجوبة الكتب الواردة ، فربما زاد فيها أو نقص منها ، ثم تصلح وتختم وتجعل في إسكندارها ، وتحمل إلى ديوان البريد فتصدر في وقتها . ومتى غاب أبو القاسم بن عبد العزيز لأمر يقطعه أو تأخر في داره ، واحتيج إلى كتاب يكتب ، يستدعي كاتب النوبة ، فأجلس بين يديه ، وتقدم بما يريد إليه ، وأملاه عليه ، وهو مع ذلك يشرب ويسمع الغناء ويسأل عما يمضي من أشعاره وما يجب معرفته من أخباره ، ولا يزال على ذلك إلى أن يمضي صدر الليل ثم يأوى إلى فراشه .

وإذا كان يوم موكب برز للأولياء وليستهم ببشر وتأنيس تملوهما هيبة ووقار ، وأجاب كل ذى حاجة بما يجب في السياسة من بذل ومنع ، وتفرق الناس عند انتصاف النهار ، وأقام أصحاب الدواوين وكتابهم إلى حين غروب الشمس . فأما عموم الأيام فان الأمر يجرى على ما تقدم ذكره . . . . . فأما ما ذكر في أمر نديره لجنده ، فقد كانت أموالهم مطلقة في أوقاتها متبعة في تصرفاتها ، وأكثر كتابهم وأصحابهم عوناً له عليهم ، وطبل العطاء يضرب في كل يوم ، ويحضر من ينتهي إليه الدعوة من القواد ، ومعه أصحابه بأحسن رتبة ، فقبض ماله ، والزيادات في الأصول محظورة على العموم ، إلا عند الفتوح وما تدعو السياسة إليه من استمالة القلوب .

ولا بأس من أن تأتي هنا بعبارة أبي شجاع<sup>(١)</sup> الذي وصف فيها عهد عضد الدولة وصفا شائقا عرض فيه لموقفه من الخليفة العباسي ، وما بلغت الدولة العباسية في عهده ، كما شاد بعدله وحسن سياسته ، وعمله على استتباب الأمن وإذعان البلاد لطاعته فقال : «عضد الدولة المعظم من الأخوال

(١) ذيل كتاب تجارب الأمم ج ٣ ص ٧-٨ .

والأعمام ، الحامى حوزة الإسلام ، الملبى لدعوة الإمام ، الذى كرم طرفاه ، وعظم شرفاه ، ودانت  
لصولته الأمم ، وانكشفت بدولته الظلم ، وجرت بنصرته الأقدار ، وانفتحت على يديه الفتوح  
الكبار . أطول الملوك باعاً ، وأحسنهم فى الدين ذباً ودفاعاً : فهو تاج على جبين الأيام الزاهرة  
المقتدية يزيد فى أنوارها ، وركن الدولة القاهرة العباسية يدفع عن أقطارها . زاد على أنوشروان  
بفضله وبمعدته ، وأوفى على بهرام بياسه ونجدته ، وفضل أزدشير بتديرة وسياسته ، وساوى الإسكندر  
بملكه وبسطه . فالشرق والغرب مدعنان لطاعته ، والبدو والحاضر منقادان لاتباعته ، كل ذلك  
ببركات مخالصة لإمامه ، وحسن نيته فى محبة أيامه .

يبد أن عضد الدولة ، على الرغم مما اشتهر به من حسن السياسة ، رعى بالقسوة وسفك الدماء ،  
والغدر بمن أمته (١) . وما يدل على اغتراره بنفسه واعتزازه بقوته قوله :

عضد الدولة من سطوته مَلِك الأملِك وغلاب القدر

وقوله وهو على فراش الموت :

قلت صناديدَ الرجال فلم أدعُ عدوًّا ولم أهمل على جيشه خلقاً

وأخليتُ دور الملك من بعد عزيمهم فشردتهم غرباً وبددتهم شرقاً (٢)

وقد وصفه علماء عصره فقال أحدهم (٣) : د لقد وزن هذا الشخص الدنيا بغير مثقالها ، وأعطاهما  
فوق قيمتها ، وطلب الربح فيها بنفس روحه فيها . وقال الثانى : مَنْ استيقظ للدنيا فهذا نومه ، ومن حلم  
فيها فهذا انتباهه ، وقال الثالث : ما رأيت عاقلاً فى عقله ولا غافلاً فى غفلته مثله . لقد كان ينقض جانبها  
وهو يظن أنه مبرم ، ويغرم وهو يظن أنه غانم . وقال الرابع : من جد للدنيا هزلت به ، ومن هزل  
راغباً عنها جدت له . وقال الخامس : ترك هذا الدنيا شاعرة ورحل عنها بلا زاد ولا راحلة . وقال  
السادس : إن ماء أطفأ هذه النار لعظيم ، وإن ريحاً زعزعت هذا الركن لعصوف . وقال السابع :  
إنما سلبك مَنْ قدر عليك . وقال الثامن : أما أنه لو كان معتبراً فى حياته لما صار عبرة فى مماته .  
وقال التاسع : الصاعد فى درجات الدنيا إلى استغال ، والنازل فى دركاتها إلى تعال . وقال العاشر :  
كيف غفلت عن كيد هذا الأمر حتى نفذ فيك ؟ وهلا اتخذت دونه جُثَّةً ثقيل ؟ إن فى ذلك لعبرة  
للمعتبرين ، وإنك لآية للمستبصرين .

توفى عضد الدولة فى الثامن من شهر شوال سنة ٣٧٢ هـ ، وله من العمر سبع وأربعون سنة وأحد  
عشر شهراً ؛ وحمل إلى مشهد الإمام على بن أبى طالب . وكانت ولايته خمس سنين ونصف سنة استبد فيها

(١) أبو شجاع ج ٣ ص ٤٢ و ٥٦ .

(٢) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٣٩ .

(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٧-٨ ؛ أنظر أيضاً «أبو شجاع» ج ٣ ص ٧٥-٧٧ .



بالسلطة ، وأمن شر أعدائه في الداخل والخارج ، ووطد دعائم سلطانه ، فنشر العدل وشجع العلماء  
وعنى بالعمارة على ما رأينا .

٤ - صَمَمَصَام الدولة ( ٣٧٢ - ٣٧٦ هـ ) :

ولما مات عضد الدولة خلعه ابنه أبو كاليبجار المرزبان ، الذي بايعه الأمراء والقواد ولقبوه  
صَمَمَصَام الدولة (١) ، ولقبه الخليفة الطائع شمس الملة (٢) ، وخلع عليه الخلع السبع والعمة السوداء ،  
وسوّر وطوق وتوّج ، وعقد له لواءان ، وحمل على فرس بمركب ذهب ، وقيد بين يديه مثله ،  
وقرى عهده بتقليده الأمور فيما بلغت الدعوة ( العباسية ) من جميع الممالك ... ووجدت له البيعة ،  
وأطلق رسومها ، وأقيمت الدعوة وغيرت السكة .

ويظهر أن العلاقة بين الخليفة الطائع وبين صَمَمَصَام الدولة كانت تنطوي على شيء من المودة  
والصفاء ، بدليل ما ذكره أبو شجاع (٣) عند كلامه على حوادث سنة ٣٧٥ هـ ، من أن الخليفة خلع  
و على صَمَمَصَام الدولة ، وتجدد له تشريفاً وإكراماً ، وخلع على أبي نصر أحد قواد صَمَمَصَام الدولة  
فولاذ بن مانادر الخلع الجميلة ، وخوطب بالأسفهلارية (٤) بعد أن استحلف على الوفاء والمناسحة .  
على أن النزاع لم يلبث أن قام بين صَمَمَصَام الدولة وأخيه شرف الدولة أكبر إخوته ، وكان يمتد  
نفوذه على أصفهان والري وشيراز وغيرها (٥) وقد عزم شرف الدولة على أخذ بلاد العراق ،  
وتسلت جنود صَمَمَصَام الدولة إلى أخيه ودخلوا في طاعته (٦) .

وقد أدرك صَمَمَصَام الدولة حرج مركزه ، ورأى يبعد نظره عجزه عن مناهضة أخيه شرف  
الدولة ، فأرسل إليه الكتيب بطلب الصلح . ولما ورد عليه ( شرف الدولة ) ما ورد من كتب  
صَمَمَصَام الدولة ووالدته .. يبذل الطاعة والبخوع (٧) بالتباعة والإذعان بإقامة الدعوة والنظام  
بشعار النيابة ، وجد هذا القول من قلبه قبولا ، وأنفذ أبو النصر خواشادة لإتمام هذه القاعدة  
رسولا ، وأصحبه تذكرة تشتمل على التماس الخلع السلطانية واللقب وإقامة الخطبة ، وإفاد الأمير  
أبي نصر ( خواشادة ) مكرماً ، واستدعاء آلات وفرش وخدم وجوار ، عازماً على القناعة بذلك .  
وقلما حصل ( شرف الدولة ) بالأهواز ، وأتته الدنيا طوعاً بإقبالها ، وألقت البلاد مفاتيح أقالها ،  
بدا له من ذلك الرأي ، فعزم على قصد العراق مضماً ، وسار نحو بغداد متمماً (٨) .

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٩ .  
(٢) ذيل كتاب تجارب الأمم ج ٣ ص ٨٤ .  
(٣) ابن العميد ؛ تاريخ المهين ص ٤٢ .  
(٤) البخوع من يئس بخوعاً انتقاد وخضع .  
(٥) أبو شجاع ؛ ذيل كتاب تجارب الأمم ج ٣ ص ١٢٠ .  
(٦) السيوطي ؛ تاريخ الخلفاء ص ٢٧١ .  
(٧) بالأسفهلارية في الأصل وهي بالسين .  
(٨) أبو شجاع ج ٣ ص ١٢١ .

وقد أورد أبو شجاع<sup>(١)</sup> نص الصلح الذي عقد بين صمصام الدولة وأخيه شرف الدولة في الأهواز فقال : « قررت أقسام الصلح على أقسام ثلاثة : قسم منها يعم الفريقين ، وقسمان يخص كل فريق قسم منها . فأما الأمر الذي يعم فهو : تألف ذات البين حتى لا يدرك طالب نبوة مقصداً في تنفير ، وتصافي العقائد حتى لا يجد جالب وحشة مطمعاً في تكدير . فان ظهر عدو مبين لأحدهما ناضلاهما جميعاً عن قوس الموافقة والمساعدة ، ودافعاها بمنسكب المظاهرة والمعاضدة . وأن يمنع كل واحد من تعرض يبلاد الآخر ، ولا يطمع فيها جنداً ، ولا يقطع منها حداً ، ولا يجير منها هارباً ، ولا يأوى متحيزاً أو موازياً .

وأما ما يخص شرف الدولة ، فهو أن يوفيه صمصام الدولة في المخاطبة ما يقتضيه فضل السن والتقديم ، ويلتزم من طاعته ما يوجبه حق الإجلال والتعظيم ، ويقم له الخطبة على منابر مدينة السلام وسائر البلدان التي في يديه ، ويقدم بعد إقامته دعوة الخليفة دعوته عليه . وأما ما يخص صمصام الدولة : فهو أن يكف شرف الدولة عن سائر ممالكة وحدودها ، ويمنع أصحابه كافة عن طرقها وورودها ، وأن يراعيه في كل أمر يستمد فضله فيه ، مراعاة الأخ الأكبر لأخيه وتاليه . . .

بسم الله الرحمن الرحيم : ثبت بحضرة سيدنا ومولانا الإمام الطائغ لله أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، وأعز نصره وأدام توفيقه وكبت عدوه ، ماتضمنه الاتفاق المكتوب في باطن هذا الكتاب ، وصح عنده التزام شرف الدولة وزين الملة أبي الفوارس أمد الله تأييده ، لصمصام الدولة وشمس الملة أبي كاليبجار مولى أمير المؤمنين أعز الله نصره ، ما شرح فيه بعد أن أزم له مثله . فحكم مولانا أمير المؤمنين أعز الله نصره عليهما به ، وجمعهما إلى الائتلاف عليه في طاعته وخدمته ، وقطع به بينهما الفرقة والاختلاف . وأمر بهذا التوقيع تأكيداً لما تصافيا عليه ، وإلزاماً لهما الوفاء به ، وأنعم بعلامته بخط يده الكريمة في أعلاه ، والحكم الشريف النبوي في منتهاه ، والله عون مولانا أمير المؤمنين على ما التزمه وتوخيها . . .

وأمر هذه النسخة عجيب ، لأن هذا الصلح لم يتم وما عاد به أبو نصر خواشادة ، ونفذ فيه أبو علي بن محمد لم يلتزم ؛ وربما يكون ذلك فيما كتب بالأهواز ، وأنفذ إلى بغداد ثم انتقض والله أعلم . . .  
على أن هذا الصلح بين صمصام الدولة وأخيه شرف الدولة لم يتم كما رأينا . ففي سنة ٣٧٦ هـ سار شرف الدولة من الأهواز إلى واسط فاستولى عليها ؛ ولما استشار صمصام الدولة أصحابه نصحوها له بالمسير إلى الموصل وبلاد الجبل ، حيث تناح له فرصة مقاومة أخيه شرف الدولة وإحداث الشقاق بين أنصاره من الديلم والأتراك ، وأشار عليه بعض آخر بمكاتبة عمه فخر الدولة وطلب النجدة منه والمسير إلى قرميسين<sup>(٢)</sup> ،

(١) ج ٣ ص ١٢٤ - ١٢٦ .

(٢) بفتح القاف وكسر الميم ، بلد بينه وبين همدان ثلاثون فرسخاً ، تقع بالقرب من ديبور ، كما تقع بين همدان وحلوان على جادة الحاج . أنظر لفظ قرميسين في معجم البلدان لياقوت .

ثم إلى أصبهان وفارس والاستيلاء على خزائن شرف الدولة في أثناء غيبته عنها ، ومن ثم يضطر هذا إلى العودة إلى فارس وطلب الصلح من جديد (١) .

يبد أن صمصام الدولة لم يأبه لتلك النصائح وقصد أخاه في بعض خاصته ، فأحسن شرف الدولة لقاءه ، ولكنه لم يلبث أن قبض عليه ، ثم سار إلى بغداد بصحبة أخيه ونزل بقصر الشفيهي .

ولم يقف وصول شرف الدولة إلى بغداد النزاع الذي قام بينه وبين أخيه ، فقد دب الشقاق بين الأتراك والديلم ، وتمت الغلبة لهؤلاء ، فنادوا بعودة صمصام الدولة إلى السلطنة . ولكن شرف الدولة هدد بقتل أخيه ، كما تمكن من توحيد صفوف الأتراك والديلم ، وأرسل أخاه إلى فارس فاعتقل في إحدى قلاعها (٢) ( سنة ٣٧٦ هـ ) ، بعد أن حكم بالعراق ثلاث سنين وأحد عشر شهراً .

٥ - شرف الدولة (٣٧٦ - ٣٧٩ هـ) :

استقرت إمارة شرف الدولة بن عضد الدولة بالعراق . ثم قدم بغداد ، فتلقاه الخليفة الطائع وهناك بالفتح والظفر ، وتوجه وطوقه وسوره ، وكتب له عهداً ، وولاه ما وراء بابه ، وعقد له لوامين ، ولقبه شاهنشاه ، (٣) .

وكانت سياسة شرف الدولة ترمي إلى التودد إلى أخيه صمصام الدولة . حتى إنه أنكر على الشعراء تعريضهم به في قصائدهم التي أنشدوها حين هنتوه بالسلطنة (٤) . ولكن بعض رجال حاشية شرف الدولة ما زالوا يوغرون صدره على أخيه ويخوفونه من خروجه عليه ، حتى إنه اعتقله في إحدى قلاع فارس ، ثم سمه تحت تأثير نحرير الخادم الذي قال له : إن لم تقتله فاسمه ، فأرسل في ذلك محمداً الشيرازي الفرائش ، فمات شرف الدولة قبل أن يصل الفرائش إلى صمصام الدولة . فلما وصل الفرائش إلى القلعة التي بها صمصام الدولة ، لم يقدم على سمله ، فاستشار أبا القاسم العلاء بن الحسن الناظر هناك ، فأشار بذلك فسمه . وكان صمصام الدولة يقول : ما أعمانى إلا العلاء ، لأنه أمضى في حكم سلطان قد مات ، (٥) .

وقد عمل شرف الدولة على تحقيق العدل بين الناس ، ورفع أمر المصادر وقطع أسبابها ، ودم طرق السعاليات وسد أبوابها ، (٦) . وانتظمت الأمور على يديه كل الانتظام ، وطالب العمال بعمل المصالح وأخذهم بإقامة العمارات ، ووجد الأسعار متزايدة والأقوات متعذرة ، فرتب نقل الغلات من بلاد فارس في البحر ، وجد في حملها من كل بلد ، (٧) .

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٧ - ١٨ .

(٢) أبو شجاع : ذيل كتاب تجارب الأمم ج ٣ ص ١٣٢ - ١٣٤ .

(٣) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٤١ .

(٤) أبو شجاع : ذيل كتاب تجارب الأمم ج ٣ ص ١٣٤ .

(٥) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٢ .

(٦) أبو شجاع ج ٣ ص ١٣٦ .

(٧) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٣٧ .

فقد شرف الدولة أحد رؤساء البطيحة (١) أميراً عليها ولقبه مهذب الدولة . وكانت البطيحة أرضاً واسعة بين واسط والبصرة غمرتها مياه دجلة والفرات منذ أيام كسرى أبرويز ، فتبطح الماء في تلك الجهات ، فرحل أهلها عنها . ثم جاء الإسلام وتقلب الماء على النواحي المجاورة ، حتى كانت السفن تسير فيها ، وبنوا القرى في المرتفعات التي لم يغمرها الماء وزرعوا الأرز في بعض أرضها . ثم تمكن أهل هذه الجهات في أوائل عهد بني بويه من أن يؤمروا عليهم أميراً منهم ، وتحصنوا بالمياه والسفن ، وخرجت هذه الجهات عن طاعة الدولة العباسية (٢) .

ويقول ابن الأثير (٣) إن مهذب الدولة وأحسن السيرة وبذل الخير والإحسان ، فقصدته الناس وأمن عنده الخائف ، وصارت البطيحة معقلاً لكل من قصدها ، واتخذها الأكارب وطناً ، وبنوا فيها الدور الحسنة ، ووسعهم بره وإحسانه ، وكاتب ملوك الأطراف وكاتبوه ، وزوجه بهاء الدولة ابنته ، وعظم شأنه إلى أن قصده القادر بالله فجاه ، وبقي عنده إلى أن أتته الخلافة .

وفي أيام شرف الدولة قامت المنافسة بينه وبين عمه فخر الدولة ؛ لذلك تراه يرسل مقدم عسكره أو قائد قواده ، ويسمى قرانكين الجهبشاري ، لقتال بدر بن حسنويه في بلاد الجبل لميله إلى عمه . وعلى الرغم من كثرة عدد جند شرف الدولة وإحرازه النصر والظفر أول الأمر ؛ فإن بدرأ أحل بهم الهزيمة ، ثم استولى على بلاد الجبل وما والاها ، وأصبح خطراً يهدد بلاد العراق (٤) .

ولم يطل عهد شرف الدولة ، فمات في شهر جمادى الآخرة سنة ٣٧٩ هـ ، بعد أن حكم ببغداد سنتين وثمانية أشهر (٥) ، ولما يتجاوز الثمانية والعشرين من عمره . وكان قد عهد قبل وفاته إلى أخيه أبي نصر (بهاء الدولة) ، الذي قبل ذلك بعد تردد ، لاضطراب حبل إمارة بني بويه في العراق ، وجلس للعزاء ، وركب الخليفة الطائع للعزاء كذلك ، فتلقاه بهاء الدولة وقبيل الأرض بين يديه (٦) .

٦ - بهاء الدولة ( ٣٧٩ - ٤٠٣ هـ ) :

وبعد خمسة أيام من وفاة شرف الدولة ، ركب أبو نصر إلى دار الخلافة ، فخلع عليه الخليفة الطائع الخلع السلطانية ، ولقبه بهاء الدولة وضيأ الملة ، وقرى عهده بين يديه بالتقليد (٧) . وقد أقر بهاء الدولة أبا منصور بن صالحان وزير شرف الدولة في الوزارة ، ثم استوزر أبا نصر

(١) البطيحة والبطحاء من تبطح السيل إذا اتسع في الأرض ، والمياه تبطح إذا سالت واتسعت في الأرض .

(٢) ياقوت : معجم البلدان : أنظر لفظ بطيحة .

(٣) ج ٩ ص ١٨ - ١٩ . (٤) أبو شجاع ج ٣ ص ١٣٩ - ١٤١ .

(٥) بلا حظ أت ستانلي لينبول أغفل حكم صمصام الدولة في العراق من سنة ٣٧٢ إلى سنة ٣٧٦ هـ ، وجعل سلطنة شرف الدولة في العراق من سنة ٣٧٢ هـ إلى سنة ٣٧٩ هـ ، على حين أنه لم يحكم في العراق إلا سنتين وتسعة أشهر ( ٣٧٦ - ٣٧٩ هـ ) . انظر ص ٩٦ من هذا الجزء .

(٦) أبو شجاع ج ٣ ص ١٥٠ - ١٥٢ ، وابن الأثير ج ٩ ص ٢٣ ، أبو المحاسن ج ٤ ص ١٥٤ -

و ١٥٥ و ١٥٦ .

(٧) أبو شجاع ج ٣ ص ١٥٣ ، وابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٤١ .

خوإشاذة وخلق عليه ، وأقر أصحاب الدواوين وغيرهم في مناصبهم . وتمكن ، بما أوتيته من الدهاء ، من القبض على الأمير أبي علي ابن أخيه شرف الدولة وقتله ليصفو له الجوى ؛ كما تمكن من استئالة الأتراك الذين التفوا حوله . ولما قامت الفتنة بين الأتراك والديلم في مستهل إمارته ، إنضم بهاء الدولة إلى الأتراك ، واستطاع بذلك أن يضعف من نفوذ الديلم (١)

بين بهاء الدولة ونشر الدولة :

بيد ان استئالة بهاء الدولة الأتراك إليه وإضعاف نفوذ الديلم لم يضع حداً للبصاعب التي قامت في وجهه ، فقد واجه صعوبة لا تقل خطراً من خارج بلاد العراق . فان فخر الدولة أبا الحسن علي البويهى صاحب الري وهمذان وأصبهان طمع في الاستيلاء على بلاد العراق بعد موت شرف الدولة ، وشجعه على تحقيق هذه السياسة وزيره الصاحب بن عباد الكاتب المشهور ، الذى كان يرنو ببصره إلى بغداد والجلوس على دست الوزارة فيها ، ويرقب الفرص للوصول إلى غايته ، وأيقن أن الفرصة قد سنحت له بموت شرف الدولة ، فوضع على فخر الدولة من يعظم في عينيه بمالك العراق ويسهل عليه فتحها . وأحجم الصاحب عن تجريد رأى ومشورة بذلك ، نظراً للعاقبة وتبرؤاً من العهدة ، إلى أن قال له فخر الدولة : ما الذى عندك أيها الصاحب فيما نحن فيه ؟ فقال : الأمر لشاهنشاه ، وما يذكر من جلاله تلك الممالك مشهور لاختفاء به ، وسعادته غالبية . فاذا هم بأمر خدمته فيه وبلغته أقصى مراميه . فعزم حينئذ على قصد العراق (٢) .

ولما علم بهاء الدولة بنياً وصول فخر الدولة إلى الأهواز ، عول على القضاء على جيوشه قبل أن يصل إلى بغداد ، والتقى الجيشان بالقرب من خوزستان ، وتم النصر لبهاء الدولة الذى سار بعد ذلك إلى واسط والبصرة (٣) ، وبعث بجيوشه إلى أرجان (٤) فاستولى على قلعتها المشيعة ، وكان بها من العين ألف الف دينار ، ومن الورق ثمانية آلاف ألف (٥) .

والآن نعود إلى الكلام على صمصام الدولة ( الذى بعث به أخوه شرف الدولة إلى فارس واعتقله في إحدى قلاعها سنة ٣٧٦ هـ ) . فنقول إنه تمكن من الهرب من معتقله ، فأرسل إليه بهاء الدولة جيشاً ، ولسكن صمصام الدولة انتصر عليه على مقربة من شيراز سنة ٣٨٠ هـ ، وتم الصلح بينهما على أن يكون لصمصام الدولة بلاد فارس وأرجان ، ولبهاء الدولة خوزستان والعراق ، وحلف كل منهما لصاحبه على الوفاء ، ووعاد بهاء الدولة إلى الأهواز (٦) على أن هذا الصلح لم يطل أمده ، فان بهاء

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٣ .

(٢) أبوشجاع : ذيل كتاب تجارب الأمم ج ٣ ص ١٦٣-١٦٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٦٦ و ١٦٩ .

(٤) مدينة كبيرة بينها وبين شيراز ستون فرسخاً . وبينها وبين سوق الأهواز ستون فرسخاً . ويزرع

بها الزيتون والنخيل والفواكه بكثرة .

(٥) أبو شجاع ج ٣ ص ١٨٣-١٨٤ .

(٦) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٨ .

الدولة عمل على الاستيلاء على فارس ، وقابل صمصام الدولة هذا العمل باستيلائه على خوزستان في سنة ٥٣٨٣ هـ ، وعلى الأهواز في سنة ٥٣٨٥ هـ ، وساعده على ذلك موت نائب بهاء الدولة بها ورغبة جنده من الأتراك في العودة إلى بغداد ، كما استولت جيوش صمصام الدولة على البصرة ( سنة ٥٣٨٦ هـ ) ، وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من إحراز النصر النهائي لولا تدخل مهذب الدولة صاحب البطيحة ، وانتهت هذه الحروب بعقد الصلح بين بهاء الدولة وصمصام الدولة ، على أن يخطب في البصرة لكل من صمصام الدولة وبهاء الدولة ومهذب الدولة ؛ ولم يجعل الصراع الذي قام بين صمصام الدولة وبهاء الدولة إلا بقتل أولهما في سنة ٥٣٨٨ هـ (١)

### بين بهاء الدولة والخليفة الطائع

على أن العلاقة بين بهاء الدولة والخليفة الطائع لم تلبث أن سامت . ولم يستفد الخلفاء العباسيون من سياسة بني بويه الذين كانوا يتظاهرون بأنهم يستمدون نفوذهم من الخليفة ويتمتعون برضاه ليكتسبوا رضاه العامة . فقد قبض بهاء الدولة في سنة ٥٣٨١ هـ على الخليفة الطائع وخلعه ، وبايع للقادر بالله . وقد عزا السيوطي (٢) ذلك إلى أن الخليفة حبس أحد خواص بهاء الدولة ، ولكن الواقع أن السلطان البويهى طمع في أموال الخليفة . ويقول ابن الأثير (٣) إن أبا الحسن بن المعلم قد غلب على بهاء الدولة وحكم في مملكته ، فحسن له القبض على الطائع ، وأطمعه في ماله ، وهوّن له ذلك وسهله ، فأقدم عليه بهاء الدولة ، وأرسل إلى الطائع وسأله الإذن في الحضور في خدمته ليجدد العهد به ، فأذن له في ذلك ، وجلس له كما جرت العادة . فدخل بهاء الدولة ومعه جمع كثير ؛ فلما أدخل قبيل الأرض وأجلس على كرسي ، فدخل بعض الديلم كأنه يريد (أن) يقبل يد الخليفة ، فحذبه فأنزله عن سريره ، والخليفة يقول : «إنا لله وإنا إليه راجعون» ، وهو يستغيث ولا يلتفت إليه . وأخذ ما في دار الخليفة من الذخائر ، فمشوا به في الحال ، ونهب الناس بعضهم بعضاً . وكان من جملتهم الشريف الرضى ، فبادر بالخروج فسلم ، فقال يصف ما جرى في ذلك اليوم ، وكيف نجا بنفسه بعد أن امتن أكثر رجالات الدولة من القضاة والأشراف وسلبت ثيابهم ، وأنشد في شهر شعبان سنة ٥٣٨١ هـ قصيدة طويلة تنتقل منها هذه الأبيات (٤) .

أعجب لمسكة نفس بعد ما رميت من النوائب بالأبكار والعون (٥)  
ومن نجاتي يوم الدار حين هوى غيري ولم أخجل من حزم يشجيني

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٣٦ و ٤١ و ٤٦ و ٥٣ . (٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٧٢ .

(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٩ .

(٤) ديوان الشريف الرضى ( طبعة بيروت سنة ١٣٠٧ ) ج ٢ ص ٨٦٧ .

(٥) العون جمع عون وهي من النساء التي كان لها زوج .

مرفت منها مروق النجم منسكدر<sup>(١)</sup> وقد تلاقى مصارع الردى هوى  
وكنت أول طلاع ثقيتها ومن روائي شر غير مأمون  
من بعد ما كان رب الملك مبتسما إلى أدنوه في النجوى ويدنني  
أصبحت أرحم من أصبحت أغبطه لقد تقارب بين العز والهون  
ومنظره كان بالسراء يضحكني بأقرب ما كان بالضراء يُسبكني  
هيأت أغتر بالسطان ثانياً قد ضل ولاج أبواب السلطين

ويقول أبو شجاع إن الخليفة الطائع أجبر على أن يخلع نفسه وينزل عن الخلافة إلى أبي العباس أحمد بن إسحق بن المقتدر، الذي تلقب القادر بالله، وذلك بعد أن بقي في الخلافة سبع عشرة سنة وثمانية شهور وخمسة أيام (٣٦٣ - ٣٨١ هـ). ويقول ابن الأثير<sup>(٢)</sup> في حوادث سنة ٣٨٢ هـ إن بهاء الدولة سلم الطائع بالله إلى الخليفة القادر، فأنزله في داره وأكرمه وأحسن إليه، على الرغم من أنه كان قد حاول التخلص من القادر واتهمه بالعمل على الوصول إلى الخلافة، فهرب إلى البطيحة (سنة ٣٧٩ هـ)، وظل الطائع مكرماً حتى مات في سنة ٣٩٣ هـ. وقد وصف ابن العميد<sup>(٣)</sup> الخليفة الطائع فقال: «كان جواداً كريماً، إلا أن يده كانت قصيرة مع بني بويه، فإنهم كانوا الملوك، وليس للخليفة إلا مجرد الاسم».

الخليفة القادر بالله (٣٨١ - ٤٢٢ هـ):

كان القادر بالله أطول الخلفاء العباسيين حكماً، وقد بقيت خلافته أكثر من إحدى وأربعين سنة.

وقد أورد هلال بن الصابي. كتاب الخليفة القادر الذي رد فيه على كتاب بهاء الدولة حين دعاه إلى الخلافة وهو بالبطيحة ن نقله بنصه<sup>(٤)</sup>: «من عبد الله أحمد الإمام القادر بالله أمير المؤمنين إلى بهاء الدولة وضياء الملة أبي نصر بن عضد الدولة مولى أمير المؤمنين سلام عليك. فإن أمير المؤمنين محمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ويسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله. أما بعد: أطل الله بقاءك وأدام عزك وتأيدك، وأحسن إمتاع أمير المؤمنين بك، فإن كتابك الوارد في صحبة الحسن بن محمد بن نصر رعاه الله، عرض على أمير المؤمنين، تالياً لما تقدمه، وشافياً ما سبقه، ومتضمناً مثل ما حواه قبله من إجماع المسلمين قبلك، يشهد منك على خلع العاصي المتلقب بالطائع عن الإمامة ونزعه عن الخلافة، لبوائقه المستمرة وسوء نيته المدخولة وإشهاده على نفسه بعجزه ونكوله<sup>(٥)</sup>، وإبرائه الكافة

(٢) ٩ - ٣٥

(١) منسكدر: منقضا ومتنثراً.

(٢) تاريخ المسلمين ص ٢٤٣.

(٤) أبو شجاع ج ٣ ص ٢٠٣ - ٢٠٤ هامش، نقل عن ابن الصابي.

(٥) النكول: الجبن والتأخر.

من بيعته ، وانشرح صدور الناس لبيعة أمير المؤمنين ، ووافق أمير المؤمنين على ذلك كله ، ووجدك ،  
أدام الله تأييدك ، قد انفردت بهذه المآثر واستحققت بها من الله جليل الأثرة ومن أمير المؤمنين  
سنى المنزلة وعلى المرتبة . وفيه فقد أصبحت سيف أمير المؤمنين المبير لأعدائه الحاظي دون غيرك  
بحميد رأيه ، المستبد بحماية حوزته ورعاية رعيته والسفارة بينه وبين ودائع الله عنده في بريته . وقد  
برزت راية أمير المؤمنين عن الصليق ، متوجهاً نحو سريره الذي حرسته ، ومستقر عزه الذي شيدته ،  
وذاكر مملكته التي أنت عمادها . . . إلى أن قال : فواصل حضرة أمير المؤمنين بالإتمام والمطالعة إن  
شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

ثار الديلم والأترارك وطلبوا رسم البيعة على ما جرت به العادة ، ومنعوا الخطبة باسم الخليفة ،  
وترددت الرسل بين الجند وبهاء الدولة الذي أجاب طلبهم وأغدق عليهم ، ومنح كلا منهم ثمانمائة  
درهم ، وأقيمت الخطبة باسم أبي العباس أحمد القادر بالله ، وهناك الناس بالخلافة ومدحه الشعراء .  
وقد أشد الشريف الرضى (١) قصيدة طويلة ننقل منها هذه الأبيات :

شرف الخلافة يا بني العباس اليوم جده أبو العباس  
هذا الذي رفعت يده بنا لها العالی وذاك موطن الآساس  
ذا الطود بقائه الزمان ذخيرة من ذلك الجبل العظيم الراسي  
ملك تطاوح مالكوه وأصبحوا منه وراء معالم أدراس  
فاليوم لم العز بعد تشعث وأعيد ذكر الدين بعد تناسي  
قد كان زعزعك الزمان فراعته عود على عجم النوائب عاس (٢)  
ما كان غير مجرب لك في العلى لتكون راعي الأمر دون الناس

وقد علق أبو شجاع (٣) على قصيدة الشريف الرضى ، مشيداً بفضل القادر في هذه العبارة : « وقد  
صلى الموسوى في قوله إن القادر بالله جدد معاهد الخلافة وأثار أعلامها ، وكشف غم الفتنة وجلا  
ظلامها . ويقولون لئن كان لكل من الأئمة ، رضوان الله عليهم ، مناقب مروية وطرائق مرضية ، فإن  
لأربعة منهم فضائل أفردوا بمزاياها وحظوا بمرباعها وصفاياها ، قام أمير المؤمنين السفاح سفح  
دماء الأعداء وتأخى كشف الغما وتفرّد وتفضل بفضيلة الابتداء ، والمنصور بالله أيد بالنصر في  
توطيد قواعد الأمر فدلل كل صعب وأزال كل شعب ، وثقف كل مناد ومهد لمن بعده أحسن  
مهاد : ثم المعتضد بالله عضد الدولة بحسن تديره وسياسته ، وتلافها بشرف نفسه وعلو همته ،

(٢) عاس غليظ يابس .

(١) ديوان الشريف الرضى ج ١ ص ٤١٧ .

(٣) ذيل تجارب الأمم ج ٣ ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٤) جلي في الأصل ، والصواب جلابعني كشف وأثار .



وأعادها بعد الضعف ، إلى القوة وبعد اللين إلى الشدة ، وبعد الأود<sup>(١)</sup> إلى الاستقامة ، وبعد الفتنة إلى السلامة : ثم القادر بالله فقدر من صلاحها على ما لم يقدر عليه سواه وسلك من طريق الزهد والورع ما تقدمت فيه خطاه ، فكان راهب بنى العباس حقا وزاهدا صدقا ، ساس الدنيا والدين وأغاث الإسلام والمسلمين ، واستأنف في سياسة الأمر طرائق قويمه ومسالك مأمونة سليمة ، هي إلى الآن مستمرة والقاعدة عليها مستقرة ، لم تعرف منه زلة ولا خلة : فضالت أيامه وطابت أخباره واقفيت<sup>(٢)</sup> آثاره ، وبقيت على ذريته الشريفة أنواره ، رضى الله عنه رضاه عن الأئمة المتقين ، وجعلها كلمة باقية في عقبه إلى يوم الدين .

وكان القادر - كما يقول الخطيب البغدادي<sup>(٣)</sup> - من الستر والديانة وإداعة التهجد بالليل ، وكثرة البر والصدقات على صفة اشتهرت عنه ، وعُرف بها عند كل أحد ، مع حسن المذهب وصحة الاعتقاد . وكان صنف كتابا في الأصول ذكر فيه فضائل الصحابة على ترتيب مذهب أصحاب الحديث ، وأورد في كتابه فضائل عمر بن عبد العزيز وإكفار المعتزلة والقائلين بخلق القرآن . وكان الكتاب يقرأ كل جمعة في حلقة أصحاب الحديث بجامعة المهدي ويحضر الناس سماعه .

ازداد نفوذ بهاء الدولة في عهد القادر ، فاستبد بالسلطة دون الخليفة . ويقول ابن الأثير<sup>(٤)</sup> عند كلامه على حوادث سنة ٣٨١ هـ ، وهي السنة التي ولي فيها القادر الخلافة ، إنه عقد مجلس حلف فيه بهاء الدولة للقادر بالله على الطاعة والقيام بشروط البيعة ، وحلف له القادر بالوفاء والخلوص ، وأشهد عليه أنه قلده ما وراء بابه . وقد استمرت العلاقة بين الخليفة العباسي وبين بهاء الدولة على شيء من الصفاء ، بدليل زواج الخليفة من سكينه ابنة بهاء الدولة على صداق قدره مائة ألف دينار ( سنة ٣٨٣ هـ )<sup>(٥)</sup> ، وإضافة هذه الألقاب إلى بهاء الدولة في خطبة الجمعة بأمر الخليفة وهي : قوام الدين ، صفى أمير المؤمنين<sup>(٦)</sup> .

وعلى الرغم من ضعف الخليفة القادر واستبداد بهاء الدولة بالسلطة دونه ، نرى هذا الخليفة يعمل على تولية ابنه العهد من بعده لبقاء الحكم في بيته ، وإن كان ذلك الحكم قد انتقل في الواقع إلى أيدي بني بويه . وقد ذكر هلال بن الصابي<sup>(٧)</sup> العوامل التي دفعت الخليفة القادر إلى تولية ابنه العهد ، وذلك أن أحد أحفاد الخليفة الواثق بالله ادعى أن القادر قد ولاء عهده ، وأنه سار إلى بلاد ما وراء النهر حيث صادفت دعوته أذنا مصغية ، فلم ير الخليفة القادر بدأ من التخلص من ذلك العباسي والقضاء على دعوته بتولية ابنه أبي الفضل العهد من بعده .

(١) الأود الاعوجاج . (٢) أقيت في الأصل .

(٣) تاريخ بغداد ج ٤ ص ٣٧-٣٨ . (٤) ج ٩ ص ٣٤ .

(٥) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٥٤ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٦٤ .

(٦) هلال بن الصابي : كتاب التاريخ الجزء الثامن ( بيروت ١٩٠٤ ) ص ٤٤٣ .

(٧) المصدر نفسه ص ٤٢٠-٤٢٤ .

وفي شهر ربيع الأول سنة ٣٩١ هـ عقد الخليفة القادر مجلساً حضره حجاج خراسان ، وأعلن فيهم أنه قد جعل ابنه الأمير أبا الفضل ولي عهده ولقبه الغالب بالله ، وقرئت كتب البيعة على الحاضرين . وقد وصف هلال بن الصابي<sup>(١)</sup> مجلس الخليفة في هذه العبارة فقال : « جلس على السدة العالية بئباب سود ، متقلداً سيفاً بجائل في البيت المعروف ببيت الرصاص ، وبين يديه نهر يجرى الماء فيه إلى دجلة ، ودخل إليه الأشراف والقضاة والشهود والفقهاء وأهل خراسان العائدون من الحج » . وقرئ في المجلس على ر.وس الملا كتاباً بتقليده أبا الفضل ولده العهد بعده وتلقبته الغالب بالله تعالى ، ولا غالب إلا الله وحده لا شريك له . وكان له من السن في هذا الوقت ثمانين سنة وأربعة أشهر وأيام . وكتب إلى البلاد بأن يخطب له بعده على نسخة قررت بحضرته ، وكانت بعد إتمام الدعاء له :

اللهم وبلغه الأمل في ولده أبي الفضل الغالب بالله تعالى ولي عهده في المسلمين ، اللهم والي من والاه من العباد وعاد من عاداه في الأقطار والبلاد ، وانصر من نصره بالحق والسداد ، واخذل من خذله بالغي والعناد . اللهم ثبت دولته وشعاره ، وانبذ إلى من نابذ الحق وأنصاره .

• • •

حاول بهاء الدولة التخلص من أبناء بختيار ، وكانوا قد قتلوا صمصام الدولة ، واستولوا على فارس وعولوا على محاربه واستماله الديلم الذين كانوا يحسبون على بهاء الدولة لاعتقاده على الأتراك . إلا أن بهاء الدولة استمال زعيم الديلم إليه ، وحارب ابني بختيار الذين انتقلت إليهما الزعامة في فارس<sup>(٢)</sup> ، واستطاع أن يحدث الشقاق في صفوفهما ، وأن يوقع بهما الهزيمة ويستولى على فارس سنة ٣٨٩ هـ ، فلحق أحدهما بالبطيحة ، ولحق الثاني ببلاد الديلم . ولكنه عاد إلى فارس حيث التف حوله كثير من الزط والديلم والأتراك ، واستولى على أغلب بلاد كرمان ، على أن بهاء الدولة أرسل إليه جيشاً أحل به الهزيمة وقتله ( ٣٩٠ هـ )<sup>(٣)</sup> .

وقد اضطربت أحوال البطيحة واستولى عليها أحد القواد ، واسمه أبو العباس بن واصل ، وطرده صاحبها مهذب الدولة ( صهر بهاء الدولة ) ، ثم استولى على البصرة وهدد جنوبي بلاد العراق ، وهزم جيوش بهاء الدولة ( ٣٩٤ هـ ) الذي أرسل إليه من بغداد جيشاً بقيادة مهذب الدولة ، فتمكن من استردادها ، واتفق مع بهاء الدولة على أن يدفع له خمسين ألف دينار جزية سنوية . على أن خطر ابن واصل لم يزل باستيلاء بهاء الدولة على البطيحة وطرده منها ، فانه سار إلى البصرة ، وكانت في قبضة

(١) ص ٤٢٠ .

(٢) هما أبو نصر الذي تلقب نور الدولة ومحي الأمة ، وأبو القاسم الذي تلقب حسام الدولة سيد الأمة .

(٣) أبو شجاع : ذيل كتاب تجارب الأمم ج ٣ ص ٣٢٦ - ٣٢٧ ، وهلال بن الصابي : كتاب التاريخ

ص ٣٧٩ - ٤٩٤ . راجع أيضا ابن الأثير ج ٩ ص ٥٦ - ٥٧ و ٦٠ - ٦١

يده ، وهدد الأهواز وانتصر على جيوش بهاء الدولة فيها . وعلى الرغم من انتصار ابن واصل ، فإنه راسل بهاء الدولة وصالحه وزاد في إقطاعه ، وحلف كل واحد منهما لصاحبه ، وعاد إلى البصرة (١) .

وفي سنة ٤٠١ هـ تعرض نفوذ بني بويه في العراق للخطر ، حيث خطب قرواش بن المقلد أمير بني عقيل ، الذي آلت إليه السيادة في الموصل والأنبار والمدائن والكوفة ، للخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي ، فأرسل الخليفة القادر أبا بكر الباقلاني الفقيه المشهور إلى بهاء الدولة ، وطلب إليه أن يعمل على قمع هذه الحركة ، فأرسل بهاء الدولة جيشاً اضطر قرواش إلى إعادة الخطبة للخليفة العباسي (٢) .

بيد أن بهاء الدولة أجاب الخليفة العباسي إلى طلبه احتفاظاً بنفوذه هو في بلاد العراق ، والوقوف في سبيل كل من يعمل على الحد من هذا النفوذ ، لاسيما إذا علمنا أن الخليفة العباسي لم يكن له مع بني بويه من الأمر شيء سوى ذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة . ومع هذا فقد عرف بنو بويه بالتعصب للذاهب الشيعية ، وبلغ من تعصبهم أن قامت الثورات من حين إلى حين بين الشيعة والسنيين في بغداد وفي غيرها من أمهات مدن العراق . ففي سنة ٣٩٨ هـ قامت بين الشيعة والسنيين في بغداد ثورة كاد يقتل فيها أبو حامد الأسفرايني ، وتعصب أهل الشيعة ببغداد للخليفة الحاكم الفاطمي وصاحوا : يا حاكم يا منصور !

وكان بهاء الدولة - على ما وصفه أبو المحاسن (٣) - وظالماً غشوماً سفاكاً للدماء ، حتى إنه كان خواصه يهربون من قربه ، وجمع من المال ما لم يجمعه أحد من بني بويه ، ولم يكن في ملوك بني بويه أظلم منه ولا أقبح سيرة .

وقد توفي بهاء الدولة في الخامس من شهر جمادى الآخرة من سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) ، بعد أن حكم أربعاً وعشرين سنة (٣٧٩ - ٤٠٣ هـ) وتسعة أشهر وأيام ، وكان في الثانية والأربعين من عمره ، وحملت جثته من أرسجان إلى مشهد على بن أبي طالب بالكوفة ، فخلفه في السلطنة ابنه سلطان الدولة أبو شجاع ، وكان قد عهد بالسلطنة من بعده .

٧ - سلطان الدولة ومشرف الدولة ابنا بهاء الدولة (٤٠٣ - ٤١٦ هـ) :

خلف بهاء الدولة في السلطنة ابنه سلطان الدولة أبو شجاع (٤٠٣ - ٤١١ هـ) . وكان أول ما قام به أنه ولي أخاه جلال الدولة أبا طاهر البصرة ، وولى أخاه الآخر قوام الدولة أبا الفوارس كرمان . ولكن عوامل الشقاق لم تلبث أن دبت بين سلطان الدولة وأخيه أبي الفوارس . ويعزو ابن

(١) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٥٧ .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٨٣ ، ابن فضل الله العمري : كتاب مسالك الأبحار ، مخطوط بدار السكتب

(٣) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٣٣ .

المصرية ج ١٩ ورقة ٢٩٦ .

الأنير (١) ذلك الشقاق إلى إغراء الديلم أبا الفوارس بحرب أخيه وأخذ ما بيده من البلاد، فبادر إلى امتلاك شيراز في سنة ٥٤٠٧ هـ. ولكن جيوش سلطان الدولة لم تلبث أن أخرجه منها وطاردته إلى كرمان فاحتلتها، ثم إلى خراسان حيث لجأ أبو الفوارس إلى يمين الدولة محمود بن سبكتكين، الذي أمدّه بجيش استرد به كرمان (سنة ٥٤٠٨ هـ). على أن هذا الجيش لم يقوَ على الوقوف في وجه جنود سلطان الدولة، فاضطر أبو الفوارس إلى التقهقر واللحاق بشمس الدولة بن نجر الدولة بن بويه صاحب همدان، ثم يهذب الدولة صاحب البطيحة. وانتهى الأمر باعادة كرمان إلى أبي الفوارس الذي اعترف بزعامه أخيه سلطان الدولة.

ولم تقتصر مصاعب سلطان الدولة على مناوأة أخيه قوام الدولة أبي الفوارس، فقد شغب عليه الجند في العراق وأرادوا تولية أخيه مشرف الدولة السلطنة فيها، وأشار بعض خواص سلطان الدولة عليه بالقبض على أخيه، ولكنه لم يتمكن من ذلك، وعمل على الحرب إلى واسط فقال له الجند: وإما أن تجعل عندنا ولدك (أبا كاليجار) أو أخاك مشرف الدولة، فراسل أخاه بذلك، فامتنع ثم أجاب بعد معاودة، ثم إنهما اتفقا واجتمعا ببغداد... وفارق سلطان الدولة بغداد وقصد الأهواز (شهر ذى الحجة سنة ٥٤١١ هـ). واستخلف أخاه مشرف الدولة على العراق، (٢) (٤١١-٥٤١٦ هـ). إلا أن الحرب لم تلبث أن قامت بين هذين الأخوين، وحلت الهزيمة بجيش سلطان الدولة الذي هرب من الأهواز إلى أرجان، وقوى أمر مشرف الدولة، فلقب في أواخر شهر ذى الحجة بلقب شاهنشاه، واعترف أخوه جلال الدولة أبو طاهر صاحب البصرة بسلطانه، وخطب له ببغداد في أواخر المحرم سنة ٥٤١٢ هـ (٣).

على أن سلطان الدولة لم يهدأ باله بعد إلحاق الهزيمة به وهربه إلى أرجان ثم عودته إلى الأهواز، بل أخذ يعمل على استرداد نفوذه، واتخذ من ثورة الديلم على وزير أخيه مشرف الدولة وقتلهم إياه فرصة سانحة لتحقيق أغراضه؛ فأنفذ ابنه أبا كاليجار إلى الأهواز فاستولى عليها سنة ٥٤١٢ هـ، وتم الصلح بينه وبين أخيه سلطان الدولة، وحلف كل منهما لصاحبه على أن يكون العراق لمشرف الدولة، وفارس وكرمان لسلطان الدولة (سنة ٥٤١٣ هـ). وقد صفا الجو لمشرف الدولة بوفاة أخيه سلطان الدولة في سنة ٥٤١٥ هـ، وله من العمر اثنتان وعشرون سنة وخمسة أشهر (٤).

وفي أيام مشرف الدولة ازداد نفوذ الأتراك. ويرجع ذلك إلى ضعف سلاطين بني بويه وتسم الأبطال عرش السلطنة في بغداد في ذلك الوقت. ولا عجب فقد ولي سلطان الدولة السلطنة وهو

(١) ج ٩ ص ٩٠ و ١٠٩ - ١١٠.

(٢) ابن الأنير ج ٩ ص ١١٨.

(٣) المصدر نفسه ج ٩ ص ١١٩ - ١٢١، أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ١٥١.

(٤) ابن الأنير ج ٩ ص ١٢١ - ١٢٢.

في الثالثة عشرة من عمره ، ووليها أخوه مشرف الدولة وهو في الثامنة عشرة . ويقول ابن الأثير (١) في حوادث سنة ٤١٥ هـ إن مشرف الدولة اضطر إلى الحرب مع وزيره وجماعة من مقدي الديلم إلى قرواش بن مقلد العقيلي ، ولم يعد إلا بعد أن استوثق منهم .  
 كان مشرف الدولة كثير الخير قليل الشر عادلاً حسن السيرة ، ولم يعمر في السلطنة سوى خمس سنين وخمسة وعشرين يوماً ، ومات وله من العمر ثلاث وعشرون سنة .

٨ - جلال الدولة (٤١٦ - ٤٣٥ هـ) :

كان أبو طاهر جلال الدولة من أطول سلاطين بني بويه عهداً في الحكم ، فقد أقيمت له الخطبة بالعراق بعد أخيه مشرف الدولة ، وطلب إليه وهو بالبصرة الحضور إلى بغداد ، ولكنه سار إلى واسط ثم عاد إلى البصرة ، فقطعت الخطبة له وتحولت إلى ابن أخيه الملك أبي كاليبجار بن سلطان الدولة ، وكان مشغولاً بالحرب مع عمه أبي الفوارس صاحب كرمان ، فاتخذ جلال الدولة من ذلك فرصة للمسير إلى بغداد والاستيلاء عليها وإقامة الخطبة لنفسه من جديد (٢) . ويقول أبو الفدا (٣) إن الخليفة القادر استدعى جلال الدولة ، وكان بالبصرة ، إلى بغداد ولما حصل من الهب والفتن . . . لحولها من السلطان ، فدخلها ثالث رمضان (سنة ٤١٨ هـ = ١٠٢٧ م) ، وخرج الخليفة القادر لملتقاه ، وحلفه واستوثق منه . واستقر جلال الدولة في ملك بغداد .

وقد أوضح ابن الأثير ازدياد نفوذ الأتراك وتأثيرهم في تسيير أمور الدولة العباسية في ذلك الحين ، حتى إنهم أخذوا يتدخلون في تولية سلاطين بني بويه وعزلهم ، ويحملونهم على أن يحلفوا لهم على الطاعة والوفاء ، والخليفة في ذلك كله لا يملك إلا تنفيذ رغباتهم . وهاك عبارة ابن الأثير (٤) عند كلامه على حوادث سنة ٤١٨ هـ : « في هذه السنة في جمادى الأولى ، خطب لملك جلال الدولة أبي طاهر بن بهاء الدولة ببغداد ، وأصعد إليها من البصرة ، فدخلها ثالث شهر رمضان . وكان سبب ذلك أن الأتراك لما رأوا أن البلاد تحرب ، وأن العامة والعرب والأكراد قد طمعوا ، وأهم ليس عندهم سلطان يجمع كلمتهم ، قصدوا دار الخلافة وأرسلوا يعتذرون إلى الخليفة من انفرادهم بالخطبة لجلال الدولة أولاً ، ثم برده ثانياً ، وبالخطبة لأبي كاليبجار ، ويشكرون الخليفة حيث لم يخالفهم في شيء من ذلك ، وقالوا إن أمير المؤمنين صاحب الأمر ، ونحن العبيد ، وقد أخطأنا ونسأل العفو ، وليس عندنا الآن من يجمع كلمتنا . ونسأل أن ترسل إلى جلال الدولة ليصعد إلى بغداد ، ويملك الأمر ويجمع الكلمة ويخطب له فيها ، ويسألون أن يحلفه الرسول السائر لإحضاره لهم . فاجابهم الخليفة إلى ما سألوا ، وراسله هو وقواد الجند في الإصعاد واليمين للخليفة والأتراك ، حلف لهم ،

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٢٩ .

(٤) ج ٩ ص ١٣٥ .

(١) ج ٩ ص ١٢٥ .

(٣) المختصر في أخبار البصر ج ٢ ص ١٥٦ .

وأصعد إلى بغداد ، وانحدر الأتراك إليه ، فلقوه في الطريق . وأرسل الخليفة إليه القاضي أبا جعفر السمناني ، فأعاد تجديد العهد عليه للخليفة والأتراك ، ففعل . ولما وصل إلى بغداد نزل النجفي ، فركب الخليفة في الطيار ، وانحدر بقلبه . فلما رآه جلال الدولة قبيل الأرض بين يديه ، وركب في زيزبه ووقف قائماً ، فأمره الخليفة بالجلوس ، فخدم وجلس ، ودخل إلى دار المملكة بعد أن مضى إلى مشهد موسى بن جعفر ، فزار وقصد الدار فدخلها ، وأمر بضرب الطبل أوقات الصلوات الخمس ، فراسله الخليفة في منعه ، فقطعه غضباً حتى أذن له في إعادته ففعل .

على أن الأتراك كانوا ينزعون دائماً إلى شق عصا الطاعة ، مدفوعين بعوامل الطمع وابتزاز الأموال . ففي سنة ٤١٩ هـ ناروا على جلال الدولة ببغداد ونهبوا داره ودور أنصاره ، كما نهبوا صياغات أخرجها جلال الدولة لتضرب دنانير ودرهم ، وفرق فيهم ، وحصروا جلال الدولة في داره ومنعوه الطعام والماء ، حتى شرب أهله ماء البئر وأكلوا ثمرة البستان . . . ثم أرسل إلى الخليفة ليصلح الأمر مع أولئك القواد ، فأرسل إليهم الخليفة القادر بالله ، فأصلح بينهم وبين جلال الدولة . . . فلم يمض غير أيام حتى عادوا إلى الشعب ، فباع جلال الدولة فرشه وثيابه وخيمه ، وفرق ثمنها فيهم حتى سكنوا<sup>(١)</sup> . ولكن ذلك السكون لم يبق طويلاً ، بدليل ثورة الأتراك على جلال الدولة وانتهابهم دور الأمراء ببغداد ومناداتهم بأبي كاليبجار سلطاناً عليهم . ولولا امتناع هذا عن الحضور إلى بغداد لتفاقم خطر هذه الثورة فيما وراء حاضرة العباسيين ، وذلك في عهد الخليفة المقتدر (٤٢٣ هـ) (٢) .

ولم يكن هذا كل ما صادف جلال الدولة من صعاب في سبيل إقرار ملكة بالعراق ؛ فقد قام في وجهه أبو كاليبجار بن سلطان الدولة الذي استمال إليه بعض أمراء العراق واستولى على البصرة ، ثم سار إلى واسط واحتلها ، فسار جلال الدولة إلى الأهواز وانتهبها في غيبة أبي كاليبجار ، وأحل الهزيمة بجنده واسترد واسط (٣) ، ثم استولى على البصرة من جند أبي كاليبجار (٤) .

صفات الخليفة القادر ووفاته :

مات الخليفة القادر في شهر ذي الحجة سنة ٤٢٢ هـ ، بعد أن بقى في الخلافة إحدى وأربعين سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوماً ، وكان في السابعة والثمانين من عمره . وعلى الرغم من استبداد الأتراك والديلم بأمور الدولة ، فإن القادر قد احتفظ بهيبة الخلافة . وفي ذلك يقول ابن الأثير (٥) : وكانت الخلافة قبله قد طمع فيها الديلم والأتراك ؛ فلما وليها القادر بالله أعاد جدتها وجدد ناموسها ،

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٣٧ .

(٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ١٥٨ .

(٣) المصدر نفسه ج ٩ ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٤) المصدر نفسه ج ٩ ص ١٥٣ .

(٥) ج ٩ ص ١٥٥ - ١٥٦ .

والقى الله هيبته في قلوب الخلق ، فأطاعوه أحسن طاعة وأتمها . وكان حليما كريما خيرا : يحب الخير وأهله ويأمر به ، وينهى عن الشر ويبغض أهله . وكان حسن الاعتقاد ، صنف فيه كتابا على مذهب السنة . . . وكان يقسم لإفطاره كل ليلة ثلاثة أقسام : فقسم كان يتركه بين يديه ، وقسم يرسله إلى جامع الرصافة ، وقسم يرسله إلى جامع المدينة ( يعنى مدينة بغداد ) يفرق على المقيمين فيهما . فانفق أن الفراش حمل ليلة الطعام إلى جامع المدينة ، ففرقه على الجماعة ، فأخذوا ، الإشابا ، فإنه رده . فلما صلوا المغرب ، خرج الشاب وتبعه الفراش ، فوقف على باب ، فاستطعم ، فأطعموه كسيرات ، فأخذها وعاد إلى الجامع فقال له الفراش : ويحك ؟ ألا تستحي ؟ ينفذ إليك خليفة الله بطعام حلال فترده وتخرج وتأخذ من الأبواب ؟ فقال : والله ما رددته إلا لأنك عرضته على قبل المغرب ، وكنت غير محتاج إليه ، فلما احتجت طلبت . فعاد الفراش فأخبر الخليفة بذلك ، فبكى الخليفة وقال له : راع مثل هذا ، واغتمت أخذه ، وأقم إلى وقت الإفطار . وقال أبو الحسن الأبهري : أرسلني بهاء الدولة إلى القادر بالله في رسالة فسمعتة ينشد :

سبق القضاء بكل ما هو كائن      والله يا هذا لرزقك ضامن (١)  
تعنى بما يفنى وترك ما به      تعنى كأنك للحوادث آمن  
أو ما ترى الدنيا ومصراع أهلها      فاعمل ليوم فراخها يا خائن؟ (٢)  
واعلم بأنك لا ينالك فالدى (٣)      أصبحت تجمعه لغيرك خازن  
يا عامر الدنيا أتعمر منزلا      لم يبق فيه مع المنية ساكن ؟  
الموت شئ . أنت تعلم أنه حق      وأنت بذكره متهاون  
إن المنية لا تؤامر من أنت      في نفسه يوما ولا تستأذن

فقلت الحمد لله الذى وفق أمير المؤمنين لإنشاد مثل هذه الآيات فقال : بل لله المنية ، إذ ألزمتنا بذكره ، ووقفنا لشكره . ألم تسمع قول الحسن البصرى فى أهل المعاصى ؟ هانوا عليه فعصوه ، ولو عزوا عليه لعصمهم ، ومناقبه كثيرة .

الخليفة القائم بأمر الله ( ٤٢٢ - ٤٦٧ هـ = ١٠٣١ - ١٠٧٥ م ) :

ولى الخلافة بعد القادر ابنه القائم بأمر الله ، وهو فى الثانية والثلاثين من عمره ، وأمه أم ولد رومية تسمى بدر الدجى (وقيل قطر الندى) . وكان أبوه القادر قد ولاه عهده فى سنة ٤٢١ هـ (٤) .

(١) ورد هذا اللفظ فى كتاب تاريخ المسلمين لابن العميد (س ٢٦٣) كائن .

(٢) فى الاصل يا جائن . وقد وردت فى المصادر الأخرى يا خائن .

(٣) وردت فى ابن الأثير لا أبالك فى الذى ، وصحتها لا ينالك فالدى (ابن العميد س ٢٦٣) .

(٤) ابن الأثير ج ٩ س ١٥٤ .

وكان القائم — كما يقول أبو المحاسن — (١) ، متدينا ورعا زاهدا عالما ، في وجهه أثر صفار من قيام الليل . وكان يسرد (٢) الصوم ، . وقد عمر في الخلافة أربعاً وأربعين سنة (٣) .  
وكان الخليفة القائم في عهد سلطنة جلال الدولة وأبي كاليبجار والملك الرحيم كغيره من الخلفاء الذين سبقوه مسلوب السلطة ، في الوقت الذي أصبح فيه بنو بويه أكثر قوة ونفوذاً ، وغدوا يديرون العالم الإسلامي من غير أن يشيروا أو يحفلوا بمن يدعى أنه أمير المؤمنين (٤) . على أن ما أصاب الدولة العباسية من ضعف ووهن في ذلك الحين لم يكن راجعاً إلى ضعف الخلفاء فحسب ، بل كان راجعاً أيضاً إلى قيام النزاع والمنافسة بين بنو بويه من جهة ، وبينهم وبين الجند من جهة أخرى . ففي سنة ٤٢٤ هـ أصبحت البصرة مركزاً للصراع بين جلال الدولة وبين ابن أخيه أبي كاليبجار ( عماد الدولة ) بن سلطان الدولة الذي خطب له على منابرها ؛ ولكن جند جلال الدولة استردوا هذه المدينة ثم جلوا عنها في السنة التالية . كما شغب الجند على جلال الدولة وقبضوا عليه وأخرجوه من داره ؛ ولولا انقسام هؤلاء الجند على أنفسهم لزال ملك جلال الدولة الذي أفاد من جراء هذا الانقسام وعاد إلى بغداد بعد قليل (٥) .

وقد صور هارولد باون (٦) في مقاله الذي نشره في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية سنة ١٩٢٩ سوو مركز جلال الدولة منذ ولي السلطنة في بغداد سنة ٤١٦ هـ فقال : « إن إدارة جلال الدولة منذ تولي مقاليد الحكم في سنة ٤١٦ هـ كانت في غاية الضعف ، فإن بغداد قد غدت منذ ذلك الحين مسرحاً للشغب والمنازعات الطائفية ، وزاد هذه المنازعات تعقيداً منافسات الجند الذين كانوا يتألفون من أجناس مختلفة أهمها العرب والديلم والآتراك . أضف إلى ذلك أن الآتراك قد عطفوا على دعوى أبي كاليبجار بن سلطان الدولة ، الأخ الأكبر لجلال الدولة لتسهم عرش السلطنة في العراق . وقد قام هؤلاء الجند ثلاث مرات بمحاولات عشيفة ترمي إلى خلع جلال الدولة وتنصيب ابن أخيه أبي كاليبجار في السلطنة من بعده . وكانت الحروب بين الفريقين لا تنكاد تنقطع في السنين الأولى من حكم جلال الدولة . وبلغت الفوضى ذروتها في بغداد بعد سنة ٤٢٣ هـ ( ١٠٣٧ م ) ، وأرغم السلطان على الحرب من حاضرة العباسيين ثلاث مرات خوفاً على حياته . ولكن جلال الدولة وابن أخيه ( أبو كاليبجار ) عقدا الصلح سنة ٤٢٨ هـ ، فساد الوفاق بينهما . »

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٥ ص ٩٨ . (٢) سرد الصوم تابعه .

(٣) يقول أبو المحاسن ( ج ٥ ص ٩٨ ) : « ومن الغرائب أن القائم هذا كان معاصراً للمستنصر العبيدي ... وكلاهما مكث في الخلافة ما لم يمكنه غيره من آباءه وأجداده من طول المدة . فالقائم هذا مكث مدته أربعاً وأربعين سنة ، والمستنصر ستين سنة . » وقد نسي أبو المحاسن أن عبد الرحمن الناصر الأموي في الأندلس مكث في الحكم أكثر من خمسين سنة ( ٣٠٠ — ٣٥٠ هـ ) وإن لم يكن آباؤه من الخلفاء .

(٤) Arnold : The Caliphate, p. 68. (٥) ابن الأثير ج ٩ ص ١٦١ .

(٦) Harold Bowen : The Last Buwayhids, J. R. A. S. (1929), p. 229. (٦)



وقد ذكر ابن الأثير<sup>(١)</sup> في حوادث سنة ٤٣٢ هـ أن النزاع قام بين جلال الدولة البويهى وقرواش ابن المقلد العقيلي صاحب الموصل ، الذى لم يعياً بأوامر جلال الدولة ، وأخذ يؤلب الجند من الأتراك عليه . وانتهت الحروب التى قامت بينهما بعودة قرواش إلى طاعة بنى بويه .

ولم تكن المصاعب التى صادفت جلال الدولة مقصورة على ذلك النزاع ، الذى كان يقوم من حين إلى حين بين أمراء بنى بويه ، وشعب الجند عليه ، بل كان راجعاً أيضاً إلى تدمير الخليفة القائم منه بسبب تدخله فى شؤنه الخاصة . فى سنة ٤٣٤ هـ خرج جلال الدولة ، على ماجرت به العادة من إرسال أموال الجوالى<sup>(٢)</sup> إلى الخلفاء العباسيين مباشرة ، دون الرجوع إلى سلاطين بنى بويه . ولكن جلال الدولة ، أخذ ماتحصل منها ، وكانت العادة أن يحمل ما يحصل منها إلى الخلفاء ، لاتعارضهم فيها الملوك . فلما فعل جلال الدولة ذلك ، عظم الأمر فيه على القائم بأمر الله واشتد عليه ، وأرسل مع أقصى القضاة أنى الحسن الماوردى فى ذلك ، وتكررت الرسائل ، فلم يصغ جلال الدولة لذلك ، وأخذ الجوالى . فجمع الخليفة الهاشميين بالدار والرجالة ، وتقدم بإصلاح الطيار والزبازب ،<sup>(٣)</sup> وأرسل إلى أصحاب الأطراف وللقضاة بما عزم عليه ، وأظهر العزم على مفارقة بغداد .

توفى جلال الدولة فى شهر شعبان سنة ٤٣٥ هـ ، بعد أن حكم بغداد ست عشرة سنة وأحد عشر شهراً ، وكان فى الثانية والخمسين من عمره . وقد عرف بالضعف وسوء التدبير ، وامتاز عهده بازدياد نفوذ الجند والولاء . وكان ، كغيره من سلاطين بنى بويه ، مغالياً فى التشيع . وكان يكثر من زيارة مشهدى على بن أبى طالب وابنه الحسين ، حتى إنه كان يمشى حافياً قبل أن يصل إلى كل مشهد منهما نحو فرسخ ،<sup>(٤)</sup>

٩ — أبو كاليبجار (٤٣٥ — ٤٤٠ هـ) :

عمل جلال الدولة على أن يخلفه فى السلطنة ابنه الأكبر أبو منصور فيروز . وقد ولاه أبوه البصرة فى حياته ، ثم ولاه واسط بعد أن خرجت البصرة من يده . ولم يكن فيروز ، الذى لقبه الخليفة « الملك العزيز » ، كلفاً بشئون الدولة ، بل صرف وقته فى الانغماس فى الملاذ من ناحية ، وفى دراسة الأدب والتاريخ والنحو ونظم القصائد من ناحية أخرى<sup>(٥)</sup> .

ولم يستطع الملك العزيز الاحتفاظ بنفوذ أبيه فى بغداد . فقد استال أبو كاليبجار بن سلطان الدولة كبار القواد بالأموال ، فأقاموا الخطبة له ، واستقر أمره ببغداد ، على حين أخذ أنصار الملك العزيز ينفضون من حوله ، ولجأوا إلى الأمراء على غير جدوى ، حتى مات بميفارقين سنة ٤٤١ هـ

(١) ج ٩ ص ١٨٢ — ١٨٣

(٢) الجوالى هى الأشياء المختارة ، من الممتلكات أو من الشاء أو غيرها يختارها الخليفة لنفسه

(٣) الطيار والزبازب : ضرب من السفن

(٤) Harold Bowen : The Last Buwayhids, j. R. A. S. (1929), pp. 232 — 3

(٥) أبو الفدا ج ٢ : ص ١٦٧ .

بذلك استطاع أبو كاليبجار دخول بغداد ، ولكنه لم يجد من الخليفة القائم الذي لم يخرج للقائه الترحيب الذي كان يؤمله . ولما ضرب أبو كاليبجار الدبابت على داره في أوقات الصلوات الخمس ، وأمر الخليفة بقصرها على ثلاث مرات ، لم يحفل بأمر الخليفة<sup>(١)</sup> . وقد اعترف بنفوذ أبي كاليبجار سائر أمراء العراق ، واستولى أنصاره على همدان ، وطرّدوا نائب طغرل بك السلجوقي منها . وأمر أبو كاليبجار ببناء سور مدينة شيراز ، التي ظهر فيها إذ ذاك المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي (+ ٤٧٠ هـ) ، الذي شغل منصب داعي دعاة الفاطميين في فارس وداعي دعائهم في مصر بعد ذلك . ويرجع سبب بناء سور مدينة شيراز في سنة ٤٣٦ هـ ، إلى ما كان يخشاه أبو كاليبجار من اتساع نفوذ السلاجقة الذين ازداد خطرهم في الأربع سنين الأولى من حكمه .

وقد حارب أبو كاليبجار صاحب أصهان ، لنقضه العهد وانضمامه إلى طغرل بك السلجوقي ، واستيلائه على بعض نواحي كرمان ، وهزيمه ، وطرده من هذه البلاد . ولكن أبا كاليبجار نجح في استمالة صاحب أصهان الذي دعا له على منابرها في سنة ٤٣٨ هـ . وبعد ذلك بستين عقد الصلح بين أبي كاليبجار وبين طغرل بك ، الذي كتب إلى أخيه (إبراهيم بن ينال) يأمره بالكف عما وراء ما يديه . واستقر الحال بينهما ، على أن يتزوج طغرل بك بابنة أبي كاليبجار ، ويتزوج الأمير أبو منصور بن أبي كاليبجار بابنة الملك داود أخي طغرل بك<sup>(٢)</sup> .

وكان من أثر عقد الصلح الذي اقترن بربط البيتين البويهى والسلجوقي برباط المصاهرة ، أن تأجل استيلاء السلاجقة على بغداد إلى حين ، كما تأخر تهديد السلاجقة لأملاك الفاطميين في الشام ومصر . ويظهر ذلك جليا من هذا الكتاب الذي بعث به أبو كاليبجار في سنة ٤٣٩ هـ إلى المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي كما ورد في كتابه السيرة المؤيدية<sup>(٣)</sup> :

« فيجب أن تحقق ما كنت تبذله ، وتصور لتلك الحضرة الشريفة — دامت بالعزم مكتوفة — ما اطلعت عليه من شواهد صفاء عقيدتنا في مخالفتها ، وإيثارنا انتظام شمل سعادتها ، واستقامة أمور مملكتها ، وتعلمها أن هؤلاء التركان (سلاجقة طغرل بك) المستولين على أعمال خراسان والرى ، لا يقصر خطاهم عن بلادها المحروسة ، إلا ثبات عساكرنا المنصورة في وجوههم ، وانصراف هممنا إلى قمعهم وقلعهم<sup>(٤)</sup> ، وبذلنا الأموال في كف عادياتهم ، وامتداد جيوشنا الموفورة لمقارعتهم أين نجحوا وأين نبغوا ،

من ذلك نرى أن البويهيين الشيعة اتخذوا من التقرب إلى الفاطميين وسيلة لإثارة مخاوف العباسيين ، حتى لا يريتموا في أحضان أعدائهم السلاجقة السنيين . وكانهم بذلك رجعوا إلى السياسة التي أراد معز الدولة بن بويه أن يتبعها حيال الفاطميين ، بعد استيلائه على بغداد سنة ٤٣٤ هـ ، ولكنه أشير عليه بالعدول عن هذه السياسة على ما رأينا<sup>(٥)</sup> .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٧ — ٣٨ .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٩٩ .

(٣) مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول رقم ٣٦٠٠٦ ص ١١٥ — ١١٦ .

(٤) القرب حد السيف ، والمراد هنا بذل أقصى الجهد في القضاء على محاولتهم في سبيل امتلاك مصر .

(٥) انظر ص ١٠٢ — ١٠٣ من هذا الجزء .

ولولا أننا ضربنا بينهم وبين تلك المملكة المحروسة بالأسداد ، وتجردنا لممانتهم التي هي أكثر جهادنا ، لما سلمت أكنافها<sup>(١)</sup> من عوادي طغيانهم ، ولا اضطرت فيها نيران غيهم وعداوتهم . وأنهم لا يتجسرون إلا على حصولنا كالسد بيننا وبينهم ، ولا يتمنون إلا أن نسبل لهم السيل إلى قصدها . ولن يتم لهم باذن الله هذا المرام ، ولا تسعفهم به الأيام ، فإننا متجددون للانقضاء عليهم متى تجاوزوا حدود أعمالهم قيس شبر ، وعازمون على تلقيهم إن ساقهم حينهم (حتفهم) إلى حيث نلى مالكننا بقاصمة الظهر . ولشئ ... حرس الله نعمتها - أن لها من الانتفاع بمودتنا الحظ الأوفى والقسم الأوفر الأسمى . ومع ذلك فقد حدث هؤلاء نفوسهم بقصد الموصل عن طريق أذربيجان ، وإن تم لهم ذلك ، لم يؤمن من استعارة الفتن من جهتهم .

ولا غرو فقد قام هبة الله المؤيد في الدين الشيرازي بدور هام في نشر الدعوة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي في بلاد العراق ، واعتمد في نشر دعوته على تأييد السلطان أبي كاليجار البويهبي الذي عرف كغيره من البويهبيين بتشيعه وميله للفاطميين . أما الخليفة القائم العباسي فقد وجد في هبة الله الشيرازي خطراً يهدد كيان دولته ومذهبه السني في فارس ، فعمل على القضاء على جهوده ، وبعث سفيراً من قبله إلى أبي كاليجار يطلب إليه تسليم داعي الفاطميين ، ويهدده بالاستغاثة بالسلاجقة ودعوتهم إلى دخول بغداد . وقد بين المؤيد في الدين في سيرته ما بذله من جهود في سبيل نشر الدعوة الفاطمية ، وإقامة الخطبة للخليفة الفاطمي في شيراز ، وإحلال اسمه محل اسم الخليفة العباسي ، وكيف أثار هذا العمل غضب الخليفة العباسي الذي طلب من أبي كاليجار تسليم هذا الداعي الجريء إليه ، فلم يحفل السلطان البويهبي بذلك . وهالك عبارة المؤيد في الدين<sup>(٢)</sup> التي تبين لنا حجة العباسيين على أبي كاليجار وتهديدهم إياه : « أنه إن كانت دعوة تعزى إليهم (الفاطميين) في الأزمان المتقدمة ، فلقد كانت في الحفاء والستر ، مثل خبيثات الصدور ومكنونات القلوب . وإن أحداً ما جسر على مثل ما جسر عليه هذا الرجل (يعني هبة الله الشيرازي) الفاعل الصانع من الوقوف في بعض مواقف إظهاره وإشهاره ، والتجرد لرفع معالم ذكرهم بالصلاة والخطبة ، وإزالة أسامينا بالكلية ، وأنه إذا سومح في بابه وأهمل الاستيثاق وتسليمه في يد صاحبنا ، فقد أخرجتمونا من عهدتنا الأيمان والعهود بيننا وبينكم (أي بين العباسيين والبويهيين) ، وأحوجتمونا إلى استنصار من ينصرنا عليكم ، يعني التركانية . »

وإذا فقد كانت هناك علاقات مودة ووافق بين أبي كاليجار والفاطميين ، يعمل على توثيقها مؤيد الدين الشيرازي داعي دعاة الفاطميين ، وأن أبا كاليجار اتخذ من تقربه إلى هبة الله الشيرازي

(١) أكناف المني . جوانبه ونواحيه ، والمراد ممتلكات الفاطميين .

(٢) السيرة المؤيدية ص ٩٥ - ٦٩ .

وإلى والفاطميين سلاحاً يشهرة في وجه العباسيين ، حتى يحول بينهم وبين ما يتفوقونه من التقرب إلى السلاجقة الذين أخذوا يهددون سلطان بني بويه في ذلك الحين (١) . وكان من أثر ذلك أن تقرب أبو كاليبجار من المؤيد ، وأخذ يسمع محاضراته ويدرس كتب الاسماعيلية (٢) .

وقد نقل هارولد باون (٣) عن كتاب fārs- nāme أن الدعوة لطائفة الاسماعيلية أو السبعية ، الذين كانوا يعرفون بالباطنية في ذلك الوقت ، قد وجدت طريقها إلى قلوب الديلمة في فارس على يد ذلك الداعي القدير ، الذي نجح حتى في تحويل هذا الأمير ( أبي كاليبجار ) إلى عقائد هذا المذهب ،

وفي الحق أن الديلمة قد أصبحوا — كما يقول المؤيد في الدين (٤) — إلى صاحب مصر داعين وباسمه مبايعين ، وأصبحوا يتخذون المؤيد أباً لهم وأخاً وصاحباً ، واتخذوه الكل سرّاً ومفترزاً في كل شيء ، (٥) . ولو أن أبا كاليبجار استقصى الأمر ، لوجد ندماء أكثرهم بذلك ، دائنين ( أي آخذين بمذهبه ) وبشعاره متادين ، (٦) .

وفي سنة ٤٤٠ هـ سادت العلاقة بين أبي كاليبجار وبين واليه في كرمان ، فقصدته في شهر ربيع الآخر من هذه السنة . ولكن المنية عاجلته وهو في الطريق ، وتوفي في شهر جمادى الأولى سنة ٤٤٠ هـ وله من العمر أربعون سنة ، ومدة سلطنته أربع سنين وشهران وأيام ، وحكم فارس والأهواز خمساً وعشرين سنة (٧) .

وكان أبو كاليبجار — كما يصفه أبو المحاسن (٨) — شجاعاً فائقاً مشغولاً بالشرب واللهم ،

١٠ — أبو نصر الملك الرحيم (٤٤٠-٤٤٧هـ) :

لما علم أبو نصر خسرو فيروز بموت أبيه أبي كاليبجار ، وكان نائباً عنه في العراق ، أحضر الجند واستحلفهم ، وراسل الخليفة القائم بأمر الله في معنى الخطبة له وتلقيبه بالملك الرحيم ، وترددت الرسل بينهم في ذلك ، إلى أن أجيب إلى ماتمسه ، سوى الملك الرحيم ، فان الخليفة امتنع من إجابته وقال : لا يجوز أن يلقب بأخص صفات الله تعالى . واستقر ملكه بالعراق وخوزستان والبصرة ، (٩) .

وكان للملك الرحيم إخوة كثيرون هم : الأمير أبو منصور فلادستون ، وأبو طالب كامرو

(١) السيرة المؤيدية ، مخطوط س ٩٢ .

(٢) المصدر نفسه س ١١٥ .

(٣) Harold Bowen : The Last Buwayhids, J. R. A. S. (1929), p. 234.

(٤) السيرة المؤيدية ص ٤ . (٥) المصدر نفسه ص ١٣ .

(٦) المصدر نفسه ص ١٩ . (٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٤٦ .

(٨) المصدر نفسه ج ٥ ص ٤٦ . (٩) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٠٤ .

وأبو المظفر بهرام ، وأبو علي فناخسرو ، وأبو سعد خسرو شاه ، واسفنديار ، وبويه ، وأخ صغير وأختان ، تزوجت إحداهما الخليفة القائم وماتت سنة ٤٤٤ هـ ، وتزوجت الأخرى طغرلبك (١) . وقد استولى أبو منصور أخو الملك الرحيم على شيراز ، فسير إليه أخاه أبا سعد خسرو شاه ، فاستولى عليها ، وأقام الخطبة فيها للملك الرحيم . ثم سار الملك الرحيم إلى خوزستان ، فأذغنت له بالطاعة ، كما هزمت جيوشه الملك العزيز بن جلال الدولة الذي سار إلى البصرة طمعا في امتلاكها ، فانقطع أمه في العوده إلى السلطنة ، ومات في السنة التالية ( ٤٤١ هـ ) كما تقدم .

ولكن الأحوال تقلبت بالملك الرحيم ، فان أخاه أبا منصور صاحب فارس انتصر عليه وملك الأهواز ( سنة ٤٤١ هـ ) ، ولم يلبث أن خرج منها بسبب شغب الجند عليه ، وإعادة الخطبة للملك الرحيم الذي استرد الأهواز بنفسه في السنة التالية . وفي سنة ٤٤٣ هـ أرسل الملك الرحيم أخاه أبا سعد فاستولى على قلعة إصطخر ومدينة شيراز ، وانتهر أخوه الأمير أبو منصور صاحب فارس انشغال أبي سعد بالحروب ، وعاد هو وأنصاره إلى الأهواز وانتصر على الملك الرحيم واضطره إلى التقهقر إلى واسط . وفي سنة ٤٤٤ هـ حارب الملك الرحيم أخاه أبا علي فناخسرو في البصرة وانتصر عليه (٢) . وهكذا أصبحت مدن العراق وفارس مركزاً للنزاع بين الملك الرحيم وبين أخوته تارة ، وبينه وبين السلاجقة تارة أخرى .

وكانت هذه الحروب التي قامت بين أبناء أبي كاليجار من أهم عوامل ضعف بني بويه ، فانه بدلا من أن يستعين الملك الرحيم بأخوته على دفع خطر السلاجقة عن بلاده ، فانه قلم أظفاره بيده ، وهيباً لمنافسيه السلاجقة الأقوياء سبيل الاستيلاء على بغداد ، كما كانت مناوأة أبي الحارث البساسيري للخليفة المطيع من أهم العوامل التي عجلت بسقوط بني بويه .

كان أبو الحارث البساسيري من قواد بني بويه الأتراك ، وقد زاد نفوذه وتفاقم خطره في عهد الملك الرحيم ، حتى أصبح الخليفة العباسي والسلطان البويهي معه مساوياً السلطة ضعيف الجانب . ويقول الخطيب البغدادي (٣) : إن أرسلان التركي المعروف بالبساسيري كان قد عظم أمره واستفحل شأنه ، لعدم نظرائه من مقدسي الأتراك المسمون بالأسفهلارية ، واستولى على البلاد ، وانتشر ذكوه وطار اسمه ، وتهميته أمراء العرب والعجم ، ودعى له على كثير من المنابر العراقية ، وبالأهواز ونواحيها ، وجبى الأموال ، وخرّب الضياع . ولم يكن الخليفة القائم بأمر الله يقطع أمراً دونه ولا يحل ويعقد إلا عن رأيه .

ويقول أبو المحاسن ( ج ٥ ص ٤٦ ) إن الخليفة القائم بأمر الله لقبه « الملك الرحيم » وخلع عليه خلع السلطنة ، وكانت الخلع سبع جباب كاملة ، والناج والطورق والسواربن واللوايين ، كما كان فعل بعض الدولة .

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٠٤ ، Harold Bowen : J. R. A. S. (1929) , p. 227

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٠٦ - ٢٢٠ . (٣) كتاب تاريخ بغداد ج ٩ ص ٣٩٩ - ٤٠٠ .

وقد عزى ابن الأثير<sup>(١)</sup> تبدل العلاقة بين الخليفة القائم وبين أبي الحارث البساسيري إلى تقريب الخليفة أبا الغنائم وأبا سعد صاحباً قريش بن بدران العسقلبي اللذين وصلوا إلى بغداد سراً ، فامتعض البساسيري من ذلك وقال : هؤلاء وصاحبهم كبسوا حلال أصحابي ، ونهبوا وفتحوا البيوت وأسرفوا في إهلاك الناس ، وأراد أخذهم فلم يمكن منهم . . . وعاد ولم يقصد دار الخلافة على عادته ، فنسب ذلك إلى رئيس الرؤساء ( وزير القائم ) . واجتازت به سفينة لبعض أقارب رئيس الرؤساء ، فتمعها وطالب بالضريبة التي عليها . وأسقط مشاهرات الخليفة من دار الضرب ، وكذلك مشاهرات رئيس الرؤساء وحواشي الدار . . . وقال : ما أشكو إلا من رئيس الرؤساء الذي قد خرب البلاد ، وأطمع الغز<sup>(٢)</sup> ، وهم فرع من السلاجقة .

أما الخطيب البغدادي<sup>(٣)</sup> فيرى أن الخليفة القائم قد صح عنده سوء عقيدته ( يعني البساسيري ) ، وشهد عنده جماعة من الأتراك أن البساسيري عرفهم ، وهو إذ ذاك بواسط ، عزمه على نهب دار الخلافة والقبض على الخليفة ، فكانت الخليفة طغربك يستنصه على المسير إلى العراق . وأما الذهبي<sup>(٤)</sup> فيرى أنه قد وتحقق عند القائم بأنه ( البساسيري ) يكاتب المصريين ( يعني الفاطميين في مصر ) ، وكاتب الملك الرحيم بأمر بإبعاد البساسيري فأبعده . وكانت هذه الحركة من أعظم الأسباب في استيلاء طغربك على العراق .

والواقع أن العداء الذي قام بين الخليفة العباسي وبين البساسيري كان في حقيقة الأمر عداء بين العباسيين والبويهيين ، وبعبارة أخرى بين السنين والشيعيين . وقد كشف الخليفة القائم عن حقيقة تقرب بني بويه من الفاطميين على يد المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي ، وأدرك الخطر الذي

(١) ج ٩ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٢) كان ابن مسلمة المعروف برئيس الرؤساء قد وزر للخليفة القائم ، وكان يكره بني بويه لشيعةهم ، ويسمى جهده في إحلال السلاجقة السنين محلهم في حكم بغداد ، وبذلك يستطيع العباسيون القضاء على الفاطميين . يؤيد ذلك هذه الرسالة الممتعة التي بث بها المؤيد هبة الله الشيرازي ، وكان سفيراً للفاطميين إذ ذاك في العراق ، إلى وزير طغربك . ليقوع الخلاف بين السلاجقة والعباسيين من جهة ، وتقرب بين الفاطميين والسلاجقة من جهة أخرى . وهاك بعض ما جاء في هذه الرسالة : « يعلم سيدي الأجل عميد الملك ( أبو نصر محمد بن منصور الكندري ) أنني كنت خاطبت حضرته وهو يومئذ مقيم بالري ، خاطباً لمودته وطالباً لانتشاح الحال ( الانتشاح الاشتباك والمعنى المراد هنا الائتلاف ) بيني وبينه ، لما كان ييلغني من محاسن أوصافه وجميل خلاله وخصاله . ولأن يكون التعارف بيننا سلماً إلى التعارف بين سلاطيننا ، خلد الله ملكهم ، وتأكد سبب المودة بينهم ، انتهى منا إلى ما قال الله سبحانه وتعالى ( لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ) (سورة النساء آية ١١٤) وانفق من الأمر سبق ابن مسلمة إلى باطله ، حتى عمل سحره ونفذ كيده ، وحصل الركاب العالي (السلطان طغربك) ببغداد . وانبتت الكذب عينا وشهالا يكون قصده لفضله حق الخليفة ( القائم ) والسلام عليه والتبليغ بعده إلى مصر . السيرة المؤيدية ، مخطوط ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٣) تاريخ بغداد ج ٩ ص ٤٠٠ .

(٤) تاريخ الاسلام ، مخطوط تدار السكتب المصرية ، مخطوط منصور رقم ٣٩٦ تاريخ ج ٣ ورقة ٢٢٠ .

(١)

(٢)

(٤)

يهدد الخلافة العباسية السنية من ناحية الخلافة الفاطمية الشيعية . وليس من شك في أنه كان بين صفوف جند بني بويه من الديلم والأتراك عدد غير قليل على رأسهم البساسيري ، يرى وجوب تحويل الخلافة إلى الفاطميين ، فعمل الخليفة العباسي القائم على الحد من نفوذ أبي الحارث البساسيري وأنصاره وإبعادهم عن بغداد ، وتمهيد السبيل بذلك لدخول السلاجقة إليها . ولم يكن استنجد الخليفة العباسي بالسلاجقة أمراً مستبعداً ، فقد جرى الخلفاء العباسيون على هذه السياسة ، فاستعانوا بالفرس على العرب في تأسيس دولتهم ، ثم استعانوا بالأتراك على الفرس منذ عهد المعتصم ، ورأسلوا بني بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك ، وكتبوا إلى طغرل بك السلجوقي لينتشلهم من تحكم البساسيري ( وأنصاره ) ، حينما أراد تحويل الدعوة إلى الفاطميين في مصر ، بل أوفدوا الرسل إلى خوارزم شاه ليقبم شر السلاجقة . وكانت العوامل التي دفعت الخلفاء العباسيين إلى الاستنجد ببني بويه والسلاجقة وخوارزم شاه ، هي نفس العوامل التي دفعتهم إلى الاستنجد بالتتار . (١)

ومهما يكن من شيء فقد أرسل الخليفة القائم إلى طغرل بك ، أبا محمد هبة الله بن محمد بن الحسن بن المأمون يدعوه إلى بغداد (٢) . ويقول ابن الأثير (٣) في حوادث سنة ٤٤٧ هـ إن طغرل بك أظهر أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة ، والمسير إلى الشام ومصر ، وإزالة المستنصر العلوي صاحبها ، وقد أعد طغرل بك لذلك الأمر الخطير عدته . ولما وصل إلى حلوان هاجت بغداد وماجت ، وانتثر عيقد نظامها ، وأجفل الناس إلى غربيها ، وعسكر الأتراك بظاهرها . وسمع الملك الرحيم بقرب طغرل بك من بغداد ، فأصعد من واسط إليها ، وفارقه البساسيري في الطريق لمراسلة وردت من القائم في معناه إلى الملك الرحيم ، أن البساسيري خلع الطاعة وكاتب الأعداء ، يعني المصريين ، وأن الخليفة له على الملك عبود ، وله على الخليفة مثلها . فإن أثره فقد قطع ما بينهما ، وإن أبعد وأصعد إلى بغداد ، تولى الديوان تدبير أمره . فقال الملك الرحيم ومن معه : نحن لأوامر الديوان متبعون وعنه (يعني البساسيري) منفصلون ، (٤) .

على أن الأتراك الذين رضوا بإبعاد البساسيري ، أدركوا أن الخليفة لم يقصد بعمله هذا إلا إقصاءه ، لفسح الطريق لدخول طغرل بك ؛ وأظهر هؤلاء تدمرهم للخليفة ووزيره . ثم وصل الملك الرحيم إلى بغداد في منتصف شهر رمضان ، وأظهر إخلاصه للخليفة ، وقبل وساطته بينه وبين طغرل بك . فكان الملك الرحيم في ذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار ، لأن الخليفة قد عقد التنية ووطد العزم على الاعتضاد بالسلاجقة وإزالة سلطان بني بويه . فأشار الخليفة على الملك الرحيم وأنصاره بأن يبذلوا

(١) حسن إبراهيم حسن ، وعلى إبراهيم حسن : كتاب النظم الإسلامية ص ١٠٤ .

(٢) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٨ - ٩ . (٣) ج ٩ ص ٢٢٧ .

(٤) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

الطاعة ويخطبوا لطفربك ، الذي استطاع بذلك أن يدخل بغداد دون كبير عناء (١) .  
ويصف البندارى (٢) كيف دخل طفرلبك بغداد واستقر بها ، وكيف استقبل فيها ، وكيف  
أسس سلطانه على أنقاض سلطان البويهيين فقال : « وقد خرج رئيس الرؤساء وزير الإمام القائم  
لاستقبال السلطان ، ومعه أرباب المناصب وأصحاب المراتب ، وقاضى القضاة والشهود والجنود  
والهنود . فلما وصل إلى نهر «بَيْسِن» لقيه صاحب السلطان من المقرين ، وقدم للوزير فرسا ، وقال :  
هذا مركوب السلطان ، وقربه ، فنزل عن بغلته وركب . وجاءه بعد ذلك عميد الملك أبو نصر  
الكندرى فى موكب ضخم ، وغفر فخم . وقد وقف بتوقع مقلعه . فلما بصر به قصد عميد الملك  
أبو نصر (الوزير) أن يترجل فتمعه ، وتعانقا راكبين ، وخلطا الموكبين . ووصل السلطان إلى بغداد  
ونزل على دجلة عند مسناة (٣) عز الدولة ، رائع الهيبة رائع الهيئة ، قد ضاقت الأرض بجنودها ،  
وضاقت السماء عذبات (٤) بنوده ، فقبض على الملك الرحيم أبى نصر الديلى من نسل عضد الدولة ،  
وسيره إلى الرى ، فقطع عليه الأجل الطريق . وأذنت جموع ممالك الديلم بتفريقها ، وقبض عميد  
الملك أبو نصر الكندرى الوزير الأعز أبا سعد وزير الملك الرحيم ، (٥) .

وهكذا قضى السلاجقة بزعامة طفرلبك على الملك الرحيم آخر سلاطين بنى بويه فى العراق ، بعد  
أن حكموا أكثر من قرن ، واشتهروا بمناصرة الفن والثقافة ، وروجوا للذاهب الشيعية ، وشاع  
فى عهدهم الجدل والمناظرات الدينية بين السنين والشييعين ، ووقعت المنافسة بين أفراد البيت  
البويهى ، الأمر الذى مهد السبيل لدخول السلاجقة السنين ، الذين قامت العلاقات بينهم وبين  
العباسيين على أساس متين من المودة والصفاء ، بسبب اتفاقهم معهم فى المذهب الدينى . وسيتضح  
ذلك فى الباب التالى الذى سنفرده للكلام على الدول المستقلة .

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٢٨ . (٢) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٩ - ١٠ .

(٣) المسناة بضم الميم وتشديد النون : العرم ، وهى سد يعترض به الوادى ، أو هو الأحباس ، أى  
القناطر ، تبنى فى الأودية . (٤) جمع عذبة وهى طرف الراية .

(٥) خالف ابن الأثير (ج ٩ ص ٢٢٨ - ٢٢٩) البندارى فقال إن طفرلبك انتهز فرصة وثوب عامة بغداد  
بجنده ، واتهم الملك الرحيم بأن له مصلحاً فى ذلك . فلما ذهب هذا إلى معسكر طفرلبك يعتذر إليه ويبرىء  
نفسه أمر بالقبض عليه . وكان ذلك فى آخر شهر رمضان سنة ٤٤٧ هـ .



الباب الرابع

الدول المستقلة

م  
تم  
ود  
:  
سر  
لك  
داد  
ما  
ة  
ميد  
عد  
شاع  
يت  
ين  
ضع  
أى  
غداد  
برى

في  
الأم  
وتأ  
ابن  
٠٨  
٠٥  
فتس

دور  
الطا  
هي  
والا  
=  
في

٤٥  
مبيل  
الحل  
الس  
أجل  
لم  
عشر  
تحت  
أمها  
والب

استبد أمير الأمراء بالسلطة على ما تقدم ، وتولى بحكم الحكم في كافة أمور الدولة ، كما ذكر اسمه في الخطبة على جميع المنابر . واستقل أكثر الولايات الإسلامية عن الدولة العباسية ، وقامت الدولة الأموية بالأندلس ( ١٣٨ - ٥٨٩٧ = ٧٥٦ - ١٤٩٢ م ) زمن عبد الرحمن الأول الملقب بالناصر ، وتأسست دولة الأدارسة في المغرب الأقصى ( ١٧٢ - ٥٣١١ = ٧٨٨ - ٩٢٣ م ) ، أقامها إدريس ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ، ودولة الأغالبة في تونس ( ١٨٤ - ٥٢٩٦ = ٨٠٠ - ٩٠٨ م ) ، أقامها إبراهيم بن الأغلب . كذلك كانت سيادة الطولونيين ( ٢٥٤ - ٥٢٩٢ = ٨٦٨ - ٩٠٥ م ) والفاطميين ( ٣٦٢ - ٥٥٦٧ = ٩٧٤ - ١١٧١ م ) في مصر . كل ذلك كان ضربة شديدة فتتت في عضد الدولة العباسية ، فتقلص نفوذها عن جزء كبير من ولاياتها في الغرب .

أما في الشرق فلم تكن الأمور أحسن حالا ؛ فقد قامت في بلاد الفرس وبلاد ماوراء النهر عدة دويلات ، يرجع قيامها إلى انتعاش روح القومية التي ظهرت منذ أيام المأمون . فقد قامت الدولة الطاهرية ( ٢٠٥ - ٥٢٥٩ = ٨٢٠ - ٨٧٢ م ) في خراسان ، ومنهم انتقلت السلطة إلى أسرة جديدة هي الدولة الصفارية ( ٢٥٤ - ٥٢٩٠ = ٨٦٨ - ٩٠٣ م ) التي قامت على يد يعقوب بن الليث الصفار ، والدولة السامانية ( ٢٦٦ - ٥٣٨٩ = ٨٧٤ - ٩٩٩ م ) ، وتفرعت عنها الدولة الغزنوية ( ٣٦٦ - ٥٥٧٩ = ٩٧٦ - ١١٨٣ م ) ، لأن السبتيكين مؤسس هذه الدولة كان من الموالى الأتراك الذين استخدموا في البلاط الساماني .

وقد تفاقم خطر كثير من هذه الدويلات ، فقويت شوكة بني بويه ( ٣٣٤ - ٥٤٤٧ = ٩٤٥ - ١٠٥٥ م ) ، وكانوا من الشيعة الغلاة ، وامتد شرهم إلى حياة الخلفاء أنفسهم . وبما يدل على مبلغ الضعف الذي وصلت إليه الدولة العباسية ، وعلى قوة هذه الدولة التي آل إليها الحكم ، أن الخليفة العباسي لم يعد له من الأمر شيء سوى سلطته الدينية ممثلة بذكر اسمه في الخطبة ، ونقشه على السكة ؛ ولم يكن ذلك إلا لأغراض سياسية غايتها احتفاظ هؤلاء الحكام بمراكزهم أمام الجمهور . أجل ! لقد غدت السلطة المركزية في بغداد ملهى يلهو به المتنافسون ، وأصبحت من الضعف بحيث لم يعد الخليفة قادراً على المدافعة عن قاعدة الدولة ، وقد هددها الزنج الذين دامت ثورتهم زهاء أربع عشرة سنة ( ٢٥٥ - ٥٢٧٠ = ٨٦٩ - ٨٨٣ م ) عرضوا فيها كيان الدولة للخطر ، وغدت دلتا الفرات تحت رحمة قطاع الطرق الذين أدخلوا الفرع والملع في قلوب الأهليين ، وتعدى بلاؤهم إلى محاصرة أمهات المدن الإسلامية كالبصرة والأهواز وواسط . ذلك إلى ما كان من قيام النزاع بين المسلمين والبيزنطيين ، فقد انكشفت الدولة العباسية في عهد الخليفة المعتمد ( ٢٥٦ - ٥٢٧٩ = ٨٧٠ - ٨٩٢ م )

إلى حدود الجزيرة والعراق ، فانتبهز البيزنطيون فرصة هذا الضعف وأغاروا على آسيا الصغرى ، وامتدت فتوحاتهم إلى قلب سورية ، وعبروا نهر الفرات ، واكتسحوا كثيراً من المدن العريقة في الشهرة مثل الرها وميسا فارقين ونصيبين .

وكان لقيام هذه الدول أثر كبير في تقدم الحضارة الإسلامية ، ذلك أنه بعد أن كانت بغداد مركزاً لهذه الحضارة ، ظهرت مراكز أخرى تنافس حاضرة العباسيين في الحضارة ، وفي العلوم والمعارف ، مثل قرطبة والقاهرة وبخارى ، وأصبح كل منها قبلة للعلماء والشعراء والكتاب الذين تنقلوا بين هذه الخواضر طلباً للعلم أو ابتغاء الكسب . هذا إلى أن قيام هذه الدول لم يؤثر في مظاهر الحضارة الإسلامية ، بل على العكس عاد عليها بفوائد كثيرة . ولتذكر الآن طرفاً عن هذه الدول التي قامت في أيام الدولة العباسية ، وبخاصة في العصر الثاني ، وهو عصر الضعف والانحلال .

### الدولة الصفارية

٢٥٤ - ٢٩٠ هـ = ٨٦٧ - ٩٠٣ م

تأسست الدولة الصفارية على يد يعقوب بن الليث الصفار ( ٢٥٤ - ٢٦٥ هـ ) الذي أغار على بلاد الدولة الطاهرية في خراسان ( ٢٠٥ - ٢٥٩ هـ ) التي أسسها طاهر بن الحسين في عهد الخليفة المأمون ( ٢٠٥ هـ ) . وقد استقل بنو طاهر بحكم هذه البلاد ، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يعترفون بسُلطان الخليفة العباسي ، وامتد نفوذهم إلى حدود بلاد الهند ، ونقلوا قاعدتهم إلى نيسابور حيث بقوا فيها حتى سنة ٢٥٩ هـ .

كان يعقوب بن الليث وأخوه عمرو يشتغلان بعمل الصفر ، ويتظاهران بالزهد . وقد اشتهر أمر يعقوب ، وكان أحد زعماء المطوعة ، منذ سنة ٢٣٧ هـ . فقد استولى صالح بن النضر الكشاني على سجستان ، وكان يعقوب بن الليث أحد قواده . ولكن طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين أمير خراسان إذ ذاك استردها من هؤلاء المطوعة . وسرعان ما تغلب على هذه المدينة درهم بن الحسين زعيم المطوعة الذي ظهر عجزه ، فولى جنده قائده يعقوب بن الليث أمورهم ودانوا له بالطاعة ، لما رأوا من تدبيره وحسن سياسته وقيامه بأمرهم . . . فاستبد يعقوب بالأمر وضبط البلاد ، وقويت شوكته ، وقصدته العساكر من كل ناحية (١) . « تولى يعقوب أمر المطوعة وحارب الخوارج والشرأة ، فرزق الظفر بهم حتى أفنأهم وأخرب ضياعهم ، وأطاعه أصحابه بمكره ودهائه طاعة لم يطيعوها أحداً كان قبله . ثم اشتدت شوكته وازدادت صولته ، فغلب على سجستان وهرارة وبوشنج وما والاها (٢) .

(١) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣١٢

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣١٢ .

استولى يعقوب على بلاد سجستان كما تقدم؛ ولم يكن في أول أمره يريد أن يستقل عن الدولة العباسية، وإنما كان يرغب في أن يكون أميراً من قبل الخليفة العباسي، ليتمكن بذلك من الاستيلاء على البلاد التي كانت خاضعة لنفوذ آل طاهر. ولم يلبث يعقوب أن ضم إلى بلاده مدينة هراة، ثم احتلت جيوشه نيسابور (سنة ٢٥٩ هـ) قاعدة الدولة الطاهرية، مخالفاً أوامر الخليفة. ومدعياً أن أهل خراسان قد بعثوا إليه لاستخلاصها من آل طاهر. ويقول الطبري (١) : « ثم دخل نيسابور لأربع خلون من شوال بالعشي، فنزل طرفاً من أطرافها يعرف بدوادأباد، فركب إليه محمد بن طاهر، فدخل عليه في مضربه، فسأله، ثم أقبل على تأنيبه وتوبيخه على تفریطه في عمله، ثم انصرف. وأمر عزيز بن السري بالتوكيل به، وصرف محمد بن طاهر، وولى عزيز نيسابور. ثم حبس محمد بن طاهر وأهل بيته، وورد الخبر بذلك على السلطان (يعني الخليفة المعتمد) فوجه إليه حاتم بن زيرك بن سلام. ووردت كتب يعقوب على السلطان لعشر بقين من ذي القعدة (سنة ٢٥٩ هـ)، فقعد، فيما ذكر، جعفر بن المعتمد وأبو أحمد (الموفق) بن المتوكل في إيوان الجوسق. وحضر القواد، وأذن لرسول يعقوب، فذكر رساله ما تنهاه إلى يعقوب من حال أهل خراسان، وأن الشراة والمخالفين قد غلبوا عليها، وضعف محمد بن طاهر. وذكروا مكاتبة أهل خراسان يعقوب ومسألتهم إياه قدومه عليهم واستعانتهم. وأنه صار إليها. فلما كان على عشرة فراسخ من نيسابور، سار إليه أهلها فدفعوها إليه، فدخلها. فتكلم أبو أحمد وعبيد الله بن يحيى، وقالوا للرسول: إن أمير المؤمنين لا يقار يعقوب على ما فعل، وأنه يأمره بالانصراف إلى العمل الذي ولاة إياه، وأنه لم يكن له أن يفعل ذلك بغير أمره. فليرجع، فإنه إن فعل كان من الأولياء، وإلا لم يكن له إلا ما للمخالفين ».

ولم يكن يعقوب بن الليث يرى إلى القضاء على الدولة الطاهرية، بل عمل على أن يمد نفوذه على بلاد فارس وخراسان. لذلك نراه يحارب الترك على تخوم سجستان، « فرهبته الملوك الذين حوله، منهم ملك الموتان، وملك الرخج، وملك الطبيين، وملك زابلستان، وملك السند ومكران، وغيرهم، وأذعنوا له (٢)؛ كما حارب يعقوب بن الليث الحسن بن زيد (٢٥٠ — ٢٧٠ هـ) مؤسس الدولة العلوية في طبرستان وهرمه (٣) ».

وفي سنة ٢٦١ هـ بدأت أطماع يعقوب بن الليث الواسعة تظهر ظهوراً بيناً، وأدرك الخليفة العباسي المعتمد مدى الخطر الذي تستهدف له دولته من جراء ازدياد نفوذ هذا الرجل، فأضمر له العداة، وجمع ببغداد حاج خراسان والري وطبرستان وجرجان في شهر صفر. وقرى عليهم كتاب

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٣١٢ .

(١) ج ١١ ص ٢٢٢ .

(٣) الطبري ج ١١ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ .

الخليفة بلعن يعقوب بن الليث الصفار ، وأرسلت عشرات النسخ من هذا الكتاب إلى الأمصار لتذاع بين الناس (١) . وقد أثار الخليفة العباسي بعمله هذا حنق يعقوب بن الليث ، فأعد عدته لقصد العراق ، ثم سار إلى الأهواز ، وكانت الخليفة وسأله ولاية خراسان وبلاد فارس ، وما كان مضموماً إلى طاهر بن الحسين الخزاعي من الكور ، وشرطتي بغداد وسر من رأى ، وأن يُعقد له على طبرستان وجرجان والري وأذربيجان وقزوين ، وأن يُعقد له على كرمان وسجستان والسند ، وأن يحضر من قرئت عليهم الكتب التي نسخت في دار عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، ويقرأ عليهم خلاف ما قرئ عليهم أولاً . . . ليبطل ذلك الكتاب بهذا الكتاب . ففعل ذلك الموفق بالله أبو أحمد طلحة بن المتوكل على الله أخو الخليفة المعتمد على الله . . . وأجابه إلى ما طلب ، وجمع الناس وقرأ عليهم ما أحبه الصفار ، وأجيب إلى الولاية التي طلبها ، (٢) .

بيد أن أطاع يعقوب بن الليث لم تقف عند حد ، فلم يقنع بتولية الخليفة العباسي له على هذه البلاد ، بل عمل على قصد بغداد نفسها وحمل الخليفة على الإذعان لمطالبه . وبظهر أن يعقوب كان يعتمد على جيش قوى ، فقد ذكر ابن خلكان (٣) أن مساحة معسكره كانت ميلا في ميل ، وأن دوابه كانت في غاية الفراهية . ولكن ذلك كله لم يغيث شيئا ، فقد ثار جنده عليه حين رأوا الخليفة المعتمد على رأس الجيش ، خلعت به الهزيمة . وقد وصف الطبري في حوادث سنة ٢٦٢ هـ كيف حلت الهزيمة بيعقوب ، وما غنمه الخليفة من غنائم فقال : وقد ظهر من كثير ممن مع يعقوب كراهة القتال معه ، إذ رأوا السلطان قد حضر لقتاله ، فحملوا على يعقوب ومن قد ثبت معه للقتال ، فانهزم أصحاب يعقوب ، وثبت يعقوب في خاصة أصحابه حتى مضوا ، وفارقوا موضع الحرب . فذكر أنه أخذ من معسكره من الدواب والبيغال أكثر من عشرة آلاف رأس ، ومن الدنانير والدرهم ما يكمل عن حمله ، ومن جثرب المسك أمر عظيم .

وقد أنشد محمد بن علي بن فيد الطائي على أثر هزيمة يعقوب بن الليث قسيده يمدح فيها الخليفة المعتمد ، وأخاه أبا أحمد الموفق ، تنقل منها هذه الأبيات :

ولقد أتى الصفار في عدد لها	حسن فواقهن نكبة ناكب
جلب القضاء إليه حتماً عاجلاً	سقى ورعياً للقضاء الجالب
حتى إذا اختلفوا وطن بأنه	قد عز بين عساكر وكتائب
دلفت إليه عساكر ميمونة	بلقون زحفا بالسواء الغالب
في جحفل جلب ترى أبطاله	من دارع أو رامح أو ناشب

(١) الطبري ج ١١ ص ٢٣٤  
 (٢) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣١٦  
 (٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣١٧

وبدا الإمام براءة منصوره  
ولم عهد المسلمين موفقاً  
وكأنه في الناس بدره طالع  
لما التقوا بالمشرفية والقنا  
فل الجموع بحزم رأى ثاقب  
لله در موفق في بهجة  
يا فارس العرب الذي ما مثله  
في الناس يشرف آخره لنوائب (١)

على أن هذه الهزيمة لم تفت في عضد يعقوب بن الليث، فإنه لم يكتف بما استولى عليه من البلاد، بل أخذ يحارب بعض ولاة الخليفة. وفي أواخر سنة ٢٦٣ هـ، استولى على جند بسابور، ثم أخذ الأهواز من يد صاحب الزنج بعد حروب طاحنة (٢).

وقد ذكر ابن خلكان (٣) أن الخليفة المعتمد حاول أن يستميل إليه يعقوب بن الليث ليأمن جانبه، فيقول: «وكان الخليفة المعتمد قد أرسل إليه رسولا يترضاؤه ويستميله، ويقلده أعمال فارس؛ فوصل الرسول ويعقوب مريض، فجلس له، وجعل عنده سيفاً ورغيفاً... ومعه بصل. وأحضر الرسول فأدى الرسالة، وقال له: قل للخليفة إنني عليل، فإن مت فقد استرحت منك واسترحت مني، وإن عوفيت، فليس بيني وبينك إلا السيف هذا، حتى آخذ بسيفي أو تسكرني وتفقرني فأعود إلى هذا الخبز والبصل. وعاد الرسول، فلم يلبث يعقوب أن مات، (في جند بسابور) (٤). وكان موته لأربع عشرة ليلة خلت من شهر شوال سنة ٢٦٥ هـ. وقال أبو الوفاء الفارسي: رأيت على قبر يعقوب بن الليث صحيفة وقد كتبوا عليها:

ملكك خراسان وأكتاف فارس وما كنت من ملك العراق بآيس  
سلام على الدنيا وطيب نسيمها إذ لم يكن يعقوب فيها بحالس (٥)

اشتهر يعقوب بن الليث باليقظة وحسن التدبير، فكان يحسن اختيار رجاله، كما كان يحسن تنظيم جيوشه وإعدادها بالعدة والسلاح، وامتلات خزائنه بالأموال حتى قيل إنه ترك خمسين

(١) الطبري ج ١١ ص ٢٣٨ — ٢٣٩.

(٢) المصدر نفسه ج ١١ ص ٢٤٦ — ٢٤٧.

(٣) كتاب وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٢٠.

(٤) زاد نظام الملك في كتابه سياسة نامه (Siyāsat-nāma (ed. Schefer, pp. 13-16) أن يعقوب عدد المعتمد بإرسال رأسه إلى المهدي حاضرة الفاطميين، وهذا خطأ ظاهر، لأن يعقوب مات في سنة ٢٦٥ هـ أي قبل قيام الدولة الفاطمية بأحدى وثلاثين سنة. وكان تأسيس المهدي التي اتخذها عبيد الله المهدي الفاطمي حاضرة لدولته بعد ذلك بنحو سبع سنين.

أنظر أيضا Browne: Lit. Hist. of Persia, vol. I, p. 353.

(٥) ابن خلكان ج ٢ ص ٣١٩.

ألف ألف درهم ومئمانين ألف دينار . ويقول المسعودي (١) : وكانت سياسة يعقوب ابن الليث لمن معه من الجيوش سياسة لم يُسمع بمثلا فيمن سلف من الملوك من الأمم الغابرة من الفرس وغيرهم ممن سلف وخلف ، وحسن انقيادهم لأمره واستقامتهم على طاعته ، لما كان قد شملهم من إحسانه وعمرهم من بره وملا قلوبهم من هيبته . . . واتخذ لنفسه عريشاً من خشب يشبه السرير حيثما توجه من مسيره ، فيكثر الجلوس عليه ويشرف منه على أهل عسكره وعلى قضيم (٢) دوابه ، ويؤمن الخلل من وكلائه ، فاذا رأى شيئاً يكرهه يادر بتغييره . وقد كان انتخب من أصحابه ألف رجل على اختبار لهم والغنى الظاهر منهم والنكابة في حروبهم ، فجعلهم أصحاب الأعمدة الذهب ، كل عمود منها فيه ألف مثقال من الذهب . ثم يليهم في اللباس والغنى فوج ثان أصحاب الأعمدة الفضة . فاذا كان في الأعياد أو في الأيام التي يحتاج فيها إلى مباهاة الأعداء والاحتفال ، دفع اليهم تلك الأعمدة . وإنما ضربت هذه الأعمدة عدة للتواضع .

و سئلت بعض نقاته من ينظر حاله عن أشغاله في خلواته وعن مجالسته مع أهل بطاقته ، وهل يسير مع أحد أو يجالس ، قد ذكر أنه لا يطلع أحداً على سره ، ولا يعرف أحد بتدبيره وعزمه ، و [يكون] أكثر نهاره خالياً بنفسه يفكر فيما يريد ، ويظهر غير ما يضره ، ولا يشرك أحداً فيما يريد برأى ولا غيره . وإن تفرجه واشتغاله بغيره يتخذهم ويؤدبهم ويخبرهم ويدعوهم ويدفع لهم ما قد عمله لهم من السيور يتضاربون بها بين يديه ، ففي هذا أكثر شغله إذا فرغ من تدبيره . ولما واقع الصفار الحسن بن زيد الحسيني بطبرستان ، وذلك في سنة ستين ومائتين ، وقيل سنة تسع وخمسين ومائتين ، وانكشف الحسن بن زيد وأمعن يعقوب في الطلب ، وكانت معه رسل السلطان قد قصدوه بكتب ورسالة من المعتمد وهم راجعون في طلب الحسن بن زيد ، قال له بعضهم لما رأى من طاعة رجاله وما كان منهم في تلك الحرب : ما رأيت أيها الأمير كال يوم ؟ قال له الصفار : وأعجب منه ما أريك إياه ؛ ثم قربوا من الموضوع الذي كان فيه عسكر الحسن بن زيد ، فوجدوا البسدر والكسراع والسلاح والعُدود وجميع ما خلف في العسكر حين الهزيمة ، على حاله لم يلبس أحد من أصحابه منه بشيء ، ولا دنوا إليه معسكرين بالقرب منه ، من حيث يروونه بالموضع الذي خلقهم فيه الصفار ، فقال له الرسول : هذه سياسة ورياسة راضهم الأمير بها إلى أن تأتي له منهم ما أراد . وكان لا يجلس إلا على قطعة مسح يشبه أن يكون طوله سبعة أشبار في عرض ذراعين أو أرجح ، وإلى جانبه ترسه وعليه انكاؤه ، وليس في مَضْرَبِهِ شيء غيره . فاذا أراد أن ينام من ليله أو نهاره ، اضطجع على ترسه ونزع راية فيجعلها مخدته ، وأكثر لباسه خفتان مصبوغ فاختي .

و كان من سنته [أن] للقواد والرؤساء والعظماء عنده مراتب في الدخول بياب مضره ، بحيث تقع

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٤٣ - ٤٤٥ .

(٢) قضيم الدواب صوتها وهي تأكل من فضمت الدابة الشعر ، أي كسرتة بأطراف أستانها .



عينه عليهم ويرى مداخلهم ، فيمرون مع أطناب (١) الشقاف الى خيمة مضروبة ، بحيث لا يرى هو موضعها ، لكنه يرى مداخلهم اليها ويخرجهم منها . فمن احتاج اليه منهم واحتاج الى كلامه أو أمره أو نهيه دعاها فأمره . وكان دخولهم بحيث يقع نظره عليهم عوضا من السلام عليه ، ولم يكن لاحد أن يتقدم الى باب مجلسه إلا رجل من خواصه يعرف بالعزير وإخوته ، وله من وراء خيمته خيمة تقرب من أطناب مجلسه فيها غلمان من خواصه ، فاذا احتاج الى أمر يأمره به ، صاح بهم فخرجوا اليه ، وإلا فهو في أكثر نهاره وإيله في ذلك الموضع لا يقوّمون على رأسه ، وخيمته من داخل أخبية (٢) مطنية كلها ، يدور فيها خمسمائة غلام يبيتون من داخل مضربه ، على كل نفس منهم ثقة وكل يتفقد أحواله لئلا يكون منهم عبث أو فساد فهو المأخوذ به ... وقال بعض من ورد اليه رسالة السلطان : (٣) أيها الأمير ! أنت في رياستك ومجلسك ليس في خيمتك إلا سلاحك ومسح (٤) أنت عليه قال : ان رئيس القوم يأتم به أصحابه في أفعاله وسيرته ، فلو استعملت ما ذكرت من الأثام لانقلنا البهائم ولانتم بي في فعلى من في عسكري ، ونحن نقطع في كل يوم المهامه (٥) والمفاوز والأودية والقيعان (٦) ، ولا يصلح لنا إلا التخفيف . وكان قليل الاستعمال للبغال في عسكريه ، وكان في عسكريه خمسة آلاف جمل يخشى (٧) وأضعاف عددها حير شهب كالبغال ، وهي الحير المعروفة بالصقارية تحمل الانتقال عوضا عن البغال . وكان السبب في ذلك أنه اذا نزل خليت الجمال والحير للراعى وليس في وسع البغال ذلك .

يقول فيليب حتى (٨) إن يعقوب بن الليث الصفار استطاع أن يضم الى حوزته معظم بلاد فارس وبلاد الهند ، حتى لقد هدد بغداد نفسها في عهد الخليفة المعتمد . ويقول براون (٩) إن استقلال بلاد الفرس يمكن أن يقال انه بُعث عن طريق هذه الأعمال الباهرة التي قام بها يعقوب بن الليث الصفار الذي نجح ، على الرغم من أنه لم يكن من بيت عريق ، في تأسيس دولة استطاعت مع قصر عهدها أن تنشر نفوذها ، ليس في سجستان وحدها حيث قامت دولتها أول الأمر ، بل في معظم أرجاء فارس والى أسوار بغداد تقريبا .

(١) الطنب بضم الطاء وسكون النون ( أو ضمها ) : الحبل تشد به الخيمة ؛ ومطنب مشدود بالحبال .  
 (٢) الخباء هو كل ما يعمل من وبر أو صوف ، وقد يكون من شعر ، والجمع أخبية من كساء وأكسية ، ويكون على عمودين أو ثلاثة ، وما فوق ذلك فهو بيت .  
 (٣) يعنى الخليفة العباسى .

(٤) المسح بالكسر البلاس أو اللباس وجمعها مسح كعمل وحول .  
 (٥) هام يهيم على وجهه لا يدرى أين يتوجه ، والهيام المقازة التي لاماء فيها ، ورجل هيام عطشان .  
 (٦) القاع والقيعة ، وجمعها قيعان ، المستوى من الأرض الذي لا يثبت .  
 (٧) البختى بضم الباء وتسكين الحاء واحد البخت والبختى وهي الأبل الحراسانية ، وفي الأصل جمل بخت .

(٨) Hitti : History of the Arabs, p. 462. (٨)

Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. i. pp. 346, 347. (٩)

عمرو بن الليث الصفار (٢٦٥ - ٢٨٧ هـ).

لما توفي يعقوب بن الليث الصفار أقر أبو أحمد الموفق أخو الخليفة العباسي المعتمد أخاه عمرو ابن الليث على خراسان وفارس وأصبهان وسجستان والسند وكرمان والشرطة ببغداد، وخلع عليه. وبذلك اتسعت سلطة عمرو بن الليث وقبض على ما كان بيد أخيه، وأصاب عميد الله بن عبد الله ابن طاهر عنه في شرطة بغداد وسامرا، وبعث إلى الموفق بعمود من ذهب (١).

ويقول ابن خلكان (٢) إن عمرو بن الليث لما تولى ولايته أحسن في التدبير والسياسة حتى يقال: ما أدرك في حسن السياسة للجنود والهداية إلى قوانين المملكة منذ زمن طويل مثل عمرو بن الليث.

على أن العلاقة لم تلبث أن ساءت بين الدولة الصفارية والخلافة العباسية، فقد عزل الخليفة المعتمد عمرو بن الليث الصفار عن البلاد التي ولاه إياها، وأعلن هذا الخلع على ملا من حاج خراسان، ولعنه بحضرتهم، وأخبرهم أنه قلد محمد بن طاهر بن الحسين بلاد خراسان، وأمر بلعن عمرو على المنابر. بيد أن محمد بن طاهر آثر البقاء بحاضرة الخلافة واستخلف رافع بن هرثمة على خراسان.

وانتصرت جيوش المعتمد على عمرو بن الليث، وخرج أبو أحمد الموفق في سنة ٢٧٤ هـ لحرب عمرو، ولكنه لم يستطع الاستيلاء على كerman وسجستان من يد عمرو وعاد أدراجه (٣). ولما مات الخليفة المعتمد، وولى الخلافة بعده ابن أخيه المعتضد (٢٧٩ هـ)، عزل هذا رافع بن هرثمة الذي كان محمد

ابن طاهر قد أنابه تنه في ولايتها، وأعادها إلى عمرو بن الليث الصفار، ولكن رافعاً لم يذعن لأمر الخليفة وشق عليه عصا الهامة، وحارب عمرو بن الليث الذي انتصر عليه وقتله في شهر شوال سنة ٢٨٣ هـ، وبعث برأسه إلى المعتضد (٤)، الذي فرح لذلك غاية الفرح، وأرسل إليه الخلع واللواء دليلاً على رضائه عنه.

ولكن عمرا اعتذر عن قبول هذه الخلع وأصر على طلب ولاية ما وراء النهر، وكانت بيد إسماعيل بن أحمد الساماني، ولم يجد الخليفة بداً من تلبية طلب عمرو الذي لم تقف أطعاه عند حد وكتب إليه إسماعيل: إنك قد وليت دنيا عريضة، وأنا في يدي ما وراء

النهر، وأنا في نهر، فاقنع بما في يدك، واتركني مقبياً بهذا النهر، فأبى إجابته إلى ذلك. وذكر له من أمر نهر بلخ وشدة عبوره، فقال عمرو: لو شئت أن أسسكّره بيدي الأموال وأعبه لفعلت.

ولم يقدر عمرو الصعاب التي قد تقف في سبيله وتحول دون تحقيق أمنيته برغم قيادته للجيوش بنفسه، خلعت به الهزيمة ووقع أسيراً في قبضة إسماعيل بن أحمد الساماني وتشنت شمل جيشه الذي بلغ سبعين ألفاً أيدي سبا، ولم يجرح منهم أحد، وأسر قائد هذا الجيش. وكانت هذه الموقعة من المواقع الحاسمة، لأنها كانت عاملاً هاماً في سقوط الدولة الصفارية وقيام الدولة السامانية على أنقاضها (٥).

وذلك سنة ٢٨٧ هـ (٦).

(١) الطبري ج ١١ ص ٢٥٥ . (٢) كتاب ذوات الأعيان ج ٢ ص ٣٢٠ .

(٣) ابن الأثير ج ٧ ص ١٥٣ . (٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٢١ .

(٥) Browne : Lit. Hist. of Persia, Vol. I. p. 354.

(٦) ابن الأثير ج ٧ ص ١٧٨ - ١٧٩ .

ولما علم الخليفة المعتضد بهزيمة عمرو بن الليث فرح فرحاً شديداً وأشاد بذكر إسماعيل بن أحمد الذي سير عمرا إلى الخليفة ، وألبس عمرو دراعة ديباج وبُرُّ نُس السخط ، وحمل على جمل له سنامان يقال له إذا كان ضخما على هذه الصورة « الفالج » في غاية الارتفاع ، وكان عمرو قد أهدها فيما أهدى للخليفة . وقد ألبس الجمل الديباج وحمل بدوائب وأرسان مُفضضة ، وأدخل بغداد فاشتقها في الشارع الأعظم إلى دار الخليفة بقصر الحسين ، وعمرو رافع يديه يدعو ويتضرع دهاء منه ، فرقت له العمامة ، وأمسكت عن الدعاء عليه ، ثم أدخل إلى الخليفة ، وقد جالس له ، واحتفل به ، فوقف بين يديه ساعة وبينهما قدر خمسين ذراعا ، وقال له : هذا ببغيك يا عمرو ، ثم أخرج من بين يديه إلى حجرة قد أعدت له . وأنشد أحد الشعراء :

وحسبك بالصفار نبلا وعزة يروح ويندو في الجيوش أميرا  
جياهم بأجمال ولم يدر انهم على جمل منها يقاد أسيرا

وقال آخر :

أيها المغتر بالدنيا أما أبصرت عمرا  
أركب الفالج بعد الملك والعزة قسرا  
وعليه برنس للسخط إذلالا وقهرا  
رافعاً كفيه يدعو السله إسرارا وجهرا  
أن يتجيه من القتل وأن يعمل صفرا

ومات عمرو بن الليث في غد ذلك اليوم ودفن ، وقيل انه قُتل (١)

وكان عمرو — كما يقول ابن الأثير (٢) — عظيم السياسة ، قد منع أصحابه وقواده أن يضرب أحد منهم غلاما إلا بأمره ، أو يتولى عقوبة الغلام نائبه أو أحد حجاجه . وكان يشتري المماليك الصغار ويربهم ، ويهبهم لقواده ، ويجري عليهم الجرايات الحسنة سرا ليطالعوه بأحوال قواده ، ولا ينسكتم عنه من أخبارهم شيء . ولم يكونوا يعلمون من ينقل إليه عنهم ، فكان أحدهم يحذره وهو وحده .

وقد ذكر ابن خلكان أن عمرا لما أسر آل حكم الدولة الصفارية إلى حفيده طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث ، وذلك في شهر صفر سنة ٢٨٨ هـ . إلا أنه لم يكن له من الأمر شيء ، لاستبداد سبك السبكري غلام عمرو بن الليث بالسلطة ، حيث قبض عليه وعلى أخيه يعقوب بن محمد بن عمرو بن الليث في سنة ٢٩٦ هـ وبعث بهما إلى بغداد . وتغلب على بلاد فارس (٣) إلى أن طرده منها الليث بن علي بن الليث الصفار (٤) ، فاستنجد السبكري بالخليفة المقتدر ، فأمدّه بجيش بقيادة مؤنس الخادم (سنة ٢٩٧ هـ) ،

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٢٣ . (٢) ج ٧ ص ١٧٨ — ١٧٩ .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٢٤ . (٤) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠ .

وذكر ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٤٤ — ٤٢٥) أن الليث بن علي بن الليث كان تغلب على بلاد سبستان =

وكان في هذا الجيش من القواد بدر السكير والحسين بن حمدان ، وحلت الهزيمة بالليث الصفارى وأسر . ولكن الجو لم يصف للخلافة بسبب عصيان السبكرى وامتناعه عن إرسال الأموال الى بيت المال ، فكتب الوزير ابن الفرات الى مؤنس في واسط كتابا يقول فيه : « إن كنت فتحت فقد أغلقت ، وإن كنت قد أسرت فقد أطلقت ، ولا بد من أن تعود تحارب سبكرى . فعاد مؤنس الى الأهواز ، وأخذ سبكرى في ملاطفة مؤنس ومهاداته ، ومسئلته أن يبذل للسلطان عن أعمال فارس وكرمان زيادة على ما كان مقاطعا عليه القاسم بن عبيد الله في أيام المكتفى بالله ، فانه كان مقاطعا على أربعة آلاف ألف ، ففعل مؤنس ذلك وبذل عنه سبعة آلاف ألف ، فلم يرض بذلك ابن الفرات ، فلم يزل يزيد ألف ألف حتى بلغ تسعة آلاف ألف خالصة للحمل . وذكر أن باقى الارتفاع يحتاج اليه سبكرى لاعطاء الجند بفارس وكرمان ، وأعله كثرة المؤن هناك ، فأقام ابن الفرات على أنه لا يقنع إلا بثلاثة عشر ألف ألف ، فأشار مؤنس على سبكرى بأن يقارب السلطان والوزير ، فأبى سبكرى أن يزيد على عشرة آلاف ألف شيئا ، فاغتاظ الوزير من ثمان (١) سبكرى واتهم مؤنسا بالميل اليه ، (٢) . وقد بعث الخلافة العباسية الجيوش تلو الجيوش للقضاء على السبكرى ، ولم تستطع القبض عليه ، حتى تمكن أحمد بن إسماعيل السامانى من الاستيلاء على سجستان والقبض على محمد بن على بن الليث الصفارى ، ثم على السبكرى ، وبعث بهما الى بغداد ، وذلك في شوال سنة ١٩٨ هـ (٣) على ماسياتى . ومن ثم زالت الدولة الصفارية (٤) التى لم يقتصر خطرهما على انتزاع ذلك الجزء الكبير من أراضي الدولة العباسية ، بل حاول يعقوب فتح بغداد ، واقتنى أخوه عمرو وأثره ، ولسكنهما لم يصل الى بغيتهما . ويرجع ضعف الدولة الصفارية وزوالها الى موقف الخلافة العباسية العدائى منها ، وبذلها الجهود المتصلة للقضاء عليها ، وموقف السامانيين منها . فقد هزم إسماعيل بن أحمد السامانى جيوش عمرو بن الليث الصفارى وأسرهم وأرسلهم الى بغداد ، وقضى ابنه أحمد بن إسماعيل عليها نهائيا . أضف الى ذلك مناوأة بعض القواد منهم ، وكان من أشد هؤلاء خطرا سبكرى غلام عمرو بن الليث الصفار ، الذى كان لثورته أثر كبير فى ضعف هذه الدولة وزوالها فى النهاية (٥)

== فى سنة ست وتسعين ومائتين . وجرى بين سبكرى ومطهر بن محمد المذكور ما جرى ، واستقرت البلاد للسبكرى ، فاستخلف الليث المذكور على سجستان اخاه الممدل (بن على) بن الليث ، وسار الى بلاد فارس ، فهرب السبكرى منه يطلب من الخليفة النجدة . انظر ايضا عريب بن سعد : كتاب صلة تاريخ الطبرى ص ١٧ - ١٨ حيث نجد ان سبب القبض على طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث الصفار واخيه يرجع الى تأخير طاهر إرسال « ما كان يلزمه من المال الموظف عليه من أموال فارس ، ودافع به فكتب سبكرى غلام عمرو ابن الليث يتضمن حمل المال وإيراده ، واستأذن فى توجيه طاهر واخوه اسرى الى باب السلطان ، فأجيب لى ذلك » .

(١) متن القىء بالضم متانة اشتد وقوى فهو متين .

(٢) مسكويه : كتاب تجارب الأمم ج ١ ص ١٨ - ١٩ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ١٩ - ٢٠ . وابن الأثير ج ٨ ص ٢٠ - ٢١ .

(٤) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٢٥ .

(٥) Stanley Lane - Poole : Muhammadan Dynasties, pp. 129 - 130 .

## الدولة السامانية

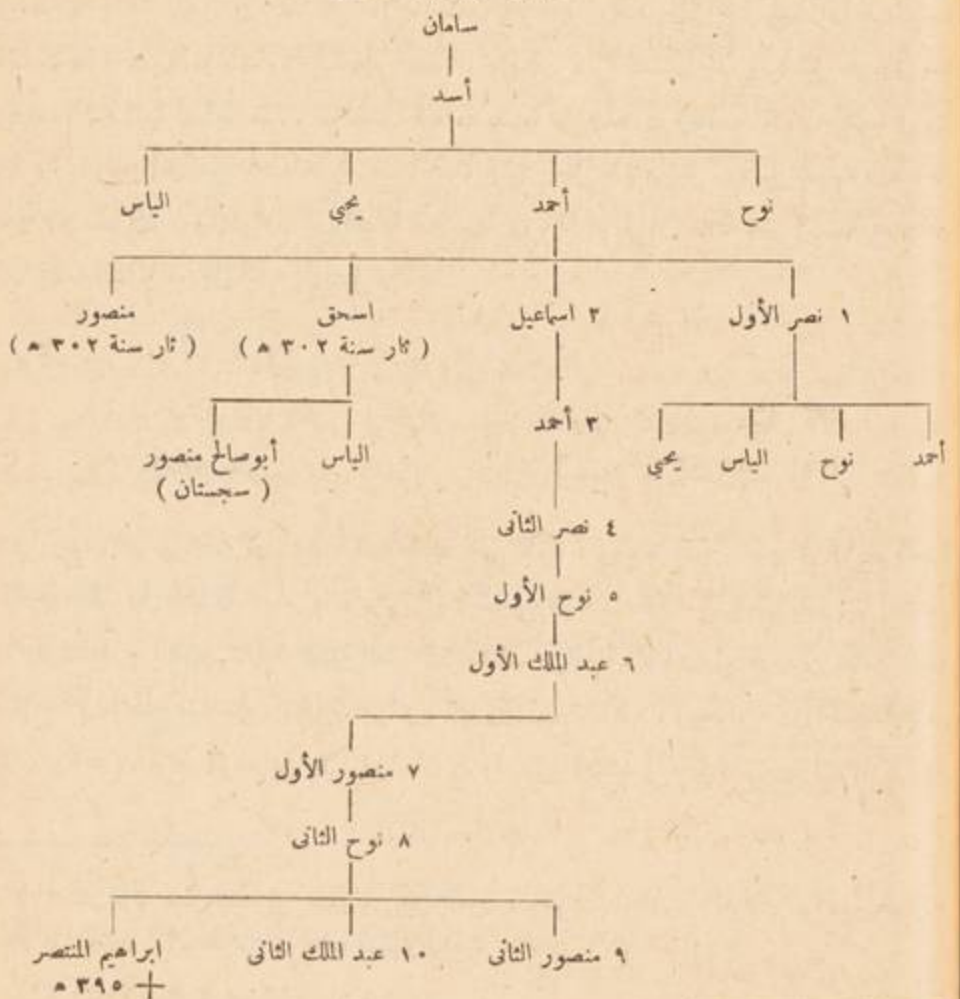
٢٦١ - ٨٣٨٩ = ٨٧٤ - ٩٩٩ م

البيت الساماني (١)

هجري	ميلادية	هجري	ميلادية
٢٦١	٨٧٤	(١) نصر الأول بن أحمد	(٦) عبد الملك الأول بن نوح
٢٧٩	٨٩٢	(٢) اسماعيل بن أحمد	(٧) منصور الأول بن نوح
٢٩٥	٩٠٧	(٣) أحمد بن اسماعيل	(٨) نوح الثاني بن منصور
٣٠١	٩١٣	(٤) نصر الثاني بن أحمد	(٩) منصور الثاني بن نوح الثاني
٣٣١	٩٤٢	(٥) نوح الأول بن نصر	(١٠) عبد الملك الثاني بن نوح الثاني

[ خانات تركستان ؟ الغزنويون ]

تسلسل آل البيت الساماني



تنسب هذه الدولة إلى أسرة فارسية عريقة في المجد ، يرجع أصلها إلى بهرام جور . وقد نال السامانيون حظوة كبيرة عند الخليفة المأمون ، فولاهم بلاد ما وراء النهر ، ورفع من شأنهم . وقد ارتد سامان عن مذهب زرادشت واعتنق الاسلام ، وسمى ابنه باسم أسد بن عبد الله القسرى والى خراسان في أواخر عهد الأمويين . وظهر أولاد أسد بن سامان في عهد الخليفة المأمون ، فولى نوح بن أسد (١) سمرقند في سنة ٢٠٤ هـ ، وأحمد بن أسد فرغانة ، ويحيى بن أسد الشاش وأشر وستة ، وإلياس بن أسد هراة . ولما ولي طاهر بن الحسين بلاد خراسان أقرهم في هذه الأعمال .

وكان لأحمد بن أسد سبعة أولاد ، اشتهر منهم نصر بن أحمد بن أسد بن سامان ، وإسماعيل بن أحمد ابن أسد بن سامان . فلما توفي أحمد خلفه ابنه نصر على سمرقند وما يليها ، فبقي والياً عليها من قبل الظاهريين حتى ولاة الخليفة العباسي بلاد ما وراء النهر سنة ٢٦١ هـ . ومن ثم تأسست الدولة السامانية ، وأصبح نصر بن أحمد الساماني من القوة بحيث يستطيع أن يولى من يشاء من قبله على بلاد ما وراء النهر ، فولى أخاه إسماعيل بن أحمد على بخارى (سنة ٢٦١ هـ) ، ولكن النزاع لم يلبث أن دب بينهما بسبب إثارة خصومهما العداوة والبغضاء بينهما ، حتى إن نصر أقصد أخاه إسماعيل لخرابه في سنة ٢٧٢ هـ ، ولكنهما تصالحا مدة ، ثم ساءت العلاقة بينهما من جديد ، وقامت الحرب بينهما في سنة ٢٧٥ هـ ، فظفر إسماعيل بأخيه نصر . فلما حُمل إليه ترجل له إسماعيل ، وقبّل يديه ، وردّه من موضعه إلى سمرقند ، وتصرف على النيابة عنه ببخارى ، (٢) ، إلى أن مات نصر في سنة ٢٧٩ هـ ، فآلت زعامة السامانيين إلى أخيه إسماعيل بن أحمد .

وكان نصر شاعراً ديباً عاقلاً . وقد قال في رافع بن هرثمة :

أخوك فيك على خبير ومعرفة إن الدليل ذليل حينما كانا  
لولا زمان خنون في نصرته ودولة ظلمت ما كنت إنسانا (٣)

وفي عهد إسماعيل ظهرت الدولة السامانية بظهور القوة ، وقامت بدور خطير في إزالة الدولة الصفارية . فقد ولي الخليفة العباسي عمرو بن الليث الصفاري بلاد ما وراء النهر التي كان يملكها إسماعيل ابن أحمد الساماني ، الذي حاربه بجيشه الذي كان يتألف من مائة ألف رجل مزودين بكامل العدة والسلاح . واستطاع إسماعيل أن يهزم عمرا ويأسره ويستبيح عسكره ، ويبعث به إلى الخليفة العباسي (سنة ٢٨٧ هـ) ، ويمد نفوذه على بلاد خراسان ، وأرسل المعتضد إليه بالخلع ، وولاه ما كان يبد

(١) كان نوح هذا عاملاً على بخارى من قبل المأمون ، وهو الذي أهدى إليه طولون أبو أحمد بن طولون ، فأهداه إلى المأمون . أبو المحاسن : كتاب النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣١١ - ٣١٢

(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ٩٩ و ١٠٠ .

(٣) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٦٣ .

عمر ( بن الليث الصفار ) ، وخلع على نائبه بالحضرة (١) .

وقد تمكن إسماعيل بن أحمد الساماني من فتح بلاد طبرستان من يد أميرها محمد بن زيد الذي كان ينازع السامانيين السلطة في خراسان ؛ على أن القائد الذي تم على يديه فتح هذه البلاد لم يلبث أن ثار عليه ، واتخذ البياض شعاراً له ، مناوئاً بذلك العباسيين الذين اتخذوا السواد شعاراً لهم . وسار إسماعيل ابن أحمد على رأس جيش كبير وأحل الهزيمة بهذا القائد ، وضم الري وقزوين إلى سلطانه ، وبذلك أمن حدود بلاده من ناحية الغرب ( سنة ٢٨٩ هـ ) .

وفي سنة ٢٩١ هـ صد إسماعيل جيوش الترك الذين أغاروا على حدود بلاده الشرقية (٢) . ومات إسماعيل في مدينة بخارى سنة ٢٩٥ هـ . (٣)

وقد وصف ابن الأثير (٤) إسماعيل بن أحمد الساماني في هذه العبارة فقال : وكان خيرًا يحب أهل العلم والدين ، ويكرمهم ، ويبركتهم دام ملكه وملك أولاده ، وطالت أيامهم . . . وقال في موضع آخر (٥) : وكان عاقلاً عادلاً ، حسن السيرة في رعيته ، حليماً . . . حكى عنه أنه كان لولده أحمد مؤدب يؤدبه ، فر به الأمير إسماعيل يوماً ، والمؤدب لا يعلم به ، فسمعه وهو يسب ابنه ويقول له : لا بارك الله فيك ولا فيمن ولدك . فدخل إليه ، فقال له : يا هذا ! نحن لم نذنب ذنباً لتسببنا ، فهل ترى أن نُعطينا من سبك ، ونخص المذنب بشتمك وذمك ؟ فارتاع المؤدب ، فخرج إسماعيل عنه وأمر له بصلة جزاء لحوفه منه . وقيل : جرى بين يديه ذكر الأنساب والأحساب ، فقال لبعض جلسائه : كن عصامياً ولا تكن عظامياً ، فلم يفهم مراده ، فذكر له معنى ذلك . وسأل يوماً يحيى بن زكريا النيسابوري ، فقال له : ما السبب في أن آل معاذ ( وكانوا يحكمون خراسان قبل الطاهريين ) لما زالت دولتهم بقيت عليهم نعمتهم بخراسان مع سوء سيرتهم وظلمهم ، وأن آل طاهر لما زالت دولتهم عن خراسان ، زالت معها نعمتهم مع عدلهم وحسن سيرتهم ونظرهم لرعيتهم ؟ فقال له يحيى : السبب في ذلك أن آل معاذ لما تغير أمرهم ، كان الذي ولي البلاد بعدهم آل طاهر في عدلهم وإنصافهم واستعفافهم عن أموال الناس ورغبتهم في اصطناع أهل البيوتات . فقدموا آل معاذ وأكرمواهم ، وأن آل طاهر لما زالت عنهم [ دولتهم ] ، كان سلطان بلادهم آل الصفّار في ظلمهم وغشهم ومعاداتهم لأهل البيوتات ، ومناصرتهم لأهل الشرف والنعم ، فأتوا عليهم وأزالوا نعمتهم ، فقال إسماعيل : لله درك يا يحيى ، فقد شقيت صدرى ، وأمر له بصلة . ولما ولي بعد أخيه كان يكتب أصحابه

(١) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٧٩ .

(٢) أنظر لفظ إسماعيل بن أحمد في Encyclopaedia of Islam, vol. II, pp. 545-6 .

(٣) ولا يزال قبره حتى اليوم في مدينة بخارى التي ارتقت في عهد إسماعيل ، حتى أصبحت من أهم الحواضر الإسلامية . على أنه ليست هناك نقوش تدل على أن هذا القبر هو قبر إسماعيل ، كما يستدل من النكتات التي نقشت على القبر نفسه أو على الأبنية المحيطة به .

(٤) المصدر نفسه ج ٨ ص ٢ - ٣ .

(٥) ج ٧ ص ١٠٠

وأصدقاه بما كان يكاتبهم أولا ، فقيل له في ذلك فقال : يجب علينا اذا زادنا الله رفعة أن لا نتقص لإخواننا ، بل نزيدهم رفعة وعلاء وجاها ، ليزيدوا لنا إخلاصا وشكرا .

### الصمير بن اسماعيل (٢٩٥ - ٥٣٠١) :

لما توفي إسماعيل بن أحمد الساماني في سنة ٢٩٥ هـ ، أقر الخليفة المكتفي ابنه أبا نصر أحمد بن إسماعيل على ولاية أبيه وخلع عليه (١) . وقد تم على يديه زوال الدولة الصفارية ، فأسر غلامه سيمجور ، سبك السبكي غلام عمرو بن الليث الصفار ، كما أسر الليث بن علي الصفاري (٢) . وفي المحرم من هذه السنة استولى السامانيون على سجستان من يد المعدل بن علي بن الليث الصفاري وأسر أخاه أبا علي محمد بن الليث ، وبعث بسبكي ومحمد إلى بغداد (٣) . على أن هذه البلاد لم تلبث أن خلعت طاعة أحمد بن إسماعيل ، ودعا أهلها عمرو بن يعقوب بن محمد بن عمرو بن الليث الصفار ، فأرسل السامانيون الجيوش لإخضاعها ، واستمرت الحرب بين الفريقين نحو من سنة حتى تم النصر للسامانيين ، وقبض على الصفاري ، وتولى سيمجور على سجستان من قبل السامانيين .

ولم تطل ولاية أحمد بن إسماعيل حيث قتل في سنة ٣٠١ هـ . وقد ذكر ابن الأثير (٤) أنه كان مولعا بالصيد ، فخرج متصيذا ، فلما انصرف أمر باحراق ما اشتمل عليه عسكريه وانصرف ، فورد عليه كتاب نائبه بطبرستان ، وهو أبو العباس صعلوك ، وكان يليها بعد وفاة ابن نوح بها ، يخبره بظهور الحسن بن علي العلوي الأطروش وتغلبه عليها ، وأنه أخرجه عنها ، فغم ذلك أحمد وعاد إلى معسكره الذي أحرقه فنزل عليه ، فنتظير الناس من ذلك . وكان له أسد يربطه كل ليلة على باب ميته ، فلا يجسر أحد أن يقربه ، فأغفلوا إحضار الأسد تلك الليلة ، فدخل إليه جماعة من غلبانه فذبجوه على سريره وهربوا . وكان قتله ليلة الخميس لسبع بقين من جمادى الآخرة سنة إحدى وثلاثمائة ، فحمل إلى بخارى فدفن بها ، ولقب حينئذ بالشهيد .

### الصمير نصر الثاني بن الصمير (٣٠١ - ٣٣١) :

كان أبو الحسن نصر بن أحمد الساماني في الثامنة من عمره حين قتل أبوه ، واستصغر الناس سنه ، واستضعفوه ، واعتقدوا أن أمره لا ينتظم مع وجود عم أبيه ، وهو إسحق بن أحمد بن أسد صاحب سمرقند الذي استمال أهالي بلاد ما وراء النهر - عدا بخارى - إليه وإلى أولاده ، وأرسل هو وبعض أمراء البيت الساماني إلى الخليفة العباسي المقتدر يسأله كل منهم إمرة ناحية من نواحي خراسان ؛ ولما سكن الخليفة أقر نصرا على بلاد أبيه ، وأقر اللقب الذي تلقب به وهو السعيد ، وضبط بلاده ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني (٥) .

(٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١٩ .

(١) الطبري ج ١٢ ص ١١ .

(٤) ج ٨ ص ٢٧ .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٢١ - ٢٢ .

(٥) المصدر نفسه ج ٨ ص ٢٨ .



وقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٣٠١ هـ أن إسحق بن أحمد بن أسد الساماني عم أبيه أحمد ، وابنه إلياس بن إسحق ، ثارا على السعيد نصر ، وسارا نحو بخارى . ولكن الهزيمة حلت بهما غير مرة ، واستولت جيوش نصر على سمرقند ، واختفى إسحق ، ثم أسر ، وهرب ابنه إلياس إلى فرغانة (١) . وخرج ابنه الثاني أبو صالح منصور على نصر في السنة التالية ، وانضم إليه بعض قواد نصر وعملوا على الاستيلاء على سجستان على أن يتولوا نيابة عنه ، وأقاموا الخطبة له على منابر نيسابور ، واستمرت الحروب بين جيوش نصر وجيوش ابن عمه منصور زهاء أربع سنين (٣٠٢ - ٣٠٦ هـ) ، وانتهت بعودة نيسابور وغيرها إلى نفوذ نصر (٢) .

وفي سنة ٣٠٧ هـ انتصر نصر بن أحمد الساماني على أحمد بن سهل ، وكان قد تولى مرو من قبل عمرو بن الليث ، فقبض عليه عمرو ونقله إلى سجستان وحبسها ، فخرج من سجنه وقصد مرو واستولى عليها ، ودخل في طاعة اسماعيل بن أحمد الساماني ، وأصبح من كبار قواد السامانيين ، حتى فترت العلاقة بينه وبين نصر الثاني ، فنار بنيسابور واستولى عليها وأسقط خطبة نصر ، وأنفذ رسولا إلى بغداد يخطب له في أعمال خراسان ، وسار من نيسابور إلى جرجان ... واستولى عليها ... ثم عاد إلى خراسان ، وقصد مرو واستولى عليها وبني عليها سورا وتحصن بها ، فأرسل إليه السعيد نصر الجيوش مع حَمَـوَيْه بن علي من بخارى ، فوافى مرو الروذ (٣) . ولم تزل جيوش نصر بن أحمد تشدد الحصار على أحمد بن سهل حتى قبضت عليه وأسرت ، وسيق إلى بخارى وحبس ، فمات بها سنة ٣٠٧ هـ (٤) .

هذا ، ونعود إلى الكلام على إلياس بن إسحق بن أحمد بن أسد الساماني ، الذي كان قد ثار مع أبيه على نصر الثاني وهرب إلى فرغانة ، فنقول إنه أخذ يعد العدة لمحاربة نصر حتى اجتمع حوله ثلاثون ألف فارس ، ثم قصد سمرقند مناوئاً نفوذ السعيد نصر بن أحمد الذي انتصرت جيوشه عليه في سنة ٣١٠ هـ ، وأرغمته على الهرب إلى فرغانة والاختفاء بها ، ثم أخذ يعد العدة من جديد بمعونة صاحب الشاش ، ولكن الهزيمة حلت به ، وأسر صاحب الشاش ومات . ويقول ابن الأثير (٥) : «وأما إلياس فصاهر دهقان كاشغر واستقر بها ، ثم ولي محمد بن المظفر فرغانة ، فرجع إليها إلياس بن إسحق معانداً ، فخاربه محمد بن المظفر فهزمه مرة أخرى ، فعاد إلى كاشغر ، فكاتبه محمد بن المظفر واستماله ولطف به ، فأمن إلياس ، وحضر إلى بخارى ، فأكرمه السعيد وصاهره وأقام معه .»

(٢) المصدر نفسه ج ٨ ص ٣٠ - ٣١ .

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٨ .

(٣) المصدر نفسه ج ٨ ص ٤٠ - ٤١ .

(٤) وقد بلغ من خوف السامانيين من أحمد بن إسحاق الساماني : «لا ينبغي لأحد بن سهل أن يغيب عن باب السلطان ، فانه إن غاب عنه أثار شقلا عظيماً ، كأنه كان يتوسم منه ما فعل .» ابن الأثير ج ٨ ص ٤١ .

(٥) ج ٨ ص ٤٥ .

وكانت العلاقة بين السامانيين والخلافة العباسية تقوم على أساس المودة، حتى إن الخلفاء كانوا يعتمدون على أمراء البيت الساماني في إقرار سلطانهم في بلاد المشرق. ولما دعا الخليفة المقتدر يوسف بن أبي الساج إلى واسط لإنفاذه لمحاربة القرامطة، كتب إلى السعيد نصر الثاني الساماني بولاية الري، وأمره بقصدها والاستيلاء عليها من فاتك غلام يوسف بن أبي الساج، فاستولى عليها نصر وولى عليها سيمجور وعاد إلى بخارى (١). وفي سنة ٣٣٢ هـ ثار أبو علي محمد بن إلياس على نصر بن أحمد الساماني واستولى على كرمان، فسير إليه نصر ما كان بن كالي على رأس جيش كثيف، فأحل الهزيمة بابن إلياس، واستولى على كرمان وولياها من قبل السامانيين. على أن ما كان بن كالي خرج على السامانيين في جرجان سنة ٣٢٨ هـ، فأرسل إليه نصر بن أحمد جيشاً هزمه واستولى على هذه البلاد وأعادها إلى نفوذ السامانيين. واتزعت جيوشهم كذلك الري من يد وشمكير بن زيار (أخي مرداويج بن زيار)، بعد أن هرب إلى طبرستان، ثم دخل في طاعة السامانيين، ومن يد ما كان بن كالي الذي قتل، ثم أخذت جيوش السامانيين يتتابع انتصارها، فاستولت على أهر وقزوين وقدم وهمذان ونهاوند والدينور حتى بلغت حدود خيلوان (٢).

كان السعيد نصر بن أحمد على جانب عظيم من حسن الخلق. وقد وصفه ابن الأثير فقال: «كان حليماً كريماً عاقلاً... حكي عنه أنه لما خرج عليه أخوه أبو زكريا، نهب خزائنه وأمواله، فلما عاد السعيد إلى ملكه، قيل له عن جماعة اتهبوا ماله، فلم يعرض اليهم. وأخبروه أن بعض السوق اشترى منها سكيناً نفيساً بمائتي درهم، فأرسل إليه وأعطاه مائتي درهم وطلب السكين، فأبى أن يبيعه إلا بألف درهم، فقال: ألا تعجبون من هذا، أرى عنده مالى فلم أعاقبه، وأعطيته حقه فاشتط في الطلب؟ ثم أمر برضائه... وطال مرضه فيق به ثلاثة عشر شهراً، فأقبل على الصلاة والعبادة، وبنى له في قصره بيتاً وسماه بيت العبادة، فكان يلبس ثياباً نظافاً ويمشي إليه حافياً ويصلي فيه ويدعو ويتضرع، ويجتنب المنكرات والآثام». وكان ذلك في سنة ٣٣١ هـ. بعد أن ولى إمرة السامانيين ثلاثين سنة وشهراً وثلاثة أيام، ومات وله من العمر ثمان وثلاثون سنة (٣).

وروى أبو بكر الصولي (٤) أن نصر بن أحمد عمل على توحيد كلمة السامانيين إلى آخر روق من حياته فقال: «صحت الأخبار بموت نصر بن أحمد أمير خراسان، وأن ابنة نوح بن نصر قام مقامه بعد أن تنازع هو وأخوه إسماعيل عند الإياس من أيهما أمرت الإمرة، فأفاق أبوهما، فأمر بقتل ابنة إسماعيل وأن يحدد البيعة لنوح، وأمر أن يجلس في الثغور لقتال الأتراك ألف دابة من دوابه، وأعتق ألف غلام».

وقد خالف نظام الملك (٥) ما ذكره ابن الأثير عن نهاية السعيد نصر بن أحمد الساماني، فقال

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٥٦ (٢) المصدر نفسه ج ٨ ص ٩٦ و ١٢٦ و ١٣٠ و ١٣٧.

(٣) المصدر نفسه ج ٨ ص ١٤٢.

(٤) أخبار الرازي بالله والمتقى لله ص ٢٣٧. (٥) Siyasset Nāmeḥ, vol II, pp. 278-81.

إنه دان بعقائد الإسماعيلية ، وإن القواد دروا مؤامرة لاغتياله ؛ فلما أدرك نصر الخطر المحقق به ، نزل عن الإمارة لابنه نوح الذي عمل على القضاء على المذهب الإسماعيلي وأنصاره في بلاده .  
وذكر المقرئ (١) أن نصر بن أحمد الساماني أمير خراسان بعث إلى عبيد الله المهدي بكتاب يعترف فيه بسلطته الروحية ويعد بإمداده بالرجال ، كما يتبين من هذه العبارة : « أنا في خمسين ألف مملوك يطيعونني ، وليس على المهدي بهم كلفة ولا مئونة ، فإن أمرني بالمسير سرت إليه ، ووقفت بسبني ومنطقتي بين يديه وامتلكت أمره » .

### التحضير نوح بن نصر ( ٣٣١ - ٣٤٣ هـ ) :

تولى نوح بن نصر الساماني بلاد خراسان وما وراء النهر في شهر شعبان سنة ٣٣١ هـ ، واستهل إمارته بالعفو عن بعض الأمراء الذين كان يحقد عليهم في حياة أبيه ليتألف القلوب حوله ويأمن خروجهم عليه ، وولاهم بعض الولايات . وقد بدأ الصراع بين السامانيين وبنو بويه في أيام نوح ابن نصر الذي عمل على استرداد الري من يد ركن الدولة بن بويه . وتفاقم النزاع بينهما ، وانتهى بهزيمة جيوش نوح بسبب خروج جنده وانضمامهم إلى البويهيين . بيد أن نوحاً أعد العدة من جديد لمحاربة ركن الدولة والاستيلاء على الري ، وقد تمكنت جيوشه من الاستيلاء عليها وعلى بلاد الجبل ، وذلك في شهر رمضان سنة ٣٣٣ هـ (٢) .

وقد تعرضت بلاد نوح بن نصر لخطر جسيم بسبب خروج قائده أبي علي بن محتاج الذي أخلص له ولايته من قبل ، والذي استعان به في حروبه أكثر من مرة . وقد عزا ابن الأثير (٣) سبب خروج أبي علي بن نوح بن نصر إلى أنه « لما عاد ( أبو علي ) من مرو إلى نيسابور وتجهز للسير إلى الري ، أنفذ إليه الأمير نوح عارضاً يعرض العسكر ، فأساء العارض السيرة معهم ، وأسقط منهم ، ونقص ، فنفرت قلوبهم ، فساروا وهم على ذلك ، وانضاف إلى ذلك أن نوحاً أنفذ معهم من يتولى أعمال الديوان ، وجعل إليه الحل والعقد والإطلاق بعد أن كان جميعه أيام السعيد نصر بن أحمد إلى أبي علي ، فنفر قلبه لذلك ، ثم إنه عزل عن خراسان واستعمل عليها إبراهيم بن سيمجور . ثم إن المتولى أساء إلى الجنود في معاملاتهم وحوادثهم ، فشكا بعضهم إلى بعض ، وقد كاتب الجنود إبراهيم ابن أحمد بن إسماعيل عم نوح بن نصر الساماني - وكان قد انضم إلى ناصر الدولة بن حمدان - يطلبون إليه الحضور لمبايعته ، فلبى دعوتهم . وقامت الحرب بمساعدة أبي علي بينه وبين نوح بن نصر ، واستولى على نيسابور ومرو وبخارى في سنة ٣٣٥ هـ ، وخطب فيها لإبراهيم بن أحمد بن إسماعيل . على أن أبا علي لم يلبث أن خرج على إبراهيم ، الذي مال إلى خلع نفسه والاتفاق مع نوح على أن

(١) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ٧٢ و ٧٤ ، نقلا عن كتاب المفق السكيري للمقرئ :  
المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٢١٤٤ ورقة ١٢٢٣ ، ب .

(٢) ج ٨ ص ١٦٤

(٣) ج ٨ ص ١٥٨ - ١٥٩

بثقلد إمرة جيوشه ، وعمل على تولية أبي جعفر محمد بن نصر بن أحمد أخى الأمير نوح بن نصر ،  
وبابيع له ، وأقام الخطبة باسمه فى كثير من نواحي خراسان وبلاد ماوراء النهر . واستمرت الحروب  
بين أبى على ونوح بن نصر من سنة ٣٣٤ إلى سنة ٣٣٧ هـ ، وانتهت بعقد الصلح بينهما (١) .  
واستطاع نوح بن نصر أن يسترد الرى وبلاد الجبل من ركن الدولة بن بويه الذى كان له أثر كبير فى  
إثارة أبى على عليه ( سنة ٣٣٩ هـ ) (٢) .

وقد أسند نوح قيادة جيوش خراسان إلى أبى على الذى استطاع بمساعدة وشمكير بن زيار أن  
يرغم ركن الدولة بن بويه على أن يدفع لنوح بن نصر جزية سنوية مقدارها مائتا ألف دينار . على  
أن نوحاً لم يلبث أن ساورته الريب فى إخلاص أبى على ، فعزله عن قيادة الجيوش فى خراسان ، فلم  
يكن منه إلا أن راسل ركن الدولة وسار إليه فى الرى حيث أكرمه ، وتدخل لدى الخليفة العباسى  
المطيع ، فأقره على ولاية خراسان بمساعدة معز الدولة بن بويه ، وذلك سنة ٣٤٣ هـ ، وهى السنة التى  
توفى فيها الأمير نوح بن نصر (٣) .

### عبد الملك ومنصور ابنا نوح (٣٤٣-٣٦٦ هـ)

لما تولى عبد الملك بن نوح إمرة السامانيين فى سنة ٣٤٣ هـ ، قلد بكر بن مالك إمرة الجيوش  
فى خراسان ، وسيره من بخارى لإخراج أبى على بن محتاج منها ، وانفل عن ابن محتاج رجاله وعادوا  
إلى صاحب خراسان ، وبقى أبو على فى مائتى رجل من أصحابه سوى من ضم إليه من الديلم ، فاضطر  
الى الهرب من بين يدي ابن مالك ، وورد خبره من الدامغان بأنه صائر الى ركن الدولة مستجيراً به ،  
فقبله ركن الدولة أحسن قبول ، وأقام عنده بالرى . ونزل ابن مالك بنيسابور وتبع أسباب ابن  
محتاج (٤) .

على أن أيام عبد الملك بن نوح لم تطل بسبب كربة فرسه فى شهر شوال سنة ٣٥٠ هـ ، فقالت  
السلطة من بعده إلى أخيه أبى صالح منصور بن نوح ، ووافقت خراسان بعده ، كما يقول مسكويه (٥) ،  
ودب الضعف إلى جسم الدولة السامانية .

وفى عهد منصور بن نوح شق أهل سجستان عصا الطاعة على أميرهم خلف بن أحمد ، وولوا مكانه  
رجلاً من أصحابه يدعى طاهر بن الحسين ، فاستنجد خلف بالأمير منصور بن نوح ، فأمدته بجيش  
استرد به هذه البلاد ، ولكنته لم يلبث أن طردها عنها ، ثم استردها بمعونة السامانيين . بيد أن خلف بن  
أحمد لم يلبث أن ساءت علاقته بالسامانيين ، ففقطع ما كان يحمله الى بخارى من الخلع والخدم

(١) ابن الأثير ٨ ص ١٦٤ - ١٦٧ و ١٧٥ .

(٢) مسكويه : كتاب تجارب الأمم ج ٢ ص ١٠٠ - ١٠١ و ١٠٣ - ١٠٤ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٥٤ - ١٥٧ .

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٥٧ .

(٥) ج ٢ ص ١٨٩ .

والأموال التي استقرت القاعدة عليها ، فبعث منصور بن نوح الجيوش لمحاربة خلف بسجستان ، واستمرت الحروب سبع سنين انتهت بعقد الصلح بينهما وإعادة الخطبة لمنصور بن نوح ، مما يدل على مبلغ الضعف الذي دب الى البيت الساماني . وقد أحسن ابن الأثير<sup>(١)</sup> بقوله : « وكان هذا أول وهن دخل على دولة السامانية ، فطمع أصحاب الأطراف فيهم لسوء طاعة أصحابهم لهم » .  
وقد روى ابن الأثير<sup>(٢)</sup> في حوادث سنة ٣٥٦ هـ أن الحرب قامت في جهات الري بين منصور بن نوح وبين ركن الدولة بن بويه ، وذكر مسكويه<sup>(٣)</sup> سبب هذه الحرب في هذه العبارة فقال : « لما اعتل أبو علي [محمد] بن إلياس وفئج بكرمان ، وخالفه أولاده ، وقصد عضد الدولة ، رحل إلى خراسان ، ولقي صاحب خراسان وبري . بعض البرء ، وصار ندما له يعاشره ويؤانسه ، فوسل له قصد مالك الديلم ، وأطمعه فيها ، وزعم أن أصحاب جيوشه ليس يناصحونه ويقبلون الهدايا والرشا . فوافق ذلك ما كان يشكوه إليه وشمكير حالا بعد حال ، فاتصلت المسكابة بين وشمكير وصاحب خراسان ، وكذلك الحسن بن الفيرزان إلى أن وقعت المعاضدة والموافقة على أن يدبر جميع الجيوش وشمكير ،

وقد أنفذ منصور بن نوح الساماني صاحب خراسان الى كل من وشمكير بن زيار والحسن بن الفيرزان الهدايا الكثيرة ، ومن بينها الدواب والآلات والغلمان ، وأمدهما بالجيوش بقيادة وشمكير ، حتى خشي ركن الدولة على بلاده . ولكن قتل وشمكير وتفرق جنده وانفلق ابنه مع ركن الدولة قد وضع نهاية لهذا الصراع<sup>(٤)</sup> . على أن هذا العداء الذي استحك بين السامانيين والبويهيين لم ينته إلا في سنة ٣٦١ هـ حيث تم الصلح بين الأمير منصور بن نوح الساماني صاحب خراسان وما وراء النهر وابنه عضد الدولة ، على أن يحمل ركن الدولة وعضد الدولة إليه كل سنة مائة ألف وخمسين ألف دينار<sup>(٥)</sup> . وتزوج نوح بابنة عضد الدولة ، وحمل إليه من الهدايا والتحف ما لم يحمل مثله ، وكتب فيهم كتاب صلح ، وشهد فيه أعيان خراسان وفارس والعراق<sup>(٦)</sup> .

### نوح الثاني بن منصور (٣٦٦ - ٤٣٨٧ هـ) :

لما مات منصور بن نوح في شهر شوال سنة ٣٦٦ هـ ، تولى بعده ابنه القاسم نوح الثاني ، وتلقب المنصور ، وكان في الثالثة عشرة من عمره . وقد قام بأمر الدولة السامانية في مستهل إمارته وزيره أبو الحسين العتيبي ، ولكن محمد بن إبراهيم بن سيمجور قائد الجيش في خراسان من قبل السامانيين

(١) ج ٨ ص ٢٠٢ . (٢) ج ٨ ص ٢٠٧ .

(٣) كتاب تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٤) مسكويه ج ٢ ص ٢٣٣ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٥) ذكر أبو المحاسن ( كتاب النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦٢ ) أن ركن الدولة تعهد بأن يحمل الى

منصور بن نوح الساماني في كل سنة مائة ألف دينار ويحمل ابنه عضد الدولة خمسين ألف دينار .

(٦) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٥ .

استبد بالامر في هذه البلاد، واتخذ من صغر سن الأمير الجديد فرصة لتحقيق مطامعه، فعزل الوزير أبو الحسين العتبي، وولى أبا العباس ناش إمرة الجيش، وسيره من بخارى إلى نيسابور ( سنة ٣٧١ هـ )، فاستقر بها، ودبر خراسان ونظر في أمورها وأطاعه جندها، كما قامت في هذه السنة الحرب بين الأمير نوح بن منصور الساماني وبين عضد الدولة بن بويه الذي استولى على جرجان وطبرستان من قابوس بن وشمكير نائب السامانيين في هذه البلاد. وعلى الرغم من تابع جيوش نوح بن منصور، اضطرب أمرهم ولم يستطيعوا استرداد جرجان، ولا سيما بعد أن اتصل بهم نبأ قتل الوزير أبي الحسين العتبي الذي يرجع إليه الفضل في متابعة هذه الحروب (١). أضف إلى ذلك ثورة أحد أمراء البيت الساماني على نوح بن منصور بعد أن حلت هذه الهزيمة بجيوشه (٢). على أن الوزير الجديد عبد الله بن عزيز الذي كان يضمير العداوة والبغضاء للوزير العتبي، عمل على عزل أبي العباس ناش عن خراسان، وإعادة أبي الحسن بن سيمجور إليها؛ فامتنع أبو العباس عن تنفيذ أوامر الوزير الجديد، ولجأ إلى فخر الدولة بن بويه يطلب منه العون، فأمدته بجيش حارب به ابن سيمجور، واستولى على نيسابور، ثم راسل الأمير نوح بن منصور يستميله ويستعطفه، ولجأ ابن عزيز في عزله، ووافقته على ذلك والدة الأمير نوح، وكانت تحكم في دولة ولدها، وكانوا يصدرون عن رأيها. وقال بعض أهل العصر في ذلك:

شيثان يعجز ذو الرياضة عنهما رأى النساء وإمرة الصبيان  
أما النساء فيلهن إلى الهوى وأخو الصببا يجرى بغير عنان (٣)

وفي عهد نوح بن منصور تعرضت الدولة السامانية لازوال، ففي سنة ٣٨٣ هـ نار عليه اثنان من أكبر قواد السامانيين هما أبو الحسن بن سيمجور، وفاقق الخاصة غلام نوح بن نصر. واتصلا بشهاب الدولة هرون بن سلمان إيلك المعروف ببغرا خان التركي، وكانت تمتد بلاده من حدود الدولة السامانية شرقاً حتى تتأخم حدود الصين. وأطمعاه في الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر، وتمكن إيلك في هذه السنة من الانتصار على جيوش نوح بن منصور والاستيلاء على بخارى. على أن نوحاً لم يلبث أن استرد حاضرة إمارته على أثر موت بغراخان وثورة أهالي بخارى عليه (٤). وفي سنة ٣٨٤ هـ استعان نوح بن منصور بسبكتكين صاحب غزنة لحرب الأمراء الثائرين عليه. وانتصرت جيوش نوح وسبكتكين بالقرب من هراة على هؤلاء الأمراء الذين استعانوا ببني بويه وفروا إلى جرجان، كما استعاد نوح نيسابور، واستعمل عليها وعلى جيوش خراسان محمود بن سبكتكين، ولقبه سيف الدولة، ولقب أباه سبكتكين ناصر الدولة، فأحسن السيرة. وعاد نوح إلى بخارى وسبكتكين إلى هراة، وأقام محمود بنيسابور (٥). على أن هؤلاء الثائرين لم يلبثوا أن انتصروا على محمود.

(٢) مسكويه ج ٣ ص ٩٣ .

(٤) المصدر نفسه ج ٩ ص ٣٦ - ٣٧ .

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٤ - ٥ .

(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ١٠ - ١١ .

(٥) المصدر نفسه ج ٩ ص ٣٨ .

ومع أن أيام نوح بن منصور الساماني طالت حتى أربت على إحدى وعشرين سنة ، فقد كان عهده مليئا بالثورات والحروب الأهلية بسبب صغر سنه ، وتدخل النساء والوزراء في حكم بلاده ، وطمع أمراء الأطراف واستشارهم بالسلطة ، وطمع بني بويه والأتراك في امتلاك بلاده ، وقيام المنافسة بين أفراد البيت الساماني نفسه . وقد أحسن ابن الأثير (١) في وصف عهد نوح بن منصور وما ساد الدولة السامانية في ذلك العهد ، في هذه العبارة القصيرة فقال : « توفي الأمير الرضا نوح بن منصور الساماني ، واختل بموته ملك آل سامان ، وضعف أمرهم ضعفا ظاهرا ، وطمع فيهم أصحاب الأطراف فزال ملكهم بعد مدة يسيرة » .

### زوال الدولة السامانية وأسبابه :

لما توفي الأمير الرضا نوح بن منصور الساماني سنة ٣٨٧ هـ قام بعده ابنه أبو الحارث منصور بن نوح ، وعمل على تأليف القلوب حوله ، بإغداق الأموال على أنصاره وقواده . على أن إيلك المعروف ببغراخان التركي ، الذي كان قد استولى على بخارى سنة ٣٨٣ هـ ، اتخذ من موت نوح بن منصور فرصة للاستيلاء على سمرقند ، وانضم إليه فاتق الخاصة ، الذي تمكن بمساعدته من الاستيلاء على بخارى ، متظاهرا بأنه إنما كان يسعى لخدمة الأمير منصور ورعاية لحق أسلافه عليه إذ هو مولاهم ، وأرسل إليهم مشايخ بخارى ومقدمهم في العود إلى بلده وملكه ، وأعطاه من نفسه ما يطمئن إليه من اليهود والموائيق ، فعاد إليها ودخلها ، وولى فاتق أمره وحكم في دولته ، وولى بكتوزون إمرة الجيش بخراسان (٢) . وفي السنة التالية بدأ النزاع بين الأمير منصور بن نوح ومحمود بن سبكتكين الذي أثار سخطة تولية بكتوزون على خراسان ، وطلب من السامانيين إعادتها إليه ، فلم يجب إلى طلبه ، وسامت العلاقة بينه وبينهم بسبب ذلك .

ومع هذا فإن بكتوزون وفاتق الخاصة قد تأمرا على الأمير منصور بن نوح ، وقبضا عليه وسعلا عينيه ولم يمض في الإمارة غير سنة وسبعة أشهر ، ووليا أخاه الصغير عبد الملك بن نوح ، فاتخذ محمود بن سبكتكين من اضطراب حبل الأمور في الدولة السامانية وسيلة للاستيلاء على أملاكهم ، فبعث إلى هذين المتآمرين يلومهما ويقبح فعلهما ، وأعد عدته ، وجهز الجيوش للقائهما . والتقى الجيشان في مرو (جمادى الأولى سنة ٣٨٩ هـ) ، خلت الهزيمة بالجيش الساماني ، وارتد فاتق الخاصة بصحبة عبد الملك بن نوح الساماني إلى بخارى ، وقصد بكتوزون نيسابور ، ولحق أبو القاسم بن سيمجور بقوهستان ، واستطاع محمود بن سبكتكين أن يستولى على نيسابور وبخارى ويقر ملكه بخراسان ، ويزيل نفوذ السامانيين عنها ، ويخطب فيها للخليفة القادر بالله . ووقعت بلاد ماوراء النهر في يد إيلك ببغراخان الذي قصد بخارى وأظهر التودد لعبد الملك بن نوح ، ولكنه لم يابث أن قبض على قواد السامانيين ثم على عبد الملك نفسه ، وحبس معه أخوه أبو الحارث منصور بن نوح الذي كان في الملك قبله ، وأخوه أبو إبراهيم إسماعيل وأبو يعقوب ابنا نوح ، وأعمامه أبو زكريا وأبو سليمان وغيرهم من آل سامان ، وأفرد كل واحد منهم في حجرة . وكانت

(٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ٤٨

(١) ج ٩ ص ٤٨

دولتهم قد انتشرت وطبقت كثيرا من الأرض ، من حدود حلوان إلى بلاد الترك بما وراء النهر . وكانت من أحسن الدليل سيرة وعدلا .

وإن من يستقصى تاريخ السامانيين يرى أن زوال دولتهم يرجع إلى عوامل عدة ، نذكر من بينها وقوع النزاع بين أفراد هذا البيت ، وخروج القواد وعمال الأطراف عليهم ، واستعانتهم ببعض أمراء البيت المالك . فقد رأينا كيف استعان القائد الساماني أبو علي ببعض أمراء هذا البيت على نوح بن نصر (٣٣١ - ٣٤٣ هـ) ، كما استعان بعض هؤلاء القواد وعمال الأطراف ببني بويه ، مما أضعف الدولة السامانية وأدى إلى زوالها في النهاية . أضف إلى ذلك تدخل النساء والوزراء في الحكم بسبب صغر سن بعض الأمراء (١) .

وهكذا انقضت الدولة السامانية على أيدي الغزنويين وخانات تركستان ، وأصبحت ، كأن لم تغن بالأمس ، كدأب الدول قبلها ، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ، (٢)

ولأمراء السامانيين فضل كبير في تشجيع الأدب ، وبخاصة الأدب الفارسي الذي بدأ ينتعش منذ القرن الثالث ، حتى أخذ الفرس يؤلفون بلغتهم الفارسية . وقد بدأ الروح الفارسي يظهر في الأدب الفارسي منذ ذلك الوقت . من ذلك كتاب الشاهنامه للفردوسي ، ومختصر الطبري للبلعمرى وزير منصور الأول بن نوح (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) .

أما الطب والفلك والفلسفة فقد كان الفرس يؤلفون فيها باللغة العربية بدلا من الفارسية ، إذ لم يكن لهذه العلوم كبير علاقة بالأدب الفارسي . ومن أشهر كتب الطب في ذلك العصر : الكتاب المنصوري الذي ألفه أبو بكر الرازي وأهداه إلى أبي صالح منصور بن إسحق الساماني الذي ولي سجستان نيابة عن السامانيين . وقد روى لنا ابن سينا (٣) الفيلسوف المشهور أنه رأى في مكتبة مدينة بخارى حاضرة الدولة السامانية من طرائف الكتب ما لم يسمع بمثله من قبل .

(١) يقص علينا عماد الدولة علي بن بويه قصة تبين كيف كان صغر سن أمراء السامانيين من العوامل التي قللت من شأنهم في نظر قوادهم ، وكيف كان يعمل بعض هؤلاء القواد على التخلص من هؤلاء الأمراء الصغار . فقد ذكر ابن الأثير (ج ٨ ص ١٧٤) أن شيرنخين أحد قواد الديلم الذين كانوا في خدمة السامانيين أراد قتل نصر ابن أحمد ، وأن عماد الدولة علي بن بويه قال فيه : « إنه كان في خراسان في خدمة نصر بن أحمد ، ونحن شذمة قليلة من الديلم ومعنا هذا ، فجلس يوما نصر وفي خدمته من مماليك ومماليك أبيه بضعة عفر ألفا سوى سائر العسكر ، فرأيت شيرنخين هذا قد جرد سكيننا معه ولفه في كسائه ، فقلت : ما هذا ؟ فقال : أريد أن أقتل هذا الصبي ، يعني نصرا ، ولا أبالي بالقتل بعده ، فإني قد أغت نفسي من القيام في خدمته . وكان عمر نصر بن أحمد يومئذ عشرين سنة وقد خرجت لحبته ، فعلمت أنه إذا فعل ذلك لم يقتل وحده بل تقتل كلنا ، فأخذت بيده وقتلت له : بيني وبينك حديث ، أفضيت به إلى ناحية وجمعت الديلم وحدتهم حديثه ، فأخذوا منه السكين . فتريدون مني بعد أن سمعت حديثه في معنى نصرا أن أمكنه من الوقوف بين يدي هذا الصبي ، يعني ابن أخي ؟ فأمسكوا عنه وبني محبوسا حتى مات في محبسه » .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٥٤ - ٥٦ .

(٣) كانت علاقة ابن سينا بالسامانيين تقوم منذ حداثة سنه على أساس مابين ، وكان في السابعة عشرة من عمره حينما أسعده الحظ بشقاء الأمير نوح بن منصور ( + ٣٨٧ هـ ) على يديه ، وحينما أذن له هذا الأمير بالدخول في دار كتبه . دى بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ١٦٥ ترجمة أبي ريده .



## الدولة الغزنوية

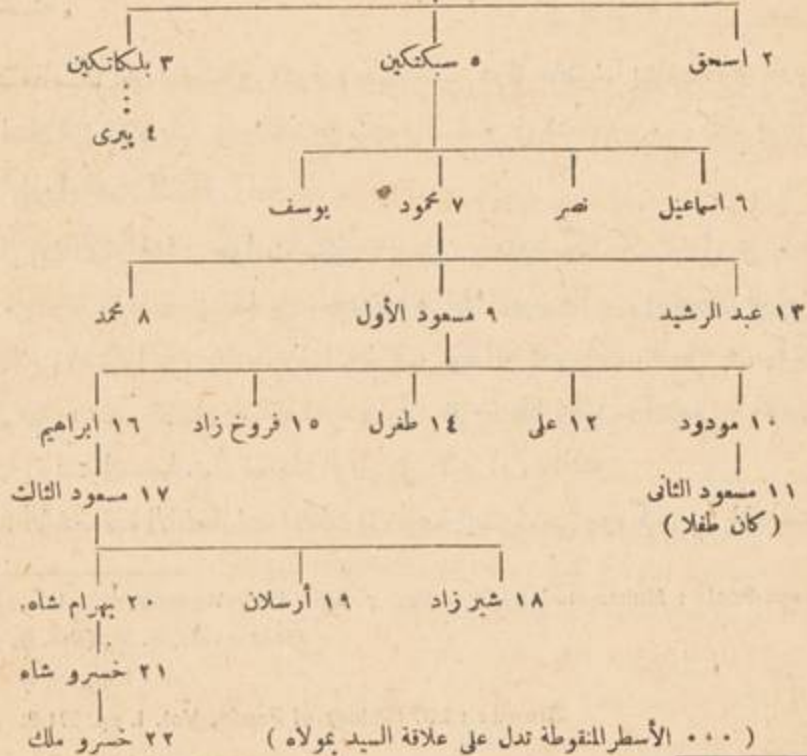
( في بلاد الأفغان والبنجاب )

٣٥١ - ٥٨٢ = ٩٦٢ - ١١٣٦ م

البيت الغزنوي (١)

هجري	ميلادية	هجري	ميلادية
٤٤١	١٠٤٨	٣٥١	٩٦٢
٤٤١	١٠٤٩	٣٥٢	٩٦٣
٤٤٤	١٠٥٢	٣٥٥	٩٦٦
٤٤٤	١٠٥٢	٣٦٢	٩٧٢
٤٥١	١٠٥٩	٣٦٦	٩٧٦
٤٩٢	١٠٩٩	٣٨٧	٩٩٧
٥٠٨	١١١٤	٣٨٨	٩٩٨
٥٠٩	١١١٥	٤٢١	١٠٣٠
٥١٢	١١١٨	٤٢١	١٠٣٠
٥٤٧	١١٥٢	٤٣٢	١٠٤٠
٥٥٥	١١٦٠	٤٤١	١٠٤٨
٥٨٢	١١٨٦		

[ الغوريون ]  
جدول الأمراء الغزنويين  
١ التتكين



(... الأسطر المنقوطة تدل على علاقة السيد بمولاه )

(١) انظر كتاب Stanley Lane-Poole : Muhammadan Dynasties, pp. 289-290

(٢) أخطأ لينبول بذكر وفاته في سنة ٤٤٠ هـ ولذلك أصلحنا هذه السنة عن كتب التاريخ .

سبكتكين (٣٦٦ - ٣٨٧ هـ)

كان البتكين من الموالي الأتراك، الذين كانت لهم منزلة كبيرة عند السامانيين، فأستندوا إليهم المناصب العالية في الدولة. وقد عين عبد الملك بن نوح الساماني (٣٤٣ - ٣٥٠ هـ) البتكين حاجبا في بلاطه، ثم عينه في سنة ٣٤٤ هـ عاملا على مدينة هراة، ولكنه أقصى عن منصبه بعد وفاة مولاه، فعاد إلى مدينة غزنة التي كان أبوه يليها من قبل السامانيين، وحل محله في حكمها بعد وفاته سنة ٣٥٢ هـ، واستطاع أن يناوي منصور الأول بن نوح الساماني (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ)، ولكنه مات بعد سنة واحدة دون أن يتمكن من توسيع رقعة البلاد التي استولى عليها، كما لم يتمكن ابنه إسحق من مد نفوذ الغزنويين. وكان لإسحق مملوكان، هما بَلْكَاتِكِينُ *Balkátigin* و سُبُكْتِكِينُ *Subuktigin*، وقد آلت السلطة إلى أولهما من بعده، فضرب النقود باسمه، في غزنة سنة ٣٥٩ هـ، وتبعه في حكمها يرى أحد أهالي هذه المدينة. ويعتبر سبكتكين أحد موالى البتكين وزوج ابنة المؤسس الحقيقي للدولة الغزنوية<sup>(١)</sup>. وبذكر ابن الأثير<sup>(٢)</sup> أن إسحق بن البتكين لما توفي، ولم يخلف من أهله وأقاربه من يصلح للتقدم، اجتمع عسكره ونظروا فيمن يلي أمرهم، ويجمع كلمتهم، فاختلفوا، ثم انفقوا على سبكتكين، لما عرفوه من عقله ودينه، ومروءته، وكال خلال الخبز فيه، فقدموه عليهم، وولوه أمرهم، وحلفوا له وأطاعوه، فوليه، وأحسن السيرة فيهم، وساس أمورهم سياسة حسنة.

وقد مد سبكتكين سلطانه في الشرق، حيث أسس دولة حاضرتها بشاور، وفي فارس باستيلائه على خراسان التي ولاه عليها نوح الثاني بن منصور الساماني في سنة ٣٨٤ هـ، مكافأة له على قمع الثوار في بلاد ماوراء النهر<sup>(٣)</sup>.

ذكر ابن الأثير<sup>(٤)</sup> في حوادث سنتي ٣٦٦، ٣٦٩ هـ أن سبكتكين استولى على ناحية قصدار القريبة من غزنة، وبست الواقعة بين سجستان وهراة<sup>(٥)</sup>، وأن صاحب بست كان قد استعان به على الثوار الذين استولوا على بلاده، ولكنه لم يف بتعهداته له وماطله، فأحل به سبكتكين الهزيمة واستولى على بست، ثم سار إلى قصدار بعد أن خرج عليه واليها، واعتمصم بها لمناعتها وصعوبة مسالكها، واستولى عليها، وأرغم هذا الوالي على الاعتراف بطاعته.

وقد أتاحت هذه الانتصارات لسبكتكين فرصة ليستولى على جزء كبير من بلاد الهند، فاستولى

<sup>(١)</sup> Stanley Lane-Poole : *Muhammadan Dynasties*, p. 285 ; *Encyclopaedia of Islam*,

Ghaznavids, S. V. (Vol. II. p. 154).

(٢) ج ٨ ص ٢٤٧ .

(٣) Browne : *Lit. History of Persia*, Vol. I. pp. 371-2.

(٤) ج ٨ ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٥) انظر قصدار وبست في معجم البلدان لياقوت .

على بعض المواقع الجبلية في أطراف الهند ، حيث مدينة كابل حاضرة بلاد الأفغان الحالية (١) ، وعاد إلى بلاده سالما ظافرا . ولكن جييال أحد ملوك الهند ، الذي كانت مملكته تمتد في شمال غربي الهند ، رأى في استيلاء سيكتكين على أطراف بلاده تهديدا لمملكته ، وبدأت بين ملوك الهند وملوك غزنة حروب طاحنة انتهت باستيلاء محمود بن سيكتكين على جزء كبير من هذه البلاد (٢) . وفي سنة ٣٦٩ هـ حلت الهزيمة بجييال ، وطلب الصلح من سيكتكين ، على مال يؤديه ، وبلاد يسلمها وخمسين فيلا يحملها إليه ، فاستقر ذلك ، ورهن عنده جماعة من أهله على تسليم البلاد ، وسير معه سيكتكين من يتسلمها . فإن المال والقبيلة كانت معجلة . فلما أبعده جييال ملك الهند قبض على من معه من المسلمين وجعلهم عنده عوضا عن رهائنه . فلما سمع سيكتكين بذلك جمع العساكر ، وسار نحو الهند ، فأخرب كل مامر عليه من بلادهم ، وقصد لمغان ، وهي من أحسن قلاعهم ، فافتحها عنوة ، وهدم بيوت الأصنام ، وأقام فيها شعار الإسلام ، وسار عنها يفتح البلاد ويقتل أهلها . فلما بلغ ماأراده عاد إلى غزنة ، فلما بلغ الخبر إلى جييال سقط في يده ، وجمع العساكر ، وسار في مائة ألف مقاتل ، فلقى سيكتكين وأمر أصحابه أن يتناوبوا القتال مع الهنود ، ففعلوا ذلك ، فضجر الهنود من دوام القتال معهم وحملوا حملة واحدة . فعند ذلك اشتد الأمر ، وعظم الخطب ، وحمل أيضا المسلمون جميعهم ، واختلط بعضهم ببعض ، فانهزم الهنود ، وأخذهم السيف من كل جانب ، وأسر منهم مالا يعد ، وغنم أموالهم وأثقالهم ودوابهم الكثيرة . . . ولما قوى سيكتكين بعد هذه الواقعة أطاعه الأفغانية والخلج ، وصاروا في طاعته ، (٣) .

ومع أن سيكتكين كان من الناحية العملية مستقلا عن السامانيين ، وأكثر نفوذا منهم ، فإنه اعترف - كما يقول ستانلي لينبول (٤) - لهم بالسيادة وشن الحروب ، وفتح البلاد باسمهم ، حتى واتسعت رقعة ولايته ، وعظم حجم جريده ، وعمرت أرض خزانه ، وأشفقت النفوس من هيبة (٥) . في سنة ٣٨٤ هـ نرى نوح بن نصر الساماني يستعين بسيكتكين صاحب غزنة على حرب أبي علي بن سيمجور وفاثق الخاصة ، اللذين شقا عصا الطاعة في خراسان ، وولاه خراسان ، ودارت الحرب بنواحي هراة بين نوح الساماني وسيكتكين وابنه محمود من ناحية ، وبين أبي علي بن سيمجور وفاثق الخاصة ونور الدولة بن ركن الدولة البويهى من ناحية أخرى ، وانتهت بانتصار سيكتكين ،

(١) كانت هذه الأراضي ولا تزال تعرف باسم Hund أو Hind ، ويعرف ملوكها باسم مملكة الشاهات ، ويعرفون عامة باسم ملوك الهنود في كابل The Hindu Kings of Cābul انظر Encyclopaedia of Islam. Vol. II. p. 154.

(٢) العتيبي : تاريخ اليمنى ج ١ ص ٥٨ ، ٧٦ .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٤٨ .

(٤) Muhammadan Dynasties, p. 286.

(٥) العتيبي : تاريخ اليمنى ج ١ ص ٦٣ .

وتبعه أبي علي وفاق إلى نيسابور ، واستيلائه عليها . وبعودة نيسابور إلى السامانيين ، ولي نوح محمود بن سبكتكين عليها وعلى جيوش خراسان ، ولقبه سيف الدولة ، ولقب أباه سبكتكين ناصر الدولة (١) .

مات سبكتكين في سنة ٣٨٧ هـ بعد أن حكم عشرين سنة ، وضع فيها أساس امبراطورية الغزنويين ، بفضل ما أحرزه من نصر مؤزر في فتوحه في الشرق والغرب ، وما اشتهر عنه من الصلابة وقوة الإرادة ومثانة الخلق . تلك الامبراطورية التي اتسعت رقعتها ، وامتدت حدودها في عهد ابنه محمود الغزنوي . وقد كان سبكتكين عادلا خيرا كثير الجهاد ، حسن الاعتقاد ، ذا مروءة تامة وحسن عهد ووفاء (٢) . وقد رثاه أبو الفتح البستي الشاعر المشهور . الذي اتخذه كاتباً له بقوله :

قلت إذ مات ناصر الدين والدولة حياه ربه بالكرامة  
وتداعت جموعه بافتراق هكذا هكذا تكون القيامة (٣)

### بين الرواة محمود الغزنوي (٣٨٨ - ٤٢١ هـ)

عهد سبكتكين قبل موته إلى ابنه إسماعيل ؛ وكان ضعيف الرأي والتدبير ، حتى كادت تنفذ خزائنه . فأرسل إليه أخوه محمود ، وكان أكبر منه سناً ، يبين له أحقيته في السلطنة بعد أبيه ويقول له : من المصلحة أن تنقسم الأموال بالميراث ، وتكون أنت مكانك بغزنة وأنا بخراسان ، وتدبر الأمور وتتفق على المصالح ، لا يطمع فيناعدو . ومتى ماظهر للناس اختلاف طمعوا فينا ، فأبى إسماعيل من موافقته (٤) . واتصل بمحمود قواد إسماعيل سرا ، واستعان بعمه بغراجق في هراة وأخيه نصر في بست ، والتقت جيوش إسماعيل ومحمود بظاهر غزنة . وياتتصار محمود استقر له ملك الغزنويين ، وقبض على إسماعيل بعد أن حكم سبعة شهور .

يقول براون (٥) : إن قوة محمود الغزنوي التي لا تحد قد ظهرت فجأة ، وإنه بدأ عهده بوضع يده على مملكته الصغيرة التي ورثها عن أبيه سبكتكين ، ولكنه لم يلبث أن غزا الهند اثنتي عشرة مرة ، وضم إلى مملكته بلاد البنجاب ، وأخضع بلاد الغور ، وبلاد ماوراء النهر ، ووالى لبني بويه ضرباته التي انتهت باستيلائه على أصهبان .

وكان من أهم الأغراض التي رمى إليها محمود الغزنوي أن يرث ملك السامانيين . وقد حزن في نفسه - كما رأينا - انتزاع منصور بن نوح منه نيسابور وإمرة جيش خراسان وتوليتهما بكتوزون .

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٣٨ ، والعيني : تاريخ الخلفاء ج ١ ص ٥٠ - ٥١ ، ٥٤ .

(٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ٤٨ .

(٣) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨٤ .

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٤ - ٨٥ .

(٥) Lit. Hist. of Persia, Vol. I. p. 376.

ولما ألح محمود في إعادتهما إليه ، لم يحفل به منصور بن نوح ووعد بتوليته تر مذ وبلخ وما وراءها من أعمال بست وهرارة ، فلم يقنع محمود بذلك وقصد نيسابور وامتلكها ، ثم اتخذ من انحلال الدولة السامانية ، وتآمر بكتوزون وفائق الخاصة على منصور بن نوح ، وقبضهما عليه ، وسمل عينيه ، وتولية أخيه الصغير فرصة لتحقيق سياسته ، وأرسل إلى فائق وكتوزون يلومهما ، ويقبح فعلهما . وقويت نفسه على لقاتهما وطمع في الاستقلال بالملك ، وأحل الهزيمة بجيش السامانية في مرو (جمادى الأولى سنة ٣٨٩ هـ) . وارتد عبد الملك بن نوح إلى بلاد ماوراء النهر ، وصفت خراسان له ، وعين أخاه نصرا على جيوشها ، فاتخذ نيسابور مركزا له ، وخطب للخليفة القادر . وبذلك زالت الدولة السامانية من خراسان على يد محمود الغزنوي ، ومن بلاد ماوراء النهر على يد بغراخان (١) .

كان محمود الغزنوي أول من تلقب من الغزنويين بلقب سلطان بعد أن كان بلقب بلقب أمير . وقد لقبه الخليفة القادر بالله بين الدولة ، وأمين الملة ، وظهرت هذه الألقاب على السكة التي كانت تحمل اسمه (٢) .

ولم يكف محمود بما استولى عليه من بلاد ، بل عمل على مد نفوذه وتوسيع رقعة أملاكه ، فحارب خلف بن أحمد صاحب سجستان ، واستولى عليها ( سنة ٣٩٣ هـ ) ، ولكنها لم تلبث أن خرجت عليه ، فأخضعها وأقطعها أخاه نصرا (٣) ( سنة ٣٩٠ - ٣٩٣ هـ ) .

وفي سنة ٤٠١ هـ حارب محمود الغور ، وكانوا لا يدبتون بالإسلام ، وتقع بلادهم الجبلية الوعرة المسالك بين هرة وغزنة ، ومن ثم كانوا يقطعون الطريق ويخيفون السبيل . وقد أوقع بهم محمود وأخضعهم لسلطانه ، ونشر الإسلام بينهم ، وأرسل إليهم جماعة من المسلمين يعلمونهم أصول الدين . ومن أهم الأعمال التي قام بها محمود الغزنوي إزالته سلطان البويهيين في الري وبلاد الجبل ؛ فقد انتهز فرصة استنجد مجد الدولة بن نحر الدولة الذي استبدت أمه بالأمر دونه كما تقدم ، واشتغل بالنساء وقراءة الكتب ، فاخلت دولته بعد موت أمه ، وأرسل إليه في سنة ٤٢٠ هـ ، جيشا قبض عليه وعلى ابنه أبي دلف . ثم سار محمود إلى الري ودخلها ، وأخذ من الأموال ألف ألف دينار ، ومن الجواهر ما قيمته خمسمائة ألف دينار ، ومن الثياب ستة آلاف ثوب ، ومن الآلات وغيرها ما لا يحصى ، وأحضر مجد الدولة وقال له : أما قرأت شانامة ( يقصد الشاهنامه للفردوسي ) وهو تاريخ الفرس ، وتاريخ الطبري ، وهو تاريخ المسلمين ؟ قال : بلى ! قال : ما حالك حال من قرأهما ؟ (٤) أما لعبت بالشطرنج ؟ قال : بلى ! قال : فهل رأيت شاهها يدخل على شاه ؟ قال : لا ! قال : فمن حملك على أن سلمت نفسك إلى من هو أقوى منك ؟ ثم سيره إلى خراسان مقبوضا ، ثم ملك قزوين وقلاعها ومدينة ساوة

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٥٤ .

(٢) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨٤ - ٨٥ .

(٣) تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٩٩ - ١٠٤ ، وابن الأثير ج ٩ ص ٦٠ ، ٦٤ - ٦٥ .

(٤) في الأصل قرأها والسؤال عن كتابين .

وأبه وبافت ... وصلب من أصحابه الباطنية خلفا كثيرا ، ونفى المعتزلة إلى خراسان ، وأحرق كتب الفلسفة ومذاهب الاعتزال والنجوم ، وأخذ من الكتب ماسوى ذلك مائة حمل ، (١) .

كذلك حارب محمود الغزنوى جماعة من الأتراك يقال لهم الأتراك الغزوية ، أصحاب أرسلان بن سلجوق التركى ، وكانوا يقطنون صحارى إقليم بخارى . ولما قبض محمود على زعيمهم أرسلان فى بلاد ماوراء النهر ، وأرسله إلى بلاد الهند ، وقتل كثيرا من أصحابه ، هرب جمع كبير منهم فى سنة ٥٤٢ هـ ، ولحقوا بخراسان ، وعانوا فيها ، فهربوا إلى أصبهان حيث طاردتهم جيوش محمود الغزنوى وأوقعت بهم ، ثم سار محمود إلى خراسان حيث تفاقم شر هؤلاء الغز ، وما زال يحاربهم حتى مات ، واستمر ابنه مسعود فى حربهم (٢) .

ولم تقتصر جهود محمود الغزنوى على فتح البلاد فى فارس وخراسان وغيرها ، بل إنه اهتم أيضا بالقضاء على أهل البدع والأهواء . فى سنة ٥٠٨ هـ نراه يشمر عن ساعد الجدى ويحارب هؤلاء فى غير هوادة . يقول الذهبى (٣) : « وامتثل يمين الدولة محمود بن سبكتكين أمر القادر بالله ، وبث كلمته فى عماله بخراسان وغيرها فى قتل المعتزلة والرافضة والإسماعيلية والقرامطة والجمهية والمشبية ، وصلبهم ونفاهم ، وأمر بلعنهم على المنابر ، وشردهم من ديارهم » .

ولما وجد الفاطميون فى مصر ما يلاقه أنصارهم من الإسماعيلية فى بلاد المشرق على يد محمود الغزنوى ، عملوا على استمالته إليهم ، ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق مآربهم . وفى ذلك يقول ابن كثير (٤) : « وكانت رسل الفاطميين فى مصر نفذ اليه بالكتب والهدايا لأجل أن يكون فى جبهتهم ، فيحرقهم ويحرق كتبهم وهداياهم » . ومن هذا الكتاب الطويل الذى أرسله محمود الغزنوى إلى الخليفة القادر بالله فى سنة ٥٤٢ هـ ، نستطيع أن نتبين كيف كان محمود ينصر أهل السنة ويحارب الفرق الدينية الأخرى ، التى كان يعتبرها خارجة على الدين والدولة . وإليك هذا الكتاب عن الذهبى (٥) :

« سلام على سيدنا ومولانا الإمام القادر بالله أمير المؤمنين : إن كتاب العبد (٦) صدر من معسكره بظاهر الرى غرة سادى الأولى (سنة ٥٤٢ هـ) ؛ وقد أزال الله (٧) فى هذه البقعة أيدى الظلمة ، وطهرها من أيدى الباطنية . وقد تناهت إلى الحضرة (٨) حقيقة الحال فيما قصر العبد عليه سعيه (٩) »

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٣٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٣) تاريخ الاسلام : مخطوط ج ٣ ورقة ٢٧٩ .

(٤) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٩ .

(٥) تاريخ الاسلام ج ٣ ورقة ٣٠٧ - ٣٠٨ .

(٦) يقصد السلطان محمود الغزنوى .

(٧) يعنى الخلافة العباسية .

(٨) فى الأصل أنزل .

(٩) فى الأصل سعيه .

واجتهاده ، وغزو أهل الكفر والضلال ، وقع من نبغ من الفئة الباطنية . وكانت الرى محصورة بالتجاهم إليها وإعلانهم بالدعاء إلى كفرهم ؛ فيها يختلطون بالمعتزلة والرافضة ، ويتجاهرون بستم الصحابة ، ويرون الكفر ومذهب الإباحة . وكان زعيمهم رستم بن على الديلمي ، فعطف العبد بالعساكر عليه ، فطلع بجرجان وتوقف بها إلى انصراف الشتاء ثم إلى دامغان . . . . . وخرج الديلمة معترفين بذنوبهم ، شاهدين بالكفر والرفض على نفوسهم ، فرجع إلى الفقهاء في تعرف أحوالهم ، فأفتوا بأنهم خارجون عن الطاعة ، داخلون في أهل الفساد ، يجب عليهم القتل والقطع والتني على مراتب جناباتهم ، إن لم يكونوا من أهل الإلحاد ، فكيف واعتقادهم لا يخلو من التشيع والرفض والباطن ؟ وذكر هؤلاء الفقهاء (١) أن هؤلاء القوم لا يصلون ولا يزكون ولا يعترفون بشرائط الدين ، ويجاهرون بالقذف وستم الصحابة ، والأمثل منهم معتقد مذهب الاعتزال والباطنية ، فهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . . . . . نثقت هذه البقعة من دعاء الباطنية ، وأعيان الروافض ، وانتصرت السنة ، فطالع العبد بحقيقة ما يسره الله تعالى لنصر الدولة القاهرة .

### فتوح محمود الغزنوي في بلاد الهند :

اصطبغت حملات محمود الغزنوي في بلاد الهند خاصة بين سنتي ٣٩٢ و ٤١٥ هـ (١٠٠٠ و ١٠٢٤ م) بصيغة الجهاد الديني . وكان يرمى من وراء هذه الحملات إلى نشر الإسلام في هذه البلاد ، ليكون ذلك وكفارة لما كان من قتال المسلمين . . . . . ولذلك فرض - كما يقول ابن خلكان (٢) - على نفسه في كل عام غزو الهند . أضف إلى ذلك أن چييال ملك البنجاب ، الذي حارب أباه سبكتكين حروبا طاحنة ، كان لا يزال في قوة لا يستهان بها ، كما أن قرب غزوة من بلاد الهند الشمالية ، ووقوعها على قبة الحضنة التي تشرف على سهولها ، يجعلها سهلة الاتصال بوديان كابل وقورم ونهر جئال - كل ذلك أمد محمودا بزايا فريدة ، ساعدت على نجاح غزواته في بلاد الهند . وما ساعد محمودا على تحقيق هذه الأغراض استيلائه على بلاد ماوراء النهر ، التي آلت إلى إيلك خان بعد زوال الدولة السامانية ، وعلى سجستان وبلاد الغور مما قوى مركزه الحربي في الداخل ، وأطلق يده في توجيه حملاته المنتظمة إلى بلاد الهند (٣) .

وفي سنة ٣٩٢ هـ غزا محمود الغزنوي شمال الهند ، وانتصر على چييال وأسره وغنم غنائم كثيرة ، حتى قيل إن عدد الأسرى بلغ أكثر من خمسمائة ألف ، ثم أطلق چييال على جزء من المال يؤديه . . . . . يقول ابن الأثير : ومن عادة الهند أنهم من حصل منهم في أيدي المسلمين أسيرا لم ينقده له بعدها رياسة . فلما رأى چييال حاله بعد خلاصه ، حلق رأسه ، ثم ألقى نفسه في النار فاحترق ، وترك

(١) وردت في الأصل الفقراء . (٢) كتاب وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨٥

(٣) انظر Encyclopaedia of Islam, Vol. II. p. 155.

ملكته لابنه أنتد بال Anandpal . وكان من أثر ما أحرزه محمود من نصر في هذه الغزوة أن أطلق عليه الغازي .

ولما قضى محمود الغزنوي على جييال ، سار نحو ويهند Und التي تار أهلها عليه ، وانتصر عليهم (١) ثم قصد إقليم الملتان ، وهو مركز مشهور للحجاج من الهنود ، في جنوب بلاد البنجاب على سمت غزنة (٢) ، فاستولى سنة ٣٩٥ هـ على مدينة بهاطية ، وانتصر على صاحبها بحيرا ، ونشر الإسلام فيها ، وولى عليها أحد المسلمين ، وعهد إليه تعليم أهلها قواعد الدين . وفي سنة ٣٩٦ هـ قصد محمود مدينة الملتان نفسها ، وانتصر وهو في طريقه إليها على أنتد بال بن جييال ، إذ لم يسمح له بالمرور من بلاده . ولما سمع أبو الفتح داود صاحب الملتان ، وكان يدين بمذهب القراءطة ، بقدم محمود الغزنوي إلى بلاده ، فرأى سرنديب ، فقضى محمود على مقاومة أهلها واقتحها عنوة ، وفرض عليهم الجزية (٣)

وفي سنة ٣٩٧ هـ أعلن محمود الغزنوي الحرب على ولد أنتد بال ، الذي اعتنق الإسلام على يد محمود وتلقب بلقب نواسه شاه ، وحكم بلاده نيابة عنه ، ولكنه ارتد عن هذا الدين ، وشق عصا الطاعة ، فسار إليه محمود وانتصر عليه ، وضم بلاده إلى أملاكه .

وبينما كان محمود مشغولاً بحرب إيلك خان ، الذي استولى على بلاد ماوراء النهر من يد السامانيين ، ثم حارب جيوش السامانيين على مقربة من بلخ ، وبحرب الغور على ما تقدم ، عقد ملوك الهند وأمراؤها حلفاً لمقاومة محمود ، والدفاع عن بلادهم وعن دينهم . ولما عبر محمود نهر السند في سنة ٣٩٨ هـ ، التقى في ويهند الواقعة في إقليم البنجاب بجيش جرار ، يتألف من قوات أبرهمن بال بن أنتد بال وراجات أديجين Udjdjain وجواليار وكالندجار ودلهي وغيرها ، وكادوا يظفرون بالمسلمين . (٤) ويقول ابن الأثير (٥) : « وكادت الهند تظفر بالمسلمين ، ثم إن الله تعالى نصر عليهم ، فظفر بهم المسلمون ، فانهزموا على أعقابهم ، وأخذهم المسلمون بالسيوف . وتبع يمين الدولة أثر برهمن بال ، حتى بلغ قبة بهم نغر ، وهي قلعة على جبل عال . وكان الهند قد جعلوها خزانة لسنهم الأعظم ، فينقلون إليها أنواع الذخائر قرناً بعد قرن ، وأعلاق الجواهر ، وهم يعتقدون ذلك ديناً وعبادة . فاجتمع فيها على طول الأزمان ما لم يسمع بمثله ، فنازلهم يمين الدولة ، وحصرهم وقتلهم . فلما رأى الهنود كثرة جمعه ، وحرصهم على القتال ، وزحفهم إليهم مرة بعد أخرى ، خافوا وجبنوا ، وطلبوا الأمان ، وفتحوا باب الحصن ، وملك المسلمون القلعة . وصعد يمين الدولة إليها في خواص أصحابه وثقاته ، فأخذ من الجواهر ما لا يحصى ، ومن الدراهم تسعين ألف ألف درهم شاهية ، ومن الأواني

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٦٤ .

(٢) انظر لفظ ملتان في معجم البلدان لياقوت .

(٣) Defrémery : Essai sur l'Histoire des Ismaéliens , p. 30 .

(٤) Wolseley Haig , Encyclopaedia of Islam . Vol. III . p. 133 .

(٥) ج ٩ ص ٧٧ .



الذهبيات سبعمائة ألف وأربعمائة منّا . وكان فيها بيت ملوّح من فضة ، طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه خمسة عشر ذراعاً ، إلى غير ذلك من الأمتعة . وعاد إلى غزنة بهذه الغنائم ، ففرش تلك الجواهر في صحن داره ، وكان قد اجتمع إليه رسل الملوك ، فأدخلهم إليه ، فرأوا ما لم يسمعوا بمثله ،

وكان من أثر انتصار محمود في هذه الغزوة أن انتثر عقد هذا الحلف ، وزالت الثقة من نفوس هؤلاء الراجات ، ودفع أتندبال إلى محمود غرامة كبيرة ، وتعهد بأن يدفع إليه جزية سنوية ، كما تعهد بأن لا يقف في طريقه إذا ما أراد المرور من بلاد البنجاب . أما داود صاحب بلاد الملتان ، فإنه ارتد إلى عقائد القرامطة ، فغزا محمود بلاده في سنتي ٤٠٠ و ٤٠١ هـ ، واستولى على حاضرتها ، وقتل كثيراً من أهلها ، وقبض على داود ، وأرسله إلى بلاد الغور حيث قضى بقية حياته (١) .

وقد ذكر ابن الأثير (٢) وابن خلكان (٣) أن محموداً الغزنوي استولى على ناردين سنة ٤٠٤ هـ ، وهدم الصنم المعروف بسومنان ، وغنم غنائم كثيرة .

عزم محمود على امتلاك قشمير ، ولكنه لم يوفق في حملته العديدة التي قام بها في سنتي ٤٠٤ و ٤٠٥ هـ ، وفقد كثيراً من جنده ، وغرق كثير منهم بسبب فيضان بعض الأنهار (٤) .

على أن محموداً ، الذي أقسم على غزو بلاد الهند في كل سنة ، انشغل في سنة ٤٠٧ هـ بضم بلاد خوارزم على أثر مقتل أبي العباس خوارزم شاه مأمون ، الذي تزوج من أخت محمود ، واعترف بسلطانه ، وأراد أن يخاطب له على منابر بلاده ، فقتله بعض قواده ، وأجلسوا ابنه مكانه . فقصده محمود هذه البلاد ، واستولى عليها ، وأزل العقاب بالثوار ، وولى عليها نائباً من قبله ، ثم تفرغ بعد ذلك لبلاد قشمير ، وكان قد استولى على بلاد الهند ما بينه وبين قشمير (٥) .

لذلك نراه يتأهب لشن الغارة على بلاد الهند ويسير من غزنة سيراً متواصلاً مدة ثلاثة أشهر ، ثم يعبر نهري سيحون وجيلوم ، فيخضع له ملوك هذه الجهات ، ثم يستمر في سيره حتى يصل إلى قشمير ، فيخضع له صاحبها ، ويسلم على يديه . ويقول ابن الأثير (٦) إن راجا برن Baran ، ويدعى هودب (٧) ، د نظر من أعلى حصنه ، فرأى من العساكر ما هاله ورعبه ، وعلم أنه لا ينتجيه إلا

(١) Wolseley Haig: Encyclopaedia of Islam, Vol. II. p. 133.

(٢) ج ٩ ص ٩٠ - ٩١

(٣) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨٥

(٤) ابن الأثير ج ٩ ص ٩٦ - ٩١

(٥) المصدر نفسه ج ٩ ص ٩٨

(٦) ج ٩ ص ٩٨ - ٩٩

(٧) ذكر سير توماس أرنولد في كتابه: Preaching of Islam. pp. 256-7 أن هردتا Hardatta (الذي يسميه ابن الأثير هودب) زعيم بولند شهر Buland shahr أو بران ، وهو الاسم القديم ، لما سمع نبأ وصول جيوش محمود إلى بلاده سقط في يده ، وأخذ الفزع من نفسه كل مأخذ ، وخشى على حياته من عقاب الله ، ولم ير بدا من اعتقاد الإسلام ، إذ رأى أن هذا الدين يحوطه سياج متين من قوة الله =

الإسلام ، فخرج في نحو عشرة آلاف يتادون بكلمة الإخلاص ، طلبا للخلاص ، فقبله يمين الدولة ، وسار عنه الى قلعة كلجند Kulcand<sup>(١)</sup> ، وكان من أعيان الهند وشياطينهم ، وكان على طريقه غياض ملتفة ، لا يقدر السالك على قطعها إلا بمشقة . فسير كلجند عساكره وفيوله إلى أطراف تلك الغياض ، يمنعون من سلوكها ؛ فترك يمين الدولة عليهم من يقاتلهم ، وسلك طريقاً مختصرة إلى الحصن ، فلم يشعروا به إلا وهو معهم ، فقاتله قتالا شديداً ، فلم يطيقوا الصبر على حد السيوف ، فانهزموا ، وأخذهم السيف من خلفهم . . . وعمد كلجند الى زوجته فقتلها ، ثم قتل نفسه بعدها ، وغنم المسلمون أمواله ، وملكوا حصونه . ثم سار نحو مُتَعَبِدْ لَهْم<sup>(٢)</sup> . . . وهو من أحسن الأبنية على نهر ، ولهم به من الأصنام كثير ، منها خمسة أصنام من الذهب الأحمر ، مرصعة بالجواهر ، وكان فيها من الذهب ستائة ألف وتسعون ألفاً وثلاثمائة مثقال ، وكان بها من الأصنام المصوغة من النشقرة نحو مائتي صنم ؛ فأخذ يمين الدولة ذلك جميعه ، وأحرق الباقي . وشار نحو كنجوج Kannawdj<sup>(٣)</sup> . وصاحبها راجبال Rádjyapála ، فوصل إليها في شعبان ، فرأى صاحبها قد فارقها ، وعبر الماء المسمى كنجك<sup>(٤)</sup> . . . فأخذها يمين الدولة ، وأخذ قلاعها وأعمالها ، وهي سبع على الماء المذكور . وفيها قريب من عشرة آلاف بيت صنم . . . ثم سار إلى قلعة البراهمة<sup>(٥)</sup> ، فقاتلوه ووثبوا . فلما عضهم السلاح ، علموا أنهم لا طاقة لهم ، فاستسلموا للسيف وقتلوا ، ولم ينج منهم إلا الشريد . ثم سار نحو قلعة آسي<sup>(٦)</sup> ، (وهي على نهر الجنجج أيضاً) وصاحبها جندبال ، فلما قاربها هرب جندبال ، وأخذ يمين الدولة حصنه وما فيه ، ثم سار الى قلعة شروة Sharwa ، وصاحبها جند راى<sup>(٧)</sup> . فلما قاربه نقل ماله وفيوله نحو جبال هناك منبوعة يحتمى بها ، وعُصِي خبره فلم يدر أين هو ، فنازل يمين الدولة حصنه ، وافتتحه وغنم ما فيه ، وسار في طلب جند راى جريده ، وقد بلغه خبره ، فلحق به في آخر شعبان ، فقتل أكثر جند راى ، وأسر كثيرا منهم وغنم ما معه من مال وفيلة ، وهرب جند راى في نفر من أصحابه فنجا . وكان السبي في هذه الغزوة كثيرا ، حتى إن أحدهم كان يباع بأقل من عشرة دراهم . ثم عاد إلى غزوة ظافرا . ولما عاد من هذه الغزوة أمر ببناء جامع غزوة ، فبنى بناه لم يسع مثله ، ووسع فيه . . . وأنفق ما غنمه في هذه الغزوة في بنائه .

== سبحانه وتعالى . وسرعان ما تقدم على رأس عشرة آلاف من رجاله ، وأعلنوا للقاتحين رغبتهم في التحول عن دينهم القديم إلى الاسلام ومناسبة الكفار العدا .

(١) هو راجا مهبان Mahaban .

(٢) يقصد ولسلى هيج أن هذا البيت في مدينة مئورا Mathūra أو بندرابان Bindrāban .

(٣) وكان يحميها سبعة حصون على نهر الجنجج (٤) يعنى نهر الجنجج .

(٥) ويسمى مجهاون Mudjhāwan . (٦) ذكرها ولسلى هيج أسنى Asni .

(٧) راى هو راجا حسب تسمية ابن الأثير الذى يقول ( ج ٩ ص ١١٠ ) إن « راى هو لقب الملك

كقبصر وكسرى . ولا يزال هذا اللقب لى الآن شائعا في بلاد الهند » .

وقد حز في نفس ملوك الهند ما أحرزه محمود الغزنوي من نصر مؤزر ، وما أبداه بعضهم من نخاذل ، فسار نندا ، راجا كالنيجار Kälindjār وراجا جواليار Gwalijar إلى راجبال راجا كنجوج وحارباه ، لتركة حاضرة بلاده ، وقتلاه . فانضم إلى نندا كثير من ملوك الهند الخاصين لنفوذ محمود الغزنوي ، وهددوا سلطانه في هذه البلاد . فلم ير بدا من العودة إلى الهند والقضاء على هذا الخطر قبل استفحاله ، وقضى في طريقه على جماعة الأفغان ، الذين كانوا يقطنون المناطق الجبلية بين غزنة والهند ، ويقطعون الطريق ، ويعوقون مواصلات محمود إلى هذه البلاد . ولما تم له ما أراد ، قصد نندا وحلفاءه وقضى عليهم في بلاد البنجاب ، وغنم منهم غنائم كثيرة (سنة ٤٠٩ هـ = ١٠١٩ م) (١).

وهكذا استمرت غزوات بين الدولة محمود بن سبكتكين في بلاد الهند سنة بعد أخرى ، حتى توج انتصاراته الباهرة في غزوته التي شنها عليها باسترداد ناردن ، وهدم صنم سومنان ، الذي كان الهنود يعتبرونه الملائ الذي يحميهم من غزوات الغزنويين . فكان كلما فتح بين الدولة من الهند فتحاً ، وكسر صنماً ، يقول الهنود ، إن هذه الأصنام قد سخط عليها سومنات (سومنان على الأصح) ، ولو كان راضياً عنها لأهلك من قصدها بسوء . فلما بلغ ذلك بين الدولة عزم على غزوه وإهلاكه ، ظنا منه أن الهنود إذا فقدوه ، ورأى كذب ادعائهم الباطل ، دخلوا في الإسلام ، (٢) فاستعد لهذه الغزوة أتم استعداد ، واخترق صحراء الهند (صحراء ثار) واستولى على أجمر Adjmar وانهلواة Anhilwara ، فتركها صاحبها بهم Bhim ، ووصل إلى سمنان في ١٦ ذي القعدة سنة ٤١٦ هـ (يناير ١٠٢٦ م) ، فرأى حصناً منيباً ، دافع عنه أهله أشد دفاع . ثم علم أن أمراء جوجرات Gudjarat الذين فروا قبل قدومه ، قد لموا شملهم للذود عن مبعودهم ، وساروا نحو المدينة ، فترك بعض رجاله يحاصرون الهند ، واتجه ببقية جيشه صوب جيوش هؤلاء الأمراء ، وانتصر عليهم بعد أن كادت تحمل به الهزيمة ، فولوا الأدبار ، واستطاع بعد ذلك أن يستولى على هذا الصنم المشهور . وقد سر محمود الغزنوي بهذا النصر المؤزر ، وأرسل إلى الخليفة يعلنه بما فتح الله على المسلمين في الهند . ويحسن بنا أن ننقل ما أورده ابن خلكان (٣) في هذا الصدد :

« وكتب إلى الديوان العزيز ببغداد كتاباً يذكر فيه ما فتح الله تعالى على يديه من بلاد ، وأنه كسر الصنم المعروف بسومنان ، وذكر في كتابه أن هذا الصنم عند الهنود يحي ويميت ، ويفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، وأنه إذا شاء أبرأ من جميع العلل . وربما كان يتفق لشقوتهم إبلال عليل يقصده ، فيوافقه طيب الهواء ، وكثرة الحركة ، فيزيدون به افتئاناً ، ويقصدونه من أقاصى البلاد ، رجالاً وركباناً . ومن لم يصادف منهم انتعاشاً احتج بالذنب ، وقال إنه لم يخاض له الطاعة ، ولم يستحق منه الإجابة . ويؤمنون أن الأرواح إذا فارقت الأجسام ، اجتمعت لديه على مذهب أهل

(٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ١١٨

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١١٥ - ١١٦

(٣) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨٤ - ٨٥

التاسخ ، فينشئها فيمن يشاء ، وإن مَدَّ البحر وجزره عبادة له على قدر طاقته . وكانوا يحكم هذا الاعتقاد بحجونه من كل صقع بعيد ، ويأتون من كل فج عميق . ويتحفونه بكل مال نفيس . ولم يبق في بلاد الهند على تباعد أقطارها ، وتفاوت أديانها ملك ولا سوقة إلا تقرب إلى هذا الصنم بما عز عليه من أمواله وذخائره ، حتى بلغت أوقافه عشرة آلاف قرية مشهورة في تلك البقاع ، وامتلأت خزائنه من أصناف الأموال . وفي خدمته من البراهمة ألف رجل يخدمونه ، وثلاثمائة رجل يحلقون رموس حجيجه ولحاهم عند الورود عليه ، وثلاثمائة رجل وخمسمائة امرأة يغنون ويرقصون عند بابه ، ويجرى من مال الأوقاف المرصدة له لسكر طائفة من هؤلاء رزق معلوم . وكان بين المسلمين وبين القلعة التي فيها الصنم مسيرة شهر في مفازة موصوفة بقلة المياه ، وصعوبة المسالك ، واستيلاء الرمل على طرقها . فسار إليها السلطان محمود في ثلاثين ألف فارس جريدة مختارة من بين عدد كثير ، وأنفق عليهم من الأموال مالا يحصى . فلما وصلوا إلى القلعة وجدوها حصنا متينا ، وفتحوها في ثلاثة أيام ، ودخلوا بيت الصنم وحوله من الأصنام الذهب المرصع بأصناف الجواهر عدة كبيرة محيطة بعرشه ، ويزعمون أنها الملائكة . وأحرق المسلمون الصنم المذكور ، فوجدوا في أذنه نيفا وثلاثين حلقة ، فسألهم محمود عن معنى ذلك ، فقالوا : كل حلقة عبادة ألف سنة . وكانوا يقولون بقدوم العالم ، ويزعمون أن هذا الصنم يعبد أكثر من ثلاثين ألف سنة ، وكلما عبده ألف سنة علقوا في أذنه حلقة .

وقد أعجب محمود بجمال إقليم جوچرات وحسن مناخه ، حتى إنه فكر في اتخاذ أهلوارا حاضرة له ، واستخلاف ابنه مسعود في حكم غزته ، لولا أن قواده أشاروا عليه بالعدول عن هذا الرأي ، وعاد إلى غزته محملا بالغنائم . وكانت آخر غزوات محمود الغزنوي لبلاد الهند في سنة ٤١٨ هـ ( ١٠٢٧ م ) لتأديب الثوار الذين كانوا قد اعترضوه في أثناء عودته إلى غزته ، وأعد لهذه الغزوة أسطولا صغيرا ، وأحل الهزيمة بالجأت Djats في نهر السند (١)

ولم يفتر محمود الغزنوي عن توجيه حملاته إلى بلاد الهند طوال عهده ، حتى إننا نرى نائبه نبال تكين في هذه البلاد يستولى في سنة ٤٢١ هـ ، وهي السنة التي توفي فيها محمود ، على نرسي التي تعد من أعظم مدن الهند في ذلك الوقت .

يقول ولسلي هيج (٢) : « يمكننا إلى حد ما أن نعتبر محمودا ( الغزنوي ) سلطانا هنديا خالصا فقد فتح في خريف حياته إقليم البنجاب ، ونشر الإسلام في ربوع الهند ، وافتتح طريقا سلكه بعده كثيرون ، وفتح خلفاؤه ، بعد أن جردوا من أملاكهم في فارس وأفغانستان وبلاد ماوراء النهر ، يحكم إقليم البنجاب ، وكونوا أسرة هندية خالصة ،

W. Haig : Encyclopaedia of Islam, Vol. II. p. 134 (١)

Cambridge History of India (Cambridge, 1928) Vol. III, pp. 26-7 (٢)

ويقول ستانلي لينبول (١) ، إن حملات الغزنويين في بلاد الهند ، واتخاذهم لاهور مقرا لهم ، يمكن اعتباره بدء حكم المسلمين الحقيقي في هذه البلاد . فقد مهدت الدولة الغزنوية في لاهور السبيل أمام محمد بن سام القوري (٢) وخلفائه الذين تولوا سلطنة دلهي ، والذي نشروا نفوذ المسلمين في كافة أرجاء بلاد الهند الشمالية (٣)

وقد بلغ محمود الغزنوي في فتوحه ، إلى حيث لم تبلغه في الإسلام رابة ، ولم تشل به قِطْ سورة ولا آية ، فرحض عنها أجناس الشرك ، وبنى بها مساجد وجوامع ، (٤) ، وأقام بدلا عن بيوت الأصنام ، مساجد الاسلام ، وعن مشاهد البهتان ، معاهد التوحيد . والإيمان ؛ فصارت الأطفال تهدد في بطالاتها إقدامه ، وتفزع باقبال أوليته وأعلامه ، وظل أندبالهم وجييالهم ، وكلماتهم وأبطالهم كما قال الأشجع السلمي :

وعلى عدوك يا بن عم محمد رصداً : ضوء الصبح والاضلام  
فاذا تنبه رُعته وإذا هذا سلت عليه سيوفك الأحلام (٥)

وقد أظنبت العتيبي (٦) في سجايها محمود الغزنوي ، وأشاد باتساع رقعة مملكته في هذه العبارة ، فقال :

« إن راية الاسلام لم تظل على سلطان أحسن ديننا ، وأصدق يقينا ، وأحسن علما ، وأوقع حلما ، وأسد سيرة ، وأخلص سريرة ، وأتم وفاء ، وأعم سخاء ، وأوفر حياء ، وأغنى غنساء ، وأعظم قدرا ، وأغرم ذكرا ، وأمد باعا ، وأشد امتناعا ، وأجل جلالا ، وأكمل عدة وآلة ، وأرفع ملكا وسلطانا ، وأطوع أنصارا وأعوانا ، وأردع سيفا وسنانا ؛ وأحمى للإسلام وذويه ، وأنقى للشرك ومنتحليه ، وأعدى للباطل ومن يليه ، اكتسابا ووراثه وطباعا واستفادة ، من الأمير السيد ، الملك المؤيد ، بين الدولة ، وأمين الملة ، أبي القاسم محمود بن ناصر الدين ، أبي منصور سُبُكْتِين : ملك الشرق بجنبيه ، والصدر من العالم ويديه ، لانتظام الإقليم الرابع وما يليه من ثالث الأقاليم وخامسها (٧)

(١) The Muhammadan Dynasties, p. 284.

(٢) حكمت الدولة القورية بلاد أفغانستان وهندستان من سنة ٥٤٣ ( ١١٤٨ م ) إلى سنة ٦١٢ هـ ( ١٢١٥ م ) .

(٣) Ishwari Prasad : Inde du VIIe au XVIIe Siècle, p. 84 et suiv. انظر حين ابراهيم

حسن : انتشار الاسلام في الهند : بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب بجامعة قوادم الأول . مايو ١٩٤٤ م ص ٧

(٤) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨٥

(٥) العتيبي : تاريخ اليمن ج ١ ص ٣٨ - ٣٩

(٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٠ - ٣٤

(٧) أراد بالاقليم الرابع بعضه وهو خراسان ، لأنها من أشهر كور هذا الاقليم ، وأراد بالاقليم الثالث الذي منه قندهار وكابل وكثير من مدن بلاد الهند . والاقليم الخامس هو ما يلي الاقليم الرابع من ناحية الشمال ، ويراد به ما تملكه السلطان محمود الغزنوي من بلاد الترك وخوارزم وغيرها . ولا يبعد أن يكون =

في حوزة ملكه وحصول انتظام مملكة الفسيحة ، وولاياتها العريضة في قبضة ملكه ، ومصير أمراتها  
وذوى الألقاب الملوكية من عظماؤها تحت حمايته وجبايته ، واستدراهم من آفات الزمان بظل ولايته  
ورعايته ، وإذعان ملوك الأرض على بعدهم لعزته ، وارتياحهم من فائض هيئته ، واحتراسهم على  
تقاذف الديار وتحاجز الأنجاد والأغوار من فاجئ ركضته ، واستخفاء الهند والروم تحت جيوبها عند  
ذكره ، واقشعرارهم لمهب الرياح من أرضه وقد كان أدام الله دولته منذ لفظه المهد وجفاه الرضاع ،  
واحلت عن لسانه عقدة الكلام ، واستغنى عن الإشارة بالأفهام ، مشغول اللسان بالذكر والقرآن ،  
مشغول النفس بالسيف والسنان ، بمدود الهمة الى معالي الأمور ، معقود الأمانة بسياسة الجمهور ،  
لعبه مع الأتراب جد ، وجده مستكد ، يألم لما لا يعلم حتى يقتله خيرا ، ويحزن لما يحزن حتى  
بدمته قسرا وقهرا .

• • •

كان محمود الغزنوي - كما وصفه ابن الأثير (١) - عاقلا دينيا (٢) خيرا ، عنده علم ومعرفة ،  
له كثير من الكتب في الفنون . وقصده العلماء من أقطار البلاد ؛ وكان يكرمهم ، ويقبل عليهم ،  
ويعظمهم ، ويحسن إليهم . وكان عادلا كثير الإحسان إلى رعيته ، والرفق بهم ، كثير الغزوات ،  
ملازما للجهاد . وفتوحه مشهورة مذكورة ... وفيه ما يستدل به على بذل نفسه لله تعالى ، واهتمامه  
بالجهاد . ولم يكن فيه ما يعاب ، إلا أنه كان يتوصل الى أخذ الأموال بكل طريق (٣) ... وكان  
رُبْعَةً مَلِيحَ اللَّوْنِ حَسَنَ الْوَجْهِ ، صَغِيرَ الْعَيْنِ ، أَحْمَرَ الشَّعْرِ .

وقد نقل أبو نصر العيني (٤) عن بديع الزمان الهمذاني (٣٩٨ هـ = ١٠٠٧ م) أحيانا  
يصف فيها ازدهار الدولة الغزنوية في عهد بين الدولة محمود الغزنوي وتحول السيادة والتفوذ من  
العنصر الفارسي الى العنصر التركي بقضاء محمود الغزنوي على السامانيين فقال :  
تعالى الله ماشاء و زاد الله إيماني  
أفسريدون في التاج أم الإسكندر الثاني

= العيني قد أراد بالصدر من العالم الاقليم الرابع ، لأنه يقع بالنسبة إلى الأقاليم السبعة وسط ، وهو كالصدر  
من الانسان ، وما يليه من الاقليم الثالث والخامس كاليدين .

انظر النيني : شرح النيني المسمى بالفتح الوهمي على تاريخ أبي نصر العيني ص ٣١ - ٣٢ .

(١) ج ٩ ص ١٥٠ - ١٥١ .

(٢) ذكر ابن خلسكان ( ج ٢ ص ٨٦ ) أن محمودا الغزنوي كان مولعا بعلم الحديث ، وقد رأى أن  
أكثر هذه الأحاديث موافق لمذهب الشافعي ، ولذلك صار إليه محمود ، وترك مذهب أبي حنيفة .

(٣) ذكر ابن الأثير ( ج ٩ ص ١٥٠ - ١٥١ ) أن محموداً قبض على وزيره أبي القاسم أحمد  
ابن الحسن الميموني في سنة ٤١٢ هـ شرها في ماله ، وأخذ منه ما قبض عليه مالا وأعراسا بقيمة خمسة  
آلاف درهم . وذكر أيضا أنه بلغه أن إنسانا من نيسابور كثير المسال عظيم الغنى ، فأحضره إلى  
غزنة وقال له : بلغنا أنك قرمطي ، فقال : لست بقرمطي ، ولي مال يؤخذ منه ما يراد ، وأعني من هنا  
الامم ، فأخذ منه مالا ، وكتب معه كتابا بصحة اعتقاده .

(٤) تاريخ النيني ج ١ ص ٣٨٤ - ٣٨٦ .

إلى بنا سليمان ؟	أم الرعيمة قد عادت
على أنجم سامان	أظلت شمس محمود
عبيدا لابن خافان	وأسمى آل بهرام
لحرب أو ميدان	إذا ما ركب الفيل
على منكب شيطان	رأت عينك سلطانا
إلى ساحة جرجان	فن واسطة الهند
إلى أقصى خراسان	ومن قاصية السند
ويوما رسل الخان	فيوما رسل الشاه
وفي مفتاح الشان	على مقبيل العمر
عن طاعتك اثنان	فما يعزب بالمعزب
على كاهل كسيوان	لك السرح (١) إذا شئت
وباصحاب غمشدان	أيا والى بغداد
على سبعة أركان	تأمل ماتى فيل
وبلعين بشعبان	يقابن أساطين
يشهرن بأوان	عليهن تجافيف
من الجند توجان	وبأجوج وماجوج

### مسعود الأول (٤٢١ - ٤٣٢ هـ)

لما حضرت محمود الغزنوي الوفاة، أوصى إلى ابنه محمد نائبه بيلخ بالحكم من بعده، واقبه جلال الدولة، ولم يوص لابنه الأكبر مسعود، لإبقاع الوشاة به عند أبيه. ووصل محمد إلى غزنة بعد موت أبيه بأربعين يوما، وخلع على قواده وعساكره فأطاعوه.

أما مسعود فقد كان شأنه مع أخيه محمدشأن أبيه محمود مع أخيه إسماعيل بن سبكتكين. فان مسعودا لما بلغه خبر وفاة أبيه وهو بأصبهان، سار إلى خراسان، وكتب إلى أخيه يطلب إقراره على البلاد التي كان قد فتحها، وهي بعض بلاد طبرستان والجبل وأصبهان، ووعد بتقديم اسم أخيه في الخطبة على اسمه. ولكن محمدا لم يجب أخاه إلى طلبه، وانضم بعض جنده إلى مسعود، لكبر سنه وشجاعته وقوة بأسه، ونار بمضهم الآخر عليه، وقبضوا عليه وحبسوه وسملوا عينيه، لأنه كان مشغولا بالشرب واللعب عن تدبير المماكة، والنظر في أحوال الجند والرعايا، وهنقوا بأخيه مسعود سلطانا عليهم، وذلك في شهر ذي القعدة سنة ٤٢١ هـ، أي بعد اعتلائه السلطنة بخمسة شهور (٢).

(١) يريد أن حكمه لا يترتب عنه حتى التبعوم في مسارحها.

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٥٠.

ولقبه الخليفة القادر ناصردين الله، وحافظ عبادالله، وظهر خليفة الله<sup>(١)</sup>، وسيد الملوك والسلاطين،<sup>(٢)</sup> وفي سنة ٤٠٦ هـ ولى محمود ابنه مسعودا العهد من بعده، ثم ولاة هراة. وفي سنة ٤١١ هـ عهد إليه بمحاربة الغور، فأبلى بلاء حسنا، وأخضع الجزء الشمالي الغربي من هذه البلاد. ولكن أباه لم يلبث أن غضب عليه وسجنه في المولتان، ثم عفا عنه، وقلده ولاية هراة ثانية. ولما فتحت بلاد الري في سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) وزالت عنها سيادة البويهيين من أبناء ركن الدولة، ولها مسعود الذي ضم همذان وأصبهان وأزال سلطان البويهيين منها.

عمل مسعود على إقرار نفوذه في بلاد المشرق، فاستولى على مكران (سنة ٤٢٢ هـ)، ثم على كرمان التي لم تلبث أن خرجت عن طاعته؛ ثم سار إلى خراسان لفتح بلاد العراق، فاتخذ أحمد بن ينال تكيين نائب الغزنويين في لاهور من ذلك فرصة للاستقلال بهذه البلاد، واضطر مسعود إلى العودة إلى غزنة. وولى علاء الدولة بن كاكويه. وكان بنو بويه قد ولوه أصبهان فطلب من مسعود إقراره عليها بحرية سنوية على هذه المدينة، وأقر دارا بن منوچهر بن قابوس بن وشمكير على جرجان وطبرستان، وأرسل أبا سهل الحمدوني لإقرار الأمور في الري. وسار (مسعود) إلى الهند وفتح قلعة مرستي الجبلية في جنوب قشمير، وقد حاول أبوه محمود فتحها من قبل فلم يوفق، وأرغم نائبه أحمد بن ينال تكيين، على الارتداد إلى نهر السند، حيث غرق (سنة ٤٢٦ هـ)، ثم عاد إلى هذه البلاد في السنة التالية. واستولى على بعض قلاعها مثل هانسي Hānsi وسونيبات Sonipat، وخلف ابنه محدودا على بلاد البنجاب<sup>(٣)</sup>.

ولما قضى مسعود على الصعوبة التي قامت في وجهه في الهند، اعترضته صعوبة أخرى في خراسان، حيث نازعه السلطنة فيها قوتان خطيرتان، هما الغز والسلاجقة. أما الغز فقد أجلاهم عن خراسان بعد حروب دامت زهاء سنتين (٤٢٩ - ٤٣١ هـ)، وأما السلاجقة الذين تقاوم شرمهم في الوقت الذي قامت فيه الاضطرابات بعد وفاة محمود الغزنوي، فقد نهجوا هراة في سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م)، ولكنهم، على الرغم من ارتدادهم إلى جبال بلخ بعد أن كابدوا خسائر فادحة، لم يعدلوا عن نشاطهم في إقلاق الغزنويين، وبدوا منذ سنة ٤٢٥ هـ يغيرون على خراسان إغارات منبظمة. وفي سنة ٤٢٦ هـ حاربهم مسعود وهزمهم هزيمة منكرة. وبينما كان جند الغزنويين مشغولين بجمع الأسلاب والغنائم من معسكر أعدائهم، إذخرجت جماعة من السلاجقة بقيادة داود من الجبال، وانقضت عليهم، وأمعنوا في قتلهم. ولم يستطع مسعود التفرغ للقضاء على السلاجقة، لشغله بغزو الهند، مما أدى إلى ازدياد قوتهم وطمعهم في أملاك الغزنويين. وفي سنة ٤٢٨ هـ استولى السلاجقة على بلخ، ولكنهم ارتدوا إلى مرو عند اقتراب السلطان مسعود منها، وطلبوا الصلح. فرحب هذا السلطان بذلك الطلب. ولما شرع في العودة إلى غزنة، انقض السلاجقة على مؤخرة جيشه وقتلوا كثيرا من جنده، وعاد مسعود

(١) Encyclopaedia of Islam, vol. III, p. 400

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٨١.

(٣) المصدر نفسه ج ٩ ص ١٦٠، ١٦٢، ١٦٤.



وانتقم منهم شر انتقام ، لخياتهم إياه . على أن ذلك لم يضعف قوة السلاجقة المعنوية ، فضاغفوا جبهتهم ، واستولوا على مرو ونيسابور وسرخس (سنة ٥٤٢٩ هـ) ، بل على معظم بلاد خراسان سوى بلخ . ولم ير مسعود بدا من قتالهم بنفسه ، فعاد من غزنة ، واتصر على طغرل في شهر شعبان سنة ٥٤٣٠ هـ ، وطرده السلاجقة والغز من خراسان . ولكن السلاجقة لم يلبثوا أن هزموا مسعودا في شهر رمضان سنة ٥٤٣١ هـ هزيمة منكرة ، وأفلت من الأسر . وكانت هذه الهزيمة بعيدة الأثر في نفس مسعود ، حتى إنه عزم على الانسحاب إلى بلاد الهند ، حيث يستطيع أن يجمع جيشا جرارا يحارب به السلاجقة (١) . وبعد أن عبر نهر السند بقليل ، ثار مواليه ، وقبضوا عليه ، ونهبوا خزائنه ، وانضموا إلى سائر الجند ، وأقاموا أخاه محمدا (وكان بصحبته مسمولا بعد أن قبض عليه) ، وسلبوا عليه بالإمارة ، فامتنع من قبول ذلك ، فهددوه وأكروه ، فأجاب . وبقي مسعود فيمن معه من المعسكر ، وحفظ نفسه . وقد انتهت هذه الحروب الأهلية التي قامت بين جند مسعود وأنصار أخيه محمد ، بقتل مسعود . وفي ذلك يقول ابن الأثير (٢) :

فالتقى الجمعان منتصف ربيع الآخر (سنة ٥٤٣٢ هـ) ، فاقتلوا ، وعظم الخطب على الطائفتين . ثم انهزم عسكر مسعود ، وتحصن هو في رباط ماريككة ، فحصره أخوه ، فامتنع عليه ، فقالت له أمه : إن مكانك لا يعصمك ، ولأن تخرج إليهم بعد خير من أن يأخذوك قهرا . فخرج إليهم ، فقبضوا عليه ، فقال لهم أخوه محمد : والله لا فابلتلك على فعلك في ، ولا عاملتلك إلا بالجميل ، فانظر أين تريد أن تقيم حتى أحملك إليه ومعك أولادك وحرملك . فاختار قلعة كيكي ، فأنفذه إليها محفوظا ، وأمر بإكرامه وصيافته ، وأرسل مسعود إلى أخيه محمد يطلب منه مالا يتفقه ، فأنفذ له خمسمائة درهم ، فبكى مسعود وقال : كان بالأمس حكمتي على ثلاثة آلاف حمل من الخزائن ، واليوم لا أملك الدرهم الفرد ، فأعطاه الرسول من ماله ألف دينار ، فقبلها . وكانت سبب سعادة الرسول ، لأنه لما ملك مودود بن مسعود ، بالغ في الإحسان إليه . ثم إن محمدا فوض أمر دولته إلى ولده أحمد ، وكان فيه خبط وهوج ، فانفق هو وابن عمه (الصواب عم أبيه) يوسف بن سبكتكين وابن علي خويشاوند على قتل مسعود ، ليصفوا الملك له ولو والده ، فدخل إلى أبيه ، فطلب خاتمه ليختم به بعض الخزائن ، فأعطاه ، فسار به إلى القلعة . وأعطوا الخاتم لمستحفظها ، وقالوا : معنا رسالة إلى مسعود ، فأدخلهم إليه ، فقتلوه . فلما علم محمد بذلك ساءه وشق عليه وأنكره . وقيل إن مسعودا لما حبس ، دخل عليه ولدا أخيه محمد ، واسم أحدهما عبد الرحمن ، والآخر عبد الرحيم ، فدعا عبد الرحمن يده ، فأخذ القلنسوة من رأس عمه مسعود ، فدعا عبد الرحيم يده وأخذ القلنسوة من أخيه ، وأنكر عليه ذلك وسبه ، وقبلها وتركها على رأس عمه ، فنجى ذلك عبد الرحيم من القتل والأمر لما ملك مودود بن مسعود . . . ثم إن محمدا أغراه ولده أحمد

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٧٠ - ١٧٢ و ١٨١ .

(٢) ج ٩ ص ١٨١ .

Encyclopaedia of Islam, Vol. III, pp. 400-1

بقتل عمه مسعود . فأمر بذلك ، وأرسل إليه من قتله ، وألقاه في بئر ، وسد رأسها . وقيل بل ألقى في بئر حيا ، وسد رأسها فمات .

وقد أطنب ابن الأثير (١) في وصف مناقب مسعود ، واتساع رقعة سلطنته ، فقال :

وكان السلطان مسعود شجاعا كريما ، ذا فضائل كثيرة ، محبا للعلماء ، كثير الإحسان إليهم ، والتقرب لهم . صنفوا له التصانيف السكثيرة في فنون العلوم . وكان كثير الصدقة والإحسان إلى أهل الحاجة ، تصدق مرة في شهر رمضان بألف ألف درهم ، وأكثر الإدرارات والصلوات ، وعمر كثيرا من المساجد في ممالكه . وكانت صنائعه ظاهرة مشهورة ، تسير بها الركبان ، مع عفة عن أموال رعاياه وأجاز الشعراء جوائز عظيمة : أعطى شاعرا على قصيدة ألف دينار ، وأعطى آخر بكل بيت ألف درهم . وكان يكتب خطأ حسنا . وكان ملكه عظيما فسيحا : ملك أصبهان والري وهمدان وما يليها من البلاد . وملك طبرستان وجرجان وخراسان وخوارزم وكرمان وسجستان والسند والرخج وغزنة وبلاد الغور والهند ، وملك كثيرا منها ، وأطاعه أهل البر والبحر .

مورود بن مسعود (٤٣٢ - ٥٤٤٠) :

لما قتل مسعود عاد أخوه محمد إلى غزنة ، وأرسل إلى ابن أخيه مودود بخراسان يتنصل من تبعه قتل أبيه ، فرد عليه بهذه العبارة التي أتت عن حزنه وعزمه على القصاص من قتلة أبيه ، فقال : وأطال الله بقاء الأمير القاسم (محمد بن محمود بن سبكتكين) ، ورزق ولده المعتوه أحمد عقلا يعيش به ، فقد ركب أمرا عظيما ، وأقدم على إراقة دم ملك مثل والدي ، الذي لقبه أمير المؤمنين سيد الملوك والسلاطين . وستعلبون في أي حثف تورطتم ، وأي شر تأبطتم ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

نُفِّلَتْ هَامَا مِنْ رِجَالٍ أَعَزَّةٍ عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعْقَ وَأَظْلَمَا ،

سار مودود من خراسان قاصدا غزنة وحارب عمه محمدا - وكان قد عاد من الهند - بالقرب من دينور الواقعة على طريق كابل وبشاور ، وانتصر عليه ، ودخل غزنة وقتل أولاده جميعا إلا عبد الرحيم الذي غضب لقتل عمه ، كما قتل كل من رمى بالاشترار في هذه المؤامرة . وبنى في المكان الذي انتصر فيه على عمه قرية ورباطا ، سماها فتح آباد ، ودخل غزنة في شهر شعبان سنة ٣٣٢ هـ . وقد أثار انتصار مودود مخاوف الغز السلاجقة ، فثار أهالي البلاد التي خضعت لهم عليهم ، ودخلوا في طاعة مودود الذي استقر أمره بغزنة ، ولم يعد يخشى أحدا إلا أخاه مجدودا ، وكان أبوه مسعود قد سيره إلى الهند . وولاه إقليم البنجاب في سنة ٤٢٦ هـ كما تقدم ، فعصى أخاه مودودا ، واستقل بلاهور والمولتان ، وجهز جيشا سار به نحو غزنة ، ولكنه مات في شهر ذي الحجة من سنة ٤٣٢ هـ (أغسطس سنة ١٠٤١ م) بعد أن وصل إلى لاهور بثلاثة أيام (٢) . وأطاعت البلاد بأسرها مودودا ، ورست

(١) ج ٩ من ١٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ج ٩ من ١٨٢ .

قدمه ، وثبت ملكه . فلما سمعت الغز السلجوقية ذلك خافوه ، واستشعروا منه ؛ وراسله ملك الترك بما وراء النهر بالانقياد والمناعبة ، (١)

وقد أصبح السلاجقة على مر الأيام خطرا يهدد الدولة الغزنوية ؛ ففي سنة ٤٣٥ هـ انتصر ألب أرسلان بن داود السلجوقي على جيش مودود الغزنوي في خراسان . ومع ذلك فقد تمكنت جماعة من جيوش مودود من القضاء على جماعة من الغز بنو احيى بست (٢) .

ولم يقل اهتمام مودود بشئون الهند عن أسلافه فيها ؛ فقد ذكر ابن الأثير (٣) أن ثلاثة من ملوك الهند (٤) تحالفوا مع بعض راجاتها ، وحاصروا لاهور حاضرة الغزنويين في هذه البلاد ، وأن مودودا أرسل جيشا كبيرا للقضاء على قوة الهنود وتقويض حلفهم ، فانهمز سخبال . واتفق أن بعض أولئك الملوك فارقههم وعاد إلى طاعة مودود ، فرحل الملوك الآخرون إلى بلادها ، فسارت المساكن الإسلامية إلى أحدها ، ويعرف بدوبال هريانه ، فانهمز منهم وصعد إلى قلعة له منيعة هو وعساكره ، فاحتموا بها ، وكانوا خمسة آلاف فارس ، وسبعين ألف راجل . وحصرهم المسلمون وضيقوا عليهم ، وأكثروا القتل فيهم ؛ فطلب الهنود الأمان ، على تسليم الحصن . فامتنع المسلمون من إجابتهم إلى ذلك ، لإبعد أن يضيفوا إليه باقي حصون ذلك الملك الذي لهم ، فحملهم الخوف وعدم الأقوات على إجابتهم إلى ما طلبوا ، وتسلموا الجميع . وغنم المسلمون الأموال ، وأطلقوا مافي الحصون من أسرى المسلمين ، وكانوا نحو خمسة آلاف نفر . فلما فرغوا من هذه الناحية ، قصدوا ولاية الملك الثاني ، واسمه ثابت بالرى ، فتقدم إليهم ولقيهم ، فاقتلوا قتالا شديدا ، وانهمزت الهنود ، وأجلت المعركة عن قتل ملكهم وخمسة آلاف قتيل وجريح . وأسر ضعفاؤهم ، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ودوابهم . فلما رأى باقي الملوك من الهند مآلتي هؤلاء ، أذعنوا بالطاعة ، وحملوا الأموال ، وطلبوا الأمان والإقرار على بلادهم ، فأجيبوا إلى ذلك .

وكان من أثر هذا الانتصار أن استعاد الغزنويون هيبتهم المنزعزة في بلاد الهند الشمالية إلى حين . وكان مودود يعمل على استرداد البلاد التي استولى عليها السلاجقة في عهد أبيه ، فحاربهم في سنة ٤٣٥ هـ كما تقدم . وطلب إلى عمال الأقاليم مساعدته على تحقيق أغراضه ، ووعدهم بأقرارهم على ما يفتحونه من بلاد ، وغمرهم بالأموال الضخمة . ومن ثم نرى صاحب أصبهان ينشط لمساعدته ، لولا أن هلك كثير من جنده في الصحراء ؛ كما نرى ملك الترك يسير إلى ترمذ ، ويطرد السلاجقة منها ، وتذهب طائفة من هؤلاء الترك إلى خوارزم . ويسير مودود من غزنة في سنة ٤٤١ هـ للحرب السلاجقة ، ولكن المرض يفتابه ، فيعود إلى حاضرة ملكه ، ويموت في العشرين من رجب من هذه

(٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ١٩٣ .

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٨٢ .

(٣) المصدر نفسه ج ٩ ص ١٩٣-١٩٤ .

(٤) ومنهم سخبال Sukhpal الذي تحالف مع نواسي شاه بن جيبال ملك ومهند Waihand وديبال

هريانه Dipāl Haryāna

السنة، وهو في التاسعة والعشرين من عمره، بعد أن ملك تسع سنوات وعشرة أشهر. وحال موت مودود المبكر دون القضاء على قوة السلاجقة، فقد عرف بالشجاعة والإقدام، وعمل على توطيد ملكه، وإعادة مملكته إلى ما كانت عليه في عهد جده يمين الدولة محمود الغزنوي. (١)

### عبد الرشيد وفروخ زاد (٤٤١ - ٤٥١ هـ)

تولى مسعود الثاني بعد وفاة أبيه مودود، ولكنه لم يبق في السلطنة سوى خمسة أيام، ثم تقلد السلطنة بعده عمه أبو الحسن علي بن مسعود الأول. وقد انتهز عبد الرشيد بن يمين الدولة محمود الغزنوي فرصة الاضطراب الذي ساد الدولة الغزنوية بعد موت مودود، ودعا الجنود إلى طاعته فأجابوه، وساروا إلى غزنة، ففر علي بن مسعود، واستقر الأمر له، وتلقب عز الدولة، وشمس دين الله، وسيف الدولة، وقيل إنه تلقب أيضاً بجمال الدولة (٢).

وقد عمل عبد الرشيد على طرد السلاجقة من خراسان، مستعيناً في ذلك بطغرل زوج أخت مودود وحاجبه، الذي أرسله إلى هذه البلاد. ولما أمس طغرل من نفسه القوة قصد غزنة، حتى أصبح على بعد ستة فراسخ منها، وحاول خداع عبد الرشيد، مدعياً بأن الجنود تألبوا عليه وألحوا في العودة للدطالة بزيادة أرزاقهم. وعلى الرغم من اعتصام عبد الرشيد بقلعته في غزنة، قبض عليه طغرل وقتله (سنة ٤٤٤ هـ)، واستولى على بلاده، وتزوج ابنة مسعود الأول كرها.

ولكن عمل طغرل لم يرض بعض القواد، كما أنه لم يرض نائب الغزنويين في الهند، برغم ما بذله طغرل من جهود في إغرائه واستمالة إليه. واتصل هذا الوالي بوجود القواد، كما اتصل بزوجة طغرل، وأنكر على هؤلاء إغضاءهم، وعودهم عن الأخذ بثأر عبد الرشيد. وبذلك أثار هذا الأمير حساسة بعض القواد، فدخلوا على طغرل وقتلوه.

تولى فروخ زاد بعد قتل طغرل المعتصب لعرش الغزنويين، واعتمد في إدارة دولته على خرخيز الحاجب، نائب الغزنويين في الهند، الذي كان له أثر كبير في قتل طغرل وتنصيب فروخ زاد على العرش. وكان أول ما قام به فروخ زاد، القضاء على محاولة داود أخي طغرل بك السلجوقي صاحب خراسان الاستيلاء على غزنة، وهزيمه خرخيز، وغنم ما كان معه. كما أعد فروخ شاه جيشاً كبيراً لطرده السلاجقة من خراسان، وانتصر في كثير من المواقع، ثم جمع ألب أرسلان السلجوقي جيوشاً كثيرة بقيادة أبيه الذي انتصر على الغزنويين (٣).

قضى فروخ في السلطنة سبع سنين في محاربة أعدائه، وخاصة السلاجقة، كما أنه لم يأمن جانب قواده ومواليه. ويحدثنا ابن الأثير (٤) في حوادث سنة ٤٥٠ هـ أن بعض قواده ومواليه ثاروا

(٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢٠٨.

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٢.

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٠٨.

(٣) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢١٧ - ٢١٨.

عليه واتفقوا على قتله وهو في الحمام ، ولكنه نجح بمساعدة بعض أنصاره . ويظهر أن هذه الحادثة قد أثرت في حالته النفسية تأثيرا سيئا ، حتى إنه أخذ بكثير من ذكر الموت ، ويحتقر الحياة . ولم يعيش بعد هذه الحادثة طويلا ، فمات في شهر صفر سنة ٤٥١ هـ ، وتولى السلطنة من بعده أخوه إبراهيم ابن مسعود (٤٥١ - ٤٩٢ هـ) الذي طالت سلطته ، وعقد الصلح مع السلاجقة ، وفتح في الهند كثيرا من القلاع التي امتنعت على أبيه مسعود الأول وجده يمين الدولة محمود الغزنوي من قبل . وبعد ، فلما كان بحثنا مقصورا على العصر العباسي الثاني من عهد المتوكل الى أن استولى السلاجقة على بغداد سنة ٤٤٧ هـ ، رأينا أن نترك لإتمام الكلام على الغزنويين إلى الجزء الرابع من هذا الكتاب إن شاء الله .

على أنه ينبغي ألا نترك هذا الموضوع دون أن نبين ما امتازت به الدولة الغزنوية في هذا العصر ، فنقول : إن سلاطين هذه الدولة كانوا سلفين متشددين ، ولذلك حاربوا أهل البدع والأهواء ، كالمعتزلة والجممية والقرامطة وغيرهم ، كما كانوا يشجعون الفن والثقافة ، ويغدقون على الشعراء والكتاب والعلماء ، كأبي الفتح العتي (٤٢٨ هـ = ١٠٣٦ م) وأبي الريحان البيروني (٤٤١ هـ) ، والفردوسي صاحب الشاهنامه . وكان بعضهم كحمود الغزنوي كلفا بدراسة الحديث وغيره من علوم الدين . وقد عملوا أيضا على نشر الاسلام ، فأنفقوا حياتهم لفتح بلاد الغور والهند ، وهدموا الأصنام والمعابد . وكان لهذه الفتوح آثار بعيدة المدى ، فقد فتح الطريق الى الهند ، وتوغل المسلمون فيها ، وضموا بلاد البنجاب نهائيا ، وخضع أهالي جوجرات الذين قبلوا تنصيب الراجات عليهم من قبل الغزنويين . ونصب هؤلاء الغزنويون أنفسهم للقضاء على قوات السلاجقة في خراسان ، والغور في الأفغان ، وخانات الترك في بلاد ماوراء النهر . كما استولوا على الري وأصبهان وغيرها من بني بويه ، وضموا إليهم خوارزم وطبرستان وبلاد الجبل ، وامتدت بلادهم - كما رأينا - من لاهور إلى سمرقند وأصبهان (١) . ويمثل ظهور الدولة الغزنوية - كما يقول الأستاذ فيليب حتى (٢) - أول انتصار للعنصر التركي في صراعه مع العنصر الإيراني على السيادة النهائية في الإسلام . ومع ذلك فإن الدولة الغزنوية لا تختلف في أساسها عن الدولة السامانية أو الدولة الصفارية . وإن هذه الدولة المفككة الأوصال إنما حافظت على كيانها بقوة السيف ؛ ولما تراخت هذه اليد التي كانت تقبض على هذا السيف ، لم يكن بد من أن تتداعى هذه الأجزاء التي كانت تتألف منها هذه الامبراطورية . وهذا ما حدث بعد موت محمود الغزنوي .

وقد زالت الدولة الغزنوية على يد شهاب الدين القوری سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) ، ومن ثم تداعى سلطان الغزنويين في الهند وانقسمت إلى أسرات إسلامية مستقلة .

Stanley Lane-Poole : Muhammadan Dynasties, p. 288. (١)

Philip Hitti : History of the Arabs, p.465. (٢)

## بنو بويه

(١) في فارس

علي بن بويه (٣٢٠ - ٣٣٨ هـ)

رأينا من قبل كيف ولي علي بن بويه بلاد الكرج من قبل مرداويج بن زيار الديلمي ، وكيف أمر أخاه وشمكير بن زيار في الري بصرف أولاد بويه ، فصرفهم إلا علي بن بويه ، لما رآه فيه من حسن التدبير ، وكيف ساعده أبو عبد الله محمد الملقب بالعميد والد أبي الفضل بن العميد على المسير إلى بلاد الكرج التي آل إليه حكمها (١) . ومع ذلك فقد عمل وشمكير على صرف عماد الدولة عن بلاد الكرج فقال له العميد : إنه لا يرجع طوعا ، وربما قاتل من يقصده ويخرج عن طاعتنا ، فتركه (٢) .

علي أن علي بن بويه قد تحبب إلى أهالي الكرج وأحسن إليهم ، وافتتح كثيرا من قلاع الخرمية واستولى على ما فيها من الذخائر والأموال ، وأغدق على الأهلين ، فلهجت ألسنتهم بالثناء عليه ، وامتدحوا سيرته ، وأحبه الناس وقصدوه . ولكن الجو لم يصف له ، لموقف مرداويج العدائي منه ، وعزمه على طرده من بلاد الكرج ، وحقن بعض ولاته عليه . فقد أطلق مرداويج الأموال لجماعة من قواده على ناحية الكرج . فاستألمهم علي بن بويه وأفضل عليهم حتى أوجبت الجماعة طاعته . فاتصل ذلك بمرداويج ، فأوحشه ذلك ، وندم على إخراج أولئك القواد الأكبر إليه ، وكان به بالمصير إليه ، وكان القواد يمثل ذلك . فدافعه وتعلل عليه ورفق به ، إلى أن أخذ العهود والمواثيق عليهم ، وعلم استباحش الجماعة وخوفهم من غدر مرداويج وسطوته ، فحينئذ خرج بهم عن الكرج ، وجمع أكثر ما قدر عليه من المال ، واستأمن إليه شيرزاد أحد قواد الديلم في أربعين رجلا . فقويت نفسه ، وعرض رجاله ، فكانوا ثلثمائة رجل وكسرا ، لكنهم أعيان ونسب . مستظهيرين بالآلات والعدد . وتوجه إلى أصهان ، وبها أبو الفتح بن ياقوت في نحو عشرة آلاف . وأبو علي بن رستم بلى الخراج ، فقدم إليهما كتباً جميلة ، وعرضا فيما أنه ينحاز إليهما داخلا في طاعة السلطان ، فدافعا عن ذلك . وكان أبو علي بن رستم من أشد الناس كرها له وإنكارا لقدمه . واتفق موت أبي علي بن رستم ، وبرز أبو الفتح بن ياقوت حتى صار من أصهان على ثلاثة فراسخ . وكان في أصحاب ابن ياقوت ديلم وجيل كثير ، مقدارهم ستمائة رجل ، وكانوا يسمعون عن فضل علي بن بويه وعظائمه وسعة صدره ، فاستأمنوا إليه ، وواقعه الواقعة ، وانهمز ابن ياقوت لما ضعف باستئان هؤلاء ، ولما ظهر له من ثبات الديلم واضطراب أصحابه ، ومضى نحو فارس . وملك علي بن بويه أصهان فقوى شأنه وكبر في عيون الناس ، لأنه هزم بمائتين من أصحابه ألوفا وألوفا من أصحاب السلطان ، وبلغ ذلك مرداويج فأفلقه (٣) .

(١) انظر ص ٩٩ . (٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٩٢ .

(٣) مسكويه : كتاب تجارب الأمم ج ١ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

ولما احس مرداويج بن زيار ازدياد نفوذ علي بن بويه ، وخشى أن يدخل معه في حروب طويلة تنتهي بضياح بلاده ، لجأ إلى أعمال الخيلة معه ، فسكنب إليه يستمبله ، وطلب إليه أن يقوم ببذل الطاعة له ، على أن يمدّه بجيوش يفتح بها ما حوله من البلاد باسمه ، وأن يؤول حكمها إليه مع إقامة الخطبة لمرداويج على منابرها . ولكن مرداويج أرسل في الوقت نفسه أخاه وشمكير على رأس جيش كشيء ، يفاجئ به علي بن بويه في أصبهان وهو مطمئن إلى وعوده . بيد أن عليا أدرك سوء نية مرداويج ، فرحل عن أصبهان التي احتلتها جيوش مرداويج ، واحتل هو أرجان ، التي تقع على بعد ستين فرسخا من كل من شيراز والأهواز ، وحصل منها على أموال طائلة . وقد خشي علي بن بويه من ناحية كل من مرداويج بن زيار ، وياقوت الذي كان يلي بلاد فارس ، وابنه المظفر محمد بن ياقوت الذي كان يلي أصبهان ، ولكنه استطاع أن يدخل شيراز ٣٢٢ هـ .

وكانت الموقعة التي انتهت بفتح شيراز على يد أبي الحسن علي بن بويه ، من المواقع البعيدة الأثر في تاريخ البويهيين . ولاغرو فقد أظهر على من المهارة الحربية والسياسية ما كفل له النصر والظفر بعوده ، واستمال قلوب أعدائه وأنصاره نحوه . وفي ذلك يقول ابن الأثير (١) : « وكان من سعاداته أن جماعة من أصحابه استأمنوا إلى ياقوت ، فحين رآهم ياقوت أمر بضرب رقابهم ، فابقن من مع ابن بويه أنهم لا أمان لهم عنده (يعنى ياقوتا) ، فقاتلوا قتال مستقتل . ثم إن ياقوتا قدم أمام أصحابه رجالة كثيرة يقاتلون بقوارير النفط ، فانقلبت الریح في وجوههم واشتدت . فلما ألقوا النار ، عادت النار عليهم ، فعلقت بوجوههم وثيابهم فاختلفوا ، وأكب عليهم أصحاب ابن بويه فقتلوا أكثر الرجالة وخالطوا الفرسان فانهزموا ، فكانت الدائرة على ياقوت وأصحابه . فلما انهزم صعد على نضمر ترفع ونادى في أصحابه : الرجعة ! فاجتمع إليه نحو أربعة آلاف فارس فقال لهم : اثبتوا فإن الديلم يشتغلون بالنهب ويتفرقون فناخذهم ، فثبتوا معه . فلما رأى ابن بويه ثباتهم نهى أصحابه عن النهب وقال : إن عدوكم يرصدكم لتشتغلوا بالنهب فيعطف عليكم ويكون هلاككم ، فتركوا هذا وافرغوا من المنهزمين ثم عودوا إليه ، ففعلوا ذلك . فلما رأى ياقوت أنهم على قصده ولي منهزما ، واتبعه أصحاب ابن بويه يقاتلون ويأسرون ويغنمون الخيل والسلاح . وكان مع الدولة أبو الحسين أحمد بن بويه في ذلك اليوم من أحسن الناس أثرا ، وكان صيياً لم تنبت لحيته ، وكان عمره تسع عشرة سنة . ثم رجعوا إلى السواد فغنموا ، ووجدوا في سواده برانس لبود عليها أذنان الثعالب ، ووجدوا قيودا وأغلالا ، فسألوا عنها ، فقال أصحاب ياقوت : إن هذه أعدت لكم لتجعل عليكم ويظاف بكم في البلاد ، فأشار أصحاب ابن بويه أن يفعل بهم مثل ذلك ، فامتنع وقال إنه بغي ولوم . . . ولقد لقي ياقوت بغيه ، ثم أحسن إلى الأسارى وأطلقهم وقال : هذه نعمة ، والشكر عليها واجب يقتضى المزيد ، وخير الأسارى بين المقام

عنده والحقوق بياقوت ، فأختاروا المقام عنده ، فخلع عليهم وأحسن إليهم ، وسار من موضع الواقعة حتى نزل يشيراز ونادى في الناس بالأمان ، وبث العدل ، وأقام لهم شحنة يمنع من ظلمهم ، واستولى على تلك البلاد .

فانظر حسن معاملة علي بن بويه لمن بيده من الأسارى مع قدرته عليهم ، تلك المعاملة التي تدل على سمو أخلاقه وتشبهه بالهداة المصلحين من قادة الأمم ، كما كان يفعل المسلمون الأولون في حروبهم مع الأسارى . ولما استقر نفوذ علي بن بويه في فارس ، كتب إلى الخليفة العباسي الراضى وإلى وزيره أبى علي بن مقلة ، يعلن طاعته ويطلب إقراره على ما بيده من البلاد ، ويتعهد بأداء ألف ألف درهم في كل سنة ، فأجيب إلى طلبه ، وأقر علي ولاية فارس ، وأرسلت إليه الخلع ، (١)

ومما يدل على حسن سياسة علي بن بويه أنه ، على الرغم من انتصاره على بياقوت ، ودخوله شيراز ، واستقرار نفوذه فيها ، وإقرار الخليفة العباسى بإياه على ولايتها ، رأى أن يكسب رضا مرداويج ، فأقام الخطبة له ، وأرسل إليه كثيراً من الهدايا ، وبعث إليه بأخيه الحسن بن بويه رهينة ، فقلده أرجان . وقد اطمأن علي بن بويه من ناحية مرداويج حين قتل سنة ٥٢٢٣ ، ولم يبق أمامه من صعاب إلا مناوأة بياقوت ، الذى استولى على الأهواز وحاربه بنواحي أرجان . ولكن النصر عقد لعلى بن بويه الذى أصبح يخشى بأسه ، والذى كان — كما يقول ابن خلكان (٢) سبب سعادة بنى بويه وانتشار صيتهم ، واستيلائهم على البلاد ، وامتلاكهم العراقين والأهواز ، وسياستهم أمور الرعية أحسن سياسة .

وفى سنة ٥٢٣٤ لقب الخليفة المستكفى على بن بويه عماد الدولة ، ولقب أخاه الحسن ركن الدولة ، ولقب أخاه أحمد معز الدولة ، ومن ثم أصبح بنو بويه أصحاب الأمر والنهى فى بغداد . (٣)

وكانت علاقة عماد الدولة على فى فارس بأخويه معز الدولة فى العراق وركن الدولة حسن فى الرى وهمدان وأصبهان ، تقوم على أساس متين من المودة والصفاء . فقد كان معز الدولة أحمد بن بويه صاحب أمر الخلافة يومئذ ، يحب أخاه عماد الدولة ويحترمه ، ويكاتبه بالعبودية ، ويقبّل الأرض بين يديه إذا اجتمعا ، مع عظم سلطانه لكونه أكبر سنًا ، (٤)

بدلنا على صحة هذا القول ما رواه مسكويه (٥) عن أبى الحسن (محمد بن أحمد) الماقرئوخى ، وأنه كان مع معز الدولة ، وكان عماد الدولة ورد أرجان فالتقى بها قال : فدعاني عماد الدولة وقال : بلغنى أنه حكى لأخى أنى وافيت إلى هذا الموضع لأرتجمع منه بعض أعمالك الأهواز ، وضرب يده الى لحيته وقال : سومة لها إن أنا تواضعت لهذه الحال ! من لى حتى أحتاج إلى استكثار البلاد وادخار المال له ؟ هذا وأخوه ابناى ، وإنما أريد الدنيا لهما ، والله ما وافيت إلا لأعقد ما بينهما من الرئاسة حتى

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٩٥

(٢) كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٦٤

(٣) انظر ص ١٠١

(٤) أبو المحاسن : كتاب النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٠٠

(٥) كتاب تجارب الأمم ج ٢ ص ١١٣



لايجرى خلاف إن حدثت في حادثة . فإني عليل ، كما ترى ، وأسأله أن يقدم الكبير على نفسه كما جرت العادة ، وبارك الله له في بلاده ، ولو أراد بعض فارس لوهبته له . ولقد أصبحت وأمست ومامت على الله إلا العافية وسلامتهما وإبقاؤهما ، فإنهما أخوای بالنسب وابنای بالترية وصنعتای بالولايات ، ومن لي غيرهما فيقدر ما يقدر ؟ (قال) : فعدت إلى معز الدولة وحدثته بالحديث ، فبكي ، وحضر في آخر النهار عند عماد الدولة ، فأسرف في الشكر والدعاء ، وتذكر الكلام فبكي بحضرته حتى ضمه عماد الدولة إلى نفسه .

ويستدل كذلك على ماساد بين أولاد بني بويه من وثام ووافق ومودة ، بأن عماد الدولة عليا لما أحس بالموت ، أنفذ إلى أخيه ركن الدولة يطلب إليه أن ينفذ إليه ابنه عضد الدولة فناخسرو ليجمعه ولي عهده ووارث مملكته بفارس ، لأن عماد الدولة لم يكن له ولد ذكر . فأنفذ ركن الدولة ولده عضد الدولة ، فوصل في حياة عمه قبل موته بسنة ، وسار في جملة ثقات أصحاب ركن الدولة ، فخرج عماد الدولة إلى لقاءه في جميع عسكره ، وأجلسه في داره على السرير ، ووقف هو بين يديه ، وأمر الناس بالسلام على عضد الدولة والانقياد له ، وكان يوما عظيما مشهودا . وكان في قواد عماد الدولة جماعة من الأكابر يخافهم ويعرفهم بطلب الرياسة ، وكانوا يرون أنفسهم أكبر منه نفسا وبيتا ، وأحق بالتقدم ، وكان يداريهم . فلما جعل ولد أخيه في الملك خافهم عليه فأفناهم بالقبض .

وكان عماد الدولة كريما حلليا عاقلا حسن السياسة لرعيته .

#### عضد الدولة (٣٣٨-٣٧٢ هـ)

لما مات عماد الدولة على بن بويه في سنة ٣٣٨ هـ ، تولى فارس بعده ابن أخيه عضد الدولة . ولكن نفوذه لم يستقر في هذه البلاد ، بسبب سخط بعض قواد البويهيين عليه ، لولا تدخل عمه معز الدولة صاحب بلاد العراق ، وأبيه ركن الدولة صاحب الري وهمذان وأصبهان<sup>(٢)</sup> . واستمرت العلاقات بين عضد الدولة وعمه معز الدولة على أساس من المودة والصفاء ، حتى مات معز الدولة في سنة ٣٥٦ هـ ، وآلت السلطنة إلى ابنه عز الدولة بختيار الذي أثار سخط قواده وأكابر أمرته ، وانصرف إلى اللهو ومعاشرة النساء ، ولم يعمل بوصية أبيه بطاعة عمه ركن الدولة واستشارته في أموره الهامة ، والرجوع إلى ابن عمه عضد الدولة .

وقد اتخذ عضد الدولة من سوء سياسة عز الدولة بختيار فرصة لبسط نفوذه على البلاد التابعة له . ففي سنة ٣٥٧ هـ قامت الثورة في بلاد كرمان ، فاستولى عليها عضد الدولة وأقطعها ابنه أبا الفوارس ، الذي ولي بعده ولقب شرف الدولة (٣٧٢ - ٣٧٩ هـ)<sup>(٣)</sup> . كذلك اتخذ عضد الدولة من ضعف نفوذ عز الدولة بختيار في عمان فرصة لإقامة الدعوة لنفسه فيها وبسط نفوذه عليها . فلما ثار الزنج على عامل عضد الدولة وقتلوه وولوا عليها رجلا منهم ، أرسل عضد الدولة جيشا من كرمان استرد عمان

(٢) المصدر نفسه ج ٨ ص ١٧٤ .

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٧٣-١٧٤

(٣) المصدر نفسه ج ٨ ص ٢١٠-٢١١

في سنة ٣٦٢ هـ ، ثم قضى على الثوار هاتيا في السنة التالية (١).

كان من أثر زيادة العداء الذي قام بين بختيار من جهة ، وبين الخليفة وسبكتكين الحاجب (٢) من جهة أخرى ، وقيام الحرب بين الفريقين في المحرم سنة ٣٦٤ هـ ، أن استنجد بختيار بابن عمه عضد الدولة ، الذي عمل على الرغم من مساعدته إياه ، على بسط نفوذه على بلاد العراق ؛ فأثار سخط الثوار عليه ، وانحاز إلى الخليفة ، وقبض على زمام السلطة في هذه البلاد . ولولا تدخل أبيه ركن الدولة ، وإنكاره عليه قبضه على ابن عمه بختيار ، وتهدده إياه بالمسير إليه إذا لم يرده إلى ولايته ، لآلت السلطنة في بلاد العراق وما يليها إلى عضد الدولة . وعلى الرغم من عدول عضد الدولة عن تحقيق سياسته في امتلاك بلاد العراق وما يليها ، وإعادة عهده عن الدولة بختيار إلى السلطنة ، أخذ عليه العهود والمواثيق على أن يكون نائبا عنه في العراق ، ثم عاد إلى فارس . ولكن عضد الدولة لم يقدّم بما قام به إلا نزولا على رغبة أبيه ركن الدولة ، بدليل أنه لما مات أبوه في سنة ٣٦٦ هـ ، وعهد . . . إلى ولده عضد الدولة بالملك بعده ، وجعل لولده نحر الدولة أبي الحسن على همدان وأعمال الجبل ، ولولده مؤيد الدولة أصبهان وأعمالها ، وجعلها في هذه البلاد بحكم أخيهما عضد الدولة (٣) ، يم عضد الدولة شطر العراق ، وحارب جيوش بختيار في واسط ، وأحل به الهزيمة في تكريت وأمره ، وبعث به إلى بغداد ، حيث قتل ، وصفا له الجوف في العراق سنة ٣٦٧ هـ ، وخلع عليه الخليفة الطائع (٤) .

وبذلك امتد نفوذ عضد الدولة إلى العراق والأهواز وكرمان وفارس ، ثم إلى البلاد الممتدة بين همدان والري التي استولى عليها من أخيه نحر الدولة في سنة ٣٦٩ هـ ، وأتاب عنه في حكمها أخاه مؤيد الدولة .

### شرف الرولة ومصمصام الرولة (٥) (٣٧٢ - ٣٨٨ هـ)

رأينا أن عضد الدولة لما استولى على كرمان في سنة ٣٥٧ هـ أقطعها ابنه شرف الدولة ، وأنه لما مات في سنة ٣٧٢ هـ ، خرج شرف الدولة ، من كرمان إلى فارس ، وقبض على نصر بن هارون النصراني وزير أبيه وقتله ، لأنه كان يسمى بصحبه أيام أبيه ، وأصلح أمر البلاد ، وأطلق الشريف أبا الحسين محمد بن عمر العلوي ، والنقيب أبا أحمد الموسوي والد الشريف الرضي ، والقاضي أبا محمد بن معروف وأبا نصر خواشادة ، وكان عضد الدولة حبسهم . وأظهر مشاققة أخيه مصمصام الدولة وقطع خطبته ، وخطب لنفسه ، وتلقب بتاج الدولة ، وفرق الأموال ، وجمع الرجال ، وملك البصرة ، وأقطعها أخاه أبا الحسين ، فبقي كذلك ثلاث سنين إلى أن قبض عليه شرف الدولة (٦) .

- (١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٣٢ - ٢٣٣ . (٢) هو غير سبكتكين أبي عيين الدولة محمود الفزنوي .  
(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٤١ . انظر أيضا ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٣٢ - ٢٣٣ ، ٢٣٥ ،  
ص ١٠٩ - ١١١ من هذا الكتاب ، ص ١١١ - ١١٥ الوقوف على سياسة عضد الدولة في العراق .  
(٤) مسكويه : كتاب تجارب الأمم ج ٢ ص ٣٨٠ - ٣٨٦ .  
(٥) ما أبنا عضد الدولة  
(٦) ابن الأثير ج ٩ ص ٩ .

ويظهر أن صمصام الدولة كان يخشى منافسة أخيه الأكبر شرف الدولة . لذلك نراه حين يلى أمور العراق ، يخلع على أخويه أبي الحسين أحمد وأبي طاهر فيروز شاه ، ويقطعهما فارس ، ويأمرهما بالسير ليسبقا أخاهما شرف الدولة ويجولادون وصوله إليها . غير أن شرف الدولة كان قد سبقهما الى احتلالهما فعادا إلى الأهواز . ومن ثم قامت الحرب بين صمصام الدولة وشرف الدولة الذى انتصر على أخيه فى سنة ٣٧٣ هـ بالقرب من الأهواز ، وانهت هذه الواقعة باستقلال أبي الحسين بن عضد الدولة عن أخيه صمصام الدولة بالأهواز (١) .

وفى سنة ٣٧٥ هـ قصد شرف الدولة الأهواز ، وأرغم أخاه أبا الحسين على الفرار واستولى عليها ، ثم استولى على البصرة ، وقبض على أخيه أبي طاهر فيروز شاه . وخشى صمصام الدولة ازدياد خطر أخيه شرف الدولة ، وتم الصلح بينهما ، على أن يذكر اسم شرف الدولة على المنابر فى بلاد العراق قبل اسم صمصام الدولة ، وأن يكون صمصام الدولة نائباً عن أخيه فى حكم العراق ، وأن يطلق صمصام الدولة أخاه بهاء الدولة أبا نصر ويسيرته إليه . وخطب لشرف الدولة بالعراق ، وخلع عليه الخليفة الطائع (٢) ، كما جرت العادة فى ذلك الوقت أن يخلع الخليفة العباسى على من توول إليه السلطة . ولكن هذا الصلح لم يطل ، إذ ألفت إليه ( شرف الدولة ) البلاد مقابلتها كواسط وغيرها ، وكتبه القواد بالطاعة ، فعاد عن الصلح ، وعزم على قصد بغداد والاستيلاء على الملك ولم يحلف لأخيه (٣) ، وانتهى الأمر باستيلائه على بلاد العراق من يد أخيه صمصام الدولة فى سنة ٣٧٦ هـ ، فبقى فيها إلى أن توفى سنة ٣٧٩ هـ كما تقدم (٤) .

أما صمصام الدولة فقد سبق إلى فارس ، واعتقل فى إحدى قلاعها ، وسملت عيناه ، بعد أن حكم بالعراق ثلاث سنين وأحد عشر شهراً . فلما مات أخوه شرف الدولة سنة ٣٧٩ هـ فرصم صمصام الدولة من معتقله ، والتف حوله كثير من الديلم ، واستأنف الصراع بينه وبين أخيه بهاء الدولة الذى آل إليه حكم بلاد العراق بعد وفاة أخيه شرف الدولة ، كما قامت الحرب أيضا بينه وبين أبي على بن شرف الدولة فى فارس التى كان يليها من قبل أبيه شرف الدولة . وفى سنة ٣٨٠ هـ انتصر صمصام الدولة على جيش بهاء الدولة على مقربة من شيراز ، وعقد الصلح بينهما ، على أن يكون لصمصام الدولة بلاد فارس وأرجان ، ولبهاء الدولة خوزستان والعراق (٥) . وصاحب حسن الطالع صمصام الدولة ، فاحرز الانتصارات المتصلة باستيلاء جيوشه على الأهواز سنة ٣٨٥ هـ ، وعلى خوزستان والبصرة سنة ٣٨٦ هـ ، وكادت تقع بلاد العراق فى قبضته ، لولا تدخل مهذب الدولة صاحب البطيحة . وانتهت هذه الحروب بعقد الصلح بين بهاء الدولة وصمصام الدولة ، على أن يخطب لهما ولمهذب الدولة فى

(١) مسكويه : كتاب تجارب الأمم ج ٣ ص ١٢٠ - ١٢٤

(٢) راجع شروط هذا الصلح فى ص ١١٦

(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ١٧ . (٤) انظر ص ١١٥ - ١١٧ .

(٥) أبو شعاع : ذيل كتاب تجارب الأمم لمسكويه ج ٣ ص ١٨٣ - ١٨٤ .

البصرة (١). ولم يفته ذلك الصراع إلا باغتيال صمصام الدولة في سنة ٣٨٨ هـ على يد أبي نصر بن بختيار، أخذا بثار أبيه عز الدولة بختيار الذي قتله عضد الدولة أبو صمصام الدولة. وقد ولي صمصام الدولة فارس تسع سنين وثمانية أيام، وكان حين قتل في الخامسة والثلاثين من عمره (٢).

### بهاء الدولة وسلطان الدولة (٣٨٨ - ٤١٥ هـ)

لما قتل صمصام الدولة في سنة ٣٨٨ هـ على يد ابني بختيار، استولى هذان على فارس، وتلقب أولهما وهو أبو نصر، ونور الدولة وبجي الأمة، وتلقب ثانيهما وهو أبو القاسم، حسام الدولة سيد الأمة. وقد حاولوا استمالة الديلم، الذين كانوا يحنقون على بهاء الدولة لاستماتته الأتراك إليه. إلا أن بهاء الدولة استطاع أن يستميل زعيم الديلم، وحارب ابني بختيار، وأحدث الشقاق بينهما، وأحل بهما الهزيمة، واستولى على فارس في سنة ٣٨٩ هـ. وفي ذلك يقول ابن الأثير (٣). وقال بهاء الدولة (لديلم). إن ثاري وثاركم عند من قتل أخى (صمصام الدولة)؛ فلا عذر لكم في التخلف عن الأخذ بثأره. واستمال الديلم فأجابوه إلى الدخول في طاعته، وأنفذوا جماعة من أعيانهم إلى بهاء الدولة، لحلفوه واستوثقوا منه، وكتبوا إلى أصحابهم المقيمين بالسوس بصورة الحال. وركب بهاء الدولة من الغد إلى باب السوس رجاء أن يخرج من فيه إلى طاعته، فخرجوا إليه في السلاح وقتلوه قتالا شديدا لم يقاتلوا مثله، فضاق صدره فقيل له: إن هذه عادة الديلم أن يشتد قتالهم عند الصلح لتلا بطن بهم، ثم كفوا عن القتال، وأرسلوا من يحلفه لهم، ونزلوا إلى خدمته. واختلط العسكران وساروا إلى الأهواز، فقرر أبو علي بن إسماعيل (زعيم الديلم) أمورها، وقسم الإقطاعات بين الأتراك والديلم، ثم ساروا إلى رامهرمز فاستولوا عليها، وعلى أرجان وغيرها من بلاد خوزستان. وسار أبو علي بن إسماعيل إلى شيراز فنزل بظاهرها، فخرج إليه ابنا بختيار في أصحابهما فحاربوه. فلما اشتدت الحرب مال بعض من معهما إليه، ودخل بعض أصحابه البلد ونادوا بشعار بهاء الدولة.

وكان من أثر إحلال الهزيمة بابني بختيار أن انضم أنصارهم إلى بهاء الدولة الذي خطب له بشيراز، وهرب أبو نصر بن بختيار إلى بلاد الديلم، وهرب أبو القاسم إلى بدر بن حسويه صاحب البطيحة، وقصد بهاء الدولة شيراز، واستأصل شأفة أنصار أبناء بختيار، وأخرج جثة أخيه صمصام الدولة ودفنها في مقبرة بنى بويه بشيراز، ثم استولت جيوشه على كرمان (٤).

وفي سنة ٣٩٠ هـ عاد أبو نصر بن بختيار، وكان قد هرب إلى بلاد الديلم بعد أن حلت به الهزيمة بشيراز سنة ٣٨٩ هـ، إلى فارس، والى فارس، والف حوله جمع كبير من الديلم والأتراك والزوط، ثم قصد

(١) انظر ص ١١٩ - ١٢٠.

(٢) راجع أسباب اغتيال صمصام الدولة في ابن الأثير ج ٩ ص ٥٣.

(٣) ج ٩ ص ٥٦.

(٤) مسكوية: كتاب تجارب الأمم ج ٣ ص ٣٢٦ - ٣٢٧.

كرمان وحارب عامل بهاء الدولة فيها ، واستولى على أغلب بلادها ، وتفاقم خطره حتى إنه أثار قلق بهاء الدولة ، فسير إليه قائده الموفق علي بن إسماعيل ، الذي أحل به الهزيمة وتفرق جنده أيدي سبا ، وقتله (١) ، وبعث برأسه إلى بهاء الدولة ، وأرسل إليه كتابا يبشره فيه بالفتح (٢) . وبذلك استقر سلطان بهاء الدولة في فارس وكرمان ، برغم محاولة طاهر بن خلف بن أحمد صاحب سجستان ، الاستيلاء على كerman ؛ ولكن جيوش بهاء الدولة ردت على أعقابها (٣) . وتم الأمر له في هذه البلاد إلى أن مات في سنة ٤٠٣ هـ ، خلفه ابنه سلطان الدولة أبو شجاع ، وكان قد عهد إليه بالسلطنة في العراق وفارس وما يليهما من بعده .

وقد ذكرنا من قبل أن سلطان الدولة استهل سلطنته بتولية أخويه جلال الدولة البصرة ، وقوام الدولة أبي الفوارس كerman ، وأن الشقاق قد دب بين سلطان الدولة وأخيه قوام الدولة الذي أغراه الديلم بحرب أخيه ، فاستولى على شيراز في سنة ٤٠٨ هـ ، ولكنه لم يلبث أن طرد عنها وعن كerman ، التي استردها في السنة التالية بمساعدة يمين الدولة محمود بن سبكتكين الغزنوي ؛ ولكن قوام الدولة أبا الفوارس ، على رغم استنجاهه بشمس الدولة بن نغر الدولة بن ركن الدولة صاحب همدان ، وبمهدب الدولة صاحب البطيحة ، لم يستطع الوقوف في وجه أخيه سلطان الدولة ، وانتهى الأمر بإعادة كerman إلى قوام الدولة أبي الفوارس واعترافه بسلطان أخيه . وقد تعرض نفوذ سلطان الدولة للخطر ، بسبب مناوأة أخيه مشرف الدولة الذي استخلف على العراق (٤١١-٤١٦ هـ) ، واعترف أخوه جلال الدولة صاحب البصرة بسلطانه ، وخطب له ببغداد في المحرم سنة ٤١٢ هـ . (٤)

وقد اضطر سلطان الدولة إزاء ضغط أخيه مشرف الدولة إلى مغادرة بغداد وقصد الأهواز ، وعمل على استرداد العراق . ولكن مشرف الدولة هزم جيوشه في واسط وتلقب بلقب شاهنشاه ، واتخذ سلطان الدولة من ثورة الديلم على أخيه مشرف الدولة وقتلهم إياه فرصة لتحقيق أغراضه ، فاستولى ابنه أبو كاليبجار على الأهواز سنة ٤١٢ هـ ، وعقد الصلح بينه وبين أخيه سلطان الدولة في سنة ٤١٣ هـ ، على أن يكون العراق لمشرف الدولة ، وفارس وكرمان لسلطان الدولة الذي لم يلبث أن توفي سنة ٤١٥ هـ .

### عماد الدولة أبو كاليبجار (٤١٥ - ٤٤٠ هـ)

لما توفي سلطان الدولة الذي آل إليه ملك فارس ، لم يصف الجولابنه أبي كاليبجار ، لأن كثير من

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٦٠ - ٦١

(٢) راجع صورة هذا الكتاب في تاريخ هلال الصابي ج ٨ ص ٣٨٨ - ٣٨٩ الملحق بكتاب تحفة

الأمراء في تاريخ الوزراء لابي الحسن الهلال بن الحسن بن ابراهيم الصابي ( بيروت سنة ١٩٠٤ ) .

(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٦٢ - ٦٣ .

(٤) انظر ص ١٣٥ - ١٣٦

الأتراك كانوا يميلون إلى عمه قوام الدولة أبي الفوارس صاحب كرمان ، وطلبوا إليه الحضور لامتلاك  
شيراز ، فاستولى عليها قبل أن يصل إليها أبو كاليبجار ، الذي أعد العدة لامتلاك البلاد التي ورثها  
عن أبيه . وانتصر على جيوش قوام الدولة أبي الفوارس (سنة ٤١٥ هـ) ، واستولى على فارس ، وعاد  
أبو الفوارس إلى كرمان . على أن فارس أصبحت مركزاً للنزاع بين أبي كاليبجار وعمه أبي الفوارس (١)  
وتقلبت هذه البلاد بينهما إلى سنة ٤١٧ هـ حيث استولى أبو كاليبجار عليها نهائياً . وفي ذلك يقول ابن  
الأثير (٢) : « ولما ملك أبو كاليبجار بلاد فارس ودخل شيراز ، جرى على الديلم الشيرازية من عسكره  
ما أخرجهم عن طاعته ، وتمنوا معه أنهم كانوا قاتلوا مع عمه . وكان جماعة من الديلم بمدينة فسا في طاعة  
أبي الفوارس ، وهم يريدون أن يصلحوا حالهم مع أبي كاليبجار ويصبروا معه ، فأرسل إليهم الديلم الذين  
بشيراز يعرفونهم ما يلقون من الأذى ويأمرونهم بالتمسك بطاعة أبي الفوارس ، ففعلوا ذلك . ثم إن  
أبي كاليبجار طالبوه بالمال وشغبوا عليه ، فأظهر الديلم الشيرازية مافي نفوسهم من الحقد ، فعجز عن  
المقام معهم ، فسار عن شيراز إلى ... شعب بوان فأقام به . فلما سار عن شيراز أرسل الشيرازية إلى  
عمه أبي الفوارس يخبرونه على المحي . إليهم ويعرفونه بعد أبي كاليبجار عنهم ، فسار إليهم فسلموا إلى  
شيراز . وقصد إلى أبي كاليبجار بشعب بوان ليحاربه ويخرجه عن البلاد ، فاختار العسكران الصلح .  
فسفروا فيه ، فاستقر لأبي الفوارس كرمان وفارس ، ولأبي كاليبجار خوزستان ، وعاد أبو الفوارس  
إلى شيراز ، وسار أبو كاليبجار إلى أرجان . ثم إن وزير أبي الفوارس خبط الناس وأفسد قلوبهم . وصادروهم  
واجتاز به مال لأبي كاليبجار والديلم الذين معه ، فأخذة ، فحينئذ حث العادل بن مافنة صندلا الخادم  
على العود إلى شيراز ، وكان قد فارق بها نعمة عظيمة وصار مع أبي كاليبجار . وكان الديلم يطيعونه .  
فعدت الحال إلى أشد ما كانت عليه . فسار كل واحد من أبي كاليبجار وعمه أبي الفوارس إلى  
صاحبه ، والتقوا واقتتلوا ، فانهزم أبو الفوارس إلى دارا بجرد ، وملك أبو كاليبجار فارس . وعاد  
أبو الفوارس لجمع الأكراد فأكثر ، فاجتمع معه منهم نحو عشرة آلاف مقاتل ، فالتقوا بين  
اليضاء وإصطخر ، فاقتتلوا أشد من القتال الأول . فغارت أبو الفوارس الهزيمة فسار إلى كرمان ،  
واستقر ملك أبي كاليبجار بفارس سنة سبع عشرة وأربعمائة ، وكان أهل شيراز يكرهونه . »  
ولما مات مشرف الدولة صاحب العراق في شهر ربيع الأول سنة ٤١٦ هـ خطب لأخيه جلال  
الدولة صاحب البصرة ، وطلب إليه الحضور إلى بغداد ، ولكنه لم يستطع الوصول إليها ، فقطعت  
هذه الخطبة في شهر شوال من هذه السنة ، وأقيمت لابن أخيه أبي كاليبجار بن سلطان الدولة الذي كان  
في حرب مع عمه قوام الدولة أبي الفوارس ، ولكنه لم يستطع الحضور بسبب اشتغاله بهذه الحرب ،  
وأتيحت الفرصة لجلال الدولة بالحضور إلى بغداد واستيلائه عليها في هذه السنة . وقد ازداد نفوذ  
أبي كاليبجار في فارس فخطب له على منابر الأنبار والكوفة ، وأزال نفوذ بني عقيل عن سقى الفرات (٣)

(سنة ٤١٧ هـ)

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٢٥ - ١٢٣ (٢) ج ٩ ص ١٢٦ - ١٢٧ (٣) يعني حوض التمر

وقد ذكر ابن الأثير<sup>(١)</sup> في حوادث سنة ٤١٨ هـ أن نفوذ أبي كاليبجار امتد إلى جنوبي العراق ، وأن أهالي البطيحة ثاروا عليه فأخضعهم لنفوذه ، وأن الحرب تجددت بينه وبين عمه أبي الفوارس صاحب كرمان ، وعقد الصلح بينهما ، على أن تكون كرمان لأبي الفوارس ، وفارس لأبي كاليبجار ، وأن يدفع أبو كاليبجار لعمه عشرين ألف دينار في كل سنة .

وفي سنة ٤١٩ هـ استولى أبو كاليبجار على البصرة وطرد منها الملك العزيز بن جلال الدولة ، واستولى في السنة نفسها على كرمان على أثر وفاة صاحبها أبي الفوارس<sup>(٢)</sup> ، ثم على مدينة واسط (سنة ٤٢٠ هـ) . ولكن جلال الدولة لم يلبث أن استردها ، كما استرد البصرة (سنة ٤٢١ هـ) ، التي أصبحت مركزا للصراع بينه وبين أبي كاليبجار الذي خطب له على منابرها في سنة ٤٢٤ هـ .

وكانت ثورات الجند على جلال الدولة ، وميلهم إلى ابن أخيه أبي كاليبجار ومحاولتهم تنصيبه في السلطنة من بعده ، من العوامل التي حفزته على مد نفوذه في بلاد العراق . ولولا إبرام الصلح بينه وبين عمه في سنة ٤٢٨ هـ ، وزواجه من ابنته ، لآلت سلطنة بني بويه في بلاد العراق إليه قبل وفاة جلال الدولة في سنة ٤٣٥ هـ بوقت طويل .

على أن تولى أبي كاليبجار السلطنة في بلاد العراق (٤٣٥ - ٤٤٠ هـ) لم تشغله عن الاهتمام بشئون فارس ؛ فقد قضى على حركات الثوار في أصهان وكرمان ، كما عمل على إصلاح ما بينه وبين طغرلبيك السلجوقي ، الذي استولى على خراسان والري ، وكان يطمع في امتلاك فارس ، وارتبط معه بالمصاهرة . وعلى الرغم من اتفاقه مع الخليفة العباسي والسلاجقة من ناحية ، فقد تقرب من ناحية أخرى إلى الفاطميين ، واتخذ من ذلك التقرب وسيلة لتهديد العباسيين . يدلنا على صحة هذا القول علاقة المودة بينه وبين المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعي الفاطميين في فارس ، ليحول بذلك بين الخليفة العباسي وما يرمى إليه من التقرب إلى السلاجقة والاستعانة بهم على بني بويه والفاطميين . وكانت الأحوال في فارس تشغل بال أبي كاليبجار وتستنفد الكثير من صحته ، حتى إنه مات سنة ٤٤٠ هـ وهو في طريقه لإخماد ثورة نائبه بكرمان .

وفي عهد أبي نصر فيروز الملك الرحيم (٤٤٠ - ٤٤٧ هـ) بن أبي كاليبجار زال سلطان البويهيين في فارس والعراق . ولاغرو فقدورث هذا السلطان عن أبيه تركة مثقلة بالمتاعب والأخطار في الداخل والخارج ، ففي الداخل ترى انقسام أفراد هذا البيت بعضهم على بعض : فهناك الملك عبد العزيز بن جلال

(١) ج ٩ ، ص ١٣٤ - ١٣٥

(٢) ذكر ابن الأثير (ج ٩ ص ١٣٨) أن أبا الفوارس كان قد تجهز لقصد بلاد فارس وجمع عسكرا كثيرا ، فأدركه أجله . فلما توفي نادى أصحابه بشعار الملك أبي كاليبجار ، وأرسلوا إليه يطلبونه إليهم ، فسار مجدا وملك البلاد بغير حرب ولا قتال ، وأمن الناس معه وكانوا يكرهون عمه أبا الفوارس اظلمه وسوء سيرته . وكان إذ اشرب ضرب أصحابه ، وضرب وزيره يوما مائتي مفرقة ، وحلله بالطلاق أنه لا يتأوه ولا يجبر بذلك أحدا ، فقبل لأنهم سموه فات .

الدولة ، كان يطمع في السلطنة ويحارب الملك الرحيم في البصرة ، لولا أن حالت وفاته في سنة ٤٤١ هـ دون تحقيق أمنيته ، وهناك أيضا أبو منصور بن أبي كاليبجار (أخو الملك عبد الرحيم) يستولى على الأهواز (٤٤١ هـ) . ولولاشغب الجند عليه لخرجت هذه البلاد عن سلطان الملك الرحيم ، وتجددت متاعب هذا السلطان بنحروج أخيه أبي منصور عليه من جديد ، واستيلائه على الأهواز ومطاردة جيوشه إلى واسط ، كما حارب أيضا أخاه أبا علي فناخسرو في البصرة . وإن كان قد تم له النصر عليه . وهكذا أصبحت أمهات مدن العراق وفارس مركزا للصراع بين الملك الرحيم وبين إخوته وأقاربه . أما في الخارج فقد ازداد نشاط السلاجقة وتفاقم خطرهم وقويت أطماعهم في الاستيلاء على فارس والعراق ، بل على الشام ومصر ؛ وشجعهم على تحقيق هذه الأمانى ضعف بني بويه في أواخر أيامهم ، واستعانة العباسيين بمنافسيهم السلاجقة لتخايبهم من استبداد البويهيين . وقد تمكن السلاجقة أخيرا من الاستيلاء على أملاك بني بويه في فارس والعراق ، كما كانت متباعدة أي الحارث البساسيري للخليفة العباسي المطيع من أهم الأسباب التي عجلت بسقوط هذه الدولة ، بعد أن حكمت كثيرا من البلاد الإسلامية أكثر من قرن (١) .

### (ب) في الري وهمذان وأصبهان :

#### ركن الدولة (٣٣٠ - ٣٦٦ هـ) :

بيننا من قبل كيف تالق نجم أولاد بويه في أوائل القرن الرابع الهجري ، فقد عماد الدولة نفوذه في فارس ، واستولى ركن الدولة الذي كان رهينة عند مرداويج بن زيار على أصبهان والري وهمذان وسائر بلاد العراق العجمي ، واستول معز الدولة على الأهواز (٢) . وفي سنة ٣٣٤ هـ استعان الخليفة العباسي المستكفي بأحمد بن بويه لتخليصه من شر الأتراك ، وطلب إليه المسير إلى بغداد ، ولقيه معز الدولة ، ولقب أخاه عليا عماد الدولة ، وأخاه أبا علي الحسن ركن الدولة (٣) .

وفي سنة ٣٢٧ هـ بدأ الصراع بين ركن الدولة الحسن وبين وشمكير بن زيار الديلمي أخى مرداويج ابن زيار ، الذي عز عليه استيلاء ركن الدولة الحسن على البلاد التي كانت بيد أخيه ؛ فأرسل إليه جيشا طرده من أصبهان ، فاضطر ركن الدولة إلى التقهقر إلى بلاد فارس ، ثم سار في السنة التالية إلى واسط ليجد نفوذه منها إلى ما جاورها من البلاد . ولكنه اضطر أمام مقاومة البريديين والخليفة الراضي وبجزم إلى التقهقر نحو الأهواز . وفي هذه السنة نفسها عاد ركن الدولة إلى أصبهان واستولى عليها ، وطرد أصحاب وشمكير منها . وانفق هو وأخوه عماد الدولة مع أبي علي بن محتاج قائد نصر بن أحمد الساماني بخراسان ، وأخذوا بحر ضانه على ما كان (بن كالي) ووشمكير ، وبعدهان المساعدة عليهما ، فصار

(١) أنظر ص ١٣١ - ١٣٤ ، ١٣٥ وما يليها .

(٢) ص ١٠٠

(٣) ص ١٠٠ - ١٠١



بينهم بذلك مودة . (١) وقد رمى ركن الدولة وعماد الدولة ابنا بويه من وراء صدقتهما لابن محتاج الى بسط نفوذهما على بلاد وشمكير . وفي ذلك يقول ابن الأثير (٢) : « وكان قصدهما أن تؤخذ الري من وشمكير ، فإذا أخذها أبو علي لا يمكنه المقام بها لسعة ولايته بخراسان ، فيغلبان عليها ، . ولم يكتف ركن الدولة بذلك ، بل سار في سنة ٥٤٢٩ هـ الى الري حيث حارب جيوش وشمكير وانتصر عليها ، وانضم إليه عدد كبير منهم . (٣) وقد تحققت سياسة ابني بويه التي كانت تنطوي على بعد النظر ، فإن أبا علي ابن محتاج لما عاد من الري إلى خراسان ، ورجع ركن الدولة الى الري ، واستولى عليها وعلى سائر أعمال الجبل ، وأزال عنها الخراسانية . وعظم ملك بن بويه ، فانهم صار بأيديهم أعمال الري والجبل وفارس والأهواز والعراق ، ويحمل إليهم ضمان الموصل وديار بكر وديار مضر من الجزيرة ، ( سنة ٥٣٥ هـ ) . وفي السنة التالية حارب ركن الدولة وشمكير بن زيار الديلمي وطرده من طبرستان وجرجان ، فاضطر هذا إلى الاستعانة بالسامانيين ، الذين رجعوا بدعوة وشمكير خوفا على بلادهم من خطر بني بويه ، فأرسل نوح بن نصر ( ٢٣١ - ٥٣٤٣ هـ ) في سنة ٥٣٢٩ هـ جيشا أجلي نائب ركن الدولة عن الري ، واستولى على بلاد الجبل إلى قرميسين ، وأزال عنها ولاية بني بويه ، وأرسل معز الدولة إلى أخيه ركن الدولة جيشاً بقيادة سبكتكين الحاجب ، فطرد جند السامانيين من الخراسانيين من قرميسين وهمذان . إلا أنه على الرغم مما حل بهذا الجيش الخراساني من الهزيمة ، فإنه قصد أصبهان واحتلها ، ولكنه أرغم على تركها والعودة إلى الري ( المحرم سنة ٥٤٤٠ هـ ) لقلّة المؤن ، حتى إن الجند قد بلغ بهم الأمر إلى ذبح دوابهم وأكل لحومها . (٥)

على أن مناوأة وشمكير بن زيار الديلمي لركن الدولة الحسن بن بويه لم تنته عند هذا الحد ، فاننا نجد في مسكويه (٦) عند كلامه على حوادث سنة ٥٣٣١ هـ ، أن ركن الدولة دخل طبرستان بعد هرب وشمكير منها إلى جرجان ، وانضم ثلاثة آلاف من جنده إلى ركن الدولة ، الذي لم يلبث أن دخل جرجان ، وبلغ من ازدياد قوته وضعف وشمكير أن لقب الخليفة العباسي المطيع أبا شجاع فنا خسرو ابن ركن الدولة بلقب عضد الدولة .

لم يتمتع ركن الدولة الحسن بالهدوء في بلاده فترة طويلة ، بل كثيرا ما كانت هذه البلاد تتعرض لهجمات منافسيه الكثيرين . وكان من أشد هؤلاء خطرا ، وشمكير بن زيار الديلمي ، وأمراء السامانيين . ففي سنة ٥٣٥٦ هـ حرض عامل كرمان من قبل البويهيين منصور بن نوح الساماني صاحب بلاد خراسان وما وراء النهر على قصد الري ، التي اتخذها ركن الدولة قاعدة لبلاده ، وأطمعه في البلاد التي كان يلبسها

(٢) ج ٨ ص ١٣٠

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٢٧

(٣) مسكويه : كتاب تجارب الأمم ج ٢ ص ٨

(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ١٦٨ و١٧١ ؛ انظر أيضا مسكويه ج ٢ ص ١٠٠ - ١٠٣

(٥) ابن الأثير ج ٨ ص ١٧٥ - ١٧٦

(٦) ج ٢ ص ١٩٠ - ١٩١

بنو بويه . وأعد السامانيون عدة جيوش لتحقيق مطامعهم . وشعر ركن الدولة بهذا الخطر الدائم ، فأعد لهذا الأمر عدته ، واستعان بابنه عضد الدولة في فارس وابن أخيه بختيار في العراق . ولكن موت وشمكير بن زيار فجأة ، أبعاد هذا الخطر الذي كان يهدد بلاد ركن الدولة (١) .

وكان ركن الدولة يعمل على أن يكون البويهيون قوة متحدة متماسكة تقف في وقت الخطوب يدا واحدة ، كما كانت العلاقة بين معز الدولة وعماد الدولة وركن الدولة أولاد بويه تقوم على أساس المودة والصفاء ، واحترام الصغير لمن هو أكبر منه سنا ، وعلى أساس احترام العهود والمواثيق حتى مع غير بني بويه . وقد رأينا ذلك واضحا جليا ، حين تهددت بلاد ركن الدولة لخطر وشمكير والسامانيين ، وعندما استنجد عز الدولة بختيار بابن عمه عضد الدولة صاحب فارس ، فطمع هذا في بلاده ، واتخذ من ضعفه فرصة للوصول إلى السلطنة ، فأنكر أبوه ركن الدولة الحسن عليه عمله وهدده بالمسير إليه في العراق ، ورد بختيار إلى سلطنته فيها ، ولم يصغ لما عرضه عليه من إبعاد بختيار عن العراق حيث كره الخليفة والأهالي حكمه ، على أن يولية بعض بلاد فارس ، وأن تؤول السلطنة إلى أبيه . ولكن ركن الدولة لم يرض بهذه العروض إبقاء على وحدة البيت البويهي ، واحتفاظا بذكري أخيه معز الدولة الذي كان يعتبره ابنا له ، وحفظا لحق ابن أخيه لإرضاء روح أبيه (٢) . ولا بأس من أن ننقل ما ذكره ابن الأثير (٣) في هذا الصدد :

« لما قبض بختيار كان ولده المرزبان بالبصرة متوليا لها ، فلما بلغه خبر قبض والده ، امتنع فيها على عضد الدولة ، وكتب إلى ركن الدولة يشكو ماجرى على والده وعميه من عضد الدولة ومن أبي الفتح بن العميد ، ويذكر له الحيلة التي تمت عليه . فلما سمع ركن الدولة ذلك ألقى نفسه عن سريره إلى الأرض وتبرغ عليها ، وامتنع عن الأكل والشرب عدة أيام ، ومرض مرضا لم يستقل (٤) منه باقي حياته . وكان محمد بن بقیة بعد بختيار قد خدم عضد الدولة وضمن منه مدينة واسط وأعمالها ، فلما صار إليها خلع طاعة عضد الدولة وخالفه عليه وأظهر الامتناع لقبض بختيار ، وكان عمران بن شاهين ، وطلب مساعدته وحذره مكر عضد الدولة ، فأجابه عمران إلى ما اتس ... فلما عصى ابن بقیة أنفذ إليه عضد الدولة جيشا قويا ، فخرج إليهم ابن بقیة في الماء ومعه عسكر قد سيره إليه عمران ، فانزمت أصحاب عضد الدولة أقبح هزيمة ، وكان ركن الدولة بحاله وحال بختيار ، فكاتب ركن الدولة إليه ، وإلى المرزبان وغيرهما من احتفى لبختيار بأمرهم بالثبات والصبر ، ويعرفهم أنه على المسير إلى العراق لإخراج عضد الدولة وإعادة بختيار ، فاضطربت النواحي على عضد الدولة ، وتجاثر عليه الأعداء حيث علموا إنكار أبيه عليه ، وانقطعت عنه موارد فارس والبحر ، ولم يبق بيده إلا قصبه بغداد ، وطمع فيه العامة وأشرف على ما يكره . فرأى إنفاذ أبي الفتح بن العميد برسالة إلى أبيه يعرفه

(١) مسكويه ج ٢ ص ٢٣٢ - ٢٣٤ .

(٢) انظر ص ١١٠ .

(٣) ج ٨ ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٤) استقله : حملة ورفعه والراد هنا لم يتخلص منه .

ما جرى له وما فرّق من الأموال . وضعف بختيار عن حفظ البلاد ، وأنه إن أعيد إلى حاله خرجت  
 الملكة والخلافة عنهم وكان بوارهم ، ويسأله ترك نصره بختيار ، وقال لأبي الفتح : فإن أجب إلى  
 ما تريد منه ، وإلا فقل له إنني أضمن منك أعمال العراق ، وأحمل إليك منها كل سنة ثلاثين ألف درهم ،  
 وأبعث بختيار وأخويه إليك لتجعلهم بالخيار ، فإن اختاروا أقاموا عندك ، وإن اختاروا بعض بلاد  
 فارس سلمته إليهم ووسّعت عليهم ، وإن أحببت أنت أن تحضر في العراق لتلي تدبير الخلافة وتنفذ  
 بختيار إلى الري وأعود أنا إلى فارس ، فالأمر إليك . وقال لابن العميد : فإن أجب إلى ما ذكرت له  
 وإلا فقل له : أيها السيد الوالد ، أنت مقبول الحكم والقول ، ولكن لاسبيل إلى إطلاق هؤلاء القوم  
 بعد مكاشفتهم وإظهار العداوة ، وسيقاتلونني بغاية ما يتقدرون عليه ، فتنشر الكلمة (١) ويختلف  
 أهل هذا البيت أبدا . فإن قبلت ما ذكرته ، فأنا العبد الطامع ، وإن أبيت وحكمت بانصرافي ، فأني  
 سأقتل بختيار وأخويه وأقبض على كل من أتهمه بالميل إليهم ، وأخرج من العراق وأترك البلاد  
 سائبة (٢) ، ليدبرها من اتفقت له . تخاف ابن العميد أن يسير بهذه الرسالة ، وأشار أن يسير بها غيره ،  
 ويسير هو بعد ذلك ، ويكون كالمشير على ركن الدولة بإيجابه إلى ما طلب ، فأرسل عضد الدولة  
 رسولا بهذه الرسالة ، وسير بعده ابن العميد على الجازات . فلما حضر الرسول عند ركن الدولة  
 وذكر بعض الرسالة ، وثب إليه ليقته ، فهرب من بين يديه ، ثم رده بعد أن سكن غضبه وقال : قل  
 لفلان ، يعني عضد الدولة وسماه بغير اسمه وشمته : خرجت إلى نصره ابن أخي وللطمع في مملكته ...  
 زيد أن تمن أنت علي بدرهمين أنفتقتهما أنت علي وعلى أولاد أخي ، ثم تطمع في ممالكهم وتهددني  
 بقتلهم ؟ فعاد الرسول ووصل ابن العميد ، لحجبه عنه ولم يسمع حديثه ، وتهدهد بالهلاك ، وأنفذ إليه يقول  
 له : لا تركنك وذلك الفاعل ، يعني عضد الدولة ، تجتهدان جهدا ثم لا أخرج إليكما إلا في ثلاثمائة جمّازة  
 وعليها الرجال ، ثم اثبتوا إن شئتم ، فوالله لا قاتلتكما إلا بأقرب الناس إليكما . وكان ركن الدولة  
 يقول : إنني أرى أخي معز الدولة كل ليلة في المنام يعرض علي أنامله ويقول : يا أخي ! هكذا ضمنت  
 لي أن تخلفني في ولدي ؟ وكان ركن الدولة يحب أخاه محبة شديدة لأنه رباه ، فكان عنده بمنزلة الولد .  
 ثم إن الناس سعوا لابن العميد ، وتوسطوا الحال بينه وبين ركن الدولة وقالوا : إنما تحمل ابن العميد  
 هذه الرسالة ، ليجعلها طريقا للخلاص من عضد الدولة والوصول إليك لتأمر بما تراه . فأذن له في  
 الحضور عنده ، فاجتمع به ، وضمن له إعادة عضد الدولة إلى فارس وتقرير بختيار بالعراق ، فردّه  
 إلى عضد الدولة وعرفه جليلة الحال . فلما رأى عضد الدولة انحراف الأمور إليه من كل ناحية ، أجب  
 إلى المسير إلى فارس وإعادة بختيار .

### صفات ركن الدولة :

كان عماد الدولة أبو الحسن علي أكبر أولاد أبيه ، وركن الدولة الحسن أوسطهم ، ومعز الدولة

(٢) يعني أنه يترك البلاد بلا رئيس .

(١) أي تنفرق

أحمد أصغرهم . وكان ركن الدولة — كما وصفه ابن خلكان (١) — مسلكا جليل المقدار على الهمة ، وأطنب ابن الأثير (٢) في وصفه فقال : « كان حليما كريما واسع الكرم كثير البذل ، حسن السياسة لرعاياه وجنده ، رموفا بهم ، عادلا في الحكم بينهم . وكان بعيد الهمة عظيم الجهد والسعادة ، متحرجا من الظلم مانعا لأصحابه منه ، عفيفا عن الدماء ، يرى حقها واجبا إلا فيما لا بد منه . وكان يحامى على أهل البيوتات ، وكان يجرى عليهم الأرزاق ويصونهم عن التبذل ، وكان يقصد المساجد الجامعة في أشهر الصيام للصلاة ، ويتنصب لرد المظالم ، ويتعهد العلويين بالأموال الكثيرة ، ويتصدق بالأموال الجليلة على ذوى الحاجات ، ويلين جانبه للخاص والعام . قال له بعض أصحابه في ذلك وذكر له شدة مرداويع على أصحابه فقال : انظر كيف آخترتم (٣) ووثب عليه أخص أصحابه وأقربهم منه لعنفه وشدته ، وكيف عُمِّرتُ وأحببني الناس للين جانبي . وحكى عنه أنه سار في سفر فتزل في خركاه (٤) قد ضربت له قبل أصحابه ، وقدم إليه طعام فقال لبعض أصحابه : لآى شيء قيل في المثل : خير الأشياء في العُربة الإمارة ، فقال صاحبه : لعودك في الحركة وهذا الطعام بين يديك ، وأنا لاخركة ولا طعام ، فضحك وأعطاه الحركة والطعام . فانظر إلى هذا الخلق ما أحسنه وما أجمله ! وفي فعله في حادثة بختيار ما يدل على كمال مروءته وحسن عهده وصلته لرحمه . رضى الله عنه وأرضاه . وكان له حسن عهد ومودة وإقبال . »

اشتهر عضد الدولة بحسن الخلق وعفة اللسان والعفو عند المقدرة . ذكر ابن الأثير (٥) أن وشمكير ابن زيار الدبلي « كتب إلى ركن الدولة يتهدده بضروب من الوعيد والتهديد ويقول : والله لئن ظفرت بك لأفعلن بك ولاصنعن ، بألفاظ قبيحة ، فلم يتجاسر الكاتب أن يقرأه ، فأخذه ركن الدولة فقرأه وقال للكاتب : اكتب إليه : أما جمعك وأحشادك . فما كنت قط أهون منك على الآن ، وأما تهديديك وإبعادك ، فوالله لئن ظفرت بك لأعاملنك بضده ، ولاحسنن إليك ولا كرمك . » ولما كتب ركن الدولة إلى ابنه عضد الدولة يلومه على ما فعل مع ابن عمه عز الدولة بختيار ، وعزمه على إبعاده عن السلطنة في العراق وانتزاعها منه ، ويتهدده إن هو أصر على تنفيذ أغراضه ، ذكر له حسن معاملته لأصدقائه وأعدائه على السواء ، ووفائه بوعوده فقال : « أما عرفت أنى نصرت الحسن بن الفيرزان وهو غريب منى مرارا كثيرة أخاطر فيها بملسكى ونفسي ؟ فإذا ظفرت أعدت له بلاده ، ولم أقبل منه ما قيمته درهم واحد ، ثم نصرت إبراهيم بن المرزبان وأعدته إلى أذربيجان ، وأنفذت وزيرى وعساكرى في نصرته . ولم آخذ منه درهما واحدا . كل ذلك طلبا لحسن الذكر ومحافظة على الفتوة . » (٦)

(٢) ج ٨ ص ٢٤٢ .

(٥) ج ٨ ص ٢٠٨ .

(١) كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ١٤١ .

(٤) خيمة .

(٣) أخترته المنية عاجلته

(٦) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٣٥ .

وقد توفي ركن الدولة في سنة ٣٦٦ هـ بعد حياة طويلة حافلة بالنصر والظفر ومكارم الأخلاق ، وكان في الثانية والثمانين من عمره .

### أولاد ركنه الدولة (٣٦٦ - ٥٤٢٠)

ذكرنا من قبل أن ركن الدولة قد عهد قبل موته سنة ٣٦٦ هـ إلى ولده عضد الدولة بالملك من بعده ، وجعل لولده نثر الدولة أبي الحسن عليّ همدان وأعمال الجبل ، ولولده مؤيد الدولة أصمهان وأعمالها ، وجعلهما في هذه البلاد بحكم أخيهما عضد الدولة . وكان عضد الدولة يخشى أخاه نثر الدولة ويخاف اتصاله ببختيار واتحادهما عليه ، فعول على أخذ بلاد العراق على أثر وفاة أبيه في سنة ٣٦٦ هـ . ولما تم لعضد الدولة ما أراد وصفا له ملك العراق في سنة ٣٦٧ هـ ، استولى على بلاد أخيه نثر الدولة في سنة ٣٦٩ هـ ، وملك عضد الدولة ما كان بيد نثر الدولة - همدان والرى وما بينهما - وسلبها إلى أخيه مؤيد الدولة بويه ، وجعله خليفته ونائبه في تلك البلاد ، ونزل الرى فاستولى على تلك التواحي (١) . ولم تطل ولاية مؤيد الدولة ، فمات بعد أخيه عضد الدولة بسنة واحدة (٣٧٣ هـ) ، واختار كبار قواد مؤيد الدولة أخاه نثر الدولة ، وأشار الصاحب بن عباد باختياره ، لكبر سنه ووافر هيبته وأحقيته بالملك قبل أخيه . واتخذ نثر الدولة الصاحب بن عباد وزيراً له ، وخلع عليه الخليفة العباسي الطائع ، وقامت العلاقة بين كل من نثر الدولة وابني أخيه صمصام الدولة وشرف الدولة ابني عضد الدولة على أساس الوفاق واتحاد المصلحة (٢) .

ولكن هذه العلاقة قد تبدلت في عهد سلطنة بهاء الدولة في العراق (٣٧٩ - ٥٤٠٣) ، فقد ذكر أبو شجاع (٣) وابن الأثير (٤) أن نثر الدولة طمع - كأخيه عضد الدولة - في الاستيلاء على بلاد العراق ، وأن وزيره الصاحب بن عباد شجعه على فتح هذه البلاد ، لأنه كان يرنو ببصره إلى تقلد الوزارة في بغداد . واتخذ نثر الدولة من موت شرف الدولة ، الذي عرف بقوة الشكيمة وشدة البطش في حروبه مع صمصام الدولة وغيره ، فرصة لتحقيق أطماعه في بلاد العراق ، واستعان ببدر بن حسنويه القائد الكردى المشهور ، ودييس بن عفيف الأسدى وغيرهما ، واستقر الرأي على أن يسير الصاحب ابن عباد الوزير وبدر بن حسنويه على رأس جيش ، يبدأ مسيره من همدان متجها صوب العراق ، وأن يسير جيش آخر بقيادة نثر الدولة نفسه من همدان إلى خوزستان فأصدا العراق . واستطاع نثر الدولة أن يستولى على الأهواز ، ولكن أمره لم يستقر فيها ، لأنه أساء السيرة مع جندها وضيّق عليهم ، ولم يبدل المال ، فخابت ظنون الناس فيه ، واستشعر منه أيضا عسكره وقالوا : هكذا يفعل بنا إذا تمكّن من إرادته ، فتخاذلوا . (٥)

ولما علم بهاء الدولة صاحب العراق نبأ استيلاء نثر الدولة على الأهواز ، سبر إليه جيشا التقى

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٦ (٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ١٠

(٣) ج ٣ ص ١٦٣ - ١٦٤ و ١٨٣ - ١٨٤ .

(٤) ج ٩ ص ٢٤ . أنظر أيضا لفظ نثر الدولة في 44-5. Encyclopaedia of Islam, Vol. II. pp.

(٥) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٤

به على مقربة من خوزستان، وأحل به الهزيمة. وقد قيل في سبب هذه الهزيمة، إن أحد فروع نهر دجلة فاض عند الأهواز وتفجرت العيون منه، فاعتقد جند فخر الدولة أن بهاء الدولة أمر بتقطيع الجسور ليحول دون مسيرهم إلى العراق، وحلت به الهزيمة، وتفرق عنه كثير من جنده، فعاد إلى الري، وسار بهاء الدولة إلى واسط والبصرة، وبعث جيوشه إلى أرجان فاستولت على قلعتها المنيعه (١) (سنة ٣٧٩هـ). وكان فخر الدولة، بحكم قرب بلاده من بلاد السامانيين، في عداوة مع أمراءهم. وكان يقوم بمساعدة الخارجين عليهم، كما حدث في مساعده أبا علي بن محتاج وفاق الخاصة على نوح الثاني بن منصور الساماني (٣٦٦ - ٣٨٧هـ) في سنة ٣٨٤هـ. (٢).

توفي فخر الدولة في سنة ٣٨٧هـ، وقام بالأمير بعده ابنه مجد الدولة أبو طالب رستم (٣٨٧ - ٤٢٠هـ). ولم يجاوز الرابعة من عمره، على أن يلي أخوه شمس الدولة أبو طاهر همذان وقرميسين إلى حدود العراق. وكان لأمه مركز خاص في إدارة شؤون دولة ابنها الصغير. واستعانت في ذلك الأمر ببعض الأمراء، ولكن ذلك لم يحل دون طمع أمراء البلاد المجاورة لبلاد مجد الدولة. فقد طمع فيها شمس المعالي قابوس بن وشمكير بن زيار الديلمي، واستولى على جرجان ومزق جيوش مجد الدولة شرمزق، كما يتبين من عبارة ابن الأثير (٣):

و فلما كانت هذه السنة (٣٨٨هـ) بعد موت فخر الدولة، سير شمس المعالي قابوس الإصبهني شهربار بن شروين إلى جبل شهربار، وعليه رستم بن المرزبان خال مجد الدولة بن فخر الدولة، فاقتلوا، فأنهزم رستم، واستولى إصبهني على الجبل، وخطب لشمس المعالي. وكان باق بن سعيد بناحية الاستدارية، وله ميل إلى شمس المعالي، فسار إلى آمل وبها عسكر لمجد الدولة، فطردهم عنها، واستولى عليها، وخطب لقابوس وكتب إليه بذلك. ثم إن أهل جرجان كتبوا إلى قابوس يستدعونه، فسار إليهم من نيسابور، وسار إصبهني وباق بن سعيد إلى جرجان وبها عسكر لمجد الدولة، فالتقوا واقتتلوا، فأنهزم عسكر مجد الدولة إلى جرجان. فلما بلغوها صادفوا مقدمة قابوس قد باغتها، فأيقنوا بالهلاك وانهمزوا من أصحاب قابوس هزيمة ثانية، وكانت قرحاً على قرح، ودخل شمس المعالي جرجان في شعبان من هذه السنة (٣٨٨هـ). وبلغ المنهمزون الري، فجهزت العساكر من الري نحو جرجان، فساروا وحاصروها، فغلت الأسعار بالبلد، وضاعت الأمور بالعسكر أيضاً، وتوالت عليهم الأمطار والرياح فاضطروا إلى الرحيل. فتبعهم شمس المعالي، فلحقهم وواقهم فاقتلوا، وانهمز عسكر الري وأمر من أعيانهم جماعة كثيرة، وأسر أكثر منهم، فأطلق شمس المعالي الأسرى، واستولى على تلك الأعمال ما بين جرجان واستراباذ، ثم إن الإصبهني حدث نفسه بالاستقلال والتفرد عن قابوس، واعتز بما اجتمع عنده من الأموال والذخائر، فسارت إليه العساكر من الري وعليها المرزبان خال مجد الدولة،

(١) أبو شعاع: ذيل كتاب تجارب الأمم ج ٣ ص ١٦٦، ١٦٩، وابن الأثير ج ٩ ص ٢٤. أنظر من هذا الكتاب

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٣٨

(٣) ج ٩ ص ٥٢ - ٥٣

فهزموا إصبيهد وأسروه ، ونادوا بشعار شمس المعالي لوحشة كانت عند المرزبان من مجد الدولة ، وكتب إلى شمس المعالي بذلك ، وانضافت مملكة الجبل جميعها إلى ممالك جرجان وطبرستان ، فولاهما شمس المعالي ولده منوجهر .

على أن ملك مجد الدولة لم تتوحد أركانه في عهده الطويل الذي بلغ ثلاثا وثلاثين سنة . ويرجع ذلك إلى صغر سنه كما تقدم ، وطمع بعض الأمراء في السلطة ، واستبداد أمه بالأمر دونه ، حتى جعله كالمحجور عليه ، مما أثار حنقه عليها ، وجعله يعمل على التخلص من نفوذها . فلما فطنت إلى ما يراد بها ، هربت من الري ، واستعانت بابنها الثاني شمس الدولة أبي طالب صاحب همدان وقرميسين ، كما استعانت ببدر بن حسنويه السكردي أمير الجبل من قبل مجد الدولة ، الذي استعان به زوجها نخر الدولة من قبل على مهام الدولة . وعادت إلى الري ، وحبست مجد الدولة ، وأجلست ابنها شمس الدولة على العرش في سنة ٥٣٩٧ هـ ، فتقلد الأمور نحوها من سنة وصارت فيها تدبر الأمر وتسمع رسائل الملوك وتعطى الأجوبة . وأثارت كذلك حنق شمس الدولة الذي أصبح معها كالمحجور عليه ، فرأت والدته منه تنكرا وتغيرا ، وأن أخاه مجد الدولة أئين عريكه ، فأعادته إلى الملك . وعاد شمس الدولة إلى همدان ، وأخذ يعمل على امتلاك بلاد أخيه من جديد ، وجمع الجيوش لتحقيق أغراضه ، ولكنه لم يظفر بشيء رغم مساعدة بدر بن حسنويه له . ولم يلبث شمس الدولة أن ضم إلى بلاده بلاد الجبل التي كان يليها بدر بن حسنويه الذي قتل في سنة ٤٠٥ هـ ، وهزم حفيده طاهر بن هلال بن بدر ، الذي حاول استرداد ملك جده ، وأسره . وقد حاول أبوه هلال بن بدر ، الذي كان محبوبا عند سلطان الدولة بن بهاء الدولة (٤٠٣ - ٤١١ هـ) ، استرداد ملك أبيه بمساعدة سلطان الدولة ، ولكنه أسر وقتل . وبذلك ازدادت مطامع شمس الدولة ، فعمل على إقصاء أخيه وأممه من بلاد الري ، وأرغمهما على الرحيل عنها ، ولكنه اضطر إلى العودة إلى همدان على أثر شعب الجند عليه (١) .

ذكر ابن الأثير (٢) في حوادث سنتي ٤٠٧ و ٤٠٨ هـ ، بصدد كلامه على الشقاق الذي قام بين سلطان الدولة بن بهاء الدولة وبين أخيه قوام الدولة أبي الفوارس صاحب كرمان ، أن قوام الدولة هذا لما اضطر إلى التقمير من سلطان الدولة ، لحق بشمس الدولة بن نخر الدولة ثم بمهذب الدولة صاحب البطيحة ، وانتهى الأمر بإعادة كرمان إلى قوام الدولة أبي الفوارس الذي اعترف بزعامه أخيه سلطان الدولة .

ولم تطل أيام أولاد ركن الدولة في همدان وقرميسين ؛ فقد استعان شمس الدولة بعلاء الدولة أبي جعفر بن كا كوية الذي كان يلي أصهبان من قبل مجد الدولة ، على الأتراك الذين تفاقم شرهم وكثرت مشاغباتهم عليه . وعلى الرغم من قضائه عليهم في سنة ٤١١ هـ ، أخذت قوته تضعف سريرا

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٧٦ و ٩٢ - ٩٣ .

(٢) ج ٩ ص ١٠٩ - ١١٠ . انظر ص ١٣٥ - ١٣٦ من هذا الكتاب .

وسلطاته يضمحل ، وتمسك ابن كاكوية من القضاء على ابنه سماء الدولة أبي الحسن في سنة ٤١٤ هـ . وقبض على أمراء الديلم الذين بهمذان ، وسجنهم بقلعة عند أصبهان ، وأخذ أموالهم وإقطاعهم ، وأبعد كل من فيه شر من الديلم ، وترك عنده من يعلم أنه لاشر فيه . وأكثر القتل ، فقامت هيبته وخافه الناس ، وضبط المملكة . (١) وبذلك زال سلطان ركن الدولة وأولاده نهائيا من همذان وقرميسين .

كذلك لم تطل أيام أولاد ركن الدولة في الري ، فإن مجد الدولة بن نغر الدولة ، الذي استبدت أمه بالأمر دونه ، وانصرف إلى المطالعة والدرس ، فطمع جنده فيه واختلت أحوال بلاده بعد وفاة أمه ، استنجد في سنة ٤٢٠ هـ بيمين الدولة محمود بن سبكتكين الغزنوي (٣٨٨ - ٤٢١ هـ) ، فأرسل إليه جيشا قبض عليه وعلى ابنه أبي دلف ، واستحوذ على ما كان في خزائنه من الأموال ، واستولى على الري وأزال عنها سلطان البويهيين نهائيا (٢) .

### الدولة الحمدانية (٣)

( في الموصل وحلب وغيرها )

٣١٧ - ٣٩٤ هـ = ٩٢٩ - ١٠٠٣ م

١ - في الموصل

هجريه

٣١٧

٣٥٨

٣٦٩

٣٧١

٣٨٠

ميلادية

٩٢٩

٩٦٨

٩٧٩

٩٨١

٩٩١

١ ( ناصر الدولة أبو محمد الحسن )

٢ ( عدة الدولة أبو تغلب الفضل )

٣ ( أبو طاهر ابراهيم )

أبو عبد الله الحسين

[ البويهيون والعتيليون ]

٢ - في حلب

٣٣٣

٣٥٦

٣٨١

٣٩٢

٣٩٤

٩٤٤

٩٦٧

٩٩١

١٠٠١

١٠٠٣

١ ( سيف الدولة أبو الحسن علي )

٢ ( سعد الدولة أبو المعالي شريف )

٣ ( سعيد الدولة أبو الفضائل سعد )

٤ ( أبو الحسن علي )

أبو المعالي شريف

[ الفاطميون ]

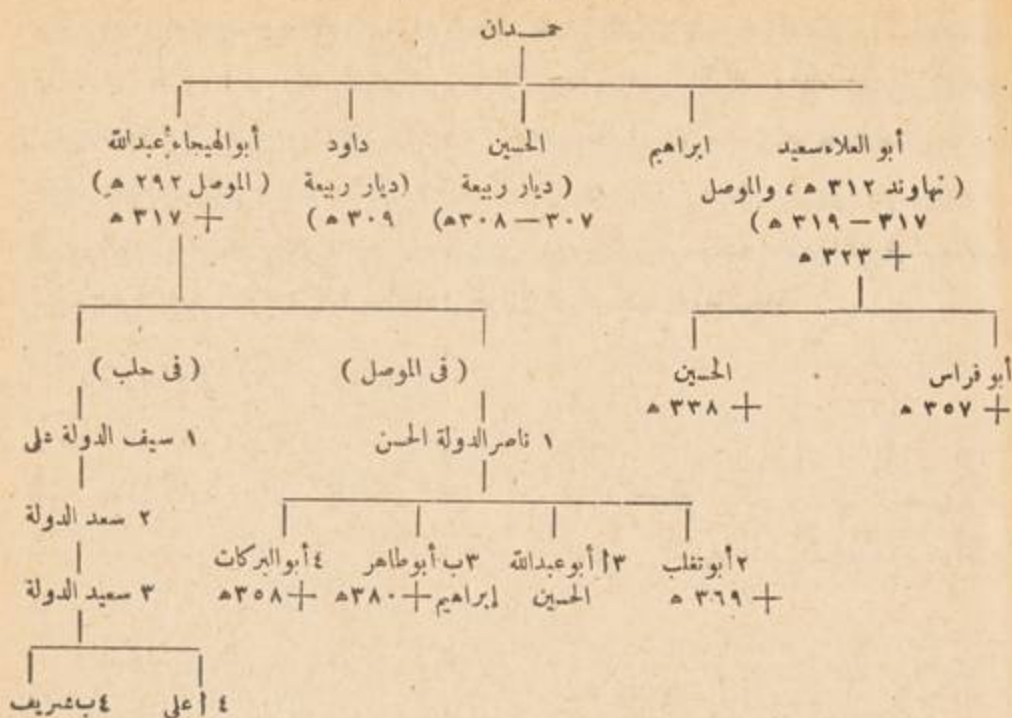
(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٢٣ .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٣٩ . ومن الدول المستقلة أيضا الدولة السلجوقية التي ذكرنا شيئا عن علاقتها ببني بويه والعباسيين لى أن قضاوا على بغداد في سنة ٤٤٧ هـ ، وبالغزنويين . وقد آثرنا لرجاء بحث تاريخهم منذ نشأتهم في شيء من الإسهاب لى الجزء الرابع من هذا الكتاب إن شاء الله .

(٣) أنظر كتاب 3 - 112 Stanley Lane - Poole : Muhammadan Dynasties



جدول يمثل أمراء الحمدانيين



١ - في الموصل

تمهيد:

ينتسب الحمدانيون إلى حمدان بن حمدون، من قبيلة تغلب العربية الأصل التي قامت بضواحي مدينة الموصل. وقد قام حمدون بدور هام في الحوادث السياسية التي وقعت في هذه المدينة منذ سنة ٥٢٦ هـ (٨٧٣ م). وقد تحالف مع هارون الشاري الخارجي في سنة ٥٢٧ هـ، واستولى على قلعة ماردين بعد ذلك بقليل، وحاربه الخليفة المعتضد في سنة ٥٢٨ هـ، فهرب حمدان تاركاً ابنه الحسين عليها. واستولى الخليفة على ماردين، وطارد حمدان وظفر به بعد قليل، وسجنه في بغداد، واستمر في سجنه حتى هزم ابنه الحسين هارون الخارجي وخلع عليه المعتضد، وطوقه، وخلع على إخوته... وأمر بحل قيود حمدان بن حمدون (١) والتوسعة عليه والإحسان إليه ووعد باطلاقه (٢). ومن ذلك الوقت بدأت شهرة الحمدانيين، فاشتهر الحسين بن حمدان في حروبه مع القرامطة، وبمناصرتة عبدالله بن المعتز الذي استولى على الخلافة من المقتدر مدة قصيرة، فكرهه المقتدر وأتصاه، ثم عفا عنه بتوسط أخيه إبراهيم، وولاه قم وقاشان. ولكنه لم يلبث أن تنازع مع الخليفة المقتدر، فحبسه حتى مات في سنة ٥٣٠٦ هـ (٩١٨ - ٩١٩ م).

(١) وردت في ابن الأثير (ج ٧ من ١٧) ابن حمدان.

(٢) ابن الأثير ج ٧ من ١٦٦ - ١٦٧، ١٦٩ - ١٧٠.

قُلْد الخليفة اقلندر ابا الهيجاء عبدالله بن حمدان الموصل وما يليها في سنة ٢٩٢ هـ ، وولى أخاه إبراهيم ديار ربيعة في سنة ٣٠٧ هـ ، فظل بها إلى أن خلفه عليها أخوه داود سنة ٣٠٩ هـ ، كما ولى أخاه سعيدا نهاوند في سنة ٣١٢ هـ ، وتلد غيرهم من بني حمدان بعض مناصب الدولة . وأُنا ب عبد الله بن حمدان ابنه ناصر الدولة الحسن (٣١٧ - ٣٥٨ هـ) عنه في حكم الموصل سنة ٣٠٨ هـ ، وقد استطاع أن يحتفظ بنفوذه فيها إلى أن مات في سنة ٣٥٨ هـ ، إلا فترة قصيرة لآزيد على سنتين (٣١٧ - ٣١٩ هـ) ، كما استطاع أن يمد نفوذه على جميع أرجاء ديار بكر وديار ربيعة ، ولقبه الخليفة المتقي في شهر شعبان سنة ٣٣٠ هـ ناصر الدولة ، كما لقب أخاه في الوقت نفسه سيف الدولة . (١)

### ناصر الدولة (٣١٧ - ٣٥٨ هـ)

سطع نجم ناصر الدولة بن حمدان في أفق الدولة العباسية ، كما رأينا ، وتقلد إمرة الأمراء في هذه السنة بعد أن قتل ابن رائق ونال رضا الخليفة المتقي لله (٢)؛ فأصلح السكة ، ولكنه اشتط في فرض الضرائب ، فغلت الأسعار ، وعز الطعام واللباس ، وضيق على الخليفة المتقي لله في نفقاته ، وانزع منه ضياعه ، فأثار حنق الخليفة وسخط الناس عليه (٣)

وقامت الحروب الأهلية بينه وبين البريديين من ناحية ، وبين هؤلاء والبويهيين من ناحية أخرى (٤) . لهذا تعجب إذا رأينا الخليفة يتنهر فرصة خروج ناصر الدولة إلى الموصل ، فيستنجد بتوزون ، ويمهد له السبيل لدخول بغداد في شهر رمضان سنة ٣٣١ هـ . وهكذا لم يستطع زعماء الحمدانيين من العرب البقاء في بغداد أكثر من سنة واحدة ، واضطروا إلى العودة إلى الموصل . (٥)

وسرعان ما قام العداء بين توزون والخليفة العباسي الذي لجأ إلى ناصر الدولة بن حمدان ، وقامت الحرب بين الفريقين في عكبرة التي تبعد عن بغداد شمالا بعشرة فراسخ ، وانهمز ابن حمدان والخليفة إلى الموصل ثم إلى نصيبين . وقد شجعت هزائم الحمدانيين والخليفة ، توزون على استخلاص الموصل من ناصر الدولة بن حمدان ، وانتهت هذه الحروب بعقد الصلح بين توزون وناصر الدولة بن حمدان ، الذي أقر على ما بيده من البلاد ثلاث سنوات ، على أن يؤدي ثلاثة آلاف ألف ومائة ألف درهم في كل سنة . ولم يقف النزاع بين توزون والبريديين من ناحية ، وبينه وبين الحمدانيين والخليفة المتقي من ناحية أخرى ، حتى إن الخليفة مل من الحمدانيين بعد أن استفحل خطرهم ، وكان توزون في الصلح . ولكن محمد بن طنجب إخشيد ، الذي التقى بالخليفة في الرقة ، نصحه بالمسير معه إلى مصر ، فلم يقبل ، وعاد إلى بغداد ، وعاد الإخشيد إلى مصر . وكان الخليفة المتقي يستعين على توزون تارة بناصر الدولة بن حمدان في الموصل ، وأخرى ببني بويه الذين أخذت قوتهم تزداد . ولكن ذلك لم يقفه شيئا ، فسلم توزون

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٨ . (٢) ابن الأثير ج ٨ ص ١٣٥ .

(٣) أبو بكر الصولي : كتاب أخبار الرازي بالله والمتقي لله ص ٢٤٠ ، ٢٤٢ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٣٣ - ٢٣٧ . (٥) انظر ص ٧٨ - ٨٠ من هذا الكتاب .

عبي الخليفة وحسبه ، وولى المستكفي الخلافة (صفر سنة ٥٣٣٣هـ).<sup>(١)</sup> ثم مات توزون بعد قليل (المحرم سنة ٥٣٣٤هـ) ، وتولى ابن شيرزاد إمرة الأمراء . وقد قيل إنه رغب في تحويل إمرة الأمراء إلى ناصر الدولة بن حمدان ، إلا أن الجند أبوا عليه ، وأقرهم الخليفة على ذلك .

وسرعان ما دخل بنو بويه بغداد (سنة ٥٣٣٤هـ) ، ودخلت العلاقة بين البويهيين والخلافة العباسية في طور جديد . وكانت سياسة بني بويه ترمى إلى الحد من نفوذ ناصر الدولة بن حمدان في الموصل ؛ فترى معز الدولة بن بويه يسير بصحبة الخليفة المطيع لمحاربة ناصر الدولة ، ويلتقى الجيشان عند عكبرة ، ويتمكن ابن شيرزاد أن يدخل بغداد ويحكمها باسم ناصر الدولة ، ثم يلحق به هذا بعد قليل ويخطب للفتى على منابر بغداد ويضرب السكة باسمه . ولم يستطع معز الدولة أن يسترد بغداد إلا بعد أربعة أشهر ، ويرغم ناصر الدولة على الارتداد إلى الموصل ، ويستقر الصلح بينهما في أوائل سنة ٥٣٣٥هـ . ولكن العلاقة بين الحمدانيين والبويهيين لم تستقر ، بل أخذ النزاع يذب بينهم من حين إلى حين .

وفي سنة ٥٣٤٥هـ (٩٥٦ - ٩٥٧ م) تفاقم النزاع بين معز الدولة بن بويه وناصر الدولة بن حمدان ، الذي اتخذ من خروج معز الدولة من بغداد لإخماد الثورة في الأهواز ، فرصة لدخول بغداد والاستيلاء عليها . ولما قضى معز الدولة على هذه الثورة ، رحل الحمدانيون عن بغداد ، وامتنع ناصر الدولة عن إرسال الأموال المقررة عليه لدار الخلافة ، فاستولى معز الدولة على الموصل ونصيبين ، وأرسل جيشا إلى الرحبة ، وأرغم ناصر الدولة على الهرب إلى ميافارقين ثم إلى حلب ، وكان أخوه سيف الدولة مستقلا بها ، وحاول إبرام الصلح مع معز الدولة ، ولكنه لم يتم إلا بعد أن تدخل سيف الدولة الحمداني ، وأخذ على عاتقه أداء ما على أخيه من الأموال . يقول ابن الأثير <sup>(٢)</sup> :

«فتجهز معز الدولة إلى الموصل وسار نحوها منتصف جمادى الأولى (سنة ٥٣٤٧هـ) . ومعه وزيره المهلبى ، ففارقها ناصر الدولة إلى نصيبين ، واستولى معز الدولة على الموصل . فكان من عادة ناصر الدولة إذا قصد أحد ، سار عن الموصل واستصحب معه جميع الكتاب والوكلاء ومن يعرف أبواب المال ومنافع السلطان ، وربما جعلهم في قلاعه ، كقلعة كواشى والزعفران وغيرها . وكانت قلعة كواشى تسمى ذلك الوقت قلعة أرمشت . وكان ناصر الدولة يأمر العرب بالإغارة على العسلافة ومن يحمل الميرة ، فكان الذى يقصد بلاد ناصر الدولة يبقى محصورا مضيقا عليه . فلما قصد معز الدولة هذه المرة فعل ذلك به ، فضاقت الأقوات على معز الدولة وعسكره ، وبلغه أن ينصبيين من الغلات السلطانية شيئا كثيرا ، فسار عن الموصل نحوها ، واستخلف بالموصل سبكتكين الحاجب الكبير . فلما توسط الطريق بلغه أن ولدى <sup>(٣)</sup> ناصر الدولة أبا المرجا ، وهبة الله بسنجار في عسكر ، فسير إليهم عسكرا ، فلم يشعر ولدا ناصر الدولة بالعسكر إلا وهم معهم ، فمجلوا عن أخذ أنقلاهم ، فركبوا دوابهم وانهمزوا . ونهب عسكر معز الدولة ماتركوه ونزلوا في خيامهم ، فعاد ولدا ناصر الدولة إليهم وهم

(١) أبو بكر الصولى : أخبار الراضى بالله والتقى لله من ٢٨٢ - ٢٨٣ ، أنظر ص ٨٤ - ٨٥ من هذا الكتاب .

(٢) ج ٨ ص ١٨٣ - ١٨٩ .

(٣) ذكر ابن الأثير أولاده ولكنه لم يذكر سوى اسمي ناصر الدولة وهبة الله فقط .

غارون<sup>(١)</sup>، فوضعوا السيف فيهم، فقتلوا وأمروا وأقاموا بسنجار. وسار معز الدولة إلى نصيبين، ففارقها ناصر الدولة إلى مياقارين، ففارقه أصحابه وعادوا إلى معز الدولة مستأمنين. فلما رأى ناصر الدولة ذلك، سار إلى أخيه سيف الدولة بحلب؛ فلما وصل خرج إليه ولقيه وبالغ في إكرامه، وخدمه بنفسه، حتى إنه نزع خفه بيديه. وكان أصحاب ناصر الدولة في حصونه ببلد الموصل والجزيرة يغيرون على أصحاب معز الدولة بالبلد، فيقتلون فيهم ويأسرون منهم ويقطعون الميرة عنهم. ثم إن سيف الدولة راسل معز الدولة في الصلح، وترددت الرسل في ذلك، فامتنع معز الدولة من تضمين ناصر الدولة، لخلفه معه مرة بعد أخرى. فضمن سيف الدولة البلاد منه بألفي ألف درهم وتسعمائة ألف درهم، وإطلاق من أسر من أصحابه بسنجار وغيرها، وكان ذلك في المحرم سنة ثمان وأربعين (وثلثمائة). وإنما أجاب معز الدولة إلى الصلح بعد تمكنه من البلاد، لأنه ضاقت عليه الأموال، وتقاعد الناس في حل الخراج، واحتجوا بأنهم لا يصلون إلى غلاتهم، وطلبوا الحماية من العرب أصحاب ناصر الدولة، فاضطر معز الدولة إلى الانحدار وأنف من ذلك. فلما وردت عليه رسالة سيف الدولة، استراح إليها وأجابه إلى ما طلبه من الصلح، ثم انحدر إلى بغداد.

كانت الأموال التي تعهد ناصر الدولة الحمداني بإرسالها إلى معز الدولة مثار النزاع بينهما. فإن معز الدولة طلب زيادة الأموال، فلم يجبه ناصر الدولة، وقامت الحرب بينهما، واستولى البويهيون على الموصل ونصيبين وغيرها من البلاد التابعة لناصر الدولة، الذي امتاز ابنه أبو تغلب الغضنفر بكثرة مفاجآته لجيوش البويهيين وشدة وطأته عليها، حتى إنه لما أرسل إلى معز الدولة يطلب الصلح، أجابه إلى ذلك، ولأنه علم متى فارق الموصل عادوا وملكوها، ومتى أقام بها الايزال مترددا وهم يغيرون على النواحي، فأجابه إلى ما التمس، وعقد عليه ضمان الموصل وديار ربيعة والرجة وما كان في يده من مال قرره، وأن يطلق من عندهم من الأسرى، فاستقرت القواعد على ذلك، ورحل معز الدولة إلى بغداد<sup>(٢)</sup>.

ويظهر أن الحوادث السيئة التي تتابعت على ناصر الدولة الحمداني قد أثرت في حالته النفسية تأثيرا شديدا: فضمان أخيه سيف الدولة له بأن يقوم بدفع الأموال المقرره عليه لمعز الدولة (٣٤٧ هـ)، وعقد معز الدولة لابنه أبي تغلب ضمان الموصل وديار ربيعة والرجة وما كان في يده من مال مقرر (٣٥٣ هـ)، وموت أخيه سيف الدولة الذي كان شديدا المحبة له (٣٥٦ هـ) - كل ذلك حز في نفس ناصر الدولة، حتى تغيرت أحواله، ووسايت أخلاقه، وضعف عقله، ولم يبق له حرمة عند أولاده وجماعته، فقبض عليه ولده أبو تغلب فضل الله الملقب عدة الدولة المعروف بالغضنفر بمدينة الموصل، باتفاق من إخوته... ولم يزل محبوبا بها إلى أن توفي يوم الجمعة وقت العصر ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وثلثمائة.

(١) غافلون.

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ١٩٨.

أبو تغلب بن ناصر الدولة (٣٥٨ - ٤٣٦٩ هـ)

وبعد وفاة ناصر الدولة في سنة ٣٥٨ هـ، أسرع إلى الدولة الحمدانية في الموصل الضعف والانحلال، واختلف أولاده على أنفسهم، وصاروا شيعة وأحزابا، مما أدى إلى ضعفهم، وطرد أبي تغلب الغضنفر من الموصل على أيدي بني بويه في سنة ٤٣٦٧ هـ. ولكن استرداد الموصل على أيدي أخويه أبي طاهر إبراهيم وأبي عبد الله الحسين، إنما كان استرداداً وقتياً وانتعاشاً قصير المدى.

وقد بدأ الخلاف بين أولاد ناصر الدولة في حياته، فرأى بعضهم أن يستولوا على ملك منافسهم البويهيين في العراق بعد موت معز الدولة بن بويه سنة ٣٥٦ هـ. وكان أبوه ناصر الدولة لا يتفق معهم في هذا الرأي، حتى إن أبا تغلب قبض على أبيه في سنة ٣٥٦ هـ وحسبه كما تقدم. على أن الخلاف لم يقف عند هذا الحد، فقد كان أبو تغلب وأبو البركات وأختهما جميلة أولاد ناصر الدولة من زوجته فاطمة بنت أحمد الكردية، وكانت مالكة أمر ناصر الدولة، فاتفقت مع ابنها أبي تغلب وقبضوا ناصر الدولة، فابتدأ ناصر الدولة يدبر في القبض عليهم، فكاتب ابنه حمدان يستدعيه ليتقوى به عليهم، فظفر أولاده بالكتاب فلم ينفذوه، وخافوا أباهم وخذروه، فحملهم خوفه على نقله إلى قلعة كواشي. واتصل ذلك بحمدان، فعظم عليه وصار عدواً مابينا، وكان أشجعهم. وكان قد سار عند وفاة عمه سيف الدولة من الرحبة إلى الرقة فملكها، وسار إلى نصيبين وجمع من أطاعه، وطالب إخوته بالإفراج عن والده وإعادةه إلى منزله، فسار أبو تغلب إليه ليحاربه، فانهزم حمدان قبل اللقاء إلى الرقة، فنازله أبو تغلب وحصره، ثم اصطالحا على دخن<sup>(١)</sup>، وعاد كل واحد منهما إلى موضعه. وعاش ناصر الدولة الحسن بن أبي الهيجاء عبدالله بن حمدان بن حمدون التغلبي شهورا، ومات في ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة<sup>(٢)</sup>.

وقد استمر النزاع بعد وفاة ناصر الدولة بين أولاده، وانقسموا إلى فريقين: فريق يناصر حمدان ابن ناصر الدولة، وفريق آخر يناصر أخاه أبا تغلب. ولكن الهزائم تابعت على حمدان، فلجأ إلى اختيار بن معز الدولة في بغداد، فأكرم وفادته، وتوسط في الصلح بينه وبين أخيه، وأرسل النقيب أبا أحمد الموسوي والد الشريف الرضي سفيرا في الصلح بين ولدي ناصر الدولة. وقد دفع بختيار إلى اختيار أبي أحمد الموسوي أنه من العلويين، الذين كان يميل إليهم الحمدانيون والبويهيون على السواء. وظهرت الحكمة التي أوحى إلى بختيار باختياره، إذ تم الصلح بين الأخوين وعاد حمدان إلى الرحبة<sup>(٣)</sup>، وكان أخوه أبو تغلب قد استولى عليها منه، وأتاب عليها أخاه أبا البركات (٣٥٨ - ٤٣٥٩ هـ). على أن النزاع لم ينته بهذا الصلح، بل تجدد في عنف وشدة، حتى إن حمدان قتل أخاه أبا البركات (٣ رمضان

(١) يقال هدنة على دخن أي صلح على غش. (٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢١٣.

(٣) بضم الراء وسكون الحاء وفتح الباء، تقع بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات جنوبي قرقيسيا - أنظر لفظ الرحبة في معجم البلدان لياقوت.

سنة ٣٥٩ هـ) ، واشتد الصراع بين أبي تغلب وحمدان ، الذي حلت به الهزيمة ، فسار إلى بغداد ، ولجأ مع أخيه إبراهيم إلى بختيار من جديد ، فتلقاها بالقبول ، وأكرمهما ، وأصبح الحمدانيون جماعتين : جماعة بزعامة حمدان وإبراهيم يساعدهما بختيار ، وجماعة بزعامة أبي تغلب وأخيه الحسين . (١)

صفا الجولاني تغلب بعد أن أحل الهزيمة بأخيه حمدان ، فاستولى على حران (٣٥٩ هـ) ، ولكنه عجز عن الوقوف في وجه الروم ، الذين أغاروا على الرها ووصلوا إلى نصيبين وديار بكر . وعلى الرغم من حالة الضعف التي سادت بين أفراد البيت الحمداني ، كان أبو تغلب ، كأبيه ناصر الدولة ، بنفس على البويهيين ازدياد نفوذهم ، ويعمل على إزالة سلطتهم من العراق . فلما قصد بختيار بلاد الموصل لمساعدة حمدان على أخيه أبي تغلب ، انتهز هذا فرصة لإبتعاد بختيار عن بغداد وخلوها من جنده ، وقصدها ، وكاد يستولى عليها . وتآمر على سبكتكين قائد بختيار على القبض على الخليفة والوزير ، وعلى أم بختيار ، تم التفرغ للقضاء عليهما في الموصل وأخذ السلطنة منه . وقد خشى بختيار بأس هذا المنافس ، وعمل على مصالحته ، فأجابه خوفا وتحالفا ، على أن يضمن أبو تغلب البلاد على ما كانت معه ، وعلى أن يطلق لبختيار ثلاثة آلاف كرغلة عوضا عن مؤنة سفره ، وعلى أن يرد على أخيه حمدان أملاكه وإقطاعه إلا ماردين . . . وأن يلقب (أبو تغلب) لقبيا سلطانيا ، وأن يسلم إليه زوجته ابنة بختيار . ولكن الحرب تجددت بينهما ، وانتهت بإقرار هذا الصلح في سنة ٣٦٣ هـ . (٢)

وإن هذه الحرب التي قامت بين أبي تغلب بن ناصر الدولة الحمداني وبين عضد الدولة بن ركن الدولة البويهى ، لتبين لنا مدى المنافسة بين أبناء ناصر الدولة . فإن بختيار لما خرج من بغداد في سنة ٣٦٧ هـ ، حسن له حمدان بن ناصر الدولة فتح الموصل التي كانت بيد أخيه أبي تغلب وأطمعه فيها . ولكن أبا تغلب طلب من بختيار أن يسلمه أخاه حمدان ، مقابل مساعدته له على ابن عمه عضد الدولة ، وطرده من بلاد العراق ، على الرغم من صلة المودة التي كانت تربط أبا تغلب بعضد الدولة . ولكن الهزيمة حلت ببختيار وحليفه ، فلم ينس عضد الدولة لأبي تغلب هذا العمل ، فاستولى على الموصل وديار ربيعة وميفارقين وآمد وديار ربيعة وديار مضر في سنتي ٣٦٧ ، ٣٦٨ هـ . وقد أراد أبو تغلب أن يتبع مع عضد الدولة سياسة كسب الوقت كما يقولون ، بأن يطلب منه الصلح ، فإذا طال به المقام في بلاد الحمدانيين ، فكر في الانتقال إلى بغداد ، وبذلك تناح لأبي تغلب الفرصة لاستردادها . ولكن عضد الدولة كان أحزم من ذلك ، فإنه لما قصد الموصل ، حمل معه الميرة والعلوفات ومن يعرف ولاية الموصل وأعمالها ، وأقام بالموصل مطمئنا ، وبث السرايا في طلب أبي تغلب ، فأرسل أبو تغلب يطلب أن يضمّن البلاد ، فلم يجبه عضد الدولة إلى ذلك وقال : هذه البلاد أحب إلى من العراق . (٣)

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢١٣ - ٢١٤ .

(٢) المصدر نفسه ج ٨ ص ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ - ٢٢٨ .

(٣) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٣٦ - ٢٣٧ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٠ - ٢٥٣ .

انظر هذا الكتاب ص ١١٠ - ١١١ .

ولما خرجت هذه أئبلاد من يد أبي تغلب الحمداني، عول على قصد دمشق واتخاذها مركزاً لولايته، فامتعت عليه، فلجأ إلى الفاطميين في مصر، وطلب منه الخليفة العزيز بالله الفاطمي القدوم إلى القاهرة لإمداده بالمال والرجال، فلم يقبل، خشية أن يكون في هذا خديعة لفتك به؛ ورحل إلى طبرية وتبذلت الرسل بينهما. وقد خرج في ذلك الوقت دغفل بن مفرج الطائي أمير الرملة من قبيل العزيز بالله الفاطمي، وقاد الطائين وعمل على طرد العنقيليين من الشام، ولجأ هؤلاء إلى أبي تغلب بن ناصر الدولة وطلبوا منه المعونة، لكنه اعتذر عن إجابة طلبهم حتى لا يثير حنق الخليفة الفاطمي عليه، بل توسط بينهم وبين هذا الخليفة، وخشى دغفل بن مفرج، والفضل بن صالح - وكان قد أرسله العزيز على رأس جيش لقمع الثورة في دمشق - خطر أبي تغلب وحارباه هو وبني عقيل، وأحلا به الهزيمة وقتلاه، وذلك في شهر صفر سنة ٣٦٩ هـ (١).

على أن الحمدانيين استعادوا الموصل ومايلها في سنة ٣٧٩ هـ على يد أبي طاهر إبراهيم بن ناصر الدولة، وأخيه أبي عبد الله الحسين، وذلك لأنه لما توفي شرف الدولة، شرع أبو طاهر إبراهيم وأبو عبد الله الحسين ابنا حمدان في الخروج إلى الموصل واستأذنا في ذلك، فوجدا رخصة انتهزا بها الفرصة، فأصعدا بأهلها أجمعين. وعلم من بالحضرة وقوع الغلط في إصعادهما، فكوتب أبو نصر خواشاة بدفعهما وردهما. فلما وصلا إلى الحديثة راسلها أبو نصر بالرجوع من حيث جاءا، فهما إن خالفاه ودخلا البلد قبض عليهما، فأجابه جواباً جميلاً يبذل الطاعة وقبول ما يؤمران به، وعاد الرسول، وسارا على إثره حتى نزلا بالدير الأعلى. وثار أهل الموصل على الديلم والأتراك، فهبوا أرحلهم وأخذوا أموالهم، وخرجوا إلى ابني حمدان وأظهروا المباينة والعصيان. فأنفذ أبو نصر من كان معه من العسكر لقتالهم، فقامت الحرب بينهم إلى العصر، ثم انهزم أصحاب السلطان وهلك منهم عدد كثير قتلاً وغرقاً، ولحق الباقون بأبي نصر، فاعتصموا بدار الإمارة التي هو نازل فيها، وتبعهم ابنا حمدان والعامه، فغلبت الأبواب دونهم، واستوعب القتال بقية النهار، ثم حجز الليل بينهم، وعاد ابنا حمدان إلى مدينتهما، (٢).

لم يبق الحمدانيون بعد استيلائهم على الموصل سنة ٣٧٩ هـ أكثر من سنة، فقد طمع الأكراد في إزالة دولتهم. وعلى الرغم من قتل باذالكردى أحد زعمائهم، تمكن ابن اخته أبو علي بن مروان من الانتصار على أبي عبد الله الحسين أخى أبي تغلب بن ناصر الدولة الحمداني، وإرساله إلى مصر في سنة ٣٨٠ هـ بشفاعة الخليفة العزيز بالله الفاطمي.

وقتل أبو الزواد محمد بن المسيب أمير بني عقيل أبا طاهر بن ناصر الدولة الحمداني، واستولى على الموصل في هذه السنة، فأقره بهاء الدولة البويهي عليها. وبذلك زال سلطان الحمدانيين نهائياً من

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٤١

(٢) أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم ج ٣ ص ١٧٤ - ١٧٥

الموصل وما يليها ، وحلت محلها دولة العقيليين (١) ، حيث استولى أبو ذؤاد محمد من الحمدانيين في سنة ٣٧٩ هـ على مدينتي نصيبين وبلد ، وضم إليهما الموصل في السنة التالية ، ولكنه طرد منها على أيدي بني بويه في سنة ٣٨١ هـ إلى أن استولى أخوه المقلد بن المسيب العقيلي على الموصل في سنة ٣٨٦ هـ (٢٩٩٦ م) ، وأقره بها الدولة البويهية على هذه البلاد وما يليها (٢) .

٢ - في حاب

سيف الدولة (٣٣٣ - ٣٥٦ هـ)

ذكرنا أن الخليفة المتقي لقب الحسن بن أبي الهيثم عبد الله بن حمدان ناصر الدولة ، ولقب أخاه عليا سيف الدولة في شهر شعبان سنة ٣٣٠ هـ ، وأن سيف الدولة أصبح الساعد الأيمن لأخيه ناصر الدولة في حروبه مع البريديين والأتراك ؛ فزاه يستولى على مدينة واسط من البريديين ويعمل على ضم البصرة إليه ، ولكنه لا يستطيع لقله المال عنده بيد أن علاقة المودة التي كانت تربط الحمدانيين بالأتراك وعلى رأسهم توزون ، لم تلبث أن تبدلت ؛ وثار الأتراك على سيف الدولة بواسطة فهرج من معسكره إلى بغداد ، ثم لحق بأخيه ناصر الدولة الذي كان يلي إمرة الأمراء ، وأرغم أمام ثورات الأتراك على المسير إلى الموصل . وانهز سيف الدولة فرصة النزاع الذي قام في واسط بين الأتراك وعلى رأسهم توزون ، وعول على أخذ بغداد ، وساعده الخليفة المتقي سرا ، ولكن سيف الدولة لم يستطع البقاء في بغداد التي استولى عليها توزون .

سار سيف الدولة الحمداني إلى حلب سنة ٣٣٣ هـ فملكها (٣) ، وهرب إلى مصر يانس المؤنسي الخنصسي ، الذي وليها من قبيل الإخشيد ، فأرسل الإخشيد ، جيشا لمحاربه بقيادة كافور ومعه يانس ، فتقابلوا مع الحمدانيين عند الرستن الواقعة على نهر العاصي الذي يمر بالقرب من حماه ، فحلت الهزيمة بالمصريين ، وأسر منهم أربعة آلاف ، عدا القتلى والغرقى .

وتقدم سيف الدولة يريد دمشق ؛ فسار إليه الإخشيد بنفسه في جيش كثيف ، هزمه الحمدانيون في فنتسرين . على أن الإخشيد انتهز فرصة انشغال العدو بجمع الغنائم واقتسامها ، فأطلق عشرة آلاف من صناديد جنده ، فبددوا شمل العدو . ودخل الإخشيد حلب حاضرة الحمدانيين واسترد دمشق . إلا أنه - على الرغم من انتصاره - تصالح مع الحمدانيين ، على أن يترك لهم حلب وما يليها من بلاد الشام شمالا ، وتعهد بأن يدفع لهم جزية سنوية كغناء احتفاظه بدمشق (٤) .

(١) أبو شعاع : ذيل كتاب تجارب الأمم ج ٣ ص ١٧٨ - ١٧٩ .

(٢) Stately Lane Poole : Muhammadan Dynasties, pp. 116-7 .

(٣) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٣٦٦) أن أول من ملك حلب من بني بويه هو الحسين بن سعيد أخو أبي فراس الحمداني الشاعر المشهور ، وذلك في شهر رجب سنة ٣٣٢ هـ .

(٤) أبو المحاسن . ج ٣ ص ٢٧٨ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ . انظر أيضا ابن الأثير ج ٨ ص ١٥٩ - ١٦٠ .

حسن إبراهيم حسن : مجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول ، المجلد السادس - مايو سنة ١٩٤٢ ص ٢٩ .



ولعل الإخشيد كان يرمى من وراء إبرام الصلح على هذه الصورة ، أن يُسبى الدولة الحمدانية حصنا منيعا يسكفيه مؤونة محاربة البيزنطيين ، الذين كانوا لا يفترون عن مهاجمة الولايات الإسلامية المناخة لبلادهم ، والذين أغاروا سنة ٣٣١ هـ على أرزن وميسافارقين ونصيبين ، فقتلوا وسبوا كثيرا من المسلمين ، ثم دخلوا في السنة التالية [ ٣٣٢ هـ ] رأس العين ، المدينة الكبيرة المشهورة في بلاد الجزيرة ، بين حرّان ونصيبين ، في ثمانين ألفا ، فقتلوا وسبوا خلقا عظيما من المسلمين .

ولكن هذا الصلح لم يطل ، فإن الإخشيد لما مات في سنة ٣٣٤ هـ ، وتولى كافور الوصاية على ابنه أنى الحسن على ، طمع سيف الدولة الحمداني في امتلاك دمشق ، فاستولى عليها في هذه السنة . ولما علم كافور ، خرج من مصر قاصدا بلاد الشام ، فعول سيف الدولة على المسير إلى الرملة لغزو مصر ، فحاربه كافور والحسن بن عبيد الله بن طغج أخى محمد بن طغج الإخشيد ، وانتصرا عليه في اللجون ببلاد الأردن ، وتبعد عن طبرية بنحو عشرين ميلا وعن الرملة بنحو أربعين ميلا ، ثم انتصرا عليه انتصارا حاسما بالقرب من مرج عذرا بجوار دمشق . ودخل الجيش المصرى مدينة حلب ، وغنم الغنائم الوفيرة ، وعقدت بين الفريقين معاهدة الصلح ، بنفس الشروط التي عقدت بها في أواخر أيام الإخشيد ، ماعد الجزية فقد وقف دفعها (١) .

وسرعان ما أخذ نفوذ سيف الدولة يزداد ، حتى إن معز الدولة بن بويه قبل توسطه لديه في شأن أخيه ناصر الدولة ؛ فأبرم الصلح معه ، على أن يضمن سيف الدولة أداء الأموال التي يجب على أخيه ناصر الدولة أدائها لبيت المال ببغداد .

وقد امتاز عهد سيف الدولة بكثرة حروبه مع البيزنطيين ، حتى قيل إنه غزا بلادهم المجاورة لبلادهم أربعين غزوة ، انتصر في بعضها وحلت به الهزيمة في بعض آخر . وكان كثير من البلاد الإسلامية مسرحا للحروب التي دارت بين الحمدانيين والروم في ذلك العصر . ويقول الثعالبي (٢) : « ويقال إن سيف الدولة غزا الروم أربعين غزوة له وعليه ، فنها أنه أغار على زبطرة وعرفة وماطبة ونواحيها ، فقتل وأحرق وسبي ، وانتفى قافلا إلى درب مؤزار ، فوجد عليه قسطنطين بن فردس الدمستق ، فأوقع به ، وقتل صناديد رجاله ، وعقب إلى بلدانه ، وقد تراجع من هرب منها ، فأعظم القتل وأكثر الغنائم . وقد عبر الفرات إلى بلد الروم ، ولم يفعله أحد قبله ، حتى أغار على بطن هنريط ؛ فلبارأى فردس بتعد مفزاه وخلق بلاد الشام منه ، غزا نواحي أنطاكية ، فأسرى سيف الدولة يطوى المراحل ، لا ينتظر متأخرا ولا يلوى على متقدم ، حتى عارضه بمرعش . فأوقع به وهزمه ، وقتل رهوس البطارقة ، وأسر قسطنطين بن الدمستق . وأصاب الدمستق ضربة في وجهه ، وأكثر الشعراء في هذه الواقعة فقال أبو فراس الحمداني :

(٢) يتيمة الدهر ج ١ ص ٢١ - ٢٣

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٦٤

وأب بقسطنطين وهو مكبل تحف بطاريق<sup>(١)</sup> به وزرزر  
وولى على الرسم الديمستق هاربا وفى وجهه عذر من السيف عاذر  
فدى نفسه بآبن عليه كنفسه وللشدة الصماء تقنى الذخائر  
وقد يقطع العضو النفيس لغيره وتدفع بالأمر الكبير الكبائر

وسار سيف الدولة لبناء الحدت، وهى قلعة عظيمة الشأن؛ فاشتد ذلك على ملك الروم، لجمع  
عظما. أهل ملكته، وجهرهم بالصليب الأعظم، وعليهم فردس الديمستق نائراً بآبنه قسطنطين فى عدد  
لا يحصى، حتى أحاطوا بعسكر سيف الدولة، والتهبت الحرب واشتد الخطب وساءت ظنون المسلمين.  
ثم أنزل الله نصره، فحمل سيف الدولة يخرق الصفوف طلباً للدمستق، فولى هاربا، وأسر صهره وآبن  
بنته، وقتل خلق كثير من الروم. وأكثر الشعراء فى هذه الواقعة، فقال أبو الطيب المنفى وذكر الحدت:

بناها على والقنا تفرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم  
وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن جثت القتلى عليها تمام  
تفتت الليالى كل شىء أخذته وهن لما يأخذن منك غوارم،

وقد ازدهر عهد سيف الدولة بطائفة من مشاهير العلماء والكتاب والشعراء، كأبى الفتح عثمان بن  
جنى النحوى، وأبى الطيب المنفى. واشتهر كثير من أمراء الحمدانيين بالشعر، كأبى فراس الحمدانى بن  
عم سيف الدولة، وآبن أخيه الحسين بن ناصر الدولة. وكان سيف الدولة نفسه شاعراً يجيد الشعر؛  
فن شعره الذى يعبر فيه عن وفاته لأخيه ناصر الدولة قوله:

وهبت لك العليا وقد كنت أهلها وقلت لهم بينى وبين أخى فرق  
وما كان لى عنها نكول وإنما تجاوزت عن حقى قم لك الحق  
أما كنت رضى أن أكون مصليا إذا كنت أرضى أن يكون لك السبق<sup>(٢)</sup>

وقد وصف الثعالبي<sup>(٣)</sup> سيف الدولة وما بلغته الدولة الحمدانية فى عهده فى هذه العبارة فقال:  
«كان بنو حمدان ملوكا وأمراء، أوجههم للصباحه، وأسنتهم للقصاحه، وأيديهم للسماحة،  
وعقولهم للرجاحه. وسيف الدولة مشهور بسيادتهم، وواسطة قلاذتهم. وكان ... غرة الزمان وعماد  
الإسلام، ومن به سداد الثغور وسداد الأمور. وكانت وقاته فى عصاة العرب تسكف بأسها وتنزع  
لباسها، ويقل أنيابها وتذل صعابها، وتسكى الرعية سوء آدابها. وغزواته تدرك من طاغية الروم  
الثار، وتحمس شرم المثار، وتحسن فى الإسلام الآثار. وحضرته مقصد الوفود ومطلع الجود،  
وقبله الآمال، ومحط الرجال، وموسم الأدباء وحلبة<sup>(٤)</sup> الشعراء. ويقال إنه لم يجتمع قط بيباب  
أحد من الملوك بعد الخلفاء. ما اجتمع بيبابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر. وإنما السلطان سوق يجلب

(١) جمع زرزر وهو البطريق (٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٨ (٣) بئمة الدهر ج ١ ص ١١-١٢

(٤) الحلبة الخيل تجتمع للسباق من كل أوب ولا تخرج من مكان واحد.

إليها ما يفتق لديها . وكان أديبا شاعرا مجا لجيد الشعر ، شديد الاهتزاز لما يمدح به . . . وكان كل من  
أبي محمد بن عبد الله بن محمد القاضي الكاتب ، وأبي الحسن علي بن محمد الشمشاطي قد اختار من مدائح  
الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت كقول أبي الطيب المتنبي :

خليلي إني لا أرى غيرَ شاعرٍ فسلمَ منهم الدعوى ومنى القصائدُ  
فلا تعجبا إن السيوف كثيرةٌ ولكنَّ سيفَ الدولة اليوم واحد  
نهبت من الأعمار ما لو حوته هنتت الدنيا بأنك خالد  
فأنت حسام الملك والله ضارب وأنت لواء الدين والله عاقد

توفي سيف الدولة بحلب في شهر صفر سنة ٣٥٦ هـ ، ونقل إلى ميثاقارين ، بعد أن ملك ثلاثا  
وعشرين سنة ، وتولى بعده ابنه سعد الدولة أبو المعالي شريف .

### سعد الدولة (٣٥٦ - ٣٨١ هـ) :

وفي عهد سعد الدولة بدأ الضعف يدب في جسم الحمدانيين في حلب . فقد قتل خاله أبا فراس  
ابن أبي العلاء سعيد بن حمدان ، الشاعر المشهور ( سنة ٣٥٧ هـ ) (١) ، وثار عليه قرعويه  
غلام أبيه سيف الدولة . واستولى على حلب ، وحال دون دخوله إليها ، وأقام فيها نحو ست  
سنين (٢) . وفسار أبو المعالي إلى حران ، فنعاه أهلها من الدخول إليهم ، فطلب منهم أن يأذنوا  
لأصحابه أن يدخلوا يتزودوا منها يومين ، فأذنتوا لهم ، ودخل إلى والدته بميثاقارين ، وهي ابنة سعيد  
ابن حمدان ، وتفرقت عنه أكثر أصحابه ، ومضوا إلى أبي تغلب بن حمدان . فلما وصل إلى والدته ، بلغها  
أن غلامه وكتابه قد عملا على القبض عليها وحبسها كما فعل أبو تغلب بأبيه ناصر الدولة ، فأغلقت  
أبواب المدينة ، ومنعت ابنها من دخولها ثلاثة أيام ، حتى أبعدت من تحب إبعاده ، واستوثقت لنفسها ،  
وأذنت له ولبن بقي معه في دخول البلد ، وأطلقت لهم الأرزاق . وبقيت حران لأمير عليها ،  
ولكن الخطبة فيها لأبي المعالي بن سيف الدولة ، وفيها جماعة من مقدمي أهلها يحكمون فيها ويصلحون  
من أمور الناس . ثم إن أبا المعالي عبر الفرات إلى الشام وقصد حماه فأقام بها ، (٣) .

سار سعد الدولة بعد ذلك إلى حمص ، وشرع في عمارتها وتحصينها ، وكان الروم قد عاثوا فيها حين  
أغاروا عليها في سنة ٣٥٨ هـ . وتم الصلح بينه وبين قرعويه سنة ٣٥٩ هـ ، وخطب له على منابر حلب .  
ولكنه آثر البقاء بحمص وناصر الفاطميين ، فخطب للخليفة المعز لدين الله (٤) . ويقول ابن القلانسي (٥)  
إن قرعويه أناب غلامه بكجور في ولاية حلب ، وإن فريقا من جند قرعويه كاتبوا سعد الدولة ووعدوه  
العون على استرداد حلب ؛ فجمع جيشا من العرب من بني كلاب وغيرهم ، وبمم شطر هذه المدينة  
وحاصرها أربعة أشهر ، وولى بكجور حمص بعد أن تعهد له بتسليم قلعة حلب إليه (٣٦٦ هـ) .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧

(٤) المصدر نفسه ج ٨ ص ٢١٩ - ٢٢٠

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢١١

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٢١٥

(٥) ص ٢٧ - ٢٨

على أن النزاع لم يلبث أن قام بين بكجور وسعد الدولة الذي عزله عن حمص ، فكتب إلى العزيز بالله الفاطمي (٣٦٥ - ٣٨٦هـ) يطلب إليه أن يوليّه دمشق ، وينفذ إليه جيشا يستولى به على حلب . ويقول ابن القلانسي<sup>(١)</sup> إن العزيز كتب إلى بلشكين وإلى هذه المدينة وإلى منشا بن إبراهيم الفرار كاتب الجيش ، يأمرها بتسليمها إلى بكجور ( سنة ٣٧٢ هـ ) ، كما أرسل إليه بعض عسكر دمشق لمساعدته على فتح حلب ؛ فسار إليها وحاصرها مدة ، ولكنه اضطر إلى الارتداد عنها أمام ضغط الروم . وخاف سعد الدولة استيلاء بكجور عليها ، فاستعان بالروم الذين استولوا على حمص سنة ٣٧٣ هـ .

دخل بكجور دمشق في السابع من شهر رجب سنة ٣٧٣ هـ ، وسامت العلاقة بينه وبين يعقوب ابن كلس وزير الخليفة العزيز ، الذي كان يضمّر له العداوة ويحول دون تحقيق أغراضه ، واشتد حقد يعقوب عليه بعد أن قتل نائبه في ضياعه بدمشق ، وعمل على قتله . ولما كشف بكجور سر هذه المؤامرة ، نكل بأتباع ابن كلس وقتلهم وصلبهم (رمضان سنة ٣٧٧ هـ) . وشرع بكجور في أذية الناس من أصحاب الوزير في ضياعه ، وجار في البلد جورا عظيما ، ولم يخل (أحد) من القتل والصلب والفتك . فجرد (العزيز) إليه في سنة ٣٧٨ هـ القائد منيرا الخادم في عسكر كثيف ، وأصدرت الكتب إلى ولاية الأعمال بالمسير معه . ولما عرف بكجور ذلك أنفذ إلى العرب ، وحشدوا واستقبل العسكر ؛ فالتقيا وصدقوا القتال ، وكثر في بني كلاب الطعن والجراح . . . فرجعوا ومن معهم من أصحاب بكجور خاسرين مغلولين . فخاف بكجور على نفسه أن يؤخذ ، فراسلهم بأنه يسلم البلد ويرحل عنه . . . وتوجه بكجور إلى الرقة . ثم طلب من سعد الدولة أن يرده إلى ولاية حمص ، فأجابه إلى ذلك ( سنة ٣٧٩ هـ ) ؛ ولكنه لم يستطع الاستقرار فيها ، وسامت علاقته بالفاطميين وبسعد الدولة ، فلجأ إلى بهاء الدولة بن بويه فلم يظفر بشيء . مات يعقوب بن كلس في شهر ذي الحجة سنة ٣٨٠ هـ ، وتقلد الوزارة بعد قليل عيسى بن نسطورس ، وكان نصرانيا من أقباط مصر ، فخافه بكجور كما خاف يعقوب بن كلس من قبل . وأرسل إلى الخليفة العزيز ، يذكر له جلالة حلب وكثرة ارتفاقها ، وأنها دهليز العراق ، وإذا حصلت له كان ما بعدها في يده ، وأن العسكر الذي بها قد كاتبه وبذل الطاعة له والمساعدة ، ويستدعي منه الإنجاز والمعونة . فأجابه ( يعني العزيز ) بكل ما أراد ، وكتب إلى نزال وإلى طرابلس بالمسير إليه متى استدعاه من غير استئذان ولا معاودة استتار . وكان نزال هذا من وجوه قواده وصنائع عيسى الوزير وخواصه ، فكتب إليه عيسى سرا بأن يتقاعد ببكجور ، ويظهر<sup>(٢)</sup> له المساعدة والمساعدة ، ويستعمل معه التعليل والمدافعة . فإذا تورط مع مولاة وقاربه تأخر عنه وأسلمه ،<sup>(٣)</sup> .

تقدّم نزال أوامر عيسى بن نسطورس ، وتخلف عن اللحاق ببكجور الذي وصل إلى حلب . وعلم أبو المعالي سعد الدولة الحمداني بما يراد به ، فكتب بإسبيل الثاني Basil II امبراطور الروم

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠ - ٣١

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣ - ٣٤

(٣) ويظهر في الأصل

(٣٥٢ - ٤١٦ = ٥٦٣ - ١٠٢٥ م) ، وأعله خروج بكجور عليه ، وطلب إليه أن يأمر  
والى انطاكية بمعوثته (١) . ووقعت الحرب بين بكجور ، يساعده المغاربة والعرب ، وبين سعد  
الدولة ، يساعده الروم والأرمن والديلم والأتراك وخمسائة من صناديد العرب من بني كلاب .  
وهكذا وقع النزاع بين الحمدانيين وبين قوادهم ، وقامت الحروب الأهلية بينهم ، وأصبح سعد الدولة  
يستعين بالروم ، وغدا غلامه بكجور يستعين بالفاطميين . وكان لسعد الدولة وبكجور الغم وللروم  
والفاطميين الغم . عرف ذلك سعد الدولة ، فأراد أن يوحد الصفوف بين جند الحمدانيين جميعا ، وأثر  
سياسة اللين والمسالمة على سياسة النزاع والحرب ، فكتب إلى بكجور بدعوه إلى رعاية حق الرق  
والولاء ، وطلب إليه الكف عن مناجزته ومناواته ، وبعد باقطاعه الأراضى الممتدة بين حمص والرقه ،  
فلم يزد بكجور إلا غرورا ، وأبى إلا القتال ، ودارت رحى الحرب ووقعت الدائرة عليه (٢) . وقد  
عزا ابن القلانسي (٣) هزيمة بكجور إلى بخله وانتصار سعد الدولة إلى جوده وكرمه وميل العرب إليه  
فقال : « وكان الفارس من أصحاب سعد الدولة إذا عاد إليه وطعن وجرح ، خلع عليه وأحسن إليه .  
وكان بكجور بضد ذلك بخلا ، وإذا عاد إليه رجل على هذه الحال ، أمر بأن يكتب اسمه لينظر مستأنفا  
في أمره . وقد كان سعد الدولة كاتب العرب الذين مع بكجور ، وأمنهم وأرغهم ، ووعدهم الإقطاعات  
الكثيرة والمطايا الفاضلة الفائضة ، وألا يؤاخذهم بالانحياز إلى بكجور والحصول معه . فلما حصلت  
أماناته وتوقيعاته في أيديهم ، عطفوا على سواد بكجور فتهبوه وانصرفوا عنه واستأنوا إلى سعد الدولة  
ونزلوا عليه . ورأى بكجور ماتم عليه من تقاعد نزال وغدر العرب ، وتأخر غلمان سعد الدولة الذين  
كانوا كاتبوه ووعدوه الانحياز إليه إذا عابوه ؟ فاستدعى أبا الحسن كاتبه المعروف بابن المغربي وقال  
له : غدرتني وأوهمتني أن العزيز يجيئني ويعاونني ، وأن العرب تخلص لي وتناصحني ، وأن العرب  
توافيني ويستأنون إلي ، وما كان شيء من ذلك حقيقة ،

هرب أبو الحسن بن المغربي خوفا من بطش بكجور به ، وتسلسل أحد جنده إلى لؤاؤ الجراحي غلام  
سعد الدولة ، وأعله أن بكجور عزم على قتل مولاه ، ليوقع الاضطراب بين جنده ويضعف الروح  
المعنوى في رجاله . وأخذ لؤاؤ على عاتقه إحباط هذه المحاولة الجريرة ، وحل محل سعد الدولة في  
ميدان القتال . وعلى الرغم مما لحقه من جراح ، لحقت الهزيمة ببكجور وحاول الهرب ، ولكنه لم  
يلبث أن قبض عليه (٤) . ويرجع السبب في القبض على بكجور وقله ، إلى ما اشتهر به من بخل ونكث  
بالمهد ، وما عرف به سعد الدولة من كرم ووفاء . وعلى الرغم من أن بكجور استأن إلى أحد البدو ،  
وطلب منه أن يحمله إلى الرقة ، ومناه الأمانى الطيبة ، ووعدته بأن يوقر بعيره ذهبا وأن يقدق عليه ، لم  
يظمن هذا البدوى إلى وعوده ودل لؤاؤا عليه . وفي ذلك يقول ابن القلانسي (٥) :

A. A. Vasil'Ev. : Cambridge Mediaeval History, vol. IV. p. 149 (١)

(٣) المصدر نفسه ص ٣٥

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤ - ٣٥

(٥) ص ٣٧ - ٣٨

(٤) المصدر نفسه ص ٣٥ - ٣٦

وكان سعد الدولة قد بث الخيل في طلب بكجور ونادى : من أحضر بكجور فله مطلبه . فلما حصل بكجور في بيت البدوى ، ساطنه به وطمع فيما كان سعد الدولة بذله فيه ، واستشار ابن عم له في أمره فقال له : هو رجل بخيل ، فربما غدر ولم يف بوعده . والصواب أن تقصد سعد الدولة وتأخذ منه عاجلا ما يعطيك ؛ فركب البدوى إلى عسكر سعد الدولة وصاح : نصيحة ! فأحضر إلى حضرته ، فقال له : مانصيحتك ؟ قال : ماجزاء من يسلم بكجور ؟ قال : حكه . قال : فهو عندي ، وأريد ما تقي فدان زراعة ، ومائة ألف درهم ، ومائة راحلة تحمل حنطة ، وخمسين قطعة ثيابا . قال سعد الدولة : وكل ذلك لك . قال : وثق لى منه . وعرف لؤلؤ الجراحى خبر البدوى ، فتجامل وهو مشخن بالضربة التى أصابته ، ومشى متوكئا على غلبانه حتى حضر بين يدى سعد الدولة فقال : يا مولاي ! ما يقول هذا ؟ قال : يقول إن بكجور عنده ، وقد طلب ما أجبناه إليه ، وهو ماض لإحضاره . فقبض لؤلؤ على يد البدوى وقال له : أين أهلك ؟ قال : فى المرج على فرسخ ، فاستدعى جماعة من الغلمان ، وقدم عليهم إقبالا الشفيعى ، وأمرهم أن يرتقوا رموس الجبال ، حتى يوافقوا الحيلة ويقبضوا على بكجور ويحملوه ، وهو قابض على يده ، والبدوى يستغيث بسعد الدولة . ثم تقدم إلى سعد الدولة وقال : يا مولانا ! لا تنكر على فعلى ، فإنه كان منى عن استظهار فى خدمتك . ولو عاد هذا البدوى إلى أهله ، وأحس بكجور بما فيه ، لأعطاه الرغائب على تخليصه ، ولا نأمن أن يقبل ذلك منه . والذى طلبه هذا البدوى مبدول له ، وما ضرنا الاحتياط فى التمسك به إلى أن يوافقنا ، فنعطيه حيثنذ ونفى له بما وعدنا ؟ فقال : أحسنت يا أبا محمد ، لله درك ! ولم يمض ساعات حتى عادت النجب مبشرة بمحصول بكجور ، ووفى بعدها إقبال الشفيعى وهو معه ، فوقف به من وراء السراىق ، واستأذنه فى إدخاله إليه . وأنفذ سعد الدولة إلى لؤلؤ وقال له : مارأيتك فى بكجور ؟ قال : ضرب عنقه لوقته ، لو جاءت سناء الزينة ست الناس (بمعنى أخت سعد الدولة) واستوهبتك فوهبت لها ، لكان لنا شغل مجدّد . فأمر سعد الدولة فرجا العدى ، فكان سيافه ، فضرب عنقه .

لما صفا الجوسعد الدولة الحمدانى ، وأمن شر بكجور ، سار إلى الرقة ، وكان بها أبو الحسن بن المغربى ، الذى كان قد هرب إلى الكوفة خوفاً من بطش بكجور كما تقدم ، كما كان بها أولاد بكجور ، الذين آلت أمواهم إلى سعد الدولة بعد قتل أبيهم . وقد كتب هؤلاء إلى الخليفة العزيز بالله الفاطمى يسألونه التدخل لدى سعد الدولة رجاء الكف عن أذاهم ، فكتب إليه العزيز كتاباً يتوعده فيه ويأمره بإنقاذهم إلى مصر . ولما وصل هذا الكتاب إلى سعد الدولة ، وكان قد بلغ ظاهر حلب ، أساء معاملة رسول الخليفة الفاطمى ، حتى إنه لطمه وأرغمه على أن يأكله . فلما مضى ، قال له سعد الدولة : عد الى صاحبك وقل له : لست ممن تخفى أخبارك عنه وتوهم أنك عليه ؛ وما بك حاجة إلى تجهيز العساكر إلى ، فأتى سائر إليك ليكون اللقاء قريباً منك ، وخبرى يأتىك من الرملة . ثم أخذ سعد الدولة يعد العدة ، لولا أن عرضت له علته التى مات منها فى سنة ٣٨١ هـ ، فحمل تابوته إلى الرقة ودفن بها (١)

سعيد الدولة أبو الفضائل (٣٨١ - ٣٩٢ هـ) :

تولى سعيد الدولة بعد وفاة أبيه بعد الدولة ، وكان قد عهد إليه وهو في مرضه الأخير ، وأوصى لؤلؤاً الخادم به وبابنه الآخر أبي الهيجاء وبأخته ست الناس . وقد أخذ لؤلؤ البيعة لسعيد الدولة الذي امتاز عهده بوقوع عدة مواقع بين جيوش الحمدانيين وجيوش الفاطميين ، الذين طمعوا في الاستيلاء على حلب والشام لما لحق بهم من إهانة رسول الخليفة العزيز . وكان أبو الحسن بن المغربي قد كتب من الكوفة إلى العزيز يهون عليه فتح حلب : فأرسل جيشاً بقيادة منجوتكين الذي دخل دمشق ، حيث أخذ يعد العدة للاستيلاء على حلب من أبي الفضائل سعيد الدولة ولؤلؤ ، اللذين استعاننا بياسيل الثاني إمبراطور الروم . وعلى الرغم من انتصار منجوتكين على الروم ومطاردتهم إلى أنطاكية وإحراق ضياعها ، لم يتمكن من أخذ حلب بسبب قلة الأوقات ، وارتد إلى دمشق ، فأرسل الخليفة العزيز الجيوش لحصار حلب من جديد ، واستنجد لؤلؤ بياسيل إمبراطور الروم ، وكان مشغولاً بحرب البلغار ، ليحول دون وقوع حلب في أيدي الفاطميين ولحاق أنطاكية بها ، فسار ياسيل بنفسه واستولى على حمص وشيزر وطرابلس ، وعاد منجوتكين إلى دمشق ، وعاد ياسيل إلى بلاده (١) . وعظم ذلك على الخليفة العزيز ، فخرج بنفسه لفتح حلب ، ولكنه مات في بلبس سنة ٣٨٦ هـ (٢) . ولم يكسد سعد الدولة يتخلص من شر بكجور ، حتى وقع ابنه سعيد الدولة في شر لؤلؤ الذي آلت إليه الوصاية عليه ، فطمع في ولايته وقتله هو وابنته ، وكان قد تزوج منها ، ثم ملك الدولة الحمدانية باسم ولدي سعيد الدولة : أبي الحسن علي ، وأبي المعالي شريف ، ولم يلبث أن أرسلهما مع سائر أفراد البيت الحمداني إلى القاهرة ، وجعل ابنه منصوراً ولياً على الدولة (سنة ٣٩٤ هـ) . ومات لؤلؤ بعد أن تقدمت به السن (سنة ٣٩٩ هـ = ١٠٠٨ م) ، خلفه ابنه منصور الذي لقبه الخليفة الحاكم الفاطمي (٣٨٦ - ٤١١ هـ) بمرضى الدولة ، واعترف بسلطان الخليفة الفاطمي ، وذكر اسمه في الخطبة . ويمكن أن يقال إن نفوذ الفاطميين امتد إلى حلب منذ ذلك الحين ، ولكنه قد توطد بعد أن قام النزاع بين مرضى الدولة وبين الفتح غلام أبيه ، الذي انضم إلى جانب الحاكم الفاطمي ، فأقطعه صيدا وصور وبيروت ، واقبه ومبارك الدولة وسعدها ، واستمر على حكم حلب من قبل الحاكم (٣) . وبذلك قضى الفاطميون في عهد الحاكم علي حكم الحمدانيين في حلب .

(١) Vasil' Ev. : Cambridge Mediaeval History, vol. IV. p. 149

(٢) ابن القلانسي : ص ٤٣ - ٤٤ .

(٣) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٥٦ ، ٢٥٨ .

## الدولة الطولونية

( في مصر والشام )

٢٥٤ - ٢٩٢ هـ = ٨٦٨ - ٩٠٥ م

الطولونيون

هجري	ميلادية	
٢٥٤	٨٦٨	( ١ ) أحمد بن طولون
٢٧٠	٨٨٣	( ٢ ) خمارويه بن أحمد
٢٨٢	٨٩٥	( ٣ ) أبو العساكر جيش بن خمارويه
٢٨٣	٨٩٦	( ٤ ) هارون بن خمارويه
٢٩٢	٩٠٤	( ٥ ) شيبان بن أحمد
٢٩٢	٩٠٥	

ظلت مصر بعد قيام الدولة الأموية في حالة ضعف وجمود في كل ناحية من نواحي الحياة ، إلا في فترات قليلة عمل فيها ولاة هذه البلاد على تقدمها ورقها ، كسليمة بن مخلد ( ٤٧ - ٦٢ هـ ) ، وعبد العزيز بن مروان ( ٦٥ - ٨٦ هـ ) ، وموسى بن عيسى الذي ولي مصر ثلاث مرات ( في سنة ١٧١ ، ١٧٥ ، ١٧٩ هـ ) . على أنها أخذت تنتعش حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى ، منذ قامت الدولة الطولونية التي استقلت بحكمها استقلالاً يكاد يكون تاماً . وعلى الرغم من أن عمر هذه الدولة لم يرد على ثمان وثلاثين سنة ، فإن مصر أخذت في النصف الأول من هذا العصر بقسط موفور من التقدم والإصلاح .

أحمد بن طولون ( ٢٥٤ - ٢٧٠ هـ )

أصغر بن طولون منزول إلى أمه ولي مصر

كان أحمد بن طولون مؤسس هذه الدولة تركيا ، وكان أبوه أحد الأتراك الذين كان يرسلهم الولاة من بلاد ما وراء النهر إلى الخلفاء العباسيين ضمن هداياهم . وقد كثر هؤلاء الأتراك منذ ولي المعتصم الخلافة ( سنة ٢١٨ هـ ) ، إذ كانت أمه تركية ؛ فاعتمد على العنصر التركي ، واتخذ من الأتراك حراساً له ، وأسند إليهم مناصب الدولة ، كما كان يفعل الخلفاء العباسيون من قبله من تولية الفرس مناصب الدولة : فولى المأمون عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر صلاحها وخراجها ( ٢١١ - ٢١٣ هـ ) ، وولى المعتصم آشناس التركي مصر ( ٢١٩ - ٢٢٩ هـ ) ، وقلد الواثق إتيباخ ( ٢٣٠ - ٢٣٥ هـ ) . وكان هؤلاء الولاة يستخلفون عنهم نواباً يحكمون البلاد باسمهم ، ويدعون لهم بعد الخليفة على المنابر ، وينقشون اسمهم على السكة ؛ إذ لم يكن من السهل عليهم أن يتركوا دار الخلافة وما فيها من نعيم وترف ،



ويأتوا إلى مصر للإقامة فيها . ولما أسقط الخليفة المعتصم العرب من ديوان العطاء ، واعتمد على الأتراك ، انتشر العرب في ريف مصر ، واحترفوا الزراعة وغيرها طلبا للرزق ، وأخذ العنصر العربي يضعف شيئا فشيئا ، وبدأ ظل الولاة من العرب يزول بإحلال ولاة من الأتراك محلهم . ولم يل مصر بعد ذلك عربي إلا عنبة بن إسحق ( ٢٣٨ - ٢٤٢ هـ ) .

وفي سنة ٢٥٤ هـ ولي مصر باكبك التركي : فأصاب عنه أحمد بن طولون .

كان طولون من قبيلة الطغزغر ، وهم قوم من الترك يقيمون بين تركستان وسيبيريا . وكانت أسرته تقيم بحوار بحيرة ، لوب ، في بخارى الصغرى ، وقد جرى به إلى نوح بن أسد الساماني عامل بخارى ، بعد أن أسر في بعض المواقع الحربية ، فأهداه إلى الخليفة المأمون سنة ٣٠٠ هـ في جملة من الرقيق والهدايا ، فأعجب به المأمون ، لما توسم فيه من مخايل النجابة والذكاء ، فألحقه ببلاطه . وما زال يتهنئه ويرقيه حتى جعله رئيس حرسه ، ولقبه أمير الستر ، وهو اللقب الذي كان يشغله أحد كبار رجال البلاط ، ويعهد إليه بالمحافظة على حياة الخليفة .

وفي سنة ٢٢٠ هـ ولد لطولون بمدينة سامرا ، التي اتخذها المعتصم خاضرة لدولته بعد قليل ، ولده أحمد من جارية تسمى قاسم ( وقيل هاشم ) ، وولدت له أيضا موسى وحشية وسمانة . وقد تربى أحمد في حجر والديه ، وعنى أبوه بتربيته وتهذيبه ، فنشأ نشأة دينية كان لها أثر كبير في حياته المستقبلية ، حفظ القرآن منذ نعومة أظفاره . وكان من أحسن الناس صوتا في كلامه ، وتفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة ، وعرف بالصلاح والدين والجود ، واشتهر بعلو الهمة وحسن الأدب ، والذهاب بنفسه عما ينزى إليه أهل طبيقته ؛ وطلب الحديث وأحب الغزو ، وخرج أكثر من مرة إلى طرسوس ( وكانت من الثغور على حدود الدولتين العربية والبيزنطية ) . وكانت هذه المدينة مركزا من مراكز الثقافة ، تجمع طائفة صالحة من الفلاسفة والمحدثين والفقهاء والشعراء والمؤرخين وغيرهم . في هذه المدينة لقي أحمد بن طولون المحدثين ، وسمع منهم ، وصحب العلماء والزهاد وأهل الروع ، فتأدب بأدابهم ، فاشتهر عند الأولياء ، وصار في عداد من يوثق به ويؤمن على الأموال والأسرار .

وكان أحمد بن طولون في العشرين من عمره عند وفاة أبيه ( سنة ٢٤٠ هـ ) . وقد ذكر أبو المحاسن أنه تزوج بابنة عمه وخاتونه ، فولدت له العباس في سنة ٢٤٢ هـ (١) .

#### قولية ابن طولون مصر :

اتصل أحمد ابن طولون بالخلافة العباسية ، فولاه الوزير عبيد الله بن يحيى بعض أعمال طرسوس بعد وفاة أبيه ، وأمر بأن يتناول عطاء أبيه . فأقام بطرسوس ، ولكن مفارقتها شقت على أمه ،

(١) وقال المقرئ إنه تزوج من ابنة ماجور ( أو يارجوخ ) أحد كبار رجال البلاط العباسي ، فولدت له العباس وابنة تسمى فاطمة . أما خوارويه بن أحمد بن طولون ، فقد ولد في منتصف المحرم سنة ٢٥٠ هـ من جارية تسمى مياس ، أهداها له الخليفة العباسي المستنير .

فكاتبته بما ألقه عليها . فرحل لرؤيتها في سامرا ، وسار في قافلة مؤلفة من خمسمائة رجل ، كانت عائدة من بلاد الروم ، تحمل متاعاً ابتاعه الخليفة المستعين من هذه البلاد . وكان من عادة الغزاة أن يسيروا متفرقين ، فطرق الأعراب بعض رجال هذه القافلة ، وكان معهم متاع الخليفة ، فتصدى أحمد لقتالهم ، واسترد منهم ما سلبوه . ولما وصلت القافلة إلى دار الخلافة ، أخبر رئيسها الخليفة بما كان من تخليص متاعه على يد ابن طولون ، ففجع ألف دينار ، ثم توالى عليه صلواته وهباته . ولما خلع المستعين وبويع المعتز سنة ٢٥٢ هـ ، أخرج الخليفة المعزول إلى واسط ، واختار الأتراك أحمد بن طولون ليصحبه ، فأحسن إليه ، وأطلق له الحرية في التنزه والصيد . وعلى الرغم من ذلك الفوز الذي أحرزه الأتراك بخلع المستعين ونفيه ، أوجسوا شراً من بقاءه حياً ، وأوعزوا إلى الخليفة الجديد بأن خلافته لن تثبت إلا إذا قُتِل المستعين ، ووافقهم على ذلك قبيحة أم المعتز التي خافت على حياة ولدها أن تمتد إليه يد الأعداء ، فكتبوا إلى ابن طولون ، يطلبون إليه قتل المستعين ، ويمنونه ولاية واسط . على أنه رأى من تربته ما يحول دون تحقيق رغبة الأتراك ورغبة الخليفة وأمه ، فكتب إليهم بأنه لا يقتل خليفة له في رقبته بيعة ، فزاد احترامه في نفوسهم ، على الرغم من عدم إجابة طلبهم ، وأرسلوا سعيدياً الخادم أحد حجاب القصر ، في شرذمة من الجيش إلى واسط ، وكتبوا إلى ابن طولون يطلبون تسليم الخليفة إليه ، والعودة إلى سامرا . فلم ير بدا من الإذعان ، وتسلم سعيد الخليفة وقته . ولما علم ابن طولون بذلك تأثر تأثراً شديداً ، ولم يبرح مكانه حتى غسل جثة الخليفة وكفنها وواراها في التراب .

ولما عاد ابن طولون إلى سامرا وتقلد بابك ، مصر ، استخلفه عليها ، وجعله على حاضرتها . وضم إليه جيشها ، فدخلها في شهر رمضان سنة ٢٥٤ هـ . وكان ولاية مصر في ذلك العصر لا يبيون عنهم شخصاً واحداً في هذه البلاد ، وإنما كانوا يقسمون أعمالها بين عدة أشخاص ، ليكون كل واحد منهم عيناً على الآخر ، فلا يتطلع أحدهم إلى الاستقلال بما في يده ، خشية اتفاق الآخرين عليه . وكان هؤلاء الأتراك يستدون القضاء والخراج لغير هؤلاء الولاة ؛ وبذلك كانت أعمال مصر عند ما دخلها أحمد بن طولون مقسمة بين عدة أشخاص : فكان على الاسكندرية إسحاق بن دينار ، وعلى بركة أحمد بن عيسى الصعیدی ، وعلى القضاء بكار بن قبية ، وعلى البريد شقير الخادم غلام قبيحة أم المعتز ، وعلى الخراج أحمد بن المدير .

#### الفتن والثورات :

من ذلك نرى أن ولاية مصر لم تصف لابن طولون ، لأنه إنما تقلد قسبة هذه البلاد دون غيرها ، ولأنه كان يحكمها باسم واليها بابك ، وفي استطاعته أن يعزله إذا لم يحز رضاه . هذا فضلاً عما كان من منافسة ابن المدير عامل الخراج في مصر ، ومثابرتة على الإيقاع به عند الخليفة . ومن قيام الثورات التي أضرم نارها الخوارج في مصر ، ومن بينهم ابنة العباس ، إلى ما كان من منسخت أبي أحمد

الموفق طلحة ولى العهد عليه ، وعمله على صرفه عن هذه البلاد . فلم يكن بدّ إذا من أن يعمل ابن طولون على التغلب على هذه البلاد ، وتثبيت قدم أولاده من بعده . ولنأت الآن بطرف يسير عن هذه الصعاب ، لترى كيف تغلب عليها بفضل ما أوتيته من الهمة وبعد النظر .

قتل با كباك ، فتولى مصر يارجوخ صهر أحمد بن طولون ، فكتب إليه تسلم من نفسك لنفسك . وبذلك أقره على ما بيده ، وزاد في سلطته بأن استخلفه على مصر كلها . وزاد قلق ابن المدرعامل الخراج ، الذى أثار سخط المصريين بزيادته الضرائب ، واستعماله القسوة في جبايتها ، وعمل على عزل ابن طولون ، وخشى عاقبة أمره في مصر ، فطلب صرفه عن خراجها ، وتقلد خراج دمشق وفلسطين والأردن في سنة ٢٥٧ هـ ، وتقلد خراج مصر من بعده أحمد بن خالد .

وفي شهر رمضان سنة ٢٥٩ هـ مات يارجوخ صاحب إقطاع مصر ، الذى كان أحمد بن طولون يحكمها نيابة عنه ، ويدعو له على منارها بعد الخليفة ، فتولد قدمه في هذه البلاد ، وأصبح واليا عليها ، من قبل الخليفة مباشرة . وفي سنة ٢٦٣ هـ كتب الخليفة العباسى المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) إلى ابن طولون يستحثه على إرسال الخراج ، فرد عليه . « لست أطيق ذلك والخراج في يد غيرى » ، فقلده خراج مصر ، وولاه الثغور الشامية ، وبذلك أصبحت جميع أعمال مصر الإدارية والقضائية والعسكرية والمالية في يده .

على أن ابن طولون لم يكده يستقر به المقام في مصر ، حتى خرج عليه الخارجون ، وخاصة العلويين ، الذين عملوا على انتزاع الخلافة من العباسيين ، بالحيل والمكايد تارة ، وبالسيوف والحروب أخرى . وقد أثار سخط العلويين في مصر ودفعهم إلى الخروج ، ما كانوا يلقونه من الولاة الأتراك من ضروب الشدة والقسوة وتضييق السبل ، عن رضا من هؤلاء الخلفاء . وكان أول الخارجين من العلويين في مصر في عهد أحمد بن طولون ، عبد الله بن طباطبا العلوى ، في موضع يقال له الكائناتس ، بين الإسكندرية وبرقة ، ثم صار إلى الصعيد حيث كثر أتباعه ، وادعى الخلافة ، ولكنه قتل في شهر شعبان سنة ٢٥٣ هـ . كما خرج على ابن طولون في هذه السنة إبراهيم بن محمد العلوى ، المعروف بابن الصوفى ، وأحل الهزيمة بجيش الطولونيين في « هو » ، على مقربة من قوص ، في شهر ربيع الأول سنة ٢٥٦ هـ ، وظفر بقائده ، وقطع يديه ورجليه ثم صلبه . ولكنه لم يلبث أن هزم ، وقتل كثير من جنده ، وسار هو إلى الواحات الغربية إلى سنة ٢٥٩ هـ ، حيث خرج من جديد ، وفر إلى أسوان ، حيث نشبت بينه وبين عدوه أبى عبد الله العمرى موقعة حاسمة ، هزمه فيها العمرى ، فضى إلى أسوان ، ثم اختلف مع أصحابه ، فتركهم وصار إلى عيذاب ، ومنها أبحر إلى مكة ، حيث قبض عليه واليا ، وبعث به إلى ابن طولون ، الذى أمر بأن يطاف به في الطرقات ، وحبسه ثم أطلقه ، فخرج إلى المدينة المنورة ، وأقام بها حتى مات (١) .

(١) السكندى : كتاب الولاة ص ٢١٢ ، القرينى خطط ج ١ ص ٣١٩ .

وكذلك ثار أبو عبد الرحمن العمرى بأقصى الصعيد ، على مقربة من أرض البجاة (١) التي كانوا يغيرون على الجهة التي أقام فيها العمرى ، فيعيثون فيها فسادا ، وينهبون الأموال ، ويقتلون الأرياء . فعول على أخذ الثأر مرضاة لله ، وفنك بشرذمة منهم ، وقتل رئيسهم ثم دخل بلادهم وأعمل في أهلها السيف ، حتى أدوا إليه الجزية ، بعد أن امتنعوا من أداها لمن جاءوا قبله . وبذلك ظهرت كلمة العمرى في هذه البلاد ، واشتدت شوكته ، وذاعت شهرته ، واتصل خبره بابن طولون ، وساورته الريب في ولائه ، فأرسل إليه جيشاً ، فتقدم العمرى إلى قائده ، وقال له : « إن ابن طولون لا يعرف خبرى ، لا شك على حقيقة ، فاني لم أخرج للفساد ، ولم يتأذي بي مسلم ولا ذمى ، وإنما خرجت للجهاد . فاكتب إلى الأمير أحمد ، عرفه حالى ، فإن أمرك بالانصراف فانصرف ، وإلا فإن أمرك بغير ذلك كنت معدوراً » (٢) .

بيد أن قائد ابن طولون لم يكن بعيد النظر ، فقد أبى لإقتاله . ودارت رحى الحرب بين الفريقين وحلت الهزيمة بجند ابن طولون . وعاد قائده ، وأخبره بحال العمرى ، فقال : « هلاكتم شاورتموني فيه ؟ فقد نصره الله عليكم بغيركم » (٣) . على أن حياة العمرى لم تطل بعد هذا الانتصار ؛ فقد وثب عليه جماعة من غلبانه وقتلوه ، وأخذوا رأسه ، وساروا به إلى ابن طولون لينالوا بذلك جائزته ، فقال لهم : « هل كان مسينا إليكم ؟ فقالوا : لا والله ، ولقد كان محسنا إلينا ، ومفضلا علينا . قال : فاحملكم على قتله ؟ قالوا : طلبنا الحظوة عندك ، والمكان منك . فقال لهم : تقتلون مولاكم المحسن إليكم ، وتطلبون الحظوة عندي ؟ إن ما ارتكبتموه تستوجبون عليه عقاب الله وعقابي . ثم أمر بهم فضربوا على رؤوسهم حتى ماتوا ، وأمر برأس العمرى فغسل وكفن ودفن (٤) . وهكذا كانت عاقبة نكران الجليل ، وعدم مراعاة المروءة وكرم الأخلاق .

(١) أو البجة الذين يقيمون على مقربة من عذاب الواقعة على البحر الأحمر . وقد ناهضوا جند العباسيين منذ أيام الخليفة المتوكل ، حين أغاروا على أرض مصر ، وقتلوا كثيراً من المسلمين الذين هربوا من بلادهم . وخاف أهل الصعيد على أنفسهم ، وسار محمد بن عبد الله القمى إلى بلادهم في عشرين ألف مقاتل ( سنة ٢٤١ هـ ) . فخرج إليه ملكهم على بابا في جيش يفوق المسلمين ، فجعل القمى الأجراس في أعناق الخيل ، ثم حمل على البجة ، ففرت إبلهم من أصوات الأجراس ، ومرت على الجبال والأودية ، وتبعهم المسلمون ، وقتلوا وأسروا منهم خلقاً كبيراً . فطلب على بابا الأمان ، فأمنه القمى على أن يؤدي ما كان يؤديه من معادن الذهب التي بأرضه ، وحمل إليه الخراج المتأخر عليه ، عن المدة التي منعه فيها ، وهي أربع سنين ، وأخذ معه على بابا إلى بغداد حيث خلع الخليفة المتوكل عليه وعلى أصحابه الديباج ، وولى سعد الخادم على البجة ، والطريق التي بين مصر ومكة ؟ فولى القمى نيابه عنه . فعاد إليها ومعه على بابا وهو على دينه ، ومعه صنم من حجارة على هيئة صبي يسجد له . ففرل القمى أسران . وأقام بها مدة ومات ( البلاذرى : كتاب فتوح البلدان ص ٢٤٧ - ٢٤٨ ) .

(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ٩٣ - ٩٤

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٣٠٢

(٤) أحمد بن يوسف : السكافة ( القاهرة سنة ١٩٤١ ) ص ١١٧ - ١١٨

على أن هذا لم يكن كل ما قام في وجه ابن طولون من الصعاب . فقد شق أهل برقة عصا طاعته سنة ٥٢٦١ هـ ، وطرّدوا نائبه من بلدهم ؛ فسير ابن طولون إليهم جيشاً بقيادة لؤلؤ ، وأمره أن يسلك سبل الرفق واللين في معاملتهم ، فإن أطاعوا تركهم وعاد إلى مصر ، وإن أبوا إلا العصيان ، لجأ إلى قتلهم حتى يدعنوا له . وقد عاملهم لؤلؤ أول الأمر معاملة قوامها اللين ، إلا أنهم ظنوا أن ذلك عن ضعف ، وأوقعوا ببعض رجاله وقتلوه ؛ فلم ير بدا من قتالهم ، وحاصر بلدهم ، ونصب عليها المجانيق . وضيق عليهم السبل حتى اضطروا إلى طلب الأمان ، وفتحوا الأبواب فدخل البلد ، وضرب جماعة من رؤسائهم بالسياط ، وقطع أيدي بعضهم ، وساق جماعة منهم إلى مصر ، حيث خلع عليه ابن طولون ، ووضع أطواق الذهب في عنقه ، وأركبه في موكب حافل ، سار أمامه الأسرى يحملون الغنائم ، وطافوا في المدينة .

وكانت ثورة العباس بن أحمد بن طولون أشد هذه الثورات خطراً ، وأبعدها أثراً . وكان العباس أكبر أولاد أبيه ؛ فلما خرج ابن طولون إلى الشام سنة ٥٢٦٤ هـ ، استخلف ابنه العباس على مصر ، وضم إليه كاتبه أحمد بن محمد الواسطي ، ليسكون ناصحاً له ومرشداً . ولكن ما كاد ابن طولون يترك مصر حتى خلت بابته بطانته ، وقد أراد أن يوليهم بعض المناصب العالية ، فلم يوافق الواسطي لعدم درايتهم بالسياسة وأساليبها ، وعجزهم عن الاضطلاع بأعباء الحكم ، فأوغروا صدر العباس عليه ، فكف يده عن بعض الأعمال ، وكتب الواسطي إلى ابن طولون بالشام يشكو التناقص بطانة السوء حول ابنه ، فرد عليه بما طمأنه ، واستمهله حتى يعود إلى مصر .

ولم يكن العباس يفكر أول الأمر في العصيان والخروج على أبيه ؛ ولكن محبوب بن رجاء الذي أخذ ابن طولون قبل مسيره إلى الشام كاتباً لابنه ، قد دفعه عداؤه للواسطي ، على اطلاع العباس على المكاتبات التي دارت بشأنه ؛ فازدادت مخاوفه وحسن له بطانته الخروج على الواسطي (١) ، والاستقلال بمصر ، وانتهزوا من ذلك الظرف العصيب ، الذي كان فيه أعداء ابن طولون يتربصون به الدوائر ، فرصة سانحة لتحقيق مطامعهم ، وليحولوا بذلك دون وقوعهم في يده .

ولما علم الواسطي بذلك اختفى ، فدم العباس داره ، واستولى على الكتف التي أرسلها إليه أبوه يوصيه فيها بمداراته حتى يعود إلى مصر . فازداد قلقه ، وقبض على الواسطي هو وأحد أتباعه «أعين الأسود» وقبدها . وزين له بطانته الرحيل عن مصر (٢) ، فخرج إلى الجزيرة (٨ شعبان سنة ٥٢٦٥ هـ) ، ثم سار إلى الإسكندرية ومعه الواسطي وأعين ، وحمل معه مليون دينار ، واقترض من التجار مائتي ألف دينار ، كما حمل معه ما كان لأبيه من آلات الحرب ، وعشرة آلاف من الجنود المشاة من العبيد . وسرعان ما يمّم شطر برقة ، وزين له أتباعه تأسيس دولة عظيمة في بلاد المغرب ، فإذا تم له ذلك ، استطاع أن يكتسح دولة أبيه .

(١) السكندی : كتاب الولاة ص ٢٢٠ .

(٢) ابن الداية : سيرة أحمد بن طولون ص ٥٩ .

في ذلك الوقت عاد أحمد بن طولون إلى مصر ، ودخل القسطنطينية ( ٤ رمضان سنة ٢٦٥ هـ ) ، وأرسل إلى العباس القاضى بكار بن قتيبة ، والقاضى الصابونى ، ومعمربن محمد الجوهري ، وزيد المعري - وكان فصيحاً ذكياً الفؤاد - وكتب له كتاباً ألان له فيه القول ، ووعدته ألا يمسسه بسوء. إذا هو عدل عن سياسة العبداء وعاد إليه . وكان يحمل هذا الكتاب زياد المعري .

وقد ذكر ابن الداية (١) أن العباس هم بالشخص معهم ، لولا أن بطانته خافوا سوء المصير ، وحملوه على العدول عن رأيه ، فلم يصح لنصح أبيه ونصح رسله ، إذ كان لا يزال يحلم بتأسيس دولة شاسعة الأرجاء في إفريقية . فرد على أبيه رداً قبيحاً ، وسولت له نفسه الخروج إلى إفريقية ، وصعّر له أتباعه شأن إبراهيم بن الأغلب ، وسار إليه ، فأحل به الهزيمة صاحب نفوسه وزعيم الإباضية من الخوارج ، وأرغمه على العودة إلى برقه (٢) . وذاع نبأ قتله ، حزن أبوه عليه حزناً شديداً ، ثم لم يلبث أن تبدل حزنه سرورا حين علم بسلامته ، وأرسل إليه كتاباً طويلاً ، يعتبر بحق من الوثائق التاريخية الهامة ، يذكره فيه بما جره عليه عقوفه ، ويطلب إليه أن يعترف بذنبه ، ويرجع إلى رشده (٣) . وجند ابن طولون جيشاً كثيفاً ، قيل إنه بلغ مائة ألف ، وخرج إلى الاسكندرية ، حيث وافاه بها أحمد بن محمد الواسطي ، وقد هرب من جيش العباس في برقة ، فحرق له من شأن العباس ، فوجه إليه الجيش بقيادة أحد قواده ، وعاد هو إلى القسطنطينية ( ١٣ رجب سنة ٢٦٨ هـ ) . وحلت الهزيمة بالعباس ، وقتل عدد كبير من جنده ، وهرب هو ، فأدرك وأسر ، وسبق إلى القسطنطينية مع فريق من أتباعه الذين حرضوه على الخروج . وقطعت أيديهم وأرجلهم (٤) ، وضرب العباس بالمقارع مائة ضربة ، وسجن إلى أن مات أبوه ، فأخرج أخوه خمارويه ، وطلب منه أن يبايعه ، فأبى . فأمر به فقتل .

هكذا انتهت حياة ذلك الأمير الطموح ، وتبددت أحلامه . ولو نجح لكان لدولة بني طولون شأن آخر في التاريخ .

### ابن طولون والخلافة :

وقد أتاح خروج علي بن الشيخ على الخليفة العباسي الفرصة لابن طولون لتجنيد جيش قوى . وكان عيسى بن الشيخ والياً على فلسطين والأردن . ولما مات تغلب ابنه أحمد على دمشق ، وامتنع عن حمل المال إلى دار الخلافة ، وانتزع ثلاثة أرباع مليون دينار كان ابن المدير عامل خراج مصر قد أرسلها إلى دار الخلافة . وانتزع ابن الشيخ فرصة اضطراب حبل الأمور في دار الخلافة ، أخذته نفسه بالعصيان والاستيلاء على سائر بلاد الشام ، وطمع في مصر . وقد عمد الخليفة المهدي

(١) سيرة أحمد بن طولون ص ٥٩ - ٦٠

(٢) المقرئى : خطط ج ١ ص ٣٢٠

(٣) راجع هذا الكتاب في الفقهى : صبح الأعشى ج ٧ ص ٥ - ١٠

(٤) الكندى : كتاب الولاة ص ٢٢٣ - ٢٢٤

إلى التخلص منه بالمكاييد والخذع ، فولاه إزمينية ، على أن يستخلف من بنوب عنه في ولاية الشام ،  
ليقصيه عنها ، وكتب في الوقت نفسه إلى ابن طولون يأمره بأن يتأهب لقتال ابن الشيخ ، على أن  
ينقلد بلاد الشام بعد إخضاعه ، كما أمر بأن يطلق لواليه على مصر المال الذي يحتاج إليه لجمع الجند  
وإعدادهم بالعدة والسلاح . وبذلك استطاع ابن طولون أن يضع أساس جيش جديد من الروم  
والسودان والأتراك وغيرهم ، أصبح نواة قوة مصر التي استند إليها في حروبه المقبلة ، وبخاصة إزاء  
أبي احمد الموفق طلحة أخى الخليفة العباسي .

بيد أن احمد بن طولون رأى أن ينصح لابن الشيخ بأن يعود إلى طاعة الخليفة ، وأن يرد ما أخذه  
من مال مصر ؛ فأجاب بكتاب لايشفي غلة ، ولايجيب طلبا . فلم يكن بد من أن يستخلف ابن طولون  
أخاه موسى على مصر ، ويخرج هو لخربه ؛ ولكن سرعان ما وافته وهو في الطريق كتاب من العراق ،  
يأمره بالعودة إلى مصر . وقدم ماجور التركي من العراق ، وهزم قوة ابن الشيخ ، واستولى على دمشق ،  
ولحق ابن الشيخ بنواحي إزمينية ، فتولى ماجور أعمال الشام كلها .

ولاندري ما الذي حمل الخليفة العباسي والأتراك على إرجاع ابن طولون بعد نديه ومسيره في  
طريق الشام . وربما فطن الأتراك إلى خطر وقوع بلاد الشام في يد ابن طولون الذي كان يلي مصر ،  
وأن في ضم الشام إليه تقوية لشأنه . ولاغرو فقد أثبت ابن طولون كفاية ممتازة في حكم مصر .  
ولو أنه لم يعض فيما اعترمه من القضاء على ثورة ابن الشيخ ، فإن هذا الظرف قد أتاح له تجنيد جيش  
كثيف زاد في قوته وفي هيئته عند رجال البلاط في بغداد ، كما ثبت مركزه عند الخليفة ، فأقصى منافسه  
ابن المدبر عن خراج مصر ، وولاه خراجها ومعوتها ، كما قلده ولاية الثغور الشامية . (١)

بعد أن قضى أحمد بن طولون على الصعاب التي قامت في وجهه في مصر ، اعترضته صعوبة كادت  
تقضي على آماله ، لولا ما أوتيته من حسن السياسة وعلو الهمة ورباطة الجأش . وقد بينا من قبل أن  
مصدر هذا الشر أبو احمد الموفق طلحة . الذي غلب على أخيه الخليفة المعتمد ، حتى إنه لم يبق له من الخلافة  
إلا اسمها ، وأن ثورة الزنج الطاحنة أنارت عدا الموفق لابن طولون وإلى مصر ، الذي وقف على  
مدى الخطر الذي هدد سلامة الدولة العباسية من ناحية الزنج ، فبعث إلى الموفق بمليون ومائتي ألف دينار .  
ولكن الموفق استقل هذا المال ، وبعث إلى ابن طولون بكتاب ينطوى على الجفاء والشر ، فرد عليه بكتاب  
ذكر فيه أنه لم يكن تابعا له ، وأنه قد يعمد إلى شن الحرب على الخلافة بجيشه الضخم الذي يتألف  
من مائة ألف رجل ، بعد أن كان يعمل على إعلام شأنها والنود عنها . وإليك طرفا من هذا الكتاب :  
« أما بعد ، أطال الله بقاء الأمير وأدام عزه ! فقد وصل إلى كتاب الأمير أيده الله وفهمته .  
وقد كان الأمير أسعده الله حقيقاً بحسن التخيير لنفسه ، وإعمال الفسك فيما تنظم به أسباب الصلاح  
بدره ، وأن توديه رويته إلى إمالة مثلي . . . إذ كنت باب السلطان ، وسيفه الذي يصول به ، وسنانه

(١) ذكر السكندى (ص ٢١٧) أن تولية ابن طولون كانت سنة ٢٦٣ هـ ، بخلاف ما ذكره القرظي  
(خطط ج ١ ص ٣١٩) من أن توليته كانت سنة ٢٦٤ هـ

الذي يتقى الأعداء بحده... على أني لا أعرف السبب الذي يتيح الوحشة ويوقعها، ولا الأمر الذي يدعو إليها ويوجبها، إذ لم يكن بيني وبينه معاملة توجب مشاجرة، أو تحدث منافرة. وكان العمل الذي أنا بسبيله ليس له، والمكاتب في أموره ليست إليه، وتقليدي ليس من قبله، ولا أنا من ولاته... ولم يضطرنني بهذه الأفعال التي لا أعرف دركها في استعمالها، وحظا في ارتيادها... إلى ركوب خطة في أمره، قد علم الله كراهيتي في ركوبها، وإلى أن أجعل ما أعدده لحياطة هذه النولة المتكاثرة والعساكر المتضاعفة. على أنه (الموفق) لا ناصر له غير من يجتمع إليه من ليف البصرة وأدناس العامة... وليس مثل الأمير - أيده الله - في أصالة رؤية وحسن تدبيره، ونظره في عواقب أموره، قصد لمائة ألف عنان هي عدة له فجعلها عليه، (١).

وكان الموفق يخشى ازدياد نفوذ ابن طولون، فعمد إلى صرفه عن مصر وتقليدها ماجور والي الشام الذي آتس في نفسه العجز عن مناهضته، بعد أن أصبح في قوة لا يستهان بها. وخشى موسى ابن بغا، الذي حكم البلاد الغربية للدولة العباسية باسم المقوض بن المعتمد، أن يزداد نفوذ ابن طولون، لأن في ولايته على مصر والشام تهديدا لسلطة الخليفة، أو بعبارة أدق، لسلطته هو وسلطة الموفق والأترك معا. فسار إلى الرقة وأخذ يستعد لقتاله، وأخذ ابن طولون يحصن مدينة القسطنطينية، وبني أسطولا يتألف من مائة مركب حرب. بيد أن أحوال ابن بغا اضطربت، لتألب الجند عليه، ومات في شهر صفر سنة ٢٦٤ هـ. (٢)

وعلى الرغم من أن الخليفة العباسي كان يميل إلى ابن طولون، فقد أرغم على عزله عن ولاية الثغور الشامية؛ لسكته لم يلبث أن ردها إليه، بعد أن اضطربت أحوالها، ووجد ابن طولون الفرصة سانحة لآخذ بلاد الشام بعد وفاة واليها ماجور، لاشتغال الموفق بحرب صاحب الزنج، وخشى ضياع ولاية الثغور منه بسبب وقوع بلاد الشام بينها وبين مصر. واستخلف ابنه العباس كما تقدم، وسار بجيشه نحو بلاد الشام؛ فدانت له أمهات مدنها، ودعى له على منابرها (٢٦٤ - ٢٦٥ هـ)، ولكنه اضطرب إلى العودة إلى مصر لقمع ثورة ابنه العباس، ثم خرج ثانية إلى الشام (٨ جمادى الأولى سنة ٢٦٩ هـ)، إذ اتصل به نبأ خروج لؤلؤ والي الرقة عليه، وانضمامه إلى الموفق، واستخلف على مصر ابنه خمارويه. وبينما هو في طريقه إليها، بلغه خروج أهل طرسوس عليه، فعمل على السير إليها، ولكنه لما وصل إلى دمشق جاءه كتاب الخليفة العباسي ينبئه فيه بالمسير إليه والاحتيا به. ورحب ابن طولون بهذه الفكرة لما تنطوى عليه من تقوية شأنه في مصر، وكتب إلى الخليفة كتابا يخوفه فيه من ناحية الموفق، ويشير عليه بالحضور إلى مصر، وفيه يقول:

(١) ابن الداية: كتاب سيرة أحمد بن طولون ص ٢١ - ٢٤. أنظر أيضا حسن إبراهيم حسن: Relations between Egypt and the Caliphate, Ext. from the Bulletin, Al Ulum, Jan -Feb, 1940, p. 7

(٢) أنظر ص ٣٩ - ٤٢، القريري: خطط ج ٢ ص ١٨٠



قد منعتي الطعام والشراب والنوم ، خوفي على أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه ١ — من مكر بلحقه . . . وقد اجتمع عندي مائة ألف عنان ، مؤلفة قلوبهم ، مجتمعة آراؤهم ، شديد بأسهم . وأنا أرى لسيدى أمير المؤمنين أدام الله عزّه بالنصر والتمكين ، الانجذاب إلى مصر ، فإن أمره يرجع بعد الامتحان إلى نهاية العز ، ولا يكن فيه (١) ما يخافه في كل لحظة منه عليه (٢) .  
ولسكن ابن كنداج عامل الموصل والجزيرة قبض على الخليفة المعتمد وساقه إلى سامرا ، وكوفي ابن كنداج بولاية مصر (٣) .

لهذا لانعجب إذا بلغت الكراهة بين ابن طولون والموفق أشدها ، وظهرت لعنة كل منهما على المنابر (٤) .

ولا يعزب عن أذهاننا أن ابن طولون أتبع له أن يصل إلى هذه القوة ، لما كان من اضطراب جبل الأمور في حاضرة الدولة العباسية ، وخروج ولي العهد على صاحب الحق الشرعي ، واستبداده هو وغيره من الأتراك بأموار الدولة . يدلك على صحة هذا ما قاله مُنصف بن خليفة الهذلي ، أحد شعراء مصر في هذا العصر :

يا غشيرة الدنيا الذي أفعاله	غشرت به كليل الوري تتعلق
أنت الأمير على الشام وثغرها	والرقتين وما حواه المشرق
ولإليك مصر وبرقة وحجازها	كل إليك فؤاده متشوق
هتك الخلافة صاعد وخليه	إسحق لعباً والحسود الأخرق
أسيافنا بيض المتون فليتها	بنجيع من خذل الإمام تخلق (٥)

على أن أمورا حدثت فبدلت ذلك الحب ، الذي كان يكنه المسلمون لأحمد بن طولون ، الذي نصب نفسه لحماية الخليفة . فان الموفق لما بلغه خبر خلع ابن طولون من ولاية العهد ، وحذف اسمه من الخطبة ، طلب إلى الخليفة أن يأمر بلعنه على المنابر ، فأجابته على كره منه ، ولعنه ابنه المفوض في المسجد ، وولى ابن كنداج على أعماله ، وأمر الموفق بلعنه على المنابر ، وقال فيه الخطباء : اللهم لعنه لعنايقل حده ، ويتعس جده ، واجعله مثلاً للغارين ، إنك لاتصلح عمل المفسدين (٦) . وقام أبو زرعة (٧) في المسجد الأموي بدمشق ، وقال بعد أن خطب الخطيب : نحن أهل صفين وأهل

(١) كذا في الأصل (٢) ابن الداية : كتاب سيرة أحمد بن طولون ص ٦٨ — ٦٩

(٣) الطبري ج ١١ ص ٣٠٠ ، الكندي : كتاب الولاية ص ٢٢٤ — ٢٢٥ (٤) انظر ص ٤٤

(٥) المتن . حد السيف ، والنجيع الدم ، وتخلق تطيب

(٦) الكندي كتاب الولاية ص ٢٢٨ — ٢٢٩

(٧) هو محمد بن عثمان بن إبراهيم بن زرعة بن إبراهيم الثقفي الشافعي الدمشقي . ولى قضاء مصر سنة ٢٨٤ هـ

في عهد خازويه بن أحمد بن طولون . انظر كتاب القضاة للكندي ص ٥١٨ وما يليها .

دمشق ، وكان فينا من حضر الجبل ، ونحن القائمون على من عاند من أهل الشام . وأنا أشهد الله وأشهدكم أني قد خلعت أبا أحمدق ( يريد أبا أحمد الموفق ) ، كما يخلع الخاتم من الإصبع ، وألغى لعنة الله ، (١)

وقد فعلت سياسة الموفق فعلها في الناس . فقد كان من أثر لعن الخليفة ولعن ابنه المفوض وأخي الموفق لابن طولون ، وانضمام لؤلؤ ومن معه من القواد إلى الموفق ، ومنافسة ابن كنداج له ، وتوليته على مصر والشام . أن ضعف نفوذه الأدنى في البلاد التي دانت لسلطانه ، خلعت الهزيمة بجيشه في مكة ، ولعن في المسجد الحرام (٢) . وكان من أثر هذه الدعاية الواسعة ، التي نشرها الموفق ضد عدوه ابن طولون ، أن حلت به الهزيمة لأول مرة بعد كل ما أحرزه من نصر مؤزر في حروبه ، وعجز عن إخضاع أهل طرسوس لسلطته ، ولعن على منابرها (٣) . ذلك أن ابن طولون أقام في دمشق حتى انتهت هذه الحوادث التي أدت إلى خروج الخليفة المعتمد إلى العراق ، وعودته إليها ، ثم سار إلى طرسوس التي تحصن بها يازمان الخادم ، ونصب المنجنيقات والعرادات على أسوارها ، وأرسل الماء إلى عسكريه من نهر طرسوس الأعظم ، المعروف بنهر البردان ؛ ففرق جنود ابن طولون ، وغرقت مضاربه ، واشتد البرد ، وهطلت الأمطار . فرحل إلى أذنة ليلا ، وأقام بها عشرين يوما ، مات فيها أكثر جنده العراة من البرد ، بسبب غرق أمتعتهم . وقد أخذ الخنق من ابن طولون كل ما أخذ ، ولم ينس ذكريات هذه النكبة المحزنة ، وعبر عن سخطه على طرسوس وعلى أهلها بقوله : والله لأراني الله أجهز جيشا إلى طرسوس أبدا ، إذ كانت سكن الإسلام ، (٤)

### وفاة ابن طولون :

سار ابن طولون بعد ذلك إلى المصيصة ، وأقام بها ثلاثة أيام . وهنا عرضت له علته التي أودت بحياته ، ودخل أنطاكية ، فبدأ هيضه ، وتولاه القىه ، فبعث إلى طبيبه سعيد بن نوفل النصراني - وكان قد رحل إلى إحدى البيع لقضاء أيام العبد ، فلم يعد إليه إلا بعد يومين ، وأشار عليه بالحمية . قال ابن الداية (٥) قال (سعيد بن نوفل) : لا تقرب الغذاء ولو أقت الليلة وغدا ! فقال : والله أنا جامع وما أصبر . قال : هذا جوع كاذب لبرد معدتك . فلما كان نصف الليل ، استدعى شيئا يأكله ، فجىء به فراح حارة وبعض دجاجة ، وقطعة من جدى بارد ، فأكل وانقطع الإسهال عنه . فحدثني نسيم قال : خرجت وسعيد قائم في الدار ، فقلت له : أكل الأمير البارحة كذا وكذا ، فامتنع عليه الإسهال . فقال : الله المستعان ، ضعفت قوته الناهضة بقهر الغذاء ، وسيتحرك حركة منكرة . قال (يعنى نسيم) : فوالله ما وافى السحر

(١) الكندي كتاب الفضاة ص ٥١٩ - ٥٢٠

(٢) الكندي . كتاب الولاة ص ٢٩٦

(٣) الطبري ج ١١ ص ٣٢٠

(٤) المصدر نفسه ص ٧١ وما يليها .

(٥) سيرة ابن طولون لابن الداية ص ٧١

من الليلة المقبلة حتى جاءه أكثر من ثلاثين مجلسا، وطلب مصر، وثقل عليه ركوب الدواب . فعملت له عجلة ، وكانت تجر بالرجال ، ووطئت له . فلما بلغ القرما ، شكوا إزعاجها ، فركب إلى ساحل القسطنطين ، وركب من الساحل إلى داره في قبة . قال عمي لسعيد بن نوفل طبيبه : إن كان لسان الأمير أيده الله نصيحا ، فطبعه أعجمي . ولما دخل القسطنطين ، أحضر الحسن بن زيرك وشكا إليه سعيد بن نوفل ، فسهل عليه أمر علة . وأعله أنه ترجى له السلامة منها عن قرب ، وخفت علة بالدعة والطمأنينة واجتماع الشمل وهدوء النفس إلى حسن القيام ، وتبرك بالحسن بن زيرك ، وكان كثير التخليط . واشتهى على بعض جواريه سمكا قريصا ، فأحضرت له سرا فأكل منه . فاستمكن في معدته حتى تابع الإسهال . فقيل له يحتاج الأمير إلى أطباء مصر ، ليتناولوا داره في غداة كل يوم يتفقون على ما يأخذه غداء ؛ فحميت كبده من سوء فكره وخوفه ، وتشاغل عن الطعام والمشرب ، لكثرة ما جر به عليه ، حتى زادت علة . . . ثم قال أحمد بن طولون لسعيد بن نوفل : والله لا تمتعت بالحياة بعدى ، لأنى أعلم أنك تريد موتى ، ففجئت لك ؛ فأمر بضره ثلاثمائة سوط ، وطاف به يُشنادى عليه ؛ هذا جزاء من أوتمن ثغان . . . فأت بعد يومين .

قال الكندي<sup>(١)</sup> : وتزايدت علة أحمد بن طولون ، فأمر الناس بالدعاء له ، فعدا الناس بالدعاء له إلى مسجد محمود بسفح المقطم ، يوم الإثنين لست خلون من شوال سنة سبعين . وحضر معهم القُصَّاص فدعوا له ، ثم غدوا أيضا بالدعاء له . وحضرت اليهود والنصارى معتزلين عن المسلمين ، وحضروا أيضا اليوم الثالث مع النساء والصبيان . وأقاموا على ذلك أياما . ثم توفى أحمد بن طولون ليلة الأحد لعشر خلعت من ذى القعدة سنة سبعين ومائتين وله من العمر خمسون سنة وشهر وسبعة عشر يوما ، ودفن بالبحوم بسفح المقطم بعد أن حكم نيفا وستة عشر سنة ، وترك من الأولاد ثلاثة وثلاثين ، منهم سبعة عشر من الذكور وستة عشر من الإناث .

• • •

كان ابن طولون بعيد النظر على المهمة قوى البأس شديد المراس . اتسع ملكه حتى امتد من العراق إلى بركة ومن التوبة إلى آسيا الصغرى . وخشى بأسه امبراطور الروم ، على ما بين بلاديهما من بعد الشقة ووعورة الطريق ، فأهدى إليه عدة مصاحف للقرآن الكريم ، وأرسل إليه من تحت يده من المسلمين . وكان ابن طولون سياسيا محتكا ، وقائدا ماهرا ، خبيرا بأساليب الحروب ، وتعبئة الجيوش ، كما كان إداريا حازما<sup>(٢)</sup> وقف على موارد الثروة على اختلافها ، وعرف كيف يستغلها لمصلحة دولته . من غير أن يرهق الأهلين بالمكوس والضرائب . وعمل على ترفيهم ، ونشر العدل بينهم ؛ فاستتب الأمن ، واستقرت الأمور ، وسادت الطمأنينة بين الناس . وشمل الرخاء البلاد في عهده ، حتى يبيع عشرة الأرباب من القمح بدينار واحد . هذا إلى تحصينه الثغور ، والاحتفاظ بجيش كامل العدد والعدة . كما ضرب بسهم وافر في سبيل الإصلاح ، فاهتم بالزراعة وعنى بإقامة الجسور وحفر الترع .

(٢) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ٦٨ - ٦٩

(١) كتاب الولاة ص ٢٣١

أما أخلاقه وصفاته، فقد كان مضرب الأمثال في الكرم والجود، وفي الشجاعة والبسالة، وفي صدق الفراسة، وفي العدل والتواضع. وكان يقرب إليه العلماء، ويجزل لهم العطاء، كما كان يتصدق على الفقراء؛ فقد أثر عنه أنه كان يتصدق كل شهر بألف دينار، وكان — إلى جانب ذلك — يبذل في أعمال الخير ألف دينار في كل يوم. قال المقرئ<sup>(١)</sup>، كانت صدقاته على أهل المسكنة والستر من الضعفاء والفقراء وأهل التجمل متواترة... سوى مطابخه التي أقيمت في كل يوم للصدقات في داره وغيرها، يذبح فيها البقر والكباش، ويعرف للناس في القدور الفخار والقصاع على كل قدر أو قصعة أربعة أرغفة في اثنين منها فالودج والاثنان الآخران على القدر. وكانت تعمل في داره وينادي: من أحب أن يحضردار الأمير فليحضر. وتفتح الأبواب ويدخل الناس، وابن طولون ينظر ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون، فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته. وبعد ابن طولون من حفظة القرآن المعدودين؛ ولذلك كان من أكثر الولاة احتراماً لحفاظه<sup>(٢)</sup>، إلى غير ذلك من الأخلاق الحميدة، والصفات الكريمة التي يخرجننا استقصاؤها عن الغرض:

### خمارويه بن أحمد بن طولون (٢٧٠ — ٢٨٢ هـ)

بعد وفاة أحمد بن طولون، اجتمع الجند — على ما قضت به العادة في ذلك الوقت — وولوا مكانه ابنه خمارويه. ولم يستطع الخليفة العباسي، إلا الموافقة على تعيين الوالي الجديد، وله من العمر عشرون سنة. ولم تكن ولاية مصر قد تولدت أركانها لآل طولون. وأصبح خمارويه أمام عدة صعاب لاسيلى إلى التغلب عليها إلا بالقوة حينا، وبالدهاء حينا آخر. ولا غرو، فقد ظلت مصر في عهد خمارويه كما كانت في عهد أبيه، محط أطماع المنافسين من القواد الأتراك، ومثار حسد أبي أحمد الموفق؛ فواصل لعن الموفق على المنابر، وبعث الواسطى كاتب أبيه إلى الشام بجيش كفيف، وعززه من البحر بأسطول قوى. وخرج الموفق من بغداد، وانضم إليه ابن كنداج والى الموصل، ومحمد ابن أبي الساج والى إرمينية والجبالي، واستولوا على دمشق. فلم ير خمارويه بدا من الخروج بنفسه. فدخل دمشق سنة ٢٧٣ هـ، ثم واصل السير لقتال ابن كنداج في أعماله. وتم الصلح بين والى مصر ودار الخلافة، وكتب الموفق والخليفة المعتمد وابنه المقوض، كتاب الصلح بأيديهم، ويتضمن تولية خمارويه وأولاده من بعده على مصر والشام ثلاثين سنة. هنا أمر خمارويه بالكف عن لعن الموفق على المنابر، والدعاء له مع الخليفة<sup>(٣)</sup>.

وكان من أثر هذا الانتصار، أن استولى خمارويه على الرقة، واعترف بولايته على الموصل والجزيرة، ودعى له على منابرها. كما أخضع ابن أبي الساج (٢٧٦ هـ = ٨٨٨ م)، وطارد جيوشه إلى مدينة (بلد) على نهر دجلة، حيث بنى على شاطئه سريرا فخما من الذهب ليجلس عليه، إشارة

(٢) ابن خلكان: كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ٦٩

(١) خطط ١ ص ٣١٦

(٣) السكندى: كتاب الولاة ص ٢٣٥ — ٢٣٨، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥٠

بما حازه من نصر مؤزر . كما كان من أثر هذا الانتصار أن اعترف بسلطانه والى طرطوس (٢٧٦هـ) ، بعد أن كان قد نبذ طاعة الطولونيين سنة ٢٧٠هـ . ولم تقتصر أعمال خمارويه الحربية على ما تقدم ، بل اتسع نفوذ مصر في عهده إلى ماوراء ولاية طرسوس ، فغزت جيوشه الولايات الرومانية عدة مرات (٢٧٨ - ٢٧٩هـ) (١) .

وقد ساعد موت الموفق وابن كنداج (سنة ٢٧٨هـ) والخليفة المعتمد (سنة ٢٧٩هـ) على توطيد سلطان خمارويه ، الذي استطاع أن يكسب رضا الخليفة المعتضد بهداياه ، فأقره على ولاية البلاد الممتدة بين الفرات و برقة ثلاثين سنة ، وجعلها لأولاده من بعده . ويذكر أبو المحاسن ، أن رسول الخليفة قدم على خمارويه يحمل إليه إثنتي عشرة خلعاً ، وسيفاً وتاجاً ووشاحاً ، (٢) . وكان من أثر سياسة حسن التفاهم أن عرض خمارويه زواج ابنته أسماء التي تلقب بقطر الندى من ابن الخليفة العباسي ، ولكن الخليفة اختارها لنفسه .

توفي خمارويه في سنة ٢٨٢هـ . وكان محباً للترف ، يبذل الأموال الضخمة على أهبة بلاطه ومبانيه الفخمة ومتنزهاته وغير ذلك . وقد بلغت نفقات جيشه تسعمائة ألف دينار في كل سنة ، وكانت رواتبهم وأرزاقهم تدفع إليهم بانتظام . هذا إلى ما عرف عن خمارويه من كثرة إنفاقه على مطابخه ، حتى بلغت نفقاته في كل شهر ثلاثة وعشرين ألف دينار (٢٧٦,٠٠٠ دينار في السنة) . ولا شك أن كثرة هذا المبلغ وتسمية مطبخه مطبخ العامة ، يدلان على أن خمارويه نسج على منوال أبيه في حبه للجدود والكرم ، وشغفه بمد يد المساعدة إلى الفقراء والمعوزين . أضف إلى ذلك ما أطلقه من الأرزاق لجواريه وأولاده ومن يقوم بخدمتهم .

#### زوال الدولة الطولونية (٢٨٢ - ٢٩٢هـ)

ولى مصر بعد خمارويه ثلاثة من آل طولون ، لم يزد حكمهم على عشر سنين ، ولم تستفد البلاد فيها شيئاً غير انتشار الفوضى ، وتآلب الجند ، وتنازع السلطة بين المتنافسين ، وانتصار الجند لفريق دون فريق . ذلك أنه لما توفي خمارويه بدمشق (ذو القعدة ٢٨٢هـ) ، عاد ابنه أبو العساكر جيش إلى مصر ، حيث أخذ الناس عليه أموراً أثارهم عليه ، فاستوحش من كبار الجند وتسكر لهم ، فعملوا على السكيد له ، والخلاص منه ، وفر بعضهم إلى الخليفة العباسي ، وخلع طاعته طغيح بن جف (أبو محمد الأخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية بمصر) عامل دمشق . وقد آلى جيش على نفسه ليشعلن نار الفتن والثورات ، فقتل عمه مضر بن أحمد بن طولون ، فوثب عليه الجند وخلعوه ، ثم جمعوا الفقهاء والقضاة فتمروا من بيعته ، وانضموا إلى الجند في خلعه (١٥ جمادى الآخرة سنة ٣٧٣هـ) ، وذلك بعد نيف وستة أشهر من ولايته ، فظل في سجنه إلى أن مات بعد أيام .

اجتمع الجند يوم خلع جيش وولوا - على ما جرت به العادة في ذلك الوقت - أبا موسى هرون

(١) السكندى : كتاب الولاة ص ٢٣٥ - ٢٣٩ ، المقرئى : الخطط ج ١ ص ٣١٩ ، أبو المحاسن :

(٢) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٨

النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٤٩ - ٥٢

ابن خمارويه ، وكان صغيراً لم تزد سنة على الرابعة عشرة ، فلم يكن يصلح للولاية والحكم . وربما كان ذلك مما دفع بطائفة من الجنود إلى عدم الرضا بتوليته ، فكاتبوا رجلاً آخر من بني طولون ، هو ربيعة ابن احمد بن طولون ، وكان في الإسكندرية ، وطلبوا إليه أن يسير إلى مصر ، ووعدوه أن يقوموا بنصرته . فليس من عجب إذا صادفت هذه الدعوة قبولاً في نفس ربيعة ، الذي جمع من أهل البحيرة ومن البربر وغيرهم جيشاً كثيفاً ، سار على رأسه حتى نزل قريبا من القسطنطينية . على أن حال هؤلاء القوم مع ربيعة كانت أشبه من بعض الوجوه بحال أهل الكوفة مع الحسين بن علي ، فقد خذلوا ربيعة وقعدوا عن نصرته ، ولم يحولوا على الأقل دون خروج جند هرون الذين قاتلوه وأسروه (شعبان سنة ٢٨٤هـ) ثم أخذوا بالسياسة ، حتى قيل إنه ضرب ألفاً ومائتي سوط ، ومات تحت الضرب . لم يفلح المناوئون لحكم هرون فيما دبروه ، بل لم تعد نصرتهم لربيعة حد التدبير والكتابة . وفي عهد هارون خرج القرامطة بالشام (٢٩٠هـ) ، وكانت تابعة لمصر ، فأنفذ إلى مصر جيشاً لمحاربتهم . فلم يوفق هذا الجيش إلى إخراجهم من الشام ، بل حلت به الهزيمة ، مما يدل على مبلغ الضعف الذي وصلت إليه مصر في ذلك الحين . وقد أدى ذلك الضعف إلى تجديد رغبة الخلافة العباسية في إعادة مصر إلى سلطانها المطلق ، فبعث الخليفة المكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥هـ) محمد بن سليمان الكاتب لاستردادها من هرون (١) ، فزل بحمص وبعث بأسطول بحري إلى سواحل هذه البلاد ، ثم واصل السير إلى فلسطين ، وخرج هرون بن خمارويه لدفع سليمان عن دخول مصر ، وسير المراكب الحربية لقتاله . وفي تنيس التقى الأسطولان العباسي والمصري ، فحلت الهزيمة بأسطول مصر ، ووقعت تنيس ودمياط في يد محمد بن سليمان .

رأى هرون أنه لا طاقة له بهزيمة الجيش العباسي ، فصمم على الفرار ، ولجأ إلى العباسية (٢) ، ومعه أهله وأعمامه ، ونفر يسير من جنده . وفي هذا المكان قتله عمه شيبان وعدي ، ابنا احمد بن طولون ، وهو منشغل باللهو ، ثم بالخر (صفر سنة ٢٩٢هـ) ، ولم يناهز حينذاك الثانية والعشرين من عمره . هكذا انتهت ولاية هرون الذي قتل على يد عميه ، فكان طبيعياً إذا أن يؤول أمر هذه الولاية إلى أحد قتلته . وقد آلت فعلاً إلى عمه شيبان ، الذي لم يلبث أن سار إلى القسطنطينية لاستلام مقاليد هذه الولاية . بيد أن هذا العمل لم يرض الجنود ، بل أغضبهم بمقدار ما أغضبهم قتل مضر بن أحمد بن طولون على يد بن أخيه جيش بن خمارويه من قبل . وأتسكروا القواد والجنود جميعاً ما أتاه شيبان وأخوه ، ولم يعترفوا بولاية شيبان ، وكاتبوا محمد بن سليمان وطلبوا المسير إلى مصر ، فسار حتى نزل

(١) الطبري ٢ : ٢٢٥١ - ٢٢٥٢

(٢) قال ياقوت في معجمه = هي بلدة أول ما يلقى القاصد لمصر من الشام من الديار المصرية ، ذات نخل طوال . وقد عمرت في أيامنا ، لأن الملك الكامل بن العادل بن أيوب جعلها من متزهاته ، وكان يكثر الخروج إليها للصيد ، لأن إلى جانبها مما يلي البرية مستنقع ماء يأوي إليه طير كثير ، فهو يخرج إليها وللصيد ، بينهما وبين القاهرة حجة عشر فرساجاً . سميت بعباسية بنت أحمد بن طولون ، التي صحبت قطر الندى ابنة أخيها خمارويه في طريقها إلى بغداد لتعرف إلى الخليفة المعتضد العباسي . وفي هذا الموضع عملت عباسية قصراً أحكمت بناءه ، وفيه ودعت ابنة أخيها . ومن ثم عمر ذلك المسكن المقفر ، وصار بلداً ، فكان يقال له قصر عباسية ، ثم أطلق عليه فيما بعد عباسية فقط ، ويطلق الآن على بلدة بجوار الزقازيق .

العباسة حيث لقيه طنج بن جرف في جمع كثير من القواد ، وصحبوه إلى القسطنطينية . وهنا انضم إليهم عامة أصحاب شيبان ؛ فلم يجد هذا بدا من طلب الأمان من محمد بن سليمان . وفي شهر ربيع الأول سنة ٢٩٢ هـ خرج شيبان ، ولم يكن قد مضى على ولايته غير اثني عشر يوماً ، ودخل القائد العباسي مدينة القطناع ، وألقى فيها النار ، ونهبت رجاله القسطنطينية وكسروا أبواب السجون ، وأخرجوا أولاد ابن طولون وأنصارهم من القواد . وهكذا زالت الدولة الطولونية بعد أن حكمت هذه البلاد ثمانياً وثلاثين سنة (١) .

على أن الاضطرابات قد استمرت في هذه البلاد ، بسبب ضعف الخلفاء العباسيين ، وعجزهم عن المحافظة على سلطانهم فيها ، لاستبداد الأتراك بالسلطة ، وضعف مصر نفسها ، وقيام المنافسة بين الولاة وعمال الخراج . هذا إلى أن مصر قد تعرضت في ذلك الوقت لغزوات الفاطميين ، الذين أسسوا دولتهم في بلاد المغرب سنة ٢٩٦ هـ ، وحاولوا الاستيلاء على مصر مرات لاتخاذها مركزاً لشر دعوتهم ، ومقراً لخلافتهم ، وبسط نفوذهم في الشرق . وظلت مصر على هذه الحال ، إلى أن رلها محمد بن طنج الإخشيد ، فدخلت في عهده في طور جديد من التقدم والإصلاح (٢) .

### مدينة القطناع في عهد الطولونيين :

وكانت مدينة القطناع في عهد الطولونيين حافلة بالعلماء والمحدثين والمتصوفة والأدباء والشعراء والمؤرخين . نذكر منهم على سبيل المثال القاضي بكار بن قتيبة ، الذي كان من أبرز قضاة المسلمين وأعلمهم بالفقه الإسلامي (٣) ، وأبا الفيض ذا النون المصري الذي كان لمدرسته أثر كبير في الدولة الطولونية .

ومن المحدثين الربيع بن سليمان تلميذ الإمام الشافعي . ويذكر المؤرخون أن ابن طولون أعطاه في أول درس ألقاه في جامعته كعشاء ألف دينار . وكان لهذا العطاء أثره ؛ فقد ألف الربيع كتاباً عن الحديث المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو : « من بنى لله مسجداً ولو كسفت حصص قضاة ، بنى الله له بيتاً في الجنة » (٤) . ومن نبغ في هذا العصر ابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ ، وهو أول مؤرخي مصر الإسلامية . وكتابه المشهور « فتوح مصر والمغرب والأندلس » من أهم المراجع التي يعتمد عليها . وقد بلغ الأدب بمصر في عهد هذه الدولة درجة عظيمة من التقدم . ولا أدل على ذلك مما رواه المقرئ (٥) عن القاضي أبي عمرو عثمان النابلسي الذي قال في كتابه « حسن السيرة في اتخاذ الحصن بالجزيرة » ، إنه رأى كتاباً لا يقل حجمه عن اثني عشرة كراسة ، يحوى فهرست شعراء ميدان ابن طولون . فإذا كانت أسماء الشعراء في اثني عشرة كراسة فكيف يكون عددهم ؟ وكيف يكون مقدار شعرهم ؟ وما يصدق عليهم من الأموال ؟ .

(١) أنظر سقوط الدولة الطولونية في المقرئ : خطط ج ٢ ص ٣٢٣ وما يليها ، وأبي المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٨٨ - ١٤٣ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : أنظر كتاب الجبل في التاريخ المصري ص ١٥٢ .

(٣) راجع سيرة بكار في السكندرية : كتاب القضاء ص ٥٠٩ - ٥١٤ .

(٤) المقرئ : خطط ج ٢ ص ٢٦٥ . (٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٢٦ .

## الدولة الإخشيدية

( في مصر والشام )

٢٢٢ - ٣٥٨ هـ = ٩٣٥ - ٩٦٩ م

الإخشيديون (١)

هجريّة	ميلاديّة	
٢٢٢	٩٣٥	( ١ ) محمد الإخشيد بن طغج
٢٢٤	٩٤٦	( ٢ ) أبو القاسم أنوجور بن الإخشيد
٢٤٩	٩٦٠	( ٣ ) أبو الحسن علي بن الإخشيد
٣٥٥	٩٦٦	( ٤ ) أبو المسك كافور
٣٥٧	-٩٦٧	( ٥ ) أبو الفوارس أحمد بن علي
٣٥٨	٩٦٩	

[ الفاطميون ]

محمد بن طغج (٢) الإخشيد (٣٢٣-٣٣٤ هـ) :

الإخشيديون منزولون إلى مصر :

كان أبو بكر محمد بن طغج بن جف من أولاد ملوك فرغانة ، وكان كل من ملكها يلقب بالإخشيد ، كما يلقب ملك الفرس بكسرى ، وملك الروم بقيصر ، وملك الحبشة بالنجاشي .  
سار جف جد الإخشيد إلى الخليفة المعتصم ، فأكرمه ، وأقام معه إلى أن توفي هذا الخليفة ، فاتصل بابنه الواثق ، ثم بأخيه المتوكل ، وظل على ذلك إلى أن توفي في نفس الليلة التي قتل فيها المتوكل .  
ولما سار إلى بغداد بمن بقي من الطولونيين وأنصارهم ، سار معه ابنه طغج ، فنقل على الوزير العباس بن الحسن ، لأنه ترفع عن النزول له والترجل ، فأوقع به الوزير عند الخليفة ، وحبس مع ابنه محمد وعبيد الله .

وقد ظل طغج وابناه في الحبس إلى أن توفي سنة ٢٩٤ هـ على ما تقدم ؛ فأطلق الوزير ابنه ، فلزم خدمته ، وصارا يركبان معه إذا ركب ، ويقفان بين يديه إذا جلس ، وظلا على ذلك إلى اليوم الذي ضرب فيه الحسين بن حمدان الوزير العباس بن الحسن بالسيف على عاتقه . ولم يكن ولدا طغج قد نسي الأخذ بثأر أبيهما ، كما لم يكن ابن حمدان يجهل ما فعله الوزير بطغج ؛ فلما سقط الوزير

(١) Stanley Lane-Poole : Muhammadan Dynasties, P. 96.

(٢) وتفسير طغج ؛ على ما ذكره ابن خلكان ، عبد الرحمن .



عن جواده صاح ابن حمدان بولدى طنج لبثارا لقتل أبيهما ، فضربا العباس بالسيف ، وهرب ابن حمدان الى ديار ريعة ، وهرب عبيد الله بن طنج إلى شيراز ، حيث دخل في خدمة أميرها .  
أما طنج بن جف فقد زودنا ابن زولاق بشيء غير قليل عن سيرته ، فذكر لنا أنه ولد له سبعة أولاد من الذكور ، أحدهم محمد الإخشيد الذي ولد في منتصف شهر رجب سنة ٥٢٦٨ بشارع باب الكوفة ببغداد ، ووصفه بالثراء وسعة العيش (١) .

اتصل طنج بخدمة الطولونيين ، فولاه خمارويه دمشق وطبرية . وقد نقل لنا ابن زولاق رواية عن طنج نفسه ، تدل على أنه هو الذي دبر قتل خمارويه ، وأن هذا أرسل إليه وهو بدمشق بأمره بالمسير إلى طرسوس والقبض على واليها راغب وقتله . فشرع طنج في تنفيذ أوامر مولاه ، وبلغ طرسوس في الشتاء ، فلقية راغب في غلنامه وأكرمه الإكرام كله ، فأمسك عنه ، ثم كلفه جماعة من أهل طرسوس في شأن راغب ، وطلبوا إليه أن يعدل عن قتله ، ففعل طنج ، وعاد إلى دمشق ، ثم انتحل لنفسه من المعاذير ما حاول به أن يصف لخمارويه ما قام في وجهه من مصاعب ، حالت دون قتل راغب .

فبينما طنج في مقر ولايته ، إذا بخمارويه يشد رحاله ، ويأتيه بدمشق على غير علم ، وقد عزم على قتله لمخالفته أوامره . وبينما خمارويه في مجلس شرابه ، وقد أثقلت رأسه الخمر ، قال لطنج إنه إنما جاء دمشق من أجله ؛ فروّع طنج ، ودبر قتل خمارويه في تلك الليلة مع راغب ، وبذلك أمن شره وبلاءه . ولا يبعد أن يكون لهذه الرواية نصيب من الصحة ، إذا علمنا أن وفاة طنج كانت في سنة ٥٢٩٤ ، أي بعد انقراض الدولة الطولونية بستين ، كما لا يبعد أن يكون طنج قد أفضى هو أو بعض خاصته بهذا الحديث ، بعد أن عفى الدهر على آل طولون وذهبت ريحهم ، وأمن هو شرهم ، في وقت لم يبق منهم من يثار لقتل خمارويه . أما راغب فإنه يلوح لنا أنه صحب طنج إلى دمشق سرا .

وظل طنج على ولاية دمشق وطبرية في أيام أبي العساكر جيش بن خمارويه ، وكان ابنه محمد ، الذي عرف فيما بعد بالإخشيد ، ينوب عنه في ولاية طبرية .

اتصل محمد بن طنج بخدمة ابن بسطام عامل بلاد الشام . وقد ذكر ابن سعيد (٢) نقلا عن ابن زولاق أن عبيد الله بن طنج عاد إلى بغداد في أيام الخليفة المقتدر ، واتصل بخدمته ، وحاز من علو المرتبة ما جعله يفخر على أخيه الإخشيد ، فكان يخرج معه للصيد . ولما ولي ابن بسطام مصر صحبه الإخشيد إليها وبقى معه إلى أن توفي سنة ٥٢٩٧ ، فاتصل بخدمة ابنه أبي القاسم على ، ثم حارب تحت قيادة تسكين (٣) ، في الموقعة التي دارت بين الجنود المصريين وجند حباسة بن يوسف الکتامي قائد

(١) تنجلى في وصفه له روح المبالغة ؛ من ذلك قوله إن خزانة طيبه حملت في إحدى سفرائه على أكثر من خمسين جملا ، وأنه كان له وهو بدمشق قبة مشكبة يطيب فيها ، فنصل رائحة الطيب إلى أكثر جهات المدينة .

(٢) المغرب في حلى المغرب ص ٧ .

(٣) ولي تسكين مصر ثلاث مرات هي : ٢٩٧ - ٣٠٢ ، ٣٠٢ - ٣٠٩ ، ٣١١ - ٣٢١ .

الخليفة عبيد الله المهدي الفاطمي في بلاد المغرب . وفي هذه الموقعة أبلى الإخشيد بلاء حسناً ، وتوثقت الصلة بينه وبين تكين ، فكان ينتقل معه بين الشام ومصر . وقد ولي عثمان وجبيل الشراة (١) في سنة ٣٠٦ هـ نيابة عن تكين الذي كان يلي بلاد الشام إذ ذاك . ثم ولاء الإسكندرية في ولايته الثانية على مصر (٣٠٧ - ٣٠٩ هـ) ، واشترك في غزوة الفاطميين الثانية على مصر بقيادة القائم بن المهدي وولى عهده .

### تولية الإخشيد بمصر :

اشتهر أمر الإخشيد في الدولة العباسية منذ سنة ٣٠٦ هـ ، حين ولي إقليم طبرية وجبيل الشراة نيابة عن تكين ، وذلك على أثر بلائه وإيقاعه بجماعة من لحم وجذام كانوا قد دهموا حاج الشام وجماعة من أهل العراق ، منهم جارية أم الخليفة المقدر . وقد سار الإخشيد بالأسرى الى دمشق ، فحمد له تكين هذا العمل ، وكتب أهل العراق بما كان من خلاصهم على يد الإخشيد ، فاشتهر أمره ، وكتب إليه الناس يشكرون له فعله ، ويحمدون له مروءته .

ولا غرو فقد كان من أثر انتصار محمد بن طغج على جند الفاطميين الذين غزوا مصر (٣٢١ - ٣٢٤ هـ) ، أن أمر الخليفة العباسي بزيادة الإخشيد ، على اسمه ، وهو اللقب الذي كان يطلق على ملوك فرغانة ، ودعى له بهذا اللقب على منابر مصر والشام في شهر رمضان سنة ٣٢٧ (٢) .

وقد أعاد الإخشيد النظام والسكينة ، ووطد مركزه في مصر والشام ، وصد غزوات الفاطميين الذين أرسلوا إلى مصر حملة استمرت ثلاث سنوات (٣٢١ - ٣٢٤ هـ) ، حدثت فيها مناوشات بين جند الفاطميين والمصريين ، وانتهت بمهادنة الصلح .

ويخبرنا السكندی (٣) أنه قد حدثت في عهد ولاية الإخشيد الثانية (رمضان سنة ٣٢٣ - جمادى الثانية سنة ٣٢٤) عدة مواقع انتهت بعقد الصلح بين الفريقين ، وانضمام بعض زعماء المصريين إلى جيش المغاربة ، الذي دخل الإسكندرية ، فأرسل إليهم الإخشيد جيشاً هزمهم ، وأرغمهم على العودة إلى بلادهم .

وكتب القائم الفاطمي إلى الإخشيد بيده كتاباً دوّنه ابن سعيد في كتابه «المغرب في حلى المغرب» (٤) . وإنما فعل ذلك رغبة منه في أن تفعل سياسة اللين والمسالم ما لاتفعله سياسة العداوة والحرب ، التي أخفق فيها هو وأبوه من قبل .

ولاشك أن النزعة السياسية والمذهبية في مصر قد أصبحت منذ أيام الإخشيد في جانب الفاطميين . وقد قيل إن القائم الفاطمي تسلّم من الإخشيد كتاباً يعرض فيه زواج ابنته من المنصور بن القائم

(١) ويقع شمال العقبة .

(٢) السكندی كتاب الولاية ص ٢٨٨ .

(٣) كتاب الولاية ص ٢٨٣ - ٢٨٥ ، ٢٨٧ .

(٤) ص ٣٥ - ٢٦ . أظن أيضاً «الفاطميون في مصر» للزواف ص ٨٣ - ٨٤ .

رولى عهده . وإن القائم قرأ هذا الكتاب على أنصاره ، فأشاروا عليه بالقبول . فكتب الخليفة الفاطمي بذلك إلى الإخشيد ، وبعث إليه بصداقها مائة ألف دينار . على أن الإخشيد استقل هذا المال ، ولم يلبث أن انشغل بحرب ابن رائق . ثم مات الإخشيد والقائم الفاطمي ، واشتغل ابنه المنصور بقمع الثورات الداخلية التي قامت في بلاده ، ولم يفكر في غزو مصر . وبذلك لم تتم مسألة الزواج ، وانصرف الفاطميون عن غزوها .

### علاقة الإخشيد بالخزرجية :

سادت صلة الولاة بين الإخشيد والخزرجية إلى سنة ٣٢٨ هـ ، حين تبدلت هذه الصلة بمسير محمد بن رائق الخزرجي إلى الشام يريد مصر بتقليد من الخليفة ، مما حدا بالإخشيد إلى إلغاء الخطبة للخليفة العباسي ، وذكر اسم الخليفة الفاطمي محل اسمه في الخطبة ، أو على الأقل إلى وقف الدعوة للخليفة العباسي ردحاً من الزمن .

وفي هذه السنة وقعت الحرب في العريش بين الإخشيد وابن رائق ، الذي استولى على دمشق من قبل ، فضى ابن رائق مهزوماً إلى الرملة . وعلى الرغم من قتل عبيد الله بن طنج أخى الإخشيد ، فقد عقد الصلح على ما يحب ابن رائق ، فنقلد ولاية الأراضي الشامية الواقعة شمال الرملة ، وتعهد الإخشيد أن يدفع إليه ١٤٠,٠٠٠ دينار جزية سنوية ، مما حدا ببعض المؤرخين إلى أن يعد عقد الإخشيد الصلح على هذه الصورة ، مع انتصاره على خصمه ، دليلاً على ضعف سياسته .

على أننا نرى في عمله هذا ما يبرره نظراً للأحوال التي كانت تحيط به ، لأنه كان يخشى أن تواصل الخليفة العباسية الحملات عليه ، على الرغم من انتصاره في هذه المرة ، ولأنه كان يخشى خصماً آخر يهدده من ناحية مصر الغربية ، وهو الخليفة الفاطمي .

على أن وفاة ابن رائق بعد الصلح بسنتين قد أعادت إلى حوزة الإخشيد كل بلاد الشام من غير حرب ، ودخلت مكة والمدينة تحت سيادة مصر ، فأصبح الإخشيد من القوة بحيث يستطيع أن يأمر عماله وقواده بالاعتراف بولاية ابنه أنوجور .

غير أن الأمر لم يكن قد استتب للإخشيد بعد ، لخروج العلويين عليه في مصر ، ومناوأة الحمدانيين الذين استولوا سنة ٣٢٢ هـ على قنسرين والعواصم ، فولاهما ناصر الدولة بن حمدان صاحب الموصل ابن عمه الحسين بن سعيد بن حمدان (١) . ثم سار الإخشيد إلى الشام ، فانتزح ابن السراج العلوي (٢) هذه الفرصة ، وسار إلى الصعيد ، ونهب بعض بلاده . ولكن قوته لم تكن بالتى تدبيل دولاً وتقيم أخرى ؛ فسرعان ما سار إلى برقة ، ودخل في سلطان الخليفة (٣) .

وقد سامت العلاقة بين الإخشيد وبين سيف الدولة الحمداني على أثر استيلائه على حلب ، واضطر

(١) النجوم الزاهرة لأبي الحسن ج ٣ ص ٢٨٠ .

(٢) هو محمد بن يحيى بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن موسى بن علي بن أبي طالب .

(٣) كتاب الولاة للسكندى ص ٢٩١ .

الإخشيدي إلى عقد الصلح الذي يقضى بترك حلب وما يليها من بلاد الشام شمالاً للحمدايين ، وتمهد بأن يدفع لهم جزية سنوية كفاء احتفاظه بدمشق .

### وصاية كافور على أولاد أبي غنيم :

ولما شعر الإخشيدي بدنو أجله ، عهد إلى كافور بالوصاية على ولده أبي القاسم أنوجور كما تقدم . وقد مات الإخشيدي بدمشق في ٢٢ ذى القعدة سنة ٣٣٤ هـ [بولية سنة ٩٤٦ م] ، وهو في السادسة والستين من عمره ، ونقل إلى بيت المقدس ، ودفن بها بعد أن ولي مصر إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر ويومين . تخلفه ابنه أبو القاسم أنوجور ، ثم أبو الحسن علي . ولا نستطيع الحكم عليهما ، إذ لم تترك لهما الفرصة الكافية لإظهار كفايتهما حتى ماتا في غموض تام ، لم يشعر بولايتهما أحد . وكان أنوجور في ذلك الحين لا يزال طفلاً ، لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ؛ فقام بتدبير أمره كافور الإخشيدي ، الذي بقيت علاقته بهذا الوالي الجديد على ما كانت عليه من قبل ، وهي علاقة الأستاذ بالتلميذ ، وأصبح كافور بذلك صاحب السلطان المطلق في إدارة الدولة الإخشيديية (١) ، وبقي الاسم لابن القاسم والدمست (٢) لكافور (٣) .

ولد أبو المسك كافور اللبني أو اللاني (٤) ، بين سنتي ٢٩١ هـ [٩٠٤ م] و ٣٠٨ هـ . وقد بدأ حياته ملوكاً حقيراً ، وسرعان ما ترقى في بلاط الإخشيدي ، فأصبح مريباً لأولاده ، وقائداً من قواده . وإليه آلت الوصاية على أبنيه أنوجور (٥) وأبي الحسن علي ؛ فاستبدت بالسلطة ، ثم أصبح والياً شرعياً على مصر والشام والحجاز ، كما كان نصيراً للعلوم والآداب ، وصديقاً لابن الطيب المنفي ، أشهر شعراء عصره . وقد أثار كل هذا اهتمام مؤرخي العرب ، فألوه شيئاً كثيراً من الإعجاب والإطراء . ولكافور أهمية خاصة بين ولاية مصر ، وذلك لصدده الفاطميين — الذين قامت دولتهم في بلاد المغرب — والحمدايين في حلب ، ثم لمحافظة علي ذلك التراث الذي خلفه الإخشيدي مؤسس الدولة الإخشيديية في مصر سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٥ م) .

كان كافور دميم الخلق إلى حد كبير . وصفه ابن خلكان (٦) فقال : « كان أسود اللون شديد السواد بصاصاً (٧) » . وقال صاحب كتاب « الصلح المنبئ عن حبيبة المنبئ » ، وه كافور هذا عبد

(١) تجارب الأمم لمسكويه ج ١ ص ١٥٤ ، والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد ص ١٤٥ ، والفاطميون في مصر المؤلف ص ٩٣ .

(٢) الدمست منناه الديوان ومجلس الوزارة والرياسة (راجع كتاب شفاء الغليل) .

(٣) أبو المحاسن : كتاب النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢ .

(٤) نسبة إلى مدينة اللاب مسقط رأسه ببلاد النوبة .

(٥) أو أنوجور (فتح الألف) ، ومعناها بالعربية محمود علي ما ذكره ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان

ج ١ ص ٥٤٥ .

(٦) كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٣١ . (٧) بصاص وصف من بس بمعنى برق ولمع وتلاصق

أسود خصي ، مشقوب الششفة السفلى ، بطين قبيح ، مشقوق القدمين ، ثقيل البدن ، . وقد روى ابن سعيد (١) نقلا عن كتاب العيون الدمشقي في حلي دولة بني طغج ، لابن زولاق ، المتوفى سنة ٥٣٨٦ هـ ، أن كافورا لما جرى به إلى سوق الرقيق بمصر (٢) ومعه أسود آخر ، تمنى ذلك الأسود الآخر أن يباع لطباخ حتى يظل طوال حياته شبعان بما في المطابخ ؛ وتمنى كافور ملك مصر ، فحقق الله أمنية كل من الرجلين . ولما قبض كافور على زمام الأمور مر يوما في السوق ، فرأى الأسود الآخر في ثياب المطابخ فقال لبعض خاصته : « أدرك كل واحد ما أمته » .

ويكنى كافور « أبا المسك » . وقد أطلقت هذه السكنية عليه من قبيل التلميح والمشاكلة ، لأن المسك أسود ، وكان كافور كذلك . وكثيرا ما يستعمل العرب ذلك . قال عنتره العبسي :

فإن أك أسوداً فالمسك لوني وما لسواد جلدي من دواء  
ولكن تبعد الفحشاء عني كبعده الأرض من بعد السماء

ومن الدعابة إطلاق لفظ كافور عليه ، لأن السكافور أبيض ، وكان هو أسود اللون .

اشترى محمد بن طغج الإخشيد كافورا سنة ٥٣١٢ هـ من زيات يدعى محمود بن وهب بن عباس ، بثمانية عشر دينارا (٣) ، أي أقل من عشرة جنيهات . وذهب بعض المؤرخين إلى أن الإخشيد لم يشتره بالمال ، وإنما أرسل إليه بهدية ، فتوسم فيه الذكاه ، واحتفظ به ، وورد الهدية إلى صاحبها . رسوا اشتري الإخشيد كافورا أم لم يشتره ، فقد تربى في داره تربية عالية ، وأظهر من المزايا ما حجب فيه مولاة . من ذلك ما يروى من أن الإخشيد قد جرى له بعد أن آلت ولاية مصر إليه [سنة ٥٣٢٣ هـ] بغيل وزرافة ، فقال جميع الخدم والعييد بأبصارهم إليهما . على أن عين كافور لم تبرح عين مولاة ، حتى لا ينشغل بما يليه عن إجابته إذا هو احتاج إليه . فأعجب به الإخشيد ، واختصه من بين عبيده ، وأولاه ثقته ، وأعتقه ، وأخذ يرقيه في بلاطه ، لعقله وحسن تديره ، وجعله من كبار قواده ، وعهد إليه في تربية ولديه أبي القاسم أنوجور وأبي الحسن علي .

• • •

في ذلك العصر الذي استبد فيه الموالي من الأتراك بالسلطة في بغداد ، وساد الحمدانيون في الموصل وشمال بلاد الشام ، في ذلك العصر الذي انتشر فيه نفوذ الأمويين بالأندلس ، وأسس الفاطميون دولتهم في بلاد المغرب وصقلية ، والسامانيون في خراسان ، والإخشيديون في مصر والشام والحجاز ، انتقلت السلطة في بغداد إلى بني بويه في سنة ٥٣٣٤ هـ ، ومات الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية ، وآلت الوصاية على ولده أنوجور إلى كافور ، ذلك المملوك الخصي ، الذي قدر له أن يستبد بالسلطة في مصر وما يليها من البلاد ، زهاء إحدى وعشرين سنة .

(٢) أي القسطنطينية والمسكر .

(١) المغرب في حلي المغرب ص ٤٩ .

(٣) ابن خلسكان : كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٣١ .

وقد قام في وجه كافور في مبدأ حكمه بعض المشاكل الداخلية والخارجية : فنجح في القضاء على ثورة قام بها أهل مصر ، فارتفع شأنه عند الناس على اختلافهم (١) . وبعد ذلك بقليل وردت الأنباء باضطراب الأمور في الشام ، واستيلاء سيف الدولة الحمداني صاحب حلب على دمشق ، وبأنه عول على المسير إلى الرملة لغزو مصر . فحاربه كافور والحسن بن عبيد الله بن طغج أخى محمد بن طغج الإخشيد على ما تقدم ، وانتصرا على سيف الدولة انتصارا حاسما ، بالقرب من مرج عسندرا ، بجوار دمشق . ودخل الجيش المصرى مدينة حلب ، وعقدت بين الفريقين معاهدة الصلح ، بنفس الشروط التى عقدت بها في أواخر أيام الإخشيد ، ماعدا الجزية ، فقد وقف دفعها . وحصل كافور على موافقة الخليفة العباسى على تولية الأمير الصغير على مصر والشام وعلى المدينتين المقدستين مكة والمدينة ، كما ضم إلى حكم مصر فيما بعد كل بلاد سورية ، حتى مدينتى حلب وطرطوس . بذلك عظم شأن كافور ، وزادت شهرته ، واستطاع أن يقبض على زمام الأحكام ، من غير أن تكون له سلطة تشريعية . وخاطبه عليه القوم بالأستاذ ، وذكر اسمه في الخطبة ، ودعى له على المنابر في مصر والبلاد التابعة لها ، وأتيح له بما أغدقه من العطايا والهبات أن يكتسب محبة رؤساء الجند وكبار الموظفين . (٢)

على أن أنوجور لما كبر وشعر بحرماته من سلطته ، ظهرت الوحشة بينه وبين كافور . وانقسم الجند فريقين : الإخشيدية ، وهم عماليك الأسرة الإخشيدية وأنصارها ، والكافورية ، وهم أنصار كافور الذين رقام إلى المناصب العالية في الدولة . ومع ذلك فقد ظل كافور على ما هو عليه ، بصرف لابن سيده راتبا قدره المقربى (٣) بأربعمائة ألف دينار في السنة .

وقد عول أنوجور على المسير إلى الرملة سنة ٣٤٣ هـ ، وربما كان يرى بذلك إلى إعداد جيش يزحف به على مصر ، للتخلص من كافور بحمد السيف . ولكن أم أنوجور سمعت إلى مصالحتها ، خوفا على ولدها من بطش كافور ، فتصالحا . وظل أنوجور مسلوب السلطة ، لا يملك من الأمر شيئا ، حتى مات سنة ٣٤٩ هـ [ ٩٦٠ م ] . ويهم بعضهم كافورا بأنه سعى إلى موت أنوجور ، فإن كراهته لهذا المعتصب كانت غير خافية . وقد دبر له المكائد والحيل للتخلص منه ؛ ولذا يقال إن كافورا سقاها السم . على أنه من الصعب أن نقبل هذه التهمة على علاتها ، فقد عرف كافور بالعفة وكرم الخلق . روى ابن سعيد (٤) عن ابن زُولاق أن أحمد بن طولون ذكر في مجلس كافور بأنه أحصى من قتل أو مات في حبسه ، فكانوا ثمانية عشر ألفا ؛ فاستعاذ كافور بالله من هذا الأمر ، ورفع يديه يدعو الله أن يجعل أضعافهم في ديوان إحسانه وصيلائه . على أنه من الجائز أن كافورا — لما عرف بنية أنوجور — رأى أن يعجل بقتله ، حرصا على حياته ، وإبقاء على مركزه . وإذا أخذنا

(١) النجوم الزاهرة لابن المحاسن ج ٤ ص ٢ .

(٢) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٤٧ .

(٣) الخطط ج ٢٧ .

(٤) كتاب المغرب في حلى المغرب ص ٤٨ .

هذا الاحتمال ، فمن الجائز أن يكون كافر قد انتحل طيبة القلب سياسة منه ، لاجتناب قلوب الناس إليه .

ولا شك أن كافورا كان مشغولاً بالإمارة ، ولوعاً بالسلطة ؛ فإنه لما تولى أبو الحسن علي بن الإخشيد بعد أخيه أنوجور ، ظل كافور يباشر الأمور بنفسه ، على الرغم من أن الوالي الجديد قد ناهز الثالثة والعشرين من عمره ، بل إنه حرمه كل عمل ، ومنع الناس من الاجتماع به ، فأصبح أبو الحسن أسيراً في قصره ، لا يعمل له إلا الصلاة أو اللهو ، وعيّن له كافور - كما عين لأخيه من قبل - أربع مائة ألف دينار في كل سنة . وبقى أبو الحسن على ذلك إلى أن مات سنة ٣٥٥ هـ بالهالة التي مات بها أخوه من قبل .

### نوبة كافور على مصر :

وكان الوارث للعرش ولد صغير يدعى أحمد بن أبي الحسن علي ، لمخال كافور دون تعيينه ، بحجة أنه غير صالح للحكم لصغر سنه ، وبقيت مصر بغير أمير نحواً من شهر . وفي المحرم سنة ٣٥٥ هـ أخرج كافور كتاباً من الخليفة العباسي بتقليده على ولاية مصر ، وأظهر الخلع التي وصلت إليه من الخليفة ، فنودي به والياً على مصر وما يليها من البلاد ، فلم يغير لقبه « الأستاذ » ، ودعى له بعد الخليفة على المنابر (١) . وفي ذلك يقول ابن خلدان (٢) : « لما أشير على كافور بأقامة الدعوة لولد أبي الحسن علي ابن الإخشيد ، احتج بصغر سنه ، وركب بالمطارد ، وأظهر خلعا جاءته من العراق ، وكتاباً يتكئسيتيه ، وركب بالخلع يوم الثلاثاء لعشر خلون من صفر سنة خمس وخمسين وثمانمائة » .

وإن حالة أولاد الإخشيد مع كافور لتشبه في كثير من الوجوه حالة الخلفاء العباسيين مع الموالي من الأتراك ، وملوك الميروفنجيين Merovingians المتأخرين الذين أصبحوا أشبه شيء بالأعيب في أيدى نظار المرأى (٣) .

ظل كافور على رأس الحكومة المصرية زهاء سنتين وأربعة أشهر ( ١٠ صفر سنة ٣٥٥ - ٢٠ جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ ) . ويصف المؤرخون عهده بأنه كان عهداً أسود ، توالى فيه المصائب على مصر ؛ فقد تعرضت بلاد الشام لغارات القرامطة الذين نهبوا وقبضوا على قافلة مصرية كبيرة تحتوي عشرين ألف جمل كانت ذاهبة إلى مكة لأداء فريضة الحج ( ٣٥٥ هـ ) ، ووقعت بمصر زلازل مروعة ، وشبت نيران هائلة ، دمرت ١٧٠٠ منزل من منازل القسطنطين ، وأغار ملك الثوبية

(١) كتاب المغرب في حل المغرب ص ٤٦ ، ٤٩ ، نقل عن أبي عبد الله محمد بن سعد القرطبي . انظر كتاب « الفاطميون في مصر » للمؤلف ص ٩٤ .  
(٢) كتاب وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٤٣١ .  
(٣) Thatcher and Schwill : History of Europe, p. 42

على مصر فجأة، وعات فساداً في البلاد الواقعة بين الشلال الأول وإسخم، فأحرق بعض المدن، وقتل أهلها بالسيف ونهب أموالهم.

وكان أشد هذه الأهوال انخفاض ماء النيل. ففي أواخر عهد الدولة الإخشيدية انخفض النيل انخفاضاً دام تسع سنين (٣٥١ - ٣٦٠ هـ)، وبقي حتى أيام الفاطميين. وقد قاست البلاد الأمرين مما أصابها من الفحط والوباء، واشتد النلاء، وندر وجود القمح، وفشا الموت بحالة عجز معها الناس عن تكفين الموتى ودفنهم. وقد ذكر بعض المؤرخين أن عدد الموتى بلغ ستائة ألف، وأنه كان يُسلقى بجثثهم في النيل لكثرتها. وقد تبع انخفاض النيل اضطراب الأعمال الحكومية، وانتشار المجاعات والأوبئة، فنهب المحاصيل، وعم السلب والنهب، حتى إن كافوراً لم يستطع أن يدفع أرزاق الجنود - وكانوا من الأتراك والروم - فناروا عليه. ولعل ذلك مما دفع لينيول<sup>(١)</sup> إلى القول بأن كافوراً كان بلا شك خادماً موقفاً أكثر منه قائداً ناجحاً.

وفي عهد كافور حاول المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين العودة لغزو مصر، وسار بجيشه إلى حدود هذه البلاد الغربية، ووصل إلى الواحات. لجأ إليه كافور جيشاً وقف تيار تقدمه وطرده، ولكنه تلقى بالقبول الدعاء الفاطميين الذين قدموا عليه من قبل المعز يدعونه إلى طاعته والاعتراف بسيادته، ووعد كثير من رجال بلاطه وكبار موظفي دولته بتقديم الولاء للخليفة الفاطمي.

استطاع كافور أن يُبقي على النظام الذي ساد مصر منذ عهد الإخشيد. نعم كان كافور خادماً موقفاً، وكانت له شخصية قوية، فوفق إلى حد كبير في استجلاب رضا مولاة الإخشيد، حتى وصل إلى مركز يحسد عليه. وقد بذل جهده في الاحتفاظ بهذا المركز، فتمتع البلاد بشيء كثير من الرفاهية، حتى إننا لا نسمع في ذلك العهد الذي يربو على اثنتين وعشرين سنة، تدمراً أو سخطاً من جانب المصريين بما يدل على أنه كان محبوباً إلى رعيته.

روى أبو المحاسن<sup>(٢)</sup> عن الذهبي: «وكان كافور يُدنى الشعراء ويحيزهم، وكانت تُقرأ عنده في كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية، وله ندماء. وكان عظيم الحرمة، وله حُجَّاب، وله جوار مغنيات، وله من الغلمان الروم والسود ما يتجاوز الوصف. زاد ملكه على ملك مولاة الإخشيد، وكان كثير الخُلس والهبات، خبيراً بالسياسة، فطنا ذكياً، جيد العقل داهية. كان يهادى المعز صاحب المغرب، ويظهر ميله إليه، وكذا يُدع عن بالطاعة لبني العباس، ويدارى ويخادع هؤلاء وهؤلاء، وتم له الأمر».

ومن هؤلاء الشعراء أبو الطيب المتنبي، أشهر شعراء عصره، فقد فارق سيف الدولة الحمداني مغاضباً، وقصد مصر، وامتدح كافوراً بأحسن المدائح، طمعاً في أن يوليه بعض أعمال مصر. فخلع كافور عليه، وأنزله في دار، وعين جماعة لخدمته، وحمل إليه كثيراً من المال؛ ولكنه لم يوليه

(١) Stanley Lane-Poole: History of Egypt in the Middle Ages, p. 87

(٢) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦



عملا من الاعمال، معتذراً بأنه لا يستطيع أن يولى رجلا يدعى النبوة، فانقلب مدح أبي الطيب هجاء، وأسرف في ذلك كما أسرف في مدحه من قبل (١).

فن مدائح أبي الطيب المتنبى لكافور، قوله في أول قصيدة أنشدها إياه في جمادى الآخرة سنة ٣٤٦ هـ (٢):

قَوَّاصِدُ كَافُورٍ تَوَارِكُ غَيْرِهِ وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقْبَلَ السَّوَابِقِيَا  
لِحَامَتِ بِنَا لِنَسَانِ عَيْنِ زَمَانِهِ وَسَخَتْ بِيَاضاً خَلْفَهَا وَمَاقِيَا  
ولما لم ينل أبو الطيب المتنبى من كافور ما طلبه استعداد للرحيل، وأنشد في يوم عرفة سنة ٣٥٠ هـ قبل مغارقه مصر بيوم واحد، قصيدة طويلة هجاء كافوراً فيها أشد الهجاء ومنها (٣):

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد؟  
لا تشتر العبد إلا والعصا معه إن العبيد لانجاس منا كيد  
وقد نبغ بمصر في عهد كافور الإخشيد كثير من الفقهاء والأدباء والمؤرخين، ومن أشهرهم القاضي أبو بكر بن الحداد، وتلميذه محمد بن موسى المعروف بسبيويه المصري، وأبو عمر الكندي، والحسن ابن زولاق.

### صفات كافور:

ولكافور شخصية طريفة، وما أكثر القصص التي تدور حول شخصيته. من ذلك ما يروى من أنه مر بجماعة من السودان، كانوا يضربون على الطبل المعروف عندهم بالدبدبة، فطرب كافور، وحرك أكتافه على نغمات الطبل، على نحو ما يفعل السودانيون إذا ما أطر بهم هذا النوع من الضرب. فلما أفاق لنفسه، وعلم أنه فعل ذلك من غير قصد، جعل يهز أكتافه في أغلب الأحيان، دفعا لما قد تجرّه هذه الحركة من نقد الناس وسخريتهم به، حتى لا يعتقدوا أنه إنما فعل ذلك من أجل هذه الدبدبة.

وهذه الحكاية - إن صدقت - تدلنا على سرعة خاطره. وكان كافور على الهمة، عارفا بأقدار العلماء والوجوه والأشراف. روى أبو جعفر مسلم بن عبد الله بن طاهر الشريف العلوي، أنه بينما كان كافور راكبا في موكبه يوما إذ سقط سوطه، فناوله الشريف إياه، فقبل كافور يده، وقال له: «نَعَيْتَ إِلَى نَفْسِي، فَمَا بَعْدَ أَنْ نَاوَلْتَنِي وَلَدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَوْطِي غَايَةَ يَسْتَشْرِفُ لَهَا» (٤).

وقد ذكر السيوطي في رواية أخرى أن كافورا رد على الشريف بقوله: «أياها الشريف أعود بالله

(١) شرح ديوان المتنبى لعبد الرحمن البرقوقي ج ٢ ص ١٥٤.

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٥١٤، ج ١ ص ١١٨ - ١١٩، ٢٧٠ - ٢٧٦.

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٧٠ - ٢٧٦. (٤) السيوطي: حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١.

من بلوغ الغاية ما ظننت أن الزمان يُبَيِّكُنِي حتى يُفْعَلَ في هذا ، وكاد يبكي . فلما بلغ كافور داره أمر بالبعال والجنائب لترسل إلى الشريف ، فحملت من العطايا ما يربو ثمنها على خمسة عشر ألف دينار<sup>(١)</sup> .

ومن الحكايات التي أثرت عن كافور ، أن امرأة وقفت في طريقه مرة ، وصاحت به : ارحمني برحمتك الله ! فدفعها أحد رجاله دفعا عنيفا فسقطت ، فأخذ الغضب من كافور كل مأخذ ، وأمر بقطع يد الرجل ، فشفعت له حتى لا تكون شؤما عليه ، فأعجب بها كافور ، وأمر أحد رجاله أن يسألها عن أصلها ونسبها . فإذا بها عكسوية ، فشق ذلك عليه ، وعزا ما وقع إلى الشيطان ، وإغفاله إياه عن هؤلاء الأشراف ، وأحسن إلى العلوية ، وأدر الهبات والأرزاق عليها ، وعلى سائر نساء الأشراف .

### وفاة كافور :

توفي كافور بمصر في شهر جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ ، وعاش بضعا وستين سنة . وكانت إمارته على مصر ثلاثا وعشرين سنة ، استقل منها بالملك سنتين وأربعة شهور ، خطب له فيها على منابر مصر والشام والحجاز والثغور ، مثل طرسوس والمصيصة وغيرها ، وحمل تابوته إلى القدس فدفن به ، وكتب على قبره :

ما بال قبرك يا كافور منفردا      بالصَّحَّصَحَّ المَرَّتِ بعد العسكر اللُّجْبِ  
يدوس قبرك آحاد الرجال وقد      كانت أسود الشرى تخشاك في الكتب

ولما توفي كافور ، اختار رجال البلاط أبا الفوارس أحمد حفيد الإخشيد والياً على هذه البلاد ؛ وكان طفلاً لم يبلغ الحادية عشرة من عمره ، فعميتوا الحسن بن عبيد الله بن طنج - والى الشام - وصيا عليه . غير أنه لم يلبث أن استبد بالامر ، وأساء معاملة الأهلين ، فسخط عليه المصريون ، واضطر أخيراً إلى العودة إلى بلاد الشام . وقد اتهم المعز لدين الله الفاطمي فرصة هذا الاضطراب الذي فشا في مصر ، وضعف بغداد عن الدفاع عنها ، لاشغالها بصد غارات البيزنطيين ، الذين توغلوا في بلاد الدولة العباسية ، فبعث جيشاً لغزو مصر بقيادة جوهر الصقلي سنة ٣٥٨ هـ على ما سيأتي<sup>(٢)</sup> . اقتدى الإخشيد بابن طولون في العناية بالبناء ، فشيد في جزيرة الروضة قصرأ جميلاً يدعى المختار ، وقصرأ آخر أطلق عليه فيما بعد ، اليستان الكافوري ، كان يقع غربي سوق الشحاسين الآن . كما عني بإنشاء المراكب الحربية ، فنقل دار الصناعة من الروضة إلى مدينة القسطنطينية ، في دار عرفت باسم « صناعة السفن » . وغدت السفن الحربية والتجارية تصنع في دار صناعة مصر تارة ، وفي دار صناعة الجزيرة تارة أخرى .

وقد اهتم أبو الحسن علي المسعودي ، الذي زار مصر في عهد الإخشيد سنة ٣٣٠ هـ ، بوصف

(١) انظر كتاب المغرب في حلى المغرب لابن سعيد ص ٤٧ .

وقد وردت هذه الرواية بصورة أخرى في كتاب النجوم الزاهرة لأبي المحاسن ج ٤ ص ٣ - ٤ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : كتاب المجلد في التاريخ المصري ص ١٥٤ - ١٥٥ .

الأهرام وغيرها من الآثار، أكثر من اهتمامه بوصف المباني، والبلاط، وطبقات الشعب، وحالة السكان. إلا أنه مع ذلك لم يغفل الكلام على وصف نظام الري، وجبر الخليج، وقطع السدود، وليلة الغطاس، كما وصف ما قام به المصريون من أعمال البحث والتنقيب عن الآثار، وكشفهم أقية مملوءة بالمياكل والموميات. ولا يخفى ما كان لذلك من أثر في تنبيه الأذهان إلى أهمية الكشف عن الآثار المصرية.

وقد عمل كافور على تنمية موارد الثروة في مصر، فأصبح خراجها يربو على أربعة آلاف ألف دينار كل سنة. كما ازدادت في أوائل عهده ثروة مصر، وكان هو نفسه يملك أموالاً ضخمة، أنفق منها بسعة على العلماء والأدباء والشعراء الذين كانوا يغمرونه بقريضهم (١).

## الدولة الفاطمية

(في بلاد المغرب ومصر)

٢٩٧ - ٥٦٧ = ٩٠٩ - ١١٧١ م

الخلفاء الفاطميون (٢)

هجري	ميلادية	السلطان	هجري	ميلادية
٤٢٧	١٠٣٥	(٨) المستنصر أبو تميم معد	٢٩٧	٩٠٩
٤٨٧	١٠٩٤	(٩) المستعلي أبو القاسم أحمد	٣٢٢	٩٣٤
٤٩٥	١١٠١	(١٠) الأمر أبو علي المنصور	٣٣٤	٩٤٥
٥٢٤	١١٣٠	(١١) الحافظ أبو الميمون عبد المجيد	٣٤١	٩٥٢
٥٤٤	١١٤٩	(١٢) الظافر أبو المنصور اسماعيل	٣٦٥	٩٧٥
٥٤٩	١١٥٤	(١٣) الفائز أبو القاسم عيسى	٣٨٦	٩٩٦
٥٥٥	١١٦٠	(١٤) العاضد أبو محمد عبد الله	٤١١	١٠٢٠
٥٦٧	١١٧١			

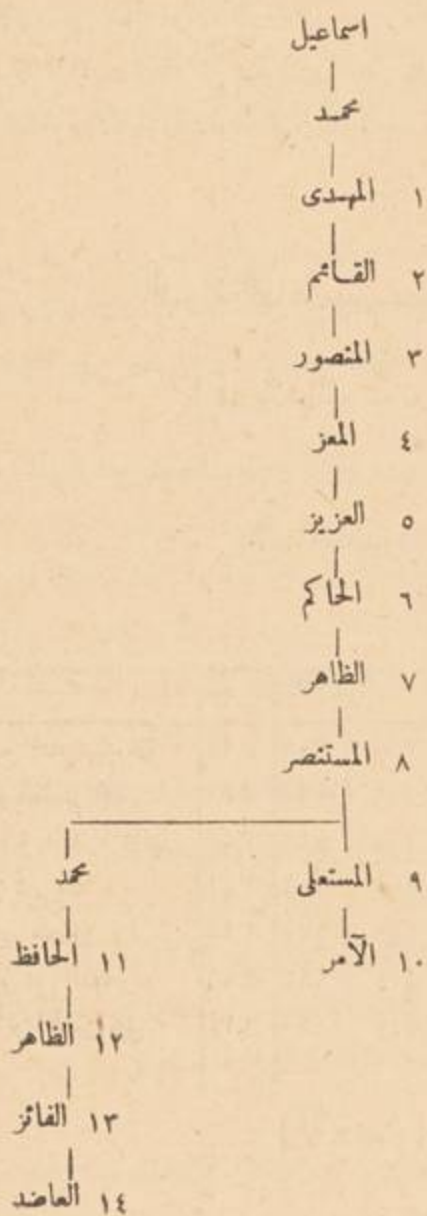
[ الأيوبيون ]

(١) حسن إبراهيم حسن: كتاب المجلد في التاريخ المصري ص ١٥٦

(٢) راجع كتاب Stanley Lane-Poole: Muhammadan Dynasties, pp. 71-3, حسن إبراهيم

حسن: كتاب تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ج ٢ ص ١١١

جدول الخلفاء الفاطميين



ابن جعفر  
ويقول  
المذهب  
وفي  
الاثنان  
فاضطر  
صلاحية  
العباسيين  
أهالي  
كان لص  
البربر  
مهد الس  
و  
ركان  
الكوفي  
على و  
معظم  
بان ح  
الشيخي  
وصاد  
إفريقي  
بالقبض  
من  
من القا  
من س  
١)  
سنة ٥  
سنة ٧

عبيد الله المهدي (٢٩٦ - ٥٣٢٢)

اختلف المؤرخون في نسب الفاطميين مذاهب شتى : فبعضهم يقول إنهم ينتسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، ومن ثم سموا الإسماعيلية أيضا ، وبعضهم يشكر صحة نسبهم إلى إسماعيل ، ويقول إنهم يرجعون في نسبهم إلى رجل فارسي هو عبد الله بن ميمون القداح الأهوازي ، الشنوي المذهب ، الذي يقول بوجود إلهين اثنين : إله النور وإله الظلمة .

وقد ظهرت جهود الشيعة الإمامية منذ وفاة الإمام الحادي عشر من أئمة الطائفة الإمامية الاثنا عشرية في سنة ٢٦٠ هـ (٨٧٣ م) ، مما جعل الخلفاء العباسيين يضيقون على طائفة الإسماعيلية ، فاضطروا إلى مغادرة سلبية (من أعمال حماه) التي اتخذوها مركزا لنشر دعوتهم ، إلى بلاد أكثر صلاحية لذلك الغرض ، وهي شمال إفريقيا لأسباب منها : بعد هذه الخلافة عن بغداد مركز العباسيين ، وبغض أهالي المغرب ولانهم من العباسيين ، لفرضهم عليهم الضرائب الفادحة ، مما أعد أهالي هذه البلاد لقبول المذهب الشيعي . وسهلت كراهم للعرب ، اعتناقهم عقائد الفاطميين . كما كان لضعف الأمراء في بلاد المغرب ، ونشاط دعاة الفاطميين أثر كبير في اكتساب ولا قبائل البربر ومعونة رجالها ، وخاصة ميول قبيلة كتامة ، التي أثرت فيها تعاليم دعاة الشيعة - كل ذلك مهد السبيل للمهدي ، ليظهر للناس كأنه الإمام المنتظر سليل آل علي .

ولد سعيد بن محمد الحبيب في سنة ٢٥٩ هـ (١) في سلبية ، التي اتخذها الإسماعيلية مركزا لدعوتهم . وكان أبوه قد أرسل في سنة ٢٧٠ هـ أحد أشياعه ، ويسمى رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب الكوفي ، إلى بلاد اليمن ، لنشر الدعوة للفاطميين فيها . وسرعان ما اعتقد أهالي اليمن في المهدي من آل علي وانتظروا ظهوره ، بفضل جهود ابن حوشب الذي ابتي حصنا بجبل لاعة باليمن ، وتغلب على معظم أرجائها ، وبعث دعائه إلى اليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب . ولما اتصل بابن حوشب موت الحلواني وأبي سفيان داعيي الإسماعيلية في بلاد المغرب ، عهد إلى أبي عبد الله الشيعي ، وكان من أهل صنعاء ، بنشر الدعوة في بلاد المغرب . ولما استقر به المقام في هذه البلاد وصادفت دعوته شيئا كثيرا من النجاح ، أرسل إلى سلبية يدعو عبيد الله (المهدي) للحضور إلى إفريقيا (٢) ، فرحب بهذه الدعوة ، ولكن الخليفة العباسي المقتدر (٢٩٥ - ٥٣٢٠) علم بذلك ، فأمر بالقبض عليه .

من ذلك نفق على مدى الصعاب التي لقيها عبيد الله المهدي في طريقه إلى المغرب ، وكيف أفلت من القبض عليه في مصر حيث ظهر في زى التجار ، وكيف استغل الأموال الكثيرة التي حملها معه من سلبية في رشوة بعض الولاة في طريقه إلى المغرب ليأمن الوقوع في أيديهم ، وكيف أفلت من أيدي

(١) قال ابن خلسكان (وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٧٢) : وكانت ولادته في سنة ٢٥٩ هـ ، وقيل سنة ٢٦٠ هـ بمدينة سلبية ، وقيل بالكوفة ، ودعى له بالخلافة على منابر مدينة رقادة في شهر ربيع الأول سنة ٢٩٧ هـ .  
(٢) عرب بن سعد : صلة تاريخ الطبري ص ٥٢

عمال زيادة الله بن الأغلِب أمير إفريقية الذى وضع الأرصَاد والعيون للقبض عليه . ولكن اليسع ابن مدرار أمير سجلباسة ، التى اتخذها بنو مدرار حاضرة لولايتهم منذ سنة ١٦٠ هـ ، لم تجد معه الرشوة نقعاً . وسرعان ما قبض على عبيد الله المهدي وحبسه (١) ، ثم أخذ أبو عبد الله يواصل فتوحه ، على الرغم من قوع المهدي فى يد اليسع ، ويمد نفوذه على معظم أرجاء المغرب ، واستطاع أخيراً أن يدخل رقادة ( رجب سنة ٢٩٦ هـ ) ، التى اتخذها إبراهيم الثانى الأغلبي ( ٢٦١ — ٢٨٩ هـ ) مقراً لإمارته ، ويستقر فى دار الإمارة ، وبزِيل نفوذ الأغالبة ، ويبطل اسم الخليفة العباسى من الخطبة (٢) .

ظل عبيد الله المهدي فى حبسه بسجلباسة ، حتى تم لداعى الشيعة الفتح والنصر ؛ فسار فى قوة كبيرة إلى هذه المدينة . ولما سمع اليسع بن مدرار بوصول أبى عبد الله الشيعى إليها ، هرب ليلاً . وحمل معه أقاربه وأمتعته ، وأطلق داعى الشيعة عبيد الله المهدي من سجنه (٧ رجب سنة ٢٩٦ هـ) . قرب المهدي من القيروان ، حيث سلم عليه أهلها بالخلافة ، وبايعوه على الطاعة ، وذكُر اسمه فى الخطبة ، وتلقب المهدي أمير المؤمنين ، ولم يلبث أن قسم على رؤساء كتامة ، الذين ساعدوه على إقامة دولته ، أعمال هذه الدولة ، ثم دوسن الدواوين ، وجبى الأموال ، واستقرت قدمه فى هذه البلاد .

ولم يكتف عبيد الله المهدي بما أحرزته جيوشه من نصر وظفر ، وما استولت عليه من بلاد ، بل عمل على مد سلطانه إلى مصر . ووضع ، على أثر تأسيس دولته فى القيروان ، الخُطط لتحقيق سياسته ، وأعد فى سنة ٣٠١ هـ ( ٩١٣ م ) جيشاً من المغاربة تحت قيادة ابنه وولى عهده أبى القاسم ، وحباسة بن يوسف ، أحد زعماء كتامة . واستولى هذا الجيش على برقة ، ثم واصل السير ، حتى استولى على الإسكندرية ، وسار إلى الوجه البحرى . ولكن الخليفة المقتدر العباسى بعث مؤنسا الخادم (٣) على رأس جيش كبير ، قيل إنه بلغ أربعين ألفاً ، أحل الهزيمة بالجيش الفاطمى وأرغمه على العودة إلى المغرب (٤) . وفى سنة ٣٠٧ هـ سار إلى مصر جيش آخر بقيادة أبى القاسم بن المهدي واستولى على الإسكندرية ، فأرسل الخليفة العباسى مؤنسا الخادم الذى ألحق الهزيمة بالفاطميين ، وأحرق كثيراً من مراكبهم ، وأرغمهم على العودة إلى بلادهم ( سنة ٣٠٩ هـ ) (٥) . ويقول الكندى (٦) عن الحملة الفاطمية الثالثة على مصر ، إنها ظلت ثلاث سنين ( ٣٢١ — ٣٢٤ هـ ) ، وإن معاهدة الصلح أبرمت

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٣ — ١٤

(٢) راجع كتاب Nicholson, J. : Establishment of the Fatimite Dynasty in Africa

انظر أيضاً : حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٥٧ — ٦٠

(٣) مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ٣٦

(٤) الكندى : كتاب الولاة ص ٢٦٨ — ٢٧٣ ، المقرئى : انماظ المنفا بأخبار الخلفاء ص ٤١

والخطط ج ١ ص ٣٢٧

(٥) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٨٣ — ٨٦ ، الكندى : كتاب الولاة ص ٢٧٧ — ٢٧٨

(٦) ص ٢٨١ — ٢٨٧

بين الفريقين في سنة ٣٢٢ هـ ، ولكن هذا الصلح لم يطل أمده ، فقد انضم بعض زعماء المصريين إلى جيش المغاربة ، الذي دخل الاسكندرية في ربيع الثاني سنة ٣٢٤ هـ ، فبعث إليهم الاخشيدي جيشا أحل بهم الهزيمة ، وأرغمهم على العودة إلى بلادهم (١) :

على أن هذه الجهود التي قام بها الفاطميون في سبيل استيلائهم على مصر ، لم يكن قد حان جنى ثمارها ؛ إذ كان لا بد من تأجيلها طوال عهد المهدي ، لأن الخليفة العباسي كان لا يزال من القوة بحيث يستطيع دفع الفاطميين عن هذه البلاد ، وكان على هؤلاء أن يعملوا على التغلب على سلسلة المصاعب الداخلية التي كان يثيرها في وجههم الخوارج بالمغرب حينئذ (٢) .

أقام عبيد الله المهدي بالقيروان (٣) التي اتخذها حاضرة لدولته إلى سنة ٣٠٣ هـ ، إلى أن اختط مدينة المهديّة على بعد مرحلتين جنوبي القيروان . وقد ظلت هذه المدينة آهلة بالسكان إلى سنة ٥٤٣ هـ ، حين أرسل روجر Roger البرمندی صاحب صقلية أحد قواده فاستولى عليها ، وبقيت في أيدي الفرنجة إلى أن استولى عليها عبد المؤمن في سنة ٥٥٥ هـ . وقد مات عبيد الله المهدي في سنة ٣٢٢ هـ .

#### القائم والمنصور (٣٢٢-٣٤١ هـ) :

ولى أبو القاسم الخلافة بعد أبيه عبيد الله المهدي ، وتلقب القائم . ويقول الذهبي (٤) إن القائم كان كغيره من الخلفاء الفاطميين ، ينقم على السنيين ، حتى إنه أمر بلعن الصحابة ، وأن ذلك أثار غضب المغاربة ، وخاصة الخوارج الذين ثاروا على الفاطميين . وكان أشد هذه الثورات خطرا وأشدّها بلاء ، تلك الثورة التي أشعل نارها أبو يزيد مخلد بن كيداد ، والتي استمرت طوال عهد القائم ، ولم تخمد إلا في عهد ابنه المنصور .

توفي الخليفة القائم في شهر رمضان سنة ٣٣٤ هـ ، وخلفه ابنه أبو الطاهر إسماعيل الذي تلقب المنصور (٣٣٤-٣٤١ هـ) . وقد ولد بالقيروان سنة ٣٠٢ هـ (وقيل سنة ٣٠١ هـ) ، وكان حين ولى الخلافة في الثانية والعشرين من عمره . وقد اشتهر الخليفة الجديد بالشجاعة ورباطة الجأش ، كما استطاع أن يؤثر في نفوس سامعيه بفصاحته وبلاغته وقدرته على ارتجال الخطب (٥) .

#### ثورة أبي بزير :

وقد أخفى المنصور موت أبيه ، حتى لا يؤثر في حماسة جيوشه ، التي كانت مشغولة بثورة أبي يزيد . وقد انقطعت العلاقات بين مصر وبلاد المغرب طوال عهد هذا الخليفة ، لأنه قصر كل همه ، وأنفق كل موارد بلاده للقضاء على هذه الثورة التي شملت كل أرجاء الدولة الفاطمية .

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٩٨ ، وابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٤ ص ٣٩ .

(٢) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ٨٥ .

(٣) هي أكبر مدائن بلاد المغرب ، على بعد أربعة أميال من مدينة رقادة . انظر البكري : كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٢ - ٢٧ .

(٤) تاريخ الإسلام : مخطوط ، دار الكتب المصرية ورقة ٦٩ (١) .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٧٧ .

كان أبو يزيد محمد بن كيداد من قبيلة زنانة في مدينة توزر ، أكبر مدن بلاد الجريد التي يتبعها توزر والزاب (١) . وكانت أمه جارية تنسب إلى قبيلة هوار ، تزوجها أبوه في السودان ، وأتى بها إلى توزر حيث ولد أبو يزيد . فنشأ في هذه المدينة ، واعتنق مذهب النكارية الذي يقضى بتكفير أهل الدين ، واستباحة الأموال ، والخروج عن طاعة الخليفة . ثم سار إلى اهت ، وأخذ يلم الصبية ، إلى أن خرج أبو عبد الله الشيعي إلى سجلماسة لإطلاق المهدي من سجنه ، فانتقل أبو يزيد إلى نفوس واشترى ضيعة ، وأخذ يعلم السبية من جديد . ثم قوى أمره في سنة ٣١٦ هـ وراجت دعوته في أواخر عهد المهدي ، وخاصة بين قبائل نفوس والزاب والمغرب الأقصى ، وقويت شوكته في عهد القائم بن المهدي ، فاستولى على بجاية ومرجنة ، وأحل الهزيمة بقبيلة كنانة ، ودخل سببية ، واستولى على الأربس وقتل كثيرا من أهلها . وقد أثار استيلاء أبي يزيد على هذه المدينة قلق أهل المهدي . إذ كانوا يعتبرونها طريقا سهلا مهدا لفتح مدينتهم . ولم يلبث هذا الخارج أن عسكر بجنده على بعد خمسة عشر ميلا من حاضرة الفاطميين ، وأخذ يشن عليهم حملاته ، حتى إن كافة أهلها انتقلوا إلى طرابلس وصقلية ، وإلى مصر وبلاد الروم . وانتشرت جيوش أبي يزيد في كل أرجاء الدولة الفاطمية في سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) . واستطاع أن يهدد مدينة المهدي نفسها ، وكتب الخليفة القائم يستحث زيري بن مناد زعيم قبيلة صنهاجة على معونته ، فلتحق به في المهدي . ولاحت بوادر انتصار الفاطميين على هذا التائر الخطير ، بانضمام عدد غير قليل من جند أبي يزيد إلى جيوشهم ، ولم يعد أبو يزيد يعتمد إلا على معونة قبيلتي هوار وبنى كملان ، واضطر إلى الارتداد عن المهدي ، ويم شطر القيروان ، التي امتنع عليه أهلها وحملوه على الارتداد مع القالة من جنده ، الذين لم يلبثوا أن هلكوا من الجوع والعطش .

ولما ولي المنصور الخلافة قويت جيوشه بانضمام صنهاجة وغيرها إليه ، واستطاع أن يهزم جيوش أبي يزيد ، وطارده إلى الصحراء ، وقبض عليه ، وسبق إلى المهدي حيث مات متأثرا من جراحه (٣٠ المحرم سنة ٣٣٦ هـ) (٢) .

وقد تركت هذه الثورة شمال إفريقية في حالة ترقى لها ، وأثرت في موارد الدولة الفاطمية ، حتى أصبح بيت المال حلوا من الصفراء والبيضاء كما يقولون . وقضى الخليفة الفاطمي المنصور البقية الباقية من خلافة في إصلاح ما أفسده أبو يزيد وإعادة تنظيم بلاده ، فعمد البلاد وأعادها إلى ما كانت عليه قبل نشوب هذه الثورة ، وأنشأ أسطولا كبيرا ، وأسس مدينة المنصورية في سنة ٣٣٧ هـ ، على مقربة

(١) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٤٨ - ٧٤ ، والمراد كفي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٥٨  
(٢) راجع ابن الأثير ج ٨ ص ١٥٠ - ١٥٨ ، والمقريزي : انماط الحنفا ص ٤٥ - ٥٥ و ٥٩ ، ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار المغرب ج ٢ ص ٢٢٤ - ٢٢٦ ، وابن أبي دينار : تونس في أخبار إفريقية وتونس ص ٥٩ - ٦١ ، حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ٨٦ - ٨٧



من القيروان ، واتخذها حاضرة لدولته ، وغدت منذ ذلك الحين حاضرة الفاطميين ، إلى أن قدم ابنه المعز لدين الله إلى مصر في سنة ٣٦٢ هـ ، واتخذ القاهرة التي بناها جوهر في سنة ٣٥٨ هـ حاضرة لدولته كما سيأتي .

يرجع الفضل فيما أحرزه المنصور من نصر على أبي يزيد ، إلى شجاعته وإقدامه ، وإلى فصاحته وبلاغته وقدرته على ارتجال الخطب كما تقدم . وقد روى ابن خلكان (١) عن أبي جعفر أحمد بن عمر المرورذي قال : « خرجت مع المنصور يوم هزم أبا يزيد ، فسأرت به ويده رجلاه ، فسقط أحدهما مراراً ، فسحته وتاولته إياه ، وتفاؤلت له فأشدته :

فألقت عصاها واستقرت بها النوى ، كما قرءت عيناً بالإياب المسافر

فقال : ألا قلت ما هو خير من هذا وأصدق ؟ ( وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك ، فإذا هي تكلف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هناك وانقلبوا صاغرين ) (٢) . فقلت : يا مولاي ! أنت ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت ما عندك من العلم .

حكى المنصور سبع سنين وستة أيام ، ومات في يوم الجمعة آخر شوال سنة ٣٤١ هـ ، ودفن بالمهدية . وقد قيل في سبب موته إنه خرج من المنصورية حاضرة ملكه للنزه ، فاشتد هطول المطر وهبوب الريح ، حتى فاجأه المرض وأوهن جسمه ومات أكثر من كان معه . ولما دخل المنصورية أراد أن يدخل الحمام ، فنهاه طبيبه إسحاق بن سليمان الإمبراطيلي ، فاشتد عليه المرض ولازمه الأرق ، فأعطاه منوما فمات (٣) .

المعز لدين الله ( ٣٤١ - ٣٩٥ هـ )

### ١ - المعز قبل فتح مصر :

كان المعز مثقفاً مجيداً عدة لغات : منها اللغة التليانية التي تعلمها في صباه بجزيرة صقلية ، واللغة الصقلية التي كانت منتشرة في هذه الجزيرة ، كما عرف اللغة السودانية (٤) . وكان ذا ولع بالعلوم ودراية بالأدب (٥) ، فضلاً عما عرف به من حسن التدبير وإحكام الأمور كما كان عليه آباؤه من قبل . وفي عهده دانت له كافة قبائل البربر ، ولا سيما قبيلتنا بني كلان وبني مليلة من قبائل هوارة ، وقد أبنا أن تدعنا للخلفاء الفاطميين من قبله . ويرجع الفضل في اكتساب الخليفة المعز طاعة قبائل المغرب على اختلافها ، إلى هذه السياسة الرشيدة التي سار عليها ، مما ساعد على إقرار خلافته ، وأتاح له القضاء على دولة الإدارة ، بعد أن حكمت بلاد المغرب الأقصى نحو قرنين . كما يرجع الفضل في

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٧٧

(٢) سورة الأعراف آية ١١٧ - ١١٩ (٣) ابن خلكان ج ١ ص ٧٧

(٤) المقرئ : انماط الحنفا ص ٦٥ (٥) المصدر نفسه ص ٦١

امتداد نفوذ المعز على كافة بلاد المغرب ، إلى جوهر الصقلي وزيري بن مناد الصنهاجي . وقد بعث هذا الخليفة جوهرأ على رأس جيش كثيف لفتح ما بقي من بلاد المغرب ، وكان هذا الجيش يضم كثيراً من رجالات المغاربة . وقد أمعن جوهر في بلاد المغرب الأقصى يفتح مدنها مدينة تلو مدينة ، حتى وصل إلى ساحل المحيط الأطلسي ، وأرسل إلى مولاه المعز هدية من سمك هذا المحيط ، إشعاراً ببلوغ نفوذه أقصى بلاد المغرب غرباً .

ولما دانت بلاد المغرب جميعها للمعز فكر في فتح مصر . ولا غرو فقد حاول الفاطميون فتح هذه البلاد من أجل ثروتها وهدوء الأمر فيها ، وأهمية موقعها الجغرافي من الناحيتين السياسية والحربية ، وقربها من بلاد الشام وفلسطين والحجاز ، التي كانت تابعة لمصر منذ عهد الطولونيين . ذلك إلى أن نجاح الفاطميين في فتح مصر يسهل عليهم الاستيلاء على المراكز الإسلامية القديمة ، وهي المدينة المنورة ، ودمشق ، وبغداد حاضرة الدولة العباسية في ذلك الحين . أضف إلى ذلك أنه كان بمصر في ذلك الوقت جماعة من أصحاب النفوذ يدينون بعقائد المذهب الشيعي ، مذهب الفاطميين ، ويرجون نجاحه كما تقدم .

وقد كشف المعز عن سياسته التي كانت ترمي إلى فتح مصر في خطبة طويلة (١) ألقاها على شيوخ كتامة ، تلك القبيلة المشهورة التي ناصرته أبا عبد الله الشيعي على نشر المذهب الفاطمي في بلاد المغرب ، وتمهد السيل لظهور المهدي ، وتأسيس الخلافة الفاطمية في هذه البلاد . وتتضمن هذه الخطبة ، السياسة التي اعتمز الخليفة الفاطمي السير عليها من النواحي السياسية والدينية والأدبية . ومما يتبين أن هذا الخليفة قد صرف حياته لتحقيق هذا الغرض الأول ، وهو نشر نفوذه الديني والزمني في بلاد المشرق ، وأنه قد اتخذ لذلك الخطوات التي تكفل له بلوغ هذه الغاية ، من نشر الأمن والسلام والطمأنينة في كافة أرجاء هذه البلاد ، وحكم الأميين بالعدل ، والعمل على نشر الدعوة الفاطمية في بلاد المشرق ، حتى إذا تمكنت أصولها استطاع أن يفتحها ، كما سهل عليه وعلى آباءه فتح بلاد المغرب من قبل (٢) .

## ٢ - فتح مصر :

من العوامل التي شجعت الخليفة المعز لدين الله الفاطمي على فتح مصر ، استتباب الأمن في كافة أرجاء بلاد المغرب بعد إخماد ثورة أبي يزيد ، وانتشار الاضطرابات والفوضى في مصر إثر وفاة كافور سنة ٥٣٥٨ هـ ، وضعف الخلافة العباسية واشتغالها بدفع البيزنطيين عن بلادها . أضف إلى ذلك تأييد الشيعيين في مصر للدعوة الفاطمية ، حتى إنهم كتبوا إلى المعز يطلبون إليه إرسال جيش لفتح

(١) راجع هذه الخطبة في كتاب انعاظ الحنفا بأخبار الخلفاء للقرنيزي ص ٦٠ - ٦١

(٢) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ١٠٢ - ١٠٤

هذه البلاد . وكان ليعقوب بن كلس ، الذي استوزره كافور ، ثم هرب إلى بلاد المغرب واتصل بالمعز ، أثر كبير في بيان حالة الضعف التي سادت مصر على أثر وفاة كافور ، وحث الخليفة على المبادرة بإرسال جيوشه إليها .

كان الاستعداد لفتح مصر قائماً على قدم وساق ببلاد المغرب منذ سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) ؛ فقد أمر الخليفة المعز بإنشاء الطرق وحفر الآبار في الطريق ، وأقام المنازل على رأس كل مرحلة ، وجمع الأموال لتفقات هذه الحرب ، وجعل كاتبه جوهر الصقلي على رأس الجيوش التي أعدها لغزو مصر . وفي اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ ، سار جوهر نحو مصر (١) ، ومر على برقة ، ثم استأنف المسير إلى الإسكندرية ، ففتحت له أبوابها من غير مقاومة ، ومنع جنده من التعرض للأهلين ، واستطاع أن يكبح جماح عساكره الذين وسعت لهم الأرزاق (٢) .

ولما اتصل بأهل القسطنطينية وصول جيوش الفاطميين إلى الإسكندرية ، واستيلائهم عليها ، ندبوا الوزير جعفر بن الفرقات لمفاوضة جوهر في الصلح ، فأجابه جوهر إلى ماطلب ، وكتب له عهداً تعهد فيه بأن يطلق للصربيين حرية العقيدة على اختلاف أديانهم ومذاهبهم . وأن يقوم بما تتطلبه البلاد من وجوه الإصلاح ، كما تعهد بنشر العدل والطمأنينة في النفوس ، بحماية مصر من عدوان المغيرين عليها (٣) .

على أن أنصار الإخشيديين حاولوا عدم الإذعان لههد الصلح والوقوف في وجه الجيش الفاطمي ؛ ولكنهم لم يلبثوا أن أذعنوا لجوهر إثر وصوله إلى الجزيرة ، وطلبوا منه الأمان ؛ فقبل ملتصمهم ، وأذاع على عساكره منشوراً يحرم فيه عليهم أعمال العنف والنهب ، كما جدد لأهل مصر الأمان ، فهدأت مدينة القسطنطينية ، وعاد النظام إلى نصابه (٤) .

ولما اتصل بالخليفة المعز نبأ فتح مصر ، سر سروراً عظيماً ، وأنشده شاعره محمد بن هاني . الأندلسي قصيدة طويلة جاء في مطلعها :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر فقل لبني العباس قد قضى الأمر (٥)

وهكذا زال سلطان الإخشيديين والعباسيين عن مصر ، وأصبحت هذه البلاد ولاية فاطمية ، وتحقق حلم الخليفة المعز ، ومن جاء قبله من الخلفاء الفاطميين ، في تحويل حاضرة خلافتهم إلى مصر ، واتخاذها مركز إمبراطوريتهم الشاسعة الأرجاء (٦) .

(١) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ١٤٨

(٢) يحيى بن سعيد : صلة تاريخ أوتينا ص ١٣٢

(٣) راجع هذا العهد في المقرئى : انماط الحنفا ص ٦٧ - ٦٨

(٤) المقرئى : انماط الحنفا ص ٧٢ (٥) ديوان ابن هاني ص ٨٦

(٦) راجع حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ١٠٥ - ١١١ ، المجلد في التاريخ المصري

( القاهرة سنة ١٩٤٢ ) ص ١٥٧ - ١٥٨

٣ - استمرار سلطنة الفاطميين :

ولما تم لجوهر الصقلي فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م)، عدل عن اتخاذ كل من القسطنطين والعسكر حاضرة لولايته، وفكر في تأسيس مدينة جديدة، تكون مقراً لملك الفاطميين، ومركزاً لشر دعوتهم الدينية، وحصناً منيعاً لصد هجمات القرامطة، الذين أخذوا يهددون حدود مصر الشمالية، وزحفوا على بلاد الشام التي كانت تابعة لمصر، واستولوا على دمشق. فوضع أساس مدينة القاهرة في ١٧ من شعبان سنة ٣٥٨ هـ. وحاطها بسور كبير من اللبن (١).

وجه جوهر همه لمد نفوذ الفاطميين الى بلاد الشام وفلسطين والحجاز، التي كانت تابعة لمصر منذ أيام الطولونيين كما تقدم. لذلك عهد إلى جعفر بن فلاح أحد قواد المغاربة من قبيلة كنانة بهذا الفتح، لما اشتهر به من الشجاعة وحسن القيادة، ولأن جوهر أراد بذلك أن يبعده عن مصر، حتى لا يتنافس في حكمها. ولما وصل جعفر إلى الرملة، لقيه جيش الحسن بن عبيد الله بن طنجح والى الرملة ودمشق، ودارت الدائرة على الحسن، وأسر مع كثير من جنده، وسيق إلى القسطنطين، ثم أرسل إلى بلاد المغرب، فبقي بها الى مات في سنة ٣٧١ هـ.

استأنف جعفر السير إلى طبرية واستولى عليها من يد واليها فاتك، الذي كان يليها من قبل الإخشيديين، دون أن يلقي مقاومة تذكر. وخاف أهل دمشق وقوع مدينتهم في أيدي الفاطميين، فأرسلوا إلى جعفر بن فلاح جماعة من كبار رجالهم. وانفق ووصلهم في اليوم الذي قتل فيه فاتك، واشتعلت نار الفتنة بين رجاله، فلم يحسن جعفر وفادتهم، فعادوا إلى دمشق. وقد عوّل أهل هذه المدينة على مقاومة جعفر وجيشه، ولكنه استطاع التغلب على جميع المصاعب التي أقاموها في طريقه، فاستولى على حوران، وهزم جيش الشأميين في ١٠ ذي الحجة سنة ٣٥٨ هـ، ودخل دمشق في المحرم سنة ٣٥٩ هـ، وأشعل النار في أسواقها، وأذكى الفتنة بين أهلها الذين لعنوا الفاطميين على المنابر، ولكنهم لم يجدوا بدا، أمام قوة جعفر بن فلاح، من طلب الأمان. وخطب جعفر للخليفة الفاطمي على منابر دمشق في المحرم سنة ٣٥٩ هـ.

ولكن جعفر بن فلاح لم يخذل حذو جوهر في كبح جماح جنده، والتأليف بين أهالي هذه البلاد، بل حث المغاربة على قتل زعماء الشأميين، وأثار نفوس الأهلين فلم يخلصوا له. واستمروا يدبرون الفتن والمؤامرات للخلاص من حكم الفاطميين الذين يخالفونهم في المذهب الديني. وكان من أثر سياسة جعفر بن فلاح أن استنجد أهل الشام القرامطة والأتراك، الذين تفاقم خطرهم في عهد الخليفة الفاطمي المعز، ولم يتم النضام عليهم إلا في عهد ابنه العزيز.

(١) حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر ص ١١١ - ١١٢

(٢) المقرئ: انماظ الحنفا ص ٨٢ - ٨٣

٤ - قروم المعز الى مصر :

بعد أن فرغ جوهر من بناء القاهرة وتأسيس الجامع الأزهر ، وإقامة الدعوة الفاطمية في فلسطين وسورية والحجاز ، بعث إلى مولاه المعز رسولا يفتيه بذلك ؛ فمر سرورا عظيما ، وعزم على الرحيل إلى مصر . وخرج من المنصورة حاضرة خلافته ، فوصل إلى سردانية التي دانت هي وصقلية لسيادة الفاطميين ، واستخلف بلسكين بن زيري بن مناد الصنهاجي على إفريقية ، وتوجه إلى مصر بأموال جليلة المقدار ورجال عظيمة الأخطار (١) ، وحمل معه جيش آباءه الثلاثة الذين تولوا الخلافة قبله .

مر المعز على برقة ، ودخل الإسكندرية في يوم الجمعة ٤ من شعبان سنة ٣٦٢ هـ ( ٣٠ مايو سنة ٩٧٣ م ) في جمع كبير من رجالات دولته ، فيهم أولاده وإخوته وأعمامه ، فاستقبله أعيان البلاد ، وعلى رأسهم الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات والقاضي أبو الطاهر . ثم جلس الخليفة عند المنارة وخطبهم خطبة ذكر فيها ، إنه لم يرد دخول مصر لزيادة في ملكه ولا مال ، وإنما أراد إقامة الحق وحماية الحجاج ، وإعلان الجهاد ضد الكفار ، وأن يختم عمره بالأعمال الصالحة ، وأن يعمل ما أمر به جده صلى الله عليه وسلم (٢) . ثم وعظهم ، وأطال في الوعظ حتى استدر دموع بعض الحاضرين ، وخلع بعد ذلك على القاضي وبعض من كان في جماعته ، ثم انصرفوا بعد أن حملهم على دوابه .

وغادر المعز الإسكندرية في أواخر شعبان ، فوصل إلى ساحل مدينة مصر المقابل للجيزة في ٢ رمضان من هذه السنة ؛ فخرج إليه جوهر ، وترجل عند لقائه ، وقبل الأرض بين يديه ، واجتمع به الوزير جعفر بن الفرات . وقد أقام المعز بالجيزة ثلاثة أيام ، أخذ عسكره خلالها يعبرون بأمتعتهم إلى ساحل مصر ؛ ثم عبر المعز النيل ، ودخل القاهرة في يوم الثلاثاء ٧ من رمضان سنة ٣٦٢ هـ ، ( ١١ يونيو سنة ٩٧٣ م ) دون أن يمر على الفسطاط ، وكان الأهليون قد أقاموا له معالم الزينة على جانبي الطريق ، ظناً منهم أنه سيشرفها بزيارته . ثم دخل بعد ذلك القصر الذي بناه له جوهر ، وخر ساجداً لله تعالى ، وصلى ركعتين في إحدى ردهاته ، وصلى خلفه من كان معه .

وأقام مع المعز أولاده وحاشيته وخدمه وعبيده في القصر ، وكان قد أعد به كل ما يحتاج إليه الملوك ، ونزل جوهر في قصر أعد له نفسه يعرف بقصر الوزارة في القاهرة . وفي اليوم التالي خرج أشرف مصر وقضاها ووجهاتها ورجال العلم فيها لتهنئته الخليفة والاحتفاء به (٣) .

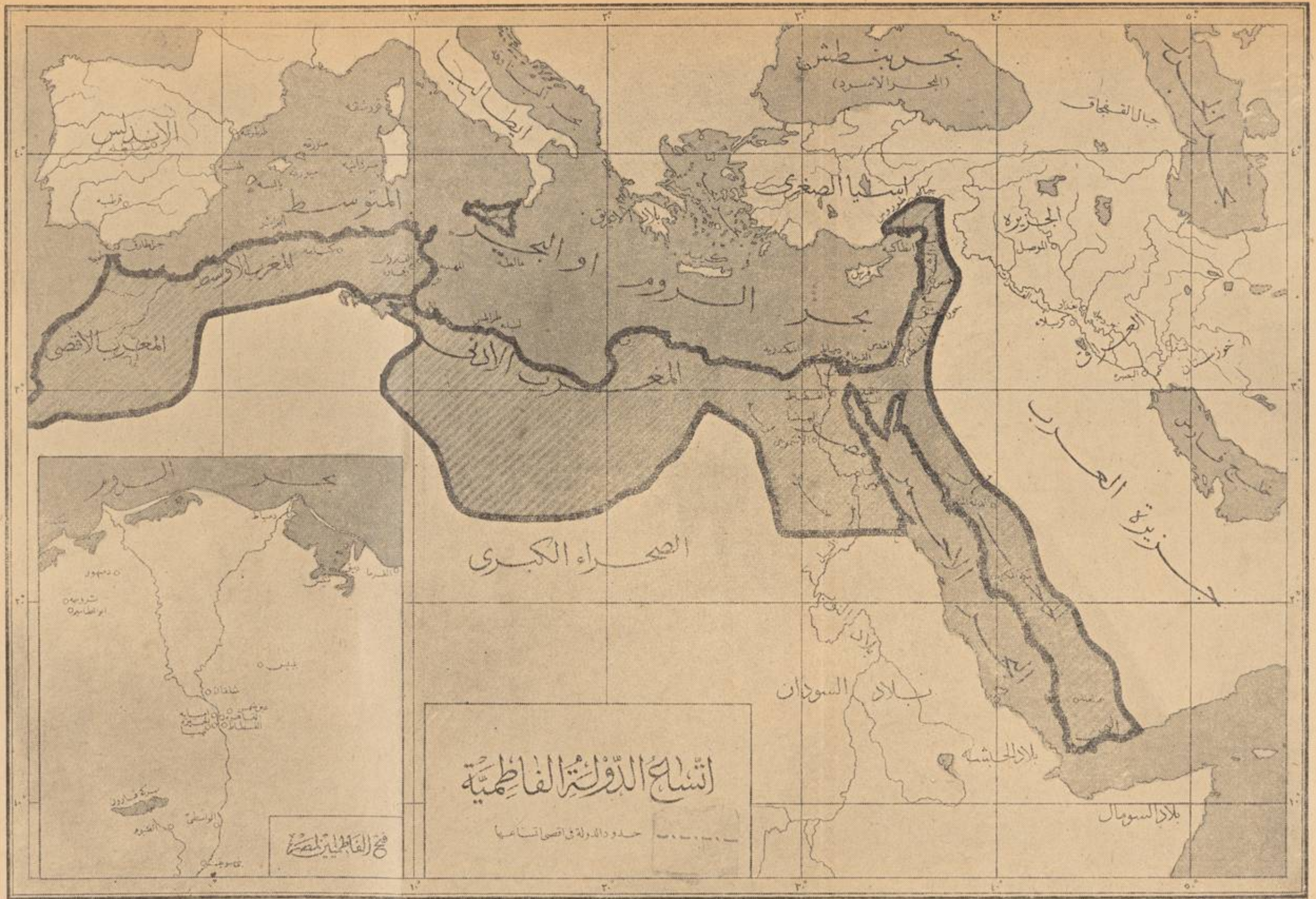
وفي اليوم الخامس عشر من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ ، جلس المعز في الإوان الكبير من قصره على السرير الذي أعد له جوهر ، وأذن بدخول الناس عليه ، فدخل الأشراف ثم الأولياء ، فسأروا وجوه المدينة . وكان جوهر يقدم الناس إليه طائفة بعد طائفة ؛ ولما فرغ من ذلك قدم إلى مولاه المعز هدية تدل على مقدار غنى مصر ورخائها (٤) .

(١) ابن خنكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٠٢

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٠٢ - ١٠٣

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٠٢ - ١٠٣

(٤) المقرئى : انعاظ الحنفا ص ٩٠ - ٩١



اتساع الدولة الفاطمية

حدود الدولة في أقصى اتساعها

فتح الفاطميين

مجله  
 طبعين  
 ( )  
 أس  
 ٥٤٤  
 ها  
 ٥٣  
 على  
 من  
 رت  
 لا  
 تام  
 كل  
 مع  
 مع  
 ها  
 ت  
 م

وبعد أن تقبل المعز ما قدم إليه من الهدايا والتحف ، أذن لجماعة المهتمين بالجلوس في مجلسه ، وأمر بإطلاق جميع من اعتقلهم جوهر من الإخشيديين والكافوريين ، وكانوا نحو الألف .

وقد أصبحت مصر منذ ذلك الحين دار خلافة ، بعد أن كانت دار إمارة ، تابعة للخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب ، وغدت القاهرة ، بدل المنصورية ، مركز الدولة الفاطمية الشاسعة الأرجاء .

على أن نقل المعز مقر خلافته من المنصورية إلى القاهرة ، أفقد الفاطميين إفريقية ( تونس ) . ذلك أن بلكين بن زيري بن مناد شيخ صنهاجة إحدى قبائل البربر ، سرعان ما أعلن استقلاله ، وأسس الدولة الزيرية في سنة ٣٦٢ هـ ، وحذا حذوه في ذلك الحمدانيون في سنة ٣٩٨ هـ . ولم تأت سنة ٤٤٣ هـ حتى تقلص ظل الحكم الفاطمي عن كل بلاد المغرب ، وذلك في عهد المستنصر الفاطمي .

وقد تسلم المعز مقاليد الحكم من جوهر الذي حكم مصر أربع سنين قبل وصول مولاه إليها ، وأخذ جوهر يتوارى عن مسرح السياسة المصرية ، ولم يعد إلى الظهور إلا في أواخر سنة ٣٦٤ هـ ، حين تفاقم خطر الأتراك بزعامة أفتكين ، وخطر القرامطة بزعامة الحسن بن أحمد ، واستعصى على المعز كبح جماحهما ، فلجأ إلى جوهر وولاه قيادة جيوشه .

ويرجع إقصاء جوهر إلى خوف المعز على نفوذه أن ينتقل إليه . وكان جوهر ، على الرغم من ذلك ، أحسن حالا من غيره من القواد الفاطميين ؛ فقد قتل أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراساني ، الذي قامت الدولة العباسية على أكتافه ، وقتل عبيد الله المهدي أبا عبد الله الشيعي ، الذي انتشرت على يديه الدعوة الشيعية وتأسست الدولة الفاطمية في بلاد المغرب (١)

قضى المعز القسم الأكبر من خلافته في بلاد المغرب ، ولم يبق في مصر أكثر من سنتين إلا قليلا . وفي عهده تأسست مدينة القاهرة ، وبنى الجامع الأزهر ، وامتدت فتوح الفاطميين إلى بلاد الشام وفلسطين ، وإن كان نفوذهم لم يستقر نهائيا إلا في عهد ابنه العزيز ، وخطب له على منابر الحجاز . وكان المعز ، كغيره من الخلفاء الفاطميين ، مغرما بعلم النجوم ، حتى كان يستشير منجمه في كل ما يتعلق بحياته الخاصة وفي أمور الدولة العامة ، كما اعتمد قائده جوهر الصقلي على المنجمين في تأسيس مدينة القاهرة ، التي قبل إن أساسها شق على طلوع كوكب القاهر الذي اختاره المنجمون لوضع الأساس . وقد ظهر في عهد المعز طائفة من الشعراء الذين مدحوا الفاطميين ، وإن كان الغلو قد ذاع في شعرهم . ومن هؤلاء ابن هانيء الأندلسي الذي نظم في مدح المعز وأسرته قصائد طويلة مدح فيها هذا الخليفة وأشاد بأحقية الفاطميين بالخلافة . ومهد السبيل لمن جاء بعده من الشعراء . ولكنه مات في شهر رجب سنة ٣٦٢ هـ (٣٠ أبريل سنة ٩٧٣ م) وهو في السادسة والثلاثين من عمره ، فأسف عليه الخليفة المعز أسفا شديدا (٢) . وكان الخليفة المعز أول من فخم الاحتفال بصلاة الجمعة ، والاحتفال

(١) على إبراهيم حسن : تاريخ جوهر الصقلي ص ١٠٩ - ١١٠

(٢) حسن إبراهيم حسن : الفاطميين في مصر ص ١٥٣ - ١٥٧

بالأعياد والمواسم وركوب الخليفة في المواكب الملكية أيام السبت والثلاثاء وأيام الجمع ، وفي شهر رمضان ، ويومى عيد الفطر والأضحى ، وإقامة الأسمطة ، وتوزيع الإنعامات في المناسبات الدينية والسياسية (١) .

وكان المعز — كما وصفه ابن خلكان (٢) — عاقلا حازما ، سريا ، أدبيا ، حسن النظر في النجابة . ومن شعره قوله :

أطلع الحسن من جبينك شمسا      فوق ورد في وجنتيك أظلا  
وكانَ الجمال خاف على الور      د جفافة فد بالشعر ظلا

وقد توفي المعز في شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ ، بعد أن حكم أربعاً وعشرين سنة .

### العزیز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ)

يعتبر عهد الخليفة العزيز بالله الفاطمي عهد يسر ورخاء وتسامح ديني وثقافة . ولا غرو فهو أول من حول الجامع الأزهر إلى جامعة بمعناها المعروف الآن ، بعد أن كان معهدا خاصا بدراسة الفقه الشيعي وإقامة الصلاة .

ولد أبو منصور نزار الملقب بالعزيز بالله في يوم الخميس ١٤ المحرم سنة ٣٤٤ هـ ، بمدينة المهديّة التي بناها عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية ، وقدم القاهرة مع أبيه المعز في سنة ٣٦٢ هـ ، وخلفه في شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ وهو في الثانية والعشرين من عمره .

### ١ - اتساع الدولة الفاطمية :

وقد ترامت رقعة الدولة الفاطمية في عهد العزيز من بلاد العرب شرقا إلى ساحل المحيط الأطلسي غربا ، ومن آسيا الصغرى شمالا إلى بلاد النوبة جنوبا ، وزادت مملكته — كما يقول ابن خلكان (٣) — على مملكة أبيه ، وفتحت له حصص وحماة وشيزر وحلب ، وخطب له المقلد بن المسيّب العقيلي صاحب الموصل بالموصل وأعمالها في المحرم سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة ، وضرب اسمه على السكة والبنود ، وخطب له باليمن .

وفي أيام العزيز تفاقم خطر القرامطة وأفتكبن ببلاد الشام ، وكان قد استعصى أمرهما على أبيه المعز من قبل . ولم يكفد العزيز يوطد سلطته في مصر ، حتى وجه عنايته لاسترداد بلاد الشام وفلسطين اللتين كانتا تابعتين لمصر في عهد الطولونيين والإخشيديين : فوجه جوهر الصقلي لاستردادهما . ولما علم القرامطة بقرب وصوله إلى الرملة ، فروا إلى بلاد البحرين ، فاستولى جوهر على الرملة ، ثم حاصر دمشق . ولم تلبث أن حلت الهزيمة بأفتكبن ، وكان من الأتراك الذين خرجوا على الدولة العباسية واستقل بدمشق ، فاستنجد بالقرامطة الذين ساروا بزعامة الحسن الأعصم نحو

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٠٣

(١) ابن خلكان وفيات الأعيان ص ٢٨٤ - ٢٨٩

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٥٣



1  
2  
3  
4  
5  
6  
7  
8  
9  
10  
11  
12  
13  
14  
15  
16  
17  
18  
19  
20  
21  
22  
23  
24  
25  
26  
27  
28  
29  
30  
31  
32  
33  
34  
35  
36  
37  
38  
39  
40  
41  
42  
43  
44  
45  
46  
47  
48  
49  
50  
51  
52  
53  
54  
55  
56  
57  
58  
59  
60  
61  
62  
63  
64  
65  
66  
67  
68  
69  
70  
71  
72  
73  
74  
75  
76  
77  
78  
79  
80  
81  
82  
83  
84  
85  
86  
87  
88  
89  
90  
91  
92  
93  
94  
95  
96  
97  
98  
99  
100

نحو دمشق ، فارتد جوهر إلى عسقلان ، وحاضرها أفتكين والحسن الأعصم . وسرعان ما نصبت  
موارده ونفذ مامعه من المؤن والذخائر ، حتى اضطر جنده إلى أكل الدواب ، واشتدت الضائقة به  
ويجنده . ولا سيما بعد إنجاز القرامطة لأفتكين . ولم يجد جوهر بدا من طالب الصالح ثلاث مرات ،  
ليكسب بذلك الوقت ، ريثما توافيه الأمداد من القاهرة . ودارت بينه وبين أفتكين مفاوضات طويلة  
في ذلك أوردها ابن القلانسي (١) ، فقبل أفتكين ، على أن يعلق سيفه ورمح الحسن بن أحمد زعيم  
القرامطة على باب عسقلان ، ويخرج جوهر وأصحابه من تحتها . وقد رضى جوهر بذلك ، مع ما ينطوى  
تحتها من المذلة والمهانة له وللخليفة العزيز ، وخرج من هذه الحروب سالما ، وعاد إلى مصر ، وأشار  
على العزيز بحرب أفتكين والقرامطة بنفسه ، فالتقى العزيز ببجوشهما في الرملة ، ودارت الدائرة أخيرا  
على القرامطة وأفتكين ( ١٣ المحرم سنة ٣٦٨ هـ ) . وبذلك قضى الخليفة على هذه الفتنة بعد أن كادت  
تقوض دعائم الدولة الفاطمية الفتية ، وفر أفتكين على فرس له ، فقبض عليه بعض العرب بعد أن  
بذل الخليفة الفاطمي لمن يأتي به مائة ألف دينار (٢) .

ولما سار العزيز بالأسرى إلى القاهرة ، أحسن إليهم ، وأمنهم وكساهم ، وأسند إليهم الأعمال التي  
كانوا يلونها أيام أفتكين . ولم يؤخذ أفتكين ، الذي كان يعد رأس هذه الفتنة الجاحمة ، واستبقاه  
وعفا عنه ، وأغدق عليه ، وظل متمسعا بنعم العزيز إلى أن مات في سنة ٣٧٢ هـ (٣) .

## ٢ - هازم الدولة الفاطمية :

وقد وجه الفاطميون في عهد العزيز اهتمامهم إلى بث عقائد المذهب الشيعي ، وأصبحت كل أمور  
الدولة في أيدي الشيعة ، أو بعبارة أخرى ، في أيدي المغاربة أنصار الفاطميين ، وعزل أبو الطاهر  
القاضي السني ، وعين مكانه عبد العزيز بن النعمان القاضي المغربي الفاطمي المذهب . وقد العزيز  
يعقوب بن كلس الوزارة ( رمضان سنة ٣٦٨ هـ ) ، فأدار شئون الدولة الفاطمية بمهارة وهمة .

وقد بنى الخليفة العزيز كثيرا من المنشآت التي تدل على وفرة ثروة مصر في عهده : منها القصر  
الغربي . واهتم ببناء المساجد ، فأسس في سنة ٣٨٠ هـ ، مسجدا أتمه ابنه الحاكم فنسب إليه ، وأسس  
قاعة الذهب حيث يجتمع مجلس الملك ، وبنت المملكة تغريد زوجة المعز في عهده مسجدا اشرفا  
وقصر القرافة .

وقد نبغ في عهد العزيز طائفة من الشعراء والكتاب والأطباء والمؤرخين : ومن الشعراء أبو حامد  
الأنطاكي الذي أقام بمصر زمنا طويلا ، ونظم معظم قصائده في مدح المعز والعزيز والحاكم ، وأشاد  
بذكر جوهر الصقلي ويعقوب بن كلس . كما نبغ في الطب علي بن رضوان الذي ألف عدة كتب في  
الطب والفلسفة والمنطق ، ونبغ في التاريخ الحسن بن إبراهيم بن زولاقي الذي يعتبر حجة في تاريخ العصر  
الفاطمي الأول ، وأبو الحسن علي الشافعي الذي ولاه العزيز خزانة كتبه واتخذ من جلسائه وندماه.

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ١٦ - ١٨

(٢) انظر على إبراهيم حسن : تاريخ جوهر الصقلي ص ١١١ - ١١٨

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠ - ٢١ ، حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ٢٤٧

وكان العزيز رجلاً متمماً ، يميل إلى الآبهة ، كما كان خبيراً بالجواهر . ابتدع نوعاً جديداً من العمامة بحلّة بخيوط الذهب ، وسروجاً معطرة بالعنبر ، واقتنى كثيراً من الطير يزين بها مواعده ، وشغف - كخيارويه بن أحمد بن طولون - بجوارح الطير الغريبة ، وجلب لذلك الطيور والحوانات من السودان . وكان مغرماً بالصيد ، وخاصة صيد السباع (١) . وكان العزيز ذكياً أدبياً مستثيراً ، يجيد عدة لغات ، كما يبه المعز . وروى الثعالبي (٢) أنه قال في يوم عيد ، وقد مات ابنه وجلس للمعزاء :

نحن بنو المصطفى ذوو إحن جُرِعَها في الحياة كاظمنا  
عجيبة في الأنام محنتنا أولنا مبتلى وآخرنا  
يفرح هذا الوري بعيدهم طُرا وأفراحنا ما آتمنا

وكان العزيز فوق ذلك كريماً محباً للعفو ، وصنيعه مع أفنكين التركي خير مثل لذلك . واشتهر العزيز بالنسماح الديني ، فكان يعطف على النصراني واليهودي كما كان أبوه من قبله ، وتزوج بنصرانية ، وتوالى عطفه على السكينة القبطية ، وقلد عيسى بن نسطورس النصراني الوزارة ، كما عين منشأ ابن إبراهيم اليهودي بلاد الشام (٣) .

وكان العزيز - كما وصفه ابن خلكان (٤) - وأسمر ، أصهب الشعر ، أعين ، أشهل العين ، عريض المنكبين ، حسن الخلق .

### ٣ - موت العزيز :

ومات العزيز ببليس ، وكان قد خرج لحرب القرامطة ، في الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٣٦٨ هـ ، وهو في الرابعة والأربعين من عمره (٥) ، وقد عزا ابن خلكان (٦) وفاته إلى مرضه من حصاة في المثانة وقولنج ، وقال إن طبيبه أخطأ في وصف الدواء الذي شره وهو في الحمام ، فأت من ساعته . ولما اشتدت على العزيز وطأة المرض ، استدعى إليه القاضي محمد بن النعمان المغربي ، وأباً محمد الحسن بن عمار زعيم كتامة ، واستشارهما في تولية ابنة المنصور أبي علي .

ويروى لنا المسيحي في كتابه تاريخ مصر أن الحاكم قال له : استدعاني والدي قبل موته ، وهو عارى الجسد ، وعليه الحرق والضهاد ، وقبلني وضمني إليه وقال : واغمني عليك يا حبيب قلبي ! ودمعت

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٢

(٢) بتيمة الدهر ج ١ ص ٢٥٤

(٣) أبو صالح الأرمي : كنائس وأديرة مصر ص ٤٥ - ٤٦

(٤) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٢

(٥) ذكر ابن الفلاس (ص ٤٢) أنه ولد في الفيروان سنة ٨٣٤١ هـ ، وأن مدة خلافته إحدى وعشرون سنة ، وهو خطأ واضح .

(٦) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٣

عيناه ثم قال : امض يا سيدي فالعب فأنا في عافية . قال الحاكم : قضيت والتهبت بما يلتهى به الصبيان من اللعب ، إلى أن نقل الله العزيز إليه .

### الحاكم بأمر الله ( ٣٨٦ - ٥٤١١ )

ولد أبو علي المنصور يوم الخميس لأربع ليال بقين من شهر ربيع الأول سنة ٣٧٥ هـ . وقد عهد عهد إليه أبوه في سنة ٣٨٣ هـ ، ثم بويغ له بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه أبوه ، وذلك في شهر رمضان سنة ٣٨٦ هـ ، وله إحدى عشرة سنة ونصف سنة ، وتولى الوصاية عليه مرييه وأستاذه برجوان الخادم . ولما بلغ أهل القاهرة وفاة العزيز وتولية الحاكم الخلافة ، خرجوا لاستقبال الخليفة الجديد ، الذي دخل المدينة وبين يديه البنود والرايات ، وعلى رأسه المظلة يحملها ريدان الصقلي ، فدخل القصر عند غروب الشمس وبين يديه جثة أبيه ، فتولى غسله القاضي محمد بن النعمان ، ودفن مع أبيه المعز في إحدى حجرات القصر الشرقي الكبير (١) .

وقد ثار الكتاميون - وهم عصب الخلافة الفاطمية في مصر - على أثر ارتقاء الحاكم العرش ، وطلبوا منه عزل عيسى بن نسطورس وتولية زعيمهم أبي محمد الحسن بن عمار ، وهددوا الخليفة بالامتناع عن تقديم فروض الطاعة والولاء ، وبالقتل إذا لم يصغ إلى شكواهم ويعمل على تحقيق رغباتهم ، فلم ير الحاكم بدا من إجابتهم إلى ما سألوه ، فأستند الوساطة إلى ابن عمار في ٣ شوال سنة ٣٨١ هـ . ولم يلبث أن ظهر سوء إدارته في كثير من الأعمال ، بما أتاه في عهد تقلده الوساطة ، إذ بالغ في محاباة الكتامين ، وأبطل أعطيات الأتراك . واعتمد على معونة أحداث المغاربة الذين أثاروا الأتراك بأعمالهم . وكان برجوان يتنافس ابن عمار ويتناوئه ، مع معاضدة الأتراك له . فكان من أثر هذا التناحر أن هرب ابن عمار إلى الصحراء وحل محله برجوان ( شعبان سنة ٣٨٧ هـ ) . ولما شعر الحاكم أن سلطته مسلوقة مع هذا الوزير ، عمل على التخلص منه ، فقتله في حديقة داره في اليوم السادس والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة ٣٩٠ هـ .

#### ١ - أروار مرفوعة الحاكم :

ويمكن تقسيم عهد الحاكم ثلاثة أقسام :

( الأول ) من سنة ٣٨٦ هـ إلى سنة ٣٩٠ هـ ، وكان الحاكم في هذه المدة لا يملك من أمور السلطان شيئاً ، إذ كانت كل السلطة في يد ابن عمار ، ثم في يد برجوان .

( الثاني ) من سنة ٣٩٠ هـ إلى سنة ٣٩٥ هـ ، وفيها كان للحاكم على حداثة سنه سلطة كبيرة ، أظهر فيها تعصبا شديداً للذهب الفاطمي ؛ وبذلك اضطهد أهل الذمة من ناحية ، والمسلمين من غير الشيعيين من ناحية أخرى .

وكان من أثر هذه السياسة التي جرى عليها الحاكم ، أن قتل فهد بن إبراهيم النصراني ، الذي

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٣

أخذته كل من برجوان والحسين بن جوهر كاتباً له ، لمناصرته النصارى وإسناده مناصب الدولة العالية إليهم ، حتى إن العامة شكوا منه واعتبروه آفة على المسلمين وعدة للنصارى (١) . ولم يمض على قتل هبة تسعة وعشرون يوماً حتى قتل ابن العداس الذي أشار بقتله (٦ شعبان سنة ٥٣٩٣) . ثم أمر الحاكم بالقبض على رؤساء الكتاب من النصارى ، ولكنه لم يلبث أن أطلق سراهم وأعادهم إلى مراكزهم بشفاعة طبيبه أبي سهل بن مقشر النصراني (٢) . وفي سنة ٥٣٩٥ (١٠٠٤ - ١٠٠٥) أمر الحاكم النصارى واليهود بلبس الإشارة التي يعرف بها كل من الرعايا غير المسلمين ، ثم بدأت سياسته العدائية تظهر ظهوراً واضحاً بعد ذلك بثلاث سنين ، فهدم بعض الكتائس ، وبيع ما فيها من الأواني المقدسة في الأسواق (٣) . ولكن الحاكم ، على الرغم مما أوقعه بأهل الذمة ، فقد الوزارة بعض النصارى ، كابن عبدون ، الذي تقلدها في سنة ٥٤٠٠ ، ولكنه لم يلبث أن أقيـل في الحرم سنة ٥٤٠١ ، وترجع في دستها رجل من المسلمين عزل بعد عشرة أيام ، وحل محله في الوزارة زرعه بن نسطورس أخو عيسى بن نسطورس ، وظل فيها إلى أن توفي في شهر صفر سنة ٥٤٠٣ (٤) . وقد أوغر كثرة تقليد النصارى للوزارة صدور المسلمين عليهم ، فعملوا على الإيقاع بهم عند الخليفة الحاكم الذي اشتهر بالتقلب في أهوائه وميوله .

(الثالث) من سنة ٣٩٦ إلى سنة ٥٤٠١ . وما هو جدير بالملاحظة أن الحاكم بدّل سياسة التعصب ، مدفوعاً بعاملين هما تهديد حدود مصر من ناحية الغرب ، حين أغار عليها أبو ركوة ، الذي ادعى النسب للأمويين في الأندلس ، بجيش كبير من المغاربة ، وأعلن أنه أحق بامتلاك مصر من الفاطميين . وقد لاقى الحاكم صعوبة كبيرة في القضاء على أبي ركوة ، حتى أسر وصلب على أحد أبواب القاهرة . أما العامل الثاني فهو ما قاسته مصر من جراء انخفاض النيل مدة ثلاث سنين (٣٩٨ - ٥٤٠١) (٥) .

(الرابع) من سنة ٤٠١ إلى سنة ٥٤١١ . وقد بدأت سياسة الحاكم منذ سنة ٥٤٠١ تظهر بظهور أكثر تذبذباً وتقلباً ، وأصبح عقله أكثر ارتياباً واضطراباً . أما سياسته مع غير المسلمين ، وخاصة النصارى ، فقد كانت تابعة لرأى جمهور الأمة . ولم يكن استياؤهم راجعاً لنحلهم الدينية بحسب ، بل لأنهم كانوا يشتغلون بجمع الضرائب (٦) .

وكانت سياسة الحاكم تمتاز مع رعاياه على اختلاف أديانهم ومذاهبهم بعنف كثير ، كما كانت تمتاز أيضاً بشئ كثير من التذبذب والاضطراب . فمن أمثلة ذلك أنه نقش سب الصحابة على جدران المساجد (صفر سنة ٥٣٩٥) ، وحرم بيع الملوخية ، لأنه أثر عن معاوية بن أبي سفيان أنه كان يحبها ، كما حرم

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) ابن الفطلي : إخبار العلماء بإخبار الحكماء ص ١٧٨ ، ٤٣٨ .

(٣) يحيى بن سعيد : صلة تاريخ أوتينا «بيروت» سنة ١٩٠٩ ص ١٨٦ ، ١٩٥ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٩٨ - ١٩٩ . (٥) المقرئزي خطط ج ١ ص ٢٨٧ .

(٦) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ٢٠٧ .

أكل الجرجير ، لأن عائشة رضى الله عنها كانت تأكله ، ونهى عن أكل نبات المتوكلية الذى ينسب إلى الخليفة المتوكل ، كما نهى عن أكل القرع ، لأن أبا بكر وعائشة كانا يجبان أكله (١) . على أن الحاكم لم يلبث أن خفف من تشدده في مراعاة عقائد المذهب الفاطمى ، ليصلح بينه وبين رعاياه السنين ؛ فأبطل لعن الخلفاء الأول وغيرهم من الصحابة ، وأنشأ في سنة ٣٩٧ هـ مدرسة لتعليم عقائد المذهب السنى ، مما أساء إلى سمعته عند الشيعة . ولكن الحاكم الذى عودنا التقلب في سياسته وأهوائه ، لم يلبث أن عدل عن سياسة اللين مع رعاياه السنين على حين غفلة ، حين أمر في سنة ٤٠١ هـ بإعادة الأذان على النحو الشيعى ، وأعاد عبارة حى على خير العمل المألوفة عند الشيعة .

ولم تكن سياسة الحاكم مع النساء أقل شدة وعنفًا . فقد أصدر قانونا منع فيه النساء من الخروج سافرات ، ومن أن يتبعن الجنائز ، أو يظهرن للناس في حالة منافية للأدب والحشمة ، ولم يلبث أن منعهن من الظهور في سطوح المنازل ومن دخول الحمامات العامة ، كما منع صانعى الأحذية من أن يصنعوا أحذية خاصة بهن . وكان من أثر هذه السياسة أن قرء النساء في البيوت سبع سنوات حتى ولى الخلافة الظاهر بن الحاكم ( سنة ٤١١ هـ ) (٢) .

على أن سياسة الحاكم هذه ، وإن كانت قد أثارَت سخط المصريين عامة ، ساعدت على إقرار الأمن والمحافظة على الآداب العامة ، وقضت على الفوضى التى كانت سائدة في أوائل عهده . وفي عهده ظهرت طائفة الدرزية التى دعت إلى الاعتقاد بألوهية الحاكم ، مما أثار النزاع بينه وبين السنين ، ذلك النزاع الذى انتهى بقتله في سنة ٤١١ هـ .

وقد أنشئ في عهد الحاكم دار الحكمة التى كان يشتغل بها كثير من القراء والفقهاء والمنتجين والنحاة واللغويين ، وألحق بها مكتبة أطلق عليها دار العلم ، حوت كثيرا من أمهات الكتب مما ألف في مصر وغيرها من البلاد الإسلامية .

## ٢ - وفاة الحاكم :

اختلفت الروايات في وفاة الحاكم ، فيقول بعض المؤرخين إن أخته ست الملك هى التى دبرت قتله لسوء تصرفه ، فانفقت مع سيف البولة بن دواس أحد شيوخ كتامة على اغتياله ، وقالت له : دلى إليك أمر لا بد لى فيه من الاجتماع بك ، فأما تنكرت وجئت لىلا أو فعلتُ أنا ذلك . فقال : أنا عبدك والأمر لك . فتوجهت إليه لىلا فى داره متكررة ، ولم تصحب معها أحدا . فلما دخلت

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢٦

انظر كتاب «الفاطميون فى مصر» ص ٢٢١ ، نقلًا عن ابن زولاق : المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط رقم ١٨١٧ ورقة ٥٢ (١)

(٢) يحيى بن سعيد ص ٣٠٨ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٢٧ ، المقرئى : مخطوط

عليه قام وقبّل الأرض بين يديها دفعات ، ووقف في الخدمة ، فأمرته بالجلوس ، وأخلى المكان . فقالت : يا سيف الدولة ! قد جئت في أمر أحرمس به نفسى ونفسك والمسلمين ، ولك فيه الحظ الأوفر ، وأريد مساعدتك فيه ، فقال : أنا عبدك . فاستحلفته واستوثقت منه ، وقالت له : أنت تعلم ما يقصده أخى فيك ، وأنه متى تمكن منك لم يُسبِق عليك ، وكذا أنا ، ونحن على خطر عظيم . وقد انضاف إلى ذلك تظاهرة بادعائه الإلهية ، وهتكه ناموس الشريعة وناموس آبائه ، وقد زاد جنونه . وأنا خائفة أن يشور المسلمون عليه ، فيقتلوه ويقتلوننا معه ، وتنقضى هذه الدولة أقيح انقضاء . فقال سيف الدولة : صدقت يا مولاتنا ، فما رأى؟ قالت : قتله ونسرتج منه . فإذا تم لنا ذلك أقننا ولده موضعه وبدلنا الأموال ، وكنت أنت صاحب جيشه ومدبره ، وشيخ الدولة والقائم بأمره . وأنا امرأة من ورام حجاب ، وليس غرضى إلا السلامة منه . وأنى أعيش بينكم آمنة من الفضيحة ... (١) ثم اتفقت مع عبيد بن على قتله عند خروجه إلى جبل المقطم . نظلا يرقبانه إلى أن قرب الصباح ، فوثبا عليه وطرحاه أرضاً وقتلاه ، ثم حملاه إلى ابن دواس ، فحمله مع العبد بن إلى أخته ست الملك ، فدفنته في مجلسها . وكان ذلك في ليلة الاثنين السابع والعشرين من شهر شوال سنة ٤١١ هـ .

وهناك رواية أخرى تقول إن الحاكم خرج في هذه الليلة راكباً حماراً ، وبصحبته رجلان ، وإنه اختفى عنهما ولم يعثرا له على أثر . فقام بعض رجال الدولة وقضاتها ، وأخذوا في البحث عنه ، فعثروا على الحمار الذى كان يركبه مقطوع الديدن . ثم تابعوا السير حتى وصلوا إلى بركة شرقى حلوان ، فوجدوا فيها ثيابه : وهى سبع جباب مزررة وفيها أثر السكاكين .. ثم ظهر رجل من الصعيد وادعى أنه قتل الحاكم واعترف بذلك . ولما سئل عن سبب قتله . قال : قتله غيرة لله والدين . فقيل له وكيف قتله ؟ فأخذ سكيناً وضرب بها قلبه وقال : هكذا قتله ، ولم يلبث أن خر صريعاً وتوفى .

ويعتقد الدرزية أن الحاكم اختفى في سنة ٤١١ هـ ، وأنه سيعود إذا زالت المفاسد المنتشرة في العالم ، فهو إذن الإمام المنتظر عند هذه الطائفة .

### الظاهر لايعزاز دين الله ( ٤١١ - ٤٤٢٧ ) :

ولد أبو هاشم الظاهر في ليلة الأربعاء ، في اليوم العاشر من شهر رمضان سنة ٣٩٥ هـ ، وولى الخلافة بعد قتل أبيه بأيام ، وذلك في شهر شوال سنة ٤١١ هـ ، إذ كان الناس يرجون ظهوره ، ويتبعون آثاره . إلى أن تحققوا عدمه ، فأقاموا ولده المذكور في يوم النحر من السنة المذكورة ، (٢) وكان الظاهر حين ولى الخلافة فى السادسة عشرة من عمره .

وقد قامت عنمه ست الملك بالوصاية عليه فى الفترة الأولى من حكمه ، فأظهرت كفاية ممتازة فى إدارة شئون البلاد ، وبذلت العطاء للجند ، وظلت تشرف على أعمال الدولة إلى أن توفيت فى سنة ٤١٥ هـ .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج ٤ ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

(٢) ابن خلكان . وفيات الاعيان ج ٣ ص ٣٦٧ .

وفي سنة ٤١١ هـ استوزر الظاهر: نجيب الدولة علي بن الجرجرائي. وأصله من جرجرايا، لإحدى قرى بلاد العراق، ثم انتقل إلى القاهرة، وعهد إليه الحاكم بإدارة بعض الدواوين. غير أنه لم يلبث أن أساء التصرف فيها، فأمر الحاكم بقطع يديه من المرافق، ثم عينه والياً على ديوان النفقات في سنة ٤٠٩ هـ، وظل ينتقل في بعض الوظائف الإدارية في الصعيد، إلى أن اختاره الظاهر وزيراً له سنة ٤١٨ هـ، فاتخذ القاضي أبا عبدالله القضاة كاتبا له، ونظم شئون الدولة، كما أظهر حرصاً شديداً على أموالها (١).

وكان الظاهر سمحاً، عاقلاً، لين الريبة، استطاع بحسن سياسته أن يكتسب عطف أهل الذمة ومحبتهم له، فتمتعوا في عهده بالحرية الدينية، كما وجه عنايته إلى ترقية شئون البلاد وتحسين حالة الزراعة، فأصدر قانوناً منع فيه الناس من ذبح البقر، وأباح ذبح الحيوانات التي لا تصلح لحرث الأرض، وذلك على أثر الوباء الذي أصاب بعض الحيوانات التي يستخدمها الفلاحون في فلاحه الأرض، وكتب إلى الناس كتاباً جاء فيه: «إن الله تعالى يتتابع نعمته وبالغ حكمته، خلق ضروب الانعام وعمل فيها منافع الأنعام، فوجب أن تحمي البقر المخصوصة بعمارة الأرض، المذلة لمصالح الخلق؛ فإن في ذبحها غاية الفساد، وإضراراً للعباد والبلاد» (٢).

• • •

ولم يعم الظاهر ببناء كثير من المنشآت، لاشتغاله بالعمل على ضبط الأمور في داخل البلاد وخارجها. وقد بنى في عهده منظره للؤلؤة بالقرب من القصر الغربي الصغير، وتعد من أجمل المنارات التي أنشئت في القاهرة في عهد الفاطميين. وكان الظاهر يتنزه فيها، كما اتخذها بعض الخلفاء داراً للإقامة في وقت فيضان النيل (٣).

ولم يتمتع الظاهر بالخلافة مدة طويلة، فقد مرض بالاستسقاء، وتوفى ليلة الأحد منتصف شعبان سنة ٤٢٧ هـ. ولما علم وزيره الجرجرائي بذلك، أخذ البيعة لابنه أبي تميم الذي تلقب المستنصر (٤).

### المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ)

ولد أبو تميم محمد بن الظاهر يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر جمادى الآخرة سنة ٤٢٧ هـ، وبويع له بالخلافة في يوم الأحد النصف من شعبان سنة ٤٢٧ هـ، وهو في السابعة من عمره، وظل في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر. وكان أطول الخلفاء عهداً، غير أن مصر لم تتمتع طوال هذه المدة بالرخاء والطمأنينة غير فترة قصيرة، ثم حدثت بها أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية كان من أثرها أن تززع مركز الخلافة الفاطمية وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من الزوال.

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٦٧

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٥٢.

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٦٧



وقد أقر المستنصر على بن الجرجاني وزير أبيه في الوزارة ، وكان الحاكم قد أمر بقطع يديه من المرافق كما تقدم ، فاتخذ القضاء كاتباً له . وظل الجرجاني في الوزارة إلى أن توفي سنة ٤٣٦ هـ ، خلفه أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحى . وفى عهد هذا الوزير ازدادت سلطة أبي سعيد التستري اليهودى ، وكان يتولى نظارة خاصة أم الخليفة ، حتى إنه لم يعد له معه إلا اسم الوزارة ، فمقد عليه وأتمه بدس السم لريحان زعيم الأتراك حينذاك ، فانقض عليه ثلاثة من الأتراك وقتلوه فى جمادى الأولى من سنة ٤٣٩ هـ ومثلوا بجثته . ولكن الخليفة المستنصر لم يرض عن هذا العمل ، كما لم ترض عنه أمه التى كانت قبل زواجها بالخليفة الظاهر أمة فى بيت التستري ، فأسند ديوان خاصته إلى أخيه أنى نصر ، وقلد ابنة إدارة أحد الدواوين . ولم تنس أم الخليفة للوزير الفلاحى تدبير قتل التستري ، فأقيل من الوزارة وحبس ، ثم قتل ( المحرم سنة ٤٤٠ هـ ) . وفى الحق أن الفلاحى اتخذ من شعور المسلمين العدائى نحو التستري فرصة للنيل منه والإيقاع به ، وساعد على ذلك أن التستري قد أثار كراهة المسلمين ، لإسناده مناصب الدولة إلى بنى جلدته من اليهود الذين اضطهدوا المسلمين اضطهاداً واضحاً ، حتى إن شاعراً من الشعراء المعاصرين ، يسمى ابن البواب ، نظم هذه الأبيات :

يهودُ هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا  
العزَّ فيهم والمال عندهم ومنهمُ المستشار والملك  
يا أهل مصرٍ قد نصحت لكم تهودوا قد تهود الفلك (١)

امتد سلطان الفاطميين فى القسم الأول من عهد المستنصر على بلاد الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمال إفريقيا ، وكان اسمه يذاع على كافة منابر البلاد الممتدة من المحيط الأطلسى غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً ، وكذا فى صقلية واليمن والحجاز والموصل ، بل فى بغداد نفسها حاضرة العباسيين نحواً من سنة . ولكن بعض هذه البلاد لم يلبث أن خرج من سلطان الفاطميين ؛ فقد خرجت بلاد المغرب سنة ٤٤٣ هـ ، وفى سنة ٤٧٥ هـ زالت سلطة الفاطميين من بلاد المغرب الأقصى التى استولوا عليها من الأدارسة سنة ٣٤٧ هـ ، واستولى روجر الترمندى على صقلية التى كانت تابعة للفاطميين منذ أواخر القرن الثالث الهجرى ، وخلع أمير مكة والمدينة طاعتهم فى سنة ٤٦٢ هـ . وعلى الرغم من المنازعات التى قامت فى أوائل عهد الخليفة المستنصر بين التستري والفلاحى ، وتدخل أم الخليفة فى إدارة شئون الدولة ، فإن مصر قد تمتعت بشيء من الطمأنينة والرخاء ؛ فقد آمدنا ناصرى خسرو عند زيارته لمصر سنة ٤٣٩ هـ بوصف ضاف لثروة البلاط الفاطمى وأهله ، وما كانت عليه القاهرة فى ذلك الوقت من يسر ورخاء (٢) .

غير أن هذا الرخاء الذى كانت تمتع به مصر فى ذلك الحين لم يدم طويلاً ، فقد حلت بالقاهرة

(١) السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ج ٢ ص ١١٦

(٢) Nasir Khusraw : Safar Nāmeḥ (ed. Charles Schefer, Paris, 1881), p. 127 et seq.

الأيام السيئة ، وعاودتها المصائب التي لم تشعر بها قبل قرن من تأسيسها . فقد عم الوباء والقحط مصر في سنة ٤٤٦ هـ ، وانقطع ماء النيل ، فأهملت الزراعة ، وانتشرت المجاعة ، وعم الوباء الذي يعتبر أطول وباء عرفته مصر في العصور الوسطى ، وامتد ثمانين سنة ( ٤٤٦ - ٤٥٤ هـ ) ، ونكبت به جميع الأمم الإسلامية من مصر إلى سمرقند ، ودونت عنه قصص مروعة ، حتى قيل إنه كان يموت بمصر كل يوم عشرة آلاف نفس ، وهدمت الأقوات حتى أكل الناس الكلاب والقطط ، ثم أكل بعضهم بعضا . وليس أدل على الفوضى التي سادت مصر في ذلك العهد من تقلد أربعين وزيرا الوزارة في تسع سنوات بعد قتل الوزير البازوري في سنة ٤٥٠ هـ . ثم عاد القحط والغلاء وما أعقبه من الوباء والموت في سنة ٤٥٩ هـ ، وظلت الحال كذلك إلى سنة ٤٦٤ هـ . وافتقرت هذه الشدة التي اصطاح المؤرخون على تسميتها وشدتها العظمى ، ، بقيام الفتن والحروب الأهلية ، حتى تدارك مصر بدر الجمالي والى عكا ، الذي استدعاه الخليفة المستنصر في سنة ٤٦٦ هـ ، فأعاد النظام ووجه همه إلى إصلاح حال البلاد وقضى على المفسدين (١) .

ويحسن بنا أن لانطيل الكلام على عهد المستنصر الفاطمي الذي حكم الدولة الفاطمية أكثر من ستين سنة كما تقدم ، ولا سيما بعد أن تقلد بدر الجمالي الوزارة ، وحكم البلاد حكما مطلقا منذ سنة ٤٦٦ هـ ، لأن هذا يخرج بنا عن نطاق هذا الجزء الذي خصصناه لدراسة العالم الإسلامي من سنة ٢٣٢ هـ إلى سنة ٤٤٧ هـ ، أي قبل تقلد بدر الوزارة بنحو عشرين سنة ، وقبل وفاة المستنصر بأربعين سنة . ( أول شوال سنة ٤٨٧ هـ ) . لذلك رأينا أن نرجى \* الكلام على القسم الثاني من حكم المستنصر بشيء من التفصيل إلى الجزء الرابع من هذا الكتاب ، حين ندرس العصر الفاطمي الثاني ( ٤٦٦ - ٥٦٧ هـ ) الذي يطلق عليه عصر الوزراء العظام ، أي العصر الذي استبد فيه الوزراء بالسلطة ، وأصبح الخلفاء الفاطميون كالمحجور عليهم .

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر من ١٣ - ٢٣ ، ٣٤ ، حسن ابراهيم حسن : الفاطميون في مصر

دولة الأغالبة (١)

(في تونس وغيرها)

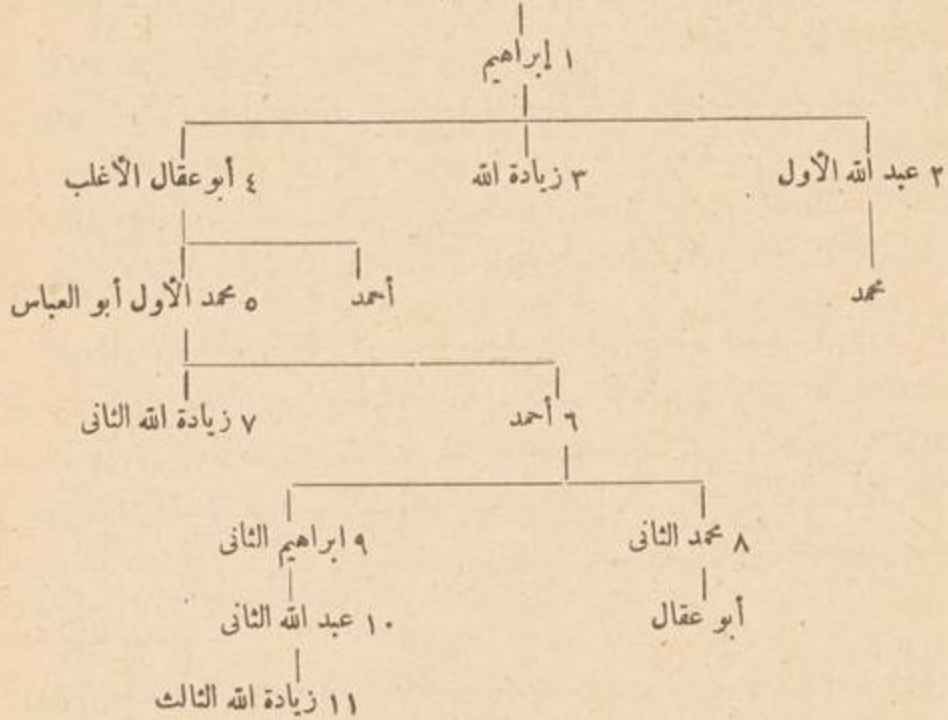
١٨٤ - ٢٩٦ هـ = ٨٠٠ - ٩٠٩ م

هجري	ميلادي	هجري	ميلادي
٢٤٩	٨٦٣	١٨٤	٨٠٠
٢٥٠	٨٦٤	١٩٦	٨١١
٢٦١	٨٧٤	٢٠١	٨١٦
٢٨٩	٩٠٢	٢٢٣	٨٣٧
٢٩٠	٩٠٣	٢٢٦	٨٤٠
٢٩٦	٩٠٩	٢٤٢	٨٥٦

[ الفاطميون ]

جدول يمثل تسلسل نسب الأغالبة

الأغلب بن سالم



### إبراهيم بن الأغلب (١٨٤ - ١٩٦ هـ)

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب أن تأسيس مدينة القيروان في إفريقية (بلاد تونس حاليا) على يد عقبة بن نافع سنة ٥١ هـ (٦٧٠ م) كان تمكينا للعرب بمركز حصين اتخذوه قاعدة لأعمالهم الحربية، وأن العرب استطاعوا أن يجذبوا أهالي هذه البلاد من البربر إلى الإسلام، وإدماجهم في جيوشهم، فكانوا نواة الجيوش الإسلامية التي أتمت فتح بلاد المغرب بقيادة قواد من العرب والبربر، ثم أتمت فتح بلاد الأندلس على يد طارق بن زياد، وكان من البربر.

ولكن سرعان ما أخذ هؤلاء البربر يثيرون الخلاف على العرب، حتى غدت بلادهم مسرحا للفتن والفتن والفتن في أواخر العصر الأموي. وفي أوائل العصر العباسي. وقد أراد أبو جعفر المنصور معالجة هذه الحالة، بعد أن خرج عليه ابن الأشعث والى إفريقية، فولى الأغلب بن سالم هذه البلاد، فقدم القيروان في سنة ١٤٨ هـ، ولكنه لم يلبث أن قتل على أبوابها سنة ١٥٠ هـ على أيدي البربر بزعامة قوادهم من العرب. ومال هؤلاء البربر إلى مبادئ الخوارج، وخلعوا طاعة العباسيين الذين أخذوا يرسلون الجيوش إليهم لإخضاعهم على غير جدوى، واستمرت مدينة القيروان تسقط في أيدي الثوار حينما وفي أيدي العباسيين حينما آخر، حتى ولها هرمة بن أعين من قبل هارون الرشيد سنة ١٧٩ هـ. وعلى الرغم من أنه استطاع أن يضعف من قوتهم حينما من الدهر، رأى أن إخضاعهم من الصعوبة بمكان، لتأصل العداء في نفوسهم، وكرهتهم لولاتهم من العرب لفرضهم عليهم الضرائب التي أنقلت كواهلهم، فاستعفى من إمارته وعاد إلى العراق سنة ١٨١ هـ. وتجددت ثورات البربر والعرب من بعده، وعمل بعض زعمائهم على الاستقلال عن الدولة العباسية، فتأسست ولايات من البربر على يد زعماء من سلالة العرب، واستقلت استقلالاً يكاد يكون تاماً (١).

وكان قيام دولة الأغالبة في تونس نتيجة هذه السياسة التي ناز عليها الرشيد، في تأديب البربر وغيرهم من الثوار، والوقوف في وجه الإدارة إذا أرادوا الإغارة على أراضي الدولة العباسية. وقد طلب إبراهيم بن الأغلب - وكان يلي بعض نواحي الزاب - إلى الرشيد أن يوليه إفريقية، على أن ينزل عن المطالبة بما كانت ترسله مصر إليها من الأموال التي اعتادت أن ترسلها إليها في كل سنة، ومقدارها مائة ألف دينار، كما تعهد بأن يرسل إلى بيت المال في بغداد أربعين ألف دينار، وأشار

(١) من هذه الولايات ولاية تاهرت التي أسسها عبد الرحمن بن رستم بمساعدة الإباضية من الخوارج (١٣٧ - ٢٩٧ هـ)، وولاية سجلماسة التي أسسها بنو مدرار (١٦٧ - ٢٥٧ هـ)، وتلمسان التي أسسها أبو قرعة الصنهاجي، وبرغوانة الواقعة على ساحل المحيط الأطلسي، ودولة الأدارسة التي أسسها إدريس ابن عبد الله في بلاد المغرب الأقصى (١٧٢ - ٣١٣ هـ) ودولة الأغالبة في تونس (١٨٤ - ٢٩٦ هـ)

هرثمة بن أعين على الرشيد بتولية إبراهيم بن الأغلب هذه البلاد ، لما رآه من عقله وكفايته (١) ،  
فولاه الرشيد إياها في شهر المحرم سنة ١٨٤ هـ (٢)

وكان إبراهيم بن الأغلب على جانب عظيم من الشجاعة ورجاحه العقل ، وقد آنس فيه الذكاء.  
أستاذة الليث بن سعد فقال : « ليسكو تن لهذا الفتي شأن (٣) » . وكان الليث إمام أهل مصر في الفقه  
والحديث ، وقال الشافعي رضي الله عنه إنه أفقه من مالك ، إلا أن أصحابه لم يقوموا به ، (٤) أي أن  
تلاميذه لم ينشروا مذهبه ، كما فعل أهل العراق مثل مذهب أبي حنيفة . وقد صدقت نبوءة الليث ، فإن  
إبراهيم لما آلت إليه مقاليد الحكم في إفريقية ضبط أمورها وبني في سنة ١٨٥ هـ مدينة على بعد ثلاثة  
أميال من القيروان (٥) ، ونقل إليها أهله وعبيده وأهل ثقتة (٦) . ويظهر أنه اتخذ هذه التسمية لإظهار  
ولائه للخليفة العباسي والاعتراف بسلطان الدولة العباسية عليه .

على أن الثورات في بلاد المغرب لم تلبث أن سارت سيرتها الأولى ، فخرج على إبراهيم بن  
الأغلب في سنة ١٨٦ هـ حمديس ، وكان من العرب النازلين بمدينة تونس ، فبعث إليه ابن الأغلب  
عمران بن مخلد ، في جيش كبير . فأحل الهزيمة بحمديس وجنده وقتل منهم عشرة آلاف رجل ،  
ودخل تونس (٧) .

وفي سنة ١٨٩ هـ انتشرت الثورة في طرابلس ، وكانت تابعة لأمير إفريقية ، لبغض أهلها لولائهم  
وعزمهم على إخراج واليهم سفيان بن المضاء ، وكان قد ولي هذه البلاد للمرة الرابعة ، وأخرجوه من  
داره وطاردوه إلى المسجد ، وقتلوا أصحابه فيه ، وأرغموه على العودة إلى القيروان ، ولما يمض على  
ولايته سبعة وعشرون يوما ، وولوا عليهم إبراهيم بن سفيان التميمي ، ولكنه لم يستطع أن يقر  
الأمر بسبب قيام النزاع بين العرب والأبناء (٨) . فأرسل إبراهيم إليهم جيشا أحضرهم إلى القيروان ،  
ولكنه عفا عنهم (٩) .

على أن الفتن والثورات لم تخمد في طرابلس ، فيحدثنا ابن الأثير (١٠) أن أبا عصام ثار على  
رأس جماعة كبيرة ، وأن إبراهيم بن الأغلب ظفر بهم ، وولى هذه البلاد ابنه عبد الله الذي لقي

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٥٦

(٢) انظر الجزء الثاني من هذا الكتاب ص ١٧٥ - ١٨٠

(٣) البيان المغرب في أخبار المغرب (طبعة لندن سنة ١٨٤٨ م) ج ١ ص ٨٤

(٤) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٣٨

(٥) سمي ابن عذارى (ج ١ ص ٨٤) هذه المدينة القصر القديم ، وسميها ابن الأثير (ج ٦ ص ٥) العباسية

(٦) ابن عذارى البيان المغرب ج ٢ ص ٨٤

(٧) ابن الأثير ج ٦ ص ٥٦ . يظهر أن حمديس هذا هو الذي يعنيه ابن عذارى (البيان المغرب

ج ١ ص ٨٤) بالكسندى .

(٨) يقصد بذلك الذين يجمعون بين الدم العربي والدم البربري

(٩) ابن الأثير ج ٦ ص ٦٩

(١٠) ج ٦ ص ٩٧ - ٩٨

كثيرا من الشدائد من ناحية البربر أول الامر ، فأرغموه على الخروج عن المدينة ، ولكننه استطاع أن يستميلهم إليه بما أصدق عليهم من الأموال والعطايا . وعلى الرغم من دخول عبد الله مدينة طرابلس ، فإن أباه لم يأمن بقاءه فيها ، فولى سفيان بن المضاء هذه البلاد للمرة الخامسة ، فثارت قبيلة هواره عليه ودخلوا مدينة طرابلس وهدموا أسوارها ، فأرسل إليهم إبراهيم بن الأغلب ابنه عبد الله على رأس ثلاثة عشر ألف فارس ، فهزم البربر وقتل كثيرا منهم ، ودخل طرابلس وأعاد بناء سورها . ولكن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم جمع البربر وحرضهم على قتال الأغلبية ، فحاربهم عبد الله إلى أن توفى أبوه إبراهيم ، وآلت إمارة الاغلبية إليه . فاضطر إلى مصالحتهم ، على أن يكون البلد والبحر لعبد الله ، وما كان خارجا عن ذلك يكون لعبد الوهاب (١) .

وكما كان إبراهيم الأغلب يخشى شر أهالي طرابلس الذين تألبوا عليه وثاروا في وجهه ، كذلك عمل على القضاء على الإدارة في بلاد المغرب ليأمن شرم . وقد بلغه أن إدريس بن إدريس قد كثرت جمعه ، فأراد قصده ، ولكن أصحابه نصحوه له بالعدول عن رأيه وقالوا : اتركه ما تركك ، وكتب إليه إدريس يستعطفه ، ويسأله أن يعدل عن مناصبته العدا . وتفزيق أنصاره ، ويذكر له قرابته من الرسول عليه الصلاة والسلام ، فكف عنه (٢) .

وقد ذكر الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب باشا (٣) أن إبراهيم بن الأغلب استقبل سفراء شرمان في العباسية حاضرة ولايته (٤) . ويظهر أن إبراهيم قد علت منزلته واشتهرت ولايته ، حتى إن شرمان لجأ إليه مباشرة دون الرجوع إلى الخليفة العباسي .

كان إبراهيم بن الأغلب — على ما وصفه ابن عذارى — (٥) فقيها أديبا ، شاعرا خطيبا ، ذا رأى ونجدة وبأس وحزم ، وعلم بالحروب ومكايدها ، جرى الجنان طويل اللسان ، لم يل إفريقية أحسن سيرة ولا سياسة ، ولا أرف بالرعية ، ولا أوفى بعهده ولا أوعى لحرمة منه ، فطاعت له قبائل البربر وتمهدت إفريقية في أيامه ، واستقامت الأحوال بها .

### عبد الله الأول ( ١٩٦ — ٥٢٠١ )

ولى إبراهيم بن الأغلب ابنه أبا العباس عبد الله العهد من بعده ؛ فلما مات في سنة ١٩٦ هـ ، كان عبد الله يحارب ابن رستم في طرابلس كما تقدم ، فقام له أخوه زيادة الله بالامر ، وأخذ له البيعة

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٩٧ — ٩٨

(٢) راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب ص ١٨٠

(٣) كتاب خلاصة تاريخ تونس (طبعة تونس سنة ١٣٤٤هـ) ص ٦٩

(٤) قيل أن سبب قدوم هؤلاء السفراء يرجع إلى طلب شرمان نقل رفات أحد القديسين في قرطاجنة إلى إكس لاشابل حاضرة الفرنجة ، وأن إبراهيم بن الأغلب أجابه إلى طلبه

(٥) البيان المغرب في أخبار المغرب ج ١ ص ٨٣

على نفسه وعلى أهل بيته وجميع رجاله وخدمته ، وبعث إليه بذلك . (١) ولكن عبد الله لم يعد إلى إفريقية إلا في سنة ١٩٧ هـ حيث سلم إليه أخوه زيادة الله مقاليد الأمور . ولما قتل الخليفة الأمين في سنة ١٩٨ هـ وولى الخلافة بعده أخوه المأمون ، أقر عبد الله بن إبراهيم على إفريقية (٢) .

وكان عبد الله سبي السيرة ، حتى أغضب أهل بيته وأهالي إفريقية . يقول ابن عذارى إنه لما عاد من طرابلس تلقاه أخوه زيادة الله وسلم الأمر إليه ، أساء معاملته ، وكان يأمر رجال بلاطه بإطلاق أسننهم فيه ، وزيادة الله يظهر له التعظيم والإكبار ، ولا يظهر له تغيراً أو كراهة . كما اشتط عبد الله في جمع الضرائب حتى قيل إنه فرض على كل فدان ثمانية عشر ديناراً في كل سنة . وكانت معاملته للأهلين تنطوي على كثير من العنت والجور ، ولم يصغ إلى نصائح أهل الورع والدين ، حتى قيل إنه لما قدم حفص بن حميد الصالح على إفريقية ومعه قوم صالحون من الجزيرة ، قصدوا إليه ، فوعظوه في أمر الدين ومصالح المسلمين ، فتهاون بهم ، فخرجوا مغموين (٣) يريدون القيروان . وكان هو في القصر القديم (يعني العباسية) . فلما وصلوا وادى القصارين قال لهم حفص بن حميد : قد يئسنا من المخلوق فلا نياس من الخالق ، فاسألوا المسولى واضرعوا إليه في زوال ظله عن المسلمين ، فإن فتح في الدعاء فقد أذن في الإجابة ، فتوضأ جميعهم وساروا إلى كندية روح (٤) ، فصلى بهم حفص ركعتين ، ودعوا الله أن يكف عن المسلمين جور أبي العباس (عبد الله) ويريح المسلمين من أيامه ، فيقال إن قرحة خرجت له تحت أذنه فمقتله في السادس من دعاء القوم . وقال من حضر غسله : إنه لما كشف عنه ثيابه ، ظن أنه عبد أسود بعد جماله ، وذلك بسوء فعالة (٥) . وكان ذلك في سنة ٢٠١ هـ بعد أن حكم خمس سنين وشهرين .

يتبين من هذه القصة التي تكاد تكون قصة خيالية تنطوي على شيء كثير من المبالغة ، أن سيرة هذا الوالي قد أمارت عليه حتى أهل بيته ، فالتخذ المؤرخون من سوء سيرته مصدراً لتأليف القصص حول حياته .

### زيادة الله الأول (٢٠١-٢٢٣ هـ) :

كان زيادة الله من أطول الأغالبة عهداً بالحكم ، وكان - كأخيه عبد الله - يميل إلى الظلم والجور . ويمتاز عهده بقيام بعض الثورات ومحاولة فتح جزيرة سردينية وفتح جزيرة صقلية في البحر الأبيض المتوسط .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٦

(١) ابن عذارى البيان المغرب ج ٢ ص ٨٦

(٣) كذا في الأصل ولعل الكلمة «مغمومين»

(٤) السكدية الأرض الصلبة .

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار المغرب ج ١ ص ٨٧ ، وابن الأثير ج ١ ص ١٢١

وقد قضى زيادة الله ست السنوات الأولى من عهده آمناً مطمئناً ، حتى خرج عليه في سنة ٥٢٠٧ هـ زياد بن سهل المعروف بابن الصقلية ، ولكن الهزيمة حلت به وبأنصاره . وفي السنة التالية خرج بتونس منصور بن نصير الطنبزى ، فسير إليه زيادة الله جيشاً بقيادة محمد بن حمزة ، فهزمه منصور وقتل إسماعيل بن سالم بن سفيان بن عقال وابنه محمد ، وكانا من أقارب زيادة الله . فلما سمع زيادة الله بذلك أرسل وزيره الأغلب بن عبدالله بن الأغلب على رأس جيش كثيف ، وشيع هذا الجيش ، وهدد قائده وجنده بالقتل إذا حلت بهم الهزيمة ، وأفلت منصور من أيديهم ولكن تهديد زيادة الله لم يحل دون إلحاق الهزيمة بجنده ، الذين خشوا سوء العاقبة ، وعولوا على عدم العودة إلى العباسية ، فتقلبت بهم الأحوال ، وخلصوا طاعته وانضموا إلى منصور ، واستولوا على كثير من المدن مثل باجة وصطيفورة والأربس . واضطربت أحوال إفريقية وكادت تخرج من يد زيادة الله ، الذى أثار كراهة أهلها بسوء سيرته وقسوته . وقد تفاقم خطر منصور ، فسار إلى القيروان وحاصرها ، وحارب زيادة الله فى كثير من المواقع التى انتهت بهزيمة منصور وهربه فى منتصف جمادى الآخرة سنة ٥٢٠٨ هـ . وعزم زيادة الله على إزال العقاب بأهل القيروان ، فنصحته أهل العلم والدين فعدل عن رأيه ، ولكنه هدم سور المدينة . ثم أرسل زيادة الله ابن أخيه محمد بن عبد الله بن الأغلب إلى مدينة سببة ، فحلت به الهزيمة ، وأثار هذا الانتصار شجاعة منصور ، فحاصر القيروان من جديد ، وألقى بال زيادة الله الذى ضعف أمره وتضامات ولايته ، حتى إنه لم يبق معه من إفريقية فى سنة ٥٢٠٩ هـ إلا قابس والساحل ونقاوة وطرابلس (١) ، وضرب منصور الطنبزى السكة باسمه . ولم تنته هذه الثورة العنيفة التى كادت تودى بدولة الأغلبة إلا فى سنة ٥٢١١ هـ ، وذلك يرجع إلى قيام النزاع بين منصور الطنبزى وقائده عامر بن نافع الذى هاله ازدياد نفوذه واتساع رقعة البلاد التى دخلت فى حوزته ، وأرغمه على الهرب إلى المشرق ، ولم يلبث أن قبض عليه وحبس ، ثم قتله ، واستولى على بلاده . على أن النزاع الذى قام بين أنصار منصور الطنبزى لم يقف عند هذا الحد ، بل ازداد سوءاً بعد مقتل منصور ، حتى مات عامر بن نافع فى سنة ٥٢١٣ هـ ، وأطمأن زيادة الله بن الأغلب من ناحية هؤلاء الثوار ، وعبر عن اغتباطه حين علم بوفاة عامر بقوله بقوله : اليوم وضعت الحرب أوزارها ، (٢)

### فتح جزيرة صقلية

فتحت جزيرة صقلية على يد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب سنة ٥٢١٢ هـ ، وذلك فى عهد الخليفة المأمون . على أن اهتمام المسلمين بفتح هذه الجزيرة يرجع إلى عهد معاوية بن أبى سفيان حين غزاها عبدالله بن قيس الفزارى من قبل معاوية بن حديج وإلى إفريقية ، ولكن أقدام المسلمين لم تثبت فى هذه الجزيرة (٣) . ويقول النويرى (٤) إن محمد بن إدريس الأنصارى فتحها فى أيام يزيد

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ١٢٣ (٢) ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب ج ١ ص ٩٤ - ٩٥

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٤ (٤) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٤٢٦



ابن عبد الملك وغنم منها غنائم كثيرة ، ثم غزاها بشر بن صفوان الكلابي في أيام هشام بن عبد الملك ( سنة ١٠٩ هـ ) ، كما غزاها حبيب بن أبي عبيدة في سنة ١٢٢ هـ ، واستولى على سرقوسة على الساحل الشرقي للجزيرة ، ثم عاد إلى إفريقية محملاً بالغنائم . ثم غزاها عبد الرحمن بن حبيب سنة ١٣٠ هـ ، غير أن أقدام المسلمين لم تكند تثبت إلا في عهد الأغالبة .

روى المؤرخون الذين تناولوا الكلام على فتح صقلية أن السبب المباشر لفتحها في عهد زيادة الله ابن الأغلبي على إفريقية ، أن إمبراطور القسطنطينية ميخائيل الثاني ولى عليها قسطنطين البطريق ، فأرسل يوفيموس Euphemius في أسطول نهب ساحل إفريقية . ثم غضب عليه الإمبراطور ، إذ نعى إليه أنه اختطف راهبة من دير هناك ، ففر إلى سرقوسة الواقعة على ساحل صقلية الشرقي ، وثار في وجه حاكم الجزيرة . ولكنه لما رأى أنه لا طاقة له بجيوش الإمبراطور وأساطيله ، لجأ إلى زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلبي أمير إفريقية ، واستغاث به ، وهو من عليه فتحها ، فجهز زيادة الله جيشاً وأسطولاً يتألف من مائة مركب بقيادة أسد بن الفرات قاضي القيروان (١) .

ولما وصل جيش زيادة الله إلى صقلية ، قامت الحرب بين المسلمين ويوفيموس من ناحية وبينهم وبين حاكم الجزيرة من ناحية أخرى ، وانتهت هذه المعارك بهزيمة الروم . وبالرغم مما لحق المسلمين من الهزائم ، ووفاة أسد بن الفرات وهو على حصار مدينة سرقوسة في سنة ٢١٣ هـ ، ولى المحاربون عليهم محمد بن أبي الجوارى ، فاستطاع المسلمون أن يستولوا على كثير من الحصون كحصن ميناء وجرموند . أما يوفيموس فقد سار إلى مدينة قصر يانة وانقلب على المسلمين فيها ، فثاروا عليه وقتلوه . ولكن المسلمين لم يستطيعوا التوغل في هذه الجزيرة حتى جاءتهم سفن من الأندلس كانت متجهة نحو بلاد الروم بقيادة قرغلوش ، فطلب المسلمون منه المعونة ، فأجابهم إلى طلبهم ، واستولوا على مدينة ميناء ، ولكنهم اضطروا إلى الرحيل عنها ، وانتشر الوباء فيهم ، ومات القائد الأندلسي وكثير من جند المسلمين ، وعاد الأندلسيون إلى بلادهم ( سنة ٢١٥ هـ ) (٢) .

وقد طال حصار المسلمين لمدينة بلرم ، فبدأ في شهر جمادى الآخرة سنة ٢١٥ هـ ، وانتهى بفتحها سنة ٢١٦ هـ (٣) ، وفي سنة ٢١٩ هـ سار المسلمون إلى قصر يانة ، ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها ، وكانوا يعودون إليها مرة بعد أخرى ، ثم يرتدون عنها فيحاولون الاستيلاء على غيرها من المدن مثل طبرمين ، وقسطلياسة ، وعلى بعض الحصون المحيطة بجبل النار وغيرها ، وظلوا على ذلك إلى أن مات زيادة الله بن الأغلبي سنة ٢٢٣ هـ (٤) . ولم يستطع المسلمون الاستيلاء على الجزيرة كلها رغم ما كان يصلهم من الأمداد من إفريقية ؛ وكانت سرقوسة آخر معقل وقع في أيديهم في عهد إبراهيم الثاني الأغلبي سنة ٢٦٤ هـ .

(١) المكتبة الصقلية ج ٢ ص ٤٢٧ - ٤٢٩ عن كتاب نهاية الأرب للتويري

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٩٦ - ٩٧ (٣) ابن الأثير ج ٦ ص ١٢٤ - ١٢٥

(٤) ابن الأثير ج ٦ ص ١٢٧

محمد الأول (٢٢٦ - ٢٤٢ هـ) :

لما مات زيادة الله الأول سنة ٢٢٣ هـ ، ولى أخوه أبو عقال ، وكان ثالث أبناء إبراهيم بن الأغلب الذين ولوا إمارة الأغالبة بعده على التوالي . وكان أبو عقال أحسن سيرة من أخويه ، لأنه أجرى على العمال أرزاقاً واسعة وصلات جزلة ، وقبض أيديهم عن الرعية ، فقطع النيذ من القيروان ، وعاقب على بيعه وشربه ، ولم يحدث في عهده ما يستحق الذكر ، إلا هذه الثورة التي أذكت نيرانها قبائل لواتة ومكناسة وزواغة من البربر ، فقضى عليهم عيسى بن ريعان الأزدي قائد الأغالبة ، وانصر عليهم في موقعة حاسمة بين قفصة وقسطيلية . وتوفي أبو عقال في شهر ربيع الآخر سنة ٢٢٦ هـ بعد أن حكم سنتين وتسعة أشهر وأياماً ، وهو في الثالثة والخمسين من عمره (١) ، خلفه ابنه أبو العباس محمد الأول .

كان أبو العباس ( ٢٢٦ - ٢٤٢ هـ ) من أطول أمراء الاغالبة عهداً . وقد تخللت عهده حوادث كثيرة ، كان أشدها خطراً اغتصاب أخيه أحمد الإمارة منه . وذلك أن أحمد تواعد مع جملة من الموالي إلى موضع ، فتوافوا هناك وقت الظهيرة ، فقصدوا إلى مدينة القصر القديم ، وقد خلا الباب من الرجال ، فدخلوا وأغلقوا الباب ، ثم ساروا حتى أغلقوا الأبواب الأخرى ، ثم هجموا على أبي عبدالله بن علي بن حميد الوزير ، فأمر أحمد فضربت عنقه ، ووقع القتال بين رجال محمد بن الأغلب ورجال أخيه أحمد بن الأغلب ، وجعل أصحاب أحمد يقولون لأصحاب محمد : ما لكم تقاتلوننا ؟ نحن في طاعة محمد بن الأغلب ، إنما قنا على أولاد علي بن حميد الذين أفروكم واستولوا على أموال مولاكم دونكم ؟ وأما نحن ففي الطاعة ، فلما سمعوا ذلك وقفوا عن القتال . ولما نظر محمد إلى ما دهمه على غير استعداد ، قعد في مجلسه الذي يقعد فيه للعامه ، وأذن لأخيه أحمد والرجال الذين معه في الدخول عليه ، فدخلوا بسلاحهم ، فكانت بينهم معاتبة ، ثم حلفوا ألا يفدر أحد بصاحبه ، واصطلحوا واعتدلت الأمور لأحمد بن الأغلب ، إلا اسم الإمارة فقط . وقبض أحمد على من شاء ، واستصحب من أراد ، وعذب من أحب ، وأعطى الرجال ، وجبى الأموال ، واستوزر نصر بن حمزة . وفي سنة ٢٣٢ هـ ظفر محمد بن الأغلب بأخيه أحمد وحبسه ، ورجع له سلطانه ، وقام معه في ذلك جماعة من بني عمه ومواليه ، وسقى البوابين واحتال عليهم حتى دخل المدينة ، وحارب أخاه طول الليل ، وأطلق من كان في حبس أخيه ، فاستمد بهم ، ووصل أهل القيروان حتى أنفذ جميع ما في خزائنه من الأموال والكسبي ، ثم نفي محمد بن الأغلب أخاه أحمد (٢) إلى المشرق ، فمات بالعراق (٣) .

من ذلك نرى أن قبض أحمد بن أبي عقال الأغلب على أخيه محمد ، الذي ولى الإمارة بعد أبيه ،

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٩٩ - ١٠٠

(٢) يلاحظ أن أحمد هذا الذي مات في العراق هو أحمد بن أبي عقال الأغلب ، وهو غير أحمد بن محمد الأول الذي ولد بعد أبيه محمد الأول

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٠١ - ١٠٢

لم يكن مصدره سخطه على الوزير ابن حميد والحد من نفوذه ، وإنما كان ذلك راجعا إلى طمع أحمد وميله إلى التمتع بالسلطة دون أخيه . ولولا انتصار محمد عليه لتحوطت الإمارة إلى أخيه الذي اغتصبها منه أكثر من سنة ( ٢٣١ - ٢٣٢ هـ ) .

على أن محمدا الأول لم يكفد ينتهي من ثورة أخيه أحمد عليه ، حتى فوجئ في السنة التالية بثورة سالم بن غلبون أمير الزاب ، وكان قد عزله عن إمارتها ، فأضمر له الخلاف ، وقصد القيروان ، وقامت الحرب بينه وبين محمد الأول ، ودارت الدائرة عليه وقتل . وفي سنة ٢٣٤ هـ خرج على محمد الأول عمرو بن سليم التجيبي الذي تفاقم شره ، ولم يستطع ابن الأغلب القضاء عليه إلا في سنة ٢٣٦ هـ ، وقتله ، ودخل مدينة تونس واستولى عليها من أنصار التجيبي (١)

ولما فرغ محمد الأول من هذه الثورات ، تفرغ للاستيلاء على جزيرة صقلية ، واهتم بهذه الحرب اهتماما جعله في مرتبة الجهاد ضد الروم ، فولى العباس بن الفضل الفزاري تنمة الفتح : ففتح بين سقيا ٢٣٧ ، ٢٤٧ هـ قصر يانة (٢) وقطانية وسرقوسة . ويظهر أن المسلمين كانوا يستولون على هذه المدن ثم لا يلبثون أن يتخلوا عنها تحت ضغط الروم ، فكانت حرب المسلمين في هذه الجزيرة ، كما يقولون ، حربا مائة غير ثابتة (٣) .

وفي سنة ٢٤٢ هـ توفي أبو العباس محمد بن الأغلب بعد أن حكم خمس عشرة سنة وثمانية أشهر واثني عشر يوما ، خلفه ابنه أبو إبراهيم أحمد ( ٢٤٢ - ٢٤٩ هـ ) ، وكان - كما يقول ابن عذارى (٤) - حسن السيرة كريم الأخلاق والأفعال ، من أجود الناس وأسمحهم وأرقهم بالرعية ، مع دين واجتنب للظلم على حدائه سنة وقله عمره . وكان يركب في ليالي شعبان ورمضان ، وبين يديه الشمع ، فيخرج من القصر القديم فيمشى حتى يدخل من باب أبي الربيع ( أحد أبواب القيروان ) ومعه دواب بالدرهم ، فكان يعطي الضعفاء والمساكين ، حتى ينتهي إلى المسجد الجامع بالقيروان ، فيخرج الناس إليه يدعون له .

ولم يطل حكم أحمد حيث توفي سنة ٢٤٩ هـ ، خلفه أخوه زيادة الله الثاني بن محمد ( ٢٤٩ - ٢٥٠ هـ ) ، ولكنه لم يلبث أن توفي بعد سنة واحدة وستة أيام ، وتولى بعده ابن أخيه محمد الثاني بن أحمد ( ٢٥٠ - ٢٦١ هـ ) ، ويلقب بأبي الغرائيق . لأنه كان مولعا بصيد الغرائيق ، حتى إنه بنى قصرا يخرج إليه ليصيدها ، أنفق عليه ثلاثين ألف مثقال من الذهب . وقد وصفه ابن عذارى (٥) في هذه العبارة

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ١٥ ، ١٦

(٢) قال أبو القدا (المختصر في أخبار البسرج ٢ ص ٣٨) إن قصر يانة « هي المدينة التي بها دار الملك بصقلية ، وكان الملك قبلها يسكن مرقوسة » بقصد سرقوسة ، فلما أخذ المسلمون بعض الجزيرة انتقل الملك إلى قصر يانة لحصانها ، ففتحها العباس في سنة ٢٣٧ هـ . . . . . وبنى بها مسجدا في الحال ونصب فيها منبرا ، وخطب وصل فيها الجمعة .

(٣) النويري : كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب ، المكتبة الصقلية ج ١ ص ٤٣١ - ٤٣٣

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ١٠٧ وما يليها

(٥) البيان المغرب ج ١ ص ١٠٥

فقال : « كان مسرفاً في العطاء مع حسن سيرة في الرعية ، ثم غلبت عليه اللذات والاشتغال بها ، فلم يزل كذلك طول مدته ؛ ولم تكن له همة في جمع مال ، فلما مات لم يجد أخوه ( إبراهيم الثاني ) شيئاً يذكر . ولم يقع في عهد أبي الغرائيق محمد الثاني ما يستحق الذكر ، سوى متابعتها الاهتمام بالفتوح في جزيرة صقلية ، مقتدياً في ذلك بأسلافه ، وكثرة توليته الولاية على هذه الجزيرة ، وقتل بعض هؤلاء الولاة ، إما بسبب نشوب الحرب بينهم وبين الروم ، أو نتيجة لإشعاله نار العصية القبلية بين العرب النازلين فيها . ويقول ابن عذارى إن الحرب وقعت بين المسلمين والروم في صقلية من سنة ٢٥٥ هـ إلى سنة ٢٥٩ هـ ، وإن المسلمين حاولوا في خلال هذه الفترة فتح مدينة سرقوسة وغيرها من أمهات المدن في هذه الجزيرة وفي جنوبي إيطاليا .

وقد توفي أبو الغرائيق في شهر جمادى الأولى سنة ٢٦١ هـ بعد أن حكم إفريقية وما يليها عشر سنين وخمسة أشهر ونصف ، عاصر في خلالها من الخلفاء العباسيين المستعين والمعز والمهتدي والمعتمد ، وأقره كل منهم على ولايته ، على ما جرت به العادة في ذلك الوقت .

### إبراهيم الثاني ( ٢٦١ - ٢٨٩ هـ )

يعتبر إبراهيم الثاني أطول أمراء الأغلبية في إفريقية عهداً بالإمارة . وقد وقعت في عهده أمور كثيرة ، منها أنه اغتصب الولاية من ابن أخيه أبي عقال بن محمد الثاني ولما يعض عليه في الإمارة غير أيام ، ثم بناء مدينة رقادة في سنة ٢٦٣ هـ ، وفتح سرقوسة نهائياً وسقوطها في يد المسلمين في سنة ٢٧٤ هـ ، وتنكيله بالموالي بالقصر القديم لأنهم ناروا عليه ، ثم هزيمته العباس بن أحمد بن طولون في سنة ٢٦٧ هـ . وتعتبر الحرب التي دارت بين إبراهيم الثاني والعباس بن أحمد بن طولون ، الذي خرج على أبيه كما تقدم ، من أهم الأحداث التي وقعت في عهده . وقد ذكر ابن عذارى <sup>(١)</sup> في إسباب العوامل التي أدت إلى وقوع هذه الحرب ، وما وقع فيها من معارك ، وما انتهت إليه من نتائج . كما تناول الكلام عليها مؤرخو مصر كابن الداية والمقريزي . ذلك أن العباس بن أحمد بن طولون ، قد سولت له نفسه الخروج على أبيه والتوجه إلى إفريقية ، وصغّر له أتباعه من شأن إبراهيم الثاني بن أحمد لأغلي أمير هذه البلاد ، فأرسل إليه العباس كتاباً يقول فيه : « إن أمير المؤمنين قد قلدني أمر إفريقية ، وبأمره بالدعاء له على المنابر والاستعداد لاستقباله ، ويخبره أنه قد أقره عليها ، على أن يحكمها نيابة عنه . ثم سار العباس حتى وصل إلى مدينة لبدية ، فخرج إليه عاملها وأهلها مرحبين ، فزادته نفسه غروراً ، وقبض على عاملها وأباح المدينة لجنده ، فنهبوا أموالها وقتلوا رجالها واستباحوا نساءها ، فاستغاث أهلها بإلياس بن منصور صاحب نفوسة وزعيم الإباضية من الحوارج . وقد أرسل إليه العباس بن أحمد بن طولون رسولا من قبله يأمره بالإذعان والخضوع ، فقال لإلياس للرسول : « قل لهذا

(١) البيان المغرب في أخبار المغرب ج ١ ص ١١١ - ١١٢

الغلام : أما أنك أقرب الكفار مني وأحقهم بمجاهدتي ، فقد بلغني من قبيح أفعالك ما لا يسعني التخلّف معه عن جهادك . وأنا على إثر رسالتي إليك ،<sup>(١)</sup> . ومرّ عان ما أرسل اليه جيشاً من ١٢,٠٠٠ مقاتل ، وجرّد ابن الأغلب لقتاله جيشاً آخر ، فهزم العباس ، وعاد إلى برقة<sup>(٢)</sup> .

### صفات إبراهيم الثاني .

وكان إبراهيم - كما وصفه ابن الأثير<sup>(٣)</sup> - عادلاً حازماً في أموره ، آمن البلاد ، وقتل أهل البغي والفساد . وكان يجلس للعدل في جامع القيروان يوم الخميس والإثنين ، يسمع شكوى الخصوم ويصبر عليهم وينصف بينهم . . . وكان عاقلاً حسن السيرة محباً للخير والإحسان ، تصدق بجميع ما يملك ووقف أملاكه جميعها . وكانت له فطنة عظيمة بإظهار خفايا العملات<sup>(٤)</sup> . فمن ذلك أن تاجرأ من أهل القيروان كانت له امرأة جميلة صالحة عفيفة ، فاتصل خبرها بوزير الأمير إبراهيم ، فأرسل إليها ، فلم تجبه ؛ فاشتد غرامه بها وشكا حاله إلى عجوز كانت تغشاه ، وكانت أيضاً لها من الأمير منزلة ، ومن والدته لها منزلة كبيرة . وهي موصوفة عندهم بالصالح يتبركون بها ويسألونها الدعاء ، فقالت للوزير : أنا أتلفظ بها وأجمع بينكما ، وراحت إلى بيت المرأة فقرعت الباب وقالت : قد أصاب ثوبي نجاسة أريد تطهيرها ، وخرجت المرأة ولقيتها ، فرحبت بها وأدخلتها وطهرت ثوبها . وقامت العجوز تصلي ، فعرضت المرأة عليها الطعام فقالت : إني صائمة ولا بد من التردد إليك ، ثم صارت تغشاه ، ثم قالت لها : عندي يتيمة أريد أن أحملها إلى زوجها ، فإن خفت عليك إعاره حليك أجعلها بها . فأحضرت جميع حليها وسلته إليها ، فأخذته العجوز وانصرفت ، وغابت أياماً وجاءت إليها فقالت لها : أين الحلي ؟ فقالت : هو عند الوزير ، عبرت عليه وهو معي فأخذه مني ، وقال لا يسلمه إلا إليك . فتنازعتنا وخرجت العجوز ، وجاء التاجر زوج المرأة فأخبرته الخبر ، فحضر دار الأمير إبراهيم وأخبره الخبر . فدخل الأمير إلى والدته وسألها عن العجوز فقالت : هي تدعو لك ، فأمر بإحضارها ليتبرك بها ، فأحضرتها والدته . فلما رآها أكرمها وأقبل عليها وانبسط معها ، ثم إنه أخذ خاتماً من أصبعها وجعل يقبله ويعبث به . ثم إنه أحضر خصياً له ، وقال له : انطلق إلى بيت العجوز وقل لابنتها تسلم الحق الذي فيه الحلي ، وصفته كذا ، وهو كذا وكذا ، وهذا الخاتم علامة منها . ففضى الخادم وأحضر الحق ، فقال للعجوز : ما هذا ؟ فلما رأت الحق سقطت في يدها ، وقتلها في الدار ، وأعطى الحق لصاحبه ،

(١) ابن الداية : سيرة أحمد بن طولون ص ٦١ (٢) القرينى : خطط ج ١ ص ٣٢٠

(٣) ج ٧ ص ١٠١ - ١٠٢

(٤) لعله يريد بالعملات جمع عملة بمعنى المسكيدة كما يعبّر عنها العوام ، وكما يفهم من سياق القصة التي

وأضاف إليه شيئاً آخر ، وقال له : أما الوزير فإن انتقمت منه الآن ينكشف الأمر ، ولكن سأجعل له ذنباً أخذه به ، فتركة مدة يسيرة وجعل له جرماً أخذه به فقتله .  
توفي إبراهيم الثاني في شهر ذي القعدة سنة ٢٨٩ هـ ، بعد أن حكم ثمانياً وعشرين سنة وستة أشهر واثني عشر يوماً .

### زيادة الله الثالث (٢٩٠ - ٢٩٦ هـ)

بويج عبد الله أبو العباس بن إبراهيم الثاني بعد أبيه ، ولكنه لم يبق في الإمارة سوى تسعة أشهر وأحد عشر يوماً ، ثم قتل بيد بعض غلمانه (١) ، خلفه ابنه زيادة الله الثالث ، وكان أبوه قد قبض عليه وحبسه إذ بلغه أنه يريد الخروج عليه .

وكان زيادة الله آخر أمراء الأغالية ببلاد المغرب . وفي عهده بدأت أعمال أبي عبد الله الشيعي داعي الفاطميين ، فوقع في يده كثير من المدن ، بينما قضى زيادة الله أيامه في اللهو والترف . وكان وزاؤه لايبالون إلا بنجاح المذهب الشيعي الذي اعتنقه معظمهم ، مما ساعد أبا عبد الله على إزالة سلطان الأغالية ومد نفوذ الفاطميين إلى أكثر أجزاء هذه البلاد . وفي سنة ٢٩١ هـ غدا الفاطميون أصحاب السلطان المطلق في جميع الجهات الواقعة إلى الغرب من مدينة القيروان أكبر مدائن بلاد المغرب (٢) .

وقد ذكر ابن عذارى (٣) أن زيادة الله بن الأغلب لما سمع بدخول أبي الله الشيعي مدينة رقادة في سنة ٢٩٦ هـ ، وفرار أهلها منها ، حمل معه ماخف وزنه وغلامته ، ثم ركب فرسه وتقلد سيفه وقدم الأحمال تمر بين يديه هاربا على عيون أهله وولده ، فأخذت جارية من جواربه عوداً ووضعته على صدرها وغنته لتحركه على حملها معه فقالت :

لم أنس يوم الوداع موقفاً      وجفنتُها في دموعها غرقاً  
وقولُها والركاب سائرة      تركنا سيدي وتنطلق؟  
أستودع الله ظميمة جَزَعَت      للبين والبين فيه لي حرق

فدمعت عيناً زيادة الله عند سماعها ، وشغله سوء الموقف وضيق الحال عن حملها معه ، وخرج عن مدينة رقادة متوجهاً إلى مصر في ثلث الليل الأول ، ومعه وجوه رجاله وقتيانه وعبيده ، وأخذ طريق الجادة ، حتى لحق بمدينة طرابلس .

وبذلك زال سلطان بني مدرار عن سلجاسة ، وبني رستم عن تاهرت ، وبني الأغلب عن تونس ، وقامت الدولة الفاطمية في شمال إفريقيا الذي خرج عن سلطان العباسيين .

(١) وقد قيل إن ذلك حدث بإيحاء ابنه زيادة الله .

(٢) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب من ٢٢ - ٢٧ ، حسن إبراهيم حسن : الفاطميون

في مصر من ٥٦ - ٥٧ .

(٣) البيان المغرب في أخبار المغرب ج ١ من ١٤٣ - ١٤٤ .

## دولة الأدارسة

( في مراکش )

١٧٢ - ٥٣٧٥ = ٧٨٨ - ٩٨٥ م

### أمرء الأدارسة

ميلادية	هجريّة	
٧٨٨	١٧٢	إدريس
٧٩٣	١٧٧	إدريس الثاني
٨٢٨	٢١٣	محمد بن إدريس الثاني
٨٣٦	٢٢١	علي بن محمد
٨٤٩	٢٣٤	يحيى الأول بن محمد
		يحيى الثاني بن محمد
		علي الثاني بن عمر بن إدريس الثاني
		يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس الثاني
٩٠٤	٢٩٢	يحيى الرابع بن إدريس بن عمر
٩٢٢	٣١٠	الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس

[ بربر مكناسة ]

إدريس بن عبد الله ( ١٧٢ - ١٧٧ هـ )

كانت موقعة فنج في عهد الخليفة العباسي الهادي سنة ١٦٩ هـ ، بعيدة الأثر في تاريخ العلويين ؛ فقد هرب منها رجلان كانا كاشحين في حلق العباسيين : أولهما يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي الذي ثار في بلاد النديلم في عهد هارون الرشيد ، وثانتهما أخوه إدريس بن عبد الله الذي نجح في إثارة أمالي المغرب الأقصى على العباسيين .

يقول السلاوي في كتابه الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (٢) : « أما إدريس فإنه فر من الوقعة المذكورة ، ولحق بمصر وعلي يريدها يومئذ واضح مولى صالح بن المنصور ، ويعرف بالمسكين . وكان واضح يتشيع لآل البيت ، فعلم شأن إدريس وأتاه إلى الموضع الذي كان مستخفياً به ، ولم ير شيئاً أخلص له من أن يحمله على البريد إلى المغرب ، ففعل . ولحق إدريس بالمغرب الأقصى هو ومولاه

(١) Stanley Lane-Poole: Muhammadan Dynasties, p. 35.

(٢) ج ١ ص ٦٧

راشد ، فنزل بمدينة ولبلي (١) سنة ثنتين وسبعين ومائة ، وبها يومئذ إسحق بن محمد بن عبد الحميد أمير أوربة من البربر البرانس ؛ فأجاره وأكرمه ، وجمع البربر على القيام بدعوته ، وخلع الطاعة العباسية ، وكشف القناع في ذلك ، وانتهى الخبر إلى الرشيد بما فعله واضع في شأن إدريس ، فقتله وصلبه .

ولم يلبث إسحق بن محمد بن عبد الحميد أن جمع عشيرته ، وذكر لهم نسب إدريس وقرابته من الرسول ، وأطلب في فضله ودينه وعلمه ، فبايعوه في يوم الجمعة الرابع من شهر رمضان سنة ١٧٢ هـ . وقد بادر إلى بيعته قبيلة أوربة ، وكانت من أعظم قبائل البربر بالمغرب الأقصى وأشدها بأسا وأكثرها عداوة ، ثم وفدت عليه قبائل زنانة وزواغة ومكناسة وغيرها ودخلوا في طاعته ، فقويت شوكته ، وامتدت رقعة بلاده ، حتى شملت الأراضي التي تقيم فيها قبائل زنانة غربي القيروان إلى المحيط الأطلسي ، وتشمل المغرب الأوسط والأقصى (٢).

وقد خشى هارون الرشيد تفاقم خطر إدريس ومحبة الناس له ، واتصل به أن إدريس قد عزم على غزو إفريقية ، فعمل على التخلص منه ، وفكر في إنفاذ جيش كثيف للقضاء عليه ، ولكنه عدل عن ذلك بعد الشقة ووعورة الطريق ، فأشار عليه يحيى البرمكي بأن يبعث إليه برجل معروف بالدهاء يحتمل عليه ويقتاله . فبعث الرشيد سليمان بن جرير ، ويعرف بالشماخ ، وكان من موالى المهدي ، وزوده بكتاب إلى واليه على إفريقية . فأذن له هذا الوالي باجتياز حدود ولايته والمسير إلى المغرب الأقصى حيث التقى بإدريس ، وتظاهر بالتشيع لآل البيت ، فاختمه وأكرمه وقربه إليه . ثم تخين الشماخ الفرصة لقتله . وقد قيل إنه دس له السم في قارورة ملائي بالطيب ، وقيل إنه سمه في سنون ، وهو نوع من السواك ، وكان إدريس يشكو من ألم أسنانه ولثته ، وقيل إنه قدم له عنيا مسموما . ولما تحقق الغرض الذي أتى الشماخ من أجله هرب ، ومات إدريس في مستهل شهر ربيع الآخر سنة ١٧٧ هـ .

### إدريس الثاني ( ١٧٧ - ٢١٣ هـ )

وكان لإدريس أمة حامل تدعى كثرزة ، فانتظر أشياعه حتى وضعت بعده وتو به بشهرين ولدا ذكرا أسموه إدريس ، فالتفوا حوله ، وهو المؤسس الحقيقي لدولة الأدارسة .

ولما بلغ إدريس الثاني الحادية عشرة من عمره ، بايعه البربر في غرة ربيع الأول سنة ١٨٨ هـ بمدينة ولبلي ، فخطب الناس . ولما نزل قبيل الناس يده وبايعوه ، ثم بايعه كافة قبائل المغرب ، ومن بينها زنانة وأوربة وصنهاجة . ثم شرع في بناء مدينة فاس سنة ٢٩٢ هـ ، فتم بناؤها في السنة التالية واتخذها إدريس حاضرة لدولته .

(١) هي قاعدة جبل زرهون ، وكانت مدينة حصينة كثيرة المياه والأشجار والزيتون ، ولها سور عظيم .

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٦٨

(٢) الاستقصا ج ١ ص ٦٨ - ٦٩



وجه إدريس همه لمحاربة الصُفْهَرِيَّة من الخوارج ، وأحل بهم الهزيمة (١) ، وضرب السكة باسمه . ويقول ابن الأثير (٢) إن إبراهيم بن الأغب أراد قتال إدريس فنهاه أصحابه وقالوا له : أتركه ما تركك ، فكتب إليه إدريس يذكر له قرابته من رسول الله ، فكف عنه .

توفي إدريس الثاني في شهر جمادى الآخرة سنة ٢١٣ هـ وهو في السادسة والثلاثين من عمره ، خلفه ابنه محمد بن إدريس . وفي عهده انقسم أمراء هذا البيت على أنفسهم ، فخرج عليه عيسى بن إدريس بمدينة أزموور ونبذ طاعته ودعا لنفسه ، فاستعان محمد بأخيه القاسم صاحب طنجة فأبى ، فكتب إلى أخيه الثاني عمر صاحب تكساس ، فامتل أمره ، وسار لقتال عيسى على رأس جيش من البربر ، وأوقع به وطرده ، فأقره على عمل أخيه ، وأمره بقتال أخيه القاسم ، فزحف إلى ظاهر طنجة ، وأحل به الهزيمة واستولى على ما بيده من البلاد الممتدة على ساحل البحر حتى مدينة طنجة .

ولم يلبث أن توفي محمد في شهر ربيع الثاني سنة ٢٢١ هـ ، خلفه ابنه علي بن محمد (٢٢١ - ٢٣٤ هـ) ، وكان في التاسعة من عمره ، ولقب حيدرة وهو لقب علي بن أبي طالب . ولم يذكر لنا المؤرخون كثيراً عن دولة الإدارة في عهد علي بن محمد الذي توفي في شهر رجب سنة ٢٣٤ هـ ، وخلفه أخوه يحيى بن محمد الذي قال فيه ابن خلدون (٣) : « قام يحيى بن محمد بن إدريس بالأمير ، وامتد سلطانه ، وعظمت دولته ، وحسنت آثار أيامه ، واستبحر عمران فاس ، وبنيت بها الحمامات والفنادق للتجار ، وبنيت خارجها الأرباض ، ورحل إليها الناس من الثغور القاصية » .

### علي بن عمر بن إدريس

ولما توفي يحيى بن محمد خلفه ابنه يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس ، وكان سمي السيره ، فثارت عليه العامة ، فاختنى بمدوة الأندلس (٤) ، ريثما تحمد الفتنة ، ومات من ليلته . واستولى عبد الرحمن بن أبي سهل ، الذي تزعم الثورة على يحيى بن يحيى ، على فاس . وكتبت زوجة يحيى إلى أبيها علي بن عمر ابن إدريس صاحب الريف وطلبت إليه الحضور لإخماد هذه الثورة ، فجاء إلى فاس واستولى عليها ، وانقطع الملك من عقب محمد بن إدريس الثاني ، وأصبح في عقب عمر بن إدريس صاحب الريف تارة ، وفي عقب القاسم بن إدريس الزاهد تارة أخرى (٥) .

ولم يلبث أن دخل أهل فاس في طاعة علي بن عمر بن إدريس ، وخطب له على منابر المغرب ، واستقرت قدمه في هذه البلاد فترة من الزمن ، حتى ثار عليه عبد الرزاق الفهري أحد زعماء الخوارج الصفرية ، وتبعه أهالي البلاد القريبة من مدينة فاس ، التي دخلها ، ففر علي بن عمر إلى أوربة .

(٢) ج ٦ ص ٥٦ .

(١) الاستقصاء ج ١ ص ٧٢ - ٧٤ .

(٣) العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٤ ص ١٥ .

(٤) بضم الدين هي الأرض المرتفعة على ساحل البحر الأبيض والمحيط الأطلسي من بر الأندلس ، ويقابلها

عدوة المغرب . (٥) السلاوي : الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٧٨ .

على أن فريقاً من أهل فاس بعثوا إلى يحيى بن القاسم بن إدريس ، ويعرف بالعوام<sup>(١)</sup> ، يطلبون منه الحضور إلى بلدهم ، فوصل إليهم ، فبايعوه على الطاعة . ثم تفرغ ل حرب عبيد الرزاق الصفري وأرغمه على الخروج من عُدوة الأندلس ، فدخلها يحيى وبايعه أهلها وجميع من نزل بها من أهل الأندلس الرضيين<sup>(٢)</sup> ، وصرف وقته في قتال الخوارج الصُفْريّة ، ودارت بينه وبينهم وقائع كثيرة ، وظل يحيى أميراً على فاس وما يليها من بلاد المغرب الأقصى إلى أن قتله الربيع بن سليمان سنة ٢٩٢ هـ . وقد ذكر السلاوي<sup>(٣)</sup> ، أنه وقعت ببلاد المغرب الأقصى منذ وفاة يحيى الأول سنة ٢٣٤ هـ إلى وفاة يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس الثاني سنة ٢٩٢ هـ حوادث جسام ، بسبب انتشار الفوضى في هذه الفترة التي دارت فيها رحى الحروب الأهلية بين أبناء إدريس والخوارج الصفرية ، مما أثر تأثيراً سيئاً في حالة البلاد الاقتصادية والاجتماعية . فقد انتشر القحط وعدمت الأقوات وغلت الأسعار ، وفشا الموت لدرجة لم يعهد أهل هذه البلاد لها مثيلاً من قبل . ففي سنة ٢٥٣ هـ انتشر القحط ببلاد العدو ، وقامى الأهلون الشدائد والأهوال مدة سبع سنين عجاف . وفي سنة ٢٦٧ هـ حدثت زلزلة عظيمة لم يسمع مثلاً لها ، تهدمت منها القصور ، وانحطت منها الصخور من الجبال ، وفر الناس من المدن إلى البرية من شدة اضطراب الأرض ، وتساقطت السقوف والحيطان ، وفرت الطيور عن أوكارها ، وماجت في السماء زماناً ، حتى سكنت الزلزلة ؛ وعمت هذه الرجفة جميع بلاد الأندلس ، سهلها وجبالها ، وجميع بلاد العدو من تلسان إلى طنجة ، ومن البحر الرومي إلى أقصى المغرب .

وفي سنة ٢٧٦ هـ انتشرت الفتن ببلاد المغرب الأقصى وإفريقية ، وهدد القحط بلاد العدو حتى أكل الناس بعضهم بعضاً ، ثم هلك من الرُبا . خلق كثير . وصفوة القول أن هذه الفترة قد سادها الاضطراب والفوضى ، وانقسمت الإدارة على أنفسهم ، حتى إن ابن خلدون الذي يعتبر شيخ مؤرخي المغرب ، لم يستطع أن يحدد بالضبط مبدأ ونهاية حكم أمراء الإدارة في هذه الفترة الغامضة المليئة بالفوضى والاضطراب .

### يحيى الرابع بن إدريس بن عمر (٢٩٢ - ٣١٠ هـ)

لما قتل يحيى بن القاسم ، ولي يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس ، فبايعه أهل فاس ، وخطب له على منابرها ، وامتد ملكه على جميع بلاد المغرب الأقصى . وكان يحيى واسطة عقد البيت الإدريسي أعلام قدرأ وأبعدم ذكرا ، وأكثرهم عدلا ، وأغزهم فضلا ، وأوسعهم ملكا . وكان فقيهاً ، حافظاً للحديث ، ذا فصاحة وبيان ، بطلا شجاعاً ، حازماً ، ذا صلاح ودين وورع ،<sup>(٤)</sup> . ولم يبلغ أحد من الإدارة ما بلغه يحيى الرابع الإدريسي في سعة الملك وبسطة السلطان ، حتى ظهر الفاطميون في إفريقية

(١) ويسمى أيضا الجوطى ، نسبة الى جوطة وهي قرية على نهر سبوا ببلاد المغرب ، وقد نزلها يحيى ففسد إليها . السلاوي ج ١ ص ٧٨ .

(٢) نسبة الى ريش مدينة قرطبة .

(٣) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٧٨ - ٧٩ .

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٧٩ .

في أواخر القرن الثالث الهجري ، ثم مدوا نفوذهم نحو بلاد المغرب الأقصى في عهد عبید الله المهدي وخلفائه من بعده . وفي ذلك يقول ابن خلدون (١) : « لم يبلغ أحد من الإدارسة ميلغه في الدولة والسلطان ، إلا أن طما على ملكة عبيد بن القاسم بافريقية فأغرقه » .

استقر ملك يحيى الرابع نحو خمس عشرة سنة ؛ فقد غزا بلاده مصالة بن حبوس قائد عبید الله المهدي الفاطمي ، وكان صاحب تاهرت والمغرب الأوسط ، سنة ٣٠٥ هـ ، وفتح تاهرت (٢) ، ثم التقى يحيى بن إدريس بالقرب من مكناسة ، خلت الهزيمة بيحيى ، وعاد إلى فاس ، فتبعه مصالة وحاصر هذه المدينة ، واضطرب يحيى إلى طلب الصلح ، على أن يؤدي إليه بعض الأموال ، ويبيع للمهدي الفاطمي . وولى مصالة يحيى بن إدريس فاس ، كما ولى موسى بن أبي العافية ، ابن عم يحيى ، وكان قد أعانه في غزواته لبلاد الإدارسة ، على سائر بلاد المغرب الأقصى . وبذلك امتد نفوذ الفاطميين إلى بلاد الإدارسة . ولما عاد مصالة إلى فاس في سنة ٣٠٩ هـ ، أوغر موسى بن أبي العافية صدره على يحيى بن إدريس فتقبض عليه ، واستصفي أمواله ، ثم نفاه ، فأقام عند بني عمه ببلاد الريف ، فتصدى له موسى بن أبي العافية وحبسه ، ثم أطلقه بعد عشرين سنة ، فقصد إفريقية ومات في مدينة المهدي سنة ٣٣٢ هـ (٣) .

#### الحسن بن محمد (٣١٠ - ٣١٢ هـ)

لما قبض مصالة على يحيى بن إدريس ، ولى ربحان الكنتامي على فاس . ولكن ولايته لم تطل ، حيث نار عليه الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف بالحجرام في سنة ٣١٠ هـ ، واستولى على فاس وقتل ربحان ، فبايعه الناس ودخلوا في طاعته ، ثم مد نفوذه إلى ماجاوره من البلاد ، وتفرغ لقتال موسى بن أبي العافية ، ودارت بينهما عدة معارك قتل في إحداها ولده موسى . ومات الحسن في سنة ٣١٢ هـ ، واستولى موسى على ملك الإدارسة ببلاد المغرب (٤) ، فشايح الفاطميين بافريقية . ولكن دولة الإدارسة ، التي كادت تزول على يد موسى بن أبي العافية من ناحية ، وعلى أيدي الفاطميين من ناحية أخرى . تحولت إلى بلاد الريف ، وانتظم الأمر لموسى بن أبي العافية في المغربين الأقصى والأوسط ، (٥) .

ولم يلبث موسى بن أبي العافية أن خلع طاعة الفاطميين ، ودخل في طاعة عبد الرحمن الناصر الأموي في الأندلس (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) ؛ وكان قد طمع في امتلاك المغرب الأقصى ، واستولى على سببه ، وأرغم موسى على إقامة الخطبة له على منابر بلاده . ولما علم عبید الله المهدي بذلك أرسل جيشاً

(١) العبر ودبوان المبتدا والخبر ج ٤ ص ١٦ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار المغرب ج ١ ص ١٧٧ - ١٧٨ .

(٣) السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٧٩ - ٨٠ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار المغرب . ج ١ ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٥) السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨١ .

الإذاعة  
الأمور  
و  
أخوه  
وكان

من عشرة آلاف مقاتل بقيادة حميد بن يصيلت صاحب تاهرت وابن أخي مصالة بن حبوس .  
وانتهت هذه الحرب بفرار موسى من مدينة فاس ، فولى عليها حميد أحد قواده ؛ ولكن هذا القائد  
لم يلبث أن قُتل بعد وفاة عبيد الله المهدي سنة ٣٢٢ هـ بيد أحد الثوار الذي بعث برأسه وبأبيه إلى  
موسى بن أبي العافية ، فبعث به إلى عبد الرحمن الناصر بقرطبة ، وخطب للأمويين في بلاد المغرب  
من جديد (١) .

على أن الخليفة الفاطمي القائم أرسل قائده ميسورا الحصى إلى المغرب الأقصى في سنة ٣٢٣ هـ ،  
فحاصر فاس واستولى عليها من يد أحمد بن بكر ، وبعث به إلى المهدي ، وخطب للقائم الفاطمي على  
منابرها ، وضرب السكة باسمه ، وولاه الحسن بن القاسم اللواتي الذي استمرت ولايته عليها حتى  
أطلق أحمد بن بكر من حبسه في المهدي سنة ٣٣٥ هـ ، فسار إلى فاس وأقام بها متكرراً حتى تمكن من خلع  
الحسن بن القاسم وتولى إمرة فاس (٢) . واعتصم موسى بن أبي العافية بمحصن ألكاي ، واستفحل خطره ،  
وبدأ ينشر الدعوة للأمويين في شمال إفريقية ، ثم خلفه ابنه إبراهيم بعد وفاته . ولما توفى إبراهيم سنة  
٣٥٠ هـ خلفه ابنه عبد الرحمن بن إبراهيم ، ثم خلفه ابنه محمد الذي انقرضت في أيامه دولة آل أبي العافية  
في بلاد المغرب الأقصى سنة ٣٦٣ هـ ، بعد أن حكمت مائة وأربعين سنة (٣٠٥ - ٤٤٥ هـ) ، ثم استمر  
نفوذهم في أطراف المغرب حتى قضى عليهم يوسف بن تاشفين .

هذا ، وقد تحولت دولة الإدارة إلى بلاد الريف كما تقدم ، ولم تتمتع هناك بالاستقلال الذي تمتعت  
به في فاس ، حتى طردهم موسى بن أبي العافية ، واستأثر بالنفوذ في المغربين الأقصى والأوسط . وإنما  
كان الإدارة ببلاد الريف ، تحت نظر المتغلب على بلاد المغرب ، إما من الشيعة أصحاب إفريقية ، وإما  
من المرابطين أصحاب الأندلس .

ولما طارد ميسور الحصى ، موسى بن أبي العافية إلى الصحراء ، انتقلت السلطة في بلاد المغرب إلى  
القاسم وإبراهيم أخوي الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس آخر أمراء الإدارة بفاس ، وبابيع أهالي  
هذه البلاد القاسم بن الحسن ، الذي ملك أكثر بلاد المغرب عدا فاس ، واتخذ قلعة حجر النمر مقراً  
لإمارته ، وأخذ في نشر الدعوة الشيعية حتى توفي سنة ٣٣٧ هـ ، خلفه ابنه أبو العيش أحمد بن القاسم ،  
وكان - كما يصفه السلاوي (٤) - فقيهاً ، ورعاً ، حافظاً للسير ، عارفاً بأخبار الملوك وأيام الناس ،  
وأنساب قبائل العرب والبربر ، شجاعاً ، جواداً ؛ وكان يعرف في بني إدريس بأحمد الفاضل .

ولكن أبا العيش لم يلبث أن دعا إلى الأمويين بالأندلس ، وقطع دعوة الفاطميين ، وانتشر نفوذه  
في كافة بلاد المغرب الأقصى إلى سجلماسة . ثم طمع عبد الرحمن الثالث الأموي في امتلاك طنججة  
من أبي العيش وضعها إلى سبتة ، وكان قد استولى عليها من قبل فإني أبو العيش ؛ ولكنه اضطر إلى

(١) السلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨٢ .

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٦ ص ١٣٥ - ١٣٦ .

(٣) السلاوي : ج ١ ص ٨٤ . (٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٨٥ .

الإذعان بعد أن أرسل إليه الخليفة الأموي جيشاً وأسطولا حاصراه وضيقا عليه ؛ وزاد نفوذ الأمويين ببلاد المغرب الأقصى حتى مات أبو العيش سنة ٣٤٨ (١) .  
وقد خلف أبا العيش أخوه الحسن الملقب بكنشون ، وهو القاسم بن محمد بن القاسم إدريس ، وكان أخوه قد استخلفه على بلاد المغرب عندما سار مع عبد الرحمن الناصر لجهاد الفرنجة في بلاد الأندلس . وكان القاسم آخر أمراء الأدارسة في المغرب الأقصى التي زالت في عهده على أيدي الفاطميين .

### زوال دولة الأدارسة

ذلك أن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي بعث في سنة ٣٤٧ هـ قائده أبا الحسن جوهر بن عبد الله الفتح مابق من بلاد المغرب ، على رأس جيش كثيف يبلغ عشرين ألفاً ، ويضم كثيرين من قواد المغاربة ، من بينهم زيري بن مناد الصنهاجي . وقد سار جوهر إلى تاهرت . حيث نازل واليها يعلى ابن محمد صاحب طنجة وخليفة عبد الرحمن الناصر الأموي على بلاد العدوة التي كانت تعرف بعدوة الأندلس . ولم يلبث أن قتله أحد قواد كتامة ، واحتز رأسه وأرسله إلى جوهر ، فبعث به إلى الخليفة المعز . وسقطت تاهرت في يد جوهر (٢) فأستأنف مسيره إلى فاس ، فامتعت عليه ، فسار إلى سجلماسة ، وكان قد قام بها رجل تلقب الشاكر بالله ، وخاطبه الناس أمير المؤمنين . فلما علم بدنو جوهر من المدينة هرب منها ، فطارده جوهر حتى قبض عليه وأسره . ثم عاد إلى فاس واستولى عليها ، وبم شطر المحيط الأطلسي يفتح مدنه مدينة تلو مدينة . ويقول السلاوي (٣) : « انصرف جوهر راجعاً بعد أن دوخ البلاد ، وأثنخ فيها ، وقتل حماتها ، وقطع دعوة المروانيين منها ، وردها إلى العبيديين ، فخطب لهم على جميع منابر المغرب . وانتهى القائد جوهر إلى المهديّة دار المعز لدين الله ، وقد حمل معه أحمد بن أبي بكر اليفرنى أمير فاس ، وخمسة عشر رجلاً من أشياخها ، وحمل أيضاً محمد ابن أبي الفتح أمير سجلماسة ، ودخل بهم أسارى بين يديه في أقفاص من خشب على ظهور الجمال ، وحمل على رؤوسهم فلانس من لبد مستطيلة منبثة بالقرون ، فطيف بهم في بلاد إفريقية وأسواق القيروان ، ثم رُدوا إلى المهديّة ، وحبسوا بها حتى ماتوا في سجنها » .

على أن عودة جوهر إلى المهديّة لم يترتب عليها زوال نفوذ الأدارسة ببلاد المغرب الأقصى ، فقد انتفض الحسن كنون بن محمد بن القاسم الإدريسي ، وخلع طاعة الفاطميين ؛ وبايع لعبد الرحمن الناصر الأموي ، ثم لابنه الحكم المستنصر من بعده . وقد عزا السلاوي هذا التحول إلى خوف كنون من الأمويين في الأندلس لقرب بلاده منهم . فبعث الخليفة الفاطمي المعز بلكين بن زيري بن مناد ، الذي استطاع أن يعيد الخطبة للفاطميين في بقايا دولة الأدارسة ، ويبطل الدعوة للأمويين منها . على أن

(١) السلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨٥ - ٨٦ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٨٦ . (٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٨٦ - ٨٧ .

هؤلاء لم يفترخوا عن محاولة بسط نفوذهم على بلاد المغرب الأقصى ، وأرسل الحكم الثاني قائده غالبا ، فانصر على الحسن كنون وأسرهم ، وسأقه إلى بلاد الأندلس ، حيث عفا عنه الحكم ، ثم لم يلبث أن تغير عليه ، وأخرجه هو وعشيرته من قرطبة ، فرحلوا إلى تونس ، وساروا منها إلى مصر ، فرحب بهم الخليفة العزيز بالله الفاطمي ، الذي أمد الحسن بجيش سار به إلى إفريقية حيث لقي بلكين بن زيري الصنهاجي ، فأمدته بثلاثة آلاف فارس وسار إلى بلاد المغرب الأقصى . فلما علم بذلك المنصور بن أبي عامر حاجب هشام الثاني المؤيد (٣٦٦ — ٣٩٩ هـ) ، أرسل إليه جيشا كشيفا أحل به الهزيمة ، وقتله (جمادى الأولى سنة ٣٧٥ هـ) . وبذلك انقضت دولة الأدارسة ، وتفرقوا في قبائل المغرب ، ولادوا بالاختفاء (١) إلى أن ظهر علي والقاسم ابنا سحمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس ، ببلاد الأندلس حيث ورثا خلافة الأمويين بهذه البلاد كما سيأتي (٢) . وقد امتد حكم الأدارسة ببلاد المغرب من السوس الأقصى إلى مدينة وهران ؛ وكانت حاضرة ملكهم مدينة فاس ثم البصرة ببلاد المغرب الأقصى . وزال ملكهم بعد أن حكموا قرنين وثلاث سنين (١٧٢ — ٣٧٥ هـ) (٣) ، لم تتمتع فيها البلاد بشيء من الأمن والاستقرار ، يمكن القائمين بالحكم من توجيه جهودهم إلى نشر العلوم والفنون والأخذ بأسباب الحضارة .

(١) السلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨٨ — ٨٩ .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٠٠ — ١٠٢ ، Lane-Poole: Muhammadan Dynasties, pp. 21-23 .

(٣) تأسست ببلاد المغرب في هذا العصر دول عدة ، نذكر منها الدولة الحمادية ببلاد الجزائر (٣٩٨ —

٥٤٧ هـ) ، ودولة المرابطين بمراكش وبعض بلاد الجزائر وبلاد الأندلس (٤٤٨ — ٥٤١ هـ) ،

ودولة الموحدية في كل شمال إفريقية (٥٢٤ — ٦٦٧ هـ) ، والدولة الحفصية في تونس (٦٢٥ —

٩٤١ هـ) ، والدولة الزيانية في بلاد الجزائر (٦٣٣ — ٧٩٦ هـ) ، والدولة المرينية بمراكش (٥٩١ —

٨٧٥ هـ) ، والدولة الشرفية بمراكش (٩٥١ — ١٣١١ هـ) . وسنرجع الكلام عليها إلى الأجزاء الباقية

من هذا الكتاب إن شاء الله .

أنظر Stanley Lane-Poole: Muhammadan Dynasties, pp. 23-61 .

## الأمويون في قرطبة (١)

(١٣٨ - ٤٢٢ هـ = ٧٥٦ - ١٠٣١ م)

هجري	ميلادي		هجري	ميلادي	
٤٠٠	١٠١٠	(١٣) محمد الثاني ( للمرة الثانية )	١٣٨	٧٥٦	( ١ ) عبد الرحمن الاول
٤٠٠	١٠١٠	(١٤) هشام الثاني ( للمرة الثانية )	١٧٢	٧٨٨	( ٢ ) هشام الاول
٤٠٣	١٠١٣	(١٥) سليمان ( للمرة الثانية )	١٨٠	٧٩٦	( ٣ ) الحكم الاول
٤٠٧	١٠١٦	(١٦) علي بن حود (٣)	٢٠٦	٨٢٢	( ٤ ) عبد الرحمن الثاني
٤٠٨	١٠١٨	(١٧) عبد الرحمن الرابع المرتضى	٢٣٨	٨٥٢	( ٥ ) محمد الاول
٤٠٨	١٠١٨	(١٨) القاسم بن حود	٢٧٣	٨٨٦	( ٦ ) المنذر
٤١٢	١٠٢١	(١٩) يحيى بن علي	٢٧٥	٨٨٨	( ٧ ) عبد الله
٤١٣	١٠٢٢	(٢٠) القاسم ( للمرة الثانية )	٣٠٠	٩١٢	( ٨ ) عبد الرحمن الثالث ( الخليفة الناصر )
٤١٤	١٠٢٣	(٢١) عبد الرحمن الخامس المستظهر	٣٥٠	٩٦١	( ٩ ) الحكم الثاني المستنصر
٤١٤	١٠٢٤	(٢٢) محمد الثالث المستكني	٣٦٦	٩٧٦	(١٠) هشام الثاني المؤيد
٤١٦	١٠٢٥	(٢٣) يحيى ( للمرة الثانية )	٣٩٩	١٠٠٩	(١١) محمد الثاني المؤيد
٤١٨	١٠٢٧	(٢٤) هشام الثالث المعتد	٤٠٠	١٠٠٩	(١٢) سليمان المستعين
٤٢٢	١٠٣١				

[ دول صغيرة ]

جدول يمثل نسب الامويين في قرطبة

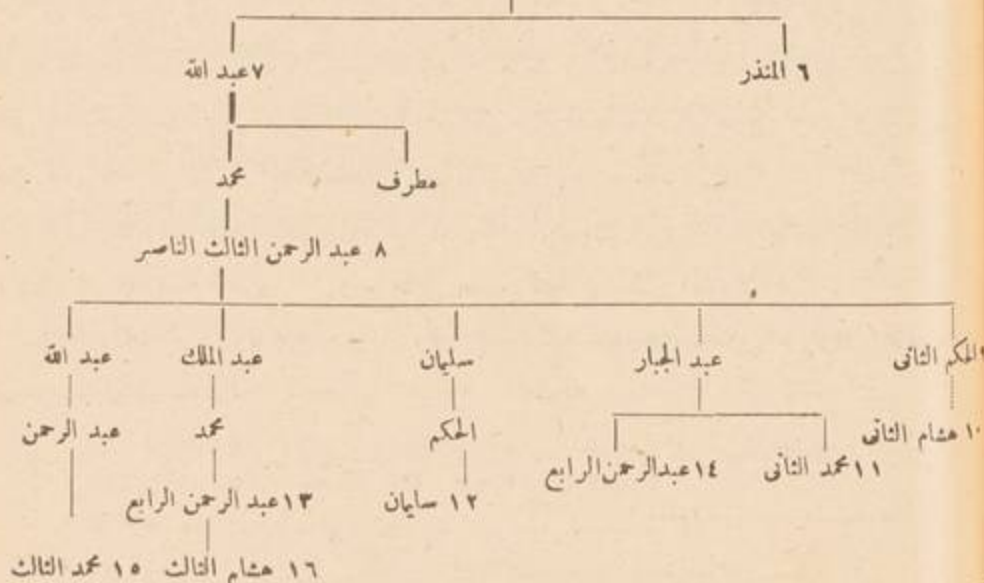
١ عبد الرحمن الأول

٢ هشام الأول

٣ الحكم الأول

٤ عبد الرحمن الثاني

٥ محمد الأول



(١) راجع كتاب Stanley Lane-Poole : Muhammadan Dynasties, pp. 21 - 22, 23

(٢) من أسرة الحمدانيين ( في سبنة ) راجع المصدر نفسه ص ٢٣ .

## الأندلس

من عبد الرحمن الأول إلى عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ)

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب أن عبد الرحمن بن معاوية بن بن هشام بن عبد الملك، أفلت من أيدي العباسيين وهرب إلى بلاد الأندلس حيث أسس الدولة الأموية في سنة ١٣٨ هـ، وذلك في عهد أبي جعفر المنصور، واستقر بمدينة قرطبة وبني القصر والمسجد الجامع، وقطع الدعوة للعباسيين من منابر الأندلس (١)، ثم تفرغ لإصلاح البلاد، فدون الدواوين وجند الجيوش، ودانت له بلاد الأندلس، وحكم ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر (١٣٨ - ١٧٢ هـ).

ثم خلفه ابنه هشام الأول (١٧٢ - ١٨٠ هـ)، وكان أبوه قد عهد إليه بالإمارة من بعده، وولاه ماردة وأعدده للحكم. وقد شبهه المقرئ (٢) بعمر بن عبد العزيز في عدله واهتمامه بشئون المسلمين، حتى إنه قرب إليه الفقهاء الذين تمتعوا في عهده بنفوذ عظيم، وأصبحت لهم مكانة كبيرة في الدولة. ومن أشهر هؤلاء الفقهاء يحيى بن يحيى الليثي، الذي ينتسب إلى قبيلة المصامدة من البربر. وقد رحل إلى المشرق، وأخذ العلم عن الإمام مالك بن أنس، وروى عنه كتابه الموطأ، وبروايته انتشرت في المغرب والأندلس، وانهت إليه الرئاسة في الفقه والحديث في بلاد الأندلس، ومات في سنة ٢٢٤ هـ (٣).

وكان هشام تقياً صالحاً، صرف عهده فيما يعود على بلاده بالخير والرفاهية، فجعل مدينة قرطبة، وزينها بالمباني الفخمة والبساتين النضرة؛ وجدد القنطرة التي بناها السَّمْع بن مالك الخولاني عامل عمر بن عبد العزيز ببلاد الأندلس، وأحكم هشام بناؤها حتى أصبحت مضرب المثل في إحكام البناء (٤). كما أتم المسجد الذي أسسه أبوه، وشيد غيره من المساجد في أنحاء البلاد. وعنى بنشر اللغة العربية حتى أصبحت تدرس في مدارس اليهود، وبلغ من تواضعه أنه كان يطوف في شوارع قرطبة، ويختلط رعيته، وينظر في المظالم بنفسه، ويعود المرضى ويشهد الجنائز (٥).

توفي هشام بقرطبة سنة ١٨٠ هـ بعد أن حكم سبع سنين وتسعة أشهر (وقيل ثمان سنين). وكان - كما وصفه المقرئ (٦) - من أهل الخير والصلاح، كثير النزو والجهاد، ثم ولي الحكم الأول (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) بعد أبيه هشام في سنة ١٨٠ هـ. وكان يختلف عن

(١) مر ١٨٠ - ١٨٣ (٢) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ١٦٠

(٣) Stanley Lane-Poole: The Moors in Spain, p.p. 73-4

انظر ترجمة هذا الكتاب لعل الجارم بك: العرب في أسبانيا ص ٦٧

(٤) نفع الطيب ج ١ ص ١٦٠

(٥) Dozy: Histoire des Musulmane d'Espagne, trans. by Stokes (London, 1913), p.242

(٦) المقرئ: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ١٦٠



أبيه اختلافاً كبيراً . فقد كانت سياسته ترمى إلى إقصاء الفقهاء عن التدخل في شؤون الدولة ، وقصّر عملهم على إقامة الشعائر الدينية ، والفصل في القضايا . فنارت ثائرتهم ، وأخذوا يسبونهم ، وحرصوا العامة على العصيان . وزاد في حنقهم اتخاذ الحكم الماليك المرتزة حرساً له ، فعاثوا في الطرقات (١) ، وثار المولدون الأسيبان الذين اعتنقوا الإسلام في قرطبة وطليطلة . وقاد ثورة قرطبة الفقهاء ، وعلى رأسهم يحيى بن يحيى الليثي ، وطالوت الفقيه ، فخلعوه وبايعوا أحد أفراد أسرته . وإلا أن الحكم قاتلهم فغلبهم ، واقتروا ، وهدم دورهم ومساجدهم . ولحقوا بفاس من أرض العُدوة ، وبالإسكندرية من أرض المشرق ، ونزل بها جمع منهم ، ثم ثاروا بها ، فزحف إليهم عبد الله بن طاهر صاحب مصر للأمون بن الرشيد ، وغلبهم ، وأجازهم إلى جزيرة إقريطش ، فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الفرنج من أيديهم بعد مدة ، (٢) .

ويقص علينا المقرئ هذه القصة الطريفة التي أدت إلى موقعة وادي الحجارة ، فيقول إن العباس الشاعر نزل بوادي الحجارة ، فسمع امرأة تقول : واغوثاه بك يا حكم لقد أهملتنا حتى كلب العدو علينا فإيمنا وأيتمنيا ، فسألها عن ظلامتها فقالت : كنت مقبلة من البادية في رفقة ، فخرجت علينا خيل عدو ، فقتلت وأسرت ، فنظم العباس قصيدته التي قال في أولها :

تملكت في وادي الحجارة مُسْتَسِدّاً أُرَاعِي نَجُوماً ما يرون تَغْيِيراً  
إليك أبا العاصي تَضَيَّيتُ مطيبي تسير بهم سارياً ومهجراً  
تداركُ نساءَ المين بنصرة فانك أحرى أن تُغِيثَ وتُنصرا

فلما دخل العباس على الحكم أنشده هذه القصيدة ، ووصف ما ساد هذه الأرجاء من خوف و هلع ، واستنجد هذه المرأة به ، فتأدى بالجهاد ، وخرج بعد ثلاثة أيام إلى وادي الحجارة ، ومعه العباس الشاعر ، وسأل عن مكان العدو ، وغزاه وفتح حصونه ، وخرّب بلاده ، وقتل كثيراً من أهله ، ثم عاد إلى وادي الحجارة وأمر بإحضار الأسرى فقطعت رموسهم ، ثم بعث في طلب المرأة التي استغاثت به ، وقال للعباس الشاعر : سلها هل أغاثها الحكم ، فقالت المرأة : والله لقد شقي الصدور وأنكى العدو ، وأغاث المهوف ، فأغاثه الله ، وأعر نصره ، فارتاح إلى قولها ، وظهر على وجهه البشر والسرور ، وقال :

ألم تر يا عباس أني أجيتُها على البعد أفتاد الخيس المظفرا ؟  
فأدركتُ أوطاراً وبردت غلّة ونفّست مكروبا وأغنيت معسرا

فقال العباس : نعم ! جزاك الله خيراً عن المسلمين ، وقبّل يده (٣) .

(١) Dozy: The Moslems in Spain, P. 250 — 1

(٢) المقرئ : نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ١٦٠

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٢

وقد خرج على الحكم عماء ، واستوليا على طليطلة وبلنسية ، واستعان أحدهما بشرلمان ، حاربهم الحكم ، واسترد البلاد التي استولوا عليها . واتخذ الأمراء المسيحيون في الشمال من هذه الحروب الأهلية التي وقعت بين المسلمين في بلاد الأندلس فرصة للإغارة على ولاية أرغونة . ولكن الحكم حاربهم وردهم على أعقابهم ، كما ثار والي برشلونة أكبر معاقل المسلمين في هذه البلاد ، واستعان بشرلمان ، فأرسل الحكم جيشاً استردها .

ويقول ابن خلدون (١) إن الحكم « أول من جند بالأندلس الأجناد المرتزقة ، وجمع الأسلحة والعدد ، واستكثر من الحشيم والحواشي ، وارتبط الخيول على بابه ، واتخذ الممالك ، وكان يسميهم الخرس لعجمتهم ، وبلغت عدتهم خمسة آلاف . وكان يباشر الأمور بنفسه ، وكان له عيون يطالعونه بأحوال الناس ، وكان يقرب الفقهاء والعلماء والصالحين . وهو الذي وطأ الملك لعقبه بالأندلس . »

### عبد الرحمن الأوسط ( ٢٠٦ - ٥٢٣٨ )

مات الحكم في سنة ٥٢٠٦ بعد أن حكم سبعا وعشرين سنة ، خلفه ابنه عبد الرحمن الثاني ( ٢٠٦ - ٥٢٣٨ ) ، وولد بظليطلة في شهر شعبان سنة ١٧٦ هـ . وقد عني أبوه بتنشئته وتثقيفه ، فحذق علوم الشريعة والفلسفة . وسمى « الأوسط » ، لأن الأول هو عبد الرحمن الداخل ، والثالث عبد الرحمن الناصر . وقد امتاز عهده بالهدوء والسكينة ، وكثرت الأموال في خزائنه ، واتخذ القصور والمنزهات وجلب إليها المياه من الجبال ، وأقام الجسور ، ونظم شوارع قرطبة ، وزاد في بناء جامعها ، كما أنشأ المساجد في أكثر مدن الأندلس ، وجعل إلى جانب كل مسجد مدرسة ومستشفى ، وأصلح الطرق الرومانية القديمة ، كما شجع العلوم والآداب والفلسفة ، فظهر في بلاد الأندلس في أيامه نوابغ العلماء في كل فن (٢) .

ولما استتب لعبد الرحمن الأوسط الأمر بالأندلس تفرغ لإصلاح البلاد ، فنمت ثروتها حتى نافست الدولة العباسية في العظمة والنهضة العلمية . وكان عبد الرحمن من أكثر أمراء الأندلس أبهة في بلاطه ؛ وقد امتازت حاشيته بكثير من الصفات العربية الكريمة . ويرجع الفضل في ذلك إلى زرياب ، وهو علي بن نافع الذي قدم عليه من العراق سنة ٥٢٠٦ هـ . وكان مولى الخليفة المهدي العباسي . وقد أخذ فن الموسيقى والغناء عن أستاذه إبراهيم الموصلي ؛ ثم حدثت بينهما جفوة بسبب تفوقه على أستاذه في الغناء في حضرة هارون الرشيد ، فحنق عليه إسحاق وهدده . وقد رحب به عبد الرحمن الأوسط وبالغ في إكرامه ، وأغدق عليه وقرر له راتباً ضخماً ، وأدر عليه الأرزاق ، وأنزله داراً فخمة .

(١) العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٤ ص ١٢٧

(٢) Dozy : The Moslems in Spain, p. 260

وكان زرياب أسود اللون حلو الصوت حسن الذوق ، ولم يكن مغنيا فحسب ، بل كان أدبيا ظريفا ؛ وكان في زيه مثالا يحتذيه أهل بلاد الأندلس في ملابس الفصول المختلفة . كما أدخل في الطعام ألوانا جديدة (١) .

وقد منح عبد الرحمن ومن جاء قبله من الأمراء الأمويين أهل بلاد الأندلس الحرية لإقامة شعائرهم الدينية . وكثيراً ما حارب المسيحيون مع المسلمين جنباً إلى جنب ، كما كانوا يعينون في أرقى المناصب الحربية والسياسية . ومن ثم اعتنق كثير منهم الإسلام . وعلى الرغم من هذا التسامح الديني الذي تمتع به أهل بلاد الأندلس ، أثار بعض القسس الفتن في أواخر عهد عبد الرحمن ، فخرصوا المسيحيين على سب النبي صلى الله عليه وسلم . ولما كان سب الدين جريمة يعاقب مرتكبها بالقتل ، أمر عبد الرحمن بقتل كثير من القسس وغيرهم . ومن هؤلاء يولوجيوس Eulogius الذي أثار روح التضحية بين النصارى ، وساعده شاب غنى من أهل قرطبة يدعى ألفارو Alvaro ، وقسيس آخر يدعى برفكتوس Perfectus وغيره من متحمسى القسيسين والرهبان والنساء . مثل فلورا Flora ، وكان أبوها مسلماً وأما نصرانية (٢) .

يقول ستانلي لينبول : « إن المسيحية لا تعلم دعائها أن يطوّحوا بحياتهم هدراً لمحض التمتع بالتعذيب والقتل . على أن نصارى الأندلس لم يضطهدوا ، ولم يحل بينهم وبين شعائر دينهم حائل ، ولم يكن المسلمون يجهلون المسيحية أو يحتاجون إلى من يلقتهم تعاليمها ، فقد كانوا يعرفون من الكتاب المقدس أكثر مما يعرف نصارى الأندلس أنفسهم ، وكانوا لا يذكرون اسم عيسى من غير أن يتبعوه بالصلاة والتسليم ، لأن قدسية المسيح وإحاطة اسمه بالإجلال والتبجيل من أظهر مبادئ الإسلام » (٣) .

ولما خشى رجال الكنيسة أن تنقلب هذه الحركة إلى اضهاد حقيقي ، عقدوا مؤتمراً أصدر قراراً يحرم المجاهرة بسبب النبي أو القرآن ، فهدأت الأحوال . وكان المسيحيون يتكلمون العربية ويصنفون بها الكتب ، وينظمون بها الشعر ، كما تخلفوا بأخلاق العرب وعاداتهم . وقد ندد يولوجيوس نفسه بهذه الحال ، فقال إن النصارى نسوا لغتهم ، حتى إنه لم يوجد واحد في كل ألف يكتب كلمة لا تينية صحيحة .

وفي عهد عبد الرحمن الأوسط أغار الفونس أمير ليون ( أو استوريش في شمال غربي الأندلس ) ، كما أغار غيره من مسيحي الشمال على البلاد الإسلامية الشمالية ، فأرسل عبد الرحمن إليهم جيوشاً

(١) المقرئ : نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ١٦٣

(٢) راجع هذه الحوادث في Dozy Stanley Lane - Poole : The Moors in Spain, pp. 83 - 9 ، The Moslems in Spain pp. 278 - 281

(٣) لينبول ص ٨٥ ، ترجمة علي الجارم بك ص ٧٧

خربت بلادهم وأرغمتهم على دفع الجزية . وقد بلغ من قوة المسلمين في الأندلس في عهد عبد الرحمن أن وفدت عليه في سنة ٢٢٢ هـ ( ٨٣٦ م ) رسل إمبراطور القسطنطينية بالهدايا وطلبوا إليه عقد معاهدة ، ورغبوه في ملك آباهه بالمشرق . وكانت الدولة العباسية في حلف مع شرلمان ثم مع إبنه لويس النقي . ومما يدل على حسن سياسة عبد الرحمن تحالفه مع مقاطعة نافار Navarre الواقعة شمالي البرانس لتكون حاجزا بين بلاده وبلاد الفرنجة .

وكان عبد الرحمن الأوسط - كما وصفه لينبول (١) - ، نقي الذوق ، لين الخلق ، سهل القياد ، ملك زمامه طول حياته أربعة نالوا عنده الحظوة الكاملة وهم : مغن ، و فقيه ، وامرأة ، وعبد أسود . وكان أشد هؤلاء تسلطا عليه الفقيه يحيى بن يحيى الليثي (٢) ، وهو هو نفسه الذي أثار الفقهاء على أبيه الحكم ، ولكنه أصبح اليوم صاحب التأثير المطلق والسكلمة التي لا ترد لدى الأمير الجديد . وكانت للأميرة ، طروب ، ، وعبد ، نصر ، سلطة نافذة في شئون الملك . أما د زرياب ، المغني فإنه استغل حظوته عند عبد الرحمن في إنهاض الفنون والثقافة ، وأنى أن يزوج بنفسه في أمور الدولة التي قد تكون سينة المغنية .

### عبد الله ( ٢٧٥ - ٣٠٠ ) هـ :

لما مات عبد الرحمن الثاني سنة ٢٣٨ هـ خلفه ثلاثة من أمراء البيت الأموي هم : محمد الأول ، والمنذر وعبد الله . وعلى الرغم من أن هؤلاء قد حكموا هذه البلاد اثنتين وسبعين سنة ، لم يكن لهم أثر يذكر في تاريخ الأندلس ، بل قاست هذه البلاد كثيرا في خلال هذا العصر المليء بالآلام ، وما كان من خروج عمال الأقاليم على الأمراء ، وثورات مسيحي الشمال ، وانتشار روح العصيان في ربوع هذه البلاد ، الى أن اعتلى عرشها عبد الرحمن الثالث الناصر في سنة ٣٠٠ هـ .

خلف محمد الأول ( ٢٣٨ - ٢٧٣ هـ ) أباه عبد الرحمن الثاني . ولا يذكر عنه سوى إرسال هذه الحملات الموقفة في مستهل إمارته ( ٢٣٨ هـ ) في شمال أسبانيا للقضاء على الثورات التي قامت في برشلونة وطليطلة وغيرها ، واستطاع بذلك أن يوطد الأمن في هذه الأرجاء . وقد دون المقرئ (٣) حروب محمد الأول في سني ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٨ هـ ؛ وهي تلخص في إرسال حملات إلى ببلونة وجليقية وماردة تكلت بالنصر ، وأخضعت أهالي هذه الجهات . ثم توفي هذا الأمير في شهر صفر سنة ٢٧٣ هـ ، بعد أن قضى في إمارته خمسا وثلاثين سنة . وولى بعده ابنه المنذر ( ٢٧٣ - ٢٧٥ هـ ) ، ولكن إمارته لم تطل ، وأقام سنتين إلا نصف شهر ، ثم ولى أخوه عبد الله ( ٢٧٥ - ٣٠٠ هـ ) . وكان عهده كهده أخيه المنذرو أبيه محمد ، مليئا بهذه الثورات التي أعقبت ثورة المسيحية

(١) Stanley Lane - Poole : The Moors in Spain, pp. 80 - 1

(٢) Dozy: The Moslems in Spain, p. 260

(٣) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ١٦٥

التي اشتعلت بقرطبة ، وانتشر العصيان في ولايات الأندلس . فلما تولى عبد الله ، الذي دبر مقتل أخيه المنذر ، كان أضعف من أن يقف على قدميه في وجه الخطر الذي كان يهدد ملكه . واشتهر بالقسوة وسوء التدبير مما أثار كراهية الناس له فنبذوا طاعته ، حتى إنه لم يمض على توليته ثلاث سنين حتى استقل أكثر بلاد الأندلس ، واتخذ زعماء العرب والبربر والأسبان من ضعفه وسوء حكمه فرصة للخروج عليه والاستقلال بالولايات التي تحت أيديهم ، وانتشرت الفوضى في البلاد ، واستولى العرب ، وكانوا أقلية في البلاد ، على بعض الإمارات كإشبيلية التي أصبحت منافسا خطيراً لقرطبة ، كما استقل حاكما لورقة وسرقسطة استقلالاً تاماً ، ولم يعد عبد الله يعتمد إلا على الجنود المرتزقة في إخضاع أهل قرطبة لإخضاعاً صورياً .

أما البربر فقد عادوا إلى النظام القبلي الذي يتفق مع تقاليدهم وطبائعهم ، فاستقلوا ببعض الولايات الغرية مثل استرامادور Stramadora ، وجنوب البرتغال ، واحتلوا مراكز عظيمة الشأن في بلاد الأندلس كمدينة جيتيان ، وتفاقم خطر أسرة ذى النون من البربر التي عانت في جميع نواحي الأندلس . كما استولى الأسبان الذين دخلوا الإسلام ، والذين كانوا يبغضون أمرهم ، على ولاية الجرف Algarve في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة ، واستقلوا بكثير من الولايات . وقصارى القول أن هؤلاء جميعاً قد أجمعوا على كراهة عبد الله واستهانوا بسلطانه . وكان أكثر هؤلاء الزعماء قوة وأشدهم خطراً ابن حفصون ، وكان يدين بالإسلام ، ثم ارتد إلى المسيحية وسمى نفسه صمويل ، وأثار سكان الجبال في مقاطعة إلفيرا Elvira بإمارة غرناطة ، وأقام في معقله ببشتر Bobastro ، وهزم جيوش الأمير عبد الله غير مرة ، واضطر إلى مصالحته بعد أن ناوأ سلطان الأمير خمسا وعشرين سنة (١) . كما استقل حاكم مرسية Murcia ، الذي ولع بالشعر والأدب ، واستولى نصارى الشمال على طليطلة . وضعفت حكومة قرطبة ، وانتشر اللصوص وقطاع الطرق بالبلاد ، وتدمر الجند لتأخير أعطياتهم ، وضدت الولايات بإرسال حاصلاتها ، وخلت خزائن الدولة من المال ، وغلا ثمن الخبز غلاء فاحشاً ، وعد رجال الدين من المسلمين ذلك من سيخط السماء ، وأخذوا ينشرون بين الناس تكهينات مخزنة .

وهكذا كانت حال الأندلس ، وهذا ما آل إليه أمرها ؛ فقد أصبحت ممزقة الأشلاء منبثة الأواصر ، تبعثرت فيها المقاطعات المستقلة التي صارت أشبه بالضياع منها بالولايات التي تكون دولة قوية ، وصارت أعجز من أن تقف في وجه فاتح قوى عزوم . على أن بعض هذه الولايات كانت تزدهر من حين إلى حين بطائفة من حكامها الذين اشتهروا بالأدب ، كحاكم مرسية وقسطلونة Caslona ، وابن حجاج حاكم لإشبيلية الذي ذاعت شهرته وراسله الملوك وبعثوا إليه هداياهم ، وتوافد عليه العلماء والفقهاء من المدينة المنورة ، وازدان قصره بأشهر المعننين من بغداد . وكانت

جاريته وقرء البغدادية شاعرة ، رائعة الحسن بديعة الصوت فصيحة اللسان مرهفة الحس ، وهي التي تقول فيه :

ما في المغارب من كريم يُرتجى      إلا حليف الجود إبراهيم  
إني حللت إليه منزل نعمة      كل المنازل ما عداه ذميم

وقد قصده الشعراء ، وطمع شعراء قرطبة في كرمه . وقد قيل إن أحد شعرائها هجا في حضرته منافسيه من أشرف قرطبة ، فقال له عبدالله : كذبتك نفسك يا هذا إن ظننت أن رجلا مثلي يمشي لسماع هذا الهجاء الذي .

ولكن عبد الله لم يستطع أن يتغلب على هذه المصائب التي حلت بالبلاد ، ومات في سنة ٣٠٠ هـ وهو في الثامنة والستين من عمره ، بعد أن قضى في الحكم أربعاً وعشرين سنة . وقد أشرفت دولة الأمويين بالأندلس في عهده على الزوال ، لولا أن قبض الله لها عبد الرحمن الثالث الناصر (١) .

عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ)

#### ١ - عبد الرحمن منزول إلى أمه ولي الإمارة :

ولد عبد الرحمن في يوم الخميس ٢٢ رمضان سنة ٢٧٧ هـ (٨٩١ م) ، وكان أبوه محمد ابن الأمير عبد الله بن محمد الأول ، وأمّه أم ولد سماها ابن الأثير (٢) مرتة ، وقال إن عبد الرحمن يوم قتل أبوه لم يزد عمره على واحد وعشرين يوماً . وكان قتله بسبب وشاية أخيه مطرف الأصغر عند أبيهما عبد الله ، طمعا في اعتلاء العرش . وكان لقتل محمد أثر بالغ في نفس أبيه عبد الله الذي أمر بإدخال حفيده عبد الرحمن بن محمد إلى قصره ، وحاطه برعايته وقربه إليه ، وآثره على أبنائه (٣) . وقد شب عبد الرحمن في بيت الإمارة ، وأخذ بقسط وافر من الثقافة ومال إلى دراسة الفلسفة . وكان جده يخصصه بعطفه دون أبنائه ، حتى قيل إنه رمى إليه بخاتمه (٤) ، فاتخذ الناس من ذلك دليلا على رضاه عنه وإيثاره على أبنائه بالإمارة من بعده ، كما كان يفيقه عنه في الأعياد والموازم والحفلات وعرض الجند . ولما مات عبد الله في ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) أجلس الأمراء والقواد عبد الرحمن على العرش وبايعوه ولقبوه الناصر . ولم يقم في وجهه أحد من أعمامه واعمام أبيه (٥) ، وأرسلت البيعة إلى سائر الولايات الأندلسية .

(١) Stanley Lane - Poole : The Moors in Spain, pp. 97 - 107 ، ترجمة على الجارم من ٩٢ - ٩٨

(٢) Dozy : The Moslems in Spain, p. 38 ، ص ٢٦ ، ج ٨

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار المغرب ج ٢ ص ١٦٢

(٤) ابن الخطيب : إعمال الاعلام فيمن يبيع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ج ٣ ص ٣٢

(٥) Dozy : The Moslems in Spain p. 382

كان الناصر حين اعتلى عرش الأندلس شاباً في مقتبل العمر ، إذ لم يتجاوز الثانية والعشرين ، واستبشر بإمارته رجال القصر وأهالي قرطبة ، لما اتصف به من سمو الاخلاق وقوة الإدراك ، وقد أنشد ابن عبد ربه هذه الأبيات يوم تولية الناصر الإمارة :

بدا الهلال جديداً      والمملك غض جديده  
يا نعمة الله زيدى      إن كان فيك مزيد  
إن كان للصوم فطر      فأنتَ للدهر عيد (١)

## ٢ - سياسة عبد الرحمن الداخلية :

كانت بلاد الأندلس عند اعتلاء عبد الرحمن العرش - كما يقول المقرئ (٢) - مضطربة بالمخالفين ، مضطربة بغيران المتغلبين ، فأطفأ تلك النيران . واستنزل أهل العصيان ، واستقامت له الأندلس في سائر جهاتها بعد نيف وعشرين سنة من أيامه ، وقد أعلن الأمير الجديد عن سياسته التي عول على نهجها ، ودعا الخارجين إلى الخضوع لسلطانه ، واتجهت إليه أنظار الشعب لتخليصه من عصابات اللصوص والمجرمين الذين أتلفوا الزرع وأفقروا الأرض ، فخضع أكثر الولايات وسلموا حين رأوا أميرهم الشاب يتقدم جيوشه في شجاعة وثقة واعتزاز بالنفس ، وأعجبوا به لأنهم وجدوا فيه من الصفات ما لم يجدوه في جده عبد الله ، وفتحت له مدن الأندلس أبوابها ، فسلمت له الولايات التي في جنوب قرطبة وتبعها إشبيلية ، وأرغم البربر في الغرب على الطاعة ، وحذا حذوه أمير الجرف . وكان عبد الرحمن يخلع على كل من نزل من الثوار عن حصنه ويقربه ويدر عليه الأرزاق والهبات . وبذلك خضع له كثير من هؤلاء الثوار طائعين . ثم تفرغ لقتال من بقى من الثائرين . وكان أشدهم بأساً وأعظمهم خطراً عمر بن حفصون الذي لقي جده عبد الله في سبيل محاربه كثير من العنت والإرهاق . وظل عبد الرحمن يقاتل ابن حفصون وأولاده في معاقلم الجبلية في بيشنر إلى أن توفي سنة ٣٠٥ هـ (٣) وسلم إليه أولاده بعد حروب طويلة . ولم تأت سنة ٣٢٠ هـ حتى كانت بلاد الأندلس الإسلامية كلها خاضعة لعبد الرحمن . ولما وقف على مشارف هذا الحصن المنيع ورأى قمة الشاهقة الشديدة الانحدار المحيطة به ، سجد لله شكراً على ما أولاه من الفتح والنصر ، وظل طول مدة إقامته في هذا الحصن صائماً وعفا عن أعدائه .

وكانت طليطة آخر حصون الثائرين التي سقطت في يد عبد الرحمن ، حيث سلمت إليه في سنة ٣٢٠ هـ ، وكان أسلافه قد اضطروا إلى منحها نوعاً من الاستقلال الذاتي . وبذلك استرد عبد الرحمن

(١) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٦٧

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٦

(٣) Dozy : The Moslems in Spain , p. 392.

ما فقدته أسلافه من بلاد الأندلس في مدة لا تتجاوز عشرين سنة ، وغدا نفوذه قويا بين العرب والبربر والإسبان والمولدين .

أما سياسة الناصر الداخلية إزاء مسيحي الأندلس ، فقد كانت راجعة إلى ما أظهره هؤلاء المسيحيون من الحماسة الدينية التي عبر عنها المؤرخون بالحرب المقدسة . وقد استعان عبد الرحمن في حروبه التي شنها على مسيحي الأندلس الشماليين وعلى الفاطميين ، بالصقلية خاصة . وكان تجار الإغريق والبنادقة يجلبون له الأرقاء ويبيعونهم صفاراً ليهدبهم وينشئهم نشأة إسلامية . وكانت بلاد الأندلس في عهده مهددة بخطر الفاطميين في بلاد المغرب جنوباً ، وخطر المسيحيين وخاصة أهالي أستوريش شمالاً . وقد انتشر هؤلاء المسيحيون في مقاطعة ليون ، وبنوا قلاع زمّورة وسان استبان St. Estevano . وأوسما Osma وسيمنقاس Simanacas . ولم ير العرب بدأ من استرداد أراضيهم ، ولكن المسيحيين هزموهم هزيمة منكرة ، وأغاروا على حدود بلادهم ، وشد أزرم سانشو Sancho ملك نافارده Navarre ، الذي أصبح زعيم المسيحية في الشمال (١) . وقد أظنبت ستانلي لينبول (٢) في وصف مناقب المسلمين وحسن معاملتهم لأعدائهم ، وندد بأخلاق المسيحيين التي كانت مطبوعة بطابع الغلظة والخشونة والقسوة فقال : « وكانت أخلاقهم على اتساق مع أميتهم ، وما كان يتوقع من هؤلاء الجفافة المتوحشين إلا التعصب والقسوة ، فانهم لم يؤمنوا مستجيراً ، ولم يتركوا فاراً ، ولم يبقوا على جريح . وهذا يذكرنا ، والحزن ملء صدورنا ، بما كان للعرب من بطولة ورفق وسماحة خلق ، فكثيراً ما عفوا عن أعدائهم نبلاء متكرمين ، بينما نرى اليوم أن رجال ليون وقشتالة العتاه ، يذبحون جميع رجال الحماميات ، ويستأصلون مدناً مليئة بالقطن ، حتى إذا نجا أحد من سيفهم لم ينج من استعبادهم » .

كذلك أغار أردون الثاني Ordon II على بلاد الأندلس الإسلامية ، ووصلت جيوشه إلى مارده Merida ، وقابل عبد الرحمن ذلك بإرسال جيش أغز السير نحو الشمال ، وأغار على مملكة المسيحيين في سنة ٥٣٤ هـ ، ثم أرسل في السنة التالية حملة أخرى ، ولكن أردون أحل بها الهزيمة أمام أسوار سان استيبان ، وغنم كثيراً من الغنائم . وقد أثار هذا الانتصار الحماسة في نفس ملكي ليون ونافار ، فسارت جيوشهما صوب طليطلة ، وعائت في البلاد القريبة منها ، وانتصرت عليهم حينذاك جنود قرطبة في موقعتين . وقد عوا . . . . . الحمن على الاستعداد لحرب المسيحيين ، وقاد الجيوش بنفسه سنة ٥٣٨ هـ . . . . . دمر سان استيبان ، ثم سار صوب نافار ونازل سانشو Sancho واضطره إلى الفرار . وعلى الرغم من الهزائم المتكررة التي منيت بها جيوش المسيحيين ، أغار أردون ملك ليون على حدود المسلمين ، وزحف سانشو ، واحتل حصون المسلمين سنة ٥٣١١ هـ ، فسار عبد الرحمن نحو الشمال واستولى على كل ما صادفه من المدن ،

(١) Dozy : The Moslems in Spain p. 414

(٢) Stanley Lane — Poole : The Moors in Spain, p. 119 ، ترجمة على الجارم ص ١٠٨ .



ومزق جيش سانشو وهدم حاضرتة بمبلونه . وقد أتاحت هزيمة سانشو ملك نافار ، وموت أردون ملك ليون ، ووقوع النزاع ، وقيام الحروب الأهلية بين أبنائه ، الفرصة لعبد الرحمن للتفرغ لإصلاح بلاده ، وأحسن بقوته في الداخل والخارج ، حتى إنه لقب نفسه بلقب خليفة (٣١٧ هـ) .

على أن عبد الرحمن لم يلبث أن وجد نفسه أمام خطر ردمير (راميرو الثاني) Ramiro II الذي خلف أردون في حكم ليون ، واستطاع أن يتحد مع مسيحي الشمال ، وأن يعقد الصلح مع محمد بن هاشم التجيبي أمير سرقسطة ، الذي خلع طاعة عبد الرحمن الناصر . وأسرع هذا إلى إخضاع سرقسطة ، ثم زحف على نافار ، وانتصر على المسيحيين في عدة مواقع . ولكن راميرو تغلب أخيراً على المسيحيين وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً في موقعة الخندق ، وقتل من المسلمين أكثر من خمسين ألفاً ، من جيشهم الذي قيل إنه بلغ مائة ألف ، ونجا عبد الرحمن بنفسه في أقل من خمسين فارساً (١) . ولم ينس المسلمون في الأندلس هذه الكارثة ، حتى إنهم أطلقوا على السنة التي حلت فيها بسنة الخندق (٢) .

وقد أفاد عبد الرحمن مرة ثانية من وقوع النزاع بين مسيحي الشمال ، بسبب قيام العداء بين فرناندو غونزاليز Fernando Gonzalez كونت قشتالة (وكانت تابعة لمملكة ليون) ، الذي تغنى ببطولته الشعراء ، وبين راميرو الثاني ملك ليون ، الذي قبض عليه وسجنه ، ثم أطلقه حين تبين له تمسك أهل قشتالة به . ولما مات راميرو في سنة ٣٤٠ هـ (٩٥١ م) أخذ غونزاليز على عاتقه حماية سانشو من أخيه أردون الثالث ، ثم خلف سانشو أخاه في سنة ٣٤٦ هـ ، فطرده غونزاليز من ليون ، ونصّب أخاه أردون الرابع ، وكان كسيحاً ، فالتجأ سانشو إلى جدته وطوطة ، ملكة نافار واستنجدوا بعبد الرحمن الناصر . وكان سانشو بديناً بدرجة غير عادية ، فعول على استشارة أطباء قرطبة البارزين ؛ ثم سافرت طوطة مع حفيدها سانشو ملك نافار وحفيدها ملك ليون المنفي ، واستقبلهم عبد الرحمن باحتفال رائع ، وعاد سانشو إلى بلاده بعد أن تخلص من سمته ، وأرسل معه الخليفة جيشاً استرد به عرش ليون سنة ٣٤٩ هـ (٣) .

### سياسة عبد الرحمن الخارجية :

كانت بلاد الأندلس في عهد عبد الرحمن الناصر يحيط بها الأعداء من كل جانب : فكان الفرنجة في الشمال يطعمون في توسيع أملاكهم جنوباً ، ولا سيما بعد استيلائهم على برشلونة ، وكانت الإمارات المسيحية في الأقاليم الجبلية الشمالية تهدد بلاده . أضف إلى ذلك منافسة العباسيين والفاطميين . وكان الآخرون أشدهم خطراً على بلاد الأندلس في عهد عبد الرحمن الناصر حيث خلع موسى بن أبي

(١) القرى : نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ١٦٧

(٢) Stanley Lane-Poole : The Moors in Spain, pp. 122-3.

(٣) Ibid, pp. 123-8

العافية الذى استحوذ على المغربين الأقصى والأوسط طاعة عبيد الله المهدي الفاطمي ، ودخل في طاعة عبد الرحمن الناصر الأموي ، الذى استولى على سبته وخطب له على منابر المغرب . ولكن هذه الخطبة لم تلبث أن قطعت بعد فرار موسى من مدينة فاس أمام الجيوش الفاطمية ، ثم أعيدت مرة أخرى في عهد القائم الفاطمي (١) .

وقد عمل عبد الرحمن الثالث على تقوية دولته مادياً وأديباً ، فبنى أسطولا من مائتى سفينة ، وتلقب بلقب خليفة . ومن ثم أصبح في العالم الإسلامي ثلاث خلافات : الخلافة العباسية في المشرق ، والخلافة الفاطمية في بلاد المغرب ، والخلافة الأموية في بلاد الأندلس ، وساعده على ذلك ضعف الخلافة العباسية ، وازدهار دولته ، وارتفاع شأنها في الداخل والخارج . ويقول المقرئ (٢) عن عبد الرحمن : « وهو أول من تسمى منهم بالأندلس بأمر المؤمنين عندما التأث أمر الخلافة بالمشرق ، واستبد موالى الترك على بنى العباس ، وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة سبع عشرة وثلثمائة (٣) ، فلقب بالقباب الخلافة » .

وفي عهد عبد الرحمن الناصر أصبحت قرطبة من أعظم مدن العالم من حيث عمارتها الفخمة ومساجدها العظيمة وجسورها الكبيرة التي أقيمت على الوادي الكبير . وقد وصفها المقرئ (٤) في هذه العبارة فقال : « حضرة قرطبة منذ افتتحت الجزيرة ، وهى كانت الغاية ، ومركز الولاية ، وأم القرى ، وقرارة أولى الفضل والتقى ، ووطن أولى العلم والنهى ، وقلب الإقليم ، وينبوع متفجر العلوم ، وقبة الإسلام ، وحضرة الإمام ، ودار صوب العقول ، وبستان ثمر الخواطر ، وبحر درر القرائح . ومن ألقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر وفرسان النظم والنثر . وبها أنشئت التأليفات الرائقة ، وصنفت التصنيفات الفائقة ، والسبب في تبرز القوم حديثاً وقويماً على من سواهم ، أن أفقهم القرطبي لم يشتمل قط إلا على البحث والطرب لأنواع العلم والأدب » .

وقد بلغ عدد مساجد قرطبة ستائة مسجد ، على حين لم يتجاوز عدد سكانها نصف مليون وعدد أحيائها ثمانية وعشرين .

وتدل مدينة الزهراء ، إحدى ضواحي قرطبة ، والتي بدأ عبد الرحمن الناصر في بنائها سنة ٣٢٠ هـ ، على رقى الذوق ومقدار ثروة البلاد في ذلك العصر . فقد أنفق عبد الرحمن على بنائها سبعة ملايين دينار ، وبنى فيها قصران عظيمين ، ومسجداً عظيماً ، يحيط بهما الدواوين والبساتين التي غرس فيها أنواع الأشجار . وقد أطنب مؤرخو العرب والفرنجية في مدح عبد الرحمن الناصر ، فقال المقرئ (٥) : « وكان

(١) انظر ص ٢٨٥ من هذا الكتاب

(٢) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ١٦٦

(٣) هذا خطأ لأن المقتدر امتدت خلافته إلى سنة ٣٢٠ هـ

(٤) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ٢١٧

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ١٧٩ .

سلطانه أعظم ما كان ، وأعز ما كان الإسلام بملكه . . وحكى أنه وجد بخط الناصر رحمه الله أيام السرور التي صفت له دون تكدير : يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ، ويوم كذا من كذا ، وعُدت تلك الأيام ، فكانت أربعة عشر يوماً . فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفاتها وبخائها بكال الأحوال لأوليائها : هذا الخليفة الناصر حلف السود ، المضروب به المثل في الارتقاء في الدنيا والصمود ، ملكها خمسين سنة ، وستة أو سبعة أشهر وثلاثة أيام ، ولم تصف له إلا أربعة عشر يوماً . فسبحان ذى العزة القائمة والمملكة الدائمة ، لا إله إلا هو ، (١) .

ووصفه ستانلي لينبول (٢) فقال : نعم إن عبد الرحمن أنقذ الأندلس من نفسها ومن أعدائها . ولم يكتف بإفقاها من الدمار ، بل خلق منها دولة عزيزة الجانب ، ولم تكن قرطبة في عهد من عهودها أغنى ولا أكثر ازدهاراً مما كانت عليه في عهد الناصر ، ولم تكن الأندلس قبل أيامه في تلك الحال من الخصب والإمراع والإنتاج وتوالي الخيرات ، التي نماها ووصل بها إلى الكمال كد أهلها ومهارتهم في الصناعة ، ولم يكن الحكم الأندلسي في يوم من أيامه أبهر انتصاراً على الفوضى ، ولم تكن قوة القانون أكثر نفوذاً إلى القلوب وأعظم هيبة مثلما كانت في أيام عبد الرحمن ، فقد تسابق إلى أبوابه الرسل من فرنسا وألمانيا وإيطاليا ليقدّموا إليه تحية الإجلال والتبجيل . وكانت قوته وحكمته وثروة مملكته مضرب المثل في أوروبا وإفريقية ، وبلغت شهرته أقصى حدود المملكة الإسلامية بآسيا ، وكان مصدر كل هذا الانقلاب العجيب رجلاً واحداً ، عانده كل شيء فقهره ، ووقف في طريقه كل شيء فخطمه ، بعث الأندلس من حضيض اليأس إلى قمة القوة والازدهار ، ولم تصل البلاد إلى كل هذا ، إلا بذكاء الخليفة عبد الرحمن الناصر وصدق عزمته .

### الحكم الثاني المستنصر ( ٣٥٠ - ٤٣٦٦ ) :

كان عبد الرحمن الناصر آخر عظام أمراء بني أمية في الأندلس . وقد خلفه ابنه الحكم المستنصر بالله وأناحت له فتوح أبيه وما حازه من نصر وظفر على أعدائه فترة من الهدوء والطمأنينة ، إذ شعر نصارى الشمال بقوة الدولة التي تركها الناصر ، فلم تعترضه هذه الثورات الجارحة التي اعترضت أباه في العشرين سنة الأولى من عهده . كما وجد الحكم حكومة منظمة أقام دعائمها أبوه ، فجرى على رسمه ، ولم يفقد من ترتيبه إلا شخصه ، وولى حجابته جعفر الصقلي ، الذي أهدى له يوم ولايته هدية نفيسة تدل على ضخامة ثروة الأندلس وما كانت تتمتع به من يسر ورخاء (٣) .

ولم يقف في وجه الحكم أحد من إخوته وأعمامه وغيرهم ، فقد بايعه أخوه أبو مروان عبيدالله ،

(١) المصدر نفسه ج ١ ص ١٧٩

(٢) Stanley Lane - Poole: The Moors in Spain, pp. 126-7 ترجمة على الجازم ص ١١٧ - ١١٨

(٣) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٨٠

كما بايعه أبو الأصمغ عبد العزيز ، ففضى إليهما كل واحد منهما (١) في قطيع من الجند وأتيا بهما إلى قصر مدينة الزهراء ، ونفذ غيرهما من وجوه الرجال في الخيل لإتيان غيرهما من الإخوة ، وكانوا يومئذ ثمانية ، فوافي جميعهم « الزهراء » في الليل ، فزولوا في مراتبهم بفصلان دار الملك ، وقعدوا في المجلسين الشرقي والغربي ، وقعد المستنصر بالله على سرير الملك في البهو الأوسط من الأبهام المذهبة القبلية التي في السطح الممرد (٢) . فأول من وصل إليه الإخوة فبايعوه وأنصتوا لصحيفة البيعة ، والتزموا الأيمان المنصوصة بكل ما انعقد فيها . ثم بايع بعدهم الوزراء وأولادهم وإخوتهم ، ثم أصحاب الشرطة وطبقات أهل الخدمة ، (٣) .

وكان الحكم الثاني ميالا بطبعه إلى السلم والدعة ، وكان الرعب الذي غرسه الناصر عظيما في قلوب أهل الأندلس ، وخاصة مسيحي الشمال ، الذين كانوا لا يزالون يشعرون بقوة الخلافة . ولم يكن الحكم ضعيف القلب أو جباناً ، حتى إنه كان يقود الجيوش بنفسه لمحاربة نصارى ليون إذا نقضوا عهودهم . وبلغ من قوة دولته أن استنجد به أردون ملك جليقية « فاحتفل الحكم بقدمه ... ووصل إلى الحكم وأجلسه ، ووعدته بالنصر من عدوه ( فريدلند قنومس (٤) قشتالية ) ، وخلع عليه ... وعاقده على موالاة الإسلام ومقاطعة فريدلند القومس ، وأعطى على ذلك صفقة يمينه ، ورهن ولده غرسية ، ودفعت الصلات والحمالان له (٥) ولأصحابه ، وانصرف معه وجوه نصارى الذمة ليوطدوا له الطاعة عند رعيتة ويقبضوا رهته . وعند ذلك بعث ابن عمه شانجة بن ردمير ببيعتة وطاعته مع قامسة (٦) أهل جايقية وسمورة وأساقفتهم ، يرغب في قبوله ويمت بما فعل أبوه الناصر معه ، فتقبل بيعتهم على شروط شرطها ، كان منها هدم الحصون والأبراج القرية من ثغور المسلمين . ثم بعث ملكا برشلونة وطركونة . وغيرهما يسألان تجديد الصلح وإقرارهما على ما كانا عليه . . . وعقد على أن يهدموا الحصون التي تضر بالثغور ، وأن لا يظاهروا عليه أهل ملاتهم ، وأن يُشندوا بما يكون من النصارى في الإجلاب على المسلمين . ثم وصلت رسل غرسية بن شانجة . . . في جماعة من الأساقفة والقامسة (٦) يسألون الصلح (٧) .

وكذلك بعث الحكم المستنصر جنده إلى بلاد المغرب الأقصى والأوسط ، وخطب له على منابرها

(١) يقصد جعفر بن عثمان وموسى بن أحمد بن حدير ، وكانا من القواد .

(٢) مرد البناء ملسه وسواه وصله .

(٣) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٨٣ .

(٤) القومس يفتح القاف وتسكين الواو الأمير ، وجمعها قامسة .

(٥) في الأصل الحملات ، والصواب الحملان ، وهو الدواب التي تحمل الهبات ونحوها

(٦) في الأصل قواميس وهو تحريف ، انظر القاموس .

(٧) نفع الطيب ج ١ ص ١٨١ .

وأبطلت الخطبة للفاطميين، كما قضى على نفوذ الأدارسة بالعدوة بنواحي الريف (١). وكان الحكم مشغولاً بالاطلاع والقراءة، وجمع كثيراً من الكتب، وأرسل الرسل لابتاعها من دمشق وبغداد والقاهرة، حتى زخرت خزانه بقرطبة بأربعمائة ألف كتاب، في وقت لم تعرف فيه الطباعة. وكان النساخ يلاقون في نقل الكتب كثيراً من الصعاب. وامتاز الحكم بقراءة كثير من هذه الكتب والتعليق عليها؛ ولا غرو فقد كان غزير العلم واسع الاطلاع، حتى لقد اعتبر العلماء تعليقاته من أجل ما يكتب (٢). وأقام للعلم والعلماء سوقاً نافقة جُمِلت إليه بضائمه من كل قطر (٣). وقد بلغ من اهتمامه بجمع الكتب أنه كان إذا ظهر كتاب جديد بعث إلى صاحبه في طلبه، من ذلك أنه لما علم بظهور كتاب الأغاني طلب من مؤلفه أبي الفرج الأصفهاني أن يبيعه إياه، وبعث له بألف دينار من الذهب، فبعث به إليه قبل أن يرسله إلى العراق (٤). توفي الحكم المستنصر في اليوم الثاني من شهر صفر سنة ٣٦٦ هـ، بعد أن حكم ست عشرة سنة.

### هشام الثاني المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ)

خلف الحكم ابنه هشام، ويكنى أبا الوليد، ويلقب المؤيد، وأمه أم ولد تسمى «صبيح». وكان هشام في العاشرة من عمره حين ولي الخلافة، فتعلبت على أمره أمه صبيح، وتولى تدبير مملكته أبو عامر محمد بن عبد الله. وقد وصف أبو علي الغالي مؤدب هشام المؤيد ومؤلف كتاب الأمانى بأنه كان في غاية الخدق والذكاء (٥).

أبو عامر محمد بن أبي عامر:

ولد أبو عامر عبد الله محمد بن أبي عامر في إحدى قرى المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء جنوبي بلاد الأندلس. ويرجع في أصله إلى قبيلة معافر القحطانية. وقد وفد على قرطبة في حدائه سنة، والتحق بجامعة، حيث كان أبوه يقوم بالتدريس فيه، وامتاز بين أقرانه بالذكاء وعلو الهمة والطموح إلى مدارك الرقي حتى تملكته الرغبة في النفوذ والسلطان. وقد روى عبد الواحد المراكشي (٦) عن الحميدى صاحب كتاب الأمانى الصادقة عن أبي عبد الله محمد بن إسحق التميمي قال: كان محمد بن أبي عامر نازلاً عندي في حجرة فوق بيتي، فدخلت عليه في بعض الليالي في آخر الليل، فوجدته قاعداً على الحال التي تركته عليها أول الليل حين فصصكت عنه، فقلت له: ما أراك نمت الليلة، قال: لا، قلت: فما أسهرك؟ قال: ففكرة عجيبة، قلت: فماذا كنت تفكر؟ قال: فكرت إذا أفضى

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٤ ص ١٤٦.

(٢) Stanley Lane-Poole: The Moors in Spain, pp. 155-6.

(٣) القرى: نفع الطيب ج ١ ص ١٨٢. (٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦.

(٥) Dozy: History of the Moslems in Spain, p. 138.

(٦) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٧ - ١٨.

إلى الأمر ومات محمد بن بشير القاضي ، بمن أستبدله ؟ ومن الذى يقوم مقامه ؟ فجلت الأندلس كلها بخاطرى ، فلم أجد إلا رجلاً واحداً . قلت : لعله محمد بن السليم ، قال : هو والله ، هو لشدة ما اتفق خاطرى وخاطرك . قال الحميدى : وأخبرنى الفقيه أبو محمد على بن أحمد قال : كان ابن أبي عامر يوماً جالساً مع ثلاثة من أصحابه من طلبية العلم فقال لهم : ليختر كل واحد منكم خطة أو تشيه إياها إذا أفضى إلى الأمر ، فقال أحدهم : توليت قضاء كورة ربيعة ، وهى مالقة وأعمالها ، فانه يعجبني هذا التين الذى يجي منها ، وقال الآخر : توليت حسة السوق ، فإني أحب هذا الإسفنج ، وقال الثالث : إذا أفضى إليك الأمر فأمر أن يُطاف في قرطبة كلها على حمار ووجهي إلى الذنب ، وأنا مطلى بالعسل ليجتمع على الذباب والنحل . واقترقوا على هذا ، فلما أفضى إليه الأمر كما تمنى ، بلغ كل واحد منهم أمنيته على نحو ما طلب . .

ولما آلت الخلافة إلى هشام المؤيد ، وأصبحت أمه صبيح ، تمتع بالنفوذ المطلق والسلطان الذى لا يحد ، قربت إليها ابن أبي عامر الذى عاش في مبدأ أمره من كتابة الرسائل في القصر . ولم يلبث أن اتصل بكبير الحجاب ، وكان يتمتع بنفوذ كبير الوزراء إذ ذاك ، فأسند إليه بعض الأعمال في القصر . واستطاع ابن أبي عامر أن يكتسب عطف السيدة صبيح ، لما كانت تتوسم فيه من الذكاء وبعد الهمة ، فأسند إليه بعض المناصب الهامة ، منها القضاء في بعض المدن ، والنظر في الزكاة والمواريث ، والإشراف على أملاك ولى العهد الخاصة . كما اشتهر ابن أبي عامر بعلو الأدب والتواضع والكرم والعطف على البائسين ، واستطاع بذلك أن يستميل كبار رجال الدولة على اختلافهم .

ولما مات الحكم وآلت الخلافة إلى ابنه هشام كما تقدم ، كان ابن أبي عامر ساعد السيدة صبيح الأيمن ، واستطاع أن يقضى على مؤامرة صقالبة القصر الذين كانوا يحولون دون استخلاف هشام ، واكتسب محبة الناس بقضائه على هؤلاء الصقالبة (١) ، ثم لم يلبث أن تخلص من جعفر بن عثمان المصحفي الحاجب ليصفو له الجو في حكم بلاد الأندلس . واتخذ لذلك الأمر عدته ، فاستمال إليه الجند بعد أن غزا مملكة ليون وعاد منها محملاً بالغنائم ، وعلت منزلته في قلوب الجند ، واستطاع ، بما أوتيه من مكر ودهاء ، أن يوقع الخلاف بين المصحفي وغالب قائد الجيش ، واتهم المصحفي بالخيانة والسرقة ، وزج به في غياهب السجن ، وجلس مكانه على كرسي الحجابة ، وأصبح الحاكم للدولة الإسلامية في الأندلس ، ودعى له على المنابر ، وضربت السكة باسمه بعد الخليفة الصغير ، ولبس الملابس المنسوجة بالذهب ، ونقش اسمه عليها كما كان ينسج اسم الخلفاء .

وقد مات المصحفي بعد خمس سنوات أشنع ميتة مسجى برداء ممزق . ويقال إن ابن أبي عامر دس له السم . وصف ابن بسام (٢) قصة تسليم جثة المصحفي إلى أهله فقال : وأخبرني محمد بن

(١) المراكشي ص ١٨ ، Dozy : The Moslems in Spain, p. 138 .

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الرابع من المجلد الأول ( القاهرة ١٩٤٥ ) ص ٤٩ .

إسماعيل كاتب ابن أبي عامر قال : سرتُ مع محمد بن مسلمة ثقة ابن أبي عامر إلى الزهراء لفسلم جسد  
جعفر بن عثمان إلى أهله والنظر إلى عينه . وسرنا إلى منزله وما غطى جسده إلا كساء خَلَقَ لبعض  
البوايين ألقاه على سريريه . ودعا له محمد بن مسلمة بغاسل يغسله على فرد باب اختلج من ناحية الدار .  
وخرجنا بنعشه وواريشاه ، وما جسر أحد لشهوده معنا سوى إمام مسجده المستند عني للصلاة عليه ،  
ومن حضره من ولده . فعجبت من عدوان الزمان بعد تصريفه له ، وإن لي بالاعتبار بشأنه في  
الحالتين مع قرب المدة الموعظة .

وقفت له في طريقه من داره وقت علة الحكم ، وقد تنهى أمره في الجلالة أروم أن أناوله قصة .  
فوالله ما تمكنت من الدنو إليه لكثافة موكبه ، وأخذ الناس الطرق عليه مسلين وسائلين ، فأنشيت  
حسيراً مبهوتاً . فلم تطل المدة حتى سلبه ابن أبي عامر حاله وقبض عليه ، وجعل يحمله في الغزوات  
معه . وسرت في صحبة ابن أبي عامر ، فاتفق لي أن نزلت في بعض المنازل بجليقية إلى جنب خباته .  
وفي ليلة نهي ابن أبي عامر عن وقود النصار ليخني على العدو مكانه ، فرأيت والله عثمان بن جعفر  
يسقي أباه جعفرأ ذيقاً قد خلطه بالماء يقيم أوده ، والشيخ يحسوه ويحرص عليه ضعف حال وعدم  
زاد . فلا أنسى تلك الموعظة ، وما يفتن بالأيام إلا ضعيف العقل . وكان مهلك جعفر فيما أخبرني به  
أبي خلف بن حسين سنة اثنين وسبعين .

كما استطاع ابن أبي عامر أن يحول دون سخط رجال الدين عليه ، فأمر بإحراق كتب الفلسفة  
في ميادين قرطبة وأحرق بعضها بيده . وبذلك أرضى الفقهاء الذين عرفوا بتشددهم في الدين وكرهتهم  
للفلاسفة ، وسمى حامى الإسلام ، ولم تقف سعة اطلاعه ولوعه بالفلسفة عقبة في سبيل تحقيق  
مطامعه السياسية (١) .

وكان ابن أبي عامر واسع الحيلة بعيد النظر . ولكي يأمن جانب جنده من العرب والصقالبة  
والأسبان ، اتخذ له جنداً من المرتزقة من المغرب ونصارى الشمال ، واصطنعهم وأدر الأرزاق عليهم ،  
فأحبوه وأخلصوا له ، حتى لقد قبيل لأنه غزا أكثر من خمسين غزوة . ولا غرو فقد استولى على  
ليون وهدم قلاعها ، وقهر برشلونة وجعل كنيسة شانتيه باق St. Jacob كعبة المسيحيين في غليسية  
في ذلك الحين أمراً بعد عين .

ويقول المقرئ (٢) إن هذه الكنيسة كانت أعظم مشاهد النصارى الكاثنة ببلاد الأندلس وما  
يتصل بها من الأرض الكبيرة (يعني فرنسا) . وكانت كنيسة عندهم بمنزلة الكعبة عندنا ، وللكعبة  
المثل الأعلى ، فيها يحلفون وإلها يحجون من أقصى بلاد رومة وما وراءها ، ويزعمون أن القبر المزور

(١) Dozy : The Moslems in Spain, pp. 490-1, (١)

(٢) نفع الطيب ج ١ ص ١٩٦ - ١٩٧ .

فيها قبر ياقب الحواري أحد الاثني عشر . وكان أخصمهم بعيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام .  
وهم يسمونه أخاه للزومه إياه . وياقب بلسانهم يعقوب ، وكان أسقفاً ببيت المقدس ، فجعل يستقرى  
الأرضين داعياً لمن فيها ، حتى انتهى إلى هذه القاصية ، ثم عاد إلى أرض الشام فات بها ، وله مائة  
وعشرون سنة شمسية ، فاحتمل أصحابه رمته فدفنوها بهذه الكنيسة التي كانت أقصى أثره . ولم  
يطمع أحد من ملوك الإسلام في قصرها ولا الوصول إليها لصعوبة مدخلها وخشونة مكائنها وبعد  
شقتها . فخرج المنصور إليها من قرطبة غازياً بالصائفة يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة  
سبع وثمانين وثلثمائة ، وهي غزوته الثامنة والأربعون ... ثم انتهوا إلى موضع من مشاهد ياقب صاحب  
القبر ... وكان النزول بعده على مدينة شانت ياقب البائسة ، وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من  
شعبان ، فوجدها المسلمون خالية من أهلها ، فغاز المسلمون غنائمها وهدموا مصانعها وأسوارها  
وكنيستها ، وغفوا آثارها ، وكل المنصور بقبر ياقب من يحفظه ويدفع الأذى عنه .

ولم يلبث ابن أبي عامر أن كفى أمر غالب القائد بزواجه من ابنته ، ومات غالب ، بعد ذلك في  
إحدى الغزوات . وقد صمم ابن أبي عامر على إنزال العقاب بأهالي ليون لمساعدة منافسه غالب ، وحاصر  
زامورة ( ٣٧١ هـ = ٩٨١ م ) ، وأشعل النار حولها ، وقتل أربعة آلاف من النصارى . ودخل راميرو  
الثالث ، ولم يكن قد تجاوز العشرين من عمره ، في حلف مع غرسية ، وكونت قسطيلية ، وملك نافار ،  
ولكن الهزيمة حلت بهم ، ثم استأنف ابن أبي عامر السير إلى ليون . ولما رأى أن الهزيمة حلت بجنده ،  
خلع عمامته وسار نحو العدو ، ولحق به قواده وجنده الذين ثارت حماسهم ، وطاردوا العدو إلى أسوار  
ليون ، وكادوا يستولون على المدينة لولا أن حال بينهم سقوط الثلوج . وعاد ابن أبي عامر إلى قرطبة  
محملاً بالغنائم والأسلاب ، ولقب من ذلك الحين بذلك اللقب الذي عرف به فيما بعد وهو المنصور بالله .  
وأصبح صاحب السلطان المطلق والنفوذ الذي لا يحد (١) .

ويقول ستانلي لينبول (٢) إن ليون والممالك التابعة لها خضعت للمنصور ، وأدت الإناوات إلى  
قرطبة . فقد تكررت هزائم قشتالة ، وبرشلونة ، ونافار ، وشانت ياقب ، واستولى المنصور على ليون  
وبملونة وبرشلونة ، وشانت ياقب . وحمل مرة ملك نافار على أن يجثو أمامه ذليلاً على ركبته ، لأن  
الوزير . وهو لا يتجاوز عن شيء ، علم أن امرأة مسلمة وقعت أسيرة في مملكته ، فأطلقت في الحال  
مع كثير من ضروب الذلة والاعتذار .

وقد ذكر المراكشي (٣) أنه بلغ من شدة ولوع ابن أبي عامر بالغزو ، أنه زبما خرج إلى المصلى  
يوم العيد فيعزم على الحرب وقت الصلاة ، فلا يعود إلى قصره ، بل يخرج من فوره إلى الجهاد ،  
فتنبه عساكره حتى نيفت غزواته على الحسين غزوة ، ذكرها أبو مروان بن حيان في كتابه الذي

(١) Dozy : The Moslems in Spain, pp. 497-8

(٢) The Moors in Spain, pp. 163-5. ، ترجمة على الجارم من ١٤٨ .

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب من ٢٤ .



سماه والمآثر العامرية ، واستقصاها كلها بأوقاتها ، وذكر آثاره فيها ، وفتح فتوحا كثيرة ، ووصل إلى معاقل قد كانت امتنعت على من قبله ، وملا الأندلس غنائم وسبيا من بنات الروم وأولادهم ونسائهم .

وكان ابن أبي عامر محباً للعلوم مشغولاً بالأدب مشجعاً للعلماء والأدباء . وقد زحرت بلاد الأندلس في الفترة التي تقلد فيها الحجابة بطائفة من مشهورى العلماء والأدباء والشعراء ، نخص بالذكر منهم أبا العلاء صاعد بن الحسن ، الذي وفد على الأندلس سنة ٣٨٠ هـ ، فأكرمه ابن أبي عامر وأدر عليه الأرزاق لما اشتهر به من التعمق في اللغة والنحو والأدب والشعر والسير ، وما عرف به من التفكك والظرف . وقد ألف أبو العلاء هذا للحاجب المنصور كتباً أجازها عليها ، كما أنشد للظفر بن المنصور ابن أبي عامر ، الذي ولي الحجابة بعد أبيه ، قصائد رائعة . وكان لابن أبي عامر مجلس في كل أسبوع يجتمع فيه العلماء للبتناظرة في حضرته (١) . وقد قيل إنه كتب يده مصحفاً كان يحمله معه في أسفاره وغزواته ويترك به (٢) .

ومن آثار ابن أبي عامر بناء مدينة الزاهرة ، على نهر الوادي الكبير شرقي قرطبة ؛ واستغرق بناؤها سنتين . ولم تلبث أن أخذت في الاتساع حتى اتصلت أرباضها بمدينة قرطبة نفسها ، كما بنى قنطرة قرطبة ، وبذل في سبيل بنائها ١٤٠ ألف دينار .

#### صفات المنصور الحاجب :

اشتهر المنصور بن أبي عامر بالذكاء والكرم والحزم والعدل والصبر على المسكاره ، وغيرها من الصفات التي جعلته بحق أعظم حكام الأندلس في عهد هشام الثاني المنتصر . ولا عجب فقد أصبح المنصور صاحب الأمر والنهي في بلاد الأندلس في ذلك الوقت .

ومما يدل على عدله وتشده في الحق وإنصاف الضعيف من القوى ، حتى ولو كان من رجال الدولة أو الأمراء أو غيرهم من الذين نالوا حظوة عنده ، قصة بورق كبير الفتيان في القصر مع التاجر المغربي . قال المقرئ (٣) : « فإنهما تنازعا في خصومة توجهت فيها اليمين على الفتى المذكور (يعنى بورق) ، وهو يومئذ أكبر خدام القصر ، وإليه أمر داره وحجره ، فدافع الحاكم ، وظن أن جاهه يمنع من إحلافه ، فصرخ التاجر بالمنصور في طريقه إلى الجامع متظلباً من الفتى ، فوكل به في الوقت من حمله إلى الحاكم ، فأنصفه منه ، وسخط عليه المنصور ، وقبض نعمته منه ونفاه . »

وكذلك اشتهر ابن أبي عامر بالفطنة والذكاء والقدرة على إظهار خفايا الأمور . ذكروا أن

(١) المراكشي ص ١٩ - ٢٤ .

(٢) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٩٣ ، ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الرابع من المجلد الأول ص ٢ - ٤٠ حيث نجد لأبي العلاء صاعد ترجمة وافية .

(٣) نفع الطيب ج ١ ص ١٩٤ .

رجلا جوهريا من تجار المشرق قصد المنصور من مدينة عدن بجوهر كثير وأحجار نفيسة . فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنته ، ودفع إلى التاجر الجوهري صرته ، وكانت قطعة يمانية ، فأخذ التاجر في انصرافه طريق الرملة على شط النهر . فلما توسطها واليوم قانظ ، وعرقه منصب ، دعته نفسه إلى التبرد في النهر ، فوضع ثيابه وتلك الصرة على الشط . فرت حداة فاختطفت الصرة تحسبها لحماً ، وصاعدت في الأفق بها ذاهية . فقطعت الأفق الذي تنظر إليه عين التاجر ، فقامت قيامته وعلم أنه لا يقدر أن يستدفع ذلك بحيلة . فأسرت الحزن في نفسه ، ولحقه لأجل ذلك علة اضطرب فيها ، وحضر الدفع إلى التجار ، فحضر الرجل لذلك بنفسه ، فاستبان للمنصور ما بالرجل من المهانة والكتابة ووقد ما كان عنده من النشاط وشدة العارضة . فسأله المنصور عن شأنه ، فأعلمه بقصته ، فقال له : هلا أتيت إلينا بحدثنان وقوع الأمر ، فكنا نستظهر على الحيلة ؟ فهل هديت إلى الناحية التي أخذ الطائر إليها ؟ قال : مرّ مشرقاً على سمت هذا الجبل الذي يلي قصرك ، يعني الرملة . فدعا المنصور شرطيه الخاص به ، فقال له جئني بمشيخة أهل الرملة الساعة . فحضر وجاء بهم سريعاً ، فأمرهم بالبحث عن غير حال الإقلال منهم سريعاً ، وانتقل عن الإضافة دون تدرج . فتناظروا في ذلك ثم قالوا : يا مولانا ! ما نعلم إلا رجلاً من ضعفاتنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم ، ويتناولون السبق بأقدامهم عجزاً عن شراء دابة ، فابتاع اليوم دابة ، واكتسى هو وولده كسوة متوسطة ، فأمر بإحضاره من الغد ، وأمر التاجر بالدخول إلى الباب ، فحضر الرجل بعينه بين يدي المنصور ، فاستدناه والتاجر حاضر ، وقال له : سبب ضاع منا وسقط إليك ، ما فعلت به ؟ قال : هوذا يا مولاي ، وضرب يده إلى حجة سراويله ، فأخرج الصرة بعينها ، فصاح التاجر طرباً ، وكاد يطير فرحاً ، فقال له المنصور : صف لي حديثها ، فقال : بينا أنا أعمل في جناني تحت نخلة ، إذ سقطت أمامي ، فأخذتها ، وراقني منظرها ، فقلت إن الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار ، فاجتزت بها ، ودعنتي فاقني إلى أخذ عشرة مثاقيل عيوناً كانت معها مصرورة ، وقلت : أقل ما يكون في كرم مولاي أن يسمح لي بها . فأعجب المنصور ما كان منه وقال للتاجر : خذ صرتك وانظرها ، واصدقني عن عددها ، ففعل ، وقال : وحق رأسك يا مولاي ما ضاع منها شيء سوى الدنانير التي ذكرها ، وقد وهبتها له ، فقال المنصور : نحن أولى بذلك منك ، ولا تنغص عليك فرحك . ولولا جمعه بين الإصرار والإقرار لكان ثوابه موفوراً عليه . ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضاً من دنانيره ، وللجناني بعشرة دنانير ثواباً ، لتأنيبه عن فساد ما وقع بيده ، وقال : لو بدأنا بالاعتراف قبل البحث لأوسعناه جزاءً . فأخذ التاجر في الثناء على المنصور ، وقد عاوده نشاطه وقال : والله لأبئن في الأقطار عظيم مالك ، ولأبين أنك تملك طير أعمالك ، كما تملك أنفسها ، فلا تعصم منك ولا تمنع ولا تؤذي جارك ، فقال المنصور : أقصد في قولك بغفر الله لك ، فعجب من تطفن المنصور في أمره ، وحيلته في تفريج كربته ، (١) .

(١) القرى : نفع الطيب ج ١ ص ١٩٥ - ١٩٦ .

وصفوة القول أن المنصور بن أبي عامر كسب محبة الشعب ورجال الدين والجند بعلمه وبعد نظره وحسن سياسته . ولم يكن للخليفة هشام المؤيد من الصفات ما يؤهله لأن يكون من عطاء الرجال ؛ فقد انزوى في قصره ، وقضى أوقاته في اللهو . وكانت لابن أبي عامر مطامع خفية كما تقدم ، فحجر على هشام ومنع الناس من مقابلته حتى أصبح في الواقع سجيناً ، ولم يبق له من مركز الخلافة إلا الاسم فقط (١) . وقتل ابن أبي عامر كل من وقف في سبيله من الأمراء وزعماء القبائل والقواد ، مدعياً أنه إنما كان يفعل ذلك لحماية الخليفة ، كما شرده حرس الخليفة من الصقالبة . وأنشأ جيشاً جديداً من المرتزقة من قبائل البربر ومن المسيحيين ، وقدم البربر على العرب وأقصى هؤلاء عن مناصب الدولة .

تولى ابن أبي عامر الحجابة نحواً من سبع وعشرين سنة ، كانت حافلة بجلال الأعمال مليئة بالغزوات . وقد توفي في آخر غزواته ببلاد مسيحي الشمال ، وذلك في سنة ٣٩٣ هـ ، وحمل في سريره على أعناق الرجال ، وعسكره يحُف به إلى أن وصل إلى مدينة سالم . وقد أحس نصارى الشمال بقوة شكيمته وشدة بأسه ، ففرحوا بموته فرحاً عظيماً إذ كانوا يعتبرونه حامى الإسلام .

#### الأندلس بعد وفاة المنصور الحاجب :

ولما مات ابن أبي عامر سار ابنه أبو مروان عبد الملك الذي آلت إليه الحجابة وتلقب «المظفر» ، سار سيرة أبيه في الاستئثار بالسلطة دون الخليفة هشام الثاني المؤيد . وكانت أيامه — كما يقول المراكشي (٢) — أعياداً في الخصب والأمان ، دامت سبع سنين إلى أن مات . وثار الفتن بعده ، ثم تقلد ما كان يتقلده من بعده أخوه عبد الرحمن وتلقب بالناصر . تخلص ، وتسمى ولي العهد . ولم يزل مضطرب الأمور مدة أربعة أشهر ، إلى أن قام عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر لثمان عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ ، فخلع هشاماً المؤيد ، وأسلبت الجيوش عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر ، فقتل وصلب .

تلقب محمد بن هشام ، الذي استبد بالأمور بعد أن خلع الحاجب عبد الرحمن بن أبي عامر المنصور بلقب «المهدى» ، وتولى أمور قرطبة إلى أن ثار عليه هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، وأخوه أبو بكر ، بمساعدة البربر . فخار بهم المهدى ، وأمر هذين الأخوين ، وضرب أعناقهما ، ولحق سليمان ابن أخيهما الحكم بجنود البربر ، وقد اجتمعوا بظاهر قرطبة ، وتأمروا فبايعوه ولقبوه «المستعين بالله» ونهضوا به إلى نغر طليطلة ، (٣) .

وقد استنجد سليمان المستعين بالمسيحيين ، وساروا مع البربر إلى قرطبة ، والتقوا بجيوش محمد بن هشام المهدى ، الذي حلت به الهزيمة ، ولحق بطليطلة ، ودخل المستعين قرطبة سنة ٤٠٠ هـ . على أن

(١) Dozy: The Moslems in Spain, p. 492.

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٥ ، ٢٦

(٣) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢٠٢

المهدى استنجد بالمسيحيين ، وتوجه إلى قرطبة ، وهزم المستعين ، واضطره إلى الخروج منها مع جنده من البربر ، ففرقوا في البلاد وتوجهوا نحو الجزيرة الخضراء . ولم يكتب المهدى بذلك ، بل تتبع المستعين مع أعوانه من المسيحيين ؛ ولكن الهزيمة حلت به ، وتبعهم المستعين بدوره إلى قرطبة . وهنا لجأ المهدى إلى الحيلة ، فأخرج هشاماً المؤيد من سجنه ، وبايعه ، وقام بحجابه . ولكن الأهل لم يلبثوا أن ثاروا عليه وقتلوه . ثم دخل المستعين قرطبة في سنة ٤٠٣ هـ وقتل هشام المؤيد سرا ، وجلس على ذلك العرش المتداعي نحو أربع سنين (٤٠٣ - ٤٠٧ هـ) ، استقل فيها بالأطراف كثير من الأمراء من أمثال باديس بن حيوس في غرناطة ، والبرزالي في قرمونة ، واليقرني في رندة ، وهرزون في شريش . واقترب شمل الجاعة بالأندلس ، وصار الملك طوائف في آخرين من أهل الدولة ، مثل ابن عباد بإشبيلية ، وابن الأفضس ببطليوس ، وابن ذى النون بطليطة ، وابن أبي عامر ببلنسية ، وابن هود بسرقسطة ، ومجاهد العامري ببادية الجزائر .

### بنو حمود<sup>(١)</sup>

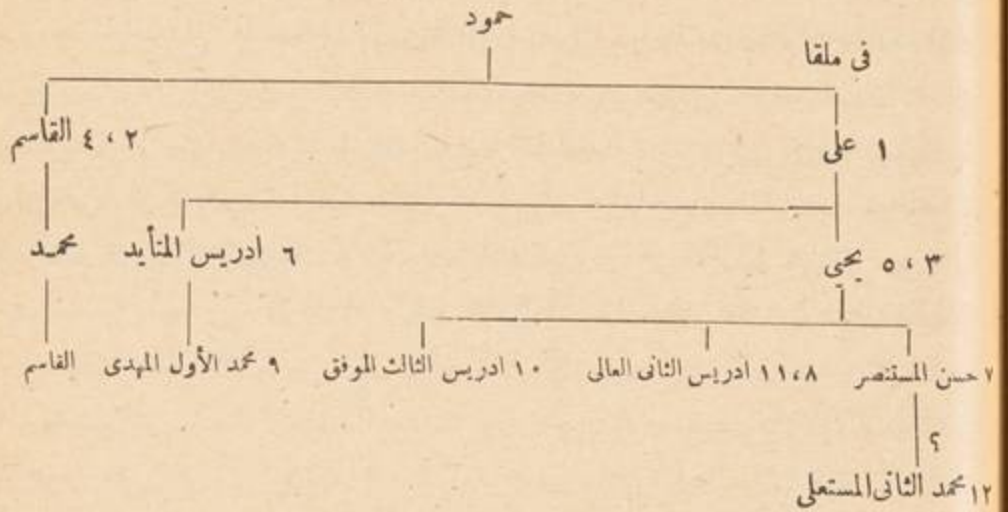
( في ملقا )

٤٠٧ - ٤٤٩ هـ

هجري	ميلادي	هجري	ميلادي
٤٣١	١٠٣٩	٤٠٧	١٠١٦ ( ٧ ) حسن المستنصر
٤٣٤	١٠٤٢	٤٠٨	١٠١٨ ( ٨ ) إدريس الثاني (العالى)
٤٣٨	١٠٤٦	٤١٢	١٠٢١ ( ٩ ) محمد الأول المهدى
٤٤٤	١٠٥٢	٤١٣	١٠٢٢ ( ١٠ ) إدريس الثالث الموفق
٤٤٥	١٠٥٣	٤١٦	١٠٢٥ ( ١١ ) إدريس الثاني (العالى)
		٤٢٧	١٠٣٥ ( ) للمرة الثانية
٤٤٦	١٠٥٤		( ١٢ ) محمد الثاني المستعلي

[ المرابطون ]

تسلسل نسب بني حمود



١ - علي بن حمود

ملك بنو حمود قرطبة سنة ٤٠٧ هـ ، وقتلوا سليمان المستعين ، وأزالوا ملك الأمويين بالأندلس ، وحكموا هذه البلاد نحو من أربعين سنة تخللتها صحوات عاد فيها الملك إلى بعض أفراد البيت الأموي . ولكن كيف يقبض هؤلاء الأمويون على العرش بأيديهم الضعيفة ، في ذلك الوقت الذي قامت فيه الفتن والثورات ، واشتدت منافسة الزعماء من البربر والصقالبة والعرب والأسبان ؟

ففي سنة ٤٠٧ هـ ولي بلاد الأندلس علي بن حمود بن أبي العيش الذي ينتمي إلى إدريس بن عبد الله العلوي مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب . وكان علي بن حمود يلي مدينة سبتة ، وبلى أخوه القاسم بن حمود الجزيرة الخضراء جنوبي الأندلس . وقد دعى خيران ، وكان من البربر الذين يميلون إلى هشام المؤيد ، الناس إلى الخروج على سليمان المستعين ، وبث الدعوة لعلي بن حمود ، وأطمعه في ملك الأندلس . ولم يلبث أن قوى أمر خيران ، وسار ابن حمود نحو قرطبة ودخلها في سنة ٤٠٧ هـ ، وباعه الناس على طاعة هشام المؤيد - وكانوا يظنون أنه لا يزال علي قيد الحياة - وانهمز سليمان المستعين ومن معه من البربر ، وأسر ، وسبق إلى ابن حمود مع أخيه وأبيه الخا كم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، وقتل سليمان ، ودعى لابن حمود على منابر قرطبة ، ولقب بالمتوكل على الله (٢) . وقد بحث دوزي مصير هشام المؤيد فقال : إن علي بن حمود لما دخل مدينة قرطبة ، كان أول ما اهتم

(١) القرى ج ١ ص ٢٠٣ ، ابن الأثير ج ٩ ص ١٠٠ - ١٠١

به خيران والصقالية الآخرون أن يبحثوا عن هشام . وارتاحت نفس ابن حمود لأنهم لم يعثروا على أثر لهشام ، وسأل سليمان المستعين في مجلس كان فيه الوزير ورجال الدين عما حدث لهشام ، فأجاب بأنه قتل ، فطلب إليه ابن حمود أن يدلّه على قبره . ولما عيّن مكان القبر ، فُتّح ، وسأل ابن حمود أحد خدام هشام : هل هذه الجثة التي وجدت في قبر مولاه هي جثة هشام ؟ فأكد الخادم ، الذي كان يعرف أن هشاما لا يزال حيا ، القول بوفاة هشام خوفا من بطش ابن حمود ، واستدل على أن الجثة التي في القبر جثته بسن له سوداء كان يتميز بها ذلك الخليفة . وأقر بعضهم هذه الشهادة تقريبا إلى ابن حمود ، أو خوفا من إثارة حنقه عليهم وبتشبه بهم . ومن ثم أصبح الصقالية أمام الأمر الواقع ، وهو الاعتراف بأن حاكمهم الشرعي قد مات ، وبخلافة علي بن حمود . ثم أمر علي بن حمود بقتل سليمان المستعين وأخيه وأبيه . وبينما اقتاد الجند الحاكم أبا سليمان ليقتلوه قال ابن حمود : إذا لقد قتلت هشاما ؟ فأجاب ذلك الرجل التقى الذي قضى أيامه في العبادة ولم يشترك في الحوادث السياسية : لا والله شهيداً على ما أقول ، إننا لم نقتل هشاما ، وإنه لا يزال حيا . وقبل أن يتم كلماته هذه ، أشار ابن حمود ، الذي خشى أن ينكشف أمره ، إلى سيفه فهوى بالسيف على سليمان فقتله . ثم دفنت جثة هشام الثاني المؤيد من جديد بعد أن احتفل به الاحتفال اللائق بمثله من الملوك . ويقول دوزي إن هشاما لم يظهر أبدا رغم ظهور ذلك الدعي الذي كان يشبهه تمام الشبه ، وادعى ملك إشبيلية ، واعترف به أميرها محمد بن عباد ، لأغراض سياسية غايتها اتخاذ ذلك ذريعة لاستنثاره بالسلطان هناك ومناوأة خصومه . ولكن لم يبق دليل على أن هشاما قتل بيد سليمان المستعين أو مات ميتة طبيعية في أثناء حكمه . وكان أشياع الأمويين في الأندلس الذين عرفوا هشاما ، يصرحون بأن هذه الجثة التي ووريت في التراب من جديد لم تكن جثة هشام . وقد يكون اعتراف سليمان المستعين لعلي بن حمود بأن هشاما لا يزال حيا وسيلة لتخليصه من الموت ، أو أن ابن حمود قد وعده أن يكون هذا الاعتراف مؤديا إلى نجاته . أضف إلى ذلك أن سليمان لم يكن ميالا بطبعه لسفك الدماء . ولو أن هشاما مات حقيقة في عهده ، لأمر بعرض جثته على أهل قرطبة كما جرت العادة بذلك ، وكما كانت تقضى مصلحته الخاصة ، ليستميل إليه قلوب الصقالية الذين بذل ابن حمود قصارى جهده في اعترافهم بسلطانه . ولم يكن ابن حمود يجد وسيلة أحسن من هذه لو أنهم تحقّقوا موت هشام . أضف إلى ذلك شهادة الحاكم أبي سليمان ، الذي لم يرض عن تصريح ابنه سليمان ، وأشهد الله على أن هشاما كان لا يزال على قيد الحياة . فهل كذب هذا الرجل الورع في آخر ساعاته من الدنيا وهو مقبل على الوقوف بين يدي أحكم الحاكمين ؟ ويميل دوزي إلى تصديق أقوال نساء قصر هشام وخصيانه ، الذين أقرّوا بأنه جاهد للفرار من قصره في عهد سليمان ، وأنه بعد أن استخفى في قرطبة وعاش كما يعيش الصانع العاديون ، هرب إلى آسيا الصغرى . فهل تم له ما أراد من ذلك بإغضاء سليمان عنه ؟ وهل أقسم هشام بأن لا يزجج سليمان بعد ذلك ؟ وهل اتصل أحدهما بالآخر بالمراسلة ؟ هذه أسئلة توحى بها إجابة الحاكم أبي القاسم المستعين ساعة قتله ، ولكنها مجرد احتمالات لا يقين معها . ولا يبعد أن يكون

هشام ، الذى قلق من سماع اسمه تردده الإشاعات ويستغله ذوو الأاطاع ، قد رأى أن ياجأ إلى مكان بعيد فى إحدى جهات آسيا المجهولة ، حيث يقضى البقية الباقية من حياته المليئة بالآلام والأحزان فى دعة واطمئنان . وقيل أيضاً إنه آثر أن يقضى بقية أيامه فى التعمد بالمدينة ، بعيداً عن ذلك العرش الذى التفت حوله الطامعون ، وكثرت عنده الفتن والمنافسات (١) .

وقد أفلت من هذه الفتنة عبد الرحمن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ، وترك قرطبة ، واستخفى بجبل جيان ، فبايعه خيران ( ولقبه المرتضى ) . وكان قد خرج على بن حمود ، وتبعه أمراء سرقسطة وشاطبة وبلنسية وغيرها ، ويمموا غرناطة . ولما وصلوا إليها أرسل عبد الرحمن المرتضى إلى زاوى ، وكان قد بايع لسليمان المستعين بالخلافة ، كتاباً رقيقاً يدعو فيه إلى مبايعته . ولما قرأ زاوى هذا الكتاب ، أجاب بسورة الكافرين (٢) ( بسم الله الرحمن الرحيم ، قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولى دين ) (٣) .

### ٢ - خلفاء على بن حمود

ولم يلبث على بن حمود أن قتل فى السنة التالية فى أثناء محاربه أهل جيان المشايخين للأمويين . وقد قيل فى سبب قتله إن ثلاثة من الصقالبة الذين تمتعوا بعطفه هم الذين قتلوه . ولما سئلوا عن الأسباب التى حملتهم على ارتكاب جريمتهم ، أجابوا بأنهم لا يحملون لعلى ضعيفاً أو حقداً ، وإنما قتلوه غيرة للوطن وتخليصه من ذلك الحاكم الذى أصبح لا يحتمل طغيانه وظلمه وجبروته ، كما أقروا أنهم لم يقوموا بهذا العمل بتحريض خيران أو أهالى قرطبة (٤) . ثم تولى القاسم بن حمود ملك قرطبة ، ولقب بالمأمون . ولكن ملكه لم يطل ، إذ خرج عليه ابن أخيه يحيى بن على بن حمود أمير سبته فى سنة ٤١٢ هـ (٥) ، وتلقب بالمعتلى . وفر القاسم إلى إشبيلية حيث بايعه القاضى أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد ، وانضوى تحت لوائه كثير من البربر ، وسار بهم إلى قرطبة ، فلكمها فى السنة التالية وبقي بها ست سنين . ولم يلبث يحيى أن سار إلى قرطبة ، وأسر القاسم وحبسه ، فظل فى حبسه إلى أن مات يحيى ، وملك أخوه إدريس ، فقتله ( سنة ٤٣١ هـ ) وهو فى الثمانين من عمره (٦) . ولما انهزم القاسم بن حمود وأنصاره من البربر ، أجمع أهل قرطبة على إعادة الخلافة إلى بنى أمية ، فبايعوا عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر فى ١٣ ربيعان سنة ٤١٤ هـ ،

(١) Dozy : The Moslems in Spain, pp. 565- 6.

(٢) Dozy: Ibid, p. 568.

(٣) سورة رقم ١٠٩ .

(٤) Dozy Ibid. , p.586 . انظر أيضاً المقرئ : فتح الطيب ج ١ ص ٢٠٤

(٥) ابن الأثير ج ٩ ص ١٠٢ ، ١٠٣

(٦) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٣٤

ولقب المستظهر بالله ، ، لكنه لم يبق في الخلافة أكثر من شهر وسبعة عشر يوماً ، ثم قتل ،  
فبايع الناس محمد بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر ، ويكنى أبا عبد الرحمن الأموي ( ذو القعدة  
سنة ٤١٤ هـ ) ، ولقبوه بالمستكني بالله ، . ولم يهتم الخليفة الجديد إلا بإشباع بطنه وشهوته ،  
ولم يبق في الخلافة غير ستة عشر شهراً حيث ثار عليه أهل قرطبة في شهر ربيع الأول سنة  
٤١٦ هـ وخلعوه .

ولما توفي المستكني عاد أهل قرطبة إلى دعوة الحموديين ، وبايعوا يحيى بن علي بن حمود (المعتلى بالله)  
للرة الثانية ، وخطب له على منابر قرطبة سنة ٤١٦ هـ . ولكنه آثر البقاء في مالقة ، وولى قرطبة  
عبد الرحمن بن عطف اليفرنى . وبقى يحيى بن حمود خليفة على قرطبة إلى أن أبطلت الخطبة للحموديين  
في سنة ٤١٧ هـ ، وأعيدت إلى الأمويين ، وبايع الناس أبا بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبيد  
الرحمن الناصر ولقبوه المعتد بالله ، ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٤١٨ هـ ، ودخل قرطبة في  
شهر ذى الحجة سنة ٤٢٠ هـ . ولكن عهده امتاز بكثرة الفتن والاضطرابات ، ولم يلبث أن خلع  
في شهر ذى الحجة سنة ٤٢٢ هـ . وقد ذكر ابن الأثير (١) أن هذا الخليفة الأموي كان يساعد البربر  
ويحسن إليهم ، وفتنر عنه أهل قرطبة فوضعوا عليه من خلعه .

وذكر ابن الأثير (٢) أيضاً أنه بعد أن قطعت الخطبة ليحيى بن علي بن حمود للرة الثانية ، وبويع  
هشام الثالث المعتد بالله ( ٤١٨ - ٤٢٢ هـ ) ، دسار يحيى إلى قرمونة فأقام بها محاصراً لإشبيلية  
طامعاً في أخذها ، فأتاه الخبر يوماً أن خيلاً لأهل لإشبيلية قد أخرجها القاضي أبو القاسم بن عباد إلى  
نواحي قرمونة ، فركب إليها ولقيهم وقد كمنوا له ، فلم يكن بأسرع من أن قتل ، وذلك في المحرم  
سنة سبع وعشرين وأربعمائة . وقد بويع بالخلافة أخوه إدريس بن علي ( ٤٢٧ - ٤٣١ هـ )  
صاحب سبتة وطنجة ، وسار إدريس إلى مالقة بعد أن أناب عنه ابن أخيه حسن بن يحيى في حكم  
سبتة . وتلقب إدريس والمتأيد بالله ، ، وبقى في الخلافة إلى سنة ٤٣١ هـ ( وقيل سنة ٤٣٠ هـ ) .  
ولسكن القاضي أبا القاسم بن عباد ناوياً سلطان الحموديين ، فأرسل ابنه إسماعيل لانتزاع هذه البلاد  
من أيديهم ، فاستولى على قرمونة وأشبونة وأستجة ، وقتل ابن عباد وأرسل رأسه إلى إدريس الذي لم  
يلبث أن مات بعد يومين ، فلك بعده ابنه محمد الأول الجزيرة الخضراء ولم يلقب نفسه بلقب خليفة .  
وآلت الخلافة بعده إلى حسن بن يحيى بن علي بن حمود الذي لقب بالمستنصر بالله ، ، ولكنه لم يلبث  
أن مات في سنة ٤٣٤ هـ . وقيل إن زوجته ابنة عمه إدريس سمته انتقاماً لقتل أخيها يحيى . وأخرج  
البربر إدريس الثاني بن يحيى وبايعوه بالخلافة ولقبوه العالى ، . وقد اشتهر بالتصدق على الفقراء  
حتى كان يتصدق بخمسمائة دينار في كل أسبوع ، وسمح للبعدين بالعودة إلى بلادهم ورد إليهم  
ممتلكاتهم . كما اشتهر إدريس بالأدب وأجاد الشعر . غير أنه يؤخذ عليه مصاحبة الأشرار الذين



أغدق عليهم ومنحهم كثيرا من الحصون ، وسلم إليهم وزيره موسى بن عفان فقتلوه ، كما اعتقل محمد والحسن ابني عمه إدريس الأول بن علي . ولما ظهر سوء سياسته ، خرج عليه أنصاره وبايعوا ابن عمه محمدا الأول بن إدريس بن علي ( ٤٣٨ - ٤٤٤ هـ ) ولقبوه « المهدي » . وقد عرف بالشجاعة والإقدام فهابه البربر وخافوه ، وعملوا على التخلص منه . ولذلك كتبوا إلى إدريس بن يحيى ( ٤٤٤ - ٤٤٥ هـ ) ثم بايعوه بالخلافة ولقبوه « الموفق » ، وخطب له بسبته وطنجة . وقد ذكر ابن الأثير (١) أن الأمور اضطربت في أواخر أيام بني حمود ، حتى إنهم لقبوا أربعة من أفراد البيت الحمودي بالخلافة في وقت واحد وفي مكان ضيق من الأرض ، فقال : « ثم إن المهدي رأى من أخيه السامى ما أنكره ، فنفاه عنه ، فسار إلى العدو إلى جبال « غمارة » وأهلها ينقادون للعلويين ويعظمونهم ، فبايعوه . ثم إن البربر خاطبوا محمد بن القاسم بالجزيرة ، واجتمعوا إليه وبايعوه بالخلافة ؛ وتسمى بالمهدي أيضاً . فصار الأمر في غاية الأخلوقة والفضيحة : أربعة كلهم يسمى أمير المؤمنين في رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخا . فرجعت البرابر عنه ، وعاد إلى الجزيرة ، فمات بعد أيام ؛ فولى الجزيرة ابنه القاسم ولم يتسم بالخلافة ، وبقي محمد بن إدريس بمالقة إلى أن مات سنة خمس وأربعين ( وأربعمائة ) (٢) . وكان إدريس بن يحيى المعروف بالعالي عند بني يفرن بتاكرنا ؛ فلبس توفى محمد ابن إدريس ( الأول المتأيد ) بن علي ، قصد إدريس بن يحيى مالقة ، فلحقها ، ثم انتقلت إلى صنهاجة .

بويح محمد بن إدريس الثاني العالي بالخلافة وتلقب « المستعلي » ، ( سنة ٤٤٦ هـ ) ، غير أنه لم يكن له من الأمر شيء . بل امتازت الثلاث السنين التي قضاها في الحكم بقيام الفتن والثورات . وكان محمد آخر من ولي الحكم من بني حمود ، فقد تغلب باديس بن حيوس على مالقة في سنة ٤٤٩ هـ ، وخلع محمدا ، الذي أرغم على المسير إلى المرية ، ثم بويح بالخلافة ببلاد المغرب سنة ٤٥٦ هـ حيث بقي بها إلى أن توفي سنة ٤٦٠ هـ (٣) .

### ٣- زوال دولة بني حمود

ويقول المقرئ (٤) : « وانقرضت دولة الأشراف الحموديين من الأندلس ، بعد أن كانوا يدعون الخلافة . . . وانقطعت الدولة الأموية من الأرض ، وانتثر سلك الخلافة بالمغرب ، وقام الطوائف بعد انقراض الخلافة ، وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالي بالجهات ،

(١) ج ٩ ص ١٠٥

(٢) هذا يختلف مع ما ذكره المقرئ (فتح الطيب ج ١ ص ٢٠٦) من أنه مات سنة ٤٤٤ هـ ، ونقله عنه ستانلي ليبول .

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٠٦ - ٢٠٨

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٠٦

واقسموا خطتها ، وتغلب بعض على بعض . واستقل أخيراً بأمرها منهم ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم ، ولأذوا بالجزى للطاغية أن يظهر عليهم أو يبتزهم ملكهم . وأقاموا على ذلك برهة من الزمان ، حتى قطع عليهم البحر ملك العدو وصاحب مراكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني ، فغلبهم ، وأخلى منهم الأرض . فن أشهرهم بنو عباد ملوك إشبيلية في غرب الأندلس الذين منهم المعتمد بن عباد الشهير الذكر بالمغرب والمشرق وفي الذخيرة والقلائد من أخباره ما هو كاف ؛ ومنهم بنو جهنور ، كانوا بقرطبة في صورة الوزارة حتى استولى عليهم المعتمد بن عباد وأخذ قرطبة وجعل عليها ولده ، ثم كانت له وعليه حروب وخطوب ، وفرق أبناءه على قواعد الملك وأنزلهم بها ، واستفحل أمره بغرب الأندلس ، وعلت يده على من هنالك من ملوك الطوائف مثل ابن باديس بغرناطة ، وابن الأفطس بيطليوس ، وابن صمادح بالمربة وغيرهم ، فكانوا يخطبون سله ، ويغنون في مرضاته ، وكلهم يدارون الطاغية ويتقونه بالجزى ، إلى أن ظهر يوسف بن تاشفين ( سنة ٤٤٨ هـ = ١٠٥٦ م ) ، واستفحل ملكه ، فتعلقت آمال الأندلس بإيعاته ، وضايقهم الطاغية في طلب الجزية ، فقتل المعتمد اليهودي الذي جاء في طلب الجزية للطاغية بسبب كلمة قالها آسفه بها (١) ، ثم أجاز البحر صريحاً إلى يوسف بن تاشفين ، فأجاز معه البحر ، والتقوا معه في الزلاقة ، فكانت الهزيمة المشهورة على النصراني ، ونصر الله تعالى الإسلام نصر الأكفاء له .

وقد أدى انقسام بلاد الأندلس إلى ضعف المسلمين ، ومهد السيل للإمارات المسيحية في الشمال للقيام في وجه أمراء العرب على أثر ما قام بينهم من التنافس على السلطان ، حتى بلغ من تنافسهم أن كان بعضهم يستعين بالمسيحيين على منافسيه . وبلغ الفونس الرابع حاكم قشتالة من القوة بحيث أرغم أمراء المسلمين المجاورين له على دفع الجزية .

وعلى الرغم من ذلك الانحلال الذي دب في جسم الدولة الأموية في الأندلس ، كان عصر ملوك الطوائف من أزهى العصور في العلوم والفنون والآداب . ولا غرو فقد نافس كل من إشبيلية وطليطلة ومالقة وبلنسية وغيرها من حواضر هذه الدويلات ، مدينة قرطبة بعد أن كانت وحدها مركزاً للعلوم والفنون في بلاد الأندلس .

الباب الخامس

الحركات السياسية والدينية

هذه  
وا  
مبا  
على  
هذه  
رق  
ج  
و  
و  
ال  
و  
ف  
و  
ال  
ا

نهر بيمر :

زخر العصر العباسي الثاني بكثير من الحركات السياسية والدينية التي كان لها أثر بعيد في تاريخ هذا العصر ؛ فقد قام الشيعة بحركات ثورية كان من أثرها انتزاع كثير من بلاد الدولة العباسية ، وانتشار المبادئ الشيعية ، وخاصة مبادئ الإسماعيلية أو السبعية ومبادئ الاثنا عشرية . فانتشرت مبادئ الإسماعيلية بين القرامطة في سواد الكوفة وفي البحرين ، وفي شمال العراق ، وفي بلاد اليمن على يد ابن حوشب وخلفائه من الصليحيين خاصة ؛ ولم تخل بلاد الفرس من دعاة الإسماعيلية في هذا العصر . وتكلفت جهود الإسماعيلية بقيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ثم في مصر ، وامتداد رقعتها إلى فلسطين والشام ، وإلى بلاد الحجاز وغيرها ، وخطب للفاطميين في الموصل وبغداد حينئذ من الدهر .

وظهر كذلك في هذا العصر كثير من الحركات السياسية والدينية على أيدي الخوارج والزيج . وعلى الرغم من أن العباسيين استطاعوا أن يقضوا على هذه الحركات ، إلا أنها شغلت الدولة العباسية وكلفتها كثيراً من الدماء والأموال . أضف إلى ذلك حركات المعتزلة الذين انتعش مذهبهم حينئذ من الدهر وتأثروا بالفلسفة الإغريقية كما تأثر بها إخوان الصفاء مؤلفو الرسائل الفلسفية المشهورة ، وذاع مذهب السنة بظهور أبي الحسن الأشعري ، وحجة الإسلام الغزالي ، وتطورت آراء المتصوفين ، فظهر منهم المعتدلون والغلاة على ما سيأتي .

## ١ - الاثنا عشرية

انضم في أواخر الدولة الأموية فريق كبير من الزيدية الذين كانوا قد اعتزلوا زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي ، إلى طائفة الإمامية من أنصار جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين . والإمام ، على مذهب إليه الإمامية ، يكتسب حقه في الإمامة بالوراثة عن علي بن أبي طالب باعتباره خليفة النبي شرعاً . ويكون الإمام وارثاً للنبي عن طريق ابنته فاطمة ، ويغلب في اختياره أن يكون أكبر أبناء أبيه سنأ . بيد أن خروج فريق من هذه الطائفة على هذه القاعدة بعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ قد أدى - على ما رأينا - إلى انقسام الشيعة الإمامية قسمين :

١ - الإمامية الموسوية : وقد أطلق عليهم فيما بعد الاثنا عشرية ، وكانوا يقولون بإمامة موسى الكاظم ، الابن الأصغر لجعفر الصادق . وهو عندهم الإمام السابع .

٢ - الإمامية الإسماعيلية : ويقولون بإمامة إسماعيل بن جعفر ، وكان أكبر أولاد أبيه . ومع أن وفاته كانت في حياة أبيه سنة ١٤٥ هـ ، حوّل أنصار هذا المذهب إمامة إسماعيل إلى ابنه محمد

المستور؛ وهو عندهم الإمام السابع. ومن ثم أطلق على هذه الطائفة اسم السبئية، تمييزاً عن طائفة الاثنا عشرية (١).

وفي شعبان سنة ٢٥٥ هـ (٨٦٨ م) ولد للحسن العسكري (٢)، وهو الإمام الحادي عشر عند الشيعة الإمامية، ولد سماه محمداً من أم ولد اسمها صقيل. ويقول بعض المؤرخين إن محمداً هذا من أم ولد اسمها نرجس، ويقول آخرون إنه من أم ولد اسمها سوسن. فلما توفي الحسن في سنة ٢٦٠ هـ كان ابنه محمد في الخامسة من عمره، فأصبح الإمام الثاني عشر عند طائفة الإمامية الموسوية، الذين عرفوا فيما بعد بطائفة الإمامية الاثنا عشرية. ويقال أن محمداً دخل سرداباً في مدينة سامرا وأمه تنظر إليه، ولكنه لم يعد، ولم يقف له أشياء على أثر منذ ذلك الحين.

ومن هنا تنسب إلى محمد الإمام الثاني عشر غيبتان: الغيبة الصغرى، وتبدأ بمولده في سنة ٢٥٥ هـ وتنتهي بموت أبيه في سنة ٢٦٠ هـ، والغيبة الكبرى، وتبدأ من اختفائه أخيراً في سنة ٢٦٥ هـ إلى الآن. ولا يزال أنصاره ينتظرونه إلى اليوم. ولهذا يعتقد الإمامية الاثنا عشرية أن محمداً الإمام الثاني عشر سيظهر ويملا الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. ومن ثم سمي الإمام المنتظر، وصاحب الزمان، والقائم بالأمر، والحجة.

وقد قال ابن حزم (٣) إن صقيلاً أدعت الحل بعد وفاة الحسن العسكري سبع سنين، فوقف ميراثه، وأن أخاه جعفر بن علي نازعها فيه إلى سنة ٢٦٧ هـ، ففرض له القاضي، وانقسمت الشيعة بسبب ذلك فريقين:

١ - فريقاً ناصر جعفراً

٢ - وفريقاً آخر تعصب لصقيل، ومن بينهم حسن بن جعفر النوبختي (٤).

وقد عاشت صقيل بعد وفاة الحسن العسكري عشرين سنة في بيت الحسن النوبختي، فراجت الإشاعات حول مقامها في هذا البيت، فأمر الخليفة العباسي المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) فحملت إلى قصره، وظلت فيه إلى أن ماتت في خلافة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ).

وقد ذكر المؤرخون عند كلامهم على الغيبة الكبرى سنة ٢٦٥ هـ أن الحسن العسكري عهد بشرف دعوته إلى بعض رؤساء الشيعة: فكان أبو سعيد العمري رئيس الإمامية الاثنا عشرية الوكيل

(١) حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر ص ٤٤ - ٤٥

(٢) نسبة إلى العسكر. والمراد هنا مدينة سامرا التي أسسها الخليفة المعتصم لتكون معسكراً لجنده الأتراك، ولكنها لم تلبث أن أصبحت حاضرة الخلافة العباسية نحو سنين سنة (٢٢١ - ٢٧٩ هـ)، ثم عادت بغداد حاضرة هذه الخلافة.

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ٩٤

(٤) نوبخت كلمة فارسية معناها البخت القريب، وجعفر هذا كان فارسي الأصل، وهو صاحب الزنج الذي قام برسم مدينة بغداد لأبي جعفر المنصور فصار بينه من أشهر البيوتات الفارسية في الدولة العباسية.

الأول، والنيرى الذى يعتبرونه أصل الطائفة النصيرية (١) الوكيل الثانى ، وحسن بن جعفر النوبختى الذى قامت الدعوة لآل على على يد رجال من بيته الوكيل الثالث .

وقد ظلت طائفة الإمامية الاثنا عشرية معينا بمد طائفة الإمامية الإسماعيلية بمشهورى الدعوة الذين كان لهم أثر كبير فى تاريخ الإسماعيلية ، مثل ابن حوشب ، وابن فضل البنى الذين قامت الدعوة الإسماعيلية فى بلاد اليمن بفضل جهودهما ، وأبى عبد الله الشيعى المحتسب الذى يرجع إليه الفضل فى نشر الدعوة الإسماعيلية وتأسيس الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب . ويظهر أن هؤلاء الدعوة الجريئين ملوا انتظار عودة الإمام الثانى عشر ، فعملوا على تحقيق آمالهم فى ظل إمام الإسماعيلية المستور الذى يترقب الفرص المواتية لكي يظهر للناس ويملا الأرض عدلا ، ويؤثرون ذلك على انتظار الإمام الثانى عشر ، الذى طال غيبته ، وغدا ظهوره فى نظرهم أمرا بعيد الوقوع (٢).

وقد ذكر دى جوينثو فى كتابه « الدين والفلسفة فى آسيا الوسطى » (٣) ، تأثير مذهب الاثنا عشرية وأهميته عند الفرس ، الذين كانوا ينظرون إلى أمتهم كما ينظر المسيحيون إلى أقانيمهم ، ويعتقدون أن فى أيديهم مقادير العالم ، الذى يحى بوجود هؤلاء الأئمة ويهلك بدونهم . كما أن الطاعة والتوسل إلى الأئمة من الأمور الضرورية عند طائفة الاثنا عشرية فى فارس . وهناك صلوات خاصة هؤلاء الأئمة : من ذلك أن يوم الأحد مقدس عندهم من أجل على وفاطمة ، والساعة الثانية من كل يوم مقدسة كذلك من أجل الحسن ، والساعة الثالثة مقدسة من أجل الحسين ، والرابعة من أجل على زين العابدين ، والخامسة من أجل محمد الباقر ، والسادسة من أجل جعفر الصادق ، والسابعة من أجل موسى الكاظم ، والثامنة من أجل على الرضا ، والتاسعة من أجل محمد الجواد ، والعاشرة من أجل على النقى ، والحادية عشرة من أجل الحسن العسكرى الزكى ، والثانية عشرة من أجل محمد المهدي الحجة .

ويعتقد الإمامية الاثنا عشرية أن الله قد أخفى الإمام الثانى عشر عن أعين الخلق ، ولكنه لا يزال حيا ، وهذه معجزة له . كما يقولون إنه يرى من وقت إلى آخر ، وإنه على اتصال بغيره ، وأن يده تقدر حظوظ أشياعه (٤) .

وقد جعل الصفوية ، أنصار إسماعيل الصفوى فى فارس ، مذهب الإمامية الاثنا عشرية المذهب الرسمى فى هذه البلاد ، وذلك فى القرن السادس عشر الميلادى . فقد أمر إسماعيل الخطباء بأن تقام الخطبة باسم الإمامية الاثنا عشرية ، كما أمر المؤذنين أن يضيفوا الى الأذان عبارة « أشهد أن عليا ولي الله » ، وأمر الجند بقتل كل من يعارض ذلك . ولا يزال مذهب الاثنا عشرية مذهب الدولة فى إيران .

(١) من أشهر الفرق الاثنا عشرية وغلاتهم الذين يؤمنون على بن أبى طالب ، ولا يزال لهم بقايا فى فارس وانشام .

(٢) Dozy : Histoire des Musulmanes d'Espagne, vol. III, p. 128. (٢)

De Gobineau : Religion et Philosophie dans l'Asie Centrale, p. 60. (٣)

Donaldson : The Shiite Religion (Lond., 1933), p. 235. (٤)

## ٢ - الإسماعيلية أو السبعية

### ( ١ ) دور الستر

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب (١) ، أن طائفة الإسماعيلية التي ذهبت إلى أن الأمام بعد جعفر الصادق ابنه إسماعيل ، لابنه موسى الكاظم ، أنكرت موت إسماعيل في حياة أبيه وقالت إنه تغيب ، ولا يموت حتى يملك الأرض ويقوم بأمر الناس ؛ كما قالت بعدم جواز تحويل الخلافة إلى موسى بعد وفاة أخيه إسماعيل ، لأنها لا تنتقل من أخ إلى أخ بعد الحسن والحسين عليهما السلام ، ولا تكون إلا في الأعقاب . ولم يكن لأخوي إسماعيل ، عبد الله وموسى ، في الإمامة حق ، كما لم يكن لمحمد بن الحنفية حق مع علي بن الحسين . وأصحاب هذا القول يسمون بالمباركية ، نسبة إلى رئيسهم المبارك مولى إسماعيل بن جعفر (٢) .

وقد قام النزاع بين الموسوية أشياح موسى الكاظم وبين الإسماعيلية أشياح أخيه إسماعيل ومحمد ابن إسماعيل من بعده . وهؤلاء يقولون ببطان إمامة موسى ، لأنه قد نص على إمامة إسماعيل . و أن النص لا يرجع للفهري ، والقول بالبداية (٣) محال (٤) ، إلا أن المعتدلين من الإسماعيلية لم يعترضوا على إمامة موسى في حياة أبيه ، وقالوا إنه إمام مستودع ( acting or trustee Imam ) كالحسن بن علي بن أبي طالب الذي لم يستطع أن يورث الإمامة لأبنائه ، رغم أنه كان إماما ، على حين كان الإسماعيلية يرون أن إسماعيل إمام مستقر ( Permanent or necessary Imam ) يستطيع أن يورث الإمامة لأبنائه ، فهو والحالة هذه كالحسين بن علي بن أبي طالب (٥) . ويرى بعض آخر أن جعفر الصادق عهد بالإمامة إلى موسى الكاظم تقيّة (٦) ( تظاهرا بغير ما يخفى لتبقى سطوة الحاكم ) ، حتى لا يتعرض أبناء إسماعيل ، وهم الأئمة الحقيقيون ، لاضطهاد العباسيين . ومن ذلك يتبين أن الإمام المستودع هو الذي يتمتع بالإمامة في حياته ولا يستطيع أن يحولها إلى أبنائه من بعده ، كالحسن ابن علي في نظر الإمامية ، وموسى الكاظم في نظر معتدلي الإسماعيلية ، وأن الإمام المستقر هو الذي يتمتع بالإمامة في حياته ويستطيع أن يحولها إلى أبنائه من بعده ، كالحسين بن علي وأبنائه من الأئمة ، وكإسماعيل بن جعفر في نظر الإسماعيلية .

وقد ذكر الشهرستاني (٧) شيئا كثيرا عن آراء الإسماعيلية في إمامة إسماعيل ، وأنهم نسبوا إليه أمورا خارقة للعادة فقال :

(١) ص ١٣٩

(٢) أبو محمد الحسن النوبختي : كتاب فرق الشيعة ص ٥٧ - ٥٨ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٩٠

(٣) يعني أن الله سبحانه وتعالى يغير ما أراد (٤) الشهرستاني : الملل والنحل ج ٢ ص ٢٧

(٥) Bernard Lewis (The Origins of Isma'ilism, pp. 49-52, Ivanow : Kalami Pir, p. xlviii.)

(٦) ويرى بعض المؤرخين أن جعفر الصادق خام ابنه إسماعيل من الإمامة لأنه روى بشرب الخمر وسوء

السيرة . وينقد أنصاره عصمته زاعمين أن شرب الخمر قد يكون لحكمة قد لا يستطيع المرء فهمها .

(٧) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٢ ص ٢٧ - ٢٩



د إن الإسماعيلية امتازت عن الموسوية وعن الاثنا عشرية بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر ، وهو ابنه الأكبر المنصوص عليه في بدء الأمر ، قالوا : ولم يقزوج الصادق على أمه بواحدة من النساء ، ولا اشترى جارية كسنة رسول الله في حق خديجة ، وكسنة علي في حق فاطمة ؛ وذكرنا اختلافهم في موته في حال حياة أبيه . فمنهم من قال إنه مات ، وإنما فائدة النص عليه انتقال الإمامة منه إلى أولاده خاصة ، كما نص موسى إلى هارون عليهما السلام ، ثم مات هارون في حال أبيه . وإنما فائدة النص انتقال الإمامة منه إلى أولاده ، فإن النص لا يرجع فمقري . والقول بالبداء محال . ولا ينص الإمام علي واحد من ولده إلا بعد السماع من آباءه ، والتعيين لا يجوز على الإبهام والجهالة . ومنهم من قال إنه لم يموت ، لكن أظهر موته تقية عليه حتى لا يُقصد بالقتل . ولهذا القول دلالات منها أن محمداً كان صغيراً ، وهو أخوه لأمه مضى إلى السرير الذي كان إسماعيل نائماً عليه ، ورفع الملاءة فأبصره وهو قد فتح عينيه وعاد إلى أبيه مفرغاً ، وقال : عاش أخي ، عاش أخي . قال والده : إن أولاد الرسول كذا يكون حالهم في الآخرة ، قالوا : وما السبب في الإشهاد على موته ؟ . وكتب المحضر عليه ، ولم يعد ميتاً سجل على موته . وعن هذا المارفع إلى المنصور أن إسماعيل بن جعفر روى بالبصرة مر على منقعد ، فدعا فبرىء باذن الله . بعث المنصور إلى الصادق أن إسماعيل في الأحياء وأنه روى بالبصرة ، أنفذ السجل إليه وعليه شهادة عامله بالمدينة . قالوا : وبعد إسماعيل محمد بن إسماعيل السابع التام ، وإنما تم دور السبعة به ، ثم ابتدأ منه بالأئمة المستورين الذين كانوا يسرون في البلاد ويظهرون الدعاة جهراً . قالوا : ولن تخلو الأرض قط من إمام حتى قاهر ، إما ظاهر مكشوف وإما باطن مستور ، فإذا كان الامام ظاهراً ، يجوز أن يكون حجته مستورة ، وإذا كان الإمام مستوراً فلا بد أن يكون حجته ودعواته ظاهرين ، وقالوا : إنما الأئمة تدور أحكامهم على سبعة كأيام الأسبوع والسنوات السبع والكواكب السبع ، والنقباء تدور أحكامهم على اثني عشر ، قالوا : وعن هذا وقعت الشبهة للإمامية القطعية حيث قرروا عدد النقباء للأئمة ، ثم بعد الأئمة المستورين كان ظاهر المهدي والقائم بأمر الله وأولادهم نصاً بعد نص على إمام بعد إمام . ومذهبهم أن من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية . وكذلك من مات ولم يكن في عنقه بيعة إمام ، مات ميتة جاهلية . وكانت لهم دعوة في كل زمان ومقالة جديدة بكل لسان . فنذكر مقالاتهم القديمة ونذكر بعدها صاحب الدعوة الجديدة .

#### ١ - رياسة الدعوة :

كان من أثر تصديق الخلفاء العباسيين الخناق على الشيعة عامة ، أن عمد أئمة الإسماعيلية إلى الاختفاء ونشر دعوتهم في طي السكتان . ولا غرو فقد أوقع العباسيون بمحمد النفس الزكية في الحجاز وبأخيه إبراهيم في العراق سنة ١٤٥ هـ ، وقتلوا الحسين بن علي بن الحسن في موقعة فنج (سنة ١٦٩ هـ) التي كانت بعيدة الأثر في تاريخ الشيعة . فقد هرب منها اثنان من العلويين هما يحيى بن عبد الله صاحب الديلم ، وأخوه إدريس بن عبد الله الذي أسس دولة الأدارسة في المغرب الأقصى . كذلك

خرج من أبناء جعفر الصادق ، محمد الديباج بمسكة في خلافة المأمون ، كما خرج عليه القاسم بن إبراهيم ابن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن ، الذي استتر نحواً من عشر سنين ، وبث دعائه في مكة والمدينة والكوفة والري وقزوين وطبرستان وبلاد الديلم ، وفي بلخ والطالقان ومرو ، وظل على ذلك إلى أن انتقض عليه أمره في عهد المعتصم (١) .

لذلك لانعجب إذا رأينا أئمة الإسماعيلية يلجئون إلى نشر دعوتهم في الخفاء ، وفي بلاد بعيدة عن مركز الدولة العباسية ، ليدرءوا عن أنفسهم ما أضمره لهم العباسيون من حنق ونقمة (٢) ، حتى إن محمد بن إسماعيل فر إلى الري ، ومنها إلى دماوند (٣) ، حيث استقر بقريه سميت محمد آباد نسبة إليه . وسار أبناؤه على مثواله ، فاختلفوا في خراسان ، وفي إقليم قندهار ، وفي السند ، وأخذ دعواتهم يجوبون البلاد لجذب الأشياع إليهم (٤) .

وقد اتخذ أئمة الإسماعيلية مدينة سلبية من أعمال حماه ببلاد الشام مركزاً لنشر هذه الدعوة ؛ وكانوا يبعثون من هذه المدينة الدعاة إلى كافة الأقطار الإسلامية ، ويعهدون في تنظيم الدعوة إلى كبار الدعاة الذين كان يطلق عليهم في هذا الدور ، وهو دور الستر ، نواب الأئمة أو الحميج (٥) ، وهؤلاء يرسلون دعاة من قبيلهم لنشر المذهب الإسماعيلي في أرجاء العالم الإسلامي .

ومن أشهر نواب الأئمة الإسماعيلية الذين تصدوا لنشر هذا المذهب ، وكانت إليهم رئاسة هذه الدعوة ، ميمون القداح الذي وضع دعامة المذهب الإسماعيلي ، حتى اعتقد بعض المؤرخين أنه هو محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق نفسه ، (٦) واعتقد بعض آخر أنه كان يصدر في عمله عن ميول شعوية ترمي إلى مقاومة الإسلام وإعادة النفوذ إلى الفرس ، وأنه إنما اتخذ قداحة العيون أو تطييبها ( هي عملية استخراج ماء من العين Gloucoma ) وسيلة لإخفاء أغراضه الأصلية ، وهي نشر المذهب الإسماعيلي ، ومهد بذلك السبيل لابنه عبد الله بن ميمون .

وقد وصف المقرئ (٧) عبد الله فقال إنه كان عالماً بجميع الشرائع والسنن والمذاهب ، وأنه اعتنق مذهب الشيعة ، لا للدعوة إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق أو ابنه محمد ، بل كان ذلك

(١) أنظر الجزء الثاني من هذا الكتاب ص ١٢٦ - ١٣٠

(٢) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ٤٨ - ٤٩

(٣) جبل قرب الري - أنظر هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ : Levý: The Accounts of Isma'ili Doctrines in the Jam' i-at Tawarikh of Rashid -i-al Din Fadlallah (J. R. A. S.), 1930, p. 522

(٥) كتاب عقيدة الإسماعيلية (نشره جوبار، Paris) Fragments relatifs à la Doctrine des Ismaélis (Paris), pp. 188-9

(٦) Prince Mamour: Polemics on the Origin of the Fatimid Caliphs, p. 52.

(٧) خطط ج ٢ ص ٣٤٨

لحيلة اتخذها ليجمع حوله انصارا ، بمعنى أنه اتخذ هذه الدعوة وسيلة لتنفيذ أغراضه ، وهي تكوين دولة فارسية . ويعتبر عبد الله المؤسس الحقيقي لذلك المذهب الإسماعيلي الذي انتشر بين القرامطة وغيرهم .

وذكر النويري<sup>(١)</sup> أنه كان من كبار الشعوية رجل يسمى محمد بن الحسن بن جهار نجار ، الملقب دندان ، وهو بنو احي الكرج وأصبهان ، له حال واسعة وضياع عظيمة ، وهو المتولى على تلك المواضع . وكان يبغض العرب ويذمهم ، ويجمع معايبهم . وكان كل من طمع في نواله تقرب إليه يذم العرب ، فسمع به عبد الله بن ميمون القداح ، وما يتحلله من بغض العرب وصنعة النجوم ، فسار إليه . وكان عبد الله يتعاطى الطب وعلاج العين ، ويقدم الماء النازل فيها ، ويظهر أنه إنما يفعل ذلك حسبة ( زلفى إلى الله ) ، وتقربا إلى الله عز وجل بنواحي أصفهان الجبل . فأحضره دندان ، وفاتحه الحديث ، فوجده كما يحب ويهوى ، وأظهر له عبد الله من مساوىء العرب والظعن عليهم أكثر مما عنده ، فاشتد إعجابه به وقال له : مثلك لا ينبغى أن يطب ، وإن قدرك يرتفع ويجل عن ذلك ، فقال : إنما جعلت ذلك ذريعة لما وراه ، ألقبه إلى الناس وإلى من أسكن إليه على مهل ورفق من الظعن على الإسلام . وأنا أشير عليك ألا تظهر ما في نفسك إلى العرب ومن يتعصب لهذا الدين ، فإن هذا الدين قد غلب على الأديان كلها ، فما يطيقه الروم ولا الترك ولا الفرس والهند مع بأسهم ونجدتهم . وقد علمت شدة بابك صاحب الحرمة وكثرة عساكره ، وإنه نفسك ، والزم التشيع والبكاء على أهل البيت ، فإنك تجد من يساعدك من المسلمين ، ويقول هذا هو الإسلام . وسب أبا بكر وعمر ، وانع عليهما عداوة الرسول وتغيير القرآن وتبديل الأحكام ، فإنك إذا سبتهما سببت صاحبهما ، فإذا استوى لك الظعن عليهما ، فقد اشتفيت من محمد ، ثم تعمل بعد ذلك في استئصال دينه . ومن خرج على ذلك ، فقد خرج من الإسلام من حيث لا يشعر ، ويتم لك الأمر كما تريد . فقال دندان : هذا هو الرأي ، ثم قال له عبد الله : إن لى أصحابا وأتباعا أبشهم فى البلاد ، فيظهرون التقشف والتصوف والتشيع ، ويدعون إلى ما تريده من إحكام الأمر . فاستصوب دندان ذلك وسر به ، وبعث لعبد الله القداح ألف دينار ، فقبل المال وفرقه فى كور الأهواز وسواد الكوفة ، وبطالقان خراسان ، وسلبية من أرض حمص . ثم مات دندان ، فخرج عبد الله إلى البصرة وسواد الكوفة ، وبث الدعاة ، وتقوى بالمال ، وتدبر الحال .

اتخذ عبد الله الأهواز مركزاً لنشر دعوته . ولما اتصل خبره بوالها أضمر له الشر ، ففر إلى البصرة . وقد عزا المقرئ<sup>(٢)</sup> هرب عبد الله إلى مظهر منه ومن التعطيل والإباحة والمكر والحديعة ، فنارت به الشيعة والمعتزلة ، فكبسوا داره ؛ ففر إلى البصرة ، وأقام فى أسرة عقيل بن أبى طالب ،

(١) نهاية الأرب فى فنون الأدب : مخطوط بدار السكتب المصرية رقم ٢٥٧٠ تاريخ ج ٢٦ ص ٢٢ - ٢٣ .

(٢) انماط الحنفا ص ١٢

مدعيا انتماء إليهم ، لحامت حوله الشبهات ، فرحل الى الشام ، وأقام في سلبيه إلى أن مات بها (١) .  
وقد وضع عبد الله بن ميمون أساس الدعوة لبك عقائد المذهب الإسماعيلي أو مذهب السبئية  
الذي يدعو إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق ، وابتدع لذلك دعوة منظمة قسمها إلى سبع درجات  
أو مراتب ، زيدت بعده حتى أصبحت تسعا في أيام الفاطميين . ولم يمض عبد الله حتى كانت الدعوة  
الإسماعيلية قد راجت في كثير من البلاد الإسلامية على ما سنرى .

خلفاء ابن ميمون القداح :

لما مات عبد الله بن ميمون القداح خلفه في رئاسة الدعوة الإسماعيلية ابنه أحمد (٢) . ويرى ابن  
التديم (٣) أن الذي خلف عبد الله ابنه محمد . وذكر ابن عذارى (٤) ، والمقرئزي (٥) والنويري (٦)  
أن أحمد هو الذي خلف أباه عبد الله وأنه كان يلقب أبا الشلعلع . ويظهر أن عبد الله اتخذ من سلبيه  
مركزا رئيسا لنشر الدعوة ، وعين ابنه الحسين لرئاسة الدعوة بها ، كما عين ابنه أحمد أبا الشلعلع  
لرئاسة الدعوة في بعض مدن العراق ، وخاصة الكوفة وبغداد ، وعين أحد أولاده لرئاسة الدعوة  
في فارس . ولما مات الحسين بن عبد الله حول سنة ٢٦٠ هـ ، عهد عبد الله إلى ابنه أحمد أبي الشلعلع  
برئاسة الدعوة في سلبيه والعراق . ومن ثم انتقلت إليه رئاسة الدعوة بعد موت أبيه حول سنة ٢٧٠ هـ ،  
وأصبح وصيا على سعيد ابن أخيه الحسين الذي يزعم بعضهم أنه عبد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين .  
وقد بعث أحمد هذا ابن حوشب لنشر الدعوة في بلاد اليمن ، كما بعث أبا عبد الله الشيعي إلى اليمن  
لتلقى أصول الدعوة عن ابن حوشب قبل رحيله إلى بلاد المغرب .

## ٢ - القرامطة

### (ب) في سواد الكوفة

أرسل عبد الله بن ميمون ، وهو في الأهواز أحد دعائه وهو الحسين الأهوازي ، الذي يقول دي غويه (٧)

(١) يرى دي غويه. Mémoires sur les Carmathes du Bahraïn et les Fatimides, p. 19. أن حرب  
عبد الله بن ميمون حدث حول سنة ٢٧٠ هـ ، وأن ابنه أحمد أصبح على رأس الدعوة في سنة ٢٧٤ هـ . فلا بد  
أن تسكون وفاته قد حدثت بين سنتي ٢٧٠ ، ٢٧٤ هـ

(٢) المقرئزي : خطط ج ١ ص ٣٤٨ ، ووافق على ذلك النويري : نهاية الأرب ، مخطوط ج ٢٦ ص ٢٤

(٣) الفهرست ص ٢٦٥

(٤) البيان المغرب في أخبار المغرب ج ١ ص ٢٩٤

(٥) ج ١ ص ٣٤٨ (٦) نهاية الأرب ج ٢٦ ص ٢٤

(٧) De Goeje : Mémoires sur les Carmathes du Bahraïn et les Fatimides, p. 18.

إنه ابنه ، إلى سواد الكوفة حيث لقي حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط (١) ، الذي لم يلبث أن دخل في الدعوة وساعد على نشرها ، كما ساعد الحسين الأهوازي على جذب كثير من الناس إلى دعوته بفضل ما كان يظهره من النقشف والورع ، فكان يأخذ من الرجل إذا دخل في دينه ديناراً ، ويزعم أنه يأخذ ذلك للامام . فكثرت بذلك يدعو أهل القرى ( في سواد الكوفة ) فيجيبونه ، واتخذ منهم اثني عشر نقيباً أمرهم أن يدعوا الناس إلى دينهم ، وقال لهم : أتم كحواريي عيسى بن مريم ، (٢) .

وقد ترك الحسين الأهوازي أمر الدعوة في سواد العراق إلى حمدان قرمط ، الذي اتخذ كلواذا إحدى ضواحي بغداد ، مركزاً لنشر هذه الدعوة . ولم يلبث أن زاد عدد أتباعه الذين أمرهم في سنة ٢٧٦ هـ بشراء الأسلحة ، وأنشأ أول دار للهجرة في السنة التالية . ويقول النويري (٣) :

« وظهر في كثير منهم الفجور ، ويسط بعضهم أيديهم لسفك الدماء ، وقتل جماعة عن أظهر خلافا لهم ، يخافهم الناس واستوحشوا من ظهور السلاح بينهم . فأظهر موافقتهم كثير من مجاورهم جزعاً منهم . ثم إن الدعاة اجتمعوا وانفقوا على أن يجعلوا لهم موطئاً ، يكون وطناً ودار هجرة مهاجرون إليها ويجمعون بها ، فاختاروا من سواد الكوفة ... قرية ... فحازوا إليها صخرًا عظيمًا ، وبنوا حولها سوراً منيعاً ، عرضه ثمانية أذرع ، ومن ورائه خندق عظيم ، وفرغوا من ذلك في أسرع وقت ، وبنوا فيها البناء العظيم . وانتقل إليها الرجال والنساء من كل مكان ، وسميت دار الهجرة ، وذلك في سنة سبع وسبعين ومائتين . فلم يبق حينئذ أحد إلا يخافهم ، ولا بقي أحد يخافونه ، لقوتهم وتمسكهم من البلاد . وقد صادفت الدعوة الإسماعيلية على يد حمدان قرمط وراجا عظيمًا بين العرب ، حتى إنه عهد إلى بعض العرب في نشر الدعوة بين العناصر العربية . كما سن حمدان قرمط نظاماً مالياً متقناً ، ففرض على كل من الرجال والنساء درهماً سماه « الفطرة » ، ثم فرض « الهجرة » ، وهي دينار على كل شخص بالغ . واستند في فرض هذه الأموال إلى ما جاء في القرآن الكريم في سورة التوبة (٤) (خذ من أموالهم

(١) اختلف المؤرخون في أصل كلمة قرمط ، فقال المقرئزي ( اتعاظ الحنفا ص ١٠١ ) إن حمدان بن الأشعث كان قصير القامة والسير ، وكانت خطواته متقاربة ، فأطلق عليه اسم قرمط . وفي القاموس ما يوضح هذا الاشتقاق إذ يقول : « القرمطة دقة السكتابة ومقاربة الخطو » . وقيل أيضاً لأنه كان في القرية رجل أحمري العينين يحمل على أنوار له ، يسمونه كرميتة لحرارة عينيه (ومعناه بالنبطية أحمري العين) ، فسمى باسم الرجل الذي في دار كرميتة ، ثم خفف اللفظ فصار قرمط . وقال المنصوري (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة : مخطوط بجامعة الأزاد الأول ج ٥ ورقة ٩٦) إن لفظ قرمط ينسب إلى محمد الوراق الذي يعرف بالقرمط . وقد تم على يديه انتشار المذهب الإسماعيلي بين القرامطة .

(٢) الطبري ج ١١ ص ٣٣٨

(٣) نهاية الأرب : مخطوط بدار السكتب المصرية ج ٢٣ ورقة ٦٩

(٤) آيه رقم ١١٢

صدقة تطهرهم وتزكئهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم ) . ثم فرض عليهم «البَّلْعَةُ» ، وهي سبعة دنانير ، وزعم أن ذلك بلاغ من يريد الإيمان والدخول في السابقين المذكورين في قوله تعالى ( والسابقون السابقون أولئك المقربون ) (١) . ووضع حمدان طعاماً حلواً لذيقاً على قدر البندق ، أعطى واحدة منها لكل من أدى إليه سبعة دنانير ، وزعم أن ذلك طعام أهل الجنة ، نزل إلى الامام من ولد علي بن أبي طالب . فكان يعطى كل داع مائة بلعة ويطلبه بأداء سبعمائة دينار عنها ، لكل واحدة منها سبعة دنانير . ثم تدرج من ذلك كله إلى أن فرض خمس ما يملكه أتباعه ويربحوه ، معللاً ذلك بقوله تعالى في سورة الأنفال (٢) ( واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه ، وللرسول ولذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السليل ) . (٣) ولم يلبث أن فرض على الناس «الآلقة» . يقول النويري (٤) .

ثم فرض عليهم «الآلقة» ، وهي أن يجمعوا موالئهم في موضع واحد ، وأن يكونوا فيه أسوة واحدة ، لا يفضل أحد منهم صاحبه ولا أخاه في ملك يملكه ، وتلا عليهم : ( واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ) (٥) وقوله : ( لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ) (٦) . وعرفهم أنه لا حاجة بهم إلى أموال تكون معهم ، لأن الأرض بأسرها ستكون لهم دون غيرهم وقال : هذه محتكم التي امتحنتم بها ليعلم كيف تعملون . وطالبهم بشراء السلاح وإعداده ، وذلك كله في سنة ست وسبعين ومائتين . وأقام الدعاة في كل قرية رجلاً مختاراً من ثقاتها ، يجمع عنده أموال أهل قريته ، من بقر وغنم وحلى ومتاع وغيره . وكان يكسو عاريهم ، وينفق على سائرهم ما يكفيهم ، ولا يدع فقيراً بينهم ولا محتاجاً ولا ضعيفاً ؛ وأخذ كل رجل منهم بالانكاش (٧) في صناعته والمكسب جهده ، فيكون له الفضل في رتبته . وجمعت المرأة كسبها من مفرطها ، والصبي أجره نظارته للطير ، وأتوه بها ؛ فلم يملك أحد منهم إلا سيفه وسلاحه .

وكان عيدان صهر حمدان قرمط من أكبر دعائه (٨) ؛ وكان مشهوراً بعلبه وتشيعه . ويقول النويري (٩) : « كان فطناً خبيثاً ، خارجاً عن طبقة نظرائه من أهل السواد ، ذا فهم وحذق . فكان يعمل عند نفسه على حد قد نصب له ، من غير أن يجاوزه إلى غيره من سخلع الاسلام ، ولا يظهر غير التشيع والعلم ، ويدعو إلى الإمام من آل رسول الله ، محمد بن إسماعيل بن جعفر . وقد صادفت الدعوة الإسماعيلية على يد عيدان كثيراً من النجاح ، حتى إن أبا سعيد الجنابي ،

(٢) آية ٤٠

(١) سورة الواقعة آية ٩ - ١٠

(٣) المقرئ : انعاظ الحنفا ص ١٠٤ - ١٠٥

(٤) نهاية الأرب : مخطوط بدار السكتب المصرية ج ٢٣ ورقة ٥٨

(٥) سورة آل عمران آية ١٠٢ (٦) سورة الأنفال آية ٦٢ (٧) الاجتهاد والتشيعر

(٨) قد قيل إن كلاهما تزوج من أخت الآخر

(٩) نهاية الأرب : ج ٢٣ ورقة ٢٦ .

مؤسس دولة القرامطة في بلاد البحرين ، و زكروية بن مهرويه زعيم قرامطة الشمال ، أى شمال غرب بلاد العراق وبادية السماوة وبعض بلاد الشام ، قد أخذوا الدعوة عنه .

و لم يلبث أن اختفى حمدان قرمط ، وقتل عبدان ، على أثر انتفاضهما على أبناء القداح بعد سنة ٢٨٠ هـ ، وتحول نشاط القرامطة نحو الشمال على يد زكرويه ، ونحو الجنوب على يد أبي سعيد الجنابي كاسياني .

### (ب) في شمال العراق الغربي وبهرو الشام :

كان زكرويه بن مهرويه من أكبر دعاة حمدان كما رأينا ؛ وقد نشأ في إحدى قرى سواد الكوفة ، حيث أخذ يدعو إلى إمامة محمد بن إسماعيل . و بانتفاض حمدان وعبدان على رئاسة الدعوة انضم زكرويه الى أبناء القداح وقتل عبدان . ولما أخذ قرامطة السواد والعباسيون أنفسهم يضيقون عليه الخناق ، اختفى في مطمورة (١) ، وبدأ يوجه دعوته في الخفاء ، وبعث أبناءه لنشر الدعوة الإسماعيلية في بني كلب على مقربة من الرقة ، ونجح ابنه يحيى بن زكرويه في جذب طائفة من هؤلاء العرب اليه . وامتد نشاط هذا الفرع في شمال العراق الغربي وبادية السماوة وبعض مدن الشام . وتسمى هذه

الحركة حركة الجزيرة العراقية والشام ( The Syro - Meso - potamian Movement ) (٢) . ويقول الطبري (٣) : « فأرسل زكرويه أولاده لإليه ، فبايعوهم وخالطوهم ، وانتموا إلى علي بن أبي طالب ، وإلى محمد بن إسماعيل بن جعفر ، وذكروا أنهم خائفون من السلطان ، وأنهم ملجئون إليه ، فقبلوهم على ذلك . ثم دبوا فيهم بالدعاء (٤) إلى رأى القرامطة . فلم يقبل ذلك أحد منهم ، أعنى من الكلبيين ، إلا الفخذ المعروفة ببني العثليص بن ضمضم بن عدى بن جناب ، ومواليهم خاصة ، فبايعوا في آخر سنة تسع وثمانين ومائتين بتاحية السماوة ، ابن زكرويه المسمى يحيى والمكنى أبا القاسم ، ولقبوه الشيخ ، على أمر احتال فيهم ولقب به نفسه ، وزعم لهم أنه أبو عبد الله بن محمد ابن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ... وقيل إنه لم يكن لمحمد ابن إسماعيل ابن يسمي عبد الله ، وزعم لهم أن أباه المعروف بأبي محمود داعية له ، وأن له بالسواد والمشرق والمغرب مائة ألف تابع ، وأن ناقته التي يركبها مأمورة ، وأنهم إذا اتبعوها في مسيرها ظفروا . وتكهن لهم ، وأظهر عضدا له ناقصة ، وذكر أنها آية . وانحازت إليه جماعة من بني الأصمغ وأخلصوا له ، وتسموا بالفاطميين ، ودانوا بدينه . »

و لم تلبث دعوة يحيى بن زكرويه أن انتشرت في بلاد الشام ، حتى إنه حاصر دمشق نفسها في سنة ٢٨٩ هـ ، وضيق الحصار على طنج بن جف أبي محمد بن طنج الإخشيد ، وكان يلي بلاد الشام من

(١) المطمورة الحفيرة التي تحت الأرض ، وتستخدم لحزن الفلال ، كما تستخدم أيضا لحبس الأشخاص الخطرين

(٢) Bernard Lewis: The Origins of Ismailism, pp. 73-4

(٣) ج ١١ ص ٣٧٧ - ٣٧٨

(٤) يريد أنهم نصررو فيهم مذهب القرامطة شيئا شيئا بالحيلة والدهاء أى تدرجوا معهم

قبل الطولونيين . ولم ينقذه إلا بدر الكبير الذي أرسله إليه هارون بن خمارويه . وقتل يحيى على أبواب دمشق ، فانتقلت رياسة الدعوة إلى أخيه الحسين بن زكرويه الذي ادعى ، كإخيه يحيى ، الانتساب إلى محمد بن إسماعيل (١) .

وقد استمرت حركة الحسين بن زكرويه مصدرا للقلق والانزعاج في بلاد الشام ، حتى قضى عليه محمد بن سليمان الكاتب قائد الخليفة العباسي المكتفي في سنة ٢٩١ هـ . ومن ثم تحول مركز نشاط قرامطة الشمال نحو الكوفة نفسها ، وخرج زكرويه من مخبئه وحارب ضد العباسيين ، وفنك بقوافل الحجاج انتقاما لقتل ابنه ورغبة في نشر الدعوة الإسماعيلية ، إلى أن قضت عليه جيوش العباسيين في سنة ٢٩٤ هـ (٢) .

### (ج) في البحرين :

انتشرت الدعوة الإسماعيلية في القطيف على يد الحسين بن بهرام ، ويكنى أبا سعيد الجنابي (٣) ، وكان فارسي الأصل . وقد انف حوله جماعة من الأعراب والنبطيين الذين رحبوا بدعوته ، لأنه مناهم وملك الأرض كلها (٤) . وما لبث أن استفحل أمره وقويت شوكته ، وقتل من وقف في طريقه من أهل القطيف .

وفي سنة ٢٨١ هـ سار إلى القطيف رجل من كبار دعاة الإسماعيلية ، يدعى يحيى بن المهدي ، وادعى أنه رسول المهدي من بيت علي بن أبي طالب . فأجاب دعوته أهل هذه المدينة وسائر بلاد البحرين . ولم يلبث يحيى أن غاب عن الناس مدة ، ثم عاد يحمل كتاباً ادعى فيه أنه من المهدي إلى شيعته ، يأمرهم فيه بأن يدفع كل منهم إلى يحيى ستة دنانير وثلاثين ، ففعلوا . ثم غاب مدة أخرى ، وعاد ومعه كتاب يبلغهم فيه أن المهدي يريد منهم أن يدفعوا إلى يحيى خمس أموالهم ، ففعلوا أيضاً (٥) .

ومن أجاب يحيى بن المهدي ، أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي الذي قوى أمره وانتشرت دعوته وامتد نفوذه إلى أرجاء البحرين كافة . وأغار فريق من القرامطة بقيادة أبي سعيد علي هجر ، ولم يلبث أن أتم فتح بلاد البحرين واليمامة ، وحاول فتح عمان ، ولكنه لم يستطع ، وترك ذلك لابنه أبي طاهر . وقد خشى الخليفة المعتضد تفاقم خطر أبي سعيد ، وخاف أن يقع في يده جنوباً

(١) السمودي : التنبية والاشراف ص ٣٢٢

(٢) المقرئ : انعاظ الحنفا ص ١٢٣-١١٤

(٣) نسبة إلى جنابة ، وهي بلدة على ساحل الخليج الفارسي شرقاً

أنظر القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد (طبعة جوتنجن) ص ١٢١

(٤) المقرئ : انعاظ الحنفا ص ١٠٨

(٥) ابن الأثير ج ٧ ص ١٧٥



بلاد العراق ، فعزل العباس بن عمرو الغنوي عن ولاية فارس ، وأقطعته اليمامة والبحرين ، وعهد إليه بحرب القرامطة .

سار العباس إلى البصرة حيث انضم إليه كثير من المتطوعين ، ثم واصل السير إلى البحرين ، فهزمه أبو سعيد الجنابي ، واستولى على ما كان معه من سلاح وكراع ، وقتل الأسرى وأحرقهم ، حتى لأنه لم ينج منهم سوى قائدهم العباس الغنوي ، الذي لقب بعد هذه الموقعة ، قائد الشهداء . وقد أرسل أبو سعيد مع العباس كتاباً طويلاً حاول فيه أن يثير مخاوف الخليفة العباسي حتى لا يفكر في غزو بلاده (١) .

على أن المعتضد لم يعر هذا الكتاب اهتماماً ، بل صمم على حرب أبي سعيد والقضاء على دعوته في بلاد البحرين ، وعبر عن ذلك بهذه العبارة : « والله لئن طال بي عمر ، لأشخصن بنفسي إلى البصرة ، وجميع غلباني ، ولأجهزن إليهم جيشاً كثيفاً . فان هزمهم ، خرجت في جميع قواذي وجيشي إليه ، حتى يحكم الله بيني وبينه » (٢) .

وقد أثار عن المعتضد أنه قال وهو في مرضه الأخير : « والله لقد كنت وضعت في نفسي ، أن أركب ثم أخرج إلى باب البصرة ، متوجهاً نحو البحرين ، ثم لا ألقى أحداً أطول من سبقي إلا ضربت عنقه . وإن أخاف أن يكون من هناك حوادث عظيمة » (٣) .

لم تقع بين أبي سعيد الجنابي والدولة العباسية حروب في عهد الخليفة المكتفي (٢٨٩-٢٩٥ هـ) امامين هامين :

الأول : رغبة أبي سعيد نفسه في عدم الدخول في حرب مع العباسيين لاشتغاله بتنظيم شئون بلاده الداخلية .

الثاني : اشتغال العباسيين عن أبي سعيد بصراعهم مع قرامطة الشمال بزعامة زكرويه بن مهرويه وأبنائه كما تقدم .

وقد عمل أبو سعيد على تكوين مجتمع إسماعيلي يدين له بالطاعة والولاء وطارد من جاوره من بني ضبة ، وكانوا قد انضموا إلى جيوش العباس الغنوي ، حتى لا يكونوا عيوناً عليه . وقد وصف لنا هذا المجتمع التويري (٤) ، وعنه أخذ المقرئ (٥) ، في هذه العبارة ، قال :

(١) راجع نص هذا الكتاب في De Goeje : Mémoires sur les Carmathes du Bahrain et les

Fatimides, pp. 210-12 نقلاً عن كتاب العيون المخطوط بمكتبة برلين

(٢) التويري نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٣ ورقة ٧٣-٧٤

(٣) المصدر نفسه ج ٢٣ ورقة ٧٤ .

(٤) المصدر نفسه ج ٢٣ ورقة ٧٤

(٥) اتعاظ الحنفا من ١١١-١١٢

وَأقبل أبو سعيد بعد إطلاق العباس . على جمع الخيل وإعداد السلاح ، واتخاذ الإبل ، وإصلاح الرجال ، ونسج الدروع والمقافر (١) ، ونظم الجواشن (٢) والمزاد (٣) والقرب ، وتعليم الصبيان الفروسية . وطرد الأعراب عن قُربه ، وسد الوجوه التي يتعرف فيها أمر بلده وأحواله بالرجال ، وإصلاح أراضي المزارع وأصول النخل وعمارتها ، وإصلاح مثل هذه الأمور وتفقدتها ، ونصب الأمان على ذلك وإقامة العرفاء (٤) على الرجال ، والاحتياط على ذلك كله . حتى بلغ من تفقده واحتياطه أن الشاة كانت تذبح ، ويسلم اللحم إلى العرفاء ليفرقوه على من يرسم لهم ، ويدفع الرأس والأركان والبطن إلى العبيد والإماء ، ويجز الصوف والشعر من الغنم ويفرق على من يغزله ، ثم يدفع إلى من ينسجه عبيا وأكسية ، وغرائر وجوالقات (٥) ، ويقتل منه حبالا ، ويسلم الجلد إلى الدباغ . فإذا خرج من الدباغ ، سلم إلى خرازي القرب والروايا والمزاد ، وما كان من الجلود يصلح نعالا وخفافا (٦) عمل منه ، ثم يجمع ذلك كله إلى خزائن . فكان ذلك دأبه لا يغفل عنه ، ويوجه في كل مدينة بخيل إلى ناحية البصرة ، فتأخذ من وجدت ، فتصير بهم إليه ، فيستعبدهم ، فزادت بلاده وعظمت هيئته في صدور الناس .

وهكذا استطاع أبو سعيد أن ينظم مجتمعة ويكون من أبناء الأسرى وأبناء أتباعه جيشا لا يعرف غير الطعن والنزال حرقة ، وطاعة الرئيس ديننا ، فجمع الصبيان في دور ، وأقام عليهم قوادا ، وأجرى عليهم ما يحتاجون إليه ، ووسمهم جميعهم على الحدود لئلا يختلطوا بغيرهم ، وغرّف عليهم غرفا ، وعلم من صلح لركوب الخيل والطعان : فنشأوا لا يعرفون غيره ، وصارت دعوتهم اليهم ، (٧) .

وصفوة القول أن القرامطة في دور الستر قد أقلقوا العباسيين ؛ فأشعلوا الفتن في سواد السكوفة ، وفي العراق العربي وبادية السماوة ، وفي أكثر أرجاء سورية ، وكان لهم أثر كبير في سقوط الدولة الطولونية أضف إلى ذلك ما لقيه أبو سعيد من نجاح في القطيف وفي بلاد البحرين والبيامة .

(١) جمع مففر وهو زرد ينسج على قدر الرأس ويلبس تحت القلنسوة

(٢) لؤلؤ الزاد

(٣) جمع جوشن وهو الدرع

(٤) جمع عريف وهو من يكون على النفير ، والنفير عدة رجال من ثلاثة إلى عشرة كما يكون المنسكب على خمسة عرفاء ، والأمير فوق هؤلاء ، أو من يعرف أصحابه ويقوم بأمرهم .

(٥) الجوالقات والغرائر شيء واحد وهو العدل من الصوف أو الشعر

(٦) الخفاف جمع خف وهو ما يلبس بالقدم

(٧) النويرى نهاية الأرب ج ٢٣ ورقة ٧١

وقد ذكر المقرئ ( انماط الحنفا ص ١٠٩ ) المباراة الأخيرة على النحو الآتي « فنشأوا لا يعرفون غير الحرب ، وقد صارت دعوته طبعاً لهم »

٣ - ابن حوشب في المجمع :

يرجع نجاح الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن إلى أبي القاسم الحسن بن أبي الفرج ، ويعرف بابن حوشب ، وبمنصور اليمن<sup>(١)</sup> . وقد ولد ابن حوشب بالكوفة . وأمدنا أبو حنيفة النعمان المغربي ، الذي نفعه في عقائد المذهب الإسماعيلي ، وعاصر من الخلفاء الفاطميين المهدي والقائم والمنصور والمعز ، بمعلومات طريفة عن حياة ابن حوشب ، وعن أثره في نشر عقائد هذا المذهب ، فيقول إنه نشأ في أسرة اشتهرت بالعلم ، وخاصة الفقه والحديث . وكان يدين في مسهل حياته بعقائد مذهب الإمامية الاثنا عشرية كسائر أفراد أسرته ، ثم تحول إلى الإسماعيلية على يد محمد الحبيب أبي عبد الله المهدي ، وأخذ عنه عقائد هذا المذهب ، وأصبح من خواصه المقربين إليه<sup>(٢)</sup> . وما زال كذلك حتى أرسله بصحبة ابن فضل الجندني<sup>(٣)</sup> إلى بلاد اليمن حيث أقامه على رئاسة الدعوة في هذه البلاد . وقد

(١) سماه القرظي « اتعاظ الحنفا » ١١٣ : أبا القاسم الحسن بن فرج الصناديق النجار  
(٢) وقد وصف ابن حوشب نفسه كيف اتصل برياسة الدعوة الإسماعيلية ، وكيف تحول من مذهب الانعاشية واعتقد عقائد المذهب الإسماعيلي فيقول : إنه بينما كان يفكر ذات مرة تذكّر القول المأثور عن علي بن محمد بن علي بن موسى الكاظم في سنة ٢٥٢ هـ (٨٦٨ م) من أن المهدي سيظهر بعد اثنتين وأربعين سنة ، أي في سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) وقصيدة الفهرى التي ردد فيها تتبؤ علي بن محمد بن علي بن موسى فقال :

ألا يا مشيعة الحق ذوى الأيمان والبر  
ومن ثم نصرة الله على التخويف والزجر  
فلا تدعوا إلى الداعين أهل التثكث والغدر  
فلو قد فقد العائس أو زيد على العشر  
لدارت عقب الضر على الدائر بالضر  
فنسد الست والتسعين قطع القول في العذر  
لأمر ما يقول النا س بيع الدر باليعر  
وصار الجوهر المكتنون علقا غير ذى قدر

واعتقد ابن حوشب قرب ظهور المهدي ، كما يتضح من قوله : « فخرجت إلى دجلة ، ثم أخذت في قراءة سورة الكهف ؛ فأقبل شيخ يمشي ، ما نظرت إلى أحد إلا عيني هببة قبله . فجلس ناحية ، وجلس الرجل بين يديه . وأقبل غلام فقرب مني ، فقلت : من أنت؟ فقال حسبي ، فاستمعت وقلت : بأبي الحسين المخرج بالدماء المنوع من هذا الماء ! فرأيت الشيخ ينظر إلى ، وكلم الرجل الذي بين يديه ، فقال لي الرجل : تقدم لنا ! فتمت وجاست بين يديه » .

بعد ذلك يقص علينا ابن حوشب الحديث الذي دار بينه وبين هذا الرجل الطاعن في السن ؛ ثم يستورد في الكلام فيبين لنا مبلغ حديث هذا الرجل من نفسه ، وما لاحظته عليه من رجاحة العقل ، ويصف ذلك اليأس الذي تطرق إلى نفسه لجهله المسكان الذي رحل إليه . وبنينا ابن حوشب مطرق يفكر ، إذ انقضت غياهب الأسى عن نفسه حين حضر الرجل الذي كان في صحبة الامام وأخره بمقره

حسن ابراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ٧٧ نقل عن Qutremère, Journal Asiatique, Août, 1836, pp. 123-131

(٣) جندن مفازة باليمن . وذو جندن الملك الحميري

قيل إن أحمد بن عبد الله بن ميمون هو الذي استمال ابن حوشب إليه ، وبعث به إلى بلاد اليمن ، وقال له : يا أبا القاسم ! إن الدين يمان ، والحكمة يمانية ، وكل أمر يكون مبدؤه من قبل اليمن ، فإنه يكون ثابتاً لثبوت نجم اليمن ، وذلك أن إقليم اليمن أعلى إقليم الدنيا ، (١)

وقد علي بن فضل النبي في سنة ٢٦٦ هـ لزيارة بيت الله في مكة ، وعرج منها على الكوفة ، وأظهر إخلاصه للحسين بن علي وأبنائه وتمسكه بعقائد المذهب الشيعي . ويقول ابن خلدون (٢) : كان محمد بن الحبيب ينزل بسلية من أرض حمص ، وكان دعواتهم في كل ناحية يدعون للرضا من آل محمد ، ويرومون إظهار الدعوة بحسب ما عليهم ، وأن الشيعة من النواحي يعملون مكنتهم في أكبر الأوقات لزيارة قبر الحسين ، ثم يعرجون على سلية لزيارة الأئمة من ولد إسماعيل . وكان باليمن قوم يُعرفون ببني موسى ، ورجل آخر يعرف بعلي (٣) بن الفضل ، أصله من سجند . وجاء علي بن الفضل إلى زيارة الامام محمد الحبيب ، فبعث معه رستم .

وقد عرف محمد بن الحبيب قدر ابن فضل ، وتنبأ بما سيكون له من أثر في نشر الدعوة ببلاد اليمن ، وعمل على استمالته لعقائد المذهب الإسماعيلي ، وقال له : الحمد لله الذي رزقني رجلاً نحريراً مثلك ، أستعين به على أمري ، وأكشف له مكنتون سرى . ثم كشف له أمر مذهبه ، وأصغى إليه ، واشرب قلبه ، وتلقى كلامه بالقبول (٤) .

وقد وجد محمد الحبيب في ابن فضل الشخص الذي يستطيع أن يعتمد عليه في نشر عقائد مذهب الإسماعيلية في بلاد اليمن ، فعول على إرساله بصحبة ابن حوشب الذي كان قد أعد له هذه المهمة وقال لابن فضل : والله الله بصاحبك ، وقره واعرف له حقه ، ولا تخالفه فيما يراه لك ، إنه أعرف منك . وإنك إن خالفته لم ترشده ، (٥) وقال لابن حوشب : « وتسم باليمن خلق من الشيعة ، فأخرج وعرفهم أنك رسول المهدي ، وأنه في هذا الزمان يظهر باليمن . واجمع المال والرجال ، والزم الصوم والصلاة والنقش ، واعمل بالظاهر ولا تظهر الباطن وقل : لئكل شيء باطن . وإن ورد عليك مالا تعلمه ، فقل لهذا من يعلمه ، وليس هذا وقت ذكره (٦) .

سار ابن حوشب وابن فضل إلى بلاد اليمن ، وعرجا في طريقهما على مكة ، فوصلا إليها في شهر ذي الحجة سنة ٢٦٧ هـ ، ثم قصدا إلى بلاد اليمن ، ونزلا ببليدة تسمى غمليفقة على البحر الأحمر . واتجه ابن حوشب جنوباً حتى بلغ مدينة الجند الجبلية جنوبي صنعاء وعلى مسيرة ستة أيام منها ، وقصد ابن

(١) الحجاد اليماني : كشف أنصار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٢٣ .

(٢) العبر وديوان المتبدا والخبر ج ٣ ص ٣٦١ .

(٣) وردت في الأصل بمحمد وهو خطأ .

(٤) الحجاد اليماني : كشف أسرار الباطنية ص ٢٣ . (٥) المصدر نفسه ص ٢٣ .

(٦) النويري : نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٦ ورقة ٢٤ .

فضل جيشان ويافع الجبلية المنبعة ، القريبة من الجند . وكان لبعده بلاد اليمن عن مركز الدولة العباسية ، ومناعتها ووعورة الطريق إليها ، وما صادفته عقائد الخوارج والمذاهب الشيعية كالزيدية والاثنا عشرية من رواج فيها ، وضعف ولاية العباسيين وعجزهم عن قمع الفتن والثورات التي كانت تقوم فيها من حين إلى حين — كان لذلك كله أثر كبير فيما صادفته الدعوة الإسماعيلية من نجاح في هذه البلاد . فقد تمكن ابن حوشب من الوصول إلى ولاعة ، وهي مدينة على جبل جنوبي صنعاء ، وعلى مقربة منه قلعة يقال لها عدن لاعة ، وهنا ألقى ابن حوشب زحاله ، واتخذ هذه القرية الحصينة مركزا لنشر دعوته ومد نفوذه . ولم يلبث أن جذب إليه أهالي هذه البلاد الذين انفخوا حوله بفضل ما أظهره من الورع والزهد والتقشف ، وأقام الحصون والمعازل ، وانتصر على والي العباسيين وعلى أمراء اليمن . وفي سنة ٢٧٠ هـ بنى جنوبي صنعاء دار هجرته بجبل مسور الذي أصبح مركز الدعوة الإسماعيلية ونواة الجيوش التي اعتمد عليها في نشر هذا المذهب . ومن ثم عرف ابن حوشب بمنصور اليمن ، بفضل ما أحرزه من الانتصارات في هذه البلاد التي لم تلبث أن خضعت لنفوذه ، وأصبحت مركزا يمد منه دعوته في البلاد الإسلامية . ولا غرو فقد فرقت الدعوة في اليمن والبحرين والنجامة والسند والهند ومصر والمغرب ، (١) .

أما علي بن فضل فقد تمكن بدعائه من أن يجمع القلوب حوله ، واتخذ جيشان ويافع مركزا لنشر دعوته ومد نفوذه ، وحارب بعض رؤساء اليمن ، حتى صفت هذه البلاد له ولا بن حوشب . على أن ابن فضل لم يلبث أن خرج على المذاهب الإسلامية قاطبة ، وادعى النبوة . ويقول بهام الجندي في ذلك :

خذى الدف يا هذه والعي وغنى هزازيك (٢) ثم اطرابي  
 تولى نبي نبي هاشم وهذا نبي نبي يعرب (٣)  
 لسكل نبي مضى شرعة وهذا شريعة هذا النبي (٤)  
 فقد حط عنا فروض الصلاة وحط الصيام ولم يتعب  
 إذا الناس صلوا فلا تمنضى وإن صوموا فكلى واشربى  
 ولا تطلبى السعى عند الصفا ولا زورة القبر فى يثرب (٥)

وليس أدل على ما بلغه ابن فضل من نفوذ من أنه حين حلق رأسه بصنعاء ، خلق له موافقة

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن من ١٤٢ — ١٤٣ ، القرينى : انماط الحنفا ص ٢٧

(٢) الهذار العندليب ، يعنى غنى نعمتين من نعمات الهزار

(٣) يعنى على بن فضل اليمنى (٤) هذه الشريعة الجديدة هى الاباحة

(٥) عمارة اليمنى تاريخ اليمن من ١٤٥ .

مائة ألف نفس ، ولم يلبث أن ثار ابن فضل على رياسة الدعوة الإسماعيلية ، وقام الصراع بينه وبين ابن حوشب على ماسياتي :

٤ - أبو عبد الله الشيعي في بلاد المغرب :

اتصل أبو عبد الله الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا ، وكان من أهل صنعاء باليمن ، بمحمد الحبيب أبي عميد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين ، الذي آنس فيه الكفاية والذكا ، فأرسله في سنة ٢٧٨ هـ إلى بلاد اليمن ، حيث أخذ أصول الدعوة الإسماعيلية التي نشرها عن ابن حوشب بعدن لاعة ، ولم يلبث أن أصبح من كبار أصحابه . وكان أبو عبد الله يعتقد أول الأمر عقائد الاثنا عشرية ، كما كان يعرف بالمعلم ، لأنه كان يقوم بتعليم هذا المذهب قبل أن يعتنق مذهب الإسماعيلية . وقيل أيضا إنه تولى الحسبة في أحد أعمال بغداد .

ولما اتصل ابن حوشب نبأ موت الحلواني وأبي سفيان داعيي الإسماعيلية في المغرب ، عهد إلى أبي عبد الله الشيعي ، لما رآه فيه من العلم والذكا والمكر والدهاء ، في القيام بالدعوة إلى هذا المذهب وقال له : إن أرض كتامة من بلاد المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان وقد ماتا ، وليس لها غيرك ، فبادر فانها موطأة مبهدة لك ، (١) .

وغادر أبو عبد الله اليمن إلى مكة ، بعد أن زوده ابن حوشب بما احتاج إليه من الأموال ، كما زوده بنصائحه . ولما وصل إلى مكة ، سأل عن حجاج كتامة ، فأرشد إليهم ، فاجتمع بهم ، ولم يعرفهم قصده . وجلس قريبا منهم ، فسمعهم يتحدثون بفضائل أهل البيت ، فأظهر استحسان ذلك ، وحدثهم بما لم يعلموه ، (٢) . فسألوه أن يأذن لهم في زيارته لما رأوا من علوه وعقله ، وأحبوه لأن من شأن كتامة وإلى الآن تعظيم من تأسس ( كذا ) بشيء من العلم والرفع من شأنه (٣) ، فاجابهم إلى ذلك ، فأخذوا يترددون عليه ، وما زال يتعرف أخبارهم . فلما تحقق من اضطراب الأحوال في بلاد المغرب ، استيقن تمام أمره فيهم ، (٤) . وقد ادعى انه يقصد مصر ، فسروا بصحبته ، وساروا جميعا من مكة ، وهو في كل ذلك يجذبهم إليه بما أوتيته من بلاغة ودهاء ، حتى وصلوا إلى مصر ، فأخذ يودعهم ، فشق عليهم فراقه ، وما زالوا به حتى أجاهم إلى المسير معهم ، فاستأنفوا السير حتى وصلوا إلى

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١١٨

قال المقرئ في « اتعاط الحنفا ص ١٣ » إن أبا عبد الله الشيعي أرسل هو وأخوه أبو العباس من سلبية مباشرة ، ولمكن المصادر الأخرى قد أجمت على أنه إنما سار من سلبية إلى اليمن ومنها إلى المغرب

(٢) المنصوري : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول ج ٥ ص ١٤٥

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ١٠٦

(٤) ابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ٣٢

بلاد كتامة في شهر ربيع الأول سنة ٢٨٨ هـ ، وهي في بلاد الجزائر اليوم . وأقبل عليه أهل هذه البلاد ودعوه إلى النزول في بيوتهم ، فسألهم : أين فجع الأخيار ؟ (١) فدلوه عليه ، فنزل به ، وسماه دار الهجرة . وقال للناس : وهذا فجع الأخيار ، وما سعى إلا بكم . ولقد جاء في الآثار للبهدي هجرة ينبو بها عن الأوطان ، ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان ، قوم اسمهم مشتق من السكتان ، ولخروجكم من هذا الفخ ، سعى فجع الأخيار . ثم قال لهم : أنا صاحب البذر الذي أخبر به أبو سفیان والحلواني ، وبشرهم بقرب ظهور المهدي . فتسامعت به القبائل ، وأتته البربر من كل مكان ، وازدادت محبتهم إياه وعظم أمره فيهم (٢) .

وبالرغم من معادضة السكتامين وغيرهم من القبائل المجاورة كان مركز أبي عبد الله الشيعي محوطا بكثير من المصاعب ، فقد أثارت مساعدة هؤلاء لدعوته حنق كثير من زعماء المغاربة وفقهائهم . على أن هؤلاء الفقهاء لم يستطيعوا أن يتلوا منه ، لما أوتيه من الفصاحة والعلم والذكا . كما تمكن من القضاء عن المؤامرات التي حاكها البربر ليحولوا دون نشر دعوته . فتكاثر الداخلون في طاعته رغبة ورهبة ، وتوافرت جموعه ، وقوى أمره (٣) . واستقام له أمر البربر وعامة كتامة (٤) .

ولم يدخر إبراهيم الثاني الأغلبي ( ٢٦١ - ٢٨٩ هـ ) وسعا في القضاء على دعوة أبي عبد الله الشيعي ، فحاول أن يجذبه إليه أول الأمر ، وأرسل إليه رسالة يعده ويتوعده فيها . فلم يجبه أبو عبد الله إلى ماطلب ، ورد عليه بكتاب يدل على جرأته واستصغار شأن الأغالبة (٥) . ومن ثم أخذ الأغالبة يرسلون حملاتهم لمحاربة الإسماعيلية . وكانت أولى هذه الحملات في سنة ٢٨٧ هـ ، أي قبل وفاة إبراهيم الأغلبي بستين ، وكان النصر فيها حليف أبي عبد الله . ولكن إبراهيم الأغلبي عول على مواصلة القتال ، فأرسل جيشا آخر ، لكنه لم يلبث أن حلت به الهزيمة .

وفي سنة ٢٩١ هـ بدأت أعمال أبي عبد الله الشيعي الهجومية ، ووقع في يده كثير من المدن . وبما ساعد على مد فتوحه ، موت إبراهيم الثاني الأغلبي سنة ٢٨٩ هـ ( ٩٠٢ م ) ، ولحاق ابنه أبي العباس عبد الله به في السنة التالية ، وتولية ابنه زيادة الله ( ٢٩٠ - ٢٩٦ هـ ) الذي قضى أيامه في اللهو والترف ، وميل وزرائه إلى عقائد المذهب الشيعي الذي اعتنقه أهالي هذه البلاد . ولم يلبث أبو عبد الله أن مد نفوذه في جميع البلاد الواقعة إلى الغرب من مدينة القيروان التي أسسها عقبه بن نافع النهري في القرن الأول الهجري ، وتبعد أربعة أميال عن مدينة رقادة (٦) .

(١) في جبل ليكجان من أرض كتامة على مقربة من قسنطينة

(٢) أبو عبيد البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٦٣-٦٤ ، ابن الأثير ج ٨ ص ١٢

انظر أيضا : Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne, vol. III. p. 10 ، حسن إبراهيم

حسن : القاطميون في مصر ص ٥٣ - ٥٥

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ١٠٨

(٤) المنصوري : زبدة الفكرة ، مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول ج ٥ ورقة ١٥٥

(٥) وردت هاتان الرسالتان في النويري : نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٦ ورقة ٢٦

(٦) أنظر البكري : كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٢-٢٧ .

ولم تنقطع الحرب بين جبوش أبي عبد الله الشيعي ، وجيوش زيادة الله الأغلبي بين سنتي ٢٩١ ، ٢٩٦ هـ . وتعد موقعة الأربس (١) من المواقع الحاسمة ، لأنها أدت إلى زوال دولة الأغالبة بإفريقية ، واستقرار نفوذ الفاطميين ، وأدت إلى فرار زيادة الله من رقادة ، ودخول أبي عبد الله الشيعي إلى مدينتي رقادة والقيروان ، ثم تخلص عبيد الله المهدي من سجنه بسجلماسة كما تقدم .

اتبع أبو عبد الله الشيعي سياسة تنطوي على الحكمة وبعد النظر ، وإقرار العدل بين الناس ، كما يتبين من هذه الحكاية التي رواها ابن عذارى (٢) ، وهي أن أبا عبد الله لما استولى على مدينة طبنة في سنة ٢٩٣ هـ أتاه والي هذه المدينة مع بعض عمال الجباية وأعطوه الأموال التي جمعوها من الأهليين ، فقال أبو عبد الله لأحدهم : من أين جمعت هذا المال ؟ فقال له من العشور ، فقال أبو عبد الله : إنما العشور حبوب وهذا عين ، ثم قال لقوم من ثقات طبنة : اذهبوا بهذا المال ، فليرد على كل رجل ما أخذ منه ، واعلموا أنهم أمناء على ما يخرج الله لهم من أرضهم ، وسنة العشور معروفة في أخذها وتفرقتها على ما ينصه كتاب الله عز وجل . ثم قال لآخر : من أين هذا المال الذي بيديك ؟ قال : جيبته من اليهود والنصارى جزية عن حول مضي لهم ، فقال : وكيف أخذته عينا ؟ وإنما كان يأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الملى ثمانية وأربعين درهما ، ومن المتوسط أربعة وعشرين درهما ، ومن الفقير اثني عشر درهما ؟ فقال له : أخذت العين عن الدراهم بالصرف الذي كان يأخذه عمر رحمه الله ، فقال أبو عبد الله : هذا مال طيب ، ثم أمر أحد الدعاة بأن يفرقه على أصحابه . وقال لمن أتاه بمال الخراج : هذا مال لا خير فيه ولا قننى له ولا خراج على المسلمين في أموالهم . ثم أمر ثقات أهل طبنة برده على أهله ، وقبض مال الصدقة من الإبل والبقر والغنم بعد أن قيل له إنها قبضت الأنعام على الأسنان الواجبة في الصدقات ، ثم بيعت وجمعت أثمانها ، فرضى بذلك وجوزته . فلما نظر أهل طبنة إلى فعله مروا به ورجوا أن يستعمل فيهم الكتاب والسنة ، وانتشر فعله في نواحي إفريقية ، فتأقت أنفسهم إليه وكاتبوه ودخلوا في طاعته .

وكذلك يدلنا على حسن سياسة أبي عبد الله الشيعي ، هذا الحديث الذي دار بينه وبين أخيه أنى العباس حين أراد أن ينشر المذهب الإسماعيلي بين الناس بالعنف والإكراه ، فمنعه أبو عبد الله . يقول النويري (٣) : ولما وصل أبو العباس ، أراد أن ينشئ عن القيروان من يخالف مذهبه ، فقال أبو عبد الله : إن دولتنا دولة حجة وبيان ، وليست دولة قهر واستطالة ؛ فاترك الناس على مذاهبهم .

بذلك استطاع أبو عبد الله الشيعي أن يجهر بالدعوة لعلى وفاطمة ، فأمر بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى الحسين وفاطمة (٤) ، وضرب السكة منقوشا على أحد وجهيها : وبلغت

(١) كانت فيما بعد تعد باب المهديّة التي أسسها عبيد الله المهدي الفاطمي . انظر الأربس في معجم البلدان لياقوت .

(٢) البيان المغرب ج ١ ص ١٣٦-١٣٧

(٣) نهاية الأرب : مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٦ ورقة ٢١ . (٤) ابن خلدون : العبرج ص ٣٦ .



حجة الله ، ، وعلى وجهها الآخر : « تفرق أعداء الله ، ، وكتب على السلاح : « عدة في سبيل الله ، ،  
ونقش على خاتمه الذي يختم به : « فتوكل على الله إنك على الحق المبين » (١) ، وعلى خاتمه الذي يستخدمه  
في الطبع على السجلات : « تمت كلمات ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته » (٢) . وإذا ركب نودي  
في الجيش : « يا خيل الله اركبي » ، وكتب على أخاذ الخيل : « الملك لله ، ، وعلى أعلامه : « سيهزم  
الجمع ويولون الدبر » (٣) .

وبذلك تكملت جهود الإسماعيلية في دور الستر بالنجاح ، وتكونت لهم في شمال إفريقيا دولة  
عرفت باسم الدولة الفاطمية ، كما عرفت أيضا باسم دولة العبيديين ، نسبة إلى عبيد الله المهدي مؤسس  
هذه الدولة .

## ٢ - دور الظهور

### (١) نشر الدعوة الفاطمية في الدور المغربي

قامت الدولة الفاطمية في المغرب بفضل ما بذله دعاة الإسماعيلية من جهود في دور الستر ، وأصبح  
لهؤلاء الإسماعيلية دولة قوية تستطيع أن تناوى الدولة العباسية ، وتعمل على تنظيم هذه الدعوة تنظيما  
يتفق مع قوتها واتساع رقعة بلادها ، وتشعر أنصارها بزعامتها وأحققتها بالسلطين الزمنية والدينية ،  
أو بعبارة أخرى بالخلافة والإمامة . ومن ثم نرى الفاطميين يوجهون همهم إلى نشر دعوتهم في جميع  
أنحاء العالم الإسلامي عن طريق دعايتهم ، وأصبحوا يولون من يشاءون ويعزلون من يشاءون في البلاد  
التي ساد فيها المذهب الإسماعيلي ، كبلاد اليمن والبحرين .

### ١ - في اليمن :

في بلاد اليمن نرى الدعوة الإسماعيلية في ذلك العصر تتعرض لخطر جسيم بسبب قيام النزاع بين  
ابن حوشب ( منصور اليمن ) ، وبين علي بن فضل الذي خرج على الدعوة الإسماعيلية ، ولم يعبا بنفوذ  
عبيد الله المهدي الذي أسس الدولة الفاطمية في أواخر سنة ٢٩٦ هـ ، بل لقد خلع طاعة عبيد الله  
المهدي وحارب ابن حوشب ، واستولى على عدن لاعة وحاصره بجبل مسور نحو من ثمانية أشهر .  
ويقول الحمادي (٤) : « إن علي بن فضل ملَّ المقام ، فلما علم منه المنصور ذلك دس عليه في أمر  
الصلح فقال : استأجر أبرح وقد علم أهل اليمن قصدى لمحاصرته ، إلا أن يرسل إلى بعض أهل ولده ،  
فيكون ذلك لي مخرجا عند الناس ، ويعلمون أنه قد دخل في طاعتي . فأرسل إليه ولده ، ودفعه بالتي  
هي أحسن ، فرجع إلى « المذيخرة » القريبة من عدن فأقام عنده ولد المنصور سنة ، ثم رده إلى أبيه ،  
وبره وظوقه بطوق من ذهب ،

(٢) سورة الأنعام ، آية ١١٥ .

(١) سورة النمل ، آية ٧٩ .

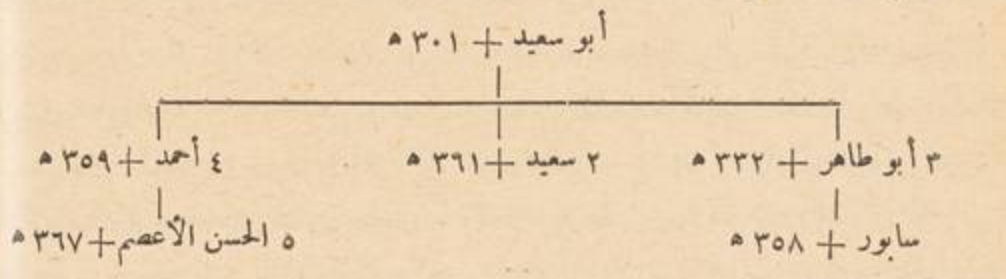
(٣) سورة القمر ، آية ٤٥ .

(٤) كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٣٦ .

غلا بن فضل في عقائده ، وخرج على مبادئ الإسلام ، حتى قيل إنه ادعى الألوهية ، وسماه أنصاره «رب العزة» . وكان إذا خاطب نوابه استهل كتبه بعبارة «من باسط الأرض وداحبها ، ومزلزل الجبال ومرسبها على بن الفضل» (١) . وسمى ابنه «ابن رب العزة» ، و«أمر بقطع الحج وقال : حجوا إلى الحرف ، واعتمروا إلى الدلي» (٢) .

وكانت هذه الحرب من العوامل التي كان لها أثر في إضعاف الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن ؛ فقد مات ابن فضل مسموما في سنة ٥٣٠٣ هـ ، بتحريض عبيد الله المهدي كما قيل (٣) . وخلفه ابنه ، وكان ضعيفا ؛ فتمكن السنيون من القضاء عليه دون أن يحرك أنصار ابن حوشب ساكنا أو يقدموا إليه أية مساعدة . وكذلك كان لموت منصور اليمن في سنة ٥٣٠٢ هـ أثر كبير في ضعف هذه الدعوة ببلاد اليمن . فقد كان أبنائه يأملون بقاء رياسة الدعوة في أيديهم ، ولكن عبيد الله المهدي قضى على هذه الآمال بتوليته عبد الله بن عباس الشاوري بعد منصور اليمن ، مما أثار حنق أبنائه ، حتى إن أحدهم خلع طاعة المهدي ، وقتل الشاوري الذي آلت إليه رياسة الدعوة ، ولم يصغ إلى نصيحة أخيه جعفر بن منصور اليمن الداعي صاحب المؤلفات الإسماعيلية السكثيرة ، وتحول إلى المذهب السني (٤) . واتخذ السنيون من هذا الخلاف الذي تفاقم بين الإسماعيلية في اليمن فرصة للقضاء على هذا المذهب وأنصاره ، مما حمل البقية الباقية من أنصار الفاطميين على التستر ونشر دعوتهم في الخفاء ، حتى لا يتمكن السنيون من استئصالهم ، وظلوا على ذلك منذ أوائل القرن الرابع حتى ظهرت قوتهم من جديد على يد علي بن محمد الصليحي حول منتصف القرن الخامس الهجري ، في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي . وصفوة القول أن بلاد اليمن قامت بدور هام في سبيل نشر الدعوة الإسماعيلية في دور السِّر أولا ، ثم في دور الظهور ، حتى إن البهرة ، أحد فرعي الإسماعيلية الحديثين يعتبرون الورثة الحقيقيين لترات الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن .

## ٢ - في البحرين :



(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٤٨ .

(٢) موضع بالقرب من المذبحرة والدالي موضع على مقربة من الحرف نفسه . أنظر الحمادي اليمني : كشف أسرار الباطنية ص ٣٣ .

(٣) أنظر De Goeje : Encyclopaedia of Religion and Ethics, vol. III, p. 224, art. Carmathians

(٤) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٥١ .

رأينا كيف استطاع أبو سعيد الجنابي تأسيس دولة في بلاد البحرين . وقد نهج في أخريات حياته سياسة التقرب من العباسيين ، الذين استمعوا لنصيحة علي بن عيسى وزير الخليفة العباسي المقتدر ( ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ ) ، وعملوا على استمالة أبي سعيد إليهم . ولذلك نرى أبا سعيد لا يقوم بأية محاولة جديدة لمساعدة الفاطميين حين غزوا مصر للمرة الأولى في سنتي ٣٠٠ ، ٣٠١ هـ . ولم يقتصر أبو سعيد على ذلك ، بل غلا في عقائده وادعى لنفسه من مظاهر التقديس ما لم يدعه أئمة الإسماعيلية أنفسهم . (١) ولما قتل أبو سعيد في الحمام بيد أحد خدومه في سنة ٣٠١ هـ ، اعتقد بعضهم أن ذلك كان بتدبير عبيد الله المهدي ، كما فعل مع ابن فضل بعد ذلك بسنتين .

ولما تولى ابنه سعيد ( ٣٠١ - ٣٠٥ هـ ) سار على سياسة أبيه التي تنطوي على التقرب من العباسيين والتباعد عن الفاطميين ، مما حزّ في نفوسهم ونفوس فريق من القرامطة ، الذين كانوا لا يزالون على ولائهم للفاطميين بعد قيام دولتهم في بلاد المغرب ، فأثاروا الفتن في وجه سعيد وخلعوه وولوا أخاه أبا طاهر ، وأقرهم عبيد الله المهدي على ذلك ( سنة ٣٠٥ هـ ) (٢) . وقد أخذ أبو طاهر على عاتقه تنفيذ سياسة الفاطميين ، وتحقيق أغراضهم التي كانت ترمي إلى القضاء على العباسيين . ومن ثم نرى أبا طاهر يوجه حملاته الإرهابية إلى العباسيين في الوقت الذي كانت تغزو فيه جيوش الفاطميين مصر . ففي سنة ٣٠٧ هـ نرى أبا طاهر يحاول الاتصال بجيوش الفاطميين في مصر بزعامة أبي القاسم ابن عبيد الله المهدي ؛ ولكن مؤنسا الخادم قائد الخليفة العباسي المقتدر يحاول دون اتصال جيوش أبي طاهر وجيوش الفاطميين (٣) . كذلك نرى أبا طاهر يشن إغاراته البحرية على جنوب غربي بلاد فارس في الوقت الذي تتوجه فيه جيوش الفاطميين حين غزوتهم لمصر في سنة ٣٢١ هـ . وإنما فعل أبو طاهر ذلك ، ليشغل جيوش العباسيين ويتيح الفرصة للفاطميين لاكتلاك مصر ، وتحقيق غرضهم الأساسي ، الذي كان يرمي إلى امتداد نفوذهم إلى هذه البلاد واتخاذها جسراً يعبرون منه إلى بغداد نفسها حاضرة الدولة العباسية في ذلك الحين (٤) .

وقد ذهب ابن الجوزي (٥) إلى وجود علاقة بين أبي طاهر القرمطي ، وابن أبي الساج قائد العباسيين ، وقد بعث به لمحاربة أبي طاهر ، الذي ظل على ولائه للفاطميين إلى أن توفي سنة ٣٢٢ هـ ، والذي أعلن غير مرة تبعيته للفاطميين . فتراه يشيد في إحدى قصائده بأحقيتهم بالخلافة ، ويقرر هذه التبعية في قصيدة أنشدها بعد عودته من العراق دون أن يحقق أمنيته في فتح هذه البلاد ، وفيها يعلن في صراحة أنه من أتباع المهدي ورعاياه ، وأنه عول على القضاء على العباسيين وإعادة النفوذ إلى العلويين :

(١) De Goeje : Mémoires sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides, p. 69 .

(٢) ابن خلدون : المغرب ج ٤ ص ٨٨ - ٨٩ .

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ٨٩ .

(٤) النويري : نهاية الأرب ، مخطوط بدار السكتب المصرية ج ٢٣ ص ٩٣ .

(٥) دى غوبه : Les Carmathes du Bahrain, pp. 216 - 8 ، نقل عن ابن الجوزي : مخطوط

شيفر Schefer ، ص ١١٤٣ .

أغرّم منى رجوعى إلى هجر  
إذا طلع المربخ في أرض بابل  
فتمنّ مبلّغ أهل العراق رسالة  
فياويلهم من وقعة بعد وقعة  
سأضرب خيلى نحو مصر وبرقة  
أكيل لهم (٣) بالسيف حتى أيدهم  
أنا الداعى للهدى لاشك أنى  
أعترى حتى يأتى عيسى بن مريم  
ولكنه حتم علينا مُقدّر  
ففى جنة الفردوس لاشك مضجعى

وهكذا كان الخلفاء الفاطميون يتدخلون في تولية زعماء القرامطة رياسة الدعوة الإسماعيلية في البحرين . فإن أباطاهر لما مات فى سنة ٥٣٣ هـ ، أقر الخليفة الفاطمى القائم أخاه أحمد فى رياسة الدعوة هناك ، وولى سابور العهد من بعده . ولكن أحمد كان يؤثر ابنه الحسن الأعصم على ابن أخيه سابور . ومن ثم دب النزاع بين بيت أبى طاهر ، وبيت أخيه أحمد ، وانتهى الأمر بقتل سابور فى سنة ٥٣٥ هـ ، وتولية الحسن الأعصم عهد أبيه أحمد . وسرى كيف استغل الفاطميون هذا النزاع لتوطيد نفوذهم بين القرامطة ، وكيف كان ذلك من العوامل التى أدت إلى قيام النزاع بين القرامطة والفاطميين حينئذ من الزمن .

### ٣ - فى فارس :

راجت الدعوة الإسماعيلية فى بلاد فارس منذ أيام عبد الله بن ميمون القداح ، الذى أرسل الدعاة إلى هذه البلاد ، كما أرسل الحسين الأهوازى إلى سواد الكوفة ، والحلوانى وأبا سفيان إلى المغرب ، وابن حوشب إلى اليمن . ومن أشهر دعاة فى بلاد فارس ، خلف ، الذى قام بنشر الدعوة الإسماعيلية فى بلاد الرى وقمّ وقاشان ، الواقعة بين أصهان والجبل ، وطبرستان ، وتسمى أيضاً مازندران ، وتقع بين الرى وقومس وبحر قزوين وبلاد الديلم . وكان خلف يشتغل فى بدء أمره

(١) يعنى أنهم كانوا يعتقدون بقرب زوال الدولة العباسية وقيام دولة أخرى على أنقاضها هى الدولة الفاطمية التى بناصرها أبو طاهر .

(٢) ليس فى هذا ثورة على الفاطميين ، إذ لا يبعد أن جبهوشه مستعمل على فتح مصر وما يليها غرباً حتى تتصل بجيوش الفاطميين هناك .

(٣) فى الأصل أكيلهم والصواب أكيل لهم .

(٤) الدهى : تاريخ الإسلام ، مخطوط ، ج ٣ ص ٦٠ - ٦١ .

(٥) ورد هذا البيت فى البيرونى : الآثار الباقية ص ٢١٤ ، وسقرا من أسماء النار .

بمحاكاة الملابس وحاج القطن ، وتمكن من أن يجمع حوله لقيفاً من الإسماعيلية ، عرفوا باسم الخلفية نسبة إليه ، وأن يجذب إليه طائفة من رجال العلم من أمثال الداعي غياث الذي أصبح في عهد ابنه أحمد بن خلف نائباً عنه في رياسة الإسماعيلية أو الخلفية ، كما كانت تسمى أيضاً في فارس (١) . وكذلك عمل غياث على جذب كبار الأمراء في هذه البلاد إليه . ومن هؤلاء الأمير الحسين بن علي المرورودي ، الذي كان يتمتع بنفوذ كبير في الطالقان وهرارة والغور ، كما عمل على جذب كثير من العلماء ، حتى إنه جعل أبا حاتم معروف النيسابوري الشاعر (ت سنة ٣٢٢ هـ) نائباً عنه في نشر الدعوة الإسماعيلية في خراسان (٢) .

ومما هو جدير بالملاحظة أن الدعوة الإسماعيلية في فارس اصطبغت بالصبغة العلمية والفلسفية ، بخلاف ما كانت عليه في المغرب . ففي فارس يستطيع أهلها فهم الدعوة الإسماعيلية بدرجاتها المختلفة الصعبة ؛ ولا عجب في ذلك فقد تأثروا منذ عهد بعيد بنظريات التناسخ والحلول من سُمسنية الهند وفلاسفة اليونان ، وخاصة الذين هربوا من اضطهاد الأمبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٧ هـ) إلى بلاد فارس حيث تلقاهم كسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٠ م) ورحب بهم وفتح لهم جامعة في جنديسابور . أضف إلى ذلك ما تركته مدرسة حران من أثر في نشر الفلسفة اليونانية ، وتعلق الفرس بالعلويين ، واعتقادهم أحقيتهم بالملك دون الأمويين والعباسيين ، ولا سيما بعد أن ارتبطوا مع العلويين بالمصاهرة . ويقول دي جوينو (٣) : وكانت العقيدة الثابتة عند الفرس ، أن العلويين وحدهم يملكون حق حمل التاج ، وذلك بصفته المزدوجة ، لكونهم وارثي آل ساسان من جهة أهمهم بيي شهر بانوه ابنة بيزجرد الثالث آخر ملوك الفرس ، ووارثي الأئمة رؤساء الدين الإسلامي حقا . ومن أكبر دعاة الإسماعيلية في الدور المغربي في فارس ، أبو حاتم الرازي (ت ٣٢٢ هـ) الذي قام بدور هام في طبرستان والديلم ، وفي أصفهان والري ، حيث تبعه جماعة من كبار رجال الدولة مثل الأصغر بن شيرويه أمير قزوين ، وقائده مرداويج بن زيار الديلمي ، وكانا من قبل تحت رياسة يوسف بن أبي الساج أمير الري من قبل العباسيين (٤) . ويظهر أن تأثير أبي حاتم الرازي كان كبيرا بين هؤلاء الأمراء ، حتى إن يوسف بن أبي الساج فكّر في خلع طاعة الخليفة المقتدر العباسي (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) والدخول في طاعة الإمام العلوي في القيروان ، وهو عبيدالله المهدي (٢٩٦ - ٣٢٢ هـ) ، كما عزم على شق عصا الطاعة للخليفة العباسي ، وإظهار الدعوة للخليفة الفاطمي إذا تم له جمع خراج واسط والكوفة وسقي الفرات (٥)

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٦ .

(٢) نظام الملك : سياسة نامه ، vol. II. pp. 271 - 2 . Nizam el-Mulk : Siasset Nâmeh ,

(٣) De Gobineau : Religion et Philosophie dans l'Asie Centrale , p. 275 .

(٤) كان مرداويج بن زيار أحد قواد الأصغر أمير قزوين ، إلا أنه طرده ، واستولى على بلاده ، ثم فتح

الري وأصفهان .

(٥) مسكويه : تحارب الأمم ج ١ ص ١٦٧ - ١٦٨ .

كذلك بعث مرداويج بن زيار إلى عبيد الله المهدي الهدايا والأموال الكثيرة ، وأعلن رغبته في  
الدخول في طاعته .

ومن أشهر دعاة الإسماعيلية محمد بن أحمد النسفي ( ت ٣٣١ هـ ) ، وكان عالماً أديباً ، اشتهر بحرية  
الرأى . وقد أوصاه أستاذه الحسين بن علي المروزي داعي الإسماعيلية في خراسان ، والذي كان قد  
استجاب إلى دعوة الداعي غياث كما تقدم ، بأن يعمل على جذب نصر بن أحمد الساماني ( ٣٠١ -  
٣٣١ هـ ) أمير خراسان وما وراء النهر إليه . وقد وفق النسفي في ذلك إلى حد كبير . وذكر ابن النديم  
أنه ولما تمكن الحسين بن علي المروزي من بلاد خراسان ، حبسه نصر بن أحمد ، فمات في حبسه ،  
فخلفه النسفي ، واستغوى نصر بن أحمد وأدخله في الدعوة ، وأغرمه دية المروزي مائة وتسعة عشر ديناراً ،  
في كل دينار ألف دينار ، وزعم أنه ينفذها إلى صاحب المغرب القيم بالأمر ، وكان ذلك حوالي  
سنة ٣٣٠ هـ ، ومات نصر بعد ذلك بقليل (١)

من ذلك نستطيع أن نقول إن نصر بن أحمد أخلص للفاطميين ، وإن ما ذكرناه من قبل (٢)  
عن اتصاله بعبيد الله المهدي ، وتقديم مساعده الحربية له ، كان يستند إلى شيء كثير من الصحة . كما  
يؤيد هذا الرأى ما ذكره نظام الملك عن نهاية نصر بن أحمد ، من أن قواده سخطوا عليه لاعتناقهم  
عقائد الإسماعيلية ، ودبروا مؤامرة لاغتياله ، فنزل عن الإمارة إلى ابنه نوح الذي عمل للقضاء على  
هذا المذهب وعلى أنصاره في بلاده . (٣)

#### ٤ - في مصر :

رأينا من قبل أن ابن حوشب ( منصور البين ) بعث الدعوة لنشر عقائد المذهب في اليمن والبحرين  
واليامنة والسند والهند ومصر والمغرب (٤) ، وأن عبيد الله المهدي استطاع أن يفر من سلبية إلى  
بلاد المغرب بمعونة دعاة ابن حوشب في مصر ، وأن بفلت من أيدي عمال العباسيين أنفسهم وهو في  
طريقه إلى المغرب . ونستطيع أن نتبين مدى نشاط الخلفاء الفاطميين لنشر دعوتهم في مصر  
مما أورده الكندي (٥) عن الحملة الفاطمية الأولى على مصر في سنة ٣٠١ هـ ، من أنه قد أصبح فيها في  
ذلك الوقت كثير من الأهلين تأثروا بالدعوة الفاطمية وعطفوا عليها ، ووعدوا بتصرة الفاطميين ،  
بل لقد دفعوهم إلى غزو هذه البلاد . وإلى هذه الحوادث يشير ابن مهران أحد شعراء مصر المعاصرين  
في هذه الآيات :

وقد وافى حياصة في كُتّام بكل مهند وبكل خَطلى

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٦ .

(٢) أنظر ص ١٥٧ من هذا الكتاب .

(٣) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ٧٢ - ٧٤ ، ص ١٥٦ - ١٥٧ من هذا الكتاب

(٤) المقرئ : انماط الحنقا ص ٢٧ .

(٥) كتاب الولاة ص ٢٧٦ .

وأقبل (١) جاهلا حتى تخطى وجاز بجمله حد التخطى  
بكتيب جماعة قد كاتبوه من أقباط بمصر وغير قببط  
وكل كاتبوه وناقوننا وكل في البلاد له موطى (٢)

وقد شغلت ثورة أبي يزيد الفاطميين عن فتح مصر في البقية الباقية من عهد القائم (٣٢٢-٣٣٤) وطوال عهد المنصور (٣٣٤-٣٤١ هـ) ، لأن حالة المغرب الداخلية تطلبت كل جهود هذين الخليفين ، كما تطلبت كل موارد البلاد المالية . على أن الدعوة للبيت العلوي صادفت نجاحا عظيما في مصر . وعلى الرغم من أن الفاطميين لم ينجحوا في محاولتهم فتح مصر في سنى ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٧ - ٣٠٩ ، ٣٢١ - ٣٢٤ هـ ، كانوا يرسلون مع الجيوش دعاة لنشر مذهبهم ؛ فكانوا يختلطون بالمصريين ويلقونهم عقائد المذهب الفاطمى . فاعتنق كثير من هؤلاء المصريين هذا المذهب قبل الفتح الذى تم فى عهد الخليفة المعز سنة ٣٥٨ هـ . ولم تقتصر جهود الفاطميين فى نشر دعوتهم على هؤلاء الدعاة ، بل كان لخلفائهم نصيب كبير فى نشر هذه الدعوة . فقد ذكر ابن سعيد (٣) أن الخليفة القائم الفاطمى كتب بيده كتابا بعث به مع رسول من قبله إلى محمد بن طنج الإخشيد ، رغبة منه فى أن تفعل سياسة اللين والمسالمه مالم تفعله سياسة العداه والحرب ، تلك السياسة التى أخفق فيها هو وأبوه من قبل . وهاك هذا الكتاب بنصه :

و قد خاطبتك أعزك الله فى كتابى المشتمل على هذه الرقعة ، بما لم يجز لى فى عقد الدين ، وما جرى به الرسم من سياسة أنصار يُستنجلبون : وضمنت رقعتى مالم يطلع عليه أحد من كتابى وذوى المكانة عندى . وأرجو أن تردك صحة عن يمتك وحسن رأيك ، إلى ما أدعوك إليه ، فقد شهد الله على عملى إليك وإيثارى لك ، ورغبى فى مشاطرتك ما حوته يمينى واحتوى عليه ملكى . وليس يستوجه لك العذر فى التخلف عن إجابتى ؛ لأنك قد استفرغت مجهودك فى مناصحة قوم لا يرون إحسانك ولا يشكرون إخلاصك ، يخلفون وعدك ويخفرون ذمتك ، لم يعتقد منهم أحد حسن المكافأة ولا جميل الجازاة . وليس ينبغى لك أن تعدل عن منهج من نصحك وإيثار من آثرك ، إلى من يجمل موضعك ويضيع حسن سعيك . وأنا أعلم أن طول العادة فى طاعتهم قد كره إليك العدول عنهم . فإن لم تجد من نفسك معونة على اتباع الحق ولزوم الصدق ، فانى أرضى منك بالمودة والطاعة ، حتى تقيمى مقام رئيس من أهلك ، تسكن إليه فى أمرك ، وتعمل عليه بمثل ذلك . وإذا تدبرت هذا الأمر عدت أن الذى يحملنى على التناطلى لك وقبول الميسور منك ، إنما هو الرغبة فىك . وأنت حقيق على حسن مجازاتى على ما بذلته ، والله يريك حسن الاختيار فى جميع أمرك ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(١) الضمير يعود على حباسه بن يوسف الذى ذكر اسمه فى البيت الأول (السكندى : كتاب الولاية ص ٢٧٢)

(٢) السكندى ص ٢٧٦ .

موطى - سهل عن موطى . للأمر أى مهمل له .

(٣) كتاب المغرب فى حلى المغرب ص ٢٥ - ٢٦ .

و على أن هذا الكتاب لم يكن له أثر في نفس الإخشيد، الذي ماطل رسول الخليفة القائم . ولكن صلة المودة التي ربطت الإخشيد بالخليفة العباسي قد تبدلت على أثر تولية محمد بن رائق الحزري بلاد الشام ومصر؛ فساءت هذه العلاقة بينهما، حتى قيل إن الإخشيد قطع الخطبة للخليفة العباسي، ودعا للخليفة الفاطمي ردحا من الزمن (١). وكتب الإخشيد للخليفة القائم الفاطمي يعرض عليه زواج ابنته من ابنة المنصور. لكن حال دون تنفيذ هذه السياسة أمران: الأول، أن الإخشيد استقل الصداق وقدره مائة ألف دينار، والثاني، وفاة الإخشيد ثم القائم بعد قليل (سنة ٣٣٤ هـ)، واشتغال ابنه المنصور بثورة أبي يزيد بن كيداد كما سنفصله.

وقد شغلت ثروة أبي يزيد الفاطميين عن غزو مصر في عهد الخليفة المنصور إسماعيل الفاطمي (٣٣٤-٣٤١ هـ)، ثم جاء ابنه المعز، ومد نفوذه على جميع أرجاء بلاد المغرب، ثم فكر في غزو مصر. ووجد فيها جماعة يدينون بعبائد مذهبه، فأرسل إلى كافور الإخشيدى، وإلى قواد جيشه يدعوهم إلى طاعته. وفي ذلك يقول المقرئ (٢): «قدمت عليه دعاة المعز لدين الله من بلاد المغرب يدعون له طاعته، فلا طفقهم. وكان أكثر الإخشيدية والكافورية، والكتاب قد أخذت عليهم البيعة للمعز». وكان كافور نفسه يحسن إلى العلويين في مصر، ويدبر عليهم الهبات والأرزاق (٣).

وقد شجعت حالة الضعف التي سادت مصر بعد وفاة كافور الإخشيدى في سنة ٣٥٧ هـ الخليفة الفاطمي المعز لدين الله على فتح هذه البلاد، كما بعث إليه كثير من أهلها يطالبون المبادرة إلى فتحها. ويقول العيني (٤): «لما اشتد بالناس البلاء من وجوه عديدة، كانوا المعز الفاطمي وهو يومئذ بالقيروان، وتوجه إليه جماعة من وجوه مصر. وكان ليعقوب بن كاس الذي توجه إلى المغرب بعد وفاة كافور، واتصل بالمعز، أثر كبير في توجيه نظره إلى حالة مصر، وحسه على فتحها كما تقدم.

## (ب) نشر الدعوة الفاطمية في الدور المصري

### ١ — علاقة الفاطميين بالقرامطة

#### (١) في عهد المعز:

قامت المنافسة بين بيت أحمد بن أبي سعيد والد الحسن الأعصم، وبيت أبي طاهر بن أبي سعيد، وانتهى الأمر بقتل سابور بن أبي طاهر في سنة ٣٥٨ هـ، ونفى أنصاره إلى جزيرة أوال. (٥) وقد أثار قتل سابور حنق الفاطميين، لأنهم كانوا ولوه العهد بعد عمه أحمد، وعدوا قتله خروجاً على طاعتهم.

(١) ابن سعيد: المغرب في حل المغرب ص ٢٦ — ٢٧.

انظر كتاب «الفاطميون في مصر» لمؤلف ص ٩٠ — ٩٢.

(٢) خطط ج ٢ ص ٢٧.

(٣) انظر ص ٢٤٣ — ٢٤٤ من هذا الكتاب.

(٤) عقد الجمان: مخطوط بدار الكتب المصرية ج ١٩ ص ٢٢١ — ٢٢٢.

(٥) أوال بوزن سحاب جزيرة كبيرة بالبحرين عندها مفاص اللؤلؤ.



وقد ذهب دى غويه (١) إلى القول بأن غزو القرامطة لبلاد الشام سنة ٣٥٨ هـ كان بإيعاز الخليفة المعز لدين الله الفاطمي ، ليسهل عليه الاستيلاء على ممتلكات الإخشيديين ، والقول بأن أحمد بن أبي سعيد وأنصاره هم الذين أوحوا بإبرام الصلح مع الحسين بن عبيد الله بن طنج الإخشيدى وإلى بلاد الشام دون الرجوع إلى الفاطميين ، واتفقوا معه على أن يدفع إليهم ثلثمائة ألف دينار في السنة . وقد أغضب هذا الاتفاق الفاطميين ، كما أغضب سابور الذى كان يناصرهم ، واعتبروا هذا العمل تحدياً لهم ، وافتثنا على رياسة الدعوة الإسماعيلية . وزاد قتل سابور الخليفة الفاطمي حنقاً على بيت أحمد بن أبي سعيد وانقسم القرامطة بسبب ذلك فريقين :

فريق بزعامة بيت أبي طاهر ، ظل على ولائه للفاطميين ، وفريق آخر بزعامة بيت أحمد بن أبي سعيد وعلى رأسه الحسن الأعصم ، أصبح يحنق على الفاطميين ويعمل على التقرب إلى العباسيين (٢)

ولم يكن بد إذاً من نشوب الحرب بين القرامطة المعارضين وبين الفاطميين . فلما مات أحمد بن أبي سعيد استبد ابنه الحسن الأعصم بالأمر من بعده ، واستهل عهده بطرد جميع أنصار سابور ليصفو الجوله ، وعمل في الوقت نفسه على التقرب إلى العباسيين ، واتخذ من استيلاء الفاطميين على دمشق بقيادة جعفر بن فلاح سنة ٣٥٨ هـ ، ومنعمهم الجزية التي كانت تدفع للقرامطة من قبل ، ومقدارها ثلثمائة ألف دينار كل سنة ، فرصة للانتقام من الفاطميين ، والمسير إلى بلاد الشام ، والاستيلاء عليها وأخذ هذه الجزية بالقوة .

وقد حاول الحسن الأعصم ، مخالفة الخليفة العباسي المطيع والوقوف معه في وجه ساداته الفاطميين . على أن هذا الخليفة لم يرحب بهذه المخالفة ، لاعتقاده أن القرامطة ملاحدة خارجون على الإسلام وفي ذلك يقول أبو المحاسن (٣) : « وسار القرمطي ، واسمه الحسن بن أحمد بن أبي سعيد بن بهرام القرمطي ، إلى بغداد ، وسأل الخليفة المطيع بالله العباسي على لسان عز الدولة بختيار (٣٥٦ - ٣٦٧ هـ) ، أن يمدّه بمال ورجال ، ويوليه الشام ومصر ليخرج المعز منها ؛ فامتنع الخليفة المطيع بالله عنها وقال : كلهم قرامطة وعلى دين واحد : فأما المصريون - يعنى بنى عبيد - فأما تواتر السنن وقتلوا العلماء ، وأما هؤلاء - يعنى القرامطة - فقتلوا الحاج وقتلوا الحجر الأسود ، »

أما البوسيون ، فعلى الرغم من ميلهم إلى العلويين ، كانوا يخشون إمتداد نفوذ الفاطميين إلى ماوراء بلاد الشام وتعريض نفوذهم للضعف والزوال . ولذلك أوحى إليهم العوامل السياسية بمد يد المساعدة إلى القرامطة والوقوف معهم جنباً إلى جنب في وجه الدولة الفاطمية الناشئة . ومن ثم نرى بختيار بن معز الدولة بن بويه يمد القرامطة بالأموال ، ويطلب إلى الحمدانيين إمدادهم (٤) .

(١) De Goeje : Les Carmathes du Bahrain, p. 186.

(٢) ابن حوقل : المسالك والممالك ( طبعة لندن سنة ١٨٧٢ م ) ج ٢ ص ٢١ - ٢٢ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٤ .

(٤) المقرئى : اتعاظ الحنفا ص ١٣١ - ١٣٢ .

سار الحسن الأعصم القرمطي بعد ذلك إلى الشام ، واشتبك مع جعفر بن فلاح في ناحية الدكة على نهر يزيد بمقربة من دمشق ؛ فدارت الدائرة على جعفر بن فلاح ، فأسر وقتل هو وكثير من أتباعه ( ٦ ذو الحجة سنة ٥٣٦ هـ ) ، ومثل بجثته محمد بن عصودا ، فصلبه على حائط داره انتقاما لأخيه إسحق ، وكان جعفر قتله وصلبه (١)

وهكذا استولى الحسن القرمطي على دمشق ، واحتفل بانتصاره فيها ، ولعن الخليفة الفاطمي المعز على منبر المسجد الأموي . وقد علق أوليري دي ليسى (٢) على هذه الحادثة بقوله : يعتقد القرامطة بنظرية الحق الإلهي للامام الفاطمي ؛ ومن ثم يبدو هذا اللعن غريبا . وقد يرجع ذلك إلى أهل دمشق أنفسهم الذين كانوا سنين مغلين في عدائهم للشيعمة والقرامطة (٣) ، الذين لم يعودوا يحفلون بشرف الاتيأ إلى آل علي ، والذين كانوا لا يهتمون بالعلاقات المذهبية أيا كانت .

وقد عزم القرامطة على غزو مصر بعد استيلائهم على بلاد الشام ؛ فسار الحسن بن أحمد إلى الرملة ، حيث انضم إليه كثير من الإخشيدية والكافورية ، وكان واليها سعادة بن حيان المغربي غلام المعز قد هرب منها في شوال سنة ٥٣٦ هـ وقصد إلى يافا ، ثم استأنف الحسن السير إلى مصر ، فاستولى على الفرما في المحرم سنة ٣٦١ هـ ، وفتحت له نفيس أبوابها ، واعترفت بسلطانه وخرجت على واليها ، ووزعت المشورات في جامع عمرو بن العاص بمدينة الفسطاط لحض الناس على عصيان جوهر الصقلي . ثم أمعن الحسن القرمطي في السير في داخل البلاد ، وعسكر بجثته في عين شمس ، وهدد مدينة القاهرة . ولما علم جوهر بوصول القرامطة إلى القلزم ، وهي مدينة السويس الآن ، أعد العدة للوقوف في وجههم والحيلولة دون وصولهم إلى القاهرة ، فحفر حولها خندقا أقام عليه بايين من حديد ، ثم أرسل فريقا كبيرا من جنده تظاهروا بالانضمام إلى القرامطة والسخط على الفاطميين ، وأوقعوا الانقسام في صفوفهم . وفي أوائل شهر ربيع الأول سنة ٣٦١ هـ بدأ القتال بين الفاطميين والقرامطة عند باب مدينة القاهرة ، وانتهت المعركة بهزيمة القرامطة وارتدادهم إلى القلزم (٤)

ولما سمع الخليفة المعز لدين الله الفاطمي ببلاد المغرب خبر غزو القرامطة لمصر ، أرسل إليها جيشا بقيادة أبي محمد الحسين بن عمار ، فازدادت قوة جوهر الحربية ، وعول على إخضاع مدينة تنيس التي انضم أهلها إلى القرامطة ، فسار إليها وأخضعها ثم عفا عن أهلها . وعاد الحسن القرمطي إلى دمشق ، ورجع أسطوله من النيل بعد أن خسر سبع سفن حربية وخمسمائة أسير ، وأخذ يعد العدة لغزو مصر من جديد ، ولكنه اضطر إلى العودة إلى الأحساء لإخماد ثورة أنصار أبي طاهر .

ويظهر أن هذه الصعاب التي صادفها جوهر في حرب القرامطة ، واعتقاده أن مصر لا تزال معرضة

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٣ .

(٢) O'Leary de Lacy : A Short History of the Fatimid Khaliphate (London, 1923), p. 108.

(٣) يقصد من القرامطة هنا الذين يهتمون إلى الحسن الأعصم .

(٤) المقرئزي : اتعاظ الخنفا ص ٨٦ ، الحطاط ج ٢ ص ١٣٨ .

لخطرهم قد بعثه على أن يطلب إلى الخليفة المعز الحضور بنفسه إلى مصر وتسلم زمام الحكم فيها ،  
والنأهب لحرب هؤلاء القرامطة وإبعاد خطرهم . وفي أواخر سنة ٣٦٢ هـ قدم المعز إلى مصر ،  
واتخذ مدينة القاهرة قاعدة لدولته ، وأرسل إلى الحسن بن أحمد القرمطي كتابا طويلا (١)  
يهدده فيه ويتوعده ، ويعرض عليه في نهايته أن يختار لنفسه إحدى ثلاث خصال ، وإلا أصبح الحكم  
بينهما للسيف وحده :

« ونحن عارضون (٢) ثلاث خصال ، والرابعة أردى (٣) لك وأشقى لباالك . وما أحسبك تحصل  
إلا عليها ، فاختر : إما قُدت نفسك لجعفر بن فلاح وأتباعك بأفئس المستشهدين معه بدمشق والرملة  
من رجاله ورجال سعادة بن حيان ، ورد جميع ما كان لهم من رجال وكراع ومتاع إلى آخر حبة (٤)  
من عقاب ناقة وخطام بعير وهي أسهل ما يبرد عليك . وإما أن تردهم أحياء في صورهم وأعيانهم  
وأموالهم وأحوالهم ، ولا سبيل لك إلى ذلك ولا اقتدار . وإما سرت بمن معك بغير ذمام (٥)  
ولا أمان ، فأحكم فيك وفيهم بما حكمت ، وأجريك على (إحدى) ثلاث : إما قصاص ، وإما من  
بعد ، وإما فداء ، فمضى أن يكون تمحيصاً لذنوبك وإقالة لعترتك . وإن أبيت إلا فعل اللعين ، فأخرج  
منها فانك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين . أخرج منها فما يكون لك أن تتكبر فيها وقيل  
اخسئوا فيها ولا تكلمون ، فما أنت إلا كشجرة خبيثة أجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ،  
فلا سماء تُسظلك ولا أرض تُسقلك ولا ليل يُخنك ولا نهار يكفك ولا علم يسترك ولا فئة تنصرك .  
قد تقطعت بكم الأسباب ، وأعجزكم الذهاب ، فأنتم كما قال الله عز وجل مذبذبين بين ذلك لا إلى  
هؤلاء ولا إلى هؤلاء . فلا ملجأ لكم إلى الله يومئذ ، ولا منجى منه ... فلا تجد في السماء مصعداً ، ولا  
في الأرض مقعداً ، ولا في الأرض ولا في البحر منهجاً ، ولا في الجبال مسلماً ، ولا إلى الهواء سلباً ،  
ولا إلى مخلوق ملجأ . حينئذ يفارقك أصحابك ، وينخل عنك أحبابك ، ويخذلك أتراك ، فتبقى  
وحيداً فريداً ، وخائفاً طريداً ، وهائماً شريداً ، قد أبلجك الفرق (٦) ، وكظمك القلق ، وأسلبتك  
ذنوبك ، وازدراك خزبك ( كلا لاوزر إلى ربك يومئذ المستقر ، ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم  
وأخر ) (٧) . »

وقد رد الحسن القرمطي على هذا الكتاب بهذه الكلمات القصيرة التي تدل على عدم مبالاته  
بتهديد المعز ووعيده ، وعلى مضاء عزيمته وشدة رغبته في محاربة الفاطميين فقال : « وصل كتابك ،

(١) راجع هذا الكتاب في الميرزى : انماظ الحنفا ص ١٣٤ - ١٤٣ .

(٢) في الأصل مرضون .

(٣) أفضل تفضيل بمعنى أشد إرداء وإهلاكا .

(٤) يعني إلى آخر شيء . أخذتموه ولو كان حبة .

(٥) يعني عهداً تؤمنك به .

(٦) في الأصل العرق ، ولعله تحريف عن الفرق بفتح القاء والراء وهو الخوف والفرع .

(٧) سورة القيامة آية ١١ - ١٣ .

الذي قل تحصيله وكثر تفصيله . ونحن سائرون إليك على إثره والسلام ، (١) .

من ذلك نرى أن الحسن كان ينوى إعادة غزو مصر ، فظهر القرامطة للمرة الثانية في عين شمس في شهر ربيع الثاني سنة ٣٦٣ هـ ، ثم اجتمعوا أمام الخندق الذي حفره جوهر الصقلي وحاولوا اجتيازه . على أن الخليفة المعز استطاع أن يستميل الطائيين ، وكانوا من أشد جند الحسن القرمطي بأسا ، فأرسل إليهم مائة ألف دينار . وقد قيل إنه لم يكن في بيت المال من الدنانير ما يفي بهذا الغرض ، فأمر المعز بان تضرب نقود من الرصاص مغطاة بطبقة رقيقة من الذهب ، ووضعت هذه الدنانير في صناديق ، في أعلى كل منها عدد قليل من الدنانير المضروبة من الذهب الخالص (٢) . فلما استعرت الحرب بين الفريقين ، خرج الطائيون ، وتشتمت قوة الحسن .

وبذلك تغلب الفاطميون على هذه الصعوبة التي هددت كياناتهم من ناحية القرامطة ، وزادت قوتهم باسترداد دمشق . فقد استغل الخليفة المعز النزاع الذي قام بين أبي المنجي القرمطي حاكم دمشق من قبل الحسن الأعصم ، وظالم بن موهوب العقيلي أحد أنصار الحسن ، فكتب إلى ظالم يطلب إليه أن يقبض على أبي المنجي ويرسله إلى مصر . ولما تم للمعز ما أراد في سنة ٣٦٣ هـ ، فقد ظالم موهوب ولاية دمشق ، فأقيمت الدعوة في مصر وديارها ، والشام والحجاز مع إفريقية والمغرب باسمه . (٣)

### (ب) في عهد العزيز :

وفي أواخر عهد المعز لدين الله الفاطمي ثار أهل دمشق وطردها عاملها ظالم بن موهوب العقيلي ، وأتاحوا الفرصة لدخول أفتكين التركي (٤) واستبداده بأمرها وإقامة الخطبة للعباسيين . وقد حاول المعز استمالة أفتكين إليه ، ولكنه مات قبل أن يحقق أمنيته . وحاول أفتكين الاستعانة ببني بويه فلم يسعفوه ، فولى وجهه شطر القرامطة في البحرين ، فأرسلوا إليه جيشا وصل إلى دمشق ، ثم رحل إلى الرملة واستولى عليها . ولما مات المعز ، عمل ابنه العزيز على استرداد بلاد الشام وفلسطين من أفتكين والقرامطة ، وأرسل جوهر الصقلي على رأس جيش كبير تمكن من الاستيلاء على الرملة ، وكان القرامطة قد هربوا منها وعادوا إلى البحرين . ثم سار جوهر إلى دمشق فحاصرها ستة أشهر ، واضطر إلى التقهقر حين علم بوصول الحسن الأعصم القرمطي ، الذي استنجد أفتكين ، وبما شطر

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٩ .

(٢) وقد أدرك بنو طي هذه الحيلة بعد فوات الفرصة .

(٣) ابن حنبل : ملوك بني عبيد وسيرتهم ( الجزائر سنة ١٣٤٦ هـ ) ص ٤٦ .

(٤) كان أفتكين الشرايبي مولى معز الدولة بن بويه . وقد انضم إلى الخليفة المطيع والطائع في الحروب التي قامت في وجه معز الدولة بختيار بن بويه . فاستنجد بختيار بن عمه عضد الدولة ، وانتصر على أفتكين الذي خاف سيكتكبن في رياسة الترك ، وقدم دمشق في ثلثائة رجل من الأتراك ، واستطاع أن يستولى عليها بمساعدة أهلها الذين رغبوا في التخلص من العيارين ( العيار الرجل الكثير الحمى . والذهاب متردداً بلا عمل والذي يخلى نفسه وهوها ) - ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

عسقلان ، وحاصرا بها جوهرًا ، فاضطرا هذا إلى طلب الصلح كما تقدم (١) . ومهد بعمله إلى الموقعة الحاسمة التي دارت على نهر الطواحين بالقرب من الرملة بين جيوش الفاطميين بقيادة العزيز نفسه وبين جيوش القرامطة بزعامة الحسن الأعصم ، والأتراك بزعامة أفتكين ، وحلت الهزيمة بالقرامطة وأفتكين الذي سيق إلى القاهرة مع بعض أنصاره من الأتراك والديلم ، وعلى رأسهم اثنان من إخوة بختيار وابنه المرزبان (٢) . وبذلك عادت دمشق إلى أيدي الفاطميين الذين أقيمت الدعوة باسمهم على منابرها .

وقد أضعفت هذه الحروب القرامطة وفككت وحدتهم . حتى إن جماعة منهم ثاروا على آل الحسن الأعصم ، واضطروهم إلى الهجرة إلى جزيرة أوال ، حيث انتقم منهم أبناء أبي طاهر (٣) . واتخذ الخليفة العزيز ، الذي كان اليد المحركة التي أوقعت الاضطراب في صفوف القرامطة ، من ذلك فرصة لجذب هؤلاء القرامطة وإعادةهم إلى حظيرة الفاطميين . ويقول ابن خلدون (٤) : « ورجعوا إلى دعوة العلويين ومحاربة بني العباس » . واستمر القرامطة على ولائهم للفاطميين إلى أن زالت دولتهم من جزيرة أوال سنة ٤٥٨ هـ ، ومن البحرين بعد أن قضى عليهم السنيون في سنة ٤٧٠ هـ ، وذلك في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي ، ولكنهم لم يقوموا بأعمال حربية منذ سنة ٣٧٥ هـ . وفي ذلك يقول ابن الأثير (٥) « و زال من حينئذ ناموسهم » (٦)

## ٢ - علاقة الفاطميين بالعباسيين وبني بويه :

لاشك في أن قيام الدولة الفاطمية في المغرب أثار مخاوف العباسيين ، لأن استيلائهم على هذه البلاد قد يساعدهم على بسط نفوذهم في مصر وفي بلاد الشام وفلسطين والحجاز التي كانت تابعة لمصر منذ عهد الطولونيين ، بل قد يسهل لهم هذا الفتح الاستيلاء على بغداد نفسها قاعدة الدولة العباسية في ذلك الحين . لذلك نرى الخلفاء العباسيين يعملون على القضاء على محاولات الفاطميين لامتلاك مصر . ثم يحذو بنو بويه الشيعيون حذو الخلفاء العباسيين السنيين ، حتى لا يتعرض سلطانهم في بلاد العراق للخطر إذا استولى الفاطميون عليها . وذلك يعطى مساعدة البويهيين للقرامطة في حروبهم مع الفاطميين على ما رأينا . ولولا خوف البويهيين على نفوذهم السياسي لحولوا الخلافة إلى العلويين ،

(١) انظر من ٢٥٧-٢٥٨ من هذا الكتاب .

(٢) يقول المقرئ ( خطط ج ٢ ص ٨ - ٩ ) إن حارة الديلم سميت بهذا الاسم بعد أن نزل بها

أفتكين ومن معه من أولاد معز الدولة بن بويه .

(٣) ابن خلدون : المعر ج ٤ ص ٩١ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) ج ٩ ص ١٦ .

(٦) يستدل بما ذكره ناصري خسرو في كتابه سفر نامه 8-226 Safar Nāmeḥ أن دولتهم كانت

لا تزال قائمة في منتصف القرن الخامس الهجري ، كما وصف نظام الحكم وحالتهم الاجتماعية وصفا دقيقا .

إذ كانوا يفضلون الفاطميين على العباسيين من الناحية المذهبية . ولذلك نرى سلاطين بني بويه على اتصال بالفاطميين ، حتى إنهم سمحوا لدعاتهم بنشر عقائد المذهب الفاطمي في البلاد التي خضعت لنفوذ بني بويه . وقد ظهرت أغراض الفاطميين التي كانت ترمى إلى مد نفوذهم إلى بلاد المشرق من هذه القصيدة التي انشدها ابن هاني الأندلسي (١) المعز في بلاد المغرب عند فتح مصر ، وفيها يقول :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر ؟      فقل لبني العباس قد قضى الأمر  
وقد جاوز الإسكندرية جوهر      تطالعه البشري ويقدمه النضر  
وقد أوفدت مصر إليه وفودها      وزيد إلى المعقود من جمرها جسر  
فما جاء هذا اليوم إلا وقد غدت      وأيديكم منها ومن غيرها صفر  
وقد أشرفت خيل الإله طوالعاً      على الدين والدنيا كما طلع الفجر  
وذا ابن نبي الله يطلب وتره      وكان حرسى (٢) ألا يضيع له وتر  
فان تتبعوه فهو مولاكم الذي      له برسول الله دونكم الفخر

وقد حاول العزيز الفاطمي أن يجذب إليه البويهيين الذين كانوا يعتنقون المذهب الشيعي ، فأرسل في سنة ٥٣٦٩ هـ - على ما ذكره ابن الأثير (٣) - إلى عضد الدولة (٣٦٧ - ٣٧٢ هـ) بن ركن الدولة رسولا من قبله ، وما زال يبعث إليه برسالة بعد رسالة ، فأجابه عضد الدولة بكلام يتضمن صدق الطوية وحسن النية ، (٤)

على أننا نرى هذه السياسة التي كانت تنطوي على التودد وحسن النية تتبدل في أواخر عهد عضد الدولة ، بل نراه يتأهب لغزو مصر واستردادها من الفاطميين بعد أن اتضح له خطر الدولة الفاطمية على سلطان بني بويه . فقد ذكر البغدادي (٥) أن عضد الدولة ، تأهب لقصد مصر واتزاعها من أيدي الباطنية . وكتب على أعلامه بالسواد : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين الطائفة لله أمير المؤمنين . ادخلوا مصر إن شاء الله آمين ،

وقد قيل إن ما قام به عضد الدولة كان نتيجة لشك في نسب الفاطميين ، حتى إنه عقد مجلساً حضره العلويون الذين أقروا بطلان هذا النسب . ويقول المقرئ (٦) : ثم ملك فناخسرو بن الحسن الديلمي بغداد ، فقرب ما بينهما ( أي بين العزيز وعضد الدولة ) من المسافة ، فجمع العلويين ببغداد وقال لهم : هذا الذي بمصر يقول إنه علوي منكم ، فقالوا : ليس هو منا ، فقال لهم : ضموا خطوطكم بأنه ليس بعلوي ولا من ولد أبي طالب . ثم أنفذوا إلى نزار بن معد رسولا يقول له : نريد أن نعرف من أنت ، فعظم ذلك عليه .

(١) ديوان ابن هاني . ( طبعة بيروت سنة ١٣٢٦ هـ ) ص ٨٦ - ٨٧ .

(٢) حري يعني جديراً .

(٣) ج ٩ ص ٢٥٧ .

(٤) الذهبي : تاريخ الاسلام ، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٣ ص ٣١٠ - ٣١١ .

(٥) الفرق بين الفرق ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

(٦) انماظ الحنفا ص ١٥ .

ويعتبر هذا العمل بدءا لتدوين محاضر المجالس العباسية التي عقدت ببغداد في القرن الخامس الهجري ، وأنكر فيها نسب العميد بن علي وفاطمة . لأن العباسيين لما أدركوا عجزهم عن مناهضة الفاطميين والقضاء عليهم بالحرب ، وهالهم إقامة الخطبة للحاكم الفاطمي في بلاد الموصل ، فكروا في القضاء على مذهبهم بالظن في نسبهم إلى علي وفاطمة ، أو بإثارة الشك على الأقل في هذا النسب في نفوس المسلمين . ويروي أبو المحاسن في تاريخه أنه ، في سنة ٤٠٢ هـ في شهر ربيع الآخر ، كتب الخليفة القادر العباسي محضرا في معنى الخلفاء المصريين ، والقدح في أنسابهم وعقائدهم ، وقرئت النسخ ببغداد ، وأخذت فيها خطوط القضاء والأئمة والأشراف بما عندهم من العلم بمعرفة نسب الديبصانية ؛ قالوا : وهم منسوبون إلى ديصان بن سعيد الحرمي إخوان الكافرين ، ونسطف الشياطين ، شهادة يتقربون بها إلى الله ، ومعتقدين ما أوجب الله على العلماء أن ينشروه للناس . فشهدوا جميعا أن الناجم بمصر وهو منصور بن نزار الملقب بالحاكم — حكم الله عليه بالبوار والخزي والنكال — ابن معد بن إسماعيل ابن عبد الرحمن بن سعيد — لأسعده الله — فانه لما صار إلى المغرب تسمى بعبيد الله وتلقب بالمهدى ، هو ومن تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس — عليه وعليهم اللعنة — أذعياء خوارج لانسب لهم في ولد علي بن أبي طالب ، وأن ذلك باطل وزور ، وأنهم لا يعلمون أن أحدا من الطالبين توقف عن إطلاق القول في هؤلاء الخوارج أنهم أذعياء . وقد كان هذا الإنكار شائعا بالحرمين في أول أمرهم بالمغرب ، منتشرا انتشارا يمنع من أن يدلس على أحد كذبهم ، أو يذهب وهم إلى تصديقهم ؛ وأن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفار وفساق فجار وزنادقة ، ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون ؛ فقد عطلوا الحدود وأباحوا الفروج ، وسفكوا الدماء ، وسبوا الأنبياء ، ولعنوا السلف ، وادعوا الربوبية . وكتب في [ شهر ] ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعمائة (١)

وكتب خلق كثير في المحضر المذكور منهم الشريف الرضي والمرتضى أخوه ، وابن الأزرقي الموسوي ، ومحمد بن محمد بن عمر بن يعلى العلويون ، والقاضي أبو محمد عبد الله بن الألفي ، والقاضي أبو القاسم الجزري ، والإمام أبو حامد الأسفرايني (٢) والفقير أبو محمد الكشغلي (٣) والفقير أبو الحسين القدوري (٤) الحنفي ، والفقير أبو علي بن حمدان ، وأبو القاسم التنوخي (٥) ، والقاضي أبو عبد الله الصيمري .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(٢) كان من أئمة زمانه في الفقه ، حتى كان يحضر مجلسه أكثر من ثلثائة فقيه ، كما قام بالتدريس في مسجد عبد الله بن المبارك في قطيعة الربيع بن يونس ، وكان يحضر درسه سبعمائة متفقه : الخطيب البغدادي ( تاريخ بغداد ج ٤ ص ٣٦٨ — ٣٧٠ ) ، ابن خلكان ( وفیات الأعيان ج ١ ص ١٩ — ٢٠ ) .

(٣) بفتح الكاف وضم الفاء ، نسبة إلى كسفل إحدى قرى خراسان .

(٤) بضم القاف والراء ، انتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة بالعراق ، وكان من أشهر القضاة . وله كتاب في الفقه يسمى مختصر القدوري .

(٥) هو علي بن الحسن بن علي بن محمد . اشتهر بالأدب ، وصحب أبا العلاء المري ، وأخذ عنه ، وتقلد قضاء كثير من النواحي كالمدين وقرميسين . وألف كتابا نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ( القاهرة سنة ١٩١٨ — ١٩٢١ ) الذي ترجمه إلى الإنجليزية د . س . مرجليوث ( لندن سنة ١٩٢٢ ) ، وتوفي سنة ٤٤٧ هـ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١٢ ص ١١٥ .

فلما بلغ الحاكم قامت قيامته وهان في أعين الناس لكتابة هؤلاء العلماء الأعلام في المحضر، (١) على أن ما رواه أبو المحاسن في هذا الكتاب من أن الشريف الرضى كتب خطه في هذا المحضر الذي نفي فيه نسب الفاطميين، يعارضه هذه القصيدة المشهورة للشريف الرضى، وفيها اعتراف صريح بأن الفاطميين تجمعهم بهم صلة النسب، قال:

ما مُقَامِي عَلَى الْهَوَانِ وَعِنْدِي      مَقُولٌ صَارِمٌ وَأَنْفٌ حَمِي  
أَلْبَسَ الذَّلَّ فِي بِلَادِ الْأَعَادِي      وَبِعَصْرِ الْخَلِيفَةِ الْعَلَوِي  
مَنْ أَبَوْهُ أَبِي وَمَوْلَاهُ مَوْلَا      يَ إِذَا ضَامَنِي الْبَعِيدَ الْقَصِي  
لَفَّ عِرْقِي بِعِرْقِهِ سَيِّدِ النَّاسِ      سَ جَمِيعاً مُحَمَّدٌ وَعَلِيٌّ .

ولم يكن هذا كل ما فعله العباسيون في سبيل مناوأة الفاطميين والقضاء عليهم . ومن ثم نرى الفاطميين من ناحية أخرى يضاعفون جهودهم في نشر دعوتهم عن طريق دعايتهم ، ويصادفون كثيرا من النجاح في هذه السبيل ، على الرغم مما تركه هذا المحضر من أثر في نفوس بعض المسلمين . ولذلك نرى الخلفاء العباسيين يكتبون في سنة ٤٤٤ هـ محضرا آخر يطعنون فيه على الفاطميين وينفقون نسهم (٢) ، كما يكتبون في سنة ٤٨٨ هـ محضرا آخر أيضا ، لتنفير القلوب من الفاطميين وجمع القلوب حول العباسيين (٣) .

على أننا نلاحظ تبديلا ظاهرا في سياسة البويهيين نحو الفاطميين منذ عهد أبي كاليبجار (٤٣٥ - ٤٤٤ هـ) الذي اتخذ من تقربه إلى الفاطميين وسيلة لإرهاب العباسيين ، كما حال دون تقرب العباسيين من السلاجقة الذين أخذوا يهددون سلطان بني بويه ، حتى إن أبا كاليبجار تقرب من المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعي الفاطميين في فارس ، الذي تقلد فيما بعد منصب داعي الدعوة في مصر ، واتهم باعتناق عقائد الإسماعيلية مذهب الفاطميين كما تقدم (٤) .

ولكن المستنصر لم يفتر عن الانتقام من الخلفاء العباسيين . ولذلك نراه يؤيد أبا الحارث البساسيري في خروجه على الخليفة العباسي القائم ، ويتعهد له بإمداده بالمال والرجال . ومن ثم يبعث داعيته الجري . هبة الله الشيرازي سفيراً من قبلة لإثارة حماسة جنود البساسيري ، وحثهم على إذكاء الثورة في وجه الخليفة العباسي . ولم يدخر الخليفة المستنصر الفاطمي وسعا في إمداد البساسيري بالأموال الضخمة والجنود الذين أمر بإفادهم إليه من بلاد الشام ، وأرسل إليه كتابا يقول فيه : ولما وجدك أمير المؤمنين من السابقين إلى النداء بشعاره في بلاد العراق ، والمبرزين بفضيلة السبق على أولياته في فضائل الآفاق ، المشعرين عن ساعد الجد بما يجعل عرصاتنا بفيض عدله مشرقة بأبجم السعود ، ويميد أعواد منابرهما . بذكر آل الرسول صلى الله عليه وسلم ناضرة

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٣٠ .

(٢) المصدر نفسه ج ٥ ص ٥٣ .

(٣) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٣٧ .

(٤) أنظر ص ١٣٣ - ١٣٤ من هذا الكتاب .



العود ، مغسولة درجها من وطء أقدام الأنجاس بماء الإيمان ، مقصورة غرفها (١) على الثناء منها على أهل العدل والإحسان ، رأى أمير المؤمنين - وبالله توفيقه - أن يطوقك طوق ولاية رجالها ، ويقم على رأسك ، لمزية التقدم ، راية جمالها ، ويتوطبك أمورها كلها ، ويكل إليك عقدتها وحلها (٢) . ولم يكتمف المستنصر الفاطمي بذلك بل عمل على توحيد كلمة الأتراك بزعامة البساسيري ، والعرب بزعامة ديس بن علي بن مزيد أمير عرب الفرات ، ولقبه بألقاب منها الأمير ، وسلطان ملوك العرب ، وسيف الخلافة ، وصني أمير المؤمنين ، كما منحه ولاية ما يفتح من البلاد شرقى نهر الفرات (٣) . وكان من أثر تدخل الخليفة الفاطمي أن انتصر البساسيري وأنصاره على جيوش الخليفة العباسي في موقعة سنجان سنة ٤٤٩ هـ . وفي ذلك يقول ابن منجب الصيرفي (٤) : « فأقام اليازوري أبا الحارث البساسيري مناصباً له ، وأمدّه بالمؤيد في الدين أبي نصر هبة الله بن موسى (الشيرازي) ، وأصبحه الأموال ، فبعث إليه طغرل بك ألفين وخمسمائة فارس إلى سنجان . فكانت الواقعة المشهورة التي ظفر بها البساسيري ، ولم يفلت من هذه العبيدة إلا ماتتا فلاس أو دونها ، وعمل الشعراء في ذلك ، فن ملبح ما قيل قول ابن جبوس الشاعر الذي توفي بحلب سنة ٤٧٣ هـ (٥) .

عجبتُ لمدعى الآفاق مُلكاً      وغايته ببغداد الركود  
ومن مستخلف بالمؤمن يرضى      بُمُذاد عن الحياض ولا يذود  
وأعجب منهما سيفٌ بمصر      تقام به بسنجان الحدود ،

ولم يقف نشاط الفاطميين في مناوأة العباسيين عند هذا الحد ، فقد استطاع هبة الله الشيرازي أن يضم إبراهيم أخا طغرل بك إلى الفاطميين ، على أن تكون الخطبة لهم (أى للفاطميين) بالخلافة والإمامة مقدمة على خطبته (٦) . وكان من أثر ذلك أن ثار إبراهيم بنال على أخيه طغرل بك ، وانتهز البساسيري فرصة نشوب الحرب بينهما ، واستولى على بغداد في شهر ذي القعدة سنة ٤٥٠ هـ ، وقتل الوزير ابن مسلمة . لكن الخليفة استنجد بمذمام (٧) قريش شماه من القتل . وفي ذلك يقول أبو المحاسن (٨) : « دخل أبو الحارث البساسيري بغداد في ثامن ذي القعدة بالرايات المستنصرية ، وعليها ألقاب المستنصر هذا صاحب مصر ؛ فال إلى البساسيري أهل الكرخ ، وفرحوا به لكونهم

(١) في الأصل فرقها وامله تحريف عن غرفها .

(٢) السيرة المؤيدية للمؤيد في الدين ، مخطوط بكتبة جامعة نواد الأول ، ورقة ١٨٤ .

(٣) أنظر عهد المستنصر إلى ابن مزيد في كتاب السيرة المؤيدية للمؤيد في الدين ، ص ١٩١ - ١٩٣ .

(٤) الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٤٤ .

(٥) انظر ترجمته في ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٠ - ١٢ .

(٦) السيرة المؤيدية ص ٢٦٣ .

(٧) الذمام الحرمة ، يريد أنه تمنع منه بذمة قريش شماه من القتل . في الأصل واستنجد بمذمام قريش

وهو تحريف .

(٨) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٦ ، ١٢ .

رافضة ، وانضموا إلى البساسيري وكشفوا عن أهل السنة ، وشمخت أنوف الرافضة المناهقين ، وأعلنوا بالأذان حتى على خير العمل ببغداد ... وخطب يوم الجمعة ببغداد للسننصر بجامع المنصور ، وأنشأ بعضهم يقول :

يا بني العباس صدوا ملك الأرض مَعَد  
ملككم كان معارا والعواري تَسْتَرِد ،

على أن زعزعة الحالة المالية في مصر ، وعودة هبة الله الشيرازي إليها ، وقيام المنافسة بين العنصرين العربي والتركي في جيش البساسيري ، وعودة طغربك إلى بغداد بعد أن قضى على فتنه أخيه إبراهيم ينال - كل ذلك ساعد على القضاء على ثورة البساسيري وقتله بعد أن أقام الخطبة للفاطميين على منابر بغداد سنة كاملة .

### ٣ - علاقة الفاطميين بالحمدانيين والهيكلين والصلبيين :

وعلى الرغم من أن الحمدانيين كانوا ، كبنى بويه ، يعطفون على الشيعة ويميلون إلى مذهبهم ، كانوا يخشون ازدياد نفوذ الفاطميين السياسي ، لأن في ذلك تهديداً لسلطانهم . لذلك نرى الحمدانيين يشجعون القرامطة على غزو بلاد الشام والخروج على الفاطميين ، بعد أن كانوا يدينون لهم بالطاعة ويعملون على نشر مذهبهم . فقد ذكر أبو المحاسن (١) أن القرامطة بعثوا إلى سيف الدولة يستهدونه حديثاً ، فسير إليهم كثيراً ، وحمل ذلك إليهم في القرات ثم في البرية إلى هجر .

كذلك نرى الحمدانيين يساعدون الحسن الأعصم القرمطي في حروبه التي شنّها على المعز لدين الله الفاطمي ثم على ابنه العزيز بالله . ولا غرو فإن جعفر بن نلاح القائد الفاطمي بعد أن استولى على دمشق ، مدد الحمدانيين في حلب بالاستيلاء على بلادهم إذ لم يقيموا الدعوة الفاطمية على منابر بلادهم . على أن هذا التهديد أثار سخط الحمدانيين ، فعملوا على مساعدة القرامطة بزعماء الحسن الأعصم بالمال والرجال ليعدوا خطر الفاطميين عن بلادهم . ويقول النويري (٢) إن بختيار بن معز الدولة بن بويه طلب إلى أبي تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان ( ٣٥٨ - ٣٦٩ هـ ) أن يدفع إلى الحسن الأعصم ، أربع مائة ألف درهم ، فرحل الحسن ( الأعصم ) حتى أتى الرحبة ، وعليها أبو تغلب بن حمدان ، فدخل إليه المال المسبب له به عايه ، وحمل إليه العلوفة ، وأرسل إليه يقول : هذا شيء كنت أردت أن أسير أنا فيه بنفسى ، وأنت تقوم مقامى فيه . وأنا مقيم في هذا الموضع إلى أن يرد إلىّ خبرك ، فإن احتجت إلى مسيرى سرت إليك .

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٣٦ .

(٢) نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٣ ورقة ٩٥ .

ذكر المقرئ ( انماط الحفا ص ١٣١ ) هذه المسألة باختصار كبير ، على حين تناولها النويري في شيء كثير

من التفصيل .

ولم  
على شيء  
طلب إليه  
كف ع  
الذي لم  
بليس  
الحاكم  
ولما  
دولة الع  
بلادهم  
كتب في  
ويظ  
الفاطميين  
الفاطميين  
طرفاً منه  
و  
الحق  
على أمير  
الكرام  
وعلى ما  
أن طالع  
الأئمة  
المهدي  
وصل ع  
أعداك  
المهم  
وزواكي  
الشوية

(١)  
(٢)

ولم تكن علاقة الفاطميين بالحمدانيين في عهد سعد الدولة بن سيف الدولة (٣٥٦ - ٤٣٨٤ هـ) على شيء من الصفاء؛ فقد رأينا كيف أساء سعد الدولة معاملة رسول الخليفة العزيز الفاطمي حين طلب إليه الكف عن إيذاء أبناء بكجور، وكيف أرسل إليه يتوعده بالمسير إلى بلاده، كما رأينا كيف عمل العزيز على الاستيلاء على حلب من يد أبي الفضايل سعيد بن سيف الدولة (٣٨١ - ٤٣٩٢ هـ) الذي لم يتفذه سوى تدخل البيزنطيين بقيادة إمبراطورهم باسيل الثاني. ولولا موت العزيز في مدينة بليس وهو في طريقه إلى حلب، لحضخ الحمدانيون لسلطان الفاطميين قبل خضوعهم نهائيا لابنه الحاكم على ما رأينا (١).

ولما استولى المقلذب بن المسيب العقيلي على الموصل من يد الحمدانيين سنة ٣٨٦ هـ، وأسس فيها دولة العقيليين (٣٨٦ - ٤٨٩ هـ)، عمل هؤلاء على التقرب إلى الفاطميين، وخطبوا لهم على منابر بلادهم، فما أثار حنق العباسيين واليوبيين عليهم، حتى إنهم فكروا في سنة ٤٠٢ هـ في عقد مؤتمر كتب فيه محضر بالظعن في نسهم لتغيير الناس منهم.

ويظهر أن هذا المحضر كتب على أثر إقامة قرواش بن المقلد العقيلي، الذي كان يميل إلى الفاطميين، الخطبة للخليفة الحاكم الفاطمي. ويتبين ذلك من هذه الخطبة التي أقيمت للخليفة الحاكم الفاطمي على منابر العقيليين في الموصل والأنبار والسكوة والمدائن في شهر المحرم سنة ٤٠١ هـ. وهالك طرفا منها (٢):

«وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، اصطفاه واختاره لهداية الخلق وإقامة الحق... حتى قامت حجج الله وآياته وتمت بالتبليغ كلفاته؛ صلى الله عليه وعلى أول مستجيب إليه على أمير المؤمنين وسيد الوصيين، أساس الفضل والرحمة، وعماد العلم والحكمة، وأصل الشجرة الكرام البررة النابتة في الأرومة المقدسة الطاهرة، وعلى خلفائه الأغصان البواسق [من تلك الشجرة]، وعلى ما خلص منها وزكا من الثمرة... اللهم وصل على وليك الأزهر وصديقك الأكبر، على بن أبي طالب أبي الخلفاء الراشدين المهديين. اللهم وصل على السبطين الطاهرين الحسن والحسين، وعلى الأئمة الأبرار، والصفوة الأخيار، من أقام منهم وظهر، ومن خاف فاستتر. اللهم وصل على الإمام المهدي بك، والذي بلغ بأمرك، وأظهر حججك، ونهض بالعدل في بلادك، هاديا لعبادك. اللهم وصل على القسام بأمرك، والمنصور بتصرحك، اللذين بذلا نفوسهما في رضائك، وجاهدا أعداك. اللهم وصل على المعز لدينك، المجاهد في سبيلك، المظهر للآيات الحفية، والحجج الجليلة. اللهم وصل على العزيز بك الذي مهدت به البلاد، وهديت به العباد. اللهم اجعل نواصي صلواتك وزواكي بركاتك، على سيدنا ومولانا إمام الزمان وحصن الإيمان، وصاحب الدعوة العلوية والملة النبوية، عبدك ووليك المنصور أبي علي الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، كما صليت على آباءه الراشدين،

(١) أنظر ص ٢١٦ من هذا الكتاب.

(٢) أبو المحاسن. النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٤ - ٢٢٧.

وأكرمت جداده المهديين . اللهم وفقنا لطاعته ، واجمعنا على كلمته ودعوته ، واحشرنا في حزبه  
وزمرته . اللهم وأعنه على ما وليته ، واحفظه فيما استرعيت ، وبارك له فيما آتيت ، وانصر جيوشه  
وأعل أعلامه في مشارق الأرض ومغاربها إنك على كل شيء قدير .

وقد راجت الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن على يد علي بن محمد الصليحي (ت ٤٥٩ هـ) . وكان  
أبوه من النضاة السنين في هذه البلاد . وقد استمال عامر بن عبد الله الرواحي داعي دعاة الإسماعيلية  
في اليمن ، علي بن محمد الصليحي ، فتحول إلى المذهب الإسماعيلي وهو في حد ذاته سنة ، وتفقه فيه ، ثم  
حل محل عامر بن عبد الله بعد وفاته ، وأحيى الدعوة الإسماعيلية القديمة وكانت قد فترت بعد وفاة  
ابن حوشب وانقسام أبنائه على أنفسهم . كما استطاع علي بن محمد الصليحي أن يحتل بعض قلاع اليمن  
ويقتضى على مناوئيه ( سنة ٤٣٩ هـ ) . ولما اشتد ساعده وقوى أمره واستقرت قدمه في هذه البلاد ،  
وكتب إلى صاحب مصر ، وهو معد المستنصر من بني عبيد ، ووجه إليه بهدايا ، فوجه معد المستنصر  
إليه برايات وألقاب ، وعقد له الولاية (١) ، ( سنة ٤٥٣ ) . ولم تأت سنة ٤٥٥ هـ حتى كان علي  
ابن محمد الصليحي قد ملك معظم بلاد اليمن .

وقد استعان الخليفة المستنصر بعلي بن محمد الصليحي في إزالة نفوذ العباسيين من بلاد الحجاز ،  
وإعادة سلطان الفاطميين عليها . ولما تم له ما أراد نشر العدل وقضى على الفوضى التي كانت ضاربة  
أطنابها فيها ، ولكنه لم يلبث أن قتل في سنة ٤٥٩ هـ (٢) وهو في طريقه إلى مكة ، وقام بالأمر من بعده  
ابنه الملك المكرم بن علي الصليحي (ت ٤٧٨ هـ) ، ثم قامت من بعده السيدة أروى الحرة الصليحية  
زوجة المكرم ( ٤٣٣ هـ ) بنشر الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن ، تلك الدعوة التي لا تزال منتشرة على  
أيدي البهرة في الهند .

#### ( ٤ ) علاقة الفاطميين بالأمويين في الأندلس والزييريين في المغرب :

كان العداء بين بني أمية وبني هاشم قديما باقي الأثر في الجاهلية والإسلام ، وكان العلويون  
يعتقدون أن الأمويين اغتصبوا حقهم في الخلافة . فلما قامت الدولة الفاطمية في المغرب ومصر ، زاد  
حقد الأمويين في الأندلس على هذه الدولة الشيعية ، بسبب اختلافهم وإيادهم في المذهب الديني ،  
وبسبب العداء التقليدي الذي استمر بين البيت الهاشمي والأموي ، وقرب الدولتين ببعضهما

(١) الحمادي التائي : كشف أسرار الباطنية وأخبار الفرامطة ص ٤٣ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ٢١٥ .

وقد اختلف المؤرخون في سنة وفاته ، فقال بعضهم إنها كانت سنة ٤٦٣ هـ ، وقال بعض آخر إنها سنة  
٤٧٣ هـ . ولكن الرسائل التي تبودلت بين المستنصر الفاطمي وبين الصليحيين تؤيد موته سنة ٤٥٩ هـ .

راجع سجلات المستنصر في مجلة مدرسة الدراسات الشرقية بلندن من ٣٢٣ The letters of Al-Mustansir  
(B. S. O. S.), p. 323.

من بعض . وهذا يفسر لنا لماذا عمد الأمويون في الأندلس إلى إنشاء أسطول قوى يستطيع أن يقف في وجه المطامع الفاطمية ، ويهدد ممتلكات الفاطميين . وكان للخلفاء الفاطميين أنفسهم أثر كبير في إذكاء هذا العداء ؛ فقد أورد المؤرخون طرفاً من هذه الرسائل التي تبودلت بين العزيز بالله الفاطمي والحكم المستنصر الأموي . ذكر ابن خلكان (١) أن العزيز كتب إلى الحكم المستنصر يسبه ويهجوّه ، فرد هذا عليه بقوله : أما بعد ، قد عرفنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبتناك . ويقول ابن خلكان أيضاً إن العزيز لم يرد على الحكم وأنه تالم لذلك أشد الألم . ولكن العيني (٢) ذكر أن الحكم كتب إلى العزيز صاحب مصر كتاباً حجاجاً فيه وفي أهله ، وأنه دعى في نسبه ، وأن جده القداح باطنى . وكتب في أول كتابه :

ألسنا بنى مروان كيف تقلبت بنا الحال أو دارت علينا الدوائر ؟  
فلما وقف العزيز عليه كتب في أوله :  
إذا ولد المولود منا تهلك له الأرض واهتزت إليه المناير  
عرفنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لهجوناك ، والسلام .

ولم يقتصر هذا العداء على الأمويين في الأندلس وحدهم ، بل شمل المغاربة الذين قامت الدولة الفاطمية على أكتافهم ، فإن بلسكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى ، الذى ولاء المعز لدين الله الفاطمى بلاد المغرب قبل مسيره إلى مصر واتخاذ القاهرة حاضرة لدولته سنة ٣٦٢ هـ لم يحفل هو ولا أتباعه من بعده بنشر دعوة الفاطميين في بلاد المغرب ، بدليل ذبوع مذهب أبى حنيفة في هذه البلاد ، حتى حمل المعز ( بن باديس بن المنصور بن بلسكين بن زيرى بن مناد ) جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب الإمام مالك رضى الله عنه ، وحسم مادة الخلاف في المذاهب (٣) . بل لم يحفل المعز بلقب « شرف الدولة » الذى لقبه به الخليفة الحاكم الفاطمى في سنة ٤٠٧ هـ ، بدليل قتل الشيعة في مدينة القيروان في هذه السنة (٤) .

وقد قامت الحرب بين المستنصر الفاطمى وبين المعز الصنهاجى ، واستعان المستنصر بقبائل بنى هلال ، وخاصة بقبيلتى زغبة ورياح ، واستولى على القيروان سنة ٤٤٩ هـ . ففر المعز إلى المهديّة ، ثم لم يلبث أن قطع ابنته تميم الخطبة للمستنصر الفاطمى ، وخطب للقائم العباسى . وظلت هذه الخطبة تقام للعباسيين حتى قامت دولة الموحدين على يد أبى عبد الله محمد بن تومرت الذى تلقب بلقب المهديّ ومات في سنة ٥٢٢ هـ ( ١١٢٨ م ) ، ثم قطع أحد أخصائه من القواد ، وهو عبد المؤمن ، الخطبة للخليفة العباسى وتلقب بلقب أمير المؤمنين (٥) .

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٢ .

(٢) عقد الجمان ، مخطوط بدار السكتب المصرية ج ١٩ ص ٣٩٦ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٠٣ ، ١٠٥ .

(٤) ابن الأثير ج ٩ ص ١١٠ ، وابن خلكان ج ٢ ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٥٠ - ٥١ .

## (ج) تنظيم الدعوة الفاطمية

### ١ - مراتب الدعوة :

كان الإسماعيلية يخفون ما يريدون أن يحملوا الناس على اتباعه ، وينظرون أمامهم بأمر أخرى تحجب إليهم المذهب الإسماعيلي ، الذي يدعو إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق . لذلك ابتدعوا دعوة منظمة قسموها منذ نشأتهم إلى سبع درجات ، ثم أصبحت تسعا في أيام الفاطميين . وهالك ملخص هذه الدرجات :

الدرجة الأولى : كان عبد الله بن ميمون ودعاته يعلون الناس كلا على قدر عقله ودينه ومذهبه . وكانوا يجذبون الناس بالوعود الكاذبة عن طريق تفسير رموز الدين ، وإظهار بعض مشكلات القرآن والمسائل الشرعية والطبيعية . فإذا وجد الداعي أن المدعو لم بما يقوله سلم له ، وإلا ترك يعمل فكره فيما يلقيه عليه من الأسئلة وقال له : يا هذا إن الدين لمكتوم وإن الأكله منكرون وبه جاهلون . ولو علمت هذه الأمة ماخصص الله به الأئمة من العلم لم تختلف . وبهذا يشير الداعي حب الاستطلاع عند المدعو والوقوف على ما عنده من العلم . فإذا آانس اطمئنانا إلى كلامه قال له : إن سبب ما نزل بالمسلمين من تفریق الكلمة ذهابهم عن أئمة نصبوا لهم وأقيموا حافظين لشرائهم يؤدونها على حقيقتها ويحفظون معانيها ويعرفون بواطنها ... ولكن الناس صاروا إلى أنواع الضلالات . فان دين محمد صلى الله عليه وسلم ما جاء بالتحلى ولا بما خف على الألسنة وعرفته دهماء العامة ، ولكن صعب مستصعب وعلم خفي غامض ، وهو سر الله المكتوم وأمره المستور الذى لا يطبق حمله ولا ينهض بأعبائه وثقله إلا ملك مقرب ، أو نبي مرسل ، أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للنقوى . ومن الأسئلة التى يوجهها الداعي إلى المدعو فى هذه الدرجة :

ما بال الله خلق الدنيا فى ستة أيام ؟ أعجز عن خلقها فى ساعة واحدة ؟ وما معنى الصراط المضروب فى القرآن ؟ (١) وما إبليس وما الشياطين وما وصفوا به ، وأين مستقرهم ؟ وما يأجوج وماجوج (٢) وهاروت وماروت (٣) وأين مستقرهم ؟ وما سبعة أبواب النار (٤) وما ثمانية أبواب الجنة ؟ وما شجرة الزقوم الثابتة فى الجحيم ؟ (٥) وما معنى الم ، (٦) و (٧) ؟ وما معنى كعبص ، (٨)

(١) يشير بذلك إلى قوله تعالى فى فاتحة الكتاب (اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم) .  
(٢) يظهر أنهم قبائل الهون Huns ، وقد ذكر يأجوج وماجوج فى قوله تعالى (إن يأجوج وماجوج مفسدون فى الأرض) . — سورة الكهف آية ٩٤ .  
(٣) يشير إلى ما ورد فى سورة البقرة (آية ١١٢) (وما أنزل على الملكتين يابل هاروت وماروت) .  
(٤) يشير إلى ما ورد فى قوله تعالى فى وصف جهنم فى سورة الحجر آية ١١٤ (لها سبعة أبواب ، لكل باب جزء مقسوم) .

(٥) وقد وصفها الله تعالى فى قوله : (إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلوعها كأنه رؤوس الشياطين ، فإنهم لا تكون منها فالثون منها البطون) — سورة الصافات آية ٦٣ — ٦٦ .  
(٦) تبدأ بعض السور بكلمة ألم مثل البقرة وآل عمران . (٧) يشير بذلك إلى أول سورة الأعراف (٨) يشير بذلك إلى أول سورة مريم .

« حمسق (١) ، ولم جعلت السموات سبعا والأرضون سبعا (٢) والمثاني من القرآن سبع آيات (٣) ولم فجرت العيون اثني عشر عينا (٤) ؟ ولم جعلت الشهور اثني عشر شهرا (٥) ثم يقول الداعي لمن حوله : فكروا أولا في أنفسكم . أين أرواحكم ؟ وكيف صورها ؟ وأين مستقرها ؟ وما أول أمرها ؟ وما معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . خلقت حواء من ضلع آدم ؟ ولم كانت قامة الإنسان منتصبة دون غيره من سائر الحيوانات ؟ ولم كان في وجهه سبع ثقب وفي سائر بدنه ثقبان ؟ ولم كان في ظهره اثنا عشرة عقدة ؟ وفي عنقه سبع عقد ؟ ولم جعل عنقه صورة ميم وبداه حاء وبطنه ميا ورجلاه دالا حتى صار ذلك كتابا مرسوما يترجم عن محمد ؟ ولم جعلت قامته إذا انتصب صورة ألف ، وإذا ركع صارت صورة لام ، وإذا سجد صارت صورة هاء ، فكان كتابة يدل على الله ، ولم جعلت أعداد عظام الانسان كذا وأعداد أسنانه كذا والأعضاء الرئيسية كذا ؟

وكان دعاة هذا المذهب إذا شككوا المدعو أو المرید وطلبوا منه حل هذه الرموز ، أخذوا عليه العهود والمواثيق بأن لا يكشف عن سر هذه الدعوة ، وأن يدافع عنها ، وأن يتحمل في سبيل الدفاع عنها كل ضروب العذاب والآلام . وفي ذلك يقول المقرري (٦) ، أليس الله تعالى يقول : ( ومن كان في هذه الدنيا أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا (٧) . فاذا علم الداعي أن نفس المدعو قد تعلقت بما سأله عنه ، وطلب منه الجواب عنها ، قال له حينئذ : لا تعجل فان دين الله أعلى وأجل من أن يبذل لغير أهله ويجعل غرضا للعب . وجمرت عادة الله وسنته في عبادته عند شرع من نصبه أن يأخذ العهد على من يرشده . ولذلك قال ( وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ، ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ، وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ) (٨) . . . وقال ( ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ) (٩)

ومن أمثال هذا ، فقد أخبر الله تعالى أنه لم يملك حقه إلا لمن أخذ عهده ، فأعطينا صفقة يمينك ، وعاهدنا بالموثوق من أيمانك وعقودك أن لا تنقض لنا سراً ، ولا تظاهر علينا أحدا ، ولا تطلب لنا غيلة ، ولا تكتنمنا نصحا ، ولا توالى لنا عدوا . فاذا أعطى العهد قال له الداعي : أعطنا جعلنا من مالك

(١) يشير بذلك إلى أول سورة الشورى .

(٢) يشير بذلك إلى قوله تعالى في سورة الطلاق ، آية ١٢ ( الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ) .

(٣) يشير إلى أن فاتحة الكتاب تتكون من سبع آيات .

(٤) يشير بذلك إلى انجاس الماء لبني إسرائيل من اثني عشر عينا ، سورة الأعراف آية ١٥٩ .

(٥) يشير بذلك إلى قوله في سورة التوبة آية ٣٦ ( إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا ) .

(٦) خطط ج ١ ص ٣٩٢ - ٣٩٣ .

(٧) سورة الاسراء آية ٧٢ .

(٨) سورة الاحزاب آية ٦ .

(٩) سورة النحل آية ٩١ - ٩٢ .

نجمه مقدمة أمام كشفنا لك الأمور وتعريفك إياها . والرسم في هذا الجمل بحسب ما يراه الداعي . فإن امتنع المدعو أمسك عنه الداعي ، وإن أجاب وأعطى نقله إلى الدعوة الثانية .

الدرجة الثانية : وإذا تم للداعي ما أراد ، دخل بالطالب في الدرجة الثانية ، ومؤداه أن فرائض الإسلام لا تؤدي إلى مرضاة الله إلا إذا كانت عن طريق الأئمة السبعة من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق . ثم بكشف المدعو بقوله إن الناس قد ضلوا ، لأنهم لم يأخذوا عن أئمة نصيهم الله لهم . ويستدل على ذلك بأمر مقرر في كتب الإسماعيلية حتى يتثبت ذلك في نفسه . فإذا ثبت نقله الداعي إلى الدرجة الثالثة ، وبذلك يضعون أساس مبدأ الإمامة في نفس المدعو ، فيتحول عن دينه أو مذهبه القديم .

الدرجة الثالثة: وفيها يكشف الداعي عن العقيدة بأن الأئمة سبعة ، وأن الإمام الحقيقي هو السابع الذي يعلم كل رموز الدين وسراته . ويستدل بذلك على أن الله جعل الكواكب السيارة سبعة وجعل السماوات سبعا ، وجعل الأرضين سبعا ، وهؤلاء الأئمة هم أيضا سبعة : أولهم علي ، ويلييه الحسن ، فالحسين ، فعلى زين العابدين ، فمحمد الباقر بن زين العابدين ، فجعفر الصادق ، فإسماعيل بن جعفر . وبعضهم يتخطى إسماعيل ويلحق الإمامة بابنه محمد . وهذا الإمام السابع هو صاحب الزمان ، وأن هذه علم الباطن ، وعلم التأويل ، وأنه يعرف الأسرار ، وأن دعائه هم الوارثون . عند ذلك يذهب اعتقاد المدعو في الأئمة الاثنا عشر (من بين طوائف الشيعة) ، لأنهم أخذوا عنه ومن جهته رويوا . فإذا انقاد المدعو لما ألقاه عليه الداعي في هذه الدرجة نقل إلى الدرجة الرابعة .

الدرجة الرابعة : وإذا وصل الطالب إلى هذه المرتبة اعتقد أن محمد بن إسماعيل هو خاتم النبيين . وفي ذلك يقول الداعي : حيث أن عدد الأئمة سبعة ، كذلك عدد الرسل الذين جاءوا بالشرائع سبعة (١) . ولكل من هؤلاء الرسل صاحب يأخذ عنه دعوته ، ويكون ظهيرا له في حياته ، وخليفة له بعد وفاته (٢) . وهؤلاء الأئمة السبعة الأصحاب أو المساعدون هم الأساس والصامتون (٣) لنباتهم على شريعة اتفقوا فيها أثر واحد هو أولهم . ولا بد عند انقضاء هؤلاء السبعة ونفاذ دورهم من استفتاح دور ثان يظهر فيه نبي يفسخ شرع من مضى من قبله ، ويكون الخلفاء من بعده ، ثم يكون بعدهم نبي ناسخ ، يقوم من بعده سبعة صمت (٤) أبدا . وهكذا حتى يقوم النبي السابع من النطقاء فيفسخ جميع الشرائع التي كانت قبله ، ويكون صاحب الزمان الأخير .

ومعنى ذلك أن النبي الذي يأتي بشريعة هو الناطق : فالناطقون سبعة هم الأنبياء . ولكل ناطق أو نبي سوس وستة أصحاب صمت . مثال ذلك آدم جاء بتشريع فهو نبي ناطق وصاحبه وسوسه

(١) ويسمونهم النطقاء ، ويرون أنهم حلولات المثل الكلي La Raison Universelle .

(٢) ويسمى الأساس أو السوس ، وهو عند الإسماعيلية حلول النفس الكلية Ame Universelle .

(٣) بنى الأساس ويلييه ستة أئمة صامتون .

(٤) أولهم الامام الأساس ويلييه ستة أئمة صمت .



ابنه شيث الذي يليه ستة أئمة صمت ؛ ونوح ناطق أتى بشريعة نطق بها ، وصاحبه وسوسه ابته سام ويليها ستة صمت ؛ وإبراهيم الخليل نبي ناطق صاحبه وسوسه ابته إسماعيل ويليها ستة صمت ؛ وموسى نبي ناطق ، صاحبه وسوسه أخوه هارون الذي يليه ستة أئمة صمت ؛ وعيسى نبي ناطق صاحبه وسوسه بطرس ، ومحمد صلى الله عليه وسلم نبي ناطق أتى بشريعة هي الإسلام ، وصاحبه وسوسه علي بن أبي طالب . وإنما يقصد الداعي من وراء ذلك أن يغير عقيدة المدعو ، ويدخل في نفسه أنه لا وحى بعد محمد عليه الصلاة والسلام ، ويجعله يعتقد أن الوحى مستمر مع توالى الأجيال . ومن تقدم هذه المرتبة لا يعلم سوى نظريات فلسفية لامت للإسلام بشئ . حتى يصل به الاعتقاد إلى أن محمد بن إسماعيل هو عبد الله بن ميمون ، وأنه بمنزلة هرون من موسى أو بمنزلة علي من محمد .

الدرجة الخامسة : وفي هذه المرتبة يقول الداعي للمدعو : إن لكل إمام قائم ، حججا (١) متفرقين في الأرض عددهم اثنا عشر رجلا . ويستدل على ذلك بأن البروج اثنا عشر ، وأن نقباء بني إسرائيل اثنا عشر ، ونقباء النبي صلى الله عليه وسلم اثنا عشر . ويستدل على أن عدد الأئمة سبعة بأمر منها أن الله تعالى خلق النجوم التي هي قوام العالم سبعة ، وجعل أيضا السموات سبعة ، والأرضين سبعة . ثم يقول الداعي للمدعو إن شريعة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ستنسخ . وإذا كان فارسيا ذكره بإذلال العرب له ، وحسه على التخلص من نيرهم ، وإن كان عربيا أثار حفيظته على الفرس ، وإن كان يهوديا أو نصرانيا حدثه بما يوافق عقيدته وميوله .

الدرجة السادسة : وفيها يفسر الداعي معاني شرائع الإسلام من صلاة وزكاة وحج وطهارة وغير ذلك ، ويقول إن هذه الفروض وضعت لتشفل العامة عن خلافاتهم وتبعدم عن الفساد . وإذا اعتقد المدعو بصحة هذا القول ، ضعف اعتقاده في الدين وأركانه . وإذا ينتقل الداعي إلى الكلام في الفلسفة ، فيقول إن فلاسفة اليونان يعتمدون على العقل في شرح كل المسائل . وعلى كل مسلم أن يحكم العقل في كل شئ ؛ وبذلك يجب إلى نفسه أن يلاطون وأرسطو وفيثاغورث وغيرهم من الفلاسفة الذين يعتمدون على تحكيم العقل . وإذا أخذ المدعو بهذه الآراء أصبح أهلا للنقل إلى الدرجة السابعة . ولم تعد هذه المرتبة إلا القليل ، حتى إن كثيرين من مشهورى دعاة الإسماعيلية كانوا عبد الله الشيعى لم يتجاوزها (٢) .

الدرجة السابعة : وفيها يعلم المدعو أن الناصب للشريعة ، وهو النبي ، لا يستغنى بنفسه ، ولا بد له من صاحب يكون أحدهما الأصل ، ويكون الآخر صدرا له . ويستدل الداعي على ذلك بقوله تعالى

(١) أحدث الإسماعيلية في هذه الدرجة مبدأ الحجج المشهور ، وأعطوا الحجة من التقديس ما كانوا يعطونه للإمام . ومن أشهر حجج الإسماعيلية عبد الله بن ميمون القداح - حجة محمد بن إسماعيل ، وناصرى خسرو (ت ٤٨٠ هـ) حجة المستنصر ، والحسن الصباح (ت ٥١٨ هـ) حجة المستنصر وابنه نزار . وقد قام كل من هؤلاء بدور هام في تاريخ الإسماعيلية .

De Sacy: Recherches sur l'initiation à la Secte des Ismaeleens, Journal Asiatique, (٢)

(إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون<sup>(١)</sup>) إشارة إلى الأول في الرتبة ، والآخر هو القدر الذي قال فيه (إن كل شيء خلقناه بقدر<sup>(٢)</sup>) ، كما يستدل أيضا بقول الفلاسفة : الواحد لا يبصر عنه إلا واحد . وبذلك يؤول الداعي هذه الآيات تأويلا يناسب ميول المدعو .

الدرجة الثامنة : وفيها يقول الداعي للمدعو إن التالي يدأب في أعماله حتى يلحق بمنزلة السابق ، وإن الصامت في الأرض يدأب في أعماله حتى يصير بمنزلة الناطق سواء ، وإن الداعي يدأب في أعماله حتى يبلغ منزلة السوس . فإذا اعتقد المدعو بذلك قال له الداعي : إن معجزة النبي الصادق الناطق ليست غير أشياء تنظم بها سياسة الجمهور ... فينظم بذلك النبي شريعة يتبعها الناس ، ثم يقرر الداعي أن القيامة والقرآن والثواب والعقاب معناها غير ما يفهمه العامة وما يتبادر إلى الذهن ، وليس هو إلا حدوث أدوار عند انقضاء أدوار من أدوار الكواكب وعوالم اجتماعاتها من كون وفساد جاء على ترتيب الطبائع ، كما بسطه الفلاسفة في كتبهم . وعلى ذلك فليست معجزة النبي سوى أشياء تُنظم بها سياسة الجمهور . وإنما يقصد الداعي بذلك إزالة كل اعتبار عن كل ما يسمى نبوة . ولم يعد للإسلام أى تأثير على نفسه<sup>(٣)</sup> .

الدرجة التاسعة : وإذا انتقل المدعو إلى الدرجة التاسعة ، أصبح جديرا بالتعمق في أصول المذهب الإسماعيلي . عند ذلك يحيله الداعي إلى كتب الفلاسفة وما جاء فيها عن الطبيعة وما وراء الطبيعة ، وعن العلم الإلهي ، واعتقد أن الوحي هو صفاء النفس ، وأن النبي يجد في فهم ما يلقى إليه وينزل عليه ، فيظهره للناس ، ويعبر عنه بكلام الله ، ذلك الكلام الذي ينزل به النبي شريعته . فكان النبي لا يعمل شيئا ، إذ أن الوحي ينزل عليه فيظهره للناس ، وأن الأنبياء النطقاء أصحاب الشرائع إنما هم لسياسة العامة ، على حين أن الفلاسفة أنبياء حكمة الخاصة . وهكذا يبرهن دعاة هذا المذهب لتلاميذهم ومريديهم أن ظهور الإمام بظهور أمر الله ، وأن نبيه إنما يكون على لسان أوليائه الذين هم الدعاة أنفسهم ، والذين يصح لهم أن يحلوا محل الأنبياء ، ويجتهدوا حتى يصلوا إلى منزلة الناطق<sup>(٤)</sup> . وما هو جدير بالملاحظة أن هذه الدرجات كانت رائجة في دورى الستر والظهور ، وأن الفاطميين أولوها كثيرا من العناية ، فعقدوا لها المجالس في القصور والمكاتب والمساجد على ما سترى .

## ٢ - راعى الرعاية :

وقد أسندت رئاسة الدعوة الإسماعيلية في عهد الفاطميين إلى موظف كبير أطلق عليه « داعي

(١) سورة يس آية ٨٢ .

(٢) سورة القمر آية ٤٩ .

(٣) Goldziher: le Dogme et la Loi de l'Islam , p. 204

(٤) أنظر هذه الدعوات التسع في كتاب الحطط للمقرئى ج ١ ص ٣٩١ - ٣٩٥ ، وراجع العهد القديم يؤخذ على المدعو في المصدر نفسه ج ١ ص ٣٩٦ - ٣٩٧ ، وفي كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنزوى مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٤ ص ٦٥ - ٦٦ .

الدعاة ، وكان بلى قاضى القضاة فى الرتبة ويتزىا بزىه . وكثيرا ما كانت وظيفتا قاضى القضاة وداعى الدعاة تسندان إلى رجل واحد . ويساعد داعى الدعاة فى نشر التعاليم الفاطمية اثنا عشر نقيبا ، وله نواب يتوبون عنه فى البلاد ، وبذلك يعتبر الصلة بين الخليفة وبين أتباعه من الإسماعيلية ، كما يتضح ذلك من قول المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى عند كلامه على داعى الدعاة القاسم بن عبد العزيز ابن محمد بن النعمان فى عهد المستنصر الفاطمى : « وتوجهت بعد ذلك إلى الموسوم بالقضاء والدعوة الذى كان باب حفظنا ، ونحن بالبعد والواسطة بيننا وبين مجلس الإمامة (١) » .

ومن أهم أعمال داعى الدعاة رياسة الدعوة الإسماعيلية ، وأخذ العهد على المریدين إما مباشرة أو بواسطة نوابه فى مصر وفى غيرها من البلاد التى ساد فيها المذهب الإسماعيلى ، والإشراف على محاضرات المجالس وتفتيحها ، وعرضها على الخليفة لإقرارها وتديلها بإمضائه ، وإلقاء هذه المحاضرات بنفسه فى الأماكن المختصة لها . ومن خصائص داعى الدعاة جمع التجوى (٢) من المؤمنین والمؤمنات ( يعنى الإسماعيلية ) ، وتدوين اسم من يدفع أكثر من المال المقرر . وكان يجمع فى عيد الفطر مال كثير يودع بعضه بيت المال (٣) . ولخطورة مركز داعى الدعاة ، أسند إليه الفاطميون رياسة دار الحكمة ودار العلم الملحقة بها .  
ومن أشهر الذين ولوا وظيفة داعى الدعاة أسرة أنى حنيفة النعمان المغربى ، والمؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى .

### ٣ - مجالس الدعوة :

وقد خصص لداعى الدعاة مكان خاص بقصر الخليفة ، هو دار العلم . وكان دعاة الإسماعيلية يتصلون به ويتلقون عنه الأوامر ، ويقدمون له فى يومى الاثنين والخميس ما أعدوه للحاضرة فى أصول المذهب الإسماعيلى . وكان داعى الدعاة يعقد المجالس ويقرا على الناس من مصنفاته ، ويجلس على كرمى الدعوة فى الإيوان الكبير ، فيحاضر الرجال ، ويعقد للنساء مجلسا خاصا يسمى « مجلس الدعوة » ، حيث يلقتن أصول المذهب . ذكر المقرئى ، نقلا عن ابن عبد الظاهر ، أن هذه المجالس كانت تفرد للناس كل حسب طبقته : فكان لآل على مجلس ، وللخاصة وشيوخ الدولة مجلس ، ولبن يتصل بالقصور من الخدم وغيرهم مجلس ، وللعامة والطارئين من البلاد الأجنبية مجلس ، وللحرم وخوادم النساء القصور مجلس خاص بهن . وكان النساء يحضرن فى الجامع الأزهر . وإذا فرغ داعى الدعاة من إلقاء محاضراته على المؤمنین والمؤمنات ، أقبلوا عليه يقبلون يده ، فيمسح على رؤوسهم بالجزء الذى عليه إمضاء الخليفة .

(١) المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى : السيرة المؤيدية ، مخطوط بجامعه فؤاد الأول ص ١٢١ .

(٢) ذكر المقرئى (خطوط ج ١ ص ٣٩١) أن التجوى كانت ثلاثة دراهم وثلاثا ، ومن سراة الإسماعيلية من دفع التجوى ثلاثه وثلاثين دينارا وثلاثي دينار ، فيمتاز بذلك عن غيره فى المحول ، ويعطى رقعة مذيلة بإمضاء الخليفة فيها : « بارك الله نيك وفى مالك وولئك ودينك » ، فيدخر ذلك ويغفر به .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٩١ .

ويظهر أن الفاطميين هم أول من أفرده داعي الدعوة مكانا كبيرا في القصر؛ ففي عهد العزيز بالله الفاطمي قُتل قاضي القضاة محمد بن النعمان منصب الدعوة إلى مذهب آل البيت في القصر، كما كان أخوه الحسين في القاهرة وأبوه أبو حنيفة النعمان المغربي في المغرب. وقد اشتد الزحام بالناس حتى مات منهم أحد عشر رجلا. وبذل الحاكم بأمر الله جهدا كبيرا في نشر هذه الدعوة، حتى لقد أرغم كثيرا من الناس على اعتناق المذهب الفاطمي، كما كان من كثرة دخول الناس في هذه الدعوة أن خصص لهم يومان في الأسبوع لتلقى تعاليم هذا المذهب.

وكان داعي الدعوة يتسلم كتب الدعوة التي تقرأ على الناس في القصر من سلفه المباشر<sup>(١)</sup>. أما هذه الكتب فهي من غير شك الكتب التي ألفها رجال من أمثال أبي حنيفة النعمان المغربي<sup>(٢)</sup>، ويعقوب بن كلس<sup>(٣)</sup>، والمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي، وغيرهم من كبار دعاة الإسماعيلية. ومن أشهر هذه الكتب كتاب رسائل الحاكم بأمر الله والفائمين بأمر دعوتهم، وتتناول الكلام على الدروز.

### (٥) الدرزية<sup>(٤)</sup>

#### ١ - رعاة الدرزية :

قامت في العصر الفاطمي طائفة من غلاة دعاة الإسماعيلية السُموا الحاكم، وخرجوا بذلك على السواد الأعظم من الإسماعيليين المعتدلين الذين يمثلون المدرسة الإسماعيلية القديمة. وقامت هذه الحركة على أيدي الفرسان الذين كانوا يقصدون ملوكهم ويؤمنون بنظرية الحق الملكي المقدس The Divine Right of kings ومن أعظم هؤلاء دعاة تأثيرا في هذه الحركة حمزة بن علي الروزني والحسن بن حيدرة الفرغاني المعروف بالأخترم، ومحمد بن إسماعيل أنوشتكين البخاري الدرزي، الذين جهروا في مصر بتأليه الحاكم.

(١) راجع حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر من ١٤٢ - ١٤٤.

(٢) ومن أشهر كتبه كتاب دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام، وكتاب المهمة، وكتاب المجالس والمسائر، وكتاب النبوع، وكتاب الإيضاح، وكتاب مختصر الإيضاح، وكتاب أساس التأويل، وكتاب افتتاح الدعوة الزاهرة.

(٣) ومن أشهر كتبه الرسالة الوزيرية، وقد نهج فيها نهج أبي حنيفة النعمان في كتبه.

(٤) الدرزي (بالفتح) : واحد دروز التوب ونجموه، وهو فارسي معرب. ويقال درز بالبدال والقال، وأولاد درزة: السفلة والسقاط والوعناء من الناس والحياطون والحاكة، وهم من أسافل الناس. والدرزي (بالفتح): الحياط. والعامية تضم الدال فنقول دَرَزِيٌّ، وفي الجمع دروز، والصواب دَرَزِيٌّ في المفرد ودرزية في الجمع، والشائع اليوم دروز وهو خطأ.

وفد حمزة بن علي على مصر في سنة ٤٠٥ هـ ، وانتظم في سلك دعاة الفرس الذين كانوا يختلفون إلى دار الحكمة التي أسسها الحاكم سنة ٣٩٥ هـ . وأخذ ينشر في الحفاه الدعوة إلى تأليه الحاكم ، ثم جهر بهذه الدعوة بعد أن لقي قبولا من ذلك الخليفة الفاطمي وقد وصف النويري (١) الدور الذي قام به حمزة في بث عقيدة تأليه الحاكم في هذه العبارة ، قال : إنه ظهر من دعاة الحاكم رجل يقال له حمزة بن اللباد الأعجمي الزوزني ، ولازم الجلوس في المسجد الذي بناه خارج باب النصر ، وأظهر الدعاء إلى عبادة الحاكم ، وأن الإله حل فيه . واجتمع إليه جماعة من غلاة الإسماعيلية ، وتلقب بهادي المستجيبين . وكان الحاكم إذا ركب إلى تلك الجهة ، خرج إليه حمزة من المسجد وانفرد به ، وتمادي على ذلك وارتفع شأنه . واتخذ لنفسه خواص لقب بعضهم بسفير القدرة ، وجعله رسولا له . وكان يرسله لأخذ البيعة على الرؤساء على اعتقاده في الحاكم ، فلم يمكنهم مخالفة خوفه على نفوسهم من بطشه .

وفي سنة ٤٠٨ هـ جهر حمزة بن علي بدعوة الوهية الحاكم ، وصنف له كتابا ذكر فيه أن روح الله سبحانه وتعالى حلت في آدم عليه السلام ثم انتقلت إلى علي بن أبي طالب ، وأن روح علي انتقلت إلى العزيز ، ثم إلى ابنه الحاكم ، أي أن الحاكم قد أصبح في نظرهم لها عن طريق الحلول (Incarnation) وبظهر أن دعوة تأليه الحاكم التي قام بها حمزة بن علي قد أوهنت صرح الدعوة الإسماعيلية المعتدلة في مصر . ولا غرو فقد عمل علي أن يحل في رئاسة هذه الدعوة محل ختكين داعي دعاة الإسماعيلية في هذه البلاد . ولولا مقاومة السنين والمعتدلين من الإسماعيلية لآلت رئاسة الدعوة الإسماعيلية إلى حمزة منذ سنة ٤٠٨ هـ . وقد شجع الحاكم هذا الداعي وأنصاره ، حتى إنه كان كثيرا ما يلتقي بهم في القرافة ويظهر عطفه عليهم وتودده إليهم ، ويسأل حمزة عن عدد أنصاره ومدى ما وصل إليه في هذه الحركة من نجاح (٢) . وكان من أثر هذا التشجيع أن غلا حمزة بن علي في تلقيب نفسه بألقاب متعددة مثل الإمام ، والدليل على عبادة الله ، والداعي إلى توحيد الله ، والناشق بحق الله ، والبرهان على الله ، والرسول الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . . . وأنه السبيل إلى معرفة مولانا جل ذكره (أي الحاكم) . والطريق إلى توحيد ، والحجة إلى عبادته (٣) .

ويعتبر حمزة بن علي المؤسس الحقيقي لمذهب الدرزية ؛ فقد استغل الحسن بن حيدرة الفرغاني الأخرم ، ومحمد بن إسماعيل البخاري الدرزي في نشر عقائد هذا المذهب ، وشجع الأخرم في سنة ٤٠٩ هـ

(١) نهاية الأرب : مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٦ ورقة ٥٩ .

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق من ٢٢٣-٢٢٤ .

(٣) كتاب النقط والدوائر ، وهو من كتب الدرزية ، وقد ذيل ببعض رسائلهم ، وهي (١) الرسالة الموسومة بيده الخائق ، (٢) نبذة من شرح البيان وبجزي الزمان (ج) الرسالة الموسومة بكشف الخائف ، نصره سيولك الأناي (١٣١٩ هـ = ١٩٠٢ م)

على الجهر بتأليه الحاكم . وكان الأخرم مشهورا بالجرأة والإقدام . ويقول النويري (١) : « ظهر رجل يقال له حسن بن حيدرة الفرغاني الأخرم ، يرى حلول الإله في الحاكم ، ويدعو إلى ذلك ، ويتكلم في إبطال النبوة ... فاستدعاه الحاكم وخلع عليه خلعاً سفينة ، وحمله على فرس مسرجة ... وركبه في موكب في ثاني شهر رمضان . فبينما هو يسير في بعض الأيام ، تقدم إليه رجل كرخي فألقاه عن فرسه ، ووالى الضرب عليه حتى قتله . وأمسك الكرخي ، فأمر الحاكم بقتله ، فقتله لوقته ؛ ونهب الناس دار الأخرم بالقاهرة . وكان بين الخلع عليه وقتله ثمانية أيام »

ويظهر أن الأخرم قُتِل بعد أن أثار هذه الاضطرابات في جامع عمرو . فقد ذهب على رأس خمسين رجلاً من أنصار حركة التأليه ، ودخلوا الجامع راكبين دوابهم ، وسلوا إلى القاضي السني ابن أبي العوام فتوى صدرت باسم الحاكم الرحمن الرحيم ؛ وأثار الأخرم بذلك حنق المصريين السنيين فانقضوا عليه وعلى رجاله وفتكوا بهم ، وتمسك هو من الحرب ، ولكنه قتل بعد قليل (٢)

وقد أثار قتل الأخرم وأنصاره حنق الخليفة الحاكم ، حتى إنه وأمر بقتل الأخرم الأبرك معه أحد إلا الركابية فقط ، ولا يدخل إلى قصره من رؤساء دولته سوى أحد عشر رجلاً أسماهم ، وأن يدخل أيضاً السكتاب والقراون ، والأطباء والمؤذنون وخدام القصر ، من غير أن يختلط بهم غيرهم من الناس ، (٣)

ولكن قتل الأخرم لم يضعف من عزيمته غلاة الإسماعيلية . فقد ظهر على أثر مقتله في سنة ٤٠٩ هـ الداعي محمد بن إسماعيل الدرزي (٤) ، وكان قد وصل إلى مصر في سنة ٤٠٨ هـ ، فرحب به الحاكم وأجزل له العطاء . وقد سلك الدرزي في سبيل تأييد ألوهية الحاكم مسالك شتى ، فألف الكتب في ذلك ، واستعان بنفوذ الخليفة الحاكم في نشر هذه الدعوة بين رجال البلاط والموظفين . ويقول أبو المحاسن (٥) : « وقربه وفوض الأمور إليه ، وبلغ منه أعلى المراتب ، بحيث أن الوزراء أو القواد والعلماء كانوا يقفون على بابه ولا ينقضى لهم شغل إلا على يده ، وكان قصد الحاكم الانقياد إلى الدرزي المذكور في طبيعته » .

ولم يكن هذا كل ما قام به الدرزي في سبيل نشر دعوته ، فقد تسمى بسند المهدي (حمزة بن علي) وحذا حذو أستاذه في نقل رياسة هذه الدعوة إليه ، فكتب إلى ختمكين داعي دعاة الإسماعيلية يطلب إليه الانضواء تحت لوائه ، كما كتب إلى ولي عهد المسلمين عبد الرحمن بن إلياس الذي كان يمثل

(١) نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٦ ص ٥٩

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٣

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٢٢٣

(٤) وإليه تنسب طائفة الدرزية ، عل الرغم من أن حمزة بن علي يعتبر المؤسس الحقيقي للمذهب الدرزي

(٥) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٤

عقيدة الحاكم التوحيدية وإلى غيرهم يدعو إلى دعوته ، مما يدلنا على مدى تغلغل نفوذ أنصار المذهب الدرزي . على أن ختكين قاوم هذه الحركة واشترك ، حتى مع السنين في القضاء عليها ، وشكا إلى الحاكم جرأة الدرزي وأنصاره وغلوهم . ووجدت هذه العقيدة أنصارا من بين المصريين طمعا في التقرب إلى الخليفة الذي ناصر هذه الحركة وعطف عليها . كما أخذ الدرزي في قراءة كتابه الذي صنفه في عقائد المذهب الدرزي في الجامع الأزهر ، مما أثار سخط المصريين السنيين والمعتدلين من الشيعة ، وكادوا يقتلونه لولا أنه هرب إلى بلاد الشام ، وأقام بوادي تيم الله بن ثعلبة غربي دمشق ، وأخذ ينشر الدعوة في تأليه الحاكم ويقرأ على أهالي هذه الجهات كتبه التي لم تلق قبولا لدى كثير من المصريين الذين اضطهدوه ، وأظهر الحاكم استيائه من دعوته خوفا من الرعية . وقد استطاع الدرزي أن يستميل إلى دعوته كثيرا من الأنصار الذين أصبحوا يعرفون باسم الدرزية . ولا يزال هذا المذهب منتشرا في جبال لبنان وحموران .

وليس من شك في أن الحاكم كان يناصر هذه الدعوة ويشجع الدرزية في مصر أولا وفي الشام ثانيا ، لأن ذلك كان يتفق مع ميوله ، بدليل أنه اتخذ جواسيس من النساء يندسسن في دور بعض الناس . وكان من واجبه اكتشاف ما يحدث فيها ، ثم تقديم تقاريرهن إليه في اليوم التالي . فإذا أصبح الخليفة استدعى أهل هذه الدور للشول بمحضته وأخبرهم بما حدث في دورهم ، كما اتخذ جواسيس عهد إليهم أن يقدموا إليه تقارير مستوفاة عن كل ما يحدث في الطرقات ، حتى أصبح بعض الناس يعتقد أنه يعلم الغيب .

وقد ادعى الحاكم تجسم الإله في شخصه ؛ وهو وإن لم يصرح بذلك ، كان يوافق على آراء أنصاره كعمزة بن علي والدرزي اللذين نسبوا إليه الصفات التي لا يتصف بها إلا الله سبحانه وتعالى . كذلك اعتقد الناس أن بيده الحياة والموت ؛ وإذا ظهر في الطرقات خروا له سجدا وقبلوا الأرض بين يديه ومن أبي ذلك كان نصيبه الموت .

وقد شجع بعض الشعراء المتصلين بالبلاط الفاطمي هذا الاعتقاد ، ولم يترددوا في أن ينسبوا إلى الحاكم بعض صفات الله وهم يقرءون القرآن بمحضته ، فقد أمدنا ابن خلدكان (١) بوثيقة نقلت عن المحافظ السلفي بخط يده ، نصها : « إن الحاكم المذكور كان جالسا في مجلسه النام وهو حفل بأعيان دولته ، فقرأ بعض الحاضرين قوله تعالى : ( فلا وربك لا يؤمنون حتى يحسبوك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلووا تسليما ) ، (٢) والفارسي في أثناء ذلك يشير إلى الحاكم . فلما فرغ من القراءة ، قرأ شخص آخر يعرف بابن المشجر ، وكان رجلا صالحا : ( يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٢٧

(٢) سورة النساء آية ٦٨

يسلبهم الذباب شيئا لا يستنفذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدر الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز (١) . فلما انتهت قراءة ، تغير وجه الحاكم ، ثم أمر لابن المشجر المذكور بمائة دينار ، ولم يطلق للأخر شيئا . ثم إن بعض أصحاب ابن المشجر ، قال له : أنت تعرف خلق الحاكم وكثرة استحالانه (٢) وما نأمن أن يحقد عليك ، وأنه لا يؤاخذك في هذا الوقت ، ثم يؤاخذك بعد هذا فتأذى منه ، ومن المصلحة عندي أن تغيب عنه ، فتجهز ابن المشجر للحج وركب في البحر وغرق .  
وقد أعلن الذين اتبعوا سياسة الحاكم الدينية ما يعتقدونه من عبادته وتوحيده وتزويجه ، وأرغم من لم يقل بالوهيئة الحاكم على دفع الجزية كأهل الذمة .

## ٢ - أهم مميزات الدرزية

قامت طائفة الدرزية في أوائل القرن الخامس الهجري كما تقدم ، ولا تزال إلى الآن تحتفظ بشيء من ميزاتها وخصائصها كطائفة من طوائف المذهب الإسماعيلي . ولا يزال كثير من الأسس التي وضعها حمزة بن علي وغيره من دعاة الدرزية الأول قائما إلى اليوم . ومن أهم هذه الخصائص اتخاذ الدرزية تقويما جديدا يؤرخون به حوادثهم ، ويبدأ من سنة ٥٠٨ هـ ، وهي السنة التي ظهرت فيها دعوى تأليه الحاكم علي يد حمزة بن علي وأنصاره . ويعبرون عن ذلك بكشف المسكون ، أي ظهور التوحيد .

ومن هذه الخصائص إغلاق باب الاستجابة الخارجية ، بمعنى أن هذه الاستجابة تغلق أبوابها في وجه كل من لا ينتمي إليها ، أي من لا يكون درزيا ، أو موحدا على حد تعبيرهم . ويبررون ذلك بقولهم إن الدعوة قد أبطلت وأغلقت الأبواب ، فمن لم يؤمن بقي كذلك إلى الأبد ، ومن آمن فقد آمن بلاردة (٣) . ومن ثم نرى الدرزية ينقسمون إلى طائفتين :

الأولى : طائفة الروحانيين ، وتكون الطبقة المستتيرة التي تلم بأصول المذهب الدرزي ، وتنقسم هذه الطائفة إلى رؤساء وعقلاء (أو عقال) وأجاويد . فالرؤساء هم الذين يدهم مفاتيح جميع أسرار الدرزية ، والعقلاء يدهم الأسرار الداخلية التي تتعلق بالتنظيم الداخلي للذهب ، والأجاويد يدهم مفاتيح الأسرار الخارجية التي تخص بعلاقة مذهبهم بغيره من المذاهب .

والطائفة الثانية هي طائفة الجثمانين ، وتنقسم إلى قسمين : الأمراء الجثمانين ، والنامة أو الجهال . فالأمراء الجثمانيون يدهم شئون الحرب والزمامة الوطنية ، والنامة أو الجهال هم الذين لا يعرفون من أصول المذهب إلا اسمه ، ولا يحق لطبقتي الجثمانين الدخول ، بحال من الأحوال ، في مجالس طائفة الروحانيين ، ويعتبرون جهالا مهما تلاكهم في التعليم والثقافة . (٤)

(٢) تغيراته

(١) سورة الحج آية ٧٣ - ٧٤

(٣) حمزة بن علي الدرزي : النايد في مذهب أهل التوحيد ( نشره ميخائيل شارويم ) ص ٢٣

(٤) راجع Philip Hiti: The Origins of the Druze People and Religion (Columbia, 1928), p.43



ولا يسمح لأحد من أعضاء طائفة الجثمانين بالانتظام في طائفة الروحانيين إلا بعد اجتياز اختبار طويل صعب يظهر فيه استعداده لتلقى أصول المذهب الدرزي والاطمئنان إلى أنه سوف يصبح عضوا نافعا متفهما في عقائده ، بل بعد أن يؤخذ عليه عهد يتبرأ فيه من جميع الأديان والمذاهب ، ويتعهد بالدفاع عن هذه الطائفة ويحافظ على أمرها . وقد وضع حمزة بن علي صيغة هذا العهد الذي أسماه «ميثاق ولي الزمان» ، وهناك نصه عن دي ساسي (١)

« توكلت على مولانا الحاكم الأحمد ، الفرد الصمد ، المزه عن الأزواج والعدد . أقر فلان بن فلان إقرارا أوجبه على نفسه ، وأشهد به على روحه في صححة من عقله وبدنه وجواز أمره ، طائعا غير مكروه ولا مجبر ، أنه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والأديان والاعتقادات كلها على أصناف اختلافاتها ، وأنه لا يعرف غير طاعة مولانا الحاكم جل ذكره ، والطاعة في العبادة ، وأنه لا يشترك في عبادته أحدا مضى أو حضر أو ينظر ، وأنه قد سلم روحه وجسمه وماله وولده وجميع ما يملكه لمولانا الحاكم جل ذكره ، ورضي بجميع أحكامه له وعليه ، غير معترض ولا منكر لشيء من أفعاله ، ساء ذلك أم سره . ومتى رجع عن دين مولانا الحاكم جل ذكره ، الذي كتبه على نفسه ، وأشهد به على روحه ، وأشار به على غيره ، أو خالف شيئا من أوامره ، كان بريئا من الباري المعبود ، وحرم الإفادة من جميع الحدود ، واستحق العقوبة من الباري العلي جل ذكره . . . ومن أقر أنه ليس في السماء إله معبود ، ولا في الأرض إمام موجود إلا مولانا الحاكم جل ذكره كان من الموحدين الفائزين .

وكتب في شهر كذا وكذا من كذا وكذا ، ومن سنة عبد مولانا جل ذكره ، ومملوكة حمزة ابن علي بن أحمد ، هادي المستجيبين المنتقم من المشركين والمرتدين بسيف مولانا الحاكم جل ذكره وشدة سلطانه وحده .

وقد خلف حمزة بن علي وغيره من دعاة الدرزية الأقدمين كثيرا من المؤلفات التي كشفت عن كثير من غوامض هذا المذهب ، ومنها تتبين أنهم من غلاة الإسماعيلية ، وأن مذهبهم لم يخرج عن المذهب الإسماعيلي في جوهره . وقد أوضح الأستاذ فيليب حتى<sup>(٢)</sup> أن الجيوش المصرية بقيادة إبراهيم باشا ظفرت بكثير من هذه المخطوطات في خلوات الدرزية ، أي في الأماكن التي كانوا يتخذونها مركزا لعبادتهم ، وذلك عند قيام الثورة السورية في وجه الحكم المصري سنة ١٨٤٨ م . ومن أشهر هذه المخطوطات «رسائل الحاكم بأمر الله والقائمير بأمر دعوته» (٣) . ويشتمل على ٢٠ رسالة تتناول عقائد الدرزية .

وقد بنيت هذه الرسائل على آراء فلسفية مصدرها عقائد الباطنية والمعتزلة ؛ لأن الفلاسفة ، وهي

(١) - Chrestomathie Arabe, Vol. II. p. 52

(٢) Philip Hitti: The Origins of the Druze People and Religion, p. 48

(٣) ويحتوى على ٦٤ ورقة ، ويشتمل على عشرين رسالة ( دار الكتب المصرية ) مخطوطات الشيعة

رقم ٢ . واعتمد دي ساسي في كتابه : Exposé de la Religion des Druzes (2 vols., Paris, 1838)

, Chrestomathie Arabe (3 vols., Paris, 1826-7)

المعروف باسم «الأنيس المقيد لطلاب المستعبد وجامع الشذور من منظوم ومثور» على المخطوطات التي تتناول

أساس الشريعة عند الفاطميين ، قد حلت في عهد الحاكم محل القرآن والسنة . كانتف من هذه الرسائل على أن داعي الدعاة كان يعاونه مائة وواحد وخمسون داعيا بالإضافة إلى ما كان يقوم به المؤذنون وخطباء المساجد من نشر المذهب الإسماعيلي .

والرسالة الأولى ليس لها عنوان يدل على موضوعها ، ولكنها تعتبر تمهيدا للرسائل التي تليها ، وتعرض للكلام على العقائد التي استجدت في عهد الحاكم . ويقول كاتب هذه الرسالة : « العالم ناطق الشريعة ، لأن ناطق الحقيقة الإمام . وهو مبدع الكل ، يعنى العشرة : الخمسة (١) حدود (٢) الحق ( الحقيقة ) ، والخمسة حدود الشريعة ، وعال علتهم (٣) ؛ والعلة العقل الكلى ، ومصدر صورتهم الدينية (٤) .

• أما موضوع هذا الكتاب ، فهو بيان الدقائق بالاختصار في إبطال قوة من قال إن مولانا هو الناطق والأساس ، ثم ذكر هذه الحجج العظيمة التي هي السجلات (٥) .

== الكلام على الدرور بباريس (أرقام ١٥٨٠-١٥٨٣) (Anciens fonds, ie 1403, 1415, 1419) وعنوانه « كتاب المشاهد والأسرار التوحيدية لمولانا » (الحاكم) . والمجلد الأول من مجلدات هذا المخطوط يشتمل على ست وعشرين رسالة ، ويكاد يتفق في ست عشرة منها مع مثيلاتها من مخطوط « رسائل الحاكم بأمر الله والفاطميين بأمر دعونه » الموجود بدار الكتب المصرية بالقاهرة . ولكن دى ساسى اقتصر على ترجمة أربع من هذه الرسائل ، وتناول الكلام على الرسائل الأخرى بشئ كثير من الإيجاز ، فذكر خلاصة كل منها ، وشرح موضوعها ، وذكر التاريخ الذى دونت فيه

راجم كتاب « الفاطميون في مصر » للمؤلف ص ١٤٤

(١) كان الخمسة حدود الحق : عبد الرحيم ولى عهد الخليفة ، وعباس ، وختكين الداعى ، وجعفر ، وأحمد ابن العوام قاضى القضاة . وذكر دى ساسى عن الرسالة السابعة عشرة من مخطوط باريس (رقم ١٤٠٨) ، وعنوانها (التزبه) ، أن الخمسة حدود هم : عبد الرحيم بن إلياس ، وعباس بن شعيب ، والداعى ختكين ، وجعفر الملقب بالضرير ، وأحمد بن العوام قاضى القضاة (Exposé, Tome I, pp. cccc LXXII seq.) (٢) ذكر دى ساسى أن كلمة « حدود » في اصطلاحات الدرور الدينية تشير - بطريق المجاز لما جاء في القرآن الكريم - إلى الحدود التي لها الساطة الدينية بحسب أصول هذا المذهب . وعلى ذلك فإن « إقامة الحدود » معناها الصرائع التي أوجدها الأئمة (الحدود) في طائفة الدرور (Chrestomathie arabe, Tome II, pp. 199, 242, n. 45) وقد أوضح دى ساسى (Ibid. Tome I, p. 275, n. 147) كلمة حدود ، فزعم أن المؤلف يشير بقوله « شرح الحدود » إلى الرسالة الثامنة عشرة من مخطوط باريس (Ancien fonds, no. 1415) وعنوانها: « ذكر معرفة الامام وأسماء الحدود العلوية روحانيا وجسمانيا » .

(٣) دى ساسى (Chrestomathie Arabe, Tome II, pp. 219, 274, no. 136) أن حمزة بن على هو علة الوجود ، ويسمى في صرائع الموحدين نارة بالعقل ، ونارة أخرى بلمة الملل ، وتدين له بوجودها الأشياء كافة . ثم يقول دى ساسى إن الحاكم هو الاله الأعلى ، ويسمى أحيانا الملة الفعالة الملة الملل (la cause efficiente de la cause des causes) ؛ ولكنه لم يجزم بذلك حيث يقول « إن هذه الآراء ليست خاصة بالدرور ، بل قال بها الإسماعيليون أيضا ، وأعتقد أنها شائعة عند من يقول بما وراء الطبيعة بين بعض الطوائف الإسماعيلية » (٤) مخطوط بدار الكتب المصرية ورقة ١ (١) .

(٥) ذكر دى ساسى أن النبي أو الناطق يخلفه سبعة من الأئمة أولهم : يدعى الأساس أو السوس ، وهو خليل الناطق والأمين على تعاليمه في الزهد . والناطق والأساس هما محمد وعلى ، وهما خادما الحاكم ليس غير ؛ ==

وفي هذه الرسالة الأولى أيضا يفسر الداعي كلمة « إمام » التي تقوم مقام « ذو معه » ، وهو العقل الكلي الذي يربي الدعاة ، وعنه يلتقون العلم : « لأن السابق الحقيقي هو الإمام الأعظم ... الذي هو العقلي الكلي ... أن الإمام الكلي هو الذي يربي الدعاة ... يأخذون العلم ، يعني الدعاة » .

وفي الرسالة الثانية وموضوعها : « رسالة النساء » ، يؤكد الداعي خطر تعدد الآلهة . ويدافع عن ضرورة الاعتقاد بوحداية الحاكم ( الخالق الرازق ) ، و ( علام الغيوب ) . ثم يستطرد في الكلام فيقول : « والمراد بالدين هنا المجالس والسجلات » . ومن هنا نتبين . أنه أُدخل في عهد الحاكم دين جديد مبني على هذه التعاليم التي قامت مقام القرآن والسنة .

وقد جهر دعاة الفاطميين بهذا المذهب الجديد : « وانقطعت المجالس ... أهل التأويل والآفاويل الباطلة من جهة المقام جل ذكره والكتاب ... وهذه النصوص التي تقدمت جميعها تشير إلى بطلان الشرائع ودحض الألوهية من الأساس » .

أما الرسالة الثالثة عشرة وعنوانها « المناجاة » ، فهي تشمل الدعاء الذي كان يدعو به المؤمنون في مجلس الحكمة مثل « سرمدى الثبات » ، و « باري البرايا » ، وغيرها من الصفات التي هي من صفات الله سبحانه وتعالى . وكان الداعي بذلك يحث الناس على اعتناق مذهب الحاكم وينذره من المذاهب « التي هي باطل وزور » .

والرسالة الرابعة عشرة وعنوانها « الدعاء » ، دونت بنفس الأسلوب والروح الذي كتبت به الرسائل السابقة ، وفيها يوضح الداعي الاصطلاحات التي كان يلقنها من يدين بمذهب الحاكم . وإليك هذا الدعاء عن مخطوط القاهرة (١) :

« سبحانك يا مبدع الأشياء ، يا مخترع العالمين ، يا صفة العالمين ! سبحانك يا من تعزز بالكبرياء والجبروت ! سبحانك يا من تماظم أن يكون كمثل شيء ، أو يلحقه وصف واسف ! سبحانك يا من تعالى عن المساوي ! سبحانك يا من لا تلحقه صفة ولا له صفة ! شهدت وآمنت وأيقنت بأنك الله المبدع العزيز الواحد الأحد ، وأنتك باري لا باري لك ، وخالق لا ضد لك ، وقادر لا متدور عليك ، وحاكم لا محكوم عليك . أسألك يا مولانا وسيدنا بعظيم جلال قدرتك ونور سلطانك ؛ أسألك يا مولانا بأول شيء ظهر من توحيدك وتزجيك ونفي التشبيه عنك ، أن تمن عليّ بخالص معرفتك وحميد طاغتك ، والبلوغ إلى مرضاتك والنبات على أمرك والتجنب لهيك ، والصبر على ما ينالني

وينوب عنهما عبد الرحيم بن إلياس وعباس بن شعيب . ويقول دى ساسي أيضا : وتقرأ عبارة تستحق الذكر في كتاب آخر أله حمزة في نفس هذه السنة (٥٤٠٩) وعنوانه : « رسالة التنزيه » (أي تنزيه الحاكم) . ويريد دى ساسي أن يدل على أن مولانا (أي الحاكم) لا يشترك في شيء ما مع الناطق والأساس ، وهما محمد وعلي ، بل ولا في عقائدهما ، أي الاسلام (التنزيل) ، أو التأويل (علم الباطن) ، الذي يستخدمه في عقيدة مولانا الحاكم التي يمثلها عبد الرحيم بن إلياس وعباس بن شعيب . ويشير الحاكم في رسالة النساء (مخطوط القاهرة ورقة ١٠ ب) إلى عبد الرحيم وعباس كالناطق والأساس (شرحه ورقة ١ ب)

أنظر حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ١٤٥ - ١٤٦

(١) ورقة ٢٧ ب) وبه شروح كثيرة لا ترى نقلها هنا لطولها .

في عبادك من شدائد المحن والهوى . يا أرحم الراحمين ! بحفك على من يصرف هويته عن تسيحك  
ومجيدك إلى سواك . لا أصرف ذاتي إلى غيرك ، نائب إليك معترف بألوهيتك ، متبرئ من كل  
عدوك . لا شريك لك ولا دافع لأمرك ؛ تجاوز عني واغفر ذنبي ، واجعل معرفتك التي مننت بها  
علي مخلدة في نفسي . لا إله غيرك ولا معبود سواك .  
على أن كثيراً من الناس قد أنكروا هذه الصفات ، على ما يشير إليه كاتب هذه الرسالة (١) .

### ٣ - الخوارج

ذكرنا من قبل أن صبغة الخوارج كانت منذ نشأتهم صبغة سياسية محضة ، إلا أنهم لم يلبثوا أن  
مزجوا تعاليمهم السياسية بالمبادئ الدينية . وكانوا أشد في الدين لا تعرف المرونة إلى نفوسهم سيلا ،  
واشتدوا في الحكم على مخالفيهم حتى ساووا بينهم وبين عبدة الأوثان . وفي عهد مروان بن محمد آخر  
خلفاء بني أمية (١٢٧ - ١٣٢هـ) ، تفاقم خطر الخوارج ، واتهموا فرصة انقسام الأمويين على أنفسهم  
وتاروا بزعامة الضحاك بن قيس الشيباني وهددوا العراق ، كما هدد أبو حمزة الخارجي نفوذ الأمويين  
في الحجاز وحضرموت ، واستنفذ الأمويون قواهم في إخماد ثورات هؤلاء الخوارج (٢) .

وإذا كان الخوارج قد شاركوا إلى حد كبير في سقوط الدولة الأموية ، فقد أفلقوا خلفاء العصر  
العباسي الأول في المغرب خاصة ، حيث مال أهلها إلى مبادئ الخوارج من الإباضية والصفيرية وغيرهم  
الذين بلغت جيوشهم نحو مائة ألف ، وخلصوا طاعة أبي جعفر المنصور وهزموا جيوشه واستولوا  
على مدينة القيروان في عهده أكثر من مرة . ويقول ابن الأثير (٣) إنه وقعت بين جيوش العباسيين  
وجيوش الخوارج في المغرب نحو ثلثمائة وخمس وسبعين وقعة . وبلغ من تفاقم خطر الخوارج ،  
وميل البربر والعرب النازلين في بلادهم إلى مذهبهم ، أن قامت الفتن في هذه البلاد ، حتى إن السياسة  
التي سار عليها هارون الرشيد في القضاء على الخوارج بالمغرب هي التي أملت عليه تأسيس دولة  
الأغالبة في إفريقية . واتخذ بعض زعماء من سلالة العرب من هذه الفتن فرصة لتأسيس ولايات  
مستقلة بمعونة الخوارج ، كولاية تاهرت التي أسسها ابن رستم بمساعدة الإباضية من الخوارج  
(١٣٧هـ) ، وولاية سجلماسة التي أسسها بنو مدرار (١٦٧هـ) وتلبسان التي أسسها أبو قرعة الصنهاجني ،  
وبرغوات الواقعة على ساحل المحيط الأطلسي (٤) .

على أن خطر الخوارج لم ينته في العصر العباسي الأول ، بل إننا نقرأ عن ثوراتهم التي كانوا  
يذكونها من حين إلى حين . ففي سنة ٢٥٢ هـ خرج مساور بن عبد الحميد بن مساور الشاري البجلي  
الخارجي على والي الموصل في عهد الخليفة المستعين ، وأخرج ابنه حوثة من السجن ، وحارب هذا الوالي .

(١) المصدر نفسه ورقه ٣١ (ب)

راجع حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر من ١٤٧ - ١٤٩

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والتفريقي والاجتماعي ج ٢ ص ٢ - ٤

(٣) ج ٥ ص ٢٤١ - ٢٤٢

(٤) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ١٧٧ - ١٧٩

وكان حوثة يتمثل بقول الوليد بن طريف الشاري الذي خرج على هارون الرشيد في سنة ١٧٨ هـ .  
وارتجز حين برز لقتال يزيد بن مزيد الشيباني قائد العباسيين :

أنا الوليد بن طريف الشاري  
قسورة لا يُصطلي بناري  
جورك أخرجني من داري (١)

ويقول :

أنا الغلام البجلي الشاري أخرجني جوركم من داري  
ولم يلبث أن قوى أمر مساور بن عبد الحميد ، فاستولى على أكثر أعمال الموصل وهزم الجيوش  
العباسية عدة هزائم (٢) .

ثم دخل الموصل في سنة ٢٥٥ هـ ، ودخل مساور الموصل . . . وحضرت الجمعة ، فدخل المسجد  
الجامع ، وحضر الناس ، أو من حضر منهم ، فصعد المنبر وخطب عليه ، فقال في خطبته : اللهم  
أصلحنا وأصلح ولاتنا . ولما دخل في الصلاة جعل إبهاميه في أذنيه ، ثم كبر ست تكبيرات ، ثم قرأ  
بعد ذلك . ولما خطب جعل على درج المنبر من أصحابه من يحرسه بالسيوف ، وكذلك في الصلاة ،  
لأنه خاف من أهل الموصل ، ثم فارق الموصل ولم يقدر على المقام بها لكثرة أهلها ، وسار إلى  
الحديثة ، لأنه كان قد اتخذها دار هجرته ، (٣) .

وقد تعرض مساور بن عبد الحميد لخطر جسيم بسبب انشقاق بعض الخوارج عليه برعاية عبيدة  
الذي خالفه في قبول توبة الخاطيء . وكان مساور يرى ، كما كان يرى الخوارج المعتدلون في أواخر  
العصر الأموي ، عدم تكفيره وقبول توبته ، على حين تمسك عبيدة بمبادئ الخوارج الأول في تكفير  
العاصي ، وقامت الحرب بسبب ذلك بين الفريقين على مقربة من الموصل في شهر جمادى الأولى سنة  
٢٥٧ هـ . وعلى الرغم من انتصار مساور على خصمه وقتله ، اتمت الخليفة العباسي المعتد هذه  
الفرصة وأرسل الجيوش بقيادة مفلح ، الذي استطاع أن ينتصر عليه في عدة مواقع ، وأخرجه من  
الموصل والحديثة . ولكن مساورا صمد لخصمه واتبع معه خطة الكر والفر ، والتوغل في الجبال  
والشعاب والمضايق حتى نهك قوته وأرغمه على العودة إلى سامرا حاضرة الدولة العباسية في ذلك الحين ،  
فاستولى حينئذ مساور على البلاد ، وجبى خراجها ، وقويت شوكته واشتد أمره (٤) .

وقد ذكر ابن الأثير (٥) في حوادث سنة ٢٥٧ هـ أن علي بن مساور وطوقا الزهيري الخارجيين  
خرجوا في الموصل في أربعة آلاف رجل وعائنا في هذه البلاد . وذكر الطبري (٦) في حوادث سنة  
٢٦٠ هـ أن الأكراد انضموا إلى مساور الخارجي وقتلوا رجلا من كبار ربيعة ، وأن الحرب قامت

(١) تاريخ الاسلام للسيامي ج ٢ ص ٤٧

(٢) ابن الأثير ج ٦١٧ ، ٦٦

(٣) المصدر نفسه ج ٧ ص ٧٢

(٤) المصدر نفسه ج ٧ ص ٨١

(٥) ج ٧ ص ٨٩

(٦) ج ١١ ص ٢٣٢

بينهما . ولما مات مساور الشاري في سنة ٢٦٣ هـ ، خلفه في زعامة الخوارج أيوب بن حيان الوراق البجلي ، وقام النزاع بينه وبين محمد بن خرزاد الذي ادعى أن مساوراً عهد إليه قبل وفاته ، وقتل أيوب ، فألت الزعامة إلى محمد بن عبد الله بن يحيى الوراق ، ويعرف بالغلام ؛ ولكنه قتل أيضاً ، فبويج هارون بن عبد الله البجلي الذي كثر أتباعه وانتصر على ابن خرزاد ، واستولى على أعمال الموصل وجى خراجها (١) ، لأنه ( ابن خرزاد ) كان خشن العيش ، وهو يبيلد شهر زور ، وهو بلد كثير الأعداء من الأكراد وغيرهم . وكان هارون يبيلد الموصل قد صلح حاله وحال أصحابه ، فلما رأى أصحاب ابن خرزاد ذلك مالوا إليه وقصدوه ، وواقع ابن خرزاد بنواحي شهر روز الأكراد الجلالية فقتل . وتفرد هارون بالرياسة على الخوارج ، وقوى وكثر أتباعه ، وغلبوا على القرى والرساتيق ، وجعلوا على دجلة من يأخذ الزكاة من الأموال المنحدرة والمصعدة ، وبثوا غرابهم في الرساتيق يأخذون الأعشار من الغلات (٢) . وبذلك استقر الخوارج في نواحي الموصل ، وصدوا بني شيبان حين أغاروا عليها ( سنة ٢٧٢ هـ ) ، كما حاربوا جند يوسف بن أبي الساج قبل أن يستولى عليها في السنة التالية وأوقفوا به الهزيمة (٣) . وكذلك صدوا بني شيبان حين حاولوا الإغارة على مدينة نينوى من أعمال الموصل وانتصروا عليهم بمساعدة أهل هذه البلاد ( سنة ٢٧٩ هـ ) .

على أن أمر الخوارج أخذ في الضعف بسبب وقوع النزاع بينهم ، فقد انشق على هارون زعيم الخوارج ، محمد بن عبادة المعروف بأبي جوزة ، وانضوى تحت لوائه كثير منهم ، واستولى على بعض البلاد التي كانت في حوزة هارون ، وأقام الحصون ، والتقى الجيشان على مقربة من سنجار . وعلى الرغم مما أحرزه هارون من نصر وظفر أضعفت هذه الحروب من قوة الخوارج ، فأناحت للعباسيين فرصة التغلب عليهم ، واستطاع عامل الخليفة المعتضد ( ٢٧٩ - ٢٨٩ هـ ) على آمد أن ينتصر على محمد بن عبادة الخارجي ، وأن يسوقه إلى دار الخلافة . كما أدى ذلك النزاع أيضاً إلى انتصار والي الخليفة العباسي على الموصل على هارون الخارجي ( سنة ٢٨٢ هـ ) (٤) ، وتمكن الحسين بن حمدان من الانتصار عليه في السنة التالية وسوقه إلى حاضرة الخلافة . وخلع المعتضد على الحسين بن حمدان ، وطوفه وخلع على إخوته ، وأدخل هارون على القيل ، وأمر المعتضد بجل قيود حمدان بن حمدان والتوسعة عليه والإحسان إليه ، ووعد باطلاقه . ولما أركبوا هارون على القيل ، أرادوا أن يلبسوه ديباجا مشمراً ، فامتنع وقال : لا يحل ، فألبسوه كارها ، ولما صلب نادى بأعلى صوته : لا حكم إلا لله ولو كره المشركون . وكان هارون صفرياء (٥) .

وبموت هارون بن عبد الله البجلي الشاري ضعف أمر الخوارج في الموصل ، ولكنهم ظلوا يلقون الفاطميين في المغرب ، والعباسيين في اليمن وعمان خاصة . ففي المغرب اشتد نفوذ الخوارج

(٢) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٢٩

(١) ابن الاثير ج ٧ ص ١١٠

(٣) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣

(٥) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٧٠

(٤) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٨

زعامة أبي يزيد مخلد بن كيداد الذي راجت دعوته في أواخر عهد عبيد الله المهدي الفاطمي (٢٩٦ - ٣٢٢ هـ) ، وتفاقم خطره في عهد ابنه القائم ، وانتشرت جيوشه في كل أرجاء الدولة الفاطمية في سنة ٣٣٣ هـ وكاد يستولى على مدينة المهديّة حاضرة الفاطميين في ذلك الحين . ولم يستطع الفاطميون الانتصار على جيوش أبي يزيد إلا في عهد الخليفة المنصور (٣٣٤ - ٣٤١ هـ) ، وقبض عليه وسبق إلى المهديّة حيث مات متأثراً من جراحه في شهر المحرم سنة ٣٣٦ هـ (١)

أما في اليمن وعمان خاصة ، فقد انتشر مذهب الخوارج الذين استطاعوا في سنة ٤٤٢ هـ أن يستولوا على مدينة عمان حاضرة هذه البلاد ، وأقصوا عمال البهويين عنها ، ونشروا الأمن فيها . ويقول ابن الأثير (٢) : وفي هذه السنة استولى الخوارج المقيمون بجبال عمان على مدينة تلك الولاية . وسبب ذلك أن صاحبها الأمير أبا المظفر ابن الملك أبي كاليجار كان مقبياً بها ، ومعه خادم له قد استولى على الأمور وحكم على البلاد ، وأساء السيرة في أهلها ، فأخذ أموالهم ، فنفروا منه وأبغضوه وعرف إنسان من الخوارج يقال له ابن راشد الحال ، لجمع من عنده منهم وقصد المدينة . فخرج إليه الأمير أبو المظفر في عساكره ، فالتقوا واقتتلوا ، فانهزمت الخوارج وعادوا إلى موضعهم . وأقام ابن راشد مدة يجمع ويحتشد ، ثم سار نائياً وقاتله الديلم ، فأعانه أهل البلد لسوء سيرة الديلم فيهم ، فانهزم الديلم ومالك ابن راشد البلد ، وقتل الخادم وكثيراً من الديلم ، وقبض على الأمير أبي المظفر ، وسيره إلى جباله مستظهاً عليه ، وسجن معه كل من خط بقلم من الديلم وأصحاب الأعمال ، وأخرب دار الإمارة وقال : هذه أحق دار بالخراب . وأظهر العدل وأسقط المكوس ، واقتصصر على رفع عشر ما يرد إليهم ، وخطب لنفسه ، وتلقب بالراشد بالله ، ولبس الصوف ، وبني موضعاً على شكل مسجد .

#### ٤ - ثورة صاحب الزنج

أثار الزنج Ethiopians وهم طائفة من عبيد إفريقية القلق والرعب في حاضرة الخلافة العباسية . وكان مسرح هذه الثورة الجامعة العنيفة ، التي دامت أكثر من أربع عشرة سنة ، هذه المستنقعات الممتدة بين البصرة وواسط . وقاد هؤلاء الزوج رجل فارسي يسمى علي بن محمد ، من أهالي الطالقان ، ادعى أنه من ولد علي زين العابدين بن الحسين بن علي (٣) . ولكنه لم يجر بعقائد المذهب الشيعي على الرغم من ادعائه النسب إلى علي وفاطمة ، وإنما جهر بعقائد مذهب الخوارج . وقد علل لذلك (٤) هذه الدعوة الغريبة في هذه العبارة : « لقد بلغ من معرفة هذا الزعيم الثائر بميول أصحابه ، أنه تظاهر

(٢) ج ٩ ص ٢١١

(١) راجع هذا الكتاب ص ١٥٠

(٣) زعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب . وذكر ابن

الأثير (ج ٧ ص ٧٢) أن اسمه علي بن محمد بن عبد الرحيم .

(٤) Noëldéke : Sketches from Eastern History, Chap. V. pp. 146-175

انظر Browne : Literary History of Persia, vol. I. pp. 349-50

بالدعوة إلى مذهب الخوارج الذي يلائم ميولهم الديمقراطية أكثر من مذهب الشيعة ، وإن كان هو قد افتخر بأنه من نسل علي وفاطمة ، لما يتطوى عليه المذهب الشيعي من التورث الذي لا يلائم عقول مواطنيه .

« ومن ثم يتضح وضوحا كافيا - كما يقول لذلك (١) - لماذا رفض فرمط ، المؤسس الحقيقي لمذهب القرامطة ، وهو المذهب الشيعي المتطرف الذي قدر له أن يملأ العالم الإسلامي قاطبة خوفا وهلعا ، أن يرتبط بزعيم العبيد ، على الرغم مما قد يفيد من اشتراكه معه في حركته ، متأثرا بموامل مذهبية . »

ومهما يكن من شيء فإن صاحب الزنج لم يلبث أن كشف عن ميوله الحقيقية ، حتى إن أعداءه سموه دعي على ، كما سموه الخبيث (٢) .

قدم صاحب الزنج بلاد العراق ، واتصل ببعض بطانة الخليفة المنتصر (٢٤٧-٢٤٨ هـ) ، ثم سار في سنة ٢٤٩ هـ إلى البحرين ، ودعا إلى تحرير العبيد في البصرة وضواحيها ، واستمال قلوبهم ، حتى إنهم تركوا مواليمهم وانضموا إليه ؛ فعظم شأنه وقويت شوكته ، ولقيت دعوته قبولا بين أهالي هجر والبحرين والعراق (٣) . ثم سار إلى بغداد سنة ٢٥٤ هـ ، وأقام هناك سنة ، فزعم بها أنه ظهر له آيات عرف بها ما في ضمائر أصحابه ، (٤) .

وبدل هذا النص الذي نقش على لواء صاحب الزنج أن ساعة القضاء على الرق والعبودية قد حانت . ولهذا أول هذه الآيات التي نزلت في سورة التوبة (٥) تأويلا سياسيا قصد به تضليل أنصاره (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) . وقد أول صاحب الزنج هذه الآية بأن المؤمنين ، وقد اشترى أنفسهم ، لم يعودوا بعد عرضة للرق والعبودية (٦) .

وسرعان ما قدم صاحب الزنج البصرة ، فأسرع إليه بعض غلبانها رغبة في التخلص من الرق . ويقول ابن الأثير (٧) : « وأتاه مواليمهم وبدلوا له على كل عبد خمسة دنانير ليسلم إليه عبده ، فبطح أصحابهم ، وأمر كل من عنده من العبيد ، فضربوا مواليمهم أو وكيلهم كل سيد خمسمائة سوط ، ثم أطلقهم . »

وما زال الزنج يلتفون حول صاحبهم حتى كان يوم الفطر ، فخطبهم وصلى بهم ، وأعاد إلى

Muir : The Caliphate, p. 545. (٢)

Ibid, p. 152 (١)

(٣) الفخرى في الآداب السلطانية ص ٢٢٧

(٤) ابن الأثير ج ٧ ص ٧٣٧

Muir : The Caliphate, p. 545 (٦)

(٥) آية ١١١

(٧) ج ٧ ص ٧٤



أذهانهم ما كانوا يلقونه من ظلم وعنت ، ومنامهم الأمان الطيبة من إطلاق حرباتهم واستمئانهم بالأموال التي يغمونها في حروبهم . واتخذ في مدينته التي بناها وسماها المختارة ، منبرا كان يصعد عليه ، ويسب عثمان وعلياً ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة على الرغم من ادعائه الانتساب إلى علي .

انتشرت جيوش صاحب الزنج في العراق وخوزستان والبحرين ، ونهبوا القادسية وهزموا أهالي البصرة ، واستولوا على ألف وتسعمائة سفينة كانت تحمل بعض الحجاج إلى مكة ، وألقوا الرعب والفرع في قلوب الأهلين ، حتى عجزوا عن مقاومتهم ، وشكوا إلى الخليفة المهدي (٢٥٥ - ٢٥٦) ما حل بهم من بلاء ، فأفند إليهم أحد قواده الأتراك (١) . ولما ولي المعتمد الخلافة (٢٥٦ - ٢٧٩) سير جعثلان ، أحد قواد الأتراك لمحاربة صاحب الزنج بالبصرة ، ونشب القتال بين الفريقين ، فانتصر صاحب الزنج ، وقتل القائد التركي ، واستولى على الأبله (٢) ، ثم على الأهواز وخرهما . واضطر أهالي البصرة وما جاورها ، إلى مغادرة بلادهم والانتقال إلى المدن البعيدة عن مطامع الزنج .

وقد أدخل الزنج الفزع والرعب في قلوب كثير من أهالي البلاد الإسلامية ، فاستولوا على البصرة سنة ٢٥٧ هـ ، وذبحوا كثيرا من أهلها ، وخرّبوا مسجدها العظيم ، وأشعلوا النار في المدينة ، وأناروا مخاوف الخليفة العباسي المعتمد بعد أن أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من حاضرة الخلافة . وفي ذلك يقول ابن الأثير (٣) : « فنادى منادى إبراهيم : من أراد الأمان فليحضر دار إبراهيم ، فحضر أهل البصرة قاطبة حتى ملئوا الرحاب . فلما رأى اجتماعهم انتهز الفرصة لئلا يتفرقوا ، ففند بهم وأمر أصحابه بقتلهم ، فكان السيف يعمل فيهم وأصواتهم مرتفعة بالشهادة . فقتل ذلك الجمع كله ، ولم يسل إلا النادر منهم . ثم انصرف يومه ذلك إلى الحرية ، ودخل على بن أبان الجامع فأحرقه وأحرقت البصرة في عدة مواضع ، منها المربد وزهران وغيرهما . واتسع الحريق من الجبل إلى الجبل ، وعظم الخطب وعمها القتل والنهب والإحراق . وقتلوا كل من رأوه بها من أهل اليسار وأخذوا ماله وقتلوه ، ومن كان فقيرا قتلوه لوقته . وبقوا كذلك عدة أيام . ثم أمر يحيى أن ينادى بالأمان ليظهروا فلم يظهر أحد . »

استولى صاحب الزنج بعد ذلك على الأهواز (٤) ، ودخلت جموعه واسط ورامهرمز (٥) ، فسير إليهم الخليفة المعتمد كثيرا من مشهورى قواده ، من أمثال موسى بن بقا الذي قتل عددا كبيرا منهم . غير أن هذه الهزيمة لم تقمّل شوكتهم ، بل ظل خطرهم يتزايد وانتصاراتهم على الجيوش العراقية

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ٧٥ - ٧٦ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٢

(٢) مدينة على مقربة من الخليج الفارسي وشط العرب حيث يتفرع دجلة والفرات . وقد حلت البصرة محلها في الشهرة بعد أن مصرت في عهد عمر بن الخطاب

(٣) ج ٧ ص ٨٦ - ٨٧

(٤) ابن الأثير ج ٧ ص ٨٧ ، ٩٢

(٥) المصدر نفسه ج ٧ ص ١١١ ، ١١٧

تتوالى ، فبعث الخليفة المعتمد في طلب أخيه أبي أحمد الموفق طلحة ، وكان الخليفة المهدي قد نفاه إلى الحجاز ، وعهد إليه بقتال الزنج . وعلى الرغم من أنه حاز هو وموسى بن بغا شيئاً من النجاح في بعض المواقع ، انطلقت جيوش الزنج في غزو العراق وخوزستان والبحرين بشكل جماعات منظمة غايتها النهب والسلب ، وألقوا الفزع والرعب في قلوب الأهلين . ولما اطمان الموفق من ناحية أعدائه الآخرين تفرغ لحرب الزنج وتولى قيادتها بنفسه ، وخرج من بغداد إلى واسط في شهر صفر سنة ٢٦٧ هـ ، وهزم فريقاً كبيراً منهم ، وأسرى بعضهم . وما زالت انتصارات الموفق تتوالى على الزنج حتى أجلاهم عن الأهواز (١) ، وحاصر مدينتهم والمختارة (٢) ، وبني بازاتها مدينة سماها الموقفية ، نسبة إليه (٣) . وقطع العباس بن الموفق الميرة عن مدينة صاحب الزنج ، ثم استولى أبوه على الجزء الغربي من هذه المدينة (٤) ، واضطر بعض زعمائهم إلى طلب الأمان ، بعد أن تضائل أملهم في إحراز النصر ، وبدأ سائر الثائرين ينضمون إلى الموفق ، فأمنهم وعفا عنهم وأحسن معاملتهم . وأخيراً سقطت قلعتهم وعاد الناس إلى قراهم بعد أن تخلصوا من الأسر والرق ، وقتل الخبيث (٥) .

دامت الحرب بين جيوش العباسيين والزنج أكثر من أربع عشرة سنة ( ٢٥٥ - ٥٢٧٠ ) كما تقدم ، وقضى عليهم الموفق وقواده ، وقتل صاحبهم «يهوداء» ، وكان من أكبر قواد صاحب الزنج ، وحمل رأسه إلى الموفق ، فخر ساجداً ، وعلت كلبة الجند بالتهليل والتكبير . على أن أحد أنصار صاحب الزنج رمى الموفق بسهم في صدره وهرب إلى رامهرمز ، فبعث به عاملها إلى الموفق فقتله ابته العباس الذي ولي الخلافة بعد المعتمد . وقد ذكر السيوطي (٦) أن عدد القتلى في تلك المعارك بلغ ألف ألف وخمسمائة ألف ، وذكر صاحب الفخرى (٧) أن عددهم بلغ ألفي ألف وخمسمائة ألف . وقتل صاحب الزنج - على ما ذكره ابن الأثير (٨) - في ٢ من صفر سنة ٢٧٠ هـ بعد أن ألقى بال الدولة العباسية وكلفها كثيراً من الجهود والأموال والأرواح ، وظل أتباعه يعيشون في البلاد الإسلامية أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام ، وعلق رأسه على رمح ، وزينت بغداد بأهسى معالم الزينة ، وطيف برأسه بين مظاهر الفرح . واستطاع الناس العودة إلى بلادهم التي استولى عليها الزنج ، وأشاد الشعراء بذكر هذا الانتصار . فمن ذلك قول يحيى بن محمد الأسلمي :

أقول وقد جاء البشير بوقعة أعزت من الإسلام ما كان واهياً  
جزى الله خير الناس للناس بعد ما أبيع حامم خير ما كان جازياً  
تفرد إذ لم ينصر الله ناصر بتجديد دين كان أصبح بالياً

(٢) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٢٥

(٤) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٣٩ - ١٤٠

(٦) تاريخ الخلفاء ص ٢٤٢

(٨) ج ٧ ص ١٤٦

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ١٢٤

(٣) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٢٦

(٥) Muir : The Caliphate, p. 546

(٧) ص ٢٢٧

وتجديد ملك قد وهى بعد عزه  
ورد عمارات أزيلت وأخربت  
وترجع أمصارهم أبيضت وأحرمت  
ويشفي صدور المسلمين بوقعة  
ويتلى كتاب الله في كل مسجد  
فأعرض عن جناته ونعيمه  
وأخذ بشارت تئير (١) الأعدايا  
ليرجع في به قد تُخرم (٢) وأفيا  
مراراً فقد أمت قواه (٣) عوافيا (٤)  
يُقر بها فيها العيون البواكيا  
ويلقى دعاء الطالبين خاسيا (٥)  
وعن لذة الدنيا وأصبح عاريا (٦)

٥ - المعتزلة

(١) انتقاسه مذهب المعتزلة :

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب (٧) أن تعاليم المعتزلة ازدهرت في العصر العباسي الأول ، وخاصة في عهد المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ) ، الذي كان يعقد لهم بقصره مجالس للمناظرة ، كما كان هو نفسه يميل إلى الأخذ بمذهب المعتزلة لأنه أكثر حرية واعتمادا على العقل ، فقرب أتباع هذا المذهب إليه ، حتى أصبحوا ذوى نفوذ كبير في قصر الخلافة ببغداد . ووافق المأمون هؤلاء المعتزلة على القول بخلق القرآن ، واستخدم نفوذه في سبيل إقرار هذه العقيدة في أذهان الناس . وسار المعتصم على سياسة أخيه المأمون في حمل الناس على القول بخلق القرآن ، فأهين أحمد بن حنبل وسجن في عهده لرفضه القول بذلك . وكذلك اقتدى الواثق بأبيه المعتصم وعمه المأمون في انتصاره للمعتزلة وتشدده في فرض آرائه الدينية على الناس ، حتى جعل إطلاق أسرى المسلمين في بلاد الدولة البيزنطية مقصورا على القائلين بخلق القرآن ، واعتبار من سواهم خارجين على الإسلام .  
وقد أروضح أبو الحسن الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤ هـ آراء المعتزلة في كتابه القيم مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين (٨) ، فنكلم على آرائهم في التوحيد ، وفي المكان والرؤية ، وفي قدرة الله سبحانه وعلمه ، وفي اختلاف المعتزلة في كون الله لم يزل سميعا بصيرا ، وفي سائر صفات الله ، وفي القدر وغير ذلك من المسائل . ولخص الأشعري آراء المعتزلة في التوحيد وغيره في هذه العبارة (٩) :  
« أجمعت المعتزلة على أن الله واحد ليس كمثل شيء ، وهو السميع البصير ، وليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم ولا شخص ولا جوهر ولا عرض ، ولا بنى لون ولا طعم

(٢) تخرم مبنيا للمجهول انتقم  
(٤) الدار العافية الدارسة المتخربة  
(٦) ابن الأثير ج ٧ ص ١٤٦  
(٨) ج ١ ص ١٥٥ - ٢٧٨

(١) تهلك  
(٣) القواء الخالي  
(٥) يعنى خاسرا  
(٧) ص ١٤٣ - ١٤٤  
(٩) ص ١٥٥ - ١٥٦

ولا راحة ولا تجسّس ، ولا بذى حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا ييوسة ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا اجتماع ولا افتراق ؛ ولا يتحرك ولا يسكن ولا يتبعثض ، وليس بذى أبعاد وأجزاء وجوارح وأعضاء ؛ وليس بذى جهات ، ولا بذى يمين وشمال وأمام وخلف وفوق وتحت ، ولا يحيط به مكان ، ولا يجرى عليه زمان ، ولا تجوز عليه المماسة ولا العزلة ولا الحول في الأماكن ، ولا يوصف بشئ من صفات الخلق الدالة على حدّتهم ، ولا يوصف بأنه متناه ، ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب في الجهات وليس بمحدود ، ولا والد ولا مولود ، ولا تحيط به الأقدار ولا تحجبه الأستار ، ولا تدركه الحواس ، ولا يقاس بالناس ، ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه ، ولا تجرى عليه الآفات ، ولا تحل به العاهات ، وكل ما خطر بالبال وتصور بالوهم فغير مثبته له ، لم يزل أو لا سابقا متقدما للحدوثات ، موجودا قبل المخلوقات ، ولم يزل عالما قادرا حيا ، ولا يزال كذلك ، لا تراهم العيون ولا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأوهام ولا يسمع بالأسماع ؛ شئ لا كالأشياء ، عالم قادر حتى لا كالعلماء القادرين الأحياء ؛ وإنه القديم وحده ولا قديم غيره ولا إله سواه ، ولا شريك له في ملكه ، ولا وزير له في سطاته ، ولا معين على إنشاء ما أنشأ وخلق ما خلق ، لم يخلق الخلق على مثال سبق ، وليس خلق شئ بأهون عليه من خلق شئ آخر ولا بأصعب عليه منه ، لا يجوز عليه اجترار المنافع ، ولا تلحقه المضار ، ولا يتاله السرور واللذات ، ولا يصل إليه الأذى والآلام . ليس بذى غاية فيتناهى ، ولا يجوز عليه الفناء ولا ياحقه العجز والنقص ، تقدس عن ملامسة النساء ، وعن اتخاذ الصحابة والأبناء .

وهذه جملة قوالمهم في التوحيد ، وقد شاركهم في هذه الجملة الخوارج وطوائف من المرجئة وطوائف من الشيع ، وإن كانوا للجملة التي يظهرونها ناقضين ولها تاركين .

وقد تطور مذهب المعتزلة في العصر العباسي الثاني . وأجاد دوزي<sup>(١)</sup> في تلخيص تطور هذا المذهب ونموه فقال : « لقد تطور ذلك المذهب واتخذ شكلا جديدا ، وانتشر تحت تأثير فلسفة أرسطو ، كما انقسم ، بطبيعة الحال ، إلى أقسام تتفق جميعها في نقط معينة . فقد أجمع المعتزلة ، على اختلاف فرقهم ، على نفي الصفات الإلهية ، وعارضوا كل فكرة تتنافى مع وحدة الله . ولكي ينزهوا الله عن الظلم ، اعترفوا للإنسان بالحرية التامة في خلق أفعاله . وكان من تعاليمهم أن إدراك وسائل الخلاص وطرق النجاة إنما ترجع إلى سلطان العقل ، وأنه يمكن تمحيص هذه المسائل في ضوء العقل ، سواء أكان ذلك قبل الوحي أو بعده ؛ بمعنى أن الرجل يجب عليه في جميع الأزمان والأمكنة أن يرجع إلى العقل في الفصل في تلك المسائل ، وزادت الفرق الأخرى على هذه الآراء الأساسية المنطق عليها آراء أخرى خاصة بها . »

وقد عالج معظم المعتزلة علم التوحيد بتوسيع كثير ، بينما انساق آخرون وراء مناظراتهم وشغفهم بالجدل ، مما أبعدهم عن روح الإسلام وطوح بهم عن تعاليمه . وكان بعضهم يعتقد

Dozy : Essai sur l'Histoire de l'Islamisme, (trans. by Vietor Chauvin), 1879, pp.105-7 (١)

بالتناسخ<sup>(١)</sup>، كما كان يتخيل آخرون أن لكل جماعة من جماعات الحيوانات نبيا: وهو حيوان من أنفسهم. ومن الغريب أن تقول إنهم اعتمدوا في عقائدهم هذه على آيتين من القرآن<sup>(٢)</sup>. ولكن ليس من العدل أن نرى المعتزلة جميعهم بضلالات هؤلاء. وبالنظر إلى عقيدة المعتزلة في أوامر الدين ونواهيه، فإنهم يعتبرون من طائفة العقليين (Rationalists) في الإسلام الثمانين بسُلطان العقل وفهمه لطبائع الأشياء. من ذلك أنهم قالوا بخلق القرآن، في الوقت الذي ذهب فيه الرسول إلى القول بعكس ذلك. ويستدلون على صحة ذلك بقولهم: إن القرآن لو لم يكن مخلوقا لأدى ذلك إلى القول بوجود أزليين أبديين. أما إذا اعتبر القرآن أو كلام الله مخلوقا، كان محالا أن نعتبره صفة من الصفات الإلهية، لما لتلك الصفات من الثبات وعدم التغير<sup>(٣)</sup>. ومع ذلك فقد تزعمت عقيدة الوحي على يد المعتزلة تزعمًا شديدا<sup>(٤)</sup>، حتى أعلن كثير منهم صراحة، أنه ليس مستحيلا أن يأتي إنسان بقرآن كهذا أو أحسن منه، مخالفين في ذلك قوله تعالى في سورة الإسراء<sup>(٥)</sup> (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا).

(١) يدل على صحة هذا القول ما ذكره البغدادي في كتابه «الفرق بين الفرق» (ص ٢٦٠-٢٦١) عن خروج الحائطية أتباع أحمد بن حائط القدرى، والحاربية من معتزلى عسكر مكرم، على جميع فرق المعتزلة وأهل السنة. فإن أحمد بن حائط القدرى - وكان من أصحاب النظام في الاعتزال - كان يقول بالتناسخ، وزعم هو وفضل الحدتي «أن للخلق ربين وخالفين، أحدهما قديم وهو الله سبحانه، والآخر مخلوق وهو عيسى ابن مريم، وزعموا أن المسيح ابن الله على معنى النبي دون الولاية، وزعموا أيضا أن المسيح هو الذي يحاسب الخلق في الآخرة، وهو الذي عناه الله بقوله (وجاء ربك والملك صفاً صفاً) (سورة الفجر آية ٢٢)، وهو الذي يأتي (في طائفة من الغمام) (سورة البقرة آية ٢١١)، وهو الذي خلق آدم على صورة نفسه، وذلك تأويل ماروى أن الله تعالى خلق لها على صورته، وزعم أنه هو الذي عناه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «تروون ربكم كما تروون القمر ليلة البدر»، وهو الذي عناه بقوله إن الله تعالى خلق العقل فقال له: أقبل فأقبل، وقال له: أدبر فأدبر، فقال: ما خلقت خلقاً أكرم منك وبك أعطى وبك آخذ. وقال إن المسيح تذرع جسداً وكان قبل التذرع عقلاً... وأضاف ابن حايط وفضل الحدتي فعل الخيرات كلها إلى عيسى بن مريم، وأضافا إليه محاسبة الخلق في الآخرة. والعجب في قولهما إن عيسى خلق جده آدم عليهما السلام»

(٢) (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم. ما فرطنا في الكتاب من شيء. ثم إلى ربهم يحشرون. والذين كذبوا بآياتنا لهم وبكم في الظلمات. ومن يشأ الله يجعله على صراط مستقيم). سورة الانعام آية ٣٨، ٣٩. أنظر كتاب الملل والنحل للشهرستاني (على هامش كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم) ج ١ ص ٨٠-٨١.

(٣) لأنه يترتب عليه قيام الحادث بالقديم، وهو محال لما فيه من ثبات حقائق الأشياء؛ إذ لو صح قيام الحادث بالقديم، لأدى ذلك إلى إحدى نتيجتين لا تناس منها: إما قلب الحادث قديماً لقيامه بالقديم، وإما قلب القديم حادثاً لقيام الحادث به.

(٤) فسكرة الوحي هي أن القرآن كلام الله، وأنه أوحى به إلى محمد عليه الصلاة والسلام. وذهبوا إلى أن الاعتقاد بقدم القرآن إلى جانب قدم الله شرك.

دى بور: تاريخ الفلسفة في الاسلام، ترجمة أبي ريدة ص ٥٦

(٥) آية ٨٨

وعلى ذلك عارض المعتزلة عقيدة أزيدة القرآن ، أى أنه كلام الله ، كما عارضوا فكرة الوحي ، بمعنى أن الله يتصل بالإنسان ويوحى إليه (١) ، وكانوا لا يصفون إلى أية فكرة بشم منها رائحة التجسد لله سبحانه وتعالى . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « ترون ربكم ( يوم القيامة ) كما ترون القمر ليلة البدر » (٢) . وكانت هذه الكلمات التى فهمها أهل السنة على ظاهرها حجة يترطمون به أنى ساروا . ومع هذا فقد فسر أهل السنة هذا الحديث بقولهم إن الإنسان بعد موته يرى الله بعين البصيرة . وكذلك رفض المعتزلة دعوى أن الله خلق الكافر (٣) ، كما لم يرضوا القول بأن الله يضر ، لمنافاة ذلك للعدل الإلهى (٤) . ولم يعترفوا بالمعجزات التى وردت فى القرآن ، كما أنكروا انشقاق البحر لموسى ليشتق طريقا لبني إسرائيل (٥) . وقد خرج بهم مصر ( إلى بلاد العرب ) ، وأن عصا موسى قد تحولت أفعى (٦) ، وأن عيسى قد أحى الموتى . ولم ينح محمد نفسه من إنكارهم لمعجزاته .

### ( ب ) تأثير المعتزلة بالفلسفة الإغريقية :

تأثرت المعتزلة منذ عهد طويل تأثرا شديدا بالفلسفة الإغريقية . وقد نقل براون (٧) عن شينر (٨) أن المعتزلة كانوا أول من قرأ تراجم الطبيعيين من الإغريق وفلاسفتهم التى ترجمت تحت رعاية أبى جعفر المنصور ( ١٣٦ - ١٥٨ هـ ) ، والمأمون ( ١٩٨ - ٢١٨ هـ ) ، وانتبسوا منها جميع المعارف النافعة . ولكنهم أجهدوا أنفسهم فى أن يضيفوا إلى المعانى الإسلامية التى جاء بها القرآن ، وقد كانت محصورة فى دائرة ضيقة ، جميع ما احتوته الثقافة اليونانية من فكر ومعان علمية وفلسفية ، وأن يلائموا بينهما ويخرجوا منها مزيجا جديدا يتفق مع تعاليم الإسلام وأصوله . ومن الفلاسفة الإسلاميين أبو نصر الفارابى ( ت ٣٣٩ هـ = ١٠٣٧ م ) فيلسوف المسلمين غير مدافع الذى يقول فيه ابن خلكان (٩) : « هو أكبر فلاسفة المسلمين ، ولم يكن فيهم من بلغ رتبته فى فنونه ، والرئيس

(١) كما جاء فى سورة الشورى ، آية ٥١ ( وما كان ليشأن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم ) .

(٢) ويسمى المعتزلة هؤلاء . التشبهة أو المجسمة .

(٣) يقصدون طبعاً أن كل إنسان خلق قابلاً للإيمان ، وأن الكفار صاروا كذلك بتمردهم وليس بإرادة

الله ، بمعنى أن الله لم يرد كفر الكفار ، وإنما أصبحوا كفارا بحض إرادتهم دون إرادة الله سبحانه وتعالى .

(٤) بمعنى أن الله إذا كان يسوق الكفار إلى الكفر ويريد منهم ذلك ، كان من الظلم الأخذتهم عليه ؛

إذا كانت إرادة الله تعالى لا تتخالف ولا يقع فى ملكه إلا ما يريد . فهم يقررون اختيار الإنسان فى أفعاله ، بعكس

مذهب إليه الجبرية الذين يقولون إن الإنسان مجبر على أفعاله .

(٥) مخالفتين فى ذلك قوله تعالى فى سورة الشعراء آية ٦٣ ( فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر

فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ) .

(٦) ( فألقاها فاذا هى حية تسعى ) سورة طه آية ٢٥ .

(٧) Browne : Literary History of Persia, Vol. I. p. 288

(٨) Steiner : Die Mu'taziliten oder die Freidenker im Islam, p.5.

(٩) كتاب وفيات الأعيان ج ٢ ص ٧٦

أبو علي بن سينا (١) المقدم ذكره (ت ٤٢٨ هـ = ١٠٣٧ م) بكتبه تخرج ، وبكلامه اتفع في تصانيفه ، وابن رشد (ت ٥٩٥ هـ = ١١٩٨ م) . وقد سبقهم الكندي (ت ٢٦٠ هـ = ٨٧٣ م) الذي وجه همته — على ما يظهر — إلى دراسة الآراء التي أثارها المعتزلة بوجه خاص ، في الوقت الذي تجنب فيه أتباعه التعرض لبحث المسائل الدينية ، وتجنبوا إثارة النقاش فيها بقدر الإمكان . وكان يعتبر كلاماً من التوحيد والعلوم الطبيعية وما تحويه من الفلسفة مناطق ذات حدود واضحة . ومن ثم لم تقم مشكلة من المشاكل في سبيل التوفيق بينها (٢) . ويقول شتير أيضاً إن فلاسفة العرب من تلاميذ مدرسة أرسطو كانوا في الواقع علماء طبيعيين أكثر منهم فلاسفة ، وإن أعمالهم الرئيسية كانت تنحصر في ملاحظة الظواهر الطبيعية ، عدا دراسة علم الطب والفلك (٣) .

وقد نشأ الخلاف بين الاعتزال والفلسفة من ناحية ، وبين الدين من ناحية أخرى ، وأقوى المعتزلة قواهم في تلك المناقشات المستمرة التي أثارها مدرستا البصرة وبغداد . وكان أبو الحسين البصري أحد معاصري ابن سينا آخر من عالج تعاليمهم بشيء من الحرية واستقلال الرأي ، كما أكمل ما كان فيها من نقص في نواح كثيرة . واستمر هذا الصراع بين هؤلاء وأولئك على أشده ، واستمر المعتزلة على قوتهم حتى ثار عليهم أبو الحسن الأشعري وصرعهم حجة الإسلام الغزالي .

### ٦ - انتعاش السنة

أخذ مذهب المعتزلة في الضعف منذ بداية العصر العباسي الثاني ، حيث بدأ المتوكل ، أول خلفاء هذا العصر ، عهده بنهي الناس عن القول بخلق القرآن ، مخالفاً في ذلك المأمون والمعتمد والواثق ، وأمر بترك النظر والمباحثة والجدل كما أمرهم بالتسليم والتقليد ، وأمر الشيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنة . وكان إحياء المتوكل للسنة من أهم الأحداث التي يتميز بها عهد هذا الخليفة ، حتى قيل : « الخلفاء ثلاثة : أبو بكر الصديق يوم الردة ، وعمر بن عبد العزيز في رده المظالم ، والمتوكل في إحياء السنة » (٤) .

ثم ظهر جماعة من علماء الكلام عارضوا المعتزلة . ومن هذه المذاهب : مذهب الكثرية الذي بقي إلى ما بعد القرن الثالث الهجري .

أما انتصار مذهب أهل السنة فقد نشج بظهور أبي الحسن الأشعري . وإلى ذلك يشير دوزي (٥) في هذه العبارة : « ولم يكذب يمضي اثنا عشر عاماً على موت المتوكل ، حتى ولد (سنة ٢٦٠ هـ = ٨٧٣ م)

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٥٢ - ١٥٤

(٢) يعني أن التوحيد والعلوم الطبيعية ، بما في ذلك الفلسفة ، كان كل منها على حدة مستقلاً عن الآخر .

(٣) أنظر Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. I, p. 289, note 1.

(٤) أنظر هذا الكتاب ص ٢٢ - ٢٣

(٥) Dozy : Histoire de l'Islamisme, pp. 252-6.

ذلك الرجل الذي تربى بين أحضان مذهب المعتزلة، ثم رفض تعاليمهم في الأربعين من عمره، بعد أن تسلح بالأسلحة المنطقية التي أمدوه بها وحاربهم بها بقية حياته، وحمل على آرائهم حملة كتب لها التوفيق والنجاح - ذلك الرجل هو أبو الحسن الأشعري، من أعقاب أبي موسى الأشعري الذي كان أحد الحكمين بين علي ومعاوية بدومة الجندل. فقد ألف الأشعري مؤلفات كثيرة بعد أن انفصل عن أستاذه الجبائي من المعتزلة، كما أنتج بحثاً عديدة في علم التوحيد يربو عددها على المائتين أو الثلاثمائة... وبلغ من عدم اطمئنان أهل السنة للفلسفة أن استمر كثير منهم - وخاصة المتعصبين من أتباع ابن حنبل الذي كان يعتقد أن كل صلة بالفلسفة لا تنج إلا الشر - ينظرون إلى الأشعري نظرة ملؤها الريبة والشك، وإن كانت خدماته للسنة قد اعترف بها في النهاية اعترافاً تاماً.

ويقول ابن خلكان (١): «وكان أبو الحسن الأشعري أولاً معتزلياً، ثم تاب من القول بالعدل وخلق القرآن في المسجد الجامع بالبصرة يوم الجمعة، ورقى كرسياً ونادى بأعلى صوته: من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسى. أنا فلان بن فلان، كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله تراه الأبصار، وأن أفعال الشر أنا أفعالها. وأنا نائب مقلع، معتقد للرد على المعتزلة، مخرج لفضائحهم ومعاييمهم. وكان فيه دعاية ومزاح كثير. وله من الكتب: كتاب الشمع، وكتاب الموجز، وكتاب إيضاح البرهان، وكتاب التبيين عن أصول الدين، وكتاب الشرح والتفصيل في الرد على أهل الإفك والتضليل. وهو صاحب الكتب في الرد على الملاحدة وغيرهم من المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج وسائر أصناف المبتدعين».

وقد عارض الأشعري المعتزلة ووافق أهل السنة في كثير مما ذهبوا إليه. ويقول الشهرستاني (٢): «ومذهبه في الوعد والوعيد والأحكام والسمع والعقل مخالف للمعتزلة من كل وجه. قال: الإيمان هو التصديق بالقلب، وأما القول باللسان والعمل على الأركان ففروعه. فمن صدق بالقلب، أي أقر بوحدانية الله تعالى، واعترف بالرسول تصديقاً لهم فيما جاءوا به من عند الله تعالى بالقلب صح إيمانه، حتى لو مات في الحال كان مؤمناً ناجياً، ولا يخرج من الإيمان إلا بانكار شيء من ذلك. وصاحب الكبيرة إذا خرج من الدنيا من غير توبة، يكون حكمه إلى الله تعالى، إما أن يغفرله برحمته، وإما أن يشفع فيه النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال: شفاعتي لأهل الكبائر من أمي، وإما أن يعذبه بمقدار جرمه، ثم يدخله الجنة برحمته. ولا يجوز أن يخلد في النار مع الكفار، لما ورد به السمع من إخراج من كان في قلبه ذرة من الإيمان. قال: ولو تاب، لا أقول بأنه يجب على الله قبول توبته بحكم العقل، إذ هو الموجب فلا يجب عليه شيء بل ورد السمع بقبول توبة التائبين وإجابة دعوة المضطرين. وهو المالك في خلقه، يفعل ما يشاء. ويحكم ما يريد؛ فلو أدخل الخلاق بأجمعهم الجنة لم يكن حيفاً. ولو أدخلهم النار لم يكن جوراً، إذ الظلم هو التصرف فيما لا يملكه المتصرف، أو وضع

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢٧

(٢) الملل والنحل (على هامش ابن حزم) ج ١ ص ١٣٢ - ١٣٣



الشيء في غير موضعه ، وهو المالك المطلق ، فلا يتصور منه ظلم ولا ينسب إليه جور ، وكان لجهود أبي الحسن الأشعري في إحياء السنة أثر كبير ، حتى إنه كاد يقضى على مذهب الاعتزال قضاء مبرماً بدليل ما ذكره أبو بكر الصيرفي : « كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله الأشعري ، فبحرهم في أقاع السمسم » (١) .  
وقد تم انتصار السنة على الاعتزال بظهور حجة الإسلام الغزالي الذي وجه نشاطه إلى الإشادة بمذاهب السنة والخط من شأن الاعتزال والفلسفة وغيرهما .

## ٧ - التصوف

### (١) المتصوفون المعتزلون :

ومن المسائل التي شغلت أفكار المسلمين في ذلك العصر الذي نحن بصدد الكلام عليه والتصوف . ذلك أن كثيراً من المسلمين الذين اشتهروا بالورع والتقوى لم يجدوا في علم الكلام ما يقنع نفوسهم المولعة بحب الله سبحانه وتعالى ، فرأوا أن يتقربوا إليه عن طريق الزهد والتقشف وفناء الذات في حبه تعالى ، ومن ثم سموا المتصوفين . ويقول براون (٢) إنه ليست ثمة علاقة بين اسم الصوفية وبين الكلمة اليونانية « سوفس » *sophos* (التي تكتب بالسين لا بالصاد والتي يقابلها بالعربية فيلسوف) ، أو « سَفَسَطِي » *sophist* ، أو بكلمة « صفاء » كما يدعى الصوفيون أنفسهم أو « بأهل الصُفَّة » وهم جماعة من الفقهاء اظهروا في صدر الإسلام كانوا يجلسون على صفة في المسجد ويجمعون معاشهم من أهل الورع عن طريق الفتاوى (٣) ، ولكنه مشتق من الكلمة العربية « صوف » ، كما يتضح من قرائن أخرى كاسمهم بالفارسية « پشنياپوش » *pashnima push* ومعناها الملابس الصوفية ، مما يتميز به المسلمون الأولون الذين عرفوا بالبساطة والتقشف . ويقول المسعودي (٤) إن عمر بن الخطاب « كان يلبس الجبة الصوف المرقعة بالآدم ويشتمل العباة » ، على حين كان سلمان الفارسي يلبس الصوف كما يصفه المؤرخ نفسه (٥) . ويقال هذا أيضاً عن أبي عبيدة بن الجراح الذي « كان يظهر للناس وعليه الصوف الجاني » (٦) . ولما تقدم الزمن بالمسلمين وسادت المادية والبذخ ، حافظ بعض المسلمين على سنة خلفاء الرسول في الملبس ، واحتجوا بذلك احتجاجاً صامتاً على المادية والتبذير

(١) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢٧

(٢) Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. I. p. 297.

(٣) وقد جاء في تاج العروس والهاية لابن كثير أن أهل الصفة كانوا أضياف الإسلام من فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه ، فكانوا يأوون إلى موضع مظال في مسجد المدينة يسكنونه .

(٤) مروج الذهب ج ١ ص ٤١٧

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٤١٧

(٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٤١٨

الذين انغمس فيهما معاصروهم ، فأطلق عليهم الصوفيون ، ولحق بهم ما يلحق عادة بالمحافظين .  
وقد تكلم القشيري<sup>(١)</sup> المتوفى سنة ٥٦٩ هـ (= ١٠٧٣ م) على المتصوفين الأول فقال : فلما ظهرت  
البدع وتشاحنت الفرق ، وصار أصحاب كل بدعة وأنصار كل فرقة يدعون أن فيهم زهادا ، انفرد  
خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله ، المحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم الصوفية ،  
وأطلق هذا الاسم عليهم قبل نهاية القرن الثاني الهجري بقليل .

وقد أوضح جامي<sup>(٢)</sup> (نفحات الأنس ص ٣٤) أن أول من تسمى بالصوفي هو أبو هاشم الذي  
ولد في الكوفة ومضى سواد حياته في الشام وتوفى سنة ١٦٠ هـ (٧٧٧-٧٧٨ م) ، وأن (ص ٣٦)  
أول من حدد نظريات التصوف وشرحها هو ذوالنون المصري (ت ٢٤٦ هـ = ٨٦٠ م) تلميذ الإمام مالك ،  
وأن الذي شرحها وبوبها ونشرها هو الجنيد البغدادي المتوفى سنة ٢٩٨ هـ (٩١٠ م) ، ودعا إليها من  
فوق المنابر الشبلي المتوفى سنة ٤٣٤ هـ (٩٤٥ م) . ولعل أحسن مثل للتصوف الخالص هي رابعة بنت  
إسماعيل العدوية التي اشتهرت بالصلاح والتقوى ، وكان النساء يجلسن إليها ويسمعن وعظها ، وقد  
أشار جامي إلى ذلك<sup>(٣)</sup> في هذين البيتين :

ولو كان النساء كمن ذكرنا لفُضِّلَت النساء على الرجال

فلا التأنيك لاسم الشمس عيب ولا التذكير نخر للهِلال<sup>(٤)</sup>

وكانت رابعة تقول في مناجاتها : إلهي تحرق قلباً يحبك ؟ ومن وصاياها : اکتبوا حسناتكم كما  
تسکتبون سيئاتكم ، ومن قولها في حب الله سبحانه وتعالى :

إني جعلتك في الفؤاد مُحَدَّثِي وأبحت جسمي مَنْ أراد جلوسي

فالجسم مني للجلوس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيس

وكانت رابعة تصلي الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجمة خفيفة حتى يسفر الفجر .  
ولما ماتت كفتت في جبتها ، وهي نمار من صوف كانت تلبسه ، وكانت وفاتها سنة ١٣٥ هـ (وقيل  
سنة ١٣٨ هـ)<sup>(٥)</sup> . وقبرها يزار بظاهر القدس من شرقه .

وقد تطور مذهب التصوف عند المسلمين ، وخاصة عند الفرس ، في عصر متأخر ، وأصبحت  
فلسفة التصوف — إن صح هذا التعبير — قائمة على الأفلاطونية الحديثة ، وعلى عناصر فارسية

(١) Browne : Lit. Hist. of Persia, Vol. I. pp. 297-8 ، نقل عن جامع نفحات الأنس ( طبعة

ساو ليز Nassau Lees ، كلكتا سنة ١٨٥٨ م )

(٢) هو عبد الرحمن جامي شاعر فارسي مشهور .

(٣) نفحات الأنس ص ٧١

(٤) هذان البيتان لأبي الطيب المنبهي من قصيدته في رثاء أم سيف الدولة ومطلعها :

نمد المشرقة والموالي وقتلنا المنون بلا قتال

والرواية الصحيحة في البيت الأول هي : ولو كان النساء كمن فقدنا ، وليس كمن ذكرنا .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٨٢ — ١٨٣

وأخرى هندية<sup>(١)</sup>، كما اتخذها بعضهم وسيلة لتحقيق مآربهم الشخصية. وفي هؤلاء يقول محمود الوراق :  
تصوف كى يقال له أمين وما يعنى التصوف والأمانة  
ولم يرد الإله به ولكن أراد به الطريق إلى الخيانة  
وقال ابن السماك للصوفية : « والله لئن كان لباسكم وفقاً لسرائركم ، لقد أحببت أن يطلع الناس عليكم ،  
ولئن كان مخالفاً لها لقد هلكتم »<sup>(٢)</sup>.

ويقول فون كريم<sup>(٣)</sup> : « يظهر من غير شك أن التصوف جمع بين عنصرين مختلفين : تقشف مسيحي قديم دخل بقوة حتى في فجر الإسلام ، ثم دخل بعد ذلك بكثير عنصر بوذي هو عنصر التأمل والتفكير العميق ؛ وذلك نتيجة لتأثير الفرس في الإسلام . وكانت لهذا العنصر الغلبة في تكوين التصوف الإسلامى الخالص : فالأول يعبر بجلاء عن تأثير ذلك العنصر في العقل العربى أكثر من غيره ، والثانى يعبر عن تأثيره في الطبيعة الفارسية .

ويظهر أن التأثير الهندى في التصوف الإسلامى لم يكن كبيراً بالدرجة التى تصورها فون كريم ، فان تأثير الأفلاطونية الحديثة والعناصر الإسلامية كان في الواقع أعظم منها بكثير . وقد أجاد دى بور<sup>(٤)</sup> في كلامه على التصوف فقال : « وإذا تكلمنا على التصوف ، فنحن نعالج نظاماً عملياً

(١) الأفلاطونية الحديثة هى الفلسفة التى ضمت فلسفة أفلاطون اليونانى بمد إعطائها صبغة شرقية أسسها أمونيس سكاس أحد فلاسفة الاسكندرية في القرن الثالث ، ونقحها أفلوطين وغيره من الفلاسفة . أما وجه الشبه بين مذهب المتصوفة وفلسفة أفلوطين — فيما يظهر — فهو أن أفلوطين له مذهب في الحب سموه الحب الأفلاطونى ، وهو حب روحانى لا تنطرق إليه الأغراض المادية ولا النزعات الحسية . وللمتصوفة نفس هذا المذهب في حب الله ، فهم يحبونه حباً روحانياً خالياً من الرغبات والنزعات ، أى أنهم يحبونه حباً أفلاطونياً . ولا شك أنهم اكتسبوا هذا الحب وصيغ التعبير عنه مما وصلهم من هذه الفاسفة . ويظهر هذا الشبه من قراءتنا أشعار المتصوفين ؛ فاقراً مثلاً قول جمر بن الفارص :

سقتنى حبياً لراحة مقلتى	وكأسى محب من عن الحسن جلت
وبالى أبلى من ثياب تجلدى	به الذات فى الاعدام نيطت بلذة
فلو كشف العواربى وتحققوا	من اللوح مامنى الصسبابة أبقث
لما شاهدت منى بصائرهم سوى	تخلل روح بين أنواب ميت
ومتك شقائى بل بلاتى مسنة	وفيك لباس البؤس أسبغ نعمة

وهى قصيدة طويلة تسمى نائية السلوك الكبرى تقع في أكثر من سبعائة بيت . راجع ديوان ابن الفارص (بيروت سنة ١٣٢٨)

وهكذا فانك لا تجد إلا روحانية تذبث في هدوء واستكانة كما ينبعث النفس من بين شفتى المريض . فانظر في هذه الأبيات قبل تجد إلا إنكار الذات وفناء الجسم وتيقظاً في الروح ؟ فى البيت الأول أحب بعينيه ، وفى الثانى وجد لذة في انعدام ذاته أمام ما يفكر فيه من جمال المحبوب « قدرة الله » ، وفى الثالث والرابع فى جسمه وبقيت روحه المعذبة المدنفة التى تجد « فى البيت الخامس » لذة فى الألم واستمراء فى البؤس

(٢) العقد الفريد ج ٤ ص ٢٥١

(٣) نقل عن Herrsch. Id., p. 67 ، Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. I, p. 300

(٤) تاريخ الفلسفة فى الاسلام : ترجمة أبى ريدة ص ٧٣

أساسه ديني أو روحي . ولكن للأئمة العملية صدى في الفكر دائماً ، وهي تتخذ من ذلك صيغة نظرية . ولم يكن بد من أفعال لها أسرارها ، ومن مرشدين يقربون ما بين الإنسان وربّه . ويحاول هؤلاء المرشدون أن يطلعوا على أسرار تلك الأفعال ، ثم يظهروا خواص مرادهم عليها ، وأن يتخذوا لأنفسهم في سلسلة مراتب الوجود مكاناً يصلون فيه بين الله والناس . ولا بد أن تكون نظريات المذهب الأفلاطوني الجديد خاصة قد أثرت تأثيرها في ذلك . . . ويظهر أنه كان لمذهب اليوجا الهندي تأثير عظيم في بلاد الفرس على الأقل . ولكن التصوف ظل في الجملة في داخل نطاق مذهب أهل السنة ، وقد كان هؤلاء من الحكمة بحيث تغاضوا عن شطحات الشعراء وأصحاب المواجد ، والمتكلمون وأهل التصوف متفقون تمام الاتفاق في القول بأنه لا فاعل في كل شيء إلا الله .

### (ب) المتصوفون الغلاة :

#### ١٥ - الحسين بن منصور الحلاج :

غير أن هناك جماعة من المتصوفين غلوا في تصوفهم وقالوا إنه لا موجود في كل شيء إلا الله . ومن هذا نشأ مذهب في وحدة الوجود الذي خالف مذهب جمهور المسلمين ، وكان من شأنه أن جعل العالم خيالاً لا حقيقة ، كما وحد بين ذات الإنسان وذات الله . وبعد أن كان المتكلمون يقولون بوحدة الذات الإلهية ، قال الصوفية بوحدة شاملة لكل شيء . وبعد أن كان الأولون يقولون بفعل الله في كل شيء ، قال الآخرون بوجوده في كل شيء ، (١) . وقد نظر السنيون إلى هؤلاء المتصوفين الغلاة نظرهم إلى المشبهة الذين يشبهون الله بالإنسان ، والمجسمة الذين يحسمون الله فيجعلون له جرماً وحداً ، والحلوليين الذين يقولون بحلول الله في الأجسام .

ومن غلاة المتصوفين الحسين بن منصور الحلاج الذي ادعى الألوهية في عهد المقتدر العباسي (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) ؛ ويكنى أبا مغيث ، وهو مجوسي الأصل من أهل بلدة البيضاء بفارس ، ونشأ بواسطة ثم قدم بغداد واتخذها داراً له ، واختلط بالصوفية وصحب أبا القاسم الجنيد وغيره من المتصوفين (٢) . وقد سمي الحلاج لأنه اطلع على سر القلوب ، وكان يخرج لب الكلام كما يخرج الحلاج لب الفطن بالحلج . وقبل كان يقعد بواسطة بدران حلاج ، فضى الحلاج في حاجة ورجع ، فوجد الفطن محلوجاً مع كثرته فسماه الحلاج (٣) . اشتغل الحلاج في مبدأ أمره بالتصوف ، وله في هذا شطحات كثيرة ، بمعنى أن كلامه يحتمل معنيين : أحدهما حسن محمود ، والآخر قبيح

(١) دي بور : تاريخ الفلسفة في الإسلام من ٧٣ ، ٧٤

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ من ١٤٨ - ١٤٩

(٣) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبري من ٩٩ - ١٠٠

مذموم (١). واختلف الناس فيه ، فمنهم من يبالغ في تعظيمه ومنهم من يكفره (٢). وكان ظاهره أنه ناسك صوفي ، فإذا علم أن أهل بلدة ريون الاعتزال صار معتزليا ، أو ريون الإمامة صار إماميا وأراهم أن عنده علما بامامهم ، أو رأى أهل السنة صار سنيا (٣) .

وكان الحلاج مُخْتَلِطًا بلبس الصوف والمسوح تارة ، والثياب المصيفة تارة ، والعمامة الكبيرة والدراعة ، وتارة يلبس القباء وزى الجند . وقد طاف البلاد ، وقصد الهند وخراسان وبلاد ما وراء النهر وتركستان وغيرها (٤). وقال بعض أصحابه : « صحبته سنة إلى مكة ، وأقام بمكة بعد رجوع الحجاج إلى العراق وقال : إن شئت أن تعود فعُدْ ، فاني قد عولت أن أمضى من هنا إلى بلاد الهند . وكان الحلاج كثير الأسفار . ثم إنه نزل في البحر يريد الهند ، فصحبته إلى بلاد الهند ، فلما وصلنا إليها استدلت على امرأة ومضى إليها وتحدث معها ، ووعدته إلى غد ذلك اليوم . ثم خرجت معه إلى جانب البحر ومعها غزل ملفوف وفيه عقد شبه السلم . فقالت المرأة كلمات ، وصعدت في ذلك الحيط ، وكانت تضع رجلها في الحيط وتصعد حتى غابت عن أعيننا . ورجع الحلاج وقال لي : لأجل هذه المرأة كان قصدي إلى الهند (٥) . »

وكان لهذه الشعيذة والنارنجيات التي تعلمها الحلاج في الهند خاصة أثر كبير في تقول العامة الذين التفوا حوله ومالوا إلى مذهبه المغرقي في الغلو ، حتى إن بعضهم رماه بأنه أحد دعاة مذهب القرامطة الذي ساد في أيامه على يد أبي طاهر الجنابي (ت ٥٣٣ هـ) . وقد قيل إن الحلاج كان يدعو في أول أمره إلى الرضا من آل محمد (٦) . واستطاع بمهارته أن يجذب إليه العامة ، فكان يحفر في بعض الطرقات موضعا يضع فيه زقا فيه ماء ، ثم يحفر موضعا آخر يضع فيه طعاما ، ثم يسير مع أصحابه إلى الموضع الأول . فإذا احتاجوا إلى ماء يشربونه ويتوضئون منه ، ينش هذا الموضع بعكاز فيخرج الماء ، فيشربون ويتوضئون ، ثم يسير إلى الموضع الآخر فيخرج منه الطعام ، ويوم أصحابه أن ذلك من كرامات الأولياء . ولم تقتصر أساليبه في اجتذاب الناس إليه على ذلك ، بل كان يحفظ الفواكه ويخرجها في غير أوانها (٧) . وادعى البعض أنه أحييا طائرا لابن الخليفة المقتدر ، فقد ذكر عريب بن سعد (٨) ، « أن المقتدر أرسل إلى الحلاج خادما ومعه طائر ميت وقال : إن هذه البيغا لولدى أبي العباس ، وكان يحبها ، وقد ماتت . فإن كان ما تدعى صحيحا ، فأحبي هذه البيغا . »

(١) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٤٧

(٢) ابن خلكان : وفیات الأعيان ج ١ ص ١٢٦

(٣) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبري ص ١٠٢ - ١٠٣

(٤) المصدر نفسه ص ١٠٢

(٥) المصدر نفسه ص ١٠١ ، ١٠٥

(٦) ابن طباطبا : الفخرى في الآداب السلطانية ص ٢٣٤ - ٢٣٥

(٧) صلة تاريخ الطبري ص ٩٩

(٨) المصدر نفسه ص ٩٢

(٣) المصدر نفسه ص ٩٢ ، ٩٣

فقام الحلاج إلى جانب البيت الذي هو فيه وبال . وقال : من تسكن هذه حالته لا يجي ميتاً . فعد إلى الخليفة وأخبره بما رأيت وبما سمعت مني . ثم قال : بلى إلى من إذا أشرت إليه أدنى إشارة أعاد الطائر إلى حالته الأولى . فعاد الخادم إلى المقنن وأخبره بما رأى وسمع ، فقال : عد إليه وقل له المقصود إعادة الطائر إلى الحياة ، فأمر إلى من شئت . قال : فعلى الطائر ، فأحضر إليه وهو ميت ، فوضعه على ركبته وغطاه بكمه ، ثم تكلم بكلمات ثم رفع كفه وقد عاد الطائر حياً ، فأعاده الخادم إلى المقنن وأخبره بما رأى .

وقد ألف الحلاج كتاباً ذكر فيها مبادئ تخالف المبادئ الإسلامية ، فأباح الحج إلى غير مكة لكل من بنى في بيته بناءً مربعاً وطاف حوله في أيام الحج وأدى فيه مناسك الحج حوله ، وأطعم ثلاثين يتيماً بيده ، وكسا كل واحد منهم قيصاً ، ومنحه سبعة دراهم ، فان ذلك كله يقوم مقام الحج<sup>(١)</sup> . كما أباح الحلاج الإفطار في شهر رمضان لمن صام ثلاثة أيام بلياليها ولم يفطر ، وأفطر في اليوم الرابع على ورقات من الهندب<sup>(٢)</sup> ، فان ذلك يغنيه عن صوم رمضان . وأباح ترك الصلاة لمن صلى ركعتين من أول الليل إلى آخره ، فان ذلك ، في نظره ، يغنيه عن الصلاة طول حياته . وأعفى من الزكاة من تصدق بجميع ما يمتلكه في يوم واحد ، كما أعفى من العبادة من زار قبور الشهداء بمقابر قریش ، وأقام بها عشرة أيام يقضيها في الصلاة والصوم مع إفطاره على قليل من خبز الشعير والملح<sup>(٣)</sup> . وكان الحلاج مع ذلك ، خفيف الحركات شعوبياً . قد حاول الطب وجرب الكيمياء ، فلم يزل يستعمل المخاريق<sup>(٤)</sup> حتى استهوى بها من لا تحصيل عنده . ثم ادعى الربوبية وقال بالحلول ، وعظم اقتراؤه على الله عز وجل ورسله . ووجدت له كتب فيها حماقات وكلام مقلوب وكفر عظيم ، وقال في بعض كتبه : إني المفرق لقوم نوح والمهلك لعاد وثمود . وكان يقول لأصحابه : أنت نوح وأنت موسى ، وأنت محمد قد أعدت أرواحهم إلى أجسادهم . ويزعم بعض الجهلة المتبعين له بأنه كان يغيب عنهم ، ثم ينزل عليهم من الهواء<sup>(٥)</sup> .

وقد راجت دعوة الحلاج بين كثير من الناس ، وخاصة أهالي بغداد والطاقان (بخراسان) الذين افتتنوا به ، حتى خشى أهل السنة أن يتفاهم خطرهم ، ورموه بالكفر والقول بالحلول ، ونسبوا إليه ، أنه قال : من هذب نفسه في الطاعة وصبر على اللذات والشهوات ، ارتقى إلى مقام المقربين ، ثم لا يزال يصفو ويرتقى في درجات المصافة حتى يصفو عن البشرية . فإذا لم يبق فيه من البشرية حظ ، حل فيه روح الإله الذي حل في عيسى بن مريم ، ولم يرد حينئذ شيئاً إلا كان كما أراد ، وكان

(١) صلة تاريخ الطبري ص ٩٣

(٢) بكسر الهاء وفتح الدال ، وقد تكسر جمع هندبة أو هندابة ، وهي بقلة نافعة للعدة والسكبد والطحال أكلاً ، وللثة العقرب ضارداً .

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٥ - ١٠٦

(٤) الحبل والتويمات

(٥) عرب بن سعد : صلة تاريخ الطبري ص ٨٩ ، ٩٢

جميع فعله فعل الله تعالى . وزعموا أن الحلاج ادعى لنفسه هذه الرتبة ، وذكر أنهم ظفروا بكتب له إلى أتباعه عنوانها ، من الهو هو رب الأرباب المتصور في كل صورة إلى عبده فلان ، فظفروا بكتب أتباعه إليه وفيها : يا ذات الذات ومنتهى غاية الغايات (١) . نشهد أنك المتصور في كل زمان بصورة . وفي زماننا هذا بصورة الحسين بن منصور ، ونحن نستجير لك ، ونرجو رحمتك بإعلام العيوب . (٢) .

ولم تقف دعوة الحلاج عند حد التأثير في العامة ، بل لقد تأثر بها كثير من رجال البلاط والكتب وبعض كبار الهاشميين ، ورمى نصر حاجب المقدر وأنصاره باعتقاد مبادئ الحلاج ، حتى أنهم اعتقدوا أنه يحيي الموتى ، وأن الجن يخدمونه ويحضرون إليه ما يريد ، وأن في استطاعته أن يأتي بالمعجزات التي أتى بها الرسل والأنبياء . كما اعتقدوا الوهية ونبوة أحد أتباعه (٣) . وقد انتشر دعائه في كثير من الأمصار الإسلامية انشر مذهبه ، واتبع في ذلك طريقة دعاة كبار الإسماعيلية ، فقد روى مسكويه (٤) أنه كان في الكتب الموجودة له عجائب من مكاتبات أصحابه الناقدين إلى النواحي ، وبوصيته لإمام بما يدعون إليه الناس ، وبما يأمرهم به من نقلهم من حال إلى حال أخرى ومرتبة إلى مرتبة ، حتى يبلغوا الغاية القصوى ، وأن يخاطبوا كل قوم على حسب عقولهم وأفهامهم ، وعلى قدر استجابتهم وانقيادهم ، وجوابات لقوم كانوا بالفاظ مرموزة لا يعرفها إلا من كتبها ومن كتبت إليه . وقد ادعى الحلاج الألوهية ، وكان يقول بحلول اللاهوت في الإنسان ، ويكتب إلى أصحابه من النور الشمعاني (٥) . وروى عنه أنه قال : ما في اللمبة غير الله (٦) ، يعني جبته ، كما روى عنه أنه قال : أنا الحق . وكان يتغنى بقوله :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا  
فإذا أبصرتني أبصرته  
نحن روحان حللنا بدنا  
وإذا أبصرته أبصرتنا

ومن الشعر الذي ينسب إلى الحلاج قوله :

لا كنت إن كنت أدري كيف كنت ولا  
لا كنت إن كنت أدري كيف لم أكن (٧)  
كما نسب إليه قوله :

(١) في الأصل والشهوات والصواب والغايات

(٢) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٤٨

(٣) مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ٧٦

(٤) ج ١ ص ٧٩

(٥) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٥٣

(٦) Louis Massignon : La Passion D' AL - Hosayn - Ibn - Mansour, tome I. pp. 61-2.

(٧) ابن خلسكان : كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ١٤٧

سبحان من أظهر ناسوته سر سنا لاهوته الثاقب  
ثم بدا في خلقه ظاهرا في صورة الآكل والشارب  
حتى لقد عاينه خلقه كحظرة الحاجب بالحاجب (١)

وكذلك اعتقد أنصار الحلاج أنه يعرف السر وسر السر، وأنه أضحي من أهل الكشف  
كما يتبين ذلك من قوله:

مواجيد أهل الوجد تصدق عن وجدى وأسرار أهل السر مكشوفة عندي  
وقوله:

الله يعلم ماني النفس جارحة لا وذكرك فيها نيل ما فيها  
ولا تنفست إلا كنت في نغمي تجرى بك الروح مني في مجاريها  
إن كانت العين مذ فارقتها نظرت إلى سواك فخانتها ما أقما  
أو كانت النفس بعد البعد آلفة خلقا عداك فلا نالت أمانها (٢)

ظهر خطر الحلاج منذ مستهل القرن الرابع الهجري، فقد قبض عليه ببغداد في سنة ٣٠١ هـ  
وشهر به بدعوى ادعائه الربوبية وقوله بالحلول. وعلى الرغم من أن علي بن عيسى وزير المقتدر  
وقف على جهله بالقرآن وعلوم الدين، دافع عنه نصر الحاجب الذي أدخل في روعه أن الرفضة هم  
الذين رموا الحلاج بالكفر والمروق عن الإسلام. وكان علي بن عيسى يعتقد أن في الحلاج قدرة  
خارقة وأنه قادر على أذاه فتهدد من قبله.

وكان حامد بن العباس وزير المقتدر يكره الحلاج ويعمل على التخلص منه، فاتخذ من امرأة  
ابن الحلاج عينا عليه واستشهد بها عليه، كما أحضر كتبه وقرأها ووقف على ما فيها من شعوذة  
وكفر، ثم عقد مجلسا يضم كبار القضاة الذين ناظروه فيما كتبه وبينوا له بطلان ما ذهب إليه وخروجه  
على الدين الاسلامي، ورموه بالكفر وأذوا جميعاً بكفره وأحلوا دمه، فأمر الخليفة بضربه ألف  
سوط وإحراق جثته وإلقاء رمادها في دجلة. وقد ادعى أصحابه أنهم ما قتلوه وما صلبوه ولكن  
شبه لهم، وأن المضروب كان عدوا للحلاج ألقى شبهه عليه، كما قال بهض آخر إنه رأى وخاطبه  
وحدثه. وادعى قوم من أصحابه أنهم رأوه يركب حمرا وأنه قال لهم: إنما حولت دابة، ولست  
المقتول كما ظن هؤلاء البقر. ولما زادت دجلة اعتقد أصحابه أن ذلك بسبب ما ألقى فيها من رماد  
جثته (٣). وقال أبو عمرو بن حيويه: لما أخرج الحلاج ليقتل مضيت في جملة الناس، ولم أزل  
أزاحم حتى رأيت، فقال لأصحابه: لا يهولنكم هذا فاني عائد إليكم بعد ثلاثين يوما، (٤).

(١) عربي بن سعد: صلة تاريخ الطبري ص ١٠٤

(٢) المصدر نفسه ص ٩٨

(٣) عربي بن سعد: صلة تاريخ الطبري ص ٩٤، ٩٧

(٤) المصدر نفسه



ولكن خطر الحلاج لم يزل يموت ، فقد اقتن به كثير من الدهماء لما رأوه من سحره وشعوذته وحاله وإشاراته ، حتى إنهم ألوهو ودانوا بربوبيته . وقد دافع عنه حجة الإسلام الغزالي وحمل أقواله على محمل حسن . ومهما يكن من شيء فقد أفلقت مبادئ الحلاج الخلافة العباسية ، ولذلك أحضر الوراقون وحرم عليهم أن لا يبيعوا من كتبه شيئا ولا يشتروه . وقد قبض عليه ثم قتل في شهر ذى القعدة سنة ٣٠٩ هـ .

### ٢ - الشلغاني :

ويظهر أن فكرة تأليه الحلاج لم تقتصر على غلاة المتصوفين ؛ فقد رأينا السبئية يؤطون على بن أبي طالب ، والرواندية يؤطون أبا جعفر المنصور ، والخطابية يؤطون جعفرا الصادق ، والمتصوفين الثلاثة يؤطون الحلاج ، ويؤله المذاقرة أبا جعفر محمد بن علي الشلغاني (١) الذي ادعى حلول روح الإله فيه وسمى نفسه روح القدس ، ووضع لأتباعه كتابا ينطوي على الخروج على الشريعة الإسلامية (٢) . وقال ابن الأثير (٣) : « وكان من مذهبه أنه إله الآلهة بحق الحق ، وأنه الأول القديم ، الظاهر الباطن ، الرازق التام ، الموما إليه بكل معنى . وكان يقول إن الله سبحانه وتعالى يحل في كل شيء على قدر ما يحتمل ، وأنه خلق الضد ليدل على المصدود . فن ذلك أنه حل في آدم لما خلقه ، وفي إبليس أيضا ، وكلاهما ضد لصاحبه لمضادته إياه في معناه ، وأن الدليل على الحق أفضل من الحق ، وأن الضد أقرب الشيء من شبهه ، وأن الله عز وجل إذا حل في جسد ناسوتي ظهر من القدرة والمعجزة ما يدل على أنه هو ، وهذا يشبه إلى حد كبير آراء الإمامية ، وخاصة الإسماعيلية منهم ، في الحلول ومبدأ الضد في نظرية الإمامة . »

وقد تأثر آراء الشلغاني بعض كبار رجال الدولة العباسية في هذا العصر ، ومن هؤلاء المحسن ابن أبي الحسن بن الفرات في عهد وزارة أبيه الثالثة ، كما وجد صدرا رحيبا من ناصر الدولة الحسن ابن عبيد الله بن حمدان الذي أحسن وفادته وتستر عليه ، وبقي عنده بالموصل إلى أن جاء بغداد حيث تبعه كبار رجالها (٤) .

ولما ازداد خطر الشلغاني في عهد الراضي ( ٣٢٢ - ٣٢٩ هـ ) قبض عليه وعلى كثير من أنصاره ، ووجدت عنده وثائق تثبت ادعائه الألوهية وإغراق أنصاره في الوهية ، وفيها خط الحسين بن القاسم ، فعرضت الخطوط فعرّفها الناس ، وعرضت على الشلغاني فأقر أنها خطوطهم ... وأخذ ابن أبي عون

(١) وينسب إلى شلغان باحدى قرى واسط .

(٢) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٤٩

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١٠٠ - ١٠١

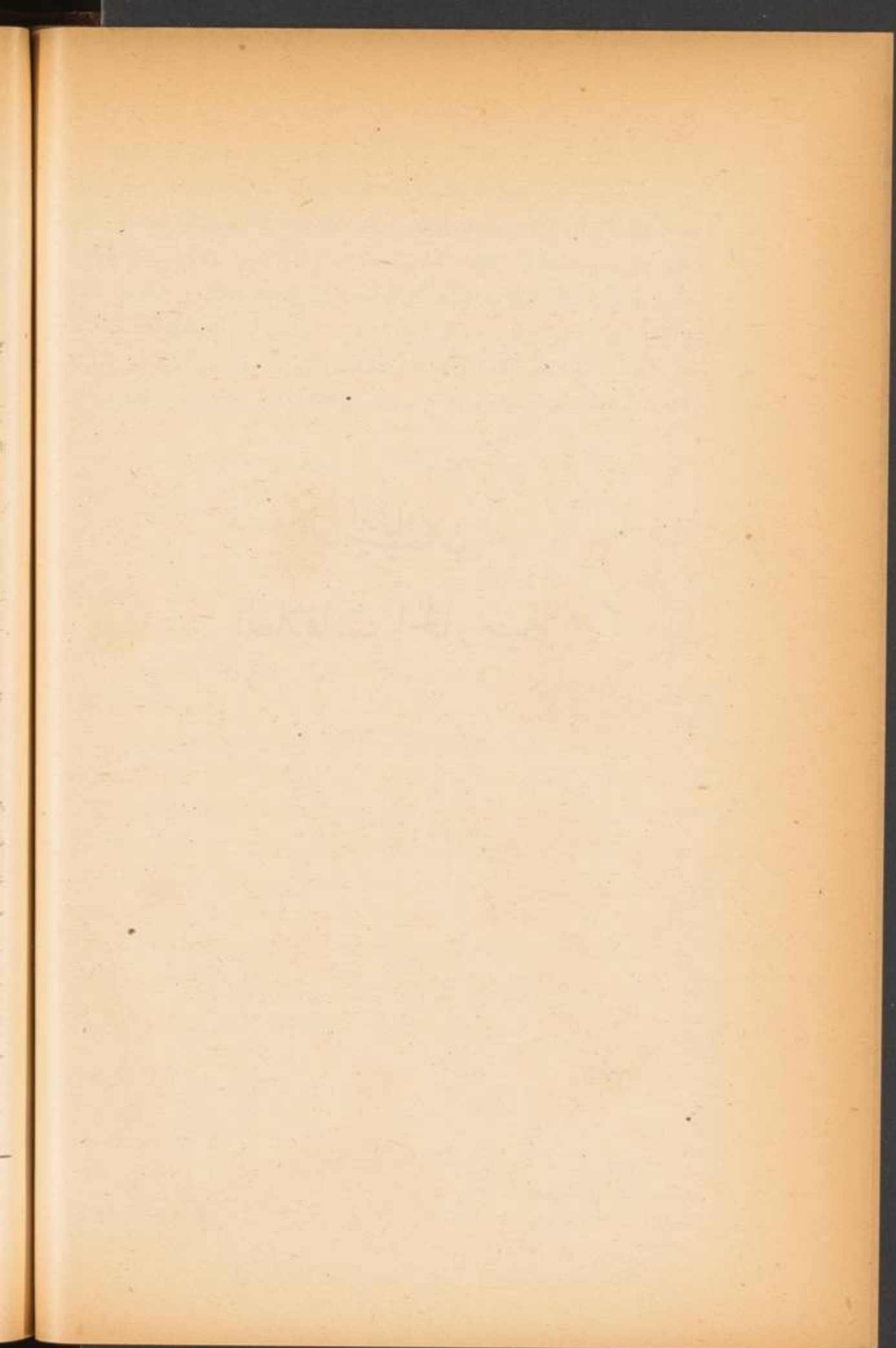
(٤) ج ٨ ص ١٠١

ومن تبع الشلغاني الحسين بن القاسم بن عبد الله بن سليمان بن وهب القدي وزير للمقتدر بالله ، وأبو علي بن بسطام ، وإبراهيم بن أبي عون ، وابن شبيب الزيات ، ولكنهم لم يلبثوا أن اختفوا حين كشف أمرهم في عهد وزارة ابن مقلة في خلافة المقتدر

وابن عبدوس معه وأحضر معه عند الخليفة وأمر أن يصفعه فامتنع فلنا أكرها عند ابن عبدوس يده  
وصفعه ، وأما ابن أبي عون فإنه مديده إلى لحيته ورأسه ، فاز تعدت يده ، فقبل لحية الشلغاني ورأسه  
ثم قال : إلهي وسيدى ورازقى ، فقال له الراضى : قد زعمت إنك لا تدعى الإلهية فما هذا ؟ فقال :  
وما على من قول ابن أبي عون ؟ والله يعلم أنني لا قلت له إننى إله فقط . فقال ابن عبدوس : إنه لم  
يدع الإلهية ، وإنه ادعى أنه البواب إلى الإمام المنتظر . . . وكنت أظن أنه يقول ذلك تقية . ثم  
أحضروا عدة مرات ومعهم الفقهاء والقضاة والكتاب والقواد . وفى آخر الأيام أفتى الفقهاء  
بإباحة دمه ، فصلب ابن الشلغاني وابن أبي عون فى ذى القعدة ( سنة ٣٢٢ هـ ) وأحرقا بالنار (١).

الباب السادس

العلاقات الخارجية



١ - مع البيزنطيين :

تمهيد :

توجت سياسة العرب منذ صدر الإسلام إلى الصراع مع الدولة البيزنطية ، واستطاعوا أن يستولوا في وقت قصير على ممتلكاتهم في الشام وفلسطين ومصر وبرقة طرابلس وغيرها . ولم يكتف العرب بذلك بل حاولوا فتح القسطنطينية أكثر من مرة في عهد الدولة الأموية . ولما انتقل الحكم إلى العباسيين تغيرت وجهة الحرب بين العرب وبين البيزنطيين ، وأصبحت عبارة عن غارات الغرض منها الهدم والتخريب وإتلاف النفس والمال . وهذا يخالف ما كانت عليه الحال في أيام الأمويين الذين كانت لهم سياسة مرسومة لمحاربة البيزنطيين ابتغاء احتلال القسطنطينية . ولا شك أن السبب في ذلك يرجع إلى عاملين هامين :

أولهما : مناوأة أهالي بلاد الشام للعباسيين ، لأنهم كانوا لا يزالون على ولائهم للأمويين ، حتى إن عبد الرحمن الداخل فكر في إعادة هذه البلاد إلى سلطان الأمويين ، واعتمد في تحقيق سياسته على ولاء أهالي بلاد الشام لبني أمية .

وثانيهما : عدم اهتمام العباسيين بإنشاء أسطول قوى في البحر الأبيض المتوسط يضارع أسطول الأمويين من قبل ، واعتمادهم على الجيوش البرية دون القوات البحرية (١) .

وقد امتاز العصر العباسي الأول بكثرة غارات البيزنطيين على أراضي الدولة العباسية ، وساعد على ذلك نقل حاضرة الدولة العباسية إلى بغداد . ولذلك نراه يشنون الغارات على بلاد الشام في عهد أبي جعفر المنصور . ولكن العباسيين كانوا في ذلك الوقت لا يزالون من القوة بحيث يستطيعون أن يصدوا غارات البيزنطيين عن بلادهم . وبلغت جيوشهم في عهد المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ) أنقرة في وسط آسيا الصغرى سنة ١٥٩ هـ ، وهددت القسطنطينية وأرغمت الملكة إيريني Irene على دفع الجزية للسليين . ولما نقض نفقور هذه الهدنة تصدى له هارون الرشيد وأوغل في بلاده ، واستولى على مدينة هرقة وغيرها من مدن آسيا الصغرى ، كما أرغم هذا الإمبراطور على طلب الصلح ودفع الجزية من جديد (٢) .

وقد تمكن المأمون بدهائه السياسي أن يفرق بين البيزنطيين ، فشجع توماس الصقلي الذي نار في آسيا الصغرى على الإمبراطور ثيوفيلس Theophilus ، وأمدّه بالمال والرجال وعمل على تويجه إمبراطورا على الدولة البيزنطية نفسها . وقد قابل إمبراطور الروم ذلك العمل بجعل بلاده موثلا للخزمية أتباع بابك الخزمية الذي شغل العباسيين اثنتين وعشرين سنة (٢٠١ - ٢٢٣ هـ) وخرج

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - ٢ من ١٨٤ - ١٨٥ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ من ١٨٥ - ١٨٧ ، ١٩١ (٣) الطبري ج ١١ من ٤٨ - ٤٩

المأمون لحرب الروم في سنة ٢١٨ هـ ، ولكن المنية عاجلته وهو في طريقه إلى بلادهم فدفن في طرسوس . ولما أغار البيزنطيون على بلاد الدولة العباسية في عهد المعتصم خرج الخليفة إليهم بنفسه ومعه كبار قواده ، واخترق شعاب آسيا الصغرى حتى بلغ عمورية ، حيث التقى بالبيزنطيين في موقعة تعد بحق من المواقع الحاسمة . وقد قال فيها أبو تمام قصيدته المشهورة التي مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد والملاعب

(١) من المتوكل إلى المعتصم (٢٣٢-٢٥٦ هـ) :

وقد اتخذ البيزنطيون من سوء الحال الذي ساد الدولة العباسية في العصر العباسي الثاني لاستبداد الأتراك واليوهانيين من بعدهم بالسلطة دون الخلفاء ، فرصة سانحة للاغارة على بلاد الدولة العباسية . ففي سنة ٢٣٨ هـ أغار البيزنطيون على سواحل مصر ، واستولوا على دمياط وتنبس ، وغاثوا فيهما . ولم يتمكن عنبسة بن إسحاق (٢٣٨-٢٤٢ هـ) الذي ولي هذه البلاد من قبل الخليفة المتوكل العباسي من الضرب على أيديهم ، ومنعهم من نهب البلاد وسبي النساء والأطفال وأهل الذمة . وقد نظم يحيى ابن فضل قصيدة بعث بها إلى الخليفة المتوكل ، عاب فيها على عنبسة تهاونه وقعوده عن مطاردة الروم فقال :

أرضي بأن توطأ حريمك عنوة وأن يستباح المسلمون ويحربوا  
حمار أتى دمياط والروم وثب بتفيس منه رأى عين وأقرب  
مقيمون بالأشتوم يبغون مثلها أصابوه من دمياط والحرب ترتب  
فلا تنسنا إنا بدار مضيعة بمصر وإن الدين قد كاد يذهب (١)

وكذلك أغار الروم في عهد المتوكل على مدينة عين زربا (٢) على مقربة من المصيصة ( سنة ٢٤١ هـ ) ، وأسروا من كان فيها من الرط الذين كان المعتصم قد نقلهم إليها بعد ثورتهم في البطائح بين واسط والبصرة . وفي هذه السنة تبودلت الأسرى بين المسلمين والروم في عهد ميشيل الثالث Michael III ( ٢٢٨ - ٢٥٣ - ٨٤٢ - ٨٦٧ م ) ، الذي آلت الوصاية عليه إلى أمه تيودورا Thearoda ؛ وبلغ عدد أسرى المسلمين عشرين ألفا ، كانوا يلاقون كل ألوان التعذيب . حتى إن كثيرا منهم اضطروا إلى الدخول في المسيحية . وقد قيل إن تيودورا عرضت على هؤلاء الأسرى الارتداد عن الاسلام ، فتنصر بعضهم ، وكانوا أكثر من سبعة آلاف ، وأبى الآخرون ، فقتلت منهم اثني عشر ألفا ، ولم يبق من المسلمين سوى تسعمائة بين رجل وامرأة (٣) . وكذلك أغار البيزنطيون على الأراضى الواقعة شمالي العراق حتى بلغوا آمد وأسروا نحو عشرة آلاف من المسلمين . ولما سكن المتوكل عول

(١) الكندي : كتاب الولاة ص ٢٠١

(٢) يقول باقوت في معجمه إن عين زربا ( بفتح الزاي وسكون الراء وباء موجدة وألف مقصورة ) بلد على مقربة من المصيصة . وقد أمر هارون الرشيد ببنائها سنة ١٨٠ هـ وأقطعها فريقا من أهل خراسان وغيرهم ، ثم نقل إليها المعتصم جماعة من الرط ، وبسميها الفرنجية Anazarbus

(٣) الطبري ج ١١ ص ٥١ - ٥٢

على أخذ الثأر من البيزنطيين ، فاستولى على بعض بلادهم جنوبي آسيا الصغرى (سنة ٢٤٤ هـ) (١) ، كما أسر المسلمون في سنة ٢٤٥ هـ بقيادة علي بن يحيى الأرمني أحد بطارقة الروم (٢) ، واستولوا على مدينة لؤلؤة . وكان البطريرق الذي كان صاحب الروم وجهه إليهم يقال له لغشيط ... وقيل إن علي بن يحيى الأرمني حمله إلى المتوكل ، فدفعه المتوكل إلى الفتح بن خاقان ، فعرض عليه الإسلام فأبى ، فقالوا : نقتلك ، فقال : أتم أعلم . وكتب ملك الروم يبذل مكانه ألف رجل من المسلمين ، (٣)

وقد اتخذت الحروب مع البيزنطيين وسيلة لإبعاد بعض القواد المناوئين . فقد قامت العداوة والبغضاء بين أحمد بن الخصب وزير المنتصر (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ) ، وبين وصيف التركي ؛ فعمل هذا الوزير على التخلص من ذلك القائد ، وأغرى الخليفة بإبعاده عن حاضرة الدولة لغزو بلاد الروم . وكتب المنتصر عند إنفاذه وصيفا إلى محمد بن عبد الله بن طاهر كتابا يقول فيه : . بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله محمد المنتصر بالله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله مولى أمير المؤمنين . سلام عليك إفا إن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأما بعد ، فإن الله ، وله الحمد على آلائه والشكر بحمليه بلائه ، اختار الإسلام وفضله وآتمه وأكمله ، وجعله وسيلة إلى رضاه ومثوبته ، وسبيلا نهجا إلى رحمته ، وسببا إلى مذخور (٤) كرامته ، فقهر له من خالفه ، وأذل له من عند عن حقه وابتغى غير سيده ، وخصه بأتم الشرائع وأكملها وأفضل الأحكام وأعد لها ، وبعث به خيرته من خلقه وصفوته محمدا صلى الله عليه وسلم ، وجعل الجهاد أعظم فرائضه منزلة عنده ، وأعلها رتبة لديه ، وأنجحها وسيلة إليه ؛ لأن الله عز وجل أعز دينه وأذل عتاة الشرك . قال الله عز وجل أمرا بالجهاد ومفترضا له ( انفسروا خفافا وثقالا وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وانفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ) (٥) . وليست تمضى بالجهاد في سبيل الله حالا لا يكابد في الله نصبا ولا أذى ، ولا ينفق نفقة ولا يقارع عدوا ، ولا يقطع بلدا ولا يظأ أرضا ، إلا وله بذلك أمر مكتوب وثواب جزيل وأجر مأمول . قال الله عز وجل ( ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يبطؤون موطننا يعيظ الكفار ولا يتالون من عدو نيلا إلا كتب لهم عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ) (٦) ثم أننى عز وجل بفضل منزلة المجاهدين على القاعدین عنده ، وما وعدهم من جزائه ومثوبته وما لهم من الزلفى عبده فقال ( لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وانفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وانفسهم على

(٢) البطارقة القواد

(٤) يعنى المدخر

(٦) سورة التوبة آية ١٢٠ - ١٢١

(١) الطبرى ج ١١ ص ٥٥ - ٥٦

(٣) الطبرى ج ١١ ص ٦٠

(٥) سورة التوبة آية ٤١

القاعدين درجة، وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً (١).  
فبالجهاد اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم وجعل جنته ثمناً لهم ورضوانه جزاء لهم على بذلها،  
وعداً حقاً لا ريب فيه وحكماً عدلاً لا تبديل له. قال الله عز وجل ( إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم  
وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل  
والقرآن. ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ) (٢).  
وحكم الله عز وجل لإحياء المجاهدين بنصره والفوز برحمته، وأشهد موتاهم بالحياة الدائمة والزلفى  
لديه والحظ الجزيل من ثوابه فقال ( ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند  
ربهم يُرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف  
عليهم ولا هم يحزنون ) (٣). وليس من شيء يتقرب به المؤمنون إلى الله عز وجل من أعمالهم  
ويسعون به في حط أوزارهم وفسكك رقابهم، ويستوجبون به الثواب من ربهم، إلا والجهاد عنده  
أعظم منه منزلة وأعلى لديه رتبة وأولى بالفوز في العاجلة والآجلة، لأن أهله بذلوا لله أنفسهم  
لتكون كلمة الله هي العليا، وسمحوا بها دون من وراهم من إخوانهم وحریم المسلمين ويضتهم (٤)  
ووقروا (٥) بجهادهم العدو. وقد رأى أمير المؤمنين، لما يحبه من التقرب إلى الله بجهاد عدوه وقضاء  
حقه عليه فيما استحفظه من دينه والتماس الزلفى له في إعزاز أوليائه وإحلال البأس والنقمة بمن  
حاد عن دينه وكذب رسوله وفارق طاعته، أن يئتمن وصيفاً مولى أمير المؤمنين في هذا العام  
إلى بلاد أعداء الله الكفرة الروم غازياً، لما عرف الله أمير المؤمنين من طاعته ومناصحته ومحمود  
تعبته وخلوص نيته في كل ما قر به من الله ومن خليفته. وقد رأى أمير المؤمنين، والله ولى معونته  
وتوفيقه، أن يكون موافاة وصيف فيمن أنهض أمير المؤمنين معه من مواليه وجنده وشاكرته  
نفر ملطية لاثنتي عشرة ليلة تخلو من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين، وذلك من شهر  
العجم للنصف من حزيران، ودخوله بلاد أعداء الله في أول يوم من تموز. فأعلم ذلك، واكتب  
إلى عمالك على نواحي عمالك بنسخة كتاب أمير المؤمنين هذا، ومرهم بقرائه، ته على من قبلهم من  
المسلمين وترغيبهم في الجهاد وحثهم عليه واستنفارهم إليه، وتعريفهم ما جعله الله من الثواب لأهله،  
ليعمل ذوو النيات والحسبة والرغبة في الجهاد على حسب ذلك، في النهوض إلى عدوهم والخوف  
إلى معاونة إخوانهم والذيادة عن دينهم والرى من وراء حوزتهم، بموافاة عسكر وصيف مولى أمير  
المؤمنين ملطية في الوقت الذي حدته أمير المؤمنين لهم إن شاء الله، والسلام عليك ورحمة  
الله وبركاته (٦).

دخل وصيف بلاد الروم وأوغل فيها، ومات المنتصر في ذلك الحين وآلت الخلافة إلى المستعين.  
وفي عهده غزا جعفر بن دينار الصائفة، وافتتح بعض الحصون البيزنطية، وقتل اثنان من أشد قواد

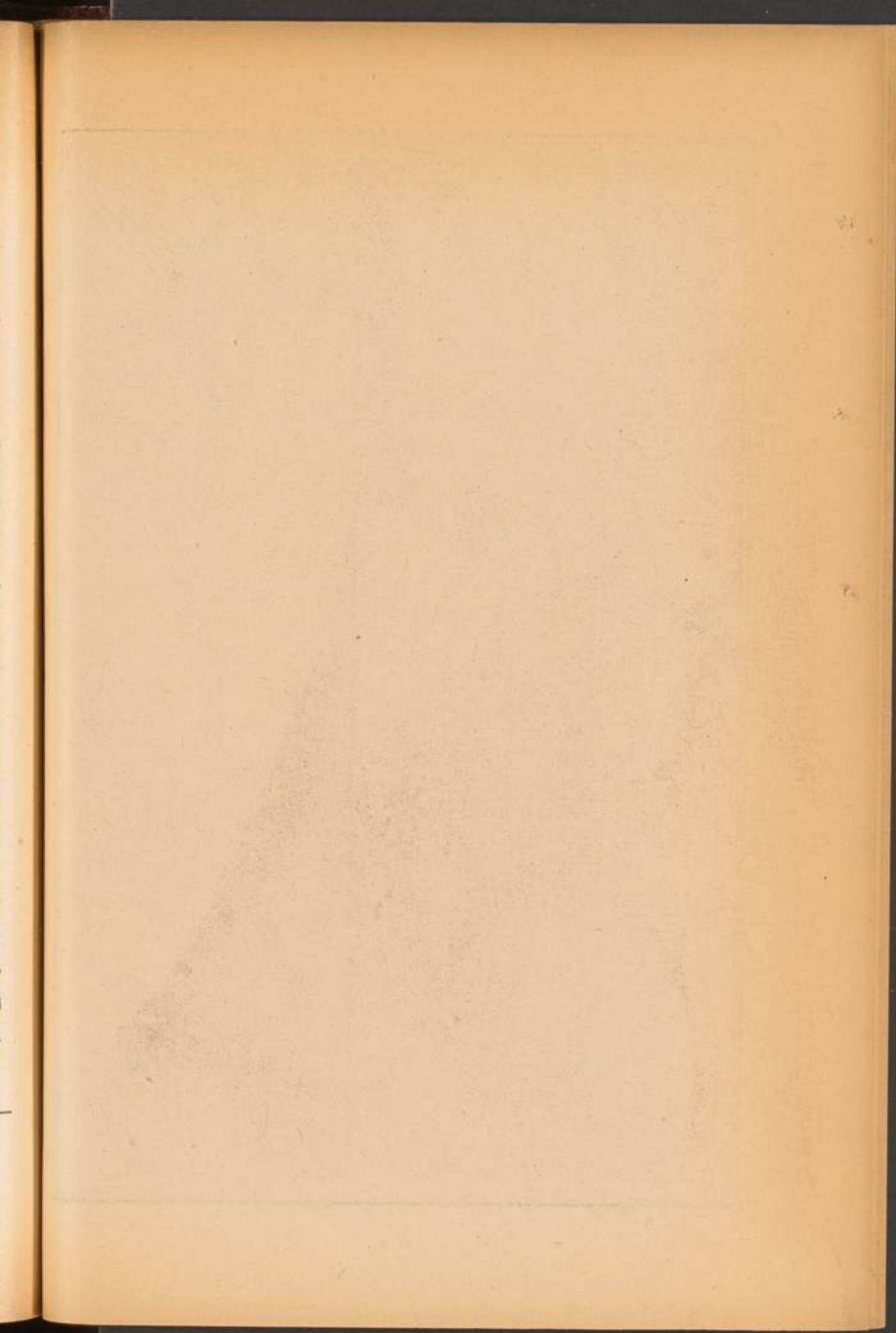
(١) سورة النساء، آية ٩٥  
(٢) سورة آل عمران آية ١٦٩ - ١٧٠  
(٣) سورة التوبة آية ١١١  
(٤) البيضة الحوزة وكل ما يدافع عنه  
(٥) وقوا العدو ممنوعه  
(٦) الطيرى ج ١١ ص ٧٤ - ٧٥





الخروج من العباسيين والبيزنطيين  
في القسطنطينية الرابع المجرى

(١) لها،  
سهم  
بحر  
(٢)  
زلفى  
عند  
ف  
المهم  
فنده  
سهم  
(٤)  
ضاه  
من  
لعام  
مورد  
وته  
رته  
هور  
سب  
من  
فله،  
وف  
أمير  
حمة  
مين.  
قواد



المسلمين بأساً وأعظمهم خطراً وهما : عمر بن عبيد الله الأفطع ، وعلى بن يحيى الأرمي اللذان يقول فيهما الطبري<sup>(١)</sup> : « كانا نأبى من أنياب المسلمين ، شديداً بأسهما عظيماً تغاؤهما عنهم ، في الثغور التي هما بها ، » . ويقول المسعودي<sup>(٢)</sup> : « إنهما كانا من أهل البأس والنجدة والمكابد في النصرانية ، حتى إن الروم صوروا في كائناتهم عشرة من كبار قواد المسلمين ، من بينهم عمرو بن عبيد الله ، وعلى بن يحيى الأرمي . وكان لقتل هذين القائدين أثر بعيد في إذكاء روح الجهاد بين أهالي بغداد وسامرا . وإلى هذا يشير ميور<sup>(٣)</sup> : « كانت كفة الحرب في الخمسين سنة الماضية في غير صالح الدولة البيزنطية بوجه عام . بيد أنه في السنة التالية ( ٥٢٤٩ هـ ) منيت غارة المسلمين على المسيحيين بأخفاق ذريع ؛ فقد تمزقت أوصال كتيبتين من كتائب المسلمين في أرمينية وآسيا الصغرى ، وأثارت أبناء هذه الهزائم حماسة أهل بغداد ، وتعالق تلك الصيحات القديمة في الطرقات معلنة الجهاد والتفكير . . . وكان لهذه الصيحات أثرها في إثارة حماسة العامة ، ففتحوا السجون وأحرقوا الجسور . ولكن بغداد ، وإن لم تستطع بعد أن تملى شروطها على حكامها ، استطاعت أن تثير الشعب والاضطراب . بيد أن روح الحرب الدينية كانت من القوة بحيث استطاعت أن تجذب جموعاً كثيفة من الأمصار القريبة ، جاءوا زرافات ووحدانا بحراهم بأذلين نفوسهم في سبيل جهاد المسيحيين . »

(ب) من المعتمد إلى المطيع ( ٢٥٦ - ٢٣٤ هـ ) :

ولما ولي المعتمد ( ٢٥٦ - ٢٧٩ هـ ) الخلافة تقلصت الدولة العباسية إلى حدود الجزيرة والعراق ؛ وتجدد النزاع بين المسلمين والروم ، الذين جروا على العيب ببعض بلاد الدولة العباسية . ولا غرو فقد قويت شوكة الدولة البيزنطية وانتشر الأمن فيها منذ اعتلاء باسيل الأول Basil I ( ٢٥٣ - ٢٧٣ هـ = ٨٦٧ - ٨٨٦ م ) العرش ، فتمكن من إحراز النصر على بعض أمراء المسلمين ؛ وساعده على ذلك ضعف بعض الخلفاء . واستبداد القواد بهم وثورة الجند عليهم .

وكان أحمد بن طولون الذي ولي الثغور الشامية من قبل الخليفة المعتمد ، مصدر خوف البيزنطيين ، حتى إنهم هادوه في سنة ٢٦٥ هـ . وفي ذلك يقول الطبري<sup>(٤)</sup> : « بعث ملك الروم بعبد الله بن رشيد ابن كلوس ، الذي كان عامل الثغور فأسر ، إلى أحمد بن طولون مع عدة من أسراء المسلمين وعدة مصاحف هدية منه إليه ، . على أن البيزنطيين لم يلبثوا أن أغاروا في السنة التالية على ديار ربيعة ، فتصدى لهم أهل الموصل ونصيبين وردوهم على أعقابهم بعد أن عاثوا في هذه البلاد<sup>(٥)</sup> . فرد نائب أحمد بن طولون على الثغور الشامية على البيزنطيين بأغارته على الأراضى القريبة من هرقله وإيقاعه بأهلها<sup>(٦)</sup> .

وقد أتاح اشتغال العباسيين بقتال صاحب الزنج الفرصة للبيزنطيين للإغفال في بلاد الدولة العباسية ،

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٥١

(٤) ج ١١ ص ٢٥٣

(٦) الطبري ج ١١ ص ٢٥٨

(١) ج ١١ ص ٨٥

(٣) The Caliphate, pp. 522 - 3

(٥) ابن الأثير ج ٧ ص ١١٨

فحاصروا قَلَمَنيَّةَ القريبة من طرسوس في جيش كشيْف قبيل إنه بلغ مائة ألف ؛ ولكن المسلمين أوقفوا بهم وغنموا منهم غنائم لا نحصى . ويقول ابن الأثير<sup>(١)</sup> عند كلامه على حوادث سنة ٢٧٠ هـ إن عدد القتلى من البيزنطيين بلغ سبعين ألفاً، وإن المسلمين قتلوا كثيراً من البطارقة، وغنموا صلبانهم الذهبية المسكلة بالجواهر، وحازوا خمس عشرة ألف دابة وكثيراً من السروج والسيوف المحلاة، وأربعة كرامى من الذهب ومائتى كرسى من الفضة، ونحو عشرة آلاف من الأعلام المصنوعة من الديباج .

وكذلك أتاحت اشتغال العباسيين بمحاربة قرامطة زكرويه في شمال العراق وبادية الشام وبعض المدن الشامية، الفرصة للبيزنطيين، فأغاروا في سنة ٢٩٢ هـ على الثغور الشامية في مائة ألف جندي، وعاثوا في كثير من المدن مثل الحنْدَث ؛ فخرج إليهم المسلمون من طرسوس، وفتحوا أنطاكية الحصينة التي يقول ابن الأثير<sup>(٢)</sup> إنها تشبه القسطنطينية، ويقول باقوت إنها من أشهر بلاد الروم على ساحل البحر، وقتلوا خمسة آلاف من أهلها وأسروا مثلهم وأتخذوا أسرى المسلمين فيها، كما استولوا على ستين مركباً، وغنموا ما فيها من الأموال والمتاع والرقيق . وكانت غنائم المسلمين من الكثرة بحيث بلغ نصيب كل منهم ألف دينار . كما بلغ المسلمون قونية في سنة ٢٩٤ هـ وخربوها، واضطر إمبراطور الروم إلى طلب الصلح وتبادل الأسرى بين الفريقين<sup>(٣)</sup> .

وقد اتخذ البيزنطيون من ثورة الحسين بن حمدان على بنى بويه فرصة للإغارة على الثغور الجزرية، فقصدوا حصن منصور سنة ٣٠٣ هـ وسبوا من كان فيه، كما أوقفوا بجند المسلمين في طرسوس وعاثوا فساداً بمرعش<sup>(٤)</sup> . وسار القائد مؤنس في السنة التالية إلى ملطية وفتح كثيراً من حصون الروم . وكان من أثر هذا الانتصار المؤزر الذي أحرزه مؤنس على الروم أن خلع عليه الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) . وقد اضطر الروم إلى طلب المهادنة من المسلمين (سنة ٣٠٥ هـ) . ويقول ابن الأثير<sup>(٥)</sup> إن إمبراطور الروم أرسل إلى المقتدر رسولين يطلبان المهادنة والقداء، فأكرما إكراماً كثيراً، وأدخلاهما على الوزير وهو في أكمل أبهة . وقد صف الأجناد بالسلاح والزينة التامة وأديا الرسالة إليه . ثم إنهما دخلا على المقتدر وقد جلس لهما، واصطف الأجناد بالسلاح والزينة التامة، وأديا الرسالة، فأجابهما المقتدر إلى ما طلب ملك الروم من القداء، وسير مؤنسا الخادم ليحضر القداء، وجعله أميراً على كل بلد يدخله يتصرف فيه على ما يريد إلى أن يخرج عنه . وسير معه جمعاً من الجنود، وأطلق لهم أرزاقاً واسعة . وأنفذ معه مائة ألف وعشرين ألف دينار لقداء أسارى المسلمين . وسار مؤنس والرسول، وكان القداء على يد مؤنس .

(٢) ج ٧ ص ١٩٠

(٤) المصدر نفسه ج ٨ ص ٣٣

(١) ج ٧ ص ١٤٧

(٣) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٩٧

(٥) ج ٨ ص ٣٧ .

ولا شك أن البيزنطيين وقفوا على مبلغ الضعف الذي حل بالدولة العباسية في عهد المقتدر، الذي عجز عن إمداد الثغور بالرجال والعتاد، حتى إن الامبراطور قسطنطين السابع (٢٩٩ - ٣٤٨ هـ = ٩١١ - ٩٥٩ م) أرسل إلى أهل الثغور يرسم لهم أداء الخراج إليه ويقول: إن فعلتم ذلك طائعين وإلا فصدتكم، فقد صح عندي ضعفكم<sup>(١)</sup>. وكان من أثر ذلك أن دخل الروم ملطية بعد أن فر أهلها إلى بغداد واستغاثوا بالخليفة (سنة ٣١٣ هـ).

ولم تكن حالة الدولة العباسية في عهد إمرة الأمراء (٣٢٤ - ٣٣٤ هـ) أقل سوءاً واضطراباً بسبب تنافس الأمراء على السلطة والثغور. وقد أدرك البيزنطيون هذا الضعف، فطمعوا في الإغارة على بلاد الدولة العباسية المجاورة لهم. ففي سنة ٣٣٠ هـ أوغل البيزنطيون في هذه البلاد حتى وصلوا إلى حلب وعاثوا فيها. وقابل المسلمون في طرسوس هذا العمل بإغارتهم على أراضي البيزنطيين في آسيا الصغرى وأمر كثير من قوادهم<sup>(٢)</sup>. وقد وصلت جيوش الروم في السنة التالية إلى أرزن وميفارقين ونصيبين، فنهبوا وسبوا أهلها وبلغوا دارا بين نصيبين وماردين<sup>(٣)</sup>، وطلبوا مندبلاً في كنيسة الرها يزعمون أن المسيح مسح به وجهه فارتسمت صورته فيه، على أن يطلقوا جميع من سبوا، فأرسل إليهم وأطلق الأسرى<sup>(٤)</sup>. كما استولى البيزنطيون في السنة التالية على مدينة رأس عين، فأخذوا جميع ما كان فيها ونهبوها، ووجدوا فيها قوافل مصعدة ومنحدرة، فيها أمتعة لا يدرى قيمتها، فأخذت كلها، ونال المسلمين ما لم يتلهم مثله قط: فلما أراد العدو الرحيل أحرق البلد<sup>(٥)</sup>.

#### عمارة الإخشيديين بالبيزنطيين:

وكان لأمراء العباسيين في مصر نصيب كبير في العلاقات التي قامت بين العباسيين والبيزنطيين: فقد كان أحمد بن طولون وابنه خمارويه من بعده شحى في حلق هؤلاء البيزنطيين. ولم يكن محمد بن طغج الإخشيد (٣٢٣ - ٣٣٤ هـ) أقل خطراً على البيزنطيين من الطولونيين. نعم! كان الإخشيد مصدر فزع للامبراطورية البيزنطية، حتى إن الامبراطور رومانوس تودد إليه ومدحه وكتبه دون الخليفة على غير ماجرت به العادة في ذلك الوقت، وأرسل إليه كتاباً مع رسولين من قبله يطلب تبادل الأسرى؛ فرد عليه الإخشيد بكتاب طويل يدل على ثقته بنفسه وإقراره بالتبعية للخليفة العباسي، ثم ببسط اتساع رقعة البلاد التي تدب له بالطاعة. وهاك طرفاً من هذا الكتاب الذي يعد بحق وثيقة تاريخية على جانب عظيم من الأهمية في تاريخ العلاقات السياسية بين المسلمين والبيزنطيين ننقله عن القلقشندي<sup>(٦)</sup>:

(١) مسكويه: تجارب الأمم ج ١ ص ١٤٦

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ١٣٩

(٣) الصولي: أخبار الرضا بالله والمنقحة ص ٢٣٢ - ٢٣٣

(٤) السيوطي: أخبار الخلفاء ص ٢٦٢

(٥) الصولي ص ٢٥١

(٦) صبح الأعشى في صناعة الإنشا ج ٧ ص ١٠ - ١٨

وكتب محمد بن طنج (صاحب الديار المصرية) وما معها من البلاد الشامية والأعمال الحجازية، إلى أرماتوس، ملك الروم: من محمد بن طنج مولى أمير المؤمنين، إلى أرماتوس عظيم الروم ومن يليه . . .

أما بعد، فقد تُرجم لنا كتابك الوارد مع نقولا وإسحق رسوليك؛ فوجدناه مفتوحاً بذكر فضيلة الرحمة، وما نعى عنا إليك وصح من شيعتنا فينا لديك، وبما نحن عليه من المعدلة وحسن السيرة في رعايانا، وما وصلت به من هذا القول من ذكر الفداء والتوصل إلى تخلص الأسرى إلى [غير ذلك مما اشتمل عليه وتفهمناه . . .

وإنك إنما خصصتنا بالمكاتبة لما تحققته من حالنا عندك؛ فإن ذلك لو كان حقاً وكانت منزلتنا كما ذكرته تقصر عن منزلة من تكاتبه، وكان لك في ترك مكاتبتنا عثم ورشد، لكان من الأمر البين أن أحظى وأرشد وأولى بمن حل محلك أن يعمل بما فيه صلاح رعيته، ولا يراه وصمة ولا نقیصة ولا عيباً، ولا يقع في معاناة صغيرة من الأمور تعقبها كبيرة. فإن السائس الفاضل قد يركب الأخطار ويخوض الغمار، ويعرض مهجته فيما ينفع رعيته. والذي تحشمته من مكاتبتنا، إن كان كما وصفته، فهو أمر سهل يسير لأمر عظيم خطير، وجُل نفعه وصلاحه وعائده تحشمكم، لأن مذهبنا انتظار إحدى الحسينين؛ فمن كان منا في أيديكم فهو على بينة من ربه وعزيمة صادقة من أمره وبصيرة فيما هو بسيله، وإن في الأسارى من يؤثر مكانه من ضنك الأسر وشدة البأس. على نعيم الدنيا وخيرها لحسن منقلبته وحيد عاقبته، ويعلم أن الله تعالى قد أعاده من أن يفتنه<sup>(١)</sup> ولم يعده<sup>(٢)</sup> من أن يبتليه. هذا إلى أوامر الإنجيل الذي هو إمامكم، وما توجه عليكم عزائم سياستكم والتوصل إلى استنقاذ أسرائلكم. ولولا أن إيضاح القول في الصواب أولى بنا من المساحة في الجواب، لأضربنا عن ذلك صفحاً، إذ رأينا أن نفس السبب الذي من أجله سما إلى مكاتبة الخلفاء عليهم السلام من كاتبهم أو عدا عنهم إلى من حل محلنا في دولتهم، بل إلى من نزل عن مرتبتنا، هو أنه لم يثق من منعه ورد مُلتمسه من جاوره، فرأى أن يقصد به الخلفاء الذين الشرف كله في إجابتهم، ولا عار على أحد وإن جل قدره في ردهم. ومن وثق في نفسه من جاوره، وجد قصده أسهل السبيلين عليه وأدناهما إلى إرادته حسب ما تقدم. وكذلك كاتب من حل محلك من قصر عن محلنا ولم يقرب من منزلتنا. فما لكنا عدة، كان يتقلد في سالف الدهر كل مملكة منها ملك عظيم الشأن<sup>(٣)</sup> . . .

وأما الفداء ورأيتك في تخلص الأسرى، فإننا وإن كنا وانقين لمن في أيديكم بإحدى الحسينين، وعلى بينة لهم من أمرهم، وثبات من حسن العاقبة وعظم الثوبة، عالمين بما لهم، فإن فيهم من يؤثر

(١) يعني يبتليه بأمر على سبيل المحنة والتمحيص

(٢) يحفظه

(٣) ورد في هذا الكتاب أن سلطان الأخشيدي شمل ما كان يسمى قديماً ملك مصر، وممالك اليمن، وأجناد الشام التي منها جند حمص، وجند دمشق، وجند الأردن، وجند فلسطين، وما يتقلده من أمر مكة والمدينة، وأن سياسته لهذه البلاد كانت ترمى إلى تأليف قلوب الرعية وجمعهم على الطاعة وإقرار الأمن والدعة في المدينة وكسبها المودة والمحبة — صبيح الأعشى ج ٧ ص ١٣ — ١٤ .

مكانه من ضنك الأسر وشدة البأساء على نعيم الدنيا ولذتها ، سكوننا إلى ما يتحققه من حسن المنقلب  
وجزيل الثواب ، ويعلم أن الله قد أعاده من أن يفته ولم يعذه من أن يتلبه . وقد تبينا مع ذلك في  
هذا الباب ما شرعه لنا الأئمة الماضون والسلف الصالحون ، فوجدنا ذلك موافقاً لما التمسته وغير  
خارج عما أحببته : فسررنا بما تيسر منه ، وبعثنا الكتب والرسل إلى عمالنا في سائر أعمالنا ،  
وعزمتنا عليهم في جمع كل من قبلهم وأتباعهم بما وفر الإيمان في إنفاذهم ، وبذلنا في ذلك كل ممكن ،  
وأخرجنا إيجابك عن كتابك ليتقدم فعلنا قولنا ، وإنجازنا وعدنا ، ويوشك أن يكون قد ظهر لك  
من ذلك ما وقع أحسن الموقع منك إن شاء الله . . .

والحمد لله أحق ما ابتدئ به وختمت بذكره ، وصلى الله على محمد نبي الهدى والرحمة ، وعلى آله  
وسلم تسليماً . . .

### (ج) منه المطبع الى القائم ( ٣٣٤ - ٤٢٢ هـ ) :

وكذلك كانت بلاد الحمدانيين مسرحاً للزراع بين البيزنطيين والمسلمين . فقد امتاز عهد سيف الدولة  
بكثرة حروبه مع البيزنطيين ، حتى قبل إنه غزا بلادهم أربعين غزوة ، انتصر في بعضها وهزم في بعض  
آخر (١) . ففي سنة ٣٢٩ هـ غزا سيف الدولة بلاد الروم وبلغ قيسارية ، ثم بم شطر سمندو في  
أواسط آسيا الصغرى ، فهرب الدمستق فقال المنفي :

رضينا والدمستق (٢) غير راض بما حكم القواضب والوشيج (٣)  
فان يُقَدِّم فقد زرنا سمندو وإن يُحجم فوعدنا الخليج (٤)

قصد سيف الدولة بعد ذلك مدينة صارخة على مسيرة سبعة أيام من القسطنطينية ، وأوقع بجيش  
الدمستق ، وأقام المنابر وخُطب له فيها . وكانت غزوة صارخة من أشهر الغزوات التي انعقد فيها لواء  
النصر لسيف الدولة على الروم ؛ وفيها يقول أبو المحاسن (٥) : فلما نزل عليها واقع الدمستق مقدمته  
فظهرت عليه ؛ فلجأ إلى الحصن ، وخاف على نفسه ، ثم جمع والتقى بسيف الدولة ، فهزمه الله أفبح  
هزيمة ، وأسرت بطارقتيه . وكانت غزوة مشهورة ، وغنم المسلمون ما لا يوصف ، وبقوا في  
الغزو أشهراً . . .

ويقول المنفي :

مُخْلِى له المرج منصوبا بصارخة له المنابر مشهوداً بها الجُمع  
وفي سنة ٣٤٢ هـ عادت الحرب بين سيف الدولة وبين الروم سيرتها الأولى ، وأمر قسطنطين

(١) أنظر هذا الكتاب ص ٢١١ - ٢١٢ ، ٢١٧ .

(٢) الدمستق اسم الملك الروم

(٣) الوشيج شجر الرياح أي بما حكمت به الرياح

(٤) يقصد خليج القسطنطينية

(٥) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٠٣

ابن الدمستق الذي ساقه سيف الدولة إلى حلب حيث بقي عنده حتى مات (١). وقد قابل الروم هذا العمل بغزو البلاد الإسلامية حتى بلغوا طرسوس في سنة ٣٤٨ هـ ، وخرّبوا حصن الهارونية الذي بناه هارون الرشيد على مقربة من مرعش ، ثم توجهوا إلى ديار بكر ووصلوا إلى ميفارقين ، وعاثوا في بلاد الحمدانيين والعباسيين ، وأوقفوا الفرع في قلوب الأهلين ، حتى إن الخطيب عبد الرحيم بن تباة أنشأ هذا النوع من الخطب التي أطلق عليها الخطب الجهادية لإثارة حماس المسلمين وحثهم على الجهاد (٢).

ولم تكن الدولة العباسية في عهد بني بويه أحسن حالا منها في عهد نفوذ الأتراك وعهد إمرة الأمراء . فقد استبدوا بالسلطة دون الخلفاء ، وقامت المنافسة بين أفراد البيت البويهي ، مما أطمع البيزنطيين في الدولة العباسية . ويحدثنا مسكويه (٣) أن القائد نقفور فوكاس Nicephorus Phocas استولى على جزيرة كريت سنة ٣٥٠ هـ ، وبعد ذلك بقليل ، انتصر على سيف الدولة الحمداني ، ثم استولى في السنة التالية على كثير من مدائن الأناضول مثل مرعش ودييق . وبالقرب من منبج أسر أمير هذه المدينة أبو فراس الحمداني الشاعر المشهور . ثم استولى نقفور على مدينة حلب حاضرة الحمدانيين بعد حصار شاق (٤) . وقد قيل إن جيش الروم بلغ مائتي ألف مقاتل . ويقول أبو المحاسن (٥) : عاد الدمستق إلى حلب ، فخرج إليه سيف الدولة بغير استعداد وحرابه ، فخاربه الدمستق بمائتي ألف مقاتل ، فانهزم سيف الدولة في نهر سير . وكانت داره بظاهر حلب ، فزها الدمستق وأخذ منها ثمانمائة وتسعين بدره دراهم ، وأخذ منها ألفا وأربعمائة بغل ، ومن السلاح ما لا يحصى . ثم نهبها الدمستق وأحرقها ثم أحرق بلاد حلب . وقاتله أهل حلب من وراء السور فقتلوا جماعة من الروم ، فسقطت قائمة من السور على جماعة من أهل حلب فقتلتهم ، فأكب الروم على تلك الثلة وقاتلوا حتى ملكوا حلب ووضعوا فيها السيف حتى كلوا وملوا ، وأخربوا الجامع وأحرقوا ما عجزوا عن حمله . ولم ينج إلا من سعد القلعة ، فألح ابن أخت الملك في أخذ القلعة فقتل بعجر . وكان عند الدمستق ألف ومائتا أسير من أهل حلب فضرب أعناقهم . ثم عاد إلى الروم ولم يعرض لأهل القرى وقال لهم : ازرعوا فهذا بلدنا ، وعن قليل نعود إليكم .

وكان لسقوط حلب في يد الروم أثر بالغ في نفوس المسلمين عامة وفي نفوس أهل بغداد خاصة ، حتى إنهم اجتمعوا وبنحوا الخليفة المطيع لله بكائنه حلب ، وطلبوا منه أن يخرج بنفسه إلى الغزو وبأخذ بثأر أهل حلب ، (٦).

وبعد موت رومانوس Romanus رابع أباطرة الدولة البيزنطية من سلالة باسيل في شهر صفر

- (١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣١٩  
(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٣٢٢  
(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١٩٥ ، ١٩٨  
(٤) تجارب الأمم ج ٢ ص ١٩٢ ، ٢٢٠  
(٥) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٢٢  
(٦) المصدر نفسه ج ٣ ص ٣٣٥



سنة ٣٥٢ هـ (مارس ٩٦٣ م) ، تزوجت أرملة تيوفونيا Theophonia من نففور فوكاس<sup>(١)</sup> (٩٦٣ - ٩٦٩ م) ثم من قاتله جون زيمسكيس John Tzmiscas<sup>(٢)</sup> (٩٦٩ - ٩٧٦ م) بطلى ذلك العصر ، واليهما آلت الوصاية على أولادها الصغار . وامتدت غزوات هذين الامبراطورين من تلال كبادوكيا Cappadocia إلى صحراء بغداد . والانتفاضة سنة التي تولى فيها هذان الرجلان قيادة الجيوش البيزنطية تعتبر بحق من أبهى عصور الإمبراطورية البيزنطية وأزهاها<sup>(٣)</sup> .

وفي سنة ٣٥٤ هـ ( ٩٦٤ م ) تقدم البيزنطيون إلى حدود سورية ، ووقعت في أيديهم مدينتا المصيصة وطرسوس ( سنة ٣٥٥ هـ ) بعد أن نال منهما القحط والموت حتى إنهما لم تقويا على مواصلة الدفاع . ولم يبلغ قط إخضاع العرب وإذلالهم في وقت من الأوقات مثلما بلغه في عهد نففور فوكاس . فقد انتزعت من أيديهم كيليكيا التي تقع شمالي زاوية خليج إسكندرونة ، وتعرف عند العرب بقالقلا ، كما انتزع جزء من بلاد سورية ، واعترف قمم كبير من بلاد الدولة العباسية بالتبعية للإمبراطورية البيزنطية<sup>(٤)</sup> .

والواقع أن هذا الانتصار يرجع إلى كثرة الفتن والاضطرابات في بلاد الشام . فان الفاطميين استولوا على دمشق على أثر فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ ، وقامت الحرب بسبب ذلك بينهم وبين القرامطة بمساعدة البويهيين . ثم تجدد النزاع بين الفاطميين في عهد العزيز من جهة وبين القرامطة وأفتكين التركي من جهة أخرى ، فانخذ البيزنطيون من هذه الاضطرابات فرصة سانحة لشن غاراتهم على هذه البلاد .

وكان عبور الفرات في الجهات الواقعة جنوبي جبال طوروس مستحيلا على الإغريق منذ أيام هرقل ( ٦١٠ - ٦٤١ م ) . ولكن زيمسكيس استطاع أن يكسح كثيرا من المدن العريقة في الشهرة ، مثل الرها وديار بكر وميافارقين ونصيبين الواقعة عند حد الإمبراطورية القديم على مقربة من نهر

(١) يقول أبو المحاسن ( ج ٤ ص ٥٦ - ٥٧ ) إن نففور « لم يكن أصله من أولاد ملوك الروم ، بل قيل إنه كان ولد رجل من أهل طرسوس يعرف بابن القفاس ، فتناصر وغلب على الملك . وكان شجاعا مدبرا سيوسا لم ير مثله من عهد اسكندر ذي القرنين . وهو الذي انتزع حلب وأخذها من سيف الدولة بن حمدان ؛ ولم يأخذ حلب أحد قبله من ملوك الروم ، فعظم بذلك في أعين ملوك الروم وماسكوه عليهم إلى أن قتل » . ويقول أبو المحاسن ( ج ٤ ص ٥٥ ) أيضا إن نففور « قد طغى ونجبر واهر العباد وملك البلاد ، وعظمت هيئته في قلوب الناس ، واشتغل عنه الملوك بأضدادهم ، فاستفحل أمر نففور بذلك . ثم تزوج نففور المذكور بامرأة الملك الذي كان قبله على كره منها ؛ وكان لها ولدان ، فأراد نففور أن يخصبها ويهديها لليعة ليسترخ منها لئلا يملك الروم في أيامه أو بعده . فعلمت زوجته أمهما بذلك ، فأرسلت إلى الدمشقي ليأتي إليها في زى النساء ومعه جماعة في زى النساء ، فجاءوا وباتوا عندها ليلة الميلاد ، فوثبوا عليه وقتلوه ، وأجلس في الملك بعده ولده الأكبر ، وتم لها ما أرادت » .

(٢) ويسميه مؤرخو العرب ابن الشمشيق .

(٣) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ١٠٠

Vasil' Ev. : Cambridge Mediaeval History , vol. IV. p. 145

ibid, pp. 146 - 7 (٤)

درجة. ولا غرو فقد كان زيمسكيس يفكر في إثارة حرب صليبية لانتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين؛ فسار نحو الرها، ثم عاد إلى بعلبك، واضطرت دمشق إلى التسليم ودفع الجزية له. كما سلت إليه طبرية وقيسارية، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الاستيلاء على بيت المقدس، لولا أنه وجد أن قواته لا تكفي لتحقيق هذا الغرض، فسار نحو الشمال، واستولى على المدن الساحلية مثل بيروت وصيدا وجبيل. ولكن الهزيمة حلت بجنده في طرابلس، ثم عادت الجيوش البيزنطية إلى أنطاكية، وعاد الإمبراطور نفسه إلى حاضرة ملكه حيث مات في ١٠ يناير سنة ٩٧٦ م (٨٣٦٦هـ)<sup>(١)</sup>.

وقد تفاقم رعب الناس بما أذاعه الغالة عن زيمسكيس وما كان يصحب ذكر اسمه من خوف وهلع، حتى إن الخليفة المطيع العباسي لم يتالك أن أعلن أن أسلحته وموارد دولته قد انتزعت من يده، وأنه لم يعد قادرا على الدفاع عن بغداد. ويقول مسكويه<sup>(٢)</sup>: إن المطيع أجاب بختيار حين طلب منه المال لمحاربة الروم في هذه العبارة: «إن الغزو يلزمني إذا كانت الدنيا في يدي وإلى تدبير الأموال والرجال. وأما الآن، وليس لي منها إلا القوات القاصر عن كفاي، وهي في أيديكم وأيدي أصحاب الأطراف، فما يلزمني غزو ولا حج ولا شيء. بما تنظر الأئمة فيه. وإنما لكم مني هذا الاسم الذي يخطب به على منابرهم تسكثون به رعاياكم. فان أحببتم أن اعتزلت عن هذا المقدار أيضا وتركتكم والأمر كله، وترددت المخاطبات في ذلك والمراسلات حتى خرجت إلى طرف من أطراف الوعيد، واضطر إلى التزام أربعمائة ألف درهم باع بها ثيابه وبعض أنقاض داره. وشاع الخبر ببغداد بين الخاص والعام وعند من ورد من حاج خراسان وغيرهم من الواردين على الأقطار أن الخليفة صودر وكثرت الشتاعات».

على أن مخاوف أهل بغداد قد تبددت بانسحاب البيزنطيين الذين لم يقووا على تحمل العطش والجوع في حربهم في الصحراء. وتبع ذلك قيام ورد بن منير السقلاروس Bardas Sclerus في الجهات الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ابتعا. الجلوس على العرش ومسيره بعد إخفاقه إلى بغداد طالبا النجدة من الخليفة العباسي الذي رحب به، وما تبع ذلك من توافد رسل الإمبراطور باسيل الثاني يطلبون تسليم برداس سكليروس. ويقول مسكويه<sup>(٣)</sup>:

«وكان ورد بن منير (السقلاروس) كبيرا من كبراء أصحاب الجيوش ومقيا في بعض الأعمال، فطمع في الأمر، وجمع الجوع واستجاش بالمسلمين من الثغور، وكاتب أبا تغلب بن حمدان وواصله وصاهره. وأخرج الملكان إليه عسكريا بعد عسكر فكسروهم واستظهر، وسار إلى القسطنطينية ودم الملكين ما ضاقا به ذرعا، فأطلقا ورديس بن لاون واصطنعاه واستحلفاه على المناصحة، وأنفذاه

(١) Ibid., p. 148. ومسكويه: تجارب الأمم ج ٢ ص ٣٠٣ - ٣٠٤، وابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٢

(٢) تجارب الأمم ج ٢ ص ٣٠٧ - ٣٠٨

(٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٣ - ١٤

للقاء ورد في الجيوش المكثيرة وجرت بينهما وقائع أبلى كل واحد منهما بلاء ظاهرا ، حتى تبارزا وتضاربا بالتوت (١) إلى أن وقعت خودهما عن رؤوسهما .

ثم انهزم ورد ، ودخل إلى بلاد الإسلام مقلولا ، وحصل بظاهر ميفارقين على نحو فرسخ منها ( وأبو علي الحسن بن علي التميمي الحاجب إذ ذاك بها ) ، وراسل عضد الدولة وأنفذ أخاه إليه ، فأحسن تقيته ووثق إليه بخطه وأعاد عليه بوعده جميل في إنجاده .

وتلاه رسول ملك الروم بلاطف عضد الدولة في أمره . فقوى في نفسه ترجيح جانب ملك الروم على ورد ، وبداه رأي في تدبير القبض عليه ، فكانت أبا علي التميمي بالتوصل إلى تحصيله ، فخرج أبو علي إليه بعد مرارة ترددت بينهما في الاجتماع ، وقبض عليه وعلى ولده وأخيه وجماعة من أصحابه ، وحملهم إلى ميفارقين ، ثم أنفذه إلى مدينة السلام .

وكان لإغاثة الفاطميين على حلب في سنة ٩٩٤ - ٩٩٥ م ( ٣٨٤ هـ ) أثره في علاقة البيزنطيين بالمسلمين . فقد طلب الحمدانيون النجدة من الإمبراطور باسيل الثاني ، الذي رحب بهذا الطلب على الرغم من اشتغاله بحرب البلغار الذين عرضوا لإمبراطوريته للخطر ، وقرر الذهاب بنفسه إلى المشرق ، ولا سيما أن أنطاكية قد تعرضت لحصار الفاطميين . ولهذا استطاع هذا الإمبراطور أن يخلص مدينة حلب حاضرة الحمدانيين ، كما استولى على حمص ، ولكنه اضطر بسبب عدم إحرازه النصر أمام أسوار طرابلس ، إلى العودة إلى بلاده لمحاربة البلغار . ولم تلبث الهزيمة أن حلت بجيوش البيزنطيين على مقربة من فامية (٢) . ومن ثم نجد باسيل الثاني يظهر في ميدان القتال في سورية من جديد ( سنة ٣٩٠ هـ = ٩٩٩ م ) في شيزر وحمص ، ولكن الهزيمة حلت به في طرابلس ثانية واضطر إلى العودة إلى القسطنطينية في سنة ٣٩٢ هـ (٣) .

### عمارة الفاطميين بالبيزنطيين :

أما علاقة الفاطميين بالدولة البيزنطية فإن الخليفة العزيز أرسل في سنة ٣٧٧ هـ حملة بحرية لغزو بلاد الروم ؛ غير أن هذه الحملة لم تحقق الغرض الذي أرسلت من أجله لاحتراق مراكبها . ثم قدم إلى مصر رسل إمبراطور الروم يحملون الهدايا إلى العزيز وطلبوا منه عقد الصلح ، فأجابهم إلى طلبهم واشترط عليهم عدة شروط أهمها :

- ١ - إطلاق سراح أسرى المسلمين في بلادهم .
- ٢ - الدعاء للخليفة الفاطمي بجامع القسطنطينية في خطبة الجمعة .
- ٣ - حل ما يطلبه الخليفة من أمتعة الروم .

(١) من اللات وهو الدق والسحق (٢) مدينة كبيرة وكورة من سواحل حمص ويقال لها أفامية

(٣) Vasil' Ev .: Cambridge Mediaeval History , Vol. Iv. pp. 147-8

انظر هذا الكتاب ص ٢١٧

٤ - عقد الهدنة بين الفريقين سبع سنين (١).

وقد علق ستانلي لينبول (٢) على هذا الصلح بقوله : « ويظهر أن العلاقات السياسية بين البيزنطيين والفاطميين كانت على شيء من الصفاء في أواخر خلافة العزيز بالله الفاطمي ، ودلل على هذا القول بأن إمبراطور الروم أهدى إلى العزيز هدية فيها ثمان وعشرون صينية من الفضة وأطباق محلاة بالذهب .

وكانت بلاد الشام التي كانت تابعة للفاطميين إذ ذاك مركزا للصراع بين هؤلاء وبين البيزنطيين ، فقد عمل الحاكم على منع البيزنطيين من التقدم جنوبا في هذه البلاد ، وأعد لذلك حملتين انتصرت إحداهما على البيزنطيين بحرا بالقرب من طبرية ، وانتصرت الأخرى برا بالقرب من فامية . ولما علم إمبراطور الروم بما حل بجيشه من الهزيمة أرسل رسولا من قبيله لمفاوضة الخليفة الفاطمي في الصلح ، فأعد الحاكم العدة لاستقبال هذا الرسول ، فأمر بتزيين القصر وتم الاتفاق بينهما على عقد صلح يقضى بوقف الحرب بين الفريقين عشر سنين (٣).

ولما ولي الخليفة الظاهر الفاطمي الخلافة عمل على استمرار العلاقات الودية مع البيزنطيين. ففي سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) عقدت الهدنة مع الإمبراطور قسطنطين الثامن ، وتقضى باقامة الخطبة للخليفة الفاطمي في مساجد بلاد الروم ، وإعادة بناء جامع القسطنطينية مقابل إعادة بناء كنيسة القيامة بيت المقدس التي كان الحاكم قد مهأها ، وترك الحرية للسليبين الذين تحولوا إلى الإسلام في عهد الحاكم بالعودة إلى دينهم القديم (٤).

وقد رمى البيزنطيون من وراء بناء مسجد للمسلمين في القسطنطينية إلى استقلال هذا المظهر الإسلامي في علاقاتهم بالدول الإسلامية ، فيخطبون للفاطميين تارة ، وللعباسيين تارة أخرى ، ويهدمون هذا المسجد تارة ويعيدون بناءه تارة أخرى ، تبعا للظروف والأحوال التي تلائم مصلحتهم ، ويهددون بذلك المسلمين إذا تعرضوا لكنيسة القيامة بيت المقدس .

ولكن على الرغم من عقد هذه الهدنة التي قامت على أساس حسن التفاهم بين الدولتين ، نجد الفاطميين يتقصون، وينضمون إلى أعداء الفاطميين ، ويغيرون على بلاد الشام . ويقول أبو الفدا (٥) « في سنة ٤٢٢ هـ سارت الروم ومعهم حسان بن مفرج الطائي ، وهو مسلم ، وكان قد هرب إليهم حين انهزم على الأردن من عسكر الظاهر العلوي ، فسار مع الروم إلى الشام وعلى رأس حسان المذكور علم فيه صليب ، ووصلوا إلى فامية فكبسوها وغنموا ما فيها وملكوا قلعها ، وأسروا وسبوا . »

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٥١ - ١٥٢

(٢) History of Egypt in the Middle Ages , pp. 147-8

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٩٢ ، Stanley Lane-Poole: History of Egypt in the Middle Ages , p. 136

(٥) المختصر في أخبار البعرج ج ٢ ص ١٥٨ .

(٤) المغربي: خطط ج ١ ص ٣٥٥

وكانت العلاقة بين الدولة الفاطمية والإمبراطورية البيزنطية في أوائل عهد المستنصر على شيء من الصفاء؛ ففي سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) تم الاتفاق بين الخليفة المستنصر والإمبراطور ميخائيل الرابع (١٠٣٤ - ١٠٤١ م) على أن يطلق الروم خمسة آلاف أسير ليتمكن من عمارة قنطرة التي كان قد خرّسها الحاكم في أيام خلافته؛ فأطلق الأسرى، وأرسل من عمّر قنطرة وأخرج ملك الروم عليها أموالاً جليلاً<sup>(١)</sup>. كما تم الاتفاق بين المستنصر والإمبراطور قسطنطين التاسع (١٠٤٢ - ١٠٥٤ م) في سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) الذي تعهد بأن يمدّه بالغلّال والأقوات لمقاومة المجاعة التي حلت بمصر في هذه السنة. غير أن هذا الإمبراطور توفي قبل تنفيذ هذا الإتفاق، وخلفته الإمبراطورة تيودورا (١٠٥٤ - ١٠٥٦ م)، فاشتترط لمعونة مصر شروطاً أهمها أن يتعهد الخليفة الفاطمي بمساعدتها إذا اعتدى على بلادها، فلم يوافق المستنصر على ذلك، واشتبك الفريقان في معارك برية كان النصر فيها حليف الفاطميين. ولكن أسطول البيزنطيين انتصر على الفاطميين في مياه الشام وأسر كثيراً من قوادمهم، فرأى المستنصر وقف القتال وطلب المهادنة، وأرسل في سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٧ م) إلى الإمبراطورة تيودورا القاضي أبا عبد الله القضاعي لتسوية الخلاف. بيد أن السياسة البيزنطية آثرت جانب السلاجقة. وهاك ما ذكره المقرئ (٢) عن محاولة المستنصر التقرب إلى البيزنطيين: «بعث الخليفة المستنصر بالله أبو تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله أبي الحسن عليّ إلى متملك الروم بقسطنطينية أن يحمل الغلال إلى مصر، فأطلق أربعاً مائة ألف أردب وعزم على حملها إلى مصر، فأدركه أجله ومات قبل ذلك، فقام في الملك بعده امرأة، وكتبت إلى المستنصر تسأله أن يكون عوناً لها ويمدّها بمساكر مصر إذا نار عليها أحد. فأبى أن يسعفها في طلبها، فجردت لذلك وعاقبت الغلال عن المسير إلى مصر. فحنق المستنصر وجهز العساكر وعلّمها مكين الدولة الحسن بن ملهم، وسارت إلى اللاذقية فحاربتها بسبب نقض الهدنة وإمساك الغلال عن الوصول إلى مصر، وأمدّها بالعساكر الكثيرة، ونودي في بلاد الشام بالغزو؛ فزال ابن ملهم قريباً من فامية وضابق أهلها، وجال في أعمال أنطاكية فسبي ونهب، فأخرج صاحب قسطنطينية ثمانين قطعة في البحر، فحاربها ابن ملهم عدة مرار، وكانت عليه وأسر هو وجماعة كثيرة في شهر ربيع الأول منها».

وبعد ذلك بقليل تفاقم خطر السلاجقة وهددوا أملاك الدولة البيزنطية من جهة أرمينية وعاثوا في شرق آسيا الصغرى، كما هددوا أملاك الفاطميين في بلاد الشام وعملوا على القضاء عليهم نهائياً. كما عمل كل من الفاطميين والسلاجقة على التقرب من البيزنطيين. وبما أورده ابن ميسر في حوادث سنة ٤٤٧ هـ عن رسالة القضاعي، نستطيع أن نقف على مدى الصراع الذي قام بين الفاطميين والسلاجقة وانحياز البيزنطيين إلى الأخيرين. يقول ابن ميسر (٣): «وفيها سير المستنصر فقبض على جميع ما في كنيسة القمامة. وسبب ذلك أن أبا عبد الله القضاعي كان قد توجه برسالة من مصر إلى قسطنطينية

(٢) خطط ج ١ ص ٣٣٥

(١) أبو الفدا ج ٢ ص ٦٢

(٣) أخبار مصر ص ٦ وما يليها.

فقدم إليها رسول طغرل بك يلتمس من ملكها أن يصلى رسوله في جامع قسطنطينية . فأذنت له بذلك ، فدخل وصلى بجامعها ، وخطب للخليفة القائم العباسي ( ٤٢٢ - ٤٤٦ ) ، فبعث القضاة بذلك إلى المستنصر ، فأخذ ما كان بهيئة . وكان هذا من الأسباب الموجبة للفساد بين المصريين والروم .

ولا غرو فقد كان السلاجقة يومئذ أشد خطراً على البيزنطيين من الفاطميين ، الذين ضاعت أملاكهم في المغرب وأصبحوا يعانون من الفتن والشدائد وندرة الأقوات ما جعلهم عاجزين عن مواصلة الغزو والفتح في بلاد الدولة البيزنطية . وكانت الخلافة العباسية في عهد القائم تسعى إلى القضاء على الفاطميين ، حتى إنها أرسلت في سنة ٤٤٣ هـ رسولا إلى المعز بن باديس في شمال إفريقيا يحمل إليه الخلع والعهد من قبل الخليفة العباسي ، فوقع هذا الرسول في أيدي الروم فحملوه إلى قسطنطينية ، وحمله هذا إلى المستنصر ، وشرط ألا يؤذيه ، فشهروه المستنصر بمصر على جمل ورده إلى الملك ، فلامه الملك قسطنطين ، واعتذر إلى القائم والمعز ورده إلى بغداد (١) .

وبعد ذلك بقليل نرى العباسيين يضاعفون جهودهم للقضاء على الفاطميين ، فيحثون البيزنطيين على انتزاع بلاد الشام منهم . وفي ذلك يقول المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي (٢) : « ورد من حين الروم نسخة كتابها ( بغداد ) إليها وتحملها على التجرد معها لأخذ المملكة العلوية لأولئك الانجاس الأقدار ، فيجعلون الشام من نصيب إخوانهم شياطين الروم الكفار . »

وكان من أثر انحياز البيزنطيين إلى جانب السلاجقة أن فسدت العلاقات بينهم وبين الفاطميين منذ ذلك الحين حتى قامت الحروب الصليبية . ويقول المقرئ (٣) : « فسدت من حينئذ ما بين الروم والمصريين حتى استولوا على بلاد الساحل كلها وحاصروا القاهرة . »

#### عملية الأمويين في الأندلس بالبيزنطيين :

رأبنا من قبل أن العباسيين عملوا في العصر العباسي الأول على مناوأة أعدائهم البيزنطيين والأمويين في الأندلس ، فتقربوا إلى أعدائهم الفرنجة . وخطب شرمان ود هارون الرشيد فأرسل إليه وفداً لتسهيل سبيل الحج إلى بيت المقدس ونشر التجارة بين البلدين وارتشاف العلوم من مواردها في الشرق . وقد رحب الرشيد بهذه الوفود وأرسل مفاتيح كنيسة بيت المقدس إلى شرمان الذي أصبح حامى المسيحية ، وتبذلت الهدايا بينهما (٤) .

بيد أنه في العصر العباسي الثاني ، نرى البيزنطيين يعملون على مخالفة الأمويين في الأندلس الذين اتسع نفوذهم وازداد خطرهم في عهد عبد الرحمن الناصر ( ٣٠٠ - ٣٥٠ ) ، لوقوف في وجه العباسيين أعداء البيزنطيين والأمويين جميعاً . ولذلك عمل الإمبراطور قسطنطين بروفير وچنيس

(١) العيني : عقد الجمان ، مخطوط ج ٢٠ ورقة ٨٥ .

(٢) السيرة المؤيدية : مخطوط بجامعة فؤاد الأول ورقة ١٤١ .

(٣) مخطوط ج ١ ص ٣٣٥ .

(٤) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السيامي والديني والثقافي والاجتماعي ج ٢ ص ١٨٣ - ١٨٤ .

Constantine VII Porphyrogenitus (٩١١ - ٩٥٩ م) على التحالف مع الناصر ، وأوفد في سنة ٩٣٦ (٩٤٧ - ٩٤٨ م) إلى البلاط الأموي بالأندلس سفارة تحمل كتاباً من الإمبراطور داخل صندوق من الفضة مغطى بالذهب وصفه المقرئ (١) في هذه العبارة فقال : إنه كان في ورق مصبوغ لونا سماوياً مكتوباً بالذهب بالخط الإغريقي ، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة أيضاً مكتوبة بفضة بخط إغريقي أيضاً فيها وصف هديته التي أرسل بها وعددها . وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل ، على الوجه الواحد منه صورة المسيح ، وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده . وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملون البديع . وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج . وكان في ترجمة عنوان الكتاب في سطر منه قسطنطين (٩١١ - ٩٥٩ م) ورومانين (٩١٩ - ٩٤٤ م) (٢) المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم ، وفي سطر آخر العظيم الاستحقاق الفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة ، الحاكم على العرب بالأندلس أطال الله بقاءه .

وقد اهتم عبد الرحمن الناصر باستقبال هذا الوفد استقبالا عظيماً . وكان يرى من وراء ذلك ، وأن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه لتذكر جلالته مقعده وعظيم سلطانه وتصف ماتمياً من توطيد الخلافة في دولته ، (٣) . وقد وصف ابن خلدون (٤) هذا الاحتفال في هذه العبارة فقال : « واحتفل الناصر للقاءهم في يوم مشهود ، وركبت فيه العساكر بالسلاح في أكمل هيئة وزى ، وزين القصر الخلابي بأنواع الزينة وأصناف السطور . وجمعت السراير الخلابي بمقاعد الأبناء والإخوة والأعمام والقراة ، ورتب الوزراء والخدمة في مواقعهم ، ودخل الرسل فهاهم ما رأوا وقربوا حتى أدوا رسالتهم (٥) . وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا في ذلك المحفل ويعظموا أمر الإسلام والخلافة ، ويشكروا نعمة الله على ظهور دينه وإعزازة وذلة عدوه . فاستعدوا لذلك ، ثم بهرهم هول المجلس ، فوجوا وشرعوا في القول ، فأرتج عليهم . وكان فيهم أبو علي القالي وافد العراق ، كان في جملة الحكم ولي العهد ، وتنبه لذلك استثنائاً ، فعجز . فلما وجموا كلمهم ، قام منذر بن سعيد البلوطي من غير استعداد ولا روية ، ولا تقدم له أحد في ذلك بشيء ، فخطب وأسيحفر (٦) وجلى (٧) في ذلك القصد ، وأنشد آخره شعراً طويلاً ارتجله في ذلك الغرض ، ففاض بفخر ذلك المجلس ، وعجب الناس من شأنه أكثر من كل ما وقع ، وأعجب الناصر به وولاه القضاء بعدها ... ثم انصرف هؤلاء الرسل ، وبعث الناصر

(١) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ١٧٣

(٢) اغتصب العرش وأشرك معه ولديه اثنين وقسطنطين السابع

Charles Bémout et Gabriel Monod: Histoire de l' Europe au Moyen Age (Paris, 1921), p 273.

(٣) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٧٣ (٤) العبرج ج ٤ ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(٥) أنظر وصف الاحتفال في ابن هداري : البيان المغرب في أخبار المغرب ج ٢ ص ٢٢٩ .

(٦) بمعنى اتسع في الكلام (٧) بمعنى برز وسبق غيره في الميدان ، والمجلى الأول من خيل السباق .

له  
تأري  
رب  
كهم  
لفزو  
ميين،  
العهد  
إلى  
الملك  
طين  
حيز  
فاس  
ميين  
بين  
طين  
رسل  
من  
لمان  
الذين  
وجه  
يتأس

معهم هشام بن هذيل<sup>(١)</sup> ليجدد الهدنة<sup>(٢)</sup> ويؤكد المودة ويحسن الإجابة؛ ورجع بعد سنتين، وقد أحكم من ذلك ماشاء وجاءت معه رسل قسطنطين .

ولم تقف علاقة المودة بين الأمويين في الأندلس والبيزنطيين عند هذا الحد . فقد أمر الإمبراطور قسطنطين السابع بعمل قبلة للمسجد الجامع بقرطبة صنعت من الفسيفساء المذهب والملون . وقد وصفها الإدريسي الذي شاهدها بقوله: « قبلة يعجز الواصفين وصفها ، وفيها إنقان يهر العقول تنسيقها » . كما أهدى إليه كثيرا من الأعمدة التي استعملت في بناء مدينة الزهراء ، وأرسل إليه الراهب نيقولا Nicholas لترجمة الكتاب الطبي الذي كان قد أهداه إليه من اليونانية إلى اللاتينية ، على أن يتولى ابن شبروط ترجمته إلى العربية .

## ٢ - مع صقلية :

وكانت جزيرة صقلية مركزاً للصراع بين المسلمين والروم . ففي عهد الخليفة المعتمد العباسي قامت الحرب في هذه الجزيرة سنة ٢٦٨ هـ بين الروم في عهد الإمبراطور باسيل الأول (٨٦٧ - ٨٨٦ م) وبين المسلمين الذين حلت بهم الهزيمة أول الأمر ، ولكنهم لم يلبثوا أن انتصروا على أعدائهم<sup>(٣)</sup> ، وأرغموهم على طلب الهدنة في سنة ٢٧١ هـ<sup>(٤)</sup> .

ولما علم أهل هذه الجزيرة بتغلب أبي عبد الله الشيعي على إفريقية ، ناروا على واليهم من قبل الأغالبة وحبسوه وولوا على بن أبي الفوارس ، وكتبوا بذلك إلى أبي عبد الله فأقرهم على عملهم . ثم ولي عبيد الله المهدي الفاطمي ، على بن عمر البلوي هذه الجزيرة ، وحاول الخلفاء العباسيون ، على غير جدوى ، إعادتها إلى نفوذهم . ولم تكن الحالة في صقلية مستقرة تمام الاستقرار بسبب قيام الحروب بين المسلمين والروم من كل ناحية ، وبين بعض المسلمين وبعض من ناحية أخرى ، حتى إنهم كانوا يعزلون ولاتهم وبقيمون غيرهم دون أن يرجعوا إلى الخليفة الفاطمي .

أما من الناحية السياسية فقد حرصت الدولة الفاطمية على الاحتفاظ بنفوذها في صقلية لأسباب سياسية واقتصادية . فقد كانت هذه الدولة ترمي إلى إنشاء إمبراطورية عظيمة في البحر الأبيض المتوسط واتخاذ صقلية قاعدة لأسطولها لتأمين شر غارات الروم على سواحل إفريقية ، وتحقيق أطباعها في مصر وبلاد المغرب . وأما من الناحية الاقتصادية فقد وجد الفاطميون في صقلية أرضا مثمرة تدمم بالتفاح والبندق والجوز والقسطل ، ويكثر بها الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق وغيرها . فلما انقضت فتنة أبي يزيد محمد بن كيداد سنة ٣٣٦ هـ ، ولي الخليفة المنصور الفاطمي أبا الفنائم الحسن

(١) كان أحد وزراء الناصر ، وقد أوفده إلى قسطنطين يحمل إليه هدية من الخيول الأصيلة والأسلحة والملابس وغيرها .

(٢) ورد في المقرئ : بهدية حافلة بدل ليجدد الهدنة . وقد صححت بعض الألفاظ عن المقرئ الذي يظهر أنه نقلها عن النسخة الأصلية من كتاب ابن خلدون .

(٣) ابن الأثير ج ٧ ص ١٣٢ - ١٣٣

(٤) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٥٠



ابن أبي الحسين بن علي الكلابي<sup>(١)</sup> هذه الجزيرة، فجزا بلاد قلورية Calabria جنوبي إيطاليا، ثم تابع ولاية الفاطميين عليها إلى أوائل القرن الخامس الهجري، حيث ظلوا في نزاع متصل مع الروم الذين لم يبق بأيديهم سوى مدينة رامينا التي استولى عليها المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٥ م)، واضطر الإمبراطور نففور فوكاس (٩٦٣ - ٩٦٩ م) إلى عقد الصلح مع الخليفة الفاطمي بعد سنتين<sup>(٢)</sup>.

وفي سنة ٤١٦ هـ (١٠٢٥ م) استطاع الروم أن يطردوا المسلمين من قلورية، فحاول المعز بن باديس أمير إفريقية من قبل الفاطميين استرداد هذه البلاد، وأرسل أسطولاً يتألف من أربعمئة سفينة، ولكنه غرق بالقرب من سواحل إفريقية<sup>(٣)</sup>.

ولما ولي أحمد المعروف بالأكحل أمور صقلية جمع أهلها وقال لهم: «أحب أن أفرغكم من الإفريقيين الذين شاركوكم في بلادكم. والرأي لإخراجهم، فقالوا: قد صاهرناهم وصرنا شيئاً واحداً. ثم صرفهم وأرسل إلى الإفريقيين فقال لهم مثل ذلك، فأجابوه إلى ما أراد، فجمعهم حوله. فكان يحمي أملاكهم ويأخذ الخراج من أملاك أهل صقلية. فسار من أهل صقلية جماعة إلى المعز بن باديس وشكوا إليه ما حل بهم وقالوا: نحب أن نكون في طاعتك وإلا سلمنا البلاد إلى الروم، وذلك سنة سبع وعشرين وأربعمئة؛ فسير معهم ولده عبد الله في عسكر، فدخل المدينة وحصر الأكحل في الخالصة<sup>(٤)</sup>.

من ذلك تقف على مدى الانقسام الذي حل بالمسلمين في هذه الجزيرة، وكيف سهل ذلك على البيزنطيين التدخل في شئونها في عهد الإمبراطور ميخائيل الرابع (١٠٣٤ - ١٠٤١ م) الذي أرسل إليها حملتين: الأولى سنة ٤٢٩ (١٠٣٧ م)، لكنها لم تلق شيئاً من النجاح، والثانية في السنة التالية حيث أرسل القائد الشاب جورج منياكس George Maniaces الذي استولى على مسينا ومعظم البلاد الواقعة على الساحل الشرقي من الجزيرة. ولما عاد هذا القائد إلى القسطنطينية استرد المسلمون كل ما أخذه البيزنطيون سوى سرجوسة ومسينا<sup>(٥)</sup>.

ولكن أحوال صقلية لم تلبث أن اضطربت، وعاد جند المعز بن باديس إلى إفريقية، واستبد بكثير من النواحي أمراء ثار عليهم أهل الجزيرة، واستعان بعضهم بالفرنجية وسهلوا لهم الاستيلاء عليها. ولم يبق أسطول المعز بن باديس شيئاً في احتفاظ الفاطميين بهذه الجزيرة، وخلفه ابنه تميم ابن المعز بن باديس الذي أبطل ذكر الخليفة المستنصر الفاطمي من الخطبة سنة ٤٤٣ هـ، ونشر الدعوة للخليفة القائم العباسي<sup>(٦)</sup>. ولم يحل ذلك الأسطول الذي أرسله تميم بن المعز بن باديس إلى صقلية دون وقوع الخلاف بين أهالي الجزيرة وبين أمير إفريقية؛ واتخذ الروم، الذين كانوا يعملون على

(١) ورد هذا الاسم في ابن الأثير (ج ٨ ص ١٧٨) الحسن بن علي بن الحسين السكلي .

(٢) Cambridge Mediaeval History, vol. IV. p. 147.

(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ١٣٠ (٤) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٧٤ وما يليها .

(٥) Cambridge Mediaeval History, vol. IV. p. 150.

(٦) انظر الباب الخامس من هذا الكتاب ص ٢٦٥ ، ٣٥٧ .

الاستيلاء على جميع مدن الجزيرة ونغورها من هذا الضعف فرصة ، فضيقوا الخناق على المسلمين وحاصروهم في كل مكان حتى اضطروا إلى التسليم سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) ، واملك رودجر الزمندی جميع أرجاء جزيرة صقلية .

### ٣ - مع الدول الغربية في أوروبا :

استقرت أقدام العرب في إسبانيا وفي صقلية وغيرها من جزائر البحر الأبيض المتوسط كما تقدم ، وكذلك حاولوا الاستقرار على سواحل البحر المتوسط في إيطاليا وفرنسا ، واستطاعوا أن يؤسسوا إمارة مستقلة على سواحل إقليم بروقانس Lower Provence ، وازدادت قوتهم بما كانت تصل إليهم من الإمدادات من بلاد الأندلس وإفريقية وجزيرة صقلية ، وتمكنوا بذلك من إقامة المعاقل والحصون فوق المرتفعات المشرفة على خليج غريمو جنوبي إقليم بروقانس وفي غابة فراكسينت Fraxinet . ومن ثم أطلق على هذه الدولة العربية الدولة الفراكسينية . ولم يلبث هؤلاء العرب أن ألفوا سكنى الجبال والغابات والسير في الأدغال والأحراج . وبما ساعد على ازدياد قوتهم قيام النزاع بين أمراء الإقطاع المجاورين الذين كانوا يطلبون منهم مساعدة بعضهم على بعض .

ولم يكتف هؤلاء العرب بما بلغوه من قوة وما حازوه من ثروة ، بل اعتبروا أنفسهم سادة هذه البلاد وأصحاب النفوذ المطلق فيها ، واستطاعوا في خلال القرن العاشر الميلادي أن يهددوا تورينو ويحربوا بعض الأديرة وينتشروا في نواحي مونت فرات ويهدموا ويستقروا في سهول نهر الپو . ثم تقدموا في سنة ١٠٢٥ هـ (٩٣٥ م) إلى حدود ليجوريا Liguria ودخلوا مدينة جنوة ، ووقعت في أيديهم ممر جبال الألب الشاهقة ، وخاصة ممر سان برنار ، وفرضوا الضرائب على المسافرين .

ولم يقف نشاط العرب عند هذا الحد ، بل اجتازوا جبال الألب الشمالية ودخلوا سويسرا ، وامتد نفوذهم من شواطئ بحيرة كينستانس شمالا إلى جنوة ومرسيليا ونيس جنوبا ، وعملوا على نشر الإسلام في هذه الجهات ، حتى إننا لا نزال نرى اسم الحى العربي Canton de Sarazins في أحد أحياء مدينة نيس .

على أن نفوذ هؤلاء العرب لم يلبث أن أخذ في الضعف حول منتصف القرن الرابع الهجري ، بعد أن دانت هذه البلاد لسلطانهم زهاء سبعين سنة (١) .

وقد عمل ملك بروقانس على طرد عرب الفراكسينت من بلاده ، فاستعان بأوتو الأكبر

(١) وكان أم هذه الحصون الحصن المسمى Fraxinatum بقربة جارد فرينيه Garde - Frainet التي تقع الآن في سفح الجبل من الناحية الشرقية بمقاطعة بروقانس جنوبي فرنسا ( انظر شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٦٢ ، ١٦٤ ) . ويسمى الاصطخرى هذا الموقع جبل القلال . وقد وصفه في هذه العبارة فقال : « وأما جبل القلال فإنه كان جبلا خرابا وفيه ماء وأرض ، فوقع إليه قوم من المسلمين فعمروه وتاروا في وجوه الافرنجة لا يقدر عليهم لامتناع مواضعهم ، ومقداره في الطول يومان » .

شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٦٤ - ١٦٥ ، ١٦٦ - ١٧٠

Otto the Great (٩٣٦ — ٩٧٣ م) ، إمبراطور ألمانيا الذي أصبح في سنة ٩٦٢ م إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة ، على الحد من نفوذ عرب مملكة الفراكسينت بإمبراطور الدولة البيزنطية الذي أمده بأسطول ، وكاد يقضى على نفوذ العرب في بلاده لولا أن ثار عليه أحد خصومه في إيطاليا ، وخشى أن يصل إليه عدوه عن طريق ممر الألب التي كانت في حوزة العرب . ولذلك هادن هؤلاء العرب على أن يسدوا هذه المار في وجه عدوه . واعتقد أوتو الأكبر أن عبدالرحمن الناصر الأموي بالأندلس كان يساعد العرب في نشر فتوحهم ؛ فأرسل إليه سفارة للعمل على وقف غارات هؤلاء العرب . ويقول بعض المؤرخين إن عبد الرحمن الناصر كان قد أرسل إلى أوتو سفراء لإنشاء علاقات سياسية بين الدولتين ، وإنه أرسل إليه كثيراً من الهدايا . وكانت هذه السفارة برئاسة أحد الأساقفة المستعربين في الأندلس ، وأن هذا الكتاب دون باللغة العربية ، وكان يحتوي على بعض عبارات فيها نقاش حول التثليث . ولكن المنية وافت هذا الأسقف وهو في طريقه إلى أوتو . وقد قيل إن أوتو اعتبر العبارات التي حول فكرة التثليث إهانة لدينه ، فأهان هؤلاء المبعوثين وأساء معاملتهم وأبقاهم ببلادهم ثلاث سنين . وبعد قليل أرسل أوتو رسلاً إلى قرطبة لوقف غارات الفراكسينت العرب من ناحية ، ورد الإهانة التي وجهها المسلمون إليه من ناحية أخرى ، وعهد أوتو في رياسة هؤلاء الرسل إلى جان دي جورزا Jean de Gorza الذي وصل إلى قرطبة سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٦ م) . وعلم الخليفة الناصر بما اشتمل عليه كتاب أوتو وتعريضه بمحمد عليه الصلاة والسلام ، فأرسل إلى رئيس هؤلاء الرسل مطران قرطبة ينصح له بالعدول عن سب الرسول ، فلم يزد إلا اعتاداً ، وأخذ يوجه على تساهل مسيحي الأندلس مع المسلمين ، ومسايرتهم لهم في الختان والامتناع عن أكل الخنزير . وصمم الخليفة الناصر على إبقاء أعضاء السفارة تسع سنوات لثلاث سنوات كما فعل أوتو برجال سفارته من قبل ، وأرسل إلى إمبراطور ألمانيا كتاباً مع رجل مسيحي يسمى ريسمند ، يطلب فيه تغيير كتابه الأول . وقد نجح هذا الرسول في مهمته ، واستبدل أوتو كتابه بكتاب آخر وصل بعد ثمانية عشر شهراً من وصول كتابه الأول ، وكوفي هذا الرسول بتعيينه أسقفاً . وهنا مثل جورزا بين يدي الخليفة الناصر ، واصطفت الجند على جانبي الطريق التي مر فيها أعضاء هذه السفارة ، ووقف الصقالبة شاكى السلاح ، وفرشت ممرات قصر قرطبة بالهسط والديباج ، وجلس الخليفة في البهو الكبير . فتقدم الأسقف جورزا وقبل يده وجلس بجانبه ، وأخذ الناصر يثنى على الإمبراطور أوتو وعلى سعة عقله وكفايته ، لكنّه تعرض لاحدى نقائص الحكم في دولته لاعترافه بنفوذ حكمه الانقطاعيين ومشاركتهم إياه في حكم البلاد مما يثير في نفوسهم الغرور والميل لشق عصا طاعته (١)

وعلى الرغم من عدم تصدى المؤرخين لما كان لهذه السفارة من أثر ، لا يمنعنا ذلك من القول بأن بلاط الناصر كان محطاً لسفراء الدول ، كسفارة أوتو ملك الصقالبة في سنة ٩٤٥ م (٣٣٤ هـ) (٢) ،

(١) Dozy : The Moslems in Spain, p. 429. (٢) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٤

وسفراء حكام فرنسا (١). كما دخل عبد الرحمن الناصر في حلف مع ملك إيطاليا الذي آلمه تخريب الفاطميين لمدينة جنوة، كما حالف البيزنطيين الذين تطلّعوا إلى انتزاع جزيرة صقلية من الخليفة القائم الفاطمي (٢).

#### ٤ - مع الروس :

وقد تعرضت البلاد الإسلامية في الشرق لهجوم الروس . ففي سنة ٩٣٢ هـ (٩٤٣ - ٩٤٤ م) أغار جماعة من الروس الذين كانوا يقيمون شمال بلاد الخزر على أذربيجان واستولوا على قصبها برذعة (٣). وقد اشتهر الروس بقوة أبدانهم وشدة بأسهم ومهارتهم في الحرب . وقد وصفهم مسكويه (٤) في هذه العبارة فقال : « هؤلاء أمة عظيمة لهم خلاق عظام ، ولهم بأس شديد ، لا يعرفون الهزيمة ، ولا يولي الرجل منهم حتى يقتل أو يقتل . ومن عادة الواحد منهم أن يحمل آلة السلاح ويعلق على نفسه أكثر آلات الصنّاع من الفأس والمنشار والمطرقة وما أشبهها ، ويقاوم بالحربة وللزرس ، ويتقلد السيف ، ويعلق عليه عمودا وآلة كالدشنى ، ويقاومون رجالة لاسيا هؤلاء الواردين ،

وقد أوقع هؤلاء الروس الهزيمة بأمر أذربيجان ، وحاولوا أن يستميلوا الناس اليهم . فلما أبوا أن يجيبوهم إلى طلبهم ، عاثوا في بلادهم وقتلوا أهل برذعة عن آخرهم . ويقول ابن الأثير (٥) إن الروس نزّلوا برذعة ونادوا فيها بالأمان ، فأحسنوا السيرة وأقبلت العساكر الإسلامية من كل ناحية ، فكانت الروس تقاومهم فلا يثبت المساومون لهم . وكان عامة البلديخرجون وبرجون الروس بالحجارة ويصيحون بهم ، فينهام الروس عن ذلك ، فلم يذموا سوى العقلاء فاهم كفوا أنفسهم ، وسائر العامة والرعايا لا يضبطون أنفسهم . فلما طال ذلك عليهم نادى مناديهم بخروج أهل البلد منه ، وأن لا يقيموا بعد ثلاثة أيام ، فخرج من كان له ظهر يحمله وبقي أكثرهم بعد الأجل . فوضع الروسية فيهم السلاح ، فقتلوا منهم خلقا كثيرا وأسروا بعد القتل بضعة عشر ألف نفس ، وجمعوا من بقي بالجامع وقالوا : اشتروا أنفسكم وإلا قتلناكم . وسعى لهم إنسان نصراني فقرر عن كل رجل عشرين درهما ، فلم يقبل إلا عقلاؤهم . فلما رأى الروسية أنه لا يحصل منهم شيء ، قتلهم عن آخرهم ، ولم ينج منهم إلا الشديد ، وغنموا أموال أهلها ، واستعبدوا السبي واختاروا من النساء من استحسنتها ،

يتم الروس بعد ذلك صوب مراغة ، وعاثوا في البلاد ، فهاج المسلمون ذلك ودعوا للجهاد ، وأعد المرزبان بن محمد بن مسافر أمير أذربيجان جيشا لمحاربة العدو واستطاع أن يوقع بهم (٦) وهكذا كانت علاقات المسلمين بالروس عدائية ، كعلاقاتهم مع البيزنطيين والفرنجية وغيرهم .

Dozy : The Moslems in Spain, P. 434. (٣)

(١) ابن خلدون المبرج ٤ ص ١٤٣

(٢) أنظر لفظ برذعة في معجم البلدان لياقوت

(٤) ج ٨ ص ١٤٦

(٥) تجارب الأمم ج ٢ ص ٦٢

(٦) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٦٤ - ٦٧ ، Muir : The Caliphate, p. 475

الباب السابع  
نظم الحكم

يب  
اليفة

(م

صبتها

به (ك)

يعة ،

يعلق

لخرية

لاسيا

ان

وتس

كانت

يجون

لرعاع

ا بعد

اقتلوا

اشتروا

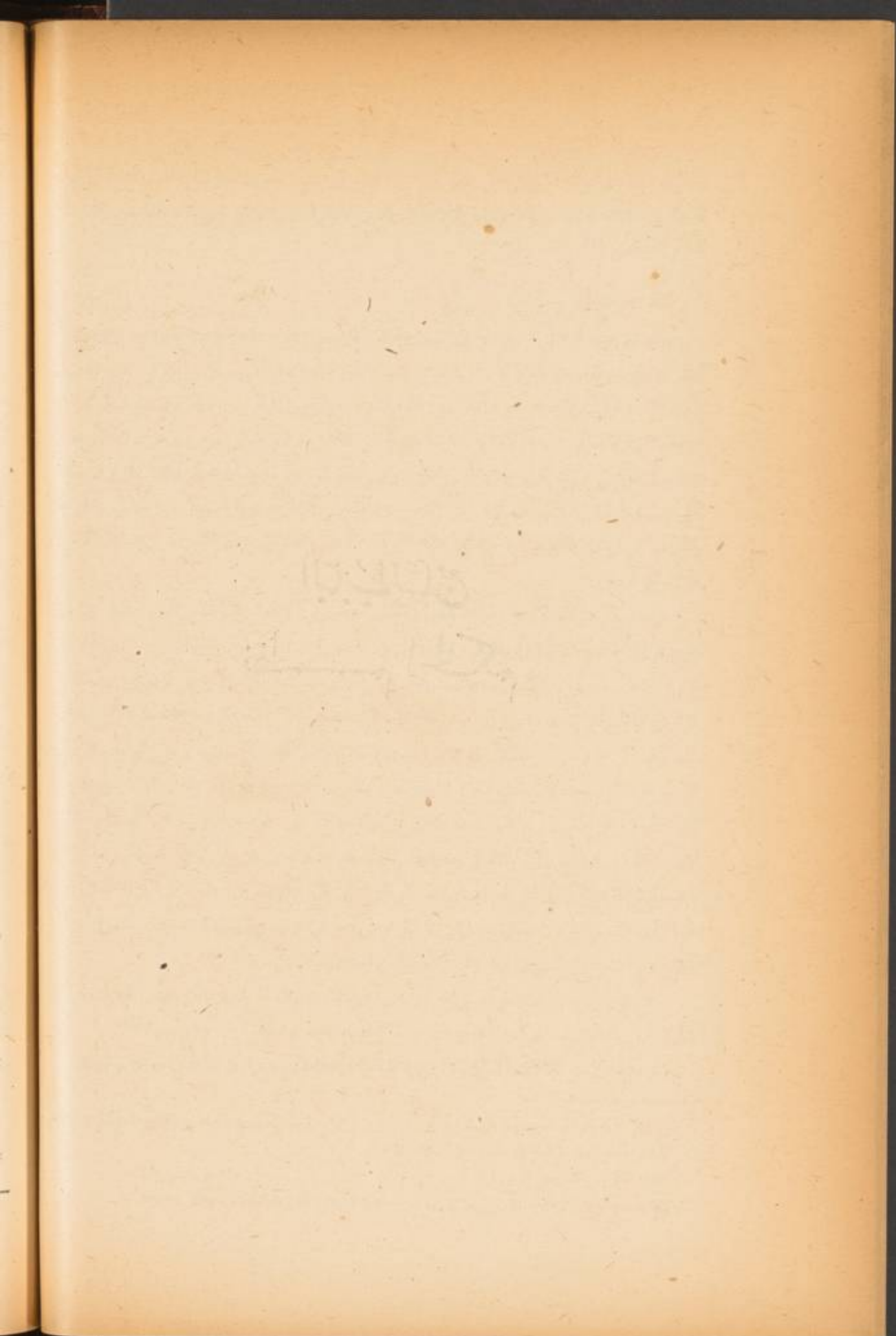
قزم

أموال

وأعد

هم

Dozy :



نمحيه :

يقصد بنظم الحكم الطريقة التي تدار بها الدولة . وتتكون هذه النظم من مجموعات القوانين والمبادئ . والتقاليد التي تقوم عليها في هذه الدولة . ومن هذه النظم : النظام السياسي : ويشمل الكلام على الخلافة من حيث كونها نظاما للحكم وما طرأ على هذا النظام من تطور ، كما يشمل الكلام على الوزارة التي يحمل صاحبها أعباء الحكومة ، والكتابة التي يتولى صاحبها مخاطبة الملوك والأمراء وغيرهم من موظفي الدولة ، والحجابه التي يشبه صاحبها كبير الأمناء . في أيامنا هذه . ومن هذه النظم أيضا النظام الإداري ، ونعني به إدارة الأقاليم وبيان سلطة الولاية فيها وتعدد دواوين الدولة من خراج ورسائل وطرز وغيره ، والبريد ، والشرطة ، والنظام الحربي وأسلحته وإمرته ، والبحرية الإسلامية ، والنظام المالي الذي يتناول موارد بيت المال من الخراج والضرائب وطرق الجباية ، والأوجه التي تصرف فيها الموارد ، والمصادر التي تنفق فيها أموال الدولة من رواتب الموظفين وأعطيات الجند وغيرهم . كما تشمل نظم الحكم النظام القضائي والطرق التي يلجأ إليها المتقاضون في دعاوى .

## ١ - النظام السياسي

### ١ - الخلافة العباسية في عصر نفوذ الأتراك ( ٢٣٢ - ٤٣٢ ) :

طبعت الخلافة في هذا العصر بطابع الوهن والضعف ، لزيادة نفوذ الأتراك في الدولة العباسية ، حتى أصبح خلفاء هذا العصر مسلوبون السلطة ضعيفي الإرادة ، بسبب تدخل هؤلاء الأتراك في شئون الدولة ، وتنصيب من يشاءون وعزل من يشاءون أو قتله أو سمل عينيه . كما طبغ هذا العصر أيضا بطابع تدخل النساء في شئون الدولة ، وكثرة تولية الوزراء وعزلهم ، وتولية العهد أكثر من واحد ، مما أدى إلى قيام المنافسة بين أمراء البيت الواحد .

وقد أدت تولية المتوكل ( ٢٣٢ - ٢٤٧ هـ ) أولاده الثلاثة : المنتصر والمعتز والمؤيد العهد ، وتقديم ابنه المعتز على المنتصر ، إلى اغتيال هذا الخليفة بيد ابنه المنتصر وتحريض الأتراك . ولا غرو فقد حاول بعض هؤلاء الأتراك اغتيال هذا الخليفة في دمشق من قبل ، ولكنهم لم يفلحوا ، فاتهزوا فرصة حتى المنتصر على أبيه وانضموا إليه وقتلوه ، فخلفه ابنه وقاتله على العرش . ولم يلبث أن عمل بتدبير الأتراك على إقصاء أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد ، إذ كانوا يخشون أن ينتقم هذان الأميران ، وخاصة المعتز ، منهم لقتل أبيهما المتوكل . (١)

وعلى الرغم من قصر عهد المنتصر ( ٢٤٧ - ٢٤٨ هـ ) أدى خوف هؤلاء الأتراك من أبناء المتوكل إلى تحويل الخلافة إلى أحد أبناء المعتصم ، فولوا أحمد بن محمد بن المعتصم ولقبوه المستعين

(١) - ٢٣٢ - ٢٤٧ هـ

(٢) - ٢٤٧ - ٢٤٨ هـ

(٣) - ٢٤٧ - ٢٤٨ هـ

(٤) الطبري ج ١١ ص ٧٥ - ٧٦

(٢٤٨-٥٢٥٢) (١). وفي عهده تفاقم نفوذ الأتراك، وعلى رأسهم بقا الكبير وبقا الصغير وأتامش وباغر. ولم يلبث بعض هؤلاء الأتراك الذين اجلسوا هذا الخليفة على العرش أن انقلبوا عليه، بسبب تواتر الإساءات بأنه عزم على الفتك بهم. ومن ثم قامت الفتن والحروب الأهلية. وفي ذلك يقول صاحب كتاب الفخرى (٢): «وكانت أيامه كثيرة الفتن ودولته شديدة الاضطراب». وانتهى الأمر بعزل المستعين وتولية المعتز بن المتوكل. ولم يكتف الأتراك بعزل المستعين ونفيه إلى واسط بل قتلوه. أما الخليفة الجديد فكان في أيدي الأتراك كالأسير، مسلوب السلطة مبهض الجانب؛ وكان بقاؤه في الحكم متوقفاً على رضا الأتراك الذين تغلغل نفوذهم في الدولة وتسلطوا على حياة الخلفاء. يدل على صحة هذا القول ما ذكره صاحب كتاب الفخرى (٣): «لما جلس المعتز على سرير الخلافة، قعد خواصه وأحضروا المنجمين وقالوا لهم: انظروا كم يعيش وكما يبقى في الخلافة! وكان في المجلس بعض الظرفاء فقال: أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته، فقالوا: فكيف تقول إنه يعيش وكما يملك؟ قال: مهما أراد الأتراك، فلم يبق في المجلس إلا من ضحك». (٤)

وقد باع من تفاقم نفوذ الأتراك وخوف الخلفاء من بطشهم أن كان المعتز لا يلتذ بالنوم ولا يخلع سلاحه لا في ليل ولا في نهار خوفاً من الأتراك وعلى رأسهم بقا الصغير (٥). وهذا يفسر لنا لماذا عمل المعتز على اصطناع المغاربة والفراغنة للتخلص من الأتراك الذين عمالوا بدورهم على التخلص منه وطالبره برواتبهم وثاروا في وجهه وقبضوا عليه وقتلوه بعد أن مثلوا به. (٦)

ثم ولى المهدي (٢٥٥-٥٢٥٦ هـ). وكان، كغيره من الخلفاء العباسيين، العوبة في أيدي هؤلاء الأتراك وخاصة موسى بن بقا. وعلى الرغم من أنه كان من أحسن الخلفاء العباسيين سيرة وأظهرهم ورعاً وأكثرهم عبادة حتى إنه تشبه بعمر بن الخطاب وجلس للمظالم، واستمعاته ببعضهم على بعض - على الرغم من هذا كله لم يستطع هذا الخليفة تنفيذ سياسته هذه، لأن أزمة الجيش كانت في أيدي الأتراك، ولانتقاض باكبك نصيره بالأمس عليه وانضمامه إلى موسى بن بقا. وسرعان ما أسر هذا الخليفة وخُلع وعذب حتى مات في شهر رجب سنة ٥٢٥٦ هـ. (٧)

أما الخليفة الجديد وهو المعتمد فقد اعتلى العرش على أيدي الأتراك الذين أخرجوه من الجوسق، الذي حبسه فيه المهدي. وكان - كما يقول السيوطي (٨) - «أول خليفة قهر وحجر عليه ووكل به». ولا غرو فقد شل أخوه أبو أحمد الموفق طلحة يده عن مباشرة أمور الدولة حتى أصبح مسلوب الإرادة. وكانت دولته دولة عجيبة الوضع. كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين في الخلافة: للمعتمد الخطبة والسكة والتسمى بإمرة المؤمنين، ولأخيه طلحة الأمر والنهي وقيادة

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٤٠ (٢) ص ٢٢٠ (٣) ص ٢٢١

(٤) أظن هذا الكتاب ص ٣٥ (٥) المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ٤٢٨

(٦) ابن الأثير ج ٧ ص ٨٣ - ٨٤

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٤٠

(٤) أظن هذا الكتاب ص ٣٥

(٦) أظن هذا الكتاب ص ٢٥ - ٢٦

(٨) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ص ٢٤٣



العساكر ومحاربة الإعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء. وكان المعتمد مشغولا عن ذلك بلذاته، (١)

ولم ير المعتمد بدا من مصانعة الأتراك، وخاصة قائدهم موسى بن بغا، الذي خلع عليه وضمه إلى ابنه المفوض، وقسم دولته بين ابنه جعفر وسماء المفوض وخصه بالبلاد الغربية وضم إليه موسى بن بغا لحكمها باسمه، وولى أخاه أبا أحمد طاحنة بعد ابنه المفوض، وسماه الموفق وخصه بالبلاد الشرقية. وبذلك ضعفت الخلافة في عهد المعتمد الذي أصبح مسلوب السلطة أمام أخيه الموفق والأتراك. ولما توفى الموفق في شهر صفر سنة ٢٧٨ هـ اجتمع النوادر من الأتراك وبايعوا ابنه أبا العباس بولاية العهد بعد المفوض بن المعتمد. ولكن هذا الخليفة لم يلبث أن بايع لأبي العباس ولقبه «المعتضد»، فولى الخلافة بعد وفاة عمه في سنة ٢٧٩ هـ. وفي عهده اتعشت الخلافة العباسية، وأحيا مدارس من أطلال الخلافة حتى أصبحت قوية مهيبة تخشاهما الدول، (٢). وكانت أيامه - كما يقول السيوطي (٣) - طيبة كثيرة الأمن والرخاء. وكان قد أسقط المكوس ونشر العدل ورفع الظلم عن الرعية، كما كان يسمى السفاح الثاني لأنه جدد ملك بني عباس، (٤)

مات المعتضد والمعتمد من قبله، مينة طبيعية بعكس الخلفاء الذين فنك بهم الأتراك. وقد آلت الخلافة من بعده إلى ابنه أبي محمد الذي تلقب «المسكتي بالله»، وأمه أم ولد تركية. وقد استوزر هذا الخليفة أبا القاسم بن وهب. ويروي الطبري (٥) أن هذا الوزير كان قد عمل على نقل الخلافة من يد المعتضد في حياته وأسر ذلك إلى بدر قائد الجيش. فلما مات المعتضد خشي هذا الوزير من افتضاح أمره، فأوغر صدر المسكتي على بدر ودبر مؤامرة انتهت باغتياله في فارس. وعلى الرغم مما اشتهر به المسكتي من التبذير، نشر العدل بين الرعية، فهدم المطامير التي اتخذها أبوه المعتضد وجعلها مساجد وأمر برد البساتين والحوانيت التي سلها أبوه من الناس.

وقد خلف المسكتي أخوه أبو الفضل جعفر بن المعتضد الذي تلقب «المقتدر» (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ). ويرجع السبب في اختياره إلى صغر سنه، إذ لم يتجاوز الثالثة عشرة، ليكون أساس قيادة. ولكن المقتدر لم يلبث أن خلع وبويع عبد الله بن المعتز ولقب «الغالب بالله»، إلا أن أتباع الخليفة المخلوع أعادوه إلى العرش. وكان عهد المقتدر عهد فتن وقلائل؛ فقد ترك النساء يتدخلن في أمور الدولة ويصرفن شئونها. فقد ذكر ابن الأثير (٦) أن هذا الخليفة اشتهر بعزل وزرائه والقبض عليهم، والرجوع إلى قول النساء والخدم والتصرف على مقتضى آرائهن. ولاغرو فقد أصبح الأمر والنهي يد أمه التي يطلق عليها المؤرخون اسم «السيدة»، إذ بلغ من ازدياد نفوذها أنها كانت إذا غضبت

(١) الفخرى ص ٢٢٦. أنظر هذا الكتاب ص ٤٠

(٢) حسن إبراهيم حسن، وعلى إبراهيم حسن: نظم الإسلام ص ٧٠ - ٧١

(٣) أنظر ص ٤٨

(٤) ج ١١ ص ٣٧٤ - ٣٧٥

(٥) تاريخ الخلفاء ص ٢٤٦

(٦) ج ١١ ص ٣٧٤ - ٣٧٥

هي أو قهرمانتها (١) من أحد الوزراء كان مصيره العزل ، اضطربت أحوال الدولة العباسية في عهد المقتدر ، نخرج عليه مؤنس الخادم أحمد القواد في سنة ٥٣١٧ هـ ، وأرغم الخليفة على الهرب ، وبأيع هو وغيره من الأمراء محمد بن المعتضد ولقبوه « القاهر بالله » . وطلب الجند أرزاقهم في الوقت الذي قامت فيه الاحتفالات بتقايد الخليفة الجديد الخلافة ، وحملوا المقتدر على أعناقهم وردوه إلى دار الخلافة ، وعزأوا القاهر ، فأخذ يبكي ويقول : الله الله في نفسي ، فاستدناه المقتدر وقبلة وقال له : يا أخى أنت والله لا ذنب لك ، والله لا أجرى عليك منى سوء أبدا ، فطب نفسا . (٢)

٢- الخليفة العباسي في عصر إمرة الأمراء (٣٢٤ - ٥٣٣٤ هـ) :

ازداد ضعف الخليفة العباسي منذ أوائل القرن الرابع الهجري ، لازدياد شوكة القواد من الأتراك وتفاقم خطر الدول المستقلة . فقد ازدادت شوكة علي بن بويه في فارس ، وأصبحت الري وأصبهان وبلاد الجبل في يد أخيه الحسن بن بويه ، كما استقل بنو حمدان بالموصل وديار بكر وديار ربيعة ومصر . أما مصر والشام فقد استقل بهما محمد بن طغج الإخشيد ، واستقل بخراسان نصير بن أحمد الساماني . ولم تكن الحالة في المغرب أحسن منها في المشرق . فقد أعلن عبد الرحمن الثالث الأموي بالأندلس (٣٠٠ - ٥٣٥٠ هـ) نفسه خليفة ، وتلقب بلقب أمير المؤمنين الناصر لدين الله ، وأصبح في العالم الإسلامي في ذلك الوقت ثلاث خلافات .

ولم يكن حظ القاهر (٣٢٠ - ٥٣٢٢ هـ) أقل سوءا من سبقه من الخلفاء العباسيين ، فقد انتشرت الفتن الداخلية في عهده ، وشغب الجند عليه ، وانفق كبار رجال دولته ، وعلى رأسهم قائده مؤنس ووزيره ابن مقله ، على خلعه فسلموه ، فسالت عيناه على خديه ، ثم حبس . وقد ساءت حاله حتى إنه خرج يوما يطلب الصدقة بجامع المنصور ، فأعطاه بعض الهاشميين خمسمائة درهم ، وأمر المستكني بحبسه ، فظل فيه حتى مات في عهد الطائع سنة ٥٣٣٩ هـ .

وجد الخليفة الراضى (٣٢٢ - ٥٣٢٩ هـ) نفسه ، إزاء ضعف الوزراء وازدياد نفوذ كبار القواد وتدخلهم في أمور الدولة ، مضطرا إلى استئالة أحد هؤلاء الأمراء وتسليم مقاليد الحكم إليه . ووجد في ابن رائق ، وكان بلي واسط والبصرة ، الرجل الذي يستطيع أن يعتمد عليه . فأسند إليه كافة أمور الدولة ، ولقبه « أمير الأمراء » . فأصبح بيده تولية الولاية وعزلهم ، وسمت مرتبته على مرتبة الوزير الذي لم يبق له بجانبه سوى الاسم . « وبطل يومئذ أمر الوزارة ، فلم يكن الوزير ينظر في شيء من أمر النواحي ولا الدواوين ولا الأعمال ، ولا كان له غير اسم الوزارة فقط . . . وصار ابن رائق وكاتبه ينظران في الأمر كله ، وكذلك كل من تقلد الإمارة بعد ابن رائق إلى هذه الغاية » (٤) .

(١) القهرماننة : المسيطرة الحفيظة على من تحت يدها (٢) النظم الإسلامية للمؤلف من ٧١ - ٧٢ .

(٣) السوطى : تاريخ الخلفاء من ٢٥٤ (٤) مسكويه : تجارب الأمم ج ١ من ٣٥١ - ٣٥٤

وبعد أن كان الصراع بين الخلفاء العباسيين وكبار القواد والأمراء ، أصبح بين الخلفاء والأمراء  
الأمراء من ناحية ، وبين هؤلاء وكبار القواد من ناحية أخرى . فوجد الخليفة الراضى ينحرف عن  
ابن رائق ويستعين ببجكم ليخلصه مما هو فيه . وانتهى هذا الصراع بتولية بجكم إمرة الأمراء ، ولكن  
ابن رائق عاد إلى بغداد من جديد وانتصر على بجكم وانتزع منه إمرة الأمراء . (١)

أصبحت الخلافة العباسية في عهد الراضى من الضعف بحيث لم يعد هذا الخليفة قادرا على أن  
يدفع أرزاق الجنود أو يحصل على ما يكفيه حتى مات في شهر ربيع الاول سنة ٣٢٩ هـ . وليس أدل  
على ما بلغت الخلافة العباسية في عهد الراضى من ضعف ووهن مما رواه أبو بكر الصولى عن هذا  
الخليفة ، الذى عبر عما كان يشعر به من آلام لضياع حرمة الخلافة بسبب تفاقم خطر الأتراك ، حتى  
إنه لم يستطع أن ينفرد بتدبير الدولة دونهم . وانتهى النزاع بين بجكم وابن رائق على إمرة الأمراء  
بدخول البريدى بغداد فى سنة ٣٢٩ هـ ، وخروج الخليفة المتقى ( ٣٢٩ - ٣٣٣ هـ ) بصحبة ابن رائق  
واستنجاهه بالمحمدانيين الذين لم يلبثوا أن دخلوا بغداد وتقلدوا إمرة الأمراء . ( ٣٣٠ - ٣٣١ هـ ) ثم  
طردهم توزون التركى فى شهر رمضان سنة ٣٣١ هـ وتقلد أعباء هذا المنصب الخطير .

على أن توزون لم يلبث أن قبض على الخليفة المتقى فى شهر صفر سنة ٣٣٣ هـ ، وسمل عينيه ،  
وولى المستكفى بالله ( ٣٣٣ - ٣٣٤ هـ ) ، الذى ضاق ذرعا بتوزون ، واستنجد ببنى بويه لوضع حد  
لهذه المنازعات التى لم تنقض بين هؤلاء الأمراء ، للاستئثار بالسلطة وتولى إمرة الأمراء وانتزاع  
النفوذ والسلطان من الخليفة ، الذى لم يعد له من الأمر شئ . سوى السلطة الدينية ممثلة بذكر اسمه  
فى الخطبة ونقشه على السكة والتسمى بأمر المؤمنين . ولم يكن هذا إلا لأغراض دينية غايتها احتفاظ  
هؤلاء الأمراء بمراكرهم أمام الجمهور .

### ٣- الخليفة العباسى فى عصر بنى بويه ( ٣٣٤ - ٤٤٧ هـ ) :

ولم يكد مع الدولة أحمد بن بويه الذى استنجد به الخليفة المستكفى يستقر فى بغداد حتى حجر  
عليه وسمل عينيه ، واستدعى الفضل بن المقتدر وبايعه بالخلافة ولقبه المطيع ( ٣٣٤ - ٣٦٣ هـ ) (٢) .  
ولا عجب فقد كان بنو بويه شيعة غالبية ، ومن ثم لم يعترفوا بأحقية الخليفة العباسى السنى فى زعامة  
المسلمين (٣) ، فلم يكن للخليفة العباسى فى عهدهم شئ من النفوذ . ولولا خوف بنى بويه من ضياع نفوذهم  
السياسى لما تورعوا عن تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين (٤) . ولذلك لم يدخروا وسعا فى  
تقوية نفوذهم وسلب السلطة من يد الخلفاء العباسيين وقد شعر الخليفة المطيع بما وصلت إليه الخلافة  
من ضعف ، فعبر عما يجيش فى نفسه من ألم فى هذه العبارة مخاطبا بنى بويه : وليس لى منها إلا القوت  
القاصر عن كفاى ... وإنما لكم منى هذا الاسم الذى يخطب به على منابركم تسكنون به زعاباكم .

(٢) انظر هذا الكتاب من ٨٩ .

(٤) انظر هذا الكتاب من ١٠٢ - ١٠٣ .

(١) النظم الإسلامية للمؤلف من ٧٦ .

(٣) Arnold : The Caliphate, p. 61

فإن أحببتهم إن أتزل عن هذا المقدار أيضا وتركتمكم والأمر كله . (١) وقد وصف البيروني (٢) موقف الخلفاء العباسيين من سلاطين بني بويه في هذه العبارة فقال : « وإن الدولة والمملك قد انتقل في آخر أيام المنقعي وأول أيام المستكفي من آل العباس إلى آل بويه . والذي بقي في أيدي الدولة العباسية إنما هو أمر ديني اعتقادي ، لا ملك دنياوي ... فالقائم من ولد العباس الآن (٣) هو رئيس الإسلام لا ملك . »

ولم يقف نفوذ البويهيين عند هذا الحد ؛ فنرى الخليفة المستكفي يلقب البويهيين بألقاب مختلفة ، ويأمر بذكر أسماهم في الخطبة ونقشها على السكة . فنرى الطامع يخلع على عضد الدولة البويهسي خلع السلطنة وبطوقه ويسوره ويعقد له لواوين : أحدهما منقوض على رسم الأمراء والآخري مذهب على رسم ولاية العهود ، ويلقبه بلقب « شاهنشاه الأعظم ملك الملوك » ، ويأمر بأن يضرب على باباه بالديابذ في أوقات الصلوات الخمس ، (٤) كما نرى الخليفة المطيع (٣٦٣ - ٣٨١ هـ) يلقب حمصام الدولة بن عضد الدولة بلقب شمس الدولة ، ويخلع عليه الخلع السبع والعمامة السوداء ، ويسوره وبطوقه ويتوجه ويعقد له اللواوين ويحمله على فرس ويأمر بقرامة عهده بتقليده أمور الدولة العباسية وينقش اسمه على السكة . (٥) ، ويفعل مثل هذا مع شرف الدولة بن عضد الدولة ، فيلقبه بلقب شاهنشاه (٦) ، ثم يخلع على أبي نصر بن عضد الدولة ويقرأ عليه العهد (٧) . إلا أن الخليفة أرغم في سنة ٣٨١ هـ على الزول عن الخلافة لأنه حبس رجلا من خواص بهاء الدولة .

ومع ذلك فإن الخلافة العباسية كانت لا تزال تحتفظ بروعتها وبهابتها في عهد بني بويه . يقول أبو شجاع (٨) : « عهد بالطامع لله وهو في دسته منصوب على ظهر حديدي ، وهو لا لبس السواد والمعممة الرصافية السوداء ، وعلى رأسه شمس ، وبين يديه الحجاب والمسودة ، وحول الحديدي الأنصار والقراء والأولياء في الزبازب ؛ وقد قدم إلى مشرعة دار المملكة من باب الميدان ، فنزل حمصام الدولة إليه وقبيل الأرض بين يديه . »

وقد ازداد نفوذ بهاء الدولة في عهد الخليفة القادر (٣٨١ - ٤٢٢ هـ) ، فتعصب للشيعة الذين كان يتحلل مذهبهم ، وأضرر العداء والبغضاء للخليفة العباسي حتى توسط بعضهم في الصلح بينهما . فعقد مجلس عظيم حلف فيه كل منهما للآخر بالوفاء ، وقلد الخليفة القادر بهاء الدولة ماوراء باباه .

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ٣٠٧ - ٣٠٨

(٢) الآثار الباقية عن القرون الخالية (طبعة لايدس سنة ١٩٢٣) ص ١٣٢

(٣) يعني في عهد البيروني المنقفي سنة ٤٤٠ هـ

(٤) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٣٦ - ٢٣٧ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤١٦ .

انظر هذا الكتاب ص ١١١

(٥) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٧١

(٦) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٤١

(٧) أبو شجاع : ذيل كتاب تجارب الأمم ج ٣ ص ١٥٤

(٨) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٢٣ - ١٢٤

وقد ذكر أبو الفدا (١) أن سلطان الدولة بن بهاء الدولة لما قدم بغداد سنة ٤٠٨ هـ ضرب الطبل في أوقات الصلوات الخمس متشبها في ذلك بمجده عضد الدولة. وقد أصبح الخلفاء في عهد بني بويه - كما يقول توماس أرنولد (٢) - ولا قيمة لهم في الوقت الذي غدا غيرهم أكثر قوة ونفوذاً، وأصبحوا يديرون العالم الإسلامي من غير أن يشيروا أو يحفلوا بمن يدعى أنه أمير المؤمنين، بل لقد أصبحوا العوبة في أيدي سلاطين بني بويه، يجلسونهم على العرش ويعزلونهم متى شاؤوا وشاءت أهوائهم. وعلى الرغم من أن الخليفة أصبح مسلوب السلطة، كان بنو بويه يراعون مظاهر احترامه في الحفلات، كما كانوا ينظرون إليه باعتباره الرئيس الأعلى للجماعة الإسلامية. فكان الخليفة يستقبل السفراء ويلبس بردة النبي صلى الله عليه وسلم، ويضع أمامه مصحف عثمان توكيدا لسلطته الدينية. وقد امتد نفوذ بني بويه في عهد عضد الدولة في البلاد الممتدة بين بحر قزوين والخليج الفارسي، ومن أصبهان إلى حدود سورية، وأصبح اسمه يذكر في الخطبة وينقش على السكة (٣). كما كان بنو بويه يزوجون بناتهم من بعض الخلفاء حتى تتحول الخلافة بذلك إلى أحفاده. فقد تزوج الخليفة الطائع من بنت عز الدولة بخنبار، وكما تزوج هذا الخليفة من ابنة عضد الدولة. وتجددت وصلة بين الطائع لله وبين عضد الدولة، فتزوج الطائع ابنته. وكان غرض عضد الدولة أن تلد ابنته ولدا ذكرا فيجمله ولي عهده، فتكون الخلافة في ولد لهم فيه نسب (٤).

على أن ضعف الخلافة العباسية في عهد بني بويه لم يرجع إلى ضعف الخلفاء أنفسهم وصراعتهم مع بني بويه الذين استبدوا بالسلطة دونهم، بل يرجع كذلك إلى تلقيب الخلفاء لهم بهذه الألقاب الضخمة التي رفعت من شأنهم وقلقت من هيبة الخلفاء أنفسهم مثل: تاج الملة وضياء الملك وغيث الأمة، وشاهنشاه وغيرها. وقد أسرف الخلفاء العباسيون في تلقيب أمرائهم. فنرى الخليفة العباسي القادر بالله (٤٢٢-٤٦٧ هـ) يلقب بمحمود الغزنوي بن سبكتكين بألقاب سلطان وبين الدولة وأمين الملة (٥)، ويلقب ابنته مسعود وسيد الملوك والسلاطين (٦)، ويلقب جلال الدولة نفسه في سنة ٤٢٣ هـ بلقب السلطان المعظم مالك الأمم. فلما اعترض عليه رسول الخليفة، وهو أبو الحسن الماوردي صاحب كتاب الأحكام السلطانية، بأن هذه الألقاب لا تكون إلا للخليفة نفسه، عدل عنها ولقب نفسه مالك الدولة. أضف إلى ذلك انقسام أفراد البيت البويهى على أنفسهم، فنرى عضد الدولة ابن ركن الدولة يناوى عز الدولة بخنبار بن معز الدولة ويجلس على عرش السلطنة في بغداد من بعده، كما نرى صمصام الدولة بن عضد الدولة يعجز عن مناهضة أخيه شرف الدولة الذي يقبض عليه ويمتقله في إحدى قلاع فارس ويستقر في السلطنة ببغداد. ثم يناوى شرف الدولة بن ركن الدولة، بهاء الدولة بن عضد الدولة، ويخرج صمصام الدولة من معتقله ويستأنف صراعه مع بهاء الدولة.

(١) المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ١٥٠

(٢) النظم الإسلامية المؤلف ص ٩٠

The Caliphate, p. 68 (٢)

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨٤-٨٥

(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٧

(٥) ابن الأثير: ج ٩ ص ١٣١

ولم ينته ذلك الصراع الذى قام بين بهاء الدولة وأخيه مصمص الدولة إلا بقتل ثانيهما فى سنة ٥٣٨٨هـ<sup>(١)</sup>. كما يقوم النزاع بين سلطان الدولة وأخيه مشرف الدولة ابني بهاء الدولة حتى صفا الجولمشرف الدولة بوفاة أخيه فى سنة ٥٤١٥هـ<sup>(٢)</sup>. ولما توفى جلال الدولة بن بهاء الدولة فى سنة ٥٤٣٥هـ استبد أبو كاليبجار (٤٣٥ — ٥٤٤٠هـ) بن سلطان الدولة بالأمر دون أبناء جلال الدولة، وقام النزاع بينهم حتى استقرت السلطنة فى بيت أبى كاليبجار إلى أن قضى عليها السلاجقة بعد قليل<sup>(٣)</sup>.

وقد ظل الخلفاء العباسيون فى هذا العصر يلقبون بلقب «أمير المؤمنين» الذى تلقب به الخلفاء منذ أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه، كما كان الناس يعتبرون الخلفاء العباسيين «ظل الله الممدود» بينه وبين خلقه<sup>(٤)</sup>، وكما لقب الخليفة المستكفي (٣٣٣ — ٣٣٤هـ) نفسه بلقب «إمام الحق» ونقش ذلك على السكة، منافسا فى ذلك الخلفاء الفاطميين الذين تلقبوا بلقب «إمام»<sup>(٥)</sup>. وذكر الصولى<sup>(٦)</sup> أن الأمير أبى العباس أحمد بن المقتدر طلب إليه قبل أن يتلقب بلقب الرضى بالله، أن يرسل إليه الألقاب التى يصح أن ينعت بها الخلفاء وتكون أوصافا لهم، فأرسل إليه رقعة تشتمل على ثلاثين لقباً ليختار منها ما يريد، وأشار عليه بأن يختار لنفسه لقب المرتضى بالله، ولكنه اختار لنفسه لقب الرضى بالله وقال للصولى: «قد كنت عرفتنى أن إبراهيم بن المهدي لما بويع أيام الفتنة بالخلافة أراد أن يكون له ولى عهد، فأحضروا منصور بن المهدي وسموه المرتضى. وما أحب أن أتسمى باسم قد وقع لغيرى ولم يتم له أمره، وقد اخترت الرضى بالله».

وكانت ولاية العهد زمن الخلفاء الراشدين تقوم على أساس الشورى، ولكنها أصبحت وراثية فى عهد الأمويين والعباسيين، وأصبح انتخاب ولى العهد صوريا، بمعنى أن الخليفة أصبح يعين ولى عهده ويأخذ البيعة له من وجوه الناس وكبار القوادى فى حضرته وعن طريق الولاة فى الأقاليم. ولكن هذه الطريقة كانت مخوفة بالمخاطر، لإثارة الكراهة والبغضاء بين أبناء الخليفة وقيام المنافسة بين أفراد البيت المالك. وقد رأينا أثر تولية المتوكل العهد لابنائه المنتصر والمعز والمؤيد، وكيف أدى ذلك إلى قتل الخليفة نفسه.

وعلى الرغم من ضعف الخلافة فى عصر إمرة الأمراء وبني بويه، استمر الخلفاء العباسيون يولون العهد أبناءهم. على أن الأتراك والبويهيين من بعدهم كانوا لا يحفلون بهذا النظام إذا كان لا يتفق مع مصالحهم. وكان هؤلاء الخلفاء يهتمون اهتماما بالغا بتولية أبنائهم العهد فى احتفال رائع. فقد ذكر

(١) أنظر هذا الكتاب من ١١٩ - ١٢٠٠

(٢) المصدر نفسه من ١٣١ - ١٣٨

(٣) المصدر نفسه من ١٢٦

(٤) المسعودى: مروج الذهب ج ٢ من ٣٩٥

(٥) آدم مترن: الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ من ٢٣٠

(٦) أخبار الرضى بالله والمنتقى لله من ٢ - ٤

(٧) أنظر طريقة نفايد الخليفة المنتفى وتلقيبه فى هذا الكتاب من ٧٣ - ٧٤

ملال بن الصافي (١) أن الخليفة القادر (٣٨١—٤٢٢ هـ) جلس على السدة العالية بثياب سود متقلدا سيفاً يجامل في البيت المعروف ببيت الرصاص ، وبين يديه نهر يجرى الماء فيه إلى دجلة . ودخل إليه الأشراف والقضاة والشهود والفقهاء وأهل خراسان العائدون من الحج . وقُرئ في المجلس على رءوس الملا كتاب بقلده أبا الفضل ولده العهد بعده ، وتلقبته الغالب بالله تعالى ولا غالب إلا الله وحده لاشريك له . وكان له من السن في هذا الوقت ثمان سنين وأربعة أشهر وأيام . وكتب إلى البلاد بأن يخطب له بعده على نسخة قرئت بحضوره ، وكانت بعد إتمام الدعاء له :

اللهم وبتبغّه الأمل في ولده أبي الفضل الغالب بالله تعالى ولي عهده في المسلمين . اللهم وال من والاه من العباد وعاد من عاداه في الأقطار والبلاد ، وانصر من نصره بالحق والساد ، واخذل من خذله بالغي والعناد . اللهم ثبت دولته وشعاره ، وانبذ إلى من نابذ الحق وأنصاره .

وكذلك ذكر ابن الأثير (٢) عند كلامه على حوادث سنة ٤٤٠ هـ أنه خطب للامير أبي العباس محمد بن القائم (٤٢٢—٤٦٧ هـ) بولاية العهد ولقبه ذخيرة الدين ، وولى عهد المسلمين .

### (ب) خلافة الفاطمية :

كانت الخلافة الفاطمية التي قامت بالمغرب في أواخر القرن الثالث الهجري نتيجة لهذا الصراع العنيف بين السنيين والشيعة . فقد ظل العلويون يعتقدون أنهم أحق بزعامة المسلمين ، لأنهم أولاد علي ، ابن عم النبي وزوج ابنته فاطمة . وظل هؤلاء العلويون يناضلون في سبيل هذه الزعامة ، بالسيف تارة وبالمكيدة والدهاء تارة أخرى ، حتى توجت جهودهم بقيام الخلافة الفاطمية في المغرب التي أصبحت تنافس الخلافة العباسية في المشرق . وقد قامت الخلافة الفاطمية على أساس فكرة تقديس الإمام وعصمته ، ومن ثم نرى الشيعة يخلعون على خلفائهم من صفات التقديس مالم يوصف به خلفاء بني العباس .

ولاغرو فقد خاطب أحد الشعراء عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين بالمغرب بهذه الآيات :

حل برقادة المسيح	حل بها آدم ونوح
حل بها أحمد المصطفى	حل بها الكيش والذبيح
حل بها الله ذو المعالي	وكل شيء سواه ربح

وكانت أيمان أهل إفريقية : « وحق عالم الغيب والشهادة مولانا المهدي الذي برقادة » ، حتى كتب بعض أحداث القيروان هذين البيتين وتلفظوا في وصولها إلى عبيد الله من حيث لا يعلم :

الجور قد رضينا	لا الكفر والحقارة
يا مدعى الغيوب	من كاتب البطاقة ؟

(٢) ج ٦ ص ٢٥٠

(١) تحفة الأُمراء في تاريخ الوزراء من ٤٢٠

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٠٨ — ١٠٩

وقد قيل إن الخوارج في بلاد المغرب لم يرقهم بعض عقائد الشيعة العالية ، فناروا في وجه الخلافة الفاطمية في عهد القائم والمنصور بزعمه أبي يزيد مخلد بن كيداد . ويقول الذهبي (١) إن الخليفة القائم الفاطمي أمر بلعن الأنبياء وأطلق مناديا ينادى بلعن الفار ومن لاذ به ، وأن ذلك أثار سخط الخوارج فناروا تحت لواء ابن كيداد .

ولكى يحيط الخلفاء الفاطميون أنفسهم بهالة من التقديس ، عمدوا إلى تأسيس المدارس الخاصة لتعليم عقائد المذهب الذى يقوم على تقديس الأئمة . وكان من أثر هذه الجهود أن راجت فكرة تقديس الأئمة في كثير من أرجاء العالم الإسلامى كمصر واليمن وفارس والهند ، بل توغلت هذه التعاليم في بلاد الأندلس نفسها التى كانت إذ ذاك تحت نفوذ الأمويين السنين (٢) .

ولم يكن استيلاء الفاطميين على مصر في سنة ٣٥٨ هـ ومد نفوذهم نحو الشرق إلا وسيلة للقضاء على نفوذ العباسيين السياسى وجعل السيادة للمذهب الاسماعيلى مذهب الفاطميين . ويقول آدم متر (٣) إن الخليفة الفاطمي وقف من الخليفة العباسى موقف المنافس العنيد ، وإن نفوذه انتشر في كثير من البلاد ، ودعى له على المنابر في المغرب ومصر ، وفي بلاد اليمن والشام .

وقد لقيت نظرية الحق الملكى المقدس التى كانت سائدة في بلاد الفرس في عهد آل ساسان ، والتي أخذها عنهم الخلفاء العباسيون فيما بعد ، قبولاً عند الخلفاء الفاطميين . وأصبح الإمام في نظر الناس ظل الله في الأرض ، كما أصبح شخصاً مقدساً ، حتى لقد تعرض الناس للذوت إذا أظهروا سخطاً أو تدمراً أو قاوموا أوامر الخليفة ونواهيته ، لأنها صادرة من الله الذى أملاها على الإمام المعلم ، لأنه تلقى علمه من الله عن طريق الوحي .

وقد استمرت فكرة تقديس الخلفاء الفاطميين رائجة في مصر . فقد ادعى المعز لنفسه كثيراً من صفات التقديس التى تظهر في عبارته التى وجهها إلى الحسن الأعصم القرمطى ، حيث يقول : إنا كلمات الله الأزليات ، وأسماؤه التامات ، وأنواره الشعشعائيات ، وأعلامه النيرات ، ومصايجه البيئات ، وبدائمه المنشئات ، وآياته الباهرات ، وأقداره النافذات . لا يخرج منا أمر ، ولا يخلو منا عصر . وإنا لكما قال الله سبحانه وتعالى ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم يفتيهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شئ عليم . ناهيك بادعاء الحاكم الألوهية التى شغلت كل حياته تقريباً .

وتمتاز الخلافة الفاطمية بالعظمة والآبهة التى كانت تتمثل في الاحتفال بصلاة الجمعة ، وفي توديع الحملات الحربية ، والاحتفال بوفاء النيل ، وبعيد النطر والأضحى ، وفي جلوس الخليفة بقاعة الذهب

(١) تاريخ الإسلام : دار الكتب المصرية ، مخطوط ٤٢ ورقة ١٦٩

(٢) Dozy : The Moslems in Spain, pp. 409, 413-15

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى ، ترجمة أبي ريدة ، ج ١ ص ٤



حيث كان يتعقد مجلس الملك . وكانت عظمة الخلافة تظهر بأجلى مظاهرها حين يظهر شخص الخليفة يحيط به جماعة من القراء الذين كانوا يرتلون القرآن بنغمات مشجية ، وفي وقوف حامل الدواة . وكان زمام القصر وصاحب بيت المال والحجاب والأمناء يأخذون أمكنتهم عند الأبواب في الوقت الذي يكون الحاضرون قد أخذوا فيه أمكنتهم المخصصة لهم . وعندئذ يأخذ أحد الأمناء في تقديم من يرى من المناسب تقديمه للخليفة .

والوزير كان أول من يقدم إلى الخليفة ، فيخطو إلى الأمام ، ثم يجي الخليفة بلثم يديه ورجليه ، ثم يتراجع إلى مكانه الرفيع ويظل واقفا نحو ساعة ، فيؤذن له بوسادة يجلس عليها في جانب الخليفة الأيمن . ثم يتلوه قاضى القضاة ، فيقترب من الخليفة ويحنيه برفع يده اليمنى وبشير بسبحته قائلا : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . وكانت هذه التحية ميزة له على سائر أعضاء المجلس اعترافا بمركزه الدينى الرفيع . وكان أيضا يسمح لزعماء الطوائف المختلفة بتحية الخليفة باسم جماعاتهم . وكان أحد الأمراء يزودهم قبل أن يتقدموا للخليفة بتعليقات تبين لهم ما يجب عليهم اتباعه في هذه السبيل . وإذا رأى الوزير أن يشاور الخليفة في أمر من الأمور ، اقترب منه واعتمد على سيفه ثم شرع في حديثه . وكان مجلس الملك يتعقد ثلاث ساعات في العادة ، فتقدم فيه الأمور الهامة لبحثها واعتمادها من الخليفة . وللوزير أن يقترح خلع الخلع أو إسناد المناصب المختلفة إلى من يقدم أسماهم . فإذا انتشر عقد المجلس ، انصرف الحاضرون والوزير في آخرهم بعد أن يلثم يدي مولاه ورجليه مرة ثانية ، ثم يركب إلى داره يحف به سائر أعضاء المجلس . ثم ينزل الخليفة من سرير الملك ويغادر الإيوان .

وكان الخلفاء الفاطميون يلقبون بألقاب كثيرة منها : الخليفة الفاطمي أو الملوي وأمير المؤمنين . ومن الألقاب المحببة إلى الإسماعيلية لقب إمام وصاحب الزمان وسلطان و الشريف القاضى ، كما يظهر من مخاطبة قاضى القضاة له في صلاة الجمعة : السلام على أمير المؤمنين و الشريف القاضى الخطيب ورحمة الله وبركاته . . وكان السنيون يطلقون عليهم و العبيديين ، نسبة إلى عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين ، كما كان يطلق عليهم و العلويون . نسبة إلى علي بن أبي طالب ، و الفاطميون ، نسبة إلى فاطمة الزهراء . كما كان يطلق عليهم و السلاطين . وكان الفاطميون يقرنون اسم الله سبحانه بأسمائهم : فنجد مثلا المعز لدين الله . والعزیز بالله ، والحاكم بأمر الله ، وانظروا لدين الله ، والمستنصر بالله .

### ٣ - أمراء الخوارج الأموية في الأندلس :

كان أمراء بني أمية في الأندلس يلقبون أنفسهم بألقاب منها : أمير و ساطان و ابن الخلائف ، حتى اعتلى عبد الرحمن الناصر العرش في سنة ٣٠٠ هـ . ولما استقرت قدمه في البلاد ، ورأى ما وصلت

(١) الفريزى : انماض الحنفا بأخبار الخلفاء من ١٣٧ - ١٣٨

(٢) الفقهى : صبح الأعتى فى صناعة الانشا ٣ من ٤٩٨ - ٥٠٠

انظر كتاب الفاطميون فى مصر ، للؤلف من ٣٦٩ - ٢٧

إليه الخلافة العباسية في الشرق من ضعف حتى إن سلطة الخليفة لم تكفد تتعدى مدينة بغداد ، وما كان من تحكّم النساء والخدم والأترک في عهد المقتدر ، وانصرافه إلى اللهو واللعب مع أنه كان لا يزال يستعمل هذه الألقاب الضخمة (١) ، كما أدرك عبد الرحمن الخطر الذي يهدد بلاده من ناحية الخلافة الفاطمية الشيعية في المغرب ، ووجد أنه ليس أقل من العباسيين والفاطميين أثرا في الدفاع عن العالم الإسلامي ضد أوروبا المسيحية ، وفي شن الغارات ومطاردة المسيحيين في البلاد المتاخمة لبلاده (٢) — لما رأى عبد الرحمن ذلك كله فكر في إقامة الدعوة لنفسه وتلقب بأمر المؤمنين . ويقول المقرئ (٣) :

« وكان ( عبد الرحمن الداخل ) يسمى بالأمير ، وعليه جرى بنوه من بعده ، فلم يدع أحد منهم بأمر المؤمنين تأديبا مع الخلافة بمقر الإسلام ومنتدى العرب ، حتى كان من عقبه عبد الرحمن الناصر ، وهو ثامن بني أمية بالأندلس ، فتسمى بأمر المؤمنين . . . لما رأى من ضعف خلفاء بني العباس بعد الثلاثمائة وغلبة الأعاجم عليهم وكونهم لم يتركوا لهم غير الاسم ، وتوارث التلقب بأمر المؤمنين ، . . . لذلك أمر عبد الرحمن في سنة ٣١٧ هـ ( ٩٢٩ م ) بإقامة الدعوة له باعتباره أمير المؤمنين ، وخطب له بذلك على منابر قرطبة ، ثم كتب إلى ولاته بإقامة الدعوة له وتلقبه بأمر المؤمنين . وهالك نص كتاب الناصر (٤) :

وبسم الله الرحمن الرحيم ! أما بعد ، فأنا أحق من استوفى حقه ، وأجد من استكمل حظه . ولبس من كرامة الله ما ألبسه للذي فضلنا به ، وأظهر أثرنا فيه ، ورفع سلطاننا إليه ، وبسر على أيدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه . وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا وعلو أمرنا ، وأعلن زجاء العالمين بنا ، وأعاد من انحرافهم إلينا واستبشارهم بدولتنا . والحمد لله ولي الإنعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه . وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمر المؤمنين ، وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك ، إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ، ودخيل فيه ، ومُنَسَّم بما لا يستحقه . وعلينا أن التامد على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه واسم ثابت أسقطناه . فأمر الخطيب بوضعك أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله ، والله المستعان . .

وعلى ذلك أصبح في العالم الإسلامي في ذلك الوقت ثلاث خلافات : الخلافة العباسية في بغداد ، والخلافة الفاطمية في المهديّة ، والخلافة الأموية في قرطبة ؛ وأصبح الناصر لا يحفل بالنظرية القديمة التي تشترط السيادة على الحرمين لمن يدعى الخلافة وإمرة المؤمنين .

وقد أفاد عبد الرحمن الناصر من هذا التغيير الخطير في نظام الحكم ، فظهر في أعين رعاياه بمظهر لا يقل عظمة عن الخلفاء العباسيين والفاطميين . أما في الخارج فقد تمتع بمركز ممتاز بين أمراء المسلمين

Dozy : The Moles in Spain, p. 423 (٢) — Arnold : The Caliphate, p. 58. (١)

(٣) فتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ١٥٦

(٤) ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار المغرب ج ٢ ص ٢١٢

في ذلك الحين بما أحرزه من انتصارات على الأوربيين ، حتى إن هؤلاء الأوربيين ، وعلى رأسهم أوتو الأكبر إمبراطور ألمانيا الذي أصبح فيما بعد إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة ، لجأوا إليه لوقف غارات عرب الفراكسيثت كما تقدم .

وقد قرّن عبد الرحمن الناصر اسم الله باسمه ، متشبهاً في ذلك بالعباسيين والفاطميين ، فنقلب الناصر لدين الله ، وسن بعمله هذه السنة التي سار على نهجها أبناؤه من بعده . فتسمى ابنه الحكم الثاني المستنصر بالله ، وتسمى حفيده هشام الثاني المؤيد بالله وهكذا .

احتفظت الخلافة الأموية بالأندلس بقوتها في عهد الحكم المستنصر بن عبد الرحمن ، الذي شعر نصارى الشمال في عهده بقوة الخلافة ، وخطب له على منابر المغرب ، وقضى على نفوذ الأدارسة في بلاد الريف . ولكن هذه الخلافة قد تطرق إليها الضعف في عهد هشام المؤيد بن الحكم ، الذي أصبحت أمه صبيح تتمتع بالنفوذ المطلق في الدولة . ثم تولى ابن أبي عامر الحجابة وأصبح الحاكم الحقيقي للدولة الأموية في الأندلس ، ولكنه حافظ على تراث خلافة الناصر ، ففزا أكثر من خمسين غزوة ، وأوقع الهزائم مسيحية الشمال الذين دفعوا إليه الإتاوة ، وحجر على الخليفة هشام ، الذي اتزوى في قصره ، وقضى أوقاته في اللهو ، ولم يبق له من مركز الخلافة إلا الاسم فقط . ولما مات ابن أبي عامر سنة ٣٩٣ هـ سار ابنه أبو مروان عبد الملك المظفر على نهجه في الاستئثار بالسلطة دون الخليفة ، ثم تقلد الحجابة بعده أخوه عبد الرحمن الذي تلقب الناصر ، ولكنه لم يلبث أن خلع وقتل وصاب واستبد بالأمر محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ( سنة ٣٩٩ هـ ) الذي تلقب المهدي ، ولكن هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر تلقب المستعين ، ودخل قرطبة سنة ٤٠٠ هـ ، ثم طرد منها بيد المهدي الذي لم يلبث أن طرد بدوره وقتل ، ودخل المستعين قرطبة ثانية ، وقتل هشام المؤيد سرا وجلس على عرش الخلافة المتداعي نحو أربع سنين ( ٤٠٣ - ٤٠٧ هـ ) استقل فيها كثير من أمراء الأطراف . ثم ملك بنو حمود قرطبة وأزالوا الخلافة الأموية بالأندلس ، وحكوا هذه البلاد نحو من أربعين سنة تخللتها صعوات عاد فيها الملك إلى بعض أفراد البيت الأموي . ولكن كيف يقبض هؤلاء الأمويون على العرش بأيديهم الضعيفة ، في ذلك الوقت الذي قامت فيه الفتن والثورات ، واشتدت منافسة الزعماء من البربر والصقالبة والعرب والأسبان ؟ (١) .

وقد حذا الفاطميون حذو الأمويين والعباسيين في تولية أبنائهم العهد . فكان الخليفة إذا شعر بدنو أجله يعهد بالخلافة إلى أحد أبنائه ، ثم تتجدد هذه البيعة بعد وفاته وكثيراً ما كان الخليفة الجديد يسر موت أبيه إذا وجد ما يهدد ملكه . فقد أخفى القائم موت أبيه عبيد الله المهدي ، وأخفى المنصور موت أبيه القائم سنة ٣٣٤ هـ حتى قضى على ثورة أبي يزيد سنة ٣٣٦ هـ ، فأعان نبأ وفاة أبيه . وكذلك أخفى المعز موت أبيه المنصور ، وأخفى العزيز موت أبيه المعز في ١١ ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ ، ولكنه لم يعلنه إلا في ١٠ ذى الحجة من هذه السنة . ولما تطرق الضعف إلى الخلافة الفاطمية في عهد المستنصر

(١) أنظر هذا الكتاب من ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ .

أصبح اختيار الخليفة بيد القواد وغيرهم من كبار رجال الدولة، فلم يراعوا في اختياره أن يسكون أكبر أبناء يه، كما فعل بدرالجمالي وابنه الأفضل من تفضيل المستعلي على أخيه نزار الذي كان أبوه المستنصر قد عهد إليه لأنه أكبر أبنائه، فجر ذلك إلى انقسام أشياخ الفاطميين إلى نزارية ومستعلية. ولا يزال أغاخان وأتباعه من الخوجات في الهند يمثلون النزارية، كما لا يزال البهرة من الإسماعيلية في الهند أيضاً يمثلون المستعلية.

والواقع أن الفاطميين كانوا ينظرون إلى الخليفة الفاطمي باعتباره إماماً يرث أباه عن طريق التعيين بالنص، وأنه لا بد أن يعين الخليفة أو الإمام ولي عهده قبل وفاته حتى لا يتخلو العالم من إمام. وكان لهذه الطريقة ميزاتها إذا كان ولي العهد كبير السن واسع التجربة كقوفاً لتولى ذلك المنصب الخطير. فالقائم بن عبيد الله المهدي كان قبل توليته الخلافة ماهراً في الحرب حاذقاً في السياسة، استطاع في حياة أبيه أن يفزو مصر غير مرة ويخمد الثورات التي قامت في وجه الدولة الفاطمية، كما استطاع العزيز أن يقود الجيوش الفاطمية وينتصر على القرامطة في حياة أبيه وبعدها. وأما الحاكم مثلاً فقد كان صغراً سنه وقلته تجاربه ونقص كفايته من العوامل التي أثارت المتاعب في وجه الخلافة الفاطمية في عهده، كما كان ذلك من عوامل ضعف هذه الخلافة فيما بعد. وكذلك كانت الحال بالنسبة إلى الظاهر والمستنصر وغيرهما من الخلفاء الفاطميين.

### (ب) الوزارة

#### ١ - الوزارة في الدولة العباسية (٢٣٢ - ٣٣٤) هـ :

قامت الدولة العباسية بمساعدة الفرس، وتقلد الوزارة في العصر العباسي الأول وزراء أكثرهم من الأعاجم كالبرامكة وبنو سهل، كما اشتهر في العصر العباسي الثاني بنو القرات وبنو الجراح الذين نبغ منهم علي بن عيسى وزير المقتدر، وعبدالرحمن بن عيسى وزير الرضا. على أن ضعف الخلافة في العصر العباسي الثاني أدى إلى ازدياد نفوذ الوزراء واشتداد المنافسة على الوزارة؛ ومن ثم تفشى الدس وانتشرت الرشوة ابتغاء الوصول إلى كرسي الوزارة.

وكان المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ)، كسائر خلفاء بني العباس، يستعين بالوزراء في إدارة شئون الدولة. فاستوزر محمد بن عبد الملك الزيات وزير أخيه الواثق وأبيه المعتصم. وكان ابن الزيات - كما يقول صاحب الفخرى (١) - نادرة وقته عقلاً وفهماً وذكاً وكتابةً وشعراً وأدباً وخبرة بأدب الرياسة وقواعد الملوك. ولكنه كان جباراً متكبراً فظاً غليظ القلب خشن الجانب مبعضاً إلى الخلق، حتى كان ذلك سبب قتله على يد المتوكل بعد أن استوزره أياماً. وذكر الطبري (٢) أن محمد بن عبد الملك الزيات كان يرى استخلاف أحد أبناء الواثق بن المعتصم بدل المتوكل. فلما آلت الخلافة إلى المتوكل حنق عليه وعمل على قتله. وقد قيل في قتله إنه كان قد عمل تنوراً من حديد وضع فيه مسامير ليغذّب

(٢) ج ١١ ص ٢٨، ٦٧ - ٦٨ .

(١) ص ٢١٤ - ٢١٥

به من يريد عذابه ، فكان هو أول من عذب به ، وقيل له : ذق ما كنت تدينق الناس .  
ومن وزراء المتوكل كذلك عبيدالله بن يحيى بن خاقان ، وقد اشتهر بالتعفف وكرم الأخلاق .  
روى صاحب الفخرى (١) : قيل إن صاحب مصر حمل إليه مائتي ألف دينار وثلاثين سقاً من  
التياب المصرية ؛ فلما حضرت بين يديه قال لو كيل صاحب مصر : لا والله لا أقبلها ولا أنقل عليه .  
بذلك ، ثم فتح الأسفاط وأخذ منها منديلاً لطيفاً وضعه تحت فخذه ، وأمر بالمال لحمل إلى خزنة  
الديوان وصمّح بها .

وكذلك حاز هذا الوزير محبة الجند ، فلم يخالفوه أمراً . ومن مظاهر حبه إياه ما حدث عند  
قتل الخليفة المتوكل ؛ فقد خاف هذا الوزير على نفسه ، فبادر الجند إلى الاجتماع على بابه ، وقالوا له :  
أنت أحسننا إلينا في حال وزارتك . وأقل ما يجب لك علينا أن نحتفظ بك ونحرسك في مثل هذه الفتنة (٢) .  
ولم يكن للوزارة في عهد المنتصر بن المتوكل شأن يذكر لقصر عهده واستبداد الأتراك بأمر  
الدولة . فلما ولي المستعين ( ٢٤٨ - ٢٥٢ هـ ) أقر أحمد بن الحبيب وزير المنتصر ، ولكنه لم ينعم  
بالوزارة أكثر من شهرين ، فاستوزر هذا الخليفة أبا صالح عبيدالله بن محمد بن يزيد ، وكان من أشهر  
كتاب عصره وأقدرهم في إدارة أمور الدولة ، فاستطاع أن يضبط الأموال ويضيق على الأمراء ،  
فتهددوه بالقتل وأرغموه على الهرب . فلم يستوزر المستعين بعده أحداً ، وإنما كان يعين كتاباً يقومون  
بأعمال الوزراء (٣) ، فكانت منزلة الكتاب في هذا العصر كنزلة أصحاب الوساطة في العصر الفاطمي .  
ثم اتخذ الخليفة المهدي بالله ( ٢٥٥ - ٢٥٦ هـ ) أبا الفضل جعفر بن محمود الإسكافي ، وكان  
قد وزر للمعتز ، وزيراً له ؛ فلم يلبث أن عزله ، واستوزر سليمان بن وهب الذي امتاز بفضله وكرمه  
وحسن إدارته للدولة . ولد سليمان في إحدى قرى واسط ، حيث كانت تقيم أسرته التي كانت تدين  
بالتصرانية ثم أسلت . وقد تقلد رجال من هذه الأسرة بعض المناصب في الدواوين . وكان سليمان  
أحد كتاب الدنيا ورؤسائها فضلاً وأدباً وكتابة في الدرج والدستور ، وأحد عقلاء العالم وذوى  
الرأى منهم . وقد دخل في خدمة المأمون فأعجب به حتى كان لا يهم بعمل شيء من أعمال الدواوين  
إلا قال : هاتوا سليمان بن وهب .

وفي ذلك يقول أحد الشعراء :

أبوك كلفك الشأو البعيد كما      قدماً تكلفه وهب أبو حسن  
فلست تُحَمِّدُ إن أدركت غايته      ولست تُعَذِّرُ مَسْبوقاً فلا تهمين

ولما ولي الواثق الخلافة طالب سليمان بن وهب بمال وحبسه ، وظل في حبسه حتى قتل ، فخرج  
من الحبس واختفى وقال في ذلك شعراً :

نواب الدهر أدبتي      وإنما يوعظ الأديب

(٢) الطبري : ج ١١ ص ٢٧٠ ، ٦٧ - ٨٦

(١) ص ٢١٧

(٣) الفخرى ص ٢٢٠

قد ذقت حلواً وذقت مرأً      كذلك عيش الفتي ضروب

ما مرّ بؤس ولا نعيم      إلا ولي منهما نصيب

وكان بنو وهب - كما كان البرامكة وبنو سهيل من قبلهم - من رؤساء الناس وحقاقهم وفضلاتهم وكراماتهم. وكانت دولتهم ناضرة وأيامهم مشرقة، والأدب في زمانهم قائم المواسم والكرم واضح المعالم، (١).

ولما ولي المعتمد الخلافة (٥٢٥٦) ضعف شأن الوزراء، لاستبداد أخيه الموفق بأمر الدولة دونه. وفي عهده تقلد الوزارة عبيد الله بن يحيى بن خاقان على كره منه، لأنه وقف على أحوال الدولة واستبداد الموفق والأتراك بأمرها. ولما مات ابن خاقان استوزر المعتمد الحسن بن مخلد كاتب أخيه الموفق، فاجتمعت له وزارة المعتمد وكتابة الموفق. وكان ابن مخلد من أشهر كتاب عصره وأكثرهم دراية بإدارة الدولة (٢). ومن أشهر وزراء المعتمد عبيد الله بن سليمان بن وهب الذي مدحه أحد الشعراء في هذه الأبيات (٣):

إذا أبو قاسم جادت يدها لنا      لم يُحمد الأجودان البحر والمطر  
وإن مضى رأيه أو حدث عزمته      تأخر الماضيان السيف والقدر  
وإن أضاعت لنا أضواء غرته      تضال النيران الشمس والقمر  
من لم يبت حذراً من حد صولته      لم يدر ما المزعجان: الخوف والحذر  
ينال بالظن ما يعيب العيان به      والشاهدان عليه: العين والآثر

ولما مات عبيد الله بن سليمان بن وهب عمل المعتضد على استصفاة أموال أهل بيته واستئصال شأقتهم. إلا أن ابنة القاسم بن عبيد الله كتب إلى الخليفة وعرض عليه أن يدفع ألف دينار، فقلده الوزارة. وهكذا استطاع أن يشتري هذا الكرسي، كما احتفظ بهيبة أسرته الفارسية العريقة التي يقول فيها ابن المعتز:

لآل سليمان بن وهب صنائع      لدى ومعروف إلىّ تقدما  
هم ذلّوا لي الدهر بعد شماسه (٤)      وهم غسّلوا من ثوب والدي الدماء

ولما ولي المعتز (٢٩٥ - ٥٢٢٠) استوزر أبا الحسن علي بن محمد بن الفرات سنة ٣٩٦ هـ. وقد ذكر مسكويه (٥) أنه كان مستترا، وأنه لما علم بأن الخليفة عزم على تقليده الوزارة، ظهر لرسوله وسار إلى دار الخلافة فخلع عليه. وكان لبني الفرات ما كان للبرامكة وبنو سهيل وبنو وهب من الشهرة في العصر العباسي. وفيهم يقول صاحب الفخرى (٦): «و بنو الفرات من أجل الناس فضلا وكرما ونبلا ووفاء ومرورة». وكان هذا أبو الحسن علي بن الفرات من أجل الناس وأعظمهم كراما

(٢) أظن هذا الكتاب من ٤٦

(٤) الشمس الأباء والامتناع

(٦) من ٢٣٨ - ٢٣٩

(١) الفخرى من ٢٢٣ - ٢٢٦

(٣) الفخرى من ٢٣٠

(٥) تجارب الأمم ج ١ من ٧ - ٨

وجودا ؛ وكانت أيامه مواسم للناس . وكان المقتدر لما جرت له الفتنة وخُلع وبُيع ابن المعتز ، سم استظهر المقتدر عليه واستقرت الخلافة للمقتدر ، أرسل إلى أبي الحسن علي بن الفرات ، فأحضره واستوزره وخلع عليه . فنهض بتسكين الفتنة أحسن نهوض ، ودبر الدولة في يوم واحد ، وقرر القواعد واستمال الناس . ولم يبت تلك الليلة إلا والأمور مستقيمة للمقتدر وأحوال دولته قد تمهدت . وفي ذلك يقول بعض شعراء الدولة المقتدرية :

ودبرت في ساعة دولة تميل بغيرك في أشهر

ولى ابن الفرات الوزارة ثلاث مرات : بقى في الأولى ثلاث سنين وثمانية أشهر والمائة عشر يوماً ، وفي الثانية سنة واحدة وخمسة أشهر ونسعة عشر يوماً ( ٣٠٤ - ٣٠٥ هـ ) ، وفي الثالثة عشرة أشهر وثمانية عشر يوماً ، ثم قبض عليه وعلى ابنه المحسن سنة ٣١٢ هـ .<sup>(١)</sup>

ومن أشهر وزراء المقتدر الوزير المصلح على بن عيسى الذى استطاع أن يقرب بين العباسيين وأبي سعيد الجنابي زعيم قرامطة البحرين ، فأثارحنق عبيد الله المهدي على أبي سعيد . وكان هذا الوزير من كبار الكتاب . اشتهر بالورع والزهد ، وفيه يقول الصولي : ما أعلم أنه وزر لبني العباس وزير يشبه على بن عيسى في زهده وعفته ، وحفظه للقرآن وعلمه بمعانيه ، وكتابته وحسابته وصدقته ومبراته ،<sup>(٢)</sup> .

وكان هذا الوزير يعطف على الفقراء والمعوزين ، حتى إنه كان ينفق عليهم نصف خراج ضياعه ، وكانت غلتها تدر عليه نيفا وثمانين ألف دينار في كل سنة . كما وقفت كثيرا من الأوقاف ، وأفرد لها ديوانا سماه « ديوان البر » ، خصص الأموال التي ترد إليه لإصلاح الثغور والحرمين . ولم تقتصر إصلاحات هذا الوزير على ذلك ، بل ضبط الدواوين ونظم شئون الدولة الداخلية ، فاستتب الأمن في عهده بحسن سياسته ومهارته الإدارية وحرصه على نشر العدل بين الرعية ، حتى كان يجلس بنفسه للظالم . على أن بقاء هذا الوزير المصلح في الحكم لم يطل ، بسبب إسراف الخليفة المقتدر ، وعزله الوزراء والقبض عليهم ، وتدخل النساء في أمور الدولة . وقد قيل في سبب عزله إن أم موسى قهر مائة السيدة ، أم الخليفة أرسلت إليه تطلب تقديم المال اللازم لعبد الأضحى ، ولكنه اعتذر ، فغضبت وأوغرت صدر السيدة عليه ، فقبض عليه غداة يوم الإثنين ٨ ذى الحجة سنة ٣٠٤ هـ<sup>(٣)</sup> .

خلف على بن عيسى في الوزارة حامد بن العباس ، وكان كريما مدققا في استخراج الأموال . وقد تم على يديه قتل الحسين بن منصور الحلاج في سنة ٣٠٩ هـ . غير أن هذا الوزير كان قليل الخبرة بأمور الوزارة ، فضم إليه الخليفة المقتدر وزيره السابق على بن عيسى ، وجعله نائبا له . فاستطاع على بن عيسى بفضل خبرته الإدارية وإلمامه بشئون الدولة أن يقبض على زمام الأمور ، وأصبحت

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢ ، ٣٤ ، ٤٧ ، ٥١ .

(٢) الفخرى ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٦ ، هلال الصابي : تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ٢٨٦ .

كلمته نافذة على جميع الولاة . أما الوزير الأصلي ، وهو حامد بن العباس ، فقد أصبح مسلوب السلطة كما يتبين من قول أحد الشعراء :

قل لابن عيسى قولة يرضى بها ابن مجاهد  
أنت الوزير وإنما سخروا بلحية حامد  
جعلوه عندك مسترة لصالح أمر فاسد  
مهما شككت فقل له كم واحدا في واحد

وكان حامد يلبس السواد شعار الدولة العباسية ، ويجلس في دست الوزارة . أما علي بن عيسى فكان يجلس بين يديه كالنائب بملابسه المعتادة . وقال في ذلك بعض الشعراء :

أعجب من كل مارأينا أن وزيرين في بلاد  
هذا سواد بلا وزير وذا وزير بلا سواد (١)

وهكذا سامت حالة الخلافة العباسية الداخلية في عهد الخليفة المقتدر ، واضطربت الأمور بسبب هذه السياسة التي اتبعها في تعيين وزرائه وعزلهم ، حتى تقلد الوزارة في عهده نحو اثني عشر وزيرا ، عزل بعضهم مرارا ، كأبي الحسن بن علي بن القرات وعلي بن عيسى . أضف إلى ذلك اعتياده على وزراء ضعاف كأبي علي محمد بن مقله الذي تدخل في أعمال الدواوين تدخلًا شائنا ابتغاء زيادة ثروته . ثم استوزره المقتدر في سنة ٣١٦ هـ وخلع عليه ، ولكنه لم يلبث أن عزله . وما زالت تنقلب به الأحوال حتى آلت الخلافة إلى الراضى (سنة ٣٢٢ هـ) ، فاتخذه وزيرا له ، ثم عزله لوشاية أعدائه به ، وحبس به بعد أن قطعت يده اليمنى . وكان يبكي على يديه ويقول : قد خدمت بها الخلافة ثلاث دفعات لثلاثة من الخلفاء (٢) ، وكتبت بها القرآن دفعتين . تقطع كما تقطع أیدی اللصوص ! أتذكر وأنت تقول لى أنت فى آخر نكبة : وإن الفرج قريب ؟ فقلت بلى ! والآن ينبغي أن تتوقع الفرج ، فإنه قد عمل بك ما لم يعمل بنظيرك . وهذا انتهاء المسكروه ، وما بعد الانتهاء إلا الانحطاط ، فقال : لا تفعل فإن المحنة قد تشبثت بي كما تشبثت حى الدق بالأعضاء . فلا تفارقني حتى تؤدبني إلى الموت . ثم تمثل بهذا البيت :

إذا مامات بعضك فابك بعضا فبعض الشيء من بعض قريب (٣)

اضطربت أمور الخلافة العباسية بعد ابن مقله ، فنار الجند على الوزير أبى القاسم عبيد الله بن محمد السكلوادانى ، فاعزل الوزارة بعد شهرين ، ثم خلفه الحسين بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب ، الذى عرف بالضعف وسوء السيرة . ولم يقدر على ضبط أمور الدولة وعجز عن إصلاح ما فسد منها ، فقبض عليه الخليفة المقتدر وخلعه (٤)

على أنه ، إذا كان بعض وزراء المقتدر احتفظوا بشيء من النفوذ ، فقد عجز الوزراء فى عهد

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٤٢ .

(٢) هؤلاء الخلفاء الثلاثة هم : المقتدر والقاهر والراضى .

(٣) مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ٣٣٨ . (٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٢١٥ — ٢٢٠ .



الراضي (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ) عن إدارة الدولة بسبب ازدياد نفوذ القواد. واضطر هذا الخليفة إلى تقليد ابن رائق شئون الدولة كافة وتلقيه به بأمر الأمراء. ولم يبق للوزراء شيء من النفوذ، واقتصرت أعمالهم على الحضور إلى دار الخلافة في أيام المواكب مرتدين السواد، متقلدين السيوف والمناطق وغيرها من شعار الوزارة. وأصبح تعيين الوزراء وعزلهم بيد أمير الأمراء. (١) واستمر الاستبداد وصار الأمر لملك العجم وتعطل رسم الخلافة. ولم يكن لأولئك المتغلبين أن ينتحلوا ألقاب الخلافة، واستنكفوا من مشاركة الوزراء في اللقب، لأنهم خول لهم، فتنسوا بالإمارة والسلطان. وكان المستبد على الدولة يسمى أمير الأمراء أو بالسلطان، إلى ما يحليه به الخليفة من ألقابه كما تراه في ألقابهم، وتركو اسم الوزارة إلى من يتولاها للخليفة في خاصته. ولم يزل هذا الشأن عندهم إلى آخر دولتهم. وفسد اللسان خلال ذلك كله، وصارت صناعة ينتحلها بعض الناس، فامتنت. وترفع الوزراء عنها لذلك، ولأنهم عجم. وليست تلك البلاغة هي المقصودة من لسانهم، فتخير لها من سائر الطبقات، واختصت به، وصارت خادمة للوزير واختص اسم الأمير بصاحب الحروب والجند وما يرفع إليها، ويده مع ذلك عالية على أهل الرتب، وأمره نافذ في الكل، إما نيابة واستبدادا (كذا في الأصل)، واستمر الأمر على هذا، (٢).

## ٢ - الوزارة في عهد بني بويه (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ) :

ولما استولى بنو بويه على بغداد سنة ٣٣٤ هـ، استبدوا بأمور الخلافة، وقضوا على نفوذ الخلفاء، وزال نفوذ الوزراء، لأن بنو بويه حلوا محلهم. ويقول صاحب الفخرى (٣) : واضطربت أحوال الخلافة، ولم يبق لها رونق ولا وزارة، وتملك البويهيون، وصارت الوزارة من جنتهم والأعمال إليهم. وقرر للخلفاء شيء طفيف برسم إخراجاتهم، واتخذ بنو بويه لأنفسهم وزراء استعانوا بهم في إدارة شئون الدولة.

ومن أشهر وزراء بني بويه أبو الفضل بن العميد وزير ركن الدولة بن بويه (٣٣٠ - ٣٦٦ هـ). وكان أبوه أبو عبد الله الحسين بن محمد الكاتب الملقب بالعميد وزير مرداويج بن زيار الديلمي. وقد عرف له علي بن بويه (عماد الدولة) فضله بعد أن ساعده على الخروج من وجه مرداويج والسير إلى بلاد الكرج التي آل إليه حكمها (٤). وكان لأبي الفضل بن العميد أثر كبير في إدارة شئون الري وهمذان وأصبهان في عهد ركن الدولة بن بويه، فاستوزره في سنة ٣٣٨ هـ (٥)، و ضبط أعماله ونظم أموره ورتب أسباب خدمته، حتى كان أكثر نهاره مشغولا بالعلم وأهله. وبسط عدله وأقام هيئته في صدور الجند والرعية، حتى كان يكفيه رفع الطرّف إلى أحدهم على طريق الإنكار، فترعد الفرائص وتضطرب الأعضاء وتسترخي المفاصل.

(١) حسن إبراهيم حسن، وعلى إبراهيم حسن: النظم الإسلامية من ١٦٣ - ١٦٤.

(٢) مقدمة ابن خلدون من ٢٠٧ - ٢٠٨ (٣) من ٢٥٨.

(٤) أنظر هذا الكتاب من ٩٩. (٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ من ٥٧.

كما كان لأبي الفضل بن العميد أثر كبير في تنشئة عضد الدولة (١)، وتعليمه أصلح الطرق لتدبير ملكه. وكان عضد الدولة يذكر له هذا الصنيع ويشيد بفضله حتى كان يدعو له الأستاذ الرئيس (٢). ولا غرو فقد كان أبو الفضل (بن العميد) - كما يقول ابن خلصان (٣) - متوسعا في علوم الفلسفة والنجوم. وأما الأدب والترسل فلم يقاربه فيه أحد في زمانه. وكان يسمى الجاحظ الثاني. وكان كامل الرياسة جليل القدر من بعض أتباعه الصاحب بن عباد. وهو الذي قيل فيه: بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بأبن العميد. وكذلك كان أبو الفضل بن العميد قائدا ماهرا؛ فقد أئرنه أنه انتصر على ابن مآكان في الري وأصبهان وأسرته في سنة ٣٤٤ هـ، ومات وهو في طريقه لحرب حسنويه زعيم الأكراد سنة ٣٦٠ هـ (وقيل سنة ٣٥٩ هـ) (٤).

ورث أبا الفضل بن العميد في مواهبه العلمية والإدارية والحربية ابنه أبو الفتح علي بن محمد العميد. وقد صحب أباه في حرب حسنويه الكردي؛ فلما عاد إلى ركن الدولة في الري استوزره بعد أبيه، فبقى في الوزارة إلى أن مات ركن الدولة. ولأبي الفتح بن العميد أثر كبير في فض النزاع الذي قام بين ركن الدولة وابنه عضد الدولة الذي عمل على أخذ بلاد العراق من يد ابن عمه عز الدولة بختيار (٥). وقد عرف بختيار لأبي الفتح حسن بلائه في إقرار سلطنته بالعراق؛ فأبقاه في بغداد، وخلع عليه سنة ٣٦٦ هـ، ولقبه ذا الكفأيتين لمهارته الحربية وعلوكبه في العلم وحذقه في السياسة. وكان يركب مع ابن بقية وزير بختيار، كما اتفق مع بختيار سراً على أن يتقلد الوزارة في العراق بعد وفاة عضد الدولة. ولما علم بذلك عضد الدولة حنق عليه وأضمر له العداة. ولما مات ركن الدولة صاحب الري وهمذان وأصبهان سنة ٣٦٦ هـ، استوزره ابنه مؤيد الدولة. ولكن النزاع لم يلبث أن قام بين أبي الفتح بن العميد والصاحب بن عباد، فانهز عضد الدولة هذه الفرصة، فألقى بأبن العميد في السجن، وصودرت أملاكه، وعذب حتى وافته منيته في هذه السنة (٦).

ومن أشهر وزراء بني بويه الصاحب إسماعيل بن عباد الذي قلده الوزارة مؤيد الدولة بن ركن الدولة بعد أبي الفتح بن العميد. ثم أقره فخر الدولة في الوزارة سنة ٣٧٣ هـ. وقد تقلد أبوه عباد الوزارة في عهد ركن الدولة؛ وروى ابن خلصان (٧): أن الصاحب نشأ من الوزارة في حجرها، ودب ودرج من وكرها، ورضع أفابيق دَرها، وورثها عن آباؤه، كما قال أبو سعيد الرستمي في حقه:

ورث الوزارة كإبراً عن كإبر  
موصولة الإسناد بالإسناد  
يروى عن العباس عباد وزا  
رته وإسماعيل عن عباد

(١) مسكويه: تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٨١ (٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٨١-٢٨٢.

(٣) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٧.

(٤) أنظر «أبو الفضل بن العميد» في دائرة المعارف الإسلامية.

(٥) أنظر هذا الكتاب ص ١٩٧، مسكويه: تجارب الأمم ج ٢ ص ٣٤٨-٣٥٢.

(٦) مسكويه: تجارب الأمم ج ٢ ص ٣٣٧. (٧) وفيات الأعيان ج ١ ص ٧٥.

وهو أول من لقب بالصاحب من الوزراء ، لأنه كان يصحب أبا الفضل بن العميد ، فقيل له صاحب ابن العميد . ثم أطلق عليه هذا اللقب لما تقلد الوزارة وبقي علماً عليه . وقد قيل إنه لقب الصاحب لأنه كان يصحب مؤيد الدولة بن ركن الدولة الذي أطلق عليه «الصاحب» ، فاشتهر به ثم سمي به كل من تقلد الوزارة بعده .

وكان الصاحب بن عباد فوق ذلك قائداً ، فقد قام في سنة ٣٧٧ هـ ( ٩٨٧ - ٩٨٨ م ) على رأس جيش لغزو طبرستان . واستولى على بعض قلاعها ونظم أمورها . كما كان شاعراً مجيداً ، حتى قيل إنه اجتمع عنده ما لم يجتمع عند غيره من الشعراء الذين مدحوه بغرر القصائد . وظل على ذلك إلى أن مات في شهر صفر سنة ٣٨٥ هـ ( ٩٩٥ م ) ودفن بأصبهان (١) . وقد نصح لفخر الدولة الذي زاره في مرضه الأخير بقوله : «قد خدمتك أيها الأمير خدمة استفرغت قدر الوسخ ، وسرت في دولتك سيرة جلبت لك حسن الذكر بها . فان أجريت الأمور بعدي على نظامها وقررت القواعد على أحكامها ، نُسب ذلك الجميل السابق إليك ، ونُسيتُ أنا في أثناء ما يثني به عليك ، ودامت الأحدوث الطيبة لك . وإن غيرت ذلك وعدلت عنه ، كنتُ أنا المشكور على السيرة السالفة ، وكنتُ أنت المذكور بالطريقة الآتفة ، وقدح في دولتك ما يشيع في المستقبل عنك . فأظهر فخر الدولة قبول رأيه ، (٢) .

### ٣ - الوزارة في مصر

#### (١) في عهد الطولونيين والفاطميين :

لم تعرف الوزارة في مصر في عهد الخلفاء الراشدين والامويين ، لأن هؤلاء الخلفاء لم يكونوا قد استحدثوا نظام الوزارة بعد ، بل كانوا يرسلون إلى هذه البلاد ولاية يديرونها باسمهم . أما في العصر العباسي ، فنرى أحمد بن طولون يتخذ أحمد بن محمد الواسطي كاتباً له . وكان يضطلع بأعباء الوزارة دون أن يلقب بلقب الوزير (٣) ، وقد استوزر خمارويه بن أحمد بن طولون أبا بكر محمد بن رسم المادرائي الكاتب (٤) .

وقد تقلد الوزارة بمصر في عهد الدولة الإخشيدية أبو الفتح الفضل بن جعفر بن محمد بن موسى ابن الحسن بن الفرات المعروف بابن حنزابة (٥) . وكان تقليد ابن الفرات الوزارة من قبل الخليفة الراضي الذي أطلق يده في تدبير الأمور ، وليس من قبل الإخشيد كما جرت العادة في الولايات . ولم يلبث هذا الوزير أن ارتبط بالإخشيد برباط المصاهرة بزواج ابنة جعفر من ابنة الإخشيد (٦) . وأن

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٧٥ .

(٢) مسكويه : تجارب الأمم ج ٣ ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ج ٢ ص ١١٦ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٩ ، والمقرئزي : انماض الحنفا ص ٧٠ .

(٥) نسبة إلى أمه حنزابة وكانت جارية رومية . وحنزابة المرأة القصيرة العظيمة (ابن دقاق : كتاب

الانتصار لواسطة عقد الأناصر ج ٤ ص ٥٧) .

(٦) ابن سعيد : كتاب المغرب في أخبار المغرب ص ١١ .

ذلك أدى إلى توطيد علاقات المودة بينه وبين والى هذه البلاد الذى كان يخرج لوداعه إذا غادر البلاد أو لاستقباله إذا عاد اليها (١). وكان ابن الفرات يتمتع بمركز ممتاز في الدولة العباسية حتى إنه تقلد الوزارة في بغداد سنة ٣٢٦ هـ ، ولكنه أثر العودة إلى مصر لاستبداد أمير الأمراء بالسلطة ، ولكن المنية عاجلته وهو في الرملة في ١٨ جمادى الأولى سنة ٣٢٧ هـ (٢). فقلد الخليفة الراضى ابنه أبا الفضل بن الفرات المعروف بابن حنزابه أيضاً نسبة إلى جدته ، على ما كان يريد أبيه ، فبقى في هذا المنصب في عهد الإخشيد ، وفي عهد وصاية كافور ، ثم في عهد أحمد بن علي بن الإخشيد ، وقبض على كثير من رجالات الدولة ، مثل يعقوب ابن كلس ، ثم أطلقه ، ولكنه لم يعد يأمن على نفسه ، فخرج من مصر في شهر شوال سنة ٣٥٧ هـ . ولما اشتد إيذاء جعفر بن الفرات للناس قبض عليه أبو محمد الحسين بن عبيد الله بن طنج صاحب الرملة عند ما قدم إلى مصر سنة ٣٥٧ هـ وصادر أمواله ، ثم أخلى سبيله فعاد إلى بلاد الشام .

ظل أبو الفضل جعفر بن الفرات في الوزارة إلى أن جاء المعز الفاطمى إلى مصر ، فعزله ، لأنه كان سنياً . وقد أبقى جوهري في بادى الأمر أن يلقبه بالوزير ، وامتنع عن مخاطبته بهذا اللقب وقال : ما كان وزير خليفة . إلا أنه أقره في منصبه تمشياً مع سياسته العامة التي كانت ترى إلى عدم إحلال الشيعيين محل السنين في المناصب دفعة واحدة حتى لا يقف دولاب الأعمال الحكومية . ولكن ابن الفرات لم يبق له من الوزارة إلا اسمها ، وضعف نفوذه إلى حد كبير ، حتى جاء المعز مصر فاعتذر ابن الفرات عن البقاء في دست الوزارة (٣) .

والواقع أن الفاطميين في المغرب لم يقلدوا أحداً الوزارة ، بل أطلقوا على من كان يعمل عمل الوزير اسم الحاجب اقتداء بالأمويين في الأندلس ، حتى إن الخليفة المعز لما أجاب ابن الفرات إلى طلب اعتزال الوزارة عهد إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن في إدارة شئون الدولة الفاطمية المدنية والحربية . ثم قلدهما أمور الدولة التي يضطلع بها الوزرا . على أن ابن كلس لم يتول الوزارة إلا في عهد الخليفة العزيز .

### (ب) في عهد الفاطميين :

وكانت الوزارة في العصر الفاطمى الأول (٣٥٨ - ٥٤٦٥) وزارة تنفيذ ، لأن الخلفاء كانوا من القوة بحيث يستطيعون أن يديروا أمور الدولة بأنفسهم . ومن أشهر وزراء هذا العصر يعقوب ابن كلس وكان يهودياً . وقد اتصل بكافور الإخشيدى ، فعهد إليه في عمارة داره ، وأعجب بكفايته ونزاهته ، ووكل إليه الأشرف على ديوانه الخاص . ولم يلبث أن ازداد نفوذه حتى شمل كل دواوين

(٢) المصدر نفسه ص ٢٤ .

(١) ابن سعيد ص ١٦ - ١٨ .

(٣) لم تنته حياة ابن الفرات بعزله عن منصبه ، فقد تولى الوزارة في عهد العزيز سنة كاملة ، كما استعان يعقوب ابن كلس في عهد العزيز (٣٨٣ - ٣٨٤) به في محاسبة العمال وتولى الخراج قبل ذلك سنة ، وتوثقت أواصر الصداقة بينهما بزواج أبي العباس الفضل ابن الوزير جعفر بن الفرات من ابنة الوزير ابن كلس . انظر كتاب «النظام الإسلامية» للمؤلف ص ١٧٠ .

الدولة، وأصبح لا يصرف شيء من المال إلا بتوقيعه. ثم أسلم، فزادت مكانته عند كافور حتى مات كافور سنة ٣٥٧ هـ، فضعف نفوذ ابن كلس بجانب نفوذ الوزير جعفر بن الفرات، فلم ير ابن كلس بدا من الذهاب إلى المغرب حيث اتصل بالخليفة المعز، ثم عاد إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ وتولى شئون الدولة المدنية والحربية كما تقدم.

وقد وصف ابن منجب الصيرفي<sup>(١)</sup> علاقة يعقوب بن كلس بالخليفة الفاطمي المعز وابنه العزيز وكيفية تقليده الوزارة، وما خلع عليه من الألقاب وما أسبغ عليه من المنح، كما وصف أثره في العلم والآداب في هذه العبارة فقال:

« وخدم الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلى الله عليه، وخص بخدمته ونولى أموره. وفي شهر رمضان سنة ثمان وستين وثلاثمائة، لقبه بالوزير الأجل، وأمر أن لا يخاطبه أحد ولا يكتبه إلا به. وخلع عليه وحمل ورسم له في سنة ثلاث وستين وثلاثمائة أن يبدأ في مكاتباته باسمه على عنوانات الكتب النافذة منه. وخرج توقيع العزيز عليه السلام بذلك. وفي هذه السنة اعتقله في القصر ورد الأمر إلى جبر بن القاسم، فأقام معتقلاً شهوراً، ثم أطلقه في سنة أربع وسبعين وثلاثمائة، وحمله على الخيل بالسروج واللجم والثقال، وقرى له سجل برده إلى ما كان له من تدبير الدولة، ثم قرى له سجل يهبه خمسمائة من الناشئة وألف غلام من المغاربة، لا رجعة فيهم ولا مثنوية<sup>(٢)</sup>. وإنا ملكناه أعناقهم وحكمتنا فيهم، فن أراد أن يبيعه بآعه، ومن أراد أن يعتقه عتقه. وكان الوزير أبو الفرج في سنة سبعين وثلاثمائة أحضر جماعة من الفقهاء وأهل الفتيا، وأخرج لهم كتاب فقه عمله، وقال: هذا عن مولانا العزيز بالله عليه السلام عن آبائه الكرام. وقرأ عليهم رسالته، وبعض كتاب الطهارة. وهذا الكتاب يعرف بالرسالة الوزيرية.»

وكان ابن كلس يجلس للظالم كل يوم بعد صلاة الصبح، فيدخل عليه الناس بظلاماتهم. واتخذ في قصره عدة دواوين، جعل إلى بعضها النظر في شئون الجيش والمالية والسجلات وما يتعلق بحماية الخراج، وعين لكل ديوان ما يحتاج إليه من الموظفين<sup>(٣)</sup>.

وبوفاة يعقوب بن كلس ضعفت الوزارة ثم تحولت إلى ما يسمى بالوساطة، خوفاً من ازدياد نفوذ الوزراء. ففي أوائل عهد الحاكم (٣٨٦-٤١١ هـ) عزل عيسى بن نسطورس - وكان نصرانياً - لمحباباته أهل ملته وتقليدهم مناصب الدولة العامة، وتقلد الحسن بن عمار زعيم الكتاميين والوساطة، وتلقب بلقب وأمين الدولة<sup>(٤)</sup> (٣ شوال سنة ٣٨٦ هـ). ولكمته حاجي الكتاميين وأبطال أعطيات الأتراك. ونفذت أوامره في الخزائن والأموال إطلاقاً وعطاء، حتى على جواري القصر هبة وعتقا، واستولى أصحابه وقتل مبالاتهم، وأشاروا عليه بقتل الحاكم، فلم يعبا به استصغار اسمه

(١) الإشارة إلى من نال الوزارة من ٢١ - ٢٢. (٢) أي بلا استثناء.

(٣) كتاب النظم الإسلامية للمؤلف من ١٧٢.

(٤) أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم لمسكويه ج ٣ من ٢٢٢.

واستهانة لأمره ، (١) . وقد تقلد الوساطة بعد عمار و برجوان ، أستاذ الحاكم ومستشاره ( رمضان سنة ٣٨٧ هـ ) . وكان يستعين في إدارة شئون الدولة بكتابه أبي العلاء فهد بن إبراهيم — وكان نصرانيا . وظل برجوان يدبر شئون الدولة الفاطمية ويشرف على الخليفة الذي ضاق بأستاذه ذرعا ، فأمر بقتله في شهر ربيع الثاني سنة ٣٩٩ هـ (٢) ، فخل محله الحسين بن جوهر القائد الذي استعان بفهد بن إبراهيم ، وكان يلقب «الرئيس» . وكانا يدبران وينفذان في القصر ، واستمر على ذلك إلى أن زال أمر الرئيس في جمادى الآخرة من سنة ٣٩٣ هـ (حيث قتل وأُحرق ، وأقام قائد القواد (يعني الحسين بن جوهر) على أمره . ثم خاف وهرب هو وابن النعمان ، وكتب لهما أمانان ، فعادا ، وبطل أمر قائد القواد في النظر (ثم قتل ، (٣) .

وإن من يستقصي تاريخ الوزارة في عهد الخليفة الحاكم يرى أن كثيرا من الوزراء كانوا من أهل الذمة ، وأنهم كانوا لا يستقرون في الحكم طويلا ، لمحاباتهم أبناء جلدتهم وتدمير المسلمين منهم . ففي المحرم سنة ٤٠١ هـ أقيل ابن عبدون النصراني من الوزارة ، وخلفه أحمد بن محمد القشيري ، ولكنه عزل بعد عشرة أيام ، ثم قتل وحل محله في الوزارة زُرعه أخو عيسى بن نسطورس وتلقب بالشافى (٤) . وفي سنة ٤٠٣ هـ تقلد الوساطة ، الحسين بن طاهر الوزان وتلقب «بأمين الأمان» ، وخلع عليه الحاكم وخلع الوساطة والتوقيع عن الحضرة . واستمر في دست الوزارة إلى أن قتل في شهر جمادى الآخرة سنة ٤٠٥ هـ (٥) . وقد بلغ من ضعف شأن الوساطة أن بعضهم كان لا يستقر فيها أياما معدودات ، كما كان يتولى الوساطة أكثر من واحد . ففي شهر شعبان سنة ٤٠٥ هـ تقلد هذه الوساطة الحسن وعبد الرحمن ابنا أبي السيد في وقت واحد وخلع عليهما ، إلا أنهما لم يلبثا أن قتلا ولما يستقرا غير شهرين . وكذلك تولى الوساطة أبو العباس الفضل بن الوزير جعفر بن الفرات ، ولكنه لم يستقر في منصبه وخلع بعد خمسة أيام فقط (٦) .

ومن أشهر وزراء العصر الفاطمي الأول أبو الحسن علي بن جعفر بن فلاح ، الذي لقب «وزير الوزراء ذى الرياستين الأمر المظفر قطب الدولة» . وقد وصفه ابن منجب الصيرفي (٧) في هذه العبارة فقال : إنه كان من أول الكتاميين بيتا وأجلهم قدرا . . . وكان أوجه الأمراء في الدولة الحاكمة ، وقاد الجيوش السائرة إلى الشام ، ومرض في سنة ست وأربعمائة ، فركب الإمام الحاكم إلى داره لعيادته ، وحمل إليه مرتبة ديباج وخمسة آلاف دينار . وكانت هذه عادته إذا عاد أحدا . وفي رجب سنة ثمان وأربعمائة بعث بما تقدم ذكره . وكتب له سجل بذلك ، فكان الناظر في جميع رجال الدولة ؛ وجعل له في سجله ولاية الإسكندرية وتونس ودمياط والشرطين العليا والسفلى والحسبة والسيارتين

(١) أبو شجاع ج ٣ ص ٢٢٢ (٢) ابن منجب الصيرفي: الاشارة إلى من نال الوزارة ص ٢٧

(٣) المصدر نفسه ص ٢٨ (٤) يحيى بن سعيد: صلة تاريخ أوتينا ص ١٩٨ — ١٩٩ .

(٥) ابن منجب: الاشارة إلى من نال الوزارة ص ٢٩ (٦) المصدر نفسه ص ٣٠

(٧) المصدر نفسه ص ٣٠—٣٢

والعرض (١) والإثبات (٢) والنظر في الواجبات (٣) . . . وفي شوال سنة تسع وأربعمائة ركب على رسمه (٤) من داره إلى القاهرة ؛ فلما صار بقرب البرك التي تلي الخليج ، لقيه فارسان متسكران ، فرماه أحدهما برمح جرحه ، وولى هاربا ، ولم يدرك ، فعاد إلى داره مجروحا ، ومات من جراحته غد يومه ، فركب ولى العهد وصلى عليه وواراه وحضر معه قاضى القضاة . . .  
ومن أشهر رجال هذا العصر الذين تقلدوا الوساطة والوزارة أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائى (٥) وقد تقلد بعض المناصب العالية في عهد الحاكم ، ثم تقلد الوساطة مع جليل الدولة أبى عبد الله محمد ابن العداس ، وذلك في أوائل خلافة الظاهر الفاطمى (٤١١ — ٤٢٧ هـ) ، فبقيا معا في الوساطة سبعة أشهر . ولكن الجرجرائى لم يتقلد الوزارة ، إلا في سنة ٤١٨ هـ ، وبقي فيها حتى مات الخليفة الظاهر فأقره ابنه المستنصر في منصبه حتى مات سنة ٤٣٦ هـ (٦) .

### سجل تقليد الجرجرائى الوزارة :

وفد دون ابن القلانسى (٧) سجل تقليد أبى القاسم الجرجرائى الوزارة . وما جاء فيه :  
« أما بعد . . . وإن أحق من عول عليه في الوزارة وأسند إليه أمر السفارة ، ونصب لحفظ الأموال وتميزها وسياسة الأعمال وتديرها وإيالة طوائف الرجال كبيرها وصغيرها ، من كان حفيظا لما يستحفظ من الأمور ، قووما بمصالح الجمهور ، عليا بمجارى السياسة والتدبير . ولذلك قال يوسف الصديقى عليه السلام : اجعلنى على خزائن الأرض إني حفيظ عليم . ولو استغنى أحد من رعاة العباد عن وزير وظهير يكاتبه عن أمره ويظاهاه ، لكان كليم الله موسى صلى الله عليه ، وهو القوى الأمين عنه مستغنيا ، ولم يكن له من الله جل جلاله طالبا مستديعا . وقد قال : ( ربّ اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واحلل عُنُقَدة من لسانى يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيرا من أهلى هرون أخى أشدُّد به أزرى واشركه فى أمرى كى نسبّحك كثيرا ونذكرك كثيرا (٨) ) . ولما كنت بالأمانة والكفاية علما ، وعند أهل المعرفة والدراية مقدما ، وكان الكتاب على اختلاف طبقاتهم وتفاوت درجاتهم يسلمون إليك فى الكتابة ، ويقعدون بك فى الإصابة ، ويشهدون لك بالتقدم فى العناء ، ويمتدنون بحملك امتداء السقفّر بالنجم فى الليلة الظلماء ، ولا يتناكرون الانحطاط عن درجتك فى

(١) أى عرض أمور الدولة على الخليفة

(٢) يريد اثبات توقيعات الخليفة فى الأوراق والقصص التى تعرض عليه

(٣) يريد النظر فيما يجب تنفيذه من أمور الدولة (٤) أن على ما جرت به العادة

(٥) - ينسب لى جرجرايا ، إحدى قرى سواد العراق ، وقد وصل لى مصر ودخل فى خدمة الحاكم . وشهد الاضطهادات التى حدثت فى عهده ، فسجن (٤٠٣ هـ) ثم قطعت يده فى السنة التالية ، ولكنه لم يلبث أن أسند ليه ديوان النفقات فى سنة ٤٠٦ هـ ، ولقب نجيب الدولة (٤٠٧ هـ) .

(٦) ابن منجب الصيرفى : الاشارة لى من نال الوزارة من ٣٥ — ٣٧ .

(٧) ذيل تاريخ دمشق ص ٨٠ — ٨٤ . (٨) سورة طه رقم ٢٠ آية ٢٥ — ٣٤ .

الفضل لتفاوتها في الارتفاع ، ولا يرمد ذلك راد من الناس أجمعين إلا خصصه وقوع الاجماع .  
هذا مع المعروف من استقلالك بالسياسة ، واستكمالك لادوات الرئاسة ، وتدبيرك أمور المملكة ،  
وما ألف برشد وساطتك من سمو الين والبركة - رأى أمير المؤمنين ، وبالله توفيقه ، أن يستكفيك  
أمر وزارته وينزلك أعلى منازل الاصطفاء بخاص أثرته ، ويرفعك على جميع الأكتفاء بتمام تكريمته ،  
ويشوه باسمك تنويها لم يكن لأحد قبلك من الظكهره في دولته . فسيماك بالوزير لموازنتك له على حمل  
الأعباء ، ووكد هذا الاسم بالأجل ، لأنك أجل الوزراء ، وعزز ذلك بصفي أمير المؤمنين وخالصته ،  
إذ كنت أعز الخالصاء والأصفياء ، وشرفك بالنسبية تسميقا بك في العلياء ، ودعا لك بأن يتمه الله  
بك ويؤيدك ويعضدك دعاء يجيبه فيك رب السماء . فأنت الوزير الأجل صفي أمير المؤمنين وخالصته  
المحبوب بالمن الجسيم ، ذلك فضل الله يؤتية من يشاء والله ذو الفضل العظيم . وأمر أمير المؤمنين بأن  
تدعى هذه الأسماء وتخطب وتكاتب بها عن نفسك وتكاتب . ورسم ذكر ذلك فيما يجرى من  
المحاورات وإثباته في ضروب المكاتبات ، ليثبت ثبوت الاستقرار ، ويبقى رسمه على مر الليالي  
والهار . فاحمد الله تبارك وتعالى على تمييز أمير المؤمنين لك بتشريفه واختصاصه ، وإحلاله إياك  
أعلى مجال خواصه . واجر على سننك الحميد في خدمته ومذهبك الرشيد في مناصحته ، إذ كان قد فوض  
إليك أمر وزارته ، وجعلك الوسيط بينه وبين أوليائه وأنصار دعوته وولاية أعمال مملكته وكتاب  
دواوينه وسائر عبيده ورعيته شرقا وغربا وقربا وبعدا ، وأمضى توقيع من تنصبه للتوقيع عن أمير  
المؤمنين في الإخراج والإنفاق والإيجاب والإطلاق ، وناط بك أزمة الحل والعقد والإبرام والقبض  
والبسط والإثبات والحط والتصريف والصرف ، تفويضا إلى أمانتك التي لا يقدر فيها معاب ،  
وسكونا إلى ثقتك التي لا يلم بها ارتياب ، وعلما بأنك تورد وتصدر عن علم وحزم تفوق فيهما كل  
مقاوم ، ولا تأخذك في المناصحة لأمير المؤمنين والاحتياط له لومة لائم ، وجميع ما يوصى به غيرك  
ليكون له تذكرة وعليه حجة ، فهو مستغنى عنه معك لأنك تغنى بفرط معرفتك عن التعريف ،  
ولا تحتاج مع وقوفك على الصواب ، وعلمك به إلى توقيف . غير أن أمير المؤمنين يؤكد عليك  
الأمر بحسن النظر لرجال دولته دانيهم وقاصيهم ، بارك الله فيهم ، وأن يتوفر على ما يعود بصلاح  
أحوالهم وانفساح آمالهم وانشرح صدورهم وانتظام أمورهم ، إذ كانوا كتائب الإسلام ومعاقل  
الانام وأنصار أمير المؤمنين المحفوفين بالإحسان والإنعام ، حتى تحسن أحوالهم بحميل نظرك  
ويزول سوء الأثر فيهم بحسن أترك . وكذلك الرعايا بالحضرة وأعمال الدولة ، فأمرهم من المعنى به  
والمستول عنه . وأمير المؤمنين يأمرك بأن تستشف خبرة الولاية فيهم . فن ألفتهم من الرعية  
مظلوما ، أو عزت بنصفته ، ومن صادفته من الولاية ظلوما تقدمت بصرفه وحسم مضرتة ومعرته .

خاف الجرجراني في الوزارة أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحى ، ولقبه الخليفة المستنصر وتاج  
الرياسة فخر الملك مصطفى أمير المؤمنين<sup>(١)</sup> . وكان الفلاحى يهوديا ثم أسلم . وقد أشار الجرجراني قبل  
موته بتقليده الوزارة . ولكن الفلاحى لم يكن له من مركز الوزارة إلا الاسم ، بسبب اتساع سلطة

(١) ابن منجب الصيرفي : الاشارة إلى نال الوزارة من ٣٨ .



أبي سعد التستري اليهودي ، وكانت أم الخليفة المستنصر من قبل أمة في بيته ، فأهداها إلى الخليفة الظاهر . فلما مات هذا الخليفة ارتفع قدر التستري وتقرّب من المستنصر ، وأخذ يتولى ما يخص السيدة الوالدة ، وعظم شأنه إلى أن صار ناظراً في جميع أمور الدولة ، فلا يخرج شيء عما يرسمه (١) ، ولا يعمل الوزير إلا بما يحده له ويمثله (٢) . فكره الفلاحى ذلك وأنف منه ، فدبر عليه ، وحمل جماعة من الأتراك على قتله ، ففتكوا به عند دخوله من باب القنطرة متوجهاً إلى القصر ، وقطع لحمه وطيف به . وظن الفلاحى أن الدنيا قد صفت له ، وأنه قد أمن ما يكرهه . فاتها بعمره ، ولا استمتع بنبيه وأمره ، وقبض عليه في سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ، واعتقل وقتل .

وقد ذكر ابن ميسر (٣) سبب مقتل الفلاحى فقال إن أم المستنصر حقدت عليه لعمله على قتل التستري ، فقبض عليه ثم قتل في المحرم سنة ٥٤٤ .

وقد تلقب بعض الوزراء الذين تقلدوا الوزارة بعد المعز بألقاب منسوبة إلى الدولة كآبى محمد الحسن بن عمار الكتامى ، الذى تلقب بلقب أمين الدولة . وتلقب الحسن بن صالح بن على الروذبارى بعميد الدولة ، وتلقب زرعة أخوعيسى بن نستورس بالشافى ، وتلقب الحسين بن طاهر بأمين الأمان ، وتلقب أبو الحسن على بن جعفر بن فلاح بوزير الوزراء ذى الرياستين الأمر المظفر قطب الدولة ، وتلقب أبو القاسم الجرجرائى بالوزير الأجل صنئ أمير المؤمنين وخالصته . وتلقب أبو منصور صدقة الفلاحى بتاج الملة فخر الملك مصطفى أمير المؤمنين .

وسرى في الجزء الرابع من هذا الكتاب أن الوزارة في عهد المستنصر أصبحت وزارة تفويض ، وأن من تقلدها كانوا من أرباب السيوف ، بعد أن كانت وزارة تنفيذ أو وساطة يرجع من تقلدها إلى أمر الخليفة ونبيه .

#### ٤ - الوزارة فى الأندلس

لم يكن إطلاق لفظ الوزارة فى الدولة الأموية بالأندلس شائعاً كما كان فى الدولة العباسية فى المشرق والدولة الفاطمية فى مصر . فكان يطلق على من يضطلع بأعباء الوزارة فى الأندلس اسم الحاجب تارة واسم الوزير أو ذى الوزارتين تارة أخرى . ولهذا نرى أن الحاجب فى الدولة الأموية بالأندلس لم يقصد به ذلك الموظف الذى يحجب السلطان عن الخاصة والعامة كما كانت الحال عند الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين ، وإنما قصد به هنا من يتولى الوزارة بمعناها المعروف . يقول المقرئ (٤) : « وأما قاعدة الوزارة بالأندلس فإنها كانت فى مدة بنى أمية مشتركة فى جماعة يعينهم صاحب الدولة للإعانة والمشاورة ، ويخصهم بالمجالسة ، ويختار منهم شخصاً لمسكان النائب المعروف بالوزير ، فيسميه بالحاجب . وكانت هذه المراتب اضبطها عندهم كالتوارث فى البيوت المألوفة لذلك ، إلى أن كانت ملوك الطوائف . فكان الملك منهم ، لعظم اسم الحاجب فى الدولة الروانية ، وأنه كان نائباً عن خليفته يسمى بالحاجب ، ويرى أن هذه السمة أعظم ما تنوفس فيه

(١) يريد أو بأمر به . (٢) أى يرسمه له ويقدره .

(٣) تاريخ مصر ص ٢ . (٤) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ١٠٢ .

وظفر به . وهي موجودة في أمداح شعرائهم وتواريخهم . وصار اسم الوزارة عاماً لكل من يجالس الملك ويختص بهم ، وصار الوزير الذي ينوب عن الملك يعرف بذى الوزارتين . وأكثر ما يكون فاضلاً في علم الأدب ، وقد لا يكون كذلك ، بل عالماً بأمور الملك خاصة .

وقد ألقى ابن خلدون ضوءاً على نظام الوزارة في الدولة الأموية بالأندلس ، فبين أن الحاجب كان يقوم بعمل الوزير في الدولتين العباسية والفاطمية ، ويشرف على أعمال أصحاب الدواوين الذين يطلق على كل منهم اسم الوزير . فكان الحاجب يقوم بعمل رئيس الوزراء اليوم ، ويتولى رئاسة مجلس الوزراء الذي يشرف على شئون الدولة . وهاك ما ذكره ابن خلدون (١) :

« وأما دولة بني أمية بالأندلس ، فأنفوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ، ثم قسموا خطته أصنافاً ، وأفردوا لكل صنف وزيراً : فجعلوا الحسبان المال وزيراً ، ولترسيل وزيراً ، ولنظر في حوائج المظلمين وزيراً ، ولنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً . وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم ، ويتفدون أمر السلطان هناك ، كل فيما جعل له . وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت ؛ فارتفع مجلسه عن مجالسهم ، وخصوه باسم الحاجب . ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم ؛ فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها . فأكثرهم يومئذ يسمى الحاجب . »

ولم يكن مجلس الحاجب ، أو بالأحرى مجلس الوزارة ، هو وحده الذي يدير شئون الدولة ، بل كان إلى جانبه مجلس آخر يسمى « مجلس الشورى » ، يرأسه الأمير أو الخليفة ، ويضم كبار رجال الدولة وبعض الأمراء من أفراد البيت الأموي .

وكان عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) أول من لقب وزيره بذى الوزارتين ، مقتدياً في ذلك بالعباسيين ، لجمعه بين خطتي السيف والقلم . ففي سنة ٣٢٧ هـ (٩٣٨ م) لقب أحمد بن عبد الملك بن شهيد ذا الوزارتين ، وضاعف له راتبه . وكان هذا الموظف يقوم ببعض أعمال الحاجب إذا اشتد ضغط العمل عليه . وكان الأمويون يستندون الوزارة أحياناً إلى غير المسلمين من أهل الذمة ، كما فعل عبد الرحمن الناصر مع حسداى بن شبروط الذي بعث به سفيراً إلى أوتو إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . ولما ضعفت الخلافة الأموية في الأندلس ازداد نفوذ الحاجب ، حتى إن الخليفة لم يعد له من الأمر شيء . وقد رأينا كيف تخلص ابن أبي عامر من جعفر بن عثمان المصحفي الحاجب في عهد هشام المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) ليصفو له الجو في بلاد الأندلس ، وكيف جلس مكانه على كرسي الحجابة ، وأصبح الحاكم المطلق للدولة الإسلامية في هذه البلاد حتى دعى له على المنابر وضربت السمكة باسمه بعد هذا الخليفة ، ونقش اسمه على الملابس المنسوجة بالذهب كما كان ينسج اسم الخلفاء (٢) .

### (ج) الكتابة :

#### ١ - في الدولة العباسية :

لما تعددت الدواوين في الدولة العباسية أصبح من الضروري تعيين طائفة من كبار الموظفين (١) مقدمة من ٢٠٨ . (٢) انظر هذا الكتاب (ص ٣٠٢ - ٣٠٨) للوقوف على مدى نفوذ بيت المنصور الحاجب .

للإشراف على هذه الدواوين . ويسمى كل من هؤلاء الموظفين « السكاتب » . ومن أشهر الكتاب في العصر العباسي الثاني : كاتب الرسائل ، وكاتب الخراج ، وكاتب الجند ، وكاتب الشرطة ، وكاتب القاضي . ومهنة كاتب الرسائل لإذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة ، ومراجعة الرسائل الرسمية ووضعها في الصيغة النهائية وختمها بخاتمه . كما كان يجلس مع الخليفة أو أمير الأمراء أو السلطان في مجلس القضاء ، للنظر في المظالم وختم الأحكام بخاتم الخليفة . وكان كاتب الرسائل يتولى مكاتبة الأمراء والملوك عن الخليفة . وقد ذكر ابن خلدون (١) الصفات التي يجب أن تتوفر في الكاتب عامة وفي كاتب الرسائل خاصة في هذه العبارة فقال : « واعلم أن صاحب هذه الحظوة لا بد من أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم ، وزيادة العلم ، وعارضة البلاغة . فإنه معرض للنظر في أمور العلم لما يعرض في مجلس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل ، مع ما يضطر إليه في الترسيب وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها » .

ومن أشهر الكتاب في ذلك العصر محمد بن عبد الملك الزيات . وكان يلي ديوان الرسائل في عهد الواثق ، وهو الذي كتب البيعة بولاية المتوكل العهد . ولما ولي المتوكل الخلافة نكبه بعد قليل (٢) . وكان الخلفاء يستمضون عن الوزراء بالكتاب أحيانا ، كما كانت الكتابة سبيلا إلى الوزارة في كثير من الأحيان : فنرى الخليفة المتوكل يتخذ أبا الوزير كاتباً له بعد ابن الزيات دون أن يلقبه بالوزير (٣) . ونرى الخليفة المقتدر يتخذ ابن الفرات الذي ولي الكتابة من قبل وزيراً له ، وكثيراً ما نرى بعض الخلفاء يتخذون من الكتاب قوادا يعتمدون عليهم في النزوات . وأحسن مثل لفلك محمد بن سليمان السكاتب الذي قضى على الحسين بن زكريه القرمطي وأزال خطره عن بلاد الشام في سنة ٢٩١ هـ ، كما قضى على الطولونيين في مصر في السنة التالية .

ولم يكن اتخاذ الكتاب مقصوراً على الخلفاء وحدهم ، بل كان أمراء الأمراء وسلاطين بني بويه وعمال الأقاليم يتخذون كتاباً يعاونونهم في الإدارة . فقد اتخذ بحكم الذي تقلد إمرة الأمراء في عهد الراضي والمتقى والكوفي ، كاتباً له . وكان لهذا الكاتب أثر كبير في تولية المتقى الخلافة . وكذلك اتخذ توزون الذي تقلد إمرة الأمراء في عهد المتقى أبا جعفر بن شيرزاد كاتباً له (٤) . كما نرى ابن العميد وزير ركن الدولة بن بويه في الري وهمذان وأصبهان ، يتخذ ابن عباد كاتباً له ويعد إليه بتبشئة مؤيد الدولة بن ركن الدولة . ولم يلبث هذا الكاتب أن ارتقى إلى رتبة الوزارة في عهد مؤيد الدولة وأخيه نجر الدولة .

(١) مقدمة ص ٢١٥ .

(٢) الطبري ج ١١ ص ٢٦ .

(٣) أنظر هذا الكتاب ص ٢٣ .

(٤) المصدر نفسه ص ٧٣ ، ٨٥ .

٢ - في مصر والأندلس :

ولم تعرف الوزارة في مصر قبل عهد الإخشيديين كما تقدم ، فإن أحمد بن طولون اتخذ أحمد بن محمد الواسطي كاتباً ، واتخذ بعده جعفر بن عبد الغفار المصري . وعلى أنه يظهر لنا أنه لم يكن من الكفاية بحيث يستطيع الاضطلاع بأعباء هذا المنصب ، فأشار أحمد بن خاقان على ابن طولون بصرفه ، فقال له : أنا أحتمله لأنه مصري . فقال له ابن خاقان : أراك أيها الأمير تفضل الكاتب المصري على الكاتب البغدادي ، قال : لا والله ، ولكن أصلح الأشياء لمن ملك بلداً أن يكون كاتبه منه ، وأن يكون شمل الكاتب فيه ، فإنه يجتمع له في ذلك البلد أمور صالحة منها : أن تكون بطانة الكاتب وحاشيته في ذلك البلد فيعود مرافقه على فريق من أهله ، ومنها رغبته في اعتقاد المستغلات به فيكون صفاً (١) لجناياته . وهو مع هذا وشمله ظاهرون مستقلون في خدمتي . والكاتب العراقي ليس كذلك ، لأنه يعتقد المستغلات في بلده الناتئ عنه وعن ، ويستبطن الرقاع ، ومن يشير عليه أن يعمر بلده الذي يعمل فيه ، وهو في كل وقت متطلع إلى بلده . فهذه السبب زهدت في كتاب سر من رأى ، مع علمي بتقدمهم في الكتابة والرجاحة ، فصوبت رأيه ورأيت عذره ، (٢) .

وكانت الكتابة في عهد الفاطميين تلى الوزارة في الرتبة ، وكال الخلفاء لا يستدونها إلا لمن أنسوا فيهم الكفاية والقدرة على معالجة الأمور ، فإذا حاز صاحبها رضا الخليفة رشحه للوزارة في أي وقت . وقد اتخذ المعز لدين الله الفاطمي في المغرب جوهر الصقلي كاتباً سنة ٥٣٤١ هـ . وكان صاحب الإنشاء والمراسلات يتقاضى في مصر الفاطمية راتباً ضخماً ، وبليه في الرتبة صاحب القلم الدقيق الذي يوقع على المظالم ، ويجالس الخليفة في خلوته ، فيدارسه كتاب الله ، ويتلو عليه سير الأنبياء والخلفاء والعظماء ، ويحدثه عن مكارم الأخلاق ، ويعلمه تجويد الخط . ولما أصبح الوزير في أواخر عهد الدولة الفاطمية صاحب السيف والقلم ، جالس للمظالم ، وإلى جانبه صاحب القلم الدقيق بدل كاتب السر . وكانت له سلطة التوقيع تحت توقيع الوزير ، بل النظر في الشكاوى قبل انعقاد مجلس النظر في المظالم . وبلى صاحب القلم الدقيق في الرتبة صاحب القلم الجليل ، ومهشته تسلم رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق ووضعها في الصيغة القانونية قبل عرضها على الخليفة للتصديق عليها . وكان الكتاب يختارون ممن اشتهروا بسعة الاطلاع في الأدب وامتازوا بالقدرة في فن الإنشاء . وفي عهد الفاطميين نبغ أبو عبد الله القضاعي (ت ٥٤٥٤ = ١٠٦٢ م) في الكتابة حتى أصبح من كتاب البلاط . وقد عهد إليه الوزير أبو القاسم الجرجاني في أن يكتب العلامة أو الإشارة التي تذييل بها الأوراق الرسمية لإعطاها الصيغة الرسمية ، وتكون من هذه العبارة : الحمد لله شكراً لنعمته (٣) . وكانت الكتابة في الأندلس تلى الوزارة في الرتبة وتنقسم قسمين : كتابة الرسائل ، ويسمى صاحبها الكاتب ، . ويشترط فيه أن يكون بليماً حسن الأسلوب جزلة العبارة ؛ وكاتب الزمام ،

(١) ضبانا

(٢) النظم الاسلامية من ١٨١ - ١٨٢ ، نقل عن كتاب سيرة أحمد بن طولون لابن الدايدة من ١٥٠ .

(٣) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون في مصر من ١٥١ - ١٥٢ .

ويعرف بكتاب الجهبذة، ويشترط فيه أن لا يكون ذمياً، بل يجب أن يكون من عظام المسلمين ووجههم، وتعلو مرتبته مرتبة الوزير، وفيه يقول المقرئ (١): «أعظم من الوزير وأكثر أتباعاً وأصحاباً، وأجدى منفعة. فاليه تميل الأعناق، ونحوه تمد الأكف، والأعمال مضبوطة بالشهود والنظار». وكثيراً ما كان هذا الكاتب غرضاً للاضطهاد والعزل والمصادرة، ولا سيما حين ضعفت الدولة وتزعزع الأمن فيها.

( ٤ ) الحجابة :

كان معاوية أول من اتخذ الحجاب من الخلفاء بعد وفاة الخوارج عليه وعلى بن أبي طالب وعمرو بن العاص، وذلك خوفاً على حياتهم، ومنعاً لزدحام الناس على أبوابهم حتى لا ينشغلوا عن مهام الدولة. وقد حذا العباسيون حذو الأمويين فاتخذوا الحجاب وزادوا في منع الناس من لقاء الخليفة إلا في الأمور الهامة. ومن ثم أصبح بين الخليفة وبين الناس داران: دار الخاصة ودار العامة حيث يقابل الخليفة كل طائفة في مكان معين حسبما يرسمه لهم الحجاب. ثم تطور نظام الحجابة في العصر العباسي الثاني، فاتخذ الخلفاء حجاباً ثالثاً أشد من الأولين، وفي ذلك يقول ابن خلدون (٢): «قد قدمنا أن هذا اللقب كان مخصوصاً في الدولة الأموية والعباسية بمن يحجب السلطان عن العامة، ويغلق بابهم، أو يفتح لهم على قدره في موافقته. وكانت هذه مُشتركة يومئذ عن الخطاط مرهوسة لها، إذ الوزير متصرف فيها بما يراه. وهكذا كانت سائر أيام بني العباس وإلى هذا العهد (أى في عهد المالك)، فهي بمصر مرهوسة لصاحب الخطة العليا المسمى بالنائب».

ولم تقتصر مهمة الحاجب في ذلك العصر على حراسة الخليفة ومنع الناس من الاتصال به، بل تعداه إلى التدخل في أهم شئون الدولة، حتى استبد بعضهم بها دون الوزراء. وكان أصحاب الدواوين يرجعون إليهم في المسائل المتعلقة بدواوينهم ولا يفصلون فيها إلا بعد الرجوع إليهم. وكثيراً ما كان الحاجب يصيغ غرضاً لدماسيس الوزير إذا زاد نفوذه وعظم استبداده بأمر الدولة. ومن أحسن الأمثلة التي تؤيد صحة هذا الرأي تدبير الوزير أبي علي بن مقلة مؤامرة انتهت بالقبض على محمد بن ياقوت الحاجب. وفي ذلك يقول مسكويه (٣): «كان السبب في ذلك أن أبا علي كان قلقاً من غلبة محمد بن ياقوت على تدبير الأمور، ونظره في جباية الأموال، وحضور أصحاب الدواوين مجلسه، وتفردده بما يعمله الوزراء وعظمته هو، إلى أن تم تدبيره عليه. فلما كان يوم الاثنين لست خلون من جمادى الأولى (سنة ٣٢٣ هـ)، ركب القواد إلى دار السلطان على رسمهم في أيام المواكب، وحضر الوزير أبو علي بن مقلة، وأظهر الراضى أنه يريد أن يقلد جماعة من القواد عدة نواح من المملكة، ويخلع عليهم. وحضر محمد بن ياقوت للخدمة وأبو إسحق القراريطى كاتبه معه،

(١) نصح الطبيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ١٠٣.

(٢) مقدمة ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٣) كتاب تجارب الأمم ج ١ ص ٣١٨ - ٣١٩.

وجلسوا على رسمهم في الصحن النسعيني . ثم خرج الخدم إلى محمد بن ياقوت ، فعرّفوه أن الخليفة يطلبه ، فقام مبادراً . فلما دخل عدل به إلى حجرة قد أعدت له ، وأخذ سيفه ومنطقته ، ووكّل به . ثم خرج الخدم إلى أبي إسحق القراريطي ، فعرّفوه أن صاحبه يطلبه ، فلما دخل عدل به إلى حجرة أخرى ، وحبس ، ووجه يقوم إلى دار المظفر بن ياقوت ، فقبض عليه ، وحمل إلى دار السلطان ، وحبس مع أخيه ، وكان وجد قريبا من السكر لأنه كان يشرب . ونفذت حيلة الوزير أبي علي عليهم ، وتقدم إلى الغلمان الحجيرية والساجية أن يصيروا إلى دار السلطان ، وأن يضربوا مضاربتهم في بابي الخاصة والعامة ليحفظوا الدار .

ولم يكن للحاجب في الدولة الفاطمية ما كان له من النفوذ في العصر العباسي الثاني . ويقول ابن خلدون إنه لم يكن في دول المغرب وإفريقية ذكر لهذا الاسم للبدوة التي كانت فيهم . وربما يوجد في دولة العبيديين عند استعظامها وحضارتها ، إلا أنه لقليل . ولكن الحاجب كان - بلا شك - من رجال البلاط الفاطمي ، بدليل ما يقوله القلقشندي (٢) عن انعقاد مجلس الملك في عهد الفاطميين : إن صاحب بيت المال والحجاب والأمناء كانوا يأخذون أمكنتهم عند الأبواب ، في الوقت الذي يكون الحاضرون قد أخذوا فيه أمكنتهم المخصصة لهم ، وعندئذ يأخذ أحد الأمناء في تقديم من يرى من المناسب تقديمه للخليفة . فمن هذا نعلم أن الحاجب لم يكن يتمتع بذلك النفوذ الذي تمتع به الحاجب في البلاد الإسلامية الأخرى . ولم تقتصر الحجابة على الخلفاء الفاطميين ، بل اتخذ كل من قاضي القضاة والوزير حاجبا أو أكثر يقفون بين يديه إذا جلس للحكم .

أما في بلاد الأندلس فكانت الحجابة تختلف اختلافا كبيرا عنها عند العباسيين والفاطميين كما تقدم ، لاستبداد الحاجب في الأندلس بشئون الدولة . وأحسن مثل لذلك الحاجب المنصور بن أبي عامر (٣) .

## ٢ - النظام الإداري

### (١) الإمارة على البلديات :

كان النظام الإداري في العصر العباسي الأول نظاما مركزيا ، بمعنى أن عمال الأقاليم لم تكن لهم السلطة المطلقة التي كانت لولاة الأقاليم في عهد الأمويين . وكان الخليفة العباسي في ذلك العصر يختار عمال الأقاليم ممن يثق بهم . ومع ذلك فإنه لم يترك الوالي حرا من كل قيد ، بل قيد سلطته

(١) كتاب النظم الإسلامية للمؤلف ١٨٨ .

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧-٤٨٨ ، والفاطميون في مصر ص ٢٦٩ .

ذكر القلقشندي أنه كان يجلس بياب قاضي القضاة خمسة حجاب : إثنان بين يديه ، وإثنان على باب المقصورة ، وواحد بنفذ الخصوم ( ج ٣ ص ٤٨٧ ) . وكان من عادة الوزير أن تحصل له الدواة المحلاة بالذهب من خزانة الخليفة ويقف بين يديه الحجاب ( ج ٣ ص ٤٩٠ ) .

(٣) أنظر هذا الكتاب ص ٣٠١ - ٣٠٧ .

المدنية والقضائية ، ولم يتركه كذلك في ولايته مدة طويلة حتى لا يستبد بالأمور أو ينجح إلى الاستقلال ، كما كان يرغمه على أن يقدم بياناً مفصلاً عن شئون ولايته بعد عزله ، ويصادر أملاكه إذا شك في صدقه وأمانته ، ولذلك لم تسكن وظيفة الوالي في هذا العصر أكثر من وظيفة صورية (١) . وكانت الدولة العباسية في أوائل القرن الرابع الهجري تتألف من عدة ولايات وهي : مصر ، وفارس ، والبصرة ، والأهواز ، والرى ، والشام ، وأصبهان ، والثغور (٢) .

وكان يساعد الوالي أو الأمير في ولايته موظف كبير يسمى العامل أو صاحب الخراج ، لأن عمله مقصور على جمع الخراج وإرساله إلى بيت المال بحاضرة الدولة والاتفاق على ما تتطلبه الولاية من ضروب الإصلاح . وكان هذا الموظف لا يقل في المنزلة عن الوالي أو الأمير ، فيخاطب في المراسلات الخاصة به بما يخاطب به الوالي ، كما ترسل المنشورات إليه في الوقت الذي ترسل فيه إلى الوالي ، الذي لا يمتاز عنه إلا بالصلاة بالناس في المسجد ، مما يجعل ولايته أعم من العامل أو صاحب الخراج . وإذا اتفق كل من الوالي والعامل ، كان هذا الاتفاق مصدر خير للولاية . وكثيراً ما أدى اتفاقهما إلى إثارة المتاعب على الدولة نفسها . ففي سنة ٣١٩ هـ استطاع والى فارس وكرمان وعامل الخراج فيهما أن يمنعا وصول الأموال إلى بغداد ، وكانا بذلك مصدر قلق للخلافة العباسية . وإذا اجتمع هذان المنصبان لرجل واحد أصبح أشد خطراً على الخلافة ، كما حدث حين امتنع بحكم التركي عن تولى أمور الأهواز مع بقاء عامل الخراج بجانبه ، وحمل الخليفة العباسي على أن تكون له الولاية والخراج ، فأجيب إلى ذلك ( سنة ٣٢٥ هـ ) (٣) .

ولما أخذت الدولة العباسية في الضعف ، أصبح الولاة يؤثرون البقاء في بغداد أو في سامرا وبنبيون عنهم من يدير شئون الولايات باسمهم . وكان من أثر هذه السياسة أن جنح بعض النواب والولاة إلى الاستقلال ؛ كما كان لضعف الساطة المركزية أثر في استقلال ولاية الأقاليم البعيدة عن حاضرة الدولة . فترى أحمد بن طولون يعمل على الجمع بين وظيفتي الوالي ( الحرب والصلاة ) والعامل ( الخراج ) والاستقلال بمصر ، ويحذو حذوه في ذلك محمد بن طغج الإخشيد .

وكذلك فعل يعقوب بن الليث الصفار الذي استولى على كثير من بلاد الدولة العباسية وحمل الخليفة على الاعتراف بنفوذه فيها ، وأسس الدولة الصفارية ( ٢٥٤ — ٢٩٠ هـ ) . واستطاع السامانيون أن يستقلوا ببلاد ماوراء النهر ويستحوذوا على ما كان في أيدي الصفارية ويؤسسوا الدولة السامانية ( ٢٦١ — ٣٨٩ هـ ) (٤) . وهذه الحالة السيئة تعلق قيام الدول المستقلة في ذلك العصر ، فظهرت في مصر الدولتان الطولونية والإخشيدية ، اللتان قامت على أنقاضهما الدولة الفاطمية ، وظهر كذلك في

(١) أنظر الجزء الثاني من هذا الكتاب ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

(٢) ابن الصائغ : تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ١٥٦ .

(٣) آدم متر : الحضارة الإسلامية : ترجمة أبي ربه ج ١ ص ١٣٢ — ١٣٣ .

(٤) أنظر هذا الكتاب ص ١٤٣ ، ١٥٢ .

المشرق دول الصفارية والسامانية والغزنوية والبويهية في فارس وفي الري وهمذان وأصبهان . وكان يساعد الوالي والعامل في المدن جماعة من الموظفين أهمهم القاضي ، والبندار ، ويعرف بكتاب السلعة ، ومهنته المطالبة بالخراج ووجوه المال ، وصاحب الجند ، وصاحب البريد ، ومتولى السواقي أو الضياع السلطانية ، وصاحب المعونة ، وكان يساعد صاحب الجند . وكان هؤلاء الموظفون يعينون من قبل الوزير ، ويعزلون بعزله ، ثم يعودون إلى الحكم بعودة الوزير مما أدى إلى إشاعة الاضطراب وكثرة التعطل . ويقول ابن الأثير<sup>(١)</sup> عن سوء حالة الولايات في ذلك العصر وما أصاب أهلها من عنت الولاة الذين لا هم لهم إلا جمع المال : « إن الوزراء وأرباب الولايات ( كانوا ) ، لا يقومون بأشغال الرعايا والتعب معهم ، إلا لمرق يحصل لهم . وليس لهم من الدين ما يحملهم على النظر في أحوالهم ، فانه بعيد منهم . فاذا منعوا تلك المرافق ، تركوا الناس يضطربون ولا يجدون من يأخذ بأيديهم ولا يقضى حوائجهم » .

وكانت ولاية الأقاليم من المناصب الرفيعة في الدول الإسلامية . فقد ذكر القلقشندي<sup>(٢)</sup> كيفية تقليد الخلفاء العباسيين ولاية الأقاليم في هذه العبارة فقال : « وإن كان الذي يوليه الخليفة من ملوك النواحي البعيدة عن حضرة الخليفة ، كملوك مصر إذ ذاك ونحوهم ، جهز له التشريف من بغداد صحبة رسول من جهة الخليفة ، وهو جبة أطلس أسود بطراز مذهب وطوق من ذهب يجعل في عنقه ، وسواران من ذهب يجعلان في يديه ، وسيف قرابه ملبّس بالذهب ، وفرس بمركب من ذهب ، وعلم أسود مكتوب عليه بالبياض اسم الخليفة بفسر على رأسه ، كما كان يبعث إل السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ثم أخيه العادل . فاذا وصل ذلك إلى سلطان تلك الناحية ، لبس الخلعة والعمامة ، وتقلد السيف وركب الفرس وسار في موكبه حتى يصل إلى محل ملكه . وربما جهز مع خلعة السلطان خلع أخرى لولده أو لوزيره أو أحد من أقاربه بحسب ما يقتضيه الحال حينئذ » .

ومن وصف ابن الأثير لحالة الدولة العباسية في عهد الراضي (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) ، نقف على أسماء الولايات التي كانت تتألف منها هذه الدولة المتداعية ، واستبداد كثير من الولاة واستقلالهم عن الدولة . وهاك عبارة ابن الأثير<sup>(٣)</sup> : « ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها ، والحكم في جميعها لابن رائق ليس للخليفة حكم . وأما باقي الأطراف : فكانت البصرة في يد ابن رائق ، وخوزستان في يد البريدي ، وفارس في يد عماد الدولة بن بويه ، وكرمان في يد أبي علي محمد بن إلياس ، والري وأصبهان والجيل في يد ركن الدولة بن بويه ويد وشمكير أخى مرداويج يتنازعان عليها ، والموصل وديار بكر ومصر وريعة في يد بني حمدان ، ومصر والشام في يد محمد بن طنج ، والمغرب وإفريقية في يد أبي القاسم القائم بأمر الله بن المهدي العلوي وهو الثاني منهم ويلقب بأمر المؤمنين ، والأندلس في يد عبد الرحمن ابن محمد المقب بالناصر الأموي ، وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد الساماني ، وطبرستان

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧٦ .

(١) ج ٨ ص ٧٧ .

(٣) ج ٨ ص ١١٢ — ١١٣ .



وجرجان في يد الديلم، والبحرين والنجامة في يد أبي طاهر القرمطي .  
وقد ذكر ابن الأثير<sup>(١)</sup> الصفات التي يجب أن يتحلى بها من يرشح لولاية الأقاليم وتدير شئونها والعمل على إسعاد أهلها ، فقال إنه لا يصلح لهذا الأمر إلا رجل قد تكاملت فيه خصال أربع : حزم يتقى به عند موارد الأمور حقائق مصدرها ، وعلم يحجزه عن الثور والتغري في الأشياء إلا مع إمكان فرصتها ، وشجاعة لانفضها الملمات مع تواز جوانحها ، وجود هوّون تبذير الأموال عند سؤاها ، وسرعة مكافأة الإحسان إلى صالح الأعوان ، وثقل الوطأة على أهل الرّيع والعدوان ، والاستعداد للحوادث إذ لا تقو من حوادث الزمان . وأما الاثنان : فاسقاط الحجاب عن الرعية ، والحكم بين القوى والضعيف بالسوية ، وأما الواحدة فالستيقظ للامور . وقد اخترت لهم رجلا من موالى أحدهم ، شديد الشكيمة ماضى العزيمة ، لا تبطره السراء ، ولا تدهشه البضراء ، ولا يهاب ماوراءه ، ولا يهوله ما يلقاه ... إن حرك حمل ، وإن نهش قتل ، عدته عقيدة ونقمة شديدة . يلقى الجيش في النفر القليل العديد بقلب أشد من الحديد ، طالب للثأر لا تفعله المساكر ، باسل الباس ، ومقتضب الأنفاس ، لا يعوزه ما طلب ، ولا يقوته من هرب ، وارى الزناد ، مضطلع العهاد ، لا تشرعه الرغائب ولا تعجزه الثواب . وإن ولي كفى ، وإن قال وفى ، وإن نازل قبطل ، وإن قال فعل . ظله لوليه ظليل ، وبأسه في الهياج عليه دليل . يغرق من ساماه ، ويعجز من ناواه ، ويتعب من جاره ، ويشعث من والاه .  
ولم يغير العرب نظم الحكم في مصر تغييرا يذكر بعد الفتح ، حتى جاءت الدولة الفاطمية ، فأدخلت عليه كثيرا من التغيير . فقد عمل جوهر الصقلي على إحلال المغاربة الشيعيين محل المصريين السنيين في المناصب الهامة ، ليفسح المجال أمام هؤلاء المغاربة . ويقول المقرئى<sup>(٢)</sup> : إن جوهر لم يدع عملا إلا جعل فيه مغربا شريكا لمن فيه . ومن أهم الأعمال الإدارية التي أسندت إلى الشيعيين : الوزارة ، وجباية الخراج ، والقضاء ، والحسبة . ولم يختلف نظام الولاية على الأقاليم عند الفاطميين والأمويين في الأندلس اختلافا يذكر عنه في عهد العباسيين .

## ( ب ) الدواوين

### ١ - في الرولة العباسية

كانت الدولة العباسية أشبه باتحاد يتألف من ولايات كثيرة ، لكل ولاية ديوان بيغداد يشرف على شئونها . وينقسم كل ديوان قسمين : الأول ، ويسمى الأصل ، ويختص بسن الضرائب وحملها إلى بيت المال ، والثاني ، الزمام أو ديوان المال . واستمر هذا النظام إلى أن ولي المعتضد الخلافة ( سنة ٢٧٩ هـ ) ، فضم كل دواوين الدولة بعضها إلى بعض ، وكون منها ديوانا واحدا أطلق عليه ديوان الدار ، ويسمى أحيانا ديوان الدار الكبير .

وقد أثنى هلال بن الصائغ<sup>(٣)</sup> على نظام الدولة العباسية في عهد المعتضد ( ٢٧٩ - ٢٨٩ هـ ) في

(١) ج ٧ ص ٦٩ . (٢) انماط الحفا ص ٧٨ . (٣) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ١٨٩ .

هذه العبارة فقال : « وسمعت مشايخ الكتاب يقولون إنه لم يجتمع في زمن من الأزمنة خليفة ووزير وصاحب ديوان وأمير جيش مثل المعتضد بالله ، وأبي القاسم عبيد الله بن سليمان ، وأبي العباس ابن الفرات وبدر ، » .

وقد قسم المعتضد الديوان أقساماً ثلاثة : ديوان المشرق ، وديوان المغرب ، وديوان السواد (يعنى العراق) . وأسند الأصل ، لشخص واحد و الزمام ، لشخص آخر . وفي القرن الرابع الهجرى كانت إدارة الدولة تنقسم إلى ما يشبه وزارتين ، إحداهما للداخلية ، وهى ديوان الأصول ، والأخرى للمالية ، وهى ديوان الأزيمة . وكان كل ديوان كبير ينقسم أقساماً كثيرة تسمى دواوين أيضاً ، لأنه كان لكل ناحية ديوانها . ولكن لما كان الوزير ، وهو رئيس السلطة المركزية ، هو الذى يتولى إدارة ديوان السواد بنفسه ، فإن كثيراً من دواوين الولايات ببغداد كانت تقوم مقام دواوين للدولة . ولم تصل الإدارة فى الدولة الإسلامية إلى تعيين الحدود الفاصلة بين الدواوين بدقة . ومن هذه الدواوين : ديوان الجيش ، وديوان النفقات فى بغداد وينظر فى حاجات دار الخلافة ، وديوان بيت المال ، وهو فى بغداد يشرف على ما يرد على بيت المال من الأموال وما يخرج من ذلك من وجوه النفقات والإطلاقات ، وديوان المصادرين ، وديوان الرسائل ، وكان يسمى فى مصر فى عهد الفاطميين ديوان الإنشاء والمراسلات ، وديوان البريد ، وديوان التوقيع وإليه تقدم رقاع أصحاب الحاجات ، وديوان الخاتم ، وديوان الفرض حيث تفض الكتب الواردة من الأمراء والعامل إلى الخليفة ، وديوان الجبهة ، ويجرى فيه من الأموال مال الكسور والكفاية والوقاية وما يجرى مجرى ذلك من توابع أصول الأموال (١) ، وديوان البر والصدقات .

وبما ذكره ابن الصان (٢) نرى أن أصحاب الدواوين كانوا ثلاث طبقات : الطبقة الأولى ، والطبقة الثانية ، والطبقة الثالثة .

### ٢ - فى عهد الدولة الفاطمية :

وفى عهد الفاطميين بمصر كانت هناك عدة دواوين ، على رأس كل منها موظف كبير . ومن هذه الدواوين : ديوان الجيش ، وكانت تعرض على صاحبه شئون الأجناد وخبولهم وما إلى ذلك ، وديوان الكسوة والطراز ، ويتولاه أحد كبار الموظفين من أرباب الأقاليم ، وديوان الاحباس ويشبه وزارة الأوقاف اليوم ، وديوان الرواتب ، ويعد صاحبه استثمارات الرواتب ويعرضها فى كل سنة على الخليفة . وقد أورد القلقشندي (٣) عبارة شائقة عن الطريقة التى كانت تقدم بها روااتب الموظفين للخليفة المستنصر لاعتقادها فقال : إن الخليفة لم يغير شيئاً فى القائمة التى اشتملت على الرواتب ، ووقع فوق إهضائه بخط يده : « الفقر مر المذاق ، والحاجة تذل الأعناق ، وحراسة

(١) آدم متر : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ٢ ص ١٢٥ - ١٣١ .

(٢) تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ١٥٦ .

(٣) صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ج ٣ ص ٤٩٥ .

النعم بإدراج الأرزاق ، فليجروا على رسومهم في الإطلاق ( ما عندكم ينفد وما عند الله باق ) (١) . وكان عدد الموظفين في أيام الفاطميين كبيرا . منهم صاحب الباب ، وحامل مظلة الخليفة ، وصاحب الرسالة ويحمل كتاب الخليفة إلى الوزير وغيره من كبار الموظفين ، وصاحب بيت المال ، وهو أشبه بوزير المالية الآن ، وقاضى القضاة ، وينظر في الأحكام الشرعية وعلى دور السكة وضبط عيارها . ويلي قاضى القضاة في الرتبة داعى الدعاة ، ويقوم بنشر الدعوة الفاطمية في المساجد ودار العلم ، والمحاسب ، وله النظر في الأسواق ، والإشراف على الموازين والمكاييل واستيفاء الديون والمحافظة على الآداب والفضيلة والأمانة . ومن كبار الموظفين في العهد الفاطمي وكيل بيت المال ، ونائب صاحب الباب ، ويستقبل سفراء الدول وينزلهم في الأماكن اللائقة بهم ، ويرتب القراء الذين يقرءون القرآن بحضرة الخليفة ، وهم الذين يعرفون بقراء الحضرة (٢) .

### (ج) البريد

#### ١ - في الدولة العباسية :

كان البريد في العصر العباسي الثاني من مصالح الدولة الخاصة . وكان صاحب البريد يراقب العمال ويتجسس على الأعداء ، ويقوم بالأعمال التي يقوم بها رئيس قلم المخابرات في وزارة الدفاع الآن . وكانت مهمته أول الأمر توصيل أخبار الولاة والعمال إلى الخليفة ، ثم توسعوا في هذا العمل حتى جعلوا صاحبه عيناً للخليفة ينقل أوامره إلى ولاياته وعماله كما ينقل أخبار هؤلاء إليه (٣) .

وقد ذكر قدامة بن جعفر (٤) الشروط التي يجب أن تتوافر في صاحب البريد فقال : يجب أن يكون ثقة ، إما في نفسه أو عند الخليفة القائم بالأمر في وقته . لأن هذا الديوان ليس فيه من العمل ما يحتاج معه إلى الكافي المتصفح (٥) ، وإنما يحتاج إلى الثقة المتحفظ (٦) . والرسوم التي يحتاج إليها من أمر الديوان هو ما يقارب الرسوم التي بينها في غيره مما يضبط به أعماله وأحواله . فأما غير ذلك من أمر الطرق ومواضع السكك والمسالك إلى جميع النواحي ، فإنا لم نذكره ، ولا غنى بصاحب هذا الديوان أن يكون معه منه (٧) ما لا يحتاج في الرجوع فيه إلى غيره ، وما إن سأله عنه الخليفة وقت الحاجة إلى شغوصه وإنفاذ جيش يهجم أمره وغير ذلك مما تدعو الضرورة

(١) سورة النحل آية ٩٦ .

(٢) كتاب النظم الإسلامية للمؤلف ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٣) Von Kremer: Orient under the Caliphs, p. 233 seq. (٤)

(٤) كتاب الحراج وصنعة الكتابة ص ١٨٤ - ١٨٥ .

(٥) تصفح الكلام بحث فيه وتأمله ، والسكافي هو الضبير بالشيء الحسن التقدير له ، ثم أطلق على ما نسميه

الآن «الموظف» .

(٦) المتحفظ : المحترز .

(٧) أى من المعرفة بحال الطرق

إلى علم الطرق بسببه ، ووجد عتيدا (١) عنده ومضبوطا قبله . ولم يحنج إلى تكلف عمله والمساءلة عنه ،  
فينبغي أن نكون الآن نأخذ في ذكر ذلك وتعيده بأسماء المواضع وذكر المنازل وعدد الأميال  
والفراسخ ، وغيره من وصف حال المنزل في مائه وخشوته ، وسهولته أو عمارته أو ما سوى ذلك  
من حاله .

وقد اهتم الخليفة المتوكل بشئون البريد . فقد ذكر المسعودي (٢) أن المتوكل بلغه ذات يوم أن  
رجلا من أهل البصرة يمتلك سيفا هنديا نادرا ، فاستعان هذا الخليفة بصاحب ديوان البريد ، وأمره  
بإرسال كاتب البريد إلى عامل البصرة وشراء هذا السيف مهما غلا ثمنه . فلما ورد كتاب عامل البصرة  
بأن السيف انتقل إلى يد أحد أهالي اليمن ، أمر الخليفة صاحب البريد بالبحث عن السيف وشراؤه ،  
فكان له ما أراد .

وكان الخلفاء العباسيون يكتبون لصاحب البريد عهدا عند توليته ، ويرسمون له فيه الطريقة التي  
يجب أن يسير عليها . فقد ذكر قدامة بن جعفر (٣) أنه يجب على صاحب البريد أن يعرف حال عمال  
الخراج والضياع فيما يجري عليهم أمرهم ، ويتتبع ذلك شافيا ، ويستشفه استشفافا بليغا (٤) ، وينبهه (٥)  
على حقه وصدقه . . . وأن يعرف حال عمارة البلاد وما هي عليه من الكال والاختلال ، وما يجري  
في أمور الرعية ، فيما يعاملون به من الإنصاف والجور والرفق والعسف ، فيكتب به مشروحا . . .  
وأن يعرف ما عليه الحكام في حكمهم وسيرهم وسائر مذاهبهم وطرائقهم . . . وأن يعرف حال دار  
الضرب وما يضرب فيها من العين والورق ، وما يلزمه الموردون من الكلف (٦) والمؤن ، ويكتب  
بذلك على حقه وصدقه . . . وأن يوكل بمجلس عرض الأولياء وأعطياتهم من براعيه ويظالع ما يجري  
فيه ، ويكتب بما تقف عليه الحال من وقته ، وأن يكون ما يُنبيه من الأخبار شيئا يثق بصحته . . .  
وأن يعرض المرتبين لحمل الخرائط في عمله (٧) ، ويكتب بعددهم وأسمائهم ومبالغ أرزاقهم ، وعدد  
السكك في جميع عمله وأمياها ومواضعها ، ويوعز إلى هؤلاء المرتبين بتعجيل الخرائط المنفذة على  
أيديهم ، وإلى الموقعين باثبات المواقيت وضبطها حتى لا يتأخر أحد منهم عن الأوقات التي سيبله  
أن يرد السكك فيها (٨) ، وأن يفرد لكل ما يكتب فيه من أصناف الأخبار كتبيا بأعيانها ، فيفرد

(١) أي حاضرا من غير بحث أو سؤال .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩١ - ٣٩٢ .

(٣) راجع كتاب آدم منز : الحضارة الإسلامية ، ترجمة أبي ريدة ج ١ ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٤) أي يبذل أقصى الجهد للوقوف على حقيقة أمره .

(٥) يوصله إلى دار الخلافة .

(٦) ما يكفونه .

(٧) أي حمل الخريطة وهي الحقيبة التي تحوى الرسائل .

(٨) أي التي يجب عليه ألا يجاوزها .

لأخبار القضاة وعمال المعاون والأحداث ، والحراج والضياح وأرزاق الأولياء ونحو ذلك كتباً ليجرى كل كتاب في موضعه ،<sup>(١)</sup> .

ولم يقتصر عمل صاحب البريد على ما ذكرنا ، بل كثيراً ما كان ينقل إلى الخليفة الأخبار الطريفة . ففي سنة ٣٠٠ هـ ورد كتاب صاحب البريد في الدينور بأن بغلة ولدت قتلوة<sup>(٢)</sup> وأرسل إلى الخليفة كتاباً جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ! الحمد لله الموقظ بعبره قلوب الغافلين ، والمرشد بآياته ألباب العارفين ، الخالق ما يشاء بلا مثال ، ذلك الله الباري المصور في الأرحام ما يشاء . وإن الموكل بخبر التطواف بقصر ماسين رفع يذكر أن بغلة لرجل يعرف بأبي بريدة من أصحاب أحمد ابن علي المرسي وضعت قتلوة ، وبصف اجتماع الناس لذلك وتعجبهم لما عاينوا منه . فوجهت من أحضرتي البغلة والقلوة ، فوجدت البغلة كتاباً<sup>(٣)</sup> ختلوقية ، والقلوة سوية الخلق تامة الأعضاء ، منسولة الذنب ، سبحان الملك القدوس لعمق حب الحكمة وهو سريع الحساب ،<sup>(٤)</sup> .

ولما استبد بنو بويه بالسلطة اهتموا بشئون البريد اهتماماً بالغاً ، حتى إنه لم يعد يخفى عليهم شيء من أمور الدولة . فقد ذكر البنداري<sup>(٥)</sup> « كان الرسم في أيام الديلم ( البويهيين ) ومن قبلهم من الملوك ( يعني أمراء الأمراء ) أنهم لم يخلوا جانباً من صاحب خبر و بريد ، فلم يخف عندهم أخبار الأفاصي والأداني ، وحال الطائع والمعاصي . »

وقد بلغ نظام البريد في عهد بنو بويه مبلغاً عظيماً من الدقة والسرعة حتى كانت بواكير الفواكه تصل إلى قصور السلاطين طرية سليمة . وكانت الدولة توقع أشد العقوبة بكل من يتوانى في أداء واجبه من موظفي البريد ، كما كانت المراسلات البريدية تفض في حضرة السلطان ، فيأخذ منها الرسائل الهامة ، ويرسل سائر الرسائل إلى ديوان البريد فيوزع على أربابها . وقد ذكر أبو شجاع<sup>(٦)</sup> أن الرسائل كانت تقرأ على عضد الدولة أكثر من مرة ، فيرد عليها بنفسه أو يأمر كتابه بالرد عليها . ثم تعرض هذه الردود عليه ، فربما زاد فيها أو نقص منها . ثم تصلح وتختتم وتجعل في أسكندارها<sup>(٧)</sup> وتحمل إلى ديوان البريد فتصدر في وقتها .

(١) آدم منز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة أبي ريده ، ج ١ ص ١٢٩ ، نقلا عن كتاب الخراج لقدامة بن جعفر ، مخطوط باريس ، ورقة ١٨ب — ١٩ب . ويرجع تاريخ هذا العهد إلى سنة ٣١٥ هـ أي إلى عهد الخليفة المقتدر .

(٢) القلوة المهر ، والجمع أفلاء ، والائثى قلوة بالهاء .

(٣) السكتنة الحرة إلى السواد ، والخلوقية : النساء .

(٤) غريب بن سعد القرطبي : صلة تاريخ الطبري ( ذيل تاريخ الطبري ) ج ١٢ ص ٢١ .

(٥) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٦٢ .

(٦) ذيل تجارب الأمم ج ٣ ص ٤٠ — ٤١ .

(٧) الأسكندار ، مثلت الهزمة مضموم الكاف : لفظة فارسية ، معناها المدرج (القائمة) الذي يكتب فيه عدد خرائط البريد والسكتب الواردة والنافذة وأسماي أربابها — أنظر مفاتيح العلوم لخوازمي ، ومعجم الألفاظ الفارسية لاشينجاس .

وبلغ من عناية عضد الدولة بالبريد أنه ، إذا ترحلَّ النهار ، سأل عن ورود النوب المترددة بالكتب ، ولها وقت معلوم تصل فيه وتراعى من ساعات النهار . فان اتفق أن تأخر ، قامت القيامة ووقع البحث عن العارض العائق . فان كان يعائق ظاهر فيه عذر قبل ، أو عن أمر يحتاج إلى إزالته أزيل ، أو من تقصير النوبيين أنزل العذاب بهم . ولقد ذكر بعض الطراد<sup>(١)</sup> أن أحد المرتبئين قالت له امرأته : قد طبخنا أرزاً ، فتوقف لتأكل منه وتمضى ، فتوقف بقدر ما أكل ، وتأخرت النوبة ذلك المدى . فضرب الطراد والمرتبون ما بين شيراز إلى بغداد أكثر من ثلاثة آلاف عصا . لا جرم أن النوب كانت تصل من شيراز في سبعة أيام . وكان يحمل من المرتبئين بواكير الفواكه والمشموم من نواحي فارس وخوزستان فتصل طرية سليمة<sup>(٢)</sup> .

### محطات البريد :

وكان العباسيون يستعملون البغال في بلاد الديلم ويقيسون المسافات في البلاد الواقعة غربي الفرات بالأميال<sup>(٣)</sup> ، وفي البلاد الواقعة شرقي هذا النهر بالفراسخ<sup>(٤)</sup> .

وللبريد محطات تسمى السكك ، وكانت تزود بالخيول وراكبيها في كل سكة من سكك البريد على بعد ثلاثة أميال أو ستة . وكانت طرق البريد منتشرة في المشرق والمغرب ، ومن أهمها :

١ - من بغداد إلى القيروان بحذاء دجلة ، ويمر بالموصل وسنجار وبلد بحذاء دجلة ، ثم يخترق أرض الجزيرة إلى سنجار ونصيبين والرقّة ومنبج وحلب وحماه وحمص وبعليك ودمشق وطبرية والزملة والقاهرة والإسكندرية والقيروان<sup>(٥)</sup> .

٢ - من بغداد إلى الشام عن طريق الضفة الغربية للفرات ، ماراً بالأنبار وهيت ودمشق .

٣ - من بغداد إلى المشرق ويمر بحلوان وهمدان ، والرى ونيسابور ومرو وبخارى وسمرقند ، إلى أن يصل إلى الصين . ومن مرو يبدأ طريق آخر يمر في أواسط بلاد خراسان حتى يصل إلى مرو الروذ والطاقان ، ثم يخترق نهر جيحون بالقرب من ترمذ حتى يصل إلى فرغانة<sup>(٦)</sup> .

وكانت الحكومة العباسية تنقل البريد في أثناء الحروب بالجمازات<sup>(٧)</sup> . والجمازة شبه محفة على عجلة تجرها الخيول السريعة . فلما عزم الفاطميون على غزو مصر سنة ٣٠١ استعمل علي بن عيسى وزير الخليفة المقنن الجمازات من بغداد إلى مصر ليقف على حقيقة الحال في كل يوم . وفي ذلك يقول

(١) هم أشباه المفتشين على حاملي البريد (٢) أبوشجاع ج ٣ ص ٤٠ .

(٣) هذا اللفظ مأخوذ من اليونانية التي كان لها تأثير كبير في البلاد الواقعة غربي الفرات .

(٤) الفرسخ ثلاثة أميال . ويظهر أن الفرس لم يستعملوا الأميال .

(٥) فدامة بن جعفر : كتاب الحجاج ص ٢٢٧ - ٢٢٩ .

(٦) آدم منز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ٢ ص ٣٤٩ - ٣٥٣ .

(٧) جمر الانسان يجمر : عدا مسرعا ، وبغير جاز : وثاب . والجمازة ، هنا من المحامل ، وهي أشبه

بالعربة التي تجرها الخيول السريعة في زماننا ، وكان يركبها عمال البريد ، ورجال الحرب ، وأمثالهم ممن يتطلب

عملهم السرعة ( أنظر تاج العروس ) .

عريب بن سعد القرطبي (١) : وخلق على مؤنس في شهر ربيع الأول سنة ٣٠٢ ، وخرج متوجها إلى مصر . وتقدم على بن عيسى الوزير بترتيب الجمازات من مصر إلى بغداد ليروِّح عليه الأخبار في كل يوم . فورد الخبر بأن جيش عبيد الله الخارج مع ابنه ومع قائده حباصة انهزموا ، وبشر على ابن عيسى بذلك المقتدر ، فتصدق في يومه بمائة ألف درهم ، ووصل على بن عيسى بمال عظيم ، وكذلك كان لبني بويه أثر كبير في ترقية البريد ، فقد أدخل معز الدولة نظام السعاة وكان يقال لهم الفيوج ، وهم طائفة من موظفي البريد يتخصصون في نقل البريد السريع من مكان إلى آخر . واستمال معز الدولة هؤلاء السعاة بالأرزاق والجراريات الكثيرة حتى رغب الشبان في هذه الحرفة ، وأقبل فقراء الناس على تسليم أبنائهم إلى معز الدولة لتدريتهم .

وكان يقام على رأس كل فرسخ حصن . وقد عدل الأمراء فيما بعد عن اتخاذ الخيل في البريد ، واستعملوا الجمازات بدلا عنها ، حتى إننا نجد ابن العميد يتخذ الجمازات عندما أراد اللحاق بسيدته ركن الدولة في فارس سنة ٣٦٤ هـ (٢) .

أما استعمال النار في الإشارة كوسيلة من وسائل المراسلة ، فلم يكن معروفا عند المسلمين إلا في البلاد التي كانت تابعة للدولة البيزنطية التي كانت تستعملها من قبل . وأما في سائر بلاد الإسلام فانها لم تستعمل ، وإنما استخدمت استخداما حسنا في القرن الثالث الهجري على الساحل الإفريقي الشمالي ، حتى كانت الرسائل تصل من الإسكندرية إلى سبته في ليلة واحدة ، ومن طرابلس إلى الإسكندرية في ثلاث ساعات . ولم يبطل هذا النظام إلا في سنة ٥٤٤ هـ حينما أثار المعز بن بارس الفتن في المغرب في وجه الفاطميين ، الذين لم يعودوا يستطيعون حماية الحصون من البدو (٣) .

### حمام الزاجل :

وكذلك اعتمد العباسيون على حمام الزاجل في نقل الرسائل . وقد راج هذا النوع من البريد عند فرق الباطنية ، وخاصة الإسماعيلية . فقد استعان عبد الله بن ميمون بالطيور في نقل الأخبار إلى أنصاره (٤) ، كما استعان حمدان قرمط مؤسس مذهب القرامطة في العراق ، وابن حوشب في بلاد اليمن ، وأبو عبد الله الشيعي في المغرب ، وكذلك عامة ذعاة الإسماعيلية في فارس . وقد ذكر عريب بن سعد (٥) أن القرامطة لما دخلوا البصرة أخبروا الناس بتولية ابن الفرات الوزارة وعزل حامد بن العباس قبل وصول الخبر إلى البصرة بأربعة أيام ، مستعينين في ذلك بالحمام الذي أتاهم بهذا الخبر من وقته . وذكر مسكويه (٦) عند كلامه على حوادث سنة ٣٢٨ هـ أن البريد بين

(١) صلة تاريخ الطبري : ذيل كتاب الطبري ج ١٢ ص ٢٨ .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٣٥ .

(٣) الأمير شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٣٧-٢٣٨ .

(٤) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٤ .

(٥) صلة تاريخ الطبري ص ٥٧ .

(٦) تجارب الأمم ج ١ ص ٤١٢-٤١٤ .

كانوا يستخدمون الحمام في البريد ، وأن يحكم كان يستخدم الحمام كذلك ، وأن طائر اسقطه فصاده غلبان يحكم وجاموا به إلى مولاهم ، فوجد على ذنبه كتابا فقرأه ، فإذا هو كتاب من كتابه هذا إلى أخيه بخطه يعرفه فيه انحدار يحكم ومن أنفذ على الظهر من الجيش (١) وسائر أسرارهم وعزائمهم . فلما وقف عليه يحكم عجب واغتاض ، وأحضر هذا الكتاب ورعى إليه بالكتاب ، فسقط في يده ، ولم يمكنه ججده لأنه بخطه المعروف . فاعترف به ، فأمر به فرمى بالزويينات بحضرة إلى أن قتله ورعى به في الماء .

## ٢ - في مصر :

كان البريد من الوسائل التي تدرع بها أحمد بن طولون في مناوأة الخلافة العباسية ، فقد استطاع أن يعين أحد المقربين إليه عاملا للبريد في حاضرة الدولة العباسية ليسكون عيناه ، يوافيه بما يجري في العراق وبما يحسكه له أعداؤه من مؤامرات في هذه البلاد ، واستطاع ابن طولون بفضل هذا العامل أن يكشف عن نيات منافسيه في مصر ممن كانوا يشنون به عند الخليفة ، ويظهر البلاد منهم . وقد اطمأن بفضل هذه الجاسوسية التي أقامها في بغداد على مركزه في مصر . ولما وقع الخلاف بين أحمد بن طولون وأبي أحمد الموفق طلحة أخى الخليفة العباسي المعتمد ، وعمل هذا على صرف ابن طولون عن مصر ، وأب القواد عليه ، أخبر عامل البريد ، ابن طولون بهذا ، فاحتاط لنفسه وأحبط هذه المؤامرة (٢) . وكان لطرق البريد أثر كبير في تيسير انتقال قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون إلى العراق عند زواجها من الخليفة المعتضد . وقد أمر خمارويه بعامل بريد مصر بإعداد الطريق بين القطائع وبغداد ، فبنوا لها على رأس كل مرحلة قصرا تنزل فيه .

وبما ذكره أبو المحاسن (٣) نرى أنه كان يضطلع بأعباء البريد سنة ٢٩٢ هـ شخص يدعى شفيعا اللؤلؤي ويلقبه هذا المؤرخ بصاحب البريد . وإننا لانعرف كثيرا عن إدارة البريد في عهد الإخشيديين ولا في عهد الفاطميين اللهم الا ما كان من اعتمادهم على حمام الزاجل . فقد ذكر القلقشندي (٤) أن الفاطميين اهتموا بالحمام كوسيلة من وسائل نقل الرسائل ، وحافظ عليه (الحمام) الخلفاء الفاطميون ، وبالغوا حتى أفردوا له ديوانا وجرائد بأناسب الحمام . وقد ذكر هذا المؤرخ في مكان آخر (٥) . أنه أن العزيز ثاني خلفاء الفاطميين بمصر ذكر لوزيره يعقوب بن كلس ، أنه ما رأى القراصية البعلبكية ، وأنه يحب أن يراها . وكان بدمشق حمام من مصر وبمصر حمام من دمشق . فكاتب الوزير لوقته بطاقة يأمر فيها من هو تحت أمره بدمشق أن يجمع ما بها من الحمام المصري ، ويعلق في كل طائر حبات من القراصية البعلبكية ، ويرسلها إلى مصر . ففعل ذلك ، فلم يمض النهار حتى حضرت تلك

(١) الظهر ما يحمل عليه الجنود من خيل وغيرها .

(٢) المقرئ : خطط ج ٢ ص ١٧٨ - ١٧٩ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٤٨ .

(٤) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٩٥ .

(٥) المصدر نفسه ج ١٤ ص ٣٩١ .



الحمام بما علق عليها من القراصية ، فجمعه الوزير يعقوب بن كلس وطلع به إلى العزيز في يومه ، فكان ذلك من أغرب الغرائب لديه . . . وذكر أيضا أن الوزير اليازوري المغربي ، وزير المستنصر بالله الفاطمي ، وجه الحمام من تونس من إفريقية من بلاد المغرب فجاء إلى مصر ، والعهد عليه في ذلك .

### (د) الشرطة

#### ١ - في الدولة العباسية :

ذكرنا من قبل<sup>(١)</sup> أن نظام الشرطة من النظم الإدارية الهامة ، وأن صاحبها كان يخار من علية القوم ومن أهل العصبة والقوة ، وأنه أشبه بالمحافظ في هذا العصر . إذ يتولى رئاسة الجند الذين يعملون على استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين . وقد حدد ابن خلدون المهام التي يضطلع بها صاحب الشرطة في هذه العبارة فقال :

« وكان أصل وضعها في الدولة العباسية لمن يقيم أحكام الجرائم في حال استبرائها<sup>(٢)</sup> أولا ، ثم الحدود بعد استيفائها . فان التهم التي تعرض في الجرائم لا نظر للشرع إلا في استيفاء حدودها ، وللسياسة النظر في استيفاء موجباتها بإقرار يكرهه عليه الحاكم إذا احتفت به القرائن لما توجهه المصلحة العامة في ذلك . فكان الذي يقوم بهذا الاستبراء وباستيفاء الحدود بعده إذا تزه عنه القاضي يسمى صاحب الشرطة . وربما جعلوا إليه النظر في الحدود والدماء بإطلاق ، وأفردوها من نظر القاضي ، ونزهوا هذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظام الخاصة من مواليهم . ولم تكن عامة التنفيذ من طبقات الناس ، إنما كان حكمهم على الدهماء وأهل الرتب والضرب على أيدي الدغار<sup>(٣)</sup> والفجرة . . . وكانت ولايتها للأكابر من رجالات الدولة ترشيحا للوزارة والحجابة . »

وكانت الدولة العباسية تتخذ في كل مدينة من المدن جماعة من الجند تخضع لرئيس منهم ، ينوب عن صاحب الشرطة الذي كان يتخذ مقره في حاضرة الدواة أو الولاية . ويضطلع هؤلاء بحفظ الأمن وإقرار النظام وتنفيذ أحكام القضاة والمحسبين . كما كانوا يقومون بالعس في الليل تحت إشراف رؤسائهم من الضباط . وكانت الدولة تنفق عن سعة على رجال الشرطة ، فمنحهم الرواتب الكبيرة ، حتى كان منصب رئيس شرطة بغداد لا يقل عن منصب الوالي<sup>(٤)</sup> ؛ كما كانت الحكومة

(١) من ٢٠٧ من الجزء الثاني من هذا الكتاب .

(٢) كذا في مخطوطة المكتبة الزكية رقم ١٠١٦ المحفوظة بدار السكتب المصرية ، وعليها خط المؤلف وكذا في المخطوطتين رقمي ٤٥٥ و ٨ ٢١٠٦ المحفوظتين بالدار أيضا : استبرائها ، وهو الصواب . ومعناه استقصاء الأمر وطلب آخره ، دفعا للشبهة ، كما في نواج العروس . والمراد بذلك التحقيقات الأولى التي يجريها ضابط البوليس بمنتهى الدقة ويدونها في المحاضر الخاصة ، ثم يسلمها بعد ذلك إلى السلطة القضائية . وفي نسخة المقدمة طبع بيروت من ٢١٨ - ٢١٩ وكذا في جميع طبعات القاهرة : « استبدائها » وهو تحريف لما أثبتناه .

(٣) « الرعاع » . وهو تحريف لما أثبتناه .

(٤) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي من ٢٦٠ - ٣٦١ .

المركزية في حاضرة الدولة أو الولاية تعتمد على صاحب الشرطة في إقرار الأمن وحفظ النظام. (١) وكانت الشرطة تابعة للقضاء في أول الأمر ، يتولى صاحبها إقامة الحدود من القبض على المجرمين ، وتنفيذ أحكام القضاء . إلا أنها لم تلبث أن انفصلت عن القضاء ، حتى استقل صاحب الشرطة بالنظر في الجرائم . وكان أمر تولية صاحب الشرطة في الولاية وعزله من اختصاص الوالى لا الخليفة .

## ٢ - في مصر والأندلس :

ولما فتح العرب مصر كانت الشرطة في مدينة الفسطاط . ولما تأسست مدينة العسكر سنة ٨١٣٢ أنشئت فيها دار أخرى للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا ، كما أطلق على دار الشرطة في الفسطاط دار الشرطة السفلى ، وانقسمت الشرطة بذلك قسمين :

١ - الشرطة السفلى ومقرها الفسطاط .

٢ - والشرطة العليا ومقرها العسكر . وربما سميت بهذا الاسم لأن مكان العسكر ( جبل يشكر وطولون ) يقع شمالى الفسطاط . ومن ثم سميت الشرطة العليا (٢) . ولما فتح جوهر الصقل مصر نقل الشرطة العليا من العسكر إلى القاهرة . وذكر ابن دقاق (٣) أن صاحب الشرطة توفى في نفس اليوم الذى وصل فيه جوهر إلى مصر ، فأسند عمله إلى جبر ، وبقيت دار الشرطة السفلى في الفسطاط وتقلدها عروبة بن ابراهيم وشبل المعرضى (٤) .

وكانت الشرطة في بلاد الأندلس على نوعين : شرطة كبرى ، وشرطة صغرى ويقول ابن خلدون (٥) في بيان اختصاص كل من الشرطتين ما نصه :

ثم عظمت نهايتها في دولة بنى أمية بالأندلس ، ونوعت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى ، وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء ، وجعل له (٦) الحكم على أهل المراتب السلطانية ، والضرب على أيديهم في الظلمات ، وعلى أيدي أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه . وجعل صاحب الصغرى

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى ج ٢ ص ٢٣٣ .

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٥ .

(٣) الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ١١ .

(٤) المقرئى : انماط الحنفا بأخبار الخلفاء ص ٩٥ .

أنظر كتاب « الفاطميون في مصر » للمؤلف ص ١٨٢ .

(٥) أنظر ص ٢٤٩ مقدمة ابن خلدون المخطوطة بالمسكتبة الزكية المحفوظة بدار السكتب المصرية برقم ١٠١٦ وعليها خط المؤلف .

(٦) كذا في نسخ المقدمة المطبوعة في بيروت ومصر ومخطوطة المسكتبة الزكية التي سبقت الإشارة إليها .

وليس في الكلام مرجع للضمير (له) . ويظهر أنه يعود على صاحب الشرطة الكبرى وهو مفهوم من السياق .

ومن هذا أو ما بعده يظهر أن صاحب الشرطة الكبرى أوسع اختصاصا من صاحب الشرطة الصغرى . فلأول :

(١) الحكم على الخاصة والدهماء (ب) الحكم على أهل المراتب السلطانية وأقاربهم ومن إليهم من أهل

الجاه . أما صاحب الشرطة الصغرى فليس له حكم إلا على العامة ، وهم الدهماء .

مخصوصا بالعامه ، ونصب لصاحب الكبرى كرسى بباب دارالسلطان ، رجلاً (١) يتبوون المقاعد بين يديه ، فلا يرحون عنها إلا فى تصرفه .

ولما اعتلى عبد الرحمن الناصر العرش ابتدع نوعاً ثالثاً للشرطة ، أطلق عليه الشرطة الوسطى . ويظهر أن صاحبها اختص بالنظر فى جرائم الطبقة الوسطى ، وهم أعيان التجار وأصحاب المصانع وأصحاب المهن الراقية كالأسانذة والأطباء . ومن فى طبقتهم . وأسند هذا المنصب إلى سعيد بن سعيد بن جدير (٢) . ويقول المقرئ (٣) عن الشرطة فى الأندلس : « وأما خبطة الشرطة بالأندلس فانها مضبوطة إلى الآن معروفة بهذه السمة . ويعرف صاحبها فى السن العامة بصاحب المدينة ، وصاحب الليل . وإذا كان عظيم القدر عند السلطان ، كان له القتل لمن وجب عليه دون استئذان السلطان ، وذلك قليل . ولا يكون إلا فى حضرة السلطان الأعظم ، وهو الذى يحذ على الزنا وشرب الخمر ، وكثير من الأمور الشرعية راجع إليه ، قد صارت تلك عادة تقرر عليها رضا القاضى . وكانت خبطة القاضى أوقر وأتقى عندهم من ذلك » (٤) .

ولا يختلف نظام العسس فى الأندلس عنه فى المشرق إلا فى التسمية ، حيث عرف العسس فى الأندلس بالدرابين ، « لأن بلاد الأندلس لها دروب بأغلاق تغلق بعد العتمة (٥) ، ولكل زقاق بائت فيه (٦) له سراج معلق ، وكلب يسهر ، وسلاح متمد ، وذلك لشطارة (٧) عامتها وكثرة شرهم » (٨) .

### ٣ - النظام الحربى

#### (١) الجيش

##### ١ - فى الدولة العباسية :

##### (١) عناصر الجيش :

كان الجيش فى عهد الرسول وفى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين يتألف من العنصر العربى . وقد اعتمد العباسيون على الفرس فى إقامة دولتهم ، ومن ثم أصبح للعنصر الفارسى أثر ملحوظ فى الجيش . ولما ولى المعتصم الخلافة اعتمد على الأتراك ، لأن أمه كانت تركية ، فولاهم حراسة قصره ، وآثرهم على الفرس والعرب ، وبجاء أسماء العرب من ديوان العطاء ، وزاد اعتماده على الأتراك حتى أربى عددهم على السبعين ألفاً . ومن ثم ازداد نفوذ هذا العنصر التركى حتى أصبح خطراً يهدد حياة الخلفاء .

(١) كذا فى المخطوطات الثلاث المحفوظة بدار السكتب المصرىة من مقدمة ابن خلدون . والرجل : اسم جمع لراجل ، وهم الرجالة أيضاً . وفى النسخ المطبوعة : « رجال » .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب ج ٢ ص ٢١٢ .

(٣) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ١٠٣ .

(٤) كان صاحب الشرطة فى الدولة العباسية وفى الأندلس وفى عهد الفاطميين فى المغرب ومصر ينظر فى الجرائم ويقيم الحدود (راجع مقدمة ابن خلدون ص ١٩٣) .

(٥) أى بعد صلاة العشاء . (٦) يواب يعرف أهل الزقاق ويفتح لهم الباب .

(٧) الشاطر الخبيث . (٨) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٠٣ .

أنفسهم . وأصبح يد هولاء القواد من الأتراك تولية الخليفة وعزله وسمل عينيه وقتله . فتجد المتوكل يذهب ضحية تأمر هولاء الأتراك عليه ، ويتبعه ابنه المنتصر الذي دس له الأتراك السم على يد طبيبه . وقد عيث هولاء الأتراك بهيبة الخلافة بقتلهم الخليفة المعتز وتمثيلهم به وتعذيبهم الخليفة المهدي حتى مات .

ولم يلبث أن اندج في الجيش العباسي عناصر أخرى من غير الأتراك . وكان جميع هولاء الجند من المرتزقة لا هم لهم إلا جمع المال ، وإثارة الفوضى والقتال ، إذا تأخر دفع رواتبهم . كما أنهم كانوا ينضمون إلى كبار القواد إذ أجزلوا لهم العطاء . وكان الجيش في عهد المستعين ( ٢٤٨ - ٢٥٢ هـ ) يتألف من الأتراك والمغاربة والفراغنة ، كما يظهر من هذه الابيات التي نظمها أحمد بن الحارث الهامى في وصف ثورة القواد على هذا الخليفة حيث يقول :

وأقبلت الترك والمغربون وجاء الفراغنة الدار عونا  
تسير كراديسهم (١) في السلاح يروحون خيلاً ورجلاً ثميناً  
فقام بحربهم عالم بأمر الحروب تولاه حيناً  
فجدد سوراً على الجانيين حتى أحاطهم أجمعينا  
وأحكم أبواب المصمات ألوف ألوف إذا تحسبونا (٢)

وقد عمل بعض الخلفاء على التخلص من قواد الأتراك ، فاستعانوا ببعض فرق المرتزقة (٣) من العناصر الأخرى . ففري المعتز ( ٢٥٢ - ٢٥٥ هـ ) بصطنع المغاربة والفراغنة دون الأتراك . وكان ذلك سبباً في قتل هذا الخليفة على أيدي الأتراك . وكذلك كان الخلفاء العباسيون وبعض القواد يستعينون بالعناصر الأجنبية المعادية للدولة نفسها . من ذلك أن الخليفة الراضى ( ٣٢٢ - ٣٢٩ هـ ) استعان بالقرامطة وأدخلهم في صفوف جيشه ولم يسلم هو من أذاهم ، إذ ثاروا عليه وانضموا إلى ابن رائق الذي عمل على الاستئثار بالنفوذ دونه ، واستجاش بألف من القرامطة وجاء بهم إلى بغداد فأكثروا فيها الفساد (٤) . وكان هولاء المرتزقة من القرامطة ينضمون إلى ابن رائق تارة وإلى أعدائه تارة أخرى ، ويصبحون شرا مستطيراً على الدولة . ولا غرو فقد حارب هولاء القرامطة في صفوف ابن رائق ضد البريدى تارة (٥) ، كما حاربوا في صفوف أبى عبد الله البريدى تارة أخرى . فأمد أبو طاهر الجنائى القرمطى أباً عبد الله البريدى بجيش للاستيلاء على البصرة ، كما عاونه على الخليفة المنتقى سنة ٣٣٠ هـ . ولم يكتب البريدى بالقرامطة بل كان معه الأكراد والديلم والقرامطة (٦) .

(١) جمع كردوسة وهي قطعة عظيمة من الخيل .

(٢) الطبرى ج ١١ ص ٩٧ . أنظر هذا الكتاب ص ٣٢ - ٣٣ .

(٣) كان الجيش يتألف من قسمين : مرتزقة وهم الذين يتناولون الرواتب من الدولة ، ومنطوعة وهم الذين ينتظمون في الجيش كلما دعا داعى الجهاد ، ويتناولون أرزاقهم في مدة تطوعهم فقط ، وتمنح أسرهم مخصصات عينية أو نقدية .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ١٨٩ .

(٥) أبو بكر الصولى : أخبار الراضى بالله والمنتقى لله ص ٢٢٣ .

(٦) الذهبي : تاريخ الإسلام ، مخطوط ج ٣ ورقة ١٣٦ .

ولما استبد بنو بويه بالنفوذ في الدولة العباسية منذ سنة ٣٣٤ هـ ، قامت المنافسة بين الأتراك الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من الجند ، والذين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير من عهد المعتصم ، وبين الديلم الذين ينتسب البويهيون إليهم ، والذين اعتمدوا عليهم في إقرار سلطانهم في البلاد . وقد شعر معز الدولة بذلك ، فأوصى ابنه عز الدولة بختيار بمداواة الديلم والتودد إلى الأتراك (١) . وقد أخذ سلاطين بنو بويه يتقربون إلى الأتراك تارة وإلى الديلم تارة أخرى : فترى بختيار يخشى الأتراك ، فيتقرب إليهم ويعتصم بهم ويثير بذلك حنق الديلم عليه . على أن هؤلاء الأتراك لم يلبثوا أن عزلوا بختيار سنة ٣٦٤ هـ بإيعاز ابن عمه عضد الدولة . ولولا تدخل ركن الدولة أبو عضد الدولة لآلت سلطنة العراق إلى عضد الدولة منذ ذلك الحين (٢) . وكان الجيش في عصر بنو بويه يتألف من الديلم والأتراك والعرب والاكراذ والفراغنة والمغاربة وغيرهم من المرتزقة . وقد ذكر أبو شجاع (٣) أنه كان للجيش عصر عضد الدولة عارضان قائدان للجيش : أحدهما للديلم والآخر للأتراك والأعراب والاكراذ . وبظهر أن المغاربة والفراغنة كانوا هم وغيرهم من المرتزقة تحت إمرة هذا القائد الثاني .

### (ب) تنظيم الجيش :

كان للجيش ديوان خاص به ، ولهذا الديوان مجلسان هما : مجلس التقرير وينظر في تقدير رواتب الجند وأوقات رفعها إليهم ، ومجلس المقابلة ويختص بالإشراف على سجلات الجند ومراجعة أسماهم . وينقسم كل من هذين المجلسين إلى أقسام معينة من الجند كجند الخاصة وجند الخدمة العسكرية وجند الولايات (٤) .

وكان الجيش يتكون من عدة فرق : المرتزقة والمتطوعة : وتتألف المرتزقة من المشاة أو الحربية ويتسلحون بالرمح والسيوف والحراب والتروس ، والرماة ويتسلحون بالسيوف والأقواس والتروس والنشاب ، ويلبسون الخوذ لتقي رؤوسهم والدروع لتقي صدورهم ، ولها أجزاء للساعدين والساقين . ولكل فرقة منها فصيلة لغذف النفط يعرف رجالها بالنفطيين ، ويرتدون الملابس التي لا تؤثر فيها النيران لاقتران الحصون المشتعلة ، وفصيلة أخرى من المهاريين يحملون المعاول بجانب السيوف والتروس .

وعلى رأس كل عشرة آلاف جندي « أمير » ، وعلى رأس كل ألف « قائد » ، وعلى كل مائة « نقيب » ، وعلى كل عشرة « عريف » . ويختلف لباس الجند باختلاف الفرق والأسلحة . ولما ولي

(١) أنظر هذا الكتاب ص ١٠٦ .

(٢) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٣٢-٢٣٣ .

(٣) ذيل كتاب تجارب الأمم لسكويه ج ٣ ص ٤٠ .

(٤) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ١٢٥ ، نقلا عن كتاب الخراج

للدائمة بن جعفر ، مخطوط باريس رقم ٥٩٠٧ ورقة ١٢-ب .

المتركل الخلافة أمر الجند بتغيير زيهم القديم ، وألبسهم أكسية رمادية ، وأمرهم ألا يجعلوا السيوف على أعناقهم ، بل يتمنطقون بها حول وسطهم (١) ، مقلدين في ذلك الفرس وهناك حرس الخليفة ، وجنود المنزل ، ويعمد إليهم بأعمال أقل أهمية مما يقوم به حرس الخليفة. وقد أطلق عليهم فيما بعد اسم «الجاندار». وهناك أيضا جماعة من الغلمان يتلقون علومهم في البلاط ويتدربون على الفنون الحربية ، ثم يعينون «مرافقين» إذا بلغوا من الرشد ، ويعيشون في حجرات منفصلة عن مكائنات فرق الجيش . ومن ثم أطلق عليهم الحجرية ، لتمييزهم عن الفرق الأخرى كالساجية الذين ينتسبون إلى ابن أبي الساج وغيرها .

وكان العباسيون يستخدمون جماعة من المهندسين يعرفون بالمتجنيين ، ويعرف رئيسهم باسم أمير المتجنيين . ومن أشهر هؤلاء يعقوب بن صابر الذي وضع في الهندسة الحربية كتابا سماه «عمدة المسالك في سياسة الممالك» ، عالج فيه كل ناحية من نواحي الحرب ، كالتعبئة والاستيلاء على الحصون ، وتشديد القلاع ، والفروسية والهندسة والحصار ، وتركيب الآلات الحربية ، وصفات الخيل والفرسان وأنواعهم . وكذلك كان الجيش يزود بمستشفيات الميدان ، فتحمل الجرحى والمرضى على محضات تحملها الجمال (٢) .

وقد عنى العباسيون بالجلاسوسية في الجيش ، واستخدموا في ذلك كلا من الجنسين الرجال والنساء ، الذين كانوا يرحلون إلى البلاد المجاورة ، متسكرين في أزياء التجار والأطباء وغيرهم ، لجمع الأخبار ونقلها إلى دولتهم . ولم تكن الجلاسوسية العربية أكثر نشاطا ولا أعم انتشارا في بلد من البلاد منها في الدولة البيزنطية ، التي كانت لاتزال تنافس الدولة العربية ، والتي كان أهلها في الماضي أساندة العرب في الفنون الحربية .

ولكى يحمي العرب أنفسهم من غارات الإغريق أقاموا الحصون على تخوم دولتهم ، وتسمى الثغور (٣) . وهذا ضرب من التدابير الحربية التي تدل على نشاط العرب ، وولعهم بالحروب ، ونبوغهم . وكان حد سورية المقابل لآسيا الصغرى مصدرا للخطر بالنسبة إلى العرب . وقد تحاربت القوتان المتنافستان مدة طويلة ، فكانت كفة النصر ترجح مرة في جانب العرب وأخرى في جانب

(١) النظم الإسلامية المؤلف من ٢٣٥ .

(٢) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب من ٢٧١-٢٧٢ .

(٣) لما استولى أبو جعفر المنصور على المدن الواقعة على حدود سورية المقابل لآسيا الصغرى ، مثل طرسوس وأذنة ومرعش ومطية ، حصنها وأحكم بناءها من جديد ، وأطلق عليها اسم «الثغور» . ولما ولي هارون الرشيد الخلافة أنشأ ولاية جديدة سماها «ولاية الثغور» ، وجعل لها نظاما عسكريا خاصا ، وأقام بها المقاتل ، وأمدتها بحاميات دائمة ، ومنح الجند ، فوق أرزاقهم ، أرضا قاموا بتعميرها وزراعتها ثم وأسراتهم ، فازدهرت هذه الثغور على الرغم من الحروب المتصلة ، وأصبحت أحوالها في يسر ورخاء إلى أيام الولاة ، ثم أخذت بعد ذلك في الأفول .

أنظر كتاب الخراج وصناعة الكتابة لقدماء بن جعفر من ٢٥٢-٢٦٦ .

الروم . ولذلك كانت هذه الثغور تقع طورا في أيدي العرب وطورا في أيدي البيزنطيين . وكانت صلاحية الجند للخدمة العسكرية تقرر بعد اختبار دقيق يشرف عليه جماعة من كبار القواد . فقد ذكر هلال بن الصافي (١) طريقة هذا الاختبار وتقدير مراتب النجاح أو الرسوب في هذه العبارة فقال :

« ويقف القواد والغلمان بين يديه ( يعنى المعتضد ) في الميدان ، ويجلس كتاب العطاء أسفل بحيث لا يراهم ، ويتقدم القائد ومعه جريدة بأسماء أصحابه وأرزاقهم ، فيأخذها خادم منه ويصعد بها إلى المعتضد بالله ، ويدعو عبيد الله بن سليمان بواحد واحد ممن فيها ، فيدخل الميدان ، ويمتنح على البرجاص (٢) . فان كان يرمى رميا جيدا وهو متمكن من نفسه ومستقر في سرجه ومصيب أو مقارب في رميه ، علم على اسمه د ج ، ، وهى علامة الجيد ، ومن كان دون ذلك علم على اسمه د ط ، ، وهى علامة المتوسط ، ، ومن كان متخلفا لا يحسن أن يركب فرسه أو يرمى هدفه علم على اسمه د د ، ، وهى علامة الدون . ثم يحمل بعد العرض والامتحان إلى كتاب الجيش ليتأملوا حليته ويقابلوا بها ما عندهم من صفاته لئلا يكون دخيلا أو بديلا . »

### (ج) قبة الجيش :

وكان الجيش في وقت القتال يتألف من خمسة أقسام : هى القلب ، وهو مركز القائد العام ، والميمنة ، والميسرة ، والطليعة ، والساقة . وكانت تتقدم الجيش الطليعة وهى سرية من الفرسان يلبسون الدروع اللامعة والخوذ الفولاذية ويحملون الرماح . ويقول سيد أمير على (٣) :  
« وما لا شك فيه أن منظر الجيش العربى ، وهو يشق طريقه فى صفوف لا نهاية لها فى بلاد الأعداء ، قد بلغ حد العظمة والبهاء . فكان الفرسان يسرون فى المقدمة ، وعلى جانبيهم حملة النبال . ثم يأتى بعدهم الرجال الذين كانوا يسرون فى صفوف متراصة بنظام عجيب ، ويليهم صفوف الجمال المحملة والعدد والحيم والعتاد . ثم تأتى بعدهم المستوصفات الصحية والنقلات لحمل المرضى والجرحى ، ثم آلات الحرب كالمجنبيقات والعرادات محملة على ظهور الجمال والخيول والبغال وهى تسير فى المؤخرة . أما إذا سار الخليفة أو أحد أفراد الأسرة المالكة على رأس الجيش ، فلا شك فى أن المنظر كان يبدو أكثر روعة وبهاء ، إذ كان جنود الحرس الخلفى يتشجون بالملابس الزاهية ويحملون الأعلام ذات الشعار الملوكى المنقوش بالذهب ، كما كان القواد والأمراء يرتدون الملابس الفخمة . وعلى الجملة كان هذا المنظر يبدو نفعا رائعا . وكانت الطليعة حين تصل إلى الموضع المقصود ، تأخذ فى حفر الخنادق ؛ إذ كان نظام الجيش يقضى ألا يمسكر الجند قبل أن يتخذوا الحيطه من الهجوم المفاجئ . فاذا وصل الجيش الرئيسى ، نصبت الحيم فى نظام بديع ، وأقيمت الشوارع

(١) تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ١٣ - ١٤ .

(٢) الهدف يعلق ويرمى فيه .

(٣) مختصر تاريخ العرب ص ٣٧٧ .

والأسواق والميادين كما لو كان المعسكر مدينة عامرة . وكانت توزع الأرزاق ، فتوقد المطابخ ، وتنصب عليها القدور . وبعد تناول العشاء يؤم الخليفة أو قاضي القضاة الجند في الصلاة ، ثم يجلس الجميع في حلقات يستمعون إلى أقاصيص الحروب والمخاطرات ، أو إلى القصائد الحماسية المصحوبة بصوت الناي ، وكانوا لا ينامون إلا بعد الهزيع الأول من الليل .

ويتبين لنا نظام التعبئة مما ذكره محمد بن سليمان الكاتب ، عن الموقعة التي دارت بينه وبين الحسين ابن ذكرويه المعروف بصاحب الشامة في بلاد الشام سنة ٢٩١ هـ ، ومنها يتبين كيف كانت الجيوش تستخدم الكمين كخدعة من خدع الحرب ، وكيف كانوا يعتمدون على السياط كآلة من آلات الحرب الهامة ، وإلى أي حد بلغ اهتمامهم بفرق الفرسان والرجالة . وهالك نص هذا الكتاب عن الطبري (١) :

« ولما كان في يوم الثلاثاء لست ليال خلون من المحرم (سنة ٢٩١ هـ) ، رحلت من الموضع المعروف بالقروانة نحو موضع يعرف بالعلبانية في جميع العسكر من الأولياء ، وزحفنا بهم على مراتبهم في القلب والميمنة والميسرة وغير ذلك . فلم أبعث أن وافاني الخبر بأن الكافر القرمطي أنفذ النعمان ابن أخي إسماعيل بن النعمان أحد دعائه في ثلاثة آلاف فارس وخلق من الرجالة ، وأنه نزل بموضع يعرف بتمنع ، بينه وبين حماه اثنا عشر ميلاً . فاجتمع إليه جميع من كان بمعرة النعمان وبناحية الفصيصة وسائر النواحي من الفرسان والرجالة ، فأسررت ذلك عن القواد والناس جميعاً ولم أظهره ، وسألت الدليل الذي كان معي عن هذا الموضع ، ولم يبيننا وبينه ، فذكر أنه ستة أميال . فتوكلت على الله عز وجل ، وتقدمت إليه في المسير نحوه ، قال بالناس جميعاً . وسرنا حتى وافيت الكفرة ، فوجدتهم على تعبئة ، ورأينا ثلاثتهم . فلما نظرنا إلينا مقبلين ، زحفوا نحونا ، وسرنا إليهم . فافترقوا ستة كراديس ، وجعلوا على ميسرتهم ، على ما أخبرني من ظفرت به من رؤسائهم ، مسروراً العليصى وأبا الحمل وغلان هارون العليصى وأبا العذاب ورجاء وصافي وأبا يعلى العلوى في ألف وخمسمائة فارس . وكنوا كميناً في أربعمائة فارس خلف ميسرتهم بازاء ميمنتنا ، وجعلوا في القلب النعمان العليصى ، والمعروف بأبي الخطي والحماري وجماعة من بطلانهم في ألف وأربعمائة فارس ، وثلاثة آلاف راجل ، وفي ميمنتهم كليبا العليصى والمعروف بالسديد العليصى والحسين بن العليصى وأبا الجراح العليصى وحميذا العليصى وجماعة من نظرائهم في ألف وأربعمائة فارس ، وكنوا مائتي فارس . فلم يزالوا زفاً (٢) إلينا ونحن نسير نحوهم غير متفرقين ، متوكلين على الله عز وجل . وقد استحدثت الأولياء والغلبان وسائر الناس غيرهم ، ووعدهم . فلما رأى بعضنا بعضاً حمل الكردوس الذي كان في ميسرتهم ضرباً بالسياط ، فقصد الحسين بن حمدان وهو في جناح الميمنة ، فاستقبلهم الحسين بآرك الله عليه وأحسن جزاءه بوجهه وبموضعه من سائر أصحابه برماحهم فكسروها في صدورهم ،

(١) ج ١١ ص ٣٨٦-٣٨٨ .

(٢) زف يزف زفا وزفوا وزففا : أسرع .



فانقلوا عنهم . وعارد القرامطة الحمل عليهم ، فأخذوا السيوف واعترضوا ضرباً للوجوه ، فصرع من الكفار الفجرة ستمائة فارس في أول وقعة ، وأخذ أصحاب الحسين خمسمائة فرس وأربعمائة طوق فضة ، ولوا مدبرين مغلولين ، واتبهم الحسين فرجعوا عليه ، فلم يزالوا حملة وحملة . وفي خلال ذلك يصرع منهم الجماعة بعد الجماعة ، حتى أفنأهم الله عز وجل ، فلم يفلت منهم إلا أقل من مائتي رجل . وحمل الكردوس الذي كان في ميمنتهم على القاسم بن سيبا وبين الخادم ومن كان معهم من بني شيبان وبني تميم ، فاستقبلوهم بالرمح حتى كسروها فيهم . واعتنق بعضهم بعضاً ، فقتل من الفجرة جماعة كثيرة ، وحمل عليهم في وقت حملتهم خليفة بن المبارك ولؤلؤ . وكنت قد جعلته جناحاً لخليفة في ثلثمائة فارس ، وجميع أصحاب خليفة وهم يعاركون بني شيبان وبنو تميم ، فقتل من الكفرة مقتلة عظيمة واتبوهم . فأخذ بنو شيبان منهم ثلثمائة فرس ومائة طوق ، وأخذ أصحاب خليفة مثل ذلك . وزحف النعمان ومن معه في القلب إلينا ، فحملت ومن معي ، وكنت بين القلب والميمنة . وحمل خاقان ونصر القشوري ومحمد بن كشجور ومن كان معهم في الميمنة ، ووصيف موشكير ومحمد بن إسحاق بن كنداجيق وابنا كيفلغ والمبارك القسبي وربيعه بن محمد ومهاجر ابن طليق والمظفر بن حاج وعبد الله بن حمدان وحى الكبير ووصيف البكتمري وبشر البكتمري ومحمد بن قراطغان . وكان في جناح الميمنة جميع من حمل على من في القلب ومن انقطع بمن كان حمل على الحسين بن حمدان ، فلم يزالوا يقتلون الكفار فرسانهم ورجالهم حتى قتلوا أكثر من خمسة أميال . ولما أن تجاوزت المصاف بنصف ميل ، خفت أن يكون من الكفار مكيدة في الاحتيال على الرجالة والسواد . فوقفت إلى أن لحقوني ، وجمعتهم ، وجمعت الناس إلى ، وبين يدي المطرد المبارك مطرد أمير المؤمنين . وقد حملت في الوقت الأول ، وحمل الناس . ولم يزل عيسى النوشري ضابطاً للسواد من مصاف خلفهم مع فرسانه ورجاله على ما رسمته له . فلم يزل من موضعه إلى أن رجع الناس جميعاً إلى من كل موضع . وضربت مضربي في الموضع الذي وقفت فيه حتى نزل الناس جميعاً . ولم أزل واقفاً إلى أن صليت المغرب ، حتى استقر العسكر بأهله ، ووجهت في الطلائع ، ثم نزلت وأكثرت حمداً لله على ما هنأنا به من النصر ، ولم يسبق أحد من قواد أمير المؤمنين وغلمانه ولا العجم وغيرهم غاية في نصر هذه الدولة المباركة ، في المناصحة لها إلا بلغوها ، بارك الله عليهم جميعاً . ولما استراح الناس خرجت والقواد جميعاً لنقيم خارج المعسكر إلى أن يصبح الناس خوفاً من حيلة تقع . وأسأل الله تمام النعمة وإيزاع (٣) الشكر ، وأنا ، أعز الله سيدنا الوزير ، راحل إلى حماه ، ثم أشخص إلى سلبية بمن الله تعالى وعونه . فن بقى من هؤلاء الكفار مع الكافر ، فهم بسلبية ، فانه قد صار إليها منذ ثلاثة أيام ، وأحتاج إلى أن يتقدم الوزير بالكتاب إلى جميع القواد وسائر بطون العرب من بني شيبان وتغلب وبني تميم ، يحجزهم جميعاً الخبر على ما كان في هذه الوقعة ، فما بقي أحد منهم ، صغير ولا كبير ، غاية ، والحمد لله على ما تفضل به ، وإياه أسأل تمام النعمة .

(١) التوزيع كالإيزاع ، معناه القسمة والتفريق أي توزيع الشكر على الناس .

٢- في مصر:

(١) في عهد الطولونيين والفاطميين:

اتخذ أحمد بن طولون جنداً كثيفاً من السودان والروم . ولما ضاقت داره بالخدم والعبيد والجند الذين كانوا يقيمون بمدينة العسكر التي أسسها صالح بن علي العباسي وأبو عون الذي خلفه في ولايته مصر ، اتخذ ابن طولون قطائع مختلفة من السودان ونوبيين وغيرهم من الجند . وكان بقصره مكان يشرف منه في يوم عرض الجيش . وكان يخرج من الباب الأوسط ، ويخرج عسكره من البابين الآخرين في عدد عظيم وفي أتم نظام . وقد قيل إن جيش مصر في عهد ابن طولون بلغ مائة ألف .

وبقنين مبلغ اهتمام الطولونيين بالجيش من وصف موكب خمارويه عند خروجه للصيد أو التنزه أو الاحتفال بأعياد الدولة ومواسمها . وقد بلغ موكب هذا الأمير حد الروعة والبهاء ، ويسير فيه أولاد الخوف وسائر الضياع ، وكانوا من قطاع الطرق ضخام الأجسام ، المعروفين بالشجاعة والبأس ، فأدخلهم خمارويه في خدمته ، وأدر عليهم الأرزاق والعطايا ، ومنع عن الناس أذاهم ، واتخذهم حرساً له . وكانوا يلبسون الأقبية من الحرير والديباج ، ويتمنطقون بالمناطق العريضة الثقيلة ، ويتقلدون بالسيوف المحلاة . وتسير خلفهم طوائف العسكر المختلفة يتلوهم ألف من السودان ، لهم درق من حديد محكم الصنعة ، وعليهم الأقبية والمعائم السود ، فيخالهم الناظر بحراً أسود يسير لسواد ألوانهم وسواد ثيابهم . ويزيدهم بهاء بريق درقهم ووهج سيوفهم والبيض<sup>(١)</sup> التي تلمع من تحت المعائم . فإذا مضى السودانيون ، قدم خمارويه وسار منفرداً عن موكبه بمقدار نصف غلوة<sup>(٢)</sup> سهم . ويحف به حرسه المختار ، وهو يمتط فرساً ، تكسوه الهيبة ويدل مظهره على السطوة وشدة البأس . فإذا سار ، سار الناس جميعاً وبينهم الجند في صمت عميق كأن على رؤوسهم الطير .

وفي عهد الإخشيد كانت مصر آمنة مطمئنة بجيشها الذي بلغ أربع مائة ألف مقاتل ، عدا حرسه الخاص ، وعبيده ومماليكه الذين كان يزخر بهم قصره ، وكانوا إذ ذاك مائة ألف رجل . وكان جند مصر في عهد الإخشيد يتألف من الأتراك والروم ، وكانت رواتبهم تدفع إليهم بانتظام من هذه الموارد التي هيأتها ثروة هذه البلاد . واستطاع هذا الجيش أن يصد محمد بن رائق الخزري ويحمل به الهزيمة في العريش ، وأن يصد سيف الدولة الحمداني صاحب حلب ؛ كما استطاع أن يضم إلى مصر بلاد الشام ومكة والمدينة ، وأصبح الإخشيد من القوة بحيث يستطيع أن يأمر عماله وقواده بتولية ابنه أنوجور العهد<sup>(٣)</sup> .

ولما تولى كافور زمام مصر وما يليها من البلاد بعد وفاة الإخشيد انضم إلى الجيش عدد كبير من السودان . ويقول المقريري<sup>(٤)</sup> إنه كان لكافور ١٧٠٠ غلام من الأتراك عدا الروم والمولدين ، وإنه كان يدر على جنده الرواتب الوفيرة والهبات العظيمة .

(١) جمع بيضة وهي الخوذة الحديدية

(٢) رمية .

(٣) المقريري : خطط ج ١ ص ١٥٢ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٢ .

(٤) خطط ج ١ ص ١٥٢ .

(ب) في عهد الفاطميين :

أما الفاطميون فقد وجهوا عنايتهم إلى إعداد جيش قوى . وكان هذا الجيش يتألف من الأمراء وطوائف الجند . ولكل من هاتين الطبقتين مرتبة لا تتجاوزها إلى غيرها ، وكان يخضع على بعض الأمراء بأطواق الذهب فيحملونها حول أعناقهم ، والبعض الآخر يركب في المواكب بالقضب الفضية . وكان الجيش يتكون من عدة عناصر : كالغاربة والأتراك والأكراد والغز والديلم والسودان . وكان بعض هذه العناصر ينسب إلى الخلفاء : كالحافظية والآمرية ، والبعض الآخر ينسب إلى الوزراء : كالجيوشية والأفضلية .

وقد اهتم الخلفاء الفاطميون بعرض الجيش وتوديع الحملات الحربية ، وخاصة إلى بلاد الشام وفلسطين ، وكان أهلها في ثورات متصلة على الفاطميين <sup>(١)</sup> .

(ب) البحرية

اهتم المسلمون على أثر فتح بلاد الشام ومصر بإنشاء أسطول لحماية سواحل هذه البلاد من غارات البيزنطيين ، ومحاولة فتح القسطنطينية . وقد ظهر ذلك واضحا منذ عهد عثمان بن عفان وفي عهد الدولة الأموية التي استقرت في بلاد الشام . على أن انتقال الخلافة إلى العراق أدى إلى جعل مهمة الدفاع عن هذه البلاد من اختصاص ولائها أنفسهم . وقد بلغ من اهتمام المسلمين بالبحرية أن سفنهم أصبحت أكبر وأقوى من سفن البيزنطيين . وكان للدسليين في كل مرفأ منار لهداية السفن ، أطلق عليه اسم « الخشب » ، كما كان لكل سفينة حربية قائد أو « مقدّم » يرأس من يعمل فيها من الجند ويقوم بتدريبهم وإعداد العدة للحملات البحرية . وإلى جانب هذا القائد موظف آخر يدعى الرئيس يتولى الملاحة فقط . أما القائد العام للأسطول فيدعى « أمير الماء » أو « أمير البحر » ، الذي اشتق منه الأوربيون لفظ Admiral .

وقد اشتهرت مصر في العصر الإسلامي بصناعة المراكب النيلية لنقل حاصلات البلاد من مكان إلى آخر ، كما اشتهرت أيضا بصناعة السفن الحربية التي يتكون منها الأسطول المصرى ، والتي كانت تشحن بالأسلحة والمقاتلة لغزو بلاد الدولة البيزنطية عن طريق الإسكندرية ودمياط وتينيس والقرما . ويرجع إنشاء « الصناعة » في مصر إلى هذه الغزوة التي شنها البيزنطيون على البرلس وتكبد فيها المصريون خسائر فادحة ، وما تبع ذلك من استيلائهم على تينيس في سنة ١٠١ هـ ( ٧٢٠ م ) وعلى دمياط سنة ٢٣٨ هـ ( ٨٥٣ م ) . وكان من أثر هذه الحملة الأخيرة أن قام عبثة بن إسحق ( ٢٣٨ - ٢٤٢ هـ ) وإلى مصر في ذلك الوقت بتحصين سائر الموانئ المصرية ، كما قام في الوقت نفسه بإنشاء « الصناعة » التي ظلت موضع عناية ولاية مصر إلى أن قامت الدولة الطولونية ، وأنشأ فيها أحمد بن طولون أسطولا كبيرا من السفن الحربية . ولكن بقاء « الصناعة » في هذا المكان أصبح

(١) انظم الاسلامية للمؤلف ص ٢٣٩ - ٢٤١ . وسنقف على ترتيب الجند في عهد الفاطميين من الوصف الذى أورده ناصرى خسرو عن الاحتفال بمحرم الخليل في عهد المستنصر في الباب العاشر من هذا الكتاب .

مصدر خطر للبلاد بعد أن أحرقها الثوار في سنة ٣٢٣ هـ ثم استولوا على الأسطول المصري في القيوم واستخدموه في الحرب إلى الإسكندرية ثم إلى برقة . ومن ثم أمر الإخشيد بنقل دار الصناعة إلى دار خديجة بنت الفتح بن خاقان زوجة أحمد بن طولون ( شعبان سنة ٣٢٥ هـ ) ، ثم أقام في موضعها بستانه المعروف بالمختار ، (١) .

ولم تقف جهود الفاطميين عند حد اهتمامهم بتكوين الجيش ، بل رأوا على أثر تهديد البيزنطيين لبلاد الشام التي كانت تابعة لمصر ، واستيلائهم على أمهات مدنها مثل أنطاكية وحلب ، أنهم في حاجة ماسة إلى أسطول قوى ؛ فأنشأ المعز لدين الله الفاطمي ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين السفن الحربية في مدينة مصر ( الفسطاط والعسكر ) . وفي الإسكندرية ودمياط . وكانت تسير بعض وحداتها للرباطة في الموانئ الشامية مثل عكا وصور وعسقلان .

وأنشأ المعز في المقس دارا لصناعة السفن بنى فيها ستائة مركب ، وصفها المسبّح المتوفى سنة ٤٢٠ هـ بقوله إنه لم ير مثلاً فيما تقدم كبرا ووثاقه وحسنا . وقد قام الأسطول المصري في عهد الفاطميين بدور هام في الحروب التي قامت بين القرامطة والفاطميين ( ٣٦٠-٣٦٧ هـ ) . فقد استطاع أسطول القرامطة أن يصل إلى مصر ويهدد دلتا النيل ، ويفرق كثيرا من سفن الفاطميين في البحر الأبيض المتوسط . كما استطاع أسطول الفاطميين أن يمد الحاميات الفاطمية المحاصرة في الشام (٢) .

وقد ذكر القلقشندي<sup>(٣)</sup> أنه كان على رأس الأسطول المصري عشرة قواد ، عليهم رئيس هو قائد القواد ، ويسمى في عصر الفاطميين « أمير الجيش » ، وفي عهد المماليك « ناظر الجيش » . ويتناول كل من هؤلاء القواد رواتب تصل إلى عشرين دينارا في الشهر . وكان للأسطول المصري ميزانية ضخمة من مستغلات الإقطاعات المحبوسة عليها . ولم يزل الأسطول محل عناية الفاطميين ، حتى قام النزاع بينهم وبين الصليبيين ، فأمر شاور وزير العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بإحراق مدينة الفسطاط ليحول دون وصول العدو ، كما أحرق مراكب الأسطول .

وقد ذكر ابن خلدون<sup>(٤)</sup> ما قامت به البحرية الإسلامية من الأعمال المجيدة ضد البيزنطيين وسائر الشعوب الأوروبية في البحر الأبيض المتوسط الذي أصبح بحق بحيرة عربية في ذلك العصر ، فيقول : وكانت أساطيل إفريقية والأندلس في دولة العبيديين والامويين تتعاقب إلى بلادهم في سبيل الفتنة ، فتجوس خلال السواحل بالإفساد والتخريب . وانتهى أسطول الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر إلى مائتي مركب أو نحوها ، واسطول إفريقية<sup>(٥)</sup> كذلك مثله أو قريبا منه . وكان قائد الأساطيل

(١) السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ج ٢ ص ١٩٩ .

(٢) المقرئ : اعطاء الخنقا ص ١٢٣ .

(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٣-٥٢٤ . انظر كتاب النظم الإسلامية للمؤلف ص ٢٥١-٢٥٢ .

(٤) مقدمة ص ٢٢٠-٢٢١ .

(٥) يقصد بذلك أسطول الفاطميين في المغرب .

بالأندلس ابن رماحس ، ومرفؤها للحط والإفلاج بجاية والمرية . وكانت أساطيلها مجتمعة من سائر الممالك ، من كل بلد تتخذ فيه السفن أسطول يرجع نظره إلى قائد من النوتية يدبر أمر حربه وسلاحه ومقاتلته ، ورئيس يدبر أمر جريته بالريح أو بالمجازيف ، وأمر إرسائه في مرفئه . فإذا اجتمعت الأساطيل لغزو محتفل أو غرض سلطاني مهم ، عسكرت بمرفأها المعلوم ، وشحنها السلطان برجاله وإنجاد عساكره ومواليه . وجعلهم لنظر أمير واحد من أعلى طبقات أهل مملكته يرجعون كلهم إليه ، ثم يسرحهم لوجههم ، وينتظر إياهم بالفتح والغنيمة . وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه . فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم .. وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم . فكانت لهم المقامات المألوفة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه ، مثل : ميورقة ومنورقة وبابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وإقريطش وقبرس ، وسائر ممالك الروم والإفرنج . وكان أبو القاسم الشيعي (١) وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهديّة جزيرة جنوة فتقلب بالظفر والغنيمة . وافتتح بمجاهد العامري دانية من ملوك الطوائف جزيرة سردانية في أساطيله سنة خمس وأربعمائة ، وارتجعها النصراني لوقتها ، والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر ، وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة ، والعساكر الإسلامية تجيز البحر في الأساطيل من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من العدو الشمالية ، فتوقع بملوك الإفرنج وتشنخ في ممالكهم ، كآرقع في أيام بني الحسين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبيديين . وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي منه ، من سواحل الإفرنجية والصقلية وجزائر الرومانية لا يعدونها ، وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضرا- الأسد على فريسته ، وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعدداً ، واختلفت في طرقه سلباً وحرباً ، فلم تظهر للنصرانية فيه ألواح .

ويدين العرب البيزنطيين بفضل تعليمهم الفنون البحرية . ولكن العرب الذين تعدوا على البيزنطيين هذه الفنون أصبحوا أساتذة أوروبا لما فطروا عليه من الشجاعة وحب المغامرة . وبما يدل على صحة هذا القول أن بعض الاصطلاحات البحرية المستعملة في أوروبا لاتزال تحتفظ بهربيتها إلى اليوم . وكان أثر العرب في شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط بوجه خاص ، أبعد مدى من غيرهم من شعوب أوروبا . ويقول فون كرىمر (٢) : « وما يوضح لنا أن الأسطول العربي القديم كان نموذجاً لأساطيل الأقطار المسيحية ، أن كثيراً من الاصطلاحات العربية البحرية لاتزال شائعة على السنة البجارية في جنوب أوروبا . ومن بين تلك الاصطلاحات كلمة cable المأخوذة من « جبل » العربي ، arsenal ( وبالإيطالية darsonal ) المأخوذة من « دار الصناعة » ، corvette المأخوذة من « غراب » ، admiral المأخوذة من « أمير البحر » .

(١) هو القائم الفاطمي ثاني الخلفاء الفاطميين بالمغرب ( ٣٢٢ - ٣٣٤ هـ )

(٢) Von Kremer: Orient Under the Caliphs, p. 356.

## ٤ - النظام المالي

### (١) في الرلة العباسية :

#### ١ - موارد الدولة :

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب أن سياسة العباسيين المالية كانت ترمى إلى تحقيق التوازن بين موارد الدولة ومصارفيها ؛ ومن ثم كانت تقسم الميزانية العامة قسمين : قسم الاستخراج ويعرف بموارد الدولة ، وقسم النفقات ويعرف بمصارف الدولة (١) .

وقد بلغ النظام المالي في العصر العباسي الثاني مبلغاً عظيماً من الدقة والنظام . فكان لكل ولاية ديوان للخراج يتبع ديوان الخراج الرئيسي في بغداد أو في سامرا . ويتقسم كل منها قسمين : يشرف أحدهما على النفقات ويحمل ما تبقى إلى دار الخلافة ، ويشرف الثاني على الموارد . وكان بيت المال بدار الخلافة يعني بشئون الدواوين وما يتعلق بالجزء الشرقي لمدينة بغداد ، لأن هذا الجزء كان تابعاً لدار الخلافة ، على حين كان الجانب الغربي لهذه المدينة تابعاً لإقليم بادرايا .

وقد بين الخوازمي (٢) القوانين والدفاتر والأعمال التي كانت مستعملة في الدواوين بخراسان في ذلك العصر فقال :

« قانون (٣) الخراج أصله الذي يرجع إليه وتبني الجباية عليه ، وهي كلمة يونانية معربة . الأوارج أعراب أواره ، ومعناها بالفارسية المنقول ، لأنه ينقل إليه من القانون ما على إنسان إنسان ، ويثبت فيه ما يؤديه دفعة بعد أخرى إلى أن يستوفي ما عليه .

الزناج ، فسيره كتاب اليوم ، لأنه يكتب فيه ما يجرم كل يوم من الخراج أو نفقة أو غير ذلك . الختمة كتاب يرفعه الجهميد (٤) في كل شهر بالاستخراج والجل والنفقات والحاصل كأنه يختم الشهر به — الختمة الجامعة تعمل كل سنة لذلك .

التأريج قيل لفظه فارسية ومعناه النظام ، لأنه كسواد يعمل كالعقد لعدة أبواب يحتاج إلى علم جملها . وأنا أظن أنه تفعيل من الأوارج . تقول : أرجت تأريجاً لأن التأريج يعمل للعقد شبيهاً بالأوارج ، فإن ما يثبت تحت كل اسم من دفعات القبض يكون مصفوقاً ليسهل عقده بالحساب ، وهكذا يعمل التأريج .

العريضة ، شبيهة بالتأريج ، إلا أنها تعمل لأبواب يحتاج إلى أن يعلم فضل ما بينها ، فينقص الأقل من الأكثر من بابين منها ، ويوضع ما يفضل في باب ثالث ، وهو الباب المقصود الذي تعمل العريضة

(١) ص ٢١٠ — ٢١١ .

(٢) مفاتيح العلوم (القاهرة سنة ١٣٤٢هـ) ص ٣٦ — ٣٩ .

(٣) كانت لفظه Kanon في العصر التالي لعصر دقلديانوس هي الإصلاح العام للضرائب العادية .

(٤) الجهميد بالكسر : النقاد الغبير بغوامض الأمور ، البارع العارف بطرق النقد ، وهو معرب .

لأجله ، مثل أن تعمل عريضة للأصل والاستخراج . ففي أكثر الأحوال ينقص الاستخراج عن الأصل فيوضع في السطر الأول من سطوره العريضة ثلاثة أبواب : أحدها للأصل ، والثاني للاستخراج ، والثالث لفضل ما بينهما . ثم يوضع في السطر الثاني والثالث والرابع إلى حيث ينتهي تفصيلات الأصل والاستخراج فضل ما بينهما ويثبت كل واحد منهما بإزاء بابه ، وتثبت جملة كل باب تحته .

البرامة ، حجة يبذلها الجيبيذ أو الخازن للوودي بما يؤديه إليه .

الموافقة والجماعة ، حساب جامع يرفعه العامل عند فراغه من العمل ، ولا يسمى موافقة ما لم يرفع باتفاق بين الراجع والمرفوع إليه فإن انفرد به أحدهما دون أن يوافق الآخر على تفصيلاته تسمى محاسبة . ومن دفاتر ديوان الجيش الجريدة السوداء ، وهي تكسر لقيادة قيادة في كل سنة بأسمى الرجال وأنسابهم وأجناسهم وحلامهم ومبالغ أرزاقهم وقبوضهم وسائر أحوالهم ، وهو الأصل الذي يرجع إليه في هذا الديوان في كل شيء .

الرجعة ، حساب يرفعه المعطى في بعض المساكر لطمع (١) واحد إذا رجع إلى الديوان . والرجعة الجامعة يرفعه صاحب ديوان الجيش ليكل طمع من صنوف الإنفاق .

الصك ، يعمل لكل طمع يجمع فيه أسامي المستحقين وعدتهم ومبلغ ما لهم ويوقع السلطان في آخره بإطلاق الرزق لهم .

المؤامرة ، عمل يجمع فيه الأوامر الخارجة في مدة أيام الطمع ، ويوقع السلطان في آخره بإجازة ذلك . وقد تعمل المؤامرة في كل ديوان يجمع جميع ما يحتاج إليه من استئثار واستدعاء توقيع . والصك أيضا يعمل لأجور الساربانين والجمالين ونحوهم .

الاستقرار ، عمل يعمل لما يستقر عليه من الطمع بعد الإثبات والفك والوضع والزيادة والحط والنقل والتحويل ونحو ذلك .

المواصفة ، عمل يُعمل ، فتوصف فيه أحوال تقع وأسبابها ودواعيها وما يعود بثباتها أو زوالها . الجريدة المسجلة هي المختومة ، فأما السجل فكتاب يكتب للرسول أو الخبير أو الرحال أو غيرهم بإطلاق نفقته حيث بلغ ، فيقيمها له كل عامل يحتاج به . والسجل أيضا المحضر يعقده القاضي بفصل القضاء ، يقال سجل الحاكم لفلان بكذا تسجيلا .

الفهرست ، ذكر الأعمال والدفاتر تكون في الديوان ، وقد يكون لسائر الأشياء .

الدستور ، نسخة الجماعة المنقولة من السواد .

التتريقين ، خط يخط في النأريج أو العريضة إذا خلا باب من السطر لكي يكون الترتيب محفوظا به ، وهو بمنزلة الصفر في حساب الهند وحساب الجُمَّل ، واشتقاقه من رقان ، وهو بالتبطينة الفارغ .

الجائزة علامة المقابلة .

ومن الدفاتر التي يستعملها كتاب العراق ، الإنجيدج تفسيره المففوظ لفظة فارسية معربة .

(١) الطمع محركة رزق الجيبيذ ، وجمعها أطماع أو أطماعم أوقات قبض أرزاقهم .

الأوشنج ، تفسيره المطوى والمجموع لفظه فارسية معربة أيضا .  
والدوروزن ذكر الماسح وسواده الذى يثبت فيه مقادير ما يسمح من الأرضين .  
ومن أهم موارد بيت المال في هذا العصر : الخراج ، والجزية ، والزكاة ، والنفى ، والغنيمة والعشور .  
وقد زادت الضرائب في عهد بنى أمية على ما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين ، إذ لم يراع  
الخلفاء القواعد التى قررها أسلافهم ، بل تجاوزوا حدود الضرائب التى فرضوها . وسن الأمويون  
نظاما دقيقا للإشراف على جباية الأموال . ففي عهد عبد الملك بن مروان كان يعمل تحقيق مع الجباة  
وموظفي الخراج عند اعتزلهم أعمالهم الإدارية . وكان للتحقيق مع هؤلاء أماكن خاصة تسمى  
دار الاستخراج .

وفي العصر العباسي الأول كانت هناك ثلاث طرق لجباية الخراج .

١ — المحاسبة ، وهى إما أن تكون نقدا أو نوعا أو هما معا .

٢ — المقاسمة ، وهى ضريبة نوعية تؤخذ من المحصول .

٣ — المقاطعة ، وهى ضريبة تجبي بمقتضى اتفاقات معينة بين الحكومة والخاصة . وبدخل في

هذا النظام معظم أراضي التاج . وكثيرا ما كان يعنى البعض من دفع الضرائب حتى في العهود التى  
ساد فيها العسر والجذب . مثال ذلك أن الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) تجاوز عن ربيع الضريبة  
بإرجائه السنة المالية من مارس إلى ١٧ يونية ، ثم بإرجائها مرة أخرى إلى ٣١ يونية (١) .

وقد بلغ ما حمل إلى بيت المال في أواخر القرن الثالث الهجرى في كل سنة — على ما أورده قدامة  
ابن جعفر (٢) من العين ٤,٩٢٠,٠٠٠ دينار من الورق . وكان الدينار يساوى في ذلك الوقت  
خمسة عشر درهما ، فيكون مجموع الخراج ٧٣,٨٠٠,٠٠٠ درهم . وقد فصل قدامة (٣) جباية أقاليم  
الدولة في هذا العصر فقال :

و تفصيل ذلك عينا وورقا :

مقدار الجباية	أسماء الأقاليم	مقدار الجباية	أسماء الأقاليم
١,٠٠٠,٠٠٠ درهم	سجستان	١٣٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم	السواد
٣٧,٠٠٠,٠٠٠ د	خراسان	٢٣,٠٠٠,٠٠٠ د	الاهواز
٩٠٠,٠٠٠,٠٠٠ د	حلوان	٢٤,٠٠٠,٠٠٠ د	فارس
٥,٠٠٠,٠٠٠ د	ماه السكوفة	٦,٠٠٠,٠٠٠ د	كرمان
٤,٨٠٠,٠٠٠ د	ماه البصرة	١,٠٠٠,٠٠٠ د	مكران
١,٧٠٠,٠٠٠ د	همدان	١٠,٥٠٠,٠٠٠ د	أصبهان

(١) راجع الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ٢١١

(٢) كتاب الخراج وصناعة الكتابة ص ٢٤٩

(٣) المصدر نفسه ص ٢٤٩ — ٢٥١



مقدار الجباية	أسماء الأقاليم	مقدار الجباية	أسماء الأقاليم
درهم ٤,٢٠٠,٠٠٠	أرزن وميفارقين	درهم ١,٢٠٠,٠٠٠	ماسبدان
» ١٠٠,٠٠٠	مقاطعة طرون	» ١,١٠٠,٠٠٠	مهرجان قذق
» ٤,٠٠٠,٠٠٠	أرمينية	» ٣,٨٠٠,٠٠٠	الإيغارين
» ٢,٠٠٠,٠٠٠	آمد	» ٣,٠٠٠,٠٠٠	قم وقاسان
» ٦,٠٠٠,٠٠٠	ديار مضر	» ٤,٥٠٠,٠٠٠	آذربيجان
» ٢,٩٠٠,٠٠٠	أعمال طريق الفرات	» ٢٠,٠٨٠,٠٠٠	الري ودماوند
دينار ٣٦٠,٠٠٠	قنسرين والعواصم	» ١,٨٢٠,٠٠٠	قزوین وزنجان وأبهر
» ٢١٨,٠٠٠	جند حمص	» ١,١٥٠,٠٠٠	قومس
» ١١٠,٠٠٠	جند دمشق	» ٤,٠٠٠,٠٠٠	جرجان
» ١٠٩,٠٠٠	جند الأردن	» ٤,٢٨٠,٠٠٠	طبرستان
» ٢٥٩,٠٠٠	جند فلسطين	» ٩٠٠,٠٠٠	تكریت والطبرهان والسن والبوازيح
» ٢,٥٠٠,٠٠٠	مصر والإسكندرية	» ٢,٧٥٠,٠٠٠	شهرزور والصابغان
» ١٠٠,٠٠٠	الحرمين	» ٦,٣٠٠,٠٠٠	كورة الموصل
» ٦٠٠,٠٠٠	الين	» ٣,٢٠٠,٠٠٠	قردي وبزبدی
» ٥١٠,٠٠٠	التيامة والبحرين	» ٩,٦٣٥,٠٠٠	ديار ربيعة
» ٣٠٠,٠٠٠	عمان		

وبما يدخل في شيء من الارتفاع جزية رموس أهل الذمة بمحضرة مدينة السلام وهي ٢٠٠,٠٠٠ درهم .

### نظام الإقطاع :

ولم يأت الخراج عن طريق الأرض الخراجية وحدها بل كان يأتي أيضا عن طريق الأرض المقطعة . ويرجع نظام الإقطاع إلى عهد الفتوح الإسلامية الأولى ، فكانت أراضي الأكاسرة وأفراد البيت المالك والمرابذة ، وهم كبار أصحاب الأراضي ، ملكا للدولة تُقَطَّعها من تشاء . وقد ذكر الماوردي (١) أن الإقطاع ضربان : إقطاع استغلال ، وإقطاع تملك ، والثاني ينقسم إلى موات وعامر . والثاني وهو ضربان : أحدهما ما يتعين مالكة ولا نظر للسلطان فيه إلا بتلك الأرض في حق لبيت المال إذا كانت في دار الإسلام . فان كانت في دار الحرب حيث لم يثبت للسلطين عليها يد فأراد الإمام أن يقطعها لملكها المقطع عند الظفر بها فإنه يجوز .

وكان الخراج الذي يؤدي عن الأرض المقطعة يحدد باتفاق خاص بين صاحب الإقطاع وبين الحكومة ، ويبلغ العشر على ما قرره الفقهاء . وتعود هذه الأرض المقطعة إلى الحكومة في حالة مصادرة أصحابها أو عند تطرق الخراب إليها . وكثيرا ما كان الخراج عبئا ثقيلا على صغار ملاك

(١) الأحكام السلطانية ص ١٨١ - ١٨٨

الأراضي ، حتى إن بعضهم كان يلحق أرضه بالاقوياء ، فرارا من كثرة الخراج المفروض عليهم ، ومن ثم كانوا لا يدفعون عن هذه الأراضي إلا العشر فقط (١) . وتسمى هذه الطريقة الثلجثة ، وهي وأن يطلق الضعيف ضيعة إلى قوى ليحامي عليها (٢) .

على أن نظام الإقطاع لم يخل من بعض العيوب ، إذ أن المقطع أو الملتزم كان يعمل على الإثراء وجمع المال ، ولا يتردد في إرهاب الأهلين وإثقالهم بالضرائب المختلفة حتى يستطيع أن يؤدي إلى الحكومة ما عليه من مال الخراج ويحفظ لنفسه بما زاد على ذلك . والأهالي في ذلك مغلوبون على أمرهم ، قلما تصل شكاياتهم إلى السلطة المركزية ، فضلا عما كان يسلكه معهم بعض الجبابرة من وسائل التعذيب (٣) .

ولم يكن الالتزام مقصورا على إقطاع أجزاء من الأرض في الولاية الواحدة ، بل قد يشمل ولاية برمتها . وقد ساد هذا النظام في العصر العباسي الأول حين تولى الأتراك حكم الدولة العباسية ، وأصبحوا يقطعون الولايات على أن يؤديوا لدار الخلافة مبلغا من المال عدا الهدايا والقرى ، كما كان متبعيا في نظام الإقطاع الذي ساد أوروبا في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ( الثالث والرابع الهجريين (٤) ) . وقد اهتم الخلفاء بمواعيد الخراج . وكان ميعاده عيد النيروز عادة . ولما حاول الأمويون تقديم ميعاد الخراج نحو من شهر ، طلب أصحاب الأراضي العدول عن تنفيذ هذا القرار ؛ ولكن هشام ابن عبد الملك أبقى ذلك عليهم . واستمر هذا النظام إلى أيام هارون الرشيد حيث طلب أصحاب الأراضي من يحيى بن خالد البرمكي تأجيل ميعاد الخراج شهرين ، وكاد يجب طلبهم ، ولكنه عدل عن ذلك لأنه رمى بالتعصب للجوسية . ولم تحل هذه المسألة إلا في عهد الخليفة المنوكل . ولما جاء ابنه المنتصر أعاد ميعاد الخراج إلى ما كان عليه من قبل . ثم جاء المعتضد ( ٢٧٩ — ٢٨٩ هـ ) فقدم ميعاد الخراج عما كان عليه في عهد المنوكل بسنة عشر يوما ، فأصبح في ٢٠ يونية من كل سنة .

وكانت الجزية التي تؤخذ من أهل الذمة من أهم مصادر بيت المال ؛ وقد فرضت أول الأمر على النصراني واليهود مقابل حمايتهم والدفاع عنهم . ومن ثم كانت هذه الضريبة أشبه بضريبة الدفاع الوطني أو البديل العسكري . لذلك لم تفرض إلا على القادرين على حمل السلاح وكانت هذه الضريبة التي عرفت باسم الجزية أو جزية الروس أو الضريبة الشخصية تؤدي على قدر طاقة الشخص . ولذلك قسم أهل الذمة طبقات ثلاث : دنيا ويدفع الشخص منها ١٢ درهما في السنة ، ووسطى ويدفع ٢٤ درهما ، وعليا ويدفع ٤٨ درهما . وفي البلاد التي استعملت فيها العملة الذهبية كانت الضريبة دينارا ودينارين وأربعة دنانير على التوالي . وكانت الجزية تؤخذ على أقساط تبلغ أحيانا ستة أو خمسة وأحيانا أربعة أو ثلاثة أو اثنين ، وفرضت في العراق أول الأمر في كل شهر . وفي سنة ٢٦٦ هـ صدر

(١) هلال بن الصائغ : تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء من ١٣٤ ، ٢٢٠

(٢) الجوارزي : مفاتيح العلوم ص ٤١

(٣) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ١٨ ، ٦١ ، ٧٠ — ٧١

(٤) كتاب النظم الإسلامية للدولف ص ٢٧٣ — ٢٧٤ .

أمر الخليفة بأن تؤخذ الجزية من أهل الذمة في شهر المحرم من كل سنة ، وألا تؤخذ من النساء ، ولا ممن لم يبلغ الحلم ، ولا من ذى سن عالية ، ولا ذى عاهة بادية ، ولا من فقير مشعوم ، ولا من راهب متبتل . ويعطى لمن دفع الجزية برامة تثبت أداءه لها (١) .

وقد بلغ المنحصل من ضريبة الجزية في أواخر القرن الثالث الهجرى بمدينة بغداد ٢٠٠,٠٠٠ درهم في السنة .

ومن مصادر بيت المال أيضا ما يؤخذ من تركة من يموت دون أن يترك وارثا له ، حيث يؤول ميراثه إلى بيت المال . وكان هذا مقصورا على المسلمين . ولذلك نرى الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ) يصدر في سنة ٣١١ هـ كتابا يأمر فيه برد تركة من يموت من أهل الذمة دون وارث إلى أهل ملته لا إلى بيت المال ، وذلك لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن المسلم لا يرث الكافر ، وأن الكافر لا يرث المسلم ، وأنه لا يتوارث أهل ملتين (٢) ، وأن السنة جرت بأن أهل كل ملة يؤرثون من هو منهم إذا لم يكن له وارث من ذى رحمه (٣) . ونظرا لما كان لهذه التركات من أهمية بكونها مصدرا هاما من مصادر بيت المال ، أنشئ لها في عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩هـ) ديوان خاص أطلق عليه ديوان الموارث .

وكان هذا الديوان مصدر كثير من العنت والإرهاق والشكوى ، لأخذ الموارث على غير ما تجرى به السنة (٤) :

ومن مصادر بيت المال أخماس المعادن والركاز (٥) وخمس ما يقذفه البحر أو يستخرج منه مثل الثاؤز والعتبر ، وأثمان الأبقاع من العبيد (٦) ، وما يؤخذ من اللصوص من الأموال والأمتعة إذا لم يظهر له صاحب (٧) . ومن مصادر بيت المال أيضا الرسوم الجركية كما سيأتى في الباب الثامن . وكانت مصادرات الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة مصدرا من مصادر بيت المال . ففى مثلا الخليفة القاهر (٣٢٠ - ٣٢٢هـ) يصادر أم سلفه المقتدر وأنصاره ويستولى على دنياب وشى وديباج رومى وتسنترى (٨) مستقلة بالذهب ، وفرش آدمى وخز رقم وديباج ، وصناديق فيها ثياب فاخرة وصباغات بسيرة ذهب ، وصباغات كثيرة فضة ، وطيب كثير من عود هندي وعتبر مسك وكافور ، وتمائيل كافور ، قيمة ذلك نحو مائة وثلاثين ألف دينار ، وقيمة التمايل نحو ثلثمائة ألف

(١) راجع آدم متر: الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٧٤ - ٧٨ .

(٢) هلال بن الصابي: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ٢٤٨ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) راجع كتاب الخليفة المقتدر إلى عماله في صدد تعديل قانون الموارث في ابن الصابي: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ٢٤٦ - ٢٤٩ . (٥) الركاز المال المدفون في الجاهلية .

(٦) من أبق العبد أبقا إذا هرب من سيده من غير خوف ولا كد عمل ، والجمع أباق مثل كافر وكفار .

(٧) آدم متر: الحضارة الاسلامية ص ١٨٩ .

(٨) نسبة إلى تسنتر ، وهي معربة عن ششتر اشهر مدن خوزستان .

درهم . فتسلم أكثر ذلك مؤنس المظفر لبيع ، فتركوا بعضه ليقدم به القاهر ، (١) .  
ولما قتل بجحك صودرت أمواله — وكانت مدفونة في مواضع كثيرة من بستانه . وقد قيل إن  
الخليفة المتقى استولى على ألف دينار من العين والورق ، كما استولى من ابن شيرزاد ، وكان  
من أنصار بجحك ، على مائتي ألف دينار (٢) . وكذلك نرى بختيار بن معز الدولة يبنى كبار الديلم  
ويصادر إقطاعاتهم ويستولى على أموالهم وأموال المتصلين بهم (٣) .  
وقد سن بنو بويه طرقا لا يتزار الأموال من أصحابها ، فزاد عضد الدولة في مساحة الأراضي  
واحدا في عشرة بالقلم ، وأضافه إلى الأصول ، وجعله رسماجايا (٤) ، استمر إلى هذه الغاية في  
جميع السواد ، وأحدث جنبايات لم تكن ، ورسوم معاملات لم تعهد ، وأدخل يده في جميع الأرجاء (٥) ،  
وجبي ارتفاعها وجعل لأهلها شيئا منه . وكثرت الظلامة من ذلك في آخر أيامه . . . إن الله لا يغير  
ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . . . فأزاله صمصام الدولة بعده ، وأطلق الارتفاع (٦) للملاك .  
وجعل للراعي وفرائض الصدقات ديوانا ، وأفرد له عمالا وكتابا وجهابذة ، فازتفع من أعمال  
السواد ما زاد على ألف ألف درهم في السنة . وأدخل يده في وقوف السواد ، ورتب لها ناظرين  
متصرفين ، وقرر لأربابها إجارة تطلق لهم عنها ، فتحصل منها جملة كثيرة فصارت في المقبوض (٧) ،  
وخرجت الإقطاعات من بعد ذلك (٨) . وقرر على أسواق الدواب والخير والجمال عما يباع فيها من  
جميع ذلك ، وفعل في ضرائب الأمتعة الصادرة والواردة ما زاد فيه على الرسوم القديمة ، وحظر عمل  
التلج والقر وجعلهما متجرا للخاص (٩) . وكانا من قبل مطلقين لمن يريد عملهما والمتجر فيهما ، (١٠) .

### ٢ — مصروفات الدولة :

وقد كثرت موارد الدولة العباسية في ذلك العصر على الرغم مما أصابها من ضعف وهن . يدل  
على ذلك هذا البيان الطويل الذي أورده هلال بن الصابي (١١) عن النفقات اليومية للدولة العباسية في  
أوائل عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) . ومنه نرى أنها بلغت نحو سبعة آلاف دينار ، أي

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ٢٤٤ .

(٢) الصولى : أخبار الراضى بالله والمنقى لله ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٣) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٣٥ ، راجع هذا الكتاب ص ١٠٧ .

(٤) أى نظاما متبعيا .

(٥) فى الأصل أرشاء جمع رحى هو الطاحون ، ويظهر أنها الأرجاء كما يقتضيه سياق الكلام .

(٦) الارتفاع هو صافى دخل الأرض ونحوها ، يريد أنه اكتفى بأن يأخذ الحراج للدولة من الملاك ويترك

لهم ما بقى .

(٧) يعنى أن هذه الأموال قد حصلت من الدين كانت عليهم وصارت فى قبضة أصحاب الأوقاف .

(٨) يعنى أن ماعدا أراضى الأوقاف يجعل لإقطاعا وبوزع على الملتزمين على أساس نظام الإقطاع .

(٩) يقصد أنهما جملا احتكارا للديوان .

(١٠) مسكويه : تجارب الأمم ج ٣ ص ٧١ .

(١١) تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ١١ — ٢٢ .

ما يزيد على مليونين ونصف مليون دينار في السنة . وإذا علمنا أن صافي ما يصل إلى حاضرة الدولة بلغ ٤,٩٢٠,٠٠٠ دينار في السنة ، أمكن توفير ما يقرب من ٢,٥٠٠,٠٠٠ دينار في السنة، حتى إننا نجد في أواخر عهد هذا الخليفة أن د بالحضرة تسعة آلاف ألف دينار فاضلة عن جميع النفقات . وكان المعتضد بالله - رحمه الله - قد اعتقد أنه يتممها عشرة آلاف ألف دينار ، ثم يسبكها ويجعلها نقرة واحدة ، وي طرحها على باب العامة ليبلغ أصحاب الأطراف أن له عشرة آلاف ألف دينار ، وهو مستغن عنها . فاخترته المنية قبل بلوغ الأمانة . (١) وإليك بعض ماورد في بيان ابن الصابي عن نفقات الدولة العباسية اليومية عن أصل ضمان أحمد بن محمد الطائي في أول أيام المعتضد بالله رحمه الله عليه ، أعمال سقى الفرات ودجلة وجوخي وواسط وكسكر وطساسيج نهر بوق والذيين وكلواذي ونهر بين والراذنين وطريق خراسان ، مما شرط عليه أداءه مياوما في بيت المال من العين :

التي ألف وخمسمائة ألف وعشرين ألف دينار  
قسط كل شهر من ذلك = مائتي ألف وعشرة آلاف دينار  
وكل يوم = سبعة آلاف دينار

تفصيل وجوه خرج المياومة مما شرط فيه ما قرره المعتضد بالله رحمه الله عليه منه :

١٠٠٠ دينار أرزاق أصحاب النوبة من الرجالة ومن برسمهم من البوابين ومن يجري مجراه (٢) .

١٠٠٠ دينار أرزاق الغلمان المعروفين بالغلمان الخاصة ، ومنهم حاجب المعتضد وخلفاء الحجاب وعدتهم ٢٥ رجلا ، كانوا يلزمون الخليفة في أسفاره .

١٥٠٠ دينار أرزاق الفرسان من الأحرار والمميزين ، وكانت أيام شهرهم خمسين ، فلما جعلت تسعين سموا التسعينية . هذا عدا ما خصص للدواب . فقد جعل للدابة في كل خمسة وثلاثين يوما أربعة دنانير ، وللبلغل ثلاثة دنانير ونصف ، وللحمار برسم الرجالة دينارين ،

٦٠٠ دينار أرزاق المختارين الذين انتخبوا من كل قيادة وعرفوا بالشهامة والشجاعة من الممالك الناصرية والبعثية والمسرورية والبكجورية واليسانسية والمفلحسية والأزكوتكينية والكيغلفية والكنداجية (٣) .

٥٠٠ دينار أرزاق الفرسان المثبتين ، وأيام شهرهم ١٢٠ يوما على ما أوجبه ابن أبي دلف (٤) .

١١٠ دينار أرزاق سبعة عشر صنفا من المختصين بخدمة دار الخلافة كالقراء وأصحاب الأخبار والمؤذنين وأصحاب الأعلام والبوقيين والممخرقين (٥) والمضحكين والطبايعين .

(١) هلال بن الصابي . ص ١٨٩ .

(٢) ومن هؤلاء الصربون والديلمة والطبرية والمغاربة والسودان .

(٣) هذه الطوائف تنتسب إلى مشهورى قواد الجيش في ذلك الوقت

(٤) هو أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف ، وقد حاول الاستقلال ببلاد السكج وحارب العباسيين في الوقت الذي ثار فيه صاحب الزنج . وكان كاتبه محمد بن الحسين المعروف بدندان من أكبر أصحاب عبد الله بن

ميمون القداح . أنظر ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٢٦٧ .  
(٥) وردت في الأصل المخرقين ، ولعلها الممخرقين وهم الذين يلبسون الألعاب السحرية ونحوها كالماوايين والسحرة

ومن يشبهونهم

- ٥٠ دينار المرتزقة برسم الشرطة بمدينة السلام والخلفاء عليهم ، وأصحاب الأرباع والمصالح والأعوان والسجانين وأصحاب الطوف ومن في جملتهم من الفرسان الذين ميزوا وألحقوا بطبقة الدون من المشايخ والمترفين والرجال الموكلون بأبواب المدينة .
- ٣٠٠ دينار أثمان أنزال الغلمان المالك السنيية بما كان يطلق للقواد ليقم كل منهم ، الخبز واللحم لمن في ناحيته ويوكل عليه من يستجيد (١) الإقامة لهم .
- ٣٣٣ ½ دينار لنفقات المطابخ الخاصة والعامة والمخابز وأنزال الحرم والحشم ومخابز السودان ، منها ٨٠ ديناراً للخاصة ، ٢٥٣ ½ ديناراً للعامة .
- ١٠٠ ديناراً ثمن وظائف شراب الخاصة والعامة وآلاته ونفقات خزائن الكسوة والخلع والطيب وحوائج الوضوء والحمام ونفقات خزائن السلاح ، وما يرم من الجواشن والدروع ويتخذ من الشباب والأعلام والمطارد ، ونفقات خزانة السروج وخزائن الفرش .
- ٤ دينار أرزاق السقائين بالقرب في القصر والخزائن والمطابخ والمخابز والدور والحجر والخدم ولوضوء الخاص ومن يعمل بالروايا على البغال من الاصطبلات للحرم والبوابين في دار العامة .
- ١٦٧ دينار أرزاق الخاصة ومن يجرى مجراهم من الغلمان والماليك دون الأكارب الأحرار ، ومن أضيف إليهم من الحشم القدماء .
- ١٠٠ دينار أرزاق المستخدمين في شراب العسامة وخزائن الكسوة والصناع من الصاغة والخياطين والأساكفة والحدادين والرفائين والفرائين والمطرزين والنجادين والوراقين والعطارين والمشهرين (٢) والنجارين والخراطين وغيرهم ، ومن في خزانة السلاح والسروج من الخزان والصناع .
- ١٠٠ دينار أرزاق الحرم ، وقد خصص لها ثلاثة آلاف دينار في الشهر .
- ٤٠٠ دينار ثمن علوفة الكراع في الاصطبلات الخمسة (٣) .
- ٦٦ ½ دينار ما يصرف في ثمن الكراع والإبل وما يبتاع من الخيل الموصوفة في أحياء العرب ويستبدل به إذا عطب في العمل .
- ٣٠ دينار أرزاق المطبخين .
- ٣٠ دينار أرزاق الفراشين والمجلسيين وخزان الفرش وخزان الشمع وأجرة الأعوان والجمالين فيهما .

(١) يعني من يحسن التأديب لهم (٢) الدلائل

(٣) ذكر هلال بن الصابي (تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ١٧ - ١٨) أنه كان هناك خمسة اصطبلات هي : (١) اصطبل الخاص ، ويشتمل على الخيل والحجورة (لنات الخيل) والشهاري والبراذين (نوع من الخيل) وبغال السروج والقياب والموادج والفردات والحجبر (٢) واصطبل العامة وفيه دواب الخدم والغلمان والتفاريق والبازباريين (٣) واصطبل الدواب والحمليات وما يرد من المروج من المهاري المحرمة ، وبيئاع وبهدى ، وفيه يرتبط ما يحتاج إلى العلاج والمراعاة وما يرد من الأسفار ، وفيه عقر (جرح) وغمر (عرج) (٤) واصطبل لبغال الأتقال وحمل العلوقات (٥) واصطبل بقصر الطين في الشماسية لمبارك الأبل والجمازات .

- ٦ ٢ دينار ثمن الشمع والزيت .  
٥ دينار أرزاق أصحاب الركاب والجنائب والسروج ومن يخدم في دواب البريد .  
٤٤ ٢ دينار أرزاق الجلوسا . وأكابر الملهمين .  
٢٣ ١ دينار أرزاق جماعة من المنتظمين وتلامذتهم الملازمين مع ٣٠ دينارا ثمن الأدوية في  
خزانة القصر .  
٧٠ دينار أصحاب الصيد من البازياريين والقهادين والكلابزيين والصقارين والصيادين وثمان  
الطعم والعلاج للجوارح وأصحاب الحراب والسباعين وأصحاب الشباك واللبايد والفعالين ومن  
معهم من الأعوان والحالين وأصحاب المرور .  
١٦ ٢ دينار أرزاق الملاحين في الطيارات والشذات والسميريات والحراقات والزلاطات  
وزواريق المعابر (١) .  
٤ دينار ثمن النفط للنفطات والمشاعل وأجرة الرجال في خدمتها .  
١٥ دينار الصدقة وكانت تفرق على من في قصر الرصافة من الحرم المحتاجات .  
٣٣ ٢ دينار وتجري على أولاد المتوكل وأولادهم رجالا ونساء .  
١٦ ٢ دينار وتجري على أولاد الواثق والمتمدى بالله والمستعين وسائر أولاد الخلفاء .  
٣٦ ٢ دينار أولاد الناصر ومشايخ الهاشميين وأصحاب المراتب والخطباء في المساجد بمدينة  
السلام .  
٣٣ ١ دينار أرزاق جمهور بنى هاشم من العباسيين والطلبين .  
٣٣ ٢ دينار أرزاق عبيد الله بن سليمان وابنه القاسم .  
١٥٦ ٢ دينار أرزاق أكابر الكتتاب وأصحاب الدراوين والخزان والبوايين والمدبرين  
والأعوان وسائر من في الدراوين ، وثمان الصحف والقراطيس والكاغد ، سوى كتاب دراوين  
الإعطاء وخلفائهم على مجالس التفرقة وأصحابهم وأعوانهم ، وخزان بيت المال ، فانهم ياخذون  
أرزاقهم بما يوفرونه من أموال الساقطين وغرم المخلين بدواهم .  
١٦ ٢ دينار جارى إسحق بن إبراهيم القاضي وخليفته يوسف بن يعقوب وأولادهما وعشرة  
نفر من الفقهاء .  
٣ ١ دينار جارى المؤذنين في المسجدين الجامعين والمسكبرين والقوام والآئمة والبوايين وثمان  
الزيت للصاييح والحصر والماء ، وثمان الستائر في الصيف ، والحزف والعمارة في شهر رمضان .  
٥٠ دينار نفقات السجون وثمان أقوات المسجونين وشرهم .  
١٠ دينار نفقات الجسرين وثمان ما يبدل من سفنهما وأرزاق الجسارين .  
١٥ دينار نفقات البيارستان الصاعدي ، وأرزاق المنتظمين والكحالين ومن يخدم المغلوبين

(١) هي أنواع من السفن

على عقولهم والبوابين والخبازين وغيرهم وأمان الطعام والأدوية والأشربة .  
وليس أدل على ضخامة الثروة في هذا العصر من هذا البيان الطويل الذي ذكره مسكويه (١)  
عن نفقات الخليفة المقتدر الذي عرف بالتبذير . ومن هذا البيان نقف على أنه ، أتلّف نيفا وسبعين  
ألف ألف دينار ، سوى ما أنفقته في موضعه وأخرجه في وجوهه . وهذا أكبر مما جمعه الرشيد وخلفه .  
ولم يكن في ولد العباس من جمع أكثر مما جمعه الرشيد ، فإن القاسم بن عبيد الله قال للمعتضد وقد  
سأله عن مقدار ما حلفه واحد واحد من ولد العباس من المال ، إنه لم يكن فيهم من خلف أكثر  
بما خلفه هرون الرشيد ، فإنه خلف في بيت المال ثمانية وأربعين ألف ألف دينار .

ومن أهم نفقات الدولة العباسية النفقات المخصصة للحج ونفقات الغزوات لمحاربة الأعداء من  
القرامطة والفاطميين والبيزنطيين وغيرهم ، وما يبذل لقتال أسرى المسلمين ، وما يصرف على سفراء  
الملوك والأمراء عند استقبالهم وتوديعهم وتزويدهم بالهدايا والتحف أحيانا ، وكل ما يتعلق  
بنفقات دار الخلافة . (٢)

(ب) في مصر :

#### ١ - في عهد الطولونيين والفاطميين :

قد الخليفة المتوكل خراج مصر أحمد بن المدير الذي لجأ إلى القسوة في جباية الخراج ، فزاد  
الضرائب وحجر على النطرون بعد أن كان مباحا ، وفرض على الكلاّ المباح ضريبة سميت مال  
المراعى ، كما قرر على ما يصاد في البحر والنيل والبحيرات والبرك ضريبة أسماها مال المصيد .  
وكان مال الضرائب ينقسم في ذلك الوقت قسمين : خراجي وهلالى

١ - فالخراجى : ما يؤخذ على الأرض التي تزرع حبوبا ونخلا وعنبا وفاكهة ، وما يؤخذ من  
المزارعين على سبيل الهدية مثل الغنم والدجاج .

٢ - والهلالى : ما يؤخذ من الضرائب على الكلاّ وما يصاد من السمك . وكان الهلالى يعرف  
في زمن ابن المدير وما بعده بالمرافق والمعاون .

وكان ابن المدير يجمع الخراج ويرسل منه الجزية إلى دار الخلافة ، ويتصرف فيما بقى تصرفا  
لا يتفق ومصلة البلاد ، مما أدى إلى تأخرها ، ونقص خراجها إلى ٨٠٠,٠٠٠ دينار مع أنه بلغ  
١٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار في عهد عمرو بن العاص ، ١٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار في عهد خلفه عبد الله بن سعد  
ابن أبي سرح .

وقد عمل ابن طولون على التخلص من ابن المدير - كما رأينا (٣) - فصرف عن مصر ، وتقلد

(١) تجارب الأمم ج ١ ص ٢٣٨ - ٢٤١

(٢) آدم متر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٢٠٢ - ٢٠٣

(٣) أنظر ص ٢٢١ من هذا الكتاب



خراج دمشق وفلسطين والأردن ( سنة ٢٥٧ هـ ) . ولما ولي ابن طولون شئون مصر كلها ، زاد الخراج في عهده حتى بلغ ٤,٣٠٠,٠٠٠ دينار في السنة . ولم يعرف عنه أنه لجأ إلى العسف في جمعه . على أن الخراج لم يلبث أن نقص في عهد ابنه خمارويه لما عرف به من التبذير والإسراف (١) .

وقد تولى جباية الخراج في مصر طوال عهد الدولة الإخشيدية أسرة واحدة هي أسرة المادرائيين الذين اتسعت سلطنتهم في هذه البلاد . ومن مشهورى هذه الأسرة أبو بكر محمد بن علي المادرائي الذي قدم مصر في سنة ٢٧٢ هـ ، وبقي فيها إلى أن قضى محمد بن سليمان الكاتب على الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ ، فعاد معه إلى بغداد ، ثم عاد إلى مصر بصحبة الجند الذين بعث بهم الخليفة العباسي المقتدر لقتال الفاطميين حين غزوا هذه البلاد بقيادة حباسة بن يوسف الكتامي وأبي القاسم بن عبيد الله المهدي .

اشتهر أبو بكر المادرائي بالورع والتقوى حتى إنه كان يكثّر من تلاوة القرآن والصلاة ، وأداء فريضة الحج . قيل إنه حج سبعا وعشرين مرة كان يبذل في كل منها مائة وخمسين ألف دينار . وقيل أيضا إن خراج ضياعه بلغ أربع مائة ألف دينار في السنة . ولكن هذه الثروة الضخمة أثارَت حسد منافسيه وأدت إلى إلحاق الأذى به ، حتى أحرقت دور ووصودرت أملاكه أكثر من مرة . ولما تقلد الإخشيد مصر للمرة الثانية حال أبو بكر المادرائي دون دخوله إليها ، وعزم على قتاله ، ولكنه هزم واختفى . ثم أطلقه الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات ، ولكنه لم يلبث أن صادر أملاك المادرائي في مصر والشام (٢) . بيد أن الإخشيد عفا عنه وأطلقه في سنة ٣٥٨ هـ ، واستوزره وخلع عليه وفوض إليه الأمور ، ثم اعتقله بعد قليل ، فظل في معتقله حتى مات الإخشيد ، ثم عاد نجمه إلى الظهور في عهد وصاية كافور ، وتوفي في شهر شعبان سنة ٣٤٥ هـ .

وقد ذكر المقرئ (٣) أن خراج مصر بلغ في عهد الإخشيد ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار . سوى ضياعه التي كانت ملكا له ، وأن هذا الوالي كان أول من عين رواتب لمستحقي الصدقة . وقد بلغت هذه الرواتب في عهد كافور الإخشيدى ٥٠٠,٠٠٠ دينار في السنة ، ولأرباب النعم والمستورين وأجناس ، ليس فيهم أحد من الجيش ولا من الحاشية ولا من المتصرفين في الأعمال .

بذل كافور الإخشيدى جهده في تنمية موارد الدولة ، حتى زاد خراج مصر في عهده على ٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار في السنة . ولم يكتب اسمه على السكة ، بل اكتفى بنقش اسم الخليفة العباسي وحده .

(١) كان خمارويه يرسل إلى دار الخلافة ٢٠٠,٠٠٠ دينار مقابل ما تأخر من الخراج في عهد أبيه ، ٣٠٠,٠٠٠ دينار في كل عام ، نظير تعيينه هو وأولاده في حكم مصر وما يليها من الأراضي الممتدة من الفرات إلى بركة ثلاثين سنة .

(٢) ابن سعيد : المغرب في حلل المغرب ص ١٤ — ١٦

(٣) خططج ١ ص ٩٩

٢ - في عهد الفاطميين :

ولما فتح الفاطميون مصر ، أقر جوهر على بن يحيى بن المرمرم على جباية الخراج ؛ ولكنه لم يلبث أن اشترك معه رجاء بن صولاب . ثم حل محلها في الإشراف على جباية الخراج يعقوب ابن كلس وعسولوج بن الحسن ، وجعلت جباية الخراج قسمين : أسند أحدهما إلى علي بن محمد بن طباطبا وعبد الله بن عطاء الله ، وأسند الثاني إلى الحسن بن عبد الله والحسين بن أحمد الروذباري . وقد ذكر المقرئ (١) أن خراج مصر بلغ في السنة الأولى من ولاية جوهر ٣,٤٠٠,٠٠٠ دينار ، بعد أن انحط كثيرا في أواخر عهد كافور الإخشيدي .

ولما جاء الخليفة المعز لدين الله الفاطمي مصر في أواخر سنة ٣٦٢ هـ ، أمر يعقوب بن كلس وعسولوج بن الحسن بوضع نظام جديد للضرائب ؛ فجمعت أقسامه المختلفة في مكان واحد ، وعمل نظام جديد لتقدير الأملاك وتحديد الضرائب التي تفرض على كل منها ، فزادت الضرائب بفضل هذه السياسة المالية الرشيدة التي قضت بفحص الشكايات ، وبفضل ما سلكته الدولة من حزم في تنفيذ هذا النظام الجديد . وقد ذكر ابن ميسر (٢) أن الضرائب التي كانت تجمع من الفسطاط تراوح بين ٥٠,٠٠٠ ، ١٢٠,٠٠٠ دينار في اليوم ، ومن تنيس ودمياط والأشمونين أكثر من ٢٢٠,٠٠٠ دينار في اليوم ، ويغلب على الظن أن ابن ميسر أخطأ في بيان هذه الضرائب ، فذكر لفظ دنانير بدل دراهم .

وقد بلغ خراج الدولة الفاطمية في عهد وزارة الحسن بن علي اليازوري ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار في السنة . وتقدم إلى أصحاب الدواوين بأن يعمل كل منهم ارتفاع ما يجري في ديوانه وما عليه من النفقات ؛ فعمل ذلك وسأله إلى متولى ديوان المجلس ، وهو زمام الدواوين ، فنظّم عليه عملا جامعا وأحضره إياه ، فرأى ارتفاع الدولة ألفي ألف دينار ؛ منها الشام ألف ألف دينار ، ونفقاته بأزاء ارتفاعه ، وباقي الدولة ألف ألف دينار ، يقف منها من ملول ومنكسر على موتى وهراق ومفقود مائتا ألف دينار ، ويبقى مائتا ألف دينار ، يصرف منها للرجال عن واجباتهم وكساويهم ثلثمائة ألف دينار ، وعن ثمن غلة للقصور مائة ألف دينار ، وعن نفقات القصور مائتا ألف دينار ، وعن عمائر وما يقام للضيوف الواصلين من الملوك وغيرهم مائة ألف دينار ، ويبقى بعد ذلك مائة ألف دينار حاصلة (٤) يجعلها كل سنة إلى بيت المال المصون ، لحظي بذلك عند سلطانه وخف على قلبه (٤) .

٣ - في الأندلس :

كان النظام المالي في الأندلس يدور حول هذه الأمور الثلاثة وهي : الخزانة العامة ، وإدارة بيت المال ، وإدارة خاصة الأمير أو الخليفة .

(٢) تاريخ مصر ص ٤٦

(٤) المقرئ : خطط ج ١ ص ٨٢ ، ٩٩ ، ١٠٠

(١) خطط ج ١ ص ٩٩

(٣) أي زائدة بعد النفقات .

أما الخزانة العامة فكان يشرف عليها أحد كبار الموظفين ويسمى « خازن المال » . ومقر هذه الخزانة القصر ، وفيها تودع الأموال التي تجبي من المدن والقرى . ومن أهمها : أموال التركات التي يموت عنها أصحابها دون أن يتركوا وأرضها ، والضرائب المفروضة على الأسواق ، والرسوم الجمركية التي تضرب على السفن ، والخراج ، والجزية ، والأعشار . وقد قيل إن عبد الرحمن الناصر خلف في بيوت الأموال خمسة آلاف ألف ألف ألف . ولا ندري إذا كان هذا الرقم بالدينار أو بالدرهم . ويغلب على الظن أنه بالدرهم ، لأنه إذا حسب دنانير تجاوز ٣٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، وفي هذا شيء كثير من المبالغة . وقد ذكر المقرئ (١) الذي عزا ذلك إلى ابن خلدون ، أن الناصر كان يقسم الجباية أثلاثا : ثلثا للجنود ، وثلثا للبناء ، وثلثا مدخرا . وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص (٢) سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار . وأما أخماس الأموال العظيمة فلا يحصيها ديوان .

وذكر ابن حوقل (٣) أن عبد الرحمن الناصر استطاع أن يوفر حتى سنة ٣٤٠ هـ ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، وأنه لم يكن في زمانه سلطان استطاع أن يتوفر عنده مثل هذا المبلغ الضخم إلا أبا تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة الحسن بن عبد الله الحمداني (٣٥٨ — ٣٦٩ هـ) (٤) .

أما ما يطلق عليه اسم بيت المال في الأندلس فكان يقتصر على ما يرد من الأوقاف ، وكان مقره المسجد الكبير بقرطبة . ويقوم هذا الديوان على حفظ المنشآت الدينية ودفع رواتب موظفي المساجد ، وتوزيع الصدقات في أماكن خاصة ، ويقوم بالإشراف عليها قاضي القضاة ومن يتوبون عنه تحت إشراف الخليفة . ويشبه من هذه الناحية بعض دواوين وزارة الأوقاف ووزارة الشؤون الاجتماعية الآن . وأما موارد الخليفة الخاصة ، فكان يشرف عليها موظف يعرف « بصاحب الدية » ، كما يشرف هذا الموظف على أراضي الأمير أو الخليفة ، ويقوم بزراعتها جماعة من المزارعين على أن يأخذوا جزءا قليلا من المحاصيل لأنفسهم .

## ٥ — النظام القضائي

### (١) القضاء

#### ١ — في الدولة العباسية :

تطور القضاء في العصر العباسي الثاني ، فثأثر بالسياسة ، وأصبح الخلفاء يتدخلون في القضاء ، حتى حملوا القضاة في كثير من الأحيان على السير وفق رغباتهم . وكثيرا ما اعتذر القضاة عن قبول ذلك المنصب خشية تدخل الخلفاء في أحكامهم القضائية . فقد قيل إن أبا بكر الرازي المتوفى

(١) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ١٧٩

(٢) الضرائب التي تجبي على التجارة

(٣) المسالك والممالك ص ٧٧

(٤) راجع ما ذكرناه عن عدة الدولة أبي تغلب الغضنفر في هذا الكتاب ص ٢٠٧ — ٢٠٩

سنة ٣٧٠ هـ اعتذر عن قبول منصب قاضي القضاة بعد أن طلب منه ذلك مراراً. وقال ابن الأثير (١) في حوادث سنة ٣٩٩ هـ: « وفيها صرف أبو عمر بن عبد الواحد الهاشمي عن قضاء البصرة، وكان قد علا إسناده في رواية السنن لأبي داود السجستاني، وعن طريقه سمعناه. وولى القضاء بعده أبو الحسن بن أبي الشوارب، فقال العصفري الشاعر:

عندي حديث ظريف بمثله يستغنى  
من قاضيين يعزى هذا وهذا يهنا  
فذا يقول كرهنا وذا يقول استرحنا  
وبكذبان وتهذي فمن يصدق منا ؟

كما ضعفت روح الاجتهاد في هذا العصر بسبب ظهور المذاهب الأربعة، وأصبح إزاما على القاضي أن يصدر أحكامه وفق أحد هذه المذاهب. واختلف القضاء في الولايات باختلاف هذه المذاهب، وأصبح المذهب القضائي الشائع في العراق مذهب أبي حنيفة النعمان، وفي الشام والمغرب والأندلس كان القضاء يصدر عن أحكامهم وفق مذهب الإمام مالك، وفي مصر وفق مذهب الإمام الشافعي. ويقول المقرئ (٢):

و كانت إفريقية الغالب عليها السنن والآثار، إلى أن قدم عبد الله بن فروج أبو محمد الفارسي بمذهب أبي حنيفة، ثم غلب أسد بن الفرات بن سنان قاضي إفريقية بمذهب أبي حنيفة. ثم لما ولي سحنون بن سعيد التنوخي قضاء إفريقية بعد ذلك، نشر فيه مذهب مالك، وصار القضاء في أصحاب سحنون دولا، يتصاولون على الدنيا تصاول الفحول على الشؤل (٣)، إلى أن تولى القضاء بها بنو هاشم، وكانوا مالكية، فتوارثوا القضاء كما توارث الضياع. ثم إن المعز بن باديس حمل جميع أهل إفريقية على التمسك بمذهب مالك، وترك ما عداه من المذاهب. فرجع أهل إفريقية وأهل الأندلس كلهم إلى مذهب مالك إلى اليوم، رغبة فيما عند السلطان، وحرصا على طلب الدنيا؛ إذ كان القضاء والإفتاء في جميع تلك المدن وسائر القرى اليوم لا يكون إلا لمن تسمى بالفقيه على مذهب مالك. فاضطرت العامة إلى أحكامهم وفتاواهم، ففشا هذا المذهب هناك فثبوا طبق تلك الأقطار. كما فشا مذهب أبي حنيفة ببلاد المشرق، حيث إن أبا حامد الأسفرايني لما تمكن من الدولة في أيام الخليفة القادر بالله أبي العباس أحمد قرر معه استخلاف أبي العباس أحمد بن محمد البارزي الشافعي عن أبي محمد بن الألفاني الحنفي قاضي بغداد، فأجيب إليه بغير رضا الألفاني. وكتب أبو حامد إلى السلطان محمود بن سبكتكين (٣٨٨ - ٤٢٠ هـ) وأهل خراسان أن الخليفة نقل القضاء عن الحنفية إلى الشافعية، فاشتهر ذلك بخراسان، وصار أهل بغداد حزيين. وقدم بعده أبو العلاء صاعد بن محمد قاضي نيسابور ورئيس الحنفية بخراسان، فأناه الحنفية، فثارت بينهم وبين أصحاب أبي حامد فتنة ارتفع أمرها إلى السلطان. فجمع الخليفة القادر الأشرف والقضاة، وأخرج إليهم رسالة تتضمن أن الأسفرايني أدخل على أمير المؤمنين مداخل أوهمه فيها النصح والشفقة والأمانة، وكانت على أصول الدخيل والحيانة. فلما

تبين له أمره ، ووضع له خبث اعتقاده ، فيما سأل فيه من تقليد البارزى الحكيم بالحضرة من الفساد والفتنة ، والعدول بأمر المؤمنين عما كان عليه أسلافه من إثبات الحنفية وتقليدهم واستعمالهم ، صرف البارزى وأعاد الأمر إلى حقه ، وأجراه على قديم رسمه ، وحمل الحنفيين على ما كانوا عليه من العناية والكرامة والحرمة والإعزاز ، وتقدم إليهم بأن لا يلقوا أبا حامد ولا يقضوا له حقا ولا يردوا عليه سلاما . وخلق على أبي محمد الأصفهاني ، وانقطع أبو حامد عن دار الخلافة ، وظهر التسخط عليه والانحراف عنه ، وذلك في سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ، واتصل ببلاد الشام ومصر .

وإذا تنازع متخاصمان على غير المذهب السائد في بلد من البلاد ، أناب القاضي عنه من القضاة من يدين بعتاقد مذهب المتخاصمين . واستمرت هذه المذاهب الأربعة حتى اليوم مصدر التشريع الإسلامى ؛ ومن ثم أطلق على العصر العباسى عصر أئمة المذاهب ، لأنه وضعت فيه أصول الفقه الإسلامى .

وهناك مذاهب أخرى : كذهب الزيدية فى اليمن ، وهم أصحاب زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على ، ويقولون بضرورة توافر الاجتهاد فى الأئمة ، ومذهب الإمامية الاثنا عشرية فى فارس والعراق ، ومذهب الإمامية السبعية أو الاسماعيلية الذين ينتسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، ويقولون بضرورة اجتهاد أئمتهم فى الفقه ، كما يستمدون مذهبهم من الكتاب والسنة وفناوى أئمتهم . ومن المذاهب التى انقرضت : مذهب الخوارج ، ومذهب المرجئة ، ومذهب الاعتزال ، ومذهب محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٥٣١ . وقد أخذ عن مذهب الإمام الشافعى ، وكان يقول بالرأى ، فكرهه الحنابلة .

وقد جمع الحديث النبوى فى ستة مصنفات ، أجمع المسلمون على أنها أصح كتب السنة ، وأصحابها هم : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ هـ ، ومسلم بن الحجاج النيسابورى القشيرى المتوفى سنة ٢٦١ هـ ، وأبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى المعروف بابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ هـ . وأبو داود سليمان بن الأشعث السجستانى المتوفى سنة ٢٧٥ هـ ، وأبو عبد الله محمد بن عيسى السلى الترمذى المتوفى سنة ٢٧٣ هـ ، وأبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى المتوفى سنة ٢٣٠ هـ<sup>(١)</sup> . على أن رغبة الناس فى التقليد ظهرت بظهور أبى الحسن الأشعري وتفكيره فى الرجوع إلى مذهب أهل السنة . ويجب أن لا يمزج عن أذهانتنا أن مذاهب السنة الأربعة كانت مصدر التشريع فى هذا العصر ، وأنه لم يتقلد القضاء إلا السنيون ، بدليل ما ذكره السيوطى<sup>(٢)</sup> أن بهاء الدولة البويهى ( ٣٧٩ - ٤٠٣ هـ ) لما قلده الشريف أبى الحسين بن موسى العلوى قضاء القضاء والحج والمظالم ، لم يوافق الخليفة القادر على هذا التقليد ، لأن هذا الشريف كان إماميا اثنا عشريا . وكان القضاء فى الدولة العباسية ينوبون عن قاضى القضاء<sup>(٣)</sup> وهو أشبه بوزير العدل الآن . ويقوم

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٧٤

(١) كتاب النظم الاسلامية للمؤلف ص ٣٣٧ - ٣٣٨

(٣) كان قاضى القضاء يسمى أيضا « أفضى القضاء » . راجع هذا الكتاب ص ١٣٦

في حضرة الدولة . وكان القاضي أبو يوسف صاحب كتاب الخراج ، أول من تلقب بهذا اللقب في عهد هارون الرشيد . واستمر هذا في العصر العباسي الثاني . ويقول السيوطي إن سلطة القاضي اتسعت حتى أصبح ينظر في القضايا المدنية وفي الدعاوى والأوقاف وتنصيب الأوصياء . وكثيرا ما تضاف إليه الشرطة والمظالم والقصاص والحسبة ودار الضرب وبيت المال . وفي ذلك يقول ابن خلدون (١) .

• واستقر منصب القضاة آخر الأمر على أنه يجمع مع الفصل بين الخصوم : استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين ، بالنظر في أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه ، وفي وصايا المسلمين وأوقافهم ، وتزويج الأيتام (٢) عند فقد الأولياء على رأى من رآه ، والنظر في مصالح الطرقات والأبنية ، وتصفح الشهود والأمناء والنواب ، واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح (٣) ليحصل له الوثوق بهم . وصارت هذه كلها من متعلقات وظيفته وتوابع ولايته .

وكان لكل ولاية من الولايات الإسلامية في بادئ الأمر قاض . وباتساع الدولة العباسية أصبح لكل من هذه الولايات قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، وينظر كل منهم فيما يقوم من النزاع بين من يدينون بعقائد مذهبه .

وكان القاضي يجلس أول الأمر في المسجد ، ثم وجد المسلمون أن هذا لا يتفق وحرمة بيوت الله ، ففتح الخليفة المعتضد ( ٢٧٩ - ٢٨٩ هـ ) القضاة من الجلوس في المساجد . وكان بعض القضاة يقضي بين الناس في داره .

وكان لقاضي القضاة بيغداد ديوان يعرف بديوان قاضي القضاة . ومن أشهر موظفي هذا الديوان : الكاتب ويتقاضى ٣٠٠ درهما في الشهر ، والحاجب ويتقاضى ١٥٠ درهما ، وعارض الأحكام ويتقاضى ١٠٠ درهم . وغازن ديوان الحكم وأعرانه ويتقاضون ٢٠٠ درهم (٤) . كما اقتضى تطور نظام القضاة في هذا العصر التحري عن الشهود . فإن كان الشاهد معروفا بالسلامة ولم يعرف عنه ما يجرحه قبل القاضي شهادته ، وإن كان غير معروف بها لم تقبل شهادته ، وإن كان مجهولا سئل عنه جيرانه . ومن ثم وجدت جماعة من الشهود عرفوا بالشهود الدائمين أو المعدلين . وكان القاضي يمتاز باستقلال الرأى ، ولا يقبل الشفاعات أو الوساطات ، حتى إن قاضي جيش عضد الدولة شفع في بعض أبناء العدول ليتقدم إلى القاضي ليرسم تزكيته ويعدله ، فقال له عضد الدولة هذه العبارة التي تبين لنا مدى احترام رأى القاضي وعدم تدخل أولى الأمر في أعماله : « ليس هذا من أشغالك ؛ إنما الذي يتعلق بك الخطاب في زيادة قائد ، ونقل مرتبة جندي وما يتعلق بهم . وأما الشهادة وقبولها ، فهو إلى القاضي ، وليس لنا ولا لك الكلام فيه » .

(١) من ١٩٢ - ١٩٣

(٢) الأيم من لزوج لها .

(٣) بمعنى أن القاضي يتحرى عن حال الشهود والأمناء والنواب تحريا يقفه على حقيقة أمرهم وما يعرفون به عند الناس الموثوق بمعرفتهم .

(٤) آدم متر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ٣٧٥ ، عن ابن الأثير .

وكان القاضي يرتدى السواد شعار العباسيين ويعم بهامة سوداء على قُمَّةٍ نسبية طويلة (١) ، وكانت الفلنسة السوداء في القرن الثالث الهجري خاصة هي التي تميز القضاة ، وتلبس مع الطيلسان (٢) . ويحدثنا السيوطي (٣) عند كلامه على حوادث سنة ٣٥٠ هـ عن تولية ابن أبي الشوارب منصب القضاء فيقول : « وركب بالخلع من دار معز الدولة ، وبين يديه الدبَّاب والبرقات ، وفي خدمته الجيش » .

على أن القضاء قد تطرَّق إليه بعض الفساد ، وأصبح من يرشحون أنفسهم لتقلد هذا المنصب الخطير يتعهدون بتقديم مبلغ معين من المال يؤدونه في كل سنة ، حتى إن ابن أبي الشوارب شرط على نفسه أن يحم — ل في كل سنة إلى خزانة معز الدولة مائتي ألف درهم ، وكتب بذلك سجلاً (٤) . ولكن الخليفة المطيع لم يوافق على تقليد هذا القاضي وأمر بعدم دخوله عليه . ويقول ابن الأثير (٥) في ابن أبي الشوارب : « وهو أول من ضمن من القضاء ، وكان ذلك أيام معز الدولة . ولم يسمع بذلك قبله ، فلم يأذن له الخليفة المطيع لله بالدخول عليه ، وأمر بأن لا يحضر الموكب لما ارتكبه من ضمان القضاء . ثم ضمننت بعده الحسبة والشرطة ببغداد » .

بيد أن هذا النقص لم يكن شائعاً ، فإنا نجد كثيراً من القضاة ينزهون أنفسهم عن هذه العيوب ، حتى إنهم كانوا يقبلون هذا المنصب بعد تردد ، وبعد أن يشترطوا شروطاً تكفل استقلالهم وتحفظ لهم هيبتهم وكرامتهم . ويحدثنا السيوطي (٦) أن الخليفة المعتضد ( ٢٧٩ — ٢٨٩ هـ ) وجه « إلى القاضي أبي حازم يقول : إن لي على فلان مالا ، وقد بلغتني أن غراماه أثبتوا عندك ، وقد قسَّطت لهم من ماله ، فاجعلنما كأحدهم ، فقال أبو حازم قل له : أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ذاكر لما قال لي وقت قلدي ، إنه قد أخرج الأمر من عنقه وجعله في عنقي ، ولا يجوز لي أن أحكم في مال رجل لمدع إلا ببينة . فرجع إليه فأخبره فقال : قل له فلان وفلان يشهدان — يعني رجلين جليلين ، فقال : يشهدان عندي وأسأل عنهما ، فإن زكيا قبلت شهادتهما ، وإلا أمضيت ما قد ثبت عندي ، فامتنع أولئك من الشهادة فرعاً ، ولم يدفع إلى المعتضد شيئاً » .

وكذلك ذكر السيوطي (٧) أن الخليفة المطيع ( ٣٣٤ — ٣٦٣ هـ ) « قلد القضاء أبا الحسن محمد بن شيبان الهاشمي بعد تمتع ، وشرط لنفسه شروطاً منها : ألا يرتزق على القضاء ، ولا يخلع عليه ، ولا يشفع إليه فيما يخالف الشرع . وقرر لكتابه في كل شهر ثلثمائة درهم ، ولحاجبه مائة وخمسين ، وللعارض على بابيه مائة ، ولخازن ديوان الحكم والأعوان ستيناً ، وكتب له عهد صورته : هذا ما عهد عبد الله الفضل المطيع لله أمير المؤمنين إلى محمد بن صالح الهاشمي ، حين دعاه إلى ما يتولاه

(١) السكندی : كتاب القضاة ص ٣٧٨ (٢) آدم ميز : الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٣٧٣

(٣) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ص ٢٦٥ — ٢٦٦

(٥) ج ٨ ص ١٩٣

(٤) المصدر نفسه

(٧) المصدر نفسه ص ٢٦٧ — ٢٦٨

(٦) تاريخ الخلفاء ص ٢٤٧ — ٢٤٨

من القضاء بين أهل مدينة السلام مدينة المنصور، والمدينة الشرقية من الجانب الشرقي والجانب الغربي، والكوفة وسقى الفرات وواسط وكرخي، وطريق الفرات ودجلة، وطريق خراسان وحلوان وقرميسين، وديار مضر وديار ربيعة وديار بكر، والموصل والحرمين واليمن ودمشق وحمص، وجند قنسرين والعوام، ومصر والإسكندرية، وجند فلسطين والأردن وأعمال ذلك كلها، وما يجرى من ذلك من الإشراف على من يختاره من العباسيين بالكوفة وسقى الفرات وأعمال ذلك، وما قلده إياه من قضاء القضاة، وتصفح أعمال الحكام، والاستشراف على ما يجرى عليه أمر الأحكام من سائر النواحي والأمصار التي تشتمل عليه المملكة وتنتهي إليها الدعوة، وإقرار من يجدهديه وطريقه، والاستبدال بمن يذم شيمته وسجيته احتياطاً للخاصة والعامّة، وجنوا على الملة والذمة عن علم بأنه المقدم في بيته وشرفه المبرز في عفافه، الزكي في دينه وأمانته، الموصوف في ورعه ونزاهته، المشار إليه بالعلم والحجاء، المجمع عليه في العلم والنهي، البعيد من الأدناس، اللابس من التقى أجمل اللباس، النقى الحبيب المحبور بصفاء الغيب، العالم بمصالح الدنيا، العارف بما يفسد سلامة العقبي، أمره بتقوى الله، فأنها الجنة الواقية. وليجعل كتاب الله في كل ما يُعمل فيه رويته ورتب عليه حكمه وقضيته، إمامه الذي يفرع إليه، وعماده الذي يعتمد عليه، وأن يتخذ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مثاراً يقصده ومثالا يتبعه، وأن يراعى الإجماع، وأن يقتدى بالأئمة الراشدين. وأن يُعمل اجتهاده فيما لا يوجد فيه كتاب ولا سنة ولا إجماع، وأن يحضر مجلسه من يستظهر بعلمه ورأيه، وأن يسوى بين الخصمين إذا تقدما إليه في لحظة ولفظه (١). ويوفى كلا منهما من إنصافه وعدله، حتى يأمن الضعيف حيفه، ويأمن القوى من ميله. وأمر أن يشرف على أعوانه وأصحابه، ومن يعتمد عليه من أمنائه وأسبابه، إشرافاً يمنع من التخطي إلى السيرة المحظورة، ويدفع عن الإشفاق إلى المكاسب المحجورة.

## ٢ - في مصر:

اكتسب قضاء مصر في العصر العباسي خبرة واسعة بسبب اشتغالهم بالفقه الإسلامي، واشتهروا بالاستقامة. ويكاد يكون القاضي في ذلك العصر غير قابل للعزل كغيره من موظفي الدولة. وقد بلغ من محبة الناس للقاضي أن أصبح الولاية في مصر يخشون عزلهم حتى لا يتعرضوا لكرهية الجمهور. ولا غرو فإنه لم يعد للوالي في العصر العباسي سلطة عزل القضاة، بل صارت تصدر المراسيم بتعيينهم من بغداد مباشرة، وكان تحديد رواتبهم ودفوعها من اختصاص الخليفة نفسه.

ولم يكن القضاء في عهد الطولونيين (٢٥٤ - ٥٢٩٢) والإخشيديين (٣٢٣ - ٥٣٥٨) تابعين لمذهب واحد، بل كان كل منهم يحكم وفق المذهب الذي ينتمي إليه. واشتهر قضاء هذا العصر بالنزاهة والاستقامة وعدم المحاباة.

وقد نبغ في عهد الطولونيين القاضي بكار بن قتيبة، وكان من أعلم القضاة بالفقه الإسلامي. ولما

(١) المراد أن يمدد القاضي بين الخصمين حتى في النظرة والانتفاة، لا يفضل أحدهما على الآخر



عقد أحمد بن طولون مجلسا في دمشق حضره القضاة والفقهاء والأشراف من أهل مصر والشام والثغور ، وشهد المجتمعون على خلع أبي أحمد الموفق أخى الخليفة العباسى المعتمد من ولاية العهد ، لمخالفته الخليفة وحصره إياه ، شهد على ذلك جميع من حضر إلا ثلاثة من رجالات مصر ، منهم القاضى بكار الذى أقر إقرار الخلع ( ١٢ ذو القعدة سنة ٣٦٩ هـ ) . وقد ورد فى كتاب القضاة للسكندى (١) أن بكارا وافق على خلع الموفق وسماه الناكث ، ولكنه لم يوافق على لعنه . ويقول السكندى (٢) : « وسماه بكار الناكث ، وأشهد على نفسه هو وسائر قضاة الشام والثغور ؛ فطلب من أحمد (بن طولون) أن يلعنوا الموفق . فامتنع بكار ، فألح عليه ، فأصر على الامتناع حتى أغضبه . وكان قبل ذلك مكرما معظما له عارفا بحقه ، وكان يجيزه فى كل سنة بألف دينار . فلما غضب عليه أرسل إليه : أين جوازى ؟ فقال : على حالها ، فأحضرها من منزله بخواتيمها ستة عشر كيسا ، فقبضها أحمد » .

وكان قاضى القضاة فى مصر وقت الفتح الفاطمى سنة ٣٥٨ هـ أبو الطاهر . وقد تولى هذا المنصب منذ شهر ربيع الأول سنة ٣٤٨ هـ . فرأى جوهر الصقلى أن عزله وإحلال قاض من الشيعة محله قد يثير غضب المصريين ؛ فأقره فى منصبه لغرض سياسى لحسب ، وعمل فى الوقت نفسه على الحد من نفوذه .

ولما وصل الخليفة المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر فى سنة ٣٦٢ هـ وخف الناس لاستقباله ، ونزل الركب عن مطاياهم وقبلوا الأرض بين يديه ، ظل أبو الطاهر راكبا حتى قرب من الخليفة الفاطمى ، فترجّل وسلم عليه ولم يقبل الأرض . فلفت ذلك نظر المعز ، وسأل أحد حجابيه عن الرجل الذى خالف الجماعة كلهم ، فعلم أنه قاضى مصر .

أقر المعز أبا الطاهر فى منصبه جريا على هذه السياسة التى اتبعها جوهر منذ فتح هذه البلاد . ولكن نفوذ هذا القاضى ضعف إلى حد بعيد ، وألزمه الخليفة الفاطمى أن يصدر أحكامه وفق المذهب الشيعى (٣) ، وأشرك معه أبا سعيد عبد الله بن محمد بن أبى ثوبان المغربى (٤) ، وأسند إليه النظر فى المظالم الخاصة بالمغاربة . ولم يلبث أن زادت سلطته حتى أصبح ينظر فى القضايا المشتركة بينهم وبين المصريين . ثم اشتد نفوذه حتى آل إليه النظر فى قضايا المصريين أنفسهم ، وأصبح يطلق عليه اسم « قاضى مصر والإسكندرية » .

وفى سنة ٣٦٢ هـ عين المعز قاضيا آخر من الشيعة ، هو على بن أبى حنيفة النعمان المغربى ، فقام أبا الطاهر القضاة . فكان ابن النعمان يجلس للقضاة بجامع عمرو بن العاص فى القسطنطينية ، ويجلس أبو الطاهر بالجامع الأزهر فى القاهرة . واستمرت الحال على ذلك حتى استقل على بن النعمان

(٢) راجع سيرة بكار فى كتاب القضاة ص ٥٠٩ - ٥١٤

(١) ص ١٢٢

(٣) السكندى : كتاب القضاة ص ٥٨٤

(٤) ابن يسر : تاريخ مصر ص ٤٤ ، القرزى : اتعاظ الخنفا ص ٩٢

بالقضاء في شهر صفر سنة ٣٦٦ هـ على أثر استقالة أبي الطاهر لشيخوخته وضعفه كما قيل . وقرى على منبر جامع عمرو وسجل تقليد علي بن النعمان منصب القضاء في عهد الخليفة العزيز . وقد ظل أولاد أبي حنيفة النعمان يتقلدون القضاء حتى سنة ٣٩٨ هـ ، فتقلد الحسين بن علي بن النعمان هذا المنصب في مصر وما يتبعها من الأعمال في شهر صفر سنة ٣٩٣ هـ ، وأسندت مقاليد الدعوة الفاطمية إلى قاضي القضاة للمرة الأولى ، فذا يطلق عليه ، قاضي القضاة وداعي الدعاة .

على أن بعض السنين كانوا يتقلدون القضاء أحيانا ، إذ أن الفاطميين لم يسيروا دائما على قاعدة إسناد القضاء إلى المتشيعين خاصة . فقد أسند الخليفة الحاكم القضاء لرجل من أهل السنة ، هو أبو العباس بن العوام الحنبلي المذهب ، الذي بقي في منصبه حتى مات في عهد الخليفة الظاهر . وقد تقلد ابن العوام وخلع عليه ، وأضيف إليه في الأحكام مصر وبرقة وصقلية والشام والحرمان ، ما عدا فلسطين ، فإن الحاكم كان ولاها أبا طالب ابن بنت الزيدى الحسيني ، وجعل لأبي العباس النظر في المعيار ودار الضرب والصلاة والمواريث والمساجد والجوامع . وعلى الرغم من أن هذا القاضي لم يكن يدين بالمذهب الشيعي مذهب الفاطميين ، اشتمل سجله الذي قرى في القصر وعلى منبر جامع عمرو بن العاص على فقرة شرط فيها عليه أن يصدر أحكامه طبقا لقانون الشيعة ، وأن يكون معه في مجلس القضاء أربعة من فقهاء الحاكم ، لتلايق الحكم بغير ما يذهب إليه الخليفة . من ذلك يتضح أن تعيين غير الشيعيين كان قليلا ، وبشرط حكمهم وفق المذهب الشيعي .

ومن هذا السجل الذي كتبه الخليفة الحاكم الفاطمي لقاضي قضائه الحسين بن علي بن النعمان (١) ، نرى أن سلطته شملت رئاسة القضاء في مصر والحجاز وبلاد الشام والمغرب ، وأن عمله تعدى ذلك إلى النظر في موظفي المساجد من الأئمة والقوامين عليها والمؤذنين بها وغيرهم ، كما أصبح له الإشراف على دور الضرب . ورسم له الخطة التي يسير عليها ، فأمره بتقوى الله في السر والعلانية ، والمحافظة على شعائر الدين ومراعاة حدوده ، وأمره أن يجعل الحكم في المواضع الضاحية (٢) للبتحاكين ، وبرفع عنهم حجابه ، ويفتح لهم أبوابه ، ويحسن لهم انتصابه (٣) ، ويقسم بينهم لحظه ولفظه قسمة لا يحابي فيها قويا لقوته ، ولا يتردى فيها ضعيفا لضعفه . بل يميل مع الحق ويمنح إلى جهته ، ولا يكون إلا مع الحق وفي كفته ؛ ويذكر بموقف الخصوم ومحاباتهم بين يديه موقفه ومحاباته بين يدي الحكم العدل الديان ( يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ، ويحذركم الله نفسه (٤) ) .

وأمره أن ينعم النظر في الشهود الذين إليهم يرجع وبهم يتبع في منافذ القضايا ومقاطع

(١) راجع هذا السجل في القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٠ ص ٣٨٥ - ٣٨٨

(٢) يريد المواضع الظاهرة التي لا تخفى على المتخاصمين ولا يشق عليهم الوصول إليها .

(٣) يوصي القاضي بأن يفرغ عمله ولا يتشاغل عن لقاء من يريد لقاءه من الخصوم بقضاء مصالحه وبقراءة الكتب أو بالحديث مع الأصدقاء ، أو نحو ذلك مما يجعل وجوده قليل الفائدة .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ٣٠

الأحكام ، ويستشف أحوالهم استشفافا شافيا ، ويعترف دخائلهم تعرفا كافيا ، ويسأل عن مذاهبهم وتقليبهم في سرهم وجهرهم ، والجلى والخبى من أمورهم . فمن وجده منهم فى العدالة والأمانة والنزاهة والصيانة ، وتحرى الصدق ، والشهادة بالحق ، على الشيمة الحسنى والطريقة المثلى ، أبقاه ، وإلا كان بالإسقاط للشهادة أولى . وأن يطالع حضرة أمير المؤمنين بما يبدو له فيمن يعدله أو يرد شهادته ولا يقبله ، ليسكون فى الأمرين على ما يستجد له ويمثله (١) ، ويأمن فيما هذه سبيله كل خلل يدخله ؛ إذ كانت الشهادة أس الأحكام ، وإليها يرجع الأحكام ، والنظر فيمن يوهل لها أحق شئ بالإحكام . قال الله تقدست أسماؤه : ( يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين (٢) ) . وقال تعالى : ( والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما (٣) ) . وأمره أن يعمل بأمثلة أمير المؤمنين له فيمن يلى أموال الأيتام والوصايا وأولى الخلل فى عقولهم ، والمعجز عن القيام بأموالهم ، حتى يجوز أمرها على ما يرضى الله ووليه : من حيائها وصيانتها من الأمانة عليها ، وحفظهم لها ، ولفظهم (٤) لما يحرم ولا يحل أكله منها ؛ فيتدوا عند الله بعدا ومقتنا ، أكل الحرام والمؤكل له سبحانه (٥) . قال الله تعالى : ( إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا (٦) ) .

### ٣ - فى الأندلس :

كان للقضاء مركز ممتاز فى الأندلس شأنه فى سائر البلاد الإسلامية . فكان الأمير أو الخليفة الرئيس الأعلى للقضاء ، ولتعلقها (وظيفة القضاء) بأمور الدين ، وكون السلطان لو توجه عليه حكم حضر بين يدي القاضى (٧) . وكان قاضى القضاة يسمى قاضى الجماعة ، أيضا ، لأنه يكون فى حضرة الدولة ، وحكمه نافذ فى جميع أرجائها . ويشترط فى القاضى أن يكون متعمقا فى الفقه مشهورا له بالنزاهة والاستقامة ، ولا يشترط أن يكون عربيا خالصا ، فكثيرا ما أسند هذا المنصب إلى بعض الموالى والمولدين والبربر . وقد كان يحيى بن يحيى اللبثى كبير قضاة الأندلس من أصل بربرى . ويختار القاضى غالبا من قضاة الأقاليم المشهود لهم بالتفوق فى القضاء ، أو ممن تولوا بعض مناصب الدولة الهامة . ولا سبيل أن يتسم بهذه السمة إلا من هو وال للحكم الشرعى فى مدينة جليلة (٨) . وكان قاضى الجماعة يقيم بقرطبة ويعين من قبل الأمير أو الخليفة ، وينوب عنه فى الأقاليم قضاة يسمى كل منهم د مسدد خاصة .

وكان القرآن والسنة مصدر التشريع فى الأندلس ، ويسير القضاة فى أحكامهم على وفق مذهب الإمام مالك ، ويقوم بتنفيذ هذه الأحكام الحكام والولاة .

- (١) أى يرسم له وبين  
(٢) سورة القرآن آية رقم ٧٢  
(٣) أى تركهم  
(٤) سورة النساء آية رقم ١٠  
(٥) حراما  
(٦) سورة النساء آية رقم ١٠  
(٧) المقرئ : نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ١٠٣ ص (٨) المصدر نفسه

وقد سار الامويون في الأندلس على نهج الخلفاء الامويين والعباسيين في الشرق في تولية قضائهم قيادة الجيوش نيابة عنهم . ويقول ابن خلدون (١) : « وربما كانوا يعملون للقاضي قيادة الجهاد في عساكر الصوائف . وكان يحيى بن أكثم يخرج أيام المأمون بالصائفة إلى أرض الروم ، وكذا منذر ابن سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر من بني أمية بالأندلس ؛ فكانت تولية هذه الوظائف إنما تكون للخلفاء أو من يعملون ذلك له من وزير مفوض أو سلطان متغلب . »  
ومن اختصاصات القاضي أيضا الإشراف على موارد الأحباس ، وسجلات الفتاوى الفقهية (٢) ، والإشراف على الصلاة في أيام الجمع والأعياد بالمسجد الكبير بقرطبة أو بمسجد الزهراء الذي أسسه عبد الرحمن الناصر بمدينة الزهراء ، والدعاء في صلاة الاستسقاء (٣) .

### (ب) المظالم

وكان للظالم ديوان خاص يعرف بديوان المظالم ، وهو هيئة قضائية عليا تشبه محكمة الاستئناف في الوقت الحاضر . ويسمى رئيس هذا الديوان « صاحب المظالم » ، وسلطته أعلى بكثير من سلطة القاضي . يقول ابن خلدون (٤) عن المظالم : « وهي وظيفة بمتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء ، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة . تقعع الظالم من الخصمين وتزجر المتعدي ، وكأنه يمضي ما عجز القضاء أو غيرهم عن إمضائه ، ويكون نظره في البيئات (٥) والتقرير (٦) واعتماد الأمارات والقرائن (٧) وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق وحمل الخصمين على الصلح واستحلاف الشهود . وذلك أوسع من نظر القاضي . »

وكانت محكمة المظالم تنعقد برياسة الخليفة أو الوالي أو من ينوب عن أحدهما . ويعين صاحب المظالم يوما يقصده فيه المتظلمون إذا كان من الموظفين ليتفرغ لأعماله الأخرى . أما إذا انفرد بالمظالم ، نظر فيها طوال أيام الأسبوع . وكانت محكمة المظالم تنعقد في المسجد كما تقدم ، ويحاط صاحب المظالم بخمس جماعات لا ينتظم عقد جماعاته إلا بحضورهم :

١ - الحماة والأعوان ، وكانوا من القوة بحيث يستطيعون التغلب على من يلجأ إلى العنف أو يحاول الفرار من وجه القضاء .

٢ - الحكام ، ومهمتهم الإحاطة بما يصدر من الأحكام لرد الحقوق إلى أصحابها ، والعلم بما

(١) مقدمة ص ١٩٣

(٢) أنشئ هذا السجل في سنة ٢٩١ هـ . وكان قاضي القضاة يستفتي الفقهاء في بعض القضايا المعروضة عليه ، وجعل من هذه القضايا سجلا عاما أصبح مرجعا هاما لقضاة الأندلس .

(٣) كان قاضي القضاة يشرف على الصلاة أيضا ، ولذلك كان يسمى « صاحب الصلاة » واستمرت الحال على ذلك حتى أفرد الناصر للصلاة شخصا معينا ، وقضاة القضاة شخصا آخر .

(٤) المصحح

(٤) مقدمة ص ١٩٣

(٦) التقرير استقصاء البحث من الخصوم في المسائل حتى يقرأوا بما يوضح وجهة نظر القاضي

(٧) يعني الأخذ بدلالة القرائن والعلامات التي يتبينها القاضي من حال الخصمين عند فقد الأدلة أو الشهود

يجرى بين الخصوم ، فيلبون بشتات الأمور الخاصة بالمتقاضين . وكان الفضاة يستفيدون من وراء حضورهم هذه الجلسات ، إذ كانوا يستطيعون تطبيق الأحكام على ما يعرض أمامهم من القضايا في جلساتهم .

٣ - الفقهاء ، ويرجع إليهم صاحب المظالم فيما أشكل عليه من المسائل الشرعية .

٤ - الكتائب ، ويدونون أقوال الخصوم وإثبات ما لهم وما عليهم من الحقوق .

٥ - الشهود ، ويثبتون ما يعرفونه عن الخصوم ، ويقررون أن ما أصدره القاضي من الأحكام

لا ينافي الحق والعدل .

وفي الحق أن الضرورة تحتم وجود مثل هذا النظام ، إنصافا للظلمين وإغاثة للستضعفين .

فكان من اختصاص هذه الجماعة :

١ - النظر في القضايا التي يقيمها الأفراد والجماعات على الولاية إذا انحرفوا عن طريق العدل والإنصاف ، وعلى عمال الخراج إذا اشتطوا في جمع الضرائب ، وعلى كتاب الدواوين إذا حادوا عن إثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة .

٢ - النظر في تظلم المرتزقة إذا نقصت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها إليهم .

٣ - تنفيذ ما يعجز القاضي والمحاسب عن تنفيذه من الأحكام .

٤ - مراعاة إقامة العبادات كاللحج والأعياد والجمع والجهاد (١) .

وقد حرص بعض الخلفاء العباسيين على الجلوس للنظر في المظالم . فقد ذكر المسعودي (٢) أن الخليفة المهدي (٢٥٥-٢٥٦ هـ) بنى قبة لها أربعة أبواب كان يجلس فيها ، وسماها «قبة المظالم» ، وجلس فيها للعام والخاص . ويقول المسعودي (٣) في مكان آخر : «وذكر صالح بن علي الهاشمي قال : حضرت يوما من الأيام جلوس المهدي للمظالم ، فرأيت من سهولة الوصول ونفوذ الكتائب عنه إلى النواحي فيما يتظلم به إليه ما استحسنته» .

وقد تطور نظام النظر في المظالم ، فأصبح الوزراء يجلسون للنظر فيها ، ويجلس أكثر الكتاب مجالسهم . بل تعدى الأمر إلى جلوس بعض النساء للنظر في المظالم ، فقد تمتعت السيدة ، أم الخليفة المقنن بنفوذ كبير ، واتسعت سلطتها إلى حد أنها استطاعت أن تعين قهرمانتها و ثومال ، صاحبة المظالم في سنة ٥٣٠٦ هـ ، فكانت تجلس في مكان بنته ، السيدة ، في الرصافة ، وتنظر في رفاع الناس كل جمعة ، فكانت تجلس وتحضر القضاة والأعيان ، وتبرز التواقيع وعليها خطها (٤) .

ولم تكن محكمة المظالم تنظر في قضايا الأفراد وحدها ، بل تعدى اختصاصها إلى الفصل في شكاوى الشعب عامة .

(١) راجع كتاب الأحكام السلطانية لماوردى ص ٧٣ - ٨١

(٢) ج ٢ ص ٤٣٦

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٣١

(٤) السبوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٥٣

وكان صاحب المظالم أكثر حرية من القاضى فى أحكامه . وقد بين الماوردى<sup>(١)</sup> الفرق بين نظر المظالم ونظر القضاء ، ومن أهم هذه الفرق أن لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس للقضاء ، يكف الخصوم عن التجاؤد<sup>(٢)</sup> ، ومنع الظلمة من التغالب والتجاؤد ، وأنه يستعمل من الإرهاب ومعرفة الأمارات والشواهد ما يصل به إلى معرفة الحق من المبطل ، وأنه يستطيع رد الخصوم إذا أعضلوا<sup>(٣)</sup> إلى وساطة الأئمة ليفصلوا النزاع بينهم صلحاً عن تراض<sup>(٤)</sup> . وليس للقاضى ذلك إلا عند رضا الخصمين بالرد ، وأنه يجوز له إحلاف الشهود عند ارتياحه فيهم ، والاستكثار من عددهم ليزول عنه الشك ، وأنه يجوز له أن يبتدىء باستدعاء الشهود وسؤالهم عما عندهم . ومن عادة القضاء تكليف المدعى أن يحضر بيئته ، ولا يسمعون البيئته إلا بعد سؤاله .

### (ج) الحسبة

كانت سلطة القاضى موزعة بينه وبين المحتسب وقاضى المظالم . فوظيفة القاضى فض المنازعات المرتبطة بالدين بوجه عام ، ووظيفته المحتسب النظر فيما يتعلق بالنظام العام والجنائيات أحياناً مما يستدعى الفصل فيها إلى السرعة ، ووظيفة قاضى المظالم الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضى والمحتسب . وكان القضاء والحسبة يستندان فى بعض الأحيان إلى رجل واحد ، مع ما بين العاملين من التباين . فعمل القاضى مبنى على التحقيق والأناة فى الحكم ، أما عمل المحتسب فمبنى على الشدة والسرعة فى العمل<sup>(٥)</sup> .

كان عمر بن الخطاب أول من وضع نظام الحسبة ، وكان يقوم بعمل المحتسب ، ولو أن هذا اللفظ لم يستعمل إلا فى عهد الخليفة المهدي العباسى ( ١٥٨ - ١٦٩ هـ ) . وقد روى عمر بضرب جمالا ويقول له : « حملت جملك ما لا يطيق » ، فالحسب إذا بأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويحافظ على الآداب والفضيلة والأمانة ، وينظر فى مراعاة أحكام الشرع ، ويشرف على نظام الأسواق ، ويحول دون بروز الخوانيت حتى لا يعوق ذلك نظام المرور ، ويستوفى الديون ، ويكشف على الموازين والمكاييل تجنباً للتطفيف<sup>(٦)</sup> . ويعاقب من يعيث بالشرعية أو يرفع الأثمان ، ويمنع التعدى على حدود الجيران ، وارتفاع مبانى أهل الذمة على مبانى المسلمين . وقد أجمل ابن خلدون<sup>(٧)</sup> أعمال المحتسب فى هذه العبارة فقال :

(١) الأحكام السلطانية ص ٧٩ - ٨٠

(٢) المبالغة فى إنكار الحق من كلا الخصمين

(٣) بمعنى أن القاضى إذا لم يتبين رجاحة حجج أحد الخصمين وأشكل الأمر عليه أحال الخصمين على لجنة من ديوان المظالم أو نحوها للتوفيق بينهما صلحاً

(٤) راجع الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٦١ - ٧٢

(٦) وكان لها دار خاصة ، فيطلب المحتسب الباعة إلى هذه الدار فى أوقات معينة ، ومعهم موازينهم وسنجم ومكاييلهم فيعيرها ، فإن وجد فيها خللاً صادرها ، وألزم صاحبها بشراء غيرها أو أمره باصلاحها . وقد بقيت

هذه الدار طوال عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية - المقرئى خطط ج ١ ص ٤٦٣ - ٤٦٤

(٧) مقدمة ص ١٩٦

و يبيح عن المنكرات ، ويمرر (١) ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة ، مثل المنع من المضايقة في الطرقات ، ومنع الخالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل ، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين . ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداد (٢) ، بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه . وليس له إضفاء الحكم في الدعوى مطلقا فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايض وغيرها ، وفي المكاييل والموازين . وله أيضا حمل الماطلين على الإنصاف ، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بيعة ولا إنفاذ حكم . وكانها أحكام ينزه القاضي عنها لعمومها وسهولة أغراضها ، فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها ، فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء . وقد كان في كثير من الدول الإسلامية ، مثل العبيديين بمصر والمغرب ، والامويين بالأندلس داخلية في عموم ولاية القاضي بولي فيها باختياره . وقد ارتقى نظام الحسبة في عهد الفاطميين ، وكان للمحتسب نواب يطوفون في الأسواق ، فيفتشون القدور واللحوم وأعمال الطهارة ، ويلزمون رؤساء المراكب ألا يحملوا أكثر مما يجب حمله من السلع ، ويشرفون على السقائين لضمان تغطيتهم القرب ولبس السراويل بما لا يتنافى مع الآداب ، ويمنعون معلى الكتاتيب من ضرب الصغار ضربا مبرحا . وكذلك كان المحتسب يجلس للفصل بين الخصوم في جامعي عمرو والأزهر ، واتسعت سلطته حتى أزم رجال الشرطة أن يقوموا بتنفيذ أحكامه . وكان يتقاضى راتبا شهريا قدره ثلاثون دينارا (٣) .

أما في الأندلس فكان يتولى الحسبة في كل مدينة موظف يسمى المحتسب أو صاحب السوق ، لأن معظم عمله متعلق بالإشراف على أهل الأسواق . وكان يشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون من المشهور لهم بالعلم والمعرفة والقطنة ، ويختار من بين القضاة ، لأنه عمله مرتبط بالقضاء . وقد حدد المقرئ (٤) سلطة المحتسب في الأندلس ، ومنه يتبين أن هذا النظام بلغ شأوا بعيدا من الدقة ، حتى إن أثمان الحاجيات كانت محددة ، وإن الإشراف على الباعة بلغ مبلغا كبيرا ، وإن المحتسبين كان لهم في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تدارس أحكام الفقه ، لأنها عندهم تدخل في جميع البياعات (٥) .

#### رواتب القضاة :

كان القضاء من أهم مناصب الدولة في هذا العصر ، ولذلك رفع العباسيون رواتب القضاة حتى لا يتطلعوا إلى الرشوة التي يجب أن يتنزه عنها القاضي . فلما تولى مصر عبد الله بن طاهر قلد عيسى ابن المشكدر القضاء في سنة ٢١٢ هـ ، وأجرى عليه سبعة دنانير في كل يوم . وفي عهد احمد بن طولون

(١) يزجر (٢) أي طلب رد عدوان الغير

(٣) المقرئ : خطط ج ١ ص ٤٦٣ - ٤٦٤

(٤) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ١٠٣

(٥) ورد في الأصل البياعات ، ولعلها محرفة عما أثبتناه .

كان القاضي بكار بن قتيبة يتقاضى ألف دينار في الشهر . وذكر القلقشندي<sup>(١)</sup> أن راتب قاضي القضاة بلغ مائة دينار في الشهر عدا المخصصات الأخرى . وقد أراد الخليفة الحاكم أن يحول بين القضاة وبين ، أخذ الأموال بغير حق ، فأمر بأن يضاعف رزق الحسين بن علي بن النعمان وصلاته وإقطاعاته ، وشرط عليه ألا يتعرض لدرهم واحد فما فوقه من أموال الرعية .

وقد تقلد علي بن المحسن التنوخي المتوفى سنة ٤٤٧ هـ القضاة في عدة نواح . وبلغ دخله من القضاة ودار الضرب التي كان يتولاها مع القضاة ستين دينارا في الشهر ، مما يدلنا على أن راتب القاضي أخذ في العصر العباسي الثاني يقل شيئا فشيئا ، حتى لقد اشترط على بعض القضاة أحيانا أن لا يأخذوا راتبا عن قيامهم بأعمال هذا المنصب .

وبعد أن كان الالتزام مقصورا على الخراج ، بمعنى أن تعهد الدولة به إلى أشخاص يجبونه على أن يؤدوا لبيت المال مبلغا معيناً ، تعدى هذا النظام إلى القضاة ، فأصبح القاضي ياتزم القضاة على أن يؤدي لبيت المال مبلغا من المال مقابل ما يجيبه من رسوم القضايا . وقد التزم عبد الله بن الحسن بن أبي الشوارب لمعز الدولة بن بويه على ٢٠٠,٠٠٠ درهم في السنة عن قضاة بغداد<sup>(٢)</sup> .

وقد ذكر ابن حجر العسقلاني<sup>(٣)</sup> أن قاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان تقلد القضاة والمظالم والدعوة في سنة ٤١٨ هـ ، ثم عزل في السنة التالية ، فحل محله عبد الحاكم بن سعيد بن مالك الفارقي وأضيفت إليه الأحباس . وقد قيل إن دخله زاد على عشرين ألف دينار في السنة بسبب تشدده في الأحكام وابتزازه الأموال . وقد مات رجل من ذى اليسار وترك مالا جزيلا ولم يخلف سوى بنتا واحدة ، آل إليها جميع الميراث طبقا لمبادئ المذهب الشيعي الذي يقضى بأن تحوز البنت كل الميراث إذا لم يكن لها أخ . وقد رغب بعض الناس في الزواج من هذه المرأة طمعا في مالها ، ومن هؤلاء قاضي القضاة . ولما امتنعت أقام القاضي أربعة شهود شهدوا بأنها سفينة ، ووضع الفارقي يده على أموالها فرفعت شكواها إلى الوزير أبي القاسم الجرجرائي الذي قامت البينة لديه على بطلان حكم القاضي ، فأهانته وأمر بإحضار المال منه بعد أن تصرف فيه أربع سنين ، وقبض على الشهود فأودعوا السجن ، وصرف القاضي عن منصبه مهانا . وقد أنشد بعض الشعراء في هذا القاضي وفي قاسم بن عبد العزيز قصيدة نقتطف منها هذه الأبيات :

ولما تولى ابن عبد العزيز	قضاء القضاة تولى القضاة
وأعقب من بعده الفارقي	فأدبر إقباله وانقضى
وعاد القضاء إلى قاسم	فأصبح عن رشده معرضا
فلاذ بسيرته يرتضى	ولاذا بتدبيره يستضا
فمذا رئيس به لوثة	وهذا وضع بعيد الرضا
فلا بارك الله فيمن أنى	ولا بارك الله فيمن مضى

(١) صبح الأعشى في صناعة الانشاج ٣ ص ٥٢٦ .

(٢) راجع كتاب النظم الاسلامية للؤلأف ص ٣٥١ - ٣٥٢ وآدم متر : الحضارة الاسلامية في القرن

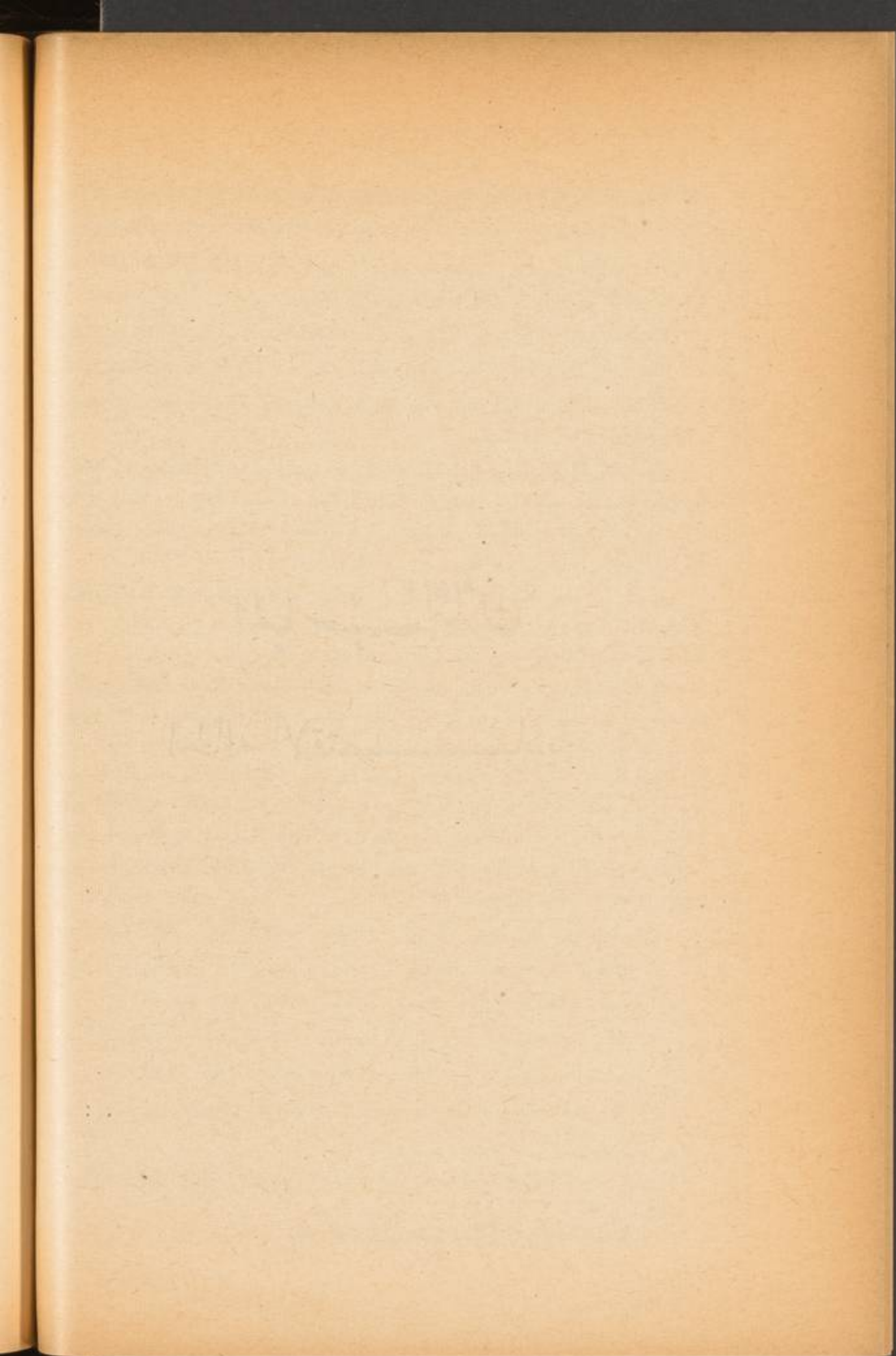
الرابع الهجري ج ١ ص ٣٦٣ - ٣٦٦ .

(٣) الكندي : كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ٦١٣ - ٦١٤ .



# الباب الثامن

الحالة الاقتصادية



## ١ - الزراعة

ذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب<sup>(١)</sup> أن العباسيين عنوا بالزراعة وفلاحة البساتين التي قامت على دراسة عملية ، بفضل انتشار المدارس الزراعية التي كان لها أثر كبير في إنارة عقول المسلمين ، فتوسعوا في البحث النظري ، ودرسوا أنواع النباتات وصلحية التربة لزراعتها ، واستعملوا الأسمدة المختلفة لأنواع النباتات .

ولما كانت الزراعة تعتمد على الري ، عنى العباسيون بتنظيم أساليبه ، وجعل الماء مباحا للجميع . ولذلك عملوا على تنظيمه في مصر والعراق واليمن وشمال شرقي فارس وبلاد ما وراء النهر والهند . وبلغ هذا النظام شأواً بعيداً من الدقة ، حتى إن الأوربيين أدخلوا كثيراً من هذه النظم في بلادهم . وقد عيّنت الدولة العباسية بصيانة السدود والترع ، وجعلوا عليها جماعة من الموظفين أطلق عليهم اسم المهندسين ، ومهمتهم المحافظة على هذه السدود خشية انبثاق الماء منها ، إذ يكفي (عمران الخارج على بختيار بن معز الدولة) « إبقاع ثلثة يسيرة في أحد نواحي السد ثم يحمل الماء فيتولى كفايته<sup>(٢)</sup> في الهدم والتخريب . فربما أفسد في ساعة من الليل أو النهار تعب سنة أو نحوها . وذلك أن هذه السدود تسكون من قصب وتراب يقام في وجوه المياه الجارية عند ضعف جريانها وغاية نقصانها . فإذا وردت المياه القوية ، ومُتعت من حدودها<sup>(٣)</sup> ، كفي معهما<sup>(٤)</sup> اليسير من المعونة<sup>(٥)</sup> حتى تنبعث ويدفع بعضها بعضاً . وربما كان سبب انبثاق الماء نقب فأرة ، ثم يوسعه الماء وينتهي فيه إلى حيث لا حيلة في سده<sup>(٦)</sup> .

وقد جعل العباسيون ماء الري بمروديوانا أطلقوا عليه «ديوان الماء»<sup>(٧)</sup> ، ويشرف على هذا الديوان موظف كبير يعاونه أكثر من عشرة آلاف عامل ، وتودع في سجلاته مقادير خراج الأراضي على حسب نوع ربيها . فيؤخذ العشر ، وإذا كان يسقى سيحجا أن تستقيه السماء ، وإن كان يسقى بغرب<sup>(٨)</sup> أو دالية أو سانية ، ففيه نصف العشر<sup>(٩)</sup> . كما كانوا يعنون بإقامة مقاييس على الأنهار للوقوف على مقدار ارتفاع الماء وانخفاضه للاستئناس بذلك في فرض الضرائب .

وكذلك كان العباسيون يعنون بحراثة الأرض ويستخدمون لذلك الأبقار . وقد بلغ عدد أبقار الحرث في أردبيل ثمانية لكل محراث ، ولكل اثنتين منها قائد كما كانوا يعنون بتسميد الأرض ،

(١) ٢٢٥ ص

(٢) أي يبلغ مداه .

(٣) أي من انصبابها وجريها .

(٤) في الأصل منها ولعلها تحريف عما أبتناه .

(٥) يعني المعونة في فتح ثلثة يسيرة يندفع منها الماء .

(٦) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٧) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ص ٤٥ .

(٨) الغرب هو الدلو العظيمة يستقى بها على السانية ، والسانية البعير يسقى عليه أي يستقى من البئر .

(٩) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٦٢ .

والمحافظة على ثمارها ، حتى جعلوا كثيراً من الأطفال لنظارنها أى حراستها وطرده الطيور عنها وعثوا كذلك بتربية الحيوانات ، وخاصة البقر ، ثم بتربية الجاموس الذى جلبوه من الهند بعد أن كثرت البطائح والمستنقعات فى القرن الرابع الهجرى ، ثم انتشر استعماله فى سائر البلاد الإسلامية . وكانوا يربون البقر لاستعمال ألبانه ويعتقدون أن لحمه يضر بالصحة ، ويفضون عليه لحم الجاموس . وكانت مصر تجلب كثيراً من حيوانات الذبح من بركة التى تكثرت فيها المراعى ، ولا تزال كذلك حتى اليوم . واشتهرت جزيرة العرب بكثرة الجمال ذات السنام الواحد ، كما اشتهرت بلخ بالجمال ذات السنامين التى تسمى البخاقى . وكانت الخيل تجلب من بلاد العرب ، وخاصة إقليم الحسا ، إلى بغداد ، كما اشتهرت نجد وفارس بتربية الخيل ومصر بتفريخ الدجاج وتربيته ، وحفظ الحمام فى أبراج لوقايته من الأفاعى (١) .

ومن الطريف أن بعض البلاد كان يعنى بتربية الكلاب وذبحها ، فكان القرامطة يربون الكلاب ويسمونها ، ثم يذبحونها ويأكلونها (٢) .

ومن أشهر الحاصلات الزراعية الحنطة ، وتزرع فى البلاد الكثيرة المياة كالعراق وخوزستان ومصر ، والذرة وتكثر فى جنوب البلاد الإسلامية كجنوب بلاد العرب وكرمان والنوبة ، والأرز وتكثر زراعته فى خوزستان ومازندران ، والقلقاس فى فلسطين ومصر وآسيا الصغرى وتكثر زراعة الكروم فى العراق واليمن ومصر وبلخ والشام (٣) .

ومن الحاصلات الزراعية أيضاً الفارنج والأترج الذى يقول المسعودى (٤) إنه د حمل من أرض الهند بعد الثلثائة (للهجرة) ، فزرع بعمان ، ثم نقل إلى البصرة والعراق والشام ، حتى كثر فى دور الناس بطرسوس وغيرها من الثغور الشامية ، وأنطاكية وسواحل الشام وفلسطين ومصر ، وما كان يعهد ولا يعرف ، فعدمت منه الروائح الخزية الطيبة واللون الحسن الذى يوجد فيه بأرض الهند ، لعدم ذلك الهواء والترية وخاصة البلاد . واشتهرت مصر بزراعة الليمون ؛ وكان من جملة أصناف الليمون بأرض مصر ليمون يقال له التفاحى يؤكل بغير سكر لقلته حمضه ولذته طعمه (٥) . كما اشتهرت مصر بزراعة البطيخ الذى كانت له سوق نافقة . واشتهر فيها نوع من البطيخ يقال له العبدلاوى نسبة إلى عبد الله بن طاهر الذى حكم مصر فى عهد الخليفة المأمون العباسى ، وهو الذى جلبه من خراسان إليها عند قدومه . وكان نفاح الشام مضرب المثل فى الجودة ، كما كانت العراق ، وخاصة البصرة ، وكرمان وشمال إفريقيا تنتج مقادير كبيرة من التمر الذى كان يجفف ويرسل إلى البلاد الأخرى . واشتهرت بلاد الشام وشمال إفريقيا بزراعة الزيتون ، واشتهرت نابلس وحلب بصناعة الزيت

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ٢ ص ٢٨١ - ٢٩٤

(٢) Nasir - i - Khusrau : Safar Nameh , pp.227 - 80 .

(٣) الجاحظ : كتاب التبصر بالتجارة ص ٢٩

(٤) مروج الذهب ج ١ ص ٢٣٤ - ٢٣٥

(٥) المقرئى : خطط ج ١ ص ٢٧٣

المستخرج منه<sup>(١)</sup> . وكثرت زراعة قصب السكر في كثير من البلاد الإسلامية، وخاصة في بعض بلاد الأفغان وفي بلاد الشام ومصر وخوزستان والعراق والأندلس، ويزرع في بلاد الهند القرنفل والفلفل والصندل والدار صيني وأشجار النوت لترية دودة القز . ويزرع في أصهان السفرجل والكثيرى والتفاح<sup>(٢)</sup> . ومن أشهر محاصيل مصر في عهد الفاطميين خاصة القمح والشعير والفول والقصب والقلقاس والباذنجان والفواكه .

وقد حاول مسلو المغرب وصقلية زراعة بعض النباتات التي لا تنمو إلا في البلاد الحارة : كالتوابل والقطن وقصب السكر والنوت ؛ ولكن زراعة التوابل لم يقدرها النجاح ، على حين نجحت زراعة القطن وقصب السكر والنوت في بعض جهات الأندلس وصقلية<sup>(٣)</sup> .

واشتهرت الأندلس بزراعة القمح والشعير والذرة ، وبزراعة الفواكه كالبرتقال والكثيرى والتفاح والتين والعنب والزمان ، والخوخ الذي كانت تكثر زراعته في السهول ، والموز وتكثر زراعته في وديان البحر الأبيض المتوسط ، كما اشتهرت بزراعة الأرز وقصب السكر والزيتون . واهتم أهل الأندلس بزراعة الكتان والقطن لصناعة الملابس ، والنوت لترية دود القز ، وانتفع الأمويون بمياه الأنهار الكبيرة كتاجه والوادي الكبير والوادي اليبانج وإبرو ، وأقاموا عليها السدود وشقوا الجداول ، واستخدموا هذه المياه في الزراعة التي أحرزوا قصب السبق فيها . ووضع الأمويون تقويماً للزراعة عرف بالتقويم القرطبي ، الذي أصبح دليلاً ودستوراً لزراعة النباتات المختلفة في مواعيدها ، وأخذ عنهم غيرهم من الأمم .

## ٢ - الصناعة

كان للصناعة في العصر العباسي الثاني ، حظ كبير من عناية الخلفاء والسلاطين والأمراء الذين اهتموا باستخدام موارد الثروة على اختلافها . ومن الصناعات التي ازدهرت في هذا العصر صناعة النسيج : فقد اشتهرت مصر بصناعة الكتان الذي كثرت زراعته في الفيوم . ومن أشهر مراكز هذه الصناعة في القرن الرابع الهجري إقليم الفيوم ونواحي بحيرة تيس ، وخاصة مدن دمياط وشطا ودبيق التي تنسب إليها الثياب الدبيقية ، وفي تيس التي كانت تصدر إلى العراق وحدها ما تتراوح قيمته بين ٢٠,٠٠٠ ، ٣٠,٠٠٠ دينار سنوياً ، وفي دبيق كانت تصنع الثياب المثقلة والعاهم الشرب الملونة ، والدبيقى العلم المذهب . وكانت العاهم الشرب المذهبة تعمل بها ، ويكون طول كل عمامة منها مائة ذراع ، وفيها رقعات منسوجة بالذهب ، فتبلغ العاهمة من الذهب خمسمائة دينار سوى الحرير والغزل ،<sup>(٤)</sup> .

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ١٩٣

(٢) راجع الجاحظ : كتاب التبصر بالتجارة ص ٢٦ - ٣٢

(٣) Heyd ; Histoire du Commerce du Levant, tome. I. p. 50.

(٤) المغربي : خطط ج ١ ص ٢٢٦

واشتهرت مدينة كازرون بفارس بصناعة النسيج ، حتى سميت دمياط الأعاجم . كما كان لصناعة القطن في شرق البلاد الإسلامية مركز يمتاز في صناعة الكتان ، حتى قال الثعالبي إن القطن لخراسان والكتان لمصر . وانتقلت زراعة القطن وصناعته من الهند إلى خراسان وفارس أولا ، ثم انتقلت بعد ذلك بزمن طويل إلى الأقاليم الغربية للدولة الإسلامية . واشتهرت مدينة كابل في هذا العصر بنسيج القطن الذي كانت تصدره إلى الصين ، كما اشتهرت بلاد ما وراء النهر بزراعة القطن وصناعته . وأدخل الحمدانيون هذه الزراعة في بلاد بين النهرين ، كما انتشرت كذلك في المغرب والأندلس . ومن أهم مراكز صناعة القطن مرو ونيسابور حيث رخصت أسعاره عن أسعار نسيج الكتان ، حتى إن إسماعيل بن أحمد الساماني ( ٢٧٩ - ٢٩٥ هـ ) منح كل قائد من قواده ثوبا من الكتان هدية قيمة (١) .

وكانت القاهرة في عهد الفاطميين من أهم مراكز الصناعة . فقد بلغ نظام الطراز (٢) مبلغا كبيرا من الرقي ، كما ازدهرت فيها صناعة المنسوجات الحريرية . وتبين لنا مقدار مهارة المصريين وحذقهم في تلك الصناعات ، من وصف الكسوة (٣) التي أمر الخليفة الفاطمي المعز بعملها للكعبة . وكانت مربعة الشكل ، مصنوعة من ديباج أحمر ، سعتها مائة وأربعون شبرا ، وفي حافاتها اثنا عشر هلالا ذهبيا ، في كل هلال إترجة ذهبية ، بداخل كل منها خمسون درة تشبه بيض الحمام في الكبر . وكانت مرصعة بالياقوت الأحمر والأصفر والأزرق ، ونقشت في حافاتها الآيات التي وردت في الحج (٤) بحروف الزمرد الأخضر ، وزينت هذه الكتابة بالجواهر الثمينة . وعطرت هذه الكسوة بمسحوق المسك ، ووضعت في القصر بحيث يراها الناس من داخله وخارجه (٥) .

وقد بنى المعز دار الكسوة حيث كانت تفصل الثياب لموظفي الدولة على اختلاف مراتبهم وعنى الخلفاء من بعده بصناعة النسيج ، وكانوا يصنعون مقادير وافرة منها لهم ولرجال بلاطهم ، كما كانوا يصنعون الكسوة الشريفة ، والخلع التي يمنحونها بسعة للوزراء والأمراء والأشراف في عيد الفطر ، حتى سمي هذا العيد عيد الخلع .

== ذكر ناصري خسرو Safar Nameh, p. 139 عند كلامه على الاحتفال بوفاء النيل بحضور الخليفة المستنصر الفاطمي أن ثوب الخليفة كان من صنع ديبق ، وأن قيمته ألف دينار . كما ذكر أيضا أن عمامة صاحب المظلة الذي كان يسير إلى جانب الخليفة ويحمل له المظلة كانت مزينة بالأحجار الكريمة ، وأن ثوبه من جنس ثوب الخليفة .

- (١) آدم مقر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ٢ ص ٣٠٠ - ٣٠١ .  
(٢) فارسي الأصل معناه التطريز ، ثم أصبح يطلق على الثوب الموشى . ولا يرتدى هذا النوع من الثياب إلا الملوك والأمراء وأصحاب المناصب العالية . وبعد أن كان هذا اللفظ يطلق على الكتابة الموشاة ، أصبح يطلق على كل قطعة من النسيج عليها كلمات منقوشة أو مكتوبة على النسيج المنقوش أو الموشى بالخيط ، وعلى النقوش التي توضع على الأشرطة المستعرضة من أي نوع ، سواء أكان من الحجارة أو الفسيفساء أو الزجاج أو الفخار ، أو كان محفورا بالخشب (٣) بضم الكاف وكسرها (٤) سورة آية ٩٥ ، وسورة آية ٣ .  
(٥) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٤ ، والفاطميون في مصر للزائف ص ٢٣٥ .

وهناك أنواع خاصة من الثياب اشتهرت في هذا العصر . من ذلك الثياب العتائية المصنوعة من الحرير ، وتنسب إلى عتاب أحد أحياء بغداد (١) . والخسرواني (أو الخسرواني بفتح الراء) ، وهو نوع من الحرير ينسب إلى خسرو شاه أحد ملوك الفرس (٢) ، والقلوني ، وهو نوع من القماش ذو ألوان برافة تتلألأ إذا انعكست عليها أشعة الشمس . وقد نقلت صناعته من بلاد اليونان إلى مصر حيث أصبح يصنع في دمياط وتيس خاصصة (٣) ، والتستري ، وهو نوع من الحرير ينسب إلى تستر (٤) أشهر مدن خوزستان ، والقرقي ، وهو نوع من القماش كان يصنع في بلاد اليونان ، ثم أدخلت صناعته إلى مصر ، وأصبح يصنع في دمياط وتيس . واشتهر هذا القماش بألوانه اللامعة التي تتغير دائما لاسيما إذا انعكست عليها أشعة الشمس (٥) . والتصيفية ، وهي ثياب مصنوعة من الحرير والقطن . وقد ذكر المقرئبي (٦) أن الخليفة المعز الفاطمي أمر في سنة ٣٥٣ هـ بمعمل خريطة من الحرير الأزرق التستري والقرقوبي المنسوج بالذهب ، كان مينا عليها بالذهب كافة أقطار العالم بما فيها من جبال وبحار وأنهار وطرق ومدن ، كما ظهر عليها مدينتا مكة والمدينة بشكل يتبينه الناظر لأول وهلة (٧) . كما ذكر المقرئبي (٨) أن الخليفة المستنصر ترك فيما تركه من الكمنوز خمسين ألف مقطع من الحرير الخسرواني كان أكثره مذهبا ، كما ترك حشية قلوبية بيعت بألفين وأربعمائة دينار (٩) . واشتهرت مرو باقليم طبرستان بصناعة الإبريسم ، وتفوق أهل إرمينية في صناعة التلك الإبريسمية التي كان ثمن الواحدة منها يتراوح بين دينار وعشرة دنائير .

واشتهرت فارس وأرمينية وبلاد ما وراء النهر بصناعة الملابس والفرش الصوفية . وكان للسط الفارسية التي تصنع في أصهبان خاصة (١٠) المكانة الأولى منذ عهد بعيد ، كما اشتهرت صناعة السط الأرمينية في القرن الرابع الهجري خاصة ، ومنها انتشرت هذه الصناعة في آسيا الصغرى ، حيث أصبح للسط الأرمينية مكانة ممتازة في أوروبا ، كما اشتهرت غرناطة بهذه الصناعة ، وكادت تبذ مدن المشرق في ذلك (١١) .

وبما ذكره الجاحظ نرى أن خير الأكسية من الصوف ، المصرية ، ثم الخوزية الفارسية (١٢) .

(١) كان عتاب ابن حفيد عميرة ، وإليه ينسب هذا الحى الذى اشتهر بصناعة هذا النوع من الثياب .

انظر Dozy: Supplément aux Dictionnaires Arabes

(٢) Lane: Arabic-English Lexicon

(٣) ياقوت : معجم البلدان • Dozy: Supplément aux Dictionnaires Arabes

(٤) وهى معربة عن شتر (٥) القرب طائر يربى في الغدر والمسنقات . انظر معجم البلدان لياقوت

(٦) خطط ج ١ ص ٤١٧ (٧) حسن ابراهيم حسن : القاطمون في مصر ص ٢٥٧

(٨) خطط ج ١ ص ٤١٦

(٩) انظر كتاب «الفاطميون في مصر» للمؤلف ص ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧

(١٠) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ٢٢ .

(١١) المقرئبي : نفع الطيب ج ١ ص ٩٥ .

(١٢) نسبة إلى خوزستان .

واشتهرت سابور والكوفة وجور جنوبي فارس بصناعة الروائح العطرية المستخرجة من البنفسج والنبيلوفر والزرجم والسوسن والزنبق والنارخ، واختصت مدينة جور باستخراج ماء الورد، الذي كان يحمل إلى الصين والهند واليمن ومصر والمغرب والأندلس (١).  
وقد راجت صناعة الورق في العصر العباسي الثاني؛ وكان ورق البردي الذي اشتهرت به مصر منذ عهد بعيد كثير الاستعمال حتى أوائل العصر العباسي الثاني، ثم حل محله الكاغد الذي انتقل من الصين إلى البلاد الإسلامية في القرن الرابع الهجري. واشتهرت سمرقند بصناعة الكاغد، حتى قيل إن كواغد سمرقند عطلت قرطيس مصر. وانتشرت صناعة الورق في دمشق وطبرية وطرابلس الشام، وحافظت سمرقند على شهرتها في هذه الصناعة. وقد قال ابن الفقيه الهمداني عن شهرة فارس في صناعة الحديد وغيره: «لقد ألان الله عز وجل لؤلؤ القوم الحديد، وسخره لهم حتى عملوا منه ما أرادوا، فهم أحذق الأمة بالجوامع والأفعال والمرايا وتطبيع السيوف والدروع والجواشن؛ ولهم الثياب الجبائية والسديزية، ولهم المماورد الجوري، والطين السيراني، والأكسية الفسوية، والأدهان السابورية والثياب الكازرونية» (٢).

واشتهرت بلاد الأندلس باستخراج المعادن من مناجمها المختلفة، وعلى الأخص الذهب من المناجم الواقعة على نهر تاجة، والفضة ببعض جهات قرطبة، والحديد من جبال طليطلة، والرصاص من غربي قرطبة، والنحاس بنواحي طليطلة وشمال الأندلس. وقال المقرئ إنه كان بالأندلس عدة مقاطع للرخام الأبيض والحمرى والأحمر والمجزع. وقد وصفها وصفا شائقاً وذكر أنها (٣)، وكانت قرطبة مركزاً هاماً لصناعة الجلود، كما اشتهرت الأندلس بصناعة السفن وآلات الحرب من التراس والرماح والسروج واللجم والدروع.  
وكذلك اشتهرت الأندلس باستخراج الزيت من الزيتون، والنيذ من الكروم، كما مهر أهل هذه البلاد في استخراج العقاقير من النباتات المختلفة، التي أخذها عنهم الأوربيون فيما بعد (٤).

### ٣ - التجارة

#### (١) طرق التجارة:

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب (٥) أن عناية خلفاء العصر العباسي الأول لم تقتصر على الزراعة والصناعة، بل اهتموا كذلك بتسهيل سبل التجارة: فأقاموا الآبار والمحاط في طرق القوافل، وأنشئوا المنائر في الثغور، وبنوا الأساطيل لحماية السواحل من إغارات لصووس البحار. وكان

(١) ابن حوقل: المسالك والممالك ص ٢١٣.

(٢) الجاحظ: كتاب التبصر بالتجارة، ملحق ص ٤١. انظر أيضاً «باب مايجلب من البلدان من طرائف

السلع والأمتعة والجواري والأحجار وغير ذلك» (ص ٢٥ - ٣٤)

(٣) المقرئ: نفع الطبيب ج ١ ص ٩٥ (٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٩٥ - ٩٦

(٥) ص ٢٣١.



لذلك أكبر الأثر في نشاط التجارة الخارجية والداخلية ، فأصبحت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب البلاد وتمخر عباب البحار . واحتلت تجارة المسلمين في العصر العباسي الثاني المكانة الأولى في التجارة العالمية . وكانت الإسكندرية وبغداد مقياسا لأسعار البضائع العالمية في ذلك الحين . ومن أشهر طرق التجارة بين الشرق والغرب :

أولا : من الغرب إلى الشرق عن طريق مصر ، ويقوم به غالبا اليهود الذين كانوا من أكبر المنافسين لتجار المسلمين من فارس والعراق . وكان لهم بمدينة أصهان حى يسمى اليهودية ، كما كان معظم تجار مدينة تستر بخوزستان من اليهود الذين كانوا يشرفون أيضا على تجارة اللؤلؤ الذى يستخرج من خليج فارس<sup>(١)</sup> . وكان هؤلاء التجار من اليهود يقدون من مقاطعة بروقانس بفرنسا ، ويسمى المسلمون في ذلك الحين تجار البحر أو اليهود الراذنية ، نسبة إلى نهر الرون ، ويتكلمون العربية والفارسية والرومية والفرنسية والصقلية ، ويجلبون من الغرب الجوارى والغلبان والديباج وجلود الخنزير<sup>(٢)</sup> والفراء والسمور والسيوف ، ويبدون رحلاتهم التجارية من بروقانس التى يسميها العرب «فرنجة» وترسو سفنهم إما عند الفرما ، وكانت تعد من أهم الموانئ التجارية في ذلك الحين ، ثم يحملون هذه السلع على دواب الحمل إما إلى القلزم ، وهى مدينة السويس الحالية<sup>(٣)</sup> ، وإما إلى الإسكندرية التى كانت ملتقى التجارة العالمية ، ومنها تنقل إلى القسطنطينية أو إلى القاهرة عن طريق النيل . ويقول هيد<sup>(٤)</sup> إن شهرة بغداد طغت على الإسكندرية حيناً من الدهر ، إلا أن هذه المدينة ازدهرت من جديد ، منذ أيام الطولونيين . وكانت هذه السلع تنقل من القسطنطينية برأ على الدواب إلى القلزم ومنها تنقل عبر البحر الأحمر مارة بموانئه الهامة مثل جدة حتى تصل السفن إلى الهند والصين ، ويحمل التجار في عودتهم سلع المشرق كالمسك والعود والكافور والدارصيني . فاذا وصلوا إلى القلزم اتجهوا إلى الفرما أو إلى الإسكندرية ، ومنها إلى بروقانس ، وأحياناً يقصد بعضهم القسطنطينية<sup>(٥)</sup> .

ثانياً : من أوروبا إلى المشرق عن طريق أنطاكية ، ويبدأ تجار اليهود الراذنية من بروقانس بجزر إلى أنطاكية ، ومنها ينقلون السلع على الدواب إلى الفرات إلى أن يبلغوا بغداد عن طريق هذا النهج وجداوله ؛ ثم يركبون في دجلة إلى الأبله<sup>(٦)</sup> ، ثم إلى عمان والهند والصين .

ثالثاً : من بلاد الروس الشمالية إلى المشرق عن طريق بحر قزوين ، ثم إلى مرو وبلخ وبخارى وسمرقند وبلاد ما وراء النهر ومنها إلى الصين . ويحمل هؤلاء التجار معهم جلود الخنزير وجلود الثعالب والسيوف والشمع والعسل . وكان المسلمون يعاملونهم معاملة طيبة ويأخذون منهم الجزية

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ٢٥٦ ، وآدم متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣٢٣ .

(٢) الخنزير اسم دابة ثم أطلق على الثوب المأخوذ من وبرها . والخنزير الذكر من الأراب .

(٣) ابن خردادبة : المسالك والممالك ١٥٣ .

(٤) Heyd : Histoire du Commerce du Levant au Moyen-Age, tome I. p. 41.

(٥) ابن خردادبة : المسالك والممالك ص ١٥٤ .

(٦) بلدة على شاطئ دجلة في زاوية الخليج الفارسي — أظن معجم البلدان لياقوت .

باعتبارهم مسيحيين (١).

ومما جعل لهذا الطريق أهمية تجارية اعتناق أهل الفلجاء الإسلام في أوائل القرن الرابع الهجري ، وجهود السامانيين الذين عملوا على إقرار الأمن في خراسان وبلاد ما وراء النهر ، حتى إن قوافل التجار كانت تسير في أمن ودعة . أضف إلى ذلك زواج ولد نصر بن أحمد الساماني من ابنة ملك الصين وما كان لذلك من أثر في رواج التجارة بين الصين وبلاد السامانيين (٢) .

ولا ننسى فتوح محمود الغزنوي ( ٣٨٨ - ٤٢٢ هـ ) في بلاد الهند وما كان لها من أثر في رواج التجارة . ويرجع معظم النقود الإسلامية التي اكتشفت في شمال أوروبا إلى القرن الرابع الهجري . وكان أكثرها من نقود السامانيين . ولا غرو فقد أصبحت بلاد الروس منذ ذلك الحين طريقاً هاماً بين شمال أوروبا وبلاد المشرق .

وابعا : الطريق البري من غرب أوروبا إلى المشرق ، ويبدأ من بلاد الأندلس إلى طنجة عبر مضيق جبل طارق ، مجتازاً المغرب الأقصى والأدنى والأوسط عن طريق إفريقية (وهي تونس الحالية) حتى يصل إلى مصر ، ثم يتجه إلى بلاد الشام ماراً بالرملة ودمشق ، ثم إلى العراق ماراً بالسكوة وبغداد والبصرة ، ثم إلى فارس ماراً بالأهواز ثم إلى كرمان والهند والصين (٣) .

وكان لهذه الطرق التجارية ورواج التجارة فضل كبير في انتشار الجاليات الإسلامية في البلاد الممتدة إلى الصين وكوريا . فزرى في بلاد الخزر والصين وكوريا وغيرها جاليات إسلامية كبيرة لا تقبل غير حكم المسلمين (٤) .

وقد ذكر الرحالة العرب الذين قاموا برحلاتهم في القرنين الثالث والرابع ( التاسع والعاشر الميلاديين ) ، أنهم كانوا يلاقون شيئاً كثيراً من العطف والرعاية من بعض ملوك الهند ، وأن جماعة من أمراء ملبار اعتنقوا الإسلام ، وسمحوا للعرب بإقامة المساجد في هذه البلاد . وحين أنشأ العرب على سواحل الهند وفي بعض مدنها جاليات عربية . كانت جيوشهم قد تجارزت حدود فارس منذ أوائل القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) واستولت على بلاد الهند . وكان من أثر ذلك أن نشطت الحركة التجارية ونمت في الملتان والديبل . وكانت سفن فارس وبلاد العرب تعرج على تلك البلاد في ذهابها إلى بلاد الهند والصين ، وفي عودتها حاملة حاصلات تلك البلاد (٥) .

### (ب) أشهر مراكز التجارة

وكان لاستيلاء العرب على بلاد الشام ومصر والمغرب ثم على الأندلس وصقاية أثر كبير في

(١) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٥٤ . (٢) أنظر لفظ الصين في معجم البلدان لياقوت .

(٣) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(٤) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ٢ ص ٣١٥ - ٣١٦ .

(٥) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ٢٣٥ ؛ عن

رواج التجارة . ومن ثم أصبح العرب وسطاء لنقل التجارة بين الشرق والغرب . وقد أصبح بعض المدن الساحلية على هذا البحر ذات أهمية خاصة للتجارة . فقد رأينا أهمية أنطاكية التي حصنها الخليفة المعتصم حتى أصبحت من أهم مرافق بلاد الشام التجارية (١) ، كما أصبحت أذاة اتصال بين الشرق والغرب . وغدت الفرما والإسكندرية من المراكز الهامة للتجارة بين الشرق والغرب حيث تنقل منهما التجارة الآتية من أوروبا إلى البحر الأحمر ، وكذلك التجارة الآتية من الشرق إلى أوروبا . وكانت السفن بعد إقلاعها من الإسكندرية ترسو أول الأمر في ميناء برقة التي كانت تكثر فيها السلع الشرقية والغربية في القرن الرابع الهجري . ومن طرابلس نرى سلسلة من الموانئ التجارية الهامة ممتدة حتى مراكش . وكانت المهديّة أكثر هذه الموانئ عمراناً وازدهاراً لقرنها من مدينة القيروان ، حتى كانت السفن تفتد إليها تبعاً من مصر وسورية بحملة بيضائع آسيا (٢) . كما قامت علاقات تجارية بين الأندلس وغيرها من البلاد الشرقية حاملة منتجات هذه البلاد .

وكانت أيلة والقلازم وجدة من أهم الموانئ التجارية على البحر الأحمر . ولا غرو فقد كانت أيلة والقلازم المنفذتين الرئيسيتين في شمال البحر الأحمر ، وعن طريقهما كانت تنقل السلع من الغرب إلى الشرق وبالعكس . وترجع أهمية جدة إلى أنها محط الحجاج المسلمين الذين كانوا يفتدون إليها عن طريق أيلة والقلازم ، أو عن طريق عيذاب . وكذلك اشتهرت عدت بالتجارة ، لوقوعها على مقربة من مدخل البحر الأحمر لجنوباً ، حتى إن السفن المحملة بمنتجات الشرق والغرب كانت ترسو عليها . وكذلك كانت البصرة من أهم مراكز التجارة ، لأنها تعد باب بغداد الكبير ، ومدخل دجلتها المتدفق بضروب المتاع وأنواع السلع المحلوّبة من أطراف الدنيا . . . ومحط رحال الشرق والغرب من مجاهل الصين إلى مفاوز الصحراء الكبرى (٣) . وأصبحت بغداد مركز التجارة في العالم الإسلامي ، حتى كانت هي والإسكندرية - كما رأينا - يتنافسان الزعامة التجارية ويقرران أسعار السلع في ذلك الحين . وزاد من أهمية بغداد التجارية أنها كانت حاضرة العالم الإسلامي في ذلك العصر وملتقى كثير من الطرق التجارية . وترجع شهرة دمشق باعتبارها من أهم المراكز التجارية إلى وقوعها على طريق قوافل الحجاج الرئيسى ، حتى إن الحجاج كانوا يجتمعون فيها عند ذهابهم إلى مكة لأداء فريضة الحج ، وعند عودتهم إليها بعد أداء الفريضة ، مما ساعد على تدفق السلع إلى أسواقها (٤) . وكان كثير من حجاج المسلمين يفتدون بيت المقدس بعد أداء فريضة الحج في مكة ، فيتقابلون مع المسيحيين ، وبذلك أصبحت هذه المدينة سوقاً نافقة للتجارة بين الشرق والغرب .

واعتماد المسلمون أن يقيموا الأسواق في أوقات معينة في المدن التجارية الهامة . ومن المدن التي

Heyd : Histoire du Commerce, tome I. pp. 43-4. (١)

Ibid, p. 49. (٢)

(٣) كتاب التبصر بالتجارة للجاحظ ، نشره السيد حسن حنفي عبد الوهاب ، مقدمة ص ٣

Heyd : Histoire du Commerce du Levant, tome I. p.42. (٤)

اشتهرت بأسواقها أصهبان التي يحدثنا ناصري خسرو أنه كان بسوق الصرافين فيها مائتا صراف يجلسون في سوق عرفت بسوق الصرافين (١) ، والبصرة التي يقول فيها ابن الفقيه : «أبعد الناس جمعة في الكسب بصرى وحميرى ، ومن دخل فراغانة القسوى والسوس الأقصى (٢) فلا بد أن يرى فيها بصرياً أو حميرياً» (٣) .

وكانت التجارة تعتمد على إقامة الأسواق ، وتقيم كل طائفة من التجار في قسم من أقسام هذه الأسواق ، ويمكثون إلى ما بعد الظهر ولا يعودون إلى منازلهم إلا في المساء . أما أسواق المدن فكانت تقام في أيام معينة من الأسبوع . وكانت الحوانيت في مصر والشام وفلسطين تمتد على طول الشارع من الجانبين ، وخصصت فنادق للتجار الغرباء ، كانت أشبه بالأسواق الكبيرة . وكانوا يضعون بضائعهم في أسفلها وينامون في أعلاها ، ويغلقون غرفهم بأقفال رومية . ويطلق على هذه الأسواق أو المخازن الفنادق أو القياصر (٤) . وهناك خانات أو مخازن كبرى ، كمدار البطيخ بالبصرة حيث كانت ترد جميع أصناف الفاكهة (٥) . وأما في بلاد المشرق فكانت الحوانيت تكون صفوفاً في مكان واحد .

وكانت العملة المستعملة في الأسواق : العملة الذهبية وهي الدينار ، والفضية وهي الدرهم . وكان الدينار شائعاً في البلاد الغربية للدولة الإسلامية ، وخاصة في البلاد التي كانت تابعة للدولة البيزنطية قبل استيلاء العرب عليها . أما الدرهم فكان استعماله شائعاً في العراق وفارس . إلا أن استعمال الدينار لم يلبث أن أصبح في القرن الرابع الهجري شائعاً في بلاد العراق . ومع ذلك ظلت سائر البلاد الإسلامية الشرقية تتعامل بالدرهم . وكان الدينار يساوي أربعة عشر درهماً في ذلك العصر . ولكن الدينار كان يختلف من حين إلى حين ومن بلد إلى بلد : فتارة نوى الدينار يساوي ١٠ دراهم وتارة ١٣ درهماً وتارة أخرى ١٥ درهماً . ومن وسائل التعامل الصك ، وهو أشبه بالشيك الآن ، والمقايسة . وقد حرم الإسلام التعامل بالربا ، ولكن اليهود والنصارى أباحوه لأنفسهم في بعض الأحيان (٦) .

(١) Nasir-i Khusrau : Safar Nameh p. 253

(٢) يقصد أقصى حدود المملكة الإسلامية شرقاً وغرباً (٣) ابن الفقيه : كتاب البلدان ص ٥١

(٤) من الكلمة اليونانية pandokeion

(٥) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ٢ ص ٣٢٧ .

(٦) انظر آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ٣ ص ٢١٦ - ٢٢١ ، ٢٢٨ - ٢٣٠

س  
ة  
يا

ذه  
ن  
ل  
وا  
ذه  
رة  
في

كان  
لية  
ير  
لاد  
كن  
رة  
'  
في

•  
٣

# الباب التاسع

الثقة — افة والفن

الآ  
البحر  
وآقا  
قيام  
وزن  
في  
والآ  
من  
من  
الذ  
هذه  
الإ  
قيام  
ابن  
الحط  
عمر  
زائ  
التص  
والآ  
قدم  
محال  
كيف  
والذ  
انط

## ١ - الثقافة

ممهيد :

انتشرت الثقافة الإسلامية في هذا العصر انتشاراً يدعو إلى الإعجاب ؛ بفضل الترجمة من اللغات الأجنبية وخاصة من اليونانية والفارسية والهندية ، إلى العربية ، ونضج ملكات المسلمين أنفسهم في البحث والتأليف ، وتشجيع الخلفاء والسلاطين والأمراء ، رجال العلم والأدب ، وكثرة العمران واتساع أفق الفكر الإسلامي بارتحال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها . ولاغرو ، فقد كان من أثر قيام كثير من الدول التي استقلت عن الخلافة العباسية ، أن نشطت الحركة الفكرية ، وراجت الثقافة ، وزخر بلاط هذه الدول بالعلماء والشعراء والأدباء وغيرهم . ومن ثم نرى صدى هذه النهضة المباركة في بلاط كل من السامانيين والغزنويين والبويهيين والحمدانيين في الشرق ، وفي بلاط الطولونيين والإخشيديين والفاطميين في مصر ، وفي بلاط الأمويين في الأندلس . أضف إلى ذلك ظهور كثير من الفرق التي اتخذت الثقافة والعلم وسيلة لتحقيق مآربها السياسية والدينية . وخير مثل لذلك ما نشاهده من الآثار التي خلفها المعتزلة ودعاة الاسماعلية من العلماء والمتصوفين وغيرهم . وكان للجدل والنقاش الذي قام بين هذه الفرق من ناحية ، وبين العلماء من السنيين من ناحية أخرى ، أثر بعيد في هذه النهضة العلمية التي يتميز بها هذا العصر ، وخاصة في القرن الرابع الهجري ، على الرغم مما انتاب العالم الإسلامي بوجه عام من تفكك وانحلال ، وما أصاب الخلافة العباسية من ضعف ووهن . ولكن قيام هذه الدول ساعد على ازدياد الثروة وكثرة العمران ثم على ازهار العلم نتيجة لذلك . يقول ابن خلدون (١) في الفصل الذي تكلم فيه على « أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة » : « إن تعليم العلم من جملة الصنائع ... وإن الصنائع إنما تكثر في الأمصار ، وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة ، لأنه أمر زائد على المعاش . فتمت فضلت (٢) أعمال أهل العمران عن معاشهم ، انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان وهي العلوم والصنائع . ومن تشوف بفطرته إلى العلم بمن نشأ في القرى والأمصار غير المتمدنة ، فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعى ، لفقدان الصنائع في أهل البدو كما قدمناه ، ولا بدله من الرحلة في طلبه إلى الأمصار المستبحرة شأن الصنائع كلها . واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والسكوفة لما كثر عمرانها صدر الإسلام واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار العلم ، وتفننوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون حتى أربوا (٣) على المتقدمين وقاتوا المتأخرين . ولما تناقص عمرانها وابتدع (٤) سكانها ، انطوى ذلك البساط بما عليه جملة ، وفقد العلم بها والتعليم ، وانتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام .

(٢) زادت

(٤) تفرقت

(١) مقدمة ص ٣٧٩ - ٣٨٠

(٣) زادوا

### مراكز الثقافة :

كانت هناك في هذا العصر عدة مراكز للثقافة جذبت إليها رجال الأدب منها :

١ - أصبهان أو الري حيث أقام بوجه عام صاحب إسماعيل بن عباد الذي تقلد الوزارة لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بعد أبي الفتح بن العميد . وكان بلاط بني بويه هناك كعبة يؤمها العلماء ورجال الأدب .

٢ - البلاط الساماني في بخارى التي وصفها الثعالبي (١) في هذه العبارة فقال :

« كانت بخارى في الدولة السامانية مثابة المجد ، وكعبة الملك ، وجمع أفراد الزمان ، ومطلع نجوم ديار الأرض ، وموسم فضلاء الدهر . فحدثني أبو جعفر محمد بن موسى الموسوي قال : اتخذ والدي أبو الحسن دعوة ببخارى في أيام الأمير السعيد ( نصر الثاني ابن أحمد ٣٠١ - ٣٣٠ هـ ) ، جمع فيها أفاضل غرباتها : كآبي الحسن اللحام ، وآبي محمد بن مطران ، وآبي جعفر بن العباس بن الحسن ، وآبي محمد بن أبي الثياب ، وآبي النصر الهرثمي ، وآبي نصر الظريفي ، ورجاء بن الوليد الأصهباني ، وعلى ابن هرون الشيباني ، وآبي إسحق الفارسي ، وآبي القاسم الدينوي ، وآبي علي الزوزني ، ومن يتخرط في سلكهم . فلما استقر بهم مجلس الأنس ، أقبل بعضهم على بعض يتجاوزون أهذاب المذاكرة ، ويتهادون ریحان المحاضرة ، ويفتقون نوافج الأدب (٢) ، ويتساقطون عقود الدر (٣) ، وينفثون في عقد السحر (٤) . فقال لي أبي : يا ابني ! هذا يوم مشهود مشهور ، فاجعله تاريخاً لاجتماع أعلام الفضل وأفراد الوقت ، واذكره بعدي في أعياد الدهر وأعيان العمر ؛ فما أراك ترى على السنين أمثال هؤلاء مجتمعين . فكان الأمر على ما قال ، ولم تكتحل عيني بمثل ذلك المجمع » .

: وكانت مكتبة نوح بن نصر الساماني - كما يقول ابن خلكان - (٥) عديمة المثل ، فيها من كل فن

من الكتب المشهورة بأيدي الناس وغيرها مما لا يوجد في سواها ولا سمع باسمه ، فضلاً عن معرفته » .

٣- بلاط شمس المعالي قابوس بن وشمكير في طبرستان القرية من بحر قزوين؛ وقد وصفه الثعالبي (٦)

في هذه العبارة فقال : « خاتم الملوك وغرة الزمان ، ينبوع العدل والاحسان ، ومن جمع الله له إلى غرة الملك بسطة العلم ، وإلى فضل الحكمة نفاذ الحكم . فأوصافه لا تدرك بالعبارات ولا تدخل تحت العرف والعادات . وأن لي أن أعمل كتاباً في أخباره وسيره ، وذكر خصائصه وآثره التي تفرد بها عن ملوك عصره ، فإني أتوج هذا الكتاب بلمع من ثمار بلاغته التي هي أقل محاسنه وآثره ، وأكتب فضولاً من عالي ثمره محتومة ببعض ما ينسب إليه من شريف نظمه مما يجري مجرى الأمثال من كلامه » .

(١) بئيمة الدهرج ٤ ص ٩٥

(٢) أي يفتقون أوعية الأدب التي تشبه نوافج الميسك (٣) يشبه مايجرى في المجالس من الحديث يمتثور الدر يتساقط من العقود .

(٤) يشبه الكلام الجميل في قوة تأثيره بالعقد التي يعقدها الساحر وينفث فيها من فقه

(٥) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٥٢ - ١٥٣ (٦) بئيمة الدهرج ٤ ص ٥٦ - ٥٧



كان شمس المعالي قابوس بن وشمكير أمير طبرستان من بيت قارين القديم العريق في الشرف ؛ وهو أحد البيوتات السبعة من آل ساسان ببلاد فارس ، ويطلق مؤرخو العرب على أفراد هذه الأسرة « أهل البيوتات » . ويرجع نسبه ، على ما ذكره البيروني<sup>(١)</sup> ، إلى قباذ والد أنوشروان أحد ملوك الساسانيين . ويقول ابن اسفنديار في كتابه « تاريخ طبرستان » إن من يرغب في تقدير عظمته وأخلاقه فليقرأ ما قاله عنه أبو منصور الثعالبي<sup>(٢)</sup> والعيني<sup>(٣)</sup> . وقد جمع الزدادي أقواله في كتاب أسماء « قرائن شمس المعالي وكلام ابلاغه » ، وهي تدل على بلاغة قابوس في اللغة والبلاغة وعلى شجاعته ومهارته ، ومعرفته باللغة وعلم الفلك والنجوم ، حتى إنه كتب في الأسطرلاب رسالة أطراها أبو إسحق الصابئ . وكانت بينه وبين الصاحب بن عباد مراسلات ، كما راسل أبا نصر العيني مؤرخ حياة السلطان محمود الغزنوي<sup>(٤)</sup> . وقد وصفه ابن خلكان<sup>(٥)</sup> فقال إنه كان « من محاسن الدنيا وبهجتها ؛ غير أنه كان على ما خص به من المناقب والرأى والبصر بالعواقب . من السياسة لا يساغ كأسه ولا يؤمن مجال سطوته وبأسه ، يقابل زلة القدم بإراقة الدم ، لا يذكر العفو عند الغضب . فما زال على هذا الخلق ، حتى استوحشت النفوس منه ، وانقلبت القلوب عنه ، فأجمع أعيان عسكره على خلعه ونزع الأيدي عن طاعته ، ولم يزالوا حتى قتل في سنة ثلاث وأربعمائة »<sup>(٦)</sup> .

٤ - بلاط خوارزم في خيوة ، وخاصة بلاط خوارزم شاه مأمون الثاني ابن مأمون الذي آلت بلاده إلى حكم محمود الغزنوي .

٥ - بلاط السلطان محمود الغزنوي في غزنة ؛ وقد تمتع بشهرة واسعة ، فنقل كثيرا من المؤلفات إلى غزنة . وكان من أحسن السلاطين ميلا إلى الأدب ، وعلى الرغم من إساءته لرجاله . وقد أرسل إلى مأمون بن مأمون كتابا مع أحد أشرف دولته ، واسمه حسين بن علي بن ميكائيل ، يقول فيه : قد علمت أن ببلاط خوارزم شاه كثيرين من العلماء الذين ينبغ كل منهم في فنه مثل فلان وفلان ، وعليك أن ترسلهم إلى بلاطي ليكون لهم شرف المثول بين يدي ، وتقوى على الاستفادة من علمهم وحنوهم ؛ وأرجو من أمير خوارزم أن يسدي إلينا هذا الجميل . وعلى الرغم من أن هذا الكتاب أخرج في قالب الود ، انطوى في الوقت نفسه على التهيب والتحذير ، وصيغ في صيغة الأمر كما فهمه مأمون ، الذي لم يرد من أن يبعث في طلب هؤلاء العلماء وينقل إليهم أوامر السلطان الغزنوي في هذه الكلمات : السلطان قوي ، ويملك جيشاً من رجال الهند وخراسان إلى بلاد العراق . ولا أستطيع أن أرد له طلباً أو أخالف له أمراً ، فما قولكم ؟ وقد مال ثلاثة من هؤلاء العلماء إلى هذا الطلب ، إلا أن ابن سينا ومسيحي لم يميلا إلى تحقيق هذه الرغبة وعولوا على الهرب بعلم مأمون . وهلك مسيحي تحت رمال الصحراء على أثر هبوب عاصفة ، ووصل ابن سينا إلى أيورده بعد أن صادف صعاباً جمّة ، ثم

(١) الآثار الباقية ص ٣٩

(٢) بتيمة الدهرج ٤ ص ٥٦ - ٥٧

(٣) ج ٢ ص ١٤ - ١٧ ، ١٧٢ - ١٧٨

(٤) الصدر نفسه ج ٢ ص ١٧ - ٢٦ (٥) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٢٦

(٦) Browne : Lit. Hist. of Persia , vol II. pp. 103-4.

تابع السير إلى طوس ، ثم إلى نيسابور حتى وصل أخيراً إلى جرجان ، ونزل ببلاط شمس المعالي قابوس بن وشمكير (١) .

ولكن في العشرين سنة التي تخللت سني ٣٨٨ هـ (٩٩٧ م) ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) ، مات صاحب ابن عباد سنة ٣٩٨ هـ ، وزالت الدولة السامانية سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٩ م) ، واغتيل شمس المعالي على أيدي الثائرين من أشرف البلاد سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) ، كما قتل مأمون الثاني على أيدي الثوار ، وضم السلطان محمود الغزنوي بلاده إلى أملاكه في سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) واستحوذ على رجال الأدب في بلاد منافسيه .

٦ - بلاط الحمدانيين في الموصل وفي حلب خاصة : فقد كانت حضرة سيف الدولة مقصد الوفود وموسم الأدباء وحلبة الشعراء . ويقال إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر . وكان أديباً شاعراً محبباً لجيد الشعر شديد الاهتزاز لما يمدح به . فلو أدرك ابن الرومي زمانه لما احتاج إلى أن يقول :

ذهب الذين تهرم مداحهم هز الكفاة عوالي المران (٢)

٧ - بلاط الطولونيين والاختشيديين والفاطميين في مصر : اشتهر عصر الطولونيين بمصر بطائفة كبيرة من العلماء والمحدثين والمتصوفة والأدباء والشعراء والمؤرخين . نذكر منهم على سبيل المثال : القاضي بكار بن قتيبة ، وأبا الفيض ذا النون المصري المتصوف ، والربيع بن سليمان تلميذ الإمام الشافعي ، وابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ ، وأول مؤرخي مصر الإسلامية . وبلغ الأدب بمصر في عهد الطولونيين درجة عظيمة من التقدم . فقد روى المقرئ (٣) عن القاضي أبي عمرو عثمان النسائلي ، الذي قال في كتابه « حسن السيرة في اتخاذ الحصن بالجزيرة » ، أنه رأى كتاباً لا يقل حجمه عن اثني عشرة كراسة ، يحوى فهرسة شعراء ميدان ابن طولون . فإذا كانت أسماء الشعراء في اثني عشرة كراسة ، فكيف يكون عددهم ؟ ولم يكون مقدار شعرهم وما يكافون به من الأموال ؟ (٤) وقد عاد للفسطاط رونقها وبهاؤها بعد تخريب مدينة القطائع على أثر زوال الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ ، فنبغ في عهد الإخشيديين كثير من الفقهاء والأدباء والمؤرخين والشعراء . وكان مسجد عمرو وجامع أحمد بن طولون من أهم مراكز الثقافة في عهد الطولونيين والإخشيديين . وبذت القاهرة الفسطاط والقطائع في عهد الفاطميين ، وأصبحت مساجد عمرو وابن طولون والأزهر والحاكم مراكز هامة للثقافة ، ولا سيما بعد أن حول يعقوب بن كلس الأزهر في سنة ٣٧٨ هـ إلى جامعة

(١) Browne : Lit. Hist. of Persia, Vol. II. pp. 96-70

(٢) المران الرماح والسكامة جمع كمي ، وهو البطل اللابس درعه ، وعالية الرمح ما يركب فيه السنان ، وهي ضد سافنته ، والجمع العوالي .

يقول : ذهب السكرام الذين كان شعر الشعراء يطربهم فيمتزون له كما يهز البطل عالية الرمح حين يختبره .

أى من الأريحية النعالي : بنيمة الدهرج ٢ ص ١١ (٣) ج ١ ص ٣٢٦

(٤) حسن إبراهيم حسن : المعجم في التاريخ المصري ص ١٥٢

تدرس فيها العلوم والآداب بعد أن كان مقصوراً على إقامة الدعوة الفاطمية .  
وكذلك اتخذ الفاطميون من قصورهم مراكز لنشر الثقافة الشيعية خاصة ، وألحقوا بها مكتبات  
تحتوى على مئات الألوف من المصنفات . فترى في مكتبة القصر الشرقى عدداً من الرفوف مقسماً  
إلى أقسام لكل قسم منها باب . وكانت هذه المكتبة ، على ما رواه المقرئى (١) ، تحتوى على مائتى  
ألف مجلد ، عدا الكتب الأخرى . واشتملت هذه الكتب على مصنفات فى الفقه فى جميع المذاهب  
وفى اللغة العربية ، والحديث والتاريخ والسير ، والفلك والكيمياء ؛ هذا عدا المصاحف ومجموعة  
الضارسات المكتوبة بخط ابن مقلة وابن البواب (ت ٤١٣ هـ) وغيرهما من مشاهير الخطاطين . وروى  
المقرئى (٢) عن صاحب كتاب « الذخائر » أنه كان فى القصر أربعون خزانة ، من جملتها خزانة  
بها ١٨,٠٠٠ مجلد فى العلوم القديمة .

وقد وصف أبو شامة (٣) مكتبة القصر بأنها كانت من عجائب الدنيا فقال : « ويقال إنه لم يكن  
فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التى كانت فى القاهرة فى القصر . ومن عجائبها أنه كان فيها  
ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبرى إلى غير ذلك ؛ ويقال إنها كانت تشتمل على ألف  
(ألف) وستائة ألف كتاب . »

وكان لبعض وزراء الفاطميين ولع شديد بجمع الكتب . فقد اتخذ يعقوب بن كلثوم وزير الخليفة  
العزى فى قصره جماعة ينسخون المصاحف وكتب الحديث والفقه والأدب والطب ، ويعارضون (٤)  
هذه الكتب وينقطنها . ووصف هذا الوزير نفسه كتابه فى العقائد الشيعية المعروف  
بالرسالة الوزيرية (٥)

وأسس الخليفة الحاكم فى سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) « دار الحكمة » على مثال أكاديميات بغداد  
وقرطبة ، وألحق بها مكتبة أطلق عليها « دار العلم » ، حوت ما لم يجمع مثله فى مكتبة من المكتبات .  
وأجرى هذا الخليفة ومن جاء بعده من الخلفاء على موظفيها ومنها من الفقهاء الأرزاق السنية ،  
وجعل فيها ما يحتاج إليه المطلعون والنساخ من الحبر والمحابر والأقلام والورق (٦) .

#### ٨ - بلاط الأمويين فى قرطبة :

وكما نافس أمويو الأندلس العباسيين فى العراق والفاطميين فى المغرب ومصر ، نافست قرطبة  
بغداد والقاهرة وبخارى وغزنة وأصبهان وغيرها من أمهات المدن الإسلامية ، فأصبحت حاضرة

(١) خطط ج ١ ص ٤٠٩ (٢) المصدر نفسه

(٣) كتاب الروضتين فى أخبار الدوليين ( طبعة القاهرة سنة ١٢٨٧ هـ ) ج ١ ص ٢٠٠

(٤) أى يقابلون بين نسخ الكتاب الواحد

(٥) ابن منجب الصيرفى : الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٢٢

(٦) المقرئى : خطط ج ١ ص ٤٥٨ ، ج ٢ ص ٣٤٢ . ذكر السيوطى (تاريخ الخلفاء ص ٢٧٣) أن

الوزير أبانصر شاور أردشير ابتاع فى سنة ٣٨٢ هـ داراً بالكركم وعمرها وسماها دار العلم ووقفها على  
العلماء وأودع بها كثيراً من الكتب .

الأندلس سوقاً نافقة للعلم وكعبة لرجال الأدب حتى جذبت مساجدها الأوربيين الذين وفدوا إليها لارتشاف العلم من مناهله والتزود من الثقافة الإسلامية. ومن ثم ظهرت فيها طائفة من العلماء والشعراء والأدباء والفلاسفة والمترجمين والفقهاء وغيرهم. وكانت قرطبة - كما يقول المقرئ (١) - «الغاية، ومركز الولاية، وأم القرى، وقرارة (٢) أولى الفضل والتقى، ووطن أولى العلم والنهى، وقلب الإقليم، وينبوع متفجر العلوم، وقبة الإسلام وحضرة الإمام، ودار صوب العقول (٣) وبستان ثمر الخواطر، وبحر درر القرائح. ومن ألقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر وفرسان النظم والنثر، وبها أنشئت التأليفات الرائقة وصنفت التصنيفات الفائقة. والسبب في تبرز القوم حديثاً وقديماً على من سواهم، أن أققهم القرطبي لم يشتمل إلا على البحث والطلب لأنواع العلم والأدب».

وقد زحرت مكتبة قرطبة بكثير من المصنفات في مختلف العلوم والفنون. فقد جمع الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) من الكتب ما لا يحصى ولا يوصف كثرة ونفاة، حتى قيل إنها كانت أربعاً وألف مجلد، وأنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها... وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي بأدلا فيها ما أمكن من الأموال، حتى ضاقت عنها خزائنه. وكان ذا غرام بها، قد أثر ذلك على لذات الملوك، فاستوسع عليه، ودق نظره، وجمت استفادته. وكان في المعرفة بالرجال والأخبار والأناسب أحوذاً نسيج وحده. وكان ثقة فيما ينقله... وقلما يوجد كتاب من خزائنه، إلا وله فيه قراءة أو نظر في أي فن كان، ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته، ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن (٤).

وعما يدلنا على كثرة هذه الكتب وحسن ترتيبها أن فهارس دواوين الشعر التي حوتها مكتبة المستنصر بلغت ٤٤ كراسة، كل منها في عشرين ورقة. فإذا كان هذا العدد الكبير مقصوراً على الدواوين، فكم يكون عدد فهارس المؤلفات في العلوم والفنون الأخرى (٥)؟

ولم يكن اقتناء الكتب في الأندلس مقصوراً على الأمراء والخلفاء، بل اهتم الأفراد باقتناء الكتب في مكتباتهم الخاصة، واعتبر ذلك العمل مظهرأ من مظاهر المباهاة والافتخار. فقد روى المقرئ (٦) عن أحد علماء الأندلس قال: «أقت مدة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء، إلى أن وقع، وهو بخط فصيح وتفسير مليح، ففرحت به أشد

(١) نفع الطيب ج ١ ص ٢١٨ (٢) مستقر أو مركز

(٣) يعنى الفار التي نصب فيها سحائب العقول ما فيها من علم وفضل

(٤) المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٨٦ - ١٨٧

ذكرنا قول المقرئ هذا بما رأيناه عياناً في مكتبة الملامة المغفور له أحمد تيمور باشا، فطالما ترددنا على خزانة كتبه بدار الكتب المصرية، وكلما رأينا كتاباً نفيساً أو مخطوطاً نادراً منها وجدنا له عليه تعليقا ممتاً وإضافات تصحح ما وقع فيه من أخطاء. هذا مع العناية بنظافة الكتب والمحافظة على جلدائها وورقها بمحافظة نادرة.

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ١٨٦ (٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٢١٨

الفرح ، فجعلت أزيد في ثمنه ، فيرجع إلى المنادى بالزيادة على<sup>(١)</sup> ، إلى أن بلغ فوق حده ؛ فقلت له : يا هذا ! أرنى من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوى . قال : فأراني شخصاً عليه لباس رياسة ، فدنوت منه وقلت له : أعز الله سيدنا الفقيه إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت به الزيادة نيننا فوق حده ، فقال لى : لست بفقيه ، ولا أدري ما فيه ؛ ولكنى أقت خزانة كتب ، واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد ، وبقى فيها موضع يسع هذا الكتاب . فلما رأيت حسن الخط جيد التجليد ، استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه . والحمد لله على ما أنعم به من الرزق ، فهو كثير . قال الحضرمي : فأخرجني وحملي على أن قلت له : نعم ! لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك ؛ يعطى الجوز من لا أسنان له . وأنا الذى أعلم ما فى هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به ، فيكون الرزق عندى قليلا ، وتحول قلة ما يبدى ببنى وبينه .

وقد ذكر ستانلى لينبول<sup>(١)</sup> عند كلامه على جمال مدينة قرطبة فى عهد الأمويين أن صحة أذهان أهلها لا تقل عن قصورها فى الحسن والروعة ، وأن علماءها وأساتذتها جعلوا منها مركزاً هاماً للثقافة الأوربية ، حتى إن الطلبة كانوا يقدون إليها من جميع أنحاء أوروبا ليتلقوا العلم على أساتذتها الأعلام<sup>(٢)</sup> . ولم يكن تشجيع العلم والعلماء مقصوداً على الخلفاء والأمراء وذوى اليسار ، بل كان للوزراء أثر كبير فى ذلك ، فقد كان ابن أبى عامر الذى تولى الحجابة فى عهد هشام المؤيد بن الحكم المستنصر محباً للعلوم والآداب ، مكرماً للشغلتين بها . وكان يعقد فى كل أسبوع مجلساً بقرطبة يجتمع فيه العلماء والآداب للناظرة بحضوره . ووفد على الأندلس فى عهده أبو العلاء صاعد بن الحسن من أهل الموصل ، وكان عالماً باللغة والآداب والأخبار والشعر<sup>(٣)</sup> .

وقد أخذ المسلمون بحظ وافر من العلوم على اختلافها ، وميز علماءهم بين العلوم التى تتصل بالقرآن الكريم ، والعلوم التى أخذها العرب عن غيرهم من الأمم . وأطلقوا على الأولى العلوم الثقيلة أو الشرعية ، وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحكيمية ، ويطلق عليها أحياناً علوم العجم ، أو علوم الأوائل أو العلوم القديمة ، أو العلوم الدخيلة .

وتشمل العلوم الثقيلة : علم التفسير ، وعلم القراءات ، وعلم الحديث ، والفقه ، وعلم الكلام ، والنحو ، واللغة ، والبيان ، والآداب .

وتشمل العلوم العقلية : الفلسفة ، والهندسة ، وعلم النجوم ، والموسيقى ، والطب ، والسحر ، والكيمياء والرياضيات ، والتاريخ ، والجغرافيا<sup>(٤)</sup> .

### (١) العلوم الثقيلة

#### ١ - التفسير :

كان القرآن الكريم ، ولا يزال ، المصدر الأساسى والمنهل الذى يأخذ عنه المسلمون العلوم المختلفة .

(١) The Moors in Spain, p. 144.

(٢) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٩ (٣) المصدر نفسه ص ١٩ ، ٢٤

(٤) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ٢٤١

وقد اتجه المفسرون في تفسير القرآن اتجاهين : يعرف أولها باسم التفسير بالمأثور ، وهو ما أثر عن الرسول وكبار الصحابة . ومن أشهر مفسرى هذا النوع ابن جرير الطبرى وابن عطية (١) الأندلسى والقرطبي ( توفى سنة ٦٧١ ) . ويعرف ثانيهما باسم التفسير بالرأى ، وهو ما كان يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل . ومن أشهر مفسرى هذا النوع المعتزلة والباطنية (٢) . ولم يتخذ التفسير هذه الطريقة المنظمة إلا في العصر العباسى الثانى بوجه خاص ، فقد روى ابن النديم (٣) أن عمر بن بكير كان من أصحاب الفراء صاحب كتاب معانى القرآن المتوفى سنة ٢٠٧ هـ . وأنه كتب إليه يقول : « إن الأمير الحسن ابن سهل ربما سألتني عن الشيء بعد الشيء من القرآن ، فلا يحضرنى فيه جواب ؛ فإن رأيت أن تجمع لى أصولاً أو تجعل فى ذلك كتاباً أرجع إليه ، فعلت . فقال الفراء لأصحابه : اجتمعوا حتى أملى عليكم كتاباً فى القرآن ، وجعل لهم يوماً ؛ فلما حضروا خرج إليهم . وكان فى المسجد رجل يؤذن ويقرأ بالناس فى الصلاة ، فالتفت إليه الفراء فقال له : اقرأ ! وبدأ بقراءة الكتاب ففسرها ، ثم استوفى الكتاب كله ، فقرأ الرجل ، وفسر الفراء ، فقال أبو العباس : لم يعمل أحد قبله مثله ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه (٤) . ولاشك أن الفراء فسر القرآن حسب ترتيب الآيات بهذه الطريقة التى رسمها لنفسه فى أربعة أجزاء ، وتوجد منه نسخة خطية فى مجلد واحد بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ١٠ ش تفسير (يعنى مجموعة الشنقيطى) .

ويمتاز ابن جرير الطبرى فى تفسيره الذى يقع فى ثلاثين مجلداً ، والذى وصفه أبو حامد الأسفرائينى بقوله : لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل كتاب تفسير ابن جرير الطبرى لم يكن ذلك كثيراً ، بتحرى الدقة فى النقل عن الرسول والصحابة والتابعين ، ومعارضته أصحاب الرأى ، لأنهم كثيراً ما يتبعون هواهم . ويقول جولدتسبير (٥) عن كتاب تفسير الطبرى إنه دائرة معارف غنية فى التفسير المأثور . وقد أعطى — كذلك — فى تفسيره لإجماع الأمة سلطاناً كبيراً . وعلى هذا النحو انتظم فى تفسيره ، آية بعد آية ، التفسير بالروايات المروية عن العلماء المعترين وحدهم ، وأيد ذلك بالأسانيد المختلفة بالرجال الذين وصلت إليه المعرفة عن طريقهم . ولم يسلك هذا الطريق على نحو آلى ، وإنما فعل ذلك على مثال ما كان يسير عليه العلماء المسلمون من وقت طويل ، من نقد الرجال جرحاً وتعديلاً . فعند ما يظهر له أن الحديث غير موثوق به ، فإنه يصرح بما يتناسبه ، حتى آراء ابن عباس وقف حيالها موقفاً حراً صريحاً . وقال مرة عن مجاهد الذى كان يجب اتباعه ، إن رأيه يخالف إجماع الحجّة الذين لا يمكن نسبتهم إلى الكذب . وفى مرة أخرى : « وما ذكر هنا عن مجاهد لا معنى له

(١) هو أبو محمد عبد الحق بن عطية (٤٨١ — ٥٤٦ هـ) . (٢) المصدر نفسه ص ٢٤٢

(٣) القورستس ص ٩٩ — ١٠٠

(٤) المصدر نفسه ص ٩٩ — ١٠٠

أنظر أيضاً ابن خلكان ج ٢ ص ٢٢٨

(٥) كتاب المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن — ترجمة الدكتور على حسن عبد القادر ( القاهرة سنة

وفساد رأيه لا شك فيه . . وعلى هذا النحو كان يعالج أيضاً آراء الضحاك وغيره من الرواة عن ابن عباس .

وكذلك ألف الطبري في علم القراءات كتاباً يقع في ثمانية عشر مجلداً ، اشتمل على القراءات المعروفة والشاذة ، وتحرى الدقة في نقدها ؛ فكان يجمع الروايات ويمحصها ويفندها ويخرج منها برأى خاص . وإذا لم تمس هذه القراءات المختلفة المعنى بشكل جوهرى فضل الأخذ بالقراءة الشائعة ، وعارض في شدة القراءات التي لا تعتمد على الأئمة الذين يعتبرون حجة في نظره . وكان ابن جرير يهتم عند التفسير بالمعنى الواضح الذي لا يصح العدول عنه . أما إذا كانت هناك مواضع تستدعي تفسيراً آخر ، رجع إلى أقوال السلف ، أى إلى الصحابة والتابعين وعلماء الأمة . كما اعتمد كثيراً على القصص الإسرائيلية التي كان يستمد منها مراجع يهودية الأصل كالتى أخذت عن أقطاب اليهود من أمثال كعب الأحبار ووهب بن منبه . كما اعتمد أيضاً على بعض قصص النصارى التي استمدتها من ابن إسحاق عن أبي عتاب ، وكان نصرانياً من قبيلة تغلب ثم أسلم . وكان ابن جرير يهتم بالأمور الجدية ويتحاشى الدخول في الجدل الذي لا طائل تحته ، قرأه في تفسير قوله تعالى في سورة يوسف ( آية ٢٠ ) عن بيع إخوة يوسف له بدرهم معدودة يقول : إن الله أخبر أنهم باعوه بدرهم معدودة غير موزونة ، ولم يحد مبلغ ذلك بوزن أو عدد ، ولا وضع عليه دلالة من كتاب ولا خبر من الرسول . . . . . وليس في العلم بمبلغ ذلك فائدة تقع في دين ولا في الجهل به دخول ضربه فيه ، والإيمان بظاهر التنزيل فرض وما عداه فموضوع عنا تكليف عليه (١) .

ويعتبر ابن جرير أول من اهتم في تفسير القرآن بالرجوع إلى الشعر القديم . ولا غرو فقد كانت قدمه راسخة في علوم اللغة والشعر القديم رسوخها في الدين والتاريخ . ويقول جولدتسيهر (٢) : وقد احتوى على جملة كبيرة من المعالجات اللغوية ، فأكتسب الطبري بذلك شهرة عظيمة . وإن ما قدمه في تفسيره للقرآن من الناحية اللغوية ، يعد كنزاً ثميناً في هذه الأبحاث ، كما أنه يعد ما في كتابه من الأبحاث النحوية والاختلافات بين المدرستين النحويتين ( مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ) من أقدم المراجع لهذه المعرفة . وتظهر هذه البحوث اللغوية كأمر غير مقصود لذاته ، وإنما كانت عنده وسيلة للتفسير بالعلم . وهنا لم ينس أن يقصر استعمال هذه الطريقة على هذا المبدأ ، وهو ألا يتناقض ذلك مع ما نعرفه من تفسير مأثور عن أهل العلم من الصحابة والتابعين . فهذه المسائل اللغوية لا تجعله يترك موقفه من المأثور .

وهذا كله كان تفسير الطبري الكبير لب التفسير بالمأثور والقمة العالية التي وصل إليها هذا المذهب في التفسير . .

ولكن الطبري أثار عليه كراهة الحنابلة وبعض السنيين الذين اتهموه بالميل إلى الآراء التي كان السلف يقفون منها موقف الحيطة ، كما اتهموه أيضاً بأن آراءه تتفق مع آراء المعتزلة بعض الاتفاق ،

(١) المصدر نفسه ص ٨٧ - ٩٠

(٢) المصدر نفسه ص ٩٢

مع أنه كان يرد على القدرية آراءهم في القدر ، كما جادل علماء الكلام في كثير من المسائل ، كروية الله رأى العين ، كما كان يخالف التفسير التزيهى عند المعتزلة ، أى أن الله سبحانه منزّه عن الصفات التى يتصف بها البشر ، وتمسك بروايات شيوخ المحدثين القدماء كالبخارى والقشبرى وأبى داود السجستانى . ولكن الحنابلة وبعض العامة حنقوا على ابن جرير ورموه بالرفض والإلحاد ، وحالوا دون دفنه نهاراً ، فدفن ليلاً فى داره . وقد عزا ابن الأثير<sup>(١)</sup> قتل ابن جرير إلى أن الطبرى جمع كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء لم يصنف مثله ، ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل ، فقيل له فى ذلك فقال : لم يكن فقيهاً وإنما كان محدثاً ، فاشتد ذلك على الحنابلة ، وكانوا لا يحضرون كثرة ببغداد ، فشغبوا عليه وقالوا ما أرادوا :

حسدوا الفقى إذ لم يتالوا سعيه

فالناس أعداء له وخصوم

كضرائر الحسناء قلن لوجهها

حسدأ وبفضأ إنه لنديم

... وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره ، فكان حافظاً لكتاب الله ، عارفاً بالقراءات ، بصيراً بالمعاني ، فقيهاً فى أحكام القرآن ، عالماً بالسنن وطرقها ، صحيحها وسقيمها ، ناسخها ومنسوخها ، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم فى الأحكام ، ومسائل الحلال والحرام ، خبيراً بأيام الناس وأخبارهم . وله الكتاب المشهور فى تاريخ الأمم والملوك ، والكتاب الذى فى التفسير لم يصنف مثله ، وله فى أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة وأخبار من أقوال الفقهاء ، وتفرد بمسائل حفظت عنه . . . وقال ابن خزيمة حين طالع كتاب التفسير للطبرى : ما أعلم على أديم الأرض أعلم من أبى جعفر ، ولقد ظلمته الحنابلة . وقال أبو محمد عبد الله بن أحمد الفرغانى بعد أن ذكر تصانيفه : وكان أبو جعفر ممن لا يأخذه فى الله لومة لائم ، ولا يعدل فى علمه وتبينه عن حق يلزمه لربه وللسليين إلى باطل ، لرغبة ولا رهبة ، مع عظيم ما كان يلحقه من الأذى والشناعات من جاهل وحاسد وملحد . وأما أهل الدين والورع فغير منكرين علمه وفضله وزهده ، وتركه الدنيا مع إقبالها عليه ، وقناعته بما كان يرد عليه من قرية خلفها له أبوه بطبرستان يسيرة .

أما النوع الثانى من التفسير ، وهو التفسير بالرأى ، الذى يخالف التفسير بالمأثور باعتماده على العقل أكثر من اعتياده على النقل ، فقد شغف به المعتزلة والباطنية بنوع خاص . فإن المعتزلة لما كانوا يؤمنون بمبدأ التزيه ، أو بالأحرى بمبدأ نبي الصفات عن الله سبحانه وتعالى ، أخذوا يفسرون القرآن وفق مبادئهم ، مخالفين فى ذلك تفاسير مدرسة التفسير بالمأثور . لذلك نرى مفسرى المعتزلة يلجئون إلى التأويل إذا اعترضهم من الآيات القرآنية ما يخالف مبدأ نبي الصفات عندهم . وقد عالج المعتزلة رؤية الله يوم القيامة بطريقة تخالف ما قام به المفسرون بالمأثور . من ذلك تفسيرهم قوله تعالى فى سورة القيامة ( وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة )<sup>(٢)</sup> أن رؤية الله إنما تكون على المجاز لا على الحقيقة .

(١) ج ٨ ص ٤٥ — ٤٦

(٢) آية ٢١ — ٢٢



على حين يقول المفسرون بالمأثور إن الصالحين يرون ربهم عياناً ، مستدلين بقوله تعالى في سورة الأنعام (١) ( لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ) ، قائلين إن الأبصار لا تدركه في الدنيا بدليل قوله تعالى على لسان موسى (رب أرني أنظر إليك ، قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف تراني) (٢) . وإذا كانت رؤية الله في الدنيا مستحيلة فهي في الآخرة أخرى . وإنه عن الخطأ في الفرض أن نظن أن المعتزلة في تفسيرهم القرآن قد فعلوا ذلك من أجل قصدهم الخروج على الحديث ، أو من أجل التقدر الحر في فهم القرآن . . . ولا يسعنا أن ننكر هذه الحقيقة : وهي أنهم لم يظهروا عن تفكير حر ، بل ظهروا عن تقوى وصلاح ، (٣) .

ومن أشهر مفسري المعتزلة أبو بكر الأصم المتوفى سنة ٢٤٠ هـ ، وأبو مسلم محمد بن بحر الأصفهاني المتوفى سنة ٣٢٢ هـ ، ويقع تفسيره في أربعة عشر مجلداً ، وابن جرير الأسدی المتوفى سنة ٣٨٧ هـ ؛ وقد قيل إنه كتب في تفسير البسطة نحو ١٢٠ وجهاً ، وأبو يونس عبد السلام القزويني المتوفى سنة ٤٨٣ هـ ، وقد فسر القرآن تفسيراً مطولاً ، حتى إن تفسير الفاتحة وحدها شغل سبعة مجلدات . ويرجع السبب في عدم ذبوعها بين الناس إلى ضخامتها وما بها من عقائد تخالف عقائد السنيين أحياناً . ومن هؤلاء أيضاً الشريف العلوي المعروف بعلم الهدى المرتضى أبي القاسم علي بن الطاهر المتوفى سنة ٥٤٣٦ هـ . وكانت له آمالي في الشعر والأدب ، شرحها شرحاً لغوياً دقيقاً ، كما فسر الآيات القرآنية التي وردت في هذه الأمالي تفسيراً يتمشى مع تفسير المعتزلة ، واقتبس كثيراً من تفاسير أئمة المعتزلة كالجبائي وغيره (٤) .

وكذلك اتخذ الباطنية التفسير وسيلة لنشر مبادئهم ولجئوا إلى التأويل غير المشروع ، أي الذي لا يوافق العقائد الإسلامية ، فتراهم يفسرون قوله تعالى ( فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ) (٥) بأن قوله تعالى ( فقلت استغفروا ربكم ) أي أسأله أن يطلعكم على أسرار المذهب الباطني ، ومن قوله ( يرسل السماء عليكم مدراراً ) بأن السماء هي الإمام ، والماء المدرار العلم ينصب من الإمام إليهم ، ومعنى ( يمددكم بأموال وبنين ) أن الأموال هي العلم والبنين هم المستجيبون ، ومعنى ( يجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ) أن الجنات هي الدعوة السرية أو الباطنية والأنهار هي العلم الباطني (٦) . وكذلك فسر الباطنية قوله تعالى في سورة الحشر ( كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ) (٧) ، أن الشيطان هو عمر بن الخطاب ، والإنسان هو أبو بكر الصديق . ومعنى الكفر لا تؤمن بإمامة علي بن أبي طالب . وتفسيرهم قوله تعالى ( الشمس والقمر بحسبان ) (٨)

(٢) سورة الأعراف آية ١٤٣

(١) آية ١٠١

(٣) جولدسبير : المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ١١٠ — ١١١

(٤) المصدر نفسه ص ١١٣ — ١١٥ (٥) سورة نوح آية ١٠ — ١٢

(٦) Guyard : Fragments relatifs à la Doctrine des Ismaélis ( Paris, 1874 ), p. 209.

(٧) آية ١٦ (٨) سورة الرحمن آية ٥

أن الشمس والقمر هما الحسن والحسين ، وأن إبليس وآدم المشهوران في القرآن هما أبو بكر وعلي ،  
إذا أمر أبو بكر بالسجود لعلي والطاعة له فأبى واستكبر (١) .

ظل القرآن منبع كثير من العلوم التي اشتغل بها المسلمون في هذا العصر ، فاستعان به علماء النحو على  
استنباط قواعد اللغة العربية ، كما اعتمد الفقهاء في أحكامهم الفقهية على القرآن وألفوا كتباً كثيرة  
أسموها « أحكام القرآن » ، واستعانوا الفرق الإسلامية بكتاب الله واتخذوه أساساً للتدليل على  
صحة ما ذهبوا إليه .

## ٢ - الحديث :

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب أن الحديث من أهم مصادر التشريع الإسلامي ، وأنه يأتي  
في الأهمية بعد القرآن الكريم . وقد ظهر في القرن الثاني للهجرة طائفة من أئمة الحديث من أشهرهم  
في المدينة الإمام مالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩ هـ ، وفي البصرة حماد بن سلمة المتوفى سنة ١٧٦ هـ ،  
وفي الكوفة سفيان الثوري المتوفى سنة ١٦١ هـ ، وفي الشام الأوزاعي المتوفى سنة ١٥٦ هـ ، وفي مصر  
الليث بن سعد المتوفى سنة ١٧٥ هـ ، وفي خراسان ابن المبارك المتوفى سنة ١٨١ هـ . واشتهر في العصر  
العباسي الثاني من كبار أئمة الحديث الإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ ، وقد خالف القائلين  
بخلق القرآن وناله من جراء ذلك كثير من العنت والاضطهاد . ويقول ابن خلكان (٢) : « ودعى إلى  
القول بخلق القرآن فلم يجب ، فضرب وحبس ، وهو مصر على الامتناع . وكان ضربه في العشر الأخير  
من شهر رمضان سنة عشرين ومائتين . » وقد ترك كتابه « المسند » الذي يشتمل على ٤٠٠٠٠ حديث ،  
منها عشرة آلاف مكررة ، وجمع الأحاديث التي تمدح العلويين والامويين ولم يخش في ذلك بأس  
العباسيين . ويتفق مذهبه مع مذهب الإمام مالك بن أنس من حيث اعتماده على الحديث ، حتى اعتبره  
البعض محدثاً أكثر منه إماماً مشرعاً .

وقد أخذ عن ابن حنبل جماعة من فقهاء المسلمين من أمثال محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى  
سنة ٢٥٦ هـ . وفي أيامه أخذت أساليب جمع الحديث وترتيبه تأخذ مكانتها في الدقة وشدة التحري .  
وكان البخاري محدثاً ؛ وقد تفوق على من سبقه من المحدثين في جمع الأحاديث ، فلم يكف بجمع  
أحاديث البلاد التي نشأ فيها ، بل تنقل في البلاد لجمع الحديث ، حتى إن رحلاته استغرقت ستة عشر سنة . كما  
امتاز بقدرته النادرة في التمييز بين الأحاديث الصحيحة الضعيفة (٣) ، وساعده على ذلك قوة حافظته ومعرفة  
بأقدار الرجال . ويعد كتابه الجامع الصحيح والمصدر الأول للأحاديث الصحيحة . وقد جمع البخاري  
٧٢٧٥ حديثاً فيها عدد من الأحاديث المكررة . فإذا حذفنا هذه الأحاديث المكررة منها وغير  
الموصولة للسند ، أصبح عددها أقل من ثلاثة آلاف حديث ، اختارها البخاري ، على ما قيل ، من

(١) الغزالي : فضائح الباطنية ( نوره جولد تسيهر - ليدن سنة ) ص ١٣

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٧

(٣) الحديث الصحيح هو الحديث المسند أي الذي يتصل إسناده من الراوي إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ؛  
ويتطرق في روايته العدل والضببط . أما الحديث الضعيف فهو الذي لا يتوافر فيه هذه الشروط .

ثلاثة ألف حديث ، أى بنسبة ١ - ٢ . وهذا منتهى الدقة العلمية فى الاختيار والنقد لما جمع من الأحاديث الكثيرة فى رحلاته الطويلة . ويقول ابن خلدون (١) : « وجاء محمد بن إسماعيل البخارى إمام المحدثين فى عصره ، فخرّج أحاديث السنة على أبوابها فى مسنده الصحيح ، بجميع الطرق التى للحجازيين والعراقيين والشاميين ، واعتمد منها ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه ، وكرر الأحاديث يسوقها فى كل باب ، بمعنى ذلك الباب الذى تضمنه الحديث ، فكررت لذلك أحاديثه ، حتى يقال إنه اشتمل على تسعة آلاف حديث ومائتين ، منها ثلاثة آلاف متكررة (٢) ، وفردّ الطرق والأسانيد عليها مختلفة فى كل باب » (٣) .

وقد صنف البخارى صحيحه فى ٩٧ كتابا ، كل منها يحوى طائفة من الأحاديث تدور حول معنى واحد أو معانٍ متقاربة مرتبطة بعضها ببعض ، ككتاب الوضوء ، وكتاب الصلاة ، وكتاب بدء الوحى . ووضع له منجهاً وقواعد عرفت « بشروط البخارى » ، كانت نبراساً استضاء به من أتى بعده من علماء الحديث .

ثم جاء بعده تلميذه مسلم بن الحجاج القشيري المتوفى سنة ٢٦١ هـ ، وكان من أهل نيسابور . وامتاز ، كالبخارى ، بكثرة رحلاته فى طلب الحديث ، فرحل إلى العراق والشام ومصر والحجاز ، وتكررت رحلاته إلى بغداد خاصة ، وأفاد من البخارى فى أثناء إقامته فى نيسابور مدة . وعرف مصنف مسلم بصحيح مسلم أو المسند الصحيح ، الذى يقول ابن خلدون (٤) إنه « هذا فيه حدو البخارى فى نقل المجمع عليه وحذف المتكرر منها ، وجمع الطرق والأسانيد ، وبوبه على أبواب الفقه وتراجمه . ومع ذلك فلم يستوعب ( أى البخارى ومسلم ) الصحيح كله . وقد استدرك الناس عليهما فى ذلك » .

وقد وازن الدكتور على حسن عبد القادر (٥) بين صحيحى البخارى ومسلم بقوله : « وإذا ما قارناه ( يعنى صحيح مسلم ) بالبخارى ( أى بصحيح البخارى ) بالنسبة لمحتوياته فى مجموعها ، فإننا نرى بينهما اختلافاً شكلياً . فهو مصنف كالبخارى (٦) ، وقد نظم حسب الأبواب مثله ، ولكن الأبواب عند مسلم لم يعنون لها . وقد كان غرضه كرميله أن يستخدم كتابه فى الفقه ، ولكنه ترك للقارى أن يستنتج وحده ما يراه حقاً فيما يظهر له . وأمر آخر شكلى جاء عند العلماء المتأخرين : فكلاهما

(١) مقدمة ص ٣٨٦

(٢) مثال ذلك حديث : نبى الاسلام على خمس . الخ . فإنه يذكر فى باب الايمان والاسلام ، ويذكر فى كتاب الصلاة ، وفى كتاب الزكاة ، وفى كتاب الصيام ، وفى كتاب الحج ، باعتبار أنه أصل لفرع هذه الفروض على المسلمين

(٣) بمعنى أنه يذكر الحديث فى كل باب بسند مخصوص عن الصحابى الذى رواه ، كأن يستدله إلى ابن هريرة أو إلى ابن عمر ، أو إلى عبد الله بن عباس . . . . .

(٤) مقدمة ص ٣٨٧ (٥) نظرة عامة فى تاريخ الفقه الاسلامى ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

(٦) أى على صنوف وأبواب .

كان يروى الحديث بطرق مختلفة زيادة في الإثبات ؛ ولكن البخارى كان يروىها في أبواب مختلفة بسبب استعمال الحديث لهذه الأبواب . أما مسلم فكان يروى ذلك كله معا . ومن هنا نستطيع أن نستنتج أن مسلماً لم يكن يجعل نصب عينيه ، وفي الدرجة الأولى ، الحياة العملية واستعمالها (١) بل الحديث الخالص فقط ،

وقد صنف بعض أئمة الحديث كتباً أخرى تعد في المرتبة الأولى من بين كتب الحديث ، أطلق عليها اسم الصحاح . وهؤلاء المحدثون هم : أبو داود السجستاني المتوفى سنة ٢٧٥ هـ صاحب السنن ، وأبو عيسى محمد بن عيسى السلى الترمذى المتوفى سنة ٢٧٨ هـ صاحب الجامع ، وأبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى المعروف بابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٥ هـ ، وأبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى المتوفى سنة ٣٠٣ هـ صاحب السنن . ويقول ابن خلدن (٢) : « ثم كتب أبو داود السجستاني ، وأبو عيسى الترمذى ، وأبو عبد الرحمن النسائى فى السنن بأوسع من الصحيح ، وقصدوا ما توفرت فيه شروط العمل ، إما الرتبة العالية فى الأسانيد وهو الصحيح كما هو المعروف ، وإما من الذى دونه من الحسن وغيره ، ليكون ذلك إماماً للسنة والعمل . وهذه هى الأسانيد المشهورة فى الملة ، وهى أمهات كتب الحديث فى السنة ؛ فإنها وإن تعددت ترجع إلى هذه فى الأغلب ، ومعرفة هذه الشروط والاصطلاحات كلها هى علم الحديث ، (٣)

### ٣ - الفقه :

رأينا أن العصر العباسى الأول كان عصر أئمة مذاهب السنة الأربعة ، وهى مذهب أبى حنيفة ، ومذهب مالك ، ومذهب الشافعى ، ومذهب ابن حنبل . وقد ظهر فى العصر العباسى الثانى بعض أعلام الفقهاء الذين كونوا لهم مذاهب فى الفقه ، ولكنها لم يقدر لها الاستقرار والذوبوع أمام هذه المذاهب الأربعة . ومن هؤلاء الفقهاء أبو سليمان داود بن على بن خلف القاشانى ، الذى ينسب إلى قاشان القريبة من أصهان والمتوفى ببغداد سنة ٢٧٠ هـ

كان أبو سليمان داود شافعى المذهب ؛ أخذ فقه الشافعى عن بعض تلاميذه ، وله طريقة خاصة تتلخص بالأخذ بظاهر نص القرآن ، وعدم قبول القياس والتأويل . وفى ذلك يقول ابن النديم (٤) :

(١) يريد بالحياة العملية حاجة الفقيه إلى الحديث فى باب من أبواب الفقه أو العلم ، كما فعل البخارى فى توزيع أحاديثه على الأبواب والكتب .  
(٢) مقدمة ص ٣٨٧ .

(٣) هذه الدراسات الاسلامية تشبه إلى حد كسب قواعد علم التاريخ وفلسفته وتقده التى ظهرت حديثاً بعد ابن خلدون فى الشرق على يد علماء فلسفة التاريخ وتقاده فى أوروبا . وكانت هذه الدراسات الاسلامية الحديثة أساساً لدراسات العربية فى الادب واللغة وغيرها من علوم الرواية . فأول من فتح هذه الميادين هم علماء الحديث ولاريب ، ومنها دخل الباحثون فى علوم الرواية على اختلاف أنواعها فى المشرق والمغرب .  
(٤) كتاب الفهرست ص ٣٠٣ .

« هو أول من استعمل قول الظاهر ، وأخذ بالكتاب والسنة ، وألغى ما سوى ذلك من الرأى والقياس » . ومن ثم سمي أبو سليمان داود الظاهري ، ويعرف أتباعه بالظاهرية أى الذين أنكروا القياس وأبطلوا العمل به . ويقول فيهم ابن خلدون (١) : « والظاهرية جعلوا المدارك كلها منحصرة فى النصوص والإجماع ، وردوا القياس الجلى والعلة المنصوصة إلى النص ، لأن النص على العلة نص على الحكم فى جميع محالها » . وبذلك خرج أبو سليمان داود على الأصول والقواعد الفقهية عند الشافعية أنفسهم ، فتصدى للرد عليه أبو العباس بن سريج المتوفى سنة ٣٠٥ هـ فى كتاب أسماه « الرد على المخالفين من أهل الرأى وأهل الظاهر » . وله مؤلفات كثيرة ذكرها ابن التديم (٢) تدلنا على سعة اطلاعه . وكان ابن حزم الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٦ هـ من أتباع المذهب الظاهري ، ولذلك سمي ابن حزم الظاهري . ومن أئمة المذاهب أحمد بن حنبل ( ١٦٤ - ٢٤١ هـ ) الذى تلمذ للإمام الشافعى مدة سنتين ( ١٩٥ - ١٩٧ هـ ) ، واعتبر كثير من الشافعية أنه واحد منهم . وقال فيه الامام الشافعى حينما خرج من بغداد الى مصر : « خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل » (٣) . وقد لقي ابن حنبل كثيرا من ألوان الشدة والعنت فى عهد المأمون والمعتمد لعدم اتفاهه مع المعتزلة فى القول بخلق القرآن ، فامتحن فى هذه المسألة ، وسجن وعذب ، وبقي كذلك إلى عهد المتوكل الذى ترك القول بخلق القرآن ، وأطلق سراح ابن حنبل الذى توفى ببغداد .

وكان ابن حنبل - كما رأينا - من كبار المحدثين . ولم يختلف العلماء فى كونه محدثا ، وإنما اختلفوا فى كونه فقيها ، حتى إن ابن جرير الطبرى أثار حنق الحنابلة عليه لعدم اعتباره إياه من أئمة الفقه . وفى الحق أن مذهبه فى الفقه مبنى على الحديث ، إلا أنه ينبغى ألا نعتبر مسنده فى الحديث « كأنه مؤلف قائم بذاته لحسب ، بل نعتبره أيضا مؤلفا يضع الإمام أحمد فيه الأساس لمذهبه الفقهى » (٤) . أى أنه كتاب يجمع بين الحديث والفقه ، كموطأ مالك بن أنس . وقد عرف عن ابن حنبل أنه كان يفضل الأحاديث الضعيفة على القياس الذى لا يجيزه إلا عند الضرورة أى عند فقد الحديث . ويختلف عن غيره من أئمة الفقه ، كأبى حنيفة والشافعى ، فى أنه لم يدون فى الفقه كتابا مفصلا ، بل روى عنه عدة مسائل فى الفقه كانت عبارة عن إجابات لأسئلة وجهت إليه . أما ترتيب مذهبه الفقهى وتدوينه وتبويبه ، فذلك من عمل تلاميذه وأتباعه . ويقول ابن خلدون (٥) : « فأما أحمد بن حنبل فقلده قليل ، لبعده مذهبه عن الاجتهاد ، وأصالة فى معاضدة الرواية (٦) وللأخبار (٧) بعضها

(١) مقدمة ص ٣٩٠ .

(٢) كتاب الفهرست ص ٣٠٣ - ٣٠٥ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٧ .

(٤) على حسن عبد القادر : نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى من ٢٧٥ .

(٥) مقدمة ص ٣٩٢ .

(٦) أى تممه فى الاعتداد بالرواية وتقديمها على الرأى .

(٧) أى وفى معاضدة الأخبار أى الأحاديث بعضها بمعنى .

بعض . وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها . وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية الحديث .  
ومن أشهر الحنابلة في هذا العصر أبو القاسم الخرقى المتوفى سنة ٥٣٣ هـ . وقد صنف كتاب المختصر  
في الفقه ، وعبد العزيز بن جعفر المتوفى سنة ٥٣٦ هـ ، صاحب كتاب المنفتح .  
ومن أصحاب المذاهب الفقهية من المجتهدين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ( ٢٢٤ - ٣١٠ هـ ) ،  
وكان من أهل طبرستان . وقد درس فقه الشافعية ، ولذلك لم يختلف مذهبه المعروف بالمذهب  
الجريري عن مذهب الإمام الشافعي . وقال فيه ابن خلكان (١) : « كان من الأئمة المجتهدين ، لم يقلد  
أحدًا .. وكان ثقة في نقله ... وذكره الشيخ أبو إسحق الشيرازي في طبقات الفقهاء في جملة المجتهدين ،  
ورأيت في بعض المجاميع هذه الآيات منسوبة إليه وهي :

إذا أعسرت لم يعلم شقيقي وأستغني فيستغني صديقي  
حياتي حافظ لي ماء وجهي ورفقي في مطالبتي رفيقي  
ولو أتى سمحت ببذل وجهي لكنت إلى الغنى سهل الطريق

وكان الطبري واسع الاطلاع كثير التأليف ، ومن كتبه كتاب الأمم والملوك في التاريخ ،  
وكتابه في التفسير ، وكتاب اختلاف الفقهاء (٢) ، وكتاب تبصير أولي النهى ومعالم الهدى الذي  
لا يزال مخطوطاً ، وكتاب شرح السنة ، وكتاب بشارات المصطفى (٣) ، وكتاب الرد على الحرقوسية  
أى الحنابلة لأن أحمد بن حنبل من بني حرقوس (٤) .

وهناك مذاهب أخرى انقرضت ، كذهب سفيان الثوري (٥) المتوفى سنة ١٦١ هـ . وقد أخذ  
الأوزاعي إمام أهل الشام (٦) ، ومذهب إسحق بن راهوية المتوفى سنة ٢٤٠ هـ ، حتى إننا نرى من  
المذاهب الشائعة في القرن الثالث مذهب الشافعية والمالكية والثورية نسبة إلى سفيان الثوري ،  
والحنفية والداودية . وفي القرن الرابع نرى من المذاهب السائدة مذهب الحنفية والمالكية  
والداودية ، كما نرى مذاهب أخرى أقل انتشاراً كذهب الحنابلة ، والراهوية والأوزاعية . إلا  
أنه على مر الزمن أصبحت السيادة للمذاهب الأربعة ، وهي الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي ،  
ووقف الاجتهاد عند هؤلاء الأربعة . ويقول ابن خلدون (٧) : « ووقف التقليد في الأمصار عند  
هؤلاء الأربعة ، ودرس المقلدون لمن سواهم (٨) ، وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما أكثر من (٩)

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٥٦ .

(٢) نشر الدكتور يوسف شخت بعض أجزاء الكتاب تحت عنوان : « كتاب الجهاد وكتاب الجزية  
وأحكام المحاربين من كتاب اختلاف الفقهاء لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ( ليدن ١٩٣٣ )

(٣) من ١٧ جزءاً بعضها في النجف والبعض الآخر في طهران .

(٤) علي حسن عبد القادر : نظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامي ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١٠ (٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٧٥ .

(٧) مقدمة ص ٣٩١ - ٣٩٢ (٨) أي لم يبق منهم أحد

(٩) سقطت هذه الكلمة من النسخ المطبوعة ، وهي موجودة بالنسخة المخطوطة رقم ١٥ بالمكتبة  
الزكية بدار الكتب المصرية .

تشعب الاصطلاحات في العلوم ، ولما عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد ، ولما خشى من إسناد ذلك إلى غير أهله ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه ، فصرحوا بالعجز والإعواز ، وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء كل من (١) اختص به من المقلدين ، وحظروا أن يتداول تقليدهم لما فيه من التلاعب ، ولم يبق إلا نقل مذاهبهم ، وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم بعد تصحيح الأصول واتصال سندها بالرواية . لا محصول اليوم للفقهاء غير هذا ، ومدعى الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه ، مهجور تقليده . وقد صار أهل الإسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة .

#### ٤ - علم الكلام

ذكر في الجزء الثاني من هذا الكتاب (٢) أن علم الكلام يقصد به الأقوال التي كانت تصاغ على نمط منطقي أو جدلي ، وعلى الأخص في العقائد ، وأن المشتغلين بهذا العلم يسمون « المتكلمين » ؛ كما ذكرنا أن هذا اللفظ كان يطلق أول الأمر على من يشتغلون بالعقائد الدينية ، غير أنه أصبح يطلق على من يخالفون المعتزلة ويتبعون مذهب أهل السنة والجماعة . ويقول دي بور (٣) : « على أن ظهور الكلام في الإسلام كان بدعة من أكبر البدع ؛ وقد شدد في التكبير على هذا العلم أهل الحديث الذين كانوا يرون أن ما جاوز البحث في الأحكام الفقهية العلية ابتداع ، لأن الإيمان عندهم هو الطاعة ، لا كما يذهب إليه المرجئة والمعتزلة من أنه هو العلم . بل إن هؤلاء الأخيرين كانوا يعتبرون النظر العقلي من الواجبات المفروضة على المسلمين . وقد صادف هذا الرأي قبولاً في هذا العهد ، وفي الحديث أن النبي قال : أول ما خلق الله تعالى العلم ، أو العقل . »

ويقول ابن خلدون (٤) إن علم الكلام سمي بذلك « لما فيه من المناظرة على البدع ، وهي كلام صرف ، وليست براجعة إلى عمل ، وإما لأن سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم في إثبات الكلام النفسي . »

إلا أن بعض أهل الحديث كانوا يعيرون على المتكلمين ردهم على أهل البدع ، بحجة أن في هذا الرد ترويحاً لعقائد هؤلاء المبتدعين ، وذلك لانهم — كما يقول الغزالي (٥) — « اعتمدوا على مقدمات تسلم (٦) من خصومهم ، واضطروهم إلى تسليمها ، إما التقليد أو إجماع الأمة ، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار . وكان أكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم . وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلاً . »

(١) كذا في نسخة المقدمة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب رقم ١٥ بالمسكنة الزكية بدار الكتب المصرية بالقاهرة ، وسقطت الواو من جميع النسخ المطبوعة .

(٢) ص ٢٤٨ — ٢٤٩ (٣) تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ترجمة أبي ريدة ، ص ٥١ .

(٤) مقدمة ص ٤٠٦ .

(٥) المنقذ من الضلال ص ٧٩ — ٨٠ .

(٦) يعني يعتقد صحتها .

على أننا نرى أن المتكلمين ، باستخدامهم أسلحة خصومهم ، قد نجحوا في الرد عليهم ، كما نجحوا في دعم علم الكلام وتقويته . ويقول «نيرج» في مقدمة كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى (١) : « فخلت المعتزلة ( وهم من المتكلمين ) من تاريخ الإسلام على المدافعين عن حوزة المسيحية في أول أمرها من تاريخ المسيحية . فكأنه لا ريب في أن أولئك المدافعين هم الذين أسسوا علم اللاهوت ، بمناظراتهم فلاسفة الوثنيين واختلاسهم أسلحتهم من أيديهم عند ذلك ، كذلك أوجدت المعتزلة كلام الإسلام وأستهه . »

وكان للمعتزلة أثر كبير في تطور علم الكلام ، فقد تم على أيديهم القول بخلق القرآن ، ونادوا بنفي الصفات ، مخالفين ذلك جمهور أهل السنة . واستمر الصراع والجدل بين طائفتي المعتزلة وأهل السنة والجماعة ، حتى ظهر أبو الحسن الأشعري ، فتوسط بين الفريقين . وفي ذلك يقول ابن خلدون (٢) : « ثم لما كثرت العلوم والصنائع ، وولع الناس بالتدوين والبحث في سائر الأنحاء ، وألف المتكلمون في التنزيه ، حدثت بدعة المعتزلة في تعميم هذا التنزيه في أي السلوب (٣) ، فقصوا بنفي صفات المعاني من العلم والقدرة والإرادة والحياة زائدة على أحكامها ، لما يلزم على ذلك من تعدد القديم بزعمهم ، وهو مردود بأن الصفات ليست عين الذات ولا غيرها . وقصوا بنفي السمع والبصر لكونهما من عوارض الأجسام ، وهو مردود لعدم اشتراط البنية في مدلول هذا اللفظ . وإنما هو إدراك المسموع أو المبصر . وقصوا بنفي الكلام لشبهه ما في السمع والبصر ، ولم يعقلوا صفة الكلام التي تقوم بالنفس ، فقصوا بأن القرآن مخلوق ، بدعة ، صرح السلف بخلافها ، وعظم ضرر هذه البدعة ، ولقنها بعض الخلفاء عن أئمتهم (٤) ، فحمل الناس عليها ، وغالغهم أئمة السلف ، فاستحل لخلافهم أباشار (٥) كثير منهم ودماؤهم . وكان ذلك سبباً لاتهاض أهل السنة بالأدلة العقلية على هذه العقائد ، دفعا في صدور هذه البدع . وقام بذلك الشيخ أبو الحسن الأشعري إمام المتكلمين ، فتوسط بين الطرق ، ونفى التشبيه ، وأثبت الصفات المعنوية ، وقصر التنزيه على ما قصره عليه السلف ، وشهدت له الأدلة المخصصة لعمومه ، فأثبت الصفات الأربع المعنوية ، والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريق النقل والعقل ، ورد على الميتدعة في ذلك كله ، وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والأصلح والتحسين والتقييح ، وكمثل للعقائد في البعثة ، وأحوال الجنة والنار ، والثواب والعقاب ، وألحق بذلك الكلام في الإمامة ، لما ظهر حينئذ من بدعة الامامية من قولهم إنها من عقائد الايمان ، وأنه يجب على النبي تعيينها والخروج عن العهدة (٦) في ذلك لمن همله ،

(١) ص ٥٨ - ٥٩

انظر كتاب تاريخ الاسلام السياسي للؤايف ج ٣ ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

(٢) مقدمة ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .

(٣) أي في أنواع النفي والسلب بتنزيه الله عن كل ما لا يليق به من الصفات .

(٤) أخذها المأمون والمتصم عن أحمد بن أبي دواد وبشر الريسى وغيرهما من متقدمي المعتزلة .

(٥) جمع بشر وهو الجلد ، يعني استحل قتلهم وجلدهم . (٦) أي تبرئته الذمة ببيان من تكون له الخليفة .



وكذلك على الأمة (١). وقصارى أمر الامامة أنها قضية مصلحة إجماعية ، ولا تلحق بالعقائد ؛  
فلذلك ألحقوها بمسائل هذا الفن ... وكثر أتباع الشيخ أنى الحسن الأشعري ، واقتنى طريقته من  
بعده تلاميذه ، كابن مجاهد (٢) وغيره ، وأخذ عنهم القاضي أبو بكر الباقلاني (٣) ، فتصدر للإمامة في  
طريقتهم ، وهذبا ، ووضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والأناظر ... وجعل هذه  
القواعد تبعا للعقائد الايمانية في وجوب اعتقادها ، لتوقف تلك الأدلة عليها ، وإن بطلان الدليل  
يؤذن ببطلان المدلول . وجملت هذه الطريقة ، وجاءت من أحسن الفنون النظرية والعلوم الدينية . إلا  
أن صور الأدلة تعتبر بها الأقيسة (٤) ، ولم تكن حينئذ ظاهرة في الملة ، ولو ظهر منها بعض الشيء فلم يأخذ  
به المتكلمون ، للملابسة للعلوم الفلسفية المبينة للعقائد الشرعية بالجملة ، فكانت مهجورة عندهم لذلك .  
ومن أشهر متكلمي المعتزلة أبو الهذيل العلاف المتوفى سنة ٥٢٣٥ . وقد اشتهر بالجدل ، وأصبح  
على رأس المعتزلة في أيامه ، وعرف أتباعه بالهذيلية . وقال أحمد بن يحيى بن المرتضى (٥) المتوفى  
سنة ٥٣٢٥ ، وكان من أئمة الزيدية الذين يميلون إلى مذهب المعتزلة : « ما رأيت أفصح من  
أبي الهذيل والجاحظ . وكان أبو الهذيل أحسن مناظرة ؛ شهدته في مجلس وقد استشهد في كلامه  
بثلثمائة بيت . وكان أبو الهذيل وحسن الجدل قوى الحجة ، كثير الاستعمال للدلالة والالزامات (٦) .  
ولأبي الهذيل كتاب يعرف بميلاس . وكان ميلاس رجلا مجوسيا فأسلم . وكان سبب إسلامه أنه  
جمع بين أبي الهذيل المذكور وجماعة من الثنوية ، فقطعهم (٧) أبو الهذيل ، فأسلم ميلاس عند  
ذلك » (٨) . وقد بلغ من قوة جدله الذي شغل كل حياته ، وخاصة مع الزنادقة والمجوس والثنوية ،

(١) يريد أنه من الواجب على الأمة تعيين الامام أو الخليفة إن لم يعينه سلفه .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن يعقوب بن مجاهد ، الطائي البصري ثم البغدادي ، أحد شيوخ  
المالكية ، وصاحب أبي الحسن الأشعري ، وناصر مذهب أهل السنة . غلب عليه علما الأصول والكلام ، وكان  
حسن الدين جميل الطريقة ، وعنه أخذ القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المالكي المتوفى سنة ٤٠٣ هـ علم  
الكلام ، وهو الذي راوده الباقلاني على الخروج الى شيراز لمناظرة المعتزلة بمحضرة فناخسرو ، كما أفاده المقرئ  
في أزهار الرياض .

وهو غير أبي بكر بن مجاهد شيخ القراء ، لأن هذا متقدم الوفاة ، وليس معاصرا للباقلاني (راجع ابن مجاهد  
للتكلم على طريقة الأشعري في تاريخ بغداد للخطيب ، الترجمة ٢٦١ ، وفي الديباج المذهب في علماء المذهب  
لابن فرحون اليمري المالكي ( انظر هامش المقرئ : أزهار الرياض في أخبار عياض ج ٣ ص ٨٥ ، ٨٦  
طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، بإشراف الأستاذ مصطفى السقا وآخرين ) :

(٣) ذكر ابن خلسكان ( وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٨١ ) أنه كان على مذهب الأشعري ، وأنه صنف  
كتابا كثيرة في علم السلام ، وكان « أوحده زمانه » وانتهت اليه الرياسة في مذهبه . . . وكان كثيرا يطول  
في المناظرة مشهورا بذلك عند الجماعة » . وتوفى في شهر ذي القعدة سنة ٤٠٣ هـ .

(٤) يريد أن الأدلة تتوقف صحتها ونقدها على الأقيسة المنطقية ، ولم تكن هذه الصناعة المنطقية ناشية في  
أهل الملة الاسلامية لتلك العهد ، وما وجد منها كان مجفوا من علماء الدين لاتصاله بعلوم الفلسفة .

(٥) كتاب النية والأمل ص ٢٦ .

(٦) يريد أنه يكثر من الاستنباط واستعمال القياس الذي يؤدي إل نتائج ملزمة للخصم .

(٧) أى أبطل حججهم وأسكنهم . (٨) ابن خلسكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٨٠

أن أسلم على يديه ثلاثة آلاف رجل . وهو - كما يقول دي بور (١) - أول المفكرين الذين فسحوا للفلسفة المجال لتؤثر في مذاهيم الكلامية .

ويعتبر أبو إسحاق إبراهيم بن سيار ، المعروف بالنظام والمتوفى سنة ٢٣١ هـ ، من تلاميذ أبي الهذيل العلاف ، وأستاذ أبي عمرو بن بحر الجاحظ ، المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ، والذي تنسب إليه فرقة الجاحظية من المعتزلة (٢) . وقد نسب إليه في علم الكلام كتب منها : الاعتزال وفضله على الفضيلة ، والاستطاعة وخلق الأفعال ، وخلق القرآن ، وفضيلة المعتزلة . وقد رمى الجاحظ من تأليفه إلى الشناء على المعتزلة من ناحية ، والرد على مخالفيهم ، وخاصة الرافضة ، والطعن فيهم من ناحية أخرى . ويظهر أن هذا الكتاب أثار حنق الرافضة ، فردوا عليه ردوداً عنيفة . ويعتبر كتاب فضيحة المعتزلة لأحمد بن يحيى الراوندى ، وكان معتزلياً ثم أصبح رافضياً ، خير مثل لهذا . كما يعد كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى متما لكتاب فضيلة المعتزلة للجاحظ (٣) . كما تناول في كتابه البخلاء أخباراً تتصل بالمتكلمين والمعتزلة ، وأخذ في كتابه الحيوان كثيراً من آراء أرسطاطاليس في كتابه الحيوان (٤) .

وقد أثرت الفلسفة اليونانية في ثقافة الجاحظ ، حتى عد من كبار أحرار الرأى . وعارضه السنيون في كثير من آرائه . وما يرمى به قوله : « إن الله لا يدخل النار أحداً ، وإنما النار تجذب أهلها إلى نفسها بطبعها ، ثم تمسكهم في نفسها على الخلود » . وقد رد عليه السنيون بقولهم إنه لو كان هذا الرأى صحيحاً لألزم الجاحظ « أن يقول في الجنة إنها تجذب أهلها إلى نفسها بطبعها ، وإن الله لا يدخل أحدا الجنة . فإن ذل بذلك قطع الرغبة إلى الله في الثواب وأبطل فائدة الدعاء ، وإن قال إن الله تعالى هو يدخل أهل الجنة الجنة ، لزمه القول بأن يدخل النار أهلها » (٥) .

ومن كبار متكلمي المعتزلة أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط الذى تنسب اليه طائفة الخياطية . وقد عاش في النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، ومات فى أوائل القرن الرابع . واشتهر برده على ابن الراوندى فى كتاب أسماء الانتصار والرد على ابن الرواندى الملحد (٦) . وقال نيرج فى مقدمة هذا الكتاب (٧) عن الخياط إنه كان « فى غاية الشهرة ، بعله باختلاف المتكلمين ومذاهيمهم وآرائهم وتراجهم . ويشهد بشهرته بذلك كثرة ذكره فى كتاب ابن المرتضى ، ومروج الذهب للسعودى ، وغيرهما من الكتب عند الرواية عن المعتزلة أو الحكاية عن رجالها ، ويشهد بوسع علمه كتاب الانتصار من أوله إلى آخره ، فإنه يفيدنا علماً مفصلاً بدقائق

(١) تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٥٧ (٢) انظر هذا الكتاب ج ٢ ص ٢٥٠ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٨٨ - ٣٨٩ .

(٤) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٦٢ .

(٥) نيرج : الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد ، مقدمة ص ٢٣ - ٢٤ .

(٦) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٦١ .

(٧) نشرة نيرج ( القاهرة سنة ١٩١٤ ) (٧) ص ١٩ - ٢٠ .

كلام المعتزلة وجلالاته ، ويشتمل على أخبار عن المتقدمين منها وآرائهم ومناقشاتهم لا نجد مثلها في كتاب آخر مما انتهى إلينا . ولقد اقتبس من قبس الخياط المتأخرون الموافق منهم والمخالف ؛ فقد ألف مثلا تليذه أبو القاسم الكعبي البلخي كتابا في رجال المعتزلة ومقالاتها استفاد ابن المرتضى منه في كل صفحة من كتابه ، ولو استمتجنا أن التليذ نقل قصص أستاذه لما أخطأنا . واقتبس من الخياط أيضا البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق .

ومن أشهر متكلمي هذا العصر أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي المعتزلي المتوفى سنة ٥٣٠ هـ (١) ، وتنسب إليه فرقة الجبائية . وكانت له مواقف رائعة مع أبي الحسن الأشعري ( ٢٦٠ — ٥٢٢ هـ ) ، فقد قال الجبائي يوما للأشعري : « ما معنى الطاعة عندك ؟ فقال موافقة الأمر ، وسأله عن قوله فيها فقال الجبائي : حقيقة الطاعة عندى موافقة الإرادة ، وكل من فعل مراد غيره فقد أطاعه ، فقال شيخنا أبو الحسن رحمه الله : يلزمك على هذا الأصل أن يكون الله تعالى مطيعاً لعبده إذا فعل مراده فألزم ذلك ، فقال له شيخنا رحمه الله : خالفت إجماع المسلمين وكفرت برب العالمين (٢) .

ولما مات الجبائي خلفه ابنه أبو هاشم في زعامة الجبائية ، وعرفوا باسم البهشية نسبة إليه . وكان تأثير أبي هاشم هذا بين المعتزلة عظيماً ، حتى إن مبادئه استمرت إلى القرن الخامس الهجري ، كما يتضح من عبارة البغدادي (٣) المتوفى سنة ٤٢٩ هـ : « وأكثر معتزلة عصرنا على مذهبه . »

#### ٥ — علم اللغة :

تطور علم اللغة في العصر العباسي الثاني تطوراً ملحوظاً بارتقاء النحو وتنظيم المعاجم . فقد رأينا كيف وضع أبو الأسود الدؤلي أساس علم النحو في البصرة التي تعتبر مدرستها أقدم من مدرسة الكوفة بنحو مائة سنة ، وكيف نبغ في هاتين المدرستين كثير من العلماء المبرزين : كأبي عمرو بن العلاء ، والخليل بن أحمد الذي وضع علم العروض ، ووضع أول معجم عربي مرتب على الحروف الهجائية وهو « كتاب العين » ، وسيبويه صاحب الكتاب في النحو الذي يجمع القواعد التي انتهت إليها مدرسة البصرة منذ عهد أبي الأسود الدؤلي ، إلى أن جاء الخليل بن أحمد ، فنظّمها وشرحها وعلّمها وأملاها على تلاميذه ، وكان منهم سيبويه (٤) .

ومن أئمة مدرسة الكوفة على بن حمزة الكسائي المتوفى سنة ٢٨٣ هـ ، وهو أحد القراء السبعة ، ومن أئمة الكوفيين في النحو ، ومن مؤدبي الأمين والمأمون . وقد أخذ عنه أبو زكريا يحيى بن زياد المعروف بالقراء ، « وكان — كما يقول ابن خلكان (٥) — أبرع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب » ، وهو أحد رؤساء المذهب الكوفي بعد أستاذه الكسائي . وقال فيه تليذه ثعلب :

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٨٠ .

(٢) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٦٧ — ١٦٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٦٩ .

(٤) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٣٠ .

(٥) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٢٨ .

ولولا الفراء لما كانت عربية لأنه خلصها وضبطها . وقد ألف كثيراً من الكتب منها كتاب معاني القرآن ، وهو تفسير لغوى شرح فيه دقائق النحو واللغة ، ويقع في نحو ألف ورقة ، وهو أشهر كتبه (١) .

ومن مشهورى الكوفيين المفضل الضبي صاحب كتاب المفضليات في الشعر . ومن مشهورى النحويين أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادى المصرى النحوى المعروف بالنحاس . وقد رحل إلى بغداد ، وأخذ عن أبي الحسن على بن سليمان الأخفش الأصغر وأبي إسحق الزجاج ، وابن الأبارى ونفطويه وغيرهم من أعيان أدباء العراق ، وتوفى بمصر في شهر ذى الحجة سنة ٣٣٨ هـ (وقيل سنة ٣٣٧ هـ) . ومن مؤلفاته « تفسير أبيات سيبويه » ، و « كتاب التفاحة في النحو » ، و « كتاب الوقت والابتداء » ، و « شرح المعلقات السبع » ، و « طبقات الشعراء » (٢) .

ومن النحويين أيضاً أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن إسماعيل النجيرى (٣٤٥ - ٤٢٣ هـ) اللغوى البصرى تزيل مصر . وقد نشأ في بيت اشتهر بالعلم والأدب ، وكان يوسف أمثل أهل بيته . ومن طريقه روى في مصر أكثر الكتب القديمة في اللغة والشعر وأيام العرب ، فإنه كان راوية لها عارفاً بها . وتوفى النجيرى في شهر المحرم سنة ٤٢٣ هـ (٣) .

ويعتبر القرن الثالث الهجرى عصر انتقال في اللغة . فقد ظفرت نهاية القرن الثانى بأول محاولة في ضبط اللغة وعمل المعاجم ، حين وضع الخليل بن أحمد منهج كتاب العين لتليذه الليث بن المظفر . ولا ريب أن كتاب العين ، مع علو قدر الخليل ، لا يمثل عليه وضبطه للغة ، إذ وقع فيه كثير من الأخطاء التى أخذها عليه العلماء . ولذلك هب لغويو القرن الثالث لاستكمال ما فات كتاب العين من نقص واستدراك ما فيه من تصحيف وتحريف ، فوضعوا المعاجم الواسعة ، لكنها كانت على طريقة الخليل نفسها من حيث ترتيب حروف المعجم على المخارج الصوتية والابتداء بحروف الحلق ، وأولها حرف العين . وعلى هذا النظام أنشأ ابن دريد (٢٢٣ - ٣٢١ هـ) كتابه « جوهرة اللغة » (٤) . وهو ، وإن خلا من كثير من العيوب التى وجدت في كتاب العين ، لم يخل من مأخذ . فقد انتقد عليه العلماء بعض الألفاظ التى لم يروها الثقات وانفرد بها ابن دريد ، كما أن طريقته في شرح الكلمة وتقليب صيغها طريقة فيها كثير من الصعوبة وخاصة على الباحث الذى يؤثر السرعة في الوصول إلى غايته من كتب اللغة .

وكما كان ابن دريد إماماً في اللغة ، كان أديباً بارعاً ينشئ النظم وينشئ النثر . ولعله أول من

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٢٨ - ٢٢٩ . ومن هذا الكتاب نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٠ ش تفسير

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٩ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٥١ .

(٤) ويقع في ثلاثة مجلدات ضخام ، غير مجلد للفهرس . وقد طبع بمبدر أباد سنة ١٣٤٥ هـ ، ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية .

اخترع فن المقامات في اللغة العربية ، فقد تنبه نقاد العرب ومؤرخوهم إلى الأحاديث الكثيرة التي رواها عنه تلميذه أبو علي القالي في كتابه «الأمالي» (١) من أحاديث موضوعة شبيهة بالمقامات والقصص القصيرة ظهرت فيها براعة ابن دريد الأدبية واللغوية . وقد نبه على هذا الحصري في كتاب «زهر الآداب» ، وقال إنه مخترع هذا الفن من القصص ، وبه سبق أصحاب المقامات فيما أنشؤا من فهم بعده . ولابن دريد شعر كثير كان يذهب فيه كل مذهب من الرقة والجزالة ومن الجد والهزل . وهو مشهور في كتب الطبقات والتراجم . ومن مصنفاته كتاب «الاشتقاق في الأسماء» ، وكتاب «زوار العرب» (٢) .

ومن ألف في اللغة معجماً واسعاً على طريقة الخليل أبو علي القالي البغدادي (٢٢٨-٣٥٦ هـ) صاحب كتاب «البارع في اللغة» ، وكتاب «الأمالي» في اللغة والآداب (٣) . وهو الذي غرس علوم اللغة وآدابها في الأندلس ، وعليه تخرجت الطبقة الأولى من اللغويين وكبار الأدباء في تلك البلاد . ومن هؤلاء صاحب إسماعيل بن عباد (٣٢٦-٣٨٥ هـ) ، وقد ألف في اللغة كتاب «المحيط» ، ويقع في سبع مجلدات ، وابن فارس صاحب كتاب «المجمل» المتوفى سنة ٣٩٥ هـ ، وأبو منصور الأزهرى (٢٨٢-٣٧٠ هـ) صاحب كتاب «التهذيب» . وأشهر علماء اللغة في القرن الرابع على الإطلاق إسماعيل بن حماد الجوهري المتوفى سنة ٥٣٩٢ هـ وصاحب كتاب «الصحاح في اللغة» . وقد اقتصر فيه على الألفاظ الصحيحة اقتداءً بالبخاري الذي اقتصر على الأحاديث النبوية الصحيحة . ولهذا المعجم مزية أخرى ، فإنه ترك الطريقة التي سار عليها سلفه من اللغويين منذ عصر الخليل ، من حيث ترتيب الحروف الهجائية على المخارج الصوتية ، إلى ترتيبها على طريقة أخرى لا تزال مستعملة في التعليم وفي أكثر الكتب اللغوية التي جاءت بعده ، مثل «لسان العرب» ، و«القاموس المحيط» ، وهي أن ترتب المادة اللغوية على الحروف اب ت ث ج الخ ، مع ملاحظة أن يكون الحرف الأخير في الكلمة هو الباب ، وعلى أن يكون الحرف الأول منها هو الفصل . وهذه الطريقة التي ابتكرها الجوهري في ترتيب المعاجم تسهل على الكتاب والشعراء العثور على الألفاظ التي يريدونها في الأسجاع ، والشاعر في القوافي . وقد ذاعت هذه الطريقة بعده في تأليف المعاجم في المشرق والمغرب . ولم يقتصر علماء اللغة على تأليف المعاجم ، وإنما ألفوا في الاشتقاق والتصريف وأصول النحو واللغة كتباً كثيرة . وعلى رأس هؤلاء أبو علي الفارسي المتوفى سنة ٣٧٧ هـ ، وتلميذه ابن جنى المتوفى سنة ٥٣٩٢ هـ صاحب كتاب «الخصائص» الذي يعد أعظم الكتب في أصول اللغة والنحو . ويقول الثعالبي (٤) في ابن جنى : «هو القطب في لسان العرب ، وإليه انتهت الرياسة والآداب» .

(١) طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦ ويقع في ثلاثة مجلدات تشمل الطرف والنوادر والتنبيه .

(٢) ابن خلسكان ج ١ ص ٤٩٧-٤٩٨ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٩٥-٤٩٦ .

(٤) بقيمة الدرر ج ١ ص ٨٩ .

ومن علماء اللغة من شرح الدواوين الأدبية ، كأبي زكريا يحيى بن علي بن محمد الحسن بن بسطام الشيباني التبريزي المعروف بالخطيب ( ٤٢١ - ٥٠٢ هـ ) . وكان أحد أئمة اللغة في عصره ، وقد تلمذ لأبي العلاء المعري وقال ابن خلكان (١) ، وصنف في الأدب كتباً كثيرة مفيدة ، منها شرح الحماسة ، وكتاب شرح ديوان المتنبي ، وكتاب شرح سقط الزند وهو ديوان أبي العلاء المعري ، وشرح المعلقات السبع ، وشرح المفضليات . وله تهذيب غريب الحديث ، وتهذيب إصلاح المنطق ، وله في النحو مقدمات حسنة ، والمقصود منها أسرار الصنعة وهي عريضة الوجود ، وله كتاب الكافي في علم العروض والقوافي ، وكتاب في إعراب القرآن سماه الملخص ، رأيت في أربع مجلدات ، وشروحه لكتاب الحماسة ثلاثة : أكبر وأوسط وأصغر ، وله غير ذلك من التأليف . . . ودرس الأدب بالمدرسة النظامية ببغداد .

ولا بأس من أن نورد هنا ما ذكره ابن خلدون في مقدمته (٢) عن تطور تأليف المعاجم العربية ، قال : « إن كثيراً من العلماء اتخذوا كتاب العين أساساً لمعاجمهم ، وجاء أبو بكر الزبيدي ، وكتب لهشام المؤيد بالأندلس في المائة الرابعة ، فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب ، وحذف منه المهمل كله وكثيراً من شواهد المستعمل ، ولخصه للحفاظ أحسن تلخيص . وألف الجوهري من المشاركة كتاب الصحاح على الترتيب المتعارف لحروف المعجم ، فجعل البداءة منها بالهمزة ، وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة لاضطرار الناس في الأكثر إلى أواخر الكلم ، وحصر اللغة إقتداءً بحصر الخليل . ثم ألف فيها من الأندلسيين ابن سيده من أهل دانية في دولة علي بن مجاهد ، كتاب المحكم على ذلك المنحى من الاستيعاب ، وعلى نحو ترتيب كتاب العين ، وزاد فيه التعرض لاشتقاقات الكلم وتصاريفها ، فجاء من أحسن الدواوين ، ولخصه محمد بن أبي الحسين صاحب المستنصر من ملوك الدولة الحفصية بتونس ، وقلب ترتيبه إلى ترتيب كتاب الصحاح في اعتبار أواخر الكلم وبناء التراجم عليها ، فكانا توأمي رحم وسليلي أبوه . هذه هي أصول كتب اللغة فيما علمناه . »

٦ - الأوب :

### (١) النظـم

نمبر :

كانت نزعة الأمويين في الشعر ، كما رأينا ، جاهلية لا تميل إلى الفلسفة . وقد ظهر في العصر العباسي كثير من الشعراء ، نهجوا بالشعر مناهج جديدة في المعاني والموضوعات والأساليب . ومن أشهرهم بشار بن برد ، وأبو نواس الذي أنحى باللائمة على كل قديم ، وحذا حذوه في هذا العصر ابن قتيبة ( ٢١٣ - ٢٧٦ هـ ) في القول بالتجديد ، ثم حذا حذوه من جاء بعده من الكتاب كالثعالبي وابن خلدون .

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٢٣ . (٢) ص ٥٠٢ - ٥٠٣ .

يقول ابن قتيبة في مقدمة كتابه « الشعر والشعراء » (١) : « ولم أقصد فيما ذكرته من شعر كل شاعر ، مختاراً له سبيل من قلد أو استحسناً باستحسان غيره . ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ؛ بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلا حقّه ، ووفرت عليه حظه . فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه . ومن العوامل التي ساعدت في العصر العباسي على ظهور المناهج الجديدة في الشعر ومعانيه وأخيلته وأساليبه وفي الأدب عامة :

- ١ - اختلاف صور الحياة وقيم الأشياء في الدولة العباسية عن نظائرها في الحياة الجاهلية ، فضائل العرب في الجاهلية لم تعد في نظر الذين عاشوا في العصر العباسي الأول مما يتغنى به .
- ٢ - تطور الحياة المادية التي كانت في أيام الجاهلية تقوم على السداجة ، بسبب تعدد أعمال الناس ، وزيادة تجاربهم في العصر العباسي .
- ٣ - انتشار الشعوبية التي قامت على حط شأن العرب ونقد أشعارهم ومعانيهم .
- ٤ - أثر الثقافة الأجنبية ، والفارسية خاصة ، في الشعر والأدب العباسي . إلا أنه على الرغم من هذا كله ، لا يزال يوجد في اللغة العربية بعض بقايا من قيود الشعر القديم كالقوافي والأوزان (٢) . يقول نيكلسن (٣) : « لم يدخل الفرس على الشعر العباسي مثل تلك الفخامة التي كانت لأساليبه في الشعر القديم ، ولكنهم أدخلوا عليه الخيال الحلي اللطيف ، والتعبير الدقيق ، وعمق الإحساس ، وأمدوه بكثير من الآراء والأفكار . وقد ساعد على هذا التحول في الشعر العربي ، عدا تأثير الثقافة الفارسية واليونانية ، شدة تأثير الإسلام في الحياة العامة ، وظهور روح ديني قوى بين الناس ، بلغ أقصى مداه في شعر أبي العتاهية في الزهد والتهديب . فالشعر في هذا العصر ، تازر برقة العبارة ، والتعمق في النقد ، والتفنن في المعاني باختيار الألفاظ .

٥ - اعتماد الشعراء طوال أيام العباسيين - عدا فترات قليلة - على تشجيع الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة . ويرجع السبب في ذلك إلى أنه لم تكن هناك تجارة كتب منظمة ، كما لم يكن هناك أحد من الناشرين الذين يستطيعون نشر الكتب على نفقتهم . فكان كل اعتماد الشعراء في كسب عيشهم ، على التقرب من الخلفاء والمقربين إليهم من العظام ، بالقصائد الرنانة ابتغاء المنح والعطايا . ولهذا كان الإغراق في المدح من أهم مميزات الشعر في أيام العباسيين . أضف إلى ذلك دخول غير

(١) كتاب طبقات الشعراء لابن سلام (طبعة القاهرة) ص ٢ .

راجع Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs pp. 286-7 ، والجزء الثاني من هذا الكتاب ص ٢٥٢ .

(٢) راجع هذا الكتاب ج ٢ ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, p. 290

(٣)

العرب ، وخاصة الفرس ، في حلبة الشعراء . ولما كان الحكم في الدولة العباسية استبداديا ، كان الإفراط في المدح هو السبيل الوحيد إلى التقرب من الخلفاء ورجال دولتهم (١) .

١ - أمراء الشعر العباسي :

وقد ظهر في هذا العصر كثير من أفذاذ الشعراء من أمثال أبي تمام والبحتري وابن الرومي والمتنبي والمعري والشريف الرضي :

(١) البحتري (٢٠٦ - ٢٨٥ هـ)

ولد أبو عبادة الوليد البحتري القحطاني الطائي بمدينة منبج ونشأ بها ، وزار بعض مدن الشام كالمعرة وحلب وحمص حيث لقي بها أبا تمام وأخذ عنه . ثم قصد العراق وأقام ببغداد وسامرا حيث ذاع صيته ، واتصل بالخليفة المتوكل ووزيره افتتح بن خاقان وأمراء الدولة العباسية في ذلك الوقت ، ومدحهم ونال جوائزهم . وقد حضر قتل المتوكل كما تقدم (٢) . ثم اتصل بحاشية بعض خلفاء هذا الخليفة ومات في عهد المعتضد وقد ناهز الثمانين من عمره .

وقد شهد كبار الشعراء بعلو كعبه في الشعر ، فقد أنشد البحتري أستاذه أبا تمام شعرا . فقال له : « أحسنت ! أنت أمير الشعراء بعدى (٣) » . وقيل للبحتري : « أيما أشعر ، أنت أم أبو تمام ؟ فقال : جيده خير من جيدى ، وردبئى خير رديته » . وكان يقال لشعر البحتري سلاسل الذهب وهو في الطبقة العليا . ويقال إنه قيل لأنى العلاء المعري : أى الثلاثة أشعر : أبو تمام ، أم البحتري ، أم المتنبي ؟ فقال : المتنبي وأبو تمام حكيمان ، وإنما الشاعر البحتري (٤) .

وقيل فى شعر البحتري : « هذا الشعر هو السحر الحلال على الحقيقة والسهل الممتنع ، فله دره . ما أسلس قياده ، وأعذب ألفاظه ، وأحسن سبكه ، وألطف مقاصده ، وليس فيه من الحشوشىء ، بل جميعه نخب » . (٥)

ومن أشهر قصائد البحتري القصيدة التى يمدح فيها الخليفة المتوكل ويصف موكبه فى يوم عيد الفطر :

الله مكن للخليفة جعفر	ملكا يحسنه الخليفة جعفر
فانعم بيوم الفطر عينا إنه	يوم أغر من الزمان مشهر
أظهرت عز الملك فيه بحفيل	لجب يحاط الدين فيه وينصر
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت	عدداً يسير بها العديد الأكثر
ذكروا بطلعتك النبي فهللوا	لما طلعت من الصفوف وكبروا

(١) راجع هذا الكتاب ج ٢ ص ٢٥٤

(٢) انظر ص ٢٧ من هذا الجزء .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٧٦ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) المصدر نفسه ص ١٧٧ .



حتى انتهيت إلى المصلى لابساً نور الهدى يبدو عليك ويظهر  
ومشيت مشية خاشع متواضع لله لا يزهي ولا يتكبر (١)  
ومن روائع قصائد البحترى هذه القصيدة السينية التي وصف فيها إيوان كسرى:  
صنتُ نفسي عما يدأس نفسي وترفعت عن جداد كل جديس (٢)  
حضرت رجلي المهموم فوجهت إلى أبيض المدائن عني (٣)  
أتسلى عن الخطوط وآسى محل من آل ساسان درس  
ذكرتهم الخطوب التوالى ولقد تذكروا الخطوب وتنسى  
وهم خافضون (٤) في ظل عال مشرف يحسر العيون ويحسى (٥)  
حلل لم تكن كأطلال سعدى في قفار من البسابس مُلس (٦)  
نقل الدهر عهدهن عن الجدة حتى غدون أنضاء لبس (٧)  
فكان الحرماز (٨) من عدم الإذا س وإخلاله بتيمة رسم  
لو تراه علمت أن الليالي جعلت فيه مأتما بعد عرس  
وهو ينيك عن عجائب قوم لا يشاب اليسان فيهم بلبس  
فإذا ما رأيت صورة أنطا كية ارتعت بين روم وفرس (٩)  
والمنايا موائل وأنوشر وان يزجي الصفوف تحت الدرفس (١٠)  
عكست حظه الليالي وبات المشتري فيه وهو كوكب نحس  
فهو يبدي تجلداً وعليه كلكل من كلاك الدهر مرسى (١١)  
لم يعبه أن بُز من بسط الديباج واستل من ستور الدمقس (١٢)  
مشمخر تعلو له شرفات رفعت في رؤوس رضوى وقدس (١٣)

- (١) ديوان البحترى ( طبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ ) ص ١٠ — ١١ .  
(٢) وترفعت عن عطية كل لثيم شجاع  
(٣) في هذا البيت وما بعده يقول حلت المهموم بساحي فركت جملي إلى قصر المدائن الأبيض ، لأنسلي عن  
حظي ، وآسى لما درس من قصور آل ساسان .  
(٤) خافضون ، ناعمو العيش .  
(٥) يرد النظر كليلامتعا ، من قوله تعالى في سورة المسالك ( ثم ارجع البصر مرتين ينقلب إليك البصر  
خاشئاً وهو حسير )  
(٦) أي هذه الأضرار العظيمة ليست كأطلال البدو في القفار الخلوية .  
(٧) انضاء لبس أي ثياب بالية . (٨) الحرماز أحد القصور في الإيوان .  
(٩) في هذا وفي السنة الأبواب التالية من القصيدة ( لم تذكر منها إلا البيت التالي وتركنا الأبيات الخمسة  
التي تليه خشية التلويط ) يصف صورة على جدار القصر تمثل معركة دارت في أنطاكية بين كسرى والروم .  
(١٠) الراية الكبيرة . (١١) جاثم عليه خائق له  
(١٢) لم يتعص من قيمته أن الدهر سلبه بسط الديباج وستور الدمقس .  
(١٣) رضوى وقدس جبلان .

ليس يُدري أصنع إنس لجن      سكنوه أم صنع جن لإنس  
عُمرت للسرور دهرأ فصارت      لتعزى رباعهم والتأسي  
ذاك عندى وليست الدار دارى      باقتراب منها ولا الجنس جنسى (١)  
غير نعمى لأهلها عند أهلى      غرسوا من ذكائها خير غرس  
أيدوا ملكنا وشدوا قواه      بكاة تحت السنور حمس (٢)  
وأعانوا على كتائب أرباطٍ      بطعن على النحور ودعس (٣).

(ب) ابن الرومى (٢٢١-٢٨٣ هـ)

ومن أشهر شعراء هذا العصر وأبرعهم فى توليد المعانى وأطولهم نفسا فى القصائد أبو الحسن على بن العباس المعروف بابن الرومى . ولد ببغداد سنة ٢٢١ هـ ، واستقر بها طول حياته ، ولم يتركها إلا قليلا . قيل إنه رحل مرة إلى سامرا ، ولكنه تشوق إلى بغداد وحن إليها فقال :  
بلد صحبت بها الشيبية والصبيا .      ولبست ثوب العيش وهو جديد  
فإذا تمثل فى الضمير رأيت      وعليه أغصان الشباب تميد (٤)  
ولم يكن ابن الرومى عربى الأصل ، بل كانت أمه فارسية وأبوه من أصل رومى ، كما يتبين ذلك من قوله :

كيف أغضى على الدنية والفرس      س خسولى والروم أعمامى

وقد تأثر ابن الرومى بالفلسفة اليونانية حتى إنه ذهب فى شعره ، كما يقول المسعودى (٥) - إلى معانى فلاسفة اليونان .

وقد وصفه ابن خلكان (٦) فقال : هو صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، يغوص على المعانى النادرة ، فيستخرجها من مكانها ، ويبرزها فى أحسن صورة . ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ، ولا يبقى فيه بقية .

وكان لموت زوجته وأبشائه الثلاثة أثر بالغ فى حالته ، حتى قيل إنه لم يتزوج ، وأصبح رثاؤه مثلا يحتذى فى الجودة . من ذلك قصيدته التى رثى فيها ابنه الأوسط ، وتعد من أرق ما فاضت به عواطف أب على ولده ، ومنها :

(١) فهى جديرة أن أبكيها وان كنت غريبا لأمت لأصحابها بنسب .

(٢) إلا أن أفعل ذلك ليد كانت للفرس عند أهلى ( اليمين ) ، فهم ساعدوا ملكنا ( سيف بن ذى يزن ) بأبطال تحت الدروع شجعان .

(٣) وأعانوه على جيوش أرباط قائد الجيش بطعن فى نحور الأعداء .

ديوان البحترى ص ١١٠ ، أنيس المقدسى : أمراء الشعر العربى فى العصر العباسى ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٣٥١ (٥) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٩٥ .

(٦) ج ١ ص ٣٥١ .

بكاؤكا يَشْنِي وإن كان لا يجدي  
ألا قاتل الله المنايا ورميها  
توخى حمام الموت أوسط صيبي  
على حين شمت<sup>(١)</sup> الخير من لمحاته  
طواه الردى عنى فأضحى مزاره  
نكلت<sup>٢</sup> سرورى كله إذ نكته  
أربحانة العينين والأنف والحشا  
الأم لما أبدى عليك من الآسى

وتعتبر قصيدة ابن الرومى التى نظمها على أثر احتلال صاحب الزنج مدينة البصرة وما أحدثه فيها من التخريب والتدمير من أهم المصادر التاريخية عن ثورة الزنج التى شغلت الدولة العباسية نحو خمس عشرة سنة (٢٥٥ - ٢٧٠ هـ) ، وفيها يقول :

هف نفسى عليك أيها البص  
هف نفسى عليك يا قبة الإسه  
هف نفسى عليك يا فرضة البلب  
هف نفسى لجمعك المتفانى  
بيننا أهلها بأحسن حال  
دخلوها كأنهم قطع اللب  
أين ضوضاء ذلك الخلق فيها  
أين فلك فيها ، وفلك إليها  
أين تلك القصور والدور فيها  
بُدلت تلك القصور تلالا  
وخلت من حولها ، فهى قفر ،  
إن قعدتم عن اللعين فأنتم  
بادروه قبل الروية بالعز

وقد عزا ابن خلكان<sup>(٨)</sup> موت ابن الرومى إلى حنق أبى الحسين القاسم بن عبد الله بن سليمان

(١) شمت الخير ارتقبته ونظرت إليه (٢) ديوان ابن الرومى ( نعره كامل كيلانى فى ثلاثة أجزاء .  
القاهرة ١٩٢٤ ) ج ١ ص ٢٩

(٣) إشارة إلى أنها كانت فرصة عظيمة .

(٤) أى مترام بعضه فوق بعض . (٥) جمع عيناء وهى المرأة المدنة العينين (٦) جمع أكمة .

(٧) ديوان ابن الرومى ج ٣ ص ٤٢٢ - ٤٢٧ .

(٨) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٥١ - ٣٥٢

ابن وهب وزير المعتضد ، الذي كان يخاف هجوه ، قدس عليه من سمه في خشكناثة (١) وهو في مجلسه . « فلما أكلها أحس بالسم ، فقام ، فقال له الوزير : إلى أين تذهب ؟ فقال : إلى الموضع الذي بعثني إليه ، فقال له : سلم على والدي ، فقال له : ما طريقى على النار . وخرج من مجلسه ، وأتى منزله ، وأقام أياماً ومات . وكان الطيب يتردد إليه ويعالجه بالأدوية النافعة للسم ، فزعم أنه غلط في بعض العقاقير ، وقال إبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدي المعروف بنفطويه : رأيت ابن الرومي يجود بنفسه ، فقلت له : ما حالك ؟ فأشدد :

غلط الطيب على غلطة مورد عجزت موارده عن الإصدار  
والناس يلحون (٢) الطيب وإنما غلط الطيب إصابة المقدار

(ج) أبو الطيب المتنبى (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ)

ومن تحول شعراء هذا العصر أبو الطيب أحمد بن الحسين الكوفي المعروف بالمتنبى . ولد في محلة كندة بالكوفة سنة ٣٠٣ هـ . ويقال إنه كان في أول أمره سقاء بالكوفة ، ثم رحل إلى الشام . وإلى هذا يشير أحد الشعراء في هجائه له :

أى فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بكرة وعشياً  
عاش حيناً يبيع في الكوفة الما . وحيناً يبيع ماء الحيا (٣)

اتصل المتنبى بسيف الدولة الحمداني في سنة ٣٣٧ هـ ، وأصبح لساناً ناطقاً يشيد بمدحيه ، وكان - كما يقول الثعالبي (٤) - نادرة الفلك وواسطة عقد الدهر في صناعة الشعر . ثم هو شاعر سيف الدولة المنسوب إليه المشهور به ، إذ هو الذي جذب بضعه (٥) ، ورفع من قدره ، ونفق شعره ، وألقى عليه شعاع سعادته ، حتى سار ذكره مسير الشمس والقمر ، وسافر كلامه في البدو والحضر ، وكادت الليالي تنشده والأيام تحفظه ، كما قال وأحسن ما شاء :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً  
فسار به من لا يسير مشمراً وغنى به من لا يغنى مغرداً ،

ومن إحدى قصائد المتنبى يعاتب سيف الدولة :

ما لي أكرم جباً قد برى جسدى وتدعى حب سيف الدولة الأمام؟  
إن كان يجمعنا حب لغرته فليت أنا بقدر الحب نقسم  
يا أعدل الناس إلا في معاملتى فيك الخصام وأنت الخصم والحكم  
إذا نظرت نيوب الليث بارزة فلا تظن أن الليث مبتسم  
فالخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

(١) الخشكناث : نوع من الفطائر الخشوة : يعجن دقيق الخنطة بالشرج ، ثم يبسط ويملا بالسكر والتمر أو الفستق وماء الورد ، ويجمع ويخبز ( عن تذكرة داود بصرف ) .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٧

(٣) لهما يلحاه لاه .

(٤) ينيمة الدهر ج ١ ص ٩٠

(٥) الضبع المضد كلها .

يا من يعز علينا أن نفارقمهم ومجداننا كل شيء بعدكم عدم  
إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا نفارقم فالراحلون هم  
شر البلاد بلاد لا صديق به وشر ما يكسب الانسان ما يصم  
وشر ما قنصته راحتي فنص شهب الزاة سواء فيه والرخم<sup>(١)</sup>  
فارق المتني سيف الدولة مغاضباً ، وقصد مصر ، وامتدح كافورا بأحسن المدائح ، طمعاً في أن  
يوليه بعض أعمال مصر . فخلع كافور عليه وأنزله في داره وعين جماعة لخدمته ، وحمل إليه كثير من  
المال ، ولكنه لم يوليه عملاً من الأعمال ، معتذراً بأنه لا يستطيع أن يولي رجلاً يدعى النبوة ؛  
فانقلب مدح أبي الطيب هجاء ، وأسرف في ذلك كما أسرف في مدحه من قبل<sup>(٢)</sup> .

فن مدائح المتني لكافور ، قوله في أول قصيدة أنشدها إياه في جمادى الآخرة سنة ٣٤٦ هـ<sup>(٣)</sup> :  
قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا  
بجاءت بنا إنسان عين زمانه وخلت يابضاً خلفها وماقيا  
وأنشده في هذه السنة أيضاً<sup>(٤)</sup> :

ترعرع الملك الأستاذ مكتهلا قبل اكتهال أديباً قبل تأديب  
مجرباً فهماً من قبل تجربة مهذباً كرمياً من غير تهذيب  
حتى أصاب من الدنيا نهايتها وهمه في ابتداءات وتشبيب  
يدبر الملك من مصر إلى عدن إلى العراق فأرض الروم فالنوب  
ولا تتجاوزها شمس إذا شرقت إلا ومنه لها إذن بتغريب  
يصرف الأمر فيها طين خاتمه ولو تطلس منه كل مكتوب  
ولما لم ينل أبو الطيب المتني من كافور ما طلبه ، استعد للرحيل ، وأنشد في يوم عرفة سنة  
٣٥٠ هـ قبل مفارقه مصر بيوم واحد قصيدة طويلة هجا كافورا فيها أشد الهجاء ، ومنها<sup>(٥)</sup> :  
عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد ؟  
لا تشتري العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيد  
من علم الأسود المخصى مكرمة أقوامه البيض أم أبأوه الصيد  
قصد المتني بعد ذلك بلاد فارس حيث مدح عضد الدولة بن بويه ، فأجزل جائزته ،  
ومن مدائحه له قوله :

أروح وقد ختمت على فزادى بجبك أن يحل به سواكا

(١) البرقوقي : شرح ديوان المتني ج ٢ ص ٢٥٨ - ٢٦٦ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٧٤ .

(٣) انظر شرح ديوان المتني لعبد الرحمن البرقوقي ج ٢ ص ٥١٤ ج ١ ص ١١٨ - ١١٩ .

(٤) نفس المصدر ج ١ ص ١١٨ - ١١٩ .

(٥) المصدر نفسه ص ٢٧٠ - ٢٧٦ .

ولو أنى استطعت خفضت طرفى فلم أبصر به حتى أراكا  
وكيف الصبر عنك وقد كفانى نذاك المستفيض وما كفاك (١)  
ولما عاد من فارس قصد بغداد ، ثم الكوفة ، تعرضت له عصابة على رأسها فاتك بن أبي الجهل  
الاسدى ، فحاربها المتنبى وأصحابه ، وقد فكر فى الفرار فقال له غلامه : لا يتحدث الناس عنك  
بالفرار وأنت القاتل :

فالحيل والليل والبيداء تعرفنى والحرب والضرب والقرطاس والقلم  
فكر راجعاً حتى قتل (٢) .

### (د) أبو العلاء المعرى (٣٦٣ - ٥٤٤٩ هـ)

ولد أبو العلاء فى سنة ٣٦٣ هـ بعمرة النعمان ، وهى بلدة صغيرة ببلاد الشام على مقربة من حماة  
وشيزر ، تنسب إلى النعمان بن بشير الأنصارى ، وسمى المعرى نسبة إلى هذه المدينة . وقد أصيب  
بالجدري وهو فى السنة الرابعة من عمره ، وذهب الجدرى ببصره (٣) . وعاش معظم حياته فى المعرة  
فى عصر اضطرت فيه الأحوال السياسية : فكانت إمارة حلب صراعاً بين الحمدانيين والفاطميين  
تارة ، وبين قبائل البدو والروم تارة أخرى (٤) . وكان لهذه الأحداث أثر فى شعر أبى العلاء النقدى .  
تعلم أبو العلاء على أبيه ، فأخذ عنه النحو واللغة . وكان من أسرة تولى أكثر أفرادها منصب  
القضاء على المذهب الشافعى فى المعرة وما جاورها من البلاد مثل شيزر . وبقي القضاء فى هذا البيت  
إلى أن دخل الصليبيون المعرة سنة ٤٩٢ هـ ، واستمرت الفتيا على مذهب الإمام الشافعى فى هذا  
البيت أكثر من قرنين . وكان أبو العلاء كثير الترحال فى شبابه ؛ فقد زار المدن الشامية المشهورة  
بالعلم وعلما كأتظاكية واللاذقية وطرابلس ، وأخذ العلم عن علمائها واختلف إلى مكاتبها (٥) ، كما  
زار بغداد مرتين : إحداهما فى سنة ٣٩٨ هـ ، والثانية فى سنة ٣٩٩ هـ ، ولكنه رجع إلى المعرة  
ولزم منزله ، وشرع فى التصنيف ، وسمى نفسه رهين المحيسين للزومه منزله وذهاب عينيه (٦) .

كان أبو العلاء شاعراً مطبوعاً منذ نعومة أظفاره ؛ فقد قرض الشعر وهو فى الحادية عشرة من  
عمره . وكان متضللاً فى فنون الأدب والنحو واللغة ، حتى قيل إنه كان يحفظ كتاب الجهرة لابن دريد ،  
وأخذ عنه الناس وسار إليه الطلبة من الآفاق (٧) ، وكاتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار (٨) .  
وقد عدد ابن خلكان (٩) مصنفات أبى العلاء فقال : « وله التصانيف الكثيرة المشهورة والرسائل  
المأثورة ، وله من النظم لزوم ما لا يلزم » (١٠) ، وهو كبير يقع فى خمسة أجزاء أو ما يقاربها . وله

(١) البرقوقى : شرح ديوان المتنبى ج ٢ ص ٩ - ١٨ ، الثعالبي : بنية الدهر ج ١ ص ١٦٣

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٧ انظر شرح ديوان المتنبى للبرقوقى ج ١ ص ٢٦٢ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣ - ٣٤ (٤) المصدر نفسه .

(٥) المقدسى : أمراء الشعر العربى ص ٣٢٦ - ٣٢٧

(٦) ابن خلكان : ج ١ ص ٣٣ - ٣٤

(٧) المصدر نفسه (٨) المصدر نفسه

(٩) المصدر نفسه (١٠) طبعة القاهرة سنة ١٨٩١

« سقط الزند » (١) أيضاً ، وشرحه بنفسه وسماه « ضوء السقط » . وبلغني أنه كتاباً سماه « الأبيك والغصون » وهو المعروف بالهمزة والردف ( الحرف الذي قبل الهمزة ) يقارب المائة جزء في الأدب أيضاً . ولما فرغ من تصنيف كتاب « اللامع العريزي » في شرح شعر المتنبي وقرئ عليه ، أخذ الجماعة في وصفه ، فقال أبو العلاء : كأنما نظر المتنبي إلى بلحظ الغيب حيث يقول :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت ككلماتي من به صمم  
واختصر ديوان أبي تمام وشرحه وسماه « ذكرى حبيب » ، وديوان البحترى وسماه « عبث الوليد » ، وديوان المتنبي وسماه « معجز أحمد » ، وتكلم على غريب أشعارهم ومعانيها وما أخذهم من غيرهم وما أخذ عليهم ، وتولى الانتصار لهم والتقد في بعض المواضع عليهم والتوجيه في أما كن لخطهم . كانت لأبي العلاء آراء فلسفية عميقة ، فتراه في لزومياته جريئاً مبتكراً ، وله آراؤه في الأخلاق والتقد الاجتماعي . ولم يقنع بإظهار النقايس الاجتماعية والسياسية في جرأة ، بل جعل الحياة الإنسانية كلها موضوعاً لبحثه ، وأخذ يتأمل في أعماق معضلاتها (٢) . يؤيد هذا قوله في لزومياته (٣) :

أفيقوا أفيقوا يا غواة<sup>٤</sup> فإنما ديانا تم مكر من القديما  
أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا وبادوا فانت سنة اللؤماء  
وقوله :

قد حُجِبَ النور والضياء وإنما ديننا رياء  
يا عالم السوء ما غلنا أن مصليك أتقياء (٤)

وكان أبو العلاء يرى رأى الحكماء الذين لا يأكلون اللحم ؛ وبقى خمساً وأربعين سنة لا يأكل اللحم تديناً حتى لا يعذب الحيوانات بذبحها . وكان بيته كعبة العلماء ؛ فقد زاره عبد الوهاب بن نصر المالكي (٥) ، وكان من كبار الشعراء فأضافه عنده ، وشهد له بالتضلع في الدين والشعر ، وأشار إلى ذلك في قصيدته التي أرسلها إلى خازن دار العلم ببيداد حيث يقول :

والمالك ابن نصر زار في سفر بلادنا فحمدنا النأي والسفرا  
إذا تفقه أحياء مالكا جدلا وبنشر الملك الضليل (٦) إن شعرا (٧)

(١) طبعة بولاق سنة ١٢٨٦ هـ في جزئين (٢) نيكلسن : انظر مادة « أبو العلاء » في ترجمة دائرة المعارف الاسلامية (٣) ص ٦٤ . (٤) ص ٥١ ، ٥٢ .

(٥) تولى عبد الوهاب بن نصر القضاء بمدينة بادرايا وباكسابا الواقعتين على مقربة من النهروان ، وفي مدينة إسعرد الواقعة في أرض الجزيرة على مقربة من دجلة أو على مسيرة يوم ونصف يوم جنوبي ميفارقين . وهجر بيداد في آخريات أيامه بعد أن ضاقت به سبل العيش ، وقصد مصر في عهد الخليفة الظاهر الفاطمي سنة ٤٢٢ هـ ، ولم يلبث أن مات في تلك السنة . حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٦) الملك الضليل لقب لامرئ القيس الذي عدّه النبي صلى الله عليه وسلم أشعر الشعراء . وقد روى السكتي ( كتاب فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٧ ) هذه الأبيات الأربعة التي ذكرها في كلامه عن عبد الوهاب ابن نصر المالكي .

(٧) أبو العلاء المعري : ديوان سقط الزند ص ١٣٤ ، حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ١٦٢

وكذلك زاره في معرة النعمان ناصر خسرو الشاعر والرحالة الفارسي الذي أصبح داعياً للإسماعيلية<sup>(١)</sup>. وزاره المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعي الإسماعيلية في فارس وداعى دعاة الفاطميين في مصر وتحدث إليه في مذهبه النبائي. وقد اعتر أبو العلاء بتقدير هؤلاء العلماء له وترددهم عليه فقال :

يزورني الناس : هذا أرضه يمن من البلاد وهذا داره الطيبس<sup>(٢)</sup>  
قال الدكتور طه حسين بك<sup>(٣)</sup> : إن أبا العلاء « هو الفيلسوف الفذ الذي التزم مالا يلزم عند المسلمين ، في سيرته ولفظه ؛ فحرم الحيوان ، والتزم النبات ، وأبى الزواج والنسل ، وأراد اعتزال الناس . ولأبي العلاء ، مع أنه من أصحاب اللذة ، شدة غريبة في رفض الخمر ، فقد حرّمها من جهات ثلاث : من جهة العقل والصحة والدين ، وألف في ذمها كتاباً خاصاً سماه « حاسة الراح » . وأبو العلاء هو الفيلسوف الفذ الذي أنكر النبوات ، واعترف بالإله ، وعرض بالتكليف ، وعارض القرآن ، وهزى بشيء من أحكامه ، ثم بقي مع ذلك سالماً لم يصبه أذى في نفسه حتى مات » .

#### ٢ - شعراء الفرس :

ارتقى الشعر الفارسي وبلغ أقصى مداه في عهد السامانيين ؛ ويعد أبو عبد الله بن محمد الرودجي ( ١٨٥ - ٢٣٦ هـ ) أشهر شعراء النصف الأول من القرن الثالث الهجري ، وغطت شهرته على شهرة من سبقه من الشعراء ، حتى لقب أبا الشعر الفارسي . وأول شعراء الفرس ومن أصاب القدح المعلى والزعامة بين شعراء عصره . وكان البلعمي وزير إسماعيل بن أحمد الساماني ، والمتوفى سنة ٣٣٠ هـ ( ٩٤٠ م ) يقول إن الرودجي لم يكن له نظير بين العرب والفرس ، وقد تقلد أبو علي البلعمي ابن هذا الوزير الوزارة في عهد الأمير منصور بن نوح الساماني ، ونقل كتاب تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري إلى اللغة الفارسية وتوفى سنة ٣٨٦ هـ ( ٩٩٦ م )<sup>(٤)</sup> .

واشتهر في هذا العصر كثير من شعراء الفرس ، نخص بالذكر منهم عمر الخيام صاحب كتاب الرباعيات المشهور ، وابن سينا ( ٣٧٠ - ٤٢٨ هـ ) أحد فلاسفة المسلمين . وقد نظم كثيراً من القصائد بالفارسية ، كما روى له أيضاً قصائد بالعربية . من ذلك قوله في النفس<sup>(٥)</sup> :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع  
محبوبة عن كل مقلة عارف وهي التي سمرت ولم تبرقع  
حتى إذا قرب المسير إلى الخمي ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع

(١) نيكلسون : راجع لفظ « أبو العلاء » في ترجمة دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) قصبة ناحية بين نيسابور وأصفهان ، تسمى قوهستان قابن . وهما بلدان كل واحدة منهما يقال لها طيبس ، إحداهما طيبس العناب ، والأخرى طيبس التمر . انظر لفظ طيبس في معجم البلدات لياقوت .

(٣) ذكرى أبي العلاء من ٤٠٨ - ٤٠٩ .

(٤) Browne : Lit. Hist. of Persia. Vol. I. pp. 355-6, 9, 369

(٥) ابن خلكان ج ١ ص ١٥٣ .



وغدت تغرد فوق ذروة شاهق      والعلم يرفع كل من لم يرفع  
وتعود عالمة بكل خفية      في العالمين فخرها لم يُرقع  
فهبوطها إذ كان ضربة لازم (١)      لتكون سامعة لما لم تسمع  
فلاى شيء أهبطت من شاهق      سام إلى قعر الخضم الأوضع  
إن كان أهبطها الإله لحكمة      طويت عن القطن اللبيب الأروع  
إذ عاقها الشوك الكشيف فصدها      قفص عن الأوج الفسيح الأرفع  
فكأنها برق تألق بالخي      ثم انطوى فكأنه لم يلمع (٢)

ومن شعراء الفرس الذين نظموا القصائد بالعربية ميار الديلمي المتوفى سنة ٥٤٢٨ هـ. وقد تحول عن المجوسية إلى الإسلام في سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ م) على يد الشريف الرضى نقيب العلويين في بغداد (٣). ومن شعراء الغزنويين الفردوسي الذي لا يعد أشهر شعراء عصره وحدهم، بل أشهر شعراء الفرس في كل العصور. ويأتي بعده العنصرى شاعر بلاط محمود الغزنوى والأسدى صديق الفردوسى الذى نشأ معه فى مدينة واحدة، ومخترع ذلك النوع من القصائد الجدلية التى يطلق عليها «المناظرة»، والعسجدى والفروخى السجستانى. ثم يأتى بعد قليل المنوشيرى، والمنصورى، واليمينى الذى قيل إنه ألف تاريخ عهد السلطان محمود الغزنوى بالشعر الفارسى، والشاعرة ربيعة بنت كلب القصدارية. ومن هؤلاء الشعراء أبو سعيد بن أبى الخير الذى اشتهر برباعياته فى التصوف. (٤)

### ٣- شعراء مصر والأندلس:

نبغ فى مصر والأندلس كثير من الشعراء، ولا سيما فى العصر الفاطمى. وقد أكثر رجال الأدب فى قول الشعر لمدح الخلفاء الفاطميين، لما كان يدره هؤلاء من العطايا الجزيلة والخلع والجوائز والأرزاق المخصصة لهم. ولقد دفعت الرغبة فى الحصول على هذه الجوائز والهبات الشعراء من أهل السنة إلى محاكاة الشعراء الشيعيين، فاتصل بعضهم ببلاط الخلفاء الفاطميين. على أن الشعراء السنيين، وإن كانوا فى مدحهم أكثر اعتدالا من الشيعيين، كابن هانى وغيره، فقد انتشر الغلو فى شعرهم للاشادة بمجد الفاطميين، وكثيرا ما دفعهم هذا الغلو إلى الكفر والإلحاد.

#### (١) ابن هانى الأندلسى:

ومن أشهر هؤلاء الشعراء محمد بن هانى الأندلسى، وكان من قبيلة الأزدي. وقد ولد فى إشبيلية ببلاد الأندلس حيث قضى أيام صباه. وكان أبوه هانى من قرية من قرى مدينة المهديّة التى بناها عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين بالمغرب. ولما انتقل هانى إلى الأندلس ولد له ابنه محمد

(١) ضربة لازم أى أمرا حتما. (٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٣ - ١٥٤.

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٤٩ - ١٥٠. Brown: Lit. Hist. of Persia, Vol. II, pp. 113-4.

(٤) Browse: Lit. Hist. of Persia, Vol. II, pp. 115-7.

الذي اتصل فيما بعد بصاحب إشديلية ، واتهم بمذهب الفلاسفة ، فنقم عليه أهل هذه المدينة الذين كانوا ينتمون على كل من يشتغل بالعلوم الفلسفية ، كما كان أهل الأندلس عامة منذ عصر المنصور بن أبي عامر ، فاضطر ابن هانيء إلى الرحيل عنها في سنة ٣٤٧ هـ وهو في السابعة والعشرين من عمره ، فلقى جوهر القائل ومذحه ، ثم قصد جعفر ويحيى ابني علي بن أحمد بن حمدان أمير المسيلة وإقليم الزاب ، ومن أنصار العلم والعلماء ، فبالغا في إكرامه ، فتمى خبره إلى الخليفة المعز فطلبه منهما . فلما وفد عليه ابن هانيء بالغ في الإنعام عليه . ثم توجه المعز إلى مصر ، فتبعه ابن هانيء ورجع إلى المغرب لأخذ عياله والحق بمولاه . وأعد العدة للرحيل وسار في طريقه إلى مصر ، فلما بلغ برقة أضافه أحد أهلها (١) . ويقول ابن خلكان (٢) : « فأقام عنده أياما في مجلس الأانس ، فيقال إنهم عربدوا عليه فقتلوه . . . وكان ذلك في بكرة يوم الأربعاء لسبع ليال بقين من رجب سنة اثنتين وستين وثلاثمائة ، وعمره ست وثلاثون سنة ، وقيل اثنتان وأربعون » (٣) .

وكان المعز يؤمل آمالا كبارا في هذا الشاعر ، ويريد أن يباهي به شعراء المشرق . فإنه لما بلغت المعز وفاة ابن هانيء وهو بمصر ، أسف عليه أسفا شديدا وقال : هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك . ولا شك أن المعز أصاب فيما قاله ، لأننا إذا تصفحنا ديوان ابن هانيء (٤) ، ألفينا أكثره قد نظم في مدح المعز وأسرته . وليس لدينا دليل تاريخي على أن ابن هانيء اعتنق مبادئ المذهب الشيعي في صباه ، غير أنه لا بد أن تكون نفسه قد أشربت روح الحب لهذه العقائد التي أظهرها عند وصوله إلى المغرب . ويظهر لنا أن ابن هانيء أصبح شيعيا متحمسا لهذا المذهب استدارا لكرم الفاطميين ، لا حبا في عقائدهم واستمساكا بها ، حتى لقد ذهب به هذا التحمس إلى أن ينسب لحسامه من صفات التشيع ما ينسب إلى نفسه ، كما يتبين ذلك من هذين البيتين :

لي صارم وهو شيعي كحامله يكاد يسبق كراتي إلى البطل  
إذا المعز معز الدين سلطه لم يرتقب بالمنايا مدة الأجل (٥)

وربما كان اعتناقه المذهب الشيعي راجعا إلى ما لقيه من عطف المعز وكرمه ، كما يتبين ذلك من إحدى قصائده في مدح هذا الخليفة ، حيث يذكر كيف أخذ يتلس السليل إليه طمعا في صلاته وعطاياه ، فيقول في إحدى قصائده (٦) :

وظفقت أسأل عن أغر (٧) مجمل (٨) فإذا الأنام جبلة (٩) دهما (١٠)

(١) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ١٥٢ .

(٢) كتاب وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤ — ٥ (٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٥ .

(٤) بيروت سنة ١٣٢٦ هـ .

(٥) ديوان ابن هانيء ص ١٨٢ . (٦) المصدر نفسه ص ٧ .

(٧) الأغر الأبيض الوجه ، وهو كناية عن السيادة والشرف .

(٨) التحجيل بياض يكون في قوائم الفرس ، وقيل هو أن يكون البياض في ثلاث من دون الأخرى في

رجل ويدين .

(٩) الجبلة بمعنى الطبيعة . (١٠) من الدهمة وهي السواد .

حتى دفعت إلى المعز خليفة فعلت أن المطلب الخلفاء  
 جود كأن أيم (١) فيه نفاثة (٢) وكأنما الدنيا عليه غشاء (٣)  
 وعلى هذا النحو نظم ابن هاني مدائح في المعز ، معلماً مآثره مشيداً بأحقية الفاطميين بالخلافة .  
 وغلا في ذلك ، فنسب إلى مولاه بعض صفات النبوة والالوهية . ومهد بذلك ابن هاني السبيل لمن  
 جاء بعده من الشعراء . يدل على ذلك هذه القصيدة الطويلة التي أشدها في حضرة المعز ، ننقل منها  
 هذه الأبيات :

هو علة الدنيا ومن خلقت له ولعله ما كانت الأشياء  
 ولك الجوارى المنشآت مواخرا (٤) تجرى بأمرك والرياح رخاء (٥)  
 فصفت (٦) لك الأبصار وانقادت لك ال أقدار واستحيت لك الأنواء  
 لا تسأل عن الزمان فإنه في راحتك يدرو حيث تشاء (٧)

ولم يقتر ابن هاني عن مواصلة مدحه للمعز ، والاعراق في مدحه حتى جعله في منزلة عيسى ومحمد ،  
 بل نسب إليه بعض صفات الالوهية (٨) ، ونسب إليه القدرة على إتيان المعجزات (٩) . ويقلب  
 على ظننا أنه تأثر في عقائده بأراء الفلاسفة اليونان ، وأن كرم المعز أوحى إليه أن يشيد بذكر مآثر  
 الفاطميين ، وأن يأخذ بنصيبه فيما قاموا به في سبيل نشر دعوتهم ، كما يتجلى ذلك في هذين البيتين من  
 قصيدة قد تكون آخر ما نظمه هذا الشاعر ، وقد بعث بها إلى المعز وهو بمصر فيقول :

وروح هدى في جسم نور يمه شعاع من الأعلى الذي لم يحسم  
 فأقسم لو لم يأخذ الناس وصفه عن الله لم يعقل ولم يتوهم (١٠)

### (ب) أبو حامد الأنطاكي

ومن أشهر شعراء الفاطميين أبو حامد أحمد الأنطاكي من أهل أنطاكية ، وقد عاصر المعز  
 والعزير والحاكم ، وأشاد بذكر جوهر الصقلي ويعقوب بن كلس وغيرهما . ووصفه الثعالبي (١١) فقال :  
 « هو نادرة الزمان وجملة الإحسان ، ومن تصرف بالشعر الجزل ، في أنواع الجدل والهزل ،  
 وأجرز قصب السبق . وهو أحد المداح المجيدين والفضلاء المحسنين ، وهو بالشام كإن حجاج  
 بالعراق . فن قوله هذه الأبيات التي يمدح فيها يعقوب بن كلس الذي يستمد نفوذه من الخليفة العزيز :

(١) أيم البحر .  
 (٢) النفاثة البسقة . (٣) الفناء بضم النين ، الزيد وما يحمله الماء على وجهه من أقدار .  
 (٤) مقتبسة من القرآن سورة ٥٥ آية ٢٤ . (٥) شرحه سورة ٣٧ آية ٣٦ .  
 (٦) مالت (٧) ديوان ابن هاني ص ٧ - ١١ ، حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ١٥٥ .  
 (٨) ديوان ابن هاني ص ٣٤ - ٣٦ . (٩) المصدر نفسه ص ١٦٤ .  
 (١٠) المصدر نفسه ص ١٨٨ . راجع كتاب « الفاطميون في مصر » للمؤلف ٥٣ ص ١ - ١٥٧ .  
 (١١) بئمة الدهر ج ١ ص ٢٦٩ .

إن يعقوب قد أفاد وأقنى  
سل سيقاً من البصيرة والرأ  
باذلاً للعزیز دون حماه  
ناحماً مشفقاً محباً ودوداً  
ما رأناه قط إلا رأينا  
ومن قوله يمدح ابن كلس :

قد سمعنا مقاله واعتذاره  
والمعاني لمن عنيت ولكن  
سحرتني ألحاظه وكذا ك  
لم أزل لاعدمته من حبيب  
لم يدع للعزیز في سائر الأرب  
فلماذا اجتباه دون سوا  
كل يوم له على نوب الدهر  
ذو يد شأنها الفرار من البعد  
قد أقلت عن العزیز عداه  
زاده الله بسطة وكفاه

وأقلناه ذنبه وعثاره  
بك عرّضت فاسمعي يا جاره  
ل ملبح ألحظه سحاره  
اشتبهى قربه وآبى نغاره  
ض عدواً إلا وأنشد ناره  
ه واصطفاه لنفسه واختاره  
روكر الخطوب بالبدل غاره  
سل وفي حومة الوغى كراهه  
بالعطايا وكثرت أنصاره  
خوفه من زمانه وحذاره (٥)

### ( ب ) النثر

تنوعت الكتابة لكثرة العلوم وتنوع الفنون في العصر العباسي الثاني ، وأصبح في المتكلمين كتاب ، وفي الفقهاء كتاب ، وللأدب ، وخاصة النثر ، كتاب يجيدون الكتابة كل في فنه . ويقول الدكتور طه حسين بك (٦) عن الكتاب في القرن الثالث الهجري إنهم قد تقسموا فنوناً مختلفة ، وتخصص كل منهم في فرع من هذه العلوم : فمنهم من تخصص في الفلسفة والكلام ، ومنهم من تخصص في اللغة والنحو ، وقليل منهم من جمع من هذه الأشياء شيئاً كثيراً . بل نرى أن هذه الحياة العقلية غلبت العقل العربي على الخيال العربي ، ورفعت شأن النثر على شأن الشعر ، وأكثرت الكتاب وقللت الشعراء .

والذي يهمننا هنا هو النثر الأدبي .

(١) أي أحمى الكرم وأعادته إلى سابق سيرته .

(٢) يعني أنه استغنى بقله ودهائه في كبت أعداء خليفته فاستغنى عن قتلهم بالسيوف .

(٣) صعباً عسوفاً يعني بأخذ أعداءه بالشدّة . (٤) بئمة الدهر ج ١ ص ٢٧١ .

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

(٦) صحيفة الجامعة المصرية ، أبريل ١٩٣١ ، ص ٥ .

## ١ - الجاحظ :

اهتم الأدباء بدراسة البيئة التي تحيط بهم ، فألف القاضي محمد بن إسحق الصيمري المتوفى سنة ٢٧٥هـ كتاب مساوى العوام وأخبار السفلة والأغنام (١) ، ووصف الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ ، الحياة في المدن. ويعد أبا النثر العربي الجديد ، كما يعد أعظم كتاب النثر أثراً ، حتى قال ثابت بن قررة المترجم : وما أحسد هذه الأمة إلا على ثلاثة أنفس : أولهم عمر بن الخطاب ، والثاني الحسن البصرى ، والثالث أبو عثمان الجاحظ ، (٢) ، وإن أسلوبه وما تحويه كتبه من معلومات غزيرة يؤهله لأن يوضع في المرتبة الأولى من متقدمى كتاب النثر العربى . (٣)

ويقول المسعودى (٤) فى مؤلفات الجاحظ : « ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتبنا منه مع قوله بالعثمانية (٥) . وقد كان أبو الحسن المدائنى كثير الكتب ، إلا أن أبا الحسن المدائنى كان يؤدى ما سمع . وكتب الجاحظ ، مع انحرافه المشهور ، تجلوا صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورفضها أحسن رفض ، وكساها من كلامه أجزل لفظ . وكان إذا تخوف ملل القارىء وسأمة السامع ، خرج من جد إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة . وله كتب حسان منها : كتاب البيان والتبيين (٦) ، وهو أشرفها ، لأنه جمع فيه المشور والمنظوم ، وغرر الأشعار ، ومستحسن الأخبار ، وبلغ الخطب بما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به ؛ وكتاب الحيوان ، وكتاب الطفيليين والبخلاء . وسائر كتبه فى نهاية الكمال ما لم يقصد منها إلى نصب (٧) ولا إلى دفع حق . ولا يعلم من سبق وخلف من المعتزلة أفصح منه . ومن أشهر مؤلفات الجاحظ : رسالة الترييع والتدوير (٨) التى هجا فيها أحمد بن عبد الوهاب ، وتقع فى نحو ١٥٠ صفحة (٩) .

ويمتاز القرن الرابع الهجرى بنهضة أدبية مباركة . فقد ظهر فيه كثير من أعلام البيان ، من بينهم

(١) يعنى الأغنياء ، الجهال . (٢) ياقوت : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ج ٦ ص ٦٩ - ٧٠ .  
(٣) Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. I. p. 351 (٤) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٣٩ - ٤٤٠ .  
(٥) أى تشبعت لعثمان بن عفان كما هو مذهب أهل البصرة ، ومذهبهم مخالف لمذهب الشيعة العلوية فى الكوفة  
(٦) اعتبر ابن خلدون (مقدمة ص ٥٠٦) كتاب البيان والتبيين أحد أركان الأدب فقال : « ومعناها من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهى : أدب الكتائب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل لمبرد ، وكتاب البيان والتبيين لجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى البغدادى ، وما سوى هذه الأبواب الأربعة فتبع لها وفروع عنها » .  
(٧) النصب التدين يفض على ، ويلقب أصحاب هذا المذهب بالنواصب والناصبية وأهل النصب ، لأنهم نصبوا لعل أى عادوه . أنظر القاموس المحيط .

(٨) وهى الرسالة الرابعة من رسائل الجاحظ الاحدى عشرة ( القاهرة ١٣٢٤ هـ ) . وقد طبعت فى ليدن سنة ١٩٠٣ ضمن ثلاث رسائل هى : رسالة الى الفتح بن خاقان فى مناقب الترك وكافة جند الخلافة ، وكتاب فخر السودان على البيضان ، كتاب الترييع والتدوير (ص ٨٦ - ١٥٧) .  
(٩) أنظر محاضرة الدكتور طه حسين بك فى تحليل هذه الرسالة ، فى صحيفة الجامعة المصرية ( إبريل

طائفة من الوزراء ، وذاع استعمال السجع في الرسائل . وقد وصف آدم متر (١) هذه الرسائل في هذه العبارة فقال : « إن رسائل القرن الرابع الهجري هي أجمل آية للفن الإسلامي ، ومادتها أنفس ما اشتغل به الفنانون ، وهي اللغة . ولو لم تصل إلينا آيات الفن الجميلة التي صنعتها أيدي الفنانين في ذلك العهد من الزجاج والمعادن ، لاستطعنا أن نرى في هذه الرسائل مبلغ تقدير المسلمين للجمال الرقيق ، وامتلاكهم لخاصية البيان في أصعب صورته ، وتلاعهم بذلك تلاعباً . وليس من محض الاتفاق أن يكون كثير من وزراء ذلك العهد أساتذة البيان وأعلامه . ولذلك استطاعت رسائلهم أن تنال من التقدير ما جعلها خليفة أن تنشر كتباً للناس . وكان من أولئك الوزراء : الحصري ، وابن مقلة ، والمهلي ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، والإسكافي وزير السامانيين ، وإبراهيم بن هلال الصابي الذي تقلد ديوان الإنشاء في بغداد سنة ٣٤٩ هـ .

## ٢ - أبو إسحق الصابي

ويعتبر أبو إسحق إبراهيم بن هلال الصابي الحارثي ( ٣٢٠ - ٣٨٤ هـ ) من أشهر رجال الأدب في هذا العصر . وقد ولد ببغداد ، ووصفه الثعالبي (٢) في هذه العبارة فقال : « أوجد العراق في البلاغة ، ومن به ثغى الخنجر في الكتابة (٣) ، وتنفق الشهادات له ببلوغ الغاية من البراعة والصناعة . وقد تقلد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ هـ ، واستمر يتقلده في عهد معز الدولة بن بويه وابنه عز الدولة بختيار . وأثار كراهة عضد الدولة برسائله اللاذعة على لسان بختيار ، فخذ عليه واعتقله بعد أن استولى على السلطنة بالعراق على أثر قتل بختيار سنة ٣٦٧ هـ ، ثم أطلقه في سنة ٣٧١ هـ بشفاعة بعض أصدقائه ، وأمره أن يضع له في أخبار بني بويه كتاباً سماه « التاجي » . وقد قيل إن عمال السوء سعوا بالصابي عند عضد الدولة وأوغروا صدره وأثاروا سخطه وحركوا ضغنه عليه ، على الرغم من أنه أكب على تأليف هذا الكتاب ، وأخذ يتأنق في تصنيفه وترصيفه ، وينفق من روحه على تربيته وتثنيته (٤) ، فرفع إلى عضد الدولة أن صديقاً للصابي دخل عليه يوماً فراه في شغل شاغل من التعليق والتسويد والتبديل والتبيض ، فسأله عما يعمل من ذلك فقال : « أباطيل أتمقها وأكاذيب ألقها . فأمر (عضد الدولة) بأن يلقي تحت أرجل القبيلة ، فأكب نصر بن هرون ومطهر بن عبد الله وعبد العزيز بن يوسف على الأرض يقبلونها بين يديه ويستشفعون إليه في أمره ويتلطفون في استيهاب دمه إلى أن أمر باستيحاته (٥) مع القبض عليه وعلى أشيائه واستئصال أمواله ، فبقى في ذلك الاعتقال بضع سنين إلى أن تخلص في آخر أيام عضد الدولة إلى أن رزحت حاله وتمتلك ستره (٦) .

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ٣٩٩ - ٤٠٠ .

(٢) يذمة الدهر ج ٢ ص ٢١٨ .  
(٣) تنق أي توضع في الأعماد ، والمقصود هنا أنه يستغنى بقلبه عن استعمال السيف والخنجر كما يقول الشاعر :

قوم إذا راموا عداوة معشر  
سكفوا الدما بأسنة الأقدام

(٤) أي تربيته بالحنوف وهي كالأقراط من الحلي . (٥) أي تركه حياً .

(٦) يذمة الدهر ج ٢ ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

وكان ابن الصابي متمسكا بدينه على الرغم مما بذله الخلفاء والسلاطين والوزراء من جهود لتحويله إلى الإسلام ، حتى إن عز الدولة بختيار عرض عليه الوزارة إن أسلم ، فلم يهده الله للإسلام كما هداه لمحاسن الكلام . وكان يعاشر المسلمين أحسن عشرة ، ويخدم الأكاير أرفع خدمة ، ويساعدهم على صيام شهر رمضان ، ويحفظ القرآن حفظاً يدور على طرف لسانه وسن قلبه ، (١) .

وكان الصاحب بن عباد يحبه أشد الحب ويواصل إرسال منحه وعطاياه إليه . قال أبو القاسم علي بن محمد الكرخي ، وكان الصاحب يقول : « كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة : الأستاذ ابن العميد ، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، وأبو إسحق الصابي ، ولو شئت لذكرت الرابع ، يعني نفسه .... » وكان الصاحب يكتب كما يريد ، والصابي يكتب كما يؤمر ، وبين الحالين بون بعيد . وكيف جرى الأمر فهما هما ، وقد وقف فلك البلاغة عندهما ، (٢) .

### ٣ — الصاحب إسماعيل بن عباد :

وكذلك يعد الصاحب إسماعيل بن عباد ( ٣٢٦ — ٣٨٥ هـ ) وزير نجر الدولة بن ركن الدولة البويهى فى أصبهان والرى من أشهر رجال الأدب فى عصره . وقد وصفه الثعالبي (٣) وصفاً شائقاً فى هذه العبارة فقال : « هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، ونبوع العدل والإحسان . ومن لا حرج فى مدحه بكل ما يدح به مخلوق . ولولاه ما قامت للفضل فى دهرنا سوق . وكانت أيامه للعلوية والعلماء والأدباء والشعراء ، وحضرته محط رحالمهم ، وموسم فضلائهم ، ومترع آمالمهم ، وأموالمهم مصروفة إليهم ، وصنائه مقصورة عليهم ، وهمته فى مجد يشيده ، وإنعام يجدده ، وفاضل يصطنعه (٤) ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه . ولما كان نادرة عطارذ فى البلاغة ، وواسطة عقد الدهر فى الساحة ، جلب إليه من الآفاق وأقاصى البلاد كل خطاب جزل وقوال فصل . وصارت حضرته مشرعاً (٥) لروائع الكلام وبدائع الأفهام وثمار الخواطر ، ومجلسه مجعاً لصوب العقول وذوب العلوم ودرر القرائح . فبلغ من البلاغة ما يعد فى السحر ، ويكاد يدخل فى حد الإعجاز ، وسار كلامه مسير الشمس ، ونظم ناحيتى الشرق والغرب (٦) ، واحتف به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يربى عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم فى الأخذ برباب القوافى وملك رقاب المعانى . فإنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فخولة الشعراء المذكورين : كأبى نواس ، وأبى العتاهية ، والعتابى ، والنمري ، ومسلم بن الوليد ، وأبى الشيعى ، ومروان بن أبى حفصة ، ومحمد بن منذر . وجمعت حضرة الصاحب بأصبهان والزهرى (٧) وجرجلان مثل : أبى الحسين السلامى ، وأبى بكر الخوارزمى ،

(١) الثعالبي : ج ٢ ص ٢١٩

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٢٢ — ٢٢٣ (٣) بقية الدهر ج ٣ ص ١٦٩ — ١٧٠

(٤) بصطفيه ويختاره (٥) الصريمة والفرع مورد الماء

(٦) أى جمع فى تدييره بين بلاد الشرق والغرب .

(٧) كذا فى كتاب بقية الدهر للثعالبي ولعلمها الرى .

وأبي طالب المأموني ، وأبي الحسن البديهي ، وأبي سعد الرستمي ، وأبي القاسم الزعفراني ، وأبي العباس الضبي ، وأبي الحسن بن عبدالعزيز الجرجاني ، وأبي القاسم بن أبي العلاء ، وأبي محمد الخازن ، وأبي هاشم العلوي ، وأبي الحسن الجوهرى ، وبنى المنجم ، وابن بابك ، وابن القاشاني ، وأبي الفضل الهمداني ، وإسماعيل الشاشي ، وأبي العلاء الأسدي ، وأبي الحسن الفويري ، وأبي ذلف الخزرجي ، وأبي حفص الشهرزوري ، وأبي معمر الإسماعيلي ، وأبي الفياض الطبري ، وغيرهم من لم يبلغني ذكرهم أو ذهب عنى اسمه . وهدحه مكاتبه الشريف الموسوي الرضى ، وأبو إسحق الصابي ، وابن حجاج ، وابن سكرة ، وابن نباتة ... وما أحسن وأصدق قول صاحب :

لن خير المداح من مدحته شعراء البلاد في كل نادى

وقد ذكر ابن خلكان (١) أنه «اجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند غيره» . وصف صاحب كثيراً من الكتب ، منها كتاب فى اللغة فى سبعة مجلدات أسماء المحيط ، وكتاب الكافى فى الرسائل ، وكتاب الأعياد وفضائل النيروز ، وكتاب الإمامة ذكر فيه فضائل على بن أبى طالب ، وأثبت إمامة من تقدمه ، وكتاب الوزراء ، وكتاب الكشف عن مساوى شعر المتنبي ، إلى غير ذلك من الرسائل البديعة (٢) .

وكانت مكتبة صاحب تزخر بالمصنفات ، حتى إن نوح بن أسد الساماني لما كتب إليه «يستدعيه ليفوض إليه وزارته وتدير أمر مملكته» ، فكان من جملة أعذاره إليه ، أنه يحتاج لنقل كتبه خاصة ، إلى أربعائة جمل (٣) .

#### ٤ — أبو بكر الخوارزمي

وقد تطور الأدب تطوراً ملحوظاً فى هذا العصر ، فبعد أن كانت المحسنات اللفظية مقصورة على الرسائل الرسمية ، تعدت إلى الرسائل الإخوانية (أو الشخصية) بوجه عام ، وأصبحت كتابة هذه الرسائل فى أواخر القرن الرابع الهجرى فناً من أرقى الفنون ، حتى استطاع كثير من الأدباء أن يتخذوا من كتابة هذه الرسائل الجيدة وسيلة للتكسب ، كما كان الشعراء من قبل . ومن أشهر هؤلاء الأدباء أبو بكر الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ هـ ؛ وكان أبوه من خوارزم وأمه من طبرستان ، وهو ابن أخت محمد بن جرير الطبرى . وقد قصد صاحب بن عباد وهو بأرجان . وتنقل فى كور العراق والشام ، واتصل بسيف الدولة الحمداني ، وشرق بعد أن غرب ، وورد بخارى ، ثم نيسابور ، ثم قصد سجستان وطبرستان ، ثم عاد إلى نيسابور وأقام بها ، وتوثقت الصلة بينه وبين صاحب بن عباد فى أصبهان (٤) .

ويحكى أنه قصد حضرة صاحب بن عباد وهو بأرجان ؛ فلما وصل إلى بابه قال لإحد حجابيه :

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٧٥ (٢) المصدر نفسه

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٧٦

(٤) بتيمة الدهر ج ٤ ص ١٩٢ — ١٩٤ ، ١٩٥ .



قل للصاحب على الباب أحد الأدباء وهو يستأذن في الدخول . فدخل الحاجب وأعلمه ، فقال  
الصاحب : قل له ، قد ألزمت نفسي أن لا يدخل علي أحد من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف  
بيت من شعر العرب ؛ فخرج إليه الحاجب وأعلمه بذلك ، فقال له أبو بكر : إرجع إليه وقل له :  
هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء ؟ فدخل الحاجب فأعاد عليه ما قال ، فقال الصاحب :  
هذا يكون أبا بكر الخوارزمي ، فأذن له في الدخول فدخل عليه ، فعرفه وانبسط له (١) .

وقد وصفه الثعالبي (٢) في هذه العبارة فقال : « باقعة الدهر (٣) وبحر الأدب ، وعلم النثر والنظم ،  
وعالم الفضل والظرف . وكان يجمع بين الفصاحة العجيبة والبلاغة المفيدة ، ويحاضر بأخبار العرب  
وأيامها ودواوينها ، ويدرس كتب اللغة والنحو والشعر ، ويتكلم بكل نادرة ويأتي بكل فقرة (٤)  
ودرة ، ويبلغ في محاسن الأدب كل مبلغ ، ويغلب على كل محسن بحسن مشاهدته وملاحة عبارته  
ونعمة (٥) نعمته وبراعة جده وحلاوة هزله ، » .

وكان لما حازه الخوارزمي من شهرة واسعة في ميدان الأدب أن قصده الطلاب من كل حذب  
وصوب . فمن رسائله في الفقر : « وإنما يكره الفقر لما فيه من الهوان ، ويستحب الغنى لما فيه من  
من الصوان (٦) . فإذا نبيغ الغم من تربة الغنى ، فالغنى هو الفقر ، واليسر هو العسر . لا بل الفقير  
على هذه القضية أحسن من الغنى وأقل منه أشغالا ؛ لأن الفقير خفيف الظهور من كل حق ، منفك  
الرقبة من كل رق . فلا يستبطنه إخوانه ولا يطمع فيه جيرانه ، ولا تنتظر في الفطر صدقته ، ولا في  
النحر أضحيتيه ، ولا في شهر رمضان مائدته ، ولا في الربيع باكورته (٧) ، ولا في الخريف فاكته ،  
ولا في وقت الغلة شعيره وبره ، ولا في وقت الجباية خراجه وعشره . وإنما هو مسجد يحمل إليه  
ولا يحمل عنه (٨) ، وعلوى يؤخذ بيده ولا يؤخذ عليه (٩) ؛ تتجنبه الشرط نهاراً ويتوقاه العسر  
ليلاً ؛ فهو إما غانم وإما سالم . وأما الغنى فإنما هو كالغيم غثيمة لكل يدسالية ، وصيد لكل نفس  
طالبة ، وطبق على شوارع النواهب (١٠) ، وعلم منصوب في مدرجة المطالب (١١) ، تطمع فيه الإخوان  
ويأخذ منه السلطان ، وينتظر فيه الحدثان (١٢) ويحيف ملكه النقصان (١٣) . »

(١) أي سر به ورفع السكفة بينه وبينه . ابن خلسكان ج ١ ص ٥٢٣ . (٢) بئمة الدهر ج ٤ ص ١٨٢ .

(٣) الباقعة الرجل الداهية والفكي المارق لا يفوته شيء . ولا يدهم أي لا يحار في أمر .

(٤) أي جملة صغيرة لسكنها قوية جميلة تشبه الحكم والأمثال السائرة .

(٥) النعمة العرف والنعيم . (٦) أي صون الكرامة والنفس . (٧) باكورة الشيء أول ما يظهر منه

(٨) أي أن الفقير يشبه المسجد في أنه يوجب له ولا يستوهب منه

(٩) لا يؤخذ عليه أي لا ينتقد عليه شيء . وفي الأصل « عنه » ، ولعله تحريف .

(١٠) يشبه الغنى بالطبق على الإبناء . لأنه يغطي بماله النواهب التي تنتاب الناس .

(١١) بمعنى أنه كالراية المنصوبة الظاهرة يقصد إليها كل طالب ، والمراد أن الغنى يكون ظاهراً في قومه .

فاذا تزلت بهم المفارم والمطالب قصده الطالبون أولاً .

(١٢) أي يرتقب نزول الحوادث به (١٣) أي يأتي على مملوكه النفس بالحوادث والمثل ، الثعالي : بئمة

وكان أبو بكر الخوارزمي شيعياً غالباً . وقد أبان عن عقيدته هذه في إحدى رسائله إلى أهل نيسابور حين جار عليهم عاملها لاعتناقهم مذهب الشيعة ؛ فأثنى في هذه الرسالة بوصف مثير للنفوس على هذه الأعمال التي كان يقوم بها السنيون في وجه الشيعيين منذ وفاة النبي عليه الصلاة والسلام (١) . ولو ازننا بين رسائل الخوارزمي ورسائل الصابي ، لوجدنا رسائل الصابي أكثر اتزاناً وأقل مبالغة وأقرب إلى الواقع . وكان أهم ما امتازت به رسائل الخوارزمي المحسنات البديعية والسلاسة ... وبين هذا الأسلوب وبين الأسلوب العربي القديم كثير من وجوه الشبه ، من شغف بالألفاظ الجزلة ذات الجرس (٢) ، والتشبيهات الحسنة وقلق نفس الكاتب . غير أن ما كانت تنطوي عليه الفروسية قديماً من نبل العاطفة قد تغير وصار موضع سخرية ؛ وهذه هي الصورة الوحيدة التي أتاحت له في مجتمعات المدن . أما الصفات الرئيسية التي اتصف بها أسلوب الخوارزمي ، فهي أيضاً صفات الأسلوب الساخر : وهي المبالغة والتكرار ، وهو يعمد إليهما باعتبارهما طريقة فنية في الكتابة (٣) .

#### ٥ - بديع الزمان الهمذاني

وكان زعيم هذا النوع من الكتابة أحمد بن الحسين الهمذاني المعروف ببديع الزمان المتوفى سنة ٣٩٨ هـ (٤) . وكان - كما وصفه الثعالبي (٥) - ومعجزة همذان ونادرة الفلك ، وبكر عطار (٦) ، وفرد الدهر وغرة العصر ، ومن لم يلق نظيره في ذكاء القريحة وسرعة الخاطر وشرف النفس وصفاء الذهن وقوة النفس ، ومن لم يدرك قرينه في ظرف النثر وملحه وغرره ودرر النظم ونكته . ولم يرو أن أحداً بلغ مبلغه من لب الأدب وسره وجماله بمثل إعجازه وسحره ، فإنه كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب : فمنها أنه كان ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط ، وهي أكثر من خمسين بيتاً ، فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها ، لا يخرم حرفاً ولا يخل بمعنى ، وينظر في الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ، ثم يهدها (٧) عن ظهر قلبه هذا ويسردها سرداً . وهذه حاله في الكتب الواردة عليه وغيرها .

وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة في معنى بديع وباب غريب ، فيفرغ منها في الوقت والساعة والجواب عنها فيها .

وربما كان يكتب الجواب المقترح عليه ، فيبتدىء بآخر سطر منه ثم هلم جرا إلى الأول ، ويخرجه كأحسن شيء وأملحه ، ويوشح القصيدة (٨) الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من إنشائه ، ويقترح

(١) رسائل الخوارزمي (طبعة الفسطنطينية سنة ١٢٩٧ هـ) ص ١٣٠-١٣٩ انظر كتاب «الفاطميون في مصر» لمؤلف ص ٢٣ .

(٢) الجرس الموسيقى والمذبذبة .

(٣) آدم متر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ٤٠٤ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٩ (٥) بقيمة الدر ج ٤ ص ٢٤٠

(٦) قال الأزهرى : «عطار كوكب الكتاب» ، وممنه أن الذين يولدون في طلوع عطار يكونون

ذوي حظ في الأدب والكتابة والشعر . (٧) هذه سرعة القراءة .

(٨) التوشيح التزيين بالوشاح ، والمراد أنه يجمع بين صناعتى الشعر والنثر

عليه كل عويص وعسير من النثر ، فيرتجله في أسرع من الطرف على ريق لا يبلعه ونفس لا يقطعه .  
اتصل بديع الزمان بالصاحب بن عباد وأخذ عنه ، كما اتصل بأبي بكر الخوارزمي . ومن رسائله  
إلى الخوارزمي : « أنا لقرب الأستاذ أطال الله بقاءه ، كما طرب النشوان مالت به الخمر ، ومن  
الارتياح للقاءه كما انتفض العصفور بلله القطر ، ومن الامتزاج بولائه كما التقت الصبياء والبارد العذب ،  
ومن الابتهاج بمرآه كما اهتزت تحت البارح الغصن الرطب » (١) .

ومن رقعة له : « يعز عليّ أيد الله الشيخ أن ينوب في خدمته قلبي عن قدمي ، ويسعد برؤيته  
رسولي قبل وصولي ، ويرد مشرع الأنس به كتابي قبل ركابي . ولكن ما الحيلة والعوائق جمة .

وعليّ أن أسمى وليد س علي إدراك النجاح  
وقد حضرت داره وقبلت جداره ، وما بي حب للحيطان ولكن شغف بالقطان ، ولا عشق  
للجدران ولكن شوق إلى السكان » (٢) .

على أن بديع الزمان كان ، بخلاف الخوارزمي ، سنياً مغالياً في عقائد هذا المذهب . فبينما نرى  
والخوارزمي يوجه حملاته ضد أعمال العنف الذي حل بأهل مذهبه ، نرى بديع الزمان يتلبس المعاذير  
لما أتاه العمال السنيون ، الذين قضت سياستهم بالقضاء على ما يعبرون عنه بخروج أهل الشيعة على  
الدين . (٣) وكان من أثر ذلك أن دب الخلاف بينهما ، فتقارعا وتساجلا ، وكانت الغلبة لبديع  
الزمان الذي ذاع صيته وطبقت شهرته الآفاق ، وخاصة بعد موت الخوارزمي . وكان بديع الزمان  
يضع من قيمة أسلوب الخوارزمي ويقول : إنه لا يجيد من الكتابة ، إلا هذه الطريقة الساذجة ،  
وهذا النوع الواحد المتداول بكل قلم ، المتناول لكل يد وشم » (٤) .

ومن قول بديع الزمان في تعزية : « الموت خطب قد عظم حتى هان ، وأمر قد خشن حتى لان ،  
والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت أخف خطوبها ، وجنت حتى صار الحمام أصغر ذنوبها . فلتنظر  
يمنة هل ترى إلا محنة ؟ ثم لتعطف يسرة هل ترى إلا حسرة ؟ » (٥) .

## ٦ - أبو الفتح البستي

وهناك رجل آخر من رجال الرسائل المشهورين ، هو أبو الفتح علي بن محمد البستي الذي اشتهر  
بحدقه في الشعر والنثر . وقد أمر سبكتكين أبو السلطان محمود الغزنوي بإحضاره حين فتح مدينة  
بست ، فدخل في خدمة سبكتكين ، وأصبح كاتب الرسائل في ديوانه وشاعر بلاطه ، ثم خدم ابنه  
محموداً بعد وفاته ، ثم مات في منفاه ببخارى سنة ٥٤٠ هـ (١٠٠٩ م) (٦) . وقد حذق الصناعة البديعية التي

(١) رسائل بديع الزمان ص ١٢٨ - ١٢٩ . (٢) التتالي : بقيمة الدر ج ٤ ص ٢٤٣ .  
(٣) رسائل بديع الزمان الهمداني ، شرح الشيخ إبراهيم الأحمد الطرابلسي ( طبعة بيروت ١٨٩٠ م )  
ص ٤٢١ - ٤٢٧ . انظر كتاب « الفاطميون في مصر » للمؤلف ص ٢٤ .  
(٤) رسائل بديع الزمان الهمداني ص ٧٦ . (٥) التتالي : بقيمة الدر ج ٤ ص ٢٤٤ .  
(٦) أبو نصر العتي : تاريخ اليعنبي ج ١ ص ٦٧ - ٧٢ .

اشتهرت في زمانه على يد ابن العميد والصاحب وأضراهما . وكانت له طريقة جميلة في التجنيس خاصة .  
« فن ألفاظه البديعية قوله : من أصلح فاسده أرغم حاسده ، من أطاع غضبه أضاع أديه ، عادات  
السادات سادات العادات ، من سعادة جدك وقوفك عند حدك ، الرشوة رشاء الحاجات ، أجهل  
الناس من كان للإخوان مذلا وعلى السلطان مدلا ، الفهم شعاع العقل ، المنية تضحك من الأمانة ،  
حد العفاف الرضا بالكفاف ، ما لخرق الرقيق ترقيق . ومن نادر شعره قوله :

إن هز أقالمه يوما ليعملها أنساك كل كمي هـز عامله  
وإن أقر على رق أنامله أقر بالرق كتاب الأنام له . (١)

وقد ذاعت أشعاره في زمانه وحفظها الناس وتناقلوها . وكثير منها كان يروى على ألسنة الرواة  
في مجالس القاهرة ومقاهيها . من ذلك القصيدة التي مطلعها :

زيادة المرء في دنياه نقصان وربحه غير محض الخير خسران  
ومنها أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فظالما استعبد الإنسان إحسان (٢)

### (ب) العلوم العقلية

#### ١ - الفلسفة :

تأثر المسلمون بالفلسفة اليونانية بعد أن ترجمت كتبهم إلى العربية في عهد الرشيد والمأمون ،  
فاشتغل كثير من المسلمين بدراسة الكتب التي ترجمت إلى العربية ، وعملوا على تفسيرها والتعليق  
عليها وإصلاح أغلاطها . نخص بالذكر من هؤلاء يعقوب بن إسحق الكندي ، الذي نبغ في الطب  
والفلسفة وعلم الحساب والمنطق والهندسة وعلم النجوم . وقد حذا في تأليفه حذو أرسطو ، وترجم  
كثيراً من كتب الفلسفة وشرح غوامضها (٣) .

وقد انتقلت الثقافة اليونانية إلى المشرق عن طريق الكنائس المسيحية التي تأثرت بهذه الثقافة ،  
وخاصة الكنيسة النسطورية التي توغلت آراؤها في بلاد المشرق عامة وفي فارس خاصة ، وآراء الكنيسة  
اليعقوبية والملكانية التي انتشرت في سورية . كما كان لمدارس الرها أثر كبير في نشر الثقافة اليونانية  
وفي مدارس نصيبين ، حيث كانت تدرس العقائد النسطورية والثقافة اليونانية التي نالت تشجيع آل  
ساسان من ملوك الفرس . ولا تقل مدارس حران في بلاد الجزيرة عن مدارس الرها ونصيبين ؛ إذ  
كانت تدرس فيها الآراء الفلسفية اليونانية كالفيثاغورية والأفلاطونية الحديثة (٤) . وكان الحرايون  
— أو الصابئة ، وهذه هي التسمية التي أطلقت عليهم في القرنين التاسع والعاشر ( الثالث  
والرابع من الهجرة ) — (٥) ينسبون حكمتهم الصوفية إلى هرمس المثلث الحكمة (٦)

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٥٧ .

(٢) Browne : Lit. Hist. of Persia, Vol. I. pp. 98-100

(٣) أنظر الجزء الثاني من هذا الكتاب ص ٢٥٨

(٤) دي بور . تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ١٥ — ١٧ (٥) المصدر نفسه ص ١٧ — ١٨ .

(٦) ذكر ابن النديم ( الفهرست ص ٣٩٣ — ٤٩٤ ، ٤٩٦ — ٤٩٧ ) أن الكندي اطلع على مقالات

لهرمس في التوحيد « لا يجد الفيلسوف إذا أتعب نفسه مندوحة عنها والقول بها » .

وأغاثا ذيمون (١) وأورانيوس (٢) وغيرهم . وقد أخذوا عن حسن نية بآراء موضوعة ترجع للعصر الإغريقي المتأخر، وربما يكون بعض هذه الآراء قد وضع بين ظهرانيهم . وقد نشط قليل منهم في الترجمة وفي تأليف يدل على سعة العلم . وكان لكثيرين منهم اتصال علمي وثيق بعلما الفرس والعرب من القرن الثامن إلى العاشر (الثاني إلى الرابع من الهجرة) (٣) .

وقد أسس كسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٩ م) في مدينة جنديسابور معهداً تدرس فيه الفلسفة والطب وغيرهما من العلوم ، وكان معظم أساتذته من المسيحيين النسطوريين . وكان لتسامح هذا الملك وشغفه بالثقافة العقلية أثر في جذب العلماء ، لامن النسطوريين وحدهم ، بل من اليعقوبيين والسريانيين ، الذين ذاعت شهرتهم في الطب ، سواء في عهد الساسانيين أو في عهد الخلفاء الراشدين . ويدل على هذا التسامح ما لقيه الفلاسفة الوثنيون من أنصار المذهب الأفلاطوني الحديث من وسائل التشجيع والتعصيد (٤) .

### (١) أبو إسحق الكندي

ومن تأثر بالآراء الفلسفية اليونانية خاصة أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندي ، من قبيلة كندة النينية التي ينسب إليها امرؤ القيس الشاعر . وهو - كما يظهر من اسمه - عربي الجنس ، ولذلك سمي فيلسوف العرب . وكان - كما يقول ابن النديم (٥) - « فاضل دهره وواحد عصره في معرفة العلوم القديمة بأسرها ... وكتبه في علوم مختلفة مثل المنطق والفلسفة والهندسة والحساب والأرثماطيق والموسيقى والنجوم وغير ذلك » .

نشأ الكندي في الكوفة وتعلم في البصرة ثم في بغداد ، وكانت - كما نعلم - من مراكز الثقافة الإسلامية التي تأثرت بثقافتين الفارسية واليونانية . واشتهر الكندي بترجمة الكتب اليونانية إلى العربية وتنقيح ما يترجمه غيره من المترجمين . وتأثر بآراء المعتزلة ، كما تأثر بالفلسفة اليونانية ، وخاصة فلسفة أرسطو ، واشتغل بالرياضيات وما وراء الطبيعة . ومن أشهر تلاميذه أحمد بن محمد الطيب السرخسي المتوفى سنة ٢٨٦ هـ ، وكان مؤدب الخليفة المعتضد ، واتصل به اتصالاً وثيقاً ، ثم قلده الحسبة ، وجعل يستشيره في أمور خلافته ، واشتغل بالكيمياء والجغرافيا والتاريخ (٦) . ومن تلاميذ الكندي أيضاً أبو معشر البلخي المتوفى سنة ٢٧٢ هـ المنجم المشهور . كما تأثر بآراء إخوان الصفا (٧) .

(١) أو أوغانو ذيمون ، وهو مصري ، وكان أحد أنبياء اليونانيين والمصريين .

(٢) يسميه ابن النديم أرائي ويذكره مع أنبياء الحرائين والسكندانيين .

(٣) راجع دي بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام من ١٧ ، ١٨ هـ ، (١) ، (٢) ، (٣) .

(٤) المصدر نفسه من ١٨ - ١٩ .

(٥) كتاب الفهرست من ٣٥٧ .

(٦) دي بور : تاريخ الفلسفة الإسلامية من ١٢٤ - ١٢٦ .

(٧) كتاب الفهرست من ٣٦٦ .

وذكر ابن النديم<sup>(١)</sup> مؤلفات الكندي في الفلسفة والمنطق والحساب ، والموسيقى والنجوم والهندسة ، والفلك والطب والجدل والنفس والسياسة وغيرها .

### ( ب ) إخوان الصفا

ومن أشهر فلاسفة هذا العصر هذه الطائفة التي تعرف باسم « إخوان الصفا » . وكانت ذات نزعة شيعية متطرفة ، حتى قيل إنها إسماعيلية<sup>(٢)</sup> . وكانت هذه الطائفة — كما يقول براون<sup>(٣)</sup> — موضع عطف بني بويه الذين اشتهروا بأفكارهم الحرة ، وحلوا ردها من الزمن محل العنصر التركي ، وأصبح لهم النفوذ الفعلي التام في بغداد حول منتصف القرن الرابع ( ٣٣٤ = ٩٤٥ م ) . ومن ثم استطاعت هذه الطائفة أن تتم ما بدأه المعتزلة ، وخاصة ما يتعلق بالتوفيق بين العلم والدين والانسجام بين الشريعة الإسلامية والفلسفة اليونانية ، وتوحيد الثقافة في صورة دائرة معارف ، . وكان إخوان الصفا جماعة سرية تتألف من طبقات متفاوتة . وقد أخذوا كثيراً من مبادئ الفلسفة الطبيعية ، متأثرين بالفيشاغورية الحديثة ، ولجئوا إلى تأويل القرآن تأويلاً مجازياً<sup>(٤)</sup> . وتعتبر رسائل إخوان الصفا أشبه بدائرة معارف ، أخذت من كل مذهب فلسفي بطرف ، وتدل في الوقت نفسه على أن مؤلفيها نالوا حظاً موفوراً من الرقي العقلي . وتتألف دائرة المعارف هذه من إحدى وخمسين رسالة تقوم على دعائم من العلم الطبيعي ، ولها من وراء هذا أغراض سياسية . وتبدأ فلسفة إخوان الصفا بالنظر في الرياضيات ، وبالتلاعب بالأعداد والحروف . ثم تنتقل إلى المنطق والطبيعات . فترد كل شيء إلى النفس وما لها من قوى ، وتنتهي أخيراً إلى الاقتراب من معرفة الله على نمط صوفي ، وجملة القول في آرائهم أنها مذهب جماعة مضطهدة ، تبدو النزعات السياسية من جميع أجزائه ، ونرى من خلاله بعض ماعاناه أصحاب هذه الرسائل من آلام وما قاموا به من كفاح ، وما استهدفوا له هم وأسلافهم من ظلم ؛ وتبين منه ما كان يخلج في نفوسهم من أمل ، وما تواصلوا به من الصبر . وهم يلمسون في هذه الفلسفة الروحية سلوى لنفوسهم أو تطهيراً لها . وهذه الفلسفة هي دينهم ، وشعارهم المذكور أن يكون الواحد منهم مخلصاً حتى الموت ، لاعتقادهم أن ملاقات الموت في سبيل صلاح الإخوان هي الجهاد الصحيح . وكانوا يؤولون الحج إلى مكة بأنه مثل ضربه الله لطواف الإنسان على هذه الأرض<sup>(٥)</sup> ، فأوجبوا على الإنسان أن يساعد أخاه في هذه الحياة بكل ما يتسع له جهده ، فيجب على ذي المال أن يجعل للفقير حظاً من ماله ، وعلى ذي العلم أن يعلم أخاه

(١) كتاب الفهرست ص ٣٥٨ — ٣٦٥ .

(٢) يرى البعض أن إخوان الصفا جماعة من علماء الفرامطة الإسماعيلية ، وأنهم اتخذوا البصرة مركزاً لنشاطهم ، العلمي ، وكان لهم فرع في بغداد .

(٣) Browne : Lit. Hist. of Persia, Vol. I. p. 292 .

(٤) دي بور : تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٩٥ .

(٥) رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ١١٩ .

الجاهل . غير أن العلم - كما نراه في رسائل الإخوان - حبس على خاصة المستبصرين من أفراد الطبقة العليا (١) .

من هذا نرى أن الغرض الذي كان يرمى إليه مؤلفو هذه الرسائل هو محاولة التوفيق بين الدين والعلم . ولكنهم لم يستطيعوا إرضاء أهل الدين ولا أهل العلم ؛ فإن المتكلمين والفقهاء السنيين عابوا عليهم طريقتهم في التأويل . كما أن الفلاسفة ، والمتأثرين منهم بفلسفة أرسطو بوجه خاص ، عابوا عليهم مبادئهم الفلسفية . ومع هذا استطاعت الفلسفة اليونانية أن تستقر في الشرق بفضل هذه الطائفة ، كما تأثرت بكتابتهم طوائف الإسماعيلية : كالدرزية والزرارية المشهورين بالحشيشية في فارس والشام ، كما أفاد آخرون في تأليف موسوعاتهم على غرار رسائل إخوان الصفا (٢) .

وقد ذكر الشهرزوري أسماء خمسة من العلماء من مؤلفي هذه الرسائل وهم : أبو سليمان محمد بن نصر البستي ، ويسمى أيضا المقدسي (أو المقدسي) ، وأبو الحسن علي بن هرون الزنجاني ، وأبو أحمد النهرجوري (أو المهرجاني) ، والوعفي ، وزيد بن رفاعه . ويظهر أن الثلاثة الأولين من هؤلاء من أصل فارسي كما يتضح من أسمائهم . وكان من بينهم أيضاً ابن سينا الطبيب والفيلسوف المشهور الذي وافته بموته (سنة ٤٢٨ هـ) - كما يقول Dietrici (٣) - حركة الفلسفة في المشرق ، (٤) .

### (ج) أبو نصر الفارابي

ومن أشهر فلاسفة المسلمين في هذا العصر أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي (٥) . وكان أبوه من كبار القواد ، وتنقل أبو نصر في أمهات المدن الإسلامية ، واختلف إلى بغداد حيث أخذ المنطق على أبي بشر متى بن يونس الحكيم المشهور ، وإلى حران حيث أخذ عن يوحنا بن خيلان الحكيم ، ثم عاد إلى بغداد وقرأ بها علوم الفلسفة ، وتناول جميع كتب أرسطاطاليس ، وتمهر في استخراج معانيها والوقوف على أغراضها فيها . ويقال إنه وجد كتاب لأرسطاطاليس وعليه مكتوب بخط أبي نصر الفارابي ، أتى قرأت هذا الكتاب مائة مرة . ونقل عنه أنه كان يقول : قرأت السماع الطبيعي لأرسطاطاليس الحكيم أربعين مرة ، وأرى أني محتاج لمعاودة قراءته ، (٦) .

ويعتبر الفارابي أكبر فلاسفة المسلمين ، حتى لقب بفيلسوف المسلمين بالحقيقة وفيلسوف المسلمين غير مدافع (٧) .

وقد اتصل الفارابي ببلاط سيف الدولة الحمداني صاحب حلب ومحج سيف الدولة عند فتحه

(١) دي بور : تاريخ الفلسفة الإسلامية من ٩٨ - ٩٩ . (٢) المصدر نفسه .

(٣) نصر رسائل إخوان الصفا وترجمها إلى الألمانية بين سنتي ١٨٥٨ ، ١٨٨٦ م . ونشرت أيضاً في ثلاثة أجزاء ( بمباي ١٣٠٥ هـ ) في ثلاثة أجزاء ، تصنيف أحمد بن عبد الله .

(٤) Browne : Lit. Hist. of Persia, Vol. I. p. 293.

(٥) سمى بذلك لأنه ولد في محلة وسبج النيمة الواقعة في إقليم فاراب ببلاد ماوراء النهر .

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٧٦ .

(٧) الففطلي : إخبار الحكماء من ١٨٢ .

مدينة دمشق ومات بها في سنة ٥٣٣٩ هـ. وترجع شهرته إلى شروحه الكثيرة على مؤلفات أرسطو، حيث لقب «المعلم الثاني»، تمييزاً له عن أرسطو الذي لقب «المعلم الأول»، كما يمتاز برسائله الكثيرة في علم النفس والإلهيات: ومنها العقل والمعقول، والنفس، وقوى النفس، والواحد والوحدة، والجوهر، والزمان، والخلاء، والمكان، والمقاييس. كما كتب عدة رسائل للتوفيق بين آراء أرسطو وأفلاطون منها: كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون الإلهي وأرسطاطاليس، وأغراض أفلاطون وأرسطو، وكتاب التوسط بين أرسطاطاليس وجالينوس، كما نشرت له رسالة آراء أهل المدينة الفاضلة<sup>(١)</sup>، وتقع في أربعة وثلاثين فصلاً، وتبين مدى تأثير الفارابي بأفلاطون<sup>(٢)</sup>. كما تكلم الفارابي في الأخلاق والمنطق، وفيما وراء الطبيعة، فتكلم عن الموجود والله<sup>(٣)</sup>، وعن العالم العلوي، والعالم السفلي، وبحث في النفس الإنسانية والعقل في الإنسان، وعن الحياة الآخرة<sup>(٤)</sup>.

#### (د) أبو علي بن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨ هـ)

ومن فلاسفة هذا العصر الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله المشهور بابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨ هـ). وقد أحيى آثار أرسطو وأفلاطون في الفلسفة وأبقراط وجالينوس في الطب. ولهذا ذاع صيته في هاتين الناحيتين في العصور الوسطى، ليس في تفكير أهالي آسيا وحدها، بل في تفكير الأوروبيين أيضاً<sup>(٥)</sup>.

ولد ابن سينا في إحدى قرى مدينة بخارى، وانتقل مع أسرته إلى هذه الحاضرة وهو في الخامسة من عمره، وحفظ القرآن ودرس الأدب وأصول الدين وحساب الهند والجبر ولما يتجاوز العاشرة من عمره، ثم درس على أبي عبد الله النابلي الفلسفة والمنطق، ثم درس وحده الطبيعيات والإلهيات مستعيناً في ذلك بمؤلفات الفارابي. ثم درس الطب ونبغ فيه ولما يتجاوز السابعة عشرة. ولما اضطربت أحوال الدولة السامانية خرج ابن سينا من بخارى وقصد خوارزم شاه علي بن مأمون بن محمد، ثم انتقل إلى نيسابور وأبيورد وطوس وغيرها. وكان يتردد على شمس المعالي قابوس بن وشمكير في طبرستان، ثم انتقل إلى الري وقزوین وهمدان، وتقلد الوزارة لشمس الدولة (٣٨٧ - ٤١٢ هـ) ابن نغر الدولة. ولكن الجند ثاروا عليه، فتواري، ثم أعيد لمداواة هذا الأمير الذي قلده الوزارة من جديد، وظل فيها إلى أن مات. وتولى تاج الدولة، فلم يستوزه، فتوجه إلى أصبهان، فأحسن إليه أميرها علاء الدولة<sup>(٦)</sup>.

(١) طبعة مصر سنة ١٣٢٣ هـ.

(٢) راجع مادة «أبو نصر الفارابي» في ترجمة دائرة المعارف الإسلامية.

(٣) يرى الفارابي أن كل وجود إما واجب الوجود أو ممكن الوجود، وليس هناك بين هذين الضربين وجود

(٤) راجع دي بور: تاريخ الفلسفة ص ١٢٧ وما يليها.

(٥) Browne: Lit. Hist. of Persia, Vol. II. p. 106

(٦) ابن خلسكان ج ١ ص ١٥٢ - ١٥٣.



وقد ألف ابن سينا في المنطق مقتنيا في ذلك أثر أبي نصر الفارابي . ويعتبر المنطق المدخل للفلسفة التي ألف فيها الكتب وتأثر بأرسطو ، كما بحث في الإلهيات وشرح إلهيات أرسطو . وتكلم عن الطبيعة ، وكان يحاول ما استطاع أن يوفق بين فلسفته وعقيدة أهل السنة والجماعة ، كما تكلم في الإنسان والنفس الإنسانية والعقل ، وانفرد في العقل بآراء . ففي رسالته حتى بن يقظان يرى أنه هو هادى النفوس الناطقة الانسانية ، وهو العقل الفعال آخر العقول الفلكية ، وهو الذى يؤثر في العقل الإنسانى (١) .

وكان ابن سينا — كما يقول ابن خلكان (٢) — « نادرة عصره في علمه وذكائه وتصانيفه ، وصنف كتاب الشفاء في الحكمة والنجاة والإشارات والقانون ، وغير ذلك مما يقارب مائة مصنف ما بين مطول ومختصر » .

## ٢ - الطب :

### تمهيد :

كان لتقدم الطب في أواخر العصر العباسى الأول أثر كبير في العصر العباسى الثانى . فقد نبغ في عهد الواثق والمتوكل كثير من الأطباء من أمثال يحيى بن ماسويه المتوفى سنة ٢٤٢ هـ ( ٨٥٦ م ) ، وبختيشوع الذى دخل في خدمة الرشيد والأمين والمأمون والمعتمد والواثق والمتوكل ، وكانوا يشقون به في معالجة نسايتهم وأولادهم (٣) . ولكن المتوكل صادر ثروته الضخمة التي جمعها من اشتغاله بالطب ونفاه إلى البحرين في سنة ٢٤٤ هـ لأسباب واهية (٤) . ومن نبغ في الطب أيضاً حنين بن حنين ( المتوفى سنة ٢٦٠ هـ ) ، وكان — كما يقول ابن خلكان (٥) — إمام وقته في صناعة الطب ، كما اشتهر بنقل كثير من الكتب من اليونانية . وترجم عن اليونانية كتاب إقليدس ، الذى نقله فيما بعد ثابت بن قرة . ومن مؤلفاته في الطب كتاب المسائل في الطب للبتلىين ، وكتاب علاج العين ، وكتاب الأسنان واللثة ، وكتاب تدير الناقه ، وكتاب معرفة أوجاع المعدة وعلاجها ، وكتاب المولودين ثمانية أشهر عمله لأم ولد المتوكل ، وكتاب الأغذية ، وكتاب اللبن (٦) .

اعتمد العباسيون على أطباء العراق والهند ، كما اعتمدوا على الطب الذى خلقه اليونان . وقد نبغ في عهد الواثق ( ٢٢٧ — ٢٣٢ هـ ) من الأطباء ابن بختيشوع ، وابن ماسويه ، وميخائيل ، وحنين بن إسحق . وحذقوا صناعة الطب ومرنوا عليها ، واعتمدوا في علاج مرضاهم على ما كسبوه من تجارب ، كما أفادوا من كتب اليونان ونظرياتهم في تشخيص الأمراض ، حتى قالوا في مداواة المريض : « إنه يستدل على الدواء من نفس الطبيعة والمرضى الحاضر ، أى الموجود في الحال

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ١٨١ . (٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٣ .

(٣) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٤١١ ، ٤١٣ .

(٤) Browne : Lit. Hist. of Persia, Vol. I. pp. 344, 345 .

(٥) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٦٧ . (٦) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٤١٠ .

والوقت ، دون الأسباب الفاعلة التي عُدت ، ودون الأزمان ... وزعموا أن من المعلومات الظاهرة التي لا ريب فيها أن الضدين لا يجوز اجتماعهما في حال ، وأن وجود أحدهما ينفي الآخر في الحال لا محالة ، وأن الطريق والقانون إلى معرفة الطب مأخوذ من مقدمات أولية : فمنها معرفة الأبدان والأعضاء وأفعالها ، ومنها معرفة الأبدان في الصحة والمرض ومعرفة الأهوية واختلافها ، والأعمال والصنائع والعادات ، والأطعمة والأشربة ، والأسفار ، ومعرفة قوى الأمراض . وقالوا ثبت في الشاهد أن الحيوان يختلف في صورته وطباعه ، وكذلك أعضاؤه مختلفة في طباعها وصورها ، وأن الأجساد الحيوانية تتغير بالأهوية المحيطة بها ، وبالحرارة والسكون ، والأغذية من المأكول والمشروب والنوم واليقظة ، واستفراغ ما يخرج من الجسد واحتباسه من الأعراض النفسانية ، من الغم والحزن والغضب والهم . والغرض بالطب هو تديرير الأجسام ، وحفظ الصحة الموجودة في البدن الصحيح ، واجتلابها للعليل .

فالواجب أن يكون حفظ الصحة إنما هو بمعرفة الأسباب المصححة . فالواجب على الطبيب لا محالة من هذه المقدمات التي قد صحت ، إذا أراد علاج المريض ، النظر في طبائع الأمراض والأبدان والأغذية والعادات ، والأزمان والأوقات الحاضرة ، والأسباب ، ليستدل بجميع ذلك . وهذا يا أمير المؤمنين قول أبقراط وجالينوس فيمن تقدم وتأخر عنهم . وقد اختلفت هذه الطائفة في كثير من الأغذية والأدوية ، مع اتفاقهم على ما وصفنا ، وذلك لاختلافهم في كيفية الاستدلال . فمنهم من زعم أنه يستدل على طبيعة الشيء من الأغذية والأدوية ، بطعمه أو ريحه ، أو لونه أو قوامه أو فعله ، وتأثيره في الجسد ، وزعموا أن الوثيقة في الاستدلال بالأجزاء ، إذا كانت الألوان والأرايح وسائر ما ذكرنا من أفعال الطبائع الأربع ، كما أن الأسخان والتبريد والتلين فعل لها . وزعمت طائفة أخرى منهم أن أصح الشهادات وأثبت القضايا في الحكم على طبيعة الدواء والغذاء ، ما أخذ من فعله في الجسد دون الطعم والرائحة وما سوى ذلك ؛ فإن الاستدلال بما سوى الفعل والتأثير ، لا يقطع به ولا يعول على طبيعة الدواء المفرد والمركب ، (١) .

كذلك وصف الأطباء في هذا العصر ، الفم والأسنان وأنواعها وعددها ووظيفة كل منها ، حتى لقد أعجب الخليفة الواثق بوصف حنين بن إسحق ، وطلب منه أن يصنف له كتاباً يذكر فيه جميع ما يحتاج إلى معرفته ، فصنف له كتاباً جعله ثلاث مقالات ، يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء والمسهل وآلات الجسد ، (٢) .

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٤ - ٣٦٦ .

(٢) مروج الذهب : ج ٢ ص ٣٦٦ .

أورد المسعودي وصفا دقيقا للأسنان يعتبر في الواقع وثيقة طبية هامة لا بأس من ذكرها هنا : قال الواثق لحنين من بين الجماعة : « ما أول آلات الغذاء من الإنسان ؟ قال : أول آلات الغذاء الفم وفيه الأسنان . والأسنان اثنتان وثلاثون سنا ، منها في الهن الأعلى ستة عشر سنا ، وفي الهن الأسفل كذلك . ومن ذلك أربعة في كل واحد من العيين هراض محددة الأطراف ، تسميها الأطباء من اليونانيين القواطع ، =

ويعد أبو يعقوب إسحق بن حنين المتوفى سنة ٢٩٨ هـ (وقيل سنة ٢٩٩ هـ) من أشهر أطباء هذا العصر . وقد فاق أباه حنين بن إسحق في النقل من اليونانية والسريانية إلى العربية . وكان - كما يقول ابن النديم (١) - فصيحاً بالعربية ، يزيد على أبيه في ذلك . واتصل بالخلفاء وكبار رجال الدولة ، ثم انقطع إلى القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد وأصبح من المقرين إليه (٢) . وله كثير من الكتب في الطب غير ما نقله إلى العربية ، منها كتاب الأدوية المفردة على الحروف ، وكتاب تاريخ الأطباء (٣) .

### (١) أبو بكر الرازي

ويعتبر أبو بكر محمد بن زكريا الرازي المتوفى سنة ٣١١ هـ أشهر أطباء عصره ، ويعرف عند الأوربيين باسم Rhazes . وكان في حداثة سنه مولعاً بالغناء ، ثم أقبل على دراسة الطب بعد أن جاوز الأربعين ، وقرأها قراءة رجل متعقب على مؤلفيها ، فبلغ من معرفة غوايرها الغاية ، واعتقد الصحيح منها ، وعلل السقيم ، وألف في الطب كتباً كثيرة . وقال غيره : كان إمام وقته في علم الطب والمشار إليه في ذلك العصر . وكان مثقناً لهذه الصناعة حاذقاً بها ، عارفاً بأوضاعها وقوانينها ، تشد إليه الرحال لأخذها عنه ؛ وصنف فيها الكتب النافعة : فمن ذلك كتاب الحاوي ، وهو من الكتب الكبار يدخل في مقدار ثلاثين مجلداً ، وهو عمدة الأطباء في النقل منه والرجوع إليه عند الاختلاف ؛ ومنها كتاب الجامع ، وهو أيضاً من الكتب النافعة ، وكتاب الأعضاء وهو أيضاً كبير (٤) . وقد اتصل بمنصور بن إسحق بن أحمد بن نوح الساماني ، فألف له كتابه « المنصوري في الطب » الذي يعد أشهر كتبه ، وهو على صغر حجمه من الكتب المختارة ، جمع فيه بين العلم والعمل ، ويحتاج إليه كل أحد (٥) .

وذلك أن بها يقطع ما يحتاج إلى قطعة من الأطعمة اللينة ، كما يقطع هذا النوع من المأكول بالسكين ، وهي التنايا والرابعيات . وعن جنبي هذه الأربعة في كل واحد من اللحين سنان ، وهو سنان حادة وأصولهما عريضة وهي الأنياب . وهما يكسر كل ما يحتاج إلى تكبيره من الأشياء الصلبة مما يؤكل . وعن جنبي التنايا في كل واحد من اللحين ، خمس أسنان آخر عوارض خشن ، وهي الأضراس ، ويسمونها اليونانيون الطواحن ، لأنها تطحن ما يحتاج إلى طحنه مما يؤكل . وكل واحد من التنايا والرابعيات والأنياب له أصل واحد . وأما الأضراس فما كان منها في اللحي الأعلى ، فله ثلاثة أصول خلا الضرسين الأقيسين ، فإنه ربما كان لسكل واحد منهما أصول أربعة . وما كان من الأضراس في اللحي الأسفل ، فليسكل واحد منها أصلان ، خلا الضرسين الأقيسين . فإما ربما كان لسكل واحد منهما أصول ثلاثة . وإما احتيج إلى كثرة أصول الأضراس دون سائر الأسنان ، لشدة قوة العمل بها ، وخصت العليا منها بالزيادة في الأصول لتعلقها بأعلى الفم .

أنظر الجزء الثاني من هذا الكتاب ص ٢٦٢ - ٢٦٤ .

(١) الفهرست ص ٤١٥ . (٢) ابن خلسكان ج ١ ص ٦٦ - ٦٧ .

(٣) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٤١٥ .

(٤) ابن خلسكان . وفيات الأعيان ج ٢ ص ٧٨ .

(٥) المصدر نفسه .

وقد ذكر ابن النديم (١) أسماء كتب الرازي ، فمنها : « كتاب الحاوي ، ويسمى الجامع الحاضر لصناعة الطب . ويقسم هذا الكتاب اثني عشر قسماً : القسم الأول منه في علاج المرضى والأمراض ، القسم الثاني في حفظ الصحة ، القسم الثالث في الرتبة والجبر (٢) والجراحات ، القسم الرابع في قوى الأدوية والأغذية وجميع ما يحتاج إليه من الموارد في الطب ، القسم الخامس في الأدوية المركبة ، القسم السادس في صناعة الطب ، القسم السابع في صيدنة الطب : الأدوية وألوانها وطعومها وروائحها ، القسم الثامن في الأبدان ، القسم التاسع في الأوزان والمكاييل ، القسم العاشر في التشريح ومنافع الأعضاء ، القسم الحادي عشر في الأسباب الطبيعية من صناعة الطب ، القسم الثاني عشر في المدخل إلى صناعة الطب مقالتان : في الأولى الأسماء الطبية ، وفي الثانية أوائل الطب . »

ومن هذه الكتب كتاب في أن الحية المفرطة تضر بالأبدان ، وكتاب ما يقدم من الفواكه والأغذية وما يؤخر ، وكتاب الجدري والحصبة ، وكتاب الحصى في الكلى والمثانة ، وكتاب إلى من لا يحضره طبيب ، وكتاب الأدوية الموجودة بكل مكان ، وكتاب الطب السلوكي ، وكتاب اختصار النبض الكبير لجالينوس ، وكتاب الفالج ، وكتاب هيئة الكبد ، وكتاب النقرس (٣) وعرق المدبني ، وكتاب القلب ، وكتاب هيئة السباح (٤) ، وكتاب أوجاع المفاصل اثنان وعشرون فصلاً ، وكتاب أقراباذين (٥) ، وكتاب تقسيم الأمراض وأسبابها وعلاجاتها على الشرح ، وكتاب في العلة التي لها يحدث الورم من الزكام في رؤوس بعض الناس ، وكتاب في التلطف في إيصال العليل إلى بعض شهواته ، وكتاب دفع مضار الأغذية ، وكتاب ترتيب أكل الفواكه ، وكتاب ما يعرض في صناعة الطب (٦) .

اشتهر الرازي بالكرم والعطف على الفقراء والمرضى ، حتى كان يعالجهم وينفق عليهم (٧) . ومن إرشاداته الطبية : « مهما قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية ، ومهما قدرت أن تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركب ... وإذا كان الطبيب عالماً والمريض مطيعاً فما أقل لبث العلة . ومن كلامه : « عالج في أول العلة بما لا تسقط به القوة (٨) » .

ومن أشهر أطباء هذا العصر أبو سعيد سنان بن ثابت بن قره المتوفى سنة ٣٣١ هـ (٩٤٢ م) (٩) ، وابنه إبراهيم المتوفى سنة ٣٣٦ هـ . وقد أراد الخليفة الفاهر أن يحوله إلى الإسلام ، فهرب ، ثم اعتقد هذا الدين بعد ذلك (١٠) .

(١) الفهرست ص ٤١٧ . (٢) رأب الصدع أصلحه وشعبه ولمله في صناعة جبر العظام .  
 (٣) بتعدد النون وسكون القاف وكسر الراء : ورم ووجع في مفاصل السكعين وأصابع الرجلين ، ويسمى داء الملوك . (٤) يعني تشريح سماخ الأذن . (٥) يعني المادة الطبية .  
 (٦) راجع ابن النديم ص ٤١٧ — ٤١٩ حيث تجد كل ما ألفه الرازي في الطب والمنطق والفلسفة والهندسة والكيمياء . (٧) المصدر نفسه ص ٤١٦ . (٨) ابن خلسكان ج ٢ ص ٧٨ .  
 (٩) أبو بكر الصولي : أخبار الرازي بالله والمتقى لله ص ٢٤٥ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١٤٣ .  
 (١٠) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٤٢١ .

(ب) علي بن العباس المجوسى

وكان علي بن العباس المجوسى المتوفى سنة ٥٣٨٤ (٩٩٤م) وطبيب عضد الدولة البويهى، ومؤلف كتاب «كامل الصناعات» أشهر أطباء عصره . وكان يقيم مع عضد الدولة فى مدينة شيراز . وقد ذكر نظامى عروضى السمرقندى فى كتابه «تشهار مقالة» الذى ترجمه براون (١) إلى الإنجليزية أن شهرة علي بن العباس قد ذاعت على أثر معالجته حمالاً اعتاد أن يحمل أحمالاً ثقيلة ، وأصيب من جراء ذلك بصداع مزمن ، كان يقعه عن عمله من حين إلى حين . وقد أصيب بهذا المرض وحاول الانتحار أكثر من مرة بعد أن قامى آلام هذا المرض سبعة أو ثمانية أيام . وتصادف أن مر هذا الطبيب ببيت المريض ، فحياه أخوه واستحلفه بالله سبحانه وتعالى وأخبره بحالة أخيه ، وطلب إليه أن يعود . وكان هذا المريض بديننا يلبس حذاءً ثقيلاً ، فخلل بوله ، ثم أمر بنقله إلى جهة خلوية ، وأمر أحد خدمه بمخلع حذائه وضربه على قفاه ، ثم أمره بمخلع عمامته ولفها حول عنقه . وأمر المريض أن يمتطى صهوة جواده ويعدو به حول ذلك المكان الفسيح ، فبدأ الدم يتدفق من خياشيمه حتى ساءت حاله ، ونام نوماً عميقاً وسط هذه الدماء المتدفقة من أنفه ، وفقد ثلثمائة درهم من دمه . ثم حملوه إلى داره ونام يوماً وليلة ، وزال عنه الصداع ولم يعاوده أبداً . ولما سأل عضد الدولة طبيبه عن هذه الطريقة الغريبة فى معالجة هذا المريض ، أجابه أن الدم قد تجمد فى رأسه ، وأنه كان من المستحيل أن يخلصه من هذا الدم المترام بالحمجمة ، فلجأ فى علاجه إلى هذه الطريقة التى صادفت هذا النجاح .

(ج) أبو علي بن سيدنا

ذكرنا من قبل أن ابن سيدنا درس المنطق والفلسفة على أبى علي الناتلى ، وأخذ الفقه على إسماعيل الزاهد ، وأنه اشتغل بالطب بعد أن توجه الناتلى إلى خوارزم شاه مأمون بن محمد ، «وتأمل الكتب المصنفة فيه ، وعالج تأديباً لا تكسباً ، وعلمه هذا فاق الأوائل والأواخر فى أقل مدة ، وأصبح فيه عديم القرين فقيده المثل . واختلف إليه فضلاء هذا الفن وكبرائه ، يقرءون عليه أنواعه والمعالجات المكتسبة من التجربة ، وسنه إذ ذاك نحو ست عشرة سنة . وفى مدة اشتغاله لم يغم ليلة واحدة بكاملها ، ولا اشتغل فى النهار بسوى المطالعة . وكان إذا أشكلت عليه مسألة ، توضأ وقصد الجامع وصل ، ودعا الله عز وجل أن يسهلها عليه ويفتح مغلقها له . وذكر عند الأمير نوح بن نصر السامانى ( ٣٣١ - ٣٤٣ ) صاحب خراسان فى مرض مرضه ، فأحضره وعالجه حتى برى . ، واتصل به وقرب منه ، ودخل إلى دار كتبه (٢) ... فظفر أبو علي فيها بكتب من علم الأوائل وغيرها ، وحصل ثخيب فوائدها ، واطلع على أكثر علومها . واتفق بعد ذلك احتراق تلك الخزانة ، فتفرد أبو علي بما حصله من علومها . وكان يقال إن أبا علي توصل إلى إحراقها لينفرد بمعرفة ما حصله منها وينسبه إلى نفسه . ولم يستكمل ثمانى عشرة سنة من عمره إلا وقد فرغ من تحصيل العلوم بأسرها التى عاناها (٣) .»

(١) Chahar Maqala, trans. by E.G. Browne, Anecdote XXXVI, pp. 124-5

(٢) انظر ص ٥١٨ من هذا الكتاب . (٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٥٢ - ١٥٣ .

ولما اضطربت أمور الدولة السامانية خرج أبو علي من بخارى وقصد قسبة خوارزم ، واختلف إلى خوارزم شاه علي بن مأمون بن محمد ، ثم انتقل إلى نسا وأبيورد وطوس وغيرها من البلاد . وكان يقصد الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير في طبرستان . وكان السلطان محمود الغزنوي قد بعث في طلب العلماء الذين كانوا يبلاط خوارزم شاه ، فلما هرب ابن سينا أمر هذا السلطان بنشر صورته في الآفاق . وقد مرض أحد أقرباء شمس المعالي قابوس بن وشمكير ، فعالجه ابن سينا وتم شفاؤه على يديه ، فاستدعاه قابوس إليه وعرف شخصه ، ولكنه أثر بقاءه في خدمته . وظل على ذلك مُدبداً . ولما سجن قابوس بن وشمكير ومات ، ذهب ابن سينا إلى داهستان ، ثم عاد إلى جرجان وصنف بها كتابه الأوسط الجرجاني ، ثم انتقل إلى الري ، ثم إلى قزوین وعمدنان ، وتقلد الوزارة لشمس الدولة بن نغر الدولة (٣٨٧-٤١٢ هـ) . ولكن الجند ثاروا عليه فتواري ، ثم أعيد لمداواة هذا الأمير ، وتقلد الوزارة من جديد ، وظل فيها إلى أن مات شمس الدولة ، وتولى تاج الدولة فلم يستوزه ، فتوجه إلى أصهان ، فأحسن إليه أميرها علاء الدولة بن كاكوية الذي يقول فيه ابن الأثير (١) : « ولا شك أن أبا جعفر ( بن كاكوية ) كان فاسد الاعتقاد ؛ فلماذا أقدم ابن سينا على تصانيفه في الإلحاد والرد على الشرائع في بلده (٢) » .

#### (د) الطب في مصر

##### ١ - في عهد الطولونيين

وكما زحرت بلاد المشرق بطائفة من الأطباء الذين ضربوا في الطب بأوفر سهم ، كذلك حفل المغرب الإسلامي ، وخاصة مصر ، بطائفة من أشهر أطباء هذا العصر . ومن هؤلاء سعيد بن توفيل طيب أحمد بن طولون ، وكان نصرانياً . ويقول ابن الداية (٣) إن ابن طولون شكاً من الإسهال ، فنصح له هذا الطبيب أن يلزم الحمية يومين ، ولكنه خالفه وأكل ، فانقطع عنه الإسهال . ولما علم هذا الطبيب بذلك ، أيقن أن حياة ابن طولون قد آذنت بالأفول ، ووصف حاله في هذه العبارة : « ضعف قوته الناهضة يقهر الغذاء ، وسيتحرك حركة منكراً » . وقد صدق هذا الطبيب ومات ابن طولون بعد يومين (٤) .

ومن الأطباء الذين اشتهروا بمصر إبراهيم بن عيسى الذي صحب أحمد بن طولون إلى مصر ومات بها في سنة ٢٦٠ هـ ، والحسن بن زيرك ، وكان من أطباء ابن طولون أيضاً ، ومات قبله بيوم واحد (٥) . ولاغرو فقد نبغ كثير من المصريين في هذا العصر في علم الطب وما يتصل به من صناعة الأدوية والعقاقير . وقد عمل ابن طولون في مؤخر جامع ميسأة وخزانة شراب ، بها الأدوية والأشربة التي

(١) ج ٩ ص ١٧٠ (٢) أنظر ترجمة أبي علي بن سينا في ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٥٢-١٥٤ (٣) سيرة ابن طولون ص ٨١ . (٤) أنظر هذا الكتاب ص ٢٢٨-٢٢٩ ، وابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج ٢ ص ٨٣-٨٥ . (٥) ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٨٣ .

قد يحتاج إليها المصلون ، وقرر لهذا المكان الخدم ، وعين للمسجد طبيباً خاصاً يقوم بتطبيب المرضى من المصلين . ويكاد هذا يشبه نظام الإسعاف اليوم .  
وكان ابن طولون يعنى بالشئون الصحية . فقد بنى المارستان للرضى فى أرض العسكر ( سنة ٥٢٥٩ هـ ) ، وجعل له حمامين ، خص أحدهما بالرجال والآخر بالنساء ، وأباحه للناس على اختلافهم من غير تمييز فى الأديان والمذاهب ، وأدخل فى هذا المارستان ضرباً من النظام جعلته فى مستوى أرقى المستشفيات فى الوقت الحاضر . فكان المريض إذا دخل نزعت ثيابه وأودع مامعه من المال فى عهدة أمين المارستان ، ثم قدمت له ثياب أخرى ، وأنزل فى مكان تتوافر فيه وسائل الراحة ؛ وقدمت له الأدوية والأغذية دون مقابل حتى يتم شفاؤه . فإذا قدمت له دجاجة ورغيف فأكلهما ، أذن له بمغادرة المارستان بعد أن ترد إليه ثيابه وماله . وبلغ من اهتمام ابن طولون بهذا المارستان وحرصه على راحة المرضى أنه كان يتفقد بنفسه فى يوم الجمعة ، فيطوف على خزائن الأدوية ويتفقد أعمال الأطباء ، ويشرف على المرضى ، ويبالغ فى مواساتهم وإدخال السرور عليهم .

## ٢ - فى عهد الفاطميين :

وقد اهتم الفاطميون بالطب وأغدقوا على الأطباء الأموال وأجزلوا لهم المنح ، وقلدوهم المناصب العالية ، وأصبحت لهم منزلة رفيعة بين رجال البلاط ، مما ساعد على تقدم دراسة الطب الذى أصبح يدرس نظرياً وعملياً فى المارستانات التى كانت أشبه بكليات للطب تخرج فيها جماعة من أطباء الأمراض الباطنية والجراحين والكحالين ، أى الذين يعالجون أمراض العيون . وكان من مستلزمات الطبيب أن يكون ملماً بعلوم الفلسفة واللغات الأجنبية ، وخاصة السريانية واليونانية ، بجانب إلمامه بالطب . وقد أورد القفطى وابن أبى أصيبعة تراجم كثير من الأطباء الذين نبغوا فى هذا العصر .

ومن هؤلاء أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سعيد التميمى ، وقد نشأ فى بيت المقدس ، حيث درس الطب على راهب يقال له أنبا زكريا بن ثوابة ، وعلى أحمد بن أبى يعقوب ؛ ثم تنقل فى كثير من المدن فى طلب هذا العلم ، وتوفّر على دراسته حتى نبغ فيه ، كما أتقن طريقة تركيب الأدوية . ثم اتصل بالحسن بن عبد الله بن طنج الإخشيدى والى الرملة وما يلبها من البلاد الساحلية فى عهد الإخشيديين ، فقربه إليه ، ثم صحب يعقوب بن كلثوم وصنف له كتاباً فى عدة مجلدات سماه « مادة البقاء » بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء . ثم اتصل بالأطباء الذين وفدوا على مصر مع الخليفة المعز لدين الله الفاطمى . ولابن عبد الله التميمى عدة مؤلفات فى الطب منها : كتاب مخلص النفوس الذى قال فيه : هذا ترياق ألقته بالقدس وأحكمت تركيبه ، مختصر نافع الفعل دافع لضرر السمومات القاتلة المشروبة والمصبوغة فى الأبدان بلسع ذوات السم من الأفاعى والثعابين وأنواع الحيات المملوكة السم والعقارب الجرارات (١) وغيرها ، وذوات الأربع والأربعين رجلاً ، ومن لدغ الرتيلات (٢)

(١) الجرارة ( على وزن فمالة ) عقرب تخرج ذنبها .

(٢) الرتيلاء أو الرتيلى أنواع من الهوام ، كالقذبان الذى يطير حول السراج ولسمها موروم مؤلم .

والعظايات<sup>(١)</sup>، محرب ليس له مثل . ثم ساق مفرداته وصورة تركيبه في كتابه المسمى «مادة البقاء» .  
وله من الكتب أيضاً كتاب «الفحص والأخبار» ، ومقالة في «ماهية الرمد وأنواعه وأسبابه  
وعلاجه» . وقد عاش التيمي إلى ما بعد سنة ٣٧٠ هـ<sup>(٢)</sup> .

ومن أطباء المعز موسى بن العازار الإسرائيلي الذي حذق صناعة الطب ، كما اشتهر في هذا العلم  
أيضاً ابنه إسحاق بن موسى ، وكان مقرباً من المعز ، ولكنه مات في شهر صفر سنة ٣٦٣ هـ ، فخرن  
الخليفة على وفاته لحذقه وكفايته ، وعين مكانه أخاه إسماعيل بن موسى وكان قد تحول إلى الإسلام ،  
وابنه يعقوب بن إسحاق . ومن كتب موسى بن العازار في الطب «الكتاب المعزى في الطبخ» الذي  
ألفه للخليفة المعز ، وكتاب الأقراباذين<sup>(٣)</sup> .

ومن نبغ في الطب أبو الفتح منصور بن سهلان بن مقشر النصراني ، طبيب الخليفة الحاكم  
الخاص . وكان مقرباً منه كما كان مقرباً من أبيه العزيز . وكان لشفاعته عند الحاكم أثر كبير في إطلاق  
سراح الكتاب من النصراني واليهود وإعادتهم إلى مراكرهم<sup>(٤)</sup> .

ومن أطباء هذا العصر رجل يهودي كان حامل الذكر يرتزق بمداواة الجراح . واتفق أن الحاكم  
أصيبت ساقه بعقر مزمن ؛ وبرغم عناية ابن مقشر وغيره من أطباء الحاكم بمداومة علاجه لم يبرأ من  
من هذا الجرح . ولما أحضر هذا الطبيب إليه وضع على الجرح دواء يابساً ، فشفي بعد ثلاثة أيام ،  
فمنحه الحاكم ألف دينار وخلع عليه ، ولقبه «بالحقير النافع» ، وجعله من أطباء الخاص<sup>(٥)</sup> .

### علي بن رضوان

ومن نبغ في الطب في عهد الخليفة العزيز أبو الحسن علي بن رضوان . وقد خلف كثيراً من  
الكتب التي تبرهن على سعة فكره وعلو كعبه في هذه الناحية ، كما أن له كتاباً في الفلسفة والمنطق وغيرهما  
من علوم الحكمة<sup>(٦)</sup> . وقد أحصى له لكرك<sup>(٧)</sup> ، نحو سبعين مؤلفاً . نشأ هذا الطبيب فقيراً معدماً ،  
لكنه أصبح بفضل جده ومنابرته رئيس الأطباء في عصر تفوقت فيه القاهرة على غيرها من الحواضر  
الإسلامية ، كبغداد وقرطبة . وكان لعلم التنجيم شأن يذكر في عصر الفاطميين ، حتى كان الخلفاء  
أنفسهم يعولون كثيراً على التنجيم ، ويعتقدون أن للظالم تأثيراً كبيراً في صاحبه . ويرى علي بن  
رضوان ، ذلك الفيلسوف المشهور والطبيب الماهر ، أن طالعه يدل على أنه خلق ليكون طبيباً ،  
فدفعته هذه العقيدة إلى تحصيل الطب .

(١) جمع عظاية ( بفتح الميم والطاء والياء ) دوية سامة كالبرص وجمعها عطاء وعظايات .

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج ٢ ص ٨٧ — ٨٩ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٦ .

(٤) يحيى بن سعيد : صلة تاريخ أوتينا ج ١ ص ١٨٥ — ١٨٦ ، الففطى : إخبار العلماء بأخبار

الحكام ( طبعة لايسك ١٩٠٣ ) ص ١٧٨ ، ٤٣٨ .

(٥) الففطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٧٨ .

(٦) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج ٢ ص ٩٩ — ١٠٥ .

(٧) Leclercq : Histoire de Medecine Arabe, tome II. pp. 552 et seq. (٧)



وكان علي بن رضوان من المجددين في صناعته ، ولو أن تجديده — على ما يقول بعض خصومه — محدود إذا ما قورن بالفارابي وابن سينا مثلاً . علي أن عمله لم يكن مقصوراً على النقل والشرح لكتب من جاء قبله من الأطباء كجالينوس وأبقراط ، بل كانت له ناحية خصبة من التفكير والابتكار ، كما يتجلى ذلك من قوله في ترجمة حياته : « وكنت منذ الثانية والثلاثين إلى يومى هذا أعمل تذكرة لى ، وأغيرها في كل سنة ، إلى أن قررتها على هذا التقرير الذى أستقبل به السنة الستين . من ذلك أتصرف كل يوم فى صناعتى بمقدار ما يغنى من الرياضة التى تحفظ صحة البدن ، وأغتذى بعد الاستراحة من الرياضة غذاء أقصد به حفظ الصحة ، وأجهد فى حال تصرفى فى التواضع والمدارة وغياث الملوف وكشف كربة المكروب وإسعاف المحتاج (١) . »

من هذا يتبين أن علياً بن رضوان كان مجدداً فى صناعته ، فكان بدون مشاهداته ، ويغير مادلت التجربة على فسادها ، ويظهر ما ظهر له صلاحه . ولم يكن هذا الطيب جشعاً ، كل همه الكسب من صناعته ، بل كان طبيباً إنسانياً ، يصرف اهتمامه لإسعاف الملوف ومساعدة الفقير والمحتاج ، ولا يفكر فيما وراء ذلك من طلب المال . وهذا أقصى ما تنبج إليه همه الطيب الكامل (٢) . وكانت حياة ابن رضوان كلها حياة كد وكفاح وعمل متصل إلى أن مات حول سنة ٤٦٠ هـ (٣) .

### ٣ — علم الفلك والنجوم :

كان لعلم النجوم أثر كبير فى توجيه سياسة بعض الخلفاء والأمراء الذين كانوا يعتمدون على التنجيم فى تنفيذ سياستهم . فقد رأينا كيف اعتمد أبو جعفر المنصور على النجوم فى تأسيس مدينة بغداد ، حتى إنه لم يبدأ بوضع الحجر الأساسى للبناء إلا بعد أن أشار عليه أبو سهل بن نوبخت المنجم الذى أخبره بما تدل عليه النجوم من طول بقاء هذه المدينة وكثرة عمارتها (٤) . وقد اختار الإسماعيلية ابن حوشب لرياسة دعوتهم فى بلاد اليمن ، لأنهم عرفوا عن طريق النجوم أنه سيكون له شأن فى نشر هذه الدعوة فى تلك البلاد (٥) . ومن قصيدة الفهرى التى يقول فيها :

فند الست والتسعير قطع القول فى العذر

ما يدلنا على عقيدة الإسماعيلية بأن دولتهم ستقوم فى سنة ست وتسعين ومائتين . وكان لهذه العقيدة أثر كبير فى انضواء كثير من الناس تحت لواء دعاة الإسماعيلية (٦) . وكذلك هذا الفاطميون حذو العباسيين فى الاعتماد على التنجيم . فقد ذكر ابن دقاق (٧) أن مدينة القاهرة التى بناها جوهر

(١) ابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ١٠٠ .

(٢) المصدر نفسه — أنظر ترجمة علي بن رضوان فى ج ٢ ص ٩٩ — ١٠٠ .

(٣) القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٤٤٣ — ٤٤٤ .

(٤) أنظر هذا الكتاب ج ٢ ص ٢٦١ .

(٥) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ( طبعة هنرى كاسل ، لندن ١٨٩٢ ) ص ١٤٠ .

(٦) أنظر هذا الكتاب ص ٣٣١ ، وكتاب « الفاطميون فى مصر » للوآلف ص ٧٧ .

(٧) الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٦ ص ٣٥ .

الصقلى سميت بهذا الاسم لأن أساسها شق على طلوع كوكب المريخ الذى يسمى « القاهر » . وذكر المقرئى (١) « أن القائد جوهر لما أراد بناءها ، أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد ظاهر مصر ليقم بها الجند ، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس بحيث لا يخرج البلد عن نسلهم أبداً . فاختروا طالعا لوضع الأساس وطالعا لحفر السور ، وجعلوا بدائر السور قوائم خشب بين كل قائمتين جبل فيه أجراس . وقالوا للعالم : إذا تحركت الأجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة . فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك ، فانفق أن غربا با وقع على جبل من تلك الجبال التى فيها الأجراس ، فتحركت كلها ، فظن العمال أن المنجمين قد حركوها ، فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا ، فصاح المنجمون : القاهر فى الطالع ، فمضى ذلك وفاتهم ما قصدوه . ويقال إن المريخ كان فى الطالع عند ابتداء وضع الأساس وهو قاهر الفلك ، فسموها القاهرة » .

وكذلك اهتم الخليفة الحاكم الفاطمى بعلم النجوم ، حتى إنه أنشأ رصداً بسفح المنطم أطلق عليه « الرصد الحاكمى » . واستعان بأبى الحسن على بن يونس المنجم المصرى المتوفى سنة ٣٩٩ هـ صاحب الزيج الحاكمى (٢) المعروف بالزيج الحاكمى وزيج ابن يونس الذى يقول فيه ابن خلكان (٣) : « هو زيج كبير رأيتة فى أربع مجلدات ، بسط القول والعمل فيه ، وما قصر فى تحريره . ولم أر فى الأزياج على كثرتها أطول منه . وذكر أن الذى أمره بعمله وابتدأ له العزيز أبو الحاكم صاحب مصر » (٤) . وقد ذكر أبو المحاسن (٥) عند كلامه على وفاة الحاكم أن « الحاكم كان ينظر فى النجوم ، فنظر مولده ، وكان قد حكم عليه بالقطع فى هذا الوقت ، فإن تجاوزه عاش نيفاً وثمانين سنة . وكان الحاكم لا يترك الركوب بالليل وطوف القاهرة ، فلما كان تلك الليلة قال لوالدته : على فى هذه الليلة وفى غد قطع عظيم ، والدليل عليه علامة تظهر فى السماء طلوع نجم سماه ، وكأنى بك وقد انتهكت وهلكت مع أختى ، فإنى ما أخاف عليك أضر منها ... فقبلت الأرض وقالت : إذا كنت تتصور هذا فارحمى واقض حتى ، ودع ركوبك الليلة ، وكان يجها ، فقال : أفعل » .

وكان ضجر الحاكم وخروجه آخر الليل سبب قتله على ما تقدم (٦) .

وقد نبغ فى علم النجوم ، أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخى ، وكان فى بدء حياته من أصحاب الحديث ، ثم اشتغل بعلم النجوم ، ونبغ فيه بعد أن بلغ السابعة والأربعين من عمره ، وعمر طويلا حتى جاوز المائة . وكان يضمر العداوة والبغضاء لأستاذه الكندى ، حتى إن هذا « حسن له النظر فى

(١) خطط ج ١ ص ٣٧٧ .

(٢) الزيج بكسر الزاى هو كتاب يحسب فيه سير الكواكب ومنه يستخرج التقويم ، أعنى حساب الكواكب لسنة سنة وهو فارسى . أنظر كتاب مفاتيح العلوم للخوازمى ص ١٢٧ .

(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٧٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٩ .

(٤) كان ابن يونس فوق شهرته فى علم النجوم يجيد نظم الشعر ، ومن شعره :

أحمل نصر الريح عند هبويه رسالة مشتاق لوجه حبيبته .

بنفسى من تحيا النفوس بقربه ومن طابت الدنيا به وبطيبه

(٦) أنظر هذا الكتاب ص ٢٦٢ — ٢٦٣

(٥) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٧ .

علوم الحساب والهندسة ، فدخل في ذلك فلم يكمل له ، فعدل إلى علم أحكام النجوم ، وانقطع شره عن الكندي بنظره في هذا العلم لأنه من جنس علوم الكندي ، (١) . وكان أبو معشر — كما يقول ابن خلكان (٢) — « إمام وقته في فنه ، وله التصانيف المفيدة في علم النجامة » . ومن أشهر كتبه في النجوم : كتاب المدخل الكبير ، وكتاب المدخل الصغير ، وكتاب هيئة الفلك واختلاف طلوعه ، وكتاب السهيمين وأعمار الملوك والدول ، وكتاب تفسير المنامات من النجوم ، وكتاب الأمطر والرياح وتغيير الأهوية (٣) .

وقد وضع أبو عبد الله محمد بن جابر البتاني الحرائي الصابي المتوفى سنة ٣١٩ هـ ، ويعرف عند الأوربيين باسم Albategnius (٤) ، الزيج الصابي الذي أثبت فيه الكواكب الثابتة في سنة ٢٩٩ هـ (٥) . وله الأعمال العجيبة والأرصاء المتقنة ... وكان أوحده عصره في فنه ، وأعماله تدل على غزارة فضله وسعة علمه ، (٦) . ومن أشهر كتبه أيضاً كتاب معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك (٧) .

وقد اشتهر بالنجامة بيت أبي الحسن علي بن أبي عبد الله هارون بن علي بن يحيى بن أبي منصور . وكان أبو منصور جد أبيه منجم أبي جعفر المنصور ، وابنه يحيى متصلاً بالفضل بن سهل الذي كان يعمل برأيه ، ثم صار منجم المأمون ونديمه وأسلم على يديه . وتوفى بحلب عند خروج المأمون إلى طرسوس (٨) . وكان أبو الحسن علي (٢٧٧ — ٣٥٢ هـ) من أكبر علماء النجوم في عصره ، وقد قرهه صاحب بن عباد إليه وأطلق عليه « جليس الخلفاء » وأئیس الوزراء ، (٩) . ومن كتبه « كتاب النيروز والمهرجان » ، وكتاب شهر رمضان وقد أهداه للخليفة الراضي (١٠) .

وقد بلغ الاهتمام برصد الكواكب غايته في القرن الرابع الهجري . وقد قيل إن شرف الدولة بن عضد الدولة (٣٧٦ — ٣٧٩ هـ) لما استقرت قدمه في العراق ، أمر بأن ترصد الكواكب السبعة في سيرها وتنقلها في بروجها على مثال ما كان المأمون يفعل ، (١١) .

وقد ضرب أبو الريحان البيروني المتوفى سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) بسهم وأفر في علم النجوم . وليس أدل على ذلك من مخاطراته في بلاط غزنة على ما جاء في المقالة الثالثة والعشرين من ترجمة كتاب « تشهار مقالة » (١٢) ، تأليف نظامي عروضي السمرقندي . ذلك أن السلطان محموداً الغزنوي بعث في طلب البيروني وهو في حديقة قصره الصيفي وغرس فيها ألف شجرة ليمتحن البيروني في علم

(١) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٣٨٦ . (٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٢

(٣) ابن النديم ص ٣٨٦ — ٣٨٧

(٤) Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. I. p. 363

(٥) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٣٨٩ — ٣٩٠

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨٠ (٧) ابن النديم ص ٣٩٠

(٨) ابن خلكان ج ٢ ص ١٩٤ (٩) التعالي : ببيعة الدهر ج ٣ ص ١٠٢

(١٠) ابن خلكان ج ١ ص ٣٥٦ (١١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٥٢

(١٢) The Chahar Maqāla (Four Discourses), trus. by E. G. Browne (London, 1899), pp. 92 — 5.

النجوم ، فسأله : من أى الأبواب الأربعة سأخرج ؟ فأجاب البيروني : اجمع رأيتك واكتبه على قطعة من الورق وضعها تحت وسادتي . ثم طلب أبو الريحان أسطرلابا واختبر النجوم ، ثم دون قراره في قطعة من الورق وضعها تحت الوسادة . وقال السلطان محمود : هل اهتديت إلى قرار ؟ فقال البيروني : نعم ! وأمر السلطان أن يثقب أحد الحيطان ويتخذ منه باب خامس خرج منه ، ثم أمر بإحضار الورقة . ولما أحضرت قرأ ما فيها وهو أنه لن يخرج من أحد هذه الأبواب الأربعة ، إلا أنه ستفتح فتحة في الحائط الشرقي ، وسيخرج من هذا الباب . ولما قرأ السلطان هذه الورقة أخذ المنضب منه كل مأخذ ، وأمر بأن يلقى أبو الريحان من فوق سطح القصر . ولكنه لم يصب بأذى ، لأنه سقط على شبكة أقيمت لطرد الذباب فتمزقت ، واستطاع أن يصل إلى الأرض ولم يلحق به أى ضرر . ولما أمر السلطان بإدخاله قال له : يا أبا الريحان ! هل تنبأت بهذا الحادث أيضاً ؟ فأبرز من جيبه كراسة مذكورة ، كتب فيها : سيلقي بي في هذا اليوم من قصر السلطان ، ولكنني سأصل إلى الأرض بسلام وأنهمض معاني الجسم . ولكن ذلك لم يجر على هوى السلطان الذي زاد غضبه وأمر باعتقاله في قلعة غزة ، حيث بقى ستة أشهر لم يجرؤ فيها أحد على أن يكلم السلطان في أمره ، وأطلق بفضل تدخل الوزير أحمد بن حسن الميمندى<sup>(١)</sup> الذي انتهى إحدى الفرص المناسبة وقال له إن أبا الريحان البيروني ، ذلك الرجل المسكين ، على الرغم من صدق نبوءته ، قد قيد وسجن بدلا من أن يخلع عليه ويحزله العطاء ، فأجابه السلطان : اعلم ياسيدي أن هذا الرجل ليس له نظير في الدنيا سوى ابن سينا ، ولكن كل تنبؤاته لم تتفق مع رغباتي . والملوك كالأطفال الصغار ، يجب على المرء أن يتكلم بما يتفق ورغباتهم ليفوز بمنحهم وعطاياهم . وكان من الخير له أن يخطف في إحدى هاتين النبوءتين . ومع ذلك مر بإحضاره في الغد وأعطه جواداً محلي بالذهب وخلعة سلطانية وعمامة من الطيلسان ، وهب له ألف دينار وعبداً وأمة .

#### ٤ - الرياضيات :

ومن أشهر بالرياضيات ثابت بن قرة الحراني ( ٢٢١ - ٢٨٨ هـ ) ، وكان في بدء أمره صيرفياً بحران ، واتصل بالخليفة المعتضد الذي أدخله في عداد من اعتمد عليهم في التنجيم . وبفضل ثابت ارتفع شأن الصابئة وعلت منزلتهم عند الخلفاء . ومن أشهر مؤلفاته في الرياضيات : كتاب حساب الآلة ، وكتاب في استخراج المسائل الهندسية ، وكتاب الأعداد ، وكتاب شكل القطاع<sup>(٢)</sup> . وكان سنان بن ثابت المتوفى سنة ٣٣١ هـ من كبار الرياضيين والمهندسين في هذا العصر ؛ على أن شهرته في الطب فاقت شهرته في هذه النواحي<sup>(٣)</sup> .

ومن أشهر الرياضيين أبو الوفا محمد بن محمد بن إسماعيل بن العباس<sup>(٤)</sup> . وقد ولد في نيسابور

(١) نسبة إلى ميمند ، وهي رستاق بفارس ، وبنواحي غزة أيضاً . أنظر هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت

(٢) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٣٨٠ (٣) المصدر نفسه ص ٣٨٠ ، ٤٢١

(٤) المصدر نفسه ص ٣٩٤

سنة ٣٢٨ هـ ، ووفد على العراق وهو في العشرين من عمره . وتعلم الحساب على عمه أبي عمرو المغازلي وخاله أبي عبد الله محمد بن عنبسة . ومن مؤلفاته : كتاب ما يحتاج إليه العمال والكتاب من صناعة الحساب ، وهو سبعة أقسام ، كل قسم سبعة أبواب شملت جميع أنواع الرياضيات ، وكتاب تفسير كتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة ، وكتاب المدخل إلى الأرقام طبق ، وكتاب استخراج ضلع المكعب ، وكتاب معرفة الدائرة من الفلك .

ومن أشهر الرياضيين في عهد الفاطميين أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم ، وقد نشأ في البصرة ثم انتقل إلى مصر وأقام بها . وكان — كما يقول ابن أبي أصيبعة (١) — فاضل النفس ، قوى الذكاء ، متفنتا في العلوم ، لم يمانه أحد من زمانه في العلم الرياضى ولا يقرب منه . وكان دائم الاشتغال كثير التصنيف وافر الزهد عجا للخير . وقد لخص كثيراً من كتب أرسطاطاليس وشرحها ، وكذلك لخص كثيراً من كتب جالينوس في الطب . وكان خبيراً بأصول صناعة الطب وقوانينها وأمورها الكلية ، إلا أنه لم يباشر أعمالها .

ولما اتصل خبره بالحاكم الفاطمي ، ناقت نفسه إلى رؤيته ، ثم نعى إلى هذا الخليفة أنه قال : « لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص . فقد بلغني أنه ينحدر من موضع عال هو في طرف الإقليم المصري . فازداد الحاكم إليه شوقاً وأرسل إليه سر اجلة من المال وأرغبه في الحضور ، فسار نحو مصر . ولما وصلها خرج الحاكم للقائه ، والتقيا بقرية على باب القاهرة المعزية تعرف بالحنديق ، وأمر بإزالته وإكرامه واحترامه ، وأقام ريثماً استراح ، وطالبه بما وعد به من أمر النيل . فسار ومعه جماعة من الصناع المتولين العمارة بأيديهم ليستعين بهم على هندسته التي خطرت له . ولما سار إلى الإقليم بطوله ، ورأى آثار من تقدم من ساكنيه من الأمم الخالية ، وهي في غاية من إحكام الصنعة وجودة الهندسة ، وما اشتملت عليه من أشكال سماوية ومثالات هندسية وتصوير معجز ، تحقق أن الذي يقصده ليس بمحكم ؛ فإن من تقدمه في العصور الخالية لم يعزب عنهم علم ما عليه ، ولو أمكن لفعلوه . فأنكسرت همته ووقف خاطره ووصل إلى الموضع المعروف بالجنادل قبل مدينة إسوان ، وهو موضع مرتفع ينحدر منه ماء النيل ، فعابته وباشره واختبره من جانبيه ، فوجد أنه لا يمشی على موافقة مراده ، وتحقق الخطأ والغلبة عما وعد به ، وعاد خجلاً منخدلاً ، واعتذر بما قبل الحاكم ظاهره ووافق عليه . ثم إن الحاكم ولاه بعض الدواوين ، فتولاهم رهبة لا رغبة ، وتحقق الغلط في الولاية ؛ فإن الحاكم كان كثير الاستحالة مريباً للدماء بغير سبب أو بأضعف سبب من خيال يتخيله ، فأجال فكرته في أمر يتخلص به ، فلم يجد طريقاً إلى ذلك إلا إظهار الجنون والخبال ، فاعتمد ذلك وشاع ، فأحبط على موجوده له بيد الحاكم ونوابه ، وجعل يرسمه من تخدعه ويقوم بمصالحه ، وقيد وترك في موضع من منزله ، ولم يزل على ذلك إلى أن تحقق وفاة الحاكم . وبعد ذلك يبسير أظهر العقل وعاد إلى ما كان عليه ، وخرج عن داره واستوطن قبة على باب الجامع الأزهر أحد جوامع القاهرة ، وأقام بها متنسكاً متعزباً

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج ٢ ص ٩٠

مقتنعا ، وأعيد إليه ماله من تحت يد الحاكم ، واشتغل بالتصنيف والنسخ والإفادة . وكان له خط قاعد في غاية الصحة ، كتب به الكثير من علوم الرياضة ... ولم يزل على ذلك إلى أن مات بالقاهرة في حدود سنة ثلاثين وأربعمائة أو بعدها بقليل ، (١) .

وكان ابن الهيثم غزير العلم واسع الاطلاع كثير التصنيف . فن كتبه : كتاب السماع الطبيعي ، ويتناول ستة أمور هي : المبادئ الكونية والطبيعية ، والمكان ، والحلاء ، وما لانهية له ، والزمان والحركة والمحرك الأول ؛ وكتاب الكون والفساد ، وكتاب الآثار العلوية وهي التي تعرض في الجو كالسحاب والضباب والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق ، وكتاب النبات والحيوان ، وكتاب السماء والعالم ، وكتاب النفس ، وكتاب فيما بعد الطبيعة . فبين أن الإله واحد وأنه حكيم لا يجهل ، وقادر لا يعجز ، وجواد لا يبخل . ثم تفرغ لدراسة علوم الفلسفة وهي ثلاثة علوم : رياضية ، وطبيعية ، وإلهية (٢) . وقد بين لنا ابن الهيثم نفسه آثاره في الرياضيات في هذه العبارة فقال : « فما صنعت في العلوم الرياضية خمسة وعشرون كتابا ( أجدها ) شرح أصول إقليدس في الهندسة والعدد وتلخيصه ( والثاني ) كتاب جمعت فيه الأصول الهندسية والعديدية من كتاب إقليدس وأبولونيوس ، ونوعت فيه الأصول وقسمتها ، وبرهنت عليها براهين نظمها من الأمور التعليمية والحسية والمنطقية ، حتى انتظم ذلك مع انتقاض توالي إقليدس وأبولونيوس ( والثالث ) شرح المجسطي (٣) وتلخيصه شرحا وتلخيصا برهانيا لم أخرج منه شيئا إلى الحساب إلا اليسير . وإن أخر الله في الأجل وأمكن الزمان من الفراغ استأنفت الشرح المستقصى لذلك الذي أخرجه به إلى الأمور العدديّة والحسابية ( والرابع ) الكتاب الجامع في أصول الحساب وهو كتاب استخرجت أصوله لجميع أنواع الحساب من أوضاع إقليدس في أصول الهندسة والعدد ، وجعلت السلوك في استخراج المسائل الحسابية بجهتي التحليل الهندسي والتقدير العددي ، وعدلت فيه عن أوضاع الجبريين وألفاظهم ( والخامس ) كتاب لخصت فيه علم المناظر من كتابي إقليدس وبطليموس ، وتممته بمغاني المقالة الأولى المفقودة من كتاب بطليموس ( والسادس ) كتاب في تحليل المسائل الهندسية ( والسابع ) كتاب في تحليل المسائل العدديّة بجهة الجبر والمقابلة برهنا ( والثامن ) كتاب جمعت فيه القول على تحليل المسائل الهندسية والعدديّة جميعا ؛ لكن القول على المسائل العدديّة غير برهن ، بل هو موضوع على أصول الجبر والمقابلة ( والتاسع ) كتاب في المساحة على جهة الأصول ( والعاشر ) كتاب في حساب المعاملات ( والحادي عشر ) مقالة في إجازات الحفور والأبنية طبقت فيها جميع الحفور والأبنية بجميع الأشكال الهندسية حتى بلغت في ذلك إلى أشكال قطوع المخروط الثلاثة : المكافئ والزائد والناقص ( والثاني عشر ) تلخيص مقالات أبولونيوس في قطوع المخروطات ( والثالث عشر ) مقالة في الحساب الهندسي ( والرابع عشر ) مقالة في استخراج سمت القبلة في جميع المسكونة بمجداول وضعتها ولم أورد البرهان هلى ذلك ( والخامس عشر ) مقالة فيما تدعو إليه حاجة الأمور الشرعية من الأمور

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٩٢ — ٩٣

(١) ابن أبي أصيبعة ج ١ ص ٩٠ — ٩١  
(٣) وهو الكتاب الأعظم في الفلك لبطليموس

الهندسية ولا يستغنى عنه بشيء سواه ( والسادس عشر ) رسالة إلى بعض الرؤساء في الحث على عمل الرصد النجومى ( والسابع عشر ) كتاب في المدخل إلى الأمور الهندسية ( والثامن عشر ) مقالة في انتزاع البرهان على أن القطع الزائد والحظان اللذان لا يلقيانه ( لا ) يقربان أبداً ولا يلتقيان ( والتاسع عشر ) أجوبة سبع مسائل تعليمية سئلت عنها بيغداد فأجبت ( والعشرون ) كتاب في التحليل والتركيب الهندسيين على جهة التمثيل للتعللين ، وهو مجموع مسائل هندسية وعددية حللتها وركبتها ( والحادى والعشرون ) كتاب في آلة الظل اختصرته ولخصته من كتاب إبراهيم بن سنان في ذلك ( والثانى والعشرون ) مقالة في استخراج ما بين بلدين في البعد بجهة الأمور الهندسية ( والثالث والعشرون ) مقالة في أصول المسائل العددية الصم وتحليلها ( والرابع والعشرون ) مقالة في حل شك على إقليدس في المقالة الخامسة من كتابه في الأصول الرياضية ( والخامس والعشرون ) رسالة في برهان الشكل الذى قدمه أرشميدس في قسمة الزاوية ثلاثة أقسام ولم يبرهن عليه ، (١) .  
وبلى ذلك ما ألفه ابن الهيثم من علوم الطبيعة والإلهية وهى أربعة وأربعون كتاباً (٢) ، ومن العلوم الطبية وهى ثلاثون كتاباً (٣) .

#### ٥ - التاريخ

زخر العصر العباسى الثانى بطائفة كبيرة من أعلام التاريخ . ولا غرو فإن هذه النهضة العلمية قد وضعت أسسها فى أواخر العصر العباسى الأول بعد أن نشطت حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية ، وبدأ المسلمون يصنفون الكتب فى مختلف العلوم والفنون ، وساهم الفرس فى هذه الحركة بأوفر نصيب . ومن أشهر مؤرخى القرن الثالث الهجرى يعقوب بن المتوفى سنة ٢٨٢ هـ ( ٨٩٥ م ) ، وكان شيعياً متحمساً لعقائد الشيعة . ولذلك أسهب فى الكلام على الأئمة ، ونقل كثيراً من الأقوال التى أثرت عنهم . ويعتبر كتابه فى التاريخ المعروف بتاريخ يعقوب (٤) من أعظم المصادر التاريخية ، كما يعد كتابه « البلدان » من أشهر الكتب الجغرافية (٥) .

ومن هؤلاء المؤرخين أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ( ٨٨٩ م ) ، الذى خلف كثيراً من الكتب ، منها كتاب الإمامة والسياسة المنسوب إليه ، وكتاب المعارف (٦) الذى يعد بحق مجموعة معارف مفيدة ، وكتاب عيون الأخبار (٧) ويعد من خيرة كتب الأدب والتاريخ مادة وترتيباً (٨) .

(١) ابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ٩٣ - ٩٤ (٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٩٤ - ٩٥

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٩٥ - ٩٨

(٤) فى جزئين ed. Houtsma, Leyden, 1883

(٥) ed. De Goeje, Leyden, 1892.

(٦) طبعة القاهرة سنة ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٤ م

(٧) فى أربعة أجزاء طبعت بدار الكتب المصرية بالقاهرة (١٣٤٣-١٣٤٩-١٩٢٥=١٩٣٠م)

(٨) ed de Goeje, Leyden, 1855. ، القاهرة سنة ١٣١٧ هـ ( ١٩٠٠ م )

ومن هؤلاء المؤرخين البلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩ هـ (٨٩٢ م) ، وبعد كتابه فتوح البلدان من أحسن المصادر فى الفتوح الإسلامية . ومن هذه المصادر كتاب الأخبار الطوال (١) لأبى حنيفة الدينورى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) . وأول هؤلاء المؤرخين الأربعة من أصل عربى ، على حين يرجع الثلاثة الآخرون إلى أصل فارسى .

ويعتبر كتاب الأمم والملوك (٢) لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ (٩٢٣ م) من أمهات الكتب التاريخية الموثوق بصحتها . ولا غرو له فإن الطبرى أكثر تحقيقاً من سبقه من المؤرخين ، فضلا عن أنه انفرد بذكر حوادث لم يذكرها أحد قبله . وقد تكلم على الحوادث التاريخية منذ بدء الخليقة إلى سنة ٣٠٢ هـ ، ثم جاء عريب بن سعد القرطبى المتوفى سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ - ٩٧٧ م) ، فوصل الحوادث فى كتابه المسمى «صلة تاريخ الطبرى» (٣) من سنة ٢٩١ هـ إلى نهاية عهد الخليفة المقتدر العباسى سنة ٣٢٠ هـ (٤) .

وكان القرن الرابع غنياً بكثير من المؤرخين . ومن هؤلاء سعيد بن البطريق المتوفى سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) ، واشتهر باسم أوتىخا Eutychius . وكان أحد بطارقة الاسكندرية . وقد خلف كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق (بيروت ١٩٠٩) ، الذى ذيله يحيى بن سعيد الأنطاكى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) ، ويسمى «صلة كتاب أوتىخا» .

ومن مشهورى المؤرخين فى هذا العصر أبو عبد الله محمد بن عبدوس المعروف بالجهشيارى صاحب كتاب الوزراء والكتاب . وهو مؤرخ قديم من طبقة ابن جرير الطبرى (المتوفى ٥٣٠ هـ) ، والمسعودى (المتوفى ٣٤٥ هـ) (٥) . وكان أبوه عبدوس الجهشيارى حاجب على بن عيسى وزير المقتدر العباسى ، ثم ولى ابنه محمد بن عبدوس هذه الحجابة لعلى بن عيسى لما انضم إلى حامد بن العباس حين تقلد الوزارة سنة ٣٠٦ هـ . وكان ابن عبدوس على جانب عظيم من حسن الخلق ؛ فكان يأبى الإسفاف فى القول ولا يتسع صدره للغو (٦) .

وللجهشيارى كتب كثيرة أشهرها كتاب «الوزراء والكتاب» ، وهو أول ما ألف من نوعه فى تاريخ الوزراء . وقد حذا المؤرخون حذو الجهشيارى فى تاريخ الوزراء ، فألف هلال بن المحسن

(١) ed. Kratchkovsky, Leyden. 1892.

(٢) طبع هذا السفر الكبير دى غوبه فى ١٣ مجلداً : منها مجلداً للمقدمة التاريخية والفهارس (١٨٧٩ - ١٩٠١) . وقد طبع أيضاً فى القاهرة عدة طبعات من أقدمها طبعة المطبعة الحسينية (١٣٢٦ هـ)

(٣) طبعة دى غوبه سنة ١٨٩٨ م والمطبعة الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٦ هـ .

(٤) ترجم أبو على محمد البلعمى وزير منصور بن نوح السامانى كتاب تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبرى بصورة موجزة إلى الفارسية ، وقام بنقل هذه الترجمة إلى الفرنسية كل من ديبويه وزوتنبرج Dubeau and Zotenberg (Paris, 1867-74)

انظر Browne: Lit. Hist of Persia, Vol. I. pp. 359, 368

(٥) انظر مقدمة كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى ، حققه ووضع نهارسه الأستاذة مصطفى السقا ، وإبراهيم الإييارى ، وعبد الحفيظ شلى (الطبعة الأولى)

(٦) المصدر نفسه ص «و» ، «ز»



الصافي (٣٥٩ - ٤٤٨ هـ) كتاب تحفة الأبرار في تاريخ الوزراء (١) ، وصل به تاريخ الجهمياري إلى سنة ٣٩٣ هـ ، كما استمد منه ابن الطقطقي في كتابه ، الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية (٢) ، وابن الأثير في كتابه ، الكامل في التاريخ ، .

ومن مؤرخي هذا العصر أبو بكر محمد بن يحيى الصولي المتوفى سنة ٣٣٥ هـ (٩٤٦ م) ، وكان مجوسياً من أهل جرجان ، وقد تلمذ عليه الراضي بن المقتدر قبل أن يلى الخلافة (٣) ، وكتابه ، الأوراق (٤) ، مجموعة نفيسة في الأدب والتاريخ .

ويعتبر كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر (٥) لآبي الحسن علي المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦ هـ (٩٥٦ م) والذي ينتسب إلى عبد الله بن مسعود الصحابي المشهور ، من أهم المصادر التاريخية في هذا العصر ، وخاصة في الناحية الاجتماعية . ويتناول الكلام على الحوادث التاريخية منذ بدء الخليقة إلى أيامه . ومن كتبه أيضاً كتاب التنبيه والإشراف ، وهو من الكتب الهامة في تاريخ القرامطة وعلاقتهم بالعباسيين بوجه خاص . يقول ابن شاكر الكتبي (٦) عن المسعودي وعن مؤلفاته : « وكان إخبارياً علامة ، صاحب غرائب وملح ونوادر . مات سنة ست وأربعين وثلاثمائة ، وله من التصانيف : كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر في تحف الأشراف والملوك ، وكتاب ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور ، وكتاب الرسائل والاستدكار بما مر في سالف الأعصار ، وكتاب التاريخ في أخبار الأمم من العرب والعجم ، وكتاب التنبيه والإشراف ، وكتاب خزائن الملوك وسر العالمين ، وكتاب المقالات في أصول الديانات ، وكتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثنان ، وكتاب البيان في أسماء الأئمة ، وكتاب الخوارج ، .

ومن أهم المؤلفات التاريخية في هذا العصر كتاب ، البدء والتاريخ ، الذي نسب في وقت ما إلى أبي زيد البلخي المتوفى حول سنة ٣٥٥ هـ ، والذي كشف البحث الآن أن مؤلف هذا الكتاب هو مطهر بن طاهر المقدسي المتوفى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) . وهو جدير بالعناية ، وقد نشر مسيو هوبار الأحد عشر باباً الأولى من أبواب هذا الكتاب الاثني والعشرين . ويتناول الباب التاسع عشر من هذا الكتاب الكلام على تاريخ الفرق الدينية (٧) .

(١) طبعة بيروت سنة ١٩٣٣  
 (٢) القاهرة سنة ١٩٣٣  
 (٣) أبو بكر الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقى لله ص ٥ - ٢٦٠٦  
 (٤) نشر ج . هبورت دن من هذا الكتاب « كتاب أخبار الراضي بالله والمتقى لله » ، ويتناول تاريخ الدولة العباسية من سنة ٣٢٢ هـ إلى سنة ٣٢٣ هـ (القاهرة سنة ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥ م) . وكتاب أخبار الشام ( القاهرة سنة ١٩٣٤ م ) ، وكتاب أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم ( القاهرة سنة ١٩٣٦ م )  
 (٥) نشره وترجمه إلى الفرنسية برييه دي مينار وبانت ( Prairies d' ) Barbier de Meynard et Pavet Paris, 1861-1877 ، ونشر في القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ في جزئين .  
 (٦) كتاب فوات الوفيات ( القاهرة ١٢٩٩ هـ ج ٢ ص ٤٥ )  
 (٧) J. R. A. S. vol. xxxVI. 1904, p. 571.

انظر كتاب « الفاطميون في مصر » للمؤلف ص ٣

ومن مؤرخي هذا العصر الحسن بن زولاق الذي عاصر الإخشيديين والفاطميين وامتدت حياته في الدولة الفاطمية إلى سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) . وقد أتى في كتابه ، فضائل مصر وأخبارها وخواصها ، على تاريخ مصر منذ عصورها الأولى . وهو حجة في تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين ، لأنه كان مصريا ، ولأن شهرته قد ذاعت لسعة اطلاعه في مادة التاريخ .

وقد ألف ابن زولاق في تاريخ مصر طائفة من الكتب ، منها كتاب فضائل مصر ، وهو عبارة عن خطط أو وصف طبوغرافي تناول فيه الكلام على هذا الموضوع من جميع نواحيه ، وكتاب « قضاة مصر » الذي جعله ذبلا لكتاب القضاة لأبي عمر الكندي إلى سنة ٢٤٦ هـ ، وأتمه فيما بعد ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٣ هـ (١٤٤٩ م) ، وكتاب العيون الدعج في حلى دولة نبي طنج أو سيرة الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية في مصر سنة ٣٢٣ هـ ، وقد نقلها ابن سعيد<sup>(١)</sup> المتوفى سنة ٦٧٣ هـ (١٢٨٥ م) . وكتاب فضائل مصر مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ١٨١٧ ، وهو مختصر لهذا السفر الكبير الذي ألفه صاحبه عن تاريخ مصر . ومن آثار ابن زولاق كتاب « أخبار سيويه المصري<sup>(٢)</sup> » ، الذي أتقن النحو حتى لقب بسيويه ، كما كان أديبا وشاعرا وواعظا ، واستقصى فيه نوادر سيويه وفكاهاته التي شاعت بين المصريين في زمانه . ومات سيويه قبل الفتح الفاطمي بستة أشهر . وقد دون ياقوت أسماء الكتب التي ألفها ابن زولاق<sup>(٣)</sup> .

ومن المؤرخين الذين عاصروا الخليفة العزيز بالله الفاطمي أبو الحسن علي الشابتي من أولاد الشابتي حاجب وشمكير بن زيار الديلمي المتوفى سنة ٣٨٨ هـ (٩٨٨ م) ، وقد اتصل أبو الحسن بخدمة العزيز ، فولاه خزانه كتبه ، واتخذ من جلسائه وندمائه ، وترك في كتابه « الديارات » أخبارا طريفة عن الأديار في العراق والموصل وسورية والجزيرة ومصر ، وما قيل فيها من الأشعار وما جرى من حوادث وأمور . وقد أمدنا هذا الكتاب الذي لا يزال إلى اليوم من الكتب الخطية المودعة بمكتبة برلين ( فيمار ١١٠٠ ) بمعلومات هامة عن حفلة زواج الخليفة المأمون العباسي بابنة وزيره الحسن بن سهل ، وبزواج هرون الرشيد بالسيدة زبيدة من قبله . وهناك كتاب آخر عن كنانس وأديرة مصر لأبي صالح الأرمي المتوفى سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ م) ، اعتمد فيه على ما سمعه وشاهده بنفسه في زيارته للكنائس والأديار في القاهرة وضواحيها . والكتاب مملوء بكثير من الأمثلة التي تبين لنا مدى الخيرات التي أجزلها الخلفاء الفاطميون وغيرهم من رجالات الدولة للقبط ، وقد نشره مستر B.T.A. Evetts ، وزعم في مقدمته أن كتاب الديارات للشابتي قد ضاع ، وأنه لا يعرف إلا عن طريق العبارات التي اقتبسها منه غيره من الكتاب<sup>(٤)</sup> .

وهناك مؤرخ آخر هو الأمير المختار عز الملك محمد بن أبي القاسم المعروف بالمسيحي المتوفى

(١) كتاب المغرب في حلل المغرب والمشرق في حلل المشرق ص ٤ - ٤٥

(٢) إرشاد الأرب إلى معرفة الأدب ج ٣ ص ٧ (٣) طبعة القاهرة سنة ١٩٤٣

(٤) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ٦

سنة ٥٤٢٠ م ( ١٠٢٩ م ) ، كتب عن مصر كتابا مسهبا سماه تاريخ مصر . ويقول ابن خلكان (١) إنه يقع في ثلاث عشرة ألف ورقة أى في ستة وعشرين ألف صفحة ، ولا يوجد منه إلا الجزء الأربعةون بمكتبة الإسكوريال بأسبانيا ، وهذا الكتاب أحد تصانيف المسيحي التي بلغت الثلاثين ، والتي لم يعد لها الآن وجود إلا في هذه المقتنيات التي نعتز عليها في ثنايا الكتب .

وكان المسيحي يترى بزي الأجناد ؛ اتصل بخدمة الخليفة الحاكم الفاطمي . وتقلد في أيامه القيس والهنسا من أعمال الصعيد ، ثم تقلد ديوان الترتيب ، الذي تنظم فيه الرواتب وتدفع لمستحقها (٢) . ولا غرو فإن المسيحي حجة في تاريخ مصر في الصدر الأول من أيام الفاطميين . وقد ذكر تصانيفه من جاء بعده من المؤرخين كابن منجب الصيرفي ، وابن ميسر ، وابن خلكان ، والمقرئزي ، وأبي المحاسن ، والسيوطي (٣) .

ولا ننسى ما كتبه ثلاثة من الكتاب المعاصرين وهم مسكويه (٤) المتوفى سنة ٥٤٢١ م ( ١٠٣١ م ) ، وهلال الصابي (٥) المتوفى سنة ٥٤٤٨ م ( ١٠٥٦ م ) ، وأبو شجاع (٦) المتوفى سنة ٥٤٨٨ م ( ١٠٩٥ م ) . أما تاريخ مسكويه المسمى « تجارب الأمم » ، فهو من أهم الكتب العلمية في اللغة العربية . ويتناول جزء من هذا الكتاب الكلام على الحوادث المتممة لتاريخ الطبري ( وينتهي في سنة ٣٦٩ هـ ) . ولا يكتمني مسكويه في تاريخه بذكر الحوادث ، بل يعنى بالشئون الاجتماعية وخاصة الأحوال الاقتصادية عناية كبيرة . وبذلك خطا خطوة جديدة نقل بها دراسة التاريخ من سرد الحوادث الجافة إلى معالجة الشئون الاجتماعية والعمرانية .

وقد نقل مسكويه أخبار الحوادث التاريخية رواية عن تولوا الزعامة في هذه الحوادث من أمثال المهلب المتوفى سنة ٣٥٢ هـ ( ٩٦٣ م ) ، وأمين خزانه أبي الفضل بن العيسد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ ( ٩٧٠ - ٩٧١ م ) في الرى . وكان لمسكويه ضلع في كثير من الحوادث الهامة ؛ لأن المناصب التي تقلدها كانت تلقى على عاتقه كثيرا من المسئولية ، كما كان في استطاعته الوقوف على أسرار الدولة من غير أن تكون له بها علاقة شخصية ذات شأن عظيم (٧) .

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٥١٦ .

(٢) انظر دى سلين (De Slane) في ترجمة كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان (ج ٣ ص ٩٠ حاشية رقم ١)

(٣) انظر كتاب « الفاطميون في مصر للمؤلف » ص ٨

(٤) اختلف الكتاب في صفة نبوت القب له أو لأبيه ، فبعضهم كالتنوخى ( نشوار المحاضرة ص ١٧٣ ) وحاجي خليفة ( رقم ٢٤٣٠ ) يزعم أن القب متصل بأبيه ، على حين يقول غيرهم من أمثال بدیع الزمان الهمداني ( ص ١٥٧ . وقد سماه مسكويه ) ، وياقوت ( ارشاد ج ٢ ص ٨٨ ) ، وابن خلكان ( ج ٢ ص ٩٢ ) ، والقفطي ( اخبار العلماء باختيار الحكماء ص ٣٣١ ) ، ابن أبي أصيبعة ( عيون الأنباء في أخبار الأطباء ج ١ ص ٢٤٥ ) بأن القب متصل به هو .

(٥) ياقوت ( ارشاد ج ٧ ص ٢٥٥ ) ، وابن خلكان ( ج ٢ ص ٢٠٢ - ٢٠٣ ) ، ووستنفلد :

Geschichte der Araber Litterateur, no. 198

(٦) ابن خلكان ( ج ٢ ص ٦٩ - ٧٠ )

Mirgoliouth: Preface to Miskawih, p. III.

(٧)

وقد أسهب مسكويه في تاريخ الصدر الأول من أيام بني بويه ، ولم يغفل أن يمدنا بتاريخ الأحوال الخارجية للعباسيين .

وقد ذيل ظهير الدين محمد بن الحسين الروذراورى وزير الخليفة العباسى المقتدى ( ٤٧٦ - ٥٤٨٧ = ١٠٨٢ - ١٠٩٣ م ) المعروف بأبى شجاع ، تاريخ مسكويه بتاريخه الذى تناول فيه الكلام على المدة التى بين سنتى ٣٦٩ ، ٣٨٩ هـ . وتلاه هلال الصابى فى تاريخه الذى ذيل به أمدروز كتاب الوزراء إلى سنة ٣٩٣ هـ ونقله عنه مرجليوث (١) .

ومن المصادر التى ألفها جماعة من المؤرخين والأدباء فى هذا العصر كتاب : تاريخ بغداد أو مدينة السلام للحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ . وهو من أمهات الكتب التى يعتمد عليها فى دراسة تاريخ الدولة العباسية منذ تأسيس مدينة بغداد فى عهد الخليفة المنصور سنة ١٤٥ هـ إلى سنة وفاة هذا المؤلف . ويشتمل هذا الكتاب على وصف ضاف لمدينة بغداد ، كما يمدنا بأخبار من عاش فيها من الخلفاء والأمراء والوزراء وغيرهم ممن عاش فيها أو رحل إليها من أهل العلم والفضل . ويقع هذا الكتاب فى أربعة عشر مجلدا ، ولا غنى عنه لطلاب البحث فى تاريخ الدولة العباسية فى أزهى عصورها إلى سنة وفاة المؤلف .

كذلك لانغفل عن مؤلفات أبى الريحان البيرونى (٢) الخوارزمى المتوفى سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) . وقد قضى حياته تحت كنف أمراء بيت مأمون بن مأمون أمير خوارزم ، ثم زار حول سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) بلاط شمس المعالى قابوس بن وشمكير الذى اشتهر فى طبرستان بتشجيع العلماء ، وأهدى إليه تاريخه المشهور « الآثار الباقية عن القرون الخالية » (٣) ، ويتناول الكلام على نظم الطوائف والجماعات المختلفة ، والاحتفال بالأعياد القومية والدينية بوجه خاص . ثم عاد إلى خوارزم حيث قضى بقية حياته فى بلاط محمود الغزنوى . وكذلك ألف البيرونى كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مردولة » ، ويعرف باسم « تاريخ الهند » ، وقد نشر نسخته العربية وترجمتها إدوارد سخاو . ثم ألف البيرونى كتابه « التفهيم » ، وهو باللغة الفارسية ، كما وضع كتابه « التفهيم فى الفلك » الذى أهداه إلى الأميرة ریحانة الخوارزمية ، و « القانون المسعودى » وقد أهداه إلى السلطان مسعود بن محمود الغزنوى ، كما أهدى كتابه الذى ألفه فى الأحجار الكريمة إلى السلطان مودود بن مسعود .

وكان البيرونى غزير العلم ناقدا فذا ، صريحا فى الحق ، متصفا بالشجاعة التى لا تعرف خورا .

(١) انظر كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٩ ، ١٠ وقد طبعت هذه الكتب الثلاثة فى القاهرة (١٣٣٣ - ١٣٣٤ هـ = ١٩١٥ - ١٩١٦ م)

(٢) نسبة الى Bérün أحد أحياء حاضرة هذه البلاد . انظر

Sachau: Preface to Bérün's Chronology of Ancient Nations, English Translation, p. VII

(٣) طبعة إدوارد سخاو الذى ترجمه إلى الإنجليزية بعنوان

Chronology of Ancient Nations ( Lond. 1879 ).

وقد ولد بخوارزم ، ويغلب على الظن أنه توفي بغزنة سنة ٤٤٠ هـ (١) .  
 وكتب في هذا العصر في تاريخ مكة كل من الأزرقى المتوفى سنة ٢٤٤ هـ (٨٥٨ م) ، والفاكهي  
 المتوفى حول سنة ٢٧٢ هـ (٨٨٥ م) (٢) ، والترشخي الذي وضع كتابه « تاريخ بخارى » حول  
 سنة ٣٣٠ هـ (٩٤٣ م) ، والصاحب إسماعيل بن عباد الذي وضع كتابه حول سنة ٣٧٩ هـ  
 (٩٨٩ م) . ومن هذه الكتب التاريخية أيضاً « تاريخ أصفهان » للسافروخي ، و« تاريخ طبرستان  
 لليزدادي ، وقد وضعوا أول الأمر بالعربية ، ولكنهما لا يعرفان لنا إلا عن طريق الترجمة الفارسية .  
 أضف إلى ذلك ما كتبه أبو نصر العتبي عن حياة السلطان محمود الغزنوي إلى سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٨ م) .  
 مع أن هذا المؤلف عاش حتى سنة ٤٢٨ هـ ، ويسمى هذا الكتاب « تاريخ اليمنى » (٣) ، نسبة إلى  
 بين الدولة محمود الغزنوي (٤) .

### ٦ - الجغرافيا :

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب (٥) أنه « كان لاتساع نطاق التجارة في العصر العباسي  
 الأول ، واتصال مدينة بغداد حاضرة العباسيين برأ وبحراً بالبلدان القاصية ، ثم تعبيد الطرق وجعلها  
 آمنة ، أثر كبير في تسهيل الأسفار وتمهيد السبل أمام الكاشفين والرحالين . فظهر كثير منهم قاموا  
 برحلات مهمة ، ووضعوا في وصفها الكتب والأسفار ، ووصفوا ما شاهدوه في البلدان التي اختلفوا  
 إليها ، وصفاً دقيقاً مبنياً على المشاهدة . وبذلك خلف لنا جغرافيو المسلمين ثروة كبيرة هي خلاصة  
 مشاهداتهم وتجاربهم التي اكتسبوها من أسفارهم في كثير من الأقاليم والممالك والبلدان » .  
 ولكن مما يسترعى النظر أن هذه الثروة الجغرافية العظيمة التي خلفها جغرافيو المسلمين لم تظهر  
 ظهوراً واضحاً إلا في العصر العباسي الثاني . ويعتبر ابن خردادبة الفارسي الأصل الذي عاش في  
 النصف الأول من القرن الثالث الهجري من أقدم جغرافيين المسلمين في العصر العباسي ، فقد خلف  
 لنا كتابه « المسالك والممالك » (٦) ، ويعتبر بحق من أقدم الكتب الجغرافية التي ظهرت في اللغة  
 العربية . وهو عبارة عن دليل يستعين به المسافرون في الاهتداء إلى الطريق البحري الذي يبدأ من  
 مصب نهر دجلة عند الأبله ، ويصل إلى الهند والصين .  
 ومن جغرافيين هذا العصر يعقوب بن المتوفى سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) صاحب كتاب « البلدان » ،

(١) Browne : Lit. Hist. of Persia, Vol. II. p. 105.

(٢) Ibid. Vol. I. pp 345, 57

(٣) طبعة القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ ، ويقع في جزئين

(٤) Ibid, Vol. II. pp. 114-5

(٥) ص ٢٦٠

(٦) نشره دي غوية في ليدن سنة ١٨٨٩ م (ص ٤-١٨٣) . وبلية نبد من كتاب الخراج وصنعة الكتابة  
 لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي ، ويشمل الباب الحادي عشر من هذا الكتاب وعنوانه : في  
 ديوان البريد والسكك والطرق إلى نواحي المشرق والمغرب (ص ١٨٤ - ٢٦٦) .

وقد قام برحلات طويلة في أرمينية وإيران والهند ومصر وبلاد المغرب ، ودون نتائج رحلاته في كتابه ، والهمداني المتوفى سنة ٣٣٤ هـ ( ٩٧٣ م ) ، وقد ألف كتابه وصف جزيرة العرب ، وكان أبو الحسن علي المسعودي المتوفى سنة ٣٣٤ هـ ( ٩٥٦ ) من كبار الرحالين المسلمين ، وقد زار كل أرجاء العالم تقريبا ، فزار بلاد الفرس والهند وجزيرة سرنديب ، وصحب التجار إلى بحار الصين ، كما زار زنجبار وسواحل إفريقيا الشرقية والسودان ، وقام برحلات في إقليم بحر قزوين وآسيا الصغرى<sup>(١)</sup> وبلاد الشام وفلسطين ، وزار مصر في عهد الإخشيد سنة ٣٣٠ هـ ، واهتم بوصف الأهرام وغيرها من الآثار أكثر من اهتمامه بوصف المباني والبلاط وطبقات الشعب وحالة السكان . إلا أنه ، مع ذلك ، لم يغفل الكلام على وصف نظام الري وجبر الخليج وقطع السدود وليلة الغطاس<sup>(٢)</sup> ، كما وصف ما قام به المصريون من أعمال البحث والتنقيب عن الآثار ، وكشفهم أقيية مملوءة بالهياكل والموميات ، وما كان لذلك من أثر في تنبيه الأذهان إلى أهمية البحث عن الآثار المصرية القديمة<sup>(٣)</sup> .

وقد ألف أبو إسحق الإصطخرى الفارسى الذى عاش في القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) كتاب الأقاليم ، ووضعه بالخرائط ، كما ألف كتابه المسالك والممالك ، الذى وصف فيه نتائج مشاهداته في الأقاليم التي زارها ، ونقل كثيرا من كتاب صور الملوك لأنى زيد البلخى تلميذ الكندى الفيلسوف المشهور ، واعتمد على ما دونه بوزرج بن شهر يار أحد أهالى رامهرمز الذى كتب كتابه عجائب الهند ، باللغة العربية ، مستعينا في ذلك بمشاهداته وما نقله عن غيره من الرحالة<sup>(٤)</sup> . ثم جاء ابن حوقل في النصف الثاني من القرن الرابع الهجرى ، وراجع كتاب المسالك والممالك للإصطخرى وزاد عليه وأخرجه بنفس هذا الاسم<sup>(٥)</sup> . وكلا الكتابين قد ألف في النصف الثاني من القرن الرابع الهجرى ، ويحتوى كل منهما على وصف دقيق لكل جزء من أجزاء العالم الإسلامى وأشهر مدنه وأما كنهه . ومن أشهر الجغرافيين والرحالة في القرن الرابع الهجرى شمس الدين أبو عبد الله محمد المعروف بالبشارى المقدسى المتوفى سنة ٣٨٧ هـ ( ٩٩٧ ) ، وكتابه « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم »<sup>(٦)</sup> ، ذو قيمة عظيمة من الناحيتين الجغرافية والتاريخية<sup>(٧)</sup> .

وقد أودع ناصر خسرو ( ٤٨١ هـ = ١٠٨٨ م ) الرحالة الفارسى كتابه سفرنامه<sup>(٨)</sup> ( أو زاد المسافر ) مشاهداته في بلاد الفرس والعراق ، وفي بلاد الحجاز والشام وفلسطين ومصر ، التي زارها في أيام الخليفة المستنصر الفاطمى وأقام فيها نحو سنتين ( ٤٣٩ - ٤٤١ هـ ) ، ووصف لنا ثروة البلاط الفاطمى وأهله ، وما كانت عليه القاهرة من يسر ورخاء . وكان ناصر خسرو وزيراً في بلاط خراسان ،

(١) زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص ٢٦

(٢) مروج الذهب ج ١ ص ٢١٢ - ٢١٣ (٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٢٨ - ٢٢٩

(٤) Browne : Lit Hist. of Persia, vol. I. p. 368

(٥) نشره دى غوبه في المجموعة الجغرافية العربية (ليدن سنة ١٨٧٤ م)

(٦) نشره دى غوبه (ليدن ١٩٠٦ م)

(٧) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ٧

(٨) Safar Namèh, trans. by Charles Schefer (Paris, 1881)

ثم اعتزل السياسة ، فحج بيت الله ، وعينه الخليفة المستنصر كبيراً لدعاة الإسماعيلية في خراسان ، فاعتبر القاهرة المركز الرئيسي للذهب الذي يدين بعقائده ، كما اعتقد أن الفاطميين هم الأئمة حقاً (١) .

## ٢ - الفن

### (١) العمارة في المشرق

كثرت العمارة في العصر العباسي الثاني ، فبنت المدن التي امتلأت بالقصور والمساجد والمتنزهات وعلى الرغم من أن المسلمين استعانوا بمهرة الصناع في البلاد التي دخلت تحت حوزتهم ، احتفظت العمارة الإسلامية بطابعها الجديد ، وأصبحت تمتاز بمزايا خاصة بها . وتقدم فن الزخرفة في العصر العباسي باستعمال النقوش الخطية العربية التي كانت تتألف من الآيات القرآنية والشعر وعبارات التحية والتهنئة ، وتدور حول حافات التحف الأثرية ، أو تكون شريطاً زخرفياً على أثر من الآثار . وكان تأثير الفن الفارسي في الفن الإسلامي عظيماً في هذا العصر ، فأولع الخلفاء العباسيون والأمراء والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة ببناء القصور الفخمة المحلاة بالرسوم والزخارف من الداخل والخارج ، وعليها صور من الجص المجسم ؛ كما كانت طبقاتها مغطاة بستور من الديباج ، مزينة بالرسوم التي كانت من مميزات الفن الفارسي (٢) .

ومن آيات فن الزخرفة في العصر العباسي ، تلك الزخارف الجصية التي كانت تغطي الأجزاء السفلية من الجدران وتعرف بالوزرات . وقد كشفت الحفائر في أطلال مدينة سامرا عن نماذج كثيرة منها . كما كان من آياته الصور الحائطية التي عثر عليها في أطلال بعض القصور في هذه المدينة . وقوام هذه الصور رسوم حيوانات وطيور وصور آدمية لأشخاص في الصيد ، أو لنساء يرقصن . والمعروف أن أساليب العباسيين في زخرفة المنسوجات والتحف المعدنية والحزفية والحشيدية امتدت إلى شتى أجزاء الدولة الإسلامية في عصرهم ، فوصلت إلى مصر وإفريقية وإيران (٣) .  
والآن نأخذ في الكلام على تأسيس المدن في هذا العصر .

### ١ - العمارة عند العباسيين

#### (١) تأسيس مدينة الجعفرية:

يقول الطبري (٤) إن جعفر المتوكل أول خلفاء العصر العباسي الثاني عزم على نقل حاضرة ملكه من سامرا إلى دمشق ، أو بعارة أخرى من العراق إلى الشام ، وعول على المقام بها ونقل دواوين دولته إليها ، وأمر الناس بإقامة الأبنية فيها . ولكنه استوبأ بالبلد ، وذلك أن الهواء بها بارد ندى

(١) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر من ٢١٣ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ .

(٢) أنظر هذا الكتاب ج ٢ ص ٢٦٤ - ٢٦٦ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٦٦ - ٢٦٧ ، زكي محمد حسن : الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي

ص ١٧ ، ٢١١ - ٢١٦ ، ٢٣٧ - ٢٤١ .

(٤) ج ١١ ص ٥٥٠ .

والماء ثقيل ، والريح تهب فيها مع العصر ، فلا تزال تشتد حتى يمضي عامة الليل . وهي كثيرة البراغيث ، وغلت فيها الأسعار ، وحال الثلج بين السابلة والميرة .  
ومن ثم عزم هذا الخليفة على أن يبني مدينة جديدة يتخذها حاضرة لدولته ، فوضع أساس مدينة الجعفرية<sup>(١)</sup> في مكان قريب من مدينة سامرا من ناحية الشمال . وبنى قصره الذي سماه الجعفرى نسبة إليه ، بموضع يقال له الماحوزة ، وشجع الأمراء والقواد وغيرهم على البناء . ويقول الطبرى<sup>(٢)</sup> إن المتوكل أمر بنقض قصرى المختار والبيديع بسامرا وحمل ما فيهما من خشب الساج لاستعماله في بناء قصره الجديد الذى يقول فيه البحرى :

قد تم حسن الجعفرى ولم يكن ليتم إلا بالخليفة جعفر  
في رأس مشرفة حصاها جوهر وتراها مسك يشاب بعنبر  
ملأت جوانبها السماء وعانقت شرفاتها قطع السحاب الممطر  
أزرى<sup>(٣)</sup> على همم الملوك وعض من ببيان كسرى في الزمان وقصر  
عال على لحظ العيون كأنما ينظرن منه إلى يياض المشتري  
وتسير دجلة تحته فضاؤه من لجة غمر<sup>(٤)</sup> وروض أخضر  
شجر تلاعبه الرياح فتستنى أعطافه في سائح متفجر<sup>(٥)</sup>  
واسم شققته له من اسمك فاكسى شرف العلوبه وفضل المفخر<sup>(٦)</sup>

وكذلك بنى المتوكل في هذه المدينة قصرا آخر سماه لؤلؤة ، أمتاز بارتفاع بنائه ، كما أمر بحفر نهر يأخذ مائه من دجلة ويصل إلى هذه المدينة ، عرف باسم حُبة دجلة ، وأنفق على شق هذه الترعَة مائتي ألف دينار ، وكان يقوم بحفرها اثنا عشر ألف عامل ، كما بلغت نفقات قصر الجعفرى أكثر من مليون دينار .

ويقول ياقوت<sup>(٧)</sup> إن سامرا كادت تحرب وتخلو من أهلها على أثر انتقال المتوكل إلى الجعفرية ، وقد أنشد أحد الشعراء قصيدة يبكى فيها سامرا ويمتدح الجعفرية فقال :

أضحت قفارا سر من رامابها إلا لمنقطع به متلوم  
رحل الإمام فأصبحت وكأنها عرصات مكة حين يمضى الموسم  
كانت معادا للعيون<sup>(٨)</sup> فأصبحت عظة ومعتبرا لمن يتوسم  
وكان مسجدها المشيد بناؤه ربع أحال ومنزل مترسم

(١) وتسمى أيضا التوكلية

(٢) ج ١١ ص ٥٦

(٣) أزرى عليه حط من قيمته

(٤) لجة غمر يعنى ماؤها كثير

(٥) يعنى أن الرياح تلاعب الشجر فتتميل أغصانه على ماء جار

(٦) انظر لفظ الجعفرى في معجم البلدان لياقوت .

(٧) انظر لفظ الجعفرى في معجم البلدان لياقوت

(٨) كانت موعدا لسلك اليمن يريد النظر إليها لجملها وبهاثها



وإذا مررت بسوقها لم تثن عن سنن الطريق ولم تجد من يزعم  
فارحل إلى الأرض التي يحتلها خير البرية إن ذلك الأحزم  
أرض تسلم صيفها وشتاؤها فالجسم بينهما يصح ويسلم  
وصفت مشاربها وراق هواؤها والتد برد نسيمها المتنم  
سهلية جبلية لا تحتوى حراً ولا قسراً ولا تستوخم

ولم تلبث هذه المدينة أن تخربت على أثر مقتل الخليفة المتوكل في سنة ٢٤٧ هـ ، بعد أن هجرها ابنه  
وخليفته المعتضد ، وعاد إلى سامرا التي ظلت حاضرة الدولة العباسية إلى سنة ٢٧٩ هـ حيث عاد  
الخليفة المعتضد إلى بغداد ، فسقطت عمائر سامرا ولم يبق منها إلا المسجد الجامع (١) .

وكان المتوكل ولوعا بالعمارة وزخرفة الأبنية وتزيين جدرانها بالرسوم التي تمثل الحروب  
والمواقع الحربية . يقول المسعودي (٢) : «وأحدث المتوكل في أيامه بناء لم يكن الناس يعرفونه ،  
وهو المعروف بالخيرى والكمين والأروقة . وذلك أن بعض سماره حدثه في بعض الليالي أن بعض  
ملوك الحيرة من النعمانية من بنى نصر أحدث بنيانا في دار قراره ، وهى الحيرة ، على صورة الحرب  
وهيئة للوجه (٣) لها وميله نحوها ، لتلا يغيب عنه ذكرها في سائر أحواله . فكان الرواق مجلس الملك ،  
وهو الصدر والكان ميمنة وميسره ، ويكون في البيتين اللذين هما الكان من يقرب منه من خواصه ،  
وفي اليمين منهما خزانة الكسوة ، وفي الشمال ما احتيج إليه من الشراب . والرواق قد عم فضاؤه  
الصدر والكمين والأبواب الثلاثة على الرواق ، فسمى هذا البنيان إلى هذا الوقت بالخيرى والكمين  
إضافة إلى الخيرى . واتبع الناس المتوكل في ذلك اتتماما بفعله ، واشتهر إلى هذه الغاية .»

### (ب) العمارة في عصر بني بويه :

وكذلك حفل عصر بني بويه بالعمارة . وكان معز الدولة ولوعا بها . فقد أنشأ في سنة ٣٥٠ هـ في  
شرقي بغداد قصرا فخما ، أنفق عليه ثلاثة عشر ألف ألف درهم ، أى ما يقرب من مليون دينار .  
ونزع لذلك ملكية المباني المجاورة لهذا المكان ، وأمر بخلع الأبواب الحديدية بمدينة بغداد والرصافة  
ونقلها إل قصره ، ونقض دور الخلافة بسر من رأى ، وسور الحيس المعروف بالحديد ، وبني به  
داره ، وبالأجر الذى استعمله وطبخه فى الأتاتين ، ووثق البناء ، واختيرت له الآلات والجص  
والتورة (٤) . وبالع في الإحكام وجلب له البناءون الحذاق المشهورون من جميع البلدان الكبار من  
الأهواز والموصل وأصبهان وبلدان الجبل وغيرها . ونزل ( سفلا فى الأرض ) لبعض الأساسات  
ستا وثلاثين ذراعا ، ورفعها إلى وجه الأرض بالتورة والآجر إلى أن ارتفع فوق الأرض بأذرع (٥) .  
وقد أصاب هذا القصر ما أصاب غيره من قصور الخلافة فى سامرا على يد بهاء الدولة الذى شرع

(١) وترى أنقاض هذا المسجد فى قرية لاتزال تحمل اسم سامرا .

انظر زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ج ١ ص ٢٥ وما بعدها .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٩ . (٣) أى لشفته .

(٤) نوع من الجير ( المصيص ) (٥) مسكوبه : تجارب الأمم ج ٢ ص ١٨٣ .

في تخريبه واستعمال أنقاضه في بناء قصره سنة ٤١٨ هـ (١).

وكذلك كان عضد الدولة ولوعا بالعمارة ، وإليه يرجع الفضل في تعمير مدينة بغداد بعد أن أصابها التدمير بسبب ثورات الجند وغيرهم وإهمال شأنها مدة طويلة ، حين اتخذ بعض الخلفاء مدينتي سامرا والجعفرية حاضرة للدولة . لذلك أعاد عضد الدولة بناء كثير من مساجدها ، وفرشها وأدر الأرزاق على القائميين بها من المؤذنين والأئمة والقراء ، كما أعاد بناء ما تخرب من أرباض هذه المدينة ، وأمر أصحاب العمارات التي أصابها الخراب بإعادتها إلى ما كانت عليه وتجميلها ، وأمد العاجزين منهم بما يحتاجون إليه من المال . كما عمل على تحميل الأحياء الواقعة على ضفتي نهر دجلة ، وأقام الميادين والمنزهات ، فامتلات — على ما يقول مسكويه (٢) — هذه الخرابات بالزهر والخضرة والعمارة بعد أن كانت مأوى الكلاب ومطارح (٣) الجيف والأقذار ، وجلبت إليها الغروس من فارس وسائر البلاد . كما عمل عضد الدولة على تجديد مآثر من الأنهار وأعاد حفرها بعد أن أهملت زمنا طويلا ، وأقام جسر بغداد وحصنه بالدرابزينات ووكل به الحفظة والحراس (٤) . وأصلح الطريق من العراق إلى مكة ، وأعاد بناء مشهد علي والحسين (٥) . وكذلك أنشأ عضد الدولة البيارستان المنسوب إليه في الجانب الغربي من بغداد ( ٥٣٧٢ هـ ) ، وعين له الأطباء وغيرهم من الموظفين ، وأمده بكل ما يحتاج إليه (٦) .

وليس هذا كل ما قام به عضد الدولة من الأعمال العمرانية ، فقد بنى بفارس وخوزستان كثيرا من العمارات ، كما بنى البيارستان العضدي المشهور ، وعمل السكور (٧) وأنفق فيها الأموال ، وأعد عليها الآلات ، ووكل بها الرجال ، وألزمهم حفظها بالليل والنهار ، وراعى ذلك منهم أتم مراعاة في آونة المدود الجوارف ، وأزمنة الفيوث المواصل ، وأوقات الرياح العواصف (٨) . وكان البويهيون يعنون ببناء الأسوار حول المدن ؛ فقد أمر أبو كاليبجار ( ٤٣٥ — ٤٤٠ هـ ) ببناء سور مدينة شيراز في سنة ٤٣٦ هـ لرد غارات السلاجقة الذين تقاسم خطرهم في ذلك الحين . وبلغ طول هذا السور اثني عشر ألف ذراع ، وعرضه ثمانية أذرع ، وجعل له أحد عشر بابا (٩) .

## ٢ - العمارة في مصر :

### (١) تأسيس مدينة القطائع :

لما ضاقت مدينة العسكر التي أسسها صالح بن علي العباسي سنة ١٣٢ هـ بسكانها من أتباع ابن طولون وحاشيته وعسكره ، اتخذ لإقامته قصرا فسيح الأرجاء . واتخذ أمامه ميدانا فسيحا ، ثم اختط كبار

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٣٦ (٢) تجارب الأمم ج ٢ ص ٤٠٥ — ٤٠٦ .

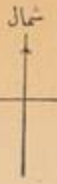
(٣) الأماكن التي تطرح فيها القمامات والجيف ونحوها .

(٤) مسكويه : نفس الجزء والصفحة (٥) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٥ (٦) أبو المحاسن ج ٤ ص ١٤١

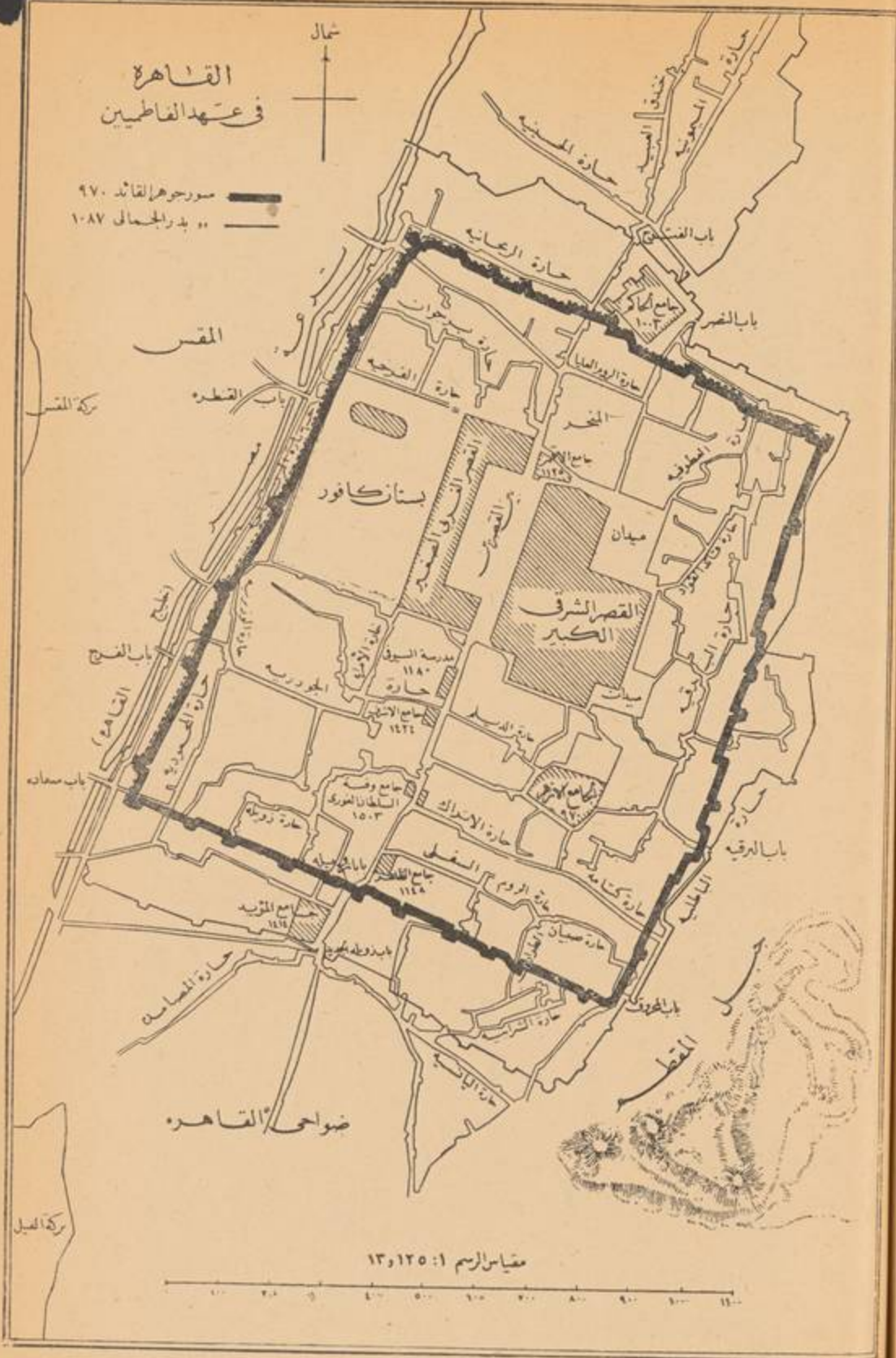
(٧) السكر ( بتشديد السين وسكون الكاف ) سد النهر .

(٨) مسكويه : تجارب الأمم ج ٣ ص ٦٨ — ٦٩ (٩) ابن الأثير ج ٩ ص ١٦٩

القاهرة  
في عهد الفاطميين



سور حورها القائد ٩٧٠  
سور بدر الجمالي ١٠٨٧



مقياس الرسم 1:125, 13

ل  
ت  
در  
ة،  
هم  
ين  
ارة  
س  
منا  
يق  
تان  
ن ،  
شيرا  
أعد  
ة في  
( ٥ )  
وبلغ  
ولون  
كبار

ر  
ق  
ال  
ا  
و  
و  
ع  
ا  
ق  
ب  
و  
د  
ل  
ا  
م  
و  
و  
و  
و

رجال دولته وقواده وغلمانه وأتباعه دورهم حول هذا المسكان ، واتخذ كل منهم قطعة خاصة به ، فسميت هذه المدينة « القطائع » . وكانت تمتد غرب القلعة ، ويحدها من الشمال خط ينطبق عليه شارع الصليبية ، ومن الغرب نواحي المشهد الزينبي ، ومن الجنوب العسكر (١) . وفي هذه المدينة أقامت الطوائف المختلفة من سودان ونوبيين وروم وغيرهم ، وأصبحت كل قطعة تعرف باسم الطائفة التي تسكنها . كذلك أفرد ابن طولون لأصحاب الحرف والصنائع والتجار قطائع خاصة بهم ، فعمرت المدينة وامتدت مبانيها حتى اتصلت بالفسطاط . وقد حدد المقرئزي مدينة القطائع في عهد أحمد بن طولون فقال : إنها كانت تمتد من قبة الهواء التي بنيت على أطلالها قلعة الجبل إلى جامع ابن طولون ، ومن الرميثة الواقعة تحت قلعة الجبل إلى مسجد زين العابدين (٢) .

وكان ابن طولون يخرج وحده من الباب الأوسط ، ومن البابين الآخرين يخرج عسكره في عدد عظيم ، وفي أتم نظام وأكمله . وكانت أبواب الميدان ، تفتح كلها في يوم العيد ، وفي أيام عرض الجيش وتوزيع الصدقات ، وتفتح في غير هذه الأيام بترتيب خاص وفي أوقات معلومة . وكان في قصر ابن طولون مكان يشرف منه يوم عرض الجيش ويوم توزيع الصدقات ، وعلى باب السباع بناء يشرف منه في ليلة العيد على القطائع ومن بها من غلمانه ، حتى إذا رأى أحدهم في حاجة إلى إصلاح حاله ، أمر له بما يصلحها ، وبذلك يرفه عليهم جميعاً (٣) .

عنى ابن طولون ببناء قصره وتجميله ، وجعل له ميداناً فسيحاً . وأصبح يطلق على القصر اسم « الميدان » ؛ وربما كان ذلك لاتساعه . وعمل ابن طولون للميدان أبواباً كثيرة : فباب الميدان خصص لدخول الجنود وخروجه ، وباب الصوالة (٤) ، وباب الخاصة لا يدخل منه إلا خاصة الأمير ، وباب الجبل لأنه كان يلي جبل المقطم ، وباب الدرامون وكان يجلس عنده حاجب أسود عهد إليه النظر فيما يرتكبه الغلمان السودان من الجرائم ، وباب دغناج لأنه كان يجلس عنده خادم أسود يقال له دغناج ، وباب الساج لأنه عمل من خشب الساج ، وباب الصلاة لأنه كان في الشارع الأكبر ، ومنه يتوصل إلى جامع ابن طولون . وكان على هذا الباب صورة سبعين من جنس ، ولهذا سمي باب السباع أيضاً . وكان لابن طولون طريق خاص ، به ثلاثة أبواب يتصل بعضها ببعض .

### جامع ابن طولون :

وفي مدينة القطائع بنى أحمد بن طولون في مصر ثالث المساجد الجامعة التي أقيمت فيها صلاة الجمعة منذ الفتح الإسلامي بعد جامعي عمرو والعسكر . وقد بنى هذا الجامع على جبل يشكر في الجهة

(١) المقرئزي : خطط ج ١ ص ٣١٣ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٣١٥ .

(٤) والمراد بذلك لعبة الكرة المعروفة عند الانجليز والفرنسيين باسم « بولو » ، وهي شبيهة بالعبة كرة القدم .

الجنوبية من القاهرة ، وهو أقدم آثار مصر الإسلامية التي بقيت على حالها الأولى بعد مقياس النيل بجزيرة الروضة (١) . ويحيط بهذا المسجد من الجهات الأربع شوارع ابن طولون جنوباً والزيادة غرباً وبئر الوطاويط شرقاً (٢) والخضيري شمالاً . وكانت هذه الجهات تعرف بخط المغاربة .

وقد دعت حالة ضيق مسجد العسكر بالمصلين لكثرة جند ابن طولون وخدمه وعييده إلى شكوى الناس ، فرأى هذا الوالي أن يقوم بهذا العمل تحقيقاً لرغبة الناس من جهة ، ورغبته هو في الخير من جهة أخرى ، ولأن وجود القطائع من غير مسجد فيها نقص يجب تلافيه ، خصوصاً وأن أول ما كان يعنى به الولاية عند إنشائهم المدن لاتخاذها حاضرة للبلاد أن يبنوا مسجداً يقيمون فيه شعائر الدين ، كما كانت الحال عند تأسيس القسطنطينية والعسكر والقاهرة .

وكان ابن طولون يرى من بناء هذا الجامع إلى إقامة الصلاة فيه لضيق جامع العسكر بالمصلين كما تقدم ، واتخاذهم معقلاً له إذا تهدده خطر خارجي أو داخلي ، وليكون أيضاً أشبه بمعهد تدرس فيه العلوم الدينية ، ومكان تعلن فيه أمور الدولة ، وتعد فيه المحاكم للفصل في قضايا الأفراد أو فض المشاكل التي تنشأ بينهم وما إلى ذلك .

وبعد الفراغ من بناء هذا الجامع ، افتتحه ابن طولون سنة ٢٦٥ هـ ، وعهد فيه بالصلاة والخطبة إلى القاضي بكار بن قتيبة .

ولجامع ابن طولون أهمية خاصة بالنسبة إلى جوامع مصر ، لأنه هو المثال الأول الذي اتخذته بناء المساجد الجامعة فيما بعد . وبنى ابن طولون في وسط الجامع فوارة مشبكة من جميع نواحيها ، عليها قبة مذهبة مقامة على عشرة أعمدة ، وفي جوانبها ستة عشر عموداً من الرخام . وأرض هذه الفوارة وقبتها محاطة كذلك بالرخام ، وعلى سطح هذه الفوارة علامات للزوال لتعيين أوقات الصلاة ، وقد صنعت من خشب الساج . أما المنارة فراقبها ( أي درجاتها ) من ظاهرها ، يرى الرائي انصاعد من داخل المسجد وخارجه ، وتمتاز على غيرها من المنارات باتساع عرضها ؛ وهي على مثال منارة المسجد الذي بناه المتوكل في مدينة سامرا .

### (ب) تأسيس مدينة القاهرة :

لما تم لجوهر الصقلي فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ عدل عن اتخاذ كل من القسطنطينية والعسكر حاضرة للفاطميين ، وفكر في تأسيس مدينة جديدة تكون مقراً للفاطميين ، ومركزاً لنشر دعوتهم الدينية ، وحصناً منيعاً لصد هجمات القرامطة الذين أخذوا يهددون حدود مصر الشمالية . لذلك نرى جوهرأ يضع أساس مدينة القاهرة في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، كما وضع أساس قصر مولاه المعز . وقد اختطت كل قبيلة من البربر حول ذلك القصر خطة عرفت باسمها : فاخطت جماعة من برقة الحارة

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٥٥ . وابن دقاق : الانتصار بواسطة عقد الأعمار ج ٤

(٢) هذا الشارع تحول الآن إلى ميدان

البرقية) ، واختط الروم حارتين : إحداهما حارة الروم الآن والأخرى حارة الروم الجوانية بقرب باب النصر .

ويكاد يشبه موقف جوهر في عدوله عن اتخاذ الفسطاط أو العسكر حاضرة لمصر وتفكيره في تأسيس حاضرة جديدة تفي بأغراض الدولة الفاطمية ، موقف أبي جعفر المنصور عندما ما فكر في بناء مدينة بغداد . ولما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة ، وأقام حوله السور ، سمى المدينة كلها المنصورية ، نسبة إلى المنصور أبي المعز . وظلت هذه التسمية حتى قدم المعز مصر ، فسماها والقاهرة المعزية ، وتقع هذه المدينة شمالى الفسطاط . وكانت وقت إنشائها تمتد من منارة جامع الحاكم إلى باب زويلة ، وحدودها الشرقية هي حدود القاهرة الحالية . أما الجهة الغربية فلم تتجاوز خليج أمير المؤمنين . وتحد شمالاً بواب النصر ، وجنوباً بباب زويلة ، وشرقاً بباب البرقية والباب المحروق ( الدراسة الآن ) ، وغرباً بباب السعادة وباب الفتوح وباب الخوخة .

وكانت القاهرة المعزية تشمل أحياء جامع الأزهر والجمالية وباب الشعرية والموسكى والغورية وباب الخلق (١) . ويقال إن المعز لما قدمها في أواخر سنة ٣٦٢ هـ ورأى أنه لا ساحل لها ، لم يعجبه موقعها وقال : « يا جوهر ! فانتك عمارتها ههنا (٢) » ، يريد المقس (٣) .

وقد أحيطت القاهرة بسور كبير من اللبن ضم الخطط التي تكونت منها القاهرة المعزية ، وكان بمثابة حصن يتحصن فيه جوهر ضد هجمات القرامطة . وأصبح اسم القاهرة يطلق على الجزء الواقع بين الأسوار ، على حين كان يعرف الجزء الواقع خارجها بظاهر القاهرة ، وهو خطط وأحياء جديدة تمتد بين جامع ابن طولون وقلعة الجبل ، وبين جبل المقطم والجهة المقابلة له من صفة النيل ، وهي المعروفة الآن بأحياء بولاق وشبرا وباب اللوق والحسينية (٤) .

وقد وضع جوهر في ليلة الأربعاء ١٨ شعبان سنة ٣٥٨ هـ أسس القصر الذى بناه لمولاه المعز ، فى ذلك الفضاء الفسيح بداخل سور القاهرة من الناحية الشرقية . لذلك أطلق عليه اسم « القصر الكبير الشرقى » . ويسمى أيضاً القصر المعزى ، لأن المعز لدين الله هو الذى أمر جوهرأ ببنائه حين سيره لفتح مصر ووضع له رسمه . وكان يقم فيه الخليفة ويجلس للنظر فى أمور الدولة ، كما كانت به دواوين الحكومة وخزائن السلاح وغيرها والجند لحراسة الخليفة . ويحتوى هذا القصر على أربعة آلاف حجرة (٥) .

وقد وصف على مبارك باشا مدينة القاهرة على النحو الذى كانت عليه أيام المعز فى هذه العبارة :  
« شكل مدينة القاهرة فى أيام القائد جوهر كان مربعاً تقريباً ، ضلعه ألف ومائتا متر ، ومساحة الأرض المحصورة فيه ثلثمائة وأربعون فدانا : منها سبعون فدانا بنى فيها القصر الكبير ، وخمسة

(١) المفريزى : خط ج ١ ص ٢٧٣ (٢) المفريزى : انماط الحنفا بأخبار الحنفا ص ٧٤

(٣) وكانت تقع عند جامع أولاد عنان الآن . (٤) المفريزى : خطط ج ١ ص ١٠٩ .

(٥) G. Migeon : Art Musulmane, tome I. p. 42.

(٦) الخطط التوفيقية ج ١ ص ٨١

وثلاثون فدانا للبيستان الكافوري ، ومثلها للبيادين ، فيكون الباقي مائتي فدان هو الذي توزع على الفرق العسكرية في نحو عشرين حارة بجانب قسبة القاهرة . وكان سور المدينة الغربي بعيداً عن الخليج بنحو ثلاثين متراً . وفي سنة ست وثمانين وأربعمائة في وزارة بدر الجمالي وخلافة المستنصر بالله الفاطمي ، هدم هذا السور وبنيت الأبواب من الحجر .

ولما اختط جوهر مدينة القاهرة ، جعل لها عدة أبواب أشهرها : باب زويلة (١) ، وباب النصر ، وباب الفتوح ، وباب العيد . فلما تولى أمير الجيوش بدر الجمالي الوزارة سنة ٤٦٥ هـ ، أعاد بناء السور والأبواب بالحجر قريباً من مواضعها أولاً ، وكانت مبنية باللبن ، فنقل باب النصر الذي بناه جوهر إلى المكان الذي يوجد به الآن ، كما بنى باب الفتوح حيث يبدأ شارع المعز لدين الله الفاطمي بجوار جامع الحاكم ، ونقل باب زويلة إلى حيث موضعه الآن ، وهو المعروف عند العامة بـ « بيوابة المتولى » (٢) . وكان باب زويلة يتكون من بابين متجاورين عند سبيل العقادين الآن ، ونقل باب النصر من جوار مدرسة القاصد إلى موضعه الحالي . وكانت هذه الأبواب الثلاثة ، التي جدد بناءها بدر الجمالي ، من عمل ثلاثة إخوة من مدينة الرها .

### تأسيس الجامع الأزهر :

ولما تم لجوهر الصقلي فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ ، وأسس مدينة القاهرة في نفس الليلة التي دخل فيها مدينة مصر ( أي القسطنطينية والعسكر ) ، لم ير أن يفاجئ السنين في مساجدهم بإقامة شعائر المذهب الفاطمي ، حتى لا يثير كراهة المصريين . لذلك وضع أساس الجامع الأزهر في يوم السبت ١٤ من رمضان سنة ٣٥٩ هـ ( ٩٧٠ م ) ، وتم بناؤه في سنتين تقريباً ، وأقيمت الصلاة فيه لأول مرة في ٧ من رمضان سنة ٣٦١ هـ (٣) .

ويشتمل الأزهر على مكان مسقوف للصلاة يسمى مقصورة ، وآخر غير مسقوف يسمى صحناً ، عدا الملحقات التي تتبع المساجد عادة من منارات وميضأة وغيرها . أما المقصورة التي بناها جوهر فقيها ستة وسبعون عموداً من الرخام الأبيض اللون في صفوف متوازية . وفي سنة ١١٦٧ هـ بنى الأمير عبد الرحمن كتحذا مقصورة ثانية بها خمسون عموداً من الرخام . وبذلك أصبح بهذا الجامع مقصورتان عدد أعمدهما مائة وستة وعشرون عموداً . وإذا أضيف إلى هذا العدد الأعمدة الموضوعات بملحقات الجامع ، بلغ مجموعها ثلاثمائة وخمسة وسبعين عموداً . وترتفع المقصورة الجديدة نحو ذراع عن المقصورة التي بناها جوهر القائد ، وسقف المقصورتين من الخشب المتقن الصنع ، وهما متلاصقتان ، وفي كل منهما نوافذ لدخول النور والهواء . وأما صحن الجامع فهو مكان متسع غير

(١) نسبة إلى قبيلة زويلة ( بوزن سفينة ) إحدى قبائل المغرب التي قدمت إلى مصر على أمر الفتح

(٢) نسبة إلى متولى الحسبة في مدينة القاهرة ، وقد أطلق عليه هذا الاسم في العهد العثماني ، إذ كان متولى الحسبة في مدينة القاهرة يجلس على مقربة من هذا الباب .

(٣) الفريزي : خطط ج ٢ ص ٢٧٣ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٤ .



مسقوف ، مرصوف بالحجر ، يقيمون فيه الصلاة عند ازدحام المقصورتين . ويحيط بالمسجد من جهاته الأربع بوائك مقامة على أعمدة من الرخام على مثال جامع عمرو بن العاص . وزينت حيطانه بالآيات القرآنية المنقوشة بالخط الكوفي الجميل .

وقد أنشأ جوهر بالمقصورة القديمة محراباً يسمى الآن القبلة القديمة ، ثم أقيمت به تسعة محاريب أخرى ، لم يبق منها جميعاً سوى ستة أشهرها اثنان : أحدهما بالمقصورة القديمة ، والآخر بالمقصورة الجديدة ، ولكل منهما إمام يخالف صاحبه في المذهب الفقهي .

وللجامع منبر واحد مصنوع من الخشب المخروط الجميل الصنع . وقد نقل المنبر الأصلي الذي أنشأه جوهر إلى جامع الحاكم .

وأنشئ بالأزهر عند تأسيسه منارة واحدة ، ثم أصبح به فيما بعد خمس منارات ، يؤذن عليها في أوقات الصلوات الخمس ، وفي ليالي رمضان والمواسم .

وكانوا يعرفون أوقات الصلاة عن طريق الميقاتي ، ومهنته التثنية على أوقات الصلوات . وكان يعرف الأوقات بالنظر في المزولة التي لا تزال قائمة إلى اليوم على أحد جدران سخن الأزهر . وكانت مساجد القاهرة تتبع في الأذان أصوات المؤذنين في الأزهر .

وأهم خصائص الأزهر أنه بدأ كغيره من المساجد لإقامة الشعائر ، ولم يلبث أن أصبح جامعة يتلقى فيها طلاب العلم ورواده من كل صوب وحذب مختلف العلوم والفنون . ففي سنة ٣٧٨ هـ أشار الوزير يعقوب بن كلس على الخليفة العزيز بتحويل الأزهر إلى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية ، وسرعان ما أصبح الأزهر مثابة عليية . وقد عمل الخليفة العزيز ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين على جذب طلاب العلم إليه من كافة أرجاء البلاد الإسلامية ، بما كانوا يقدمونه إليهم من المأكل والمسكن وما يوفر عليهم وسائل المعيشة وأسباب الراحة من غير أجر .

وقد زاد في بناء هذا الجامع كثير من الخلفاء والأمراء والسلاطين ، وأنشئوا فيه مساكن للطلاب تحيط بالمقصورة والصحن من الجهات الأربع ، كما حبسوا عليه كثيراً من الأوقاف ، وأهدوا إليه الهبات الجليلة ، فاستغنى بذلك .

وكان الخليفة العزيز بالله الفاطمي أول من بنى بجوار الأزهر داراً لجماعة من الفقهاء ، عدتهم خمسة وثلاثون ، كانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة ويقرءون القرآن إلى صلاة العصر .

### ٣ — العمارة في المغرب والأندلس

#### (١) تأسيس مدينتي المرينية والمنصورية:

أقام عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين بالمغرب بمدينة القيروان التي أسسها عقبة بن نافع ، واتخذها حاضرة لدولته إلى سنة ٣٠٣ هـ ، حيث وضع أساس مدينة جديدة سماها «المهدية» . وقد عزى البكري<sup>(١)</sup> بناء هذه المدينة إلى محاولة أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس ومن معهم من

(١) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٣٠ .

كتامة قتل المهدي والتنكيل بأهل القيروان .

خرج المهدي إلى تونس يرتاد لنفسه موضعاً يبني فيه مدينة حصينة يعتصم بها إذا خرج عليه أحد الخوارج . وقيل إنه وجد في بعض النكتب ما يدل على خروج أبي يزيد مخلد بن كيداد على دولته (١) . ووفق المهدي إلى موضع المهديّة ، وهي متصلة بالبحر كهيئة كف متصلة بزند ، فتأملها ، فوجد فيها راهبا في مغارة ، فقال له : بم يعرف هذا الموضع ؟ فقال هذا يسمى جزيرة الخلفاء . فأعجبه هذا الاسم ، فبناها وجعلها دار مملكته (٢) .

تقع المهديّة على بعد ستين ميلاً جنوبي القيروان . وقد ذكر البكري (٣) أن البحر يحيط بها من ثلاث جهات ، وأنه يدخل إليها من الجانب الغربي . وقد شيدت مبانيها بالصخر ، واتخذ المهدي لهذه المدينة بايين من الحديد لا خشب فيها ، زنة كل باب منهما ألف قنطار وطوله ثلاثون شبراً ، ووزن كل مسبار من المسامير التي استعملت في تركيبه ستة أرتال . ونقش على هذين البابين صور لبعض الحيوانات . وأقيم بها ثلاثة وستون صريجاً ، عدا ما كان يجري فيها من القنوات . ولم تلبث هذه المدينة أن أصبحت مرفأ هاماً وسوقاً نافقة للسلع التي كانت تحملها السفن من الإسكندرية ، ومن الشام وصقلية والأندلس وغيرها (٤) . ومرسى المهديّة منقور في حجر صلد يسع ثلاثين مركباً ، على طرفي المرسى برجان بينهما سلسلة من حديد . فإذا أريد إدخال سفينة فيه ، أرسل حراس البرجين أحد طرفي السلسلة حتى تدخل السفينة ، ثم مدوها كما كانت بعد ذلك لتلا يطرقتها مراكب الروم (٥) . وقد بنى المهدي بمدينة المهديّة داراً للصناعة تسع أكثر من مائتي مركب ، وفيها قبوان كبيران مستطيلان ، لتلا تتأثر آلات المراكب وعددها بأشعة الشمس أو ماء المطر (٦) .

فرغ المهدي من بناء حاضرتة الجديدة في سنة ٣٠٥ هـ فقال : « اليوم أمنت على الفاطميات ، يعني بناته . ثم انتقل إليها في شهر شوال سنة ٣٠٨ هـ ، وأقام بها ، ثم عمر فيها الدكاكين ورتب فيها أرباب المهن ، وجعل لكل طبقة سوقاً خاصاً بها ، فتنقلوا إليها أموالهم . وكان لهذه المدينة أرباض كثيرة أهلة عامرة ، منها ربض زويلة ، وكان أقرب أرباض المدينة إلى قصره ، وفيه الأسواق والحمامات ، وربض الحمى ، وقد أقام فيه أجناد إفريقية من العرب والبربر ، وربض قفصة (٧) .

وقد أمر المهدي ببناء مدينة أخرى بجوار مدينة المهديّة ، وجعل بين المدينتين ميداناً فسيحاً ، وأحاطها بسور وأبواب وحراس ، وسماها زويلة نسبة إلى إحدى قبائل البربر ، وأسكنها أرباب

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٣ . (٢) انظر لفظ المهديّة في معجم البلدان لياقوت .

(٣) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٩ .

(٤) المصدر نفسه

ذكر البكري (ص ٨٤ - ٨٦) أن السفن التي كانت تخرج من المهديّة كانت تمر في طريقها إلى الإسكندرية بكثير من الموانئ . كمدينة قابس ، ومرسى الأندلسيين ، ومرسى مدينة أطرابلس ، وليلة ، وسرت وأجدابية ، وسوسة ، وبرقة ، وتبني ، وطبرق ، والزيتونة ، والعلوم ، والأندلسيين ، ثم تصل إلى الإسكندرية

(٥) البكري ص ٣٠ (٦) المصدر نفسه

(٧) المصدر نفسه ص ٣٠ - ٣١ .

الدكاكين بحرمهم وأهلهم وقال : « إنما فعلت ذلك لأمن غائلهم ، وذلك أن أموالهم عندي ، وأهلهم هناك . فإن أرادوني بكيد وهم بزويلة ، كانت أموالهم عندي فلا يمكنهم ذلك ، وإن أرادوني بكيد وهم بالمهدية خافوا على حرمهم هناك ، وبنيت بيني وبينهم سوراً وأبواباً . فأنا آمن منهم ليلاً ونهاراً ، لأنني أفرق بينهم وبين أموالهم ليلاً ، وبينهم وبين حرمهم نهاراً (١) . »  
ويظهر أن المهدي حدا في ذلك العمل حدواً أبي جعفر المنصور حين نقل أسواق حاضرة خلافته جنوباً إلى الكرخ (٢) .

وقد ظلت المهديّة عامرة أهلة بالسكان حتى أرسل إليها رودجر صاحب صقلية أحد قواده سنة ٥٥٣ هـ ، فاضطر إليها الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس إلى الحرب . وبقيت هذه المدينة في أيدي الفرنجة حتى قدم عبد المؤمن إلى إفريقية سنة ٥٥٥ هـ فاستولى عليها . وقد بقيت مدينة المهديّة حاضرة للدولة الفاطمية حتى خرج أبو يزيد بن كيداد على الخليفة الفاطمي القائم ، وولى ابنه المنصور الخلافة سنة ٣٣٤ هـ وانتصر على أبي يزيد بالقرب من مدينة القيروان ، فاتخذ مدينة صبرة القريبة منها حاضرة لدولته سنة ٣٣٧ هـ ، فسميت المنصورية نسبة إليه . وكان لهذه المدينة خمسة أبواب : الباب القبلي ، والباب الشرقي ، وباب زويلة ، وباب كتامة ، وباب الفتوح . وكانت جيوش الفاطميين تخرج من هذا الباب الأخير . وقد نقل الخليفة المنصور إلى حضرته الجديدة أسواق مدينة القيروان وأرباب الصناعات ، فازدهرت فيها الصناعة والتجارة ، وأصبحت على جانب عظيم من التقدم ، وغدت حاضرة الفاطميين إلى أن قدم الخليفة المعز بن المنصور مصر في ٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ ، فأصبحت مدينة القاهرة حاضرة الدولة الفاطمية (٣) .

### (ب) ناسيس مدينتي الزهراء والزاهرة :

لما ولي عبد الرحمن الناصر الحكم كانت قرطبة حاضرة بلاد الأندلس . وقد بلغ عدد سكانها خمسمائة ألف نسمة ، وعدد دورها ثلاثة عشر ألفاً ومائة ، غير قصورها الفخمة وضواحيها الثمانية والعشرين وحماماتها الثلاثمائة ، ومساجدها التي بلغت ثلاثة آلاف على ما قيل . ولم يتفوق عليها في الاتساع سوى مدينة بغداد ، وقد أولع أهل قرطبة بمقارنتها بها ، فقال بعضهم :  
دع عنك حضرة بغداد وبهجتها ولا تعظم بلاد الفرس والصين  
فما على الأرض قط مثل قرطبة وما مشى فوقها مثل ابن حدين  
وكذلك بلغت شهرة قرطبة أهالي جرمانيا الذين أطلقوا عليها في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ( العاشر الميلادي ) «جوهرة العالم» (٤) .

(١) انظر البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٠ ، ٢١ ، ٢٩ - ٣٢ ، ٨٤ .

انظر لفظ المهديّة في معجم البلدان لياقوت . (٢) انظر هذا الكتاب ج ٢ ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٣) البكري ص ٢٥ ، انظر لفظ المنصورية في معجم البلدان لياقوت .

(٤) القرني : نفع الطيب ج ١ ص ٢١٦ ، ٤٤٩ ، Dozy : Spanish Islam , p. 449 .

أما مدينة عبد الرحمن الناصر فإنها لم تقل عن قرطبة روعة وبهاء . وقد ذكر المقرئ (١) في سبب بناء هذه المدينة ، أن الناصر مات له سرية (٢) وتركت مالا كثيراً ، فأمر بأن يفك بذلك المسال أسرى المسلمين ، وطلب في بلاد الإفرنج أسيراً فلم يوجد (٣) ، فشكر الله تعالى على ذلك ، فقالت له جازيته الزهراء ، وكان يحبها حباً شديداً : اشتيت لو بنيت لي به مدينة تسميها باسمي وتكون خاصة لي ، فبناها تحت جبل العروس من قبة الجبل وشمال قرطبة .

على أن ما أدلى به المقرئ لا يمكن أن يكون سبباً مباشراً لبناء هذه المدينة ، إذا عرفنا أن عبد الرحمن الناصر ولي الأندلس بعد فترة طويلة اتناها الضعف ، وذلك منذ وفاة عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٣٨ هـ ، أي في عهد محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) وأبيه المنذر (٢٧٣ - ٢٧٥ هـ) ومحمد (٢٧٥ - ٢٣٠ هـ) ، وظهرت دويلات وأسر من العرب والبربر تغلبت على كثير من أرجائها . فلما وطد عبد الرحمن الناصر دعائم ملكه ، ووجد بلاد الأندلس وأصبح خليفة للمسلمين ، فكر في بناء مدينة يتخذها حاضرة لخلافته ، مقتدياً في ذلك بأبي جعفر المنصور عند ما بنى مدينة بغداد ، وعيبد الله المهدي عند ما بنى مدينة المهديّة ، وكما فعل بعد ذلك المعز لدين الله عند ما بنى مدينة القاهرة .

وضع الناصر أساس مدينة الزهراء في أول المحرم سنة ٣٢٥ هـ في الشمال الغربي من مدينة قرطبة وعلى بعد ثلاثة أميال منها . وتأنق في بنائها ، وجلب إليها الرخام الأبيض من المرية ، والمجزع من رية ، والوردى والأخضر من إفريقية . وأهدى بعضه من الملوك والأمراء . وقد استعمل في بناء هذه المدينة كل يوم ستة آلاف من الصخر المنحوت المعدل ، سوى الصخر غير المعدل والآجر (٤) . وأقيم بها أربعة آلاف سارية (٥) ، وعمل في بناء المدينة كل يوم عشرة آلاف عامل وألف وخمسمائة دابة . واستمر العمل في بنائها إلى نهاية عهد عبد الرحمن الناصر (سنة ٥٣٠ هـ) ، وفي عهد ابنه الحكم المستنصر إلى سنة ٥٣٦ هـ ، أي نحواً من أربعين سنة (٦) .

بنيت الزهراء على سفح جبل العروس ، وكانت تشتمل على ثلاث مدن متدرجة في البناء ، كما يتبين ذلك من عبارة الإدريسي (٧) حيث يقول : « وهي في ذاتها مدينة عظيمة مدرجة البنية ، مدينة

(١) نفع الطيب ج ١ ص ٢٤٨ - ٢٤٩ . (٢) مملوك . (٣) يقصد مملكتي ليون ونافار

(٤) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢٤٩ .

(٥) السارية هي الأسطوانة أو العمود . ذكر المقرئ في كتاب أزهار الرياض في أخبار عياض ( طبعة الأستاذ السقا وآخرين ) ج ٢ ص ٢٧٠ أن عدد السوارى المجلوبة من إفريقية ألف سارية وثلاث عشرة سارية ، ومن بلاد الإفرنج تسع عشرة سارية ، وأهدى إليه ملك الروم مائة وأربعين سارية ، وسائرهما من مقاطع الأندلس : طركونة وغيرها . فالرخام المجزع من رية ، والأبيض من غيرها ، والوردى والأخضر من إفريقية من كنيسة سفاقس .

(٦) ذكر المقرئ ( نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٩ ) أن الناصر كان ينفق على بناء مدينة الزهراء ثلثمائة ألف دينار مدة خمس وعشرين سنة ، أي سبعة ملايين ونصف مليون دينار في هذه المدة عدا ما أنفقه ابنه الحكم من بعده مدة خمس عشرة سنة .

(٧) صفة المغرب وأرض السودان ومصر والمغرب ص ٢١٢ .

فوق مدينة : سطح الثلث الأعلى يوازي الجزء الأوسط ، و سطح الثلث الأعلى يوازي على الثلث الأسفل . ولكل ثلث منها سور ؛ فكان الجزء الأعلى منها قصوراً يقصر الوصف على صفاتها ، والجزء الأوسط لبساتين وروضات ، والجزء الثالث الديار والجامع .

بدأ الناصر ببناء قصره ، مقتدياً في ذلك بجده الأمير محمد ، وأبيه عبد الرحمن الأوسط ، وجده الحكم ، الذين شيّدوا قصورهم الفخمة كالمجلس الزاهر ، والبهو الكامل ، والقصر المنيف . فبنى الناصر إلى جانب المجلس الزاهر قصره العظيم الذي سماه «دار الروضة» ، ثم اختط مدينة الزهراء التي اتخذها داراً لإقامته ، وكرسياً لخلافته ، وبنى فيها ديراً فسيحة للوحوش ومسارح للطيور مظلة بالشباك ، وداراً لصناعة آلات الحرب ، والحلي للزينة (١) .

وقد ذكر المؤرخون أن حيطان قصر الناصر كانت من الذهب والرخام السميك الصافي ، وأن قرامده من الذهب والفضة . ووضعت في وسط المجلس «التيمة» التي أهداها إياه إمبراطور القسطنطينية . وفي وسط هذا القصر صرح عظيم مملوء بالزئبق ، وفي كل جانب من جوانب القصر ثمانية أبواب ، انعقدت في حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب والجواهر ، القائمة على ساريات من الرخام الملون والبلور الصافي . وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب ، فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه ، فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار . وكان الناصر إذا أراد أن يفرغ أحداً من أهل مجلسه ، أو ما إلى أحد صقالبه فيحرك ذلك الزئبق ، فيظهر في المجلس كلبعان البرق من النور ، ويأخذ بمجامع القلوب ، حتى يخيل لكل من في المجلس أن المحل قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك . وقيل إن هذا المجلس كان يدور ويسقبل الشمس ، (٢) .

ومن عجائب قصر الزهراء الحوض المنقوش المذهب الذي جلب من القسطنطينية ، والحوض الصغير الأخضر (٣) المنقوش بتأثيل الإنسان . «وقالوا إنه لا قيمة له لفرط غرابته وجماله . وحمل من مكان إلى مكان حتى وصل إلى البحر . ونصبه الناصر في بيت المنام ، في المجلس المستشرق الشرقي المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه اثني عشر تمثالاً من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس الغالي ، مما عمل بدار الصناعة بقرطبة : صورة أسد إلى جانبه صورة غزال ، إلى جانبه صورة تمساح ، وفيما يقابله ثعبان وعقاب . وفي المجنبتين حمامة ، وشاهين ، وطاوس ، ودجاجة ، وديك ... وكل هذا من ذهب مرصع بالجواهر النفيس . ويخرج الماء من أفواها . وكان المتولى لهذا البنيان المذكور ابنه الحكم ، لم يتكل الناصر على أمين غيره . وكان يخبر كل يوم برسم حيطان البحيرة ثمانمائة خبزة ( وقيل أكثر ) ، إلى غير ذلك مما يطول تتبعه ، (٤) .

وقد أظن المؤرخون والرحالة في وصف قصر الزهراء ، فقال المقرئ (٥) «إنه لم يبين مثله في الإسلام

(١) ابن خلدون : كتاب العبر ج ٤ ص ١٤٤ (٢) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢٥٠ ، ٢٥٦

(٣) وقد جلب من الشام ، وقيل من القسطنطينية .

(٤) المقرئ : أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٧٠ — ٢٧١ ، نفع الطيب ج ١ ص ٢٧٠ .

(٥) أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٦٧ — ٢٦٨ ، نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

البتة ، وما دخل إليه أحد قط من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة ، من ملك وارسو ، ورسول وافد ، وتاجر وجهيد ، وفي هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة ، إلا وكلهم قطع أنه لم ير له شيئاً ، بل لم يسمع به ، بل لم يتوهم كون مثله ، حتى إنه كان من أعجب ما يؤمله القاطع (١) إلى الأندلس في تلك العصور النظر إليه والتحدث عنه ... ولولم يكن فيه إلا السطح الممرد المشرف على الروضة ، المباهى بمجلس الذهب والفضة ، وعجائب ما تضمنته من إتقان الصنعة ونخامة الهمة ، وحسن المستشرف (٢) ، وبراعة الملبس والحلة ، ما بين مرمر مسنون ، وذهب موضون ، وعمد كأنما أفرغت في القوالب ، ونقوش كالرياض ، وبرك عظيمة بحكمة الصنعة ، وحياض وتماثيل عجيبة الأشخاص ، لا تهتدى الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها .

وعلى الرغم من أن مدينة الزهراء لا تبعد كثيراً عن قرطبة ، أراد الناصر أن يستكمل مدينته الجديدة ببناء مسجد جامع فيها . ولا غرو فإن المسجد لم يكن مكاناً للعبادة فحسب ، بل كان أيضاً مركز الحركة السياسية والاجتماعية ، ومعهداً يجتمع فيه علماء التفسير والحديث وغيرهم .

ويعد مسجد الزهراء من آيات الفن الإسلامي . وقد عمل في بنائه ألف رجل في اليوم : منهم ثلثمائة بناء ومائتا نجار ، وخمسمائة من الصناع والفعلة . وطول المسجد من القبلة إلى الجوف (٣) ، سوى المحراب ، سبع وثلاثون ذراعاً ، وعرضه من الشرق إلى الغرب تسع وخمسون ذراعاً . وأقيم في المسجد منبر حوله مقصورة بديعة . وفرش بالرخام الخمرى ، وأقيمت في وسطه فوارة بحرى فيها الماء . وقد بنى تحت إشراف الحكم بن الناصر في ثمانية وأربعين يوماً ، وتم بناؤه في يوم الخميس لسبع بقين من شهر شعبان سنة ٣٢٩ هـ (٤) .

رأى الناصر أنه إذا انخفض ماء نهر الوادى الكبير ، الذى تقع عليه قرطبة والزهراء ، أصبح لا يصلح للشرب ، فحفر قناة تمر بالجبل طولها ثمانون كيلو متراً . وفي سنة ٣٢٩ هـ تم بناء هذه القناة الغربية الصنعة التى لاتزال آثارها الهندسية باقية إلى الآن ، « وجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربى قرطبة فى المناهر الهندسية ، وعلى الحنايا المعقودة بحرى ماؤها بتدبير عجيب وصفة محكمة إلى بركة عظيمة ، عليها أسد عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة ، لم يشاهد أوفى منه ولا أبهى منه فيما صور الملوك فى غابر الدهر ؛ مطلى بذهب إبريز ، وعيناه جوهرتان لها وميض شديد . يحوز هذا الماء إلى عجز الأسد ، فيمجه فى تلك البركة من فيه ، فيهر الناظر بحسنه وروعة منظره وتماججه صبه (٥) ، فتسقى من مجاجه جنان هذا القصر على سعتها ، ويستفيض على ساحاته وجنباياه ، ويمد النهر الأعظم بما فضل منه . فكانت هذه القناة وبركتها ، والتماثيل الذهب الذى يصب فيها من أعظم آثار الملوك غابر الدهر ، لبعده مساقها ، واختلاف مسالكها ، ونخامة بنائها ، وسمو أبراجها ، التى يترقى الماء فيها ويتصوب من أعاليها (٦) .

(١) يعنى المجتاز البحر إلى الأندلس . (٢) المنظر .

(٣) الجوف هو الفضاء المتسع غير المسقوف الذى يسمى الصحن .

(٤) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٨ ، أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٦٥ - ٢٦٦

(٥) نبع الماء بمعنى انصب . (٦) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٨ ، وأزهار الرياض ج ٢ ص ٢٦٦ - ٢٦٧

وقد أظنّب المؤرخون والرحالة في وصف مدينة الزهراء وجداولها المتدفقة، وبساتينها النضرة، ومبانيها الفخمة وقصورها الجميلة، ومساكن الموظفين ورجال البلاط وثكنات الجند، وغلبان الصقالب الذين كانوا يغدون ويروحون في شوارعها الواسعة بسراويلهم الحريرية الخالصة أو الموشاة بالذهب والفضة، وجماعة القضاة والفقهاء والشعراء الذين يسرون في جد ورزانة في ردهات القصر الفخمة وأبناؤه الفسيحة (١).

وإن هذا العمل الذي يشهد لأموبي الأندلس بالبراعة في الهندسة والبناء كلف عبد الرحمن الناصر أموالاً ضخمة، حتى قيل إنه خصص ثلث خراج دولته في بناء هذه المدينة (٢)، وإنه لقي معارضة قوية تزعمها رجل اشتهر بالورع والتقوى والتفقه في الدين، هو المنذر بن سعيد البلوطي الذي ولاه الخليفة الناصر إمامة الصلاة بقرطبة والزهراء بعد بناء مسجدتها. وقد تحلى المنذر بالشجاعة التي جعلته ينقد تصرف الخليفة الذي بذل الأموال الضخمة في بناء هذه المدينة، الذي شغله عن مباشرة أمور الدولة. وقد دخل المنذر على الخليفة يوماً وهو مشغول ببحث خطط البناء ومقابلة المهندسين ومراقبة شئون العمال، فغض القاضي من أهمية هذا البناء، وذم تشييد البنيان والمباغة في زخرفته والإسراف في الإنفاق عليه، ودعاه إلى الزهد في هذه الدار الفانية، فأسهب في ذلك كله، وأضاف إليه من آي القرآن ما يطابقه، وجلب من الحديث والآثر ما يشاكله، حتى ادّكر من حضره من الناس، وخضعوا ورقوا، واعترفوا وبكوا، وضجوا ودعوا، وأعلنوا التضرع إلى الله والتوبة، والابتغال في المغفرة. وأخذ خليفته من ذلك بأوفر حظ، وقد علم أنه المقصود، فبكى وندم على ما سلف له من فرطه، واستعاذ بالله من سخطه. إلا أنه وجد على منذر بن سعيد، لغلظ ما تفرعه به، فشكا ذلك إلى ولده الحكم بعد انصرافه، وقال له: والله لقد تعمدني منذر بخطبته، وما عني بها غيري، فأسرف على وأفرط في تقريري، ولم يحسن السياسة في وعظي، فزعزع قلبي، وكاد بعصاه يقرعني. واستشاط غيظاً عليه، فأقسم ألا يصلي خلفه صلاة الجمعة خاصة، فجعل يلتزم صلاتها وراء أحمد بن مطرف صاحب الصلاة بقرطبة، وبجانب الصلاة بالزهراء، وقال له الحكم: وما الذي يمنعك من عزل المنذر من الصلاة بك والاستبدال منه إذ كرهته؟ فزجره واتهره وقال له: أمثل منذر بن سعيد في خيره وفضله وعلمه — لا أم لك — يعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد سالكة غير القصد؟ هذا ما لا يكون؛ وإني لأستحي من الله ألا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شقيماً مثل منذر، في ورعه وصدقه. ولكنه قد أخرجني فأقسمت؛ ولوددت أني أجد سبيلاً إلى كفارة يميني بملكى. بل يصلى بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله تعالى (٣).

ولكن المنذر كان لا يخشى في الحق لومة لائم إذا كان لا يتفق وما جله به القرآن الكريم والحديث الشريف. فانظر كيف ذم الإسراف في زخرفة البناء. روى المقرئ (٤) أن الناصر كان قد

(١) Stanley Lane — Poole: The Moors in Spain, pp. 140 — 1

(٢) المقرئ: أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٦٩ — ٢٧١

(٣) المقرئ: أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٧٨ — ٢٧٩

(٤) أزهار الرياض في أخبار عياض ج ٢ ص ٢٨٠ — ٢٨٢

فد ،  
سبأ ،  
سلس  
ضفة ،  
حسن  
أثماً  
عجيبه  
مدينته  
أيضا  
منهم  
(٢) ،  
أعاً .  
بحرى  
الخمس  
أصبح  
ه القناه  
قرطبة  
عجيب  
مد أوفى  
وميض  
وروعة  
ساحاته  
ي يصب  
وسمو ،

اتخذ سطح القبيبة المصغرة الاسم للخصوصية التي كانت ماثلة على الصرح الممرد المشهور شأنه بقصر الزهراء ، قراميد مغطاة ذهباً وفضة ، أنفق عليها مالا جسيماً ، وقرمذ سقفيها به ، وجعل سقفيها صفراء فاقعة إلى بيضاء ناصعة ، فتستلب الأبصار بأشعة أنوارها ، وجلس فيها إثر تمامها يوماً لأهل مملكته ، فقال لقرابته ومن حضر من الوزراء وأهل الخدمة ، مفتخراً عليهم بما صنعه من ذلك : هل رأيتم أو سمعتم ملكاً كان قبلي فعل مثل هذا أو قدر عليه ؟ فقالوا : لا والله يا أمير المؤمنين ، وإنك لأوحد في شأنك كله ، وما سبقك في مبتدعاتك هذه ملك رأيناه ولا انتهى إلينا خبره ، فأبهجه قولهم وسره . فبينما هو كذلك إذ دخل عليه القاضي منذر بن سعيد واجماً ناكس الرأس . فلما أخذ مجلسه ، قال له كالذي قال لوزرائه ، من ذكر السقف المذهب واقتداره على إبداعه ؛ فأقبلت دموع القاضي تتحدر على خيته ، وقال له : والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا أن تتمكن من قيادك هذا التحكين على ما آتاك الله من فضله ونعمته ، وفضلك به على العالمين ، حتى ينزلك منازل الكافرين . فانفعل عبد الرحمن لقوله وقال له : وكيف أنزلتني منزلتهم ؟ فقال له : نعم ، ليس الله تعالى يقول ( ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون<sup>(١)</sup> ) ؟ فوجم الخليفة ، وأطرق ملياً ودموعه تنساقط خشوعاً لله سبحانه . ثم أقبل على منذر وقال له : جزاك الله يا قاضي عنا وعن نفسك خيراً وعن الدين والمسلمين أجمل جزائه ، وكشر في الناس أمثالك ، فالذي قلت هو الحق . وقام عن مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى ، وأمر بتفض سقف القبيبة ، وأعاد قومها تراباً على صفة غيرها .

يقول المقرئ<sup>(٢)</sup> إن أبا عثمان بن إدريس أنشد عبد الرحمن الناصر قصيدة يشيد فيها بما أقامه هذا الخليفة الأموي من المباني الشاهقة في مدينة الزهراء فقال :

« سيشهد ما أبقيت أنك لم تكن مضيعاً وقد مكنت للدين والدنيا  
فبالجامع المعمور للعلم والتقى وبالزهرة الزهراء للملك والعليا  
فاهتز الناصر وابتهج وأطرق منذر بن سعيد ساعة ، ثم قام منشداً :

يا باني الزهراء مستغرقاً أوقائه فيها أما تمهل ؟  
الله ما أحسنها رونقاً لو لم تكن زهرتها تذبل !

فقال الناصر : إذا هب عليها نسيم التذكار والحنين ، وسقتها مدامع الخشوع يا أبا الحكم ، لا تذبل إن شاء الله تعالى ، فقال : أشهد أني قد بثت ما عندي ولم آل نصحاً .

وقد صدقت نبوءة المنذر ، فإن هذه المدينة لم تعمر طويلاً ، بل ذبلت ودكت معالمها حين ولي الحجابة عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر الحاجب ، وهو الملقب بشنجول<sup>(٣)</sup> .  
ففي سنة ٣٩٩ هـ خلع الخليفة المؤيد بن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن ، وتقلد الخلافة من بعده محمد

(١) سورة الزخرف آية رقم ٣٣ . (٢) نفع الطيب ج ١ ص ٢٧٣

(٣) شنجول تصغير شانجة ملك تشالة الذي أهدى ابنته إلى المنصور فتزوجها وأنجب منها ولده عبد الرحمن

الذي عرف باسم شنجول نسبة إلى جده لأمه . انظر ص ٦١٣



ابن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، وهدم مدينة الزهراء ، واتخذ قرطبة حاضرة لخلافته (١) . ولم يقتصر بناء المدن على الخلفاء ، بل تعداه إلى الوزراء ؛ فقد بنى المنصور بن أبي عامر الحاجب بضواحي قرطبة مدينته الزاهرة على نهرها الأعظم وشيد فيها قصر الخما . وفي سنة سبعين وثلثمائة انتقل المنصور إليها ، ونزلها بخاصة وعامة ، فنبأها وشحنها بجميع أسلحته وأمواله وأمتعته ، واتخذ فيها الدواوين والأعمال وعمل في داخلها الأهرام ، وأطلق بساحتها الأرحاء . ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده وحجابه ، فابتنوا بها كبار الدور وجليلات القصور ، واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة (٢) والمنازه المشيدة . وقامت بها الأسواق وكثرت بها الأرفاق (٣) ، وتنافس الناس بالنزول بأكنافها (٤) والحلول بأطرافها ، للدنو من صاحب الدولة . وتناهى العلو في البناء حوله ، حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة ، وكثرت بحوزتها العمارة ، واستقرت في مجبوحها الإمارة . وأفرد الخليفة من كل شيء إلا من الاسم الخلافي (٥) ، وصير ذلك هو الرسم العافي . وترتب فيها جلوس وزرائه وروس أمرائه ، وندب إليها كل ذي خطة بخطته (٦) ، ونصب بها كرسى شرطته ، وأجلس عليها واليا على رسم كرسى الخلافة ، وفي صفة تلك المرتبة المنيفة . وكتب إلى الأقطار بالأندلس والعدوة بأن تحمل إلى مدينته تلك أموال الجبايات وتقصدها أصحاب الولايات ، وينتابها طلاب الحوايج ، وحذر أن يعوج (٧) عنها إلى دار الخليفة عائج . (٨)

(١) قال ابن خلدون ( العبر ج ٤ ص ١٤٩ - ١٥٠ ) إنه تلقب الناصر لدين الله ، وحجر على الخليفة هشام ، وطلب منه أن يوليئه عهده ، وأحضر أهل الحل والعقد وكتب عهده . ولكن العامة غضبوا على عبد الرحمن لتعديده على حرمة الخلافة ، وخرج عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر في سنة ٣٩٩ هـ ، وتلقب المهدي ، وخلع هشاما وحبسه ، وأسر شنجول وقتل .

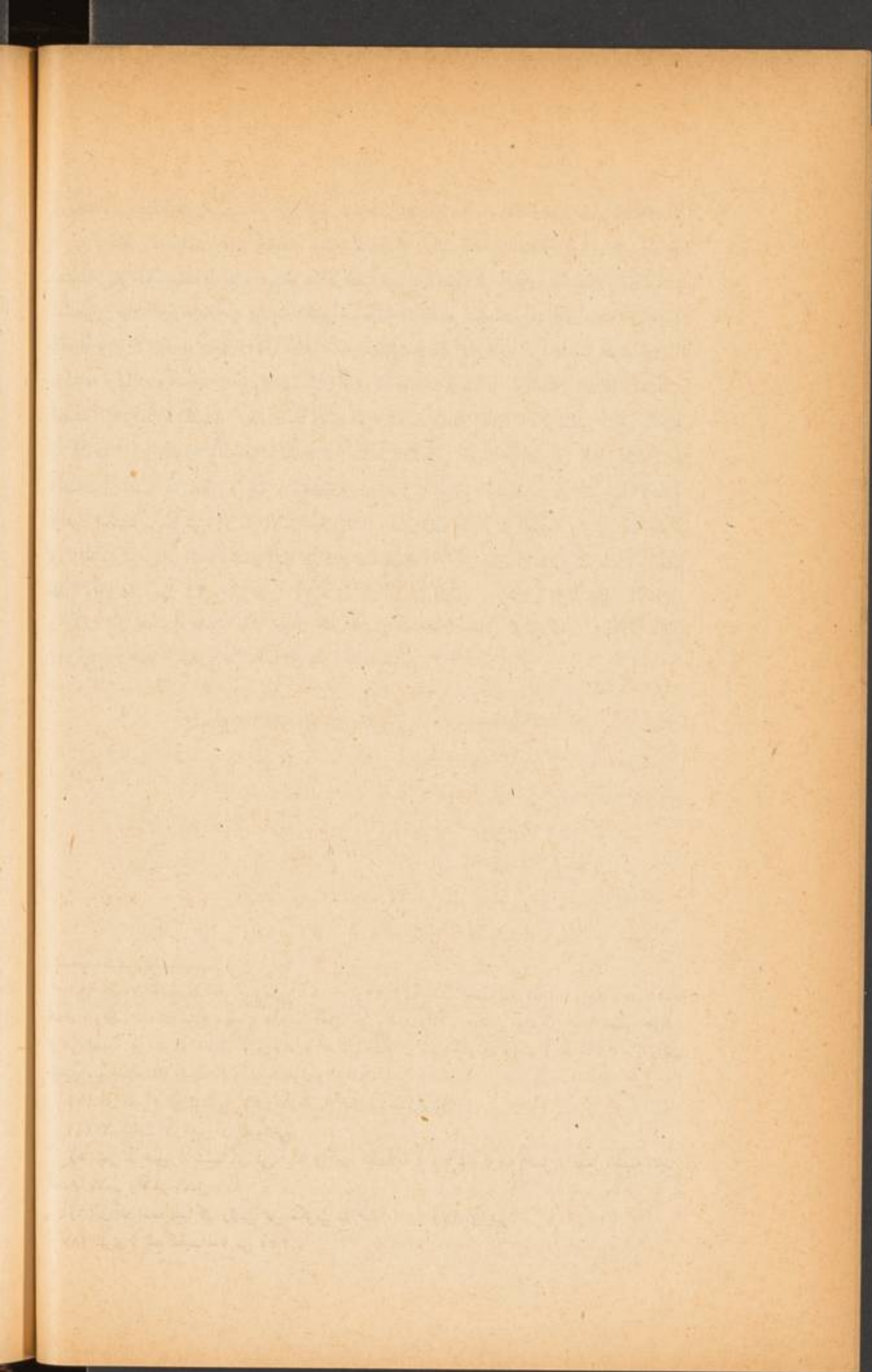
(٢) أي الضياع التي تستغل (٣) الأرفاق الأعمال ووجوه الرزق

(٤) الأكناف الأرباض أي الضواحي

(٥) يعني لم يجعل له شيئا في شيء إلا في اسم الخلافة ، فإنه شاركه فيه بالفعل ، فصار الخليفة اثنين ؛ أحدهما بالاسم والآخر بالعمل .

(٦) أي أنه ندب إليها كل رئيس عمل حكومي مع عماله (٧) أي يعجل .

(٨) المقرئ : نفع الطبيب ج ١ ص ٢٧٥ .



الباب العاشر

الحالة الاجتماعية

طبقة  
ثم  
الحج  
ور

وقد  
منام  
حتى  
العن  
الدو  
يسا  
انتق  
ويج  
خط  
نار  
والك  
وان  
الد

التف  
الحج  
هذا  
قليل  
فض  
سنة

مكتوب  
مكتوب

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب (١) أنه يقصد بالحالة الاجتماعية في بلد من البلاد ، ذكر طبقات المجتمع في هذا البلد من حيث الجنس والدين ، وعلاقة كل من هذه الطبقات بعضها ببعض ، ثم بحث نظام الأسرة وحياة أفرادها ، وما يتمتع به كل منهم من الحرية ، ثم وصف البلاط ومجالس الخلفاء ، والأعياد والمواسم والولائم والحفلات وأماكن الترفيه ، ووصف المنازل وما فيها من أثاث وطعام وشراب ولباس ، وما إلى ذلك من مظاهر المجتمع .

## ١ - طبقات الشعب

### (١) في عهد العباسيين :

كان الشعب في أواخر العصر العباسي الأول يتألف من عدة عناصر ، هي العرب والفرس والمغاربة . وقد ظهر العنصر التركي على مسرح السياسة في عهد الخليفة المعتصم الذي اتخذهم حرساً له ، وأستند إليهم مناصب الدولة العالية ، وأهمل العرب والفرس ، فأصبح الأتراك خطراً يهدد حياة الخلفاء أنفسهم ، حتى إن كثيرين من هؤلاء الخلفاء ذهبوا ضحية تأمرهم . على أن بعض الخلفاء أدركوا خطر هذا العنصر ، فاستعانوا بالمغاربة والفراغنة ، وغيرهم من الجنود المرتزقة كالأكراد ، والقرامطة الذين بدأت الدولة العباسية تستعين بهم منذ أيام الخليفة الراضي (٣٢٢-٣٢٩ هـ) . إلا أن الخلفاء العباسيين لم يسلبوا من خطر هذه العناصر التي كانت تنضم إلى أمراء الأمراء تارة ، وإلى الخلفاء أخرى . ولما انتقلت السلطة إلى بني بويه قامت المنافسة بين الأتراك والديلم الذين كان البويهيون ينتسبون إليهم ويعتمدون عليهم في إقرار نفوذهم . ووقع بنو بويه فيما وقع فيه العباسيون من قبل ، وأصبح الديلم خطراً يهدد كيان الدولة العباسية بسبب قيام المنافسة بينهم وبين الأتراك ، واستعانة البويهيين بهؤلاء تارة وأولئك تارة أخرى . وقد أدرك معز الدولة هذا الخطر فأوصى ابنه بختيار بمداواة الديلم والتودد إلى الأتراك . ولكن بختيار ، على الرغم من استعانته بالأتراك ، لم يسلم من شرهم فعزلوه وانضموا إلى ابن عمه عضد الدولة . ومهما يكن من شيء فقد كان الجيش في عصر بني بويه يتألف من الديلم والأتراك والعرب والأكراد والفراغنة وغيرهم من المرتزقة (٢) .

وكان من أثر انقسام المسلمين في هذا العصر إلى شيع وطوائف أن تعرض المجتمع الإسلامي إلى التفكك والتنازع . فهناك السنيون الذين كانوا يكونون السواد الأعظم ، ويتمتعون بقسط وافر من الحرية والطمأنينة في عهد نفوذ الأتراك وفي عهد إمرة الأمراء . وهناك الشيعة ، وقد قاسوا في هذا العهد كثيراً من العنت والاضطهاد ، حتى أستولى بنو بويه على العراق ، فتمتع الشيعة بشيء غير قليل من الطمأنينة في ظل هؤلاء البويهيين المتشيعين . ومن ثم قامت المنازعات بين السنيين والشيعة ؛ فضرب يحيى بن عمر بن يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وحبس في بغداد سنة ٢٣٥ هـ (٣) . ولم ينبج من عنت هذا الخليفة إلا العلويون الذين لجئوا إلى مصر . ومع ذلك فقد

(٢) أنظر ص ٤٦٥ - ٤٦٧ من هذا الكتاب .

(١) ص ٢٨٩

(٣) الطبري ج ١١ ص ٤٢ .

أمر هذا الخليفة واليه على هذه البلاد بإخراج العلويين من مصر إلى العراق ثم أمر بإرسالهم إلى المدينة . على أن يحيى بن عمر العلوى لم يلبث أن خرج على الدولة العباسية ، ولكنه قتل في عهد المستعين سنة ٢٥٠ هـ (١) . وكذلك ثار بطبرستان الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، واستولى عليها وعلى جرجان ، وحكم هذه البلاد عشرين سنة ( ٢٥٠ - ٢٧٠ هـ ) إلى أن مات ، خلفه أخوه . وكانا يدعوان إلى الرضا من آل محمد ، ثم خلفه الحسن بن علي الحسنى المعروف بالأطروش (٢) .

بيد أن الشيعة انتعشوا في عهد بني بويه ، وأصبحوا يقيمون شعائرهم في شىء كثير من الطمأنينة ، وإن كانت مساكنهم لم تعد السكان المحيط بسوق الكرخ غربى بغداد إلا في أواخر القرن الرابع الهجرى . وفي سنة ٣٤٩ هـ قامت فتنة بين العامة ببغداد ، وتعطلت صلاة الجمعة في مساجد السنين على حين أقيمت في مسجد براتا الشيعى ، ولم تلبث أن سكنت هذه الفتنة باعتيال معز الدولة جماعة من السنين (٣) . وفي السنة التالية احتفل الشيعة بيوم عاشوراء (٤) ، وأمر معز الدولة الناس بغلق الأسواق ومنع الطباخين من الطبخ ، ونصبوا القباب في الأسواق وعلقوا عليها المسوح ، وأخرجوا النساء منشورات الشعور يقمن المآثم على الحسين بن علي رضى الله عنه ... وكان ذلك في صحيفة معز الدولة بن بويه ؛ ثم اقتدى به من جاء بعده من بني بويه (٥) .

وفي الثامن عشر من شهر ذى الحجة من هذه السنة احتفل الشيعة بيوم غدیر خم (٦) ، وأمر معز الدولة بإظهار الزينة في البلد ، وأشعلت النيران بمجلس الشرطة ، وأظهر الفرح ، وفتحت الأسواق بالليل كما يفعل ليالى الأعياد . فعل ذلك فرحا بعيد الغدير ، يعنى غدیر خم ، وضربت الدبابد والبوقات ، وكان يوماً مشهوداً (٧) .

ولم يكن هذا الاختلاف قائماً بين السنين والشيعة وحدهم ، بل تعداه إلى بعض السنين وبعض . فقد رأينا أن الحنابلة أصبحوا قوة يخشى بأسها ، حتى إنهم حالوا دون دفن محمد بن جرير الطبري سنة ٣١٠ هـ ، لأنه جمع كتاباً في اختلاف الفقهاء لم يذكر فيه أحمد بن حنبل من بين هؤلاء

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٤٠٩ - ٤١٥ ، ٤٧٤

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤١٣ - ٤١٤

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٢٣ .

(٤) وهو اليوم العاشر من شهر المحرم ( سنة ٦١ هـ ) الذى قتل فيه الحسين بن علي في موقعة كربلاء ، وقد جعل الشيعة هذا اليوم من أيام الحزن عندهم .

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٣٤

(٦) غدیر خم على ثلاثة أميال من الجحفة ، بسرة عن الطريق . وهذا الطريق نصب فيه عين ، وحوله شجر كثير ملتف ، وهى الفضة وهذا الطريق خم . وبين الغدير والعين مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، وهناك نخل ابن المعلى وغيره . وبغدير خم قال النبي لعل : من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وذلك منصرفه من حجة الوداع . ولذلك قال بعض الشيعة :

ويوما بالغدير غدیر خم

أبان له الولاية لو أطعنا

(٧) ابن الأثير ج ٨ ص ١٩٧

الفقهاء (١) ؛ كما رأينا كيف بلغ من تشدهم في الدين أن قاموا في وجه ذوى اليسار وكسروا أواني الخمر وحطموا الآلات الموسيقية وضربوا المغنين (٢) . وذكر السيوطي (٣) أن الحنابلة ثاروا ببغداد سنة ٣١٨ هـ ، لاختلافهم مع غيرهم من السنين في تفسير قوله تعالى ( عسى أن يعثك ربك مقاما محمودا (٤) ) ، فقال الحنابلة إن المقصود من هذه الآية أن يقعد الله نبيه على عرشه ، وقال غيرهم بل هي الشفاعة ، واحتدم الجدل بسبب ذلك واقتتل الحنابلة وخصومهم (٥) .

ومن طبقات الشعب طبقة الرقيق ، وكانت مصر وشمال إفريقيا وشمال جزيرة العرب من أهم أسواق الرقيق الأسود . وكان كافور الإخشيدي — كما نعلم — عبدا حبشيا اشتراه محمد بن طنج الإخشيدي في سنة ٣١٢ هـ بثمانية عشر ديناراً (٦) . وقد جلب إلى العراق كثير من الزنجيات لأنهن عرفن بكثرة النسل ، كما جلب كثير من الزنج لفلاحة الأرض وحراسة الدور . وبهذا كثر عدد الزنج في العراق ، وأدت كثرتهم إلى قيام ثورة الزنج الخطيرة التي دامت أكثر من أربع عشرة سنة (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ) ، وكلفت الدولة العباسية كثيراً من الأموال والدماء (٧) .

وقد كثر شراء الرقيق اللاتي أصبح منهن المغنيات وارتفع ثمنهن . وقد قيل إن ابن رائق اشترى حول سنة ٣٢٥ هـ جارية مولدة سمرام موصوفة بحسن الغناء بأربعة عشر ألف ديناراً (٨) . وارتفع ثمن الرقيق الأبيض بسبب انقطاع عبيد الأندلس في القرن الرابع الهجري وتخريب الثغور الغربية ، وكاد ينضب المصدر الوحيد الباقي من الرقيق وهو بيزنطة وأرمينية . ويقول المقدسي (٩) : « والحدم الذين ترى على ثلاثة أنواع : جنس يحملون إلى مصر وهم أجود الأجناس ، وجنس يحملون إلى عدن وهم البربر وهم شر أجناس الحدم ، والجنس الثالث على شبه الحيش . وأما البيض فجنس : الصقالية وبلدهم خلف خوارزم ، إلا أنهم يحملون إلى الأندلس فيخصون ثم ينجون إلى مصر ، والروم يقعون إلى الشام وأقور (١٠) ، وقد انقطعوا بخراب الثغور » .

ومن الرقيق الأبيض الذين كانوا يسمون الغلمان ، الأتراك والديلم والأكراد ، وقد قاموا بدور هام في السياسة والحرب في هذا العصر . وكان هؤلاء الأرقاء يكونون طبقة كبيرة من طبقات المجتمع

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٥ — ٤٦

(٢) المصدر نفسه ج ٨ ص ١٠٦ — ١٠٧ . أنظر هذا الكتاب ص ٩٣ (٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٥٥

(٤) سورة الأسرى آية رقم ٧٩ .

(٥) راجع كتاب الخليفة الراضي إلى الحنابلة في مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ٣٢٢ — ٣٢٣ .

(٦) ابن خلصان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٣١

(٧) راجع ما ذكرناه من ثورة الزنج في هذا الكتاب ص ٣٧٥ — ٣٧٩ .

(٨) الصول أخبار الراضي بالله والتقى لله ص ١٠١ .

(٩) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٢٤٢ .

انظر آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ٢٣٦ وما يليها .

(١٠) بضم القاف وسكون الواو اسم كورة بالجزيرة ، أو هي الجزيرة التي بين الموصل والفرات بأسرها .

أنظر هذا القفظ في معجم البلدان لإياقوت .

الإسلامي في العصر العباسي الأول ، إذ كان اتخاذ الرقيق منتشرا انتشارا كبيرا . وكانت سمرقند ، التي كانت تعد من أكبر أسواق الرقيق ، بيئة صالحة لتربية الرقيق المحلوب من بلاد ما وراء النهر ، كما كان أهلها يتخذون ذلك صناعة لهم يعيشون منها<sup>(١)</sup> . ولم ينظر الخلفاء العباسيون إلى الرقيق نظرة امتهان وازدراء ، لأن كثيرين منهم كانت أمهاتهم من الرقيق . وقد أولع الخلفاء وكبار رجال الدولة باتخاذ الإماء من غير العرب ، حتى إنهم كانوا يفضلونهن أحيانا على العرييات الحريرات<sup>(٢)</sup> . ومن طبقات الشعب في ذلك العصر أهل الذمة ، وهم النصارى واليهود . وكانوا يتمتعون بكثير من ضروب التسامح الديني ويطبقون شعائرهم الدينية في أمن ودعة . وقد أوجدت الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغى أن يكون فيها من وفاق بين المسلمين واليهود والنصارى نوعا من التسامح . ولم تتدخل الحكومة الإسلامية في شعائر أهل الذمة ، بل كان يبلغ من تسامح بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بحمايتهم .

وكانت الطوائف الدينية منفصلا بعضها عن بعض تمام الانفصال ؛ وكان لا يجوز للمسيحي أن يهود ، ولا لليهودى أن يتنصر ، واقتصر تغيير الدين على الدخول في الإسلام . ولم يكن النصراني يرث اليهودى ولا اليهودى يرث النصراني ، كما لم يكن اليهودى أو النصراني يرث المسلم ولا المسلم يرث غير المسلم يهوديا كان أو نصرانيا . ولم يكن في المدن الإسلامية أحياء مخصصة لليهود والنصارى بحيث لا يتعدونها ، وإن كان أهل كل دين قد آثروا أن يعيشوا متقاربين<sup>(٣)</sup> .

وكان للنصارى بطريق يعين بعهد خاص من الخليفة كما يعهد لكبار العمال ، ويطلق عليه الجائليق النسطوري أى رئيس المسيحيين الشرقيين ، وكان يتمتع بنفوذ كبير بين أبناء ملته بعد أن انتقل مركز الخلافة إلى بغداد<sup>(٤)</sup> ؛ وكذلك عومل بطريق اليعاقبة<sup>(٥)</sup> .

وكان لليهود رئيس خاص يلقب أحيانا بلقب الملك ، ويدفع له أهل ملته الضرائب فيأخذ نصفها ويرسل النصف الآخر إلا بيت المال ، بخلاف ما كانت عليه الحال بالنسبة إلى النصارى الذين كانوا يؤدون الضرائب لبيت المال مباشرة . ويطلق على رئيس اليهود ببغداد رأس الجالوت ، وقد امتد نفوذه على اليهود المقيمين في البلاد الواقعة شرق الفرات . وبلغ عدد اليهود بالعراق وحدها ٦٠٠,٠٠٠ . وكلما تقدمنا شرقا زاد عدد اليهود ، ففي همدان مثلا بلغ عددهم ثلاثين ألفا ، وفي أصبهان خمسة عشر ألفا . وفي شيراز عشرة آلاف ، وفي غزنة ثمانين ألفا ، وفي سمرقند ثلاثين ألفا . ويظهر أن عددهم كان ضئيلا في بلاد الشام ، وخاصة في أثناء الحروب الصليبية ، حتى إن عددهم في الحى الخاص بهم

(١) آدم متر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى ص ٢٦٨ .

(٢) انظر هذا الكتاب ص ٢٩٢ .

(٣) انظر هذا الكتاب ج ٢ ص ٢٩١ .

(٤) متر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٥٨ - ٥٩ .

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٦٠ .

راجع نسخة الجائليق في تذكرة ابن حمدون التي نصرها أمدرود في المجلة الأسبوعية للمسكية سنة ١٩٠٨ ص

٤٦٧ وما يليها .



في بيت المقدس لم يتجاوز أربعة أنفس أو مائتين على ما ذكره بنيامين ، أو شخص واحد على ما ذكره بتاحيا . أما في دمشق فقد بلغ عددهم ثلاثة آلاف ، وفي حلب خمسة آلاف (١) . ويقول المقدسي (٢) في كلامه على خراسان إنه كان به « يهود كثيرة ونصارى قليلة » ، ويقول عن بلاد الجبل : « واليهود به أكثر من النصارى (٣) » .

وفي القرن الرابع الهجري اعترفت الدولة العباسية للبحوس الذين لم يكن قد تم التغلب عليهم في البلاد البعيدة ، لتمسكهم بدينهم وتقاليدهم وكرهتهم للإسلام بأنهم أهل ذمة . وكان لهم — كما كان لليهود — رئيس ديني يلقب بألقاب الملوك ، وكان منصبه وراثيا . ويدفع له أبناء نحلته الضرائب كما يفعل اليهود (٤) . وقد كثرت عددهم في القرن الرابع في العراق وجنوبي فارس (٥) .

### (ب) في عهد الفاطميين :

وكان الشعب المصري في عهد الفاطميين يتكون من أهل السنة الذين كانوا ، منذ أيام الطولونيين ، يكونون السواد الأعظم من المصريين . وكانوا يختلفون مع الشيعة أنصار الفاطميين ، الذين لم يدخروا وسعا في نشر مذهبهم في المساجد والقصور ، وفي دور العلم وغيرها . وقد فعلت هذه السياسة فعلها في الناس ، فتحول كثير من السنيين إلى المذهب الفاطمي رغبة في الهبات والعطايا والمناصب . واضطر كثير من الموظفين من أهل السنة إلى التحول إلى المذهب الفاطمي ، كما حتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق قوانين هذا المذهب .

أما الطبقة الثانية فهي طبقة المغاربة الذين قامت الدولة الفاطمية على أكتافهم في بلاد المغرب ثم في مصر . وكان الفاطميون يعتمدون عليهم في جيوشهم ، وخاصة الكتائب الذين كانوا عصب الدولة الفاطمية وقوتها في مصر .

والطبقة الثالثة هي طبقة أهل الذمة ، وهم النصارى واليهود . وقد دفعت رغبة كثير منهم في الحصول على الهبات والعطايا والمناصب إلى اعتناق المذهب الإسماعيلي لأغراض مادية . وقد عامل الفاطميون النصارى واليهود معاملة تنطوي على العطف والرعاية ، وأجمع المؤرخون على أن أبناء هاتين الطائفتين عوملوا في عهد الفاطميين معاملة تتجلى فيها المحاباة ، وتقلدوا أرقى المناصب وأعلاها في عهد الخليفة العزيز ، وشغلوا في عهد المستنصر ومن جاء بعده من الخلفاء معظم المناصب المالية في الدولة ، بل تقلدوا الوزارة أيضاً ، وتمتعوا بقبسط وافر من سياسة التسامح الديني ، وهو أمر نستطيع تحقيقه من بناء عدد من الكنائس أو إعادتها إلى ما كانت عليه .

والطبقة الرابعة هي طبقة الأتراك الذين كثرت عددهم منذ أيام الدولة الطولونية . فقد استعان أحمد بن

(١) آدم متر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ٦٠ — ٦٢ .

(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٣٢٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣٩٤ (٤) متر : ج ١ ص ٥٨ .

(٥) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٢٦ .

طولون مؤسس هذه الدولة — وكان تركيا من بلاد ماوراء النهر — بعدد كبير من هؤلاء الأتراك . وظهر أمرهم في مصر في عهد الحاكم حين بالغ ابن عمار في محاربة المغاربة ، وأبطل أعطيات الأتراك ، واعتمد على معونة غلبان المغاربة الذين أثاروا عليهم الأتراك ، مما أدى إلى التطاحن بين الفريقين . وكان برجوان التركي ينافس ابن عمار ويناوثة العداء ، حتى اضطر زعيم المغاربة إلى الهرب وحل محله (١) والطبقة الخامسة هي طبقة السودانيين الذين كثروا في مصر منذ عهد كافور الإخشيدي . وقد ظهر أمرهم في أيام الخليفة الحاكم الذي استعان بهم على الأتراك ، فأحرقوا القاهرة حرقاً منهم على المصريين الذين لم يرضوا عن سياسته المضطربة .

وقد ظهر أمر هؤلاء السودانيين من جديد في أيام الخليفة الظاهر الذي تزوج بسيدة سودانية ، كانت من قبل أمة في بيت أبي سعيد التستري اليهودي . وتفاقم خطر هؤلاء الجند الذين بلغ عددهم خمسين ألفاً في أيام المستنصر ، بسبب التشاحن الذي قام بينهم وبين الأتراك الذين طاردتهم إلى الصعيد ، حيث استقر منهم خمسة عشر ألفاً . وكان من أمرهم أن أخافوا الأهليين ، وحالوا دون زراعة الأراضي (٥٤٥٤) ، واكتسح الغالة منهم ، وعددهم خمسة عشر ألفاً ، الدلتا حتى وصلوا إلى الإسكندرية ، فاستقروا بها . وقد شل حركة الفلاحين ذلك الرعب الذي ألقته هؤلاء الجنود السودانية المشتتة في جميع أنحاء البلاد (٢) .

على أن ذلك الانتصار الذي أحرزه الجند من الأتراك على الجند السوداني لم يؤد إلى قل شوكة العنصر السوداني نهائياً ، بل — على العكس من ذلك — نرى هذا العنصر من بين الطبقات التي كان يتكون منها الشعب المصري في أواخر عهد الدولة الفاطمية .

### (ج) في عهد الأمويين بالأندلس :

وكان الشعب في بلاد الأندلس يتألف من عدة عناصر ، من بينها المسلمون من العرب ، والبربر الذين ساهموا في فتح هذه البلاد بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير ، ومن مسيحيي الأندلس من الأسباب الذين دخلوا في الإسلام بعد الفتح .

أما العرب فقد نزل كثير من القبائل الجنوبية أو اليمينية والقبائل الشمالية أو المضريين ، وسكنوا في أماكن كثيرة ، ونزل كثير من المضريين في طليطلة وسرقسطة وإشبيلية وبلنسية وغيرها ، كما نزل اليمينيون بغرناطة وقرطبة وإشبيلية ومرسية وبطليوس . وقام العرب في الأندلس بدور هام في تاريخ هذه البلاد ، فتدخلوا في شئونها السياسية . وكان للنزاع بين هذه القبائل ، أثر كبير في إضعاف الحكم الإسلامي في هذه البلاد . وكان لاعتماد عبد الرحمن الداخل على البربر واتخاذ جنده منهم لعدم ثقته بالعرب ، أثر بعيد في إضعاف الدولة الأموية بهذه البلاد ، وأتاح للمسيحيين الفرصة لشن غاراتهم على المسلمين والعمل على استرداد بلادهم .

وعلى الرغم من أن البربر بقيادة طارق بن زياد أبلوا البلاد الحسن في فتح بلاد الأندلس

(١) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ٢٠١ — ٢٠٢

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٨

وتحملوا أكثر أعباء هذا الفتح ، نرى العرب يحرمونهم ثمار فتوحهم وينزلونهم الأقاليم الجبلية الوعرة المجذبة في الشمال ، حيث استهدفوا لخطر حملات المسيحيين الذين أقاموا في الأماكن الحصينة ، على حين نعم العرب بالوديان الحصينة البعيدة عن خطر عصابت المسيحيين . لهذا نارت نائرة البربر واستعرت حفاظهم على العرب (١) ، وأخذوا يناصبونهم العداة كما كانوا يناصبون العرب والروم من قبلهم في بلاد المغرب .

والحق أن البربر كانوا إذا أنسوا من أمراء الأمويين وخلفائهم في الأندلس قوة ، استكانوا وآثاروا العافية ، وعاشوا عيشة الهدوء والسكينة ، وإذا أنسوا من هؤلاء ضعفاً اتخذوا من ذلك فرصة لشق عصا الطاعة . فتراهم ينتهزون فرصة الاضطرابات في عهد المنذر وعبد الله ابني محمد الأول بن عبد الرحمن الأوسط ، ويستقلون في أواخر القرن الثالث الهجري بالولايات الغربية وجنوبي بلاد البرتغال ، ويحتلون بعض الأماكن الهامة في الأندلس (٢) . ومن أشد هؤلاء البربر خطراً أسرة ذى النون التي دهمت الأندلس كلها — كما يقول ستانلي لينبول (٣) — بالسيف والنار وعانت في جميع أرجائها .

ولكن عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠) استطاع أن يرغم هؤلاء البربر على الطاعة ، وأعاد وحدة البلاد . ولم يستطع هؤلاء البربر الظهور إلا بعد وفاة المنصور بن أبي عامر سنة ٣٩٣ هـ ، حيث غدت بلاد الأندلس مسرحاً لقوى المتعادية المتنافسة ، ومن بينها البربر الذين اعتمد عليهم المنصور في تحقيق سياسته ، حتى أصبحوا خطراً يهدد كيان الدولة (٤) . وقد انفض هؤلاء البربر بعد وفاة الحاجب المتصور من حول أخيه عبد الرحمن وقتلوه وأزالوا دولة العامريين (٥) ، وساعدوا أفراد البيت الأموي بعضهم على بعض . ولذلك نرى البربر يلتفون حول محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن عبد الرحمن الناصر الذي تلقب بالمهدى ، ويساعدونه في الحروب التي قامت بينه وبين هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر . ولما وجد محمد بن هشام حقيق أهل قرطبة على البربر

(١) Stanley Lane — Poole : The Moors in Spain, pp. 53-5

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٤ ص ١٣٣ .

(٣) The Moors in Spain, pp. 100 — 1

(٤) ابن خلدون . العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٢ ص ١٥٠ .

(٥) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٤٩ - ١٥٠ .

خلف عبد الرحمن أخاه المظفر وتلقب الناصر ، وأعلن حقه في وراثة العرش ، وأن الخليفة هشاماً المؤيد اختاره دون سائر أهل بيته إذ لم يكن له ولد يطمع في الخلافة ، وكذب له عهداً بذلك في شهر ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ . وكان يلقب بشنجول « أو سانسكول » ، ذلك الاسم الذي غلب عليه من قبل أمة عبدة بات شائعة ملك نافار ، وكانت تدعوه في سفره شانسجول . وكان ينتسب إلى الخليفة عن طريق الخثولة ، إذ أن أمهما بشكنسيتين ( ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ٣٨ ، ٤٢ ) ، فانفض البربر من حوله لما وجدوه من سوء سياسته ، كما انفض الأمويون وزعماء هذه البلاد حين رأوه يعمل على نقل الخلافة إلى بيته في ذلك الوقت الذي تطرق الضعف إلى الخلافة الأموية في هذه البلاد .

لمناصرتهم المنصور بن أبي عامر وأولاده ، طردهم من جيشه وجردهم من سلاحهم (١) . وقد تخلى البربر عن المهدي وناصروا هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر (شوال سنة ٣٩٩ هـ) وحثوه على الخروج على طاعة المهدي . ولكن أهل قرطبة فتكوا بهم فتكا ذريعاً وقتلوا منهم خلقاً كثيراً . ولذلك ساعد البربر سليمان بن الحكم ولقبوه المستعين بالله ، وساروا معه إلى قرطبة التي أصبحت مسرحاً للقوضى والنهب والإحراق ، حتى دخلها سليمان سنة ٤٠٠ هـ ، وفر المهدي ، واستعان بالناصرى على طرد البربر والمستعين ، وتم لهم ما أرادوا . وأدى ذلك إلى تفريق كلمة المسلمين وظهور ملوك الطوائف ، وقامت دولة بني حمود بمساعدة البربر (٢) .

وقد قام مسيحيو الأندلس الذين دخلوا الإسلام بدور هام في سياسة هذه البلاد . فتراهم في عهد المنذر وأخيه عبد الله ابني محمد الأول يثورون على أمراءهم ويستولون على ولاية الجرف في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة ويستقلون بكثير من الولايات .

أما المسيحيون في هذه البلاد فقد كانوا فريقين : فريق بق متمسكا بدينه القديم ، وفريق آخر عرف باسم المستعربين . وعلى الرغم من أنهم ظلوا على عقيدتهم الأولى ، أظهروا ميلهم إلى تعلم اللغة العربية فتكلموا بها ، وألفوا الكتب ونظموا الشعر وتخلقوا بأخلاق العرب وعاداتهم (٣) . وكان يحكمهم حاكم من بينهم يسمى الكونت يختاره الأمير أو الخليفة ، ولهم ممثل يمثلهم في البلاط ، وآخر يقوم بجمع الخراج . ولهم قاض منهم ، ومحكمة استئنافية برياسة الكونت . وكثيراً ما كان هؤلاء المسيحيون يعينون في أرقى المناصب المدنية والحربية ويتمتعون بقسط وافر من التسامح الديني ويختلطون بإخوانهم في حرية تامة .

وقد تمتع اليهود في هذا العصر بشيء كثير من التسامح الديني الذي لم يظفروا به تحت حكم القوط . ولا غرو فقد أسند إليهم كثير من مناصب الدولة ، وأصبح بعض الحرف ، وخاصة الطب ، مقصورة عليهم ، وغدوا عنصراً هاماً في الإدارة والتجارة والثقافة ، وأسخت قرطبة مركز الدراسات العبرية ، وأصبح كثير من اليهود يتحدثون باللغة العربية الصحيحة ويكتبون بها .

وكان لليهود ، كما كان للمسيحيين ، نظام إداري خاص بهم . وقد ذكر الإدريسي (٤) أنه كان لليهود مدينة على بعد أربعين ميلاً جنوبي قرطبة ، وأنهم كانوا يسكنون بحوف المدينة ولا يداخلهم فيها مسلم البتة ، وأهلها أغنياء مياسير أكثر غنى من اليهود الذين يسائر بلاد المسلمين . وليس أدل على ما بلغه اليهود في عهد الأمويين بالأندلس من نفوذ من اختيار حسداى بن شبروط اليهودى لاستقبال سفراء الدول الذين كانوا يقدون على البلاط الأموى في هذه البلاد . وقد قام حسداى هذا بدور هام في البعثة التي أوفدها قسطنطين الثاني إمبراطور الدولة البيزنطية إلى عيد الرحمن الناصر ،

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ٨٤ .

(٢) أنظر هذا الكتاب ص ٣٠٧ - ٣٠٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٩١ .

(٤) صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (لیدن ١٨٦٦) ص ٢٠٥ .

وفي البعثة التي أوفدها أوتو إمبراطور ألمانيا ، كما أسند إليه الناصر مهمة دبلوماسية طيبة لدى ملكة نافار (١) .

ومن أهم طبقات الشعب في الأندلس « الصقالبة » ، وكانوا من المالك الذين كان تجار الإغريق والبنادقة يجلبونهم إلى بلاد الأندلس ويبيعونهم صفارا فينشئون نشأة إسلامية (٢) ، أو من أسرى الحروب أو ممن استولى عليهم القراصنة من السواحل الأوربية أو سواحل البحر الأبيض الغربية . ويسمون والحشم (٣) ، . ويشبه هؤلاء الصقالبة الأتراك في الدولة العباسية منذ عهد المعتصم . وقد ذكر المقدسي (٤) عند كلامه على الخدم السود والبيض ، أن البيض جنسان : الصقالبة ، وبلدهم خلف خوارزم ، إلا أنهم يحملون إلى الأندلس فيخسون . ثم يخرجون إلى مصر ، والروم يقعون إلى الشام وأقور ، وقد انقطعوا بخراب الثغور ، . وكان الصقالبة يكونون عنصرا هاما من عناصر الجيش ، ويقومون عادة بقرطبة . وقد اتخذهم الحكم الأول بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) حرسا له ، ولم يلبث أن زاد نفوذهم وتفاقم شرهم . ولما ولي عبد الرحمن الناصر بلاد الأندلس في سنة ٣٠٠ هـ قرب إليه الصقالبة ، ورأى أن روح العصية العربية كانت مثار النزاع والانقسام ، فتخلص من العرب ، واعتمد على جماعة من الأرقاء والمالك الذين اتخذهم حرسا له ، كما اتخذ منهم جنودا يعتمد عليهم في إذلال العرب . وبلغ عدد الصقالبة بقصر الزهراء وحده ٣٧٥٠ (٥) .

ولكن هؤلاء الصقالبة لم يلبثوا أن انضموا إلى الثورات التي قامت بعد موت الحاجب المنصور الذي عمل على القضاء على العرب والصقالبة ، واعتمد على البربر كما تقدم . كما استعان بهم عبد الرحمن الناصر في حروبه التي شنّها على مسيحي الأندلس الشماليين وعلى الفاطميين .

## ٢ - مجالس الغناء والطرب

### (١) في الدولة العباسية :

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب (٦) أن العباسيين انغمسوا في الترف والبنخ بزيادة العمران وتدفق الثروة ، وأن قصور الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة كانت مضرب المثل في حسن رونقها وبهائها ، كما امتازت بفخامة بنائها واتساعها وما يكتنفها من حدائق غناء وأشجار متكاثفة ، وازدانت بالمناضد الثمينة والزهريات الخزفية والتريعات المرصعة والمذهبة . وكان العباسيون في العراق والطولونيون والفساطميون في مصر والآويون في الأندلس ينفقون عن سعة في سبيل رفاهيتهم ، ويعيشون عيشة قوامها البنخ والإسراف وحب الظهور . وحفلت قصور الخلفاء والأمراء والوزراء

(١) أنظر هذا الكتاب ص ٤١٢ - ٤١٦ . (٢) المصدر نفسه ص ٢٩٦ .

(٣) كانوا يسمون الحرس أيضا لجمعهم ، وقد بلغت عدتهم خمسة آلاف .

أنظر هذا الكتاب ص ٢٩٠

(٤) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٢٤٢ . انظر هذا الكتاب ص ٦١١

(٥) وقيل ٣٧٨٧ وقيل ٦٠٨٧ . انظر كتاب نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٩ .

(٦) ج ٢ ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

وكبار رجال الدولة بالمغنين والموسيقين ، كما كانت مجالسهم آية من آيات الروعة والجمال .  
أخذ العباسيون نظام مجالسهم عن الفرس كما نعلم . وعلى الرغم من ضعف الدولة في العصر العباسي  
الثاني ، كان للخلفاء مجالس للطرب والغناء يحضرها الشعراء والأدباء والمغنون والموسيقيون والملمهون .  
وقد ذكر المسعودي (١) أن مجلس المتوكل أول خلفاء العصر العباسي الثاني جمع مرة بين الشعراء  
والأدباء والملمين . وقد مدح البحرى هذا الخليفة بقصيدة قال في مطلعها :

عن أى ثغر تبسم	وبأى طرف تحتكم ؟
حسن يضى بحسنه	والحسن أشبه بالكرم
قل للخليفة جعفر الـ	متوكل بن المعتصم
المرتضى ابن المجتبى	والمنعم ابن المنتقم
أما الرعية فهى من	أمنات عدلك فى حرم
يا باني المجد الذى	قد كان قوض فانهدم
إسلم لدين محمد	فاذا سلت فقد سلم
نلنا الهدى بعد العمى	بك والغنى بعد العدم

فلما انتهى إلى ذلك مشى القهقرى للانصراف ، فوثب أبو العنيس الصيمرى الشاعر ، فقال :  
يا أمير المؤمنين تأمر برده ، فقد والله عارضته فى قصيدته هذه . فأمر برده ، فأخذ الصيمرى ينشد  
قصيدة له على مثل قافية البحرى ووزنها يهجو فيها فقال :

فى أى سلح ترتطم      وبأى كف تلتقم

ووصل ذلك بما أشبهه من الشتم ، فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه ، وخص برجله اليسرى  
وقال : يدفع إلى أبى العنيس عشرة آلاف درهم ، فقال الفتح ( بن خاقان ) : يا سيدى ! البحرى  
الذى هُجى وأسمع المكروه ينصرف خائبا ! قال : ويدفع إلى البحرى عشرة آلاف درهم . قال :  
يا سيدى ! فهذا البصرى الذى أشخصناه من بلده لا يشركهم فيما حصلوه ؟ قال : ويدفع إليه عشرة  
آلاف درهم . فانصرفنا كلنا فى شفاعة الهزل ، ولم ينفع البحرى جده واجتهاده وحزمه . ثم قال  
المتوكل لأبى العنيس : أخبرنى عن حمارك ووفاته وما كان من شعره فى الرؤيا التى رأيتها . قال : نعم  
يا أمير المؤمنين ، كان أعقل من القضاة ، ولم يكن له جرية ولا زلة ، فاعتل علة على غفلة ومات منها ،  
فرايته فيما يرى النائم ، فقلت له : يا حمارى ! ألم أبرد لك الماء وأنت لك الشعر وأحسن إليك  
جهدى ؟ فلم مت على غفلة ؟ وما خبرك ؟ قال : نعم ! لما كان فى اليوم الذى وقفت على فلان الصيدلانى  
تكلمه فى كذا وكذا ، مرت بى أتان حسناء ، فرأيتها ، فأخذت بمجامع قلبى ، فعشقتها ، واشتد  
وجدى بها ، فت كذا متأسفا . فقلت له : يا حمارى ! هل قلت فى ذلك شعرا ؟ قال : نعم ! وأنشدنى :

هام قلبى بأتان      عند باب الصيدلانى

(١) مروج الذهب (طبعة باريس) ج ٨ ص ٢٠٢ - ٢٠٦ .

تيمنى بدلال رضا  
وبخدين أسيلي ن كلون الشقران  
وبخد ذى دلال مثل خد الشنفرانى  
فيها مت ولو عش مت ، إذا طال هوانى

فقلت : يا حمارى ! فما الشقرانى ؟ قال : هذا من غريب الخير . فطرب المتوكل ، وأمر الملين المغنين أن يغنوا ذلك اليوم بشعر الحمار ، وفرح ذلك اليوم فرحا شديدا وسرورا لم ير مثله ، وزاد في تكرمة أبي العنيس وجائزته .

وكان الخليفة المعتمد مشغوبا بالطرب والغناء والموسيقى . دخل عليه يوما جماعة من ندمائيه فسأل عبد الله بن خرداذبة والد أبي القاسم عبيد الله الجغرافى المشهور صاحب كتاب المسالك والممالك ، عن نشأة الموسيقى والغناء وما طرأ عليهما من تغيير . فأجاد في وصفهما في البلاد الإسلامية منذ أقدم العصور ، فسر المعتمد وقال له : « قد قلت فأحسن ، ووصفت فأطنبت ، وأقتت في هذا اليوم سوقاً للغناء وعيدا لأنواع الملاهى . وإن كلامك لمثل الثوب الوشى ، يجتمع فيه الأحمر والأصفر والأخضر وسائر الألوان » . ثم سأل عن الصفات التى يجب أن تتوافر في المعنى الحاذق ، فقال له : المعنى الحاذق يا أمير المؤمنين من تمكن من أنفاسه (١) ولطف في اختلاسه (٢) وتفرع في أجناسه . ثم سأله عن أنواع الطرب ، قال : على ثلاثة أوجه يا أمير المؤمنين ، وهى طرب محرك مستخف لأريحية (٣) ، ينعش النفس ودواعى الشيم عند السماع ؛ وطرب شجن وحزن ، لاسيما إذا كان الشعر في وصف أيام الشباب والشوق إلى الأوطان والمراثى لمن عدم من الأحباب ؛ وطرب يكون في صفاء النفس ولطافة الحس (٤) لاسيما عند سماع جودة التأليف وإحكام الصنعة ، إذ كان من لا يعرفه ولا يفهمه لا يسره ، بل تراه متشاغلا عنه ؛ فذلك كالحجر الجلد والجماد الصلد ، سواء وجوده وعدمه ، وقد قال يا أمير المؤمنين جمهور من الفلاسفة المتقدمين وكثير من حكام اليونانيين : من عرضت له آفة في حاسة الشم كره رائحة الطيب ، ومن غلظ جسمه كره سماع الغناء فتشاغل عنه وعابه وذمه . قال المعتمد : فامزلة الإيقاع وأنواع الطروق وفنون النغم ؟ قال : قد قال في ذلك يا أمير المؤمنين من تقدم ، إن منزلة الإيقاع من الغناء منزلة العروض من الشعر ؛ وقد أوضحوا الإيقاع ووسموه بسماوات ولقبوه بألقاب . وهو أربعة أجناس : ثقيل الأول وخفيفه ، وثقيل الثاني وخفيفه ، والرمل الأول وخفيفه ، والمرج وخفيفه (٥) .

ثم أخذ ابن خرداذبة يصف الإيقاع في كثير من الإفاضة حتى قال : « فهذه يا أمير المؤمنين

(١) أى من جمع نفسه لد الصوت

(٢) يحرك الارتياح لسكرم من كثرة الطرب .

(٣) أى من أنواع الطرب ما هو استجابة لدواعى الفنى وحدها من إحكام صنعة الغناء وجودة الإيقاع

وحسن تأليف اللحن . وهذا النوع لا يطرب له الا الفنان القوى الحس .

(٥) للمعوى : مروج الذهب ( طبعة باريس ) ج ٨ ص ٩٥ - ٩٦ .

جوامع في صفة الإيقاع ومنتهى حدوده . ففرح المعتمد في هذا اليوم وخلع على ابن خرداذبة وعلى من حضره من ندمائه ، وفضله عليهم . وكان يوم لهُو وسرور .

وللمعتمد مجالسات ومذاكرات ومجالس ، قد دونت في أنواع من الأدب ، منها مدح النديم ، وذكر فضائله وذم ، التفرد بشرب النبيذ وما قيل في ذلك من المنشور والشعر ، وما قيل في أخلاق النديم وصفاته وعفافه ، وأمن عبثه والتداعي إلى المناسبات والمراسلات في ذلك ، وعدد أنواع الشرب في الكثرة ، وهيئة السماع وأقسامه وأنواعه ، وأصول الغناء ومبادئه في العرب وغيرها من الأمم ، وأخبار الأعلام من مشهورى المغنين المتقدمين والمحدثين ، وهيئة المجالس ومنازل التابع والمتبوع ، وكيفية مراتبهم ، وتعبية مجالس الندماء والتحيات كما قال العطوى في ذلك :

حي التحية أحباب التحيات      القائلين إذا لم تسقم : هات  
أما الغداة فسكرى في نعيمهم      وبالعشى فصرعى غير أموات  
وبين ذلك قصف لا يعادله      قصف الخليفة من لهُو ولذات (١)

وبكذلك كان الخليفة يهتم بمجالس الطرب . روى المسعودى (٢) أن الراضى قد تملكه الهم يوم المهرجان لاستبداد بحكم بأمور الدولة ، وصكك التقود باسمه (٣) ، ولكنه أزال عن نفسه الهم وتمثل بقول المأمون :

صل الندمان يوم المهرجان      بصف من معتقة الدنان  
بكأس خسروانى عتيق      فإن العيد عيد خسروان  
وجنبتى الزبيبين طراً      فضأن ذوى الزبيب خلاف شأنى  
فأشربها وأزعمها حراما      وأرجو عفور رب ذى امتنان  
ويشربها ويزعها حلالا      وتلك على الشقى خطيئتان

فطرب وأخذته أريحية ، فقال لى : صدقت ، ترك الفرح في مثل هذا اليوم عجز ، وأمر بإحصار الجلساء ، وقعد في مجلس التاج على دجلة ، فلم أر يوماً كان أحسن منه في الفرح والسرور . وأجاز في ذلك اليوم من حضر من الندماء والمغنين والملهين بالدنانير والدرهم والخلع وأنواع الطيب . وأتته هدايا بحكم وألطافه من أرض العجم ، فسر في ذلك اليوم وجميع من حضره .

ولم تقتصر هذه المجالس على الخلفاء وحدهم ، بل تعدتهم إلى الأمراء والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة . فقد وصف المبرد مجلس محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين فقال : ارتاح محمد

(١) المسعودى (طبعة باريس) ج ٨ ص ١٠٠ - ١٠٣ .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٥٢٩ - ٥٣٠ .

(٣) روى العروضى مؤدب الراضى أنه دخل عليه في هذا اليوم وبيده دينار ودرهم ، في الدباز نحو من مثاقيل ، وفي الدرهم كذلك ، عليه صورة بحكم شك في سلاحه وحوله مكتوب : انما المر فاعلم ، للامير المظلم سيد الناس بحكم ، ومن الجانب الآخر ، الصورة بعينها جالس في مجلسه كالمفكر المطرق . المصدر نفسه ج ٢ ص ٥٢٩ .



ابن عبد الله بن طاهر يوما للنادمة ، وقد حضره ابن طلوت ، وكان وزيره وأخص الناس به ، وأحضرهم لخلواته . فأقبلا عليه وقال : لا بد لنا اليوم من ثالث تطيب لنا به المعاشرة وتلد بمنادمته المؤانسة ؛ فمن ترى أن يكون ؟ وأعفنا أن يكون شرير الأخلاق أو دنس الأعراق أو ظاهر الإملاق . فأعمل ابن طلوت الفكر وقال : أيها الأمير ! خطر بيالي رجل ليس علينا من مجالسته من مؤنه ، وقد برىء من إبرام المجالسين<sup>(١)</sup> ، وخلا من ثقل المؤانسين ؛ خفيف الوطأة إذا أحببت ، سريع الوتبة إذا أمرت<sup>(٢)</sup> . قال : ومن ذلك ؟ قال : ماني الموسوس . قال : أحسنت والله ، فليتقدم إلى أصحاب الثمانية والعشرين الرابع في طلبه<sup>(٣)</sup> ، يرفعوه رفعة . فما كان بأسرع من أن اقتنصه صاحب الكرخ ، فصار به إلى باب الأمير ، فأخذ وحذف ونظف ، وأدخل الحمام ، وألبس ثيابا نظافا ، وأدخل عليه ، فقال : السلام عليك أيها الأمير ! فقال محمد : وعليك السلام يا ماني ! أما آن لك أن تزورنا على حين توفان منا إليك ومنازعة قلوب منا نحوك ؟ فقال ماني : الشوق شديد ، والحب عتيد ، والمزار بعيد ، والحجاب صعب ، والبواب فظ . ولو سهل لنا في الإذن لسهلت علينا الزيارة . فقال : ألفت في الاستئذان فليطلف لك في الإذن . لا يمنع ماني أي وقت ورد من ليل أو نهار ؛ ثم أذن له في الجلوس مجلس ، ودعى بالطعام فأكل ، ثم غسل يديه وأخذ مجلسه . وكان محمد قد تشوق إلى السماع من مؤنسة جارية بنت المهدي ، فأحضرت ، فكان أول ما غنت به :

ولست بناس إذ غدوا فتحملوا دموعي على الأحباب من شدة الوجد  
وقولي وقد زالت بليل حوهم بواكر<sup>(٤)</sup> نجد لا يكن آخر العهد  
فقال ماني : أحسنت وبحق الأمير إلا ما زدت فيه ؟

وقمت أناجى الفكر والدمع حائر بمقلة موقوف على الضر والجهد  
ولم يعدني هذا الأمير بعزة<sup>(٥)</sup> على ظالم قد لج في الهجر والصد  
فاندفعت تغنيه فقال له محمد : أعاشق أنت يا ماني ؟ فاستحيا وغمزه ابن طلوت أن لا يبوح له بشيء فيسقط من عينيه ، فقال : بلغ طرب وشوق كان كامنا فظهر ، وهل بعد الشيب صبوة<sup>(٦)</sup> ؟ ثم أقترح محمد على مؤنسة هذا الصوت :

حججوها على الرياح لاني قلت يارح بلقيها السلاما  
لو رضوا بالحجاب هان ولكن منعوها عن الرياح الكلاما<sup>(٧)</sup>

(١) يعني انه خفيف الروح لا يضايق المجالس معه .

(٢) أي إذا أردت منه قضاء أمر في المجلس خف اليه وأسرع .

(٣) يريد بأصحاب الثمانية والعشرين الخ جماعة الصرط في الربيع الرابع من بغداد حيث كان يسكن ما في السوس .

(٤) جمع باكرة أي ياساعة ارتحالهم لا تكوني آخر ساعات اللقاء بيننا وبينهم . يثنى أن يعودوا الى أوطانهم مرة ثانية .

(٥) أي لم ينتصر لي بقوة . (٦) يعني ميلا مع الهوى .

(٧) أي منعوها أن ترفع صوتها بغناء أو بشدو لثلاث تنقله الريح الى .

فغنته فطرب محمد ، ودعا برطل فشرّب ، فقال ماني : ما على قائل هذا الشعر لو زاد فيه :  
فتنعت ثم قلت لطيفي آه إن زرت طيفها إلاما  
خصه بالسلام مني فأخشي بمنعوها لشقوتي أن تناماً (١)  
لكان أنقب لزند الصباية (٢) بين الأحشاء وأشد تغلغلا إلى الكبد الصدى (٣) من زلال الماء ،  
مع حسن تأليف نظامه والانتباه بالمعنى إلى نهاية تمامه . فقال محمد : أحسنت ياماني ، ثم أمر مؤنسة  
بالحاقهما بالبيتين الأولين والغناء بهما ، ففعلت ثم غنت بهذين البيتين :  
يا خليلي ساعة لا تريمًا (٤) وعلى ذى صباية فأقيا  
ما مررنا بدار زينب إلا هتك الدمع سرنا المكتوما  
فاستحسنه محمد فقال ماني : لولا رهبة التعدي لأضفت إلى هذين البيتين بيتين لا يردان إلى سمع  
ذى لب ، فيصدران إلا عن استحسان لها ، فقال محمد : يا ماني ! الرغبة في حسن ما تأتي به حائلة  
دون كل رهبة ، فبات ما عندك فقال :

ظبية كاهلال لو تلحظ الصخ ر بطرف لغادرته هشيا  
وإذا ما تبسمت خلت إيمًا ض بروق أو لؤلؤاً منظموما  
فقال : أحسنت يا ماني فأجز هذا الشعر :  
لم تطب اللذات إلا بمن طابت بها اللذات مانوسه  
غنت بصوت أطلقت عبرة (٥) كانت بسجن الصبر محبوسه  
فقال ماني :

وكيف صبر النفس عن غادة تظلمها إن قلت طاؤوسه (٦)  
وجرت إن سميتها بانه (٧) في جنة الفردوس مغروسه ؟  
وغير عدل إن عدلنا بها (٨) جوهرة في البحر مغموسه  
ثم سكت فقال محمد : ما عدا في وصفه لها ، فقال ماني :

جئت عن الوصف فافكرة تلحقها بالنتع محبوسه  
فقال محمد : أحسنت ، فقالت مؤنسة : وجب شكرك يا ماني ، فساعدك دهرك ، وعطف عليك  
إلفك ، وقارنك سرورك ، وفارقك محذورك ، والله يديم لنا ذلك بيقاء من به اجتمع شملنا ،  
فقال لها ماني عند قولها وعطف عليك إلفك مجيباً :

(١) أي تظاهرت بالنوم وسألت خيالي أن يذهب لزيارة طيفها زيارة سريعة ، وأن يلينها سلامي . وإن  
لأخشي أن يمنعها النوم حتى لا يزورها طيفي في المنام  
(٢) أي لسكان اقوى لإشمال نار الغرام في القلب  
(٣) المعطش  
(٤) لا تنصرفا  
(٥) دعمة  
(٦) أي أن قلت أنها تشبه الطاؤوس في جمالها .  
(٧) أي لو شبهت قدها بفنن البان لسكنت جائرا لأنها أحسن قواما وتثنيا منه .  
(٨) أي لو ساويتنا بينها وبين درة البحر لظلمناها لأنها أحسن من الدر صفاء وجمالا .

ليس لي إلف فيعطفني فارقت نفسي الأباطيل (١)  
أنا موصول بنعمة من حبله بالمجد موصول  
أنا مغبوط بنعمة من طبعه بالخير بمجدول (٢)  
فأوماً إليه ابن طالوت بالقيام ، فهض وهو يقول :

ملك قل النظر له زانه الفر الهاليل (٣)  
طاهري في مواكبه (٤) عُرْفه في الناس مبذول (٥)  
يا أبا العباس صن أدباً حده بالدهر مغلول

فقال محمد : وجب جزاؤك لشكرك على غير نعمة سبقت ، ثم أقبل على ابن طالوت فقال : ليست  
خساسة المرء ، ولا اتضاع المنظر ، ولا نبو العين عن الظاهر ، بمذهب جوهرية الأدب المركب في  
الإنسان ؛ وما أخطأ صالح بن عبد القدوس حيث يقول :

لا يعجبك من يصون ثيابه خوف الغبار وعرضه مبذول  
فلربما افتقر الفتى فرأيتَه دنس الثياب وعرضه مغسول  
قال ابن طالوت : فما رأيت أحضر ذهنًا منه إذ تقول الجارية عطف عليك إلفك وإنشاده  
عند قولها ذلك :

ليس لي إلف فيعطفني فارقت نفسي الأباطيل  
قال : فلم يزل محمد مجرياً عليه رزقه حتى توفي (٦).

وكان انتشار الغناء في هذا العصر راجعاً إلى كثرة الجوارى ، وكان معظم القيان اللاتي يحترفن  
الغناء ببغداد في أوائل القرن الرابع الهجري من الجوارى ، وقليل منهن من الحرائر (٧) . وذكر  
السيوطي (٨) أن الخليفة القاهر أمر في سنة ٤٢١ هـ بتحريم القيان والخمر ، وقبض على المغنين وكسر  
آلات اللهب ، كما فعل الخنابلة في أوائل هذا القرن ، وأمر ببيع المغنيات من الجوارى على أنهن  
سوادج (٩) . ومن الغريب أن هذا الخليفة كان مولعاً بالشراب وسماع المغنيات .

### (ب) في مصر والأندلس :

وقد عنى الطولونيون والفاطيون بالغناء والموسيقى ، يدلنا على ذلك بيت الذهب الذي بناه

- (١) أي ذهب زمان العشق ولم يبق لدواعيه تأثير في قلبي .
- (٢) أي أنني مغبوط محسود على نعمة ملك طبعه يؤمل منه المجد .
- (٣) أي زانه آباؤه البيض الوجوه الطيبو العناصر .
- (٤) يشبه جده طاهر بن الحسين أمير خراسان في مواكب جيوشه المشهورة .
- (٥) يعني إن عطائه مبذول للناس .
- (٦) المسعودي : مروج الذهب ( طبعة باريس ) ج ٧ ص ٣٨٥ — ٣٩٢ .
- (٧) متر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ٢٦٦ .
- (٨) تاريخ الخلفاء ص ٢٥٧ .
- (٩) أي أنهن غير مدربات على الغناء .

خمارويه بن أحمد بن طولون ، واتخذ على حيطانه صوراً بارزة من الخشب تمثله وتمثل حطاياه ومعنياته بأشكال بلغت حد الكمال والبهاء ودقة الزخرف . وعلى رؤوس تماثيل النساء أكاليل من الذهب الخالص وأكاليل من الكوادر<sup>(١)</sup> المرصعة بالجواهر ، وعلى آذانها المثبتة في الحيطان بمسامير ، أجراس ثقيل الوزن محكمة الصنع ، وقد لونت أجسادها بالأصباغ العجيبة التي تبدو للرائي كأنها ثياب حقيقية<sup>(٢)</sup> . وذكر المقرئ<sup>(٣)</sup> أيضاً أن خمارويه كان إذا جلس لسماع الغناء وسمع المكبرين يكبرون ، أمر المغنيات بوقف الغناء ، وأخذ يسمع أصوات المكبرين في سكون وخشوع . وذكر المقرئ في مكان آخر<sup>(٤)</sup> أن الخليفة الحاكم الفاطمي أصدر بين سنتي ٣٩٨ ، ٤٠١ هـ قوانين تحرم الاجتماعات للهو واللعب على شواطئ الخليج ، أو أن تفتح الأبواب والنوافذ على هذه الشواطئ ، وتلتها قوانين أخرى يمنع بعضها سماع الموسيقى والاستمتاع بالألعاب وما إليها ، ويمنع البعض الآخر سماع المغنيات . ويقول ابن خلكان<sup>(٥)</sup> إن النساء قبعن في بيوتهن سبع سنين حتى ولى الخلافة الظاهر بن الحاكم . وقد ذكر المؤرخون أن أبا الحارث البساسيري لما أقام الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر في بغداد ، أشادت إحدى المغنيات بهذا الحادث وغنت في حضرة الخليفة الفاطمي هذين البيتين :

يا بني العباس صُدوا ملك الأمر معد  
ملككم كان شعاراً والعواري تسترد

فطرب الخليفة وأقطعها أرضاً لا تزال تعرف إلى اليوم في مدينة القاهرة باسم أرض الطبالة . وقد أوع أمويو الأندلس بالغناء والموسيقى ، وأجزلوا العطاء للمغنين والموسيقين . وقد قيل إن علون وزرقون أول من دخل هذه البلاد من المغنين ، وذلك في عهد الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) الذي اشتهر بالغناء في زمانه منصور اليهودي . وفي عهد عبد الرحمن الأوسط بن هشام (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) وقد على الأندلس أبو الحسن علي بن نافع الملقب بزرياب<sup>(٦)</sup> . وقد روى المقرئ قصة هذا المغني ، وكيف تفوق على أستاذه إسحق بن إبراهيم الموصلی الذي خيره بين الموت والنفي ، وكيف رحل إلى قرطبة فقربه عبد الرحمن إليه وأجزل له العطاء ، وكيف أصبح لفن الغناء على يديه مكان ملحوظ بين الفنون في هذه البلاد .

كان زرياب مولى الخليفة المهدي العباسي فارسي الأصل ، وكان شاعراً مطبوعاً وأديباً ملماً بعلم النجوم وأخلاق الشعوب وطبائعها وسير الملوك ، حافظاً لكثير من الحكم والأمثال ، كما كان فصيحاً حسن الصوت حلو الحديث . وقد تعلم الغناء على إسحق الموصلی<sup>(٧)</sup> وتفوق عليه دون أن يشعر

(١) لملها جمع كدن ، وهو - كما في الفاموس المحيط - ثوب للخدر ( المنزل ) ، أو ثوب نوطي . به المرأة في الهودج ، ويتعين أن يكون المراد به هنا ثوب الخدر ، وهو أشبه بالطرحة اليوم .  
(٢) للمقرئ : خطط ج ١ ص ٣١٦ = ٣١٧ . (٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٣١٧ .  
(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٨٧ - ٢٨٨ ، حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ٢٢٨ .  
(٥) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٢٧ .  
(٦) أطلق عليه هذا اللقب لسواد لونه وفضاحة لسانه تشبيهاً له بطائر أسود حسن الصوت .  
(٧) أنظر هذا الكتاب ص ٢٩٠ - ٢٩١ ، ٢٩٢ .

بذلك . وقد طلب هارون الرشيد من إسحق أن يأتي له بمغن غريب حذق الغناء وإن لم يكن قد اشهر في هذا الفن ، فذكر له تليذه زرياب ، فقال الرشيد : « هذا طليبي فأحضرنه لعل حاجتي عنده ، فأحضره . فلما كلبه الرشيد ، أعرب عن نفسه بأحسن منطق وأوجز خطاب ، وسأله عن معرفته بالغناء فقال : نعم ! أحسن منه ما يحسنه الناس ، وأكثر ما أحسنه لا يحسنونه بما لا يحسن إلا عندك ولا يدخر إلا لك . فإن أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك . فأمر بإحضار عود أستاذه إسحق . فلما أدنى إليه وقف عن تناوله وقال : لي عود نحتة بيدي وأرهفته بإحكامي لا أرتضى غيره ، وهو بالباب ، فليأذن لي أمير المؤمنين في استدعائه . فأمر بإدخاله إليه ، فلما تأمله الرشيد ، وكان شبيهاً بالعود الذي دفعه ، قال له : ما منعك أن تستعمل عود أستاذك ؟ فقال : إن كان مولاي يرغب في غناء أستاذي غنيتي بعوده ، وإن كان يرغب في غنائى فلا بد لي من عودى ، فقال له : ما أراهما إلا واحداً ، فقال : صدقت يا مولاي ولا يؤدى النظر غير ذلك . ولكن عودى ، وإن كان في قدر جسم عوده ومن جنس خشبه ، فهو يقع من وزنه في الثالث أو نحوه ، وأوتارى من حرير لم يغزل بماء سخن يكسبها أناته ورغاوة وبها . ومثلها أتخذتها من مصران شبل أسد ، فلها في الترنم والصفاء والجهارة والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان ، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها . فاستبرع الرشيد وصفه وأمره بالغناء ، فجلس ثم اندفع فغناه :

يا أيها الملك الميمون طائره هرون راح إليك الناس وابتكروا

فأتم النبوة ، وطار الرشيد طربا وقال لإسحق : والله لولا أنى أعلم من صدقك لي على كتمانك إياك لما عنده وتصديقه لك من أنك لم تسمعه قبل ، لأنزلت بك العقوبة لتركك إعلامى بشأته . فغذه إليك واعتن بشأته حتى أفرغ فين لي فيه نظراً . فسقط في يد إسحق وهاج به من داء الحسد ما غلب على صبره ، فغلا بزرياب وقال : يا على ! إن الحسد أقدم الأدواء وأدواها ، والدنيا فتاته والشركة في الصناعة عداوة ، ولا حيلة في حسمها . وقد مكرت في فيما انطويت عليه من إجادتك وعلو طبقتك ، وقصدت منفعتك . فإذا أنا قد أتيت نفسى من مأمنها بإدنائك ، وعن قليل تسقط منزلتى وترقى أنت فوقى ، وهذا ما لأصاحبك عليه ولو أنك ولدى . ولولا رعي لذمة تربيتك لما قدمت شيئاً على أن أذهب نفسك ، يكون في ذلك ما كان . فتخير في ثنتين لا بد لك منهما : إما أن تذهب عنى في الأرض العريضة لا أسمع لك خبراً بعد أن تعطينى على ذلك الأيمان الموثقة ، وأنهضك لذلك بما أردت من مال وغيره ، وإما أن تقيم على كرهى ورغمى ، مستهدفاً إلى . فخذ الآن حذرک ، والله لأبقى عليك ولا أدع اغتيالک ، باذلاً في ذلك بدنى ومالى ، فاقض قضاءك . فخرج زرياب لوقته وعلم قدرته على ما قال ، واختار الفرار قدامه ، فأعانه إسحق على ذلك سريعاً ، وراش جناحه . فوحل عنه يبغى مغرب الشمس ، واستراح قلب إسحق منه . وتذكره الرشيد بعد فراغه من شغل كان منغمساً فيه ، فأمر إسحق بحضوره فقال : ومن لي به يا أمير المؤمنين ؟ ذاك غلام مجنون يزعم أن الجن تكلمه وتطارحه ما يزعمى به عن غناؤه ، فما يرى في الدنيا من يعدله ، وما هو إلا أن أبطأت عليه

جائزة أمير المؤمنين وترك استعادته ، فقدر التقصير به والتهوين بصناعته ، فرحل مغاضباً ذاهباً على وجهه مستخفياً عنى . وقد صنع الله تعالى فى ذلك لأمير المؤمنين ، فإنه كان به لم يغشاه ، ويفرط خبطه فيفرغ من رآه . فسكن الرشيد إلى قول إسحق وقال : على ما كان به فقد فاتنا منه سرور كثير .

اختار زرياب الرحيل إلى المغرب ، وتاقت نفسه للذهاب إلى بلاد الأندلس ، وكتب إلى الحكم كتاباً يظهر فيه رغبته فى الاندماج فى سلك بلاطه ، فسر بكتابه ورحب به ، وأوفد منصوراً اليهودى المغنى لاستقباله . سار زرياب وأولاده ودخلوا بلاد الأندلس ، ولكنه علم بوفاة الحكم ، فعول على العودة إلى المغرب ، فأشار عليه منصور المغنى بقصد عبد الرحمن الأوسط الذى ولى بلاد الأندلس بعد أبيه الحكم ، وكتب إلى الأمير الجديد بخبر زرياب ، فكتب إليه كتاباً يرحب فيه بقدمه ، وكتب إلى عماله أن يحسنوا استقباله ويسهلوا له طريق الوصول إلى قرطبة ، وأنزله فى دار نفحة . ثم استقبله بعد أن استراح من عناء السفر ، وبالغ فى إكرامه وقرر له راتباً شهرياً قدره مائتا دينار ، ولكل من أولاده الأربعة عشرون ديناراً . وأغدق عليه الأرزاق ، فأجرى عليه ثلاثة آلاف دينار فى كل سنة : ألف من عيديات الفطر والأضحى ، وخمسمائة لكل من عيديات النوروز والمهرجان ، عندما خصص له من الشعير والقمح ، وما وهب من الضياع والدور والبساتين التى قدرت بأربعين ألف دينار . ولما سمع عبد الرحمن غناء زرياب أعجب بمواهبه ، واطرح كل غناء سواه ، وأحبه حباً شديداً وقدمه على جميع المغنين ، وزاد إعجاب هذا الأمير به حتى إنه كان يجلسه إلى جانبه ويؤاكلة هو وأكابر ولده ، ويستمع إلى غنائه ، وإلى ما يقص عليه من أحوال الملوك وسير الخلفاء وتوارد العلماء . ولم يلبث أن ملك زرياب قلب عبد الرحمن ، حتى إنه أمر بأن يفتح له باب خاص يستدعيه منه متى أراد (١) .

وقد أبدع زرياب فى تنسيق الألحان ، حتى توهم أن الجن هى التى تعلمه الأصوات . ولا غرو فقد ورث هذا الشعور عن أستاذه إسحق الموصلى الذى ورثه عن أبيه (٢) . وكان زرياب يهب من نومه سريعاً فيدعو بحاريتيه عزلان وهنيدة ، فيأخذان عودهما ، ويأخذ هو عوده فيطارحهما ليلته ، ثم يكتب الشعر ، ثم يعود عجلان إلى مضجعه (٣) . كما زاد زرياب على العود وترأ خامساً ، واتخذ مضراب العود من قوادم النسر بدل الخشب (٤) . وقد أثر عنه أنه كان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بألحانها مقتدياً فى ذلك ببطليموس الذى ابتدع هذه العلوم . وقد ازدهرت الموسيقى والغناء فى بلاد الأندلس فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، الذى كان - كما يقول المقرئ (٥) - مولعاً بالغناء مؤثراً له على جميع لذاته . وقد أورث زرياب صناعة الغناء بالأندلس كما يقول ابن خلدون (٦) . وكانت له طريقة غريبة مع المبتدئين من تلاميذه ، فيبدأ بالرشيد أول شدة به أى نقر كان ، ويأتى لإثره بالبسيط ، ويختم بالمحركات والإهزاج تبعاً لمراسم زرياب .

(١) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٧٥٠ - ٧٥١ . (٢) أنظر هذا الكتاب ج ٢ ص ٢٩٧

(٤) المصدر نفسه

(٣) المقرئ : نفع الطيب ج ٢ ص ٧٥١

(٦) المعبر ج ١ ص ١٢٧ .

(٥) نفع الطيب ج ١ ص ١٦٥

وكان إذا تناول الإلقاء على تلييد يعلبه ، أمره بالقعود على الوساد المدور المعروف بالمسورة ، وأن يشد صوته جداً إذا كان قوى الصوت . فإن كان لينه أمره أن يشد على بطنه عمامة ، فإن ذلك مما يقوى الصوت ولا يجد متسعاً في الجوف عند الخروج على الفم . فإن كان ألس الأضراس لا يقدر على أن يفتح فاه ، أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق ، راضه بأن يدخل في فيه قطعة خشب عرضها ثلاث أصابع ، يبيتها في فمه ليالي حتى يتفرج فكاه . وكان إذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع ، أمره أن يصيح بأقوى صوته : يا حجام ، أو يصيح : آه ، ويمد بها صوته ، فإن سمع صوته بها صافياً ندياً قوياً مؤدياً ، لا يعتره غثه ولا حبسة ولا ضيق نفس ، عرف أن سوف ينجب وأشار بتعليمه ، وإن وجده خلاف ذلك أبعدته (١) .

ورث زرياب في الأدب والغناء أولاده ، وكانوا ثمانية ذكور وبتان هما علية وحمدونة ؛ وقد تعلموا الغناء ومارسوا صناعته ، وكان عبيد الله أعلام قدرأ ، ثم يليه عبد الرحمن ، لكنته كان شديد الزهو بنفسه والعجب بغنائه والاستخفاف بالعظام حتى أثار سخطهم عليه وكرهتهم له . وكذلك تفوقت حمدونة في فن الغناء على أختها علية التي تزوجت من الوزير هشام بن عبد العزيز ، وتقدمت بها السن حتى لم يبق من بيت زرياب غيرها وأخذ الناس عنها فن الغناء (٢) . ولما زرياب يرجع الفضل في تعليم الجوارى الغناء في عصره . وكانت له جوارى أدهن وعلمن الغناء والعزف على العود . ومن هؤلاء غزلان وهنيدة ، ومنفعة التي اشتهرت بفطرها جمالها . وقد أعجب بها عبد الرحمن الأوسط ، فأهداها زرياب إليه ، فحظيت عنده (٣) .

ولم يكن زرياب مغنياً وموسيقياً فحسب ، بل كان شاعراً مطبوعاً وأديباً ظريفاً عالماً بالنجوم . وكان في زيه مثالا يحتذيه أهل بلاد الأندلس في ملابس الفصول المختلفة ، كما أدخل في الطعام ألواناً جديدة (٤) . وقد بلغ الذروة في الجاه والثروة ، ونال الحظوة التامة عند عبد الرحمن الثاني ، وبذ الناس في تهذيبه وفكاهته ، وأصبح أشهر رجال الأندلس ، وتحكم في الأزياء والعادات كما كان يتحكم فيها ييترونيس (٥) Petronius وبروميل الوسيم (٦) Beau Brummel (٧) . وصفوة القول أن زرياب قد بلغ من الشهرة درجة عظيمة حتى إنه كان يركب في مائة غلام (٨) .

### ٣ - قصور الخلفاء والأمراء والوزراء

#### (١) في الرواة العباسية :

اتخذت دور بغداد وسامرا وغيرهما من أمهات المدن في هذا العصر على مثال دور القرس

(١) القرى : نفع الطيب ج ٢ ص ٧٥٢ . (٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٧٥٣ - ٧٥٤ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٧٥٣ - ٧٥٤ . (٤) انظر هذا الكتاب ص ٢٩١ .

(٥) هو كاتب قصصى روماني اشتهرت كتابته بالنكبت والضحية المستورة ، وقد أعجب به نيرون ، ووصله بحاشيته .

(٦) هو جورج براون ، اشتهر بابتداع الأزياء ، وولد سنة ١٧٧٨ ومات سنة ١٨٤٠ م .

(٧) Stanley Lane - Poole : The Moors in Spain, p. 82 ، وترجمة علي الجارم بك ص ٧٥ .

(٨) الأغاني ج ٤ ص ٣٥٤ .

والروم ، وكانت مبنية بالآجر ومغطاة بالكلس . وتنقسم دور الأغنياء ثلاثة أقسام هي : مقاصير الحرم ، وحجرات الخدم ، ومجالس السلام الخاصة بالضيافة . ويحيط بها حدائق غناء تزرع فيها الفاكهة والرياحين . وقد حليت جدرانها وسقفها بالفسيفساء المذهبة والرسوم الملونة ، وزينت أسطحها بالقباب المرفوعة على عمد دقيقة تظهر للعين كأنها معلقة في الفضاء . ويحيط بكل دار سور واحد . أما دور العامة فلم يكن لها أسوار تحيط بها ، وإنما كانت نوافذها تطل على الشوارع ، حتى إن المار ليستطيع أن يرى من بداخلها (١) .

وكانت قصور الخلفاء تشتمل على دور واسعة ، وقباب وأروقة وبساتين ومسطحات مظلة بالأشجار . وكانت الأروقة تسمى بالأربعيني أو الستيني أو التسعيني ، على قدر الغلمان الذين يجتمعون في كل منها (٢) .

وقد ابتدع المتوكل — كما رأينا (٣) — نوعاً من القصور يسمى الخيري ، ينقسم ثلاثة أقسام : أوسطها الباب الأكبر ، وإلى جانبه البان الصغيران . وكان هذا الخليفة يتخذ في طريق الوصول إلى قصوره ثلاثة أبواب ضخمة يدخل منها الفارس برمحه ، وحذا الناس حذو المتوكل في هذا النوع من البناء . ومن أشهر هذه القصور قصر التاج الذي وضع أساسه الخليفة المعتضد ، في الجانب الشرقي من دجلة على مقربة من القصر الحسن الذي كانت تقيم فيه بوران بنت الحسن بن سهل وزوج الخليفة المأمون ، ثم أمته الخليفة المكتفي . ويقول ياقوت (٤) إن واجهة قصر التاج كانت على خمسة عقود أقيم كل عقد على عشرة أساطين من الرخام .

وكانت قصور الخلفاء أشبه بمدن كبيرة لاتساعها ، وكانت تشتمل على دور وبساتين ومسطحات تظللها الأشجار ، كما كانت تشتمل على قاعات ذات قباب وأروقة . وي زيد في جمال هذه القصور البرك والأنهار الجارية ، وقد رأينا أن الخليفة القادر كان يجلس في قصره المعروف ببيت الرصاص وبين يديه نهر يجرى الماء فيه إلى دجلة ، (٥) .

ومن أحسن البساتين التي كانت تلحق بقصور الخلفاء بستان القاهر المعروف ببستان النارج الذي وصفه المسعودي (٦) فقال : وكان للظاهر . . . بستان من ریحان ، وغرس من النارج قد حمل إليه من البصرة وعمان مما حمل من أرض الهند ، قد اشتبكت أشجاره ولاحت ثماره كالنجوم من أحر وأصفر ؛ وبين ذلك أنواع الغروس والرياحين والزهر . وقد جعل مع ذلك في الصحن أنواع الأطيبار من القمارى والدباسى والشحارير (٧) والبيغاء ، مما قد جلب إليه من الممالك والأمصار ، وكان في غاية الحسن .

(١) أنظر الجزء الثاني من هذا الكتاب ص ٣٠٥ — ٣٠٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٠٦ .

(٣) أنظر الباب التاسع من هذا الكتاب ص ٥٩١ . (٤) أنظر لفظ « التاج » في معجم البلدان

(٥) هلال الصابي : تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ٤٢٠ (٦) مروج الذهب ج ٢ ص ٥٢٨

(٧) هذه كلها أنواع من الحمام .



(ب) في مصر :

وقد تأثر الطولونيون بالبناء الحيرى في تشييد قصورهم ، فبنى احمد بن طولون قصره على مثال قصور الخلافة . ولما ولى ابنه خمارويه انتقل إلى قصر أبيه ، وزاد فيه ، وحول الميدان الفسيح الذى كان أمام القصر إلى بستان غرس فيه الرياحين على اختلافها ، والشجر بأنواعه الكثيرة ، ونقل إليه الودى (١) المختلف طولاً وقصراً ، يتناول من ثمره القائم والجالس . وأمر خمارويه ، لحمل إلى هذا البستان أصناف الشجر المطعم وأنواع الورد ، وزرع فيه الزعفران . وتأثق في هذا البستان فكسى النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وجزوع النخل أنابيب الرصاص ، وأجرى فيها الماء . فكان يخرج من تضاعيف النخل عيون الماء منحدرة إلى نافورات يفيض منها الماء إلى بحار تسقى البستان على اتساعه .

أما الرياح فكان على صورة نقوش وكتابات يتعدها البستاني بالمقراض ، حتى تظل هذه النقوش والكتابات على حالتها الأولى . وزرع فيه النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر ، واستورد من جنوى عيدان النيلوفر العجيب الشكل ، كما أهدى إليه من خراسان وغيرها عيدان التمار والزهور ، وطعم شجر المشمش باللوز وغيره . وفى هذا البستان بنى خمارويه برجا من خشب الساج المنقوش بالحفر النافذ ، ليقوم مقام الأقفاص ، ودهنه ولونه بالأصباغ المختلفة ، وبلط أرضه ، وجعل في تضاعيفه جداول يجرى فيها الماء من السواقي المدارة على الآبار العذبة ؛ ومن هذه الجداول يسقى البستان . وفى هذا البرج أصناف القهارى والدباسى والتونيات وغيرها من الطيور المشجية التى كانت تسبح فى القنوات الجارية فى البرج . وفى هذا المكان جعل أوكاراً فى قواديس حسنة الشكل يمكنه فى جوف الحيطان لتفرخ فيها الطيور ، وجعل فيها عيداناً مستعرضة فى جوانب البرج لتقف عليها إذا تطايرت ، فيجاوب بعضها بعضاً بالتغريد . هذا عندما مسرحه فى البستان من الطواويس ودجاج الحبش وغيرها من الطيور (٢) .

ومما زاده خمارويه فى هذا القصر « بيت الذهب » ، وكان من أعجب مباني الدنيا . وهو إيوان فسيح يتصل برواق رحب ، طليت حيطانه بالذهب المحلول باللأزورد ، ويمتاز بحسن النقش وجمال التنسيق . وكذلك بنى خمارويه فى هذا القصر بيتاً أطلق عليه « الدكة » على مثال قبة الهواء التى بناها حاتم بن هرثمة عامل الأمين العباسى فى مصر على جبل المقطم . حيث قلعة الجبل الآن . وإلى هذه الدكة كان يختلج خمارويه ومن أتى بعده من الأمراء طلباً للراحة وتبديل الهواء (٣) . وكانت من أحسن مابنى فى عهد الطولونيين ، ووضعت فيها الستائر لتقى الجالسين من الحر والبرد بحيث ترفع وتخفض عند اللزوم ؛ وفرشت أرضها بفاخر الفرش ، واتخذ لكل فصل من الفصول فرش يناسبه .

(٣) المقرئى : خطط ج ١ ص ٣١٦

(١) الودى الشجر الصغار المنقولة .

(٢) السكندى : كتاب الولاة ص ١٤٧ .

وكان خمارويه يجلس في هذا المكان ، ويشرف على مافي قصره وبستانه ، فيشاهد النيل والجبل والصحراء وكافة جهات مدينة القطائع (١).

وفي وسط هذا القصر أقام خمارويه فسقية مملوءة بالزئبق . وكان سبب إنشائها أنه شكا إلى طبيبه ما كان يصيبه من الأرق ، فأشار عليه بعمل بركة مربعة طولها عشرون ذراعاً في عشرين (٢٢٥) متراً مربعاً ، وفي أركانها سكك من الفضة الخالصة ، جعل فيها زنانير من حرير محكمة الصنع في حلقات من الفضة . وعمل فرشاً من آدم ( جلد ) يملأ بالريح حتى ينتفخ فيحكّم حينئذ شده ، ثم يلقى في بركة الزئبق ويشد بزنانير الحرير التي في حلقات الفضة بسكك الفضة . فإذا نام خمارويه ارجح الفراش وتحرك بتحريك الزئبق ، لأنه رجراج . وكان لهذه البركة منظر عجيب في الليالي القمرية إذا تألق نور القمر بنور الزئبق . ولم يسبق خمارويه إلى هذا العمل ملك من الملوك ولا جاء بعده من أشبهه إلا عبد الرحمن الناصر الأموي بالأندلس الذي اتخذ في قصره بقرطبة فسقية تشبه فسقية خمارويه . وقد اختفت آثار بركة خمارويه بعد تخريب مدينة القطائع في سنة ٢٩٢ هـ ، فجعل الناس يحفرون في الأرض التماساً للزئبق المنساب بين شقوقها . (٢)

وفي هذا القصر بنى خمارويه داراً للسياح ، عمل فيها آراجاً (٣) في كل منها سبع ولبؤته ، وفي أعلى كل بيت باب يفتح بحركات معينة ، في كل منها طاق صغير يدخل منه الحارس المنوط به خدمة البيت . وإلى جانب كل منها حوض من الرخام فيه ميزاب من النحاس ينصب منه الماء ، وأمام البيوت قاعة فسيحة مفروشة بالرمل ، وإلى جانبها حوض كبير من الرخام يصب فيه الماء من ميزاب كبير . فإذا أراد الخادم تنظيف أحد بيوت السياح أو وضع قطعة اللحم المخصصة لغذاء السياح ، رفع الباب وصاح بالسياح ، فيخرج إلى القاعة الفسيحة ، فينزل الخادم إلى البيت من طاقه العلوي ، فينظفه ويفرشه برمل جديد ، ويضع اللحم في المكان المعد له بعد تقطيعه ، ثم يغسل الحوض ويملؤه بالماء ، ثم يخرج ويرفع باب البيت من أعلاه ، ويصيح بالسياح فيدخل ويأكل اللحم ويشرب من الماء (٤).

ومن أشهر القصور في عهد الإخشيديين قصر المختار الذي بناه محمد بن طفح الإخشيد في جزيرة الروضة ، كما اتخذ بستاناً عرف فيما بعد بالبستان الكافوري ، لأن كافورا اتخذه مكاناً للتنزه في أيام الجمعة والأحد والثلاثاء ، فنسب إليه .

تنزه محمد بن طفح الإخشيد مرة في بستان يمتلكه أبو بكر المادرائي ، الذي تقلد خراج مصر ، واتسعت ثروته حتى بلغ خراج ضياعه أربعاً مائة ألف دينار في السنة ؛ فقدم له من أغر ألوان الطعام والشراب ، وفرشت أرض البستان بالبسط ، ونصب بين يديه ضيفه التماثيل المصنوعة من الذهب

(١) القرظي : خلعط ج ١ ص ٣١٧ .

(٢) المصدر نفسه

(٣) وردت في القرظي «ويتأ بأراج» . أما الآراج فهي جمع أراج ، وهو ضرب من الأبنية يشبه

الأقفاس التي توضع فيها السياح في حدائق الحيوان .

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٣١٨

والفضة والكافور والعنبر ، ووضع بين يديه صينيتين من الفضة ملئت إحداهما دنائير ، وملئت الأخرى دراهم ، لينثر منهما على من يشاء من رجال الدولة أو على المغنين والمغنيات .  
وفي عهد الفاطميين بنى الخليفة العزيز كثيراً من القصور التي تدل على وفرة ثروة مصر في عهده . من ذلك القصر الغربي ، وكان يقع غرب القصر الشرقي الذي بناه جوهر الصقلي للخليفة المعز شرقي مدينة القاهرة . وكان هذا القصر أصغر من القصر الشرقي . لذلك أطلق عليه القصر الغربي الصغير تمييزاً له عن قصر المعز .

وفي عهد الخليفة العزيز بنت الملكة تغريد زوجة المعز قصر القرافة ، وكان يتصل به بستان وحمام . وقد وصف المقرئ (١) هذا القصر فقال إنه كان قصراً ضخماً يسر الناظرين ، يتردد عليه أهله طلباً للراحة ، وبه فنطرة مقامة على قبو يستظل به المسافرون من الشمس . كما بنت تغريد منازل العز (٢) ، وهو قصر غم على شاطئ النيل ، واتخذها ابناً العزيز والخلفاء الفاطميون من بعده للتنزه .

وابتني العزيز قصوراً أخرى في عين شمس ، كما بنى في عهده قصر البحر الذي يقول فيه ابن خلكان (٣) إنه لا يوجد شبيه له في الشرق ولا في الغرب . وكذلك أسس العزيز قاعة الذهب التي يجتمع فيها مجلس الملك . وكانت مؤتة أثناناً ضخماً ، ومزينة بالستور والطنافس الحريرية المزركشة بالذهب ، وكلها من رسم واحد لون واحد . وفي صدر قاعة الذهب خشية عليها عرش الخليفة المحجوب بستور ، حتى إذا جلس الخليفة وانعقد المجلس رفعت تلك الستور .

وكانت العظمة الملكية تظهر بأجلى مظاهرها إذا انفرج الستران الحريريان بفعل اثنين من الأساتذة بأمر من رئيس القصر المعروف باسم زمام القصر ، فيظهر شخص الخليفة وحوله جماعة من القراء يأخذون في ترتيل آيات القرآن الكريم بأنغام عالية . ثم يأتي حامل الدواة — وهو أستاذ حنك أيضاً — فيضعها على طرف الخشبة المخصص لها . وكان زمام القصر ، وصاحب بيت المال ، والحجاب والأمناء يأخذون أمكنتهم عند الأبواب في الوقت الذي يكون الحاضرون قد أخذوا أمكنتهم المخصصة لهم . عندئذ يأخذ أحد الأمناء في تقديم الأشخاص الذين يرى تقديمهم للخليفة .

والوزير كان أول من يقدم للخليفة ، فيخطو إلى الإمام ، ثم يحيي الخليفة بلثم يديه وقدميه ، ويتراجع إلى مكانه ، ويظل واقفاً ؛ ثم يؤذن له بوسادة يجلس عليها إلى يمين الخليفة . ثم يتلوه قاضي القضاة فيقترب من الخليفة ، ويحييه برفع يده اليمنى ويشير بمسبحته قائلاً : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ! وكانت هذه التحية تميزه على سائر أعضاء المجلس اعترافاً بمركزه الديني الممتاز ، فما كان يقبل يد الخليفة ولا يركع أمامه كما يفعل غيره من كبار الموظفين . وكان يسمح لرعاة

(١) خطط ج ١ ص ٤١٥

(٢) راجع وصف هذا المنزل في المقرئ : خطط ج ١ ص ٤٨٥ ، والمقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢٣٤ — ٢٣٥

(٣) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٢

الطوائف برفع التحيات إلى مقام الخليفة باسم جماعاتهم ، بعد أن يزودهم أحد الأمراء بالتعليقات التي تبين لهم ما يجب اتباعه عند المثول بين يدي الخليفة . وإذا رأى الوزير أن يشاور الخليفة في أمر من الأمور ، اقترب منه ، واعتمد على سيفه ، ثم شرع في معادثته .

وكان مجلس الملك ينعقد ثلاث ساعات في العادة ، فتقدم فيه الأمور الهامة لبحثها واعتمادها من الخليفة . وللوزير أن يقترح خلع الخلع أو إسناد المناصب المختلفة إلى من يقدم أسماءهم .

فإذا انتثر عقد المجلس ، انصرف الحاضرون ، وانصرف الوزير في آخرهم بعد أن يلثم يدي الخليفة ورجليه مرة ثانية . ثم يركب إلى داره يحف به سائر أعضاء المجلس ، ثم ينزل الخليفة عن سرير الملك ويغادر الإيوان ، فتسدل الستور ويقفل الباب (١) .

هكذا كانت الآهة التي تحيط بالخليفة حينما يرأس مجلس الملك في قصره .

ويمتاز الفاطميون ببناء المناظر ، وهي أما كن اتخذها الخلفاء في القاهرة ومصر والروضة والقرافة وغيرها للزخوة والاحتفال ببعض الأعياد . وقد عدد المقرئى هذه المناظر (٢) ، ووصف الاحتفال فيها ببعض الأعياد . وهذه المناظر هي : الأزهر ، اللؤلؤة ، الدكة ، المقس ، باب الفتوح ، البعل ، التاج ، الخمس وجوه ، الصناعة ، دار الملك ، منازل العز ، الهودج ، بركة الحبش ، الأندلس ، قبة الهواء ، السكرية .

### (ج) في الأندلس :

ولم تكن قصور الأمويين في الأندلس بأقل روعة وبهاء من قصور العباسيين والطلوليين والفاطميين . فقد اشتهرت قرطبة والزهراء وطليطلة وغيرها من مدن الأندلس بقصورها الفخمة . وقد ذكرنا أن أمراء الأمويين في الأندلس ، كالحكم وعبد الرحمن الأوسط ومحمد ، شيدوا قصوراً فخمة كالمجلس الزاهر ، والهيو الكامل ، والقصر المنيف ، وقصر دمشق ، وأن عبد الرحمن الناصر شيد بمدينة الزهراء قصره العظيم الذي سماه دار الروضة الذي أطنب المؤرخون والرحالة في وصفه (٣) . وقد وصف المقرئى (٤) قصر قرطبة في هذه العبارة فقال : « ابتدع الخلفاء من بني مروان منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها ، في قصرها البدائع الحسان ، وأثروا فيه الآثار العجيبة والرياض الأنيقة ، وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة ، وتمنوا المؤمن الجسمية ، حتى أوصلوها إلى القصر الكريم ، وأجروها في كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه في قنوات الرصاص تؤديها منها إلى المصانع صور مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز والفضة الخالصة والنحاس المموه ، إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والنصاريح الغريبة ، في أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة . وفي هذا القصر القباب العالية السمو ، المنيفة العلو التي لم ير الرايون مثلاً في مشارق الأرض ومغاربها . »

(١) الفلقندى : صبح الأعمى ج ٣ ص ٤٩٨ - ٥٠٠ ، أنظر كتاب « الفاطميون في مصر » للمؤلف

(٢) خطط ج ١ ص ٤٦٥

٢٦٩ - ٢٧٠

(٤) نفع الطيب ج ١ ص ٢١٩

(٣) أنظر هذا الكتاب ص ٦٠١

ومن قصور الأمويين في الأندلس القصر الذي بناه المأمون بن ذى النون بطليطلة ، وقد أنفق على بنائه أموالاً ضخمة ، وجعل في وسطه بحيرة في وسطها قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب ، وجلب الماء إلى القبة بحيث كان ينزل من أعلاها ويحيط بها من جوانبها ، فكانت قبة الزجاج في غلالة مما سكب خلف الزجاج لا يفتر من الجرى ، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ولا يصله . وتوقد فيها الشموع ، فيرى لذلك منظر بديع عجيب . وبينما هو فيها مع جواريه ذات ليلة إذ سمع منشدًا ينشد :

أتبنى بناء الخالدين وإنما مقامك فيها لو علمت قليل  
لقد كان في ظل الأراك كفاية لمن كل يوم يقتضيه رحيل  
فنعص عليه حاله وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أظن أن الأجل قد قرب ، فلم يلبث بعدها غير شهر وتوفى . . . وذلك سنة ٤٦٢ هـ . (١)

#### ٤ - الطعام والشراب

##### (١) نثر العباسيين :

أمر ف المسلمون في الطعام وتفننوا في ألوانه ، واهتم به الخلفاء ، حتى إنهم أجازوا للشعراء وصفه . وقد روى المسعودي (٢) عند كلامه على الخليفة المكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) عن محمد بن يحيى الصولي الشطرنجي قال : « كنا يوماً ما نأكل بين يدي المكتفي ، فوضعت بين أيدينا قطائف رفعت من بين يديه في نهاية النضارة ورقة الخبز وإحكام العمل ، فقال : هل وصفت الشعراء هذا ؟ فقال له يحيى : نعم ! قال أحمد بن يحيى فيها :

قطائف قد حشيت باللوز والسكر الماذى حشو الموز  
تسبح في آذى دهن الجوز سررت لما وقعت في حوزي  
وكما كان المكتفي يطلب إلى الشعراء أن يصفوا له بعض الطعام ، كذلك كان يطلب إليهم أن يقولوا الشعر في الشراب ، فقد قال أبو محمد بن حمدون أنه اجتمع بحضرة هذا الخليفة جماعة من الشعراء فقال لهم : هل فيكم من يحفظ في نبيذ الدوشاب شيئاً ؟ فأشده ابن حمدون قول ابن الرومي :  
إذا أخذت حبه ودبسه (٣) ثم أخذت ضربه ومرسه  
ثم أطلت في الإناء حبسه (٤) شربت منه البأبلى نفسه (٥)

فقال المكتفي : قبجه الله ما أشرفه ، لقد شوقني في هذا اليوم إلى شرب الدوشابي . وقدم الطعام ، فوضع بين أيدينا طيفورية (٤) عظيمة فيها هريسة ، وقد جعل في وسطها مثل السكرجة (٥) الضخمة

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٩٨ .

(١) نفع الطيب ج ١ ص ٢٥٠ - ٢٥١

(٤) وعاء .

(٣) الحب حب العنب ، والديس ما يسبل منه في عمل

(٥) بضم السين وتشديد دها وضم الكاف والراء المشدودة المضمومة الإناء الصغير الذي يوضع فيه الخبز والزيت والكامخ وما إلى ذلك .

فيها دسم الدجاج ؛ فضحكت ، وخطر ببالي خبر الرشيد مع أبان القارى . فلحظني المكتفي وقال :  
ياأبا عبد الله ، ماهذا الضحك ؟ فقلت : خبر ذكرته في الهريسة يأمرير المؤمنين ودهن الدجاج مع  
جدك الرشيد ، فقال : ماهو ؟ قلت : نعم ياأمرير المؤمنين ، ذكر العتيبي والمدائني أن أبان القارى .  
تغدى مع الرشيد ، فجاءوا بهريسة عجيبية في وسطها مثل السكرجة الضخمة على هذا المثال من دهن  
الدجاج . قال أبان : فاشتبهت من ذلك الدسم ، وأجلت الرشيد من أن أمد يدي فأغمس فيه ، ففتحت  
ياصبعي فيه فتحاً سيرا ، فانقلب الدسم نحوى ، فقال الرشيد : ياأبان أخرجتها لتغرق أهلها ؟ (١) فقال  
أبان : لا ياأمرير المؤمنين ، ولكن سقناه لبلد ميت (٢) فضحك الرشيد حتى أمسك صدره . (٣)  
وكان المستكفي (٣٣٣ — ٥٣٣٤) يتخذ من نشيد الشعراء في الطعام وسيلة للترويح عن النفس .  
فكان في سائر أوقاته فازعاً من المطيع أن يلى الخلافة ويسلم إليه ، فيحكم فيه بما يريد . فكان صدره  
يضيق لذلك ، فيشكو ذلك في بعض الأوقات إلى من ذكرنا من كان يألفه من ندمائه ، فيشجعونه  
ويهنون أمر المطيع إلى أن قال لهم في بعض الأيام : قد اشتبهت أن يجتمع في مكان كذا وكذا ،  
فتتذاكر أنواع الأطعمة وما قال الناس في ذلك منظوماً ، فاتفق معهم على ذلك . فلما كان في اليوم  
الذى حضروا ، أقبل المستكفي فقال : هاتوا ماالذى أعده كل واحد منكم ، فقال واحد منهم : قد  
حضرتي ياأمرير المؤمنين أبيات لابن المعتز يصف فيها سكارج سلة كواخ فقال في ذلك قصيدة نفتطف  
منها هذه الأبيات :

أمتع بسلة قضبان أتتك وقد	حفت جوانها الجمامات أسطار (٤)
فيها سكارج (٥) أنواع مصففة	حمر وصفرة وما فيهن إنكار
وكاخ الدار صيني فليس له	في الطعم شبه ولا في لونه عار
كأنه المسك ريحاً في تنسمة (٦)	حريف في طعمه والريح معطار
وكاخ الزعتر البرى إن له	لونا حكاك لدينا المسك والقار
وكاخ الثوم لما أن بصرت به	أبصرت عطراً له بالأكل أمار (٧)

قال المستكفي : تحضر هذه الجونة (٨) بعينها على هذا الوصف ، وهاتوا فليس نأكل اليوم إلا  
ما تصفون ؛ فقال آخر من الجلساء : ياأمرير المؤمنين ! لمحمود بن الحسين الكاتب المعروف بكشاجم  
في صفة سلة نوادر :

- (١) من سورة الكهف آية رقم ٧١ ( فاطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها ؟  
لقد جئت شيئاً لأمرا .  
(٢) من سورة الأعراف آية رقم ٥٧ ( وهو الذى يرسل السحاب بمرئى بين يدي رحمته ، حتى إذا أقلت  
سحاباً نقالا سقناه لبلد ميت ، فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به من كل الثمرات ) .  
(٣) السهوى : مروج الذهب ج ٢ ص ٤٩٩ — ٥٠٠ .  
(٤) صفوف .  
(٥) السكرجة ( بنشيد السين وضم الكاف وتمديد الراء وفتح الجيم ) جمع سكارج ، وهي فصاع صغار  
تستعمل في الكواخ وأشباهها من الحوارش على الموائد حول الأطعمة للتشهى والهضم .  
(٦) سمه (٦) جادت على الأكل (٧) السقط (٨)

متى تنشط الأكل      فقد أصلحت الجونة (١)  
وقد زينها الطاهي      لنا أحسن تزيينه  
كما زين صوب الغيث      للروض أفانينه  
فجاءت وهي من أط      يب ما يؤكل مشحونه  
فن جدى شويتاه      وعصبتنا مصارينه (٢)  
ونضدنا عليه نع      نع البقل وطرخونه (٣)  
وفرخ وافر الزو      ر أجدنا لك تسمينه  
وطيوج (٤) وفروج      أجدنا لك تطجينه  
وسنبوسة مقلو      ة في إثر طرذينه  
وحراء من البيض      إلى جانب زيتونه  
وأوساط شطيرات      بزيت الماء مدهونه  
يولدن لدى الشهب      سوة جوعا ويشهينه  
بعرف ككسور الن      سد بالعنبر معجونه  
وحريف من الجبن      به الأوساط مقرونه  
وخل ترعف الآنا      ف منه وهي مختونه (٥)  
وباذنجان بوران      به نفسك مقتونه  
وهليون (٦) وعهدى بك      تستعذب هليونه  
ولوزينجة (٧) في الده      ن والسكر مدفونه  
وعندي لك دستي      سجة (٨) مطبوخ وقتينه  
وساق وعدت بالعط      ف عنه عطفه النونه  
له شدة أفاظ      وفي ألاحظه لينه

- (١) الجونة سلية مستدبرة مفشاة أداما ( بفتح الألف والذال ) تكون مع العطارين ، والجمع جون ( تاج المروس ) .  
(٢) أى لوبناها وجعلناها في حوية ثم شويتاها . والحوية واحدة الحوايا ، وهي الأعماء المتتوية ( تاج المروس )  
(٣) واحدة الطرخون ، وهو زيت طويل الورق دقيق السوق يبلو على الأرض من شبر إلى ذراع ، وهو من بقول المائدة يقدم عليها من أطرافه الرخصة مع الصنع وغيره من البقول ، فينض الشبوة ويطيب النكهة . وإذا شرب الماء على مايبه ( كتاب المعتمد في الأدوية المفردة تأليف يوسف بن عمر بن علي الفسافي صاحب التين المتوفى سنة ٦٩٥ هـ ) طبع مصطفى البابي الحلبي وإخوته .  
(٤) الطيوج طائر شبيه بالحجل الصغير ، غير أن عنقه أحمر ومنقاره ورجلاه حمراء مثل الحجل ، وما تحت جناحيه أسود وأبيض ( كتاب المعتمد ) .  
(٥) أصابها الختان وهو داء يأخذ في الأنف وسدد في الحياشيم  
(٦) نبات .  
(٧) اللوزينج من الحلواء شبه القطائف تؤدم بدهن اللوز .  
(٨) الدستينج وعاء يوضع فيه الصراب ونحوه .

وقرى يغنيك لحناً غير ملحونه  
ألا يامن لمحزون نأى عن دار محزونه  
فما عذرك في أن لا ترى من سكر طينه (١)

فقال المستكني: أحسنت ، وأحسن القائل فيما وصف ، ثم أمر بإحضار كل ما يجرى في وصفه  
بما يمكن إحضاره ، (٢) .

ولم يقتصر وصف الشعراء على هذه الألوان وحدها ، بل وصفوا ألواناً أخرى غيرها ، فأشدد  
أحدهم قصيدة في الهريسة ، ووصف آخر الأرز وغير ذلك (٣) .

وكذلك أولع الأمراء وغيرهم من الأغنياء بتنوع الطعام والإسراف في إعداده . فقد ذكر  
المسعودي (٤) عند كلامه على يعقوب بن الليث الصفار مؤسس الدولة الصفارية ، أنه كان يذبح له  
في كل يوم عشرون شاة ، فتطبخ في خمس قدور من الصفر الكبير ، وله قدور حجارة يتخذ له فيها  
بعض ما يشتهي . وله أوزة كل قوم وخبيصة (٥) وفالودج مع القدور الخمس ، وهي ألوان غليظة ،  
فيأكل منها ويفرق الباقي في الغلمان الذين في داخل مضره ، ثم أهل عسكره حول مضره وقربهم منه  
على حسب مراتبهم عنده .

وقد تأتق أبو جعفر محمد بن بسام في إعداد مائدته وتزيينها بالورد والرياحين وألوان الطعام  
والشراب ، قال أبو عبد الرحمن العتيبي : ودخلت عليه في بعض الأيام وهو جالس في موضع في  
آخر داره ، وقد رفعه على بركة وفي صدره صفة (٦) ، وهو يشرف منها على البستان وعلى حيز الغزلان  
وحظيرة القمارى (٧) وأشباهاها . فقلت له : يا أبا جعفر ! أنت والله جالس في الجنة . قال : ليس  
ينبغي لك أن تخرج من الجنة حتى تصطحب فيها . فما جلست واستقر في المجلس حتى أتوه بمائدة  
جزع (٨) لم أر أحسن منها ، وفي وسطها جام جزع ملونة (٩) قد لوى على جنباتها الذهب الأحمر ،  
وهي مملوءة من ماء ورد ، وقد جعل سافاً على ساف (١٠) كهيئة الصومعة من صدور الدجاج . وعلى  
المائدة سكرجات جزع فيها الأصباغ وأنواع الملح . ثم أتينا بشنبوشق بلور (١١) ، وبعده جلمات

(١) قوبلت هذه القصيدة على نسخة مخطوطة من كتاب كشاجم في حوزة الأستاذ مصطفى السقا الأستاذ  
بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، الذي تفضل بشرح الألفاظ المذكورة في القصيدة .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٥٤٤ - ٥٤٦ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٥٤٨ - ٥٥١ .

(٤) ج ٢ ص ٤٤٥ (٥) رفاقة .

(٦) مكان عال ، قد يشبه البلكونة الآن (٧) جمع قرى وهو الحمامة .

(٨) بفتح الجيم وكسرهما وتسكين الزاي ، الحرز البيماني الصبغ فيه بياض وسواد . وكل ما فيه بياض  
وسواد فهو مجزع .

(٩) أى من زجاج ملون بسواد وبياض ، وهو وعاء بلور على هيئة الشنبوشك .

(١٠) أى طبقة فوق طبقة من لحم الدجاج كهيئة مخروط .

(١١) هو وعاء بلور على هيئة الشنبوشك .



اللوزنج . ورفعت المائدة وقتنا من فورنا إلى موضع الستارة ، فقدم بين أيدينا أجنانة (١) صيني بيضاء قد كرمت بالبنفسج والخيري (٢) ، وغيرها مثلها قد عي . فيها التفاح الشامى ، قدرنا مقدار ما حضر فيها ألف حبة . فما رأيت طعاماً أنظف منه ، ولا ربحاً أظرف منه ، فقال لى : هذا حق الصبح . فما أنسى إلى الساعة طيب ذلك اليوم .

(ب) عند الطولونيين والإغسيبين :

كان أحمد بن طولون مضرب المثل في الكرم والجود ، وكان كثير التصدق على الفقراء . فقد أثر عنه أنه كان يتصدق كل شهر بألف دينار . وكان إلى جانب ذلك يبذل في أعمال الخير ألف دينار في كل يوم . وقال المقرئى (٣) : « وكانت صدقاته على أهل المسكنة والستر وعلى الضعفاء والفقراء وأهل التجمل متواترة . وكان راتبه لذلك في كل شهر ألفي دينار ، سوى ما يطرأ عليه من التدور وصدقات الشكر على تجديد النعم ، وسوى مطابحه التي أقيمت في كل يوم للصدقات في داره وغيرها ، يذبح فيها البقر والكباش ، ويعرف للناس في القدور الفخار والقصاع ، على كل قدر أو قصعة لكل مسكين أربعة أرغفة ، في اثنين منها فالزوج ، والإثنان الآخران على القدر . وكانت تعمل في دارة وينادى : من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر - وتفتح الأبواب ، ويدخل الناس الميدان ، وابن طولون ينظر الناس في المجلس الذي تقدم ذكره ، ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحلمون ، فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته . »

وقد حذا خمارويه بن أحمد بن طولون حذو أبيه في الكرم والجود ، فبلغت نفقات مطبخه الذي عرف باسم مطبخ العامة ثلاثة وعشرين ألف دينار في كل شهر . وذكر المقرئى (٤) عند كلامه على دار الحرم التي بناها خمارويه لئسأ أبيه ، أنه عين لهذه الدار الخدم والطهاة ، وأدر عليهن الأرزاق والأطعمة التي بلغت من كثرتها ووفرتها ، أن الطهاة والخدم كانوا يعطون ما بقى منها للعامة . وذكر المقرئى من ألوان الطعام : الدجاج ولحوم الجدى والضأن والفالوزج واللوزنج والقطائف والهرايس من العصيدة التي كانت تعرف في عهد المقرئى باسم المأمونية . وبلغ من وفرة هذه الأطعمة أنها أصبحت في متناول العامة ، حتى كانت القطعة من الدجاج أو لحوم الضأن أو الجدى أو الحلوى الكبيرة تباع بدرهم واحد أو درهمين ، بحيث أن الرجل إذا طرقة ضيف خرج من فوره إلى باب دار الحرم ، فيجد ما يشتره ليتجمل به لضيفه مما لا يقدر على عمل مثله ولا يتبأ له من اللحوم والفراخ والدجاج والحلوى مثل ذلك . »

وكذلك كان الإخشيدون يعنون بالطعام وتنوع ألوانه واشتتاله على العناصر الضرورية للتغذية . فقد ذكر ابن زولاق أن محمد بن طنج الإخشيد كان يميل إلى لون من ألوان الطعام يقال له حماضية ،

(١) طشت (٢) قد فرش فيها البنفسج والخير وهو نوع من الرياحين .

(٣) خطط ج ١ ص ٣١٦ (٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٣١٨ .

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٣١٧ - ٣١٨ .

تعمل من الخماض الذي يستخرج من الأترج ، وهو نوع من البرتقال ، ويلقى به في الحصرمية ، وهو العنب الأخضر الذي لم ينضج بعد ، ثم يلقى عليها ماء الورد والمسك والأفاويه ، (١) . وكان للإخشيد طيب خاص يشرف على الطعام ويشير بما يصلح تقديمه منه للأمير . (٢) ولا يبعد أن يكون قد اتخذ هذا الطيب ليحول دون تقديم طعام فاسد أو مسموم عن طريق من تحدته نفسه باغتتيال هذا الأمير . وكان كافور يتفق على مائدته إلى حد التبذير . روى أبو المحاسن عن كتاب « كنز الدرر وجامع الغرر » (٣) ، لأبي بكر بن عبد الله بن أيك المتوفى في القرن الثامن الهجري ، « أنه بلغ ما كان يعمل في مطبخ كافور — لما قوى سلطانه وكثرت أمواله — في كل يوم من اللحم ألفان وسبعائة رطل ، وخمسمائة طائر دجاج ، وخمسمائة طائر حمام ، ومائة طائر إوز ، وخمسون خروفارميسا ، ومائة جدى سمين ، وعشرون فرخا سمكا ، وخمسمائة صحن حلوى في كل صحن عشرون رطلا ، ومائتان وخمسون طبقاً فاكهة ، وعشرة أفراد نقل ، وخمسمائة كوز قفاح (٤) كبير ، ومائة قرابة سكر وليمون . وروى ابن خلكان (٥) عن وكيل كافور قال : « خدمت الأستاذ كافورا والجرابية التي يطلقها ثلاث عشرة جرابية في كل يوم ، ومات وقد بلغت على يدي ثلاثة عشر ألفاً في كل يوم ، وروى أبو المحاسن (٦) عن الذهبي : « وكان كافور يدنى الشعراء ويحيزهم ، وكانت تقرأ عنده في كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية ، وله ندماء . وكان عظيم الحرمة ، وله حجاب ، وله جوار ومغنيات . »

### ( ج ) عند الفاطميين :

ومن العجب ما نقرؤه في الثعالبي (٧) من دعوة بعض الشعراء أصدقاءهم إلى وليمة يصفونها في قصائدهم ويضمنونها ألوان الطعام والشراب وما تتخلله الوليمة من ضروب اللهو والسرور وسماع الموسيقى والغناء ، وتزيين السباط بالورود والرياحين وكل ما يضيفه صاحب الدعوة على زائريه من مظاهر البهجة والسرور . فقد بعث محمد بن أبي الجرجع الشاعر المعروف بهذه القصيدة إلى بعض أصدقائه يدعوهم فيها إلى تناول الطعام قبل حلول شهر رمضان فقال :

شعبان قد صار نضوا (٨) ولم نقد فيه لهوا

(١) كتاب المغرب في حل المغرب ص ٣١ . أنظر قاموس ستينجاس .

(٢) ابن زولاق : المغرب ص ٣٦ .

(٣) فهرست التاريخ بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٧٨ .

(٤) وهو شراب يتخذ من الشعير ، سمي بذلك لما يرتفع في رأسه ويعلوه من الزبد .

(٥) كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٣١ (٦) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦ .

أنظر حسن إبراهيم حسن : كافور الاخشيدى ، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول ، المجلد السادس ، مايو ١٩٤٢ ص ٣٨ .

(٧) كتاب بئمة الدهر ج ١ ص ٣٥٤ — ٣٥٥ (٨) هزيلة .

وليس ذلك منا جهلا ولا كان سهوا  
فبالسودة إلا بكرت للقصف عدوا (١)  
حتى تقوم فنزفوا ماخرق الدهر رفوا  
من بعد تقديم جدى مسمن ظل يشوى  
له ثلاثون يوما يجبو إلى الضرع (٢) حبوا  
وأوفر الزور في الخد سل قد تبوأ مثوى  
لما انتزعت حشاه عوضته البقل حشوا  
وقد عنيت بحام ملأته لك حلوى  
وقهوة بنت كرم صفت من الذم صفوا  
ماشعشت (٣) قط إلا سبط على الهم سطوا  
جنبتها كل وغد يحجو المحاسن محوا  
إلا إذا ما اقتنصنا عذب الخلائق حلوا  
وشادن ذى دلال يشدو فيليك شدوا  
إما غناه وإما عجائباً عنه ثروى  
حتى تظل بما فيه ه من وقارك خلوا  
وعندنا لك ورد يحدو المسرة حدوا (٤)  
ريحانه لا يوازى لوناً وعطراً وسرواً (٥)  
فا اعتذارك في أن قمى زمانك صحوا (٦)  
وأنت بعد قليل بالصوم والله تطوى  
أبا على ألا أسمع نصيحة ليس تزوى (٧)  
فإنما نحن سفر على محجة بلوى (٨)  
ولا تعرج ذمياً على معارج حزوى (٩)

وكان الفاطميون يقيمون الأسمطة في الأعياد والمواسم ، وخاصة في أول العام الهجرى ، وفي مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي غرة رمضان ، وفي عيذى القطر والأضحى حيث كانت تعم

(١) القصف اللهب ، والمدو الجرى

(٢) يعنى ثدى أمه (٣) أى مزجت بالماء .

(٤) أى يسوق إليك السرور سوفا

(٥) نبات ، يعنى لا يوازيه في لونه وريحه وشرف نوعه نبات آخر .

(٦) يريد : ما الذى يجعلك تترك مثل هذا المجلس الذى فيه كل هذا السرور وتعيش محوا غير سكران

(٧) نجباً أو تستر وتكتم عنه .

(٨) أننا قوم مسافرون من هذه الحياة في طريق ملوئ بالخاوف والمصائب

(٩) اسم موضع ، يعنى لا تفعل كإفعل الشعراء من قبل من البكاء على الأطلال والدمن فانه موقف مذموم عندى .

خيراتهم الناس فيها . وقد عنوا بالاحتفال بعيدى الفطر والأضحى احتفالاً رائعاً . ففي ليلة عيد الفطر كان يقام بالإيوان الكبير ، الذى يقابل مجلس الخليفة ، سماط ضخم طوله نحو ثلثائة ذراع ، وعرضه سبع أذرع ، ثرت عليه صنوف الفطائر والحلوى الشبية ، مما أعد فى دار الفطرة الخليفة . فإذا انتهى الخليفة من صلاة الفجر ، عاد إلى مجلسه ، وفتحت أبواب القصر والإيوان ، وهرع الناس على اختلاف طبقاتهم إلى السماط الخليلي ، وتناولوا ما عليه من الطعام ، بمشهد من الخليفة ووزرائه . وإذا طلعت الشمس خرج الخليفة فى موكبه إلى الصلاة ، وفى ذلك يقول المقرئ (١) :  
وفى يوم العيد ركب العزيز بالله لصلاة العيد ، وبين يديه الجنائب والقباب والديباج بالخلى ، والعسكر فى زيه : من الأتراك ، والديلم ، والعززية ، والإخشيدية ، والكافورية ، وأهل العراق ، بالديباج المتقل ، والسيوف والمناطق الذهب . وعلى الجنائب السروج الذهب بالجواهر والسروج بالعنبر ، وبين يديه الفيلة ، وعليها الرجالة بالسلاح ، وخرج بالمظلة الثقيلة بالجواهر ، ويده قضيب جده عليه السلام ، فصلى على رسمه وانصرف .

وإذا عاد الخليفة من الصلاة ، أقيم سماط آخر أبهى وأروع ، فيجلس الخليفة وأمامه مائدة من فضة يقال لها والمدورة ، عليها أواني الذهب والفضة ، ملأى بأنعم ألوان الطعام وأشهاها . وقبالتها سماط ضخم ، يتسع لنحو خمسمائة مدعو ثرت عليه الأزهار والرياحين ، وصفت على جانبيه الأطباق المملأى بصنوف الشواء ، والطيور ، والحلوى البديعة ، ويجلس إليه رجال الدولة وعظاؤها . وأما عيد الأضحى ، فكان يحتفل به بركوب الخليفة إلى الصلاة ، على النحو الذى كان متبعاً فى صلاة عيد الفطر ، ثم يخص بسماط حافل يقام فى أول يوم ، بيد أنه يمتاز بركوب الخليفة فيه ثلاث مرات متواليات فى الأيام الثلاثة الأولى ، كما يمتاز أيضاً باشتراك الخليفة نفسه فى إجراءات النحر ، فبعد أن يفرغ من صلاة العيد ، يتشح ثوباً أحمر اللون ، ويركب إلى المذبح ، حيث يكون الوزير وقاضى القضاة والأستاذون المحنكون (٢) وغيرهم فى انتظاره . وإذا وصل الخليفة ذبح بيده بين تكبير المكبرين إحدى وثلاثين ناقة وبغيراً . وكان ينظم فى اليوم التالى نفس الموكب الخليلي إلى المنحر ، حيث يذبح الخليفة بيده سبعة وعشرين رأساً ، وفى اليوم الثالث ثلاثة وعشرين (٣) .

وكانت الاحتفالات الرسمية تقترن بالاحتفالات والمآدب الشعبية ، ويستقبل الشعب المصرى هذه المواسم بمظاهر الحبور والبهجة ، إلا يوم عاشوراء ، فقد كان يعتبر يوم حزن شامل تعطل فيه الأسواق ويخرج المنشدون إلى الجامع الأزهر ، حيث ينشدون الأناشيد المحزنة فى رثاء الحسين ، ويقام سماط يسمى سماط الحزن ، ينظم فى منتهى البساطة فى هجو صغير ، ويمد عليه خبز الشعير والعدس والجبن ، ويحضره الخليفة ملثماً مرتدياً الثياب القاتمة .

(١) خطاط ج ١ ص ٣٨٨ .

(٢) جمع أستاذ محنك ، وكان ينته بطرف عمامته ، بمعنى أن يجعل بعض عمامته تحت حنكه . ومن الأسانذة المحنكين من يتولى شد التاج ، وصاحب المجلس ، وبشبه كبير الأمان ، وصاحب بيت المال ، وحامل الدواة ، وزمام الأقارب ، وزمام القصور ، وبمهد إليه بادارة شؤون القصر .

(٣) الفلفشندى : صبح الأعمى ج ٢ ص ٥١٥ - ٥١٦ ، ٥٢٧ - ٥٢٨ .

وقد ابتدع زرياب في بلاد الأندلس ألوانا من الطعام ، فأدخل بقلة الهليون المسماة عندهم الأسفراج Aspirago ، كما زاد في الأطعمة لونا أطلقوا عليه ، والنقايا ، ويصنع بماء الكزبرة الرطبة المحلاة بالسنبوسق والكباب ، ولونا من التقلية أطلقوا عليها تقلية زرياب ، يطبخ فيه الدجاج أو الأرناب في مرق كثير الأفاوية والتوابل . كما أخذوا عنه تفضيل الأكواب الزجاجية الرفيعة على أكواب الذهب والفضة ، وابتكر أسمطة الطعام من الأديم (الجلد) . وقد اتخذ أمراء الأندلس وخلفاؤهم وخواصهم زرياب قدوة فياسنهم لهم من آداب المائدة واستحسنه من الأطعمة التي نسبت إليه (١) وقد ذكر المقرئ (٢) عند كلامه على قصر عبد الرحمن الناصر أن عدد فتیان قصر الزهراء بلغ ١٣,٧٥٠ ، وأنه خصص لهم من اللحم كل يوم ١٣,٠٠٠ رطل ، عدا الدجاج والحجل والطيور والأسماك .

وقد رأينا كيف كان الخلفاء والأمراء وذوو اليسار كلفين بالحصول على بواكير الفواكه طرية سليمة بوساطة البريد الذي بلغ حد الكمال في عهد نبي بويه في المشرق وفي عهد الفاطميين في مصر (٣) .

#### ٥ - الملابس

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب (٤) أن اللباس الفارسي أصبح لباس البلاط الرسمي ، وأن أبا جعفر المنصور أمر بلبس القلائس ، وهي القبعات السود الطويلة المخروطية الشكل ، بصفة رسمية ؛ كما أدخل استعمال الملابس المحلاة بالذهب ، وغدا خلعا على الناس من حق الخليفة . يتبين لنا ذلك جليا من العملة التي ضربت في عهد الخليفة المتوكل ، حيث تظهر صورته مرتديا ملابس فارسية . وكان اللباس العادي للطبقة الراقية في العصر العباسي يشتمل على سروال فضفاضة وقميص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة . أما لباس العامة ، فيشتمل على إزار وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام ، وكانوا ينتعلون الأحذية والتعال .

غير أن الخليفة المتوكل أدخل نوعا جديدا من الملابس نسب إليه ، فأظهر لباس الملحم (٥) وفضل ذلك على سائر الثياب ، واتبعه من في داره على لبس ذلك ، وشمل الناس لبسه ، وبالغوا في ثمنه اهتماما بعمله واصطناع الجيد منها ، لمبالغة الناس فيها وميل الراعي والرعية إليها . فالباقي في أيدي الناس إلى هذه الغاية من تلك الثياب يعرف بالمتوكلية ، وهي نوع من ثياب الملحم نهاية في الحسن والصنع وجودة الصنع (٦) .

وكان لباس الخليفة العباسي في المواكب القباء الأسود (٧) أو البنفسجي الذي يصل إلى الركبة ، ويشتمل بمنطقة مرصعة بالجواهر ، ويتشح بعباءة سوداء ، ويلبس قلنسوة طويلة غالية . وكان

(١) المقرئ : نفع الطيب ج ٢ ص ٧٥١ - ٧٥٢ (٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٦٩ .

(٣) أنظر هذا الكتاب ص ٤٥٩ ، ٤٦٢ (٤) ص ٣١٠ - ٣١١ .

(٥) المبطن (٦) السعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٩ .

(٧) كان القباء مفتوحا عند الركبة ، فيظهر القفطان زاها من تحته . وكانت أكمامه ضيقة حتى عهد المعتصم

الذي أمر بجمعها فضفاضة ؛ ويقال إن عرض الأكمام بلغ ثلاثة أذرع .

الأمراء والنبلاء يقدون الخلفاء في ملابسهم . أما الخلفاء والفضاة فكانوا يلبسون العمامة والطيلسان ، مقتدين في ذلك بالنبي صلى الله عليه وسلم ، كما كانوا يلبسون قلنسوة طويلة ، حولها عمامة ذات لون أسود ، وهو شعار العباسيين .

وكان لباس الناس قبل ذلك شيئاً واحداً لا يميز أحد عن أحد بلباسه . وكان الكتاب يلبسون الدراعات ، وهي ثياب مشقوقة من الصدر ، ويلبس القواد الأقيية الفارسية القصيرة . وأما غير العلماء فيلبسون في داخل بيوتهم القلنسوة وحدها فوق كلوته<sup>(١)</sup> من الحرير الأبيض ، ثم استعاضوا عنها بكلوته خفيفة بنفسجية اللون . وكان اللباس العادي للطبقة الراقية يتألف من سراويل فضفاضة وقميص ودراعة وقمطان وقباء وقلنسوة وعباءة أوجبة . وكان الأغنياء من الرجال والنساء يلبسون الجوارب المصنوعة من الحرير أو الصوف أو الجلد ، ويسمونها «الموزج»<sup>(٢)</sup> . وثمة فروق ملحوظة في ملابس أصحاب المهن المختلفة . أما لباس العامة فيشتمل على إزار وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام يسمى «قربند» . وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال . أما الجنود فيلبسون الأحذية ، على حين ينتعل بعض الأعيان كليهما في وقت واحد ، ويخلعون الحذاء الخارجي المسمى «الجرموق» عند دخول المساجد أو القصور<sup>(٣)</sup> .

وقد أحدث الخليفة المستعين تغييراً في الملابس ، فصغر القلائس بعد أن كانت طويلة ، وأمر بلبس الأكام الواسعة التي أصبح عرضها ثلاثة أشبار<sup>(٤)</sup> . وكانت هذه الأكام تقوم مقام الجيوب ليحفظ فيها الإنسان كل ما يحتاج إلى حفظه كالدنانير والكتب . فكان المهندس يضع فيها أدواته الهندسية ، ويضع الصيرفي رقاعه ، والحياط أدوات الحياطة ، والقاضي الكراسي التي يقرأ فيها الخطبة في يوم الجمعة ، ويحفظ السكاتب الرقعة قبل عرضها<sup>(٥)</sup> .

وكان السواد شعار العباسيين الرسمي<sup>(٦)</sup> ، وكثيراً ما كان الأثرياء يلبسون الثياب البيض لما أثار عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خلق الله الجنة يضاء ، وخير ثيابكم تلبسونها في حياتكم وتكفنون بها موتاكم » . وكانوا يلبسون الملابس ذات الألوان الطبيعية ، لأن الألوان غير الطبيعية

(١) بنشديد اللام ، هي كلمة فارسية معناها الطاقية الصغيرة من الصوف المضربة بالقطن .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٣٠ ، على إبراهيم حسن : دراسات في تاريخ الممالك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص ص ٣١٥ .

(٢) الموزج شبه الجورب من الجلد يلبسه الفرسان ومن يشبههم . وكان الفتح بن خاقان إذا جلس في حضرة الخليفة المتوكل وأراد أن يقوم إلى المتوضأ ، أخرج من ساق موزجه كتاباً يطالع فيه أمره وعوده .

فاذا وصل إلى الحضرة الخليفة أعاده إلى ساق موزجه . أنظر كتاب الفخرى في الآداب السلطانية ص ١٠ .

(٣) أنظر هذا الكتاب ج ٢ ص ٣١١ ، ٣١٢ ، سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٩ ، ٣٨٨ .

(٤) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٤٣٠ .

(٥) متر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ٢ ص ١٨٧ - ١٨٨ .

(٦) راجع ما قبل عن اتخاذ العباسيين السواد شعاراً لهم في كتاب «السيادة العربية والشعبة والإسرائيليات في عهد بني أمية» تأليف فان فلوتن وترجمة المؤلف (ص ١٢٤-١٢٦) .

لا يلبسها إلا الإماء والقيان والنبطيات . وكان اللون الأزرق في المشرق واللون الأبيض في الأندلس علامة الحداد . (١)

وكانت ملابس المرأة تتكون من ملاء فضفاضة وقيص مشقوق عند الرقبة ، عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة في البرد . وكانت المرأة العربية إذا خرجت من بيتها ترتدي ملاء طويلة تغطي جسمها ، وتقي ملابسها من التراب ، وتلف رأسها بمنديل يربط فوق الرقبة .

وقد تطورت ملابس النساء في العصر العباسي تطوراً ظاهراً عما كانت عليه في العصر الأموي ؛ إذ اتخذت سيدات الطبقة الراقية غطاء للرأس (البرنس) مرصعاً بالجواهر ، محلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة . ويعزى ابتكار هذا الغطاء إلى علية بنت المهدي وأخت الرشيد . وكانت نساء تلك الطبقة يعلقن الحجب بزئار البرنس للزينة . أما نساء الطبقة الوسطى فكانن زين رءوسهن بحلية مسطحة من الذهب ، يلففن حولها عصاية منضدة باللؤلؤ والزمرد ، ويلبسن الخلاخل في أرجلهن والأساور في معاصمهن وأزنادهن ؛ ولم يجملن فن التجميل الذي أخذته عن الفارسيات . وكان طابع الحسن ، الصناعي مما يتحلى به الأعرابيات . (٢)

واتخذ الناس من القماش المشمع الماطر في البلاد التي يكثر فيها المطر (٣) . وقد ورد ذكر الماطر في إحدى قصائد البحترى حين سأل أحد مدوحيه أن يهب له ممطرا يقيه المطر (٤)

وفي عهد الفاطميين في مصر كانت القاهرة من أهم مراكز النسيج ، وبلغ نظام الطراز مبلغاً عظيماً من الرقي . واشتهرت مصر بأنواع خاصة من الثياب الحريرية والقطنية والكتانية والصوفية . من ذلك القلموني ذي الألوان البراقة التي تتلألأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس ، وكانت تصنع في دمياط وتينيس خاصة ، والقرقي الذي اشتهر بألوانه اللامعة التي تتغير إذا انعكست عليها أشعة الشمس ، والنصفية ، وتصنع من الحرير والقطن ، والديبق الذي ينسب إلى مدينة دبيق حيث كانت تصنع الثياب المثقلة والعائم الشرب المذهبة . وفي دار الكسوة التي بناها الخليفة المعز لدين الله الفاطمي في القاهرة كانت تفصل الثياب للخليفة والأمراء والوزراء وسائر موظفي الدولة ، على اختلاف مراتبهم ، والخلع التي كانت تمنح بسعة للوزراء والأمراء والأشراف في عيد الفطر ، حتى سمي عيد الخلل .

وقد أمدنا المقرئ (٦) بعنارة طويلة بين فيها منخصصات الخليفة والأمراء والوزراء وسائر موظفي الدولة ونسائهم وأولادهم في الشتاء والصيف من الملابس التي كانت تصنع بدار الكسوة ، كما بين مقدار قيمة كل كسوة . ومن الطريف أن نعلم أنه كان يصنع للخليفة كسي مختلفة يصلح كل منها لاحتفال خاص ، كاحتفال بآخر رمضان ، وإقامة صلاة العيد ، والجلوس على السباط في أول يوم من أيام عيد الفطر ، وكانت موشاة بخيوط الذهب والفضة ، وبلغ ثمن بعضها خمسمائة دينار ، وأنفق

(١) متر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ٢ ص ١٨٩

(٢) سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٩ — ٣٩٠ ، انظر هذا الكتاب ج ٢ ص ٣١١ — ٣١٢

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٩٦ . (٤) ديوان البحترى ج ١ ص ١٨٥ .

(٥) انظر هذا الكتاب ص ٥٠٧ — ٥٠٩ . (٦) خطط ج ١ ص ٤٠٩ — ٤١٠ .

على المنديل الواحد خمسة دنانير . وكانت هناك مناسبات أخرى تقدم فيها الحلل المزركشة بالذهب للوزير وأخي الخليفة : كعيد أول رمضان ، والاحتفال بالجمع الثلاث الأخيرة منه ، وجبر الخليج . كما كان الشعراء والكتاب والأعيان الذين يتفق وجودهم بالقاهرة في هذه المناسبات يمنحون حللا مصنوعة من الحرير الخالص ، وبعضها مزركش بالذهب .

وفي بلاد الأندلس تحمك زرياب في ابتداء الأزياء ، وحث الناس على تغيير الملابس لتكون مناسبة للفصول ، و رأى أن يكون ابتداء الناس للباس البياض وخلعهم الملون ، من يوم مهرجان أهل البلد المسمى عندهم بالعنصرة ، الكائن في ست بقين من شهر بؤنة الشمس من شهرهم الرومية ، فيلبسونه إلى أول شهر أكتوبر الشمسي ، منها ثلاثة أشهر متوالية ، ويلبسون بقية السنة الثياب الملونة . ورأى أن يلبسوا في الفصل الذي بين الحر والبرد المسمى عندهم الربيع من صبغهم جباب الخبز والملحم والمحمر والدراريع التي لا بطائن لها ، لقرها من لطف ثياب البياض الظاهر التي ينتقلون إليها لخفتها وشبهها بالمحاشي ثياب العامة . وكذا رأى أن يلبسوا في آخر الصيف وعند أول الخريف المحاشي المروية والثياب المصمتة وما شاكلها من خفائف الثياب الملونة ذوات الحشو والبطائن الكشيقة ، وذلك عند قرس البرد في الغدوات ، إلى أن يقوى البرد ، فينتقلوا إلى أثخن منها من الملونات ، ويستظفرون من تجتها إذا احتاجوا إلى صنوف القراء (١) . كما أبطل زرياب عادة إعفاء الشعر وإسداله مفروقا إلى الحاجبين والصدغين (٢) .

## ٦ - المرأة :

### (١) في الدولة العباسية :

كانت المرأة في العصر العباسي الثاني كما كانت في العصر العباسي الأول ، تتمتع بقسط وافر من الحرية . فقد تدخل بعض النساء في شئون الدولة ، كقبيصة أم المعتز ، والسيدة أم المقتدر ، وقهرمانتها ثومال ، وأم موسى ، وست الملك أخت الخليفة العزيز الفاطمي ، والسيدة صبح أم هشام بن الحكم ابن عبد الرحمن الناصر في الأندلس .

وقد قامت قبيصة زوجة المتوكل وأم المعتز ( ٢٥٢ - ٢٥٥ هـ ) بدور هام في عزل الخليفة المستعين ، واتفقت مع الأتراك على قتله ليصفو الجو لابنها المعتز . واشتهرت قبيصة بالثراء ، حتى ذكر ابن الأثير (٣) أنهم وجدوا عندها مليون وثمانمائة ألف دينار ، ومع ذلك عرضت ابنها لعنت الأتراك الذين تأخرت روايتهم المستحقة لهم وقدرها خمسون ألف دينار فقط ، ولم يلبث أن ذهب ضحية هذا البخل (٤) .

واستأثرت « السيدة » أم الخليفة المقتدر ( ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ ) بنفوذ كبير في الدولة العباسية . وليس أدل على عظم نفوذها وتدخلها في شئون الدولة ، وتمتعها بنفوذ أقوى من نفوذ الخليفة ، من

(١) المغري : نفع الطيب ج ٢ ص ٧٥٢ . (٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٧٥١-٧٥٢ .

(٣) ج ٧ ص ٧٠ . (٤) انظر هذا الكتاب ص ٣٤ - ٣٥ .



ذلك الكتاب (١) الذي بعث به إليها الوزير المصلح علي بن عيسى يتصل فيه من التبعات التي ألقاها عليه في إدارة شئون الدولة المالية .

وعلى الرغم مما قام به هذا الوزير من إصلاح كان مصيره العزل. وفي ذلك يقول ابن الأثير (٢) :  
« لما كان آخر ذى القعدة (سنة ٤٣٠ هـ) جاءته أم موسى القهرمانة لتتفق معه على ما يحتاج حرم الدار والحاشية التي للدار من الكسوات والتنفقات . فوصلت إليه وهو نائم ، فقال لها حاجبه إنه نائم ولا أجسر أن أوقظه ، فاجلسي في الدار ساعة حتى يستيقظ ، فغضبت من هذا وعادت . واستيقظ علي بن عيسى في الحال ، فأرسل إليها حاجبه وولده يعتذر ، فلم تقبل منه ، ودخلت على المقتردر وتخرّصت على الوزير (٣) عنده وعند أمه ، فعزله عن الوزارة وقبض عليه ثامن ذى الحجة . »

وليس هذا كل ما كانت تتمتع به السيدة من نفوذ ، فقد اتسعت سلطتها إلى حد أنها استطاعت أن تعين قهرمانتها « ثومال » صاحبة اللظالم . فكانت تجلس أيام الجمع في مكان بنته « السيدة » في الرصافة « وتنتظر في رقاع الناس ... وتحضر القضاة والأعيان وتبرز التواقيع وعليها خطها (٤) . »  
ومما يدل أيضا على مبلغ تدخل السيدة في شئون الدولة هذه الحكاية التي قصها الصولي (٥) الذي تلمذ له الراضى بن المقتردر وهو أمير ، فإنها تبين لنا عدم اهتمام السيدة وقهرماناتها بتنشئة الأمراء تنشئة قوامها التوافر على العلم ، وتوجيههم وجهة صالحة في الإلمام بنظم الحكم ، والوقوف على أحوال الدولة وعلاقتها بغيرها من الدول ، بل على العكس من ذلك ، فإن النساء ، اللاتي غدون أصحاب الحل والعقد ، لم يأتين أن يكون الأمير أو ولي العهد متعلما مثقفا ، وإنما يردنه ضعيفا غير ملم بشئون الحكم . فاستمع إلى حكاية الصولي (٦) حيث يقول : « وإني لأذكر يوما في إمارته وهو يقرأ على شينا من شعر بشار ، وبين يديه كتب لغة وكتب أخبار ، إذ جاء خدم من خدم جدته « السيدة » ، فأخذوا جميع ما بين يديه من الكتب ، فجعلوه في مندبل ديبق كان معهم . وما كلبونا بشئ ومضوا ، فرأيت قد وجم لذلك واغتاظ ، فسكنت منه وقلت له : ليس ينبغي أن يتكر الأمير هذا (٧) ، فإنه يقال لهم إن الأمير ينظر في كثير لا ينبغي أن ينظر في مثلها ، فأحبوا أن يمتحنوا ذلك . وقد سرفني هذا ليروا كل جميل حسن ، ومضت ساعات أو نحو ذلك ثم ردوا الكتب بحالها ... ثم قلت للراضى بالله : قد أمرت أن تجلس في غد ليُشملك (٨) بحضورك ابن الجواليقي بدار السيدة . وقد وعدوا جماعة فيهم الحسين بن إسماعيل الحماملى وسيبكر إلى ههنا في غده ؛ فارفع مجلسه ، وأقبل عليه وانبسط في مذاكرته . وإني أحب أن يسمع الناس وصفك والثناء عليك من مثله ، ففعل جميع ذلك . ثم حضرت وانقضى أمر الإملاك ،

(١) راجع هذا الكتاب في مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ٢٤٧ - ٢٤٨ . (٢) ج ٨ ص ٣٧ .

(٣) يعني كذبت .

أنظر أيضا Harold Bowen : The Life and Times of Ali Ibn Isa, p. 178

(٤) السبوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٥٣ . (٥) أخبار الراضى بالله والمنفى لله ص ٥ - ٦ .

(٦) المصدر نفسه ص ٥ - ٦ ، ٢٦ . (٧) في الأصل أن يتكر للامير هذا .

(٨) أى بمقد عقد لإملاك أى زواج .

فأخذ المحاملي بيد أبي بكر الخرقى وقال : ما رأيت في أهل هذا البيت شيئا ولا كهلا ولا حدثا يشبه هذا الفتى . يقول حدثنا وأخبرنا ، وينشد ويعرب ، وهذا كله من فعل هذا — وأوما إلى — فأحب أن تتحمل رسالتى إلى القهرمانه ريدان وتقول لها : ما الذى فعلتم من صير هذا الأمير فى هذا الحال ؟ فقلت أنا لآبى بكر : الله يعلم ، ما أفعل هذا إلا الله عز وجل ، لآبى أقول لعلهما أن يلبيا من أمور المسلمين شيئا ، فينفعهم الله بهما . وجعلت أقتضى أبا بكر الجواب ، فدفعنى أيا ما ثم قال لى : أنت فى طرف والقوم فى طرف . أدبت الى ريدان قول القاضى فقالت لى : إن هذه المحاسن من هذا الرجل عند السيدة ، ومن يخدمها مساوىء ؛ فقل له عنى يا هذا : ما تريد أن يكون أولادنا أديبا ولاعلما . وهذا أبوهم قد رأينا كل ما نحب فيه وليس بعالم ؛ فاعمل على ذلك . فأثبت نصرا الحاجب فأخبرته بذلك ، فبكى وقال : كيف تفلح مع قوم هذه نياتهم ؟ .

وإن تدخل « السيدة » فى شئون الدولة ساعد على ضعف الخلافة العباسية ، كما أن إلقاء القبض على الوزير المصلح على بن عيسى بسبب اعتذاره عن إجابة قهرمانتها أم موسى إلى ما طلبت ، حرم الخلافة الاستفادة بمواهبه الممتازة وسياسته الرشيدة ، كما كان من أثر تعيين « ثومال » قهرمانه « السيدة » صاحبة للظالم ، أن استهتر العامة بالخلافة ونظروا إلى حكماها نظرة الاحتقار والازدراء . ازداد نفوذ حرم الخليفة فى عهد الوزير حامد بن العباس ، وأصبح يتدخل فى شئون الدولة ، على حين كان الخليفة قابعا فى داره ، فكان يجلس للظالم وينظر فى رقاع الناس ، ويصدرن الأوامر مذيلة بتوقيعاتهم . كما عملت السيدة على عزل الوزير أبى العباس أحمد بن عبد الله بن أحمد بن الخصيب ، وصودرت أمواله فى سنة ٣١٤ هـ .

### (ب) فى مهر والأونلسى :

وكان للنساء شأن كبير فى الدولة الفاطمية ، فكان يتدخلن فى شئون الدولة ؛ واشتهر كثير منهن بالثراء والبذخ . وذكر المقرئى<sup>(١)</sup> أن بنتين للبعز قد تركت إحداهما ، واسمها رشيدة ، ما يقرب من مليون ونصف من العملة الذهبية ( ١,٧٠٠,٠٠٠ دينار أى ٣ مليون جنيه ) ، وتركت الأخرى ، واسمها عبدة ، كثيرا من خزائن الحلى والفضاديق التى تحتوى على خمسة أكياس من الزمرد ، وثلاثمائة قطعة فضية ، وثلاثين ألف ثوب صقلى ، وغير ذلك من الذخائر . وفى سنة ٣٦٦ هـ ( ٩٧٦ م ) أنفقت السيدة تغريد زوجة المعز ، أموالا جمعة على بناء مسجدها بالقرافة ، وتولى زخرفته ونقشه جماعة من الفنانين من أهل البصرة ، كما بنت هذه السيدة قصر القرافة كما تقدم .

وقد تزوج الخليفة الفاطمى العزيز بسيدة رومية نصرانية على المذهب الملكانى — مذهب كنيسة القسطنطينية — فولدت له ابنه الحاكم وابنته ست الملك . وكان لزواج العزيز هذه نفوذ كبير فى الدولة ،

(١) خطط ج ١ ص ٤١٥ . (٢) المصدر نفسه . (٣) المصدر نفسه .

حتى إن الخليفة عين أخويها بطريقين ملكيين : أحدهما في الإسكندرية والآخر في بيت المقدس (١). وقد امتازت ست الملك بالحزم ورجاحة العقل ، واشتهرت بالكرم والحلم ، وعرفت بالتسامح الديني ، وكثيراً ما كانت تعطف على النصارى . وكانت في السادسة والعشرين من عمرها حين توفي أبوها ، وكانت مع أخيها الحاكم مسلوبة السلطة ، فأثار ذلك حفيظتها ، ولاسيما عند ما انتقد مسلكها ، فتأمرت على قتله بالاشتراك مع سيف الدولة بن دواس أحد شيوخ كتامة .

وقد تركت ست الملك ثروة ضخمة ، منها ثمانمائة جارية ، وثمان جرات ملأى بالمسك ، وكثير من الأحجار الكريمة ، من بينها قطعة من الياقوت تزن ثمانية مثاقيل . وكانت مخصصات هذه الأميرة السنوية خمسين ألف دينار (٢) .

ومن نساء هذا العصر زوجة الظاهر وأم المستنصر ، وكانت سودانية ، على ما تقدم . واشتهرت بالعطف على أبناء جلدتها السودانيين ، الذين كثر عددهم وقوى بطشهم في عهد المستنصر ، حتى بلغ عدد الجنود السودانيين خمسين ألفاً .

ولم يظهر بين طبقة العامة في ذلك العصر نساء كان لهن أثر في الحياة السياسية أو في ترقية المجتمع ، بل كان النشاط في هذه النواحي مقصوراً على نساء الخلفاء والأمراء وغيرهن من نساء الطبقة الحاكمة . وكان للمرأة شأن كبير في بلاد الأندلس ، وقامت الجوارى بدور هام في قصور الخلفاء والأمراء ورجالات الدولة . وليس أدل على صحة هذا القول من قصة طروب ، جارية عبد الرحمن الأوسط ؛ فقد بلغ من شدة ميله إليها وكلفه بها أنها حين غضبت منه وأبت أن تقابله ، ترضاها بيد المال والحلى الذي قدرت قيمته بمائة ألف دينار . وقد ذكر المقرئ (٣) أن هذه الجارية كانت تبرم الأمور مع نصر الحصى ، وأن عبد الرحمن لم يرد لها شيئاً مما أرمته . وكذلك أولع عبد الرحمن بجارية أخرى تسمى مدثرة ، فأعتقها وتزوجها ، كما أولع بجوارى آخر منهن شفاء ، وقلم ، وكانت أدبية راوية للشعر حافظة للأخبار ، كما كانت حسنة الخط (٤) .

وكذلك تمتعت السيدة صبح زوجة الحكم الثاني وأم هشام المؤيد (٣٦٦-٥٣٩٩) بنفوذ كبير في الدولة الأموية بالأندلس ، وتغلبت على أمور ابنها الذي لم يكن قد تجاوز العاشرة من عمره حين آلت الخلافة إليه ، وأصبحت تتمتع بالنفوذ المطلق والسلطان الذي لا يحد ، وأسندت أمور الدولة إلى المنصور بن أبي عامر الذي عدا ساعدها الأيمن ، ولكنه أصبح بعد قليل الحاكم المطلق للدولة الإسلامية في الأندلس كما تقدم (٥) .

### (م) الأمراء :

وكان كثير من الخلفاء من أمهات أولاد : فكانت شجاع أم المتوكل خوارزمية ، والسيدة أم

(١) يحيى بن سعيد : صلة تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٤٤ - ١٤٥

(٢) المقرئ : خطط ج ١ ص ٤١٥

راجع كتاب « القاطيون في مصر » للدؤاب ص ٢٤٤ ، ٢٤٧

(٣) فتح الطيب ج ١ ص ١٦٤ - ١٦٥ . (٤) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٥ .

(٥) انظر هذا الكتاب ص ٣٠١ - ٣٠٢ .

المقتدر رومية ، وكذلك كانت أم المستكفي ، وكانت أم المطيع صقلبية (١)

وقد لعبت الإمام دوراً هاماً في تاريخ الدولة العباسية في هذا العصر ، كما يتبين ذلك من هذه الرسالة الممتعة التي كتبها الشيخ أبو الحسن المختار بن الحسن بن عدون البغدادي المتطبب ، وذكر أنواع الجوارى (٢) في البلاد الإسلامية ننقل بعضها عن كتاب آدم متر (٣) حيث يقول :

وفالهنديات لهن حسن القوام وسمره الألوان وحظ وافر من الجمال ، مع صفرة وشفاء بشرة وطيب نكهة ولين نعمة ؛ لكن الشيخوخة تسرع إليهن . . . وهن يصلحن للولد ، ورجالهن لحسن النفوس والأموال وعمل الصنائع الدقيقة ، غير أن النزلات تسرع إليهن . . . والقندهاريات في معنى الهندييات ، ولهن فضيلة على كل النساء ، فإن الثيب منهن تعود كالسكر . والسندييات يشفردن بدقة الخصور وطول الشعور ، والمدنييات سمر الألوان معتدلات القوام ، قد اجتمع فيهن حلوة القول ونعمة الجسم ، وملاحة دل وحسن شكل وبشر ، لا غيرة فيهن على الرجال ، قنوعات بالقليل ، لا يفضن ولا يصخبن ويصلحن للقيان . . . والمكيات خنثات مؤنثات ليئات الأرساغ ، ألوانهن البياض المشرب بسمره ، قدودهن حسنة ، وأجسامهن ملتفة ، وثغورهن نقيه باردة ، وشعورهن جعدة ، وعيونهن مراض (٤) فاترة ؛ والطائفيات سمر مذهبات مجدولات ، أخف خلق الله أرواحا ، وأحسنهن فكاهة ومزاحا ؛ لسن بأمهات أولاد ، يكسلن في الحمل ويهلكن عند الولادة . . . والبربريات مطبوعات على الطاعة نشيطات للخدمة ، ويصلحن للتوليد ، لأنهن أحذب شيء على ولد (٥) . ويقول أبو عثمان (الجاحظ) وهو من سمسرة هذا الشأن (٦) : إذا اجتمع للبربرية مع جودة الجنس أن تجلب وهي بنت تسع حجج ، ثم كانت بالمدينة ثلاث حجج ، ثم جاءت إلى العراق ابنة خمس عشرة ، فتأديت بالعراق ، جمعت إلى جودة الجنس شكل المدنيات وخنث المكيات وآداب العراقيات ، واستحقت أن تنجي (تجأ على الأصح) في الجفون وتوضع على العيون . والزنجيات مساوين كثيره ، وكلها زاد سوادهن قبحت صورتهم وتحدت أسنانهم ، وقل الانتفاع بهن ، وخيفت المضرة منهن . والغالب عليهن سوء الأخلاق وكثرة الهرب ، وليس في خلقهن الفهم ؛ والرقص والإيقاع فطرة لهن وطبع فيهن . ولعجومة ألفاظهن عدل بهن إلى الزمر والرقص . ويقال لو وقع الزنجي من السماء إلى الأرض ما وقع إلا بالإيقاع . وهم أنقى الناس ثغوراً لكثرة الريق ، وكثرة الريق لفساد الهضوم . وفيهن جلد على الكد ؛ فالزنجي إذا شبع فضب العذاب عليه صبا فإنه لا يتألم ، وليس فيهن متعة لصناتهن (٧) وخشونة أجسامهن . أما الحبشيات فالغالب عليهن نعمة الأجسام ولينها وضعفها ، يتعاهدن السل

(١) انظر كتاب النظم الإسلامية للدؤلف من ٣٧٠-٣٧١

(٢) وردت هذه الرسالة في مخطوط رقم ٤٩٧٩ بمكتبة برلين ورقة ١٣٦ ب - ١١٣٧ ، ١١٤٥ -

١٥١ ب .

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ٢٧١-٢٧٤ .

(٤) ذابلة مكسورة وهو من جمال النساء . (٥) أحسن وأعطف على الأولاد

(٦) أي من الجبيرين به . (٧) تثن الريح .

والدق<sup>(١)</sup> ، ولا يصلح للغناء ولا للرقص ، دقاق لا يوافقن غير البلاد التي نشأ فيها . وفيهن خيرية وسلاسة انقياد ، يصلحن للاتمان على النفوس ، يخصنن قوة النفوس وضعف الأجسام ، كما يخص النوبة قوة الأجسام وضعف النفوس ؛ قصار الأعمار لسوء الهضم . والبجاويات مذهبات الألوان ، حسنات الوجوه ، ملس الأجسام ، ناعمات البشرة ، جوارى متعة . إن جلبيت الواحدة صغيرة وسملت من أن يشكّل بها — لأنهن يُقورن ويمسح بالموسى أعلى فروجهن حتى يبدوا العظم — فيصرن شهرة من الشهر<sup>(٢)</sup> . والشجاعة والسرقة في رجال البجة طبع وغريزة ؛ ولهذا لا يؤمنون على مال ولا يصلحون أن يكونوا خزانا . والنويات من جملة أجناس السودان ، ذوات ترف ولطف ، وأبدانهن يابسة مع لين بشرة . وهواء مصر يوافقن ، لأن ماء النيل شرهن في بلادهن . وإذا انتقلن عن غير مصر تسلطت عليهن العلل الدموية والأمراض الحادة . والتركيبات قد جمعن الحسن والبياض والنعمة ، وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة وقدودهن ما بين الربع والتقصير ، والطول فيهن قليل . وهن كهنوز الأولاد ومعادن النسل ، قل ما يتفق في أولادهن وحش ولا ردى التركيب . والروميات بيض شقر ، سباط الشعور<sup>(٣)</sup> ، زرق العيون ، عبيد طاعة وموافقة وخدمة ومناخحة ووفاء وأمانة ، يصلحن للخزن ، لضبطهن وقلة سماحتهن<sup>(٤)</sup> ، ولا يخلو أن يكن بألفن صنائع دقيقة . أما الأرمنيات فالملاححة للأرمن لولا ما خصوا به من وحشة الأرجل مع صحة بنية وشدة أسر<sup>(٥)</sup> . والعفة فيهن قليلة أو مفقودة ، والسرقة فيهن فاشية ؛ وقل ما يوجد فيهن بخل ، وفيهن غلظ طبع ولفظ ، وليست النظافة في لغتهن . وهن عبيد كد وخدمة ، متى تركت العبد ساعة بغير شغل ، لم يدعه خاطرهم إلى خير ، لا يصلحون إلا على العصا والخافة ، والواحد منهم إذا رأته كسلان فليس ذلك عن عجز قوة ، بل دونك والعصا . وكن مع ضربه وانقياده لما تريده على حذر ، فإن هذا الجنس غير مأمون عند الرضا فضلا عن الغضب ، ونساؤهم لا يصلحن لمتعة . وجملة الأمر أن الأرمن أشرا البيضان ، كما أن الزنج أشرا السودان ، وما أشبه بعضهم ببعض في قوة الأجساد وكثرة الفساد وغلظ الأكباد . وقد أمدنا الجاحظ في كتابه « المحاسن والأضداد<sup>(٦)</sup> » ، بوثيقة أخرى تبين محاسن ومساوىء

التزوج من الإمام فقال عند كلامه على محاسن الجوارى :

« قيل ... كان يقال : من أراد قلة المؤونة وخفة النفقة وحسن الخدمة وارتفاع الحشمة ، فعليه بالإمام دون الحرائر . وكان مسلبة بن مسلبة يقول : عجبت لمن استمتع بالسرارى كيف يتزوج المهائر ، وقال : السرور باتخاذ السرارى ، وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ الإمام أمهات أولادهم ، حتى نشأ فيهم على بن الحسين بن على رضى الله عنهم ، وفاق أهل المدينة فقها وعلماء وورعا ، فرغب الناس في اتخاذ السرارى ، قال : وليس من خلفاء نبي العباس من أبناء الحرائر إلا ثلاثة : السفاح والمنصور<sup>(٩)</sup> »

(١) الهزال . (٢) أى شناعة من الشناعات في القبح

(٣) الشعر السبط هو الطويل المستقرسل الناعم ، وهو ضد الجعد .

(٤) أى لحسن محافظتهن على ما تحت أيديهن وعدم تفریطهن في شىء . (٥) قوة البدن .

(٦) طبعة مصر سنة ١٣٢٤ هـ ص ٢٥٣ — ٢٥٤ .

والأمين ، والباقون كلهم أبناء الجوارى ، وقد علق الجوارى لأنهن يجمعن بين عز العرب ودهاء العجم . وقال عند كلامه على مساوىء الجوارى :

إذا لم يكن في منزل المزم حُرَّة رأى خيلاً فيما تولى الولائد

فلا يتخذ منهن حر قعيدة فمن لعن الله شر القعائد

وكان يقال : الجوارى كخبز السوق والحرائر كخبز الدور ، ومن أمثال العرب : لا تمازح أمة ولا تبتك على أكمة .

## ٧ - الأعياد والمواسم والمواكب والحفلات :

### (١) الأعياد والمواسم :

عنى المسلمون منذ عهد بعيد بالاحتفال بالعيدين فى شىء كثير من الأبهة والعظمة . وكانوا يحتفلون برمضان احتفالاً شائقاً ، ويتخذون غرة رمضان من مواسمهم الدينية ؛ كما كانوا يحتفلون بالعيدين احتفالاً دينياً ، فيؤم خلفاء المسلمين الناس فى الصلاة ويلقون عليهم خطبة فى فضائل العيد وما يجب على المسلمين مراعاته للحفاظ على شعائر الإسلام . ولا عجب فقد كانت مظاهر الإسلام تجلى فى الاحتفال بالعيدين فى البلاد الإسلامية ، وخاصة فى بغداد وبيت المقدس ودمشق والقاهرة . وكان الاحتفال بعيد الفطر يبلغ منتهى الروعة والأبهة فى البلاد التى يكون فيها الشعور الإسلامى قوياً ، مثل طرسوس ، حيث كان يتوافد إليها غزاة المسلمين من أنحاء البلاد الإسلامية ، وترد إليها تبرعات أهل البر من المسلمين الذين لا يستطيعون الخروج للغزو بأنفسهم . وقد قيل : « ليس من مدينة عظيمة من حد سجستان وكرمان إلى مصر والمغرب ، إلا بطرسوس لأهلها دار ينزل بها غزاة تلك البلدة ويرابطون بها إذا وردوها ، وتكثر لديهم الصلوات وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة » . ولا يخفى ما كان هنالك من أثر واضح فى ظهور الأبهة الإسلامية بأجلى مظاهرها فى الاحتفال بالأعياد بطرسوس ، حتى أصبح عيد الفطر والأضحى فى تلك المدينة من محاسن الإسلام ، لتظهر قوة المسلمين أمام أعدائهم من الروم فى الثغور .

وكانت المدن الإسلامية ، خصوصاً بغداد فى عهد العباسيين ، والقاهرة فى عهد الفاطميين ، تسطع فى أرجائها الأنوار لىالى العيد ، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتكبير والتهليل ، وتردحم الأنهار بالزوارق المزينة بأبهى الزينات ، وتسطع من جوانبها أنوار القناديل ، وتتألا الأنوار الخاطفة للأبصار من قصور الخلافة . وقد لبست الجماهير فى بغداد وغيرها من المدن الإسلامية الطيالة السود تشبها بالخلفاء العباسيين الذين اتخذوا السود شعاراً لهم كما تقدم . وكان بعضهم يتخذ بدل العمام فلانس طويلة مصنوعة من القصب والورق مجللة بالسواد ، ويلبسون بدل الدروع دراعات كتب عليها ( فسيفكفكم الله وهو السميع العليم <sup>(١)</sup> ) .

ولم يقتصر احتفال الخلفاء العباسيين على العيدين ، بل شمل الأعياد الفارسية القديمة : كالتيروز

والمهرجان والرام التي أصبحت في العصر العباسي من أهم أعيادهم الرسمية .  
وكانت تتجلى عظمة الخلفاء العباسيين وأهبتهم في الاحتفال بالعيد، واتجهت سياستهم إلى اجتذاب الشعب على اختلاف طبقاته بالعطايا والأرزاق والهبات والأسمطة التي كانوا يمدونها في الأعياد والمواسم ، وخاصة في أول العام الهجري ، وفي مولد النبي صلى الله عليه وسلم، ومولد الخليفة الجالس على العرش ، وفي غرة رمضان ، وفي أيام النيروز والمهرجان والرام ؛ كما عنوا بالاحتفال بعيدى الفطر والأضحى احتفالاً رائعاً .

وكان للعيدين عند المسلمين ، ولا يزال ، روعة تتجلى في قصائد الشعراء . من ذلك هذه القصيدة التي نظمها أبو إسحق الصابي يهني فيها عضد الدولة ومنها :

يا ماجدا يده بالجود مفطرة      وفوه من كل هجر صائم أبدا  
أسعد بصومك إذ قضيت واجبه      نسكا ووفيته من شهره العدا  
واسحب بذنا العيد أذبالا مجددة      واستقبل العيش في إفطاره رغدا  
وانعم بيومك من ماض قررت به      عيننا ومنتظر بفضي إليك غدا  
وفز بعمرك ممدودا وملكك مو      طودا ونل منهما الحد الذي بعدا (١)

ومن ذلك ما كتبه إلى صمصام الدولة يهنئه بعيد الأضحى :

أسعد بفطر مضى وأضحى      وافاك باليمن والنجاح  
وانحر أعادى نبي بويه      بالسيف في جملة الأضاحي  
فالكل منهم ذوو قرون      يصلح للذبح والنطاح (٢)

وكان الخلفاء عامة والفاطميون خاصة يحتفلون بعيد الفطر ، الذي كانوا يتبركون به وتعم خيراتهم الناس فيه . فمن هذه الخيرات تفرقة الفطرة ، والكسوة ، وعمل السباط ، وركوب الخليفة أصلاة العيد . وكان هؤلاء الخلفاء يهتمون بالاحتفال بعيد الفطر في العشر الأخير من شهر رمضان ، واتخذ الفاطميون في القصر باباً أطلقوا عليه « باب العيد » ، لأن الخليفة كان يخرج منه في يوم العيد إلى المصلى شرق القصر الكبير في الفضاء الذي تشغله الآن قرافة باب النصر وراء حي الحسينية . فإذا كان اليوم الأول من شوال ، سار صاحب بيت المال إلى المصلى ، وفرش الطراحت بمحاربه ، وعلق سترين يمتة ويسرة : في الأيمن الفاتحة ، وهل أتاك حديث العاشية (٣) ، ويركز في جانبي المصلى لواءين مشدودين على رحين ملبسين بأنايب الفضة ، وهما منشوران مرخيان . ويوضع على ذروة المتبر طراحة من شاميات أو ديبقي ، ويفرش باقيه بستر من بياض ، على مقداره في تقاطيع درجه مضبوطة لاتغير بالمشى وغيره . ويجعل في أعلاه لواءان مرقومان بالذهب يمتة ويسرة . ثم يسير الوزير من داره إلى قصر الخليفة على عادته في صلاة أول رمضان واجمع الثلاث الأخيرة منه ، ويركب الخليفة

(١) النعالي : بتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٥٢ . (٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٥٥ .

(٣) سورة العاشية آية رقم ١ .

هيئة المواكب العظيمة في أول العام . ويكون لباسه في هذا اليوم الثياب البيض الموشحة . ويخرج من باب العيد على عادته في ركوب المواكب ، إلا أن العساكر في هذا اليوم من الأمراء والركبان والمشاة تكون أكثر من غيره . وينتظم القوم له صفين من باب القصر إلى المصلى ، فيدخل من شرقها إلى مكان يستريح فيه قليلا . ثم يخرج محفواً بحاشيته ، فيسير إلى المحراب ، والوزير والقاضي ووراءه ، فيصلي صلاة العيد بالتكبيرات المسنونة ، ويقرأ في الركعة الأولى ماني الستر الذي على يمينه ، وفي الثانية ماني الستر الذي على يساره . فإذا فرغ وسلم صعد المنبر لخطابة العيد ، فإذا انتهى إلى ذروة المنبر جلس على تلك الطراحة بحيث يراه الناس ، ووقف أسفل المنبر الوزير وقاضي القضاة وصاحب الباب وأسفهلار<sup>(١)</sup> ، وصاحب السيف ، وصاحب الرسالة ، وزمام القصر ، وصاحب دفتر المجلس ، وصاحب المظلة ، وزمام الأشراف الأقارب ، وصاحب بيت المال ، وحامل الرح ، ونقيب الأشراف الطالبين<sup>(٢)</sup> ، ووجه الوزير موازيا لرجليه ، فيقبلهما بحيث يراه الناس ، ثم يقوم فيقف على يمينه الخليفة . فإذا وقف أشار إلى قاضي القضاة بالصعود ، فيصعد إلى سبع درجة ، ثم يتطلع إليه منتظرا ما يقول ، فيشير إليه ، فيخرج من كه درجا قد أحضر إليه في أمسه من ديوان الإنشاء بعد عرضه على الخليفة والوزير ، فيعلن بقراءة مضمونة ويقول بعد البسملة : « شرف بصعود هذا المنبر الشريف في يوم كذا ، وهو عيد الفطر من سنة كذا ، من عبد أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين ، بعد صعود السيد الأجل (وهنا يذكر نعوت الوزير المقررة والدعاء له) . ثم يذكر من يشرفه الخليفة بصعود المنبر من أولاد الوزير ، ثم يذكر القاضي ، ولكنه يكون هو القاري للثب ، فلا يسعه ذكر نعوته فيقول : المملوك فلان بن فلان ونحو ذلك ، ثم الواقفين على باب المنبر بنعوتهم واحدا واحدا . وكلما ذكر واحدا استدعاه ، وطلع المنبر كل منهم يعرف مقامه في المنبر يمينه ويسرة . فإذا لم يبق أحد ممن أطلع إلى المنبر ، أشار الوزير إليهم ، فأخذ كل من هو في جانب يده نصيباً من اللواء الذي بجانبه ، فيستر الخليفة ويسترون ، وينادي في الناس بالإنصات ، فيخطب الخليفة خطبة بليغة مناسبة لذلك المقام ، يقرؤها من السقف الذي يحضر إليه مسطراً من ديوان الإنشاء كما في جمع رمضان . فإذا فرغ من الخطبة ، ألقى كل من في يده شيء من اللواء خارج المنبر ، فيتكشفون وينزلون القهقري أولاً بأول الأقرب فالأقرب . فإذا خلا المنبر للخليفة ، هبط ودخل المكان الذي خرج منه ، فيلبث قليلا ، ثم يركب في هيئته التي أتى فيها إلى المصلى ويعود في طريقه التي أتى منها . فإذا قرب من القصر تقدمه الوزير على العادة ، ثم يدخل من باب العيد الذي خرج منه ، فيجلس في الشباك الذي في الإيوان الكبير ، وقد مد منه سباط العيد على ما تقدم<sup>(٣)</sup> .

وكذلك اهتم العباسيون بالتوروز في أول العام ، والمهرجان في آخره ، كما كانوا يحتفلون بسائر

(١) ورد في القلشندي ( ج ٣ ص ٤٨٣ ) أن صاحب الاسفهلارية يتولى أمر الجند ، وفي خدمته وصاحب الباب يقف الحجاب على اختلاف طبقاتهم .

(٢) راجع مذكره القلشندي ( ج ٣ ص ٤٨٢ - ٤٨٩ ) من أصعاب هذه الوظائف .

(٣) القلشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥١٢ - ٥١٤ .



الأعياد الفارسية القديمة التي أصبحت في العصر العباسي من أهم أعياد المسلمين الرسمية . وقد جعل العباسيون النوروز عيداً قومياً يتهادون فيه ، ويقيمون الولائم والحفلات ؛ كما اتخذوا من النوروز موعداً لجمع الخراج . ونقرأ في هذا العصر كثيراً عن النوروز من حيث صلته بجمع الخراج . فقد كان الخليفة المتوكل أول من اهتم بتأخير موعد النوروز حتى يتمشى ذلك مع مصلحة الزارعين ، ولكن ابنه المنتصر أعاد ميعاد الخراج إلى ما كان عليه من قبل . ثم جاء الخليفة المعتضد فقدم ميعاد الخراج عما كان عليه في عهد المتوكل بستة عشر يوماً ، فأصبح في ٢٠ يونية من كل سنة على ما تقدم .<sup>(١)</sup> ويظهر أن موعد الخراج شغل عمال الخراج ، فحاولوا أن يجمعوه في مواعده الأول الذي يعبر عنه بالنوروز الأول . ويقول الصولي<sup>(٢)</sup> إن أحد عمال الخراج بدأ يطالب الناس بأداء الخراج قبل الموعد الذي تحدد في عهد المعتضد ، ولكن بحكم أمر بتأخير الافتتاح إلى النوروز المعتضدي .

وكما كان الشعراء يهتمون بنظم قصائدهم في عيدي الفطر والأضحى ، اهتموا كذلك بعيدى النوروز والمهرجان . فقرأ أبو إسحق الصافي يبعث إلى عضد الدولة بهذه الأبيات يهنئه فيها بعيد النوروز :

تهن بهذا اليوم واحظ بخيره      وكن أبدأ بالعود منه على حد  
أرى الناس يهدون الهدايا نفيسة      إليك ولم يترك لي الدهر ما أهدي  
سوى سكر يحلو لك العيش مثله .      وآس (٣) أخى عمر كعمرك تمتد  
وبينهما من ضرب قومك درهم      وأبيات شعر من ثنائى ومن حمدى  
فإن كنت ترضى ما به انبسطت يدى      وتقبله منى فهذا الذى عندى (٤)

ولمصر منذ القدم نوروز خاص يسمى النوروز القبطى ، وهو أول السنة القبطية . وفي مستهل توت توفد النيران في ليلة النوروز ويرش الماء في يومه ، وتفترق الكسوة على رجال الدولة وعلى أولادهم ونسائهم ، وتوزع الرسوم التي جرت العادة بتوزيعها عليهم ، كما يتبادلون الهدايا في هذا اليوم . واستمر الاحتفال بالنوروز في العهد الإسلامى إلى أن فتح الفاطميون مصر ، فاهتموا بالاحتفال بالنوروز ، وه زاد اللعب بالماء ، ووقود النيران . وطاف أهل الأسواق ، وعملوا فيلة ، وخرجوا إلى القاهرة بلعبهم ، ولعبوا ثلاثة أيام ، وأظهروا الساجات والحلى في الأسواق . ثم أمر المعز بالنداء بالكف ، وأن لا توقد نار ولا يصب ماء . وأخذ قوم فحسبوا ، وأخذ قوم فظيف بهم على الجمال .<sup>(٥)</sup>

وكذلك احتفل العباسيون بالمهرجان ، وكانوا يتهادون فيه بالهدايا الكثيرة كهدايا النوروز ،

(١) انظر ص ٤٨٠ من هذا الكتاب ، وكتاب « الفاطميون في مصر » للمؤلف ص ٢٨٥ ، ومسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٥ ، ٢٤٨ ، ٤٠٧ ، ٤٠٧ ، ٤٠٧ حاشية رقم ١ ، ياقوت : لإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ج ٢ ص ١٢٨ .

(٢) أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ١٩٧ (٣) الآس نوع من الرياحين .

(٤) الثعالي : بئزيمه الدهر ج ٢ ص ٢٥٧ .

(٥) القرزى : خطط ج ١ ص ٤٩٣ . انظر كتاب « الفاطميون في مصر » للمؤلف ص ٢٥٦ .

ومنها السكر . يقول أبو الحسن العروصي مؤدب الخليفة الراضي : « اجتزت في يوم مهرجان بدجلة  
بدار بحكم التركي ، فرأيت من الهرج والملاهي واللعب والفرح والسرور ما لم أر مثله » .

وكتب أبو إسحق الصافي إلى عضد الدولة يهنئه بالمهرجان في قصيدة نفتطف منها هذه الأبيات :

وقل مرحباً بالمهرجان وحيه بطلمة بسام أغر بجيد  
له زورة في العام مازال يوماً كفيلاً محظي سيد ومسود  
فيحظي بفخر من علاك مجد وتخطي بعمر في مداه مسديد  
أتك الهدايا فيه بين مؤقتر على قدر المهدي وبين زهيد<sup>(١)</sup>

وفي عهد الفاطميين في مصر كانت هناك عدا مواكب الخلفاء أيام السبت والثلاثاء ، وأيام الجمع  
ويومى العيدين ، أيام دينية أخرى . وفيما يلي أسماء الأعياد والمواسم التي كان يحتفل بها الفاطميون  
وهي : رأس السنة ، أول العام ، يوم عاشوراء وهو يوم مقتل الحسين بن علي ( ١٠ المحرم ) ، مولد  
النبي صلى الله عليه وسلم ( ١٢ ربيع الأول ) ، مولد علي بن أبي طالب ، مولد الحسن ، مولد الحسين ،  
مولد فاطمة ، مولد الخليفة القائم بالأمر ، ليلة أول رجب ، ليلة نصف رجب ، ليلة أول شعبان ،  
ليلة نصف شعبان<sup>(٢)</sup> ، غرة رمضان ، جبر الخليج ، يوم النوروز ، يوم الفطاس<sup>(٣)</sup> ، يوم الميلاد ،  
عيد النصر<sup>(٤)</sup> ، خميس العهد<sup>(٥)</sup> .

### (ب) المواكب :

رأينا أن مواكب الخلفاء العباسيين كانت أكثر روعة وبهاء من مواكب الأمويين ، وخاصة  
في أيام الجمع ، وفي مواكب الحج التي تشبه في مصر الاحتفال بسفر المحمل إلى الحجاز وعودته  
منها<sup>(٦)</sup> .

وقد وصف مسكويه<sup>(٧)</sup> موكب الخليفة الطائع ( ٣٦٣ - ٣٨١ هـ ) لتقديم العزاء بوفاة شرف

(١) السمودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٥٢٩ .

يريد : كانت الهدايا نوعين : نفيسة غالية ورخيصة زهيدة ، وكل على قدر من أهداها لا على قدر

المهدي إليه . الثعالبي : بتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٥٦ .

(٢) كانت هذه الليالي الأربع الأخيرة تسمى ليالي الوقود ؛ وكان الناس يصومون في هذه الأيام الأربعة  
كصومهم رمضان ، فسكانوا يحتفلون بها كما يحتفلون بربضان . واستمر الاحتفال بهذه الأيام إلى يومنا هذا .

(٣) كان المصريون منذ عهد ببيد يحتفلون بليلة الفطاس . وقد وصف السمودي ( مروج الذهب ج ١ ص

٢١٢ - ٢١٣ ) هذا الاحتفال في عهد الاخشيد .

(٤) كان يقع يوم ١٦ من المحرم ، وهو اليوم الذي أطلق فيه الخليفة الحافظ الذي حبسه الوزير أبو علي بن

الأفضل بن بدر الجمالي .

(٥) هو الخميس الذي يحتفل فيه النصارى بانجيلهم ، وذلك قبل الفصح بثلاثة أيام ، وهو من الأعياد التي

بقيت في العهد الفاطمي مشاركة للصارى في شعورهم . وأهل القاهرة يسمون ذلك اليوم خميس العدى خطأ .

راجع ما ذكره المقرئ ( خطط ج ١ ص ٤٩٠ - ٤٩٤ ) عن هذه الأعياد والمواسم .

(٦) أنظر ما ذكرناه عن هذه الاحتفالات في الجزء الثاني من هذا الكتاب ص ٢١٨ - ٢٢٠ .

(٧) تجارب الأمم ج ٣ ص ١٥٢ - ١٥٣ .

الدولة البويهية في سنة ٣٧٩ هـ فقال : وقدم الطيار على باب الدرجة ، وفرش سطحه بديقي ، وعليه مقرمة<sup>(١)</sup> ديباج حمراء منقوشة ، و ( فرش ) وسطه بديباج أصفر ، وعليه مقرمة ديقية . ووقف الغلمان الأتراك الأصغر بالسيوف والمناطق في دائر المجلس الأوسط ، ووافى حجاب شرف الدولة الأتراك والمولدون في الزبازب بالثياب السود والسيوف والمناطق . وكل منهم قائم في زبزه . واجتمع من السفن التي فيها العامة عدة كثيرة . وخرج الطائع لله من داره ، وتحت فرس صناني<sup>(٢)</sup> بمركب خفيف وسرج مغري<sup>(٣)</sup> أحمر ، وعليه قباء<sup>(٤)</sup> ملحم<sup>(٥)</sup> أسود وعمامة خز سوداء على رصافية<sup>(٦)</sup> ، وهو متقلد بسيف . وبين يديه خمسة أفراس<sup>(٧)</sup> فوق سروجها جلال الديباج<sup>(٨)</sup> . ونزل إلى الطيار<sup>(٩)</sup> ، جلس في المجلس الأوسط على المقرمة في الدست<sup>(١٠)</sup> على خلاف عادة الخلفاء ، فإنهم كانوا يجلسون على سطح حرافة ، وبين يديه مجلس طيار . وقيل إنه فعل ذلك ، لأنه كان في عقيب علة ، وأراد أن يخني ما بوجهه من آثارها .

فوقف بين يديه أبو الحسن علي بن عبد العزيز كاتبه ، ودجى خادمه ، والعباس حاجبه ؛ وسار الطيار إلى دار المملكة بالمحرم . فنزل الأمير أبو نصر متشجاً بكساء طبرى ، والديلم والأتراك بين يديه وحواليه إلى المشرعة<sup>(١١)</sup> التي قدم إليها الطيار ، وقبل الأرض وصعد أبو الحسن بن عبد العزيز إلى الأمير أبي نصر ، فأدى إليه رسالة عنه بالتعزية ، فقبل الأرض ثانياً ودعا وشكر . وعاد أبو الحسن إلى حضرة الطائع ، وأعلمه شكره ودعاه ، وعاود الصعود إلى الأمير أبي نصر لوداعه عن الطائع ، فأعلمه شكره ودعاه ، فقبل الأرض ثالثاً ، وانحدر الطيار على مثل ما أصدع ، وعاد الأمير أبو نصر إلى داره .

ثم ركب الأمير أبو نصر بعد خمسة أيام إلى حضرة الطائع لله ، فخلع عليه الخلع السلطانية ، ولقبه بهاء الدولة وضياء الملة ، وقرى عهده بين يديه بالتقليد ، وقدم إليه فرس بمركب ذهب ، وقيد بين يديه آخر بمثل مركبه وسار ، وسار العسكر حواليه إلى باب الشامية في القباب المنصوبة ، ونزل إلى الطيار وانحدر إلى دار المملكة .

## ٢ - في مصر :

كانت أعمال خمارويه بن أحمد بن طولون تدل على حبه للظهور ؛ وكان شخصه محاطاً بمظاهر العظمة والآية إذا خرج للصيد أو التنزه أو الاحتفال بعيد من أعياد الدولة . وكان موكب هذا الأمير حافلاً ،

(١) المقرمة ثوب ملون فيه رقم ونقوش ويوضع فوق الفرش .

(٢) الصناب بوزن كتاب الطويل الظهر والبطن .

(٣) منسوب إلى المقرمة ( بضم الميم ) وهي لون ليس بناصع الحمرة .

(٤) قفطان (٥) محشو بقطن أو صوف . (٦) أي على كفة (قلندوة) مصنوعة للرصافة

(٧) في الأصل أرؤس وهو تحريف (٨) الجلال جمع جل بالضم وبالفتح ما تلبسه الدابة لصان به

(٩) الطيار ضرب من السفن سريع (١٠) الدست صدر المجلس .

(١١) المشرعة مدخل الماء إلى دار الملك .

يزيده هيبة أولاد الحوف<sup>(١)</sup> وشناترة الضياع ، وكانوا من قطاع الطرق ضخام الأجسام ، عرفوا بالشجاعة والبأس . فأدخلهم خمارويه في خدمته وأدر عليهم الأرزاق والعطايا ، ومنع عن الناس أذاهم ، واتخذهم حرساً له . وكانوا يلبسون الأقبية وجواشن الديباج ، ويتمنطقون بالمناطق العريضة الثقيلة ، ويتقلدون بالسيوف المحلاة . ويسير خلفهم طوائف العسكر المختلفة يتلوهم ألف من السودان ، لهم درق<sup>(٢)</sup> من حديد محكم الصنعة ، وعليهم الأقبية والعمامة السود ، فيخالهم الناظر بحرا أسود لسواد ألوانهم وسواد ثيابهم . ويزيدهم بهاء بريق درقهم ووهج سيوفهم والبيض<sup>(٣)</sup> التي تلمع على رموسهم من تحت العمامة . فإذا مضى السودانيون قدم خمارويه ، وسار منفرداً عن موكبه بمقدار نصف غلوة<sup>(٤)</sup> سهم . ويحفظ به حرسه المختار ، وهو ممتط فرساً ، فإذا سار ، سار الناس جميعاً وبينهم الجنود في صمت عميق كأن على رموسهم الطير<sup>(٥)</sup>

وفي الاحتفال بصلاة الجمعة في عهد الفاطميين ما يدلنا على العظمة التي كانت تحيط بالخلفاء الفاطميين ، ويربنا الكرم الذي مكنتهم من اجتذاب كثيرين من الأنصار إليهم .

كان الخلفاء الفاطميون يركبون في الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان إلى جوامع الحاكم والأزهر وعمرو على التوالي لصلاة الجمعة . ويشرف صاحب بيت المال في صبيحة كل يوم من هذه الأيام الثلاثة على تأنيث المسجد الذي يصلى فيه الخليفة صلاة الجمعة . فكانت توضع في المقصورة ثلاث طنافس ديقية أو سامانية بيضاء ، بعضها فوق بعض ، وتوضع فوق الجميع الحصيرة التي يقال إنها كانت لجعفر الصادق ، وأحضرت إلى مصر في عهد الحاكم سنة ٤٠٠ هـ . وكان ينصب على جانب المنبر ستران ، يكتب على الأيمن البسملة والفاحة وسورة الجمعة<sup>(٦)</sup> ، وعلى الأيسر البسملة والفاحة وسورة المنافقين<sup>(٧)</sup> .

وقبل وصول الخليفة بقليل يقف قاضي القضاة حاملاً مبخرة ، فيبخر المنبر والقبة التي كان الخليفة يقف تحتها وقت إلقاء الخطبة . أما الخطبة فقد كان يضعها أحد الكتاب في ديوان الإنشاء . وكان الخليفة يرتدى في هذا اليوم ثوباً من الحرير الأبيض ، ويتعمم بعمامة من الحرير الأبيض الرقيق ، ويحمل قضيب الملك بيده ، ويحفظ به عدد كبير من حرسه الخاص ، ومن الجنود الأخرى والأشراف . ويتبع هؤلاء جم غفير من الناس . وكان الخليفة يركب بين قرع الطبول ورنين الصنوج وقرارة القرآن بنغمات مشجية حتى يصل إلى قاعة الخطابة ، وهي قاعة استقباله الخاصة ، ويحرسها قائد

(١) الحوف بمصر حوفان : الشرقي والغربي ، أول الشرقي من جهة الشام ، وآخر الغربي قرب دياط ؛ يشتملان على بلدان وقرى كثيرة ، وامله يريد بذلك عرب الحوف .  
(٢) معربة عن لفظ فارسي هو درجيسة ، وهي درع يضاوي الشكل غالباً ، وفي وسطه تنوءات ، وله مقبض في ظاهره . ويتراوح طوله بين قدم ونصف وقد بين . وتصنع الأرقعة غالباً من جلد فرس البحر وغيره من الحيوانات ذات الجلود السمكية ، وأحياناً من جلد التماسح .

أنظر Lane: Arabic - English Lexicon ، الفاطميون في مصر للوولفس ٢٤٧ (٢)

(٣) جمع بيضة وهي الخوذة الحديدية .

(٤) الغلوة رمية السهم (٥) المفريزي : خطط ج ١ ص ٣١٨

(٦) سورة رقم ٦٢ (٢) سورة رقم ٦٣

القواد وكبير الأبناء ونخبة من حرس الخليفة ، ويظل في هذه القاعة حتى ينتهى الأذان . وقد ذكر ابن ميسر (١) أن الخليفة المعز كان يحيط به في موكب صلاة الجمعة جنده وأولاده الأربعة ، بمنطين الخيل ، وعليهم الخوذات والدروع ، وفيلان .

حينئذ يدخل قاضى القضاة ويقول : السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى ورحمة الله وبركاته ، الصلاة يرحمك الله ! فيخرج الخليفة وحوله الأستاذون المحنكون ، ويتبعه وزيره وجماعة من حرسه مدججين بالسلاح ، فينتشرون بين قاعة الخطابة والمنبر . أما الخليفة فيستمر في سيره حتى يأخذ مكانه تحت قبة المنبر . ويقف الوزير على باب المنبر ووجهه للخليفة ؛ فإذا أوما إليه ، صعد فقبل يدي مولاة ورجليه وزرر الستين عليه ، وبذلك يكون المنبر والقبة كالمهودج . ثم ينزل الوزير وينتظر على باب المنبر . وقد ذكر المقرئ (٢) أن السبب في زر الستور يرجع إلى أن الخلفاء الفاطميين لم يكونوا كسائر الخطباء يرتجلون الخطبة ، بل كانت تعد لهذا الغرض خاصة في ديوان الإنشاء ؛ كما كان سبب كتابة آيات من القرآن بخيوط حريرية حمراء ظاهرة على ستريين بوضعان على جانبي الخليفة ، أحدهما على يمينه ليقرا ما فيه في الركعة الأولى ، والآخر على يساره ليقرا ما فيه كذلك في الركعة الثانية ، هو حفظه من النسيان أو التعلثم وقت إقامة الصلاة .

وكان الخليفة يحتم خطبته بالدعاء للوزير ، وينصر الجيش وخذلان الكفار والمشركين . فإذا فرغ من خطبته قال : « اذكروا الله بذكركم » . ثم يصعد الوزير فيحل الستين ؛ ويظل هو وقاضى القضاة على الباب ، ويقوم الأستاذون المحنكون وكبار الموظفين العسكريين والمدنيين بحراسة المقصورة . بعد هذا يأخذ الخليفة في الصلاة ، فيبلغ الوزير عنه ، ثم قاضى القضاة ، ثم المؤذنون . فإذا انتهت الصلاة خلا المسجد من الناس ، وخرج الخليفة ، يحيط به الوزير عن يمينه ، وقاضى القضاة وداعى الدعاء عن يساره ، وحرسه الخاص ، ويعود بموكبه إلى مقره على الهيئة التى اتخذها في ذهابه إلى الجامع . وفى أيام الجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان ، كانت تزدان الدور والحوانيت والأسواق التى يمر بها الخليفة فى طريقه إلى الجامع — حيث يصلى الجمعة — كما يصطف كثير من الناس على جانبي الطريق .

وكان الاحتفال بوفاء النيل من أعظم الاحتفالات ، التى كانت تقام فى مصر فى العصر الفاطمى ، ولا يزال ذلك إلى اليوم . وقد ذكر ناصر خسرو (٣) ، الذى زار مصر فى عهد الخليفة المستنصر ، أنه كان يحتفل بوفاء النيل بحضور الخليفة ، وفى ركبه عشرة آلاف فارس ، يمتطون الخيول المطهمة الملجمة ، ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة ، المسكوة بديباج مطرز باسم الخليفة . وبلى هؤلاء صفوف من الجمال ، عليها هودج مزركشة تقودها طائفة من جنود الخليفة .

(١) تاريخ مصر ص ٤٤ . (٢) خطط ج ٢ ص ٢٨٠ — ٢٨٢ .

(٣) Safar Nameh, (ed. Charles Schefer), pp. 136 — 142.

حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٤٩ — ٢٥٠ .

أما الجند فكانت تسير في صفوف منتظمة ، فصيلة تلوفصيلة ، ميممين فم الخليج . والبربر من هؤلاء يسرون في عشرين ألفاً من أشداء قبيلة كتامة المغربية ، من سلالة جند المعز . وبلى هؤلاء خمسة عشر ألفاً من المغاربة ، ومن المصامدة (١) عشرون ألفاً . ويسير خلف هؤلاء وأولئك الأتراك والفرس في عشرة آلاف ، ويطلق عليهم اسم المشرقين ، ولو أن مسقط رأسهم هو مصر ، ويتبعهم من بدو الحجاز خمسة عشر ألفاً ، ومن السودان ثلاثون ألفاً ، وكان يطلق عليهم عبيد الشراء (٢) . وبلى هؤلاء عدد غير قليل من الأرقاء ورجال الحاشية ، والموظفين على اختلاف مراتبهم ، والشعراء والعلباء والأمراء من مراكش ، واليمن ، وبلاد النوبة ، والحبشة ، وآسيا الصغرى ، وجرجان ، وتركستان ، حتى الأمراء من أبناء سلطان دهلي ، وكانت أهمهم تقيم في القاهرة . ويتألف حرس الخليفة من ثلاثمائة من الدليم المشاة ، مرتدين الحلال السندية المصنوعة في بلاد الروم ، حاملين المعاول والمزاريق . ويسير إلى جانب الخليفة حامل المظلة ، ويحفظ بهما خصيان يطلقون البخور على جانبي الطريق . حتى إذا وصل إلى الفسطاط المقام عند فم الخليج ، ووقف الناس له إكباراً وإجلالاً ، قذف المزراق في سد النيل ؛ ومن ثم ينطلق الناس يعملون في هذا السدبمعاولهم فينساب الماء . وعندئذ يهرع الناس إلى زوارقهم فرحين جذلين ، يحملهم زورق يضم جماعة من الصم والبكم تيمناً وتفاؤلاً .

### ( ج ) الحفلات :

وكان الخلفاء والأمراء يهتمون اهتماماً بالغاً بإقامة الحفلات التي تتجلى فيها مظاهر الروعة والجلال . فقد أقام الخليفة العباسي المقتدر حفلة رائعة ، بمناسبة قدوم رسولي إمبراطور الروم بغداد في سنة ٥٣٠ هـ لطلب عقد الهدنة مع العباسيين . يقول ابن الأثير (٣) : « وصل رسولان من ملك الروم إلى المقتدر يطلبان المهادنة والهدنة ، فأكرما إكراماً كثيراً ، وأدخلا على الوزير وهو في أكمل أهبة . وقد صف الأجناد بالسلاح والزينة التامة ، وأديا الرسالة إليه . ثم إنهما دخلا على المقتدر وقد جلس لهما ؛ واصطف الأجناد بالسلاح والزينة التامة وأديا الرسالة ، فأجابهما المقتدر إلى ما طلب ملك الروم من الهدنة ، وسير مؤنسا الخادم ليحضر الهدنة ، وجعله أميراً على كل بلد يدخله يتصرف فيه على ما يريد إلى أن يخرج عنه ، وسير معه جمعا من الجنود ، وأطلق لهم أرزاقاً واسعة ، وأنفذ معه مائة ألف وعشرين ألف دينار لهدنة أسارى المسلمين » .

وقد وصف الخطيب البغدادي (٤) دار الشجرة التي استقبل فيها رسولاً إمبراطور الروم فقال : « فقرشت الدار بالفروش الجميلة ، وزينت بالآلات الجليلة ، ورتب الحجاب وخلفاؤهم والحواشي على طبقاتهم ، على أبوابها ودهاليزها وممراتها ومخترقاتها وصحونها ومجالسها . ووقف الجند صفين

(١) نسبة إلى مصوذة قبيلة كبيرة من البربر بشمال إفريقيا .

(٢) أي الأسارى الذين كانوا يشترون بالمال .

(٣) ج ٨ ص ٣٧ . (٤) تاريخ بغداد ج ١ ص ١٠٢ - ١٠٣ .

باليثاب الحسنة ، وتحتم الدواب بمراكب الذهب والفضة ، وبين أيديهم الجنائب<sup>(١)</sup> على مثل هذه الصورة . وقد وصف الخطيب أيضا شجرة الفضة التي وضعت في الدار المسماة باسمها فقال : وكانت شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم ، عليها أطيوار مصوغة من الفضة تصفر بحركات قد جعلت لها ، فكان تعجب الرسول من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهده . ويقول عن الشجرة أيضا : وفيها شجرة في وسط بركة كبيرة مدورة ، فيها ماء صاف . وللشجرة ثمانية عشر غصناً ، لكل غصن منها شاخات كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع ، مذهبة ومفضضة . وأكثر قضبان الشجرة فضة ، وبعضها مذهب . وهي تمايل في أوقات ، ولها ورق مختلف الألوان يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجرة . وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر . وفي جانب الدار يمينا البركة تمايل خمسة عشر فارسا على خمسة عشر فرسا قد ألبسوا الديباج وغيره ، وفي أيديهم مطارد على رماح يدورون على خط واحد . . . فيظن أن كل واحد منهم إلى صاحبه قاصد . وفي الجانب الأيسر مثل ذلك .

وقد وصف السيوطي<sup>(٢)</sup> هذا الاحتفال فقال : « وفي سنة ٣٠٥ هـ قدمت رسل ملك الروم بهدايا وطلبت عقد هدنة ، فعمل المقتدر موكبا عظيما ، فأقام العسكر وصفهم بالسلاح ؛ وهم مائة وستون ألفا ، من باب الشامسية إلى دار الخلافة ، وبعدهم الخدام وهم سبعة آلاف خادم ، ويلهم الحجاب وهم سبعمائة حاجب . وكانت الستور التي نصبت على حيطان دار الخلافة ثمانية وثلاثين ألف ستر من الديباج ، والبسط اثنين وعشرين ألفا ، وفي الحضرة مائة سبع في السلاسل إلى غير ذلك .  
أما شخص الخليفة المقتدر فقد وصفه صاحب تاريخ بغداد<sup>(٣)</sup> فقال : « ووصلوا إلى حضرة المقتدر بالله وهو جالس في التاج مما يلي دجلة ، بعد أن لبس باليئاب الديقية المطرزة بالذهب على سرير آبنوس قد فرش بالديقي المطرز بالذهب ، وعلى رأسه الطويلة ، ومن يمينه السرير تسعة عقود مثل السج معلقة ، ومن يسرته تسعة أخرى من ألخم الجواهر وأعظمها قيمة ، غالبية الضوء على ضوء النهار . وبين يديه خمسة من ولده ، ثلاثة يمينا واثان ميسرة . ومثل الرسول وترجمانه بين يدي المقتدر بالله فكفر له<sup>(٤)</sup> ؛ وقال الرسول لمؤنس الخادم ونصر القشوري - وكانا يترجمان عن المقتدر : لولا أني لا آمن أن يطالب صاحبكم بتقبييل البساط لقبته ، ولكنني فعلت مالا يطالب رسولكم بمثله ، لأن التكفير من رسم شريعتنا . ووقفا ساعة ؛ وكانا شاباً وشيخاً : فالشاب الرسول المتقدم ، والشيخ الترجمان . وقد كان ملك الروم عقد الأمر في الرسالة للشيخ متى حدث بالشاب حدث الموت . وناوله المقتدر بالله من يده جواب ملك الروم ، وكان ضخما كبيرا ، فتناوله وقبله إعظاماً له . »

وكذلك احتفل الحاكم الفاطمي باستقبال رسول إمبراطور الروم ، وذلك أنه لما اتصل به أنه في طريقه إلى القاهرة ، أمر بتزيين القصر ؛ فكان من بين الأكياس التي تحتوى على الحرير المشغول

(١) جمع جنبية وهي الدابة التي تسمى إلى جانب الدابة المركوبة لينقل عليها الراكب إذا تعبت دابته .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٥٣ (٣) ج ١ ص ١٠٤

(٤) الكفر تعظيم الفارس ملكة بالسجود له .

بالذهب كيس عليه رقم ٣٣١ . وقد نقل ذلك كله إلى الإيوان المعد لاستقبال الرسول وعلق على حوائطه ، فغدا الإيوان كله يتلألأ ببريق الذهب . وقد وضعت أمام الإيوان قطعة على هيئة درقة مرصعة بالأحجار الكريمة ، فكان لانعكاس أشعة الشمس عليها بريق يخطف الأبصار ويضيء ماحوالها . (١)

ويتجلى اهتمام الأمويين بالاندلس بإقامة الحفلات والتألق فيها ، من وصف استقبال الحكم المستنصر أردون ملك الجلائقة ، حين وفد على قرطبة في سنة ٣٥١ هـ واستنجد بالحكم على منافسه وان عمه شانجة ، فجاء به غالب الناصري وتلقاهم ابنا أفلح بالجيش المذكور ، فأنزلاهم ؛ ثم تحرك بهم ثاني يوم نزولهم إلى قرطبة . فأخرج المستنصر بالله إليهم هشام بن محمد بن عثمان المصحفي في جيش عظيم كامل التعيينة ، وقدموا إلى باب قرطبة ، فمروا بباب قصرها . فلما انتهى أردون إلى ما بين السدة وباب الجنان ، سأل عن مكان رمس الناصر لدين الله ، فأشير إلى ما يوازي موضعه من داخل القصر في الروضة ؛ فخلع قلنسوته ، وخضع نحو مكان القبر ودعا ، ثم رد قلنسوته إلى رأسه . وأمر المستنصر بإزالة أردون في دار الناعورة ، وقد كان تقدم في فرشها بأنواع الغطاء والوطاء . وانتهى من ذلك إلى الغاية ، وتوسع له في الكرامة والاحبابه ، فأقام بها الخميس والجمعة . فلما كان يوم السبت ، تقدم المستنصر بالله باستدعاء أردون ومن معه . بعد إقامة الترتيب وتعبئة الجيوش والاحتفال في ذلك من العدد والأسلحة والزينة . وقعد المستنصر بالله على سرير الملك في المجلس الشرقي من مجالس السطح ، وقعد الإخوة وبنوهم ، والوزراء ونظرائهم صفاً في المجلس ، فيهم القاضي منذر بن سعيد ، والحكام والفقهاء . فأتى محمد بن القاسم بن طملىس بالملك أردون وأصحابه ، وعلى لبوسه ثوب ديباجي رومي أبيض ، ولبيلوال من جنسه وفي لونه ، وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر . وقد حفته جماعة من وجوه الذمة بالاندلس ، يؤنسونه ويصرونه ، فيهم وليد بن حيزون قاضي النصارى بقرطبة ، وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة وغيرهما . فدخل بين صفى الترتيب ، يقبل الطرف في نظم الصفوف ، ويجميل النظر في كثرتها وتظاهرها (٢) أسلحتها ورائق حليتها ، فراعمهم ما أبصروه ، وصلبوا على وجوههم ، وتأملوا ناكسى رؤوسهم ، غاضين من جفونهم ، قد سكرت أبصارهم (٣) ، حتى وصلوا إلى باب الأقباء ، أول باب قصر الزهراء . فترجل جميع من كان خرج إلى لقائه ، وتقدم الملك أردون وخاصة قوامسه على دوابهم حتى انتهوا إلى باب السدة ، فأمر القوامس بالترجل هنالك والمشى على الأقدام ، فترجلوا ، ودخل الملك أردون وحده راكباً مع محمد ابن طملىس ، فأنزل في برطل (٤) البهو الأوسط من الأبهاء القبيلية التي بدار الجند ، على كرسى مرتفع مكسو الأوصال (٥) بالفضة . وفي هذا المكان بعينه نزل قبله عدوه ومناوئته شانجة بن ردمير الوافد على الناصر لدين الله رحمه الله تعالى . فقعد أردون على الكرسى ، وقعد أصحابه بين يديه ، وخرج

(١) القرظي : خطط ج ١ ص ٤١٥ . (٢) قولة

(٣) أي أصبحوا كالسكرى لا يستطيعون فتح عيونهم لروحة ما رأوا .

(٤) البرطل بفتح الباء والطاء المظلة الضيقة . (٥) الأجزاء أي أنه مفقى عند اتصال أجزائه بالفضة .



الإذن لأردون الملك من المستنصر بالله بالدخول عليه ، فتقدم بهي وأصحابه يتبعونه إلى أن وصل إلى السطح . فلما قابل المجلس الشرقي الذي فيه المستنصر بالله ، وقف وكشف رأسه وخلع برنسه ، وبقي حاسراً إعظماً لما كان له من الدنو إلى السرير ، واستنهض ، ففضى بين الصفيين المرتبين في ساحة السطح إلى أن قطع السطح وانتهى إلى باب البهو . فلما قابل السرير خر ساجداً سويعة ، ثم استوى قائماً ، ثم نهض خطوات ، وعاد إلى السجود ، ووالى ذلك مراراً إلى أن قدم بين يدي الخليفة ، وأهوى إلى يده ، فناوله إياها ، وكر راجعاً مقهقراً على عقبه ، إلى وساد ديباج مثقل بالذهب ، جعل له هنالك ، ووضع على قدر عشرة أذرع من السرير . فجلس عليه ، والبهر قد علاه ، وأنهض خلفه من استدى من قوامه وأتباعه ، فدنوا ممثلين فعله في تكرير الخنوع ، وناولهم الخليفة يده ، فقبلوها وانصرفوا مقهقرين ، فوقفوا على رأس ملكهم ، ووصل بوصولهم وليد بن حيزون قاضي النصارى بقرطبة ، فكان الترجمان عن الملك أردون ذلك اليوم . وأطرق الخليفة الحكم عن تكليم الملك أردون إثر قعوده أمامه وقتاً ريثما يفرخ روعه<sup>(١)</sup> . فلما رأى أن قد خفض عليه<sup>(٢)</sup> افتتح تكليمه ...

فكرر أردون الخضوع ، وأسهب في الشكر ، وقام للانصراف مقهقراً ، لا يولى الخليفة ظهره ، وقد تكسفه الحفدة من جلة الفتيان ، فأخرجوه إلى المجلس الغربي في السطح ، وقد علاه البهر وأذهله الروع ، من هول ما باشره وجلالة ما عاينه من نخامة الخليفة وبهاء العزة . فلما أن دخل المجلس ، ووقعت عينه على مقعد أمير المؤمنين خالياً منه ، انحط ساجداً إعظماً له . ثم تقدم الفتيان به إلى البهو الذي يجوفى هذا المجلس ، فأجلسوه هنالك على وساد مثقل بالذهب . وأقبل نحوه الحاجب جعفر ، فلما بصر به قام إليه ، وخضع له ، وأومأ إلى تقبيل يده ، فقبضها الحاجب عنه ، وانحنى إليه ، فعانقه وجلس معه ، فقبَّطه ، ووعدته من إنجاز عدا<sup>(٣)</sup> الخليفة له بما ضاعف سروره . ثم أمر الحاجب جعفر ، فصُبت عليه الخلع التي أمر له بها الخليفة ، وكانت دراعة منسوجة بالذهب ، وبرنساً مثلها ، له لوزة<sup>(٤)</sup> مفرغة من خالص التبر ، مرصعة بالجواهر والياقوت ، ملأت عين العليج<sup>(٥)</sup> تجلّة ، فخر ساجداً وأعلن بالدعاء . ثم دعا الحاجب أصحابه رجلاً رجلاً ، فخلع عليهم على قدر استحقاقهم ، فأكمل جميع ذلك بحسب ما يصلح لهم ، وخر جميعهم خاضعين شاكرين . ثم انطلق الملك أردون وأصحابه ، وقدم لركابه في أول البهو الأوسط فرس من عتاق خيل الركاب ، عليه سرج حلي ، ولجام حلي مفرغ . وانصرف مع ابن طلمس إلى قصر الرصافة مكان تضييفه ، وقد أعد له فيه كل ما يصلح لمثله من الآلة والفرش والماعون . واستقر الملك أردون وأصحابه فيما لا كفاء له من سعة التضييف وإرغاد المعاش ، واستشعر الناس من مسرة هذا اليوم وعزة الإسلام فيه ، ما أفاضوا في التبجح به والتحدث عنه أياماً ،

(٢) اطمان في المجلس  
(٤) حلية على شكل اللوزة

(١) يطمئن  
(٣) جمع عدة ومع الوعد  
(٥) العليج الرجل من كفار العجم

وكانت للخطباء والشعراء بمجلس الخليفة في هذا اليوم مقامات حسان ، وإنشادات لأشعار محكمة  
متان يطول القول في اختيارها . فمن قول عبد الملك بن سعيد المرادي من قصيدة طويلة :  
مملك الخليفة آية الإقبال وسعوده موصولة بنوال  
فالمسلون بعزة وبرفعة والمشركون بذلة وسفال  
ألفت بأيديها الأعاجم نحوه متوقعين لصولة الرئبال<sup>(١)</sup>

### زواج قطر الندى من الخليفة المعتضد :

وكان المسلمون يهتمون بحفلات الزواج اهتماما بالغا ، فقد رأينا كيف بلغ إسراف خلفاء العصر  
العباسي الأول وبذخهم بما فعله الخليفة المهدي عند زواج ابنه هارون الرشيد من السيدة زبيدة ، وما  
أنفقه المأمون على زواجه من بوران بنت الحسن بن سهل<sup>(٢)</sup> الذي تجلّى إسرافه وبذخه في هذا الزواج .  
وقد تجلّى بذخ العباسيين والطولونيين في زواج الخليفة العباسي المعتضد من أسماء المعروفة بقطر  
الندى ابنة خمارويه بن أحمد بن طولون .

وقد استطاع خمارويه ، بما هيأه له بيت مال مصر ، أن يبذل الأموال الضخمة بذل من لا يخشى  
فقرا ولا يهاب عوزا . فقد ذكر ابن دقاق<sup>(٣)</sup> أنه « حمل معها ما لم ير مثله ، ولا سمع به إلا في وقته » ،  
وذكر المقرئ<sup>(٤)</sup> أنه لم يبق خطيرة ولا طرفة من كل لون وجنس إلا حمله معها . فن هذا الجهاز  
دكة من أربع قطع من الذهب ، عليها قبة من ذهب مشبك ، في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه  
حبة من الجوهر لا يعرف لها قيمة ، ومائة هون من الذهب لبق الطيب ، وألف تكمة من الواحدة منها  
عشرة دنانير . وقد أمر خمارويه بعد أن فرغ من الجهاز بأن يبني لابنته على رأس كل مرحلة قصر أشبه  
بالنزل أو مكان الاستراحة تنزل فيه في طريقها إلى بغداد ، وأعدت هذه القصور بكل ما تحتاج إليه ؛  
فكانت في سفرها متمتع بجميع وسائل الراحة وأسباب الرفاهية كما لو كانت في قصر أبيها . أما مبلغ  
نفقات هذا العرس فلم تقف عليه في مصدر من المصادر التي رجعنا إليها . وقد ذكر ابن خلكان<sup>(٥)</sup>  
أن صداقها كان مليون درهم . وليس هذا بالشئ الكثير بجانب ما أنفق على تجهيزها ، إذا علمنا أن  
ابن الجصاص الجوهرى ، الذي عهد إليه بإعداد الجهاز ، نال جائزته وهي أربعة آلاف دينار بقيت  
بعد إعداد كل ما تحتاج إليه العروس<sup>(٦)</sup> .

كل هذا يدلنا على مبلغ الرخاء الذي شمل مصر في عهد خمارويه ، وما كان من تقدم الصناعة ،  
ورواج التجارة ، وعمارة الأسواق لدرجة لم تبلغها في غضون القرن الخامس الهجرى ، وهو العصر  
الذى عاش فيه المؤرخ والفقيه القضاعى الذى يقول : « ولا يعرف اليوم في أسواق القاهرة تكمة بعشرة  
دنانير إذا طلبت توجد في الحال »<sup>(٧)</sup> . على أن هذا يدل من جهة أخرى على ما انطوى تحت هذا العمل

(١) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٨٣-١٨٦ ، أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٨٨-٢٩٤ .

(٢) أنظر هذا الكتاب ج ٢ ص ٣٢١-٣٢٢ .

(٣) الانتصار بواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ٦٧ . (٤) خطط ج ١ ص ٣١٩ .

(٥) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٧٤ (٦) ابن دقاق : ج ٤ ص ٦٧ .

(٧) المقرئ : خطط ج ١ ص ٣١٩ .

وغيره من الأعمال من إفقار خمارويه للدولة من جراء زواج ابنته إلى الخليفة المعتضد العباسي . وقد ذكر لنا التنوخي<sup>(١)</sup> أن قطر الندى لما وصلت إلى بغداد كان خمارويه في شدة وكرب شديدتين بسبب تجهيز ابنته الذي استنفد كل ثروته . وليس أدل على صحة هذا القول من أنه احتاج مرة إلى شحمة فلم يوفق إلى إيجادها لوقته ، فلعن ابن الجصاص الذي عده مصدر فقره وبلائه .

وقد أقيمت في قصر خمارويه الحفلات والمآدب بمناسبة هذا الزواج ، واجتمعت النساء في أحسن ملابسهن الحريرية وظهرن في أجمل حليهن ، وارتدت قطر الندى ثوباً من الحرير الأبيض ، ووضع على رأسها إكليل من الذهب وطريحة مرصعة بالجواهر ، وعلى أذنيها قرط ثقيل الوزن على شكل حلقة من الذهب ، وفي أصابعها الخواتم ، وفي معصمها سوار من الذهب المرصع بالجواهر ، وزين وجهها بالأصباغ المختلفة ، فبدت في أحسن زينة .

ومد السباط ، وزين بالأزهار ذات الرائحة الزكية والألوان المختلفة . وجلست العروس في صدر السباط ، وجلست أمها عن يمينها وجدتها مياس عن يسارها . ووضع في طرفي السباط قطعتان كبيرتان من الحلوى ، وعليه صحاف مملأ باللون الطعام المختلفة ، من بينها : لحم الضأن ، ولحم الجدى ، والدجاج ، والقطاثر ، والفالودج<sup>(٢)</sup> واللوزينج والقطائف والمهراس والقواكه ، وقد ظهر منها المشمش ، والبرتقال والموز والكثير والعنب . وأمر خمارويه بفتح أبواب مطابخه ، وبذبح البقر والغنم وتوزيعها على الناس في القصور الفخار والقصاع .

ولما عزمت قطر الندى على الرحيل ، خرج الموكب من قصر خمارويه محترقاً مدينة القطائع التي اشترك أهلها في توديع ابنة خمارويه الذي تقدم الموكب ، يحفه حرسه المختار يلبسون الأقيية ويتقلدون السيوف المحلاة بالذهب ، وهو يمتط فرسه الأشهب ، متقلداً سيفاً بحمائل ، تكسوه الهيبة ، ويتبعه جيشه من المصريين والأتراك يحملون الدروع والسهام ، ومن السودانيين يرتدون الأردية والعمام السود .

ولما وصلت قطر الندى إلى بغداد نزلت في قصر صاعد ، وأقيمت الحفلات ودعيت النساء من عليه القوم ، وكان يرتدين أحر الثياب ويتزين بأنفس الحلى . ومدت الأسبطة ، وعليها ألوان الطعام ، على النحو الذي مدت به في مصر ، وأحضرت القيان والمعنيات .

وكان من أثر هذا الزواج أن ولي الخليفة المعتضد خمارويه جميع البلاد الممتدة من الفرات إلى بركة ، وجعل إليه الصلاة والخراج والقضاء ، وخلع عليه اثنتي عشرة خلعة وسيفاً وتاجاً ووشاحاً . هذا ولم يحفل المؤرخون بنقل صور من الحفلات الشعبية للزواج وغيره . ولكن هذا يفهم ضمناً مما نقلوه من صور الحفلات الملكية ، لأن ما يفعله الملوك تحتذي به الشعوب في صور متفاوتة على حسب أقدارهم ومنازلهم . وما زال الناس في كل عصر يقلدون الرؤساء وكبار الناس وينسجون على منوالهم في مظاهر حياتهم . والناس على دين ملوكهم .

(١) نضوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ( طبعة مرجايوت ) ص ٢٦٢

(٢) وهي حلواء تعمل من الدقيق والماء والصل ، ممرية عن « بالوذة » .

## ٨ - أنواع التسلية

كان الناس في هذا العصر يتلهون بلعبة الشطرنج التي عرفها المسلمون في عهد الرشيد ثم انتشرت بين العرب . وكانوا يلعبون على قطعة مربعة حمراء من آدم . وقد نقل المسعودي<sup>(١)</sup> عن الجاحظ أن ما اتفق عليه الناس من صور رقعة الشطرنج ست صور ، ظهر منها في عهد الرازي الجوارحية ، نسبة إلى الجوارح . وتتألف رقعتهما من سبعة أبيات في ثمانية ، وأمثلتها اثنا عشر في كل جهة منها ستة ، كل واحد من الستة يسمى باسم جارحة من جوارح الإنسان التي يميز وينطق ويسمع ويبصر ويبطن ويسعى ، وهي سائر الحواس ، والخامس المشترك ، وهو الذي من القلب .

وكذلك كان الترد من الألعاب التي اعتاد الناس أن يتلها بها في العصر العباسي الأول . ويستعمل في اللعب به ثلاثون حجرا وفصان ، على رقعة رسم اثنا عشر منزلا أو أربعة وعشرون منزلا . وقد شبه بعض الحكماء رقعة الترد بالأرض الممهدة لساكنها ، ومنازل الرقعة بساعات الليل والنهار ، واختلاف ألوانها باختلاف يياض النهار وسواد الليل ، وما يخرج من الفصين إذا رمى بهما بالقضاء الجارى على العباد .<sup>(٢)</sup> والمشهور أن الشطرنج اختراع هندي وأن الترد من اختراع الفرس .

وكان سباق الخيل من أحب ألوان التسلية عند الخلفاء والأمراء والولاة وكبار رجال الدولة في هذا العصر . وقد أباح الفقهاء هذا اللون من الرياضة ، على ألا يكون وسيلة للحصول على المال ، لما فيه من تهمة الناس لركوب الخيل عند الحرب . وبلغ من شغف الناس بالسباق أن كان السابق يستولى في بعض الأحيان على الحصان المسبوق .<sup>(٣)</sup>

وقد ورد في المسعودي<sup>(٤)</sup> وصف شائق خيل السباق والشروط التي يجب أن تتوافر فيها . وقد وصف تاج الدولة أبو الحسين أحمد بن عضد الدولة الصيد بالفهود في هذه القصيدة التي رواها الثعالبي<sup>(٥)</sup> فقال :

سرنّا مع الصباح بالفهود	مردفة فوق متون القود
قد وطئت توطئة المهود	بالقطف <sup>(٦)</sup> والجلال واللبود <sup>(٧)</sup>
فهي كقوم فوقها قعود	قد ألبست وشيا على الجلود
يخالها الناظر كالأسود	تبكي لشبل ضائع فقيد
بأدمع على الحدود سود	فقابلت مرادها في اليد
وقطعت جبال المسود <sup>(٨)</sup>	نفوت لحظ الناظر الحديد

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٥٢١ - ٥٢٢ .

(٢) أنظر الجزء الثاني من هذا الكتاب ص ٣٢٣ .

(٣) آدم تمز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢١٥ ، سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٣٩٣ .

(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ٥٣٥ .

(٥) بتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٠٠ (٦) جمع قطيفة .

(٨) جمع ليد وهو ما يوضع على ظهر الحصان . (٨) المسود جبل ليف مضفور

ركضنا إلى اقتناص كل رود (١) فكم بها من هالك شهيد  
معفر الخد على الصعيد بنحسها تظل في السعود  
جدنا بها والجود بالموجود فكثرت ولائم الجنود  
وشبت النار بالوقود

وكانت السباحة والمصارعة من أهم أنواع التسلية عند العباسيين . ففي عهد الخليفة المستكفي ( ٣٣٣ - ٣٣٤ هـ ) ، انهمك شباب بغداد في تعلم المصارعة والسباحة ، حتى صار السباح يسبح وعلى يده كانون ، وفوقه قدرة ، فيسبح حتى ينضج اللحم (٢) . وقد جعل أحمد بن طولون في قصره بمدينة القطائع ميدانا فسيحا يضرب فيه بالصوألجة ، وهي لعبة الكرة المعروفة عند الإنجليز وغيرهم باسم بولو ، وهي شبيهة بلعبة كرة القدم (٣) .

وقد عنى أحمد بن طولون بحلبات السباق ، فبنى مكانا لعرض الخيل سماه « المنظر » . ووصف القضاعي المؤرخ هذا العرض ، فقال إنه من عجائب الإسلام الأربعة وهي : هذا العرض ، ورمضان مكة ، والعيد بطرسوس ، والجمعة ببغداد . وأضاف هذا المؤرخ أنه بقي منها في أيامه شهر رمضان بمكة ، والجمعة ببغداد ، وقل الاهتمام بالاحتفال بيوم الجمعة ببغداد بعد استيلاء هولاكو التتاري عليها سنة ٦٥٦ هـ ( ١٢٥٨ م ) (٤) .

وكانت حلبة السباق عند الطولونيين بمثابة الأعياد ، لما كان يصحبها من إقامة معالم الزينة ، وركوب الغلمان والعساكر على كثرتهم بالعدد الكاملة والأسلحة التامة . وفي هذه الحلبات يجلس الناس لمشاهدة السباق ، كما جرت عاداتهم بمثل ذلك في الاحتفال بالأعياد . فإذا جاء وقت السباق ، أطلقت الخيل إلى غايتها ، فتمر متفاوتة يقدم بعضها بعضا حتى نهاية الشوط .

وقد أولع خوارويه بالصيد ولما شديدا ، فكان يخرج في جهات الأهرام والعقاب وغيرها ، ولا يكاد يسمع بسبع إلا قصده في صحبة رجال عليهم اللبود ، فيدخلون في الغابة ويتناولون الأسد بأيديهم وهو سليم ، ثم يضعونه في قفص من الخشب يحكم الصنعة يسعه وهو قائم . فإذا عاد خوارويه من صيده حمل بين يديه القفص الذي فيه السبع ، واجتمعت العامة لمشاهدة السبع (٥) .

وكان الخليفة العزيز بالله الفاطمي ، كخوارويه بن أحمد بن طولون ، مشغوبا بجوارح الطير الغريبة . وجلب لذلك الطيور والحيوانات من السودان . وكان مغرما أيضا بالصيد ، وخاصة صيد السباع (٦) . وولع بعض الخلفاء الفاطميين بالصيد ؛ وكان الخليفة الأمر يعطى الرهبان في دير نهبيا (٧) بالقرب من الجيزة عشرة آلاف درهم كلما خرج للصيد بالقرب من هذا الدير (٨) .

(١) أي كل حسناء . (٢) السبوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٦٤

(٣) المقرئبي : خطط ج ١ ص ٣١٥ (٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٣١٨ - ٣١٩ .

(٥) المقرئبي : خطط ج ١ ص ٣١٨ . (٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٠٠

(٧) وصف الشاشي (Aziz Suryal Atiya : Some Egyptian Monasteries According to the Unpublished Ms. of al - Shabushti's Kitab Al - Diyarat, p. 17)

الديارات وأزهرها وأطيبها ، عامر برهبانه وسكانه . وله في النيل منظر عجيب ، لأن الماء يحيط به من جميع جهاته . فإذا انصرف الماء وزرع ، أظهرت أراضي غراب النوار وأصناف الزهر ، فهو من المنزهات الموصوفة والبقاع المشهورة . وله خليج يجتمع إليه سائر الطيور ، فهو أيضا متصيد حسن .

(٨) أبو صالح الأرمي : كنائس وأدبرة مصر ص ٧٧ - ٧٨ ، وناصر خسرو : Nasir - i Khusrau

Safar Nameh, pp. 155-6 . أنظر كتاب « الفاطميون في مصر » للمؤلف ص ٢١٧ ، ٢٤٦ .

## مصادر الكتاب

نورد في الثبوت الآتي أهم مصادر الكتاب ، وقد رتبت أسماء المؤلفين على حسب أحرف الهجاء ، مع ذكر سنة وفاة المؤلف .

- ابن الأثير ( ٦٣٠ هـ = ١٢٣٨ م ) : على بن أحمد بن أبي السكرم  
١ — « الكامل في التاريخ » ١٢ جزءا ( بولاق ١٢٧٤ هـ )  
الإدرسي ( ٦٤٩ هـ = ١٢٥١ م ) : محمد بن عبد العزيز الشريف الفاوي  
٢ — « نزهة المشتاق في ذكر الأوصاف والأقطار والبلدان » ( روما ١٥٩٢ )  
أرنولد : « سير توماس و » . Arnold : Sir Thomas W.  
٣ — « The Preaching of Islam, » 3rd. ed. by Reynold A. Nicholson — ٣  
( Lond. 1935 ).  
٤ — « The Caliphate » ( Oxford, 1924 ).  
الأشعري ( ٣٢٤ هـ = ٩٣٦ م ) : الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل  
٥ — « مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين » ، نشره ريتز ( اسطنبول ١٩٢٩ )  
الأصفهاني ( ٣٥٦ هـ = ٩٦٧ م ) : أبو الفرج  
٦ — « كتاب الأغاني » ٢١ جزءا ( القاهرة ١٢٨٥ هـ ) ، ( القاهرة ١٩٢٧ — ١٩٣٦ )  
ابن أبي أصيبعة ( ٦٦٧ هـ = ١٢٧٠ م ) : موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي  
٧ — « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » جزءان ( القاهرة ١٢٩٩ — ١٣٠٠ هـ )  
أماري : ميشيل . Amari : Michel.  
٨ — « مكتبة صقلية العربية » Bibliotheca Arabo-Sicula في جزئين  
أمدروز : هـ . ف . Amedroz : H. F.  
٩ — « Three Years of Buwaihid Rule in Baghdad, A. H. 389—393 . Being a fragment of the History of Hilal — as — Sabi (+ A. H. 448) from a MS. in the Library of the British Museum. »  
أمير علي : سيد . Ameer Ali : Sayed  
١٠ — « A Short History of the Saracens » ( Lond. 1921 )  
« مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي » ( القاهرة ١٩٣٨ ) نقله الى العربية : رياض رأفت  
أوبينا ( ٣١١ هـ = ٩٢٩ م ) : سعيد بن البطريق  
١١ — « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » ( بيروت ١٩٠٩ )  
أوليري : دي ليسي . O' Leary, de Lacy  
١٢ — « A Short History of the Fatimid Khalifate » ( Lond. 1923 ).  
بارتولد : ف . Bartold : F  
١٣ — « تاريخ الحضارة الإسلامية » ، نقله الى العربية حمزة طاهر ( القاهرة ١٩٤٢ )  
بالمر : Palmer :  
١٤ — « Haroun al — Raschid ( Lond. 1881 )

باون : هارولد Bowen : Harold

« The Last Buwayhids », J.R. A. S. ( April, 1929 ), pp. 225 — 45. — ١٥

البحترى ( ٢٨٥ هـ = ٨٩٨ م ) : أبو عبادة الوليد القحطاني

١٦ — ديوان البحترى ( القسطنطينية ١٣٠٠ هـ )

بديع الزمان ( ٣٩٨ هـ = ١٠٠٧ — ١٠٠٨ م ) : أحمد بن محمد

١٧ — رسائل بديع الزمان الهمداني ، شرح الشيخ إبراهيم الأهدب الطرابلسي ( بيروت ١٨٩٠ )

براون : إدوارد ج . Browne : Edward G.

« A Literary History of Persia » (From the Earliest Times until Firdawsi) — ١٨

4 vols. Vol. I (London, 1909), Vol. II. (London, 1906).

« The Chahar Maqala (Four Discourses) of Nidhami —i— Samarqandi » — ١٩

trans. from Persian ( Lond. 1899 ).

بروكلان : كارل . Brockelmann : Carl.

« Geschichte der Arabischer Litteratur » 2 vols. (Weimar, 1898 — 1902) — ٢٠

ابن يسام ( ٥٤٢ هـ = ١١٤٧ م ) : أبو الحسن علي الشنتربي

٢١ — « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » ، نشرت الأجزاء الأربعة الأولى منه

( القاهرة ١٣٥٨ — ١٣٦٤ هـ = ١٩٣٩ — ١٩٤٥ م )

البقداوى ( ٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م ) : أبو منصور عبد القادر بن طاهر

٢٢ — « الفرق بين الفرق » ( القاهرة ١٣٢٨ هـ = ١٩١٠ م )

البسكرى ( ٤٨٧ هـ = ١٠٩٧ م ) : أبو عبيد الله بن عبد العزيز

٢٣ — « المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب » ( باريس ١٩١١ م )

البلاذرى ( ٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م ) : أحمد بن يحيى بن جابر

٢٤ — « فتوح البلدان » ( القاهرة ١٣١٨ هـ )

البلنسى ( ٣٢٢ هـ = ٩٣٣ — ٩٣٤ م ) : أبو زيد بن سهل

٢٥ — « كتاب البدء والتاريخ » ، وينسب حقيقة الى مطهر بن طاهر المقدسى ، ستة أجزاء

دي بور : ت . ج . De Boer : T.J.

٢٦ — « تاريخ الفلسفة في الإسلام » ، نقله الى العربية محمد عبد الهادى أبو ريذة

( القاهرة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م )

البيرونى ( ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م ) : أبو الريحان محمد بن أحمد

٢٧ — « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ( طبعة إدوارد سغاو ) ليبرج سنة ١٨٧٨ ، ١٨٧٩ .

وترجمه الى الإنجليزية وعلق عليه إدوارد سغاو بعنوان :

The Chronology of Ancient Nations ( London, 1879 ).

بيمونت ومونود Bemont et Monod :

« Histoire de l'Europe au Moyen Age (395—1270) » ( Paris, 1921 ) . — ٢٨

التنوخى ( ٣٨٤ هـ = ٩٩٤ م ) : أبو علي الحسن بن علي بن محمد بن أبي القهم

٢٩ — « نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » ( القاهرة ١٩١٨ — ١٩٢١ ) ، ترجمه الى الإنجليزية

د . س . مرجليوت ( لندن ١٩٢٢ )

بمور : المغفور له أحمد باشا

٣٠ — « التصوير عند العرب » نشره وعلق عليه الدكتور زكى محمد حسن ( القاهرة ١٩٤٢ )

٣١ — « نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة وانتشارها » ( القاهرة ١٣٥١ هـ )

- التعالى (٤٢٩ = ١٠٣٧ م) : أبو منصور عبد الملك  
٣٢ - « بتيمة الدهر » ، أربعة أجزاء ( القاهرة ١٣٥٣ = ١٩٣٤ م )  
المحافظ ( ٢٥٥ = ٨٦٩ م ) : أبو عثمان عمرو بن بحر  
٣٣ - « كتاب التاج في أخلاق الملوك » ( القاهرة ١٣٣٢ = ١٩٢٤ م )  
حقيقه المرحوم أحمد زكى باشا  
٣٤ - « كتاب البيان والتبيين » ، أربعة أجزاء ( القاهرة ١٩٢٨ )  
٣٥ - « كتاب التبصر بالتجارة » ، الطبعة الثانية ( القاهرة ١٣٥٤ = ١٩٣٥ م )  
نشره وصححه وعلق عليه السيد حسن حسنى عبد الوهاب التونسى .  
٣٦ - ثلاث رسائل نشرت في كتاب ( القاهرة ١٣٤٤ = ) : الأولى في الرد على النصارى ، والثانية  
في ذم أخلاق الكتاب ، والثالثة في القيان .  
Gibbon : Edward. جيون : إدوارد  
" The History of the Decline and Fall of the Roman Empire," 7 vols. ed. — ٣٧  
by G. B. Bury.  
٣٨ - المجهيارى ( ٣٣١ = ٩٤٢ = ٩٤٣ م ) : أبو عبد الله محمد بن عبدوس  
« كتاب الوزراء والكتاب » ( القاهرة ١٩٣٨ )  
حقيقه ونشره الاساتذة مصطفى السقا ، وإبراهيم الإيبارى ، وعبد الحفيظ شاي  
٣٩ - دى جوبينو :  
De Gobineau  
" Religion et Philosophie dans l'Asie Centrale ( Paris, 1865 ).  
جولدتسيهر : إجناس Goldziher : Ignaz  
٤٠ - « المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن »  
ترجمه الدكتور على حسن عبد القادر ( القاهرة ١٣٦٣ = ١٩٤٤ م )  
٤١ - " Vorlesungen über den Islams " ( 2nd ed., Heidelberg, 1910 ). trans. —  
into French by Félix Arin under the title « Le Dogme et la Loi de l'Islam » ( Paris, 1920 )  
جويار : س Guyard : S.  
٤٢ - " Fragments relatifs à la Doctrine des Ismaélis ( Paris, 1874 ) —  
Hitti : Philip K.  
٤٣ - حتى : فيليب ك.  
" History of the Arabs " ( London, 1940 , 1944 ) .  
٤٤ - " The Origins of the Druze People and Religion " ( Columbia, 1928 ). —  
ابن حزم ( ٤٥٦ = ١٠٦٤ م ) : أبو محمد على بن أحمد  
٤٥ - « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، ٣ أجزاء . ( القاهرة ١٣١٧ = )  
حسن إبراهيم حسن :  
٤٦ - « الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص » ( المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٣٢ )  
٤٧ - السيادة العربية والشيعية والإسرائيليات في عهد بنى أمية » تأليف فان فلوطن Van Vloten  
ترجمه وعلق عليه بالاشتراك مع الفيخ محمد زكى إبراهيم ( القاهرة ١٩٢٣ )  
٤٨ - « أوراق البردى العربية بدار السكيب المصرية » ، تأليف أدولف جروهان ، ترجمه المؤلف  
الى العربية وعلق عليه . الجزء الأول ( القاهرة ١٩٣٤ ) ، وترجمه الجزء الثانى تحت الطبع .  
٤٩ - « تاريخ الإسلام السياسى » ، الجزء الأول ( القاهرة ١٩٣٥ ) والطبعة الثانية تظهر قريباً  
في تسعة أبواب بدلاً من خمسة  
« تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى » ، الجزء الثانى ( القاهرة ١٩٤٥ )  
والجزء الثالث ( القاهرة ١٩٤٦ )  
٥٠ - « النظم الإسلامية » بالاشتراك مع الدكتور على إبراهيم حسن ( القاهرة ١٩٣٩ ) .



- ٥١ - « مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى » ، بحث مستخرج من « كتاب المجلد فى التاريخ المصرى » ( القاهرة ١٩٤٢ ) ص ١٢٧ - ٢٢٩ ) والطبعة الثانية من الكتاب ستطوّر قريباً
- ٥٢ - « كافور الإخشيدي » ، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول ، مايو ١٩٤١
- ٥٣ - « انتشار الإسلام فى الهند » ، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول ، مايو ١٩٤٤
- ابن خرداذبة : أبو القاسم عبید الله بن عبد الله
- ٥٤ - « كتاب المسالك والممالك » ، طبعة دى فويه ( ليدن ١٨٨٩ ) ، وبذيله نبذة من كتاب « الحراج وصنعة الكتابة لأبى الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى »  
الحضرى : محمد
- ٥٥ - « تاريخ الدولة العباسية » ( القاهرة ١٩١٦ )  
الحطیب البغدادى ( ٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ - ١٠٧١ م ) : الحافظ أبو بكر أحمد بن على
- ٥٦ - « تاريخ بغداد أو مدينة السلام » ١٤ جزءاً ( القاهرة ١٣٤٩ هـ = ١٩٣١ م )  
الحفاجى : شهاب الدين أحمد
- ٥٧ - « شفاء القليل فيما فى كلام العرب من الخيل » ( القاهرة ١٢٨٢ هـ )  
ابن خلدون ( ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ - ١٤٠٦ م ) : عبد الرحمن بن محمد
- ٥٨ - « مقدمة ابن خلدون » ( بيروت ١٨٨٦ م ) ، و نسخة مخطوطة بالمسكنة الزكية بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ١٥
- ٥٩ - « الدرر وديوان المبتدا والمخبر » ٧ أجزاء ( القاهرة ١٢٨٤ هـ )  
ابن خلسكان ( ٦٨١ هـ = ١٢٨١ م ) : شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن أبى بكر الشافى
- ٦٠ - « وفيات الأعيان » جزءان ( بولاق ١٢٨٣ هـ ) ، ( المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٠ هـ ) -  
ترجمه إلى الإنجليزية دى سلان De Slane ( باريس ١٨٤٢ - ١٨٤٨ )  
حاجى خليفة ( ١٠٦٧ هـ = ١٦٥٧ م ) : مصطفي كاتب شلى
- ٦١ - « كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون » ، طبع النسخة العربية وترجمها إلى الألمانية ج . فلوجل G. Flügel ( ليبسك ولندن ١٨٣٥ - ١٨٥٨ )  
الحمدى التيمانى ( من فقهاء السنة فى اليمن فى أواسط القرن الخامس الهجرى ) : محمد بن مالك بن أبى الفضائل
- ٦٢ - « كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة » ( مطبعة الأنوار ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٩ م )  
الحوارزى ( ٣٨٣ هـ = ٩٩٣ م ) : أبو بكر محمد بن العباس
- ٦٣ - « رسائل الحوارزى » ( القسطنطينية ١٢٩٧ هـ )  
الحوارزى : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب
- ٦٤ - « كتاب مفاتيح العلوم » صنّفه سنة ٣٦٦ هـ ( القاهرة ١٣٤٤ هـ ) ، ( ليدن ١٨٩٥ م )  
الحياط ( توفى فى أواخر القرن الثالث الهجرى ) : أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان المعتلى
- ٦٥ - « كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى الملعن » ، مع مقدمة وتحقيق وتعليقات للدكتور نيجرج ( القاهرة ١٣٤٤ هـ = ١٩٢٥ م )
- ابن دقاق ( ٨٠٩ هـ = ١٤٠٦ - ١٤٠٧ م ) : لإبراهيم بن محمد المصرى
- ٦٦ - « الانتصار بواسطة عقد الأمصار » الجزءان الرابع والخامس ( القاهرة ١٣٠٩ هـ = ١٨٩٣ م )

دوزى : ر.ب.ا. Dozy : R. P. A.

« Histoire des Musulmans d'Espagne » (Leyden, 1861), trans. into English—٦٧  
by F. G. Stokes «The Moslems in Spain» (London, 1913).

« Dictionnaire des Noms des Vêtements chez les Arabes » (Amsterdam, — ٦٨  
1845).

« Supplément au Dictionnaires Arabes », 2 vols. (Leyden, 1881). — ٦٩

« Essai sur l'Histoire de l'Islamisme », trans. du Hollandais par Victor — ٧٠  
Chauvin (Leyden—Paris, 1879).

الدينورى ( ٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م ) : أبو حنيفة أحمد بن داود

٧١ — « الأخبار الطوال » جزءان ( ليدن ١٨٨٨ )

« رسائل الحاكم بأمر الله »

٧٢ — كتبها كثير من دعاة الفاطميين في سنة ٤٠٨ هـ ، وهي مخطوطة بدار التكتب المصرية  
بالقاهرة ( مذهب الشيعة رقم ٢٠ )

الرضى ( ٤٠٦ هـ = ١٠١٥ م ) : الشريف أبو الحسن محمد بن موسى

٧٣ — ديوان الشريف الرضى « ( بيروت ١٣٠٧ هـ )

ابن الرومى ( ٢٨٣ هـ = ٨٩٦ م ) : أبو الحسن علي بن العباس

٧٤ — ديوان ابن الرومى « ثلاثة أجزاء ، نشره كامل كيلانى ( القاهرة ١٩٢٤ )

زكى محمد حسن :

٧٥ — « الفن الإسلامى فى مصر » ، الجزء الأول ( القاهرة ١٩٣٥ )

٧٦ — « القنون الإسلامية فى العصر الإسلامى » ( القاهرة ١٩٤٠ )

٧٧ — « كنوز الفاطميين » ( القاهرة ١٩٤٠ )

ابن زولاق ( ٣٨٧ هـ = ٩٩٧ م ) : أبو محمد الحسن بن إبراهيم

٧٨ — « العيون الدعج فى حل دولة بنى طنج » ، نشره ابن سعيد المغربى ( ٦٧٣ هـ = ١٢٧٥ م )

فى كتاب المغرب فى حل المغرب ( ليدن ١٨٩٨ — ١٨٩٩ م )

زيدان : جرجى

٧٩ — « تاريخ التمدن الإسلامى » ، خمسة أجزاء ( القاهرة ١٩٠٢ — ١٩٠٦ )

دى ساسى : س De Sacy, Silvestre :

٨٠ — « Exposé de la Religion des Druzes, précédé d'une Introduction et de la  
Vie du Khalife Hakim—Biamr—allah », 2 vols. (Paris, 1838).

٨١ — « Chrestomathie Arabe », 3 vols. (Paris, 1826—27).

٨٢ — « Recherches sur l'initiation à la Secte des Ismaéleens », Journal Asiatique, — ٨٢  
1824 .

لى سترينج : جاي Le Stange : Guy.

٨٣ — Baghdad During the Abbasid Caliphate (Oxford, 1924).

ابن سعيد ( ٦٧٣ هـ = ١٢٧٥ م ) : على بن موسى المغربى

٨٤ — « المغرب فى حل المغرب والمشرق فى حل المشرق » ( ليدن ١٨٩٨ — ١٨٩٩ م )

السلوى : الشيخ أحمد بن خالد الناصرى

٨٥ — « الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى » ، فى أربعة أجزاء ( القاهرة ١٣١٠ — ١٣١٢ هـ )

السيوطى ( ٩١١ هـ = ١٦٠٥ م ) : عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين

٨٦ — « تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمى بأمر الأمة » ( القاهرة ١٣٥١ هـ )

- ٨٧ — « حزن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة » جزءان (القاهرة ١٣٢٧ هـ) . ترجمه إلى الإنجليزية ميچر هـ . س . جاريت Major H. S. Jarrellt (كلسكتا ١٨٨١ م)
- ٨٨ — « تفسير الجلالين » أربعة أجزاء  
الشابقي (٣٨٨ هـ = ٩٩٨ م) : أبو الحسن علي بن محمد
- ٨٩ — « كتاب الديارات » (مخطوط بمكتبة برلين Weimar, 1100) . وقد نشر الدكتور عزيز سوريال عطية الجزء الخامس « بديارات مصر التي يقصد للشرب فيها والتتره بها » ، وترجمها إلى الإنجليزية  
Extrait du Bulletin de la Société d'Archéologie copte, t. v. (1939).  
شتاينجاس : ف . Steingass : F.
- ٩٠ — « Persian English Dictionary (Lond., 1930) »
- أبو شجاع (٤٨٨ هـ = ١٠٩٥ م) : محمد بن الحسين بن عبد الله بن إبراهيم الوزير ظهير الدين الروذراوري
- ٩١ — « ذيل كتاب تجارب الأمم » ، نشره هـ . ف . أمدروز ، وترجمه إلى الإنجليزية د . س . مرجليوث (أكسفورد ١٩٢١)
- شكيب أرسلان : الأمير
- ٩٢ — « تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط »  
(القاهرة ١٣٥٢ هـ)
- الشهرستاني (٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م) : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم
- ٩٣ — « الملل والنحل » ٥ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ)
- الشيرازي (٤٧٠ هـ = ١٠٧٧ م) : المؤيد في الدين هبة الله
- ٩٤ — « السيرة للمؤيدية » ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة فؤاد الأول ، القاهرة رقم ٢٦٠٥٦
- الصولي (٣٣٥ هـ = ٩٤٦ م) : أبو بكر محمد بن يحيى
- ٩٥ — « كتاب الأوراق » ، قسم أخبار الشعراء ، نشره ج . هيورث دن (القاهرة ١٩٣٤)
- ٩٦ — « أخبار الراضي بالله والمتني لله » ، أو تاريخ الدولة العباسية من سنة ٣٢٢ هـ إلى سنة ٣٣٢ هـ ،  
نشره ج . هيورث دن (القاهرة ١٩٣٥)
- ٩٧ — « أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم » ، نشره ج . هيورث دن (القاهرة ١٩٣٦)
- ابن طباطبا : محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطلقطي
- ٩٨ — « الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية » (القاهرة ١٩٣٣)
- الطبري (٣١٠ هـ = ٩٢٢ م) : أبو جعفر محمد بن جرير
- ٩٩ — « تاريخ الأمم والملوك » (طبعة دي غوييه - ليدن ١٨٨١ م) ، (القاهرة ١٣٢٦ هـ)
- ١٠٠ — « تفسير محمد بن جرير الطبري » في ثلاثين مجلدا
- ١٠١ — « اختلاف الفقهاء » ، نشر يوسف شخت بعض أجزاء من هذا الكتاب تحت عنوان  
« كتاب الجهاد وكتاب الجزية وأحكام المحاربين من كتاب اختلاف الفقهاء لمحمد بن جرير الطبري »  
(ليدن ١٩٣٣)
- طه حسين بك
- ١٠٢ — « حديث الأربعة » (القاهرة ١٩٢٥ م)
- ١٠٣ — « ذكرى أبي العلاء » (القاهرة ١٣٣٤ هـ = ١٩١٥)
- الطوسي (٤٦٠ هـ = ١٠٦٧ - ١٠٦٨ م) : محمد بن الحسن
- ١٠٤ — « فهرست كتب الشيعة » (كلسكتا ١٨٥٥ م)
- طيغور (٢٨٠ هـ = ٨٩٣ - ٨٩٤ م) : أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر
- ١٠٥ — « تاريخ بغداد » الجزء السادس ، طبعة هـ . كار (H. Keller.) (لايبك ١٩٠٨)

- ابن عبد ربه ( ٣٤٩ هـ = ٩٤٠ م ) : شهاب الدين أحمد  
١٠٦ — « العقد الفريد » ٣ أجزاء ( القاهرة ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٨ م )  
العتبي ( ٤٢٨ هـ = ١٠٣٦ م ) : أبو نصر محمد بن عبد الجبار  
١٠٧ — « تاريخ اليميني » في جزئين ( القاهرة ١٢٨٦ هـ ) ، وبه شرح الشيخ أحمد بن علي  
الحنفي اللبني المتوفى سنة ١١٧٢ هـ ) ، وسماه « الفتح الزهبي على تاريخ أبي نصر العتبي »  
ابن عذارى ( توفي في أواخر القرن السابع الهجري ) : أبو عبد الله محمد المراكشي  
١٠٨ — « البيان المغرب في أخبار المغرب » نشره دوزي في ثلاثة أجزاء ( ليدن ١٨٤٨ — ١٨٥١ م  
وباريس ١٩٣٠ )  
عريب بن سعد ( ٣٦٦ هـ = ٩٧٦ — ٩٧٧ م ) : القرطبي  
١٠٩ — « صلة تاريخ الطبري » طبعة دي غوته ( ليدن ١٨٩٧ م ) ، ( القاهرة ١٣٢٠ م )  
على إبراهيم حسن : الدكتور  
١١٠ — « تاريخ جوهر الصقلي » ( القاهرة ١٣٥١ هـ = ١٩٣٣ م )  
١١١ — « دراسات في تاريخ الممالك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص » ( القاهرة ١٩٤٤ )  
على حسن عبد القادر : الدكتور  
١١٢ — « نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي » الجزء الأول ( القاهرة ١٣٦١ هـ = ١٩٤٢ م )  
العمري ( ٧٤٢ هـ = ١٣٤١ م ) : شهاب الدين أحمد بن فضل الله  
١١٣ — « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » ، نشره وعلق عليه أحمد زكي باشا  
( القاهرة ١٣٤٢ هـ = ١٩٢٤ م )  
ابن العميد ( ٦٧٢ هـ = ١٢٧٣ م ) : الشيخ المسكين جرجس بن العميد  
١١٤ — « تاريخ المسلمين » ( ١٦٢٥ م )  
العتبي ( ٨٥٥ هـ = ١٤٥١ م ) : بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى  
١١٥ — « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان » ، مخطوط مصور بدار السكتب المصرية  
رقم ١٥٨٤ تاريخ  
الغزالي ( ٥٠٥ هـ = ١١١١ م ) : الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد  
١١٦ — المنقذ من الضلال » ( دمشق ١٣٤٣ هـ = ١٩٣١ م )  
١١٧ — « فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة » ( القاهرة ١٣١٩ هـ = ١٩٠١ م )  
١١٨ — « فضائح الباطنية » نشره جولدتسيهر ( ليدن ١٩١٦ )  
دي غوية : M. G. De Goeje  
١١٩ — « Mémoire sur les Carmathes du Bahraïn et les Fatimides (Leyden, — 1886)  
فاسيل إف . ا . ا . Vasil, Ev. A. A.  
١٢٠ — « Cambridge Mediaeval History, » vol. IV. pp. 138-52.  
أبو الفدا ( ٧٣٢ هـ = ١٣٣١ م ) : إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماه  
١٢١ — « المختصر في أخبار البشر » ٤ أجزاء ( القسطنطينية ١٢٨٦ هـ ) ، ( القاهرة ١٣٢٥ م )  
فنلي : جورج Finlay : George  
١٢٢ — « History of the Byzantine Empire (716-1507 A. D.) » (London, 1856).  
ابن قتيبة ( ٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م ) : أبو محمد عبد الله بن سلم  
١٢٣ — « المعارف » ( ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٤ م )

- ١٢٤ — « عيون الأخبار » أربعة أجزاء ( القاهرة ١٣٤٣ - ١٣٤٨ هـ )  
 قدامة ( ٢٣٧ هـ = ٩٤٨ م ) : أبو الفرج بن جعفر السكاتب البغدادي  
 ١٢٥ — « نبد من كتاب الخراج وصناعة الكتابة » ( طبعة دي فويه - ليدن ١٨٨٩ )  
 القزويني ( ٦٢٨ هـ = ١٢٨٣ م ) : أبو عبد الله زكريا الأنصاري  
 ١٢٦ — « آثار البلاد وأخبار العباد » ( جوننجن ١٨٤٨ م )  
 القفطلي ( ٦٤٦ هـ = ١٢٤٨ م ) : جمال الدين علي بن يوسف بن ابراهيم بن عبد الوهاب  
 ١٢٧ — « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » ( ليدن ١٣٢٢ هـ = ١٩٠٣ )  
 ابن الفلانسى ( ٥٥٥ هـ = ١١٦٠ م ) : أبو يعلى حمزة  
 ١٢٨ — « ذيل تاريخ دمشق » ، مصحوب بشذرات من تواريخ ابن الفارسي ، وسبط ابن الجوزي ،  
 والذهبي ( بيروت ١٩٠٨ م )  
 القلقشندى ( ٨٢١ هـ = ١٤١٨ م ) : أبو العباس أحمد  
 ١٢٩ — « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » ١٤ جزءا ( القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٧ م )  
 السكيتي ( ٥٧٤ هـ = ١٣٦٢ - ١٣٦٣ م ) : محمد بن شاکر بن أحمد الحلبي  
 ١٣٠ — « فوات الوفيات » ، جزءان ( القاهرة ١٢٩٩ هـ )  
 كريزول : ك . ا . C . Creswell : K. A. C. — ١٣١  
 «Early Muslim Architecture» 2 vols. (Oxford, 1930 and 1938).  
 كريم : ألفرد فون Kremer : Alfred Von. — ١٣٢  
 «Culturgeschichte des Orients unter den chalifen» 2 vols. (Vienna, 1875),  
 trans. by S. Khuda Bukhsh «The Orient under the Caliphs (Calcutta, 1920).  
 كشاجم : أبو الفتح محمود  
 ١٣٣ — « ديوان كشاجم » . مخطوط ملك الأستاذ مصعاني السقا  
 السكدي ( ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م ) أبو عمر محمد بن يوسف  
 ١٣٤ — « كتاب الولاية وكتاب القضاة » ( طبعة روفن جت )  
 Rhuvon Guest, E. J. W. Gibb Memorial Series (London, 1912)  
 لويس : برنارد Lewis : Bernard. — ١٣٥  
 «The Origins of Ismailism» (Cambridge, 1940),  
 لينبول : ستانلي Lane-Poole : Stanley. — ١٣٦  
 «The Muhammadan Dynasties» (Paris, 1925)  
 «The Moors in Spain» (London, 1887). — ١٣٧  
 «A History of Egypt in the Middle Ages» (Lond., 1924). — ١٣٨  
 «The Moors in Spain» (Lond., 1887). — ١٣٩  
 ترجمه الى العربية على الجارم بك ( القاهرة ١٩٤٤ )  
 ماسنيو : لوى Massignon : Louis — ١٤٠  
 «La Passion D'Al-Hosayn-Ibn-Mansour Al-Hallaj» 2 vols. (Paris, 1922).  
 مامور : الأمير Mamour : Prince — ١٤١  
 «Polemics on the Origin of the Fatimi Caliphs (Lond., 1934).  
 الموردي ( ٤٥٠ هـ = ١٠٥٧ م ) : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصرى البغدادي  
 ١٤٢ — « الأحكام السلطانية » ( القاهرة ١٢٩٨ هـ )

متز : آدم. Metz : Adam.

"The Renaissance of Islam", trans. into English by S. Khuda Bukhsh — ١٤٣  
and D.S. Margoliouth (London, 1939).

وترجمه إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريده ، في جزئين ( القاهرة ١٣٥٩ — ١٣٦٠ هـ )  
( ١٩٤٠ — ١٩٤١ م )

النتنى ( ٣٥٤ هـ = ٩٦٥ م ) : أبو الطيب أحمد بن الحسين السكوفي  
١٤٤ — « ديوان المنتنى » نشره وشرحه عبد الرحمن البرقوقي ( القاهرة ١٣٤٨ هـ = ١٩٣٠ م )  
المدور : جيل نخله

١٤٥ — « حضارة الإسلام في دار السلام » ( القاهرة ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م )

أبو المحاسن ( ٨٧٤ هـ = ١٤٦٩ م ) : جمال الدين بن يوسف بن نغرى بردى

١٤٦ — « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » جزءان ( طبعة جوينيل ، ووليم بوبر )

( ليدن ١٨٥١ — ١٨٥٥ م ) ، ج ١ — ٩ ( طبعة دار السكتب المصرية بالقاهرة ،

١٣٤٨ — ١٣٦١ هـ = ١٩٢٩ م — ١٩٤٢ م )

المراكشى ( ٦٦٩ هـ = ١٢٧٠ — ١٢٧١ م ) : محي الدين أبو محمد عبد الواحد بن علي التميمي

١٤٧ — « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » ( طبعة دوزي ، ليدن ١٨٨١ ) ، وترجمه وشرحه

٠١ فانيان E. Fagnan ( الجزائر ١٨٩٣ )

ابن المرتضى ( ٣٢٥ هـ = ٩٣٦ — ٩٣٧ م ) : المهدي لدين الله أحمد بن يحيى

١٤٨ — « باب ذكر المعتزلة » من كتاب المنية والأمل ، طبعة الهند

المسعودى ( ٣٤٦ هـ = ٩٥٦ م ) : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي

١٤٩ — « كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر » جزءان ( القاهرة ١٣٤٦ هـ ) ، وترجمه إلى

الفرنسية بارييه دي مينار Barbier de Meynard تحت عنوان Prairies d'Or ( باريس

١٨٦١ — ١٨٧٧ )

١٥٠ — « كتاب التنبيه والإشراف » ( طبعة دي غويه — ليدن ١٨٩٧ )

مسكويه ( ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م ) : أبو علي أحمد بن محمد

١٥١ — « كتاب تجارب الأمم » ، جزءان ، نشره ه. ف. أمدرودز ( القاهرة ١٣٣٢ — ١٣٣٣ هـ )

١٩١٤ — ١٩١٥ م ) ، وترجمه إلى الإنجليزية د. س. مرجليوث ( أكسفورد ١٩٢١ ) .

وذيله أبو شجاع وهلال الصابي ( الجزء الثالث ) القاهرة ١٣٣٤ هـ = ١٩١٦ م )

مسلم ( ٢٦١ هـ = ٨٧٥ م ) : أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري

١٥٢ — « الجامع الصحيح » ٨ أجزاء ( القاهرة ١٣٢٩ — ١٣٣٢ هـ )

المعري ( ٤٤٩ هـ = ١٠٥٧ م ) : أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان

١٥٣ — « سقط الزند » ( القاهرة ١٣١٩ هـ ) ، ( بولاق ١٢٨٦ هـ ) في جزئين

١٥٤ — « لزوم مالا يلزم » ( القاهرة ١٨٩١ م )

١٥٥ — « آثار أبي العلاء المعري » ، الجزء الأول ، بإشراف الدكتور طه حسين بك

( القاهرة ١٣٦٣ هـ = ١٩٤٤ م )

القدسى ( ٣٨٧ هـ = ٩٩٧ م ) : شمس الدين أبو عبد الله محمد الشافعي المقدسي المعروف بالبشاري

١٥٦ — « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » طبعة دي غويه ( ليدن ١٨٧٧ )

القدسى : أنيس

١٥٧ — « تطور الأساليب التربوية في الأدب العربي » ، الجزء الأول ( بيروت ١٩٣٥ )

- ١٥٨ — « أمراء الشعر العربي » الطبعة الثانية ( بيروت ١٩٣٦ )  
المقرئى ( ٨٤٥٠ = ١٤٤١ م ) : تقي الدين أحمد بن علي
- ١٥٩ — « المواظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » جزءان ( القاهرة ١٢٧٠ هـ ) .
- ١٦٠ — « تماظ الحنفا بأخبار الحنفا » ( بيت المقدس ١٩٠٨ )
- المقرئى ( ١٠٤١ هـ = ١٦٣٣ م ) : شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ النلساني
- ١٦١ — « نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب » أربعة أجزاء ( بولاق ١٢٧٩ هـ = ١٨٦٢ م )
- ١٦٢ — « أزهار الرياض في أخبار عياض » ثلاثة أجزاء ، ضبطه وحققه وعاق عليه الأساتذة  
مصطفى السقا ، وإبراهيم الإيسارى ، وعبد الحفيظ شلبي ( القاهرة ١٣٥٨ — ١٣٦٠ هـ  
= ١٩٣٩ — ١٩٤١ م )
- ابن منجب ( ٥٤٢ هـ = ١١٤٧ م ) : أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم علي الصيرفي المصري .
- ١٦٣ — « الإشارة لى من نال الوزارة » ( القاهرة ١٩٢٤ م )  
ميجون : ج . Gigeon
- ١٦٤ — "Manuel d'Art Musulman", 2 vols. (Paris, 1927). —  
ميور : وليام تيمبل Muir : William Temple
- ١٦٥ — "The Caliphate, Its Rise, Decline, and Fall (Edinburgh, 1925)." —  
ابن ميسر ( ٦٧٧ هـ = ١٢٧٨ م ) : محمد بن علي بن يوسف بن جلب
- ١٦٦ — « تاريخ مصر » طبعة هنري ماسيه (Henri Massé) ( القاهرة ١٩١٩ م )  
ناصر خسرو ( ٤٨١ هـ = ١٠٨٨ م ) :
- ١٦٧ — سفر نامه (Safar Naméh) Khosrau en Syrie, en Palestine, en Egypte, en Arabie et en Perse", trans. from Persian  
by Charles Schefer (Paris, 1881).
- ابن النديم ( ٣٨٣ هـ = ٩٩٣ م ) : محمد بن اسحق
- ١٦٨ — « كتاب القهرست » جزءان ( لايبسك ١٨٧١ م ) ، ( القاهرة ١٣٤٨ هـ )  
النسبي :
- ١٦٩ — « كتاب مطالب السول في غزوات الرسول » مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط رقم ١٩٧٩  
النعمان ( ٣٦٣ هـ = ٩٧٣ م ) : أبو حنيفة المغربي
- ١٧٠ — « المجالس والمسائرات » ، ثلاثة أجزاء ، مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول ،  
القاهرة رقم ٢٦٠٦٠
- نظام الملك ( ٤٨٥ هـ = ١٠٩٢ م ) .
- ١٧١ — « كتاب سياسة نامه » Siasset Naméh, Traité de Gouvernement, composé  
pour le Sultan Melik-châh Par le Vizir Nizam oul-maulk.  
Texte Persan (ed. by Charles Schefer) 3 vols. (Paris, 1891—1897).
- النونمختى ( ٢٠٢ هـ = ٩١٤ م ) : أبو محمد الحسن بن موسى
- ١٧٢ — « كتاب فرق الشيعة » ( استامبول ١٩٣١ )
- النويرى ( ٧٣٢ هـ = ١٣٣٢ م ) : أحمد بن عبد الوهاب
- ١٧٣ — « نهاية الأرب في فنون الأدب » ، مخطوط منصور بدار السكتب المصرية رقم ٢٥٧٠  
نيكسون . ا . رينولد Nicholson : A. Reynold
- ١٧٤ — « Literary History of the Arabs » ( Cambridge, 1930 )  
ابن هاني . ( ٣٦٢ هـ = ٩٧٣ م ) : أبو القاسم المسكنى بأبي الحسن محمد

١٧٥ — « ديوان ابن هانيء » ( بيروت ١٣٢٦ هـ ) .

هل : يوسف . Hell :

"The Arab Civilisation", trans. from German by Khuda Bukhsh (Cambridge, 1936).

هلال الصابي ( ٤٤٨ هـ = ١٠٥٦ م ) أبو الحسن بن المحسن بن أبي إسحاق إبراهيم الكاتب

١٧٦ — « تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء » ، نشره هـ . ف . أمدروز ، وذيله بفهرس

ومذكرات ( بيروت ١٩٠٤ )

١٧٧ — « الجزء الثامن من تاريخ هلال الصابي » ( ٣٨٩ — ٣٩٣ هـ ) ، نشره أمدروز

( بيروت ١٩٠٤ ) ، وذيل به مرجليوث كتاب « تجارب الامم » لسكويه ( القاهرة ١٩١٩ )

هيد : W. و . Heyd :

"Histoire du Commerce du Levant au Moyen-âge" 2 vols. (Leipzig, 1925). — ١٨٨

وستنفلد : F. Von. فون . Wüstenfeld :

Die Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke" (Göttingen, 1882). — ١٧٩

بافوت ( ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م ) : شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي

١٨٠ — « معجم البلدان » ١٠ أجزاء ( القاهرة ١٣٢٥ هـ = ١٩٠٧ م )

١٨١ — إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » ، طبعة ذكرى جب ( القاهرة ١٩٠٧ — ١٩١١ ) .

يحيى بن سعيد الانطاكي ( ٤٥٨ هـ = ١٠٦٦ م )

١٨٢ — « صلة كتاب أوتيجا » ، جزءان ( بيروت ١٩٠٩ م )

اليقوني ( ٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م ) : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح

١٨٣ — « تاريخ اليعقوبي » جزءان ( طبعة M. Th. Houtsma ، ليدن ١٨٨٣ ) -

١٨٤ — « كتاب البلدان » ، ( طبعة دي غوبه — ليدن ١٨٩٢ )

أبو يوسف ( ١٩٣ هـ = ٨٠٧ — ٨٠٨ م ) يعقوب بن إبراهيم

١٨٥ — « كتاب الخراج » ( بولاق ١٣٠٢ هـ ) و المطبعة الساقية بمصر ١٣٤٦ هـ )



# فهارس الكتاب

## ١ - الأعلام

أحمد بن أبي دؤاد - قاضي المعتز : ٢٢ ، ٥٤  
أحمد بن أسد الساماني - والي فرغانة أيام  
المأمون : ١٥٢

أحمد بن أبي سعيد : ٣٤٢ ، ٣٤٥  
أحمد بن إسماعيل الساماني : ١٥٠ ، ١٥٤  
أحمد بن طولون : ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٥  
٢١٨ ، ٢٣٠ ، ٤٠١ ، ٤٦٣ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧  
٤٩٤ ، ٥٢٠ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٩٠ ، ٥٩٣  
٥٩٤ ، ٦٣٧ ، ٦٦٥

أحمد بن عبدالله بن إسحق - القاضي : ٨٤ ، ٨٥  
أحمد بن علي الكوفي - استأثر بالنفوذ  
أيام ناصر الدولة ووزيره أبي العباس أحمد  
الأصبهاني : ٧٩

أحمد بن عيسى بن الشيخ - ثار في أيام  
المهتدي : ٣٧

أبو أحمد بن المتوكل - انظر الموفق العباسي  
أحمد بن محمد الواسطي : ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٤٤١  
أحمد بن محمد بن المعتصم - انظر المستعين بالله  
الخليفة العباسي

أبو أحمد الموسوي - والد الشريف الرضي : ١٨٨  
أبو أحمد الموفق طلحة - انظر الموفق طلحة  
أحمد بن يحيى - المنجم : ٦٤ ، ٧٢  
أحمد بن ينال تكين - نائب الغزنويين في  
في الهند : ١٧٨

الإخشيدي : ٦٨ ، ٧٣ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥  
٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩

(١) أسماء الرجال :

(١)

إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل - عم نوح  
ابن نصر الساماني : ١٥٧

إبراهيم بن سيمجور - والي خراسان من قبل  
الحميد نوح بن نصر : ١٥٧

أبو إبراهيم إسماعيل - بن نوح الساماني : ١٦١  
إبراهيم بن الأغلبي : ١٤١ ، ٢٢٤ ، ٢٦٨

٢٨١ ، ٢٨٩

إبراهيم الثاني الأغلبي : ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧  
٢٧٨ ، ٣٣٥

إبراهيم بن مسعود - أخو عبد الرشيد  
الغزنوي : ١٨٣

إبراهيم بن المرزبان : ١٩٨

إبراهيم بن المقندر - انظر المقندر العباسي  
إبراهيم بن حمدان - تولى ديار ربيعة : ٢٠٤

إبراهيم بن ينال - أخو طغرل بك : ١٣٢  
إبراهيم بن أنندبال - قائد هندي : ١٧٠

أتامش - من قواد الأتراك : ٣٢

أحمد بن بويه - انظر معز الدولة

أحمد بن بكير : ٢٨٤

أحمد بن الحارث اليماني - الشاعر : ٣٢

أحمد بن حنبل : ٣٧٦ ، ٥٢٦ ، ٥٢٨ ، ٥٣١ ، ٥٣١ ، ٦١١

أحمد بن خاقان : ٤٥٠

أحمد بن الخصب - وزير المنتصر العباسي :

٢٩ ، ٣٢ ، ٤٣ ، ٣١٩

الإصطخرى — أبو إسحق ٥٨٨  
الأصغر — أمير قزوين : ٦٣  
الأصم — أبو بكر : ٥٢٧  
الأصمعي — من العلماء : ٧٢  
أغانا ذيمون — طيب : ٥٦٣  
الفارو — قسيس بالآندلس : ٢٩١  
أفتكين : ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩  
الآفشين — القائد التركي : ٢٠  
ألب أرسلان بن داود السلجوقي : ١٦٨ ، ١٨١  
١٨٢  
ألبتكين — من قواد الأتراك : ١٦٤  
الفونس — أمير ليون : ٢٩١  
أمير الأمراء — انظر ابن رائق  
الأمين — الخليفة العباسي : ٢٦  
أمين الدولة — انظر الحسن بن عماد الكتامي  
أمرق القيس — الشاعر : ٥٦٣  
الآندلسي — ابن حزم : ٥٣١  
الآندلسي — ابن عطية : ٥٢٤  
الآنطاكي — يحيى بن سعيد : ٥٨٢  
أنتدبال — بن جيبال ملك الهند : ١٧٠  
١٧١  
أوتو الأكبر : ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤٣٣  
أنوشروان — كسرى : ٥٦٣  
إلياس بن إسحق الساماني : ١٥٥  
أيك خان : ١٦٩ ، ١٧٠  
إيتاخ : ٢٠

(ب)

بابك الخرمي : ٢٢٣ ، ٣٩٧  
ابن بابك : ٥٥٨  
بأبي بن سعيد — من رجال الدولة البويهية : ٢٠٠  
باديس — استقل بغرناطة ٣٠٨

الأخرم حمزة — جهر بتأليه الحاكم : ٣٦٥ ، ٣٦٦  
الأخفش الأصغر — أبو الحسن علي بن سليمان :  
٥٣٨  
الأخفش الصغير — النحوي : ٥٧  
إدريس بن عبد الله العلوي : ١٤١ ، ٢٧٩ ،  
٣٠٢  
إدريس الثاني : ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٣١٢  
أردون الثاني — ملك جليقه : ٢٩٦ ، ٢٩٧  
٢٠٠ ، ٢٦٠ ، ٦٦١  
أرسطو : ٣٦١  
إسحق بن إبراهيم الموصلی : ٦٢٤  
إسحق بن أحمد بن أسد الساماني : ١٥٤ ، ١٥٥  
ابن إسحق — حنين : ٥٦٧ ، ٥٦٨  
إسحق بن كنداج — عامل الموصل والجزيرة :  
٢٦ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٨  
إسحق بن محمد بن عبد الحميد : ٢٨٠  
الأسدي — ابن جرو : ٥٢٧ ، ٥٣٨  
الأسدي — أبو العلاء : ٥٥٨  
الإسرائيلي — موسى بن العازار : ٥٧٤  
الأسفرائيني — أبو حامد : ٥٢٤  
إسفنديار — ابن أبي كاليبجار : ١٣٥  
إسماعيل بن أحمد الساماني : ١٤٨ ، ١٤٩ ،  
١٥٢ ، ١٥٤ ، ٥٥٠  
إسماعيل بن جعفر الصادق — إمام الإسماعيلية :  
٤٠ ، ٢٤٧ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢  
إسماعيل بن سبكتكين — أخو محمود الغزنوي :  
١٦٦ ، ١٧٧  
الإسماعيلي — أبو معمر : ٥٥٨  
الآشعري — أبو الحسن : ٣١٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٣  
٣٨٤ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٧  
اشناس — القائد التركي : ٢٠  
الآصهاني — رجاء بن الوليد : ٥١٨

باسل الأول : ٤٠١ ، ٤١٤  
باسل الثاني : ٤٠٩  
باغر التركي — أحد مدبري قتل المتوكل :  
٢٢٠ ، ٢٧  
الباقلاني — أبو بكر : ١٢٥ ، ٥٣٥  
باكباك — أحد قواد الأتراك أيام المهدي : ٣٨ ،  
٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١  
البتاني أبو عبد الله الصابي المنجم : ٥٧٧  
البحترى — أبو عبادة : ٢٧ ، ٤٩ ، ٥٤٢ ، ٦١٨  
بجكم — من غلمان مرداويج الديلمي : ٦٣ ، ٧٠ ،  
٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨٨ ، ٩٣ ،  
١٤١ ، ١٩٤  
البخاري : ٤٦ ، ٥٢٦ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠  
بختيار بن معز الدولة : ٣٥٤ ، ٤٢٧ ، ٤٦٧  
بختيشوع — الطيب : ٥٦٧  
بدر الجمالي : ٢٦٦ ، ٥٩٥  
بدر بن حسنيوه — انظر مذهب الدولة صاحب  
البطيحة  
بدر الكبير — من قواد الدولة العباسية : ٥١ ،  
٥٢ ، ١٥٠ ، ٣٢٨  
بديع الزمان الهمداني : ٥٦٠  
البرازلي — استقل بقرمونة : ٣٠٨  
برجوان — تولى الوصاية على الخليفة الحاكم :  
٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٤٤٤  
ابن برد — بشار : ٤٥٠  
برفكتوس —  
قبس بالاندلس : ٢٩١  
البريدي — صاحب الأهواز : ٦٧ ، ٧٠ ،  
٧٣ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٩٣ ، ١٠٠ ، ١٠١  
البراز : ٥٣  
البياسيري : ١٣٥ ، ١٢٦ ، ١٣٧ ، ١٩٤ ، ٦٢٤  
البيسي — أبو سليمان محمد : ٥٦٥

البيسي — أبو الفتح : ٥٦١ ، ٥٦٦

البشاري — أبو عبد الله محمد : ٥٨٨

بشر بن صفوان : ٢٧٣

ابن البطريق — المشهور باسم أوتياح Eutychius :

٥٨٢

بغا الصغير : ٢٧ ، ٢٢ ، ٣٥ ، ٤٢٢

بغا الكبير : ٢٦ ، ٢٢ ، ٤٠ ، ٤٢٢

البغدادى — أبو بكر أحمد بن علي الخطيب : ٥٨٦

بغراق — عم محمود الغزنوي : ١٦٦

بغراخان التركي — صاحب بلاد تمتد من حدود

الدولة السامانية شرقاً حتى حدود الصين : ١٦٠ ،

١٦١ ، ١٦٧

ابن بنية — وزير عز الدولة بختيار : ١١٠

بكتوزون — أمير الجيش في أيام أبي الحارث

منصور الساماني : ١٦١ ، ١٦٦ ، ١٦٧

أبو بكر الصديق : ٢٢ ، ٢٣ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨

أبو بكر المادرائي : ٤٧٨

بكر بن مالك — قائد عبد الملك بن نوح

الساماني ١٥٨

أبو بكر محمد بن جعفر النقيب — صاحب

الشرطة أيام المتقي ببغداد : ٨٥

أبو بكر محمد بن رستم : ٤٤١

أبو بكر محمد بن طغج أنظر الإخشيد ،

ابن بكير — عمر : ٥٢٤

البلاذري : ٤٩

البلخي — أبو زيد : ٥٨٣

البلخي — أبو القاسم : ٥٣٧

البلخي — أبو معشر : ٥٦٣ ، ٥٧٦

بلكاتكين — مملوك إسحق بن ألبتكين : ١٦٤

بلسكين بن زيري بن مناد الصنهاجي : ٢٥٥ ،

٢٥٦ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٣٥٧

بهاء الدولة البويهي : ١١٥ ، ١٢١ ، ١٨٩ ، ١٩٠

الجرجاني — أبو الحسن بن عبد العزيز : ٥٥٨

الجرجاني — نجيب الدولة علي : ٢٦٤ ، ٢٦٥

الجرجاني أبو جعفر محمد بن الفضل : ٢٣

جستنيان : ٣٤١

أبو جعفر الساماني — القاضي : ١٢٨

أبو جعفر بن شيرزاد — انظر ابن شيرزاد أمير

الأمراء

جعفر الصادق : ٣١٧ ، ٣٢٠

جعفر بن عثمان : ٢٢٨

جعفر بن فلاح : ٢٥٤ ، ٢٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧

أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخي — وزير

الراضي : ٦٥ ، ٧٧

أبو جعفر محمد بن نصر بن أحمد — أخو الأمير

نوح بن نصر : ١٥٨

جعفر بن المعتمد — انظر المفوض إلى الله

أبو جعفر المنصور : ٢٢٨

جعلان — أحد قواد الترك : ٣٣٧

جلال الدولة — أخو سلطان الدولة البويهية : ١٩١

جلال الدولة — انظر محمد بن محمود الغزنوي

جلال الدولة — بن بهاء الدولة : ١٢٥ ، ١٢٦

١٣٠ ، ١٣١

جلال الدولة — بن بهاء الدولة : ١٩٢

جمال الدولة — انظر عبد الرشيد الغزنوي

جندبال — صاحب قلعة آسي بالهند : ١٧٢

جندراي — صاحب قلعة شروة بالهند : ١٧٢

الجنيدي — شيخ الصوفية : ٥٧ ، ٣٨٦

جوهر الصقلي : ٢٤٤ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣

٢٥٤ ، ٢٥٥ — ٢٥٨ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨

٤٥٠ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦

الجوهري — أبو الحسن صاحب كتاب

الصحاح في اللغة : ٥٣٩ ، ٥٥٨

جون زيميسيس : ٤٠٧ ، ٤٠٨

١٩١ ، ١٩٩ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٥٩١

بهرذا — صاحب الزنج : ٣٧٨

بهرام جور — أحد ملوك الفرس : ٩٤

١١٤ ، ١٥٢

بهم — صاحب إقليم أنهلوارة بالهند : ١٧٣

بورق — كبير الفتيان في قصر أبي عامر : ٣٠٥

البيروني — أبو الريحان : ٥٧٧ ، ٥٨٦

بويه — ابن أبي كاليبجار : ١٣٥

بيرى — أحد أهالي غزنة — تولى حكمها بعد

بلكاتكين الغزنوي : ١٦٤

### (ت)

الترمذي : ١٣ ، ٤٦ ، ٥٣ ، ١٣٠

أبو تغلب الحمداني : ١١٠ ، ١١١ ، ٣٥٤ ، ٤٠٨

تكينك التركي : ٧٤ ، ٧٥

تيم بن المعز بن باديس : ٤١٥

التميمي : أبو عبد الله محمد بن أحمد : ٥٧٣

توزون التركي : ٧٤ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٥ ، ٨٦

٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ٢٠٤

ابن توفيل — سعيد : ٥٧٢

توماس الصقلي : ٣٩٧

تيوفيلس : ٣٩٧

### (ث)

ثابت بن قرة الحراني — الرياضي المشهور : ٤٩

الثعالبي : ٥١٨ ، ٥٤٠

ثعلب — إمام العربية : ٥٣

ابن أبي الثياب — أبو محمد : ٥١٨

### (ج)

الجاحظ — أبو عمرو بن بجر : ٥٣٥ ، ٥٣٩ ، ٥٥٥

جان دي جورترا : ٤١٧

الجبائي — شيخ المعتزلة : ٥٧ ، ٥٢٧ ، ٥٣٧

ابن جني — من علماء اللغة : ٥٣٩

أبو الحسن علي البهبهي — انظر نجر الدولة  
الحسن العسكري — الإمام الحادي عشر عند  
الإمامية الاثنا عشرية : ٣١٨

الحسن بن علي : ٣٢٠ ، ٣٢١  
أبو الحسن علي بن عيسى — من رجال المتقي  
العباسي : ٧٧

الحسن — أبو محمد زعيم الكشامين : انظر  
ابن عمار  
أبو الحسن علي بن محمد بن القرات — انظر  
ابن القرات

أبو الحسن علي بن مسعود الأول الغزنوي : ١٨٢  
الحسن بن القاسم اللواتي : ٢٨٤  
الحسن القرمطي : ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨  
الحسن بن الفيرزان — من رجال السامانيين : ١٥٩  
الحسن بن محمد : ٢٨٣

الحسن بن إدريس — المعروف بالحجام : ٨٣  
الحسن بن مخلد وزير المعتمد وكاتب الموفق :  
٤٦ ، ٤٣٦

أبو الحسين أحمد بن بويه — انظر معز الدولة  
أبو الحسين أحمد بن عضد الدولة — أخو صمصام  
الدولة : ١٨٩

أبو الحسين أحمد بن ميمون وزير المتقي —  
انظر ابن ميمون الوزير  
أبو الحسين الأهوازي : ٣٢٤ ، ٣٤٠  
أبو الحسين الأنباري — الشاعر : ١١٠ ، ٥٣٨  
أبو الحسين البريدي : ٧٦

الحسين بن حمدان : ١٥٠ ، ٢٠٣ ، ٢٧٤  
الحسين بن زكرويه : من القرامطة : ٥٢ ، ٣٢٨  
الحسين بن طعج — أخو الإخشيد : ٦٨ ، ٥٧٣  
الحسين بن علي : ٢٣ ، ٣٠ ، ١٠٤

جيبال — أحد ملوك الهند : ١٦٥ ، ١٦٩

(ح)

حاتم بن زيرك بن سلام — رسول المعتمد  
العباسي إلى يعقوب بن الليث الصفاري : ١٤٣  
أبو الحارث أرسلان البساسيري — انظر البساسيري  
أبو الحارث منصور الساماني : ٦١

أبو حازم — قاضي الشرقية : ٥٢  
الحاكم — أبو سليمان : ٣٠٠  
الحاكم الفاطمي : ٣٥١ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ،  
٦٥٩ ، ٥٢١

حامد بن العباس : ٣٩٢ ، ٤٣٨  
أبو حامد الأنطاكي — شاعر : ٢٥٨ ، ٥٥٣  
حبيب بن أبي عبيدة : ٢٧٣  
ابن حجاج : ٥٥٨

حسام الدولة سيد الأمة — انظر أبو القاسم  
ابن بختيار

حسداي بن شبروط اليهودي : ٦١٦  
أبو الحسن الأبهري — أحد رجال بهاء الدولة  
ابن بويه : ١٢٩

الحسن بن بويه — انظر ركن الدولة  
الحسن البصري : ٥٥٥

حسن بن جعفر النوبختي : ٣١٨  
أبو الحسن جوهر — انظر جوهر الصقلي  
الحسن بن حيدرة الفرغاني : ٣٦٤ ، ٣٦٥

الحسن بن زيد العلوي — مؤسس الدولة العلوية  
بطرستان : ٣٧ ، ١٤٣ ، ١٤٦

الحسن بن عبد الله الحدادي — انظر ناصر الدولة  
ابن حمدان

أبو الحسن علي الإخشيد : ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٧  
الحسن الأعصم : ٣٤٠ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧

ابن خاقان — الفتح : ٥٤٢، ٢٨٠، ٢٧٠، ٢٦٠، ٢٥٠ :  
خاقان المقلحي : ٥١  
ختكين — داعي الدعوة في عهد الحاكم الفاطمي :  
٣٦٧، ٣٦٥  
خرخيز — نائب الغزنويين في الهند : ١٨٢  
ابن خرداذبه — الجغرافى : ٦١٩، ٥٨٧  
الخرزجى — أبو دلف : ٥٥٨  
ابن خلدون : ٥٤٠  
خلف بن أحمد — أمير سجستان من قبل  
السامانيين : ١٦٧، ١٥٨  
الخليل بن أحمد : ٥٢٧، ٥٢٨  
خمارويه بن أحمد بن طولون : ٤٢، ٤٤، ٤٥  
٢٣٠، ٢٢١، ٤٨٢، ٤٨٧، ٦٢٩، ٦٢٤  
٦٣١، ٦٥٥، ٦٦٣، ٦٦٥  
الخوارزمى — أبو بكر : ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٦١  
خوashedه : ١١٩  
الخياط — أبو الحسين عبد الرحيم : ٥٢٦  
خيران — من البربر الثائرين على المستعين بالله :  
٣٠٩، ٣١٠، ٣١١  
ابن خيلان — يوحنا : ٥٦٥  
(د)  
داذا بن منومهر بن قابوس بن وشمكير — والى  
مسعود الأول على جرجان وطبرستان : ١٧٨  
داود — أخو طغرل بك السلجوقى : ١٨٢  
أبو داود — السجستانى : ٤٦، ٥٢٦، ٥٣٠  
داود بن حمدان — مولى ديار ربيعة : ٢٠٤  
داود بن محمد بن أبي العباس الطوسى — من  
رجال المتوكل : ٢٦٠  
ديس بن عفيف الأسدى — قائد كردى : ١٩٩  
الدرزى — محمد بن إسماعيل أنوشتكين : ٣٦٤، ٣٦٦  
ابن دريد : ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٨  
الدمستق : ٤٠٥، ٤٠٦

الحسين بن على — من قواد جيش المكتفى : ٥٢  
الحسين بن على المروروذى : ٣٤١، ٣٤٢  
الحسين بن على بن النعمان : ٤٩٦  
الحسين القدورى — الفقيه : ٣٥١  
حفص بن حميد الصالح : ١٧١  
حماد بن سلة : ٥٢٨  
ابن حفصون : ٢٩٢  
الحكم الأول الأندلسى : ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠  
٣٥٧  
الحكم الثانى — المستنصر : ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١  
٤٣٣  
الحلاج — الحسين بن منصور : ٣٨٨ — ٣٩٢  
الخلواتى : ٣٤٤  
حمدان قرمط : ٢٢٥، ٢٢٧، ٤٦١  
حمديس — ثار على إبراهيم بن الأغب : ٣٦٩  
حمزة بن على الزوزنى — من غلاة الإسماعيلية :  
٣٦٤، ٣٦٨، ٣٦٩  
حمزة بن اللباد الأجمعى : ٣٦٥  
حمود بن ميمون : ٢٨٦  
ابن حنزابه — انظر الفضل بن جعفر بن القرات  
ابن حميد الوزير : ٢٧٥  
حمويه بن على — من قواد السامانيين : ١٥٥  
أبو حنيفة النعمان المغربى : ٣٦٣  
أبو حنيفة الدينورى — انظر الدينورى  
أبو حنيفة الإمام : ٢١٩  
ابن حنين — أبو يعقوب إسحق : ٥٦٧،  
٥٦٨، ٥٦٩  
ابن حوشب — داعى الشيعة فى اليمن : ٣١٩، ٣٢٤  
٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٤٢، ٣٦١  
ابن حوقل : ٥٨٨  
(خ)  
الخازن — أبو محمد : ٥٥٨

الروذراورى — محمد بن الحسن : ٥٨٦  
رومانوس : ٤٠٦ ، ٤٠٣  
ابن الرومى : ٥٤٤ ، ٥٢٠ ، ٤٩  
ريحان — زعيم الأتراك : ٢٦٥  
ريحان الكتامى : ٢٨٣

( ز )

الزيدى — أبو بكر : ٥٤٠  
الزجاج — النحوى : ٥٣٨ ، ٥٧  
زرعة بن نسطورس : ٤٤٤ ، ٢٦١  
زرياب — على بن نافع المغنى مولى الخليفة  
المهدي : ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥  
٦٤٤ ، ٦٤١ ، ٦٢٧  
الزغفرانى — أبو القاسم : ٥٥٨  
زكرويه — من علماء القرامطة : ٥٢ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩  
ابن زكريا — الطيب : ٥٧  
أبو زكريا السامانى — عم عبد الملك بن نوح السامانى :

١٦١

الزنجبلى — أبو الحسن على : ٦٦٥  
الزوزنى — أبو على : ٥١٨  
ابن زولاق — الحسن : ٢٥٨ ، ٥٨٤  
الزيات — محمد بن عبد الملك الوزير : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤٩

زيد بن سهل : ٢٧٢

زيادة الله بن الأغب : ٢٤٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١

٢٧٢

زيادة الله الثانى والثالث : ٢٧٥ ، ٢٧٨

زيد بن على زين العابدين : ٣١٧

ابن زيرك — الحسن : ٥٧٢

زيرى بن مناد الصنهاجى : ٢٥٢ ، ٢٥٥

٢٨٥

( س )

أبو السائب القاضى : ٨٨

الدؤل — أبو الأسود : ٥٢٧  
ابن أبى دينار — من أساتذة المكتفى : ٤٩ ، ٥٣  
الدينورى : ٤٩ ، ٥١٨ ، ٥٨٢  
( ذ )

ذو النون المصرى — أبو الفيض : ٥٢٠

( ر )

راجا إليار — من قواد الهنود : ١٧٠ ، ١٧٣  
راجا أوجين — من قواد الهنود : ١٧٠  
راجا كالنجار : ١٧٠ ، ١٧٣  
راجا مهبان — صاحب قلعة كلجنند بالهند : ١٧٢ ، ١٧٣

الرازى — أبو بكر : ٤٩٠ ، ٥٦٩

الرازى — أبو حاتم : ٢٤١

الراضى بالله : ٦٣ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ١٠٠ ، ١٨٦

١٩٤ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٥٧٧ ، ٥٨٣ ، ٦٢٠

رافع بن هرثمة — نائب محمد بن طاهر فى

خراسان : ١٤٨

ابن راهويه — إسحق : ٥٣٢

الراوندى — أحمد بن يحيى : ٥٣٦

الربيع بن سليمان — تلميذ الإمام الشافعى :

٢٣٣ ، ٢٨٢ ، ٥٢٠

ردمير — خليفة أردون : ٢٩٧

رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب : ٢٤٧

رستم بن المرزبان — خال مجد الدولة بن مخر

الدولة : ٢٠٠

ابن رضوان — أبو الحسن على : ٥٧٤

ابن رفاعه — زيد : ٥٦٥

ركن الدولة : ١٩٤ ، ٢٠٢ ، ٥٥٧

أبو ركوه : ٢٦١

روجر الترمندى : ٢٤٩ ، ٢٦٥ ، ٥٤٦ ، ٥٩٩

سلطان الدولة : ١٢٥٠ ، ١٢٧٠ ، ١٩٠٠ ، ١٩١٠  
سليمان بن جرير : ٢٨٠  
سليمان الساماني — عم عبد الملك بن نوح الساماني :  
١٦١  
سليمان بن الحسن بن مخلد — وزير الراضي : ٦٥  
ابن سليمان — أنظر الربيع  
سليمان بن وهب — أحد وزراء المهدي : ٣٧ ،  
٤٣٥  
ابن سهل — الحسن : ٥٢٤  
أبوسهل الحمدوني — قائد مسعود الأول : ١٧٨  
أبوسهل بن مقشر النصراني — طبيب الحاكم  
٢٦١  
ابن سيار — أبو إسحق إبراهيم : أنظر النظام  
سيف الدولة الحمداني : ٢٢٧ ، ٢٤٠ ، ٢٢٢ ،  
٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٥٥٨ ، ٥٤٦ ، ٥٢٠ ، ٤٠٥ ،  
سيف الدولة — أنظر محمود بن سبكتكين  
سيف الدولة — أنظر ابن عبد الرشيد  
سيف الدولة بن دواس — مدير قتل الحاكم  
الفاطمي : ٢٦٢ ، ٢٦٣  
سيمجور — غلام أحمد بن إسماعيل الساماني :  
١٥٤ ، ١٥٦  
ابن سيمجور — أبو القاسم من رجال الدولة  
السامانية : ١٥٩ ، ١٦١  
ابن سينثا — أبو علي : ٥١٩ ، ٥٥٠ ، ٥٦٥ ،  
٥٦٦ ، ٥٧١ ، ٥٧٦  
السيوطي : ٥٨٥  
(ش)  
الشابشتي — أبو الحسن علي : ٥٨٤  
الشاشي — إسماعيل : ٥٥٨  
أبو شامة : ٥٢١  
ابن شبروط — مترجم : ٥١٤  
أبو شجاع بن بهاء الدولة — أنظر سلطان الدولة  
أبو شجاع بويه — جد البويهيين : ٩٤ ، ١٠٩٥ ، ١٠١٠

سابور — خادم وأم المقندر : ٥٩  
سابور بن طاهر : ٣٤٤ ، ٣٤٥  
ابن أبي الساج — محمد أحد قواد المعتمد : ٥٨ ، ٢٣٠  
ابن أبي الساج — يوسف : ١٥٦ ، ٦٣  
سالم بن غلبون — أمير الزاب : ٢٧٥  
سامان — جد السامانيين : ١٥٢  
سانشو : ٢٩٦ ، ٢٩٧  
سبكتكين — أبو محمود الغزنوي : ١٠٧ ،  
١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ٥٦١  
السجستاني — أبو داود : ٥٢٦ ، ٥٣٠  
سجبال — قائد هندي : ١٨١  
ابن سريج — أبو العباس : ٥٣١  
ابن سعد — الليث : ٥٢٨  
سعد الدولة — بن سيف الدولة : ٣٥٥  
أبو سعد — من أصحاب القائم : ١٣٦ ، ٤٤٧  
أبو سعد خسرو شاه — بن أبي كاليبجار : ١٣٥  
ابن سعيد : ٥٨٤  
أبو سعيد التستري — ناظر خاصة أم الخليفة  
المستنصر : ٢٦٥  
سعيد التنوخي : ٤٩٠  
أبو سعيد الجنابي — مؤسس دولة القرامطة  
بالبحرين : ٤٧ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ، ٤٣٧  
سعيد بن حمدان — والي نهاوند : ٢٠٤  
سعيد الخادم — قاتل المستعين بالله : ٣٤  
أبو سعيد عبد الله بن أبي ثوبان المغربي : ٤٩٥  
أبو سعيد العمري — رئيس الإمامية الاثنا  
عشرية : ٣١٨  
سعيد بن نوفل : ٢٢٨ ، ٢٢٩  
سفيان الثوري : ٥٢٨ ، ٥٢٢  
أبو سفيان : ٣٣٤  
ابن سكره : ٥٥٨  
سلامة — حاجب القاهر : ٥٨



(ض)

الضبي - أبو العباس : ٥٥٨ ، ٥٣٨

(ط)

طارق بن زياد : ٦١٤ ، ٢٦٨  
أبو طالب بن بنت الزيدى الحسيني : ٤٩٦  
أبو طالب كأمرؤ - ابن أبي كاليبجار : ١٣٤  
أبو طاهر - قاضي قضاء مصر زمن الفتح  
القاطمي : ٤٩٥ ، ٤٩٦  
أبو طاهر - انظر جلال الدولة  
طاهر بن الحسين : ١٤٢ ، ٣٠  
طاهر بن خلف - صاحب سجستان : ١٩١  
أبو طاهر الجنابي القرمطي - من زعماء  
القرامطة بالبحرين : ٦٣ ، ٧٣  
طاهر بن هلال بن بدر بن حسنويه - من  
رجال البويهيين : ٢٠١  
أبو طاهر فروز شاه : ١٨٩  
أبو طاهر القرمطي : ٣٣٩  
الطائع العباسي : ١٩٩ ، ٦٥٤  
الطبري - محمد بن جرير : ٥٢٤ ، ٥٢٥  
٥٢٦ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٨٢

طغيع الإخشيدى : ٣٢٧

طغرليك السلجوقي - زوج أخت مودود  
الغزنوي ومغتصب العرش بعد مقتل  
عبد الرشيد : ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ،  
١٩٣

طوقا الزهيري - من الخوارج : ٣٧٣  
ابن طيفور - طيب المنتصر : ٣١

(ع)

ابن عائشة - من العلماء في عصر الرازي : ٧٢  
عامر بن عبد الله الرواحي : ٣٥٦  
عامر بن نافع : ٢٧٢  
ابن عباد - الصاحب إسماعيل الكاتب : ١١٩ ،  
١٩٩ ، ٤٤٠ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠

شرلمان : ٣٩٠ ، ٤١٢

شرف الدولة بن بويه : ١١٩ ، ١٨٨ ، ٦٥٤

ابن شريح - شيخ الشافعية : ٥٧

الشريف الرضي - الشاعر : ١٢٢ ، ٣٥١

شفيع اللؤلؤي - صاحب بريد مصر : ٤٦٢

أبو الشلعلع - أحمد بن ميمون القداح : ٣٢٤

الشلغاني - من المتصوفة : ٣٩٣

الشمخ - انظر سليمان بن جرير

شمس الدولة بن نحر الدولة بن بويه - صاحب

شمس المعالي قابوس - بن وشمكير : ٥١٦ ،

٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٧٢ ، ٥٨٦

شمس المعالي قابوس بن وشمكير : ٢٠١ ، ٢٠٠

الشهرزوري - أبو جعفر : ٥٥٨

شهريار بن شروين - الإصبهني : ٢٠٠

ابن أبي الشوارب - من رجال المعتز : ٣٥ ، ٤٩٣

شيدان بن أحمد بن طولون : ٢٣١ ، ٢٣٣

الشيبياني - علي بن هارون : ٥١٨

ابن شيرزاد - أمير الأمراء : ٧٤ ، ٧٥

٧٦ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٧

١٠٤ ، ٩٤ ، ٨٩

الشيرازي - أبو إسحق : ٥٣٢

(ص)

الصافي - أبو إسحق إبراهيم : ٥١٩ ، ٥٥٦

٥٥٨ ، ٦٥٤

الصافي - هلال بن المحسن بن إبراهيم : ٥٨٢

أبو صالح - عبد الله محمد : ٣٤٥

صالح بن مخلد - من رجال الموفق : ٤٣

أبو صالح منصور الساماني : ١٥٥

صالح بن وصيف - أحد قواد الأتراك :

٣٦ ، ٣٥

الصليحي - علي بن محمد : ٢٣٨ ، ٣٥٦

صمصام الدولة : ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٨٨ ، ١٩٠

١٩٩ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨

الصيمري - محمد بن إسحق القاضي : ٥٥٥

انظر البريدى

عبد الله بن تومرت - مؤسس دولة

الموحدين : ٣٥٧

أبو عبد الله الحسين بن محمد - أنظر العميد

أبو عبد الله بن سعدان - من رجال عضد

الدولة : ١١٢

أبو عبد الله الشيعي : ٤٧ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦

عبد الله بن طاهر : ٥٠١ ، ٢٠

عبد الله بن طباطبا العلوي : ٢٢١

عبد الله بن العباس : ٤٦

عبد الله بن عباس الشاوري : ٣٣٨

عبد الله بن عزيز - وزير نوح الثاني الساماني

: ١٦٠

أبو عبد الله بن قبيصة - أنظر المعتز الخليفة العباسي

أبو عبد الله محمد - والد أبي الفضل بن العميد : ١٨٤

أبو عبد الله محمد بن عيسى - القاضي : ٨٠

عبد الملك الأول بن نوح الساماني : ١٥٨ ، ١٥٩

عبد الملك الثاني بن نوح الساماني : ١٦١

: ١٦٤ ، ١٦٧

عبد الواحد بن المتقي : ٨١

عبد الوهاب بن المنتصر العباسي : ٢٩

عبدون - وزير الحاكم الفاطمي : ٢٦١ ، ٤٤٤

عبيد الله بن سليمان بن وهب - وزير المعتضد : ٤٧

عبيد الله بن عبد الله بن طاهر : ٣٤

عبيد الله : أنظر المهدي

عبيد الله بن يحيى بن خاقان : ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٤٣٥

عز الدولة - أنظر عبد الرشيد الغزنوي

عز الدولة بختيار : ١٠٣ ، ١١١ ، ١٢٤ ، ١٨٧

: ١٨٨ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٣٥٤ ، ٤٢٧

: ٤٦٧

عزيز بن السري : ١٤٣

العزيز بالله الفاطمي : ١١١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ -

: ٢٥٩ ، ٢٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥٤ ، ٣٥٧

: ٤٠٩ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٧٤ ، ٥٧٦

عسلوج بن الحسن : ٤٨٨

٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٧٧

ابن عباد - المعتمد : ٣١٤

العباس بن أحمد بن طولون : ٢١٩ - ٢٢٣ ، ٢٢٦

أبو العباس أحمد بن عبد الله الأصبهاني - وزير

ناصر الدولة الحمداني : ٧٩

العباس بن الحسن - وزير المكتفي : ٥٣ ، ٥٤

أبو العباس خوارزم شاه مأمون - صاحب

بلاد الخزر : ١٧١ ، ٥١٩ ، ٥٧١

العباس بن عمرو الغنوي - من رجال المكتفي :

: ٥١ ، ٣٢٩

ابن أبي عامر - المنصور الحاجب : ٢٨٦ ،

: ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٤٣٢ ، ٤٤٨

: ٤٥٢ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٦٠٥ ، ٦١٦

أبو العباس بن الموفق - أنظر المعتضد بالله

عبدان - صهر حمدان قرمط : ٣٢٦ ، ٣٢٧

ابن عبد الحكم - المؤرخ : ٢٢٣ ، ٥٢٠

أبو عبد الرحمن العمري : ٢٢٢

عبد الرحمن بن عيسى بن داود بن الجراح -

وزير الراضي بالله : ٦٥

عبد الرحمن بن محمد بن محمود الغزنوي :

: ١٨٢ ، ١٨٣

عبد الرحمن الناصر الأموي : ٧٣ ، ١٤١ ،

: ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ -

: ٢٩٩ ، ٣٩٧ ، ٤١٧ ، ٤٤٨ ، ٤٦٥ ، ٤٨٩

: ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦١٥

: ٦١٧ ، ٦٤٧

عبد الرحمن الأوسط : ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٧ ،

: ٦٤١ ، ٦٢٦

عبد الرحيم بن محمد بن محمود الغزنوي :

: ١٧٩ ، ١٨٠

عبد الرشيد بن محمود الغزنوي : ١٨٢ ، ١٨٣

عبد الله بن أحمد بن حنبل - من العلماء : ٥٣

أبو عبد الله أحمد بن علي الكوفي - كاتب

أبي بكر بن رائق : ٧٧

أبو عبد الله البريدي - صاحب الأهواز :

علي بن محمد - قائد الزنج : ٢٧٥  
أبو علي محمد بن إلياس : ١٥٦٠٧٣  
علي بن هارون - المنجم : ٦٤  
علي بن يحيى - المنجم : ٣٠٠٣١٠٣٣٩  
عماد الدولة علي بن بويه : ٨٥٠٧٣٠٨٩٠٩٣  
١١٩٠١٠٦٠١٠٥٠١٠١٠١٠٠٠٩٩٠٩٥  
١٩٥٠١٩٤٠١٨٧٠١٨٤٠١٦٥  
ابن عمار - أبو محمد الحسن المغربي : ٢٦٠  
٤٤٧٠٤٤٣  
عمر بن حفصون : ٢٤٥  
عمر بن الخطاب : ٢٢٠٥٠٠٠٥٢٧٠٥٢٨  
عمر الخيام : ٥٥٠  
عمران بن شاهين - من رجال البويهيين : ١٩٦  
عمر بن عبد العزيز : ٢٣٠٢٨٠١٢٣  
عمرو بن الليث الصفار : ٤٧٠١٤٢٠١٤٨  
١٥٠٠١٥٢٠١٥٣٠١٥٤  
العميد - أبو عبد الله الحسين : ٩٩٠٣٣٩٠٤٤٠  
ابن العميد - أبو الفتح : ٩٩٠١٠١٠١١١٠  
١٩٦٠١٩٧٠٥٥٦٠٥٥٧٠٥٦٥  
عيسى بن إدريس : ٢٨١  
عيسى بن المنكدر : ٥٠١  
عيسى المالكي - من رجال الراضي : ١٠٠٠  
عيسى بن فرخان شاه - أحد وزراء المهدي : ٣٧  
عيسى بن نسطورس : ٢٥٩٠٢٦٠٠٤٤٣

(ع)

الغالب بالله - انظر ابن المعتز  
الغالب بالله - انظر أبو الفضل بن القادر  
أبو غالب - مؤدب الراضي وهارون : ٧١  
أبو القرائيق - محمد بن أحمد الأغلبي :  
٢٧٥٠٢٧٦  
غريب الخال - من رجال المقتدر : ٥٤  
الغزالي : ٣١٧٠٣٨٣٠٣٩٣٠٥٣٣  
أبو الغنائم - من أصحاب القادر : ١٣٦  
غياث داعي الإسماعيلية في اليمن : ٣٤١٠٣٤٢

أبو عصام - ثار علي إبراهيم بن الأغب : ٢٦٩  
عضد الدولة : ١٠٦ - ١٠٩٠١١٩٠١٦٠٠  
١٨٧ - ١٩٥٠١٩٠ - ٢٠٣٠١٩٨  
٥٧١٠٤٦٠٠٤٢٦٠٣٥٠  
عقبة بن نافع : ٢٦٨٠٣٣٥٠٥٩٧  
عقيل بن أبي طالب : ٣٢٣  
ابن العلاء - عمرو : ٥٣٧  
ابن أبي العلاء - أبو القاسم : ٥٥٨  
أبو العلاء صاعد - قاضي نيسابور : ٤٩٠  
علاء الدولة أبو جعفر بن كاكويه - والي أصبهان  
من قبل محمد الدولة البويهى : ١٧٨٠٢٠١  
٢٠٢٠٥٦٦٠٥٧٢  
الغلاف - أبو الهذيل : ٥٣٥  
أبو علي بن إسماعيل - من زعماء الديلم :  
١٩٠٠١٩١  
علي بن بويه - انظر عماد الدولة  
أبو علي التميمي : ٤٠٩  
علي بن جعفر بن فلاح : ٤٤٤٠٤٤٩  
علي بن حمود بن أبي عيسى : ٣٠٩٠٣١٠٣١١  
علي بن أبي حنيفة : ٤٩٥  
علي بن الجعد - من العلماء في عهد الراضي : ٧٢  
أبو علي خويشادة - من رجال الغزنويين : ١٧٩  
أبو علي رستم - من رجال البويهيين بفارس : ١٨٤  
علي بن رضوان - نبيخ في الطب : ٢٥٨٠٥٧٤٠٥٧٥  
أبو علي بن سينا : ٣٨٣٠٥٧١٠٥٧٢  
علي بن الشيخ : ٢٢٤٠٢٢٥  
علي بن عيسى - وزير المقتدر : ٥٤٠٥٥٠  
٣٥٩٠٣٩٢٠٣٩٣٠٤٣٧٠٤٣٨  
علي بن الفضل النخعي : ٣٣٢٠٣٣٧  
أبو علي فناخسرو - أخو الملك الرحيم : ١٣٥  
أبو علي بن محتاج - والي بخارى من قبل  
السامانيين : ١٥٧٠١٥٨٠١٩٤٠١٩٥  
علي بن محمد - الملقب بمجدرة : ٢٨١  
علي بن محمد بن مقلة - انظر ابن مقلة

(ف)

- فائق الخاصة — غلام نوح بن نصر : ١٦٠ ،  
١٦١ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧  
الفارابي — أبو نصر : ٥٦٥ — ٥٦٧ ، ٥٧٥  
الفارسي — أبو إسحق من علماء بخارى في عهد  
نصر بن أحمد الساماني : ٥١٨  
الفارسي — أبو علي : ٥٣٩  
الفاكهي : ٥٨٧  
أبو الفتح البستي — انظر البستي  
أبو الفتوح المؤرخ داود — صاحب الملتان :  
١٧٠ ، ١٧١  
نجر الدولة الحسن بن بويه : ١٨٨ ، ١٩٩ ،  
٢٠٠ ، ٥٥٧  
الفرام — صاحب كتاب معاني القرآن : ٥٢٤  
ابن الفرات — جعفر الوزير المصري : ٢٥٣ ، ٢٥٥  
ابن الفرات — وزير المقتدر : ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٧ ،  
٤٣٦ — ٤٣٨  
أبو الفرج الأصفهاني : ٣٠١  
الفردوسي : ١٨٣ ، ٥٥١  
فروخ زاد الغزنوي : ١٨٢  
أبو الفضل جعفر بن المعتصم : انظر المتوكل  
أبو الفضل محمد بن العباس بن الحسين — كاتب  
معز الدولة بن بويه : ١٠٦  
أبو الفضل بن القادر العباسي : ١٢٤  
الفضل بن المقتدر — انظر المطيع : ٨٩  
ابن فضل اليمنى : داعي الشيعة في البحرين : ٣١٩  
ابن الفقيه الهمداني — الجغرافي : ٤٩  
فهد بن إبراهيم النصراني : ٢٦٠  
أبو الفوارس أحمد : ٢٤٤  
أبو الفوارس بن بهاء الدولة — انظر قوام الدولة  
أبو الفوارس بن عضد الدولة : ١٨٧  
الفونس الرابع : ٣١٤

(ق)

قابوس بن وشمكير — نائب السامانيين في

- جرجان وطبرستان : ١٦٠  
القادر بالله العباسي : ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٦١ ،  
١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٨  
القاسم نوح — انظر نوح الثاني الساماني  
أبو القاسم بن مختيار : ١٩٠  
أبو القاسم بن بنت مئيع — من العلماء :  
٧١ ، ٧٢  
أبو القاسم سليمان بن الحسن — وزير الراضي :  
٧٣  
أبو القاسم عبد الله البريدي — انظر البريدي  
أبو القاسم المطهر بن عبد الله — وزير عضد  
الدولة : ١١٢  
ابن القاشاني — أبو سليمان داود بن علي :  
٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٥٨  
القالي — أبو علي : ٣٠١ ، ٤١٣ ، ٥٣٧ ، ٥٣٩  
القاهر بالله : ٥٥٥ ، ٥٧٠ ، ٨٥٠ ، ٥٧٠  
القائم بأمر الله العباسي : ١٢٩ ، ١٣٨ ، ٤٠٥  
القائم بن المهدي : ٢٣٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٩٨ ، ٣٣٩  
ابن قتيبة : ٤٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٨١  
قدامة بن جعفر — الكاتب : ٥٧  
القراريطي — وزير المتقي : ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٦  
القرطبي المفسر : ٥٢٤ ، ٥٨٢  
ابن قرّة — ثابت : ٥٧٨  
قوغلوش — قائد الأمويين بالأندلس : ٢٧٣  
قرواش بن المقلد — أمير بني عميل : ١٢٥ ،  
١٢٧ ، ١٣١  
القزويني — أبو عبد الله محمد بن يزيد :  
انظر ابن ماجه  
القزويني — أبو يونس عبد السلام : ٥٢٧  
قسطنطين السابع : ٤١٣  
قسطنطين الثامن : ٤١٠  
قسطنطين التاسع : ٤١١  
القشيري : ٥٢٦ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠  
قوام الدولة — بن بهاء الدولة : ١٢٥ ، ١٢٦ ،  
١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣

٥٨٤٠٥٧٧٠٥٦٢٠٣٨٢٠٣٧٩٠٣٩٩  
ابن المبارك - من أئمة الحديث في خراسان: ٥٢٨  
المبرد - اللغوي: ٦٢٠٠٤٩

ابن محتاج - أبو علي محمد بن المظفر، والي  
نصر بن أحمد الساماني على خراسان: ٦٤  
المتأيد بالله - انظر إدريس بن علي

المتوكل على الله: انظر علي بن حمود  
المتقي - الخليفة العباسي: ١٠٥٠١٠١٠٨٦٠٧٣  
المتني - أبو الطيب الشاعر: ٢٤٢٠٢٣٨  
٥٥٨٠٥٤٦٠٢٤٣

المتوكل على الله العباسي: ٢٢٠٢١٠٢٠٠١٩  
٢٣ - ٢٢٠٢٧٠٣٢٠٣٥٠٣٩٠٣٥٠٣٢٠٢٧  
٥٤٢٠٣٨٣٠٣٩٠٣٥٠٣٢٠٢٧  
٦٤١٠٥٩١٠٥٩٠٠٥٨٩

أبو المتني أحمد بن يعقوب - القاضي: ٥٤  
ابن مجاهد: ٥٣٥

مجد الدولة بن نجر الدولة البويهية: ٢٠٢  
المجوسي - علي بن عباس: ٥٧١

محمد - رسول الله صلى الله عليه وسلم: ١٠٤  
محمد الأول بن إدريس بن علي - المهدي: ٣١٣

محمد بن إدريس الثاني - العالی: ٣١٣  
محمد بن إدريس: ٢٨١

محمد بن إسماعيل الصادق: ٣٢٧٠٣٢٢  
محمد الباقر: ٣١٩

محمد بن بشير القاضي: ٣٠٢  
محمد بن بقیة - ثار علي بختيار: ١٩٦

محمد الجواد: ١١٩  
محمد بن الحسن - الملقب دندان: ٣٢٣

محمد بن داود الجراح - وزير المرتضى: ٥٤  
محمد بن داود الظاهري - الفقيه: ٥٧

محمد الديباج بن جعفر الصادق: ٣٢٢  
محمد بن رائق - انظر ابن رائق

محمد بن سالم - مؤسس الدولة الغورية في  
أفغانستان: ١٧٥

محمد بن سليمان الكاتب: ٣٢٨٠٥٢

القضاعي - أبو عبد الله المؤرخ: ٢٦٤  
٤٥٠٠٤١٢٠٤١١

### (ك)

ابن كاكويه - انظر علاء الدولة  
أبو كاليبجار - ابن سلطان الدولة بويه: ١٢٦  
٥٩٢٠٤٢٨٠١٩٤٠١٩١٠١٣٤٠١٣١

كافور الإخشيدى: ٢٥٢٠٢٤٥٠٢٣٨  
٦٣٨٠٦١١٠٥٤٧٠٤٧٣٠٣٤٤  
كلباتكين - قائد تركي: ٣٣

الكسائي - علي بن حمزة: ٥٢٧  
ابن كلس - انظر يعقوب بن كلس

ابن كنداج: انظر إسحق بن كنداج  
الكندي - أبو عمر: ٥٨٤

الكندي - يعقوب بن إسحق: ٢٨٣  
٥٧٦٠٥٦٢

كورتكين - أمير الجيش: ٢٧  
الكوفي - كاتب بحكم: ٧٣

### (ل)

اللحام - أبو الحسن من علماء بخارى في عهد  
نصر بن أحمد الساماني: ٥١٨

لؤلؤ - والي الرملة من قبل أحمد بن طولون: ٤٢  
الليث بن سعد - من أئمة الحديث: ٢٦٩

الليث بن علي الصفاري: ١٥٤  
الليثي - يحيى بن يحيى القاضي بالاندلس: ٤٩٧

### (م)

ابن ماجة - الفقيه: ٥٣٠٠٤٦  
ابن ماجور: ٢٢٦٠٤٢٠٤١٠٣٧

ابن ماسويه - يحيى الطيب: ٥٦٧  
ما كرد - من الساجية: ٦٥

ما كان بن كالي - الديلمي: ٩٩٠٧٥٠٦٣  
١٩٤٠١٥٦

مالك بن أنس: ٥٢٨  
للمأمون: ١٥٢٠١٤١٠٧١٠٢٦٠٢٢٠٢٠

المتهدي : ٣٧ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤  
المستظهر بالله — انظر عبد الرحمن بن هشام  
ابن عبد الجبار  
المستعين بالله — الخليفة العباسي : ٣٢ ، ٣٣ ،  
٣٤ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٢٢٠ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣٠٣ ، ٣١٠  
المستكني العباسي : ٥٩ ، ٧٤ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ١٠٢ ،  
١٨٦ ، ١٩٤  
المستنصر بالله الفاطمي : ١٣٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ،  
٣٢٨ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٤ ،  
٤١٥ ، ٥٠٩ ، ٥٢٢ ، ٥٨٨ ، ٥٩١ ،  
٦٦٠ ، ٦٦١  
مسرور الخصى — قائد القائم الفاطمي : ٢٨٤  
مسعود الثاني بن مودود الغزنوي : ١٨٢  
المسكين — صاحب يريد مصر : ٢٧٩  
مسعود الأول بن محمود الغزنوي : ١٦٨ ، ١٧٤ ،  
١٧٧ ، ١٨١  
مسلم — الإمام : ٤٦  
مسألة بن الحجاج النيسابوري : ٤٩١  
مشرف الدولة — أخو سلطان الدولة : ١٢٦ ،  
١٢٧ ، ١٩١  
المطيع — الخليفة العباسي : ١٠٣ ، ١٠٤ ،  
١٠٩ ، ١٩٤ ، ٤٠١ ، ٤٩٣  
أبو المظفر بهرام : ١٣٥  
ابن المظفر — الليث : ٥٣٨  
معاوية بن أبي سفيان : ٢٦١  
المعتصم : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٦ ،  
٢١٩ ، ٤٦٥ ، ٥١٣  
المعتضد بالله : ٤٦ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ١٤٨ ،  
٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٤٠  
المعتز — الخليفة : ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٠ ،  
٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٢٠ ،  
ابن المعتز — الشاعر : ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٤  
المعتمد على الله — الخليفة : ٣٩ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٤١ ،  
١٤٣ ، ١٤٥ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،  
٣٩٨ ، ٥٩١ ، ٦١٩ ، ٦٢٠

محمد بن طاهر بن الحسين : ٥٤ ، ١٤٣ ، ١٤٨ ،  
محمد بن طعج الإخشيد — انظر الإخشيد  
محمد بن عبد الله بن طاهر : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ،  
أبو محمد علي بن المعتضد — انظر المتقي  
محمد بن كشمير — من رجال المكتفي : ٥١  
محمد بن محمود الغزنوي : ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ،  
محمد بن المظفر — والي فرغانة : ١٥٥  
أبو محمد بن معروف — القاضي : ١٨٨  
محمد بن المغيث — أحد الخارجين على المتوكل :  
٢٤ ، ٥٥  
محمد بن المنتصر — بن المتوكل : ٢٥ ، ٣٢ ، ٣٩٢ ،  
محمد بن نصر المروزي — الإمام : ٥٣  
محمد بن النعمان — القاضي : ٢٦٠  
محمد النفس الزكية : ٣٢١  
أبو محمد المهلب — وزير معز الدولة : ١٠٤  
أبو محمد هبة الله بن المأمون — رسول القائم  
إلى طغرليك : ١٥٧  
محمد بن الواثق : ٢٢  
محمد بن ياقوت — رئيس شرطة بغداد أيام  
الظاهر : ٥٨  
محمود الغزنوي بن سبكتكين : ١٢٦ ، ١٦٠ ،  
١٦١ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٩ ، ١٩١ ، ٤٢٧ ،  
٥١٢ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٦١ ، ٥٨٦ ،  
٥٧٢ ، ٥٧٧  
المدائني — أبو الحسن : ٥٥٥  
ابن المدبر — أحمد : ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٤٨٦  
المرتضى بالله — انظر ابن المعتز  
ابن المرتضى — أحمد بن يحيى : ٥٣٥  
مرداويج بن زيار الديلمي : ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٣ ،  
٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٩٤ ،  
٣٤٢ ، ٤٣٩  
مرداويج السلي — انظر مرداويج بن زيار  
مروان بن أبي حفصة : ٥٥٧  
مساور الشاوري — زعيم الخوارج في أيام

٢٠١٠١٩١٠١٩٠٠١٨٩٠١٦٩  
ابن مهران : ٣٤٢  
مهر نرسی — كبير وزراء بهرام جور : ٩٤  
مودود بن مسعود : ١٧٩٠١٧٨ — ١٨٢  
موسى بن بغا : ٣٧٠٣٥ — ٤٢٣٠٢٢٦٠٤٢  
موسى بن أبى العافية : ٢٨٣٠٢٨٤٠٢٨٤٠٢٩٨  
موسى بن عبد الله بن سليمان بن وهب الكاتب : ٣٩  
موسى بن عيسى : ٢١٨  
موسى بن نصير : ٦١٤  
الموفق — أبو أحمد طلحة العباسى : ٣٩٠٣٣  
٠٢٢٦٠٢٢٥٠٢٢٠٠١٤٨٠٤٨٠٤٦  
٠٤٢٦٠٤٢٣٠٤٢٢٠٣٧٨٠٢٣١٠٢٢٨  
٤٩٥  
مؤنس الخادم : ١٤٩٠٧٨٠٦٦٠٥٧٠٥٥٠٥٤  
٦٥٩٠٤٢٤٠١٥٠  
مؤنس الخازن — من أنصار المقتدر : ٥٤  
مبيار — الديلى : ٥٥١  
المؤيد فى الدين — انظر هبة الله الشيرازى  
المؤيد بن المتوكل العباسى : ٥٥٠٠٣٠٢٩٠٢٥  
مؤيد الدولة بن ركن الدولة : ١٨٨٠١٩٩  
ابن ميخائيل — حسين بن على : ٥١٩  
ميخائيل الثانى — إمبراطور الدولة البيزنطية :  
٢٧٣

( ن )

نازوك — من قواد المقتدر : ٦٦٠٥٥  
ناصر الدولة — انظر سيكتكين  
ناصر الدولة بن حمدان : ٧٤٠٧٨٠٧٩٠٨١  
٠١٠٥٠١٠٤٠٨٨٠٨٧٠٨٥٠٨٣٠٨٢  
٢٠٦٠٢٠٤  
ناصر الدولة بن عبد الله — حافظ عباد الله —  
انظر مسعود الأول الغزنوى  
ناصر خسرو : ٥١٤٠٥٨٨

معز الدولة : ٩٣٠٨٩٠٧٩٠٩٦٠٩٥٠٩٤  
— ١٠٤٠١٠٣٠١٠٢٠١٠١٠٩٩٠٩٨  
٠١٩٤٠١٨٧٠١٨٥٠١٥٨٠١٠٧٠١٠٦  
٥٩١٠٥٥٦٠٤٢٥٠١٩٨٠١٩٧٠١٩٥  
المعز بن باديس : ٤٩٠  
المعز لدين الله الفاطمى : ٢٥٤٠٢٥١٠٢٤٢  
٠٥٠٩٠٥٠٨٠٣٥٤٠٣٤٤٠٣٤٣٠٢٥٧  
٥٧٤٠٥٧٣٠٥٥٣٠٥٥٢  
المفوض إلى الله جعفر بن المعتمد : ٢٢٦٠٤٧  
٢٢٨٠٢٢٧  
المقتدر : ٥٣ — ١٥٦٠١٤٩٠٦٦٠٦٣٠٥٧  
٦٥٩٠٢٠٤  
ابن مقشر النصرانى — أبو الفتح منصور : ٥٧٤  
ابن مقلة — الوزير : ٥٧٠٥٨٠٦٥٠٨٥  
٥٥٦٠١٨٦  
المكتفى — العباسى : ٥١٠٤٩ — ٥٦٠٥٣  
٦٣٣٠١٥٤٠٥٧  
ابن منبه — وهب : ٥٢٥  
منشا — اليهودى : ٢٥٩  
المنصور الفاطمى : ٢٢٧٠٢٥٩٠٢٦٣  
المنصور العباسى — انظر أبو جعفر المنصور  
المنصور بن أبى عامر : ٢٨٦٠٣٠١٠٣٠٤  
٦٠٥٠٥٢٢٠٤٥٢٠٤٢٣٠٤٢٨٠٣٠٦٠٣٠٥  
أبو منصور نزار — انظر العزيز الفاطمى  
أبو منصور بختيار — انظر عز الدولة  
أبو منصور فلاستون — بن أبى كاليبجار :  
١٩٤٠١٣٤  
منصور اليمن — انظر ابن حوشب  
أبو المنجى القرمطى : ٣٤٨  
المهتدى — الخليفة العباسى : ٣٧٠٣٨٠٣٩  
٤٩٩٠٤٢٤٠٢٢٤  
المهتدى — عبيد الله الفاطمى : ٦٤٠١٥٧  
٢٤٧٠٢٢٦ — ٣٤٩٠٣٣٩٠٣٤٠  
مهذب الدولة — صاحب البطيحة : ١٢٤

هارون الرشيد : ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٤١٢ ،  
٥٨٤ ، ٥٦٢ ، ٥٥٧  
هارون الشاري الحارجي : ٢٠٣  
هارون بن غريب — من رجال الدولة في  
عهد المقتدر : ٦١ ، ٥٥  
أبو هاشم العلوي : ٥٥٨  
ابن هانيء الأندلسي — محمد : ٥٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٣  
هبة الله الشيرازي — داعي الفاطميين في فارس :  
٤١٢ ، ٣٦٤ ، ٣٥٢ ، ١٣٦ ، ١٣٤ ، ١٣٣ ، ١٣٢  
هرثمة بن أعين : ٢٦٨ ، ٢٦٩  
الهرثمي — أبو النصر : ٥١٨  
هشام الأول الأندلسي : ٢٨٨ ، ٥٢٣  
هشام الثاني المؤيد الأندلسي : ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٧  
٤٣٣ ، ٣٠٩ ، ٣٠٧  
هشام الثالث المعتد بالله : ٣١٢  
هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر : ٣٠٧  
هلال الصافي : ٥٨٥  
الهمداني — أبو الفضل : ٥٥٨  
هودب — انظر راجا باران  
ابن الهيثم — أبو علي محمد : ٥٧٩ ، ٥٨٠  
أبو الهيثم الهمداني — من قواد المقتدر :  
٦٦ ، ٥٥

(و)

الواثق العباسي : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٥٦٧ ، ٥٥٦  
الواسطي — كاتب أحمد بن طولون :  
٢٣٠ ، ٤٥  
ابن واصل : ثار علي بهاء الدولة : ١٢٤ ، ١٢٥  
ابن واضح — انظر اليعقوبي  
ابن وجيه — والي عمان : ١٠٦  
وشمكير بن زيار — أخو مرداويج بن زيار :  
٦٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥  
وصيف التركي : ٢٠ ، ٣٢ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٣٩٩  
أبو الوزير — كاتب المتوكل : ٢٣

ابن نباته : ٥٥٨  
الفسائي — صاحب كتاب السنن : ٥٣٠ ، ٥٧  
نصر بن أحمد الساماني — السعيد : ١٥٤ ، ١٥٧  
أبو نصر التمار — من العلماء في عهد الراضي : ٧٢  
أبو نصر بن مختيار : ١٩٠  
نصر الحاجب : ٣٦٢  
أبو نصر خواشادة — من رجال البويهيين : ١٨٨  
أبو نصر خسرو فيروز — انظر أبو نصر  
الملك الرحيم  
أبو نصر الفارابي — انظر الفارابي  
أبو نصر فناخسرو الملك الرحيم — ابن أبي كاليبجار :  
١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٩٣ ، ١٩٤  
نصر بن هارون النصراني — وزير عضد  
الدولة : ١٨٨  
النظام — أبو إسحق إبراهيم : ٥٣٦  
نقفور فوكاس : ٤٠٦ ، ٤١٥  
النهرجوري — أبو أحمد : ٥٦٥  
أنندا — انظر راجا كالتيجار  
أبو نواس : ٥٤٠ ، ٥٥٧  
ابن نوبخت — سهل : ٥٧٥  
نور الدولة ومحيي الأمة — انظر أبو نصر  
ابن مختيار

نوح بن أسد الساماني — والي سمرقند في  
أيام المأمون : ١٥٢

نوح بن نصر بن أحمد الساماني : ٦٤ ، ٨٥ ،  
١٥٦ — ١٥٨ ، ١٦٥ ، ١٩٥ ، ٥٥٨ ، ٥٧١  
نوح الثاني بن منصور الساماني : ١٥٩ ،  
١٦٢ ، ١٦٦  
يقولا الراهب : ٤١٤

(هـ)

الهادي العباسي : ٢٧٩  
هارون — أخو الراضي بالله : ٧١  
هارون البجلي : ٣٧٤  
هارون بن خمارويه : ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٢٨



يحيى بن المنجم الشاعر : ٤٨  
أبو يزيد مخلد بن كيداد : ٢٥٠ ، ٢٥٢  
٢٨٢ ، ٣٧٥ ، ٥٤٩  
يزيد المهلبى الشاعر : ٣٠  
يعقوب بن كلث : ٢٥٣ ، ٢٥٨ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣  
٦٨٨ ، ٥٧٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٣ ، ٥٢١ ، ٥٢٠  
يعقوب بن الليث الصفار : ١٤٢ ، ١٤٩ ، ٤٥٣  
اليعقوبى - الجغرافى : ٥٨١ ، ٥٨٧ ، ٤٩  
يمين الدولة - انظر محمود بن سبكتكين  
يوسف بن تاشفين : ٣٢٤  
ينال تكين - نائب محمود الغزنوى فى الهند : ١٧٤  
يوسف بن عمر قاضى المتقى : ٧٥  
يولوجيوس - قسيس بالاندلس : ٢٩١  
يوفيموس : ٢٧٣  
ابن يونس - أبو بشر متى : ٥٦٥  
ابن يونس - أبو الحسن على : منجم مصرى : ٥٧١

الوليد بن طريف الشارى : ٣٧٣  
ابن الوليد - مسلم : ٥٥٧  
ابن وهب - أبو القاسم وزير المكتفى :  
٥٢٠ ، ٥١

(ى)

يارجوخ : ٢٢١  
ياقوت - والى فارس أيام بنى بويه : ١٠٠  
ابن ياقوت : المظفر أبو الفتح محمد : ١٨٤  
١٨٥ ، ١٨٦  
يحيى بن أسد السامانى - والى الشاس أيام  
المأمون : ١٥٢  
يحيى الرابع بن إدريس : ٢٨٢ ، ٢٨٣  
يحيى بن زكرويه - من زعماء القرامطة :  
٣٢٧ ، ٥٢  
يحيى بن محمد بن إدريس : ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣  
يحيى بن على بن حمود : ٣١١

أسماء النساء

نيودورا - ٤١١  
(ث)  
ثومال - قهرمانة السيدة أم المقتدر : ٥٥  
٤٩٩ ، ٦٤٤  
(ج)  
جيجك - أم المكتفى : ٥١  
(ح)  
حفصة - زوجة الرسول : ٢٢٠  
(د)  
دريرة - جارية المكتفى : ٤٩

(١)

أروى السيدة الحرة الصليحية - زوجة  
المكرم - ٣٥٦  
أسماء - بنت خمارويه - انظر قطر الندى  
أملح الناس - أم المستكفى العباسى : ٨٥  
أبرنى : ٣٩٧  
(ب)  
بدر الدجى - أم القائم بأمر الله : ١٢٩  
بوران - بنت الحسن بن سهل : ٦٢٨ ، ٦٦٢  
(ت)  
تفريد - زوجة العزيز الفاطمى : ٢٥٨ ، ٢٥٩  
٦٦١ ، ٦٤٦

عبدة — بنت المعز الفاطمي : ٦٤٦

عليه — أخت الرشيد : ٦٤٣

(غ)

غزلان — جارية زرياب المغني : ٦٢٦

(ف)

فاطمة الزهراء : ١٠٤ ، ٣١٧

(ق)

قييحة — أم المعتر : ٢٤ ، ٣٤ ، ٣٥

٢٦ ، ٣٧ ، ٦٤٤

قراطيس — أم الواثق : ٢١

قطر الندى : ٤٨ ، ٤٦٢ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣

قمر — جارية حاكم بن حجاج حاكم إشبيلية : ٢٩٤

(م)

محبوبة — من جواري المتوكل : ٢٤

مدثرة — جارية عبد الرحمن الأوسط : ٦٤٧

مرتة — أم عبد الرحمن الناصر الثالث :

٢٩٤ ، ٢٩٥

(ن)

نرجس — زوجة الحسن العسكري : انظر صقيل

(هـ)

هنيدة — جارية زرياب المغني : ٦٢٦

(ر)

رابعة العدوية — من المتصوفة : ٣٨٦

رشيدة — بنت المعز الفاطمي : ٦٤٦

(س)

ست الملك — أخت الحاكم الفاطمي : ٦٤٤

٦٤٦ ، ٦٤٧

سكينه — بنت بهاء الدولة : ١٢٣

السيدة — أم المقتدر : ٥٥ ، ٧١ ، ٤٢٣

٤٩٩ ، ٦٤٤ ، ٦٤٧

(ش)

شجاع — أم المتوكل العباسي : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤٧

(ص)

صبح — أم هشام الثاني المؤيد : ١ ، ٣٠ ، ٣٠١

٦٤٤ ، ٦٤٧

صقيل — زوجة الحسن العسكري : ٣١٨

(ط)

طروب — جارية عبد الرحمن الأوسط :

٢٩٧ ، ٦٤٧

طوطة — جدة شاتجة : ٢٩٧

(ع)

عائشة أم المؤمنين : ٢٢

## أسماء الأماكن

أيورد : ٥١٩ ، ٥٦٦

أجر — موقع بالهند : ١٧٣

أذربيجان : ١٤٢ ، ١٩٨ ، ٤١٨

الأربس : ٢٦٨

أرجان — مدينة كبيرة على ستة فراسخ من

الأهواز : ١٠٠ ، ١١٩ ، ١٣٥ ، ١٢٦ ، ١٨٩

١٩٠ ، ١٩٢

(أ)

الأبله : ٣٧٧ ، ٥١١

الأهواز : ٥٧٤ ، ١٠٩٥ ، ١٠٨٠ ، ١١٩٠ ، ١٢٤٠

١٢٦ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨

١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٥٩٦

الأنبار : ١٣٥ ، ١٩٢

أهر : ١٥٦

برغوانة : ٣٧٢  
برقة : ٤٩٦٠٢٣١٠٢٣٣٠٢٣١٠٤٨  
٥١٣٠٥٠٦  
بروفانس : ٥٦١٠٤١٦  
بست — من بلاد الغزنويين : ١٦٦٠١٦٤  
بشاور : ١٦٤  
البصرة : ٨٠٠٧٧٠٧٥٠٧٣٠٥٢٠٣٩٠٢٣  
١٢٨٠١٢٦٠١٢٤٠١٢٠١١٩٠١٠٩٠١٠٥  
١٩٢٠١٩٠٠١٨٩٠١٨٨٠١٣٥٠١٣١٠١٣٠  
٥١٤٠٥١٣٠٣٢٩٠٣٢٣٠١٩٦٠١٩٤٠١٩٣  
٥٧٩٠٥٦٣٠٥٤٥٠٥٢٨٠٥٢٥٠٥١٧  
بصرى : ٥١٤  
بغداد : ٥٢٠٤٥٠٤٢٠٣٧٠٣٣٠٣٢٠٣٥٠٢٣  
٧٠٠٦٩٠٦٧٠٦٦٠٦٣٠٥٨٠٥٦٠٥٥٠٥٤  
٩٣٠٨٩٠٨٤٠٧٩٠٧٨٠٧٧٠٧٦٠٧٥٠٧٤  
١١٢٠١٠٩٠١٠٦٠١٠٣٠١٠١٠١٠٠  
٣٤٩٠١٣٠٠١٢٨٠١٢٥٠١٢٠٠١١٩  
٥٨٧٠٥٢١٠٥١٣٠٤٥٣٠٣٩٧٠٣٥٣  
٥٩٢٠٥٩١  
بلاد الجليل : ١٥٨٠٧٣٠٦٤٠٤٥  
بلخ : ٥٠٦٠٣٢٢٠١٧٠٠١٦٧  
بلنسية : ٢٩٠  
البنجاب : ١٧٨٠١٧٤٠١٦٩٠٦٦  
بم نغر — قلعة في بلاد الهند : ١٧٠  
بوشنج — من بلاد خراسان : ١٤٢  
بيت المقدس : ٦١٣٠٥١٣٠٤٠٨  
بيروت : ٤٠٧  
البيضاء — من بلاد فارس : ٣٩٧٠١٩٢  
بين — نهر بالعراق : ١٣٨  
(ت)  
تاهرت : ٢٧٨٠٢٨٥٠٢٨٣٠٢٥٠  
تستر — مدينة بخوزستان : ٥١١  
تكرت : ١١٠٠١٠٤٠٨٣٠٨١٠٨٠  
تكساس : ٢٨١  
تلسان : ٣٧٢

الأردن : ٣٧  
أرغونة — مدينة بالاندلس : ٢٦٠  
أرمينية : ٢٩٠٢٧  
الإسكندرية : ٢٧٣٠٢٨٩٠٢٥٥٠٢٥٣٠٢٢١  
٥٨٢٠٥١٣  
سان استيان — بالاندلس : ٢٩٦  
أستجة — بالاندلس : ٣١٢  
آسى — قلعة بالهند على نهر الكنج : ١٧٢  
إشيلية : ٥٥١٠٣١٤٠٣١٢٠٣١١  
أصبهان : ١٠٠١٠٠٠١٩٩٠٩٥٠٧٣٠٦٤٠٦٣  
١٦٨ — ١٦٦٠١٤٨٠١٣٢٠١٠٨٠١٠٦  
١٨٧٠١٨٥٠١٨٤٠١٨٣٠١٨١٠١٧٨٠١٧٧  
٥١٨٠٥١٤٠١٩٩٠١٩٥٠١٩٤٠١٩٣٠١٨٨  
٦١٢٠٥٩١٠٥٧٢٠٥٥٧٠٥٢١  
إصطخر : ١٩٢٠١٠٠  
أصفهان — أنظر أصبهان  
إفريقية : ٢٢٧٠٢٢٤٠٧٣٠٥٦٠٣٩  
أفغانستان : ١٧٤  
إقريطش : ٢٨٩  
ألياكى — حصن ببلاد المغرب : ٢٨١  
أنطاكية : ٥١٣٠٥١١٠٤٧٤٠٢٢٨٠٤٩  
٥٤٨٠٥٣٣  
أنهواره — موقع بالهند : ١٧٤٠١٧٣  
أوال — جزيرة بالبحرين : ٣٤٩٠٣٤٤  
أيلة : ٥١٣

(ب)

بادية السماوة : ٥٢  
بحاية : ٤٧٥  
البحرين : ٣٢٩٠٣٢٨٠٧٣٠٦٣٠٤٧٠٣٩  
٣٧٨٠٣٧٧٠٣٢٨٠٣٣٠  
بخارى : ١٥٥ — ١٥٤٠١٥٣٠١٥٢٠١٤٢  
٥٦٦٠٦٦١٠٥٢١٠٥١٨٠١٦٢٠١٦٠٠١٥٦  
برزعة — مدينة بأذربيجان : ٤١٨  
برشلونة : ٣٠٣٠٣٠٠٠٢٩٠

٥٨٨٠٥٧١

الخزر : ٤١٨

خوارزم : ٥٦٦٠٥٥٨٠٥١٩

خوزستان : ١٨٩٠١٣٥٠١١٩٠١١١٠٧٣

٥٠٦٠٤٦٠٠٣٧٨٠٣٧٧٠٢٠٠١٩٩٠١٩٠

(د)

داهستان : ٥٧٢

داود آباد - من اطراف نيسابور : ١٤٣

دجلة : ٨٧٠٧٧٠٧٦

الدكة بالشام : ٣٤٦

دهلي : ١٧٥

دمشق : ٢١٠٠٢٠٩٠٦٨٠٤٤٠٤٢٠٣٧٠٢٦

٤٠٨٠٣٤٨٠٣٤٦٠٣٥٨٠٣٥٤٠٣١٤٠٣١١

٥٨٩٠٥١٣٠٥١٢

دمياط : ٥٠٧٠٤٧٣٠٣٣٢٠٢٣

دمياط الأعاجم : انظر كازرون

دماوند : ٣٢٢

ديار بكر - بآسيا الصغرى : ٤٠٦٠١١١٠٧٣

٤٩٤٠٤٥٤٠٤٠٧

ديار مضر : ٤٩٤٠١١١

ديالى - نهر بالعراق : ٧٦

ديق : ٥٠٧

الديلم : ٤٧٦٠٣٤٩

دينور : ١٨٠٠١٥٦

(ر)

رامهرمز : ٣٧٧٠١٩٠

رامينا : ٤١٥

رباح : ٣٥٧

الرصافة : ٥٨١٠٤٩٩٠٤٥

الرخج - قرب خراسان : ١٤٣

رقادة : ٣٢٦٠٣٧٨٠٢٤٨

الرقه : ٢٢٦٠٨٧٠٨١٠٥١٠٤٣٠٤٢

٢٣٧٠٢٣٠

الرملة - فلسطين : ٣٠٦٠٣٥٧٠٢٠٤٠٦٨

٥١٢٠٣٤٦

تيس : ٥٠٧٠٤٧٣٠٣٤٦

تورينو : ٤١٦

تونس : ٥٩٨٠٢٧٨

(ج)

جدة : ٥١٣

جرجان : ١٥٥٠١٤٤٠١٤٣٠٩٩٠٧٣٠٦٤٠٦٣

٥٧٢٠٥٥٧٠٥٢٠٠٢٠٠١٦٠

الجرف : ولاية بالاندلس : ٢٩٢

الجزيرة الخضراء - في جنوب الاندلس : ٣٠١

الجزيرة - بالعراق : ١٤٣٠١٠٥٠٤٣٠٣٩

٢٣٠٠٢٢٧

جزيرة الروضة : ٤٢

جليقية - بالاندلس : ٣٠٠

الجند : ٣٣٣

جنديسابور : ٥٦٣٠١٤٥

جوجرات - إقليم بالهند : ١٧٤

جيان - ببلاد الاندلس : ٣١١٠٢٩٢

الجزيرة : ٢٥٥٠٤٢

جيشان : ٣٣٣

جيلوم - نهر قرب قشمير : ١٧١

(ح)

الحجاز : ٥٠٦٠٣٤٨٠٢٥٥

حجر النسر - قلعة ببلاد المغرب : ٢٨٤

الحديثة : ٤٣

حران : ٥٧٨٠٥٦٥٠٥٦٢٠١١١

حلب : ٥٦٥٠٥٢٠٠٥٠٦٠٤٧٤٠٤٠٩٠٢٥٧

حلوان : ١٦٢٠١٥٦٠٦٣

حمام : ٢٥٧

حمص : ٤٠٩

حوران : ٢٥٤

الحيرة : ٥٩١

(خ)

خراسان : ١٢٤٠١٠٥٠٧٥٠٧٤٠٧٣٠٦٤

٥١٢٠٣٤٣٠٣٢٢٠١٧٨٠١٤٢٠١٤١٠١٢٦

سمرقند ٥١٠، ٢٦٦  
سمندو — بآسيا الصغرى ٤١٥  
سنجار — اسم موقعة : ٣٥٣، ٣٧٤  
السند ٥١٢، ١٧٩، ١٧٤، ١٧٠، ١٤٧، ١٤٤  
سورية ٢٥٥، ١٤٢، ٥٢  
سونيبات — من بلاد الهند ١٧٨  
سيحون ١٧١

(ش)

الشام : ٦٨، ٥٢، ٤٥، ٤٢، ٤١، ٣٩، ٣٧، ٢٤  
٣٤٨، ٣٤٦، ٣٤٥، ٣٤٤، ٨٢، ٧٦، ٧٣، ٧٠  
٥١٣، ٥١٢، ٤٦٩، ٣٤٩  
شروة — قلعة بالهند ١٧٢  
شطا : ٥٠٧  
شهرزور : ٣٧٤  
شيراز : ١٨٥، ١٣٥، ١٣٣، ١٣٢، ١٢٦، ١٠٠  
٦١٢، ٥٧١، ١٩٢، ١٩٠، ١٨٦  
شيرز — بالشام ٢٥٧، ٤٠٩

(ص)

صفين : ٢٢٧  
صقلية : ٢٧٥، ٢٧١، ٢٦٥، ٢٥٥، ٢٥١، ٢٣٩  
٠ ٥١٢، ٤٩٦، ٤١٥، ٤١٤، ٢٧٦  
صنعا : ٣٣٣  
صيدا : ٤٠٨

(ط)

الطالقان — بخراسان : ١٩٠  
طبرستان : ١٤٤، ١٤٣، ٩٩، ٧٣، ٦٤، ٦٣  
٠ ٥١٨، ٤٤١، ١٩٥، ١٧٨، ١٧٧، ١٥٦، ١٥٣  
٥٦٦، ٥٥٨، ٥٣٢، ٥٢٦  
طبرية : ٤١٠، ٢٥٤، ٢٣٥  
الطبيين — قرب خراسان : ١٤٣  
طبثة — ببلاد المغرب : ٣٣٦  
طرابلس : ٥٤٨، ٥١٣، ٢٧١، ٢٧٠، ٢٦٩  
طرسوس : ٦٥٠، ٢٣٥، ٢٢٨، ١٢٩، ٤٢

الرها : ٤٠٧، ٤٠٣  
الرهاب : ١٤٢  
الري : ١٠٦، ١٠١، ٩٩، ٩٥، ٧٣، ٦٤، ٦٣  
٠ ١٥٩، ١٥٦، ١٥٣، ١٠٤، ١٤٣، ١٣٨، ١٠٨  
٠ ١٩٣، ١٨٨، ١٨٧، ١٨٣، ١٧٨، ١٦٩، ١٦٧  
٠ ٣٢٢، ٢٠٢، ٢٠١، ٢٠٠، ١٩٧، ١٩٥، ١٩٤  
٥٧٠، ٥٥٧، ٤٤٩

(ز)

زابليستان : قرب خراسان : ١٤٣  
الزاهرة — بالاندلس : ٦٠٥، ٣٠٥  
الزهراء — بالاندلس : ٣٠٣، ٣٠٠، ٢٩٨  
٦٣٢، ٦٠٢، ٥٩٩  
الزهرى — بلدة : ٥٥٧  
زامورة — قلعة في شمال الاندلس : ٢٩٦  
زنجان — من بلاد فارس : ٩٩

(س)

سابور : ٥١٠  
سامرا : ٧٢، ٤٩، ٤٣، ٤٢، ٤٠، ٣٥، ٣٣، ٣٢  
٠ ٥٩٠، ٥٨٩، ٢٥٣، ٢٢٠، ٢١٩، ١٤٨، ١٧٨  
٥٩١  
ساوة — من بلاد الغزنويين : ١٦٧  
سبته — بالمغرب : ٣١٣  
سجستان : ١٥٠، ١٤٧، ١٤٤، ١٤٣، ١٤٢  
٠ ١٩١، ١٦٧، ١٦٤، ١٥٩، ١٥٨، ١٥٥، ١٥٤  
سجلماسة : ٣٣٦، ٢٨٧، ٢٨٥، ٢٨٤، ٢٤٨، ٢٥  
سرخس : ١٧٩

(س)

سردانية : ٢٧١، ٢٥٥  
سرسقى — قلعة جنوب قشمير بالهند : ١٧٨  
سرقسطة : ٢٩٣  
سرديب : ١٧٠  
سلبية — مركز الإسماعيلية بالشام ٣٢٤  
سمتان — حصن بالهند ١٧٣

فرغانة : ٥١٤٠٢٣٦٠٢٣٤٠٥٥  
القرما : ٥١٣٠٥١١٠٣٤٦  
الفسطاط : ٢٤٢٠٢٢٩٠٢٢٦٠٢٢٤٠٢٢٣  
٥٢٠٥١١٠٤٦٤٠٢٥٣  
فلسطين : ٥٢٠٣٧  
قم الصلح - على نهر دجلة على مقربة من  
واسط : ٢١  
القيوم : ٥٠٧

(ق)

القادية : ٣٧٧  
قاشان : ٣٤٠  
قالقلا - قيليقيا في آسيا الصغرى ٢٣  
القاهرة : ٥٠٨٠٣٤٩٠٣٤٧٠٣٤٦٠٢٥٦٠١٤٢  
٦٥٠٠٥٩٤٠٥٧٥٠٥٧٤٠٥٦٢٠٥٢١  
قرطبة : ٣١٢٠٣٠٦٠٢٩٣٠٢٨٩٠٢٨٨٠١٤٢  
٦١٥٠٥٩٩٠٥٢٣٠٥٢٢٠٥٢١٠٥١٧٠٤١٧  
٦٢٦٠٦١٦  
قسطونة : ٢٩٢  
القسطنطينية : ٥١١٠٣٩٧  
قشمير : ١٧١  
قصدار - بالقرب من غزنة : ١٦٤  
القطائع : ٥٩٣٠٢٣٣  
القطيف : ٢٣٠٠٣٢٨  
القلزم : ٥١٣٠٥١١٠٣٤٦  
قلورية - بإيطاليا : ٤١٥  
قم - من بلاد فارس : ٣٤٠٠١٥٦٠٩٩  
قندهار : ٣٢٤  
قنسرين : ٢٣٧  
قورم - ببلاد الأفغان : ١٦٩  
قوهستان - من بلاد الدولة السامانية : ١٦١  
القيروان : ٥٩٧٠٥١٧٠٥١٣٠٣٣٥٠٢٤٨

(ك)

كابل : ٥٠٨٠١٨٠٠١٦٩٠١٦٥  
كازرون - بفارس : ٥٠٨

طليطلة : ٦٣٢٠٢٩٥٠٢٩٠٠٢٨٩٠٢١٦  
طنجة : ٥١٢٠٣١٣٠٢٨٤٠٢٨١  
الطواحين - نهر : ٣٤٩  
طوس : ٥٦٦

(ع)

العدوة : ٢٩٢  
عدن : ٣٠٦  
العراق : ١٠١٠٩٥٠٥٣٠٥٢٠٢٧٠٢٤٠٢٣  
١٢٥٠١١٩٠١١١٠١١٠٠١٠٦٠١٠٢  
١٤٢٠١٣٦٠١٣٢٠١٣٠٠١٢٨٠١٢٧٠١٢٦  
٥٠٧٠٥٠٦٠١٧٨٠١٥٩  
العريش : ٦٨٠٤١  
عسقلان : ٣٤٩٠٢٥٨  
العسكر : ٤٧٢٠٤٦٤٠٢٥٤  
عكبة - بلدة قرب سامرا : ١٠٤٠٨٠٠٣٣  
٢٠٤٠١٠٥  
عمان : ٣٧٥٠٢٣٦٠١٠٦  
عين زربة - مدينة : ٣٩٨  
عيداب : ٥١٣

(غ)

غزنة : ١٧٨٠١٧٧٠١٧٤٠١٧٢٠١٧٠٠١٦٤  
٥٧٨٠٥٢١٠٥١٩٠١٨٢٠١٨١٠١٨٠٠١٧٩  
غلييقة - على ساحل البحر الأحمر : ٣٢٢

(ف)

فاس : ٥١٢٠٢٨٥٠٢٨٤٠٢٨٣٠٢٨٢٠٢٨١  
فارس : ١٠٠٠٩٥٠٩٣٠٧٣٠٦٣٠٥٢٠٥١  
١٢٤٠١٢٠٠١١٩٠١١١٠١١٠٠١٠٨٠١٠١  
١٥٩٠١٤٨٠١٤٧٠١٤٤٠١٤١٠١٣٥٠١٣٣  
٣٤٠٠١٩٥٠١٨٤  
فتح آباد - بلد بالهند : ١٨٠  
فنج : ٣٢١٠٢٧٩  
فنج الأخييار - ببلاد كتامة : ٣٣٤  
الفرات : ٢٣١٠١٤٢٠٤٨

مصر : ٦٨٠٥٦٠٤٤٠٤٣٠٤٢٠٤١٠٣٩٠٣٧

٣٤٦٠٣٤٥٠٣٤٤٠٣٤٣٠٣٣٤٠٨٢٠٧٣

٥١٢٠٥١١٠٥٠٦٠٤٣٠٠٣٥٠

المصيصة : ٣٩٨

معرة النعمان : ٥٤٨

المغرب : ٧٣٠٦٤٠٤٧

المقس : ٤٧٤

مكران : ١٧٨

مكة : ٥١٣٠٣٣٤٠٣٣٣٠٣٣٧٠٥٢٠٣٩

الملتان — مركز مشهور للحجاج الهنود :

١٨٠٠١٧٨٠١٧٠٠١٤٣

المحرم : مكان إقامة ابن المعتز المرتضى بالله : ٥٤

المنصورية : ٣٥٦٠٣٥٥

المهديّة : ٥١٣٠٢٨٥٠٢٨٤٠٢٥٠٠٢٤٩

٥٩٩٠٥٩٧

الموصل : ٧٩٠٧٦٠٧٣٠٥٦٠٤٥٠٤٣٠٣٩٠٣٧

٠١٩٥٠١٣٥٠١١٠٠١٠٥٠١٠٤٠٨١٠٨٠

٠٤٥٤٠٤٠١٠٣٧٢٠٣١٥٠٢١٠٠٢٠٣

٥٢٣٠٥٢٠

مياقارقين : ٠٤٠٦٠٤٠٣٠١٤٢٠١٣٢٠١١١

٤٠٩٠٤٠٧

ميناو — حصن : ٢٧٢

### ( ن )

نابلس : ٥٠٦

ناردين — في بلاد الهند : ١٧٣٠١٧١

نرسى — من أعظم مدن الهند : ١٧٥

ترمز — من بلاد السامانيين : ١٨١٠١٦٧

نصيبين : ٠٤٠٣٠٢٠٤٠١٤٢٠٨١٠٨٠

٥٦٢٠٤٠٧

نهاوند : ١٥٦

الثوبة : ٢٥٧٠٢٤١

نيسابور : ٠١٦٠٠١٥٧٠١٥٥٠١٤٣٠١٤٢

٥٧٨٠٥٦٦٠١٧٩٠١٦٦٠١٦١

كاشغر — من مدن فارس ١٥٥

الكرخ : ٣٥٣٠١٨٤٠١٠٣٠١٠٠٠٩٩٠٨٤

كرمان : ٠١٢٥٠١٣٤٠١١١٠١٠١٠٩٥٠٧٣

٠١٨٨٠١٨٧٠١٧٨٠١٥٩٠١٥٦٠١٣٤٠١٢٦

٦٥٠٠٤٥٣٠٢٠١٠١٩٣٠١٩٢٠١٩١٠١٩٠

كلجند — قلعة بالهند : ١٧٢

كلواذا — أحد روافد دجلة : ٣٢٥

كنوج — قلعة بالهند : ١٧٢

الكوفة : ٠٣١٧٠١٩٢٠١٢٥٠٨٢٠٤٧٠٢٣

٠٥٢٥٠٥١٧٠٥١٠٠٣٥٥٠٣٣٠٠٣٢٣٠٣٢٢

٥٦٣٠٥٢٨

كيكى : من قلاع الغزنويين بالهند : ١٧٩

### ( ل )

اللاذقية : ٥٤٨

لاهور — مقر الغزنويين بالهند : ٠١٨٠٠١٧٥

١٨٣٠١٨١

ليجوريا — بإيطاليا : ٤١٦

ليون : ٣٠٤٠٣٠٣٠٢٩٦

### ( م )

ماردين — قلعة : ٢٠٣

مالقة : ٣١٣٠٣١٢

ماوراء النهر : ٥١٢٠١٤١٠١٢٣٠٧٣٠٤٧

المختارة : ٣٧٨٠٣٧٧

المدائن : ١٢٥

المدينة المنورة : ٣٢٢٠٢٥٢٠٢٣٧٠٢٢١

المدار — بين واسط والبصرة : ٧٥

مراغة : ٤١٨

مراكش : ٥١٣

مرسية — بالأندلس : ٢٩٣

مرو : ١٧٩٠١٦٧٠١٥٧٠١٥٥

مرو الروذ : ١٥٥

المنذخرة : ٣٣٧

مشهد على بالكوفة : ١٢٥

١٢٦٠١١٩٠١١٠٠١٠٦٠٨٤٠٨٣٠٨٢

١٩٦٠١٩٤٠١٩١٠١٨٩٠١٥٦٠١٣٥٠١٢٧

٤٩٤٠٣٧٧٠٣٤١

لورقة — بيلاد الأندلس : ٢٩٢

وليلي : ٢٨٠

وهران — بيلاد المغرب : ٢٨٦

ويهند — في بلاد الهند : ١٧٠

(٥)

يافع : ٣٣٣

يزيد — نهر بالشام : ٣٤٦

الجمامة : ٣٣٠٠٣٢٩٠٣٢٨٠٧٣

التيمن : ٣٣٧٠٣٣٤٠٣٣١٠٥٢٠٤٧

٣٥٤٠٣٢٨

(هـ)

الهارونية — حصن : ٤٠٦

هانسي — من بلاد الغزنويين بالهند : ١٧٨

هجر : ٣٢٨٠١٠٥٠٣٩

هراة : ١٧٨٠١٦٧٠١٦٤٠١٤٣٠١٤٢

همدان : ١٣٦٠١١٢٠١٠٨٠١٠٦٠١٠١٠٦٣

١٩٥٠١٩٤٠١٩١٠١٨٨٠١٨٧٠١٥٦٠١٣٢

٥٧٢٠٥٦٦٠٤٤٩٠٢٠١٢٠٠٠١٩٩

الهند : ٣٢٣

(و)

وادي القصارين بالمغرب : ٢٧١

واسط : ٨٠٠٧٧٠٧٥٠٧٤٠٧٠٠٥٢٠٤١٠٣٤

## الكلمات التي تدل على حوادث تاريخية هامة

٤٩١٠٣٣١٠٣٢٠

أهل الذمة : ٦١٢

أوربة — قبيلة : ٢٨١

الأوارج — أعراب أواره ومعناها

بالفارسية المنقول : ٤٧٦

(ب)

الباطنية : ١٦٩

البرامكة : ٤٣٤

البربر : ٦١٥٠٦١٤٠٤٥

البريديون : ١٠٦٠١٠٥٠٨٣٠٨٢٠٨٠٠٧٩٠٧٥

٢٠٤٠١٩٤

البنادقة : ٦١٧

البندار — كاتب السلعة، من مساعدي الوالي : ٤٥٤

بتو أمية : ٤٧٠٣٨٠١٩

بتو جمهور بقرطبة : ٣١٤

بتو هاشم : ٣٨٠٢٥

البيصيون بالعراق : ٨٤٠٨٣٠٨٢٠٧٤٠٦٣

٤٦٧٠٤٣٩٠٤٢٧٠٤٢٥٠١١٠٠٩٩٠٩٤٠٨٦

(١)

الإباضية — من الخوارج : ٣٧٢٠٢٣٤

الأتراك : ٢٠٢٠٢٠١٠١٩٠٠١٦٨٠١٦٤٠١٦١

٦١٤٠٤٦٧٠٤٦٦٠٤٦٥٠٢١٩٠٢١٨

الأتراك الغزية — أصحاب أرسلان بن سلجوق

في صحارى بخارى — ١٦٨

إخوان الصفا : ٥٦٤٠٣١٧

ازكوتكينية — فرقة من الفرسان المماليك في

جيش العباسيين : ٤٨٣

الإساعيلية : ٣٢١٠٣١٧٠١٦٨٠١٥٧٠١٣٤

٥٨٩٠٥٧٥٠٥٦٥٠٥٦٤٠٤٩١٠٣٥٦٠٣٣١

الأشروسنية — من طوائف العصر العباسي

الثاني : ٣٢

الأكراد : ٦١١٠١٩٣٠١٣٧٠١١٢

الأفلاطونية الحديثة : ٣٨٨٠٣٨٧

إمام : ٣٧١

الإمامية الموسوية — هم الاثنا عشرية : ٣١٩





صاحب البريد : ٤٥٧  
صاحب الدينة - يشرف على دخل الخليفة  
بالأندلس : ٤٨٩  
صاحب الزمان - لقب أئمة الإسماعيلية : ٤٣١  
صاحب الزنج - انظر على بن محمد  
صاحب السوق - انظر الحسبة  
الصفرية - من الخوارج : ٢٨١  
الصفوية - أنصار إسماعيل الصفوي بفارس : ٣١٩  
الصقالبة : ٦١٧  
الصك : ٤٧٧  
الصليحيين : ٣٥٤

(ط)

الطائيون : ٣٤٨  
الطغرغز - قبيلة تركية : ٢١١  
الطولونيون : ٦٢٣، ٤٤١، ٣٢٧، ١٤١

(ع)

العامل - لقب لصاحب الخراج : ٤٥٢  
العبيدين : ٣٥١، ٣٣٧  
عبيد الشراء - السودانيون في الجيش  
الفاطمي : ٦٥٨  
العتابية - نوع من الثياب : ٥٠٩  
العذاقرة - يؤهون أبا جعفر  
الشلغاني : ٣٩٣  
العقلاء - من الروحانيين : ٣٦٨  
العقيليون : ٣٥٤  
العلويون : ٧٣٠، ٤٧٠، ٣٩٠، ٣٧٠، ٣٠٠، ٢٣٠، ١٩٠  
٢٢١، ١٠٣

(غ)

غدير خم - عيد شعبي : ٦١٠  
الغز - أقوام في خراسان : ١٨٠، ١٧٩، ١٧٨  
١٨١  
الغزنويون : ١٦٢ - ١٨٣  
الغنيمة : ٤٧٧  
الغور - قوم في بلاد أفغانستان - ١٦٦

(ز)

الزوط : ٣٩٨، ١٩٠، ٢٤٤  
زواغة - قبيلة : ٢٨٠  
زغبة - قبيلة : ٣٥٧  
الزكاة : ٤٧٧  
زناتة - قبيلة : ٢٨٠، ٢٥٠  
الزنادقة : ١٩  
الزنج : ٣٧٦، ٣٧٥، ٣١٧، ١٨٧، ٤٣٠، ٤٠٠، ٣٧  
الزمام - ديوان بيت المال : ٤٥٥  
زمام القصر - وظيفة فاطمية : ٤٣١  
الزنج : ٢٢٦

(س)

الساجية - أتباع ابن أبي الساج : ٥٨  
آل ساسان : ٥٦٣، ٥٦٢  
السامانيون : ١٥١، ٥٢ - ١٦٢، ١٦٤، ١٩٥  
٥١٢، ٢٠٠، ١٩٦  
السبئية - يؤهون على بن أبي طالب : ٣٩٣  
سقطس - اسم للتصوفة : ٣٨٥  
السلاجقة : ١٩٤، ١٨٢، ١٧٨، ١٣٥، ١٢٢، ٦٣  
٥٩٢، ٣٥١  
أهل السنة : ٦٠٩، ١٣٦، ١٢٥، ١٠٨، ١٠٣، ٢٢٠  
بنو سهل : ٤٣٤  
السودان : ٦١٣، ٤٧٢، ٢٢٥  
سيد الملوك والسلاطين - أنظر يمين الدولة

(ش)

الشدة العظمى - في عهد المستنصر الفاطمي : ٢٦٦  
الشرطة الكبرى - في بلاد الأندلس : ٤٦٤  
الشرطة الصغرى - في بلاد الأندلس : ٤٦٤  
الشرطة الوسطى - في بلاد الأندلس : ٤٦٥  
الشيعة : ١٣٦، ١٢٥، ١٠٨، ١٠٦، ١٠٢  
٦١٠، ٦٠٩

(ص)

صاحب الباب : ٤٥٧

مجالس السعاة : ٣٦٣  
مجلس التقدير — ينظر في رواتب الجنود : ٤٦٧  
مجلس الشورى بالأندلس ٤٤٨  
مجلس المقابلة — لمراجعة سجلات الجيش ٤٦٧  
مسدد خاصة — قاضي بالأندلس : ٤٩٧

( م )

المرجئة : ٤٩١  
المسرورية : ٤٨٣  
المشبهة — طائفة دينية في بلاد الفرس ١٦٨  
المعتزلة : ٣٧٩، ١٨٣، ١٦٩، ١٦٨، ١٢٣، ١٩

٣٨٢

ذومعه — كعبة شيعية : ٣٧١  
المغاربية : ٤٦٦، ٩٤، ٣٥، ٢٣، ٣٢  
المهرجان : ٦٥٠  
المناجاة — اسم رسالة شيعية ٣٧١  
ميثاق ولي الزمان : ٣٦٩  
الميدان — اسم قصر أحمد بن طولون : ٥٩٣

( ن )

النسطوريون : ٥٦٣، ٥٦٢  
النصيرية — طائفة من غلاة الإمامية  
نقيب : ٤٦٧  
النوروز : ٦٥٣، ٦٥٢، ٦٥١

( هـ )

هادى المستجيبين — انظر حمزة بن علي  
البيت الهاشمي : ٣٥٦  
الهجرة — ضريبة فرضها حمدان قرمط على  
كل بالغ : ٣٢٥  
الهلالي — ضرائب تؤخذ على الكلاب وصيد  
السماك : ٤٨٣

( و )

الواسطة : لقب يشبه الوزارة في عهد الفاطميين : ٤٤٣

١٨٣، ١٧٨، ١٧١، ١٧٠، ١٦٧  
الغيبية الكبرى : ٣١٨

( ف )

الفاطميون : ١٣٧، ١٣٦، ١٣٤، ١٣٣، ١٠٨  
٤٢٩، ٢٤٧، ٢٣٩، ٢٣٦، ١٩٣، ١٦٨  
بنو القرات : ٤٣٤  
القراغنة — أهل فرغانة : ٤٦٦، ٣٥، ٣٣  
الفرس : ٢٢٣، ٢١٨، ٢٠، ١٩  
الفيوج — سعاة البريد : ٤٦١  
الفي : ٤٧٧

( ق )

قاضي القضاة : ٤٩١  
قاعة الذهب : ٤٣٠، ٤٣١  
القراطة : ١٠٥، ٩٣، ٨٢، ٥٨، ٥٦، ٥٢، ٤٧  
٢٥٩، ٢٥٨، ٢٥٧، ٢٥٦، ١٦٨، ١٥٦، ١٠٦  
٣٤٥، ٣٣٥، ٣٣٤، ٣٣٠، ٣٢٧، ٣٢٤، ٣١٧  
٦٠٩، ٣٤٨، ٣٤٧، ٣٤٦  
القلوني — قاش براق : ٥٠٩

( ك )

الكاتب — كاتب الرسائل بالأندلس : ٤٥٠  
كاتب الجهبذة — كاتب الزمام بالأندلس : ٤٥١  
كتامة : ٦١٣، ٣٣٤، ٢٤٨، ٢٤١  
الكرمية — مذهب : ٣٨٣

بنو كلب — قبيلة على مقربة من الرقة : ٣٢٧  
الكفلانية — من فرسان الجيش العباسي : ٤٨١

( ل )

اليانسية — من ممالك الجيش : ٤٨٣

( م )

المتصوفة : ٣٨٦، ٣٨٥  
متولى السواقي — مشرف على ضياع السلطان :

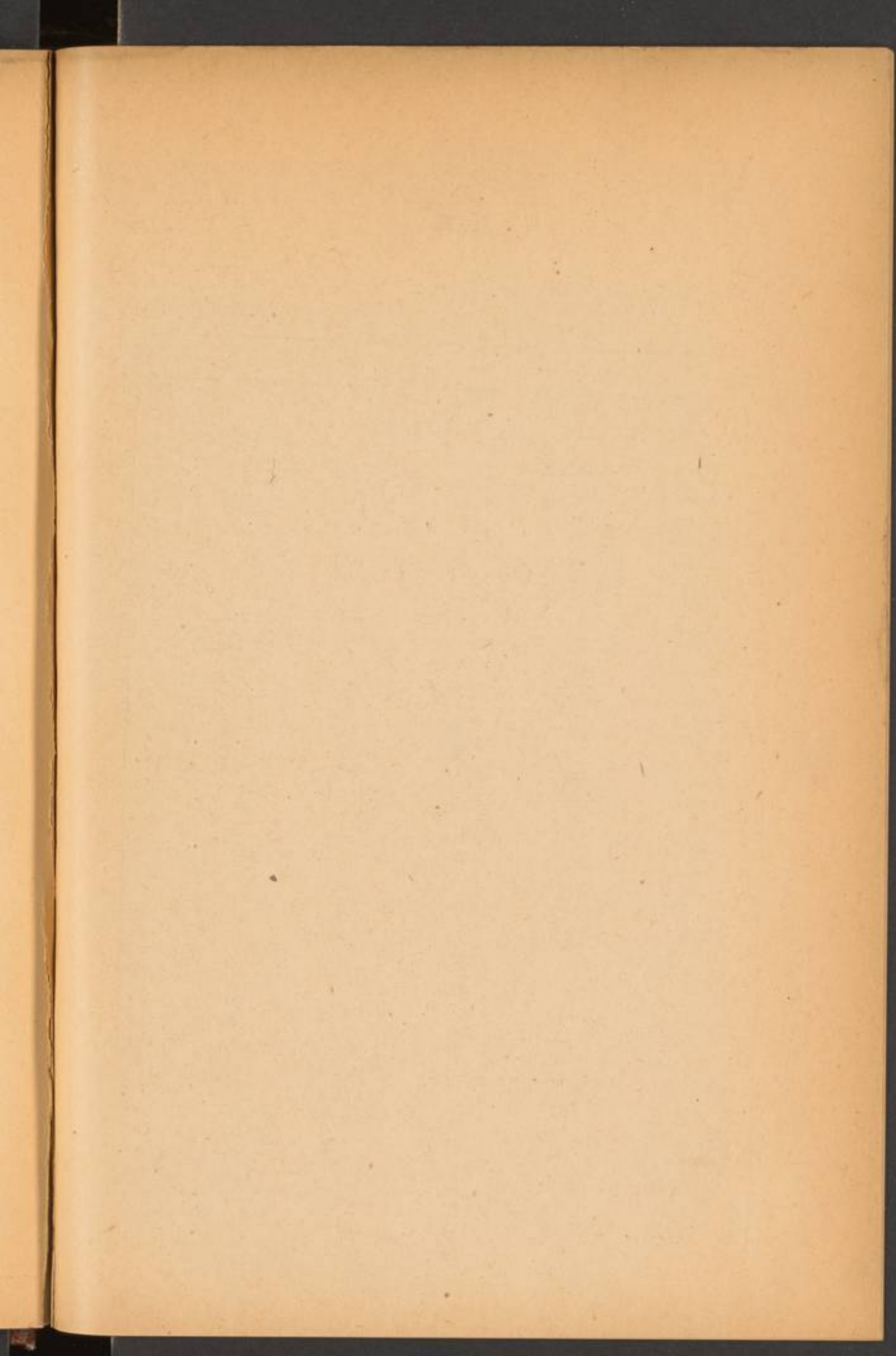
## كتب المؤلف

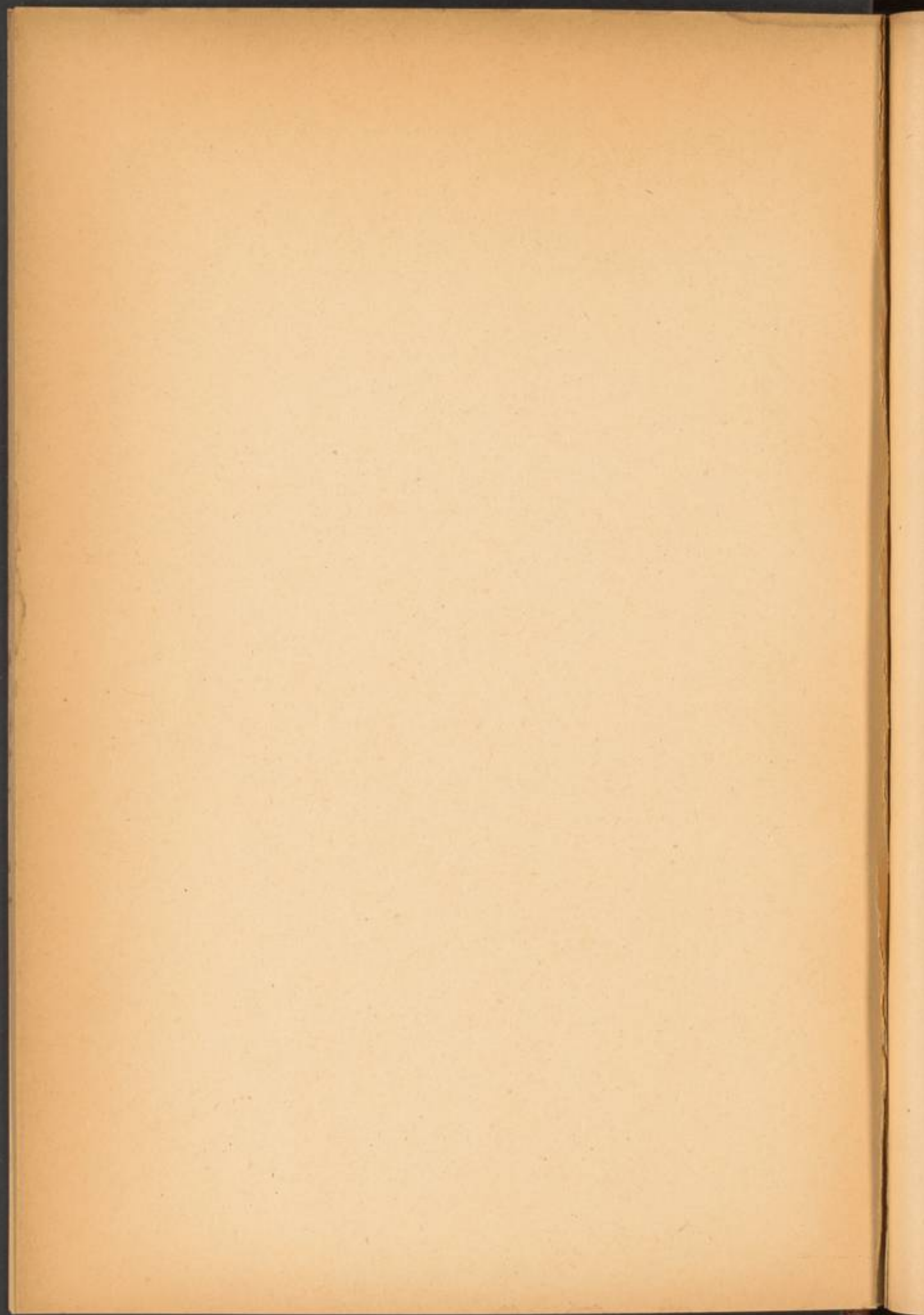
- ١ - تاريخ عمرو بن العاص ، الطبعة الثانية ( القاهرة ١٩٢٦ ) .
- ٢ - الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص ، ( المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٣٢ ) . وضعه المؤلف بالإنجليزية The Fatimids in Egypt, considered Chiefly in connection with their Politico—Religious Activities. وترجمه إلى العربية.
- ٣ - تاريخ العصور الوسطى في الشرق والغرب ، للسنة الثانية الثانوية ( بالاشتراك مع الأستاذ أحمد صادق الطنطاوى المفتش بوزارة المعارف ) الطبعة الثانية سنة ١٩٣٣ .
- ٤ - أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية ، تأليف الدكتور أودلف جروهمان Adolfe Grohmann : Arabic Papyri in the Egyptian Library. أستاذ الثقافة الإسلامية بجامعة براغ — ترجمه المؤلف إلى العربية ( دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٣٤ ) . وترجمه الجزء الثاني تحت الطبع .
- ٥ - السيادة العربية والشيعية والإسرائيليات في عهد بنى أمية ، تأليف فان فلوتن Van Vloten : Recherches sur la Domination arabe, le Chi' itisme et les croyances messianiques sous le Chilafat des Omayyades. ترجمه المؤلف عن الفرنسية إلى العربية وعلق عليه ، بالاشتراك مع الأستاذ محمد زكى إبراهيم ( القاهرة ١٩٣٤ ) .
- ٦ - تاريخ الإسلام السياسي ، الجزء الأول ، ويبحث في تاريخ العرب قبل الإسلام ، والبعثة النبوية ، والخلفاء الراشدين ، والدولة الأموية ، والحضارة العربية في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين ( القاهرة ١٩٣٥ ) — الطبعة الثانية ستظهر قريباً في عشرة أبواب بدلاً من خمسة مع إدخال كثير من الإضافات والتعديلات الجوهرية .
- ٧ - التنظيم الإسلامية ، بالاشتراك مع الدكتور على إبراهيم حسن ، مدرس التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ( القاهرة ١٩٣٩ ) .
- ٨ - المجلد في التاريخ المصرى ، نشره المؤلف ( القاهرة ١٩٤٢ ) وكتب فيه الباب الذى عنوانه مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى ، ص ١٢٧ — ٢٢٩ .
- ٩ - التنظيم الإسلامية للسنة التوجيهية ، قررت وزارة المعارف استعمال هذا الكتاب لطلبة السنة التوجيهية ، الطبعة الثالثة ( المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٤٥ ) .
- ١٠ - تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، الجزء الثانى — العصر العباسى الأول ١٣٢ — ٢٣٢ م = ٧٥٠ — ٨٤٧ م ( القاهرة ١٥٤٥ ) فى ٣٨٤ صفحة من القطع الكبير .
- ١١ - تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، الجزء الثالث ١٣٢ — ٥٤٤٧ م = ٨٤٧ — ١٠٥٥ م . فى ٧٠٤ صفحة من القطع الكبير والجزء الرابع يظهر قريباً إن شاء الله ويتناول تاريخ العالم الإسلامى من سنة ٤٤٧ هـ إلى زوال الدولة العباسية من بغداد على أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ ( ١٢٥٨ م ) .

## تصحیحات

نعتذر للقاری عن وقوع بعض أخطاء مطبعية لا نحفی علی فطنته ، راجین أن یتفضل باصلاحها قبل قراءة الكتاب .

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٠	٢٣	٣٥٦	٢٥٦	٢٣٢	٢٢	الفساط	القساط
٢٦	١٢	عبيد بن يحيى	عبيد الله بن يحيى	٢٧١	١	١٧١	٢٧١
٢٩	٢٧	فأخذوا	فأخذوا	٢٨٨	٢	٢٠٦	١٣٨
٣٠	٨	وأوما	وأوى	٢٩٠	٢٤	ابراهيم	إسحق
٣٨	١١	المنعم	المنعمى	٢٩١	١٨	اشهاد	اضطهاد
٥١	١٤	أبو	أبو الحسن	٢٩٦	٧	في عهده	في عهد
٥٢	٢٢	واليمين	تحذف	٢٩٦	١٠	سانشو	سانشو أو شانجة
٥٢	٢٧	يحيى بن	تحذف	٣٠١	١٤	وصف	وصفه
٥٨	٧	الجزرية	الجزرية	٣٣١	٣٢	Quatremère	Qutremere
٥٨	١٤	حضر	حفر	٣٣٥	٨	معاضة	معاضة
٥٨	٢٢	بمحبتته	بمحبتته	٣٤٩	١١	الملوبين	الملوبين
٦٣	٢٣	مرداويج	مرداويج	٣٨٠	٢٥	زار بن معد	زار بن معد
٦٧	١١	ينفقد	ينفقد	٣٥٦	١	جداده	جداده
٧٢	٢	علومه	علومه	٣٦٨	١	يسلمهم	يسلمهم
٨٤	٢	لأمير	لأمير	٣٧٩	١٨	آرائهم	آرائهم
١٠٣	١	عز	معز	٣٨١	٢٢	ماخلقت	ماخلقت
١٠٧	١٣، ١٢	معز	عز	٣٨٢	٥	فر	فسر
١١٥	٤	خلفه	خلفه	٤١٨	١٣	اذبيجان	اذبيجان
١٢١	٢	رواى	ورأى	٤٣٨	١	مسوب	مسوب
١٢٤	١٥	الذين	الذين	٤٦٤	٣	ح	حتى
١٢٥	٢١	عهد	عهد إليه	٤٦٧	١٠	عصر	في عصر
١٣٤	١	والفاطميين	والفاطميين	٤٦٧	٢٦	ابن العميد	ابن العميد
١٣٥	١٨	المطيع	القائم	٤٨٦	٢٦	فصره	فصره
١٣٦	٢	صاحباً	صاحب	٤٩٥	٢٠	وأزرعه	وأزرعه
١٤٣	١٠	٣٥٩	٣٥٩	٥١٨	١١	الدبنورى	الدبنورى
١٥٠	١٤	١٩٨	٢٨٩	٥٢٨	٢٨	سنة	سنة ١٩١٦
١٥٩	١٨	وايته	وبين	٥٣١	١٠	واعتبره	واعتبره
١٧٠	١٧	وكالنجار	وكالنجار	٥٤٨	٢١	والمالك	والمالكى
١٧١	١٧	قشير	قشير	٥٥١	٢٩	Browne	Browse
١٧٤	٢٢	نبال	نبال	٥٧١	٢	طبيب	طبيب
١٧٥	٣	والذين	والذين	٥٨٢	٣٢	الطبية	الطبية
١٨٠	١٢	٤٤٠	٤٤١	٥٨٥	٣٣	Margoliouth	Mirgoliouth
١٨٠	٢٢	٣٣٢	٤٣٢	٥٩١	١١	المعروف	المعروف
١٨٤	١١	مرداويج	مرداويج	٦٠٤	٢١	منذ	منذ
١٩٠	٢٥	والف	والف	٦٠٤	٣٠	نشالة	نشالة
١٩٢	٣٠	١٢٥-١٢٣	١٢٥-١٢٦	٦١٢	١١	مفصلا	مفصلا
٢١٥	١	٥٦٣	٩٦٣	٦٥٥	٢٢	—٢	تحذف
٢١٨	١٦	ايتاخ	ايتاخ	٦٦٨	٣٨	تسعة أبواب	عشرة أبواب
٢٢٢	١	التي	الذين				





# HISTORY OF ISLAM

Political, Religious, Cultural and Social

## VOLUME III.

### The Second Abbasid Period

In the East, Egypt, North Africa and Spain  
From the Accession of Al-Mutawakkil to the Establishment  
of the Seljuki Dynasty  
(232-447 A.H. = 847-1055 A.D.)

By

**Hassan Ibrahim Hassan**

D. Litt. (Cairo), Ph.D., D.Lit. (London)

Prof. of Islamic History, Head of the Department of History,  
Fouad I. University, Cairo.

---

*Published by :*

**The Renaissance Bookshop**  
9, Adly Pacha St., Cairo, Tel. 51394

---

AL-ETTEMAD PRINTING PRESS, CAIRO.



